وراء كل باب

الإنفجار الجنسي في مصر

تأليف

ياسر أيوب



وراء كل باب

الانفجار الجنسي في مصر

تأليف

ياسر أيوب



الغلاف للفنان

عبد العال

الطبعة الأولى

يناير ١٩٩٥



دار سفنكس للطباعة والنشر والتوزيع
٧٦٠٢٨٥ ـ ٧٦٥٧٤٢ ـ ٣٩٢٨٥٦٩

إهداء

إلى سها سعيد ندا

..

من أجل بيت

هادئ آمن نبنيه معا

من أجل حب

لا تدوسه أقدام الخوف والسقوط والمرارة

من أجل مستقبل

لا تفقد فيه طفلتنا الصغيرة

أحلامها والعابها وإبتسامتها وبراءتها

وعلبة الوانها

..

ياسر أيوب

دعــــوة

هذه الدار

هى دار نشر حرة تعتبر ملتقى لكافة الكتاب المصريين والعرب من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية والقومية .

وهى تدعوهم جميعا لكى تنشر آرائهم وأفكارهم وميولهم واتجاهاتهم الفكرية المتباينة دون حظر أو إضافة أو تعقيب .

وهذه الدار مستقلة تماما لا يقودها تيار محدد وإنما يحدوها الأمل فى أن تكون مركز إشعاع فكرى مستنير ومؤثر لخدمة وطننا وعالمنا العربى الحبيب .

« الناشر »

فهرست

الصفحة

إعتذار إلى مصر

تركت مخبئى
لألقى نظرة على بلادى
ليس هذا عطشا للجنس
إننى أؤدى واجبا مقدسا

أحمد عبد المعطى حجازى
قصيدة : كائنات مملكة الليل

أنا لا أتهم مصر بالزنا !

فقط أخاف أن تزنى .. أن تتعرى .. أن تسقط .

أخاف من إنفجار جنسى مفزع ومخيف .. قد يأتى غدا أو بعد غد .

أخاف أن تتحول مصر إلى ملهى يرتعش فيه جسد يتعرى .. مغارة مظلمة تضل فيها حتى الملائكة .. سوبر ماركت يبيع الخطايا والذنوب .

قد تكون هذة المخاوف موجعة ومهينة وقاسية .

لكنها واقع يتعين علينا جميعا أن نحياه .. نتأمله .. نراجعه .. نخاف منه .

واقع لن تعترف به نشرات الإعلام الرسمية المتفائلة دائما دونما سبب .. ولن تنحاز إليه ملفات الامن العام ومحاضر الشرطة التى لا ترصد ما فى أعماق الناس أوما يسكن تحت جلدهم .. واقع لن نجد صداه .. رائحته .. صرخاته .. داخل أروقة الحكومة والبرلمان .. مستحيل أن نرى بقاياه أو تفاصيله داخل سلة قمامة أى مسئول .. ولن يقبله أو يفهمه .. كل من إعتاد الكلام والاحلام وتعاطى الحياة والتفكير بوجهة النظر الرسمية .. أو كل من إعتاد أن يغلق عينيه فلا يرى إلا مايريد ولايسمع إلا مايحب .. وإنما لن يراه ولن يلمسه إلا كل من يخرج إلى الشارع .. من يجيد قراءة دفاتر يوميات بيوت الغلابة والاغنياء .. من يضطر إلى قراءة صفحات الحوادث المكررة بالصحف اليومية ليس من أجل التسلية فى وقت الفراغ وإنما كمحاولة للتفتيش عن هموم الناس وأحوالهم وحقائق حياتهم .

واقع يؤكد أن تحت جلد مصر .. فى بيوتها وشوارعها .. تراكمت أسباب ومقدمات وتباشير إنفجار جنسى فى طريقه لأن يطرق أبوابنا .. ولا أقصد مطلقا بذلك الإنفجار مجرد شبكة جديدة أو الف شبكة للدعارة .. لا أقصد فتاة المعادى التى إغتصبها ستة ذئاب أو فتاة العتبة التى إغتصبها أوتوبيس .. ولا أقصد أيضا ملفات أرشيف الأمن العام التى تضخمت عاما بعد عام بقضايا الآداب وجرائم هتك العرض .

القضية ليست هى الدعارة ومن تمارسها .. ولا هى الإغتصاب ومن يلجأ إليه .. ولاهى الزنا وممارسة الخطيئة وراء جدران بعيدة عن عيون الآخرين .. فليس هناك من يجرؤ أن يحلم بمجتمع مثالى لاتتعرى فيه النساء ولايزنى بهن الرجال .. والتاريخ شاهد دائم أبدى على أن الجنس وإثارته وغرائزه ورغباته وجرائمه وفضائحه .. تلازمنا وتصاحبنا وتتنقل بنا من أرض إلى أرض .. ومن جيل إلى جيل .. تتغير التفاصيل والاسماء والملامح .. لكن تبقى الرغبة التى تفتتح الطريق إلى الخطيئة .. الخطيئة التى تؤدى إلى الجريمة .. الجريمة التى تنتهى بالسقوط .

وأبدا .. لم تكن مصر – ولن تكون – إستثناء من ذلك كله .. فى كل أيامها وعصورها .. ومنذ أيام الفراعنة الاولى كان هناك الجنس وكانت هناك الدعارة .. ولكن حتى فى أحط العصور وأكثرها إمتهانا للأخلاق والدين والجسد . إلتزمت مصر بذلك القانون الاخلاقى غير المكتوب الذى إحترمه الجميع وأقره الجميع .. قانون يحدد بوضوح ودقة الفارق بين الحب والجنس .. بين الزنا والدعارة .. فلكل كلمة معنى وتعريف مختلف .. العاشقة كانت هى المرأة التى تحب .. العشيقة هى التى تزنى .. أما الداعرة فهى التى تقبض الثمن .

.. اليوم

تخرج مصر على القانون .

اليوم تتشابه الاوراق والصفات والمعاني .. يختلط الحب بالزنا بالشوق بالصداقة بالرغبة بالعشق بالدعارة .. وأصبح من الممكن فى مصر التسعينات أن يتزوج شاب من فتاة يكتشف ليلة الزفاف أنها ليست عذراء .. لايصدمه ذلك ولايصدمنا قدر أن تؤكد الفتاة أنها ليست آسفة على ذلك وليست نادمة أو حزينة .. وفى قسم الدقى .. وفى محضر تحقيق رسمى .. وقفت تلك الفتاة ترفض التنازل عن حقوقها كمطلقة .. بل ووقفت تسخر من زوجها الشاب الرجعى المتخلف الغبى الساذج الذى لايساير العصر وقوانينه وقيمه الجديدة .

هل تغيرنا إلى هذا الحد ؟!

منذ سنوات قليلة كانت الفتاة التى تفقد بكارتها .. تفقد معها كرامتها وكبرياءها وإحترامها .. وأحيانا تفقد حياتها نفسها .. وحتى الامس فقط .. كانت الفتاة التى فقدت بكارتها تذهب إلى طبيب تشترى منه غشاء بكارة جديد تقدمه لزوج يتوهم أنه الرجل الاول فى فراشها .. اليوم تذهب الفتاة إلى زوجها فى ليلة الزفاف بدون بكارة .. بدون براءة .. بدون خجل .

أعترف أن مثل تلك الفتاة حالة إستثنائية

لكن مامعنى أن تسكن أوراقى أكثر من الف حالة إستثنائية ؟!

وهل أصبح إستثناء كله ذلك المستقبل العارى الذى يقف هناك فى إنتظارنا ؟!

إننى بدلا من أربعة شهود عدول تكتفى بهم الشريعة الاسلامية لاقامة أية دعوى للزنا .. أملك الف شاهد يكفون لاقامة دعوى بالحجر والرجم على كل من لايخاف مثلى أن تتعرى مصر وأن تزنى .

أنا لاأتهم مصر بالزنا .

لكن يبدو أن هناك من يريد لها ذلك .. هناك من يسمح لها بذلك .. بل وهناك أيضا من يبدو أنه لن يعترض على أن تبدأ مصر خلع ملابسها قطعة قطعة .. وأنا أملك أكثر من دليل أواجه بهم الكثيرين – من أصحاب الاصوات العالية دائما – الذين إحترفوا الاعتراض والصراخ والتأكيد على أن كل مايحدث فى شوارع مصر وبيوتها مجرد حالات فردية إستثنائية .. وأن مصر بخير .. وهى قادرة أبدا على أن تحتفظ بعفتها ووقارها وبكارتها .. إنهم الذين إعتادوا تعليق أية مخاوف أو خطايا على شماعات المؤامرات الخارجية والداخلية .. الشرذمة والقلة الحاقدة .. العملاء والخائنين .

وأنا أعرف مقدما أننى لا أخوض حربا واحدة ضد واقع جارح وحزين .. بل هناك حرب أخرى – قد تكون أكثر شراسة وعنفا – ضد أصحاب تلك الاصوات العالية .. أولئك الذين لايبدأون المواجهة إلا بعد اللحظة الاخيرة .. وغالبا بعد ضياع أو إنهيار كل شئ .. أولئك الذين إرتكبوا رذيلة الصمت مرتين .. وفى كل مرة كان الثمن غاليا وقاسيا .

مرة كادت مصر أن تصبح وكرا للمدمنين .

وفى المرة الثانية إرتعشت الشوارع والبيوت – ولا تزال – بعد أن أصبح هناك بيننا من يفضل الرصاص لغة للحوار .. والقنابل أسلوبا للنقاش .. وكأن العنف تحول إلى قانون يخضع له الجميع .. والإغتيال هو أسهل الحلول لكل مشكلة وكل أزمة .

واليوم .. لم يعد من الممكن أن نرتكب نفس الرذيلة .. رذيلة الصمت والإستسلام .. للمرة الثالثة .

مستحيل أن نسمح بدعوى الحفاظ على إسم مصر .. أن تغرق مصر فى بحار الجنس والخطيئة .

أنا شخصيا قررت أن أرفض الصمت والإستسلام .. وإخترت أن أقول كلمتى وأقدم شهادتى وأحكى – قدر إستطاعتى – كل ما شاهدته وإكتشفته وأحسست به وخفت منه كثيرا وطويلا .. حتى بدا لى هذا الكتاب فى النهاية وكأنه آخر خطوات طريق شاق وطويل مشيته عشرة أعوام كاملة .. كانت أولى خطواته فى مدينة الزقازيق .. بالتحديد فى أحد أيام شتاء ١٩٨٤ .. حين ذهبت مع أحد أصدقائى إلى عيادة أحد الاطباء .. حيث كان صديقى يعيش قصة حب مع زميلة له .. وكانت المشكلة أنه أحبها أكثر من اللازم .. ففقدت الزميلة بكارتها .. وأصبح من الضرورى أن نذهب إلى هذا الطبيب الذى وافق على أن يرد لزميلتنا غشاء بكارتها الضائع مقابل مائة جنيه فقط .. ولما كنت – فى ذلك الوقت – طالبا يدرس الطب .. فقد سمح لى الطبيب صاحب العيادة أن أدخل غرفة الاسرار أو غرفة الجحيم .. حيث قوائم الاسماء والوجوه التى عليها أن تنتظر .. ومن المؤكد أننى خرجت من تلك الغرفة ليس كما دخلتها .. لقد كانت خمس دقائق لا خمس ساعات فى تلك الغرفة تكفى جدا لأن تتبدل وتتغير أشياء كثيرة .. فقد رأيت فى تلك الغرفة وجوها لفتيات كنت أعرفهن .. جئن من بيوت عريقة وعائلات كريمة .. يمتلكن الجمال والثقافة والحياة الناعمة والثروة القادرة على تحقيق كل الاحلام .. كلهن جئن يبحثن عن غشاء بكارة ضائع .. أو من أجل الخلاص من حمل ثقيل غير مرغوب فيه .

لم أنس ذلك اليوم حتى الان .. ولاأعتقد أننى سأنساه مطلقا .

لن أنسى أيضا كل ما شاهدته وعرفته بعد أن إنتقلت إلى القاهرة طبيبا لا طالب طب .. وكيف تكاثرت أمامى وحولى عشرات الحكايا التى كنت التقطها من أفواه أولئك النساء العواجيز حكيمات قسم أمراض النساء والتوليد .. غير ما شاهدته وعشته بنفسى بعد أن شاءت المقادير أن أتنقل للعمل بأكثر من مكان .. وبعد أن كنت طبيب الإسعاف فى كثير من أحياء القاهرة .. وكيف دخلت مئات البيوت .. وإطلعت على مئات الأسرار .. ولا أزال أذكر إحدى ليالى شتاء القاهرة عام ١٩٨٧ .. حين كنت الطبيب المسئول عن الإستقبال فى إحدى المستشفيات الحكومية فى حى شهير وعريق .. وفى الثالثة صباحا .. جاء إلى الاستقبال رجل ضخم الجسم قاسى الملامح .. الرجل لايشكو ولايعانى جرحا أو ألما .. لكنه طلب الانفراد بى .. وفى أحد الاركان فوجئت بالرجل ينهار باكيا .. إنه عاجز منذ عشرة أيام على ممارسة الجنس مع زوجته .. ولم أدر يومها ماذا أقول له .. لكنى لم ولن أنسى قسوة بكاء رجل وإنهياره بسبب عجز جنسى مؤقت .. تأكدت يومها – وفى أيام كثيرة وبعد حكايات أكثر – أن الجنس فى حياتنا .. إختصار لحياتنا.. حدث إستثنائى .. غريزة لاتشبهها أى غريزة أخرى .. رغبة متوحشة قاهرة وقادرة .. هو ضعفنا وقوتنا وسلاحنا وسلامنا وإنهيارنا ونجاحنا .

.. وبدأت الرحلة .

وكان لابد وأن يأتى يوم أكتب فيه هذا الكتاب.

كان لابد أيضا أن أبدأ بالكتب .. مئات الكتب .. دراسات وأبحاث وتقارير .. أسئلة كثيرة حائرة تفتش داخلى عن إجاباتها .. وأنا معها أفتش عن دور الجنس فى حياتنا .. عن معناه وقيمته ودوره ومساحته فى مصر .. ولم تكن المهمة سهلة مطلقا .. بل كانت شاقة ومضنية ..

والأسباب كثيرة .. إما أسباب تتعلق بالجنس نفسه وأسراره وقضاياه وبمحاولة الكتابة عن تلك الأسرار والقضايا .. وإما أسباب تتعلق بنا نحن كمصريين وعاداتنا وتقاليدنا وطقوسنا وغرائبنا وتناقضاتنا .

فأما تلك الأسباب التى تتعلق بالجنس نفسه .. فلعله من المثير للإرتباك والدهشة .. أن نكتشف أن الجنس الذى هو غريزة أساسية عرفتها الأرض منذ أن عرفت الإنسان .. فإن دراسته – بالرغم من ذلك – أصبحت آخر وأحدث العلوم التى عرفها ومارسها الإنسان .. بل إن الناس لم تقرأ عن الجنس دراسة واحدة متخصصة أو كتابا علميا جادا إلا فى عام ١٩٠٧ .. وكان هو الكتاب الذى قام بتأليفه الدكتور الألمانى إيفان بلوخ والذى تخصص طويلا فى مجال علاج الأمراض الجلدية والتناسلية قبل أن يلتفت إلى عالم الجنس الساحر الغامض والمثير فيؤلف كتابه هذا ويسميه الحياة الجنسية فى الوقت الحاضر وعلاقتها بالثقافة المعاصرة .. وفى هذا الكتاب .. إقترح بلوخ لأول مرة فى التاريخ تأسيس علم للجنس .. فقد كان كل ما يعرفه الناس عن الجنس حتى ذلك الوقت لم يكن أكثر من طقوس وعادات وأسرار تنتقل – بنفس غموضها وحيرتها وتناقضاتها وأخطائها – من جيل إلى جيل .. ومن المؤكد أن إقتراح الدكتور بلوخ ودعوته لتأسيس علم الجنس .. قد لاقت تأييد كثير من الأطباء والعلماء بقدر ما لاقت صعوبات وإعتراضات إجتماعية ودينية وأخلاقية .. فالجنس دائما وفى كل زمان أو مكان .. كان من المحرمات التى يصعب الخوض فيها مهما كانت ثقافة العصر ومهما كانت القوانين والضوابط الدينية ومهما تحررت قواعد السلوك الإجتماعى والمفاهيم الأخلاقية .. وليس من أجل ذلك فقط كانت ولادة علم الجنس صعبة وشاقة .. وإنما .. وكما يقول كون (١) .. كانت ولادة علم الجنس هى الأصعب مقارنة بولادة باقى العلوم الإنسانية .. لأن الجنس ليس فقط علاقة بيولوجية فقط بين إنسان وآخر .. وإنما هو علاقة إجتماعية مع آخر أو آخرين .. وبإمكان أى إنسان أن يأكل ويشرب بنفسه .. لكنه فى الجنس سيتشارك مع هذا الآخر .. أى أن الجنس هو الغريزة البشرية الوحيدة التى لا يمارسها الإنسان منفردا .. وهو أيضا الغريزة التى قد يمارسها الإنسان دون حاجة أو إضطرار .. الإنسان الذى – كما رآه الآن فروم (٢) – هو الحيوان الوحيد الذى لا يملك فصلا للتزاوج وبإستطاعته ممارسة الجنس طول العام .. ولهذا فإن مشاكل الجنس باتت فى حقيقتها إختصارا لمشاكل الإنسان الفرد الطبية والجسدية والنفسية .. بقدر ما هى أيضا إختصار لمشاكل المجتمع الدينية والأخلاقية .

ولهذا .. كان من الطبيعى أن يتأخر تأسيس علم الجنس كل هذا الوقت حتى تنضج باقى العلوم الأخرى كالطب وعلم النفس وعلم الإجتماع .. أيضا تأخر تأسيس علم الجنس لأن كل الإهتمام فى بادئ الأمر إنصب على دراسة الحالات والرغبات والإحتياجات الجنسية الشاذة .. وقد كانت مثل تلك الدراسة من الإثارة بحيث سرقت إهتمام وإنتباه معظم الأطباء الذين تخصصوا – على إستحياء – لدراسة الجنس ومواجهة مشاكله .. أطباء مثل الطبيب الإنجليزى هنرى هافلوك إيليس والطبيب الألمانى البرت مول وعالم النفس النمساوى سيجموند فرويد .

ولم يلتفت أحد إلا بعد وقت طويل جدا إلى دراسة الجنس عند البشر الأسوياء .. وبمجرد البداية .. توالى طوفان الأبحاث والدراسات والكتب .. وبدأنا نمتلك تفسيرا علميا للرغبة .. ولم

(١) أ . س . كور – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢
(٢) الآن فروم – القدرة على الحب – بوكيت – نيويورك – ١٩٧٤

تعد النشوى طلسما غامضا لا نعرف أسرارها أو حقيقتها .. ولا العجز الجنسى عند الرجل أو البرود الجنسى عند المرأة .. ولا أوجاع الجماع ومشاكله .. وإن كان هذا الطوفان لا يعنى أن الجنس تحول إلى علم سهل باتت حقائقه واضحة فى متناول الجميع .. أو أننا أخيرا إطلعنا على كل الأسرار .. وإنما بقى الجنس فى النهاية مشكلة لا يزال حلها يحتاج إلى الوقت .. إلى كثير من الوقت .. ولا تزال هناك قضايا معلقة لم يتم بعد حسمها نهائيا .

كل ذلك لأننا تأخرنا .. تأخرنا كثيرا فى محاولتنا لأن نعرف .. ولأننا بخلنا كثيرا بالجهد والمعاناة من أجل أن نعرف .. وهذا هو ما إستوقف واحدا من أكبر فلاسفة العصر الحديث الذين إهتموا بالجنس وبدراسته هو الفيلسوف هربرت ماركيوز الذى قال (١) .. لكم أضعنا كثيرا من الوقت منذ أن وجد الإنسان لنعرف شكل العالم الآخر الذى ينتظرنا .. وبقدر ما كانت محاولاتنا الفاشلة لنتعرف على ملامح هذا العالم الآخر شاقة .. بقدر ما كانت معرفتنا لهذا العالم الذى نعيش فيه بالفعل ضئيلة وقليلة .

ولهذا .. ليس بوسع أحد فى هذا العالم أن يدعى أنه يعرف الكثير عن الجنس .. أو بإمكانه أن يتخيل حجم المشاكل التى قد يلاقيها ستة ملايين من البشر يمارسون الجنس فى كل لحظة يعيشها هذا العالم وفقا لآخر الإحصائيات والدراسات (٢) .

أما الذى هو أكثر صعوبة ومشقة .. وأكثر ما يحيرنا ويربكنا .. فهو كل تلك الخلافات والإختلافات والفوارق فى العادات والمشاكل الجنسية بين عصر وعصر .. وبين جيل وجيل .. وبين شعب وشعب .. فإذا كان العالم كله من حولنا يعيش ويعانى من مشكلة جنسية حادة وقاسية .. فإن المشكلة هنا فى مصر تصبح أكثر حدة وأكثر قسوة .. مشكلة يراها الدكتور جمال ماضى أبو العزايم (٣) كواحدة من أصعب مشكلاتنا .. لأنها مشكلة المجتمع الذى يحاصر الفهم ويفرمل المعرفة .. معتقدا أنه يحمى الفضيلة .. ولا يصدق أنه لا حياء فى الدين ولا فى العلم .. ومع أن مجتمعنا يقول ذلك ليل نهار .. إلا أن الكلام شئ .. والفعل شئ آخر .

وأعتقد أن الدكتور جمال أبو العزايم على صواب تماما .. فنحن بالفعل مجتمع لا يشجع على الفهم أو يساعد على المعرفة .. خاصة إذا تعلق الأمر بالجنس الذى هو عقدتنا المزمنة وخجلنا الدائم وغدة حساسيتنا المفرطة التى ما إن يطالها أو يلمسها أحد .. حتى نعجز عن الرؤية والكلام والتفكير والفهم أيضا .. ولعل هذا هو السبب فى أن دراسة الجنس فى مصر تكاد تكون دراسة مستحيلة .. لا يضطر إليها إلا طلبة الدراسات العليا فى بعض الجامعات والمعاهد .. وكلها تتشابه فى النهاية حتى فى موضوعاتها .. فهى إما تتناول حياة البغايا القابعات فى السجون .. وإما الرجال المتهمون فى قضايا الإغتصاب وهتك العرض .

وكأن الجنس فى مصر قد تم إختصار مشاكله وأزماته فى سلوك العاهرات وقضايا الإغتصاب فقط .

وهذا ليس صحيحا للأسف .

فمساحة الجنس فى حياتنا وفى بلادنا أكبر مما نتخيل أو نتوهم .

لو توقفنا أمام أى جريمة قتل .. سنجد الجنس دافعا لكثير منها

(١) هربرت ماركيوز – الحب والحضارة – ترجمة مطاع صفدى – دار الآداب – بيروت – ١٩٧٠

(٢) تيم ويب ، سارة بريوير – الجنس – رافيتى – لندن – ١٩٨٧

(٣) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

لو فتشنا عن سبب زيادة الطلاق فى مصر .. سنجد الجنس سببا رئيسيا

لو تساءلنا عن سر نجاح كثير من النجوم .. سنجد الجنس وسيلة النجاح .

لو أنصتنا إلى أحاديث النساء الخاصة والرجال أيضا .. سنجد الجنس غالبا هو موضوع الحوار .

لو أردنا الانتقام من رجل أو إمرأة .. يكفينا التشكيك فى رجولة الرجل .. أو إتهام المرأة بسهولة الانقياد إلى أقرب فراش

بل إننا حتى لو فتشنا فى أسباب أشهر هزائمنا الكروية .. لكان الجنس هو السبب غير المعلن .

وهذا ما يؤكده الدكتور عبد الرحمن نور الدين حين يقول (١) .. نظرة لحياتنا اليومية .. تبين لنا مدى ترسب الجنس داخل نفوسنا .. ومدى إنطباع ذلك على تصرفاتنا .. إعلانات تملأ الشوارع عن مستلزمات البيت العصرى .. وأفلام سينما وفيديو ومسرحيات .. كلها تنطوى بشكل ما أو بآخر على ملامح جنسية .. بل وأحيانا لا تنتهى الإجتماعات العلمية الجادة إلا وقد ورد تلميح أو كلام عن الجنس على شكل نكات أو قفشات تقال لتخفيف حدة الملل وإعادة الحيوية إلى الإجتماع .

حتى الزحام الذى نعانى منه .. تحول إلى أزمة جنسية أيضا .. فنحن نعيش فى بلد يفيض بأهله .. بيوت مزدحمة وشوارع أكثر إزدحاما .. البيوت فى أحياء مصر العشوائية أدخلتنا نادى زنا المحارم .. أما الشوارع فقد علمتنا أخلاقيات وسلوك الزحام .. وأصبح لدينا ٢٠٢ الف و٧١٥ مشاجرة سنويا فى الشارع بسبب الزحام (٢) .. أى بمعدل ثلاثة وعشرين مشاجرة فى الساعة الواحدة .. وليس تلك الارقام هى مايعنينا من سلوك زحامنا .. إنما يعنينا أكثر ويخيفنا أيضا العلاقة بين الزحام والجنس (٣) .. علاقة تجئ إلينا من مدينة نيويورك .. حيث قام العلماء بإجراء تجربة لبيان مدى تأثير الزحام على السلوك .. وضعوا مائة فأر فى مساحة خمسين مترا بحيث يضم كل بيت زوجين فقط من الفئران وتركوا الفئران شهرا كاملا .. وكانت النتيجة أن الفئران عاشت معا بمنتهى الالتزام .. كل منها كان ينتظر دوره لينال نصيبه من الطعام .. والاهم .. لم تحدث أية إعتداءات أو إنحرافات جنسية طيلة الثلاثين يوما .. وحين قام العلماء بوضع نفس الفئران فى مساحة تبلغ نصف المساحة الاولى .. أصيبت بعض الفئران بحالة عصبية .. ظهرت الخلافات .. إنتشرت القذارة وعرف الفئران الخيانات الزوجية .. وفى الجزء الثالث من التجربة .. تم إحتجاز الفئران نفسها فى مساحة لم تتجاوز الاثنى عشر مترا ونصف المتر .. وبعد ثلاثين يوما .. زاد إستهلاك الطعام .. فقل نصيب كل فأر منهم .. فإنتشرت الامراض .. وبدأت ظاهرة السرقة .. وإنفصل الازواج بعضهم عن بعض .. وأصبحت العلاقات الجنسية تتم فى سفور وإباحية .. وأخيرا .. تعلمت الفئران الشذوذ الجنسى !.

بالتأكيد .. نحن لسنا فئرانا .. لكن هذا لايمنع أن بعضنا تعلم السرقة .. بعضنا لم يعد يخجل من إباحيته وسفوره .. قليلون إختاروا ممارسة الشذوذ النفسى والجنسى .. أو اضطروا إليه .. كثيرون كانوا ضحية الزحام وقسوته .

(١) د. عبد الرحمن نور الدين – العلم والجنس – دار الهلال – ١٩٩٠

(٢) وزارة الداخلية – تقرير الأمن العام – ١٩٩١

(٣) جريدة أخبار الحوادث – عدد ٢٨ / ٥/ ١٩٩٤

وإذا كنا قد نصبنا السيرك الاعلامي العنيف في "مولد " الانسة شاهيناز عبد العزيز محمود بعد حادث أوتوبيس العتبة الشهير فى الساعة الحادية عشرة مساء ليلة التاسع عشر من مارس ١٩٩٢ .. فإنه من الضرورى التأكيد على أن شاهيناز ليست أول فتاة أو آخر فتاة تتحول إلى إحدى ضحايا أوتوبيسات القاهرة المعجونة بالناس والرغبات والكبت والمعاناة .. عشرات الفتيات يعشن يوميا تلك التجربة المهينة التى يسميها القانون هتك العرض أو خدش الحياء العام .. فتيات يدفعن وحدهن ثمن أن يتحول بعض شباب مصر ورجالها إلى فئران .. وهن قطعا يختلفن عن فتيات من نوع آخر ومن عالم آخر .. فتيات لايدفعن ثمن رغبة أحد .. لكنهن - بمهارة وجرأة - يأتين بمزيد من البنزين فوق كومة الاعصاب والشرايين المحترقة مقدما .. فتيات من ذلك النوع الذى يتعرى دائما دونما مقابل ودونما سبب أيضا .. من ذلك النوع الذى إستورد المايوه البرازيلى وجاء به إلى شواطئ العجمى .. من ذلك النوع الذى يذهب فى المساء إلى المغارات شبه المظلمة الساكنة تحت أشهر فنادق القاهرة .. وتشهد مثل تلك الليالى مسابقات "رسمية " للرقص بمختلف أنواعه ومسابقات أخرى أكثر إثارة وضرورة فى سرقة العيون ونسف الاعصاب واللعب بين الجنسين بأوراق مكشوفة وسيقان وصدور مكشوفة أكثر .. ومن قبيل الوهم أن نتخيل أن ذلك النوع من الفتيات لاينتمى إلا للطبقة الثرية الناعمة فقط .. وإنما هن فتيات من كل الطبقات والنواحي والفئات .. قد يجمع بينهن أن معظمهن طالبات فى الجامعات والمعاهد العليا .. لكن من المؤكد أن جميعهن تشاركن وتشابهن فى رحلة البحث المجنون والمحموم عن السعادة والحرية التى لاحدود لها أو قانون .

وهذة تجربة لم أكن لاصدقها لولا أن شاهدتها بنفسى .. وكانت فى أحد أحياء القاهرة .. حين تأتى ليالى الشتاء ومعها الكثير من السيارات .. فتصطف السيارات أمام إحدى المدن الجامعية المخصصة للطالبات وبداخلها شباب تكويه الرغبة ويقوده الجنس المتوحش ويحكمه من رأسه وحتى قدميه .. ويبدأ هؤلاء الشباب فى إطلاق كلاكسات سياراتهم .. عدد الكلاكسات هو مايتناسب مع عدد الشباب فى كل سيارة .. وبعد عشر دقائق .. تبدو الفتيات قادمات من بعيد فى زيهن المحتشم الوقور الذى سيتم الاستغناء عنه منذ اللحظة الاولى داخل كل سيارة وإستبداله بزى آخر أكثر إثارة .. أكثر ملائمة لسهرة عارية فى أقرب - وغالبا أرخص - ملهى ليلى أو ديسكوتيك !.

وبالطبع لم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما كان هناك بعض الأطباء الذين تخصصوا وإحترفوا مداواة السقوط وتقديم غشاء بكارة جديد لكل من تستطيع أن تدفع الثمن .

وفى مناخ كهذا .. أصبح من الضرورى ومن الطبيعى أن يتغير مفهوم حتى الدعارة فى مصر وأن يتغير شكل العاهرات ودوافعهن لإختيار مثل تلك الحياة العارية والفاضحة .. وأن يتغير القوادون أيضا وطبيعة نشاطهم وسلوكهم .. وبعد أن كانت عاهرات مصر فى بداية الستينات هن فى معظمهن خادمات وخياطات وممرضات وصاحبات أعمال كتابية ويدوية متواضعة .. أصبحت عاهرات اليوم هن طالبات الجامعة وخريجاتها وأحيانا مدرساتها أيضا .. ومعهن فتيات مثقفات وزوجات رجال أثرياء .. وبعد أن كان القوادون فى الستينات من العاملين فى المقاهى أو سائقى سيارات الأجرة أو الترجمانات .. أصبح القوادون اليوم من الأطباء والمحامين والمهندسين والمدرسين وطلبة الجامعة ورجال الأعمال .. ولعل أحدا لم ينس الدكتورة فادية أستاذة كلية

الزراعة صاحبة الشبكة الدولية الانيقة التى لم تجتمع إلا فى الفنادق صاحبات النجوم الخمس .. مثلها مثل الطبيب الكبير بمصر الجديدة الذى كان يدير إحدى شبكات الدعارة الكبرى بمعاونه سيدة أعمال .. والمحامية التى تم ضبطها - أيضا فى مصر الجديدة - تدير شبكة أخرى .. بل وباتت هناك أيضا شبكات دعارة عربية .. قوادوها وعاهراتها من العرب وليس بينهم مصرى أو مصرية واحدة .. ونقرأ فى محاضر الشرطة الرسمية .. ما يؤكد التغيير المروع الذى شهدته - ولاتزال - خريطة الدعارة فى مصر .. تغيير يشمل فئات القوادين والعاهرات مثلما تغيرت الدوافع أيضا فلم يعد الفقر أو الاحتياج أو الجهل هم ما يدفع بالمرأة أو الفتاة لأن تخلع ثيابها أو تبيع جسدها .. فمن المستحيل أن يفهم أحد ماالذى يدفع بزوجات الاثرياء .. والمليونيرات .. وأخريات قادمات من بلاد الخليج الغنية .. إلى ممارسة الدعارة .. من المؤكد أن المال ليس هو الدافع .. ولاحتى الجنس أو الرغبة .. لكنه السقوط النفسى والجسدى والاخلاقى .

وغير العاهرات .. كانت هناك العشيقات .. أولئك اللواتى إرتضين تسليم أجسادهن إلى غرباء الرجال .. ومن هؤلاء العشيقات كانت زوجات عجز رجالهن عن إسعادهن وإطفاء رغباتهن عن ضعف أو جهل أو تجاهل .. وزوجات تعين عليهن تسديد فاتورة حساب سفر أزواجهن إلى ضفاف خليج البترول .. فخلق الغياب الطويل والثروة المفاجئة الف مبرر للخيانة والخطيئة .

ومع النساء .. كان للرجال أيضا أزماتهم الجنسية الخاصة بهم . سواء كان هؤلاء من الشباب الذى أحاله الإلحاح والإغراء الدائم والمتوحش .. مع الكبت والقمع وعدم القدرة على الزواج .. إلى قنابل جنسية شديدة الإنفجار . فتعددت وتكاثرت قضايا الإغتصاب .. أو كانوا من الرجال الذين تقدم بهم العمر قليلا فأصبح واحدا من أشد هواجسهم .. هو البحث عن وسيلة أو دواء لعلاج سرعة القذف أو ضعف الإنتصاب .. وبالمقابل أيضا .. إعتاد الناس الإصغاء لحكايات الرجال الشواذ سواء كان هؤلاء الرجال من المشاهير أو من البسطاء .. ولم يلتفت الكثيرون إلى ما يحدث داخل كثير من السجون المصرية حيث لابد من إنتهاك رجولة النزيل الجديد فى حفلة جنسية صاخبة تحمل كل مقومات ليلة العرس وطقوسها .. فيصبح أقوى نزلاء العنبر وأكثرهم شراسة هو العريس فى حين يكون النزيل الجديد - أو الضحية - هو العروس .

ولنا أن نتخيل سلوك وحياة ومستقبل هذا الرجل - الذى لن ينسى تلك الليلة مطلقا - حين سيخرج إلى الشارع والمجتمع مرة أخرى .. هذا بالطبع غير كارثة الإدمان وكيف ساهمت فى نزع فتيل أكثر من قنبلة جنسية عارية وصاخبة .

أنا أحكى عن واقع رأيته يحدث أمامى فى القاهرة .. ليس فى نيويورك أو لندن أو باريس .. واقع تجرى تفاصيله كل يوم أمامنا وحولنا .. لكننا إمتلكنا قدرة خرافية - زادت يوما بعد آخر - على تجاهل هذا الواقع ونسيانه مع سبق الإصرار والترصد .. وعشنا طويلا ونحن نتظاهر بأن أحدا منا .. أبدا لم ير الف مارد للجنس وهو يخرج من الف قمقم إنتثرت على ضفاف النيل .. ساعدنا على ذلك مفكرون ومثقفون وصحفيون وإعلاميون إعتبروا الحديث فى الجنس خطيئة ليست قابلة للغفران .. وكأنهم تخيلوا - فى سذاجة وبلاهة - أنه من الممكن حذف الجنس من حياتنا .. فقط لو أننا منعنا الحديث عنه أو الإشارة إليه . وقد منعنا بالفعل أى حديث أو إشارة للجنس .. حرمناه على الصغار والكبار .. وحين قرر المجلس العالمى لصحة الأسرة على سبيل المثال أن يعقد مؤتمرا عام ١٩٨٤ لمناقشة الجنس فى دول الشرق الأوسط .. ومن بينها مصر ..

لم يجد المجلس دولة واحدة تقبل إستضافة المؤتمر .. فتقرر إنعقاد المؤتمر فى قبرص .. ثم لم يجد المجلس دولة واحدة تقبل المشاركة فى هذا المؤتمر إلا إذا تغير إسمه من مؤتمر لمناقشة الجنس إلى مؤتمر يناقش صحة الأسرة .

إلى هذا الحد كانت إحتياطاتنا محكمة ضد كلمة الجنس .. لدرجة أن يقرر الدكتور ماهر مهران – وزير السكان الحالى – أن يحذفها من حواراته مع أية مريضة تلجأ إليه .. وأن يفتش عن كلمة عربية أخرى بديلة ومناسبة (١) .. إلى هذا الحد باتت كلمة الجنس مكروهة وقبيحة وسافلة ومبتذلة .. فقررنا أن نحذفها من قاموس حياتنا وبيوتنا وأفكارنا ولغتنا العربية .

ونجحنا فى ذلك .

فماذا جرى ؟!.

هل قضينا على الخطيئة وإرتدينا جميعا ثوب الفضيلة ؟.. هل نجحنا فى أن نحمى المرأة من الرجل والرجل من المرأة ؟.. أشك فى ذلك .. بل وأنا على يقين من أن تلك العباءة الثقيلة التى غطينا بها الجنس حتى لا يبين ضعفنا وخوفنا وخجلنا وعوراتنا .. قد جعلت مشاكلنا أكثر حدة وأوجاعنا أكثر قسوة .. لأننا – نتيجة جهل مزمن وطويل ومتعمد – قصرنا الجنس على لحظات جماع فى فراش سريعا ما تنوب وتنقضى .. وليس هذا هو الواقع .. إنما الواقع وكما تراه الدكتورة نوال السعداوى مثلا (٢) هو أن السياسة العليا لأى بلد .. تحددها حياة الناس اليومية والشخصية .. وهى الحياة التى يختص الجنس بدور هام فى تشكيلها وصياغتها مثله مثل الطعام .. ولهذا تضيف الدكتورة نوال السعداوى .. أن من يقللون من أهمية الجنس لا يدركون الأسس الأولية لعلم السياسة .. ولا يدركون المشاكل الحقيقية فى هذا المجتمع .

وقد يجد البعض فيما تقوله الدكتورة نوال السعداوى القليل من المبالغة .. وإن كان ذلك لا يمنع أن به الكثير من الحقيقة .. حقيقة أن المارد كسر القمقم وخرج سواء كنا نراه أو لا نراه .. ولم يعد بإستطاعتنا ترويضه وإرجاعه إلى القمقم مرة أخرى إلا إذا أعدنا كل حساباتنا من جديد وأطلنا النظر إلى أنفسنا وبيوتنا وشوارعنا ومجتمعنا .. نتأمل ونراجع ونخاف ونعرف أو نحاول أن نعرف ماذا جرى .. ولماذا قد يأتينا الغد ومعه هذا الإنفجار الجنسى والأخلاقى الذى لن نتحمله .. والذى ليس هناك مبرر أصلا لأن ننتظره حتى يأتى بالفعل ثم نبدأ فى البحث عن حل أو خلاص .

وأنا أعرف منذ البداية .. أن هناك من سيسخر منى ومما أخاف منه .. وسيعقد المقارنة بين ما يحدث أو قد يحدث فى مصر وبين ما يحدث حولنا فى العالم كله أو فى أوروبا والولايات المتحدة على وجه التحديد .. وأنا أقر وأعترف مقدما بنتيجة تلك المقارنة التى هى فى صالحنا بالتأكيد .. فنحن بالفعل لا نزال أكثر إلتزاما ووقارا وحياء وإنضباطا .. لكننى أرفض أصلا أن أعقد مثل تلك المقارنة .. أرفضها لأنه لا وجه للمقارنة على الإطلاق .. فنحن فى مصر مجتمع له خصوصيته التى تشكلت خلال سنوات طويلة جدا عبر التاريخ .. وأزمة الجنس فى مصر تختلف تماما فى جذورها وملامحها وأسبابها عن أزمة الجنس فى الغرب .. وعلى الرغم من أن المصريين توارثوا جيلا بعد جيل تركة جنسية ثقيلة وشائكة ومقلقة ومضطربة .. إلا أن التاريخ الجنسى

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ٢٠ / ١٢ /١٩٨٤

(٢) د. نوال السعداوى – قضية المرأة المصرية السياسية والجنسية – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٧

لمصر شاهد على أنه بالرغم من تلك التركة .. لم يعش المصريون إلا حياة جنسية سليمة وسوية في معظمها .. وهو ما لم يحدث في أوروبا مثلا .. أو في الغرب كله بشكل عام .. هذا الغرب الذى عانى طويلا من القهر والكبت الجنسي منذ أن إعتنق الناس هناك الديانة المسيحية .. والتى غرست في نفوس الناس العداء والكراهية للجنس .. فطبقا لتعاليم الكنيسة لم يعد الجنس فعلا يتسم بالبهجة .. لم يعد إلا مجرد وسيلة لحفظ النوع والتناسل فقط .. وفى تعاليم القديس بولس ووصاياه .. كانت كراهية الجنس تبدو جلية وواضحة .. فلم يقتصر الأمر على تهذيب غريزة الجنس فحسب .. وإنما بلغ الأمر غالبا إنكار تلك الغريزة والإنتقاص من قدرها أيضا .. وتم تحديد يومين كل أسبوع يمكن للزوجين خلالهما ممارسة الجنس من أجل إنجاب الصغار ولكن دون أن يستمتع أى منهما بذلك وإلا كان يرتكب خطيئة .. وكانت أزمة جنسية حادة إكتوى الغرب بنارها طويلا .. وإذا كان صحيحا أن تعليمات الكنيسة الجنسية قد وجدت من يتجاسر ويتجاهلها في سلوكه وحياته الخاصة .. إلا أنه من الصحيح أيضا أن الغالبية بقيت تكتم رغباتها وحقوقها الجنسية جيلا بعد جيل .. حتى جاء القرن الثامن عشر .. والذى يعتبر المؤرخون (١) السنوات الأخيرة منه كانت البداية الحقيقية للثورة الجنسية في الغرب .. حيث يوما بعد يوم .. بدأ الكثيرون يراجعون نظرة المسيحية إلى الجنس .. ويؤكدون أن الجنس ليس معصية ولا خطيئة .. ولا تزال تلك المراجعة قائمة ومستمرة إلى اليوم .. حتى في مصر .. بدأت الكنيسة تبارك مؤخرا وتسمح بكتب مثل .. الجنس المسيحى .. الله بديلا عن الرغبة .. ثقافة جنسية مسيحية .. شبيهة بتلك الكتب التى أقبل الغرب على قراءتها منذ أعوام طويلة جدا وإقتنع بها .. فسقطت كل القيود وإنهارت كل الموانع .. وعاش الناس وكأنهم ينتقمون لسنوات الحرمان الطويلة .. وهكذا يتضح لنا أن الفوضى أو الحرية الجنسية التى نشهدها اليوم في الغرب .. ليست أكثر من تسديد فواتير حساب الماضى .

فواتير لا تخص مصر على الإطلاق ولا هى مطالبة بتسديدها كلها أو حتى بعضها .. ومن الغريب أن هناك بيننا من يطالبنا بالتخفف من بعض أو كثير من قيودنا الجنسية والأخلاقية مدعيا أن مزيدا من الحرية يعصمنا من خطايا القهر والكبت والحرمان .. وكأن الذين يطالبون بذلك لا يدركون أولا لماذا إختار الناس في الغرب أن يعيشوا كل هذة الحرية .. وهم يتجاهلون ثانيا ما الذى إرتبط بتلك الحرية من فوضى وخوف وحوادث إغتصاب وشذوذ .. أى أنهم بإختصار أرادوا علاج واحدا من أهم أوجاع المجتمع المصرى .. بدواء ثبتت عدم صلاحيته وجدواه .. والأهم من ذلك .. أن أحدا منا لن يقبل ولن يتسامح جنسيا فيما يتسامح فيه الناس في الغرب .. لن يحدث ذلك مهما كانت درجة شغفنا وإنبهارنا بهذا الغرب .. لأننا – كما أشرت من قبل – مجتمع له خصوصيته وطبيعته وقوانينه وتقاليده .. وإذا كان من الممكن أن يعيش إنسان ما بأكثر من وجه وأكثر من إسم وشخصية وهوية .. فمن المستحيل أن تعيش الشعوب وهى مصابة بالشيزوفرينيا الفكرية والإجتماعية والأخلاقية .

لهذا .. حين يصر البعض على إستيراد شخصية وهوية جديدة لمصر .. يبدأ الإنفجار .

وقد بدأنا نعيش بالفعل كل مقدمات هذا الإنفجار .. إنفجار إجتماعى وإنسانى وأخلاقى وجنسى أيضا .. وكان الإنسان المصرى بالطبع هو الضحية الأولى والأخيرة لكل ما حدث ولكل

(١) أ . س كون – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

ما سوف يحدث .. فهذا الإنسان حين إهتزت هيبة السلطة لديه (١) .. بات يظهر الولاء للمجموع في العلن .. أما في الخفاء فهو يسعى لتحقيق مصالحه الفردية .. وهو مصاب بالإحباط لإخفاء الدولة عنه الحقائق وإنعدام إحساسه بالمشاركة لكثرة النهب الذى تعرض له المال العام .. وأخيرا إهتزت عنده القيم .. وبدأ يتخطى أصول اللياقة ويلجأ للوسائل غير السلمية لتحقيق الأهداف وإعتبارها تصرفات لابد منها للعيش وبدونها يضيع الإنسان فى الزحام .

هذا هو ما إنتهى إليه تقرير مجلس الشورى عن الإنسان المصرى .. وهو ما أكدته رسالة علمية للدكتور عبد الرحمن العيسوى الأستاذ بجامعة الإسكندرية .. وهى الرسالة التى إنتهت (٢) إلى أن التدهور الأخلاقى الذى أصاب الإنسان المصرى قد إمتد ليشمل صفات تميز بها المصريون طويلا وقديما ..صفات مثل الشهامة والشجاعة والمروءة ومحاربة الفساد والمنكر والتطوع للإدلاء بالشهادة والصدق والأمانة والإنتماء للوطن والأدب والإحترام والوقار .

ولم يعد الأمر قاصرا على إنهيار أخلاقى وإجتماعى فقط .. وإنما بات هناك إنهيار نفسى أيضا .. ويصدمنا الدكتور أحمد عكاشة حين يؤكد (٣) أن إثنين وأربعين بالمائة من المصريين مصابون بالإكتئاب .. فاقدون القدرة على التكيف مع المجتمع أو الناس .. وأن ستة وخمسين بالمائة يعانون من أمراض نفسية .. هذا غير دراسة أخرى تمت مناقشتها فى المؤتمر الدولى للطب النفسى الذى عقد فى القاهرة عام ١٩٩٣ وبينت أن ستة وأربعين فى المائة من المصريين عاجزون تماما عن الضحك بسبب ما يستوطن أعماقهم من خوف وقلق وتوتر وصراع دائم ومخيف مع الحياة ومع الآخرين .

وأزعم أننا لسنا فى حاجة إلى كل هذة الأرقام والتقارير والدراسات لنلمس بمشاعرنا وعيوننا وعقولنا قسوة الأزمة فى مصر .. ومدى معاناة الإنسان فى مصر .. ويكفى أن نقرأ إختصارا لهذة الأزمة وتلك المعاناة وحجم تناقضاتنا .. فى عبارة طويلة ساخرة ومزعجة لكنها صادقة كتبها عادل حمودة يقول فيها (٤) .. المصرى يهاب الموت ويعشق الجنس .. يخشى الله ولا ينتج سوى نصف ساعة فى اليوم .. يصف نفسه بالفهلوة ويضع تحويشة العمر فى الريان .. يعدد فوائد الرياضة البدنية ولا يمارسها إلا فى الأوتوبيس أو فى الفراش .. يفخر بحضارته ويقضى حاجته بجانب آثارها .. يقول أن بلاده هى أم الدنيا ويصر على أن الذى بناها كان فى الأصل حلوانى .. يقاتل من أجل حريته فى الجلوس بجانب نافذة القطار ولا يزعجه تزوير الإنتخابات .. يطالب بقطع يد السارق ورجم الزانى ويكرر إذا سرقت إسرق جمل وإذا عشقت إعشق قمر !.

بعد هذا كله .. لا أعتقد أن الحديث عن تباشير ومقدمات إنفجار جنسى فى مصر سيكون مفاجأة مذهلة أو قاسية .. ففى مجتمع يختزن فى قلبه وأوردته وأعصابه كل هذا .. تصبح كل الاحتمالات ممكنة .. بقدر ما تصبح الكتابة ضرورية .. وأنا أعلم أن كتابا مثل هذا قد يكون مزعجا جدا .. وقد يراه البعض فاضحا وعاريا

جدا .. وقد لا يكترث الكثيرون بما أحاول إثباته فى هذا الكتاب بقدر ما سينشغلون بإصطياد أخطاء قد أكون وقعت فيها .. ومن المؤكد أن هناك أخطاء .. والمؤرخ الكبير والشهير جدا وول

---

(١) مجلس الشورى – تقرير حول تنمية الإنسان المصرى – ١٩٨٢
(٢) مجلة أكتوبر – عدد ٢١ / ٢ / ١٩٩٣
(٣) جريدة الأهرام المسائى – عدد ٢٥ / ٨ / ١٩٩٢
(٤) عادل حمودة – النكتة السياسية – سفنكس للطباعة والنشر – ١٩٩٠

ديورانت يقول (١) أنه ليس هناك مجال يمكن أن يرتكب فيه الإنسان كثيرا من الأخطاء مثل مجال الحكم على المستوى والسلوك الأخلاقي في عصر من العصور .. من المؤكد أيضا أننا نعيش زمنا لم يعد هو الوقت المناسب للكتابة عن الجنس وهذا ما تؤكده الكاتبة نانسى فرايداى فى كتابها (٢) الذى تصدر قائمة أكثر الكتب مبيعا فى إنجلترا طيلة عام ١٩٩٢ .. إنها تؤكد أن الزمن اليوم مختلف تماما عما كان عليه فى سنوات الستينات والسبعينات .. حيث كان الهواء مشبعا بالفضول الجنسى .. أما اليوم .. وبعد إكتشاف مرض الإيدز وزيادة حوادث الإغتصاب وإشتعال حروب الإجهاض .. أصبح الحديث عن الجنس مؤلما أكثر منه ممتعا

وقد حاولت .. وتعبت كثيرا .. من أجل إختصار أكبر عدد ممكن من الأخطاء .. وأكبر مساحة ممكنة من الأوجاع والآلام .. ومن أجل أن يخاف الناس فيلتفتون إلى تلك القنبلة الجنسية التى تتمدد تحت مقاعدهم وتحت جلودهم .. ومن الضرورى أن أشير إلى أننى لست وحدى صاحب هذا الجهد وتلك المحاولة .. فقد تعلمت أن أى كتاب فى هذا العالم .. لا يمكن أن يكون حصاد جهد وفكر وعقل إنسان واحد .. إنما هم كثيرون دائما الذين يقفون وراء كل كتاب جديد .. حتى وإن كنا نجد إسم إنسان واحد فقط على غلاف الكتاب .. وهو ما أعتبره أجمل وأرق جريمة تزوير فى الدنيا .. لهذا لابد – وقبل أن أبدأ كتابى – أن أتوجه بالشكر العميق لكل من أعاننى عليه فى وجه تلك الظروف القاسية والمؤلمة التى عانيت منها طيلة ثلاثة سنوات هى زمن كتابة تلك الصفحات .. وأول من أدين لها بالشكر العميق والإمتنان الأعمق .. هى أمى التى صبرت وعانت وتحملت جنونى ونزواتى طويلا وكثيرا قبل أن يأتى هذا اليوم الذى فيه أقدم لها الدليل على أننى بعد لم أخسر كل شئ .. ولم أقامر بحياتى ومصيرى حين خلعت البالطو الأبيض رغما عنها وعن قناعتها .. وأشكر أيضا ثلاثة من أساتذتى كان لهم الدور الأكبر فى إنتقالى من عالم الطب إلى الصحافة والكتابة حتى وإن كنت أختلف معهم فى أرائهم وتوجهاتهم وكتاباتهم .. هؤلاء الأساتذة الذين أدين لهم بالتقدير وفائض من الحب هم محمود عوض وأنيس منصور ومفيد فوزى .. هم الذين تعلمت منهم كيف أمارس الحلم والكتابة .. وهم الذين إستعنت بهم فى أشد سنوات العمر مرارة ومهانة .. وكذلك ثلاثة من أساتذتى فتحوا لى باب مؤسسة الأهرام دون أى وساطة أو مقابل .. إبراهيم نافع رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام وحسنى جندى رئيس تحرير الأهرام ويكلى وإبراهيم حجازى رئيس تحرير الأهرام الرياضى .. أما محمد حسنين هيكل .. فهو أستاذى الذى لا أعرفه شخصيا ولم أره أو أحاوره مطلقا .. لكن ذلك لا يمنع من الإعتراف بأننى منه تعلمت .. أو حاولت أن أتعلم .. كيف أخاف مما أكتبه .. وأخاف عليه أيضا وأحترمه .. وما هو الثمن الذى يجب أن يدفعه كل إنسان من جهد وأرق وعرق وحيرة ومعاناة من أجل أن يضع إسمه ولو فوق غلاف كتاب واحد .

أشكر أيضا إثنين من أساتذتى الكبار والعظام .. الدكتور جمال حمدان وزهير الشايب .. رحل الأول عنا وترك لنا كتابه العظيم .. شخصية مصر .. ورحل الثانى أيضا بعد أن أتم وحده ترجمة الكتاب الرائع ... وصف مصر .. وكم كانت محاولة فهم طبيعة مصر والمصريين ستغدو صعبة وشاقة لولا هذان العملاقان وكتاباهما وجهدهما الذى من المستحيل تقييمه أو تقديره ..

---

(١) وول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التاليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧ ،
(٢) نانسى فرايداى – نساء على القمة – هاتشينسون – لندن – ١٩٩١

كما أشكر أيضا الصحفى الكبير عادل حمودة صاحب فكرة هذا الكتاب .. فهو الذى أصغى إلى وأنا أطيل الحديث عن مشاهداتى وأفكارى فشجعنى على أن أصيغ كل ذلك فى أوراق كتاب ينقل للناس ولو بعض حقيقتهم وواقعهم .. وأنا أشكره الآن على كل ما منحنى إياه من تشجيع ووقت وصبر .. كما أشكر أستاذى الدكتور عمرو عبد السميع الذى إستقبلنى كثيرا وطويلا فى مكتبه وسمح لى بكثير من الحوارات الصعبة والشائكة حول الماضى والمستقبل وأهدانى كل ما كتب وكأنه كان يضئ الطريق كلما مشيت فى أشد أجزائه عتمة وضبابا .. وأشكر الأستاذ صلاح عيسى الذى منه تعلمت كيف أتوغل فى دروب ومتاهات تاريخ مصر القديم والحديث ولا أضل الطريق .. وإنما أعود أحمل الرؤية والحقيقة والقدرة على إستشراف المستقبل .. وأشكر الدكتور حسام بدراوى على لقاءاته المتعددة وحواراتى الطويلة معه والتى أثرت فكرى ورؤيتى للمجتمع الذى نسكنه وننتمى إليه .. وأشكر إبراهيم المعلم الذى لم يبخل رغم ضيق وقته ومشاغله العديدة بالحوار والمشاركة فى الفكر والهموم والآمال .. ومعه أشكر كل أسرة دار الشروق التى فتحت لى مكتبتها فطالت يدى وعينى الكثير من الكتب والمراجع الرائعة التى وجدت فيها العون والمدد والكثير من اليقين والدليل .

وإذا كنت أتوجه إلى هؤلاء الأساتذة بالحب والإمتنان .. فإننى عاجز تماما عن التعبير .. أو إختيار مفردات تليق بعطاء وحب إثنين من أصدقاء العمر .. لكل منهما دوره – الذى لن أنساه مطلقا – وراء صدور هذا الكتاب .. إبراهيم عيسى الصحفى بمجلة روز اليوسف ورأفت الشيخ الصحفى بمجلة الأهرام الرياضى .. وقد كان حماس الصديق والصحفى القدير إبراهيم عيسى للكتاب .. وإصراره عليه .. هو السلاح الوحيد الذى بقى معى أحيانا .. هو نقطة الضوء التى بقيت تشع وتتوهج كلما أضنانى التعب أو كاد اليأس يهزمنى أنا وأوراقى .. ولا أزال أذكر كم المشاوير التى قطعناها معا من الهرم إلى مدينة نصر من أجل كتاب قديم أو بحث جديد أو حتى لمناقشة فكرة طارئة .. وبالمقابل .. لا أدرى كيف أعرب بدقة عن إمتنانى العظيم لرأفت الشيخ .. الذى تحمس لهذا الكتاب ربما أكثر منى .. والوحيد الذى إرتضى وتحمل جنونى وسار معى فوق أرصفة القاهرة ساعات طويلة ومرهقة نفتش عن مراجع ومصادر يحتاجها الكتاب .. والوحيد الذى شاركنى الغرق تحت مئات من صفحات أرشيف مؤسسة الأهرام نفتش معا عن حادث قديم أو نتأكد من صحة رقم أو تاريخ أو عبارة .. وكم طالت بنا ليالى القاهرة ونحن نجلس فى مقاهيها وبيننا تكومت الأوراق والأفكار والأسئلة والكثير من الحوار والإختلاف والجدل .

كما أشكر أيضا كل الزملاء والأصدقاء الذين لم يبخلوا بشئ من أجل خروج هذا الكتاب للناس .. أشكر صديق العمر الدكتور أسامة حسين الذى راجع معى المادة الطبية والعلمية .. وإبراهيم منصور الصحفى بمجلة روز اليوسف والذى كان عينى التى لم تغفل عما نشرته الصحافة المصرية أو العربية عن الجنس وحكاياته وجرائمه وعن أهم الكتب التى صدرت هنا أو هناك .. ونبيل عمر الصحفى القدير بجريدة الأهرام والذى كان أول من شاركنى فى وضع خطة العمل الخاصة بهذا الكتاب .. والسيدة نهال أيوب التى بذلت ما لا يمكن تقييمه من جهد ومعاناة لتمنحنى فرصة الإطلاع على مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية التى صدرت فى الخمسة عشر عاما الأخيرة .. وعمرو خفاجى الصحفى بمجلة روز اليوسف والذى بذل جهدا إضافيا ليرودنى بأهم بحث جامعى عن تطور الدعارة فى مصر .. وأحمد فؤاد وخالد مرسى

وخالد عبد المنعم إسماعيل الذين قادوني – عن إقتناع وعن حب – داخل دروب أرشيف الأهرام المعقدة والمتشابكة فإختصرت الكثير من الوقت والكثير جدا من الجهد .. ونادية صبحي الصحفية الشابة الرائعة والمدهشة بجريدة الوفد والتي قادتني بجرأة وإقتدار داخل أعماق الفتاة المصرية في التسعينات .. وكسرت كثيرا من الحواجز كانت تفصل بيني وبين الطالبات وراء أسوار الجامعة .. والمهندس محمد عمر هاشم الذي أشرف بنفسه على إعداد جهاز الكمبيوتر الخاص بي سواء في المراحل الأولى الخاصة بجمع المادة وتنسيقها .. ثم الكتابة بعد ذلك .

أشكر أيضا عددا من الزملاء الذين قد لم يسهموا في إعداد هذا الكتاب بشكل مباشر .. ولكنني رجعت دائما إلى ما كتبوه في مجلاتهم وصحفهم وإستعنت به كثيرا .. وأحسست بعد طول تأمل وجهد وقراءة .. كم كانوا رائعين وملتزمين في أداء واجبهم ورسالتهم .. وأذكر منهم إبراهيم خليل ووائل الإبراشي وآمال فكار في مجلة روز اليوسف .. ومصباح قطب في جريدة الأهالي .. وممدوح الولي وخيري رمضان وعبد العظيم الباسل وسيد علي في جريدة الأهرام .. ونوال مصطفى وحسين عبد القادر والنابغة السعدي في جريدة الأخبار .. وحمدي رزق في مجلة المصور .. وسهام ذهني ودرية الملطاوي ونجلاء بدير في مجلة صباح الخير .. ومعهم جميعا أتوجه بشكر وتقدير خاص لكثيرين من رجال القضاء والشرطة أمدوني بالمعلومات والحقائق وإن رفضوا أن أشير إلى أسمائهم بإعتبار أنهم ليسوا من هواة الدعايات الفارغة أو الضجيج الأجوف .

كما أتوجه بشكر خاص وعميق لكل من عصام فهمي وسمير فهمي .. اللذين تحمسا لهذا الكتاب وقررا خوض مغامره نشره مهما كانت المحاذير أو التحفظات .. ولم يتعامل الإثنان مع الكتاب وعلى أنه سلعة يطرحانها في السوق قد تربح أو تخسر .. وإنما تعاملا مع الكتاب ومعي وعلى أننا شركاء في هدف واحد هو أن نكشف عن بعض العيوب وأن نرفض البقاء كالنعام مدفونة رؤسنا في رمل الظلام والتجاهل وإنكار واقع عاري مؤلم وحزين .

وإذا كنت أشكر كل هؤلاء .. وأدين لهم جميعا – أنا وكتابي – بالفضل والإمتنان .. فإن ذلك لا يعني أنهم شركائي في أي خطأ قد أكون وقعت فيه .. ولا أنا على إستعداد لأن أقاسمهم أية مسئولية قانونية أو إجتماعية أو فكرية سوف أتحملها وحدي قانعا وراضيا .

ولا يبقى في النهاية إلا أن أتوجه بالشكر الخاص جدا إلى زوجتي .. وبعبارة أكثر دقة .. شريكتي في الحلم والمعاناة .. والتي تحملتني على مدى ثلاث سنوات كاملة .. وتحملت – في حب وفهم سعدت وإعتززت بهما كثيرا – أن يغرق بيتها في فوضى لا نهائية إنتثرت فيها الكتب والأوراق في كل النواحي حتى باتت هي المعالم الوحيدة الحقيقية لبيتنا .. وكم واجهتها كثيرا لحظة إختيار موجعة بين ما يحتاجه الكتاب وبين ما يحتاجه البيت ولم تتردد مطلقا .. ولو مرة واحدة .. في تفضيل الكتاب على البيت وعلى كل إحتياجاتها .. وكم إكتفينا بالضحكات والأحلام ونحن نقتصد أحيانا حتى في وجبات طعامنا من أجل شراء كتاب أو كتب جديدة .

ومعها أعرب عن إمتنان خاص لطفلة لم تكمل الخامسة من عمرها إسمها ماهيتاب .. وجدت أمامها أكثر من أربعة الاف ورقة وأكثر من الفي كتاب إستكانوا على الأرض طويلا وفوق المقاعد والموائد .. فلم يغرها ذلك بتمزيق ولو ورقة واحدة أو العبث ولو بكتاب واحد .. فكانت وكأنها تشاركني ببراءتها ورقتها وإبتسامتها الرائعة الحلم والرغبة في خروج للكتاب للناس .. وإن كانت

لم تمل مطلقا من الإستئذان فى الذهاب ببعض هذة الأوراق والكتب إلى مدرستها .. وأنا بدورى لم أمل من أن أرفض كل صباح أن أمنحها مثل هذا الإذن !.

.. وأخيرا

أعتذر لكل قارئ أو قارئة إن كنت قد أطلت .. وأعتذر لمصر وأهلها إن كنت قد بالغت أو تجاوزت .

ياسر أيوب

القاهرة

٢٢ أكتوبر ١٩٩٤

(١)

أبواب نصف مغلقة

في بلد لا يحكم فيه القانون
يمضي فيه الناس إلى السجن بمحض الصدفة
لا يوجد مستقبل
في بلد يتمدد في جثته الفقر
كما يتمدد ثعبان في الرمل
لا يوجد مستقبل
في بلد تتعرى فيه المرأة كي تأكل
لا يوجد مستقبل

صلاح عبد الصبور
مسرحية ليلى والمجنون

كل مافى حياتنا قابل للإختصار

مشاعرنا .. أحلامنا .. إنتصاراتنا .. همومنا .. إبتساماتنا .. جراحنا .

حتى المجتمع الذى نسكنه وننتمى إليه .. بكل وقاحة وقسوة إختصرته ناهد محمد على .. الفتاة المثقفة الجميلة التى أنهت دراستها بكلية الطب فى جامعة الإسكندرية عام ١٩٨٦ .. ثم قضت سنة الإمتياز فى مستشفى المواساة حيث سمح لها تقديرها المتفوق – جيد جدا – بمواصلة العمل بعد الإمتياز كطبيبة فى نفس المستشفى .

يوم مضى وراء يوم .. حلم مات بعد حلم .. وتكتشف ناهد أنها قضت أجمل وأغلى سنوات عمرها فى دراسة ما لم يعد له قيمة وما بات عاجزا عن تحقيق ولو حلم واحد من أحلام الصبا الجميل .. إكتشاف أقنع ناهد بالتمرد .. بالبحث عن طريق آخر وحياة أخرى .. رفض والدها .. إحتجت العائلة كلها .. إنسحبت ناهد من الاسرة والبيت .. بدا واضحا أن ناهد إختارت بالفعل وأنها ليست على إستعداد للتراجع أو التفكير مرة أخرى.

خلعت ناهد ثيابها وكشفت عن ساقها وصدرها .

ناهد قررت إحتراف الرقص الشرقى !.

البالطو الأبيض .. تعلم أن يرقص على " الواحدة ونص " !.

أعلى وأسمى قيمة فى هذا المجتمع .. إلتصقت وإمتزجت وتوحدت بأحط وأحقر ماقيه !.

ومن المؤسف أن ماحدث لم يستوقفنا .. يفاجئنا .. يربكنا .. كأننا جميعا كنا نتوقع ماحدث .. كأن ناهد بثياب رقص الشرق العارية الفاضحة كانت تؤدى المشهد الأخير من فيلم ردئ توقعنا جميعا نهايته بمجرد أن عشنا لحظاته الأولى .

حتى القليلين الذين إستوقفهم ماحدث .. نصفهم رآه سيناريو طبيعى بطلته طبيبة شابة إعتزلت مهنتها لتحترف الفن حتى وإن كان الرقص .. والنصف الآخر لم يتمهل فقرر بسرعة إدانة ناهد .. وطالبوها أن تدفع الثمن !.

ثمن لم ولن تطيق ناهد – مهما حاولت – أن تدفعه .. وليس بوسع جيلها كله أن يدفع مثل هذا الثمن .. لأنه بإختصار حساب قديم جدا .. حتى قبل أن تولد ناهد وجيلها .. حساب يرجع عمره عشرات السنين .. بالتحديد يوم الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ .. يوم قام أحرار مصر الضباط بالثورة ليسقط الملك ويأتى جمال عبد الناصر وزمن جمال عبد الناصر .

هذا ليس إتهام للثورة بأثر رجعى .

ساق ناهد العارية .. أبدا.. ليست دليل إدانة لجمال عبد الناصر .

إنها ليست محاكمة عادلة أو ظالمة تعقد من جديد للثورة وصاحبها .. ليست أكثر من محاولة لترتيب الأوراق .. كل الأوراق .. دون إستثناء أو خوف أو تعصب :-

وقد كان من السهل .. أو من المألوف .. أن نكتفى بتعليق بالطو ناهد الأبيض على شماعة الإنفتاح .. تلك الكلمة الوحيدة التى بقيت فى ملفاتنا و عقولنا جاهزة دائما للتبرير والتفتيش عن أسباب .. وكأننا مثلما إعتدنا تناول وجبات الطعام سابقة التجهيز .. ومثلما إعتدنا أن نسكن البيوت سابقة التجهيز .. فمن الواضح أننا إرتحنا أيضا للتفكير والحوار والتأمل بقوانين وأسباب سابقة التجهيز .. وإلا فمامعنى أن يتحول الإنفتاح إلى تبرير وحيد لكل خطايانا وذنوبنا ومشاكلنا بداية من الاوتوبيس الذى لايأتى وحتى بيوتنا المنهارة مقدما دون زلزال مرورا بالتطرف والإدمان

والعنف والتعصب ؟!.

مرة أخرى .. هذا ليس دفاعا عن إنفتاح من المؤكد أنه كان بمثابة دعوة لكل الشياطين .. شياطين دخلت علينا من أبوابنا ونوافذنا .. تسللت من شرايينا ومن تحت جلودنا .. شياطين وجدتنا نسكن مجتمعا قابل لكل شئ وأى شئ .. مجتمع تهتز أخلاقه وأحلامه وقوانينه مقدما دون جهد أو عناء .

فإذا كنا نعيش اليوم مهددين بإنفجار جنسى مخيف يدق أبوابنا .. فمن المؤكد أن أسبابه ومقدماته تسكن بيننا منذ زمن طويل وليس الامس فقط .. أسباب أوجدتها بالتأكيد أيام وسنوات ماقبل الثورة .. ومقدمات جاءت بها الثورة .. مثلا .. يقول الدكتور سيد عويس عالم الإجتماع الراحل (١) أن القيم لا تتغير فجأة ولا يتبدل الحال فى لحظة .. ولايوجد تغير فى مجتمع يحدث بين يوم وليلة .. وقبل هزيمة يونيو ونصر أكتوبر وإحباط الشباب بعد كامب ديفيد .. كان هناك الحكم الفردى الذى ساد مصر منذ حوالى أربعين عاما .. فرغم أن الإنجازات والإصلاحات كانت عظيمة فى ظل هذا الحكم إلا أنه أدى إلى قتل كثير من القيم الجميلة فى المجتمع .. ولذلك حين جاء الإنفتاح كانت التربة مهيئة لأبطال الكسب الحرام .

هنا .. لابد وأن نعود إلى الوراء .. إلى أيام الثورة الأولى .. ونستعيد رحلتها مع مصر والمصريين داخل الشوارع والبيوت .. وسنكتشف أننا لم نتوقف طويلا .. ولم ننشغل كثيرا .. بالتأثير الإجتماعى لثورة يوليو .. مع أن كاتبا كبيرا وقديرا مثل هيكل يؤكد (٢) أن الثورة ليست مجرد مشروعات يتم تنفيذها .. إنما الثورة شئ أعمق من هذا من حيث أنها تغيير أساسى فى تكوين المجتمع .

فإلى أى مدى غيرتنا الثورة ؟ .. وهل كان يدرك قادتها فى تلك الأيام البعيدة أنهم قلبوا المجتمع المصرى رأسا على عقب .. وأن عليهم أن يعيدوا ترتيب البيت مرة أخرى قبل أن يخرج الف مارد من الف قمقم يعبثون بكل شئ ويبعثرون كل الأوراق ؟.

الوحيد الذى يؤكد أن قادة الثورة كان فى نيتهم ترتيب البيت هو أحمد حمروش .. إنه يؤكد(٣) أن الضباط الأحرار كانوا دعاة تغيير وإصلاح .. وكان فى أحلامهم تغيير شكل المجتمع والقيام بإصلاحات جذرية .. وعلى العكس تماما يقول هيكل (٤) أن واجب الإنصاف للحقيقة وللتاريخ يقتضى التسليم بأن جمال عبد الناصر لم يكن لديه حين قامت الثورة غير مضمون الشعار الذى لم يكن يردد غيره فى تلك الأيام وهو شعار العزة والكرامة .. ومن التجنى على الحقيقة وعلى التاريخ أن يزعم أحد أن جمال عبد الناصر كانت لديه فى هذة الظروف برنامج كامل أو شبه كامل للعمل الوطنى يشتمل على تغييرات إقتصادية أو إجتماعية أو سياسية محددة .

ليس هيكل فقط .. وإنما كثير من الكتاب والمفكرين أكدوا أن الرؤية الإجتماعية لم تكن من شواغل قادة الثورة أو همومهم .. وعلى رأس هؤلاء كاتب كبير وقدير آخر هو أحمد بهاء الدين الذى يقول (٥) أنه يأخذ على ثورة يوليو تركيزها على تحرير الإنسان المصرى وتغييره إقتصاديا

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٨/٥/٩

(٢) محمد حسنين هيكل - أزمة المثقفين - دار الأنباء - ١٩٦١

(٣) أحمد حمروش - قصة ٢٣ يوليو - الجزء الأول - مدبولى - ١٩٨٣

(٤) محمد حسنين هيكل - ملفات السويس - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٨٦

(٥) عمر بطيشة - شاهد على العصر - كتاب اليوم - ١٩٨٤

فقط .. أعطته فرصة التعليم وفتحت الجامعات وأقامت المصانع .: ولكنها لم تحاول أن تخوض بنفس القوة معركة تطوير هذا الإنسان المصرى معنويا وثقافيا وفكريا .

حسنا .. نحن الان أمام شباب يقودهم شاب مصرى ثائر .. طموحه الرومانسى لم يتجاوز أكثر من الإطاحة بالملك والقضاء على الإستعمار وأعوانه .. وبالرغم من أن إقامة حياة إجتماعية سليمة كان أحد الأهداف المعلنة للثورة منذ قيامها .. إلا أن مفكرا مثل الدكتور لويس عوض يرى[1] أنه من الظلم لعبد الناصر ونظامه أن نقول أنه وعد الناس ببناء إجتماعى أو إقتصادى أو سياسى ثم عجز عن تحقيقه لأنه بإختصار لم يعد بشئ إلا فى أعم عمومه وهو مجتمع الكفاية والعدل وهو شعار لم يكن يجد عليه غبارا أى حزب من أحزاب العهد البائد .

حياة إجتماعية سليمة .. هذا إذن كان واحدا من أهداف الثورة المعلنة .. هدف ضرورى جدا ومهم جدا داسته أقدام العسكر والسياسة والصراع والتحدى الخارجى دون أن يتنبه إليه أحد .. ولعله من الضرورى أن نتأمل حياة مجتمعنا قبل الثورة لندرك إلى أى مدى كان هذا الهدف ساميا ونبيلا وضروريا أيضا .

لقد ثارت مصر وهى بعد.. لم تنفض غبار الحرب العالمية الثانية التى إنتهت منذ سنوات قلائل .. الحرب التى أعادت إلى حد ما صياغة المجتمع المصرى من كل النواحى السياسية والأخلاقية والإجتماعية .. حتى أن مؤرخا كبيرا مثل طارق البشرى يقول[2] أن مصر بعد تلك الحرب لم يكن فيها ما هو ثابت .. كل شئ يتحرك ويتغير ويطرح للنقاش وإعادة النظر .. كل شئ حتى الأفكار والقيم .

فى الواقع .. كانت نتائج تلك الحرب بمثابة نقطة النهاية لمشوار طويل مرهق تعين على مصر أن تمشيه طوال مائة عام وهى تحمل فوق رأسها جراحها ومخاوفها وإنكسارها دون أن يسمح لها أحد بأن تتوقف ولو قليلا

لتلتقط أنفاسها وتراجع حساباتها .. بدأ المشوار مع بدايات القرن التاسع عشر وفيه إكتشف المصريون ..على حد تعبير مفكر مصر العظيم الدكتور جمال حمدان [3] .. أنهم أقزام أمام عمالقة .. وكانت النتيجة مركب نقص حضارى شديد .. معه فقد المصريون كل ثقة فى تاريخهم وتراثهم وكيانهم وتهافتوا على النقل والتقليد بلا تمييز .. فكانت صيحات التفرنج ومحاولات تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا .

وقد كانت مصر طوال عمرها كيان معقد صعب .. يختلط فيه الماضى القديم بالمستقبل .. ورث تركة هائلة من العادات والقيم والقوانين المتضاربة المتنافرة من الأجداد الفراعنة وعشرات الغرباء الذين مروا عليه زائرين أو مستعمرين أو مستوطنين أو رحالة مغامرين .. وهكذا إمتزجت المادة بالروح .. الدين بالتاريخ .. قسوة الصحراء بعطاء النيل .. مجتمع يملك قدرة هائلة على التغير .. هو المجتمع الوحيد فى التاريخ الذى غير ديانته ولغته ثلاث مرات .. لكن من الواضح أن كم التغيير الذى طرأ على هذا المجتمع طوال المائة عام التى سبقت قيام الثورة كان أكبر مما يحتمله المصريون .. تغيير شمل كل مجالات الحياة .. سياسة وإقتصاد وفكر ومجتمع وأخلاق وعادات

---

(١) د. لويس عوض – أقنعة الناصرية السبعة – دار القضايا – بدون تاريخ نشر
(٢) طارق البشرى – الحركة السياسية فى مصر – دار الشروق – ١٩٧٢
(٣) جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب ١٩٨١

وقيم .. تغيير سريع كما يصفه لنا جاك جونيو [١] الذى يؤكد أيضا أنه كان تغييرا لم تفهم مصر الكثير منه حتى الآن .

وكان جاك جونيور على حق تماما .. ففى سنوات قليلة فتحت مصر أبوابها للأوروبيين ولكل الغرباء .. ومع هؤلاء كانت مصر تجرى من الأوبرا إلى المسرح إلى مدارس البنات .. يربكها قاسم أمين بحديثه عن حرية النساء .. يفاجئها الشيخ على عبد الرازق بهجوم على الخلافة .. يشككها طه حسين فى كل ما حفظته من تراث وأشعار وحكايات عربية .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما بدأ هؤلاء الأجانب والغرباء يفرضون عاداتهم وأفكارهم وأخلاقياتهم .. إن هؤلاء الأجانب الذين لم يزد عددهم فى عام ١٨٠٠ عن مائة أجنبى وفقا لتقديرات الدكتور جمال حمدان[٢] .. أصبح عددهم بعد خمسين عاما ستين الفا .. وفى عام ١٩٠٠ زاد العدد إلى قرابة الربع مليون أجنبى .. وما يعنينا من كل هذا العدد هو ما تعلمه المصريون على أيدى هؤلاء من خروج على الدين وعلى النظام وعلى القانون .. عبد الرحمن الرافعى يقول [٣] لنا أن هؤلاء الأجانب علموا المصريين بمختلف طبقاتهم تناول الخمور ومتعة الحفلات الضخمة التى كانت تسمى فى ذلك الوقت بحفلات الباللو .. وديزموند ستيوارت يشير [٤] إلى أن هؤلاء الأجانب علموا المصريين إرتداء البنطلون ثم الرقص للمرة الأولى على أنغام الموسيقى وإستبدال لافتات الخط العربى والآيات القرآنية فى حجرات الإستقبال باللوحات الزيتية وأثاث من طراز لويس الخامس عشر .. وأخيرا يؤكد محمد سيد كيلانى [٥] أن هؤلاء الأجانب شرعوا بعد إستقرارهم فى فتح الخمارات والفنادق والمطاعم وبيوت الدعارة .

ومع ذلك بقى البغاء فى مصر سريا حتى جاءت سنوات الحرب العالمية الأولى حيث إستغل بعض القوادين الدوليين [٦] فرصة قوانين حماية الأجانب وإمتيازاتهم وعدم وجود رقابة على الموانى والمطارات .. فلجأت إلى مصر كثير من داعرات أوروبا وظل الجنود الغرباء يتوافدون على مصر .. ويجئ الاف المهاجرين من اليهود والأرمن ليشتغل عدد كبير منهم أيضا بالدعارة [٧] .. ولا يعنى ذلك أن الدعارة كانت أجنبية فقط .. ولكن يمكن التأكيد على أن تنافسا قام وإشتعل فى ذلك الوقت بين الداعرات المصريات والداعرات الأجنبيات .. ومثلما كان حى الوسعة بوسط القاهرة أشهر أحياء البغاء الرسمى فى العاصمة تسكنه الداعرات المصريات .. فإنه بالمقابل تأسس قريبا من الوسعة حى آخر أيضا للبغاء ولكنه كان قاصرا على الداعرات الأجنبيات هو حى وش البركة .. وفى ذلك الحى تجمعت كل الساقطات اللواتى هربن أو طردن من ميناء مرسيليا الفرنسى وباقى مواخير أوروبا .. ومع ذلك إحتفظن بأوروبيتهن فلم ينحدرن إلى مستوى ساقطات .

مصر التى كانت الواحدة منهن تكتفى بالحياة وممارسة "العمل" داخل كوخ حقير وتتقاضى من كل رجل مقابل جسدها خمسة قروش .. ومثلما إمتلأ حى الوسعة بالنساء أيضا فاض بهن

(١) جاك جونيور – كتابة التاريخ فى مصر – ترجمة د. عبد الوهاب بكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣
(٢) جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب – ١٩٨١
(٣) عبد الرحمن الرافعى – عصر إسماعيل – دار المعارف – ١٩٨٢
(٤) ديزموند ستيوارت – القاهرة – ترجمة يحى حقى – كتاب الهلال – ١٩٦٩
(٥) محمد سيد كيلانى – فى ربوع الأزبكية – دار العرب للبستانى – ١٩٥٩
(٦) محمد أحمد عابدين ومحمد حامد قمحاوى – جرائم الآداب العامة – دار المطبوعات الجامعية – ١٩٨٥
(٧) د. لطيفة محمد سالم – مصر فى الحرب العالمية الأولى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

حي وش البركة .. وبالقوادين الأجانب أيضا .. وفي الوقت الذى كان من السهل تجريم وعقاب القواد المصرى إذا تجاوز ماسمحت به لائحة بيوت العاهرات الصادرة عام ١٩٠٥ فإنه كان من المستحيل عقاب أي قواد أجنبى يتمتع بحماية الإمتيازات الأجنبية .. وبفضل هؤلاء الأجانب – قوادين ومومسات – إزدهرت تجارة الجنس في مصر .. وفي القاهرة على سبيل المثال كانت مناطق البغاء العلنى التى يسمح فيها القانون بممارسة الرزيلة هى.. وش البركة .. الوسعة .. زينهم .. باب الشعرية .. وتم إلغاء البغاء فى حى زينهم (١) عام ١٩٢٦ وإنتقلت منه البغايا للإقامة والعمل فى باب الشعرية .

وفى ذلك العام – ١٩٢٦ – كانت الإحصائيات الرسمية (٢) تشير إلى وجود سبعمائة وسبعة عاهرة مصرية وثلاثمائة وأربعة وثلاثين عاهرة أجنبية .. وضبط البوليس الفا وثمانمائة وأربعة وثمانين إمرأة تمارس التحريض على الفسق والفجور في الشوارع .. أما عدد البيوت السرية للدعارة والتى إتخذ البوليس المصرى إجزاءاته ضدها فكانت مائة وإثنين بيتا .

أرقام تؤكد الإحصائيات أنها زادت مع كل عام جديد .. وهناك أرقام أنقصتها الأيام والسنوات .. زاد عدد العاهرات المصريات وقل عدد العاهرات الأجانب بحيث جاء عام ١٩٣٦ فكانت هناك سبعمائة وواحد وعشرين عاهرة مصرية مقابل تسعين عاهرة أجنبية فقط .. أما النساء اللواتى يمارسن التحريض على الفسق والفجور فى الشوارع .. فزاد عددهم حتى بلغ عام ١٩٣٦ ثلاثة الاف وسبعمائة وأربعين إمرأة .. وبلغ العدد الرسمى لبيوت الدعارة ثلاثمائة وثلاثة وستين بيتا .

بإختصار .. أضافت تلك الحرب فوق خريطة مصر طبقات جديدة بأخلاقياتها المتداعية وإنحرافاتها .. طبقات تشكلت من مصريين وغرباء .. ويقدم لنا سيد قطب صورة لهؤلاء الغرباء فى إحدى مقالاته يقول فيه (٣) لقد شبعنا من منظر السكارى المعربدين من مجنديهم والمائعات المستهترات من مجنداتهم ومن تلك القذارات الآدمية التى جلبوها معهم أو التى خلفوها لنا .. ويصف لنا سيد قطب نتيجة ذلك بأن .. تكومت عندنا مئات والوف من الأعراض الملوثة والكرامات المهدرة والعار الذى تأنف منه الرجال والنساء .

وإذا كان هذا هو حال الغرباء .. فإن حال المصريين بالمقابل لم يكن أفضل .. فقد كان هناك من إلتحقوا بخدمة الجيوش المتحاربة يعيشون على خدمتها ويتولون الترفيه عنها .. الترفيه هنا كلمة شديدة التهذيب بالغة الوقار لما كان يحدث بالفعل .. وعلى سبيل المثال يتحدث صلاح عيسى(٤) عن تحية كاريوكا فى تلك الأيام ويقول عن تحية أنها لمعت فى كباريهات الحرب الكونية الثانية وحفظ إسمها المميز كل جنود الحلفاء الذين ألقت بهم أقدارهم إلى القاهرة فى تلك السنوات .. خاصة أنها – وهى فلاحة فقيرة .. خرجت هاربة من قريتها – أضافت إلى إسمها لقبا أمريكيا إستعارته من إسم رقصة الكاريوكا أحدث وأشهر الرقصات الأمريكية فى ذلك الزمن الذى كانت فيه السيدة تحية موضة العصر لجنود الحلفاء فى صالة وكباريه بديعة مصابنى !.

ولم يقتصر الأمر على الحرب بكل وإنحرافاتها فقط .. ولا على بيوت الدعارة وعاهراتها ..

(١) التقرير السنوى لبوليس مدينة القاهرة عام ١٩٢٦
(٢) د. عبد الوهاب بكر – البوليس المصرى ١٩٢٢/١٩٥٢ – مدبولى – ١٩٨٨
(٣) عادل حمودة – سيد قطب من القرية إلى المشنقة – سينا للنشر – ١٩٨٧
(٤) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

وإنما نقرأ أيضا فى خريطة المجتمع المصرى قبل الثورة أن الجنس لم يكن فى حياة المصريين خيوانا مستأنسا تم ترويضه تماما .. فقد كانت هناك الأغانى الخليعة العارية .. أغان تحولت فى نهاية الأمر إلى دعوى صريحة وسافرة للجنس والشهوة والخطيئة .. فغنت منيرة المهدية : بعد العشا .. يحلى الهزار والفرفشة .. وأقعد معاك على هواك .. ولا فيش هناك غيرنا .. وبلاش كتر الخشا .. ويغنى صالح عبد الحي : عاشق وليه بتلومونى .. بين النهود حطونى .. بين النهود والصرة .. النوم شكيته لله .. ويغنى محمد عبد المطلب : حرس منى إوعى تزغزغنى .. أنا باغير لما تلمسنى .. جسمى طرى لين ناعم زى القشطة والملبن .. وتغنى رتيبة أحمد : الهيئ المئ فى دهبية .. وحبيبى ما جانى الليلة دية .. إمتى يارب ترده لى تانى .. واعمله الصرة فسقية .. بل إن سيد درويش .. فنان الشعب ومصر العظيم .. لم يتخلف عن المشاركة فى تلك الخلاعة قبل أن يتحول ليشارك فقراء مصر همومهم وأحلامهم المتواضعة .. ويغنى سيد درويش (١) : خدتنى ع البيت بالحيلة .. وسقتنى كونياك على بيرة .. وبتنا تلك دئ الليلة .. وقلعنا وبقينا ع الباهلى !.

وغير الأغانى كانت هناك الكتب .. كتب الجنس التى يصفها عبد المنعم شميس بكتب الفساد ويذكر بعض عناوينها (٢) مثل كتب جحا وأبو النواس .. هارون الرشيد والجارية البيضاء وكتب أخرى كثيرة .

وفى المسرح .. لم يكن الحال أكثر رقيا أو ترفعا .. ويؤكد الدكتور على الراعى(٣) أن مسرحيات الإرتجال تضمنت إشارات صريحة لأجزاء الجسم .. فنجد مثلا المقابل الدارج لكلمة مؤخرة .. وكانت الطبلة تعنى غشاء البكارة .. والكالون هو عضو المرأة التناسلى .. والمفتاح كان قضيب الرجل .. وكانت هناك الكثير من الألفاظ الصارخة والبذيئة .

والصحافة أيضا لم تكن تتورع عن إستخدام تلك الألفاظ فى تعليقاتها وحواراتها .. ويحكى لنا الصحفى الكبير مصطفى أمين (٤) عن مجلة الكشكول حين كتبت كيف شاهد الناس النحاس باشا يطرطر فى سكة الهرم .. وتساءلت عما إذا كان هذا العمل الفاضح يتفق مع جلال وصفة صاحب الدولة وإختتمت المجلة حديثها مؤكدة .. ياضيعة الألقاب !.. فما كان من جريدة البلاغ – المؤيدة للنحاس – إلا أن كتبت فى ردها على الكشكول قائلة : إستحوا يادواعر وأعقبت كلمة دواعر بصفات أخرى ليست هناك ضرورة لتكرارها .. أما مجلة روز اليوسف .. فنشرت موالا موجها إلى صاحب الكشكول يصف والدته بأنها عاهرة ويؤكد أن زوجته مستباحة الشرف والعرض. وكانت هناك بالطبع الأعشاب والأقراص والوصفات المقوية التي راج سوقها في أوساط الرجال.. وكانت هناك قضايا أو حكايات الخيانة والعشق والزنا.. ويحكي لنا المهندس والفنان والمستشرق الفرنسي بيريس دافين فى مذكراته عن الفترة التى قضاها بمصر منذ أواخر عهد محمد على وحتى أواخر عهد الخديوى إسماعيل حيث أشهر إسلامه وسمى نفسه إدريس أفندى .. ويكتب لنا إدريس أفندى يحكى عما إستوقفه ورآه .. ويقول(٥) أن الملاوطة رزيلة شائعة جدا فى مصر لاسيما بين الأتراك الذين لايتحرجون من مزاولتها جهرا .. يحكى إدريس أفندى أيضا

---

(١) مجدى نجيب – أهل المغنى – كتاب الإذاعة والتليفزيون – ١٩٧٢

(٢) عبد المنعم شميس – حرافيش القاهرة – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٨٩

(٣) د. على الراعى – الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى – كتاب الهلال – ١٩٦٨

(٤) مصطفى أمين – من عشرة لعشرين – المكتب المصرى الحديث – ١٩٨١

(٥) بيريس دافن – إدريس أفندى فى مصر – ترجمة د. أنور لوقا – كتاب اليوم – ١٩٩١

عما شاهده فى دمياط أثناء أحد الموالد حيث تزاحم جمهور غفير حول قرد ضخم يلعب مع غلام صغير ويقول : إستولى ذلك الحيوان الشهوانى على الغلام وإنهال عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام ولا يستطيع غير المجنى عليه أن يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعا تاما .. وكان جميع المتفرجين يصفقون بل وإجترأت النساء على أن تشهد تلك المخازى .. ويعقب إدريس أفندى قائلا : رأيت فتيات يتلذذن بممارسة الدعارة حيث يأتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التى لايعيرها الشرقيون من الإهتمام مايعيرون عذراوية أجسامهن !.

هذة هى بعض .. أو قليل .. من المتاعب والأزمات الجنسية التى إضطرت مصر أن تحملها فوق رأسها وتتظاهر بنسيانها أو تتجاهلها وهى تقاتل ضد الملك والإنجليز .. متاعب وأزمات لم يكن الشفاء منها مستحيلا بقدر ما كان ضروريا .. متاعب وأزمات كان أخطر ما فيها أنها تغطت بقناع سميك إسمه الكفاح الوطنى والنضال من أجل الإستقلال .. وكان علاجها أو حتى الإلتفات إليها وتوقع مخاطرها القادمة على الطريق هو آخر ما يمكن أن يهتم به القصر أو الإنجليز .. ومن قبيل التجنى والتعسف أن نجلس اليوم ونعتب على مثقفى مصر ومفكريها فى ذلك الوقت على أنهم لم يلتفتوا إلى كل ما يحدث وما سوف يحدث .. ومع ذلك .. كان هناك من رأى .. ومن أحس بالقلق أو الخوف .. أمينة السعيد مثلا .. التى إختارت أن تكتب فى مجلة المصور(١) تحقيقا مثيرا بالغ الأهمية بعنوان (ألغينا البغاء ولم نحم محترفاته) ومقدمة التحقيق تستحق أن نقدمها كاملة وفيها تقول أمينة السعيد : هل ألغى البغاء الرسمى فى مصر حقا ؟ .. مضابط البرلمان تقول نعم ووثائق وزارتى الداخلية والشئون الإجتماعية تقول نعم .. بينما يقول الواقع أنه ألغى بطريقة رسمية فقط زادت من تفشى البغاء السرى وهو أدهى من الرسمى .. وأشد خطرا .. فإلى الذين إغتبطوا بذلك الإلغاء وفاخروا بأن ساعدوا عليه نهدى هذا التحقيق .

وكان البغاء الرسمى قد الغى فى مصر بالامر العسكرى رقم ٧٦ لسنة ١٩٤٩ .. ثم صدر أول قانون بشأن مكافحة الدعارة وكان القانون رقم ٦٨ لسنة ١٩٥١ .. ويبدو أن هذا القانون كان بإختصار جزءا من نوايانا الطيبة التى قادتنا إلى جهنم !.

فكما تقول أمينة السعيد فى تحقيقها أن إلغاء البغاء قد أسدل ستاراً كثيفاً لم يعد يبدو منه غير أخبار قصيرة تنشرها الصحف عن مهاجمة بوليس الآداب لبيت مشبوه والقبض على عدد من النساء والرجال .. فيغتبط الجميع لحرص الإدارة على حماية الشرف والأخلاق .. وتصل أمينة السعيد بتحقيقها هذا إلى عدة نتائج من المؤكد أنها بقيت كلام جرايد لم يكترث به أحد إذا كان قدر له قراءته .. نتائج تؤكد أن أية حلول أمنية مهما كانت صارمة قاسية لن تجدى شيئا .. ومجرد الإكتفاء بالقانون الثامن والستين خلق لنا دائرة مغلقة، وطريقا لانهاية له .. رذيلة .. فقبض .. فمحاكمة .. فمراقبة .. فرذيلة .. فقبض .. فمحاكمة .. فمراقبة .. حلقة مفرغة كل خطوة فيها تقود إلى الأخرى فى تعاقب منتظم فرضته الأوضاع المختلفة والقوانين الناقصة .. وطالبت أمينة السعيد بتعديل قوانين الأحوال الشخصية بما يكفل إستقرار الأسرة .. وحماية الخادمات الصغيرات من شرور ذوى النفوس الوضيعة .. وفتح مؤسسات إجبارية لدراسة أحوال بنات الليل دراسة صحيحة تحت إشراف طبى ونفسى ومعونة علمية إجتماعية .. وأن يوكل أمر البغاء إلى بوليس إجتماعى يخضع لقسم الخدمات بوزارة الشئون الإجتماعية .

(١) مجلة المصور - عدد ١٩٥٢/٤/١١

لم يستجب أحد !.

لم يهتم أحد !.

ونقرأ في جريدة المصرى بعد ثلاثة شهور [١] عن بطلان وفساد إجراءات الضبط والتفتيش التى يقوم بها ضباط مكتب الآداب.. والتى أدت إلى صدور أحكام بالبراءة فى العديد من القضايا .. وأشارت الجريدة .. وجرائد أخرى صدرت فى تلك الأيام الأولى من عمر الثورة .. إلى أن البراءة ومشكلة إجراءات الضبط ليست هى القضية وإنما هى إنتشار الجرائم الجنسية وزيادة عدد جرائم الآداب .. ونجد بعضا من تفسير ذلك الإنتشار وتلك الزيادة فيما تقوله مجلة المصور[٢] بأن الأزمة الإقتصادية فرضت نفسها على الحياة الإجتماعية فتأخر سن الزواج إلى مابعد سن الثلاثين والخامسة والثلاثين للرجال المتعلمين .

تأخر سن الزواج .. وزادت مساحة الإغراء فى عيون وتحت جلد الرجال والشباب .. وإشتعلت أندية القاهرة بمسابقات ملكات الجمال والرقص .. والفتيات أردن إستغلال كل حرية ممكنة أو متاحة وكأنهن ينتقمن من سنوات طوال حفلت بالقهر والقيود والحرمان .. حتى داخل أسوار الجامعة .. وعلى سبيل المثال يكتب طالب إسمه مفرح وهبى رسالة غاضبة تنشرها له مجلة المصور[٣] ويقول فيها : الطالبات يذهبن إلى الجامعة كأنهن ذاهبات إلى حفلة راقصة .. شعورهن منسقة على طريقة جنيفر جونس .. خصلة على الجانب الأيمن وخصلة على الجانب الأيسر .. ملابسهن ضيقة .. يستخدمن الأحمر والبودرة .. أما مضغ اللبان وطرقعته فى أثناء المحاضرات فقد تحول إلى بدعة شائعة مألوفة .. حتى أصبح يتعذر على الإنسان أن يفرق بين الطالبات وكومبارس السينما .

من أجل ذلك .. وبكل ذلك .. بقيت الدعارة قائمة ومزدهرة .. والزنا أيضا .. والكتب الجنسية بقيت تباع وتلقى رواجا يتزايد يوما بعد يوم .. والجرائد والمجلات لاتزال تعلن عن أقراص فايتابس التى تعيد إلى الرجل رجولته وحيويته .

ومن جديد .. تعود أمينة السعيد تطرق الباب الذى لا يقترب منه أحد ويخاف أن يفتحه كل أحد .. وهى هذه المرة تدخل بنا بيوت الناس وقلوب الفتيات .. وفى أول عام ١٩٥٣ .. تتوقف أمينة السعيد وتلتقط أنفاسها وتسترجع هموم القراء ومشاكلهم عبر مائتى أسبوع .. أى قرابة أربعة سنوات من عام ١٩٤٩ إلى آخر عام ١٩٥٢ .. وإختارت أمينة السعيد عنوانا لمقالها[٤] هو .. ٢٠٠ أسبوع مع متاعب المجتمع .. ومن خلال الاف الرسائل تحدد أمينة السعيد مشكل المجتمع المصرى قبل الثورة بثلاثة مشاكل .. مشاكل العادات والتقاليد الحائرة بين القديم والجديد .. مشاكل الزواج .. الأمراض النفسية والعادات الجنسية المرذولة .. وتعلق أمينة السعيد على المشكلة الأخيرة وتقول : لو كنا نشرف على تربية أولادنا فى عهد المراهقة ونبعدهم عن العوامل الجنسية المثيرة ماحدثت الأخطاء .. وتؤكد أن الإحصاء الأمين الدقيق للرسائل .. والأرقام التى لاتعرف المجاملة تكشف أننا – مصر قبل الثورة – نعيش فى مجتمع فاسد .. وقد بلغ عدد الحالات التى تتضمن لونا سافرا من الإنحلال الخلقى ثلاثمائة وخمسين حالة أي بنسبة ستة عشر

(١) جريدة المصرى – عدد ١٩٥٢/٧/١٧

(٢) مجلة المصور – عدد ١٩٥٢/٥/٩

(٣) مجلة المصور – عدد ١٩٥٢/٢/١٥

(٤) مجلة المصور – عدد ١٩٥٣/١/٢

بالمائة من مجموع الحالات والمشاكل .. وهى نسبة خطيرة جدا فى مجتمع شرقى يدين بتقاليد موروثة تقوم على تمجيد العفة والشرف . وفى النهاية تختتم أمينة السعيد دراستها قائلة أن هذا الفساد الخلقى يرجع إلى إنحلال أخلاق عدد كبير من الرجال أما النساء فهن فى أغلب الأحيان ضحية .. ٩٠٪ من بناتنا ونسائنا يسقطن لاعن رغبة فى السقوط وإنما ينسقن إلى الهاوية بفعل تطورات لم تكن فى الحسبان .

ولا شك أن أمينة السعيد فى إتهامها وتشكيكها لأخلاق الرجال لم تكن تقصد الدفاع عن المرأة والفتاة المصرية .. بقدر ما كانت تريد الدفاع عن الحرية التى نالتها الأنثى فى مصر بعد دعوة قاسم أمين .. فقد بدأت الإنتقادات يعلو صوتها .. وتعددت محاولات التبرير لكل ما يحدث ولا تشير أصابع الإتهام إلا إلى قاسم أمين ودعوة قاسم أمين .. ولعل تلك الإتهامات هى ما دفعت بالكاتب الكبير عباس محمود العقاد لأن يخصص إحدى مقالاته فى مجلة الرسالة (١) للدفاع عن قاسم أمين يقول فيه أن هذا الشطط الذى نراه اليوم إنما نشأ من أمور كثيرة بمعزل عن دعوة قاسم أمين .. نشأ من رؤية المرأة الأوروبية فى مصر بالمئات والالوف .. ثم هجوم الناس على المحاكاة العمياء بغير تفرقة بين الأحوال عندنا والأحوال عند الأوروبيين .. ونشأ من الصور المتحركة التى تعرض لنا كل يوم مفاتن الحياة الغرامية بين الجنسين على نحو يراد به الإغراء وقلما يراد به التهذيب .. ونشأ من الأزمات الإقتصادية وتداول الضنك والرخاء وفى هذا التداول ما فيه من إفساد الأخلاق وزلزلة العرف والبيئة .

وهكذا نرى أن العقاد .. دافع عن قاسم أمين .. لكنه لم ينف أن هناك تجاوزات .. وأن الجنس فى طريقه إلى أن يبقى مشكلة .. أزمة .. قضية ساخنة مضطربة .. تجاوزات بقيت وزادت حتى اللحظات الأخيرة قبل قيام الثورة فى الثالث والعشرين من يوليو .. حتى وإن لم تكن ملامح مصر الجنسية فى تلك الأيام تشير إلى إنفجار قادم أو إنحلال قريب يدق الباب .. على العكس .. كان المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ينقسم قسمين لاتربطهما ببعض صلة أو تشابه .. قسم يضم طبقات مكنتها الحياة السهلة والرفاهية الممكنة والإنبهار بالأوربيين ومجاراتهم فى الإغتراف من الجنس ماتشاء .. وطبقات تمسكت بالدين والتقاليد وسائر القوانين الأخلاقية والإجتماعية حتى وإن أرهقها وأضناها هذا الإلتزام .. القسم الأول نرى تفاصيله وملامحه مثلا فى أفلام محمد عبد الوهاب حيث النساء الجميلات المهمومات بالأناقة والجاذبية الحالمات بالحب فى الليل والنهار .. والقسم الثانى نعانى معاناته كلما قرأنا على سبيل المثال روايات نجيب محفوظ جبرتى مصر الثلاثينات والأربعينات .. بالتحديد رواية مثل القاهرة الجديدة .. ورواية أخرى مثل بداية ونهاية .. ولايعنى هذا التقسيم " النظرى " أن كل الأغنياء تعروا وكل الفقراء إحتشموا .. ولكن كانت هناك إستثناءات بقيت إستثناءات دون أن تربك حسابات الواقع الإجتماعى المصرى .. وبقى الجنس مستكينا غالبا .. وبقيت العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج علاقات محرمة يرفضها الناس إلى حد الموت أو الإنتحار أو القتل أو القيام بمظاهرة إحتجاج .. مثل تلك المظاهرة التى قامت (٢) حين وضعت الملكة ناريمان ولى العهد الذى لم يكمل شهره التاسع .. فإعتقد الكثيرون قيام علاقة سابقة لأوانها بين الملك والملكة فخرج المصريون الغاضبون يتظاهرون ويهتفون : ناريمان ناريمان

---

(١) مجلة الرسالة - عدد ١٩٤٣/٥/٣

(٢) صلاح عيسى - محاكمة فؤاد سراج الدين - الجزء الأول - مدبولى - ١٩٨٣

.. إبنك عنده سنان !.. أو أن تغضب قرية بأكملها (١) على فتاة لم تلتزم بالأخلاق .. القرية هى بلدية مهدى التابعة لمركز ههيا بمحافظة الشرقية .. وقد تقدم أهلها بشكوى إلى الحاكم العسكرى العام يطلبون منه إبعاد فتاة من البلدة إسمها كوكب السيد الشهيرة بلهاليبو .. وكانت لهاليبو – كعادة كل راقصاتنا حتى اليوم – قد إحترفت الرقص وإتخذت منه ستارا لممارسة الدعارة .. وأمام ضابط بوليس مركز ههيا قالت لهاليبو أن الرجال كانوا يتساقطون من حولها صرعى جمالها ويفدون إليها يحملون لها الهدايا فتتنازل وتقبلها .. لكنها كانت تصد المتزوجين إشفاقا على زوجاتهم وأولادهم .. وإنتهى الأمر بلهاليبو وراء قضبان السجن .

أيضا .. لم يكن بإستطاعة الإنجليز .. أو الحكومات المتوالية .. أو الملك .. أن يجعلوا من الدعارة الرسمية المقننة فى بلد مثل مصر أمرا واقعا أو نشاطا طبيعيا .. فإذا كانت الدعارة قد تحولت إلى مهنة رسمية بعد صدور منشور نظارة الداخلية فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٨٨٢ .. فإن الدكتور نيازى حتاتة يصف لنا (٢) كيف بدأ الرأى العام فى مصر يثور ضد الدعارة منذ عام ١٩٢٥ .. وتتعالى أصوات الإحتجاج حتى تضطر الحكومة فى عام ١٩٣٥ لتشكيل لجنة لفحص تلك القضية .. وبعد ثلاث سنوات تجئ توصية اللجنة بضرورة إلغاء الدعارة .. ويعتمد مجلس الوزراء تلك التوصية ويبدأ الإلغاء التدريجى منذ عام ١٩٣٩ حتى يلغى تماما بالأمر العسكرى رقم ٧٦ الصادر عام ١٩٤٩.

إذن .. ومن كل تلك القراءات والتأملات .. نخرج بنتيجة تشير إلى أن المجتمع الأخلاقى المصرى حتى يوم الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ .. مجتمع مستقر إلى حد ما .. أوراقه مرتبة .. فيه من يسقط .. وفيه من تتنازل .. فيه من يزنى .. وفيه من تتعرى .. لكنه يبقى متماسكا .. حتى وإن كان مضطرا لممارسة تفاصيل الحياة كل يوم وهو يعيش فوق قنبلة بالغة الحساسية شديدة الإنفجار .

وحين جاء جمال عبد الناصر وضباطه الأحرار أصحاب الثورة .. نسى الجميع ضرورة أن يتقدم أحدهم لينزع فتيل القنبلة .

ولاأحد يستطيع اليوم أن يزعم أن نزع فتيل القنبلة كان مهمة سهلة .. فالجنس فى مصر بقى دائما مشكلة صعبة معقدة سواء أيام الفراعنة الأولى .. أو أيام الغزوات والإحتلال ومواسم الضعف والإنحلال .. أو حتى فى تلك الفترات القليلة التى إستقرت فيها مصر وعقدت هدنة السلام والوئام مع التاريخ والبشر والزمن .. ولايرجع ذلك إلى الجنس وطبيعته وأسراره ومعناه وقيمته وضرورته عند المصريين فقط .. وإنما يرجع أيضا إلى الثورات وما تحدثه من خلل وفراغ إجتماعى .. فحين تقوم الثورة .. أى ثورة .. تغلق ملف القضية الأولى أو القضية الوحيدة غالبا .. قضية الإستعمار أو الظلم أو الطغيان .. وهنا تبرز على السطح كل ما تراكم من أزمات ومشاكل وقضايا .. وكل الثورات فى التاريخ إقترنت بأيام أو سنوات من الإنحلال الإجتماعى والتسيب الجنسى .. كل ثورات العالم أعقبتها هزات إجتماعية مخيفة ومروعة .. وكل ثوار العالم يعنيهم نجاح ثورتهم ولا يعنيهم من سيدفع الثمن .. ولو تعين على كل ثائر أن يحسب مقدما ماستؤدى إليه ثورته من خلخلة العلاقات والقواعد الإجتماعية والأخلاقية .. ماعرف العالم كله إختراعا إسمه الثورة .. وقد قرأنا عما حدث بعد الثورة الإنجليزية والأمريكية والروسية .. وعلى سبيل المثال

(١) مجلة المصور – عدد ١٩٥٢/٢/٢٢

(٢) د. محمد نيازى حتاتة – جرائم البغاء – مكتبة وهبة – ١٩٨٣

يتحدث أنيس منصور عن الثورة الفرنسية ويقول [١] أنه فى سنوات الثورة الأولى .. ثار الناس فإنفتحت الأرض تحت أقدام الفرنسيين فخرجت من الشقوق الإجتماعية الوف الغانيات وتحولن إلى ثوريات وأصبحت الرذيلة نوعا من الهدايا تقدمها النساء للشباب .. وهكذا أيضا يصف حسين عبد القادر [٢] ما حدث فى أرتيريا بعد أن ثارت فى وجه الإستعمار الأثيوبى .. ويقول أن الثوار والشعب كله فوجئ بأخطر ما يخلفه إستعمار فى أي بلد وفي كل بلد .. الخمور .. بنات البغاء .. الإنحلال الإجتماعى والأخلاقى .

وإذا كان التاريخ المصرى شاهدا على أن مصر لم تلد الوف العاهرات حين ثارت مثل فرنسا أو أن ثورتها لم تجد فى الشوارع والبيوت والبارات إنحلالا خلقيا مثل أرتيريا .. فإن نفس هذا التاريخ شاهد على أن البخار المكتوم فى الصدور والأعماق قد بدأ يجد متنفسا فى عديد من الثقوب التى ظهرت هنا وهناك .. وفى سنوات الثورة الأولى على سبيل المثال .. إزدهرت تجارة بنطلونات " لونجر " النسائية الضيقة جدا لتبرز كل تفاصيل الجسد .. وإنتشرت أيضا موضة البنطلونات القصيرة فى الأندية وعلى شواطئ صيف الإسكندرية مثل ستانلى وجليم .. وغالبا ماكانت الفتيات يرتدين مع هذة البنطلونات. بلوزات تكشف الأكتاف وجزء " لابأس به " من الصدر .. وزاد إقبال النساء من مختلف الأعمار والطبقات على شراء " الكورسيهات " من أجل المزيد من الرشاقة والجاذبية والإثارة .. أيضا بدأت المحلات الكبرى تتنافس وتتبارى على بيع " سوتيان الميدن فورم " حيث كانت الحملات الإعلانية فى صحف ومجلات تلك الفترة تؤكد أنه يمنح كل من ترتديه صدرا يتوارى أمامه خجلا صدر جين راسل أو جينا لولو بريجيدا .. وكانت هناك محلات كبرى مثل " شيكوريل " تفاخر بالإنفراد ببيع نوع آخر من " السوتيانات " ماركة بوسنيه المحشوة بالمطاط من أجل زيادة حجم الثدى وإستكمال إستدارته .. وكان من الطبيعي أن يلتقى الشباب والفتيات يقضين ليال الصيف الطوال أو أمسيات الشتاء الدافئة فى تعلم وممارسة رقصة السامبا والرومبا الشائعة فى تلك الأيام .. وبلغ الأمر أن جروء ملهى على شاطئ ستانلى فى الإسكندرية إسمه الكوت دازور[٣] على تقديم فقرة على المسرح عبارة عن عرض تقوم به فتاتان تؤدى إحداهما دور الدمية وتؤدى الأخرى دور الخادمة المسئولة عن تنظيف الدمية .. وهكذا – فى كل ليلة – كانت الخادمة تخلع ملابس الدمية قطعة قطعة حتى تبقى القطعة الأخيرة .. وأيضا تنزعها الخادمة ولكنها تضع مكانها ورقة على هيئة قلب مكتوب فوقها باللغة الفرنسية .. الرقابة !.. وكانت تلك الفقرة – بالطبع – تلقى مزيدا من الإهتمام والتصفيق والنجاح ليلة وراء ليلة .. وفى كل مساء كان يتم إستئذان الحاضرين من رواد الملهى قبل تقديم الفقرة .. وغنى عن الذكر أنه مامن ليلة رفض فيها أحد تقديم تلك الفقرة أو إحتج وإعترض على مشاهدتها.

وبالطبع لم يكن الجنس فى تلك الفترة مجرد متعة خالصة .. فقانون الجنس الدائم والأبدى ينص على أنه بقدر ماتكون المتعة .. تكون الجريمة .. وبحجم الرغبة تأتى نقطة الدم .. فكانت هناك الجرائم سواء بدافع الحفاظ على الشرف أو خوفا من الفضيحة .. وعلى سبيل المثال لم يكن هناك حديث فى بورسعيد كلها طوال صيف عام ١٩٥٥ إلا عن فتاتين .. الأولى طالبة بإحدى المدارس الفرنسية شرعت فى الإنتحار .. والثانية طالبة تدرس الفنون الطرزية وإنتحرت بالفعل ..

(١) أنيس منصور – من أول نظرة – دار الشروق – ١٩٨٩
(٢) أخبار الحوادث – ١٩٩٢/٩/١٧
(٣) مجلة الجيل الجديد – عدد ١٩٥٥/٨/٢٩

والسبب واحد .. ضبط الناس لهما في وضع غرامي على الشاطئ الخالي شبه المظلم بعد الساعة السابعة مساء .. ولم يوجه أحد الإتهام لمجتمع بدأ يتورط أكثر مما ينبغي ومما يتحمل .. ومناخ يغرى الفتاة بالتنازل دون أن يكون على إستعداد لقبول النتائج والإعتراف بها .. مناخ أعطى لروايات إحسان عبد القدوس صخبها وضجيجها وشعبيتها الطاغية في تلك الأيام .حيث لم يجتمع رجل وإمرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .. وإحسان رابعهما .. وكان من الممكن أن يحل قلم إحسان ورواياته الكثير من أزمات مصر الجنسية في ذلك الوقت لولا أنه آثر الوقوف على الشاطئ الآمن البعيد بدلا من مغامرة قد تنتهى بالغرق في البحر .. إكتفى إحسان بالحكايات المثيرة عن بنات الخمسينات في مصر ورجال ونساء الطبقات الجديدة التي زرعتها الثورة في نسيج المجتمع المصرى .. لم يتوغل ويعرى المجتمع والواقع مثلما تعرت بطلاته من فرط الرغبة والشهوة .. فإذا كان لإحسان عبد القدوس فضل الريادة في إقتحام عالم البنت المصرية لأول مرة في التاريخ الأدبى المصرى والتاريخ الإجتماعى أيضا .. فإنه من المؤكد قد إكتفى بفتح الباب دون أن يجروء على الدخول .. ويقول د. غالى شكرى[1] أن أزمة الفتاة المصرية .. والعربية – بشكل عام – تتخذ من قضية الجنس إطارا تعبيريا عنها .. وقد أدرك إحسان هذة الحقيقة دون عناء .. ولذلك كان تخصصه في الأدب الجنسى – إذا صح التعبير – نتاجا لتخصصه في أزمة الفتاة المصرية .. أسجل ذلك أيضا إنصافا للحقيقة .. غير أن الحقيقة كذلك تقول أن إحسان أغفل بقية العناصر التى أسهمت في صياغة أزمة الفتاة في مجتمعنا .. بحيث طغى الجنس طغيانا لايمت بصلة إلى واقع الأزمة من جهة .. ويضفى عليها جوا مرضيا من جهة أخرى .. ويحول دون الرؤية العميقة الشاملة للأزمة من جهة ثالثة .

وأعتقد . أن غالى شكرى لم يخطئ التقييم أو الرؤية .. فكل روايات أحسان عبد القدوس التى كتبها منذ عام ١٩٥٤ والتى تبدأ بالرواية الشهيرة " لاأنام " تشير إلى مشكلة الجنس لكنها لاتقدم تفاصيلا أو أسبابا أو دوافعا أو حتى تتنبأ بالمستقبل كما هو مفترض في كل أدب عظيم .. ففى رواية " أنا حرة " مثلا .. نرى أمينة تعترض على كل قيودها .. تماما مثل البنت المصرية في الخمسينات .. ولكن حرية أمينة تنتهى بالحرية الجنسية حيث تقيم مع عباس حبيبها دون زواج .. لم يشرح لنا إحسان دوافع أمينة وظروفها الداخلية لنلمس الواقع المصرى ونتحسسه بهمومه وأزماته وقضاياه .. فبدون شك لمست حكاية أمينة وقتالها من أجل حريتها وترا ما في أعماق أى فتاة مصرية في ذلك الوقت.. بدليل نجاحها الهائل كقصة مسلسلة ورواية منشورة وفيلم سينمائى .. أنا أعرف أن أى فنان ليس مطالبا بأن يرفق بالعمل الفنى الذى يقدمه إلينا بحثا إجتماعيا عن مضمون وأبطال العمل .. إنما أقصد ألا يكون البطل أو البطلة جاءت من الهواء دون ملامح أو جذور .. فإذا كانت ملامح البنت المصرية هى ملامح أمينة بطلة إحسان .. فإن الجذور التى أغفلها إحسان هى الواقع المصرى الذى إهتز بعنف .. وقسوة .. بعد ثورة يوليو .

واقع .. ومجتمع .. وقضايا تفجرت كانت تتطلب رأى ومشورة خبراء .. علماء .. عقول مهمومة بأوجاع مصر مغموسة أصابعها في لحم الناس والشوارع والبيوت .. ومن المؤكد أن من قاموا بالثورة لم يكونوا من العلماء أو الخبراء .. وإنما .. وكما يقول عادل حمودة [2] أن تنظيم الضباط

---

(١) د. غالى شكرى – أزمة الجنس في القصة العربية – دار الشروق – ١٩٩١

(٢) عادل حمودة – أزمة المثقفين وثورة يوليو – مدبولى – ١٩٨٣

الأحرار كان .. سمك لبن تمر هندى .. كان يضم الرومانسيين والوطنيين بلا هوية فكرية .. والشيوعيين .. والإخوان .. ومن أطلق عليهم الكمالة .. كمالة العدد .. حتى يكون للتنظيم وجود فى أكبر عدد ممكن من وحدات الجيش وتشكيلاته .. وهؤلاء هم الذين قال عنهم جمال عبد الناصر أنه جمعهم من الغرز والبارات !.

لكن بصرف النظر عن إنتماءات هؤلاء الضباط السياسية أو الفكرية أو الثقافية .. يبقى فى النهاية أنهم كانوا جميعا ضباطا .. ويقول أحمد حمروش(١) أن طبيعة الضباط وعزلتهم عن المجتمع تجعل منهم فئة خاصة تتعامل مع الحياة بالأسلوب الذى إعتادوه فى الجيش والذى يغلق دائرة التفكير غالبا فى حدود إعطاء الأوامر وتنفيذها .

ومن المؤكد أن تلك الطبيعة العسكرية .. الجافة .. كان لها دورها الهام فى توجيه فكر هؤلاء الضباط .. فغلب الطابع العسكرى الذى كانت تفرضه النشأة .. ثم شاركته الصبغة السياسية بحكم طبيعة الأمور فى مصر وقتها .. وهكذا نرى أن التوجه الإجتماعى لثورة يوليو كان الغرض منه سياسيا أكثر من كونه إنجازا إجتماعيا كمجانية التعليم أو العلاج على سبيل المثال .

لكن هيكل يرفض تماما هذا الرأى .. إنه مبدئيا يعترف أن مصر وقت قيام الثورة كانت تعانى أزمة إجتماعية حادة يمكن تلخيصها بصراع طبقى على أشده حريقا ودما .. ويتسائل هيكل (٢) .. هل الصراع الطبقى ظاهرة إخترعها ولفقها جمال عبد الناصر ؟.. وهل كانت مصر قبل الثورة آمنة سالمة كلؤلؤة فى صدفة مغلقة نائمة مع أحلامها فى أعماق البحر بعيدة عن العالم وعن التاريخ ؟.. والإجابة التى يقدمها هيكل أيضا هى أن جمال عبد الناصر أطفأ الحريق وحقن الدم ووجد صيغة معقولة للتحول الإجتماعى .

وهى إجابة لا يقرها ثلاثة من كبار مفكرى وكتاب مصر .. فأحمد بهاء الدين مثلا .. يرى (٣) أن ثورة يوليو لم تصاحبها تربية إجتماعية وأخلاق إجتماعية جديدة وكانت هذه هى المشكلة .. وصلاح عيسى يؤكد (٤) أن العدالة الإجتماعية كأحد شعارات الثورة فى ذلك الوقت كانت لا تعنى أكثر من مجرد مجموعة من الإصلاحات مع بقاء الترتيب الإجتماعى كما هو .. وأحمد عباس صالح يختصر الوجه الإجتماعى للثورة ويقول (٥) أنها فى أحد أبعادها كانت ثورة طبقة وسطى كانت محرومة من الوظائف .. وكان هاجسها الأول هو إيجاد وظيفة .

وأنا بالقطع مقتنع تماما بما قاله هيكل .. وأثق فى أن مصر قبل الثورة لم تكن اللؤلؤة الآمنة فى الصدفة المغلقة النائمة فى البحر .. وقدمت أكثر من دليل على كل ما كانت تموج به مصر من إرتعاشات وصراعات إجتماعية وأخلاقية وجنسية .. لكننى بالمقابل أرفض .. أو لا أقتنع .. بأن عبد الناصر قد أطفأ حريق مصر أو بعبارة أدق .. حرائقها الإجتماعية فى ذلك الوقت .. بل يبدو الأمر لى وكأن الثوار الذين تولوا مقاليد الحكم والسلطة تخيلوا جميعا أن المصريين كانوا يحيون حياة مثالية لم يكن يعيبها إلا بعض الأزمات الإقتصادية والعرش الملكى والإحتلال الإنجليزى .. وأنه إذا ما تم طرد الملك والإنجليز وتعليم الصغار بالمجان وتوزيع أراض الباشوات على صغار

---

(١) أحمد حمروش – قصة ثورة ٢٣ يوليو – ١٩٨٣

(٢) محمد حسنين هيكل – لمصر .. لا لعبد الناصر – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ١٩٨٧

(٣) عمر بطيشة – شاهد على العصر – كتاب اليوم – ١٩٨٤

(٤) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

(٥) مجلة الهلال – عدد ١٩٩٢/٤

الفلاحين وفتح باب الترقى عن آخره أمام موظفى مصر .. فسوف تغدو الأمور على أفضل وخير ما يرام .. وأكاد أجزم أن الثورة كلها قد تحولت فى آخر الأمر إلى واحدة من أهم أسباب الإنفجار الجنسى التى تكومت فى قلب مصر وحناياها طوال أربعين عاما بعد قيام الثورة .. أكاد أجزم أنه من نتائج ثورة يوليو .. أو من خطاياها .. أنها بدأت ما يمكننى أن أسميه .. تجربة الجنس من أعلى !.

بدأها بعض كبار الثوار بحماية ومعاونة بعض أميرات الأسرة المالكة وبعض سيدات الطبقة الثرية فى مصر .

صفقة .. إستمتع فيها الضباط بأجساد نساء بالأمس كانوا على القمة .. وإستطاعت من خلالها النساء الخروج من مصر بأموالهن ومجوهراتهن .. وحين توقف نزيف حقائب الثروة المهاجرة .. كان من المؤكد أن هناك من إستهواه اللعب بجسد إمرأة تنتمى إلى طبقة تعلو الطبقة التى ينتمى هو إليها .

ويقول كرين برنتون فى دراسته الشيقة (١) عن الثورات فى العالم .. أنه ليست هناك ثورة واحدة إستبدلت تماما الطبقة الحاكمة القديمة بطبقة جديدة تماما .. إنما - وبعد إنتهاء فترة النقاهة الثورية - يأتى الإندماج بين الحكام القدامى والحكام الجدد .. ونجد بعض أفراد الطبقة القديمة لا يفتقدون الواقعية ويستطيعون التكيف والتعامل مع هذا الواقع الجديد .. ونجد أفرادا من الجدد يحالفهم الحظ فيقهرون إحساسهم بالكبت مع بعض الحكام القدامى .

ومن الواضح أن كثيرا من ثوار يوليو حالفهم الحظ .. وكثير من سيدات الطبقة الراقية القديمة كن فى غاية الواقعية والقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة .. فثورة يوليو .. كما يقول أحمد حمروش (٢) .. لم تكن إنقلاب جنرالات .. لكنها كانت حركة صغار الضباط .. وجمال عبد الناصر الرئيس المنتخب للجنة القيادية للضباط الأحرار .. لم يكن قد أكمل بعد عامه الخامس والثلاثين .. ويشير أحمد أبو الفتح (٣) إلى أن كل أعضاء مجلس القيادة .. فيما عدا اللواء محمد نجيب .. كانوا من الشبان الذين لم يتجاوزوا الأربعين من العمر .. وكان التغير الذى حدث فى مركزهم الإجتماعى بعد الحركة كبيرا .. بل كبيرا جدا إذ تحولوا من مجرد ضباط برتب صغيرة إلى حكام يحكمون البلد ويتصرفون فى مقاليدها .. وإنفتحت أمامهم الأبواب .

ووجد هؤلاء الشبان القصور ترحب بهم .. وأجمل السيدات تحتفى بهم .. فتورط الكثيرون منهم فى مغامرات وفى حياة مليئة بالمآخذ !.

أما هيكل (٤) .. فيقول أن الثورى حين يصل إلى الحكم فى عملية التغيير الكبرى .. يجد نفسه بالطبيعة على قمة المجتمع قريبا من البقايا والرواسب التى يريد تغييرها .. ويواصل هيكل الحديث قائلا .. وأنا أعرف ثوريين فقدوا ثوريتهم فى صالونات القاهرة الحلوة الناعمة وفى نواديها ومغانيها .. لقد بهرهم العالم المعطر الذى تفتحت أبوابه أمامهم .

وفى هذا العالم الناعم المعطر .. ولدت الحكايات .. المغامرات .. الإشاعات .. الفضائح أيضا .. ولعل واحدة من أشهر حكايات تلك الأيام هى حكاية الحب .. أو الصداقة الحميمة .. التى جمعت

(١) كرين برنتون - دراسة تحليلية للثورات - ترجمة عبد العزيز فهمى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - ١٩٦٦!

(٢) أحمد حمروش - قصة ثورة ٢٣ يوليو - ١٩٨٣

(٣) أحمد أبو الفتح - جمال عبد الناصر - المكتب المصرى الحديث - ١٩٩١

(٤) محمد حسنين هيكل - أزمة المثقفين - دار الأدباء - ١٩٦١

بين الأميرة فايزة شقيقة الملك فاروق .. وبين صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة .. الأميرة إمرأة رائعة الجمال وصلاح شاب ثائر غاضب وجد نفسه فجأة داخل قصور العائلة المالكة والناعمة .. الأميرة لم تبلغ أخلاقها درجة جمالها .. إشتهرت بقصص غرامها المثيرة الساخنة التي ليست فوق مستوى الشبهات .. آخرها كانت علاقة مع ملحق عسكري بالسفارة الأمريكية .. وعلاقات الأميرة المتعددة هي مإستثارت النكتة المصرية .. فتحول إسم زوجها من محمد على رؤوف .. إلى محمد على خروف !.

أما علاقتها بصلاح سالم .. فقد بدأت بشكوى من الأميرة بسبب قيام ضابط شاب ذهب لتفتيش قصرها فوجه لها إهانات بالغة .. وقمة الإهانة تمثلت في قيام الضابط بإخراج ملابس الأميرة الداخلية من الدواليب والعبث بها أمام الأميرة .. وسرعان ما تكتشف أن ذلك الأمر لم يكن مجرد حادث إستثنائي .. وإنما من الواضح أن الثياب الداخلية الملكية تحولت في أيام الثورة الأولى إلى قضية هامة بالغة الحساسية .. والدليل هو أنه قد تقرر أن تباع الملابس الداخلية لنساء أسرة محمد على في المزاد العلني .. ويبدو أن ذلك قد أثار كثيرا من الإمتعاض والإستياء .. فما كان يعني المصريين هو التخلص من طغيان وجبروت العائلة المالكة لا من ثياب نسائها الداخلية .. وليس من أجل ذلك تقوم الثورات والإنقلابات .. ولعل ذلك هو ما دفع بالثورة إلى أن تنشر في جريدة الأخبار(١) تكذيبا رسميا وتؤكد أن الملابس الداخلية الخاصة بالسيدة فايزة شقيقة الملك والزوجة السابقة لشاه إيران لن تعرض في المزاد .. وسيتم الإكتفاء ببيع معاطف الفرو والثياب الجديدة فقط .. وينتهي التكذيب بإرساء مبدأ عام يتلخص في عدم بيع أية ملابس داخلية لسيدات أسرة محمد على وأنه من حق صاحباتها التقدم لإستلامها !.

ويتسائل محمد رجب (٢) عن طبيعة تلك العقلية الثورية التي تفتقت عن أبشع فكرة للإنتقام من الملك السابق ومن أسرته .. يتسائل أيضا عمن يكون المصدر المسئول الذي أدلى بمثل ذلك التكذيب لتنشره جريدة الأخبار ولماذا تعمد إخفاء إسمه .. وتسائل أخيرا عن حكاية حق صاحبات تلك الملابس في إستلامها وكأن أميرات مصر قد إكتفين بعد قيام الثورة بثيابهن الخارجية فقط .. وسوف يهرعن بمجرد نشر هذا الخبر إلى كشوف لجان المصادرة لتتعرف كل أميرة على الثياب التي تخصها وتتسلمها رسميا!.. ونحن بالطبع لا نعرف أية إجابات لتلك الأسئلة .. لكن الصحفي الراحل موسى صبري يحكي(٣) لنا كيف تقدمت الأميرة فايزة عقب قيام ذلك الضابط بالعبث بثيابها بشكوى .. وما إن علم صلاح سالم بتلك الشكوى حتى بدأ التحقيق فيها .. وإنتهى التحقيق بعقاب الضابط .. ووقوع الثائر في غرام الأميرة !.

ويكمل موسى صبري الحكاية .. ويشرح كيف بدأ صلاح سالم يذهب للقاء الأميرة في شاليه بمنطقة الهرم .. وكان من الضروري أن تصل أخبار تلك العلاقة الغرامية الساخنة إلى جمال عبد الناصر .. وكان إعتراض عبد الناصر الوحيد هو ذهاب صلاح سالم للقاء الأميرة في سيارة جيب عسكرية .. ولهذا إقترح عبد الناصر على صلاح سالم أن يعيره سيارته الخاصة طراز أوستن .. وإستغنى صلاح سالم بالفعل عن السيارة العسكرية وإكتفى بسيارة عبد الناصر ..

(١) جريدة الأخبار – عدد ١٩٥٤/٥/١١

(٢) محمد رجب – ما لم تنشره الصحف – مدبولي الصغير – ١٩٩١

(٣) موسى صبري – ٥٠ عاما في قطار الصحافة – دار الشروق – ١٩٩١

وكان كثيرا ما يرجع من عند الأميرة فى الثانية صباحا ليجد عبد الناصر مستيقظا فى إنتظاره فيحكى له صلاح تفاصيل اللقاء .

وبالرغم من أن موسى صبرى ينفى علمه بأن صلاح سالم قد ساعد الأميرة فايزة فى تهريب مجوهراتها .. إلا أن أحمد حمروش يقول (١) أن أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة أقام علاقة شخصية مع الأميرة السابقة فايزة وقدم لها نظير ذلك تسهيلات كبيرة .

ومن المؤكد أنها كانت حكاية شهيرة .. لكنها قطعا لم تكن حكاية وحيدة أو أولى أو أخيرة .. وهناك بالطبع أكثر من تفسير لكل هذا الذى حدث .. فهناك نظرية الجنس السياسى .. وصاحبها هو الفيلسوف والمفكر الكبير فرانز فانون الذى قضى كثيرا من الوقت يدرس ويحلل أحلام الشعوب فى الدول المستعمرة .. وخرج من تلك الدراسة بنتيجة تقول (٢) أن الرجال فى مثل تلك الدول التى يطول إحتلالها .. يتخلصون من أزماتهم النفسية ومن إحباطاتهم بأحلام جنسية يضاجعون فيها نساء الدولة التى تحتل بلادهم .. وكأن الرجل يتوازن بمثل هذة المعادلة .. أنتم تحتلون بلدى وأنا أحتل أجساد نسائكم فى فراشى أو فراشكم !.

وهناك نظرية الجنس الإجتماعى والطبقى .. وصاحبها هو المفكر الشهير كولن ولسون .. وتتلخص تلك النظرية (٣) فى أن الجنس قد يكون أحيانا وسيلة للتغلب على الإحساس بالنقص الإجتماعى .. ويستشهد كولن ويلسون بروايتين شهيرتين .. الرواية الأولى هى عشيق الليدى تشاترلى التى كتبها الأديب الإنجليزى الكبير لورانس وفيها نرى الحارس الذى يضاجع سيدته الأرستقراطية فيمنحها ما عجز عنه زوجها ويمنح نفسه الإحساس بالمساواة .. والرواية الثانية هي مذكرات كازانوفا .. ذلك العاشق المعشوق وفارس النساء الذي لا يبارى .. ويؤكد كولن ويلسون أن الدافع الحقيقى وراء كل تلك المغامرات لم يكن الجنس ولا الرغبة ولا الشهوة .. وإنما هو حب النفوذ والسيطرة وعلاج كل مركبات النقص ونقاط ضعف الشخصية .

ومع تقديرى العميق لكل تلك الآراء والنظريات .. إلا أنه بإمكانى التأكيد على أن إلتحام أجساد بعض ثوار يوليو بأجساد بعض أميرات وسيدات مصر ما قبل الثورة .. كان نتيجة عقدة مصرية أصيلة ومزمنة .. عقدة مصرية قديمة وشهيرة أيضا .. لا تعرفها مراكز البحوث أو معاهد الفكر والدراسة بقدر ما تعرفها المقاهى والأندية والفنادق والشوارع والبيوت الراقية والفقيرة على حد سواء . فالجنس فى الوجدان المصرى .. أحيانا .. يتجاوز دوره البيولوجى كوسيلة للإنجاب .. وأحيانا أخرى يتخطى معناه كرغبة عارمة وشهوة مؤقتة .. ليصبح نوعا من الإنتقام .. التشفى .. إسترداد الحقوق والكبرياء .. والمرأة هنا لاتصبح مجرد جسد يتعرى .. لكنها رمز لطبقة أغنى .. رئيس ظالم .. مدير ديكتاتور .. والإرتياح العميق الذى يعقب اللقاء الجنسى من هذا النوع ليس مبعثه قضاء الرغبة وتحقيق النشوة .. إنما هو الإنتصار والأخذ بالثأر.. وفى الشارع كثيرا ماتصادفنا مثل تلك الحكايات .. السائق مع زوجة صاحب السيارة أو إبنته .. العسكرى مع زوجة الضابط .. التلميذ مع زوجة الأستاذ .. لاعب الكرة مع زوجة المدرب أو إبنته .. ممثل الكومبارس مع زوجة النجم الشهير .. الصعلوك مع إبنة الباشا أو المسئول أو المليونير .. ومن السهل للغاية

(١) أحمد حمروش – قصة ثورة ٢٣ يوليو – ١٩٨٣

(٢) فرانز فانون – معذبو الأرض – بنجوين – لندن – ١٩٧٩

(٣) كولن ويلسون – أصول الدافع الجنسى – ترجمة يوسف شرور وسمير كتاب – دار الآداب – بيروت – ١٩٨٦

العثور على شاب مصرى قادم من الخارج ليتحدث عن تجربة لقاء جنسى مارسه هناك وكأنه قد إستباح جسد إنجلترا أو فرنسا أو الولايات المتحدة الأمريكية .

والحكاية لا ترتبط بقريب أو بعيد بالإستعمار أو النساء البيض الشقراوات .. إنما هى طبقة تطمع فى طبقة أعلى .. ورجال يستكملون نواقصهم بقدرات جنسية حقيقية أو خيالية .. وعلى سبيل المثال .. يحكى لنا صلاح عيسى مايؤكد ذلك حين يقول : كنا فى قرانا البعيدة .. مراهقين مكبوتين .. محبطين جنسيا .. كنا نسمع ممن يزورون القاهرة أن نساءها جميلات شبقات .. وأنهن فى إنتظار فارس يروى عطشهن الجنسى .. وأنهن يشتهين أمثالنا من الريفيين .. ونزلنا المدينة ونحن نتصور أن النساء سيتصارعن على فتوتنا فما القت واحدة إلينا بالا (١) .

وبهذا المنطق .. وكنتيجة لتلك العقدة المصرية المزمنة .. كان لابد لتجربة الجنس من أعلى أن تتسع دائرتها يوما بعد يوم .. وأن تنتقل من ثكنات الثورة وقصور الأميرات إلى كل شارع وبيت .. كان لابد أيضا وأن يتحول الجنس من وسيلة للإنجاب أو المتعة وقضاء الشهوة إلى وسيلة متاحة وممكنة للشهرة .. للنجاح .. للترقى .. للإنتقام .. لتصفية الحسابات أو لإعادة الحسابات من جديد .. ولعله من المناسب هنا أن نتوقف عند فيلم سينمائى قدمه المخرج القدير صلاح أبو سيف فى عام ١٩٥٦ .. فيلم أعتبره أول منشور جنسى فى تاريخ السينما المصرية .. يصرخ فينا يريدنا أن نتوقف وأن نهتم وأن نراجع .. الفيلم هو شباب إمرأة .. الفيلم الذى رأينا فيه القاهرة – عاصمة غرباء مصر وأحلامهم وملاذهم – وإمرأتها التى تسكنها الرغبة ويحرقها الحرمان .. وواحد من الغرباء والفقراء لم يجد إلا الجنس وسيلة للبقاء .. يبيع رجولته بطعام كان يشتهيه وثياب كان يفتقدها .. ولنا أن نتخيل كم شاب جاء مع إمام بطل الفيلم أو جاء بعده يبيع الشباب والأحلام فى أقرب فراش ؟!.

ومن المؤسف أن تلك المحاولة التى قام بها صلاح أبو سيف .. أو النبوءة التى قدمها لنا قبل أوانها .. لم تلق ما تستحقه من حفاوة وإهتمام .. وإنما حاول الكثيرون إجهاضها ورفضها وإنكارها .. ومن هؤلاء الكثيرين نقاد كبار جمع صلاح أبو سيف ما كتبوه عن الفيلم – وعن باقى أفلامه – فى كتاب واحد(٢) .. ونقرأ فى هذا الكتاب كيف طالب سامى العنتبلى فى الأهرام بتصوير الغريزة الجنسية بإعتدال وقصد وتوجيه عنايتنا إلى مشكلات أخرى فى مجتمعنا .. وفى الجمهورية أشاد سامى داود بالفيلم فنيا .. لكنه أكد أن نماذج الفيلم شاذة تحيط بهم ظروف شاذة .. وفى مجلة التحرير كتب الفريد فرج عن التناقض بين الحب فى فيلم العزيمة .. وبين الحب فى فيلم شباب إمرأة .. ونسى الفريد فرج كم تغيرت مصر وكم تغيرنا نحن معها فى المسافة أو المساحة ما بين الفيلمين .. نسى الفريد فرج أن الكثيرين من شباب مصر فى ذلك الوقت كانوا يحلمون بمثالية محمد أفندى لكن واقعهم كان غالبا ما ينتهى بهم فى نفس فراش إمام !.

صلاح أبو سيف نفسه .. مر بنفس تجربة الشاب إمام .. ويحكى لنا عن تلك التجربة (٣) ويقول : حين كان عمرى عشرين عاما .. ذهبت إلى باريس .. وأنا من مواليد بولاق .. أفقر أحياء القاهرة .. وذات ليلة .. تركت اللوكاندة التى كنت أقيم فيها وذهبت للإقامة فى بنسيون تملكه

---

(١) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦
(٢) صلاح أبو سيف والنقاد – أبوللو للنشر والتوزيع – ١٩٩٢
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٢/١٧

سيدة كنت على علاقة معها .

وأنا أعترف مبدئيا .. أن فيلم واحد .. أو الف فيلم .. قد لا يصلحون جميعا دليلا صادقا ومقنعا على أن مارد الجنس المحبوس في قمقم مصر قد بدأ يتململ من طول السكون والرقاد .. ولكننا قد نجد أكثر من دليل فقط لو عدنا إلى أرشيف الجريمة في مصر الخمسينات .. لنقرأ مثلا[1] أن نيابة مصر القديمة تحيل سائق سيارة إلى محكمة الجنح بعد ضبطه متلبسا بتقبيل طالبة في إحدى المدارس أثناء قيادته السيارة في طريق الكورنيش بالنيل .. ونقرأ خبر القبض على صاحب ورشة [2] في غرفة النوم مع زوجة مخرج سينمائي معروف هو الذي إصطحب صاحب الورشة إلى منزله الذي تحول إلى بيت للدعارة .. ونقرأ أيضا عن مشرفة إجتماعية[3] بإحدى الكليات الأجنبية إعتادت السهر في كازينوهات وسط القاهرة في محاولات مستمرة لإصطياد شبابها .. وزوج يعود إلى البيت [4] فلا يجد زوجته ويخبره أولاده أنها تتنزه على الكورنيش بصحبة صديقها .. فيستل سكينا ويذهب يبحث عنها ويعثر عليها بالفعل لكنه يفشل في قتل الصديق الذي إستماتت الزوجة في الدفاع عنه .

وأعترف .. أن كل تلك الحوادث لم تستوقفني بقدر ما إستوقفني قرار نيابة الجيزة في حكاية شاب سار مع فتاة في الطريق العام ولف ذراعه حول عنقها .. ضبطهما البوليس على هذة الحال في شارع النيابة وأرسلهما إلى النيابة .. فكان قرار النيابة [5] هو حفظ التحقيق .. وكانت أسباب النيابة هي أن ما قام به الإثنان لا يعد فعلا فاضحا في الطريق العام .. لماذا ؟.. لأن الناس – كما قالت النيابة – قد إعتادت مشاهدة هذة المناظر وأصبحت مألوفة لديها .

إستوقفني ذلك .. إستوقفني أن الناس قد إعتادت على ذلك .. ولا أعرف كيف – أو متى – إعتاد الناس رؤية ذلك ؟!.. ومع ذلك .. تقتضي الأمانة التأكيد على أن كل تلك الحوادث والتجاوزات .. بقيت في حجمها الطبيعي دون أن تشكل في مجموعها ظاهرة عامة تستدعي الجزع والقلق .. وإن كان معدلها الذي تزايد يوما بعد يوم كان يستدعي الإنشغال والإهتمام .. الأمانة أيضا تقتضي التأكيد على أن الشوارع الخلفية .. بقيت هادئة ومحافظة أيضا .. بدليل أنه ما إن نشرت جريدة الأهرام قرار النيابة الذي أشرت إليه .. حتى ثار الرأي العام .. والقضاء أيضا .. فقرر المحامي العام إلغاء هذا القرار [6] وأحال الشاب والفتاة إلى المحكمة التي قضت بحبسهما أسبوع حفاظا على عادات وتقاليد الشارع المصري والناس في مصر .

حادثة أخرى .. تؤكد تماسك المجتمع – حتى بشكل مبالغ فيه أحيانا – ضد طوفان التحلل القادم .. فقد نشرت جريدة الأهرام [7] ثورة إحدى مدن الصعيد ضد مفتش بالتربية والتعليم وإحدى المدرسات .. الإثنين شاهدتهما المدينة يتناولان الطعام معا – دون رابطة زواج – بل وكان المفتش يرسل للمدرسة الحلوى وهدايا من الملابس .. وكان يسير معها متأبطا ذراعها .. فضلا

(١) جريدة الأهرام – ١٩٥٨/٦/٢٤
(٢) جريدة الشعب – عدد ١٩٥٩/٨/٢٥
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٥٨/٩/٣
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٥٩/١١/١٧
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٥٧/١١/٣٠
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٥٨/٤/٢٦
(٧) جريدة الأهرام – عدد ١٩٥٩/٣/٢٥

عن أن أكثر ما ضايق الناس هو أن المدرسة كانت تمشى فى الشارع وهى ترتدى البنطلون .

ومع ذلك .. بقيت تلك الشوارع والبيوت والناس .. تتلقى رذاذ ما كان يحدث هناك على القمة أو ما كان يجرى فى القاع .. وبقى ملايين قادرون على المقاومة والصمود فى وجه ذلك الإنقلاب الأخلاقى القادم على الطريق .

وأصبح السؤال هو .. كم من الوقت سيبقى بإستطاعة هؤلاء الطيبين البسطاء الملتزمين المقاومة ؟.

سؤال لم ينشغل بمحاولة إجابته أحد .

ومع إزدياد الضغط بدأت المقاومة تنهار .. وإستمرار الضغوط كان لابد وأن يخلف ثقوبا وأوحالا بدأت بالفعل فى التراكم والتضخم .

وستشهد مصر فى نهاية الخمسينات أكثر من ظاهرة جنسية أزعم أن أحدا لم يتوقف عندها بالرصد والتحليل والتأمل والإهتمام .. الظاهرة الأولى هى تفشى الغزل والمعاكسة التى تخرج على العرف والقانون والأخلاق .. وتمتلئ صحف تلك الأيام بالعديد من أخبار تلك المعاكسات والغزل من النوع الخشن والثقيل .. وبلغ الأمر فى بعض الأحيان أن كان الغزل تحت تهديد المطاوى أو البنادق .. وأن يموت الرجل إذا ما حاول منع الآخرين من مغازلة زوجته أو إبنته أو شقيقته .. وفى أحيان أخرى كان الضرب هو آخر الغزل .. لا يضرب الرجل أو الشاب وإنما تضرب الفتاة التى تعترض أو لا تقبل مثل هذا الغزل .. وبدون شك أن الإحساس الذى راودنى وأنا أقلب فى صفحات الأرشيف هو أننى أرى بروفة لحوادث وجرائم الإغتصاب التى بلغت أوجها فى الثمانينات والتسعينات .

ومثلما إستوقفنى قرار نيابة الجيزة التى أكدت أن العناق فى الشوارع أصبح من المشاهد المألوفة للناس .. فإنه لابد من الإشارة أيضا إلى قرار مماثل أصدرته هذة المرة نيابة الدرب الأحمر التى أفرجت عن شاب كان متهما بمعاكسة بعض طالبات مدرسة السنية .. وقالت النيابة[1] أن ما قاله الشاب لايخدش حياء الفتيات بعد أن بدأت هؤلاء الفتيات يشاهدن صنوف الغزل المكشوف عن طريق الصحافة والإذاعة والسينما خصوصا فى هذة الأيام التى إنهارت فيها الضوابط الخلقية أو كادت .

قرار آخر فى نيابة أخرى .. نيابة إمبابة التى حفظت التحقيق مع بعض الطلبة قبض عليهم البوليس بتهمة معاكسة ممرضات مستشفى المنيل الجامعى .. وقالت النيابة [2] أن الغزل مباح داخل المستشفيات ولا عقاب عليه حيث لا تنطبق عليه نص المادة ٣٠٦ فقرة ١ من قانون العقوبات التى تشترط أن يكون التعرض فى الطريق العام .

الظاهرة الثانية .. كانت زيادة الصور العارية والكتب الجنسية فى شوارع مصر أو داخل بيوتها .. بل إن مكتب حماية الآداب فى القاهرة وحدها .. إكتشف فى إحدى حملاته التفتييشية[3] أكثر من مليون نسخة من كتب جنسية .. وهو الأمر الذى دعا وزارة الداخلية لأن تطلب رسميا من وزارة الثقافة تأليف لجنة لإعادة فحص الكتب التى تعالج مسائل الجنس

---

(١) جريدة المساء - عدد ١٩٥٩/١٢/١٥

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٩/١١/١٦

(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٩/١٢/٢٧

المصرح بتداولها فى الأسواق لمصادرة ما كان منها مثيرا للغرائز ومنافيا لآداب المجتمع .

الظاهرة الثالثة .. هى الأصوات التى بدأت تتعالى هنا وهناك تريد التفرقة بين عرى مسموح وعرى ممنوع .. أو هناك نساء عاريات بقصد الفن .. ونساء أخرى يتعرين بقصد الإثارة .. وعلى الدولة أن تقبل النوع الأول وأن تحارب النوع الثانى .. وبلغ الأمر أن قيل ذلك فى أروقة محكمة جنح العطارين بالإسكندرية أثناء نظر قضية شهيرة فى ذلك الوقت حيث تم القبض على صاحب أحد المحلات يعرض للبيع مائتى كوبا عليها صور مرسومة لنساء عاريات .. ووقف محامى المتهم فى المحكمة يؤكد[1] أن تلك الصور بقصد الزينة .. وأن ليس كل ما هو عار مرفوض أو مثير .. وكثير من مشاهد العرى جميلة وتعبر عن ملكة الإبداع مثل لوحات الرسامين للفتيات العاريات .

وكانت ظاهرة تلك اللوحات قد بدأت تنتشر فى ذلك الوقت فى بيوت مصر .. وبالتحديد فى غرف النوم .. وليس من قبيل المبالغة أن تلك اللوحات تحولت فى كثير من البيوت إلى شئ عادى ومألوف إن لم يكن ضروريا يليق بكل إثنين يؤسسان بيتا .

الظاهرة الرابعة .. تؤكدها الأرقام هذة المرة .. والأرقام تشير[2] إلى أن أكثر أعوام شهدت حالات هتك عرض وإغتصاب فى مصر فى الفترة من الأربعينات وحتى الثمانينات هى على الترتيب أعوام ١٩٤٦، ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٤٧، ١٩٥٢ .. أى أن العام الذى نشبت فيه الثورة والعامين التاليين .. كانوا من أكثر الأعوام فى الخمسين سنة الماضية التى شهدت حوادث إغتصاب !.

هنا .. ينبغى التوقف .. والتأكيد على أن تجربة الجنس من أعلى لم تكن هى الدافع الوحيد .. ولا المحرك الأوحد لكل ما بدأ المجتمع يشهده من تجاوزات .

كانت هناك بالضرورة عوامل وأسباب ومقدمات أخرى .

لعل أبرزها كان الصدام بين الثورة والدين .. وإذا كان ماكس فيبر عالم الإجتماع يؤكد مبدئيا

الثورات العسكرية فى عمومها تعادى الدين[3] .. فإن هذا لا ينطبق بالضرورة على ثورة يوليو فى مصر ولا على جمال عبد الناصر .. فالثابت أن جمال عبد الناصر لم يكن ضد الدين .. وإنما أراد إستغلال هذا الدين .. وكان هذا هو ما حدث بالفعل .. ويمكننى هنا أن أؤكد أن جمال عبد الناصر أمم الإسلام فى مصر .. أو أن الإسلام قد تحول إلى قطاع عام .

وإذا كان الدكتور عاطف العقلة عضيبات يقول [4] أن التحليل الدقيق لتاريخ المجتمع العربى الإسلامى يشير إلى أن الطبقات الحاكمة إستعملت – ولاتزال – الدين لمصلحتها وتتخذ منه قناعا لسياساتها ومصدرا لشرعيتها وأحيانا وسيلة من وسائل قمعها .. فإن نبيل عبد الفتاح يؤكد[5] أن جمال عبد الناصر إستخدم الدين فى عمليات التجنيد والتعبئة السياسية .. وأنه لم يكتف بما كان يتمتع به من زعامة كاريزمية فى مجتمع متخلف تسوده الأمية .. وإنما لجأ للدين .. وإستخدم حتى النصوص المقدسة .. كأداة للتبرير .. تبرير كل ما طرحه من أفكار وما إتخذه من

(١) جريدة الأهرام ـ عدد ١٩٥٨/١٢/٣
(٢) لواء د. محمد فتحى عيد ـ الأمان فى مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٦
(٣) ماكس فيبر – علم إجتماع الدين – لندن – ١٩٦٥
(٤) د. عاطف العقلة عضيبات – الدين والتغير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠
(٥) نبيل عبد الفتاح – المصحف والسيف – مدبولى – بدون تاريخ

قرارات مثل التجربة الإشتراكية وليثبت أن الإشتراكية ليست ضد الإسلام .

ويضيف نبيل عبد الفتاح أن سياسة التبرير بالدين .. وتسييس الدين .. كان هو الفارق بين جمال عبد الناصر وبين محمد على .. فمحمد على الذى ضرب الأساس الدينى للنظام المصرى .. لم يلجأ أبدا للدين كتبرير لسياساته أو مبرر شرعى لبقائه فى السلطة .

ومن الثابت أن محمد على هو أول خارج على الدين فى تاريخ مصر .. هو أول من أحال الإسلام فى مصر للتقاعد .. وكما يقول الدكتور رفيق حبيب[١] أن محمد على هو أول من أحال رجال الدين الإسلامى من طبقة إلى ديوان موظفين .. أو كما يقول الدكتور السيد محمد فرج[٢] أن محمد على حرم المشايخ من وظائفهم وحكم عليهم بالعزلة التامة ولم يعد فى إستطاعتهم أن يفرضوا على الحكام الحكم بمقتضى العدالة الواجبة .

فى الواقع .. لم يعد لرجال الدين من دور أو وظيفة .. منذ عصر محمد على .. إلا تجميل أى مشهد أو سياسة أو قرار يتخذه الحاكم ليتقبله الناس .. ويضرب لنا هيكل مثلا بما حدث فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية حين يحكى[٣] كيف ذهب القائم بالأعمال السوفييتى .. عبد الرحمن سلطانوف .. ليقدم نفسه لشيخ الأزهر بإعتباره مسلما تقيا ومؤمنا .. وكان ذلك فى الوقت الذى يتم فيه لأول مرة فى مصر ترجمة المانيفستو الشيوعى بطريقة رسمية .. ويحكى هيكل أيضا كيف بدأ رجال الدين فى مصر يصدرون فتاواهم لصالح شركات أمريكية عملاقة تمهيدا لدخول السوق المصرية .. وكيف أرادت تلك الشركات الدخول فى حمى العمائم والمسابح .

وكانت هذة هى التركة الدينية التى ورثها جمال عبد الناصر .. ويبدو أنه قد أجاد إستغلالها لصالحه تماما .. يبدو أيضا أن إستغلاله للدين لم يكن ليحده شئ .. إنه لم يكتف بمدى ما أصاب الدين ومساحته من تقلص وإختصار .. ففى سنة ١٩٥٥ .. يلغى المحاكم الشرعية[٤] ويقضى على سيطرة الدين نهائيا على القضاء .

كان جمال عبد الناصر أيضا يريد إستغلال حتى الحج .. إنه يقول[٥] من الواجب أن نغير نظرتنا للحج .. لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ومحاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .. ويجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة.

وقد يبدو لتلك الشواهد والدلائل .. علاقة أو صلة ما .. بذلك الصدام الذى بدأ فى الرابع عشر من يناير عام ١٩٥٤ بين الثورة وبين جماعة الإخوان المسلمين .. حين صدر قرار مجلس قيادة الثورة بحل الجماعة .. صدام بقى فترة من الوقت – برغم قرار الحل – يعيش تحت الجلد ويسكن القلب والنية دون أن يطفو على السطح .. لكنه سرعان ما تحول إلى العلن .. وأصبح حربا ما كان ليكسبها تلاميذ الشهيد حسن البنا .. وما كانت ثورة يوليو لتطيق خسارتها .. وإذ بالأمر ينتهى بموجات متعاقبة ودامية .. محاولات إغتيال وحملات إعتقال ومشانق وضحايا وشهداء .

لكن الواقع يؤكد أن ذلك الصدام لم يكن من أجل الدين أو حرب فى سبيل الله.. لقد كانت

(١) د. رفيق حبيب – الإحتجاج الدينى والصراع الطبقى فى مصر – سينا للنشر – ١٩٨٩
(٢) د. السيد أحمد فرج – جذور العلمانية – الوفاء للطباعة والنشر – ١٩٨٤
(٣) محمد حسنين هيكل – ملفات السويس – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ١٩٨٦
(٤) النظام الحاكم والمعارضة فى مصر فى عهد السادات – الهيئة العامة للإستعلامات – كتب مترجمة رقم ٧٧٠ – ١٩٨٢
(٥) د. محمد حافظ دياب – سيد قطب .. الخطاب والأيديولوجيا – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٧

حريا على السلطة ستحدد من سينفرد بمقاليد الحكم فى النهاية .. الدكتور فؤاد زكريا يؤكد[١] أنه كان صداما سياسيا لا عقائديا .. كان صراعا للقوى لا مجرد صدام بين أفكار .. وتستشهد الدكتورة عفاف لطفى السيد على ذلك بالرجوع إلى تاريخ الإخوان المسلمين لتكتشف[٢] أن حسن البنا كان شديد التمسك بالمظاهر الدينية للجماعة إذا ما تولت الحكم حكومة قوية .. وكان يهتم بالنواحى السياسية إذا ما تولت الحكم وزارة ضعيفة .. وتضيف الدكتورة عفاف أن حسن البنا كان يغير من أسلوبه ليوائم الجو السياسى فى عصره من أجل تحقيق أهدافه الرئيسية .

ومن قبيل العبث أن نتوقف هنا لنتسائل عن الروية الإجتماعية والأخلاقية لذلك الصدام .. غنى عن التأكيد أن تلك الرؤية لم تشغل بال أحد .. وكل من تناول حكاية الصدام بين الثورة والإخوان بالدراسة والتأمل والتحليل .. أبقاها فى إطارها السياسى دون تفتيش جاد وعميق عن آثارها الإجتماعية والأخلاقية .. في حين أن ذلك الصدام قد خلف آثارا ونتائجا لا حد لها أو نهاية حتى الآن على الأقل .

نتائج وآثار يمكن تلخيصها فى عبارة واحدة .

الدين كله .. تحول إلى ضحية للإثنين معا !.

تحول الدين فى مفهوم الإخوان المسلمين .. إلى منشور سياسى علنى يدعو المسلمين للإطاحة بجمال عبد الناصر بأية وسيلة ممكنة .. لا فارق بين القنابل أو آيات القرآن .

وفى مفهوم النظام .. أصبح الدين مجموعة من العبادات تتلخص فى الصلاة والصوم والزكاة والحج لمن إستطاع إليه سبيلا .

فجماعة الأخوان المسلمين بعد ذلك الصدام .. وكما يقول صلاح عيسى[٣] أصبح كل همهم وجوهر حركتهم هو إسقاط جمال عبد الناصر .. ليس هذا فقط .. بل توقفت محاولاتهم التى كانت قد بدأت قبل هذا الصدام لفتح باب الإجتهاد وسد الفجوة بين الدين والحياة .. وما لم يقله صلاح عيسى أن هذا الموقف تحول فيما بعد إلى إرث وحيد غالبا لكل جماعات مصر الإسلامية الأكثر عنفا وشراسة من الإخوان المسلمين .. الدين عندهم يعنى السياسة .. والسياسة تعنى الثورة .. والثورة تعنى الدم .. والدم هو الثمن الذى يدفعونه راضيين من أجل تغيير السلطة .. وبات واضحا أن تلك الجماعات – على إختلاف أفكارها توجهاتها وأساليبها وميولها – إختصرت الكثير جدا من مساحة الصراع مع الشيطان وتفرغت فيما يبدو للصراع مع السلطان .. كأنهم عقدوا الهدنة الطويلة مع كل الشياطين تمهيدا للقضاء على السلطان أولا .. ثم سيستديرون بعد ذلك يستأنفون حربهم الطويلة المؤجلة مع الشياطين .. وضاعت وسط هذا الزحام الدموى الصاخب واحدة من أهم وأخطر وصايا سيد قطب .. فهو الذى قال فى كتابه الشهير جدا .. معالم على الطريق[٤] .. أن المفهوم الأخلاقى فى المجتمعات الجاهلية الحديثة .. يكاد ينحصر فى المعاملات الإقتصادية .. والمعاملات السياسية أحيانا فى حدود مصلحة الدولة .. مع أن قضايا الأسرة .. والعلاقات بين الجنسين .. حاسمة فى تحديد صفة المجتمع .. متخلف أم متحضر ..

---

(١) د. فؤاد زكريا – الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة – دار فكر – ١٩٨٧

(٢) د. عفاف لطفى السيد – تجربة مصر الليبرالية – المركز العربى للبحث والنشر – ١٩٨١

(٣) صلاح عيسى – الكارثة التى تهددنا – مدبولى – ١٩٨٧

(٤) سيد قطب – معالم على الطريق – دار الشروق – ١٩٨٠

جاهلي أم إسلامي .

أي أن سيد قطب لم يكن يرى القضية الأخلاقية قضية هامشية يمكن التغاضي عنها قليلا والتجاوز عنها أحيانا للتفرغ للقضية السياسية والصراع على السلطة .

أما النظام .. أو جمال عبد الناصر .. فقد أعلن كما يؤكد عبدالله إمام [١] أن كل القضايا من نوعية حجاب المرأة أو عدم حجابها هي قضايا على كل فرد أن يحلها بنفسه داخل بيته .

كانت عبارة جمال عبد الناصر بمثابة شهادة رسمية بأن الدولة ترفع يدها عن كل ما هو غير سياسي .

كانت ديكتاتورية الرأى .. وحرية المزاج !.

وبالتالي .. كانت هناك قضايا كثيرة .. أصبح النظر فيها مسئولية كل مواطن .. يتعامل معها كيفما يشاء .. يتمسك بها أو يتنازل عنها وفقا لما ستسمح به الأحوال والظروف والأمور .

من آثار ذلك الصدام أيضا .. أن إرتبط الدين في أذهان جموع المصريين بالسياسة .. والسجن .. والعنف .. وهو ما كان المصريون يؤثرون الإبتعاد عنه .. وكانوا - وهم الغارقون في العاطفة - يرفضون الإنقلاب على رئيس أو زعيم منحوه إعجابهم وإحترامهم وحبهم وخوفهم أيضا .. وبدأت مصر تشهد أغرب وأطول خصام في تاريخها الحديث بين الدين والحياة .. بقيت الصلاة بطقوسها .. وبقي الصيام بتقاليده وعاداته و "فوازيره" .. وبقيت كل الفروض والأحكام وإن كانت قد إرتدت ثوبا ضيقا تزايدت فيه مساحة الثقوب والتشققات .. ثقوب بانت وأبانت عورات كثيرة مهما كانت مهارة من يعيدون ترقيعها كلما إقتضى الحال هذا الترقيع .

ومرة أخرى أعود إلى سيد قطب .. فهو الذي قال [٢] أنه ليس من طبيعة الدين أن ينفصل عن الدنيا .. وليس من طبيعة المنهج الإلهي أن ينحصر في المشاعر الوجدانية والأخلاقيات التهذيبية والشعائر التعبدية في ركن ضيق من أركان الحياة البشرية .. ليس من طبيعة الدين أن يكون هذا المسخ الشائه الهزيل .. أو هذة المراسم التقليدية التي لا علاقة لها بنظم الحياة العملية .

أعتقد أن سيد قطب لم يخالفه الصواب .

فقد تحول الإسلام إلى مسخ شائه وهزيل بالفعل .

فالحكاية لم .. ولن تكون مطلقا .. إذاعة للقرآن الكريم .. وأن يتحول الدين إلى مادة إجبارية على الصغار في المدارس .. ولا مجلس أعلى للشئون الإسلامية .. ولا تسجيل المصحف الشريف مرتلا ومجودا لأول مرة على شرائط كاسيت .

الحكاية كانت خصام الدين والدنيا .. كانت غياب الدين كضابط وكابح للسلوك اليومي والشخصي والإجتماعي .. فقد بدأنا نشهد من يصلي ويكذب .. من تعرى صدرها وساقيها بين الصلوات الخمس .. من يحج ويرتشي وينافق .. من تحرص على غطاء شعرها وحجابها وعلى قراءة القرآن بدرجة لا تقل عن حرصها على إغتياب الناس وإشتهاء الإصغاء لحكايات الآخرين وفضائحهم .. من لا يصوم رمضان أو لا يصلي فلا يرفضه الناس .. من يزني ويجهر بذلك ويفخر بذلك فيلقى الحسد والإعجاب والغيرة من البعض بدلا من أن يلقى اللوم أو العتاب أو العقاب من كل الناس .

---

(١) مجلة الأهرام الإقتصادي - عدد ١٩٨٩/١/٣٠

(٢) سيد قطب - المستقبل لهذا الدين - دار الشروق - ١٩٨٣

وما يعنينا من هذا كله .. هو جملة واحدة تعنى كل شئ .. وفيها تفسير لكل شئ .

فلقد تحول الزنا .. من خطيئة .. إلى فضيحة !.

تحول يعنى الكثير جدا

ومن ضمن ما يعنيه أن الزنا خرج نهائيا من حصار القوانين والضوابط الدينية وتعاليم السماء .. إلى قيود وضوابط يفرضها المجتمع وتشكلها عادات الناس وطبائعهم وأخلاقياتهم التى تقبل التعديل والتبديل والتغيير من عصر لآخر .

وأصبح الرجل والمرأة فى الفراش تراقبهم عيون الناس لا عيون الله .. وما أسهل الهروب من عيون الناس .. وما أسهل التخفى خلف أبواب مغلقة ونوافذ كثيفة الستائر وممارسة الرذيلة بكل أنواعها وأشكالها .

وقد يزعم أحد أن جمال عبد الناصر ليس مسئولا عن كل هذا الذى حدث .. والواقع أنه ليس بإستطاعة أحد أن يزعم أن عبد الناصر هو المسئول الوحيد .. وبالمقابل .. لا يجروء أحد على التأكيد بأن عبد الناصر برئ من أية مسئولية عن أية تجاوزات أخلاقية .

وهناك شهادة لصالح جمال عبد الناصر نجدها فى أحد كتب محمد قطب [1] الذى يقول أن العقيدة التى كانت راسخة فى نفوس مسلمى مصر .. تحولت تحت الحكم التركى إلى مجموعة من التقاليد – مقدسة المظهر – لكنها لا تحمل فى طياتها رصيدا حقيقيا من عالم الواقع .. ثم كانت الهزيمة أمام نابليون التى تحولت فيما بعد إلى هزيمة داخلية .. هزيمة العقيدة داخل النفوس .

وأما الشهادة التى هى ضد جمال عبد الناصر .. فهى فى واقع الأمر أكثر من شهادة .. الشهادة الأولى. يقدمها فهمى هويدى الذى يقول [2] أن السلطة. أيا كان مبلغ قوتها وعمق تأثيرها .. لا تنشئ قيما أو نمطا للسلوك .. لكن السلطة تملك أن تتبنى قيما تروج لها فتسود تلك القيم وتتراجع قيم أخرى .. ويستشهد فهمى هويدى على ذلك بما قاله عثمان بن عفان رضى الله عنه : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .. أيضا يستشهد فهمى هويدى بما قاله الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم فى التمثيل والتلقى والتقليد .

والشهادة الثانية يقدمها الدكتور شوقى ضيف الذى يؤكد [3] أن الشعب المصرى بطبيعته معتدل لا يجترئ على ما حرمه الدين .. وحين تفشى فى مصر إحتساء الخمر .. فإنما كان ذلك راجعا إلى أحمد بن طولون سلطانهم فى ذلك الوقت ومثله إبنه خماروية .. وكان الإثنين من مدمنى شرب الخمور .

أى أن محمد قطب قال أن هزيمة العقيدة داخل نفوسنا بدأت منذ زمن طويل وقبل ميلاد جمال عبد الناصر بسنوات طويلة .. لكن فهمى هويدى يؤكد أن السلطان مسئول مثله مثل القرآن .. كلاهما يحفظ ويحافظ على حدود الله وعلى شرع ودين الله .. والدكتور شوقى ضيف يشير إلى أن الأوقات التى يخرج فيها المصريون على تعاليم الدين فإنما يخرجون بإشارة وموافقة السلطان

---

(١) محمد قطب – هل نحن مسلمون – دار الشروق – ١٩٨٨

(٢) فهمى هويدى – التدين المنقوص – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ١٩٨٧

(٣) د. شوقى ضيف – تاريخ الأدب العربى – دار المعارف – ١٩٨٤

ومن أجل ذلك .. أستطيع أن أؤكد أن جمال عبد الناصر لا يتحمل كل المسئولية .. لكننى أؤكد أيضا أنه مسئول عن كل تلك الأبواب التى أبقاها نصف مفتوحة ونصف مغلقة بين السماء والأرض .. بين الدين والدنيا .. بين الحلال والحرام .. بين الخطيئة والفضيحة .

جمال عبد الناصر مسئول لأنه لم يقف فى وجه هذا الطوفان الذى إقترب .

وأرى أنه من الصعب أن يتوقف أحد بإصغاء وإهتمام - فضلا عن تصديق وإقتناع - أمام ما يزعمه عبدالله إمام [1] حين يصف الناصرية بأنها كانت التيار الإسلامى الأصيل !.

وبالطبع .. لم يقتصر الأمر عند حد خصام الدين والدنيا .

فالضغوط لم تتوقف .

وما بدأ يسمح به المجتمع فى الخفاء أصبح هناك من يطالب به علانية .

وكان من المنطقى - فى ذلك المناخ المضطرب - أن تجرؤ إمرأة تدعى فكرية على .. راقصة بملهى البوسفور .. على مناشدة مجلس الأمة بحماية الراقصات المصريات .. ومن المحزن أن يستجيب المجلس الموقر وتكتب جريدة الأهرام خبرا [2] تقول فيه أنه من بين المسائل التى ستعرض على مجلس الأمة فى جلسة الثلاثاء القادم بحث إصدار قانون يلزم الملاهى بأن تكون نصف راقصاتها على الأقل من المصريات !.

وبعد تلك الجلسة التاريخية بعام واحد .. كان من مهام الدولة رسميا لا أن تحارب الرقص الشرقى .. لكن أن تلزم كل راقصات مصر بثياب جديدة " لائقة " وأن يتولى بوليس الآداب [3] مراقبة ذلك .. فى نفس العام أيضا - ١٩٥٨- أمر السيد زكريا محى الدين وزير الداخلية منع الخلاعة وإشتراك النساء مع الرجال فى حلقات الذكر فى كل الموالد .. وقال الوزير فى بيانه [4] أنه لايليق فى العهد الذى ننهض فيه بالبلاد إجتماعيا أن تقام فى مواليد أولياء الله أمور لاتمت إلى الدين بصلة .

وبعد شهرين .. قررت اللجنة المشتركة لتنظيم الموالد [5] إقامة "موالد نموذجية " لكل إقليم فى الجمهورية العربية المتحدة وذلك للقضاء على العادات السيئة التى ترتكب فى مثل هذة الأعياد الدينية !.

لم يحدث !.

وبقيت الموالد كما هى بإنحرافات لياليها .. ففى تلك الموالد كان - ولايزال - الجنس هو صاحب المولد الذى يحتفى به دراويشه وأتباعه الذين يزداد عددهم بمرور الأيام .. وتحولت تلك الموالد - خاصة فى ريف مصر وقراها وأقاليمها - إلى ثقب تتسلل منه كل الإنفعالات الجنسية المكبوتة .. رجال ونساء وعوالم ودراويش وبغايا وصغار يتعلمون مبادئ الرغبة وينصتون لمغامرات الكبار خلف جدران "المقام" وداخل أحواض الزرع ووراء البيوت المعتمة .

وكان ذلك كله .. مجرد صورة واحدة من صور مجتمع بدأ يفتح أبوابه لمزيد من الحرية والتحلل .. مجتمع بدأ يفتح أبوابه ليتحسس طرقا جديدة .. مثيرة .. مشتهاة .. دون رادع .. أو

(١) مجلة الأهرام الإقتصادى - عدد ١٩٨٩/١/٣٠
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٧/١٢/١٤
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٨/٦/٦
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٨/٢/٢٢
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٥٨/٤/١٨

قانون .. أو حدود .

ولم نجد مفكرا واحدا وقف يعلن خوفه ودهشته وإعتراضاته .

وفى الوقت الذى لم ينشغل أحد بالإرتفاع المستمر فى طول فساتين النساء .. كانت المناقشات ساخنة وصاخبة فى المجمع اللغوى .. وأعلنت جريدة الأهرام (١) أن المجمع فشل فى إستبدال كلمة جيبون بكلمة أخرى بعد ساعتين من المناقشة .. وقد تقرر تسمية البلوزة قميصة .. والفستان الديكولتيه بالفستان المقور .. وعاد المجمع ففشل أيضا فى الوصول إلى حل لمشكلة الجونلة فتركها كما هى .. جونلة .

بالتأكيد كانت مصر زاخرة بعشرات .. أو مئات .. من علماء الدين والأخلاق والمجتمع وعلم النفس وعلم الجريمة والعلاقات الإنسانية الصعبة المركبة والمعقدة .. علماء لم تعترف بهم الثورة أصلا فضلا عن إحترامهم والإصغاء لآرائهم ومخاوفهم :

إن مصر فى ذلك الوقت كانت تملك جمال عبد الناصر .. ولا ندرى من هو الذى أقنعها بأن بلدا يملك مثل هذا الرجل الإستثنائى لا يعود فى حاجة إلى رجال آخرين .. أو كما يقول عادل حمودة (٢) أن ثورة يوليو تصورت أن وظيفة الحاكم هى نفسها وظيفة الشعب .. والصحافة .. والحكومة .. والبرلمان .. والتليفزيون .. وملاعب الكرة .. تصورت أنه الكل فى الكل .. وتصورت أن وظيفة المثقف أو المفكر نوع من الترف لا توجد إلا فى الهيكل الوظيفى للدول المتقدمة .. ويستخلص عادل حمودة من ذلك كله أن التجربة الإجتماعية لثورة يوليو .. كانت .. تجربة عرجاء!.

وأنا أزعم أنه على حق وعلى صواب تماما .. وأنها كانت تجربة عرجاء بالفعل .

وكما يقول الدكتور لويس عوض (٣) .. عجزت الثورة عن إنهاء حالة الحرب الأهلية غير المعلنة بين طبقات المجتمع المصرى .. وكان برنامج أصحابها الذى يقوم على تحطيم كذا وكذا قبل بناء كذا وكذا .. ليس برنامجا لنظام .. وإنما هو برنامج ثورة .. فطالما أن العمل السياسى يركز على التحطيم وإزالة الأنقاض .. فهو إذن لايزال فى مرحلة الثورة .. ولايبدأ النظام الا بإعلان أسس البناء .. وبهذا المعنى يمكن أن يقال أن ثورة يوليو كانت تعرف مالاتريد .. ولاتعرف ماتريد .

ويلتمس صلاح عيسى العذر للثورة إن كانت قد عجزت عن إنهاء الحرب غير المعلنة تلك التى جرت وقائعها بين طبقات الناس فى مصر .. فصلاح عيسى يؤكد (٤) أن الخريطة الطبقية للمجتمع المصرى تتميز بتعقيد غير عادى .. وأية محاولة لفهمها لا تخلو من نسبة – قد تضيق أو تتسع – من الخطأ .

وإذا كان صلاح عيسى يؤكد صعوبة .. أو إستحالة الفهم .. فإن الدكتور جلال أمين يكتفى بتحديد حجم تلك الطبقات فى خمسينات مصر .. إنه يستند إلى تقرير الحكومة البريطانية صدر عام ١٩٥٥ عن توزيع الدخل فى مصر ويقول (٥) .. كان ١٪ من سكان مصر فى ذلك الوقت يزيد

(١) جريدة الأهرام – ١٩٥٩/٥/١٥

(٢) عادل حمودة – أزمة المثقفين وثورة يوليو – مدبولى – ١٩٨٥

(٣) د. لويس عوض – أقنعة الناصرية السبعة – دار القضايا – بدون تاريخ نشر

(٤) صلاح عيسى – الكارثة التى تهددنا – مدبولى – ١٩٨٧

(٥) د. جلال أمين – الدولة الرخوة فى مصر – سينا للنشر – ١٩٩٢

دخلهم السنوى على الف وخمسمائة جنيها .. وكان ٨٠ ٪ من السكان يحصلون على أجر سنوى يقل عن المائتى وأربعين جنيها .. والباقيين تتراوح أجورهم بين الرقمين .

وبتطبيق تلك النسب على عدد سكان مصر - واحد وعشرون مليون نسمة - يتوصل الدكتور جلال أمين إلى أن الطبقة العليا تكونت من مائتى الف شخص .. والطبقة الوسطى تراوح عددها حول الأربعة ملايين شخص .. والطبقة الدنيا أو الفقيرة بلغ عددها سبعة عشر مليون شخص .

وبصراع كل هؤلاء على الترقى فى سلم المجتمع والحياة .. إفتتحت مصر سنوات الستينات .

أيضا - وبما تعلمته فى سنوات الخمسينات - إستعدت الصحافة المصرية .. والسينما .. والأغنية .. والمسرح .. لإستقبال الستينات .. إستقبال زمن جديد جاء يعصر الناس وقيمهم وعاداتهم .. وأيام لا تكاد تلتقط أنفاسها .. لا تتريث ولا تتوقف إلا عند كل ما يشحن بطاريات الجنس المتفجرة فى أعماقنا .. العالم كله من حولنا بدا وكأنه أعاد إكتشاف الجنس فأقام له أضخم حفل ومهرجان على مر تاريخنا كله .. ووجدنا أوروبا تتمرد على الزواج وعلى الإحتشام والأخلاق .. الهيبز يفتتحون عصر الهوس الجنسى غضبا وإحتجاجا على كل قيد أو قانون .. إنجلترا تعلم نساء العالم كيف يرفعن ثيابهن فوق الركبة من أجل جمال أكثر وإثارة أكبر .. حبوب منع الحمل تجيئنا .. فنشتريها .. فتمنحنا المزيد من الحرية ومن الأمان .

وبمنتهى الحماس .. دعتنا الصحافة لنعيش ذلك المناخ .. أو نراه على الأقل إن لم تكن فى نيتنا المشاركة .. صحافة فاضت بقصص الحب العارية .. الغراميات الفاضحة .. الصور والرسوم المشتعلة .. أوراق تحرق القلوب والعيون والأصابع والعقول .. صحافة روجت للجنس بدون قصد أو مع سبق الإصرار والترصد .. وتعددت حكايات زنا أو دعارة النجوم والمشاهير .. وأصبح زنا الكبار وسقوطهم مجرد سبق صحفى وحدوتة رائعة مسلية .. وزنا الصغار والفقراء وسقوطهم أصبح مجرد خروجا على الآداب العامة . ويحكى لنا صلاح عيسى عن صحافة تلك الأيام .. ويقول [1] أنها كانت صحافة لن تقرأ فيها عن دولة صغيرة تجتهد للتحرر والتقدم وبناء نفسها وسط عمليات إنتهاب من الداخل .. ومؤامرات حصار من الخارج .. لكنك ستقرأ دعاية نظام يحرك العالم كله ويصنع كل شئ فيه .. نظام إنتهى تماما من كل مشاكله والقى عن كاهله كل الهموم .. وفرغ لتخطيط مستقبل المعمورة .. نظام طور نظريات الثورة وتجاوزها وصنع ثورات فى أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية وبلاد واق الواق .

أما السينما .. فلا أحد حتى الان يملك تفسيرا واضحا ومقنعا للعلاقة الباردة الجافة بين السينما والثورة منذ سنواتها الأولى ومابعدها .. ومن المؤكد أن السينما لم تقاوم الثورة .. لم ترفضها .. وإنما أعلنت مباركتها وتأييدها منذ بداية الثورة .. وأبدت السينما إستعدادها الدائم والفورى للتعبير عن الولاء . ثم أنه لم يعد سرا أن السينما كانت واحدة من الهوايات المفضلة لضباط الثورة وعلى رأسهم جمال عبد الناصر الذى كان إلى ماقبل قيام الثورة يأخذ زوجته إلى السينما مرة أو مرتين كل أسبوع .. وهو الذى بعد ذلك إشترى آلة عرض سينمائى وأقام سينما خاصة فى حديقة بيته بمنشية البكرى [2] ليتمكن من مشاهدة فيلم كل يوم وثلاثة أفلام يوميا أثناء الأزمات وأوقات الشدة .. ويضيف محمود فهيم [3] .. أن عبد الناصر كان يهوى مشاهدة الأفلام

(١) صلاح عيسى - مثقفون وعسكر - مدبولى - ١٩٨٦

(٢) إبراهيم علوان - مراحل مجهولة من حياة الرئيس - الشركة اللبنانية للكتاب - بدون تاريخ نشر

(٣) محمود فهيم - عبد الناصر .. هذا المواطن - مركز الحضارة العربية - ١٩٩٣

الأجنبية .. وأنه بالرغم من السينما الخاصة فى البيت .. كان أحيانا يطلب من محمود فهيم أو من محمد أحمد حجز لوج خاص له فى إحدى دور السينما بالقاهرة ليشاهد أحد الأفلام .. ويؤكد محمود فهيم أن عبد الناصر كان يذهب وحده ولا يصطحب زوجته أو أولاده .. وكان حريصا على الذهاب إلى السينما كمشاهد عادى وبدون أية إجراءات أمنية مسبقة .

وقد كان عبد الناصر هو الذي أذن (١) بتصوير فيلم الأبطال فى العريش بعد أشهر قليلة من قيام الثورة .. وتقول درية شرف الدين أن الفيلم الذى تناول قضية الأسلحة الفاسدة تميز بالهزال والإرتجال .. ثم كان فيلم الله معنا هو أول فيلم يحضر جمال عبد الناصر ليلة إفتتاحه فى سينما ريفولى فى الرابع عشر من مارس عام ١٩٥٥ .. وهو الفيلم الذى كتب حكايته إحسان عبد القدوس .. حكاية ضابط يهيم حبا وغراما بإبنة عمه الباشا .. وبالطبع رفض الباشا مثل هذا الزواج .. لكن تقوم الثورة .. فيصبح من حق الضابط الزواج من إبنة عمه الثرية الجميلة الناعمة.

وفى سنة ١٩٥٧ .. كان الفيلم التالى .. رد قلبى .. والذى قدم حكاية ذلك الحب الشهير جدا الذى ربط بين على وإنجى .. الحكاية التى حفظناها جميعا عن ظهر قلب وإعتدنا أن نراها منذ ذلك التاريخ البعيد وحتى اليوم .. وهى حكاية إستعذبتها سينما تلك الأيام كثيرا .. وكأن الثورة لم تكن لها من ضرورة إلا لكى يتزوج الفقراء من بنات الباشوات .. فالحب والهجر والنهاية السعيدة المستحيلة هم الدافع الأول .. وأحيانا الدافع الأول والأخير .. بل إننا نشاهد بطل أول فيلم مصرى بعد الثورة .. الأبطال .. لا يشترك فى حرب فلسطين من أجل هدف أو رسالة أو قضية .. وإنما فقط لأنه إكتشف أن الفتاة التى يحبها هى عشيقة والده الباشا .

ولم تكن تلك هى السمة الوحيدة التى تميزت بها أفلام سنوات الثورة الأولى .. وإنما كان هناك أيضا التأييد المطلق الذى لم يكن ليتم إلا بأطنان من الوحل أهالتها السينما على كل نواحى الماضى وأيامه .. حتى بدت لنا مصر قبل الثورة وكأنها ليست بلدا أو وطنا وإنما هى مستنقع للفساد والخطيئة والرذيلة .. ثم يأتى صوت مجهول مكتئب دون داع .. زاعق بلا مناسبة .. يصرخ فينا قائلا : ثم جاء فجر ٢٣ يوليو !.

وإذا كان محمد نجيب .. أول رئيس لمصر قبل الثورة .. قد أعلن(٢) أن الفن فى مصر قبل ثورة يوليو كان صورة للعهد الذى قامت الثورة للقضاء عليه حيث كانت الخلاعة والميوعة إلا فى القليل النادر هى سمات المسرح و السينما و الغناء .. إلا أننا لانجد خطوات محددة – سواء فى زمن نجيب أو جمال عبد الناصر – لمحاربة تلك الخلاعة والميوعة وكل ماحدث – كما يقول سمير فريد (٣) – هو أن الثورة الغت قانون الرقابة الذى كان معمولا به منذ عام ١٩٤٧ وأصدرت قانونا جديدا فى عام ١٩٥٥.. وكان هذا القانون عبارة عن مادة واحدة تقضى بمراعاة الآداب العامة .. ولاأعتقد أنه حتى الان هناك بيننا من يعرف من الذى يحمى من ممن .. وماهى تلك الحماية .. ومامعنى الآداب العامة التى أرادت الثورة حمايتها ؟!.

فالذى حدث أثناء السنوات الأولى من عمر الثورة هو (٤) إستمرار سيادة الأفلام التجارية مثل

(١) د. درية شرف الدين – السياسة والسينما في مصر – دار الشروق – ١٩٩٢
(٢) مجلة الكواكب – عدد ١٩٥٢/١١/١١
(٣) مجلة فنون – الإتحاد العام للنقابات الفنية – عدد ١٩٨٢/١٠
(٤) د. درية شرف الدين – السياسة والسينما فى مصر – دار الشروق – ١٩٩١

الحب بهدلة والحموات الفاتنات وشرف البنت وأحبك ياحسن وقبلنى فى الظلام .. بعدها .. وطوال الستينات .. وكما أكدت إعتدال ممتاز رئيسة الرقابة فى تلك الفترة (٢) بقيت مخاطبة الغرائز الجنسية أصبحت سمة من سمات الفيلم المصرى .. وأضافت إعتدال ممتاز قائلة أن المؤسسة المصرية العامة للسينما تزعمت إنتاج حصيلة من الأفلام المبتذلة والهابطة جنسيا وتبعها كثير من أفلام القطاع الخاص حتى أصبحت سمة من سمات الفيلم المصرى فى ذلك الوقت .

حسنا .. من الممكن إذن أن نكتفى بإدانة السينما المصرية .

لكن هل يستريح الضمير ويقبل إدانة سينما ممنوع عليها الحديث فى السياسة وهموم الناس؟.. وهل يرضى المنطق وحسابات العقل أن نحاكم سينما مغلولة اليد معصوبة العين ؟!.

مؤكد أنه لاالضمير .. ولاالعقل .. ولاالمنطق .. يقبل تلك الإدانة وإن كانوا سيكتفون بنصفها .

مؤكد أيضا أن السينما حاولت الإقتراب .. وإقتربت بالفعل من الجنس وعقده وتعقيداته وأزمته فى مصر .. وحاولت إستكشاف ذلك المارد المتمرد على قمقمه .. وأبرز دليل على ذلك هو أفلام صلاح أبو سيف الذى سبق وأن تحدثت عن فيلمه الشهير شباب إمرأة الذى قدمه عام ١٩٥٦

.. ولم يتوقف صلاح أبو سيف .

فى سنة ١٩٥٨ .. قدم فيلم الطريق المسدود .. عن الجنس داخل بيت مصرى .. نعم بيت شاذ وإستثنائى وقليل الحياء والأدب .. لكن من المؤكد أنه كان هناك فى مكان ما داخل القاهرة إن لم يتكرر وجوده داخل أية مدينة مصرية .. وفى ١٩٥٩ قدم فيلم بين السماء والأرض وحاول فيه الإشارة إلى ذلك النوع الذى عودته الرغبة غير المطفأة والحرمان اللامتناهى رغم طوفان الإغراءات أن يلتصق بجسد أى إمرأة .. من الخلف أو من الأمام .. حتى فى مصعد معطل قد لايخرج ضحاياه أحياء .

وغير صلاح أبو سيف وبقية أفلامه التى إجترأت حاجز الجنس النفسى وستاره الحديدى .. مثل بداية ونهاية .. القاهرة ٣٠ .. البنات والصيف .. كان هناك مخرجون آخرون مثل يوسف شاهين وتوفيق صالح وعاطف سالم وهنرى بركات وحسين كمال .. وكانت هناك أفلام مثل الحرمان ودعاء الكروان والبوسطجى والأرض وباب الحديد واللص والكلاب والنظارة السوداء والمراهقات والحرام ودرب المهابيل .

لكن كانت هناك أفلام أخرى مثل .. صائدة الرجال .. نساء وذئاب .. زوج للإيجار .. بقايا عذراء.. خذنى بعارى .. جوز مراتى .. عبيد الجسد .. نصف عذراء .. زوجة ليوم واحد .. العريس يصل غدا .. فتاة شاذة .. زوج فى أجازة .. لعبة الحب والجواز .. للرجال فقط .. صبيان وبنات .. الزوج العازب .. شقاوة رجالة .. المراهقة الصغيرة .. ليلة الزفاف .. وعشرات الأفلام التى قدمت الجنس وتناولته وباعته دون أن تعنى به وبقضاياه وأزماته .. كانت تلك الأفلام – وهى النوع الطاغى فى سينما مصر حتى ماقبل يونيو عام ١٩٦٧ – تخاطب الأعضاء التناسلية ولاشأن لها بالعقل أو المشاعر أو الحلم والرؤية والمعاناة .

ومع ذلك فأنا لا أميل إلى إطلاق الرصاص على السينما المصرية أو إعدامها .. ولست أميل أيضا

(١) إعتدال ممتاز – مذكرات رقيبة سينما – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥

إلى مثل تلك الآراء المبالغة مثل ذلك الرأى الذى قاله الناقد أحمد عبد العال والذى أكد [1] أنه لو شاءت الثورة تنوير السينما المصرية لتغير مصير الثورة والسينما تماما .

ومنذ عام ١٩٥٣.وحتى عام ١٩٦٣ .. قدمت السينما المصرية خمسمائة وثمانية وعشرين فيلما .. بينها إثنين وعشرين فيلما جادا .. وإنحصر الباقى فى أفلام الغناء والإستعراض والجريمة .. وسلسلة أفلام إسماعيل ياسين .. ويقول رجاء النقاش [2] أن خمسة وسبعين بالمائة من الأفلام المستوردة إلى مصر فى الفترة مابين ١٩٥٠ و ١٩٦٣ كانت أفلاما أمريكية .. وأسهمت هذة السيطرة فى إفساد الفيلم المصرى ودفعه إلى الإهتمام بالشكليات أكثر من الإهتمام بالطابع الإنسانى الخاص بنا .. لقد كنا بحاجة إلى أن نتتلمذ مثلا على المدرسة الواقعية الإيطالية التى ركزت إتجاهاتها الأساسية على إكتشاف الجوانب الفكرية والفنية فى الإنسان والمجتمع .. لكن يبدو أن النكهة الإيطالية لم تستهونا كثيرا .. وإستمر تدفق الأفلام التى تقدم صورة براقة للحياة.. تفيض بالقصور والشقق الفاخرة والسيارات الفارهة والحفلات الراقصة وأحدث الأزياء .

ومثلما تحولت سينما الستينات إلى دعوة مفتوحة للجنس .. فإن المسرح أيضا بدوره لم يرض أن تكون مساحة دعوته أقل أو أضعف تأثيرا .

إن الأمانة تقتضى الإشارة إلى نهضة مسرحية رائعة فى بداية الستينات .. نهضة حملها على كاهلهم رجال سيتوقف عند أسمائهم تاريخ المسرح المصرى طويلا .. أسماء مثل الفريد فرج وسعد الدين وهبة ونعمان عاشور وميخائيل رومان .. ثم بعد سنوات قليلة صلاح عبد الصبور ومحمود دياب وعلى سالم وشوقى عبدالحكيم .. لكنها نهضة لم تكن لتستمر أو لتبقى .. فسرعان ما تهاوت وأفسحت المجال لقيم السقوط والعهر والإسفاف .. وكانت البداية .. كما يقول الكاتب المسرحى الكبير نعمان عاشور [3] ..هى إنشاء عشر فرق مسرحية دفعة واحدة سميت بمسرح أو مسارح التليفزيون .. وكما يؤكد نعمان عاشور .. بدأ صراع الكم والكيف .. وبدأ تفتيت الحركة المسرحية .. وتم رسميا تفريغ المسرح من رسالته كتعبير إجتماعى يحمل رؤية مستقبلية تسعى إلى تغيير الحياة .. ويضيف نعمان عاشور أنه فى مثل هذا المناخ لم يكن مما يثير الدهشة أن يكون الدكتور رشاد رشدى هو الذى يقف على رأس هذا الإتجاه .. فهو – ومعه تلاميذه – كان نصيرا لمذهب الفن للفن فقط .. والدكتور رشاد رشدى هو الذى يصفه الناقد الكبير فاروق عبد القادر[4] بأنه كان أول من بدأ دراما الخيانة والفشل والإحباط .. والتركيز على الجنس ليصبح موضوعا للحديث وللفن .. جنس مطلوب لحد ذاته .. إمرأة وراءها رجل .. حيث كل النساء فاقدات للعذرية .. عذرية الجسد والروح .. فوهات فارغة لا تجد من يسدها .. عبادة جسد الأنثى وكلمات تتحسس ذلك الجسد .. وتكاثرت الرموز الجنسية ومواويل العشق المحرقة سواء كانت مستورة أو صريحة .

ويستشهد فاروق عبد القادر علي كل ذلك بواحدة من أشهر مسرحيات رشاد رشدى .. مسرحية لعبة الحب التى قدمها فى عام ١٩٦٢ .. حيث كانت المسرحية حافلة برموز الجنس الفجة .. كيزان الذرة المشوية .. الفراخ التى ستؤكل .. ويخلص فاروق عبد القادر إلى أن الدكتور رشاد رشدى

---

(١) مجلة أدب ونقد – عدد ١٠/١٩٨٨

(٢) رجاء النقاش – كلمات فى الفن – مكتبة الأنجلو – ١٩٧٠

(٣) نعمان عاشور – المسرح والسياسة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

(٤) فاروق عبد القادر – إزدهار وسقوط المسرح المصرى – دار الفكر المعاصر – ١٩٧٩

تحول إلى كاتب مسرحي بذئ غليظ الحس مهموم بالجنس .. وحين كتب الناقد الكبير محمد مندور يصف المسرحية بأنها مجرد فحيح حيواني يصرخ أحيانا ويخفت أحيانا أخرى .. رد عليه الدكتور رشاد رشدى وأعطاه وأعطانا درسا رائعا فى أدب الحوار والإختلاف .. فقد كتب فى جريدة الجمهورية (١) يصف مندور بأنه ساذج نائم على نفسه .. صاحب ضمير غافي وعقل طفولي .. جاهل ذو باطن قذر .

أما الكتب .. فقد كان حالها أكثر تدهورا .. وساد أوساط الثقافة المصرية ذلك الشعار الفاضح .. كتاب كل ست ساعات .. وصدرت سلاسل متعددة .. كتب سياسية .. كتب قومية .. إخترنا للعامل .. إخترنا للفلاح .. وغنى عن الذكر أن تلك الخطة الطموحة قد إنتهت بأكثر من تسعة ملايين كتاب فى مخازن الدولة لا تجد من يشتريها فضلا عن قراءتها .. وكانت هناك الكتب التى لم يتجاوز توزيعها - مع المجاملات والهدايا - أكثر من خمسين نسخة .. وإمتد تأثير ذلك إلى المجلات أيضا .. مجلات لا هم لها إلا الدعاية للنظام .. مجلات صدرت بأكثر من لغة وبلغ حجم الإنفاق عليها ثلاثمائة الف جنيها فى السنة ولم تجد الدولة من يشترى مثل تلك المجلات فى آخر الأمر إلا الدولة نفسها .. وكما يقول فاروق عبد القادر أنه حين تولى مهندس الدعاية .. عبد القادر حاتم .. فى عام ١٩٦١ أمر وزارتى الثقافة والإعلام .. راح يدمج مؤسساتهما معا ويضع الأساس القوى لتخريب الثقافة المصرية بوجوهها المختلفة .

وكذلك لم تعد أمام الأغنية إلا الترويج للحب المهزوم غالبا .. والغرام المشوب بالقهر والعذاب والإحباط .. أو الدعاية للنظام والتغنى بمنجزات خيالية ومستحيلة وخرافية كتماثيل رخام ودور للأوبرا فى قرى مصر ونجوعها .. وكان ذلك هو ما دفع بميخائيل رومان .. بعد ذلك بسنوات .. ليكتب مسرحية الزجاج .. حيث نشاهد حمدى بطل المسرحية يصرخ فيهم وفينا : الأوبرا .. الأوبرا ياولاد الكلب .. ياللى عاملين وحوش وإنتو أرانب .. الأوبرا بعمدان الدهب والمرمر .. وانتم في الأرض بتاكلوا طين !.

لكن .. جاءت صرخة حمدى تقريبا بعد فوات الوقت .. وبعد أن تفسخت أوصال المجتمع .

.. بإختصار

لم يعد هناك من هو قادر على الإحتجاج الإجتماعى وسط هذا الزخم الثورى ثم السياسى الناصرى .. وبدا الكل مستسلما لمقاديره تمضى به كما تشاء .

حتى الأزهر .. الذى يشاع كذبا أنه حامى مصر وأهلها وأخلاقياتها وإلتزامها .. تم حصار وعزل وتقييد ما تبقى منه نهائيا بالقانون رقم ١٠٣ الذى صدر عام ١٩٦١ بإسم تطوير الأزهر .. ونص القانون على أن يتكون الأزهر من خمسة هيئات هى .. المجلس الأعلى للأزهر ومجمع البحوث الإسلامية وإدارة الثقافة والبعوث الإسلامية وجامعة الأزهر .. وأصبح هناك وزيرا للأزهر .. وأضيفت كليات جديدة .. التجارة والطب وطب الأسنان والصيدلة والعلوم والتربية ومعهد اللغات والترجمة وكلية البنات .. ويعترف فتحى رضوان (٢) بأنه حين صحت النية على تطوير الأزهر..كنا نطمع فى أن يكون الجامع لا الجامعة معهدا يواجه متطلبات الحياة العصرية والنظرية والتطبيقية.. على أسسه القديمة وعلى يد علماء وتلاميذ نشأوا فى أحضانه .. وفى إحدى خطبه

(١) جريدة الجمهورية - عدد ٢١، ١٩٦٢/٤/٢٧

(٢) فتحى رضوان - أراء حرة فى الدين والحياة - كتاب الهلال - ١٩٦٩

الشهيرة .. وقف الشيخ كشك على المنبر [1] يؤكد أن ذلك القانون .. كان بقصد تدمير لا تطوير الأزهر .. وبأسلوبه الساخر وقف الشيخ الضرير يخاطب رجال الأزهر متسائلا .. ألا فخبرونى يا رجال الأزهر كم يحفظ أحدكم من القرآن بعد التخرج من الأزهر ؟.. كم سورة يحفظها ؟.. إن هناك من خريجي الأزهر فى هذة الأيام من لا يستطيع قراءة القرآن فى المصحف الشريف .. ويواصل الشيخ كشك خطبته قائلا .. شيخ الأزهر متخصص فى الفلسفة .. وما سمعنا عن شيوخ أزهر متخصصين فى الفلسفة .. ولست أدرى من سيعين بعد ذلك شيخا للأزهر .. قد يكون لواء أركان حرب .. فمشيخة الأزهر لم تعد تقوم للإسلام بأية خدمة .

وما يعنينا هنا أن الأزهر تحول من جامع إلى جامعة .. لم يبق حتى كمسجد يمارس – ولو شكليا – دور راعى القيم والأخلاق التى جاء بها الإسلام .. ولم يعد فوق منبره يقف رجال بإستطاعتهم الرفض والإحتجاج والإعتراض .. باتوا طاقما من الموظفين مهمتهم التبرير لا التنوير .. ليس الأزهر فقط .. وإنما كل مسجد فى مصر .. فكما يقول نبيل عبد الفتاح [2] أن وزارة الأوقاف كانت مهمتها تحويل تلك المساجد إلى أداة لتشكيل إتجاهات وسلوك الأفراد بما يتمشى مع أهداف النظام .

وكانت المرة الأولى التى تمضى فيها مصر بلا مسجد تستند إليه وتحتمى به .. المرة الأولى منذ أن أعلنت وأشهرت مصر إسلامها .. فبعد ثلاث سنوات فقط من دخول الإسلام مصر .. كان مسجد عمرو بن العاص المعروف بإسمه .. وفى عصر الخلافة العباسية كان مسجد العسكر .. وحين إستقل أحمد بن طولون بحكم مصر كان المسجد الذى عرف بإسمه .. وحين جاء الفاطميون كان الجامع الأزهر .

المسجد دائما .. وفى كل وقت .. كان المؤسسة التى تراقب وتحافظ وتقوم بدور الضمير الجماعى .. لكنه فى ستينات القرن العشرين إختصروا دوره إلى ساحة مزودة بالمراوح والسجاجيد وأعمدة الرخام لأداء الصلوات الخمس .. ولهذا كان من السهل على كثير من الناس أن يبنوا مساجد صغيرة يصلون فيها .. مادامت الحكاية مجرد الصلاة والركوع والقيام .. وهكذا وكما يقول بيرجر موروى [3] .. أصبح عدد المساجد الحكومية فى مصر عام ١٩٦٢ يقارب الثلاثمائة مسجدا .. بينما كان عدد مساجد الأهالى أكثر من أربعة عشر الف مسجدا .

وفى مثل هذا المناخ .. كان لابد وأن تسقط وأن تتوارى قيم كثيرة .. وأن يبدو كثير من رجال وسيدات تلك السنوات كخيول فى سباق محموم لا نهاية له .. أو أن الدنيا هى التى بدت بلا آخر أو نهاية .. وكأن الآخرة قد أحيلت للتقاعد فلا حساب ولا سؤال ولا عقاب .. ثم كان هناك الصراع الإجتماعى الذى وصفه هيكل سابقا بأنه كان على أشده وقت قيام الثورة .. ويؤكد الدكتور جلال أمين [4] أنه زاد بالفعل بعد الثورة .. فالحواجز قد تكسرت .. والأبواب فتحت .. وأصبحت الآمال أكبر والطموحات أبعد مدى .. ولم يعد المنتمى للطبقة الوسطى يعتبر الإنتساب للطبقة العليا فى حكم المستحيل كما كان قبل الثورة .

وبدأ أشرس صراع طبقى فى مصر فى عصورها الحديثة .. وكان الجنس – بأكثر من شكل

---

(١) جيلز كيبل – النبى والفرعون – ترجمة أحمد خضر – مدبولى – ١٩٨٨
(٢) نبيل عبد الفتاح – المصحف والسيف – مدبولى – بدون تاريخ نشر
(٣) بيرجر مورو – الإسلام فى مصر اليوم – كامبريدج – ١٩٧٠
(٤) د. جلال أمين – الدولة الرخوة فى مصر – سينا للنشر – ١٩٩٣

وأكثر من دور وأكثر من معنى – قد تحول فى الستينات إلى أحد أهم وجوه ذلك الصراع .. وإذا كانت العقدة المصرية الجنسية التى أشرت إليها من قبل .. والتى تمثلت فى سباق الثوار على أجساد الأميرات .. قد إقتصرت فى الخمسينات على عدد قليل من الكبار. وعدد أقل من الصغار .. فإنها فى الستينات تحولت إلى واقع يعيشه عدد مفزع ومخيف من الناس سواء كانوا من الكبار أو الصغار.. ووجدت تلك العقدة من يزيد من حجمها وضخامتها وتأثيرها .. أولئك الذين صاغوا أفلامهم ومسرحياتهم التى إحترفت اللعب على كل حبال التناقضات والمفارقات الجنسية .. وأصبحنا نجد كثيرا ذلك الثنائى .. المرأة الجميلة المثيرة المتفجرة المشتهاة .. والرجل الضعيف المهمل القبيح الوضيع .. ويصبح ذلك الرجل هو الوحيد القادر على إسعاد تلك المرأة جنسيا .. ويسرعة يدرك الفنانون هذة التركيبة التى تصلح لمغازلة جيوب ملايين الفقراء والبسطاء والشباب .. ولم يكن أحد منهم ليبخل بدفع مايستطيعه من مال ليقضى القليل من الوقت يتقمص خلاله دور فؤاد المهندس الذى تعشقه الجميلة شويكار .. أو يتحول مؤقتا إلى محسن سرحان الذى لاترضى بديلا عنه المثيرة تحية كاريوكا .. وأمثلة أخرى كثيرة .

وإذا كان رجال الثورة فى شبابهم قد إشتهوا الأميرات .. فقد تعين على بعض كبار رجال الدولة فى الستينات البحث عن نوع آخر من جميلات النساء ليحللن محل الأميرات اللواتى إبتعدت السنوات بهن وبعهدهن وبقاياهن .

وكانت فنانات مصر .. راقصاتها .. مطرباتها .. هن أصلح وأنسب من يقمن بهذا الدور .

إنهن لايفتقدن الجمال .. الجاذبية .. الإثارة .. ويملكن مايستعضن به عن القاب وأرستقراطية الأميرات السابقات .. يملكن الشهرة والأضواء الساطعة والحياة الملونة الصاخبة وإعجاب الملايين

وبدأت علاقة الثورة .. بالفن .

وإذا كانت العلاقة الجنسية .. بين السلطة والفن .. إختراعا لاتنفرد به مصر دون سائر دول العالم .. وإذا كانت مثل تلك العلاقات كانت تتم فى مصر قبل قيام ثورة يوليو .. فإنها بعد الثورة إنفردت .. وتميزت .. بطابع جديد .. خرج بها من دائرة العشق والشهوة .. إلى الرغبة فى معاشرة أضواء الفن الساطعة .. أو تحويل الجنس لسلاح سياسى وأمنى عن طريق التجسس .

طابع جديد جعل من تلك العلاقات مزيجا غامضا معقدا من إستغلال النفوذ والكبت والحرمان الجنسى والتنافس الأخلاقى والسياسى وإنهيار القيم وكل قواعد لعبة الحب والعشق والرغبة والجنس .

وقد كان الملك فاروق يقيم علاقات جنسية صريحة ومفضوحة مع مختلف النساء المصريات والأجنبيات .. بل ويلغ به الأمر أن حاول الإعتداء(١) على زوجة ولى عهد اليونان بعد أن أمر زوجته الملكة فريدة بمغادرة الغرفة وقام هو بإطفاء النور قبل أن يشرع فى محاولته .

أما عن العلاقة بين القصر وفنانات مصر .. فقد كانت متنوعة ومثيرة ومسلية أيضا .. فقد مارس الملك الجنس طويلا مع الراقصة سامية جمال والممثلة كاميليا .. وكانت هناك علاقة أخرى ربطت بين أحمد حسنين باشا والمطربة أسمهان .. وعلاقة أخرى بين عزيزفهمى إبن عبد السلام فهمى جمعة رئيس مجلس الشيوخ وبين الراقصة ببا عز الدين .

وبالرغم من تشابه الحال بين مصر فاروق .. ومصر الثورة .. من ناحية التواصل الجنسى

---

(١) مجلة لايف الأمريكية – نوفمبر ١٩٥٠

الحميم بين السلطة والفن .. أو بين الكبار سياسيا وبين الفنانات ومشاهير النساء .. إلا أن الفارق بين الإثنين كان كبيرا .. فالصراع الطبقى لم يكن له دور فى سياسة الملك الجنسية .. ولم يلعب الجنس دورا مباشرا فى نظام ماقبل الثورة بقدر الدور الذى لعبه بعدها .. وبالرغم من كل خطايا فاروق ومدى العهر الرفيع الذى تميز به .. إلا أن التجارب والحكايات كلها تؤكد أن الملك لم يكن متوازنا جنسيا .. وقد ذكر حسين باشا سري رئيس الوزراء للسفير الأمريكى [1] أنه تأكد من حقائق معينة جعلته يثق فى أن الملك لايذهب مع النساء إلى آخر المطاف .. وقرر طبيب الملك أن بعضا من غدده لاتؤدى وظائفها تماما .. وهنا سأل السفير لامبسون رئيس الوزراء عن قيام الملك بإنجاب بنتين .. فأوضح رئيس الوزراء أن الملك ليس عقيما وإنما.. هو رجل يفتقد مقومات الشباب !.

وفى حديث للملكة فريدة [2] مع صديقتها الأميرة اليونانية .. صرحت الملكة بأن الملك رجل غير طبيعى !.. وقالت بعض النساء اللواتي إتصلن بفاروق [3] .. وإتصل بهن .. أنه كان يستمتع بلذة الوحشية والنصر إذا ألقى بهن على الفراش ومزق سراويلهن بكلتا يديه قبل أن يأتى فعلته النكراء .. وأنه كان يشعر بالغيظ والغضب وخيبة الأمل إذا وجد من المرأة إنقيادا وإنصياعا .. بل كان فى بعض الأحيان يطرد المرأة من فراشه إذا إكتشف أنها بادرت بخلع ثيابها !.

كلها كانت عقد شخصية وجنسية لا تخص إلا الملك .. والنساء اللواتى إصطفاهن الملك .. وهو الأمر الذى إختلف تماما فى مصر الستينات .. حيث إستبدلنا الملك بأكثر من ملك .. وزاد عدد النساء اللواتى – من أجل المال أو السيطرة أو الفن أو الشهوة – كن على إستعداد للسير فى كل طريق إلى آخره .. ولم يكن هناك لأى طريق من آخر إلا الفراش وفى الفراش .

وفى مجلة روز اليوسف [4] .. يحكى الصحفى والمخرج ناصر حسين ذكرياته عن سنوات الستينات ويعيد تقسيم العلاقة بين السلطة والفن فى مصر الثورة إلى نوعين من العلاقات .. نوع بدأ .. أو إنتهى .. بالزواج .. ونوع ثان بقى فى دائرة العلاقات .. فأما زيجات تلك الفترة فكانت تضم المشير عبد الحكيم عامر الذى إرتبط بوردة الجزائرية قبل زواجه من برلنتى عبد الحميد .. وعلى شفيق مدير مكتب المشير تزوج مها صبرى.. وعبد المنعم أبو زيد سكرتير المشير تزوج سهير فخرى .. وإبراهيم صادق شقيق حاتم صادق زوج إ بنة الرئيس جمال عبد الناصر تزوج نادية لطفى .. أما العلاقات التى لم تثمر زواجا فقد تضخم ملفها بحيث ضم الفضائح والإشاعات والوقائع المؤكدة .. فراجت شائعة تربط بين سامى شرف سكرتير الرئيس للمعلومات وبين كريمة المعادى زوجة المطرب الراحل محمد فوزى .. وهناك من أكد قيام علاقة حميمة بين محمود الجيار مدير مكتب الرئيس للشئون الداخلية وبين زبيدة ثروت .. وتبقى الحكاية الأكثر رواجا وإثارة وجدلا وهى التى ربطت بين صلاح نصر رئيس جهاز المخابرات وبين إعتماد خورشيد .

ويبدو أننا كنا فى حاجة إلى هزيمة ثقيلة من نوع هزيمتنا فى يونيو عام ١٩٦٧ لنكتشف مدى ما عاشته مصر من إنحلال وإنحرافات جنسية .. بل إن قضية فساد المخابرات التى تفجرت فى عام ١٩٦٨ .. والتى تحولت إلى أكبر وأشهر قضية جنسية فى تاريخ مصر .. نستبين منها أن

(١)، (٣) سيد صديق عبد الفتاح – ليالى ونزوات فاروق – مكتبة مدبولى – ١٩٩٠

(٢) د. لطيفة محمد سالم – فاروق وسقوط الملكية فى مصر – مكتبة مدبولى – ١٩٨٩

(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٧/٦

الفساد كان أكبر مما يتخيل أو يتوقع أحد .. وصلاح عيسى مثلا (١) يقول أنه قد ثبت أن المؤسسة العسكرية المصرية كانت غارقة لأذنيها فى المخدرات والخمر والنساء وفى كل مظاهر الإنحلال الخلقى .. وقبل الحرب كان الجنس قد دخل ضمن موضوعات أمن الدولة وحماية الوطن طويلا .. وبينما كانت المخابرات الإسرائيلية تجمع أدق وأوفى المعلومات عن مصر عسكريا وإقتصاديا .. كانت المخابرات المصرية مشغولة بجمع أوفى المعلومات عن فسيولوجيا الأعضاء الجنسية لكل المهتمين بالعمل العام .. وبرغم أصولهم العسكرية .. فقد إفتقدوا الخصائص النفسية لفرسان العصور الوسطى .. وتبقى لديهم الوهم بأنهم مقبولين لدى النساء .

أو كما يقول عادل حمودة (٢) بأنه فى محكمة الثورة .. إنكشفت كل الأغطية لتظهر الحقائق عارية .. العاهرات اللواتى سيطرن على مدير المخابرات .. ومدير المخابرات الذى كان يتحدث عن الجنس كوسيلة للسمو والتطهر .

وفى المحكمة .. وقف صلاح نصر يدافع عن نفسه (٣) مؤكدا أن لجوء المخابرات للنساء بدأ بعد إكتشاف أن زوار مصر كانوا يتصلون بالنساء .. ففكرنا أن يكون لدينا طاقما مدربا يمكن السيطرة عليه للحفاظ على أسرار الدولة .. وكانت الدولة تعلم كل صغيرة وكبيرة حول إستخدام هذا الأسلوب .. ومرة أخرى يؤكد صلاح نصر أن اللواتى تعاملن مع المخابرات من الفنانات .. رحبنا فورا بالعمل معنا .. وكان لكل واحدة منهن ملفا موقعا بإمضائها .. وكل واحدة منهن نالت أجرها كاملا عما قامت به.

ولعله من المناسب لنغوص أكثر فى أعماق وأوحال تلك الفترة .. أن نواصل الإصغاء إلى صلاح نصر الذى يقول : هناك ممثلة مشهورة عرض عليها التعاون مع المخابرات .. فقبلت بحماسة شديدة .. وتم إفهامها طبيعة العمل الذى سيوكل إليها .. فوافقت.. وكانت تأخذ أجرا شهريا .. فيما بعد .. بدأت تلك الممثلة تقلل من تعاونها .. وكانت تثرثر بعلاقتها بالمخابرات .. ولأن هذة الممثلة كانت مرغوبة من كثير من السياسيين غير المصريين .. فكان من الضرورى إستمرارها فى العمل .. ولم يكن قد تم تسجيل أى شئ لها .. فأرسلت المخابرات بأحد عملائها إلى إحدى القوادات وقال لها أنه منتج سينمائى جزائرى وكان يتكلم بلكنة جزائرية .. قال لها أنه يريد عمل فيلم مشترك تمثل فيه هذة الممثلة .. قامت القوادة بإستدعاء الممثلة التى وافقت على التمثيل فى الفيلم .. ثم طلبها العميل إلى منزله وقال أنه إستأجر شقة مفروشة .. فوافقت مقابل ثلاثمائة جنيها .. فأعطاها المبلغ ولم يكن سعرها فى هذا الميدان قد إرتفع كثيرا .. وبعد أن قضى المنتج حاجته منها .. إكتشفت أنه تم التسجيل بالصوت والصورة فوافقت على إستمرار التعاون .. وأعادت الثلاثمائة جنيها لأنها كانت عهدة .. الغريب أن يتردد أن هذة النجمة جندت للعمل مطربة مشهورة تمت لها بصلة قرابة .. وثيقة جدا .. لكن تم إكتشاف أن هذة المطربة .. تقوم بتصوير نفسها فى أفلام سينمائية وتغنى أغانى جنسية وهى عارية تماما وتبيع هذة الأفلام إلى أثرياء الخليج .

فى المحكمة أيضا .. وقف صلاح نصر يقول عن إحدى شاهدات القضية (١) .. مش هى دى اللى عاملة كتاب بتقول فيه إن إسماعيل صدقى هو الوحيد الذى يستطيع أن يسعد أنثاه .. مش

(١) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦
(٢) عادل حمودة – النكتة السياسية – سفنكس للطباعة والنشر – ١٩٩٠
(٣) عبدالله إمام – صلاح نصر يتذكر – مؤسسة روز اليوسف – ١٩٨٦

هى دى اللى حاطة صور النسوان فى شنطتها وبتلف بيها على الوزراء .

ومن الواضح أن الحكاية تخطت حكاية المخابرات والتجسس لتصبح مجالا مروعا ومخيفا للتردى والسقوط .. ويكفى أن نقرأ ملفات مكتب التحقيق والإدعاء التابع لمحكمة الثورة لنلمس هذا الواقع العارى الفاضح والحزين المثير للإشمئزاز .. وإذا كنت لست فى حل من ذكر مصدر الحصول على تلك الملفات .. ولا أنوى الإشارة إلى أسماء أبطال تلك الحكايات لأن البحث عن فضائح الآخرين ليس فى نيتى ولا من أجله كان هذا الكتاب .. فإنه ليس هناك ما يمنع من التأكيد على أن فنانات كثيرات قد تورطن فى تلك العلاقات الجنسية لاخر مدى .. وأن وزراء ومشاهير – وردت أسماؤهم واحدا بعد الآخر فى أوراق التحقيقات – قد إستغلوا مناصبهم فى الإستمتاع إلى أقصى مدى بأجساد نساء الفن والمجتمع الناعمات الجميلات .. واحد منهم مثلا كان يطلب من صلاح نصر أن يرسل إليه النساء فى شقة خاصة بوسط البلد .. ونكتشف أيضا فنانين كبار لم يكترثوا بعلاقات زوجاتهم مع كبار رجال الدولة إما خوفا وإما طمعا فى تسهيلات ونفوذ أكبر .

تفاصيل تلك العلاقات .. الساخنة والباردة .. المثيرة والهادئة .. تفتح عيوننا على واقع جديد بدأ يتشكل فى مصر .. واقع أصبح يدين بالولاء لغرف النوم أكثر مما يدين به من ولاء للشارع .. لغة الفراش أصبحت هى الأعلى صوتا وتأثيرا ونفوذا .. التفكير والرؤية والحياة كلها تحكمت فيها الأعضاء التناسلية لاالعقول والتجارب والحكمة .

وأخيرا أصبحت تلك العلاقات والتجاوزات فسادا سياسيا وأخلاقيا تحول إلى واحد من الأسباب الرئيسية لفضيحة مصر فى حرب يونيو ١٩٦٧.

وفى مثل هذا المناخ .. كان أوان الصدام الثانى بين النظام وبين جماعة الإخوان المسلمين .. وفى السجون والمعتقلات بدا بما لا يدع مجالا للشك.. أن الجنس قد أصبح بالفعل هاجس النظام .. فالصدام الفكرى أو السياسى لم يمنع من إستخدام الجنس .. إغتصاب أو تهديد بالإغتصاب وهتك العرض للمسجونين أو لنسائهم .. وتحكى زينب الغزالى (٢) عن محاولة إغتصابها التى لم تتم فى الزنزانة بأمر حمزة البسيونى وبواسطة إثنين من الجنود .. ويقول عادل حمودة (٣) أنه سمع شاهد عيان لما حدث للإخوان المسلمين فى السجن الحربى – والشاهد ليس منهم – يقول أنه كان على الإخوان أن يكرروا عبارة بدت كالشعار هى : لا دخان .. ولا نسوان !.

وأسفر ذلك الصدام أيضا عن ملاحظة هامة .. فالغالبية العظمى من الذين قبض عليهم من الإخوان كانوا من الشباب الذى لم يكن معروفا من قبل .. كانوا صغارا يوم حدث الصدام الأول شتاء ١٩٥٤ .. ولفتت هذة الملاحظة إنتباه عدد من المثقفين فسارعوا بإضاءة الضوء الأحمر وطالبوا بالبحث عن تفسير واقعى لما حدث للشباب فى سنة ١٩٦٥ (٤) .

ويعترف النظام الناصرى بأنه ترك الشباب المصرى مهملا .. ينهشه الفراغ .. يجعله عرضة للإنحراف .. أو للتطرف .. إعترف النظام أن الإنجاز المادى لايكفى .. فلابد من تقوية البناء النفسى أيضا .

ولكن إلى أى مدى إستطاع جمال عبد الناصر أن يقيس حجم هذا الفراغ الإجتماعى .. سواء

(١) مختار سالم – راقصاتنا والجاسوسية – مدبولى الصغير – ١٩٩١

(٢) زينب الغزالى – أيام من حياتى – دار الشروق – ١٩٧٨

(٣) ، (٤) عادل حمودة – الهجرة إلى العنف – سينا للنشر – ١٩٨٧

بين الشباب .. أو حتى بين الكبار .. بل وأعضاء مجلس قيادة الثورة أيضا ؟.

فليس من المؤكد أن جمال عبد الناصر وجد متسعا من الوقت لتشغله تشققات المصريين الصغار .. الإجتماعية والنفسية والجنسية أيضا .. وهذا مايؤكده صلاح عيسى حين يقول (١) أن النظام لم يتعامل أبدا مع الإخوان كخصوم أيديولوجيين .. ولكن تعامل معهم طول الوقت كخصوم سياسيين .. وتلك كانت مأساته الكبرى .. فالقضية لم تكن مجرد تنظيمات إرهابية .. لكنها الفلسفة نفسها .. وحقيقة الأمر أنه بينما كان عدة الاف من الإخوان في السجون .. كان المناخ السياسي والفكرى فى مصر يفرز بإستمرار عناصر قابلة لأن تستهويها تلك الدعوة بحكم التربية أو النشأة أو تدنى الوعي العام .

وإذا كان هذا هو حال حكومة ونظام الستينات .. فإن حال الناس لم يكن أفضل .. فجرائم الآداب والإخلال بها كانت لا تزال فى إزدياد .. ويحكي لنا الدكتور جمال ماضى أبو العزايم(٢) .. صورة مصر فى عام ١٩٦٤ .. ويقول : كان النظام الناصرى فى ذروة سيطرته .. الأنفاس مكتومة والعيون زائغة .. والشك تحول إلى عادة قومية .. لم يتردد البعض فى أن يحملها إلى بيته ويمارسها مع زوجته .. ويضرب الدكتور جمال لنا مثلا بحكاية مدير بنك شهير ومرموق .. بدأ يشك فى زملائه وموظفيه .. وإنتهى إلى الشك فى سلوك زوجته .. وبدأ يتهمها بإقامة الليالى الحمراء فى البيت بعد أن ينام .. وطلقها مرتين .. وإنتهى به الأمر إلى عيادات ومستشفيات الأمراض النفسية .

ولم يقتصر الأمر فى النهاية على الدور المباشر للثورة فى تمدد غدة الجنس تحت جلد المصريين .. وإنما كانت هناك سياسات أخرى بدت وقتها بعيدة عن الجنس والإنحراف .. فإذا بها بمرور السنوات تتحول إلى جزء من صميم المشكلة .. ولعل أبرز تلك السياسات كانت سياسة الإسكان .. فالدكتور ميلاد حنا يرى (٣) أن أزمة الإسكان بدأت حين أراد مجلس قيادة الثورة مجاملة أهل المدن بعد أن جامل أهل الريف بقوانين الإصلاح الزراعي .. فقدم منحة - لم يطلبها أحد - بتخفيض إيجارات المساكن .. فعادت مصر تعاني من أزمة إسكان مرة أخرى بعد أن كانت قد تخلصت منها نسبيا منذ أواخر الأربعينات .. ثم إشتدت الأزمة حين صدر عام ١٩٦٢ القانون الذى يحدد الإيجارات فلم تعد متروكة للعرض والطلب .. وقامت الحكومة بتخفيض الإيجارات مرة ثانية عام ١٩٦٥ .. وكان الوضع وقتها كما رآه الدكتور ميلاد مستقرا إلى حد بعيد وكان هناك إتزان ما .

لكن بعد سنوات .. بدأت مصر تفقد تدريجيا هذا الإتزان وهذا الإستقرار .. وإنفجرت الأزمة بعد تراكمات طويلة وكثيرة.. لتصبح فيما بعد.. أهم أسباب تأخير سن الزواج لدى الشباب فى مصر .. ويصبح تأخير سن الزواج واحدا من أهم أسباب تفاقم آثار الكبت الجنسي والعبث الجنسي أيضا .

أيضا .. لم تتوقف أو تكترث .. حكومات الستينات بقضية الهجرة الداخلية .. رغم أنه كان هناك ما يستدعي التوقف وما يستحق الإهتمام .. فكما يقول الدكتور فتحى محمد مصيلحى(٤)

---

(١) صلاح عيسى - الكارثة التى تهددنا - مدبولى - ١٩٨٧

(٢) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠

(٣) د. ميلاد حنا - أريد مسكنا - الكتاب الذهبى - روز اليوسف - ١٩٧٨

(٤) د. فتحى محمد مصيلحى - تطور العاصمة المصرية - بدون إسم ناشر - ١٩٨٨

أن أبواب العاصمة بقيت مفتوحة أمام المهاجرين القادمين من الريف .. وبدأ الإتجاه للإستيطان فى المقابر .. بل إن الدكتور فتحى محمد مصيلحى يؤكد بالأرقام أن ذروة سكن المقابر كانت فى عقد الستينات حين تحول ثلث مقابر القاهرة إلى بيوت .. وتعين علينا حينئذ أن ننتظر نهاية عقد الستينات .. ثم السبعينات.. حتي نشاهد في الثمانينات .. كيف تحولت الحياة فى المقابر أولا إلى نواة للإسكان العشوائى .. ثم كيف أصبحت تلك المناطق أوكارا للمخدرات .. للتطرف .. للزنا والدعارة والخطيئة بكل أشكالها .

ومع ذلك .. وبالرغم من كل ذلك .. بقى جمال عبد الناصر بعيدا عن مستنقع الجنس والرذيلة الذى غرقت فيه مصر .. ومن الواضح أنه كان رجلا مختلفا غن الآخرين .. ومن المؤكد أنه رجل لم تهزمه المرأة مطلقا .. لم تطحنه الرغبة .. لم يتحول الجنس تحت جلده إلى عقدة مزمنة .

لم يكن مثلا كصلاح سالم الذى إشتهى صداقة الأميرات .. ولم يكن كصديق العمر عبد الحكيم عامر الحائر بين إشاعة غرامه بالمطربية وردة الجزائرية وبين حقائق وملابسات زواجه من الممثلة برلنتى عبد الحميد .. أيضا لم يكن جمال عبد الناصر كأنور السادات الذى قال عنه اليوزباشى عبد القادر إبراهيم عيد (١) ضمن إعترافاته فى قضية ضباط المدفعية أنه .. أى أنور السادات .. كان ماشى مع ناهد رشاد .. ويزورها فى منزلها .. ولم يكن أيضا مثل البكباشى عبد المنعم أمين .. الذى كان قائد وحدة مدفعية مضادة للطائرات ليلة الثورة وبعد نجاحها أصبح أحد أعضاء مجلس قيادتها .. وهو الذى قال عنه ضباط المدفعية (٢) .. أنه سمح لزوجته بالذهاب إلى الوزارات ومقابلة الوزراء .. وأنها كانت تجلس فى نادى السيارات تؤكد أن الجيش على يمينها والبوليس على شمالها .. وأنها كانت تسكر فى ذلك النادى .. وأنها تذيع أسرار القيادة العامة فى الأماكن العامة التى تسهر فيها .. ولم يكن مثل جمال سالم الذى أعلن (٣) أنه لن يهتم إذا ما تزوجت إبنته من يهودى أو أمريكانى .. لم يكن متساهلا .. أو على إستعداد للتنازل .. مثل هؤلاء الرجال .. وبالمقابل .. لم يكن متحجرا فى مفهومه للمرأة وقدراتها ودورها مثل المشير عبد الحكيم عامر الذى ما إن سمع بتفكير جمال عبد الناصر فى جلوس إمرأة على مقعد الوزراء .. حتى قال(٤) : على الطلاق بالتلاتة ما اكون داخل مجلس الوزراء لو قعدت فيه واحدة ست !.

جمال عبد الناصر أيضا .. لم يعشق إمرأة أو أميرة .. ولم تصبه إشاعة واحدة .. وكان حريصا على ذلك فقرر أن يتحاشى كل أماكن لهو القاهرة التى كثيرا ماإستضافت الملك السابق وعشيقاته وفضائحه .. وكان من الواضح أن علاقته بالمرأة إنحصرت فى أشكال الأم والزوجة والأخت والإبنة فقط .. ويبدو أنه حاول فرض ذلك على أصدقائه .. ووزرائه .. وفى عصره كان كبار المسئولين (٥) يتجنبون الظهور فى أندية شارع الهرم الليلية وملاهيه وإلا أصابهم غضب الرئيس .. كما كان جمال عبد الناصر حريصا أيضا على مايقال عن زوجات زملائه لأنه لم ينس ماكان يقال عن زوجات زعماء الحكومات فى العهد الملكى .. وإمتنعت الزوجات بسبب ذلك عن الظهور فى كثير من الأماكن العامة مثل قاعات الفنادق الكبرى ومحلات جروبى .. وإكتفين بالتسلية فى المنازل والتزاور فيما بينهن .

وبالطبع كان أكثر قسوة وتشددا على زوجته .. فقد كان زوجا وأبا صعيديا .. يقول عنه

(١) ، (٢) ، (٣) عادل حمودة – نهاية ثورة يوليو – مدبولى – ١٩٨٢

(٤) محمد رجب – ما لم تنشره الصحف – مدبولى الصغير – ١٩٩١

(٥) إبراهيم علوان – مراحل مجهولة من حياة الرئيس – الشركة اللبنانية للكتاب – ١٩٧٠

محمود فهيم [١] أنه لم يحدث ونادى زوجته أمام أحد بإسمها .. فإن إضطر لمناداتها كان يناديها بأم خالد .. وحين كان يتحدث عنها أمام الآخرين يقول .. الجماعة أو البيت أو المدام .. وقد إستجابت زوجته لذلك [٢] .. فلم تعط صورها للجرائد .. ولم تعقد مؤتمرا صحفيا .. ولم تقابل أيا من ضيوف وزوار زوجها .. ولم تشارك فى حفلات الطعام والإستقبال الرسمية .. وإنحصر نشاطها الإجتماعى فى تبادل الزيارة مع زوجات الوزراء وزوجة محمد حسنين هيكل .

والرجل نفسه خلت حياته كلها من أية فضائح .. حتى أولئك الذين حاولوا تشويه صورته بعد وفاته بتصويره عاشقا مهزوما كان يريد الزواج من إبنة أحد الباشوات فرفضه الباشا فأصبح حاقدا على الباشوات والأثرياء .. كل هذا ثبت كذبه وزيفه .. ونجح شفيق أحمد على[٣] فى الوصول إلى الحقيقة .. فإذا بنا أمام قصة حب رومانسية مع واحدة من فتيات مصر البسطاء ولم يتم الزواج لأن الفتاة وقتها كانت لها شقيقتان غير متزوجتان ومن العيب – وفقا للتقاليد المصرية – أن تتزوج الإبنة الصغرى قبل شقيقاتها الأكبر سنا .. وقد بقى عبد الناصر على وفائه لذلك الحب .. حتى ماتت تلك الفتاة – أو السيدة فيما بعد – فى مايو عام ١٩٧٠ .. وقد مشى عبد الناصر خلف الجنازة وهو فى السيارة دون حراسة ودون أن يشعر به أحد .

ولم يحدث مطلقا أن كانت النساء جزءا من تسلية أو متعة عبد الناصر .. كان فقط يستمتع بمشاهدة الأفلام الموسيقية .. وتأمل الإعلانات فى المجلات العالمية كمجلة لايف ومجلة التايم .. وكان يحب [٤] مشاهدة الصور الهزلية فى المجلات الفرنسية .. وإذا كان حامد أبو النصر – المرشد العام للإخوان المسلمين – قد أشار فى كتابه [٥] أكثر من مرة أنه حين جاء وقت الصلاة لم يشاركهم عبد الناصر أدائها .. فإنها لا تصح شهادة على درجة تدين عبد الناصر أو إلتزامه لأنها أمور لا يفصل فيها ولا يعلمها بكل دقة - إلا الله وحده ... وقد سبق لعبد الناصر أن قال[٦] : لقد رفضت فى شبابى أن أكون مسلما لمجرد أن والدى كان مسلما .. وعندما كنت صغيرا .. حاولت أن أسئل الأسئلة .. وفى عام ١٩٤٧ .. شعرت أننى قد عرفت كل الإجابات .. إننى لا أعتقد فى المظاهر الخارجية للدين .. وإنما فى شئ عميق فى قلبى .

إنها شهادة شخصية فى حق رجل غائب .. لاأحد يملك الحق .. أو الرغبة .. أو القدرة على التشكيك فيها .

صك براءة لشخص ورجل إسمهُ جمال عبد الناصر .

.. لا لعصر ونظام .

.. ولا لثورة يوليو .

فقط .. ممكن حساب عبد الناصر على لأنه كان يعلم بما يجرى .. فقد أكد أحمد أبو الفتح[٧] أن مئات التقارير تجمعت أمامه عن سلوك الكثير من زملائه .. فأفاد منها فى إخضاع هؤلاء الزملاء .. ويقول صلاح عيسى [١] أن عبد الناصر لم يكن يؤاخذ زملائه على سلوكهم الشخصى .. خاصة فيما يتعلق بالمسائل النسائية .. وقد كان يعتبر نزاهته الشخصية فى هذا المجال من

---

(١) محمود فهيم – عبد الناصر .. هذا المواطن – مركز الحضارة العربية – ١٩٩٣

(٢)، (٤)، (٦) إبراهيم علوان – مراحل مجهولة من حياة الرئيس – الشركة اللبنانية للكتاب – ١٩٧٠

(٣) شفيق أحمد على – المرأة التى أحبها عبد الناصر – بدون إسم ناشر – ١٩٨٩

(٥) محمد حامد أبو النصر – حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمون وعبد الناصر – إنترناشيونال برس – ١٩٨٧

(٧) أحمد أبو الفتح – جمال عبد الناصر – المكتب المصرى الحديث – ١٩٩١

عوامل قوته ولم يكن على إستعداد لأن يمنح الآخرين تلك الميزة .

هنا يمكن حساب عبد الناصر بإعتباره قائد الثورة وحاميها .. الثورة التى قال عنها الدكتور سيد عويس أنها لم تقدم للمصريين أى قدوة [٢] .. وقال عنها الدكتور قدرى حفنى [٣] أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس .. أنها كانت بداية تغيير حقيقى فى المجتمع المصرى .. فإنهارت مثل ونماذج قديمة .. وكان ثمن الثورة هو بداية تسلل عدم الإحترام وضرب العناصر المثقفة فى المجتمع .. ففقدت الوظائف العليا إحترامها بإعتبارها تقليدية خاصة بمجتمع تقليدى .

أشياء كثيرة ستبدأ تفقد إحترامها .. أو بدت أنها مرشحة لذلك فى المستقبل القريب أو البعيد .. وسيبدأ مناخ جديد فى التشكل والتسلل تحت جلد مصر فى إنتظار أول فرصة قادمة .. مناخ سيسمح لناهد محمد على فيما بعد أن تخلع البالطو الأبيض وترتدى بدلا منه ثياب الرقص الشرقى الفاضحة .. العارية .. المبتذلة .

جمال عبد الناصر لم يعلمها ذلك .

لم يأمرها بذلك .

لم يجبرها على ذلك .

وليس هو المسئول الأول .. أو الأخير .. أو الأوحد .. عن أبوابنا التى كانت مغلقة .. أو شبه مغلقة .. فقامت الثورة بفتحها .

لم تفتحها عن آخرها .

لكنها كانت فتحات تكفى دخول الشياطين .. كل الشياطين .. شياطين الأرض .. والسماء أيضا .

(١) مجلة كلام الناس – عدد ١٩٩٤/١/٩

(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٣/٤/٢١

(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٥/٧/٢٥

(٢)

الجنس.. على الطريقة المصرية

.. وفقدت ياوطنى البكارة

نزار قبانى
قصيدة : جريمة شرف أمام المحاكم العربية

مصر

.. القاهرة

.. الخريف

أحد أيام خريف القاهرة .. بالتحديد يوم السادس عشر من أكتوبر عام ١٩٦٧ .

شاهدت القاهرة العرض الأول لفيلم صلاح أبو سيف الجديد .. الزوجة الثانية .. فيلم جديد وحكاية قديمة عن الرغبة والإغتصاب والقهر .. عن الجنس والسلطة والذل .. فتشت القاهرة فى مآقيها عن دمعة تزرفها والعمدة صلاح منصور يسرق جسد سعاد حسنى من زوجها شكرى سرحان وعيالهما الصغار .

لم تجد القاهرة دمعة واحدة .

ولا كانت تملك حتى الإبتسامة .

مائة وثمانية عشر يوما مضت على الخامس من يونيو .

الجراح لاتزال مفتوحة .. القلوب مكسورة .. الأحلام ضائعة .. المشاعر مطحونة .

مائة .. الف .. مليون عود نعناع مصرى أخضر عصرتهم إسرائيل لتحتسى بهم قدحا من الشاى على أرض سيناء .

.. إنتهى الفيلم .

خرج المشاهدون وإنضموا للملايين التائهين فى شوارع القاهرة ومصر .. كل منهم يمضى يحمل عاره على كتفيه .. الحرب إنتهت وبقيت فاتورة الحساب .. واحدة من أغلى الفواتير فى تاريخ مصر .. إن الثمن الذى سددته مصر عسكريا فى أيام خمسة على ضفاف قناة الحزن والألم كان مجرد مقدم الحساب .. البقية كانت سنوات طويلة من الحزن .. الغضب .. الإنهيار .. التوتر .. الجنون .. الصمت .. البكاء .. الجنس .

كأن الهزيمة كانت إحتلالا للأرض .. والعرض !.

فأصبح الجنس هو القسط الأكبر من فاتورة حساب الخامس من يونيو .

تحول الجنس إلى وسيلة المصريين للمقاومة والإحتجاج .

أغرب إحتجاج فى تاريخ مصر والمصريين .. صحيح أنها لم تكن المرة الأولى على مدى أكثر من أربعة الاف عام من عمر مصر التى يحتج فيها المصريون جنسيا على هزيمة تحيق بهم وببلادهم .. وليست المرة الأولى التى إرتبطت فيها خسارة الحرب بخسارة الأخلاق .. ولا كانت السابقة الأولى التى تتحول الهزيمة فيها إلى دعوة لأن يخفت صوت الضوابط والقيود .

صحيح أيضا أن كل شعب .. وكل دولة .. فى العالم حولنا .. كانت تمر بفترات تطول أو تقصر من عدم الإنضباط الإجتماعى والأخلاقى عقب كل هزيمة عسكرية أو خسارة حرب من حروبها .

لكن إحتجاج المصريين الجنسى بعد يونيو عام ١٩٦٧ .. كان إحتجاجا إستثنائيا .. كان مفزعا ومروعا ومخيفا أيضا .. وكأن مصر فى لحظة ضعف ولحظة خوف .. قررت أخيرا أن تتمرد على كل إرثها من تناقضات وتقلبات ومواجع .

إختفت روح المرح وعمت الكآبة الجماعية .

سيطر الشعور بالنقص وبدت الفرصة مناسبة للغرق فى بحار اللذة .. لذة الجنس والسخرية

العارية من الجميع .. فكما يقول عادل حمودة [١] .. زاد إلى حد الهوس معدل إستهلاك المهدئات والمنبهات والمنشطات الجنسية .. وهو ما يؤكده صلاح عيسى الذى يقول [٢] .. زاد إستهلاك المنشطات الجنسية .. سواء المحضرة كيماوية أو يدويا .. زيادة مضطردة تؤكد إنتشار ظاهرة الهروب إلى الجنس والإغراق فيه كمحاولة لتحقيق الذات .

يوما بعد يوم .. حكاية بعد أخرى .. أغنية وراء أخرى .. نكتة خلف نكتة .

الكل يهرب من الجنس أو يلجأ إليه .. الكل إضطر أو إستراح للأغنية الساخرة .. للصورة الفاضحة .. للنكتة العارية .

وكان الجيش .. والجنود .. والثياب العسكرية .. هم الضحية الأولى .

.. غنى المصريون :

لبسته البدلة الكاكى

قلعته البدلة الكاكى

قعدته على وراكى

ولسه بيعيط !.

منتهى القسوة .. منتهى العنف .. منتهى العرى والهوان والإبتذال .

قال لى أحد البسطاء .. والذى عاش تلك التجربة الموجعة فى سيناء مجندا عاش الشهور الطويلة بعد يونيو كلما تذكر ماحدث له وللآخرين .. قفز إلى الفراش مع زوجته .. والذى لم يقله الرجل أن ذلك لم يكن أكثر من محاولة لتأكيد الرجولة. وأن اليهود لم يستبيحوا العرض كله .. لم يصلوا إلى كل فراش فى مصر ..

وإذا كان هذا الرجل قد وجد فى جسد زوجته ميدانا جديدا لحرب أخرى يأمل ألا يخرج منها مهزوما .. فإن رجالا آخرين لم يستأنفوا الحرب فى أى ميدان .. سقط صلاح جاهين بعد يونيو بشهور قليلة مصابا بإنهيار عصبى وسافر للعلاج خارج مصر .. مثله كان يوسف إدريس .. أما نجيب سرور .. فكما يقول صلاح عيسى [٣] .. كانت مأساته أرهب من أن يتحملها إنسان .. كتب شعرا بذيئا يسب فيه كل شئ .. كانت الكلمة المرفهة المصقولة المنتقاة ترفا فى ذلك الجو .. وهكذا يؤكد صلاح عيسى .. إنتشرت الكتابة السرية .. شعر بذئ يشتم النفس والآخرين .. كأنه بعض فصول الف ليلة وليلة فى أزهى وأشهر عصور الإنحطاط العربى .. وإنتشر الشعر السرى المعارض .. ومع أنه أصبح سريا لأنه سياسى ومعارض .. إلا أن السرية أتاحت له فرصة إستخدام التعبيرات والألفاظ الجنسية الخادشة للحياء العام فيما يمكن إعتباره نوعا من الإيلام المقصود .. وحالة مشتهاة من تعذيب النفس .

واحد من تلك الدواوين السرية كان ذلك الديوان الشهير جدا لنجيب سرور .. والذى أعجز حتى عن ذكر عنوانه .. سمعت عنه كثيرا قبل أن تتاح لى قراءته كاملا .. وكانت مفرداته هى تلك الكلمات التى لم يجد المصريون غيرها فى ذلك الوقت للتعبير عن كل ما تكوم داخلهم من إحساس بالغضب والقهر والمرارة .

وإلى جانب القصيدة الفاضحة .. كانت النكتة العارية .. نكات لم يسلم منها أحد ولم يعترض

---

(١) عادل حمودة – الهجرة إلى العنف – سينا للنشر – ١٩٨٧

(٢) ، (٣) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

عليها أحد .. نكات تعرى فيها جمال عبد الناصر .. وأخرى نزعت حتى ورقة التوت عن المشير عبد الحكيم عامر وكل ضابط وكل جندى .. وكل رجل وإمرأة فى مصر .. الكل إمتلك القدرة على أن يسخر من الكل .. الكل أصبحوا عراة بعد أن أصبحت سيناء هى أعراضهم المستباحة .. هى عوراتهم الملقاة فى العراء على شاطئ القناة والذل والمرارة واليأس العظيم .

فى الواقع .. كانت النكتة هى البداية .. مقدمة الإحتجاج الجنسى المصرى على الهزيمة .. لقد تداول المصريون النكتة فى أول الأمر .. وكما تقول الدكتورة ملك الطحاوى أستاذة علم الإجتماع(١) .. كنوع من المخدر حتى لا ينفجر الشعب من الألم .. وهذا لم يكن جديدا لا على مصر ولا على المصريين .. فعلى مر العصور .. كانت النكتة هى سلاح المصريين السياسى والنفسى لمواجهة عصور القهر والإضطهاد .. ولإعلان الحرب على حكامهم .. ويضرب لنا عباس محمود العقاد مثلا (٢) بالنكات المصرية التى شاعت فى عهد قراقوش .. وهى النكات التى سجلها ابن مماتى فى الكتاب الذى أسماه الفاشوش فى حكم قراقوش .. ويعدد العقاد نكات وحكايات مصرية تسخر من المماليك والأتراك بعدهم وحتى عصر الخديوى إسماعيل .. وكلها نكات رآها العقاد تجمع ما بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة .. يرى العقاد أيضا .. أن الضحك عند المصريين كان أحيانا وسيلة تعبير عن الإحتقار لمن يستحق الإحتقار .

ويضيف الدكتور زكريا إبراهيم تفسيرا جديدا للنكتة فيقول (٣) أنها شحنة إنفعالية نتيجة الإحساس بأنه لم يعد هناك مبرر لحالة التوتر .. أو هى فى حقيقتها هروب من موقف خطير .. أو هى تعويض مناسب لكل ما جرى من إهانة وسوء حظ .. ويضيف الدكتور زكريا .. أننا فى مصر تعودنا أن نخلط الجد بالهزل وكأننا ننفس بالنكتة عن آلامنا وآمالنا .. ولذلك إمتدت الفكاهة إلى شتى دوائر الحياة الإجتماعية .. فكاهة عابرة أو دعابة عارضة أو قفشة على الماشى.

من كل هذا نخرج بأن النكتة فى حقيقتها هى .. هروب من الواقع .. أو إعتراض غير مباشر وغير معلن ضد شخص أو مجموعة أشخاص أو ضد المجتمع كله .. ولما كان تاريخ مصر فى حقيقته المجردة هو فصول متكررة ومتعاقبة من واقع حزين مؤلم ومظلم حتى أن مفكرا مثل الدكتور جمال حمدان بعد طول بحث وتأمل فى تاريخ مصر خرج علينا (٤) بنتيجة تتلخص فى أن الطغيان والإستبداد كانا النغمة الحزينة فى دراما الشعب المصرى .. وإنتهى الدكتور جمال حمدان فى أن مصر قد لا تكون أكبر سجن فى العالم .. لكنها أقدم سجن فى التاريخ .

وإذا كان الدكتور جمال حمدان قد تأكد أن مصر هى أقدم سجن فى التاريخ .. فإن الدكتور سيد عويس قد إكتشف بدوره (٥) أن الصبر هو أهم قيمة فى كل التراث المصرى .

لهذا .. كانت النكتة فى مصر دائما – وفى كل عصر – ضرورة وواقع وملجأ لمن لم يجد سقفا يحميه أو ساترا يخفيه .. لم يعتزلها لسان الناس إلا فى تلك الأوقات التى إعتنقت فيها مصر الديانة المسيحية .. لأن النصوص المسيحية – كما يقول أ . س . كون (٦) – كانت ولا تزال نصوصا تدين الفرح والضحك .. فإبليس فقط هو الذى يضحك .. أما المسيح فهو لم يضحك

(١) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩١/٢/٢٤

(٢) عباس محمود العقاد – جحا الضاحك المضحك – دار نهضة مصر – ١٩٨٠

(٣) د. زكريا إبراهيم – سيكولوجية الفكاهة والضحك – مكتبة مصر – ١٩٨٩

(٤) د. جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب – ١٩٨١

(٥) د. سيد عويس – حديث عن الثقافة – مكتبة الأنجلو – ١٩٧٠

(٦) أ . س . كون – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

مطلقا .. لكن سرعان ما إستعادت النكتة المصرية وجودها وحضورها .. بل وطغيانها وقسوتها فى بعض الأحيان .

ولهذا أيضا .. قد لا تكون النكتة المصرية بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .. حدثا مفاجئا أو طارئا أو جديدا .. وهو رأى كنت على إستعداد للإتفاق معه لولا أن النكتة المصرية بعد حرب يونيو لم تكن النكتة التى إعتادتها مصر قديما وطويلا من قبل .. وإنما كانت النكتة هذة المرة عارية من أية ورقة توت .. كانت عارية وبذيئة أيضا .. وكانت المرة الأولى التى تشهد فيها مصر وتصغى لكل هذا الطوفان من النكات الجنسية .

صحيح أن النكتة الجنسية.. بقيت متلازمة دائما مع النكتة العادية فى كل أيام مصر وسنواتها .. لكن الجديد كان أن النكتة الجنسية بعد الحرب باتت هى الأشد إلحاحا وأكثر إضحاكا والأعلى صوتا .

وهناك أكثر من تفسير يشرح لنا لماذا إرتبطت هزيمة يونيو بالنكتة الجنسية .

فهزيمة يونيو المفاجئة .. أصابتنا بالهيستيريا .. والهيستيريا [1] عبارة عن قلق كامن يصيب بعض الأعضاء بالشلل والتوقف .. فمن يدخل بيته ويرى زوجته فى مشهد خيانة .. قد يصاب بالعمى .. لأنه لا يريد أن يرى .. والنظر قد يذكره بهذا المشهد الجارح والمهين .. وهذا قد يحدث أيضا مع السمع والشم والنطق والحركة .

أما نحن .. حين تجلى أمامنا مشهد الخيانة كاملا .. مروعا ومهينا وجارحا .

لم نفقد القدرة على النظر .. أو السمع .. أو الشم .. أو الحركة .

لكن .. فقدنا كل ما كنا نمتلكه أو نستطيعه.. من خجل .. ومن حياء .

كأن الجدية والصرامة والوقار والحماس .. كل ذلك كان سيذكرنا بما حدث .. بالذي نحاول ونجاهد لكى ننساه .. أو ما أصبحنا نود لو أن ننساه .

تحولنا جميعا إلى ضحايا للهيستيريا .

والدكتور زكريا إبراهيم يؤكد [2] أن المصابين بالهيستيريا يفضلون النكتة الجنسية عن غيرها من النكات .

وهناك تفسير آخر .. وهو أن هزيمة يونيو .. إرتبطت بشكل ما أو بآخر .. بالجنس .. فعلى سبيل المثال .. يحكى عادل حمودة [3] كيف عرضت إسرائيل على الأسرى المصريين صورا لمسئولين مصريين كبار فى أوضاع جنسية مخجلة .. ولم يكن المصريون فى حاجة إلى إسرائيل وصورها .. إذ سرعان ما إكتشف المصريون حقيقة سلوك كثير من كبار ضباطهم ومسئوليهم قبل الحرب .. ويدخل فى إطار ذلك السلوك حكايات كثيرة منها تلك الحكاية التى تناقلتها الناس فى تلك الأيام .. والتى يرويها لنا جمال البنا [4] .. حين أقام الفريق صدقى محمود قائد سلاح الطيران .. حفلة ساهرة فى إنشاص مساء الرابع من يونيو .. وإكتشفت المطربة شريفة ماهر التى كانت إحدى نجمات الحفل أن الغرفة المخصصة للفنانات لتستبدلن فيها ملابسهن .. كانت مجرد خيمة من قماش .. وكان مألوفا أن يزيح بعضهم أطراف وثنايا هذا القماش للإستمتاع

---

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

(٢) د. زكريا إبراهيم – سيكولوجية الفكاهة والضحك – مكتبة مصر – ١٩٨٨

(٣) عادل حمودة – حكومات غرف النوم – سفنكس للطباعة والنشر – ١٩٩٤

(٤) جمال البنا – الإسلام هو الحل – دار الفكر الإسلامى – ١٩٨٨

بأجساد الفنانات الشهية والناعمة .. وحين إعترضت شريفة على ذلك .. أخذوها لغرفة أخرى مليئة بالخرائط ونماذج الطائرات .. وفى الواقع .. كانت غرفة قيادة سلاح الطيران !.

ثم توالت الحكايات .. تناقلها الكبار أولا .. ثم تداولتها السنة الصغار نقلا عن الكبار .. وجاءت قضية إنحراف المخابرات لتصب مزيدا من الوقود على النار المشتعلة مقدما .. فكان لابد وأن يكون رد فعل الناس فى مصر هو السخرية من كل هذا .. السخرية الجنسية بالطبع .. سخرية بدأت فى أول الأمر .. تعرى هؤلاء الكبار وتفضح فحولتهم الجنسية الزائفة والمزعومة .. ثم سرعان ما تحولت إلى سخرية مريرة وعارية من أى أحد ومن كل أحد .

وهناك تفسير ثالث .. يتلخص فى أن كل جيش مهزوم لابد وأن يحصد هزيمته فى ميدان الحرب .. سخرية جنسية فور إنتهاء تلك الحرب .. ويروى لنا محمد أبو خضور (١) كيف شاعت النكتة الجنسية فى إسرائيل بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .. وهو يقدم لنا الكثير من تلك النكات التى يمكن تلخيصها فى الربط ما بين الهزيمة وبين العجز الجنسى .. حتى أن نكاتا كثيرة منها أشارت إلى أن الفائدة الوحيدة التى باتت إسرائيل تجنيها من عرب الأرض المحتلة هى الترفيه عن زوجات ضباط وجنود إسرائيل وإشباع حاجاتهن الجنسية .

أما التفسير الرابع لتلك النكات الجنسية التى شاعت فى مصر بعد هزيمة يونيو .. فهو أن الجنس دائما والحديث عنه بالتصريح أو التلميح والرمز والإشارة .. كان دوما إحدى صفات المصريين .. ونجد المؤرخ الكبير والشهير وول ديورانت يقول (٢) .. لم يكن الحياء من الصفات البارزة للمصريين القدماء .. فقد كانوا يتحدثون عن الشئون الجنسية بحرية لم نعهدها عند كثير من الآخرين .. وهو ما يؤكده الإنجليزى إدوارد وليام لاين الذى جاء إلى مصر فى أول القرن التاسع عشر وسجل كل مشاهداته وملاحظاته فى كتاب شهير جداً (٣) .. وإحدى تلك المشاهدات كانت أن المصريين لا يحتشمون فى محادثاتهم .. ولا يقتصر عدم الإحتشام هذا على السوقة والرعاع فقط .. بل يشمل الجميع .. فمعظم النساء المحترمات المهذبات يلجأن إلى الكلمات الفظة ولا يترددن فى تسمية الأشياء بأسمائها .. والرجال المثقفون يتلفظون بتعابير بذيئة قد لا تليق إلا ببيت دعارة منحط .

وبتحليل ما قاله ديورانت عن المصريين القدماء .. وما قاله لاين عن المصريين فى العصور الحديثة .. يمكن إضافة أن تلك الحرية الجنسية الشفوية كانت مكبلة طول الوقت بقيود إجتماعية وأخلاقية تسجنها كمارد داخل قمقم .. وحين ينكسر القمقم .. يخرج هذا المارد .. فيستعين المصريون بمفردات ونكات جنسية دون حدود أو قيود .. ولعل هذا القمقم .. لم ينكسر قدر ما إنكسر فى يونيو عام ١٩٦٧ .. بل إن كل المحن التى مرت علينا قبل يونيو .. تبدو بالقياس إلى محنة يونيو .. وكأنها كانت شروخا من السهل إصلاحها وتدميمها بقليل من المحاولة وقليل من الوقت .

وقد يكون أحد هذة التفاسير وحده صحيحا.. ومن المؤكد أنها ليست كلها على خطأ .. غير أنى أرى أنها كلها تشابكت وإلتحمت وإمتزجت لتشكل فى النهاية تفسيرا واحدا يشرح لماذا

---

(١) محمد أبو خضور – النكتة الصهيونية – دار الحكمة – سوريا – ١٩٩٠

(٢) وول ديورانت – قصة الحضارة – جامعة الدول العربية – الإدارة الثقافية – ١٩٧١

(٣) إدوارد وليام لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – ترجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١

كانت النكتة العارية هى أول فصل فى كتاب إحتجاج المصريين على هزيمتهم .. وهروبهم منها بالجنس !.

فصل أول فقط .. فالإحتجاج لم يبق قاصرا على بذاءة لفظ يقال أو نكتة عارية يصبها البعض فى أذن بعض آخر ومعها الكثير من الألم والمرارة .. وإنما كان لابد وأن يتحول الأمر بعد قليل إلى مناخ عام لم يعد يمانع فى الخروج على الأدب وقواعد الأخلاق .

فى الواقع .. أصبح المناخ يسمح .. ليس فقط بالخروج على قواعد الأدب والأخلاق .. وإنما يسمح أيضا بالخروج على أى قانون .. وعلى أية قواعد وحدود تعارف عليها وإستراح إليها المجتمع .

وتحولت مصر إلى مجتمع تسوده الفوضى .. ومثل هذا المجتمع غير المنظم .. كما يقول الدكتور سمير عبد المنعم أبو العينين (١) .. يصبح مرتعا للفوضى والأنانية التى تؤدى إلى ظهور عوامل غير أخلاقية مثل القتل والسرقة والظلم والإستبداد .. وهذة العوامل تجعل أفراد المجتمع ينتابهم الخوف على أنفسهم فيرتكب بعضهم - نتيجة حب البقاء والإستمرار فى الحياة - بعض أعمال الشر من أجل الدفاع عن حياتهم أو عن أعمالهم ومصالحهم .. وهم فى الحقيقة ليسوا أشرارا .. وإنما إندفعوا نحو عمل الشر نتيجة الخوف والذعر الذى دب فى نفوسهم إثر فساد المجتمع .

.. وكان هذا هو ما حدث !.

رصد مدير الأمن العام (٢) فى تقرير له أن التوتر النفسى الذى عانت منه ملايين الناس عقب نكسة ١٩٦٧ قد أثر فى سلوكهم .. جنح البعض للعدوان على النفس .. جنح آخرون للعدوان على الآخرين .. زادت نسبة الجريمة بعد النكسة .. وبمقارنة تقرير الأمن السنوى لعام ١٩٦٧ بمثيله لعام ١٩٦٨ .. تبين زيادة الجنايات بشكل إجمالى بنسبة بلغت ٨٪ .. وكان معدل الزيادة الطبيعى لا يزيد عن ٢٪ .. زادت جرائم القتل ٣٣٪ .. زادت السرقات ٩٩٪ .. تضاعفت جرائم الخطف ١٠٢٪ .. زادت جرائم الضرب المفضى إلى الموت ٣٢٪ .. وإرتفع عدد ضحايا الأمراض النفسية والعصبية من خمسين الفا عام ١٩٦٦ .. إلى ستة وستين الفا عام ١٩٦٧ .. ثم إلى تسعة وسبعين الفا عام ١٩٦٨ .. ثم إلى أربعة وتسعين الفا عام ١٩٦٩ لتصل إلى مائة وأربعين الفا عام ١٩٧٠ .. أى زاد عدد الضحايا أكثر من الضعف فى أقل من أربعة أعوام .

ويخرج صلاح عيسى من كل تلك الأرقام بحقيقة أن الإنسان المصرى تحول إلى كائن مكتئب .. عدوانى .. محبط .. سليط اللسان .. كان مرعب بالفعل .

وأنا أضيف .. تحول الإنسان المصرى إلى كائن مرعب .. ومرعوب أيضا !.. كائن يخاف منه الآخرون .. أما هو فيخاف من الحياة نفسها .. فقد زادت حالات الإنتحار .. وزاد الأمر قسوة أن نسبة المنتحرين من الشباب تحت سن الثلاثين قد بلغت ٤٢٪ .. وكان مثيرا للذهول (٣) إقبال العمال والفلاحين وموظفى الحكومة على الإنتحار .

ليس هذا فقط .. بل إنفجر إقبال المصريين (٤) على تعاطى الأدوية المهدئة .. وفى سنة ١٩٧٠

---

(١) د. سمير عبد المنعم أبو العينين - أصول الأخلاق الدولية - بدون إسم ناشر - ١٩٨٩

(٢) صلاح عيسى - مثقفون وعسكر - مدبولى - ١٩٨٦

(٣) عادل عودة - الهجرة إلى العنف - سينا للنشر - ١٩٨٧

(٤) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠

.. أشار مؤتمر الدواء[1] إلى إرتفاع معدل إستهلاك المهدئات والمنبهات .. ففى سنة ١٩٦٩ .. إستهلكت مصانع الأدوية المصرية خمسمائة طن من المواد الخام لتصنع منها مائتى وأربعين مليون قرص أسبرين إبتلعها المصريون فى عام واحد .. بالإضافة إلى خمسة وسبعين الف علبة من المنبهات .

ولعل ذلك هو ما دفع بالثنائى الغنائى الشهير جدا فى تلك الأيام .. الشاعر أحمد فؤاد نجم والملحن والمطرب الشيخ إمام .. لأن يسألا فى سخرية ومرارة :

ما رأيكم
دام فضلكم
ياجونسونات
يا بتوع نضال أخر زمن
.. فى العوامات ؟!.

وكانت إجابة النظام هى .. الترفيه هو الحل !.

فى الواقع .. لم يكن النظام فى حاجة للإصغاء لأى سؤال من أحد .. ولم ينتظر أية إقتراحات أو حلول يقدمها أى أحد .. إذ سرعان ما بادر هو بتوفير وتقديم الحل المناسب الذى رآه يصلح فى ذلك الوقت علاجا شافيا لكل ما أصاب المصريين من تشققات وجروح .. وما سوف يصيبهم فى الأيام والسنوات القادمة.

فلم يمض على هزيمة يونيو أكثر من ستين يوما فقط .. إلا وكان شهر رمضان يدق أبواب مصر .. وأصدر الرئيس جمال عبد الناصر[2] توجيهاته إلى أجهزة الإعلام بالترفيه عن الشعب المصرى الذى كان يمر بحالة إكتئاب بعد أن فقد لمسة البهجة الداخلية والمرح التلقائى الذى كان يتصف به الناس .. وكأن الحزن قد إحتل أعماق النفس وأصبحت الناس تضحك بحس ميت .

.. لكن

جمال عبد الناصر كان يقصد بالترفيه .. الضحك والتمرد على ذلك الحزن المتوحش .. أما الذين تلقوا توجيهاته . فقد قرروا أن الجنس هو وسيلة الترفيه الوحيدة المتاحة والممكنة فى مثل تلك الظروف .. فكان أن إستعانت بالجنس .. الأفلام والمسرحيات والأغانى .

وهكذا ودعت مصر عام ١٩٦٧ . بأفلام من نوع .. بنت شقية .. شقة الطلبة .. معسكر البنات .. وشاهدت فى العام التالى أفلاما مثل حلوة وشقية .. ٦ بنات وعريس .. حواء والقرد .. وفى عام ١٩٦٩ شاهدت مصر أفلاما مثل زوجة بلا رجل .. دلع البنات .. للمتزوجين فقط .. يوم واحد عسل .. العتبة جزاز .

وتعلق على ذلك الدكتورة درية شرف الدين وتقول[3] .. أن أحد الأهداف غير المعلنة فى ذلك الوقت كان التسلية وتغييب الوعى .. ولهذا .. خفف النظام من قبضته الحديدية فيما يتعلق بحرية التعبير .. وسمح بنوع من التنفيس عن الغضب لتتحول التعليقات اللاذعة والنكات المحرمة فى الشارع المصرى إلى حوار مشروع يسمعه الناس على لسان أبطال الأفلام .

وتضيف الدكتورة درية شرف الدين .. أن القطاع العام السينمائى – بعد النكسة – إرتكب

---

(١) ، (٢) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦
(٣) د. درية شرف الدين – السياسة والسينما فى مصر – دار الشروق – ١٩٩٢

واحدا من أخطائه الفادحة .. فلم يتبن سياسة إنتاج أفلام تعلى من قيم البطولة والفداء .. ولم تكن السينما المصرية مثل سينمات أخرى فى بلاد العالم التى مرت بظروف مشابهة .. وإنما كانت السينما المصرية تلهى الناس عن الواقع الذى يعيشونه باحثة فقط عن الربح بأفلام متردية القيمة وموجة من أفلام الكوميديا الهابطة .

وهو ما يؤكده عادل حمودة حين يقول (١) .. وراح الإنهيار يتدفق .. وإختفت الأفلام السياسية والتاريخية .. وسيطرت أفلام لا يمكن القطع بنوعيتها وما إذا كانت إجتماعية أو عاطفية أو كوميدية .. لكن يمكن القطع بهبوط مستواها .. ويشير عادل حمودة إلى أن الصحف إمتلأت وقتها بتحذيرات المثقفين والمتخصصين من آثار الفن الهابط ومن خطورة الإغراق فى سينما الجنس .. لكن بقيت تلك التحذيرات مجرد كلام .

الصحف لم تمتلئ بالتحذيرات فقط .. وإنما بجرائم الخروج على الآداب العامة داخل السينما أيضا .. وهذا هو ما دفع بوزير العدل فى ذلك الوقت إلى إصدار قرار (٢) بإحالة جميع المخالفين فى دور السينما والمسارح والملاهى.. إلى محكمة الجنح والمخالفات المستعجلة .. وتتضمن القرار أن تصل العقوبة إلى الحبس ثلاثة شهور أو غرامة خمسين جنيها .. أو العقوبتين معا .

ومثلما تحول الترفيه فى السينما إلى دعوة صاخبة للجنس وللإثارة .. فإن المسرح أيضا لم يكن أقل إبتذالا وإثارة .. ويحكى لنا فاروق عبد القادر (٣) عن المسرح المصرى بعد النكسة .. وكيف أصبحت قضيته هى الجنس .. هى جسد الأنثى .. وكيف يمكن تقديم هذا الجسد المشتهى عاريا بأكبر مساحة ممكن أن توافق عليها الرقابة .. وكيف يمكن إستخدام الموسيقى والإضاءة فى إبراز هذا الجسد .. وبدون أن يقتصر ذلك على إبراز جسد النجمة ومن هن حولها فقط .. وإنما كان هناك الحوار الذى يدور عن الفعل الجنسى وعن الأعضاء الجنسية حيث الكثير من الكلمات والقفشات التى لا تقال علنا فى الملاهى الليلية .. وظللت المسارح بذاءة فجة يدلل عليها فاروق عبد القادر بمسرحيتين على سبيل المثال .. الأولى هى مسرحية هاللو دوللى .. حيث تضع إحدى الممثلات ردفين صناعيين وتظل تتخلع بهما كى تخلق المبرر لقفشات جنسية لا تنتهى .. وكانت الثانية هى مسرحية بلدى يابلدى .. حيث الصورة المهينة والمقرفة لشعب جاهل ومتواكل وناس غوغاء لا تسعى إلا إلى إشباع البطن والفرج .. ويري نعمان عاشور (٤) أن مسرح النكسة تم حصاره بالضحك والتسلية تحت ستار أو شعار .. الجمهور عايز كده !.

الأغنية أيضا .. لم تنس الترفيه .. ولم تتوان عن اللجوء إلى العديد من المشهيات ومعانى الإثارة .. فيقول عادل حمودة (٥) .. أفلس شعراء الأغانى ولم يجدوا أمامهم سوى الفولكلور الشعبى القديم وأغانى العوالم .. فأعادوا تقديمها على أنغام وألحان براقة .. دون أن ينسوا الإيحاءات الجنسية .. ولانعرف من الذى أقنع النظام بأن نداء طشت لإمرأة كى تستحم إذا ما تحول لأغنية .. يمكن أن يرضى الناس وأن ينسيهم .

عادل يقصد أغنية الطشت قاللي .. الأغنية التى شاعت فى ذلك الوقت .. ولم تكن وحدها ..

(١) ، (٥) عادل حمودة – الهجرة إلى العنف – سينا للنشر – ١٩٨٧
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٢/١/١٢
(٣) فاروق عبد القادر – إزدهار وسقوط المسرح المصرى – دار الفكر المعاصر – ١٩٧٩
(٤) نعمان عاشور – المسرح والسياسة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

كانت هناك أغنيات أخرى عديدة ومتنوعة يصفها مجدى نجيب (١) بأنها كانت أغنيات فاقعة اللون أشارت بصراحة إلى مدى ما أصاب الأغنية المصرية من إنهيار .

أغنيات مثل أمة نعيمة .. ما اغدشي العجوز أنا .. خليه يتجوز يابهية .. إيوه آه .. العتبة جزاز .. وأغانى كثيرة غيرها جعلت الغناء سهلا ومريحا .. مغريا للكثيرين والكثيرات .. فقرر الكثيرون الغناء .. خاصة وأن الأزمة أصابت كبار المطربين والمطربات بالخرس أحيانا .. بالعجز عن التطور ومسايرة ما حدث أحيانا أخرى .. ليسكت صوت عبد الحليم حافظ .. وهو الذى كان صوت الثورة المعبر عن أحلامها المستحيلة والخرافية .. وبالرغم منها ومنا .. تحولت أغانى أم كلثوم وحفلاتها إلى سهرات جنسية .. الموسيقى واللحن والكلمات .. تحولت فى البيوت .. إلى خلفية فنية رائعة لممارسة الجنس أو أقصى حالات الرغبة والإشتهاء .. وقد تكون مفاجأة للبعض أن أؤكد أنه بعد أيام قليلة عقب كل حفلة لأم كلثوم .. كانت تخرج إلى الشارع أغنية أخرى عارية وجنسية تستخدم نفس اللحن ونفس طريقة الأداء .. بل إننى إكتشفت .. أو سمعت .. أكثر من طبعة جنسية لأغنية بعينها .. مثل أغانى إنت عمرى وأمل حياتى .. ومن المؤكد أن ذلك لا يشكل أية إدانة لأم كلثوم بقدر ما هو إدانة للواقع المصرى الذى تغير .. وللمناخ النفسى والإجتماعى الذى تخفف من كثير من الضوابط والقيود .. ففى هذا الواقع وهذا المناخ .. وكما يقول عادل حمودة (٢) .. أصبحت أنفاس الحشيش وكركرة الجوزة مع صوت أم كلثوم يسبح فى دخان أزرق .. هم النقطة التى إلتقى عندها العذاب بالمتعة .. وبدأ الهروب من عار إلى عار .. من عار الهزيمة إلى عار الغيبوبة والسيلان .. ويضيف حازم صاغية رؤية أخرى فيقول(٣) .. كانت أم كلثوم تؤمن أنه لا غناء إلا غناء الليل .. ولا غرام إلا غرام الليل .. فإمتلأت ليالى القاهرة بآهات أم كلثوم .. ووقع التفجع الكلثومى على مدن أكلت الفجيعة أكبادها .. حيث أهل الليل المحبطون المهزومون .. حيث الليل يسمح ويمنح فرصة الإختفاء عن عيون السلطة .. ليست سلطة السياسة فقط .. وإنما سلطة النظام والمجتمع والأخلاق .. وتحول الليل الكلثومى إلى عالم آخر لا صلة له بالعالم .. عالم خيالى يفيض بالهلام الجنسى وإحباطات الحب المستحيل .

إن النكسة لم تقتصر فقط على إعادة صياغة ليالى أم كلثوم كليالى للجنس بكل درجاته ومستوياته العامة جدا والخاصة جدا .. وإنما إستغل بعضهم ظروف وواقع ومناخ ما بعد النكسة ليخلقوا من أم كلثوم أسطورة .. إن أم كلثوم قبل عام ١٩٦٧ كانت إمرأة .. وكانت مطربة سيتوقف عندها وأمامها تاريخ الغناء المصرى والعربى طويلا .. لكن من الواضح أن البعض – بحسن نية أو سوء قصد – أرادوا التشبث بشئ لا ينهار ولا يتهاوى فى الوقت الذى إنهار وتهاوى كل شئ فوق رمال سيناء .. ولم يجد هؤلاء إلا أم كلثوم وصوت أم كلثوم .. فأما صوت أم كلثوم وأغانيها وفنها .. فهو أمر لم يعد قابلا للنقاش وللكثير من الجدل .. وأما أم كلثوم نفسها .. فهى أقل كثيرا من أن تكون مصر أو رمزا لمصر .. إنها ليست أكثر من مطربة ومغنية .. لكن البعض أراد لها ما هو أكثر من ذلك .. الدكتورة نعمات أحمد فؤاد مثلا .. إنها تصف أم كلثوم (٤) بأنها

---

(١) مجدى نجيب – أهل المغنى – كتاب الإذاعة والتليفزيون – ١٩٧٣

(٢) عادل حمودة – النكتة السياسية – سفنكس للطباعة والنشر – ١٩٩٠

(٣) حازم صاغية – الهوى دون أهله – دار الجديد – بيروت – ١٩٩١

(٤) د. نعمات أحمد فؤاد – أم كلثوم وعصر من الفن – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣

.. قلب يخفق وروح ترفرف .. فيها ضراعة وفيها رجاء وأمل وسبحات الخيال وإستشراف ولهفة وعذوبة وجمال وتصوف .. وهى فوق هذا كله صلاة خالصة وعميقة .

إننى أعتقد أنه لو حاول أحدكم التفتيش عن كلمات أو صفات لينسبها إلى مريم العذراء أو أى من أمهات المؤمنين .. ما سيجد أصدق وأرق وأعمق مما وصفت به الدكتورة نعمات أم كلثوم .. ولم تكتف الدكتورة نعمات بذلك .. وإنما أضافت تؤكد .. أن أم كلثوم حين تغنى .. فكأنما تقول للمسلمين .. أفيقوا .. هذة هى مبادئ الإسلام الكبرى فأين أنتم منها اليوم ؟!.

وأعتقد .. أنه لا أنا ولا أى أحد آخر .. بإمكاننا أن نعرف ماهى العلاقة على وجه اليقين والدقة بين غناء أم كلثوم ليلة الخميس الأولى من كل شهر .. وبين مبادئ الإسلام الكبرى أو الصغرى أو حتى تلك المبادئ من المقاس الوسط !.

مرة أخرى تعود الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وتقول أن أم كلثوم بلغ بها الذكاء إلى درجة .. تثقيف نفسها فدرست العربية وتعلمت الفرنسية بالتلقين وعكفت على دراسة الإنجليزية حتى أحسنتها .. وكانت شاعرة وأديبة وكاتبة وسيدة تفكر بعقلية كبار الفلاسفة .. وكانت وهى تغنى إذا نسيت بيتا من الشعر تستطيع أن ترتجل بيتا جديدا لا يقل روعة .

وأحسب أن تلك الصفات – مع صفات أخرى لم تبخل بها الدكتورة نعمات – تجعل كلا من العقاد وطه حسين وسيد قطب والدكتور زكى نجيب محمود ومحمد حسنين هيكل وغيرهم يتوارون ضيعة وخجلا أمام أم كلثوم .. بل إن صلاح الدين الأيوبى نفسه لن يطمح بعد ذلك فى أن يطاول قامتها وهو الذى لم يتقن كل تلك اللغات ولم يتزود بكل هذة المعارف .

ولم يقتصر الأمر على الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فقط .. وإنما يجيئنا كاتب آخر يدعى[1] أنه لا أحد .. بإمكانه النفاذ إلى أعماق أم كلثوم إلا إذا كان إنسانا صوفيا متحررا من كل حدود المستوى الإنسانى . ولعل ذلك هو ما دفع بحازم صاغية لأن يقرأ لنا [2] من كتاب فرنسى صدر عام ١٩٨٥ بعنوان نجمة الشرق إحدى الفقرات التى ترد لأم كلثوم إنسانيتها وآدميتها فتعود مثلنا إنسانة قد تخطئ وقد تصيب .. قد تعرف ومن الممكن أن تجهل .. ففى هذا الكتاب نكتشف مثلا .. أن أم كلثوم كانت إمرأة إلتقط لها مصور صحفى صورة وهى ترتدى مايوه أسود .. وبذلت أم كلثوم ما فى وسعها من جهد لتتلف تلك الصورة .. وأكدت فيما بعد أنها كانت سخيفة بإرتداء هذا المايوه وأنها لن تكرر هذة التجربة مرة أخرى .

هكذا .. نرى ونثق فى أن أم كلثوم إنسانة عادية جدا مثلنا .. لكنه مناخ ما بعد النكسة الردئ الذى سمح بتشويه كل شئ .. وخلط كل الحقائق .. ليتخبط الجميع فى حيرتهم ومرارهم وضلالاتهم .

وإذا كان هذا .. هو بعض ما حدث .

فمن الضرورى أن نجدا تفسيرا .. لكل ما حدث .

من الضرورى أيضا أن نجد تفسيرا لتلك الزيادة التى بدأت تشهدها مصر فى معدلات حوادث الإغتصاب .. فعلى سبيل المثال .. زادت جرائم الإغتصاب وهتك العرض من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٦٨ بنسبة [3] بلغت ٢٩٪ .. ثم زادت تلك الجرائم مرة أخرى فى عام ١٩٦٩ بنسبة

(١) سمير عبدة – التحليل النفسى للفنانين العرب – مطبعة العجلونى – سوريا – ١٩٨٧
(٢) حازم صاغية – الهوى دون أهله – دار الجديد – بيروت – ١٩٩١
(٣) صلاح عيسي - مثقفون وعسكر - مدبولي - ١٩٨٦

بلغت ١,٧٪ .

ويلغ الأمر أن إمتدت حوادث الإغتصاب لتتخطى حتى أسوار مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية .. وتحكى لنا كريمة كمال (١) عن تاريخ الإغتصاب فى ذلك المستشفى .. وتعود بنا إلى عام ١٩٧٠ .. ففى ذلك العام تم الإعتداء على عرض المريضة زهرة محمد .. وتم إتهام أحد عمال المستشفى لكن لم تثبت التهمة عليه لعدم توافر الأدلة فتم حفظ القضية رغم ثبوت واقعة الإعتداء .

وبالرغم من ذلك .. لم تتصاعد أرقام ومعدلات جرائم الإغتصاب وهتك العرض لتصبح مشكلة إجتماعية حادة أو أزمة جنسية مفزعة .. المشكلة الحقيقية فى تلك السنوات كانت تتعلق بالسلوك والأخلاق والخروج على قوانين وقواعد الآداب الخاصة والعامة .. وهو ما دفع بجريدة الأهرام (٢) لنشر تحقيق طويل ضخم فى بدايات عام ١٩٧٢ تحت عنوان .. خدش فى الحياء العام .. وفى هذا التحقيق نكتشف أن التعرض للنساء والفتيات فى الطرقات بالكلمة أو الفعل .. أصبح الظاهرة الثانية المميزة للشارع المصرى فى تلك السنوات بعد ظاهرة التسول .. نكتشف أيضا أن كل ما يمت للجنس والرغبة بصلة .. يتزايد ولا يقل .. يتمدد ولا ينكمش .. ففى مقابل تسعة الاف حالة معاكسة تم ضبطها عام ١٩٧٠.. زاد الرقم ليصل إلى إحدى عشر الف حالة عام ١٩٧١ .. وفى مقابل ٢٣٤٦ قضية تحريض على الإنحراف فى عام ١٩٧٠ .. أصبح الرقم هو ٢٤٠٦ قضية عام ١٩٧١.. وفى مقابل ٣٧٨ قضية فعل فاضح علنى .. زاد الرقم ليقترب من الضعف ويصبح ٦٣٨ قضية فى عام ١٩٧١ .. وكذلك زادت بنفس النسبة قضايا المطبوعات الفاضحة من ستة قضايا فقط عام ١٩٧٠ إلى ثلاثة عشر قضية فى عام ١٩٧١.

ولو عدنا وتأملنا الصحف اليومية الثلاث فى عام ١٩٧٠ .. ثم عام ١٩٧١ .. وعام ١٩٧٢ .. فسنكتشف عدة ظواهر أخرى بدأ يعرفها الشارع المصرى .. أو كان يعرفها منذ سنوات قليلة فأصبحت أكثر تواجدا ومساحة وإقلاقا .. ظواهر مثل المعاكسة بمد الأيدى .. وبالمسدسات والمطاوى أحيانا .. وملاحقة الفتاة أو السيدة حتى باب بيتها أحيانا .. ومحاولة تقبيل النساء فى وسط الشارع .. وإذا كانت زيادة تلك الظواهر أمام مدارس البنات لا تعد من قبيل الظواهر الجديدة .. فإن الجديد هذة المرة كانت المعاكسات التي زادت أمام أبواب السينما .. وعند محطات الأوتوبيس .. وعلى نواصى الشوارع الهامة فى القاهرة ومختلف المدن المصرية .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط .. وإنما كانت هناك أيضا ظاهرة الخنافس التى بدأت تعرفها مصر لأول مرة بعد يونيو عام ١٩٦٧ .. ونشرت جريدة الأهرام (٣) خبر القبض على أول خنفس مصرى طويل الشعر بتهمة الشروع فى الإعتداء على إحدى الفتيات فى حى العجوزة فى القاهرة.

ومن الظواهر الجديدة أيضا فى مصر بعد النكسة .. هى تلك الظواهر التى إرتبطت بقرار أخلاء مدن القناة وتهجير سكان ثلاثة محافظات إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر .. ولاحظ الدكتور جمال ماضى أبو العزايم (٤) أن كان من نتيجة ذلك تكدس عائلات بأكملها فى حجرات ضيقة .. وأحيانا كانت أسر كبيرة العدد تعيش وتنام فى حجرة واحدة .. الأب والأم والأولاد والبنات فى نفس الحجرة .. فتلاشت الأسرار .. وأصبح كل فرد فى العائلة يعرف ما يجرى

(١) كريمة كمال – ماذا يحدث فى السرايا الصفرا – المكتب المصرى للنشر – ١٩٨١
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٢/١/٩
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٠/٩/١٥
(٤) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

للآخرين من تغييرات نفسية وبدنية .. حيث لا سر ولا حياء .. وأصبح الشاب يعرف موعد الدورة الشهرية لشقيقته .. وتعرف الأخت متى إستحلم شقيقها .. والإثنان .. الأخ والأخت .. عرفا متى يحدث .. ما يحدث بين الأب والأم .

ثم كانت واحدة من أهم تلك الظواهر الجديدة فى تلك الأيام .. هى تلك الظاهرة التى بدأت تنتشر فى الشارع المصرى .. الثياب الخليعة والقصيرة والفاضحة .

فى الواقع .. بدأت مصر تعرف .. أو تحب .. إختراعا إسمه المينى جيب !.

بل إن المينى جيب .. وأحيانا الميكروجيب .. باتا من أوائل معالم الحياة الإجتماعية فى زمن ما بعد يونيو العارى .. وبعد عام واحد فقط من النكسة .. رصدت جريدة أخبار اليوم [1] تأثير ونتيجة دخول المينى جيب إلى مصر .. فقد تسبب المينى جيب فى حبس ثلاثمائة طالب وموظف وعامل .. تراوحت مدد حبسهم ما بين أربعة وعشرين ساعة وحتى سبعة أيام .. كما تسبب المينى جيب فى إلغاء بعثة موظف بأحد البنوك كان مقررا سفره إلى الخارج بعد أن القى بوليس الآداب القبض عليه وهو يعاكس السيدات والفتيات اللواتى كن يرتدين المينى جيب فى شوارع القاهرة .

ووفقا للمنطق .. وفقا لأى منطق .. بدأت تلك الثياب تفرض طابعها وفلسفتها ومنطقها على كل من ترتديها .. فبدأن نشهد لأول مرة فى مصر – منذ زمن طويل جدا – فتيات يبدأن فى معاكسة الشباب والرجال[2] .. ويصلن فى ذلك إلى حد المراهنة بين بعضهن على النجاح فى إصطياد هؤلاء الشباب والرجال .

ولعلنا نستطيع التوغل أكثر فى أعماق بعض فتيات تلك الأيام إذا ما قرأنا مثلا تلك الرسائل التى جمعها الدكتور مصطفى محمود [3] .. ففى إحدى تلك الرسائل نقرأ ما كتبته فتاة تعترف .. عرفت أحد زملائى فى الكلية .. وصاحبته .. لم أحبه ولم يحبنى .. لكننا نذهب إلى السينما حيث نقضى ساعات طويلة لا نرى خلالها الفيلم ولا نرى ما حولنا .. وإنما نظل نتبادل العناق والقبلات حتى ينتهى الفيلم وتضاء السينما .. وبعد ذلك يبدأ عذاب الضمير .. وأجدنى أصرخ فى نفسى بأنى فتاة ساقطة مجرمة مذنبة مصيرها جهنم .. ولكننى كنت أعود بعد ذلك وأقول لنفسى .. وما ذنبنا إذا كانت هذة هى غرائزنا ورغباتنا التى خلقت معنا .. وأبكى .. وأصلى وأصوم .. ثم أعود مرة أخرى إلى فعل تلك الأشياء .

قصدت أن أقدم رسالة الفتاة كاملة .. لأنها تعكس بعضا من ملامح مناخ مضطرب عاشته كل فتاة مصرية بعد يونيو عام ١٩٦٧ .

وإذا كانت الغالبية قد إستطعن التماسك .. وإحتفظن بقدرتهن على المقاومة .. فمن الواضح أنه كانت هناك من لم تستطع لا الثبات ولا المقاومة .. ولم يبق الأمر قاصرا على ما قد يحدث فى سينما مظلمة .. أو فى ركن بعيد وخال .. أو داخل شقة مفروشة لا تمانع – هى وصاحبها – فى أن تتحول إلى أحد أوكار الدعارة والخطيئة .. وإنما كانت هناك ظاهرة جديدة .. جديدة تماما .. إنتعشت وراجت فى مصر بعد النكسة .

كانت ظاهرة هروب فتيات مصر إلى خارج مصر .. إلى بيروت بالتحديد .. وإلى درجة أننى أستطيع أن أصف بيروت فى تلك السنوات بأنها كانت .. أكبر بيت دعارة فى مصر .. أو تتعرى

(١) جريدة أخبار اليوم – عدد ١٩٦٨/١١/١٦

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٢/١/٩

(٣) د. مصطفى محمود – ٥٥ مشكلة حب – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٧١

فيه بنات مصر !.

وتحولت هذة الظاهرة بالطبع إلى حديث الصحف فى تلك الأيام .. كلها تحدثت عن هؤلاء الفتيات .. وعن المكاتب التى إفتتحها مصريون وعرب بغرض المتاجرة ببكارة بنات مصر .. واحد من تلك المكاتب كان إسمه مؤسسة النجاح القانونية للصحافة والتجارة والقضايا القانونية والخدمات العامة .. هكذا دفعة واحدة .. يقع فى شارع شريف .. صاحبه كان تاجرا لبنانيا معروفا إسمه كريم أبو مراد (١) .. وإكتشف رجال المباحث المصرية قيام هذا المكتب بتسفير أكثر من مائتى فتاة فى عام واحد فقط قبل إكتشاف نشاطه المشبوه والإيقاع بصاحبه .. وتم إنقاذ ثمانية فتيات جدد كن فى الطريق إلى السفر .. ولم تكن كل الفتيات بالطبع يعلمن بطبيعة العمل الذى ينتظرهن هناك .. وإنما كانت بينهن من تبحث عن عمل بالفعل .. ونسبة كبيرة منهن كن هاربات من جحيم البيوت وقسوة الأهل .. وكانت بينهن عاهرات بالفعل .. سافرن لممارسة الدعارة فى بيروت تحت إسم خادمات أو مربيات أطفال أو بائعات أو طباخات أو مدرسات .

وإذا كانت أسباب السفر ودوافعه قد تباينت وإختلفت .. فإن النتيجة التى لم يكن هناك خلاف عليها هى أن كل الفتيات اللواتى سافرن تحولن جميعا فى النهاية إلى عاهرات بالفعل إما إختيارا وإما إضطرارا وإستسلاما لمصير مظلم أو خوفا من التعذيب والموت .. ولما زادت الظاهرة وجدت جريدة الأهرام أن الأمر يستدعى القيام بتحقيق صحفى تحول فى النهاية إلى سلسلة من التحقيقات حملت كلها عنوانا واحدا هو .. مصيدة للباحثات عن فرصة العمر خارج الحدود .. وفى الحلقة الثانية من تلك السلسلة (٢) .. أعلن العميد عادل مشرفة مدير إدارة الآداب بمصلحة الأمن العام رقما مفزعا ومخيفا .. ليس أقل من خمسين فتاة تتقدم يوميا لإدارة الجوازات بطلب للسفر إلى الخارج بمفردها .. وكانت الإجراءات التى تعقب التقدم بمثل هذا الطلب .. تتلخص فى فحص صحيفة سوابق الفتاة صاحبة الطلب .. وأصبحت المشكلة كما رآها فى ذلك الوقت المقدم الكومى – رئيس مباحث الآداب بمحافظة الشرقية – هى أن نسبة كبيرة من هؤلاء الفتيات لم تكن صاحبات سوابق .. ولم يسبق القبض عليهن .. ولم يوجه لإحداهن أى إتهام من قبل .. ولهذا كانت الفتاة منهن تنال الموافقة الرسمية على السفر .. وتسافر بالفعل .

ومن الواضح أن حملة الأهرام .. وباقى صحف مصر .. لم تأت بأية نتيجة .. ولم تنجح على الإطلاق .

وبقى مسلسل سفر فتيات مصر لممارسة الدعارة فى بيروت .. مستمرا ومتألقا !.

والدليل .. هو أن جريدة الأهرام .. عادت مرة أخرى (٣) لمتابعة نفس القضية أو الظاهرة .. حيث المكاتب المشبوهة بقيت تزاول مهامها القذرة .. وإن إختلفت أسماء تلك المكاتب .. أو أسماء أصحابها .. وأصبحت تلك المكاتب تحمل لقبا جديدا هو .. مكاتب تشغيل فنانين وفنانات .. وكان محى الدين شكرى واحدا من أصحاب تلك المكاتب الجديدة .. إستطاع وحده تسفير أكثر من خمسين فتاة .. جميعهن تراوحت أعمارهن من سبعة عشر إلى خمسة وعشرين عاما .. وكل فتاة منهن كانت تتقاضى راتبا شهريا يصل إلى مائة وثمانين جنيها .. ومن جديد عادت الأهرام

---

(١) جريدة الاخبار – عدد ١٩٦٩/٣/٢٦
(٢) جريدة الأهرام – عدد١٩٧١/١٢/١٣
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٢/٧/١٣

تستنكر وتحذر وتحاول – دون جدوى – إثارة إنتباه وإهتمام المسئولين عن وزارات الشئون والقوى العاملة والخارجية للتدخل من أجل حماية الفتاة المصرية .. لكن من الواضح أنه لم يعد هناك أحد فى مصر على إستعداد لأن ينقذ أحدا .. أو عرضا .. أو بلدا رآها الكل تتهاوى إلا سكانها .

كل هذا .. كل هذة النكات الجنسية .. والفن العارى .. ومعدلات الإغتصاب العالية .. وكم البنات اللواتى خلعن ثيابهن داخل مصر أو خارجها .. وكل هذا الخروج الجماعى على قواعد السلوك والآداب العامة .

كل ذلك يجعلنا نتسائل .

ماذا حدث لمصر ؟!.

ماذا جرى فى مصر ؟!.

ولماذا حدث وجرى كل ذلك ؟!.

المصورة الصحفية سوزان فيرمازن .. حاولت أن تعرف وأن تفهم .. ماذا يحدث وماذا يجرى بعد كل حرب فى أى زمان وكل مكان فى الدنيا .. فسافرت كثيرا وتسائلت كثيرا وتعبت أكثر قبل أن ترجع وتكتب كتابها الذى أسمته فظائع الحرب (١) .. وعلى صفحاته كتبت سوزان تؤكد أن الحرب لا تعرف الحلول الوسط .. فهى إما الكرم الذى بلا نهاية وإما القسوة التى لا حدود لها .. إما الإصرار على الحياة والتمسك بها وإما الإستسلام التام والعميق لليأس والحزن والموت .. وقالت سوزان أيضا .. أن ضحايا كل حرب ليسوا هم الزعماء السياسيون أو قادة العسكر ولا حتى الجنود على جبهات القتال .. لكنهم الناس العاديون الذين تقتحم الحرب حياتهم دون إستئذان .. حرب لم يفكروا فيها ولم يخططوا لها .. لكنهم وحدهم يدفعون دماءهم ودموعهم ثمنا لها .. وحدهم يصبحون ضحاياها .

.. وبعد حرب يونيو

كان المصريون ضحايا .

لكن .. لماذا أصبحوا عرايا ؟!.

عرايا .. حتى وإن إرتدوا ثيابهم الكاملة .

عرايا .. حتى وإن لم يزنوا ولم يرتكبوا أية خطيئة .

عرايا .. إذا كان مقياسنا هو النوايا .. والشائعات .. والتلذذ بفضح الآخرين وتعريتهم من كل ثيابهم .

هل هى مجرد هزيمة قواتنا المسلحة فى سيناء ؟!.. هل هى روشتة العلاج التى إختارها النظام ؟!.. هل هو الإعلام الذى تخفف فجأة من ثياب الوقار والإحتشام ؟!.. أم أن الجنس بكل مظاهره .. والرغبة فيه والتفتيش عنه .. كان كامنا تحت جلودنا .. فى أعماقنا .. نما وتوحش وقبع ينتظر حادثا مثل خسارة الحرب فى يونيو .. ليخرج عن طاعتنا ويتمرد لا يقدر على أن يكبح جماحه منا أحد ؟!.

ومن قبيل السخف والعبث .. أن نحاول الإختيار .. فليس هناك سببا وحدا يفسر لنا كل ما حدث وما جرى فى مصر بعد الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ .. وإنما إجتمعت الأسباب كلها ..

---

(١) سوزان فيرمازن – فظائع الحرب .. الأحياء والضحايا فى حروب آخر القرن العشرين – نيويورك – ١٩٨٥

وفى لحظة واحدة .. ليبدأ الإحتجاج .. أو الإنفجار الجنسى فى مصر .

وقد كان هناك بالطبع دور لهزيمتنا العسكرية فى سيناء .

صحيح أننا حاربنا كثيرا قبل يونيو .. وإنهزمنا .. وإنكسرنا .. ورش الآخرون الملح فوق جراحنا .

صحيح أيضا أننا مررنا من قبل بمثل تلك الأزمة العسكرية والنفسية .. عقب كل هزيمة .. ومع كل إحتلال لأرضنا وبلادنا .. إلا أن التاريخ شاهد على أنه ليست هناك تجربة واحدة .. أو محنة واحدة .. أدت إلى ما أدى إليه يونيو الحزين .

ربما لأن جنود مصر الذين كسرتهم هزيمة يونيو .. كانوا غير جنودها الذين خاضت بهم كل حروب ماضيها الطويل .. ربما لأننا كنا فوق سيناء نحارب كمصريين لا فلاحين .. سواسية لا عبيد .. حرب شعب وجيش لا يقودهما مماليك ولا يحكمهما أتراك .. ربما لأن الناس فى زمن يونيو .. حفظوا أنهم يستقلون ببلادهم لأول مرة منذ زمن الفراعنة البعيد .. وبدأ هؤلاء – كما زعم جمال عبد الناصر نفسه – يتعلمون من جمال عبد الناصر معنى العزة ومعنى الكرامة .. وكما يقول هيكل(١) .. حقق عبد الناصر كثيرا من المعجزات فى زمانه .. ولكنه أيضا فى نفس الوقت خلق آمالا لم يكن فى إستطاعته تحقيقها .. إن الجيل الذى شب فى عصره وجد الملكية تسقط والجمهورية تقوم .. رأى قناة السويس تؤمم .. مع هزيمة ساحقة تلحق بإمبراطوريتين كبيرتين .. بريطانيا وفرنسا .. فشلتا فى منعه من تحقيق هدفه فى تأميم قناة السويس .. ثم أن هذا الجيل رأى مصر زعيمة معترفا بها فى بناء عالم عربى جديد .. وبدأ هذا الجيل يظن أن أكبر الأهداف تقع فى متناول يديه .. وفى نطاق قدرته .. ويضيف هيكل .. ثم جاءت كارثة ١٩٦٧ .. وليس هناك مجال للإنكار أن عبد الناصر سنة ١٩٦٧ .. فشل فى تحقيق الهدف الأساسى لأى نظام .. وهو قدرته على حماية حدود وطنه .

وفى حقيقة الأمر .. لم تكن هزيمة يونيو مجرد هزيمة لقوات مصر المسلحة .. وإنما تحولت إلى هزيمة لكل مصر .. فتلك القوات المسلحة لم تكن إحدى مؤسسات الدولة .. وإنما كانت بإختصار هى المؤسسة الوحيدة أو هى الدولة .. ولم يعد سرا .. أن الجيش تحول إلى ماكينة وحيدة لتفريخ أهم .. أو كل .. الرجال فى مصر .. من وزراء إلى محافظين وسفراء ومسئولين عن السياسة والإدارة وحتى الفكر والثقافة والإعلام .. بل وحتى رؤساء المدن والمراكز والأحياء .. كانوا أيضا من الضباط والعسكر .

أى أن الهزيمة .. كانت هزيمة جيش .. كان بدوره هو البلد كلها .

من أجل ذلك .. كانت الهزيمة مضاعفة .. والجرح أعمق مما تخيل أشد المتشائمين والأعداء .

أما روشتة العلاج التى قدمها النظام .. والتى كانت الترفيه والمزيد من الترفيه .. فقد تحولت هذة الروشتة بعد قليل من الوقت .. إلى جزء من الأزمة نفسها ومن المشكلة .. بل وكانت الآثار الجانبية للدواء الذى إستعان به النظام .. أكثر خطورة وأشد قسوة .. من الداء الذى فتش له النظام عن دواء !.

إن جمال عبد الناصر .. الذى رفض إقتراحات الدكتور ثروت عكاشة بإظلام البلد بعد الهزيمة مؤكدا أن لندن لم تغلق مسارحها والألمان يقصفونها بالقنابل .. كان سعيدا وواثقا .. بأن هذة

(١) محمد حسنين هيكل – خريف الغضب – شركة المطبوعات للتوزيع – ١٩٨٥

الجرعة الهائلة من الترفيه ستساعد الناس على نسيان ما حدث فى سيناء .. وقد إستوقفه كثيرا إنشغال الناس بعدد القبلات بين عبد الحليم حافظ ونادية لطفى فى فيلم أبى فوق الشجرة إلى الحد الذى جعله يطلب ضاحكا من سامى شرف أن يذهب إلى السينما بنفسه ليحصى عدد تلك القبلات .. ولم يجد عبد الناصر من يحذره من كل هذا الترفيه الذى تقدمه الدولة لعقول وقلوب كسرها الألم والحزن .. وعشش فيها الفراغ والخواء واليأس والإحباط .. وفى الواقع .. لم يبق هناك مفكر أو باحث على إستعداد للقيام بمثل هذا الدور .. فالمفكرون والكتاب والمثقفون .. بتناقضاتهم وأوجاعهم الداخلية المريرة .. لم يعد أمامهم [1] إلا قبول الأمر الواقع كما هو مع يأس من إصلاح أى شئ .. أو الإنصراف فى أعمالهم وتوجهاتهم عن واقع الناس وقضاياهم الملحة .

ولهذا .. ومع أسباب أخرى .. بات واضحا أن النظام وقتها لم يجد أمامه كثيرا من الخيارات المتاحة .

الدين مثلا .. كان من الممكن أن يكون أحد تلك الخيارات .. لكنه خيار لم يكن ليقبله النظام وفقا لمفاهيمه التى سجنت من قبل الدين كله داخل إطار السياسة الشائك والمعقد .. وهناك قصة دارت وقائعها بعد الحرب بعام واحد تشرح مفهوم جمال عبد الناصر للدين .. ففى تلك الأيام .. وكما سبق وأن أشرت .. تحول المينى جيب إلى أزمة .. ثم إلى قضية يتم عرضها على الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا .. وفى دورة طارئة للمؤتمر القومى العام للإتحاد الإشتراكى فى شهر نوفمبر عام ١٩٦٨ .. وقف الشيخ عاشور إمام مسجد أبو العباس بالإسكندرية أمام جمال عبد الناصر يشكو من المينى جيب !.

فقال جمال عبد الناصر [2] .. الكلام عن المينى جيب .. الكلام ده فى الحقيقة غير مقبول .. العالم كله بيتطور .. الحقيقة مثلا هو بيتكلم عن المينى جيب .. أنا لو طلعت قانون يمنع المينى جيب .. معنى ده إيه ؟.. معناه إن البوليس له الحق إنه يتعرض لكل ست فى الشارع سواء كانت لابسة مينى جيب أو مش لابسة مينى جيب .. وهذا فى الحقيقة .. شعور يؤذى كل واحد فينا .. مين اللى عليه إنه يعمل هذا القانون .. كل رب عيلة عليه إنه يعمل هذا القانون .. وإلا تحت قانون بهذا الشكل نستطيع فى الحقيقة إن إحنا نقوم بأعمال تمس أعراضنا وتمس عائلاتنا .. الحقيقة بالنسبة للجامعات مثلا .. يطلعوا قرار إن ما حدش يدخل الجامعة بالمينى جيب .. وإن البنت اللى تيجى فى الجامعات بالمينى جيب أو بشئ من هذا القبيل يتم فصلها من الجامعة .. وبهذا نستطيع إن إحنا نحدد أمورنا .

باختصار .. كان قرار جمال عبد الناصر .. أن كل رب عائلة هو المسئول !.

الدولة .. ومؤسساتها ونفوذها وإعلامها وقوانينها .. تخرج من حلبة الصراع .

المينى جيب – بكل ما يعنيه ويدل عليه أو يشير إليه – أصبح فقط مسئولية كل من ترتديه .. العقاب الوحيد الواضح .. كان الفصل من الجامعة .. فقط لو دخل المينى جيب الجامعة .. مع أن المشكلة كانت فى الشارع والبيت وليست فى الجامعة .

.. لكن !

ها نحن نعيش مرة أخرى حكاية الدين والدنيا .. ها نحن مرة أخرى نستبدل قانون الحلال

---

(١) فاروق عبد القادر – إزدهار وسقوط المسرح المصرى – دار الفكر المعاصر – ١٩٧٩

(٢) جريدة الأهرام – عدد٤/١١/١٩٦٨

والحرام المحدد الصارم الواضح .. بمنطق ما يصح وما يليق .. بقانون العيب الفضفاض الذى يتسع لكل الأراء وإختلافاتها وتناقضاتها .. ومع ذلك .. بقى الدين أحد الحلول المقترحة .. لكنه كان إقتراحا لحل مشكلة جمال عبد الناصر وليس حل مشكلة مصر وأهلها .. ولهذا لجأ جمال عبد الناصر بالفعل إلى الدين .. وكما يقول رفعت سيد أحمد (١) .. مد النظام يده إلى المؤسسة الدينية ليستعير بعض الأقنعة المناسبة .. وإنضمت الأجهزة الدينية إلى باقى أجهزة التعبئة والدعاية السياسية .. وترادفت على لسان جمال عبد الناصر فى الخطب والإجتماعات كلمات تعطى للدين إهتماما مضاعفا .. كلمات تفسر الهزيمة وعلى أنها قضاء وقدر .. وإختبار من الله ويضيف رفعت سيد أحمد .. أنه حين ذهب جمال عبد الناصر إلى الجبهة فى مارس عام ١٩٦٨ إلتقى هناك بالجنود البسطاء وقال لهم .. ما فيش حد منتا ها يموت ناقص عمر .. كل مخلوق له أجل محدد وكلنا مؤمنين بالله .

وهذا ما يؤكده أحمد أنور الذى يقول(٢) .. أنه بعد هزيمة يونيو .. بدأ الإتحاد الإشتراكى فى إستخدام الدين .. وراحت نشرته الداخلية تتحدث بإفراط – وفى مبالغة – عن الإنتصارات الحربية فى تاريخ الإسلام مؤكدة أن العاقبة للصابرين .

هذة كانت رؤية النظام للدين .. دعوة ملحة ومتكررة للصبر .. للقناعة بأن ما حدث ليس تقصيرا من أحد .. وإنما هو بلاء وإمتحان من الله .. دعوة لعدم الإفراط فى اليأس والإحباط .. حيث الله أبدا لن يتخلى عن المسلمين .. ولابد وأن سينصرهم .. ثم إنه ليس هناك مبررا للجزع .. ما حدش ها يموت ناقص عمر .

رؤية نظام .. لم تعد بالضرورة هى رؤية الناس .. بل ولم يعد الناس يتفقون على رؤية واحدة فمنهم من كان فى حاجة إلى حكاية مثل حكاية أو إشاعة ظهور السيدة العذراء فى كنيسة الزيتون يوم الخامس من يونيو عام ١٩٦٨ .. ومنهم من رأى أن الهزيمة لم تكن لتحدث .. لولا ذلك الخصام الطويل بين الدولة والمجتمع وبين الدين .

فالذين إستهوتهم إشاعة .. أو معجزة .. ظهور العذراء – خاصة وأن الدولة لم تعترض على هذة الإشاعات ولم تحاربها بل وحاولت إستثمارها – باتوا ينتظرون مزيدا من المعجزات .. باتوا أيضا على يقين بأن الله سيقف معهم .. وأصبح هناك من بقى ينتظر معجزة تحارب فيها السماء وحدها إسرائيل .. وتقهر أولئك اليهود الكفرة والفجرة .. وتمحق دولتهم وتحرق زرعهم وتشتت نسلهم .. وأما الذين إستوقفهم خصام الدين والدنيا .. فمنهم من لم يجد أمامه إلا الصوفية والعزلة والغربة عن الواقع والناس والحقيقة .. ومنهم من بات على يقين بأن الإنتصار فى الحرب التى هى الجهاد الأصغر .. لن يتأتى ويتحقق أولا .. إلا بالإنتصار فى الجهاد الأكبر الذى هو ضبط النفس وتقويمها وترفعها عن كل الغرائز والشهوات .

وأيا كانت الرؤى .. والأراء .. والقناعات .. والتناقضات .. فقد بات واضحا أن الدين كحل ودواء .. تم إستبعاده نهائيا من روشتة علاج الأزمة .

البديل كان التفكير فى الحرب .. بنبرة تفاؤل .. وبصوت عال .

وذهب عبد المنعم رياض .. رئيس أركان حرب القوات المسلحة .. والرجل الذى إختاره جمال

(١) رفعت سيد أحمد – الدين والدولة والثورة – كتاب الهلال – رقم ٤١٠ – ١٩٨٥

(٢) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

عبد الناصر ليعد مصر لجولة جديدة من الحرب .. إلى محمد حسنين هيكل فى بيته [1] يقول له .. ليست هناك فائدة من كل هذا الكلام عن الحل السلمي .. الجيش لابد وأن يقاتل .. وإذا لم تتح له فرصة القتال .. فإن رجالنا كلهم سيصبحون عبيدا .. وستصبح نساؤنا كلهن بغايا .

ولابد وأن كلام رئيس الأركان كان يحمل قدرا من الحقيقة .. بقدر ما كان يحمل الكثير من المبالغة .. فهذا الحديث الرومانسي الذى فاض بالخوف وبالمرارة .. كان لرجل عسكرى آمن أن ما تفسده الحرب .. لن تصلحه إلا الحرب .

وكانت الحرب فى تلك الأيام .. مستحيلة .. أومؤجلة . .

من الواضح أن أية حلول أخرى كانت مستحيلة .. أو مؤجلة .

إلا حل الترفيه الذى إختاره .. وإستراح إليه النظام .

أما الإعلام .. فلم يقتصر على تسلية الناس ومداعبة غرائزهم فقط .. بل كان هناك من إستهوته فجأة فكرة أن يتحول إلى مفكر أو يغدو فيلسوفا .. ولأنه ليس هناك أسهل من أن تثير غرائز الناس ليلتف حولك المزيد منهم .. فكان أن إستمرأ هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الجدد لعبة الجنس .. وأحالوها من لعبة إلى قضية .. وكأنهم لم يقنعوا بأن يدعوا الغالبية الساكنة والصامتة فى مصر .. تواجه عذاباتها وجراحها وقدرتها المتآكلة يوما بعد يوم على الصبر ومقاومة الإغراءات الحادة والقاسية والعارية .

وكان من نتيجة ذلك .. أن بدأنا نشهد أفلاما مستحيل وصف أصحابها بصفة أخرى غير البجاحة .. وإنعدام الحياء .. أفلام مثل .. خللى بالك من زوزو !.. وقبل الحديث عن الفيلم .. ينبغى التوقف أولا عند مخرجه .. حسن الإمام .. وبقدر إحترامى لموهبته السينمائية وتاريخه الفنى الطويل .. بقدر رفضى لفلسفته وراء الكاميرا مخرجا .. والقضية ليست مطلقا محاولته أو زعمه إعادة كتابة تاريخ مصر بأسماء الراقصات وعاهرات الطبل والزمر .. إنما هى محاولة خلط الأوراق تماما .. والعبث بكل شئ دون حياء أو خجل .. وقد تحول حسن الإمام بعد يونيو ١٩٦٧ إلى واحد من نجوم المرحلة ومن فرسانها ورموزها أيضا .. نجم بدأ بأفلام الحب والهوى والعرى والجنس .. وإنتهى بأفلام تدعو لإعادة كتابة القانون المصرى الإجتماعى والأخلاقى من جديد .

فى عام ١٩٦٨.. قدم حسن الإمام فيلم بنت من البنات .. ثم قدم فى عام ١٩٦٩ فيلم الحلوة عزيزة .. وفى عام ١٩٧٠ قدم فيلم شقة مفروشة .. وفى عام ١٩٧١ قدم فيلم الحب المحرم .. ليأتى عام ١٩٧٢ ليحشد حسن الإمام كل قواه وطاقاته وإبداعاته ليقدم لنا تحفته الخالدة .. خللى بالك من زوزو .

إن أحدا لم يتوقف طويلا عند هذا الفيلم .

لم يتنبه أحد إلى ما ينادى به الفيلم .. وإلى من يعاديهم .. أو ينصرهم حسن الإمام .

الفيلم قامت ببطولته سعاد حسنى .. وقيل أن الفيلم هو إعادة إكتشاف لسندريللا السينما من جديد .. ومعها تحية كاريوكا وحسين فهمى .. وتجاوزت مدة عرضه فى سينما أوبرا سنة كاملة .. وتحول بفترة عرضه الطويلة وعدد مشاهديه .. إلى أحد أهم ظواهر السينما المصرية على مدى تاريخها الطويل الحافل بالظواهر والعجائب والمفارقات .

يحكى الفيلم عن زوزو .. ومنذ البداية .. يطلب الفيلم من كل مشاهد أن ياخد باله من زوزو ..

(١) محمد حسنين هيكل – الطريق إلى رمضان – دار النهار للنشر – بيروت – ١٩٧٥

تلك الفتاة التى تدرس فى الجامعة نهارا .. وتحترف الرقص الشرقى فى المساء .. هى الإبنة الوحيدة المدللة لراقصة عجوز من راقصات شارع محمد على اللواتى أجبرهن الزمن والعمر والترهل لا الفضيلة والأخلاق على الإعتزال .. ويحكى الفيلم فى نصفه الأول عن صراع الأم والإبنة .. الأم تريد أن تتقدم إبنتها لتحمل مشعل الترفيه الجنسى الراقص عن شباب مصر ورجالها .. والإبنة تصر على الإكتفاء بالدراسة فى كلية الآداب وإعتزال الرقص .. لكن دون أن تمل الإبنة من التأكيد على أن إعتزال الرقص ليس رفضا للرقص ذاته .. أو من قبيل كراهية تلك الدعارة التى يحميها القانون بكل أسف .. وإنما هى ترفضه خوفا من فضيحتها لو رآها زملاؤها فى الجامعة وهى بثياب الرقص .

الله غائب .. الدين غائب .. الأخلاق أيضا .

الحكاية كلها تتلخص فى الفضيحة وكيف يمكن توقيها .

ولا ينسى الفيلم أن يقدم لنا تلك الراقصة والطالبة الجامعية المثقفة وعلى أنها الطالبة المثالية فى الجامعة !.. وفوق هذا تكاد تكون زوزو هى الطالبة الوحيدة التى يلتف حولها كل الطلبة والطالبات بحب بالغ الشغف والتقدير .. ونجد أنفسنا مدعوون منذ بداية الفيلم لأن نمنح زوزو تعاطفنا وإعجابنا وإحترامنا لقدرتها اللامتناهية على إرضاء الجميع .. إرضاء زملائها بمواصلة تلقى العلم والغناء لهم فى تلك المناسبات الإحتفالية التى لا تعرفها الجامعة المصرية إلا فى السينما والتليفزيون .. وإرضاء والدتها بمواصلة الرقص .. وإرضاء شباب الكومبارس والفنيين العاملين فى الفيلم والشباب الجالس فى كل صالة عرض بأكبر مساحة ممكنة من لحم سعاد حسنى الأبيض الشهى والمثير والرخيص أيضا !.

أما النصف الثانى من الفيلم .. فيخرج بنا إلى دائرة أكثر إتساعا .. إلى حيث زوزو وقصة الحب الأولى فى حياتها .. القصة التى تلتقى فيها بفارس أحلامها .. الشاب المثقف العائد من أوروبا .. الواد التقيل .. الذى تتمناه أية فتاة .. لكن لا ترضيه ولا تقنعه ولا تأسره إلا زوزو .. حتى حين يعرف هذا الشاب تاريخ كفاح فتاته العارى والمضنى فى إمتاع الرجال وإحراق شهواتهم .. يزداد تمسكا بها وإصرارا عليها .. ويقدم لنا الفيلم أهل هذا الشاب – الذين يرفضون راقصة شارع محمد على زوجة لإبنهم – بإعتبارهم قوم أغبياء يسخر منهم ويدينهم الفيلم ويدعونا نحن أيضا لأن ندينهم ونرفضهم .. كما يدين الفيلم أيضا .. ذلك الرجل الذى شاهد زوزو فى أحد الأفراح ترقص فدارت رأسه وحاول تقبيلها .. ولا أعرف على وجه الدقة لماذا يدين الفيلم وصانعوه هذا الرجل .. ولا أفهم أيضا أين هو السلوك الشاذ الذى أتى به مثل هذا الرجل .. فهو لم يشاهد فتاة جالسة فى مكتبة أو تنتظر الأوتوبيس أو موظفة تؤدى عملها فحاول تقبيلها بالقوة .. لكن الرجل شاهد زوزو أمامه ترقص .. تتلوى .. تتعرى وتمارس كل ما فى الرقص الشرقى من عهر وسفالة ودعارة وإبتذال .. فلماذا يصبح من الشاذ أن يحاول أحد الرجال تقبيلها ؟!.

ولا ينسى الفيلم فى النهاية .. أن يدين ويسخر من الشاب الوحيد الذى رأيناه يرفض زوزو وسلوكها .. بالطبع يقدمه حسن الإمام متزمتا يغلق طول الوقت زرار القميص العلوى ويتحدث بشكل بليد ومستفز ليسخر منه ويرفضه كل ممثلى الفيلم وكل جمهور الصالة .. ومع ذلك فأنا أعتقد أن مشاهد هذا الشاب وحواراته مع أو عن زوزو .. كانت إحدى حسنات الفيلم وحسن

الإمام .. لأنه قال لنا مبكرا جدا .. أنه طالما هناك زوزو .. فسوف يكون هناك بالضرورة الشاب الذى يرقصها .. وحين يصبح لدينا أكثر من زوزو .. سوف يكون هناك بالمقابل أكثر من شاب .. وحين لن تكتفى زوزو بالرقص ودعارته المقننة والمقنعة .. فلن يكتفى الشاب بحمل لافتة رافضة أو إطلاق صرخة غاضبة .. إنما ممكن جدا .. أن تتحول اللافتة.. إلى سوط .. أو مسدس .. أو قنبلة.. أو حتى مدفع رشاش وعلبة ديناميت .

.. وأعتقد .. أن هذا هو ما حدث !.

لكن أحدا يومها .. لم يتخيل .. ولم يقتنع .. بأن هذا هو ما يمكن .. أن يحدث !.

فإنشغلوا جميعا بهذا الترفيه الذى تحول إلى كرنفال جنسى مزين بكل ألوان العالم .. تجاهل صانعوه كل ما فى أعماق المصريين من إحباط ومرارة .

وبالرغم من ذلك .. فالأمانة تقتضى التأكيد على أن السينما المصرية حين قدمت الجنس فى أفلام ما بعد يونيو .. لم تكن تخترع ما لم يعرفه ويمارسه العالم من قبل .. فالسينما فى معظم بلاد العالم لم تتجاهل إنهيار المبادئ والأخلاق والقيم التى قد تعقب خسارة أى حرب .. لكن السينما فى كثير من تلك البلدان قدمت وتناولت ذلك الإنهيار فى حجمه الطبيعى ومساحته الحقيقية .. مثلما قدمت أيضا معانى هذا الإنهيار وحاولت أن تجد تبريرا لطغيان الجنس الذى ترتبط به كل هزيمة عسكرية .

السينما الأمريكية .. قدمت أزمة الجنس بعد الهزيمة فى حرب فيتنام .

السينما الإيطالية .. غاصت فى قاع المجتمع الإيطالى المكسور بعد الحرب العالمية الثانية .

وفيلم العودة للوطن .. كان مثالا للمفهوم وللإحتياج الجنسى الأمريكى بعد الحرب .. حيث الرجل والمرأة فى فراش واحد كجريحين لا عاشقين .. الرجل فقد إيمانه بكل شئ بعد الموت الذى واجهه فى الحرب .. والمرأة زوجة أذهلتها الحرب وبشاعتها وقسوتها ورؤية بقايا الموت والدم على وجوه عشرات الجرحى فأسلمت جسدها لواحد منهم .. ثم يقدم الفيلم زوج تلك المرأة حين يعود من فيتنام ويدرى بخيانة زوجته .. يحاول فى أول الأمر أن يقتل زوجته وعشيقها .. لكنه لا يستطيع .. لقد أصبح يكره الرصاص والدم والموت والحرب .. وبدلا من أن يقتل الآخرين .. يقرر أن يقتل نفسه .. لكنه قبل الإنتحار يتسلم وساما من الحكومة الأمريكية تقديرا لشجاعته وبطولته فى الحرب .

أما فيلم الجلد .. فقد كان أهم فيلم إيطالى عن الحياة العارية فى مدينة نابولى بسبب الحرب وبعد الهزيمة فى الحرب .. ومن خلال مشاهدة الفيلم .. نشعر كيف ممكن للحرب أن تجعل كل شئ قابلا للبيع .. حتى الجسد والشرف والكبرياء والحنان والحلم والديناميت .. وتطوف الكاميرا فى شوارع نابولى .. تصدمنا أحيانا .. تتمهل بنا أحيانا أخرى لتطوف بنا الأزقة والأسواق والحوارى الضيقة .. حيث نرى البغايا .. والقوادين .. والفتيات اللواتى تباع بكارتهن لجنود جيش التحرير الأمريكى .

الأمانة أيضا تقتضى أن السينما المصرية كلها لم تستسلم .. لم تتعر تماما .. كانت هناك بقية من حياء ومن خجل ومن مشاعر لم تأكلها جنازير دبابات إسرائيل فوق رمال سيناء.. وفى هذا المناخ .. ظهرت سينما هامشية حاولت أن تكون جادة وأن تقدم فنا يحترم عقل المشاهد .. فكانت جماعة السينما الجديدة التى تأسست عام ١٩٦٨ وجاء فى بيانها

التأسيسى[1] .. نريد سينما مصرية .. تتعمق فى المجتمع المصرى .. تحلل علاقاته الجديدة .. وللأسف .. لم يسفر تأسيس تلك الجماعة إلا عن فيلمين فقط .. أولهما كان فيلم ظلال على الجانب الآخر من إخراج غالب شعث .. والثانى كان فيلم أغنية على الممر من إخراج على عبد الخالق .

وغير جماعة السينما الجديدة ومحاولاتها .. كانت هناك أفلام عظيم ومجنون السينما المصرية وعاشقها .. يوسف شاهين .. الذى قدم عام ١٩٧٠ رائعته السينمائية .. الأرض .. ثم فيلم الإختيار عام ١٩٧١ .. ثم فيلم العصفور عام ١٩٧٢ .. لكن هناك فيلم آخر قدمه يوسف شاهين عام ١٩٧٦ هو .. عودة الإبن الضال .. وهو الفيلم الذى وإن تأخر سنوات إلا أنه خرج علينا يحمل رؤية يوسف شاهين لما حدث فى مصر منذ هزيمة يونيو وحتى إنتصار أكتوبر .. ونعيش حكاية مصر كلها من خلال عائلة لا تملك إلا أن تنتظر .. إنها تنتظر حلا مستحيلا لن يحدث لكل ما تعانى وما تشكو منه .. الظلم والفقر والجشع والجنس والرغبة والإغتصاب .. وفى الفيلم أيضا تغنى ماجدة الرومى واحدة من أجمل ما كتب صلاح جاهين الذى دهسته أقدام العسكر مثله مثل رمل سيناء .. فكتب أو صرخ أو غنى صلاح جاهين .. آدى اللى كان .. وآدى القدر .. وآدى المصير .. نودع الماضى وحلمه الكبير .. نودع الأفراح .. نودع الأشباح .. راح اللى راح .. ما عادش فاضل كتير .

ما قالته هذة الأغنية .. هو نفس ما قاله الفيلم .. هو نفس ما آمن به يوسف شاهين وكثيرون وقتها فى مصر عن جيل كان كثير الأحلام .. وأتيحت له فرصة تحقيق ما كان يحلم به .. لكنه إنكسر .. وبقى الأمل معقودا وقاصرا على جيل قادم .. أو أجيال قادمة .

وغير فيلم يوسف شاهين .. كانت هناك أفلام أخرى حاولت تفسير ما حدث .. وقدمت أكثر من رؤية .. منها فيلم ثرثرة فوق النيل .. الذى شاهدته مصر عام ١٩٧١ .. وفيلم حمام الملاطيلى عام ١٩٧٣ .. وفى الفيلمين ضاعت الرؤية وسط مشاهد الجنس والعرى التى توالت وتعددت وتمددت حتى باتت وكأنها وحدها هى الرسالة التى يحملها الفيلمان والرؤية التى يودان تقديمها للناس .. أما فيلم المتمردون .. والذى قدمه المخرج الكبير توفيق صالح فى عام ١٩٦٨ .. فقد كان أجرأ فيلم تقدمه السينما المصرية طوال سنوات النكسة .. ولهذا تدخلت الرقابة لتعديل نهاية الفيلم .. وباتت النهاية الجديدة تشير إلى أن الثورة هى الأمل الوحيد فى إصلاح كل شئ .. أما النهاية القديمة .. فكانت تشير إلى فشل الثورة .. وتدين قائدها الذى لم يعد يملك إلا الأحلام !.

لكن .. بقى هذا الفيلم .. وأفلام أخرى قليلة .. مجرد إستثناءات لا تجدى أمام الإصرار على الترفيه والإغراق فيه .. ومع مهرجان الخلاعة وكرنفال العهر الفنى العام والخاص .. ولن نستطيع أن نتخيل قسوة هذا كله .. ولا فداحة إعلام عار ومثير للغرائز .. إلا لو عدنا للناس الذين تعين عليهم مواجهة ذلك كله .. وإذا تأملنا خريطة مصر البشرية وقت حرب يونيو وبعدها .. فسنكتشف أن أقرب إحصاءات سكانية لتلك السنوات [2] .. هى إحصاء عام ١٩٦٠ .. وإحصاء عام ١٩٧٦ .. الأول أشار إلى أن ٤٣٪ من سكان مصر تحت سن الخامسة عشرة .. والثانى أكد إرتفاع تلك النسبة إلى ٥٢٪ .

أى أن مصر فى ذلك الوقت كانت بلدا يسكنه الصغار .. البنات اللواتى خفف اليأس والإحباط

---

(١) د. درية شرف الدين – السياسة والسينما فى مصر – دار الشروق – ١٩٩٢

(٢) د. أحمد الحصرى – بشر بلا ثمن – كتاب الأمالى – رقم ٤١ – ١٩٩٢

من قيودهن وإلتزامهن .. وأردن مسايرة عصر جديد بأفكار ومفاهيم ومعاني جديدة .. والشباب الذين جاءهم يونيو وهم في .. قمة الحيوية وقمة الغضب .. منتهى الطموح ومنتهى الرغبة .. فإنطفأت الحيوية وإنذبح الطموح .. وبقي الغضب وبقيت الرغبة التي تضخمت .. وتوحشت .. ووجدت في كل مكان وكل وقت ما يزيد من توحشها .. على شاشة السينما والتليفزيون وبجوار الراديو وعلى صفحات المجلات والجرائد ومع أغان لا تتوقف ولا تنتهي ونكات تتعرى وتشتعل في كل شارع وفي كل مقهى وفي كل لحظة .. وكان هؤلاء الشباب والصغار بغضبهم ورغباتهم وخروجهم الدائم والشرس على قانون المجتمع والسلوك والأخلاق .. هم موضوع تحقيق قامت به جريدة الجمهورية (١) سألت فيه كثيرا من الأطباء والمتخصصين عن التفسير .. فقال الدكتور يحي الرخاوي أن المشكلة هي تلك الحرية السطحية التي بدأ المجتمع المصري ممارستها .. حرية ينجم عنها قدر من الإثارة لا يتناسب مطلقا مع درجة تطور أو نضوج الفتى أو الفتاة المصرية .. وقال الدكتور وليم الخولي أن المشكلة الحقيقية في مصر باتت أن الشاب يبلغ مرحلة النضج الجنسي قبل بلوغ النضج الإقتصادي .. ويؤدي ذلك إلى توالد وتزايد حاجات جنسية يعجز صاحبها بالتأكيد عن إشباعها .. فيولد العنف والإحتياج أو الإعتياد عليه .. هذا إلى جانب الكبار .. رجال ونساء .. وتجاوزاتهم النفسية والأخلاقية والجنسية .. التي لم تعد قاصرة على أيام يونيو الحزينة والسنوات القليلة التي أعقبت الهزيمة والإنكسار .. وإنما إمتدت – أو بقيت – آثارها ونتائجها في مصر طويلا .

وبالرغم من ذلك كله .. فإن الهزيمة وحدها .. ولا محاولة النظام لمواجهتها بالترفيه والتسلية العارية .. لم تكن لتؤدي إلى أن يتمدد الجنس في حياتنا وفي مجتمعنا بعد يونيو عام ١٩٦٧ بهذا الشكل وتلك القسوة والعنف .. لولا أن الجنس نفسه في حياة المصريين .. وفي إعتقادهم ومفهومهم وتاريخهم .. ظاهرة مربكة معقدة محيرة .. كومة من المتناقضات والغرائب والأسرار .. توارثها المصريون وتناقلوها جيلا بعد جيل .. فأبقاها كل جيل كما هي .. وكأنه يحافظ على تلك الكومة المقدسة دون أدنى محاولة لترتيبها أو مراجعتها أو إعادة النظر فيها .. ليس هذا فقط .. وإنما كان كل جيل يضيف المزيد من الغرائب والأسرار .. ليزداد الجنس عند المصريين غرابة وتعقيدا .. وليس من قبيل المبالغة التأكيد على أنه إذا كان من السهل معرفة الحياة الجنسية وأسرارها وتفاصيلها عند المصريين القدماء على سبيل المثال .. فإنه من الصعب .. إن لم يكن من المستحيل .. معرفة نفس تلك التفاصيل والأسرار عن الحياة الجنسية لمن يسكنون مصر اليوم .. أو لمن عاشوا فيها طوال المائة العام الماضية .

لهذا .. لم تكن مفاجأة لي على الإطلاق أن أكتشف أن المكتبة المصرية لا تحوي كتابا واحدا متخصصا عن الجنس في حياتنا وأفكارنا .. وفي تاريخنا أيضا .. وكل ما هناك بضع فقرات أو صفحات تأتينا على إستحياء في خضم الحديث عن أمور أخرى كالزواج أو العادات أو التقاليد أو الأخلاق في أيام القوة والإزدهار أو الضعف والإنحلال . .

ولست أدري ما هو تفسير ذلك .. هل هو الخجل ؟!.. هل هو الخوف ؟!.. هل هو المثل الشعبي الشهير الذي نعرفه جميعا والذي يأمرنا بإغلاق الباب كلما هبت منه أو أمامه الرياح .. فأغلقنا جميعا أبوابنا توقيا ومخافة لرياح الجنس العارية والمثيرة للكثير جدا من الحساسية والتوتر .

(١) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٧٢/٨/٢٤

لكن أيا كان السبب أو التفسير .. فلم تعد هناك اليوم ضرورة أو مبرر لكل هذا الخجل أو الخوف .. ولم يعد من اللائق أو من الطبيعي أن تبقى مغلقة فى وجوهنا وعقولنا أبواب الجنس الذى نمارسه دون أن نعرفه .. نحتاج إليه ونستمتع به أو نشكو منه دون أن نفهمه .. نخضع ونحتكم إليه فى كثير من أفكارنا ومشاعرنا وقراراتنا وإنطباعاتنا دون أن نتوقف أمامه مرة بالتأمل والمراجعة .. ولن تكون مثل هذة المراجعة ذات جدوى أو قيمة إن أغفلنا تاريخنا الجنسى على مدى خمسة الاف عام .. فعبر تلك الأعوام الطويلة المتعاقبة .. تراكمت عاداتنا وتكونت تقاليدنا وقوانينا التى تحكم اليوم حياتنا وخيالاتنا ورغباتنا الجنسية .. ولن نستطيع أن نبدأ رحلة كهذة وأن نغوص فى جذور أخلاقيات المصريين .. إلا إذا توقفنا قليلا عند رجل إسمه جيمس هنرى برستد .. لا يعرفه الكثيرون منا اليوم لكن من يعرفه يعرف أنه الرجل الذى قام فى عام ١٩٣٤ بواحدة من أهم وأعظم وأقيم الدراسات العلمية عن الأخلاق والضمير الإنسانى .. وأثبت فيها أن المصريين القدماء لم يخلفوا وراءهم مجرد تماثيل وأهرامات ومعابد وإمبراطوريات إنتقلت من ضفاف النيل لتعيش باقى أيامها فوق أو فى صفحات التاريخ .. لكنهم تركوا للعالم كله ما هو أهم وأبقى .. فقد إخترعوا الضمير والفضيلة والأخلاق .. ولست أقصد بهذا الحديث أن أنضم إلى قافلة أولئك المزعجين الذين لا هم لهم فى الدنيا إلا إثبات أن كل ما نعرفه اليوم هو فى حقيقته من نتاج وإبتكار الفراعنة سواء كان حبة تمنع الحمل أو علاجا للإيدز مرورا بالطائرة النفاثة والقنبلة الذرية .. وإنما أقصد فقط أننا - بالفعل - إبتكرنا أول دستور أخلاقى فى التاريخ وأول معايير واضحة للفضيلة والقيم والسلوك .. وبهذا الدستور وهذة المعايير .. تأسست الدولة المصرية الأولى وعاشت وإزدهرت .. وبقيت، بالرغم من عشرات الغزاة والإنكسارات ومواسم الضعف والهوان .. وبهذا الدستور وهذة المعايير .. إكتسبت مصر أيضا خصوصيتها .. ونجحت فى الحفاظ على تلك الخصوصية مهما تباينت أديانها أو قوانينها أو حكامها .. وبقدر إبتعادنا عن الدستور والمعايير الذين تأسست بهم بلادنا .. نصبح أكثر قابلية للسقوط والإنهيار .. وبقدر إلتزامنا بهم .. نغدو أشد تماسكا وصلابة .

وقد كانت حماية العائلة - أو الأسرة الصغيرة - من كل شر أو ضرر .. هى أول وأهم قاعدة أخلاقية تعرفها مصر ويتفق عليها المصريون الأوائل حتى قبل زمن بناء الأهرامات بوقت طويل .. وقبل ظهور أية ديانة كاملة القواعد والأسس يدين بها الناس فى مصر .. أى قبل أن يكون هناك الحلال والحرام بأمر من الإله .. وأصبح الحلال هو كل ما يزيد من قوة وتماسك الأسرة ومن رفاهيتها وخيرها وسعادتها .. وكل حرام هو ما يؤدى إلى التفكك العائلى وإختصار مساحة الحب المتبادل بين أفراد كل أسرة .. ويقول هنرى بريستد [١] .. أن حب الأب والأم... كان أول مدرسة تعلم فيها المصريون صفات الفضيلة والأخلاق القويمة كالحب والكرم والإعتراف بالجميل والشفقة والرحمة وحب الخير .. ويمكننى أن أضيف .. وتعلموا أيضا أول قواعد وقوانين تحكم علاقاتهم وحياتهم الجنسية .

وهى تلك القواعد والقوانين التى أشار إليها الوزير والحكيم والفيلسوف .. بتاح حتب .. والذى كان الوزير الأول - أى رئيس الوزراء - فى عهد الملك إسيسى أحد ملوك الأسرة الخامسة .. وإعتزل بتاح حتب منصبه الرسمى لأنه أراد أن يتفرغ لكتابة وتسجيل كل القواعد والإلتزامات

(١) جيمس هنرى بريستد - فجر الضمير - ترجمة د. سليم حسن - مكتبة مصر - ١٩٨٠

الأخلاقية المصرية ويتركها لإبنه ولكل الأجيال القادمة .. ولأن تلك الوصايا الحكيمة هى أقدم وثيقة أخلاقية مكتوبة فى تاريخ مصر والعالم كله .. فإنه يمكن أن نعتبر ما جاء فيها متعلقا بالجنس .. هى أول قواعد وقوانين تعارف عليها المصريون .. وهى كما سنرى خرجت أيضا من معطف الأسرة وسلامتها والحفاظ عليها .

ومن قراءة وصايا الوزير بتاح حتب ووصايا الآخرين .. ودراسات كثير من المؤرخين والمستشرقين والعلماء .. نخرج بأن الجنس فى ذلك الزمن البعيد .. لم يكن فعلا يأتى به المصريون لمجرد إنجاب الصغار فقط .. ولم يكن فى حياتهم حدثا طارئا أو عابرا .. وبالمقابل لم يكن وحده إختصارا لكل المعانى الأخرى فى حياتهم كالحب أو الشرف أو العار أو الكبرياء أو الخطيئة .. كانوا يستمتعون به .. يفتشون عنه .. لكن دون أن يحيلوه إلى كومة من الغرائب والتناقضات .. بل على العكس تماما .. كان المصريون – الذين أسسوا دولتهم الأولى منذ قرابة الخمسة الاف عام – قوما فى منتهى الوضوح والواقعية أيضا .. أدركوا أن الجنس ليس خطيئة .. دون أن يعنى ذلك أن يمارسوه فى المعابد .. فكانوا أول شعب فى التاريخ [1] يمنع ممارسة الجنس فى المعابد لأنه فعل لا يليق ببيوت الآلهة .. بل وكانوا أول شعب يجبر النساء على الإغتسال بعد ممارسة الجنس إذا أردن دخول المعبد للصلاة أو لتقديم القرابين .. ومن واقعيتهم أيضا أن كانوا يستمتعون بالجنس .. لكن دون أن يتحول ذلك الإستمتاع إلى خطيئة .. إذ كان الواحد منهم [2] يقف أمام أرباب الحساب فى الآخرة ليشهد.. لم أرتكب الفاحشة مع إمرأة ولم أقترف ما يدنس عرضى .. ولا كان ذلك الإستمتاع ليفسد بيتا أو يهدم حياة وإستقرار أسرة .. لهذا أصبح الزنا منذ تأسست الدولة المصرية .. إحدى الجرائم التى لابد وأن يكون عقابها الموت .. فكانت الزوجة التى تزنى يلقون بها فى النار وهى لا تزال حية لتحترق وتموت فى بطء وقسوة جزاء فعلتها التى أفسدت إستقرار وبقاء أسرتها [3] .. لكنهم قبل أن يقرروا ذلك .. طالبوا كل زوج بأن يحب زوجته أولا .. الحب الذى لا يبقى قاصرا فقط على كلمات الغزل ومشاعر الود والغرام .. وإنما حب يعنى أن يصبح الزوج مطالبا تجاه زوجته بأن .. يشبع جوفها .. يستر ظهرها .. يوفر لها الروائح الجميلة والدهانات التى تحافظ بها على أعضائها .. وأخيرا إشباع حاجاتها ورغباتها الجنسية .. فإذا زنت الزوجة بعد ذلك أو خانت .. إقتضى العدل موتها وحرقها .

ولا يعنى ذلك أن مصر القديمة .. كانت الدولة الفاضلة التى لا يخرج فيها على التقاليد والقانون أحد من رعاياها .. فقد كانت هناك من تزنى ومن يزنى .. وكانت هناك الأسر التى يهدمها الجنس فى قسوة وشراسة قنبلة كأنها ألقيت عليها من القرن العشرين .. ولكنها فيما يبدو كانت إستثناءات قليلة لأن المصريين فى ذلك الزمن البعيد .. أدركوا من أين قد يأتى الداء .. وكيف يمكن العثور على الدواء .. وهذا هو ما يمكن أن نخرج به من وصايا الوزير بتاح حتب الذى يقول .. تجنب مخالطة النساء .. فما طاب مكان حللن فيه .. ومن الحكمة ألا تحشر نفسك معهن .. ومن سوء الرأى أن يتلصص عليهن إنسان .. وإذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سواء كنت سيدا أو شقيقا أو صديقا .. فإحذر القرب من النساء .. ويضيف الوزير الفيلسوف مؤكدا .. كم من رجل ضل عن رشاده حين إستهواه جسد إمرأة .. وحين يفتتن

(١) وول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧
(٢) د. عبد العزيز صالح – الأسرة المصرية فى عصورها القديمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨
(٣) د. عبد الرحيم صدقى محمد حسنى – القانون الجنائى عند الفراعنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥

الإنسان بأعضائهن البراقة .. لا يعلم أنها بعد ذلك تصير شيئًا تافهًا .. والمتعة ليست إلا لحظة قصيرة تمضي كالحلم ولن يأتي بعدها إلا الموت .

ولم يكن الوزير بتاح حتب هو الوحيد الذي توقف فتأمل فخاف فأوصى .. ولكن تعددت الوصايا .. فقال أحد الحكماء .. من نكح إمرأة جاره نكحت إمرأته علي عتبة داره .. ومن نكح زوجة غيره علي سرير نكحت زوجته علي الطين .. وقال حكيم آخر .. الأحمق الذي ليس لديه عمل يشغله قضيبه .. وفي تعاليم عنخ شيشنق (١) نقرأ أن الرجل يفوق الحمار في القدرة على الجنس إلا أن حافظة نقوده هي التي تكبح جماحه .. وهو يوصى أيضا كل زوج بألا يفرح بجمال زوجته .. لأن قلبها ملك لمن يضاجعها .. ويؤكد علي كل رجل بألا يعشق إمرأة متزوجة .. لأنه سيقتل علي عتبة بيتها .

وهي كلها تعاليم .. كما نرى .. إستوحيتها الرغبة في حماية كل أسرة .. وإذا كان هناك من لم يلتزم بها .. فإن الغالبية بالمقابل أعلنوا طاعتهم وخوفهم والتزامهم .. حتى أننا لا يمكن أن نصف مصر القديمة بصفة أخرى غير الإلتزام والعفة .. ومع كل ما خلفته لنا مصر تلك الأزمان من صور وتماثيل .. إلا أننا لا نجد الإثارة التي نراها في التراث اليوناني أو الروماني أو تراث بلاد الشرق البعيدة كالصين والهند واليابان .. بل إن وول ديورانت عدد وفتش عن الصور واللوحات التي تجسد الممارسة الجنسية بين الرجل والمرأة .. وعلى الرغم من التراث المعماري والفني الهائل للفراعنة .. فإن المؤرخ الكبير لم يجد (٢) إلا ثلاثة حالات فقط .. الأولى في إحدى مقابر الدولة الوسطي وفيها رسم لرجل وإمرأة في الفراش .. والثانية جدار منزل تزينه رسوم تشرح تفاصيل الممارسة الجنسية .. والثالثة في أحد البيوت القديمة – قرب سقارة – وجدت فيها صور لإله أبيس إله المتعة الجسدية .. هذا بالإضافة إلى إثنين وثلاثين تمثالا صغيرا لأعضاء ذكرية وجدت متناثرة بين الأنقاض .. ويضيف محمد جلال كشك (٣) .. مع أن المناخ الحار في مصر كان يسمح بالتخفف من الثياب بعكس برد أوروبا الذي كان يحث علي ضرورة التغطي بالثياب الثقيلة بحثا عن الدفء .. إلا أن الذي حدث كان العكس تماما .. تماثيل مصر كلها ترتدي الثياب الكاملة في غاية الوقار والحشمة .. وتماثيل الإغريق والرومان عارية لا تخفي ولا تستر شيئا من عورات المرأة أو الرجل .. ويختتم كشك رؤيته بالتأكيد علي أن الجنس عند المصريين كان محددا ومنضبطا ومقيدا أيضا .. وهو ما يمكننا أن نستدل عليه من القرآن الكريم الذي يخاطب فيه الله قوم لوط بقوله (٤) .. أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين .. أو قوله (٥) .. إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين .

إنها شهادة براءة لدولة وشعب ونظام أخلاقي صارم ومحدد وواضح .. حتى وإن كانت هناك بعض الإستثناءات .. والعشيقات .. وفتيات الترفيه واللهو والمتعة الجنسية .. والبغايا والعاهرات .. لكنها بقيت إستثناءات لم تخلط بين الأوراق والصفات والمعاني .. حتى الفارق بين الزوجة والعشيقة كان واضحا ومحددا إلى درجة إختلاف الثياب .. فلم يكن مسموحا للعشيقة بأن تغطى

---

(١) محمد أبو رحمة – الحب والجنس في مصر – الأمل للطباعة والنشر – ١٩٩٢

(٢) وول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧

(٣) محمد جلال كشك – خواطر مسلم في المسألة الجنسية – مكتبة التراث الإسلامي – ١٩٩٢

(٤) قرآن كريم – سورة الأعراف – الآية رقم ٨٠

(٥) قرآن كريم – سورة العنكبوت – الآية رقم ٢٨

صدرها[١].. وبجانب العشيقات كانت هناك فتيات – يشبهن فتيات الجيشا فى اليابان اليوم – مهمتهن تقديم المتعة والتسلية الجنسية للرجال .. يجلسن معهم يرتدين الثياب الشفافة .. وأحيانا يكتفين بالأساور والخلاخل فقط .. ويقين يمارسن تلك المهمة ويتقاضين أجرهن دون تجاوز لحدود الدور المطلوب منهن .. أما حكايات البغايا فى مصر الفرعونية .. فهو الملف الذى تضخم يوما بعد يوم بالأكاذيب والشائعات والأوهام .. صحيح أن مصر – مثلها مثل كل دول العالم القديم – عرفت ظاهرة البغاء المقدس .. أى أن تختار كل عائلة أجمل بناتها وتهبها لآمون [٢] .. ويخصص دخلها لخدمة المعبد وتقديم القرابين للإله .. ولم يكن ذلك عارا ولم تكن تلك الفتيات يمارسن ذلك البغاء المقدس إلى الأبد .. وإنما كن بعد كثير أو قليل يتركن المعبد من أجل الزواج .. ويخرجن ويتزوجن بكل مظاهر التشريف والتعظيم .. وقد إشتهرت وذاعت فى مصر الفرعونية أسماء بعض هؤلاء البغايا .. بل وأطلقت أسماء بعضهن على مدن مصرية مثل مدينة نقراطيس .

هذة هى الحقائق التى لم يكتف بها البعض .. وإنما أضافوا عليها – بدون قصد وغالبا بقصد ومع سبق الإصرار والترصد – أكاذيب جديدة ومختلقة بداية من المؤرخ الأغريقى هيرودت ونهاية ببعض مفكرى وكتاب الغرب والعرب .. فقد زعم هيرودوت [٣] أن الفرعون المصرى الشهير .. خوفو .. لم يبن هرمه الأكبر المعروف بإسمه إلا بإجبار إبنته على الدعارة .. فسجنها فى ماخور وحدد سعرها لكل رجل يريد أن يجامعها .. على أن تخصص كل هذه الأموال لإستكمال بناء الهرم .. وقبلت الإبنة القيام بتلك المهمة لكن دون أن تنسى مطالبة كل من مارس معها الجنس بأن يهديها حجرا .. وفى النهاية جمعت تلك الأحجار وبنت بها هرما صغيرا لا يطاول هرم أبيها ولا يناطحه .. ثم أضاف هيرودوت أيضا .. أن الفرعون صاحب الهرم الثالث .. منقرع .. هام بحب إبنته .. فإغتصبها .. فما كان من الإبنة المغتصبة إلا أن إنتحرت .. وقامت أمها بتقطيع أيدى الوصيفات اللواتى ساعدن الأب على إغتصاب الإبنة .

ولم تكن المشكلة فيما زعمه هيرودوت أنه نم عن جهل عميق بالخلافات السياسية التى أسفرت عن كثير من الأكاذيب والشائعات .. لكنها كانت فيمن جاء بعد هيرودوت بوقت طويل جدا .. ولا يزال يصر على نفس تلك الحكاية بالرغم من الدراسات الفرعونية التى تكاثرت وتعددت وأصبح العالم كله يعرف ملامح وتفاصيل وأسرار الفراعنة .. لكن هناك من يتجاهل ذلك إما لإثبات أن المصريات قديما مارسن الدعارة بعيدا عن ظاهرة البغاء المقدس .. أو للسخرية من الأهرامات نفسها بإعتبارها شواهدا على الفسق والإنحلال وليست صروحا للمجد والعمران والحضارة .

وبعيدا عن تلك الأكاذيب والشائعات .. تبقى الحقيقة هى أن المصريين كانوا شعبا شديد الإلتزام – وفقا لمفاهيم زمانهم وحياتهم – وكانوا خاضعين لنظام أخلاقى صارم وواضح .. ولم يكن تعاقب الأيام والسنوات ليزيد هذا النظام ضعفا وترهلا .. وإنما زادت من تماسكه وقوته .. خاصة وأن تلك القواعد والقوانين الأخلاقية التى نشأت فى أول الأمر لحماية الأسرة .. تحولت بعد الف عام من تأسيس الدولة المصرية .. إلى قواعد وقوانين أخلاقية ودينية أيضا[٤] .. ولم يعد إنضباط وتقويم سلوك الفرد يرجع فقط إلى الخوف على عائلته .. ولكنه أصبح الخوف من إله

(١) أنيس منصور – من أول نظرة – دار الشروق – ١٩٨٩
(٢) د. محمد نيازى حتاتة – جرائم البغاء – مكتبة وهبة – ١٩٨٢
(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر – ترجمة د. محمد صقر خفاجة – شرح د. أحمد بدوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧
(٤) سليم حسن – مصر القديمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

الشمس .. صحيح أن الدين فى مصر ولد قبل ذلك التاريخ بسنوات طويلة وكثيرة .. لكنه دين لم يكتمل إلا بإكتمال دائرة الأخلاق وضوابط السلوك والمجتمع .. وهو الأمر الذى له دلالاته الكثيرة والعميقة .. فأول دين فى مصر لم يكن لينهى عما إنتهى عنه الناس بالفعل من قبل .. ولم يكن ليسمح لهم بممارسة ما لم يكن مسموحا من قبل .. وإنما هو دين خرج إلى الناس من لحم واقعهم .. من ظروفهم وعاداتهم وأخلاقياتهم .. لا تناقض ولا تعارض ولا خلاف ولا إختلاف .. إن هذا لم يؤد فقط إلى أن يزداد المصريون تمسكا بالدين .. وإنما أصبح الدين جزءا طبيعيا وتلقائيا من نسيج الإنسان المصرى .. لم يعد ولن يعود الدين ترفا فى حياة مصر أو المصريين يمكن الإستغناء عنه بين الحين والآخر.. أو مجرد مجموعة نواهى وأوامر ومحاذير .. لكنه حياة ووسيلة أكيدة وأخيرة للبقاء .. وساعد على ذلك أن مصر دولة إختلت بنفسها وأهلها الفا وخمسمائة عام كاملة .. فترة كانت كافية لصياغة كل القوانين والقواعد والدين والأخلاق .. دون صراعات جانبية ودون أى تدخل أو إحتكاك مع الغرباء .. وهذا هو ما أضفى على مصر خصوصيتها فى تجربتها الطويلة مع الحياة وأحداثها ومجالاتها .. حتى جاء أول الغرباء .. وأول إحتلال .. وأول إنقلاب جنسى فى تاريخ مصر .

جاء الهكسوس .. بالتحديد فى عام ١٦٧٥ قبل الميلاد (٢) .. وما يعنينا من بقايا أول إحتلال أجنبى لمصر .. هو ما قاله رائد التاريخ المصرى مانيتون السمنودى (٣) .. عن الهكسوس الذين هدموا معابد الإله .. وأحرقوا المدن .. وذبحوا الرجال .. وإستعبدوا النساء وإتخذوا منهن جاريات وإماء .

وكانت هذة الأحداث بحق .. هى المسئولة عن كثير من التغييرات الجنسية التى بدأت – ثم إعتادت – مصر تشهدها وتعرفها وتعانى منها وتدفع ثمنها كثيرا وطويلا .. وكان أول وأهم هذة التغييرات هى أن الجنس لم يعد هو المتعة الخالصة أو الخطيئة الكاملة .. وإنما أضيفت إليه معانى جديدة تتعلق بالكرامة والكبرياء .. فالرجل المصرى المهزوم .. والذى وجد نفسه فجأة مهزوما فى الحرب .. إكتشف أن الهزيمة لا تخص الملوك أو القادة أو العسكر وحدهم .. إنما تخصه هو أيضا .. وهو الذى دفع من ثمنها أكثر مما دفعه أولئك الملوك والقادة والعسكر .. هو الذى دفع الثمن الفادح .. زوجته وبناته .

إن هذا الثمن .. لم يربط فقط فى خيال مصر وعقيدتها .. بين الحرب وبين الجنس .. وإنما ربط أيضا بين القوة والكبرياء وبين الجنس .. فالرجل الضعيف هو الذى ستنام زوجته فى فراش رجل آخر .. والرجل المهزوم هو الذى يصبح عاجزا عن ممارسة الجنس مع زوجته أو إمرأته .. أى أن الجنس .. بإختصار .. كان فى طريقه لأن يصبح إختصارا لكل معانى الرجولة .. وهو المعنى الذى خلفته لنا هزيمتنا أمام الهكسوس وبقى معنا وداخلنا حتى اليوم .. فمن يومها أصبح الدليل الذى يقدمه الجندى المصرى على أنه إنتصر على أعدائه (١) هو أن يقطع عوراتهم ويسرع بها إلى الكاتب المختص ليحصيها ويسجلها فى دفتر حسناته .. ولعل كثيرون اليوم لا يعرفون أن أهل الصعيد لا يزالون يطلقون على قضيب الرجل كلمة قد تبدو لنا غير مألوفة أو مستساغة .. إنهم يسمونه .. الشخصية !.

(٢) أحمد حسين – موسوعة تاريخ مصر – مطبوعات الشعب – ١٩٨٣

(٣) د. السيد نصر الدين السيد – القومية المصرية – كتاب اليوم – عدد ٣٢٦ – ١٩٩١

وعلى الرغم من أن المصريين .. عقب تلك الهزيمة .. سرعان ما تماسكوا .. وإنتصروا .. وطردوا الهكسوس من بلادهم .. بل وأعادوا صياغة بلادهم على شكل إمبراطورية لها فتوحاتها وإنتصاراتها فى فلسطين وسوريا والسودان .. إلا أن الآثار الجنسية للهزيمة أمام الهكسوس كانت قد إستوطنت الوجدان والوعى والذاكرة .. ولم تجد مصر .. ولا وجد المصريون .. ما كانوا يحتاجونه من وقت لتلتئم كل الجراح وتعود الحياة والعادات والأخلاق إلى سيرتها الأولى .. إذ بعد كل هذة الحروب التى خاضوها فى الشمال والجنوب بقيادة أحمس وأمنحتب وتحتمس الأول والثانى .. جاء زمن إخناتون الذى تولى الحكم عام ١٣٦٧ قبل الميلاد ليقود أول ثورة دينية فى تاريخ مصر [٢] ويدعو لعبادة الإله الواحد آتون .. لتدور صراعات الملك مع الكهنة وتتفتت الإمبراطورية وتفتقد الهدوء والسلام إلى الحد الذى يغرى الليبيين بالإستيلاء على السلطة عام ٩٥٠ قبل الميلاد [٣] .. ثم يأتى بعدهم النوبيون .. حتى تجئ سنة ٥٢٥ قبل الميلاد الذى تشهد فيها مصر ثانى هزيمة عسكرية كبرى فى تاريخها .. وكانت هذة المرة أمام الفرس بقيادة الملك قمبيز .. ويبقى الفرس يحكمون مصر مائة وأربعة وعشرين عاما حتى جاء الإسكندر الأكبر فاتحا وغازيا ومنتصرا قبل ميلاد السيد المسيح بثلاثمائة وإثنين وثلاثين عاما .

وكان هذا كله كفيلا بأن يؤثر على الإستقرار الجنسى الذى عرفه المصريون وإعتادوا عليه من قبل طويلا .. فقد زادت معدلات الخيانة الزوجية .. وفى المقابل .. أحيلت القوانين الأخلاقية والدينية إلى أرشيف التاريخ .. ولأنه لم يعد هناك من هو على إستعداد للإكتراث بهذا التاريخ وتلك القواعد الأخلاقية والدينية .. فقد تم تعديل عقوبة الزنا [٤] من الإعدام حرقا .. إلى قطع أنف المرأة الزانية .. بل ولم يتوقف الأمر عند هذا التنازل .. وإنما بدأ الميل إلى الإكتفاء بالغرامة والعقوبة المالية يوقعونها على من تزنى أو من يزنى .. وكان أوج الإنحلال فى نهايات عصور الفراعنة هو الدعوة إلى الصلح بين الزوج وزوجته الزانية أو العكس .. فإذا تم الصلح بالفعل إنقضت أسباب الدعوى الجنائية ولم تعد هناك أية قضية أو جريمة .

ولم يقتصر الإنحلال فى معانيه وملامحه على ذلك .. بل تعددت أيضا حوادث الإغتصاب حتى جاء اليوم الذى بات فيه الملك رمسيس الثالث يفخر بما وفره لمصر من أمن وسلام [٥] إلى الحد الذى معه أصبح بإمكان أية إمرأة مصرية الذهاب إلى أى مكان دون أن يعترض طريقها من تخشاه .. وما تخشاه .

هذا هو الحال .. والواقع الجديد الذى عاشت به مصر نهايات زمن الفراعنة والبطالمة من بعدهم .. ثم الرومان الذين حكموا مصر إلى أن عاد للمصريين إتزانهم الإجتماعى والأخلاقى بالدخول فى الديانة المسيحية .. وقبل الحديث عن ذلك .. ينبغى التوقف عند حكاية أو أسطورة .. شاعت على السنة المصريين حين كان يحكمهم البطالمة .. وبطل الحكاية أو الأسطورة هو الملك نقتانبو الثانى [١] آخر فراعنة مصر والذى طرده الفرس من مصر .. إما الحكاية أو الأسطورة نفسها فتحكى عن هذا الملك نقتانبو الذى هاجر إلى مقدونيا .. كملك ورجل مهزوم مكسور مطرود

---

(١) ويل ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧
(٢) أحمد حسين – موسوعة تاريخ مصر – مطبوعات الشعب – ١٩٨٣
(٣) د. ناصر الأنصارى – موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم – دار الشروق – ١٩٨٧
(٤) د. عبد الرحيم صدقى محمد حسنى – القانون الجنائى عند الفراعنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥
(٥) د. عبد العزيز صالح – الأسرة المصرية فى عصورها القديمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨

من بلاده .. وهام هناك بحب الملكة أوليمبياس .. ولأن الإله آمون قد حلت قوته وقدرته في جسد نقتانبو .. فقد أصبح من الطبيعي ألا تجد الملكة رجلا غيره تبادله حبا بحب .. شهوة بشهوة .. فمارس الملك المصرى الجنس مع ملكة الإغريق وكان نتيجة ذلك اللقاء هو الإسكندر الأكبر الذى دارت به الأيام وجاء يحكم مصر والعالم كله .

ومع أننى لست أملك دليلا .. إلا أننى أزعم أن تلك الحكاية كانت الأولى من نوعها في تاريخ مصر .. فصل أول في حكاية طويلة عاشت معنا حتى اليوم نستبدل فيها القوة بالجنس .. نضطر للإكتفاء والقناعة بالإنتصار في الفراش.. بديلا عن الإنتصار في الحرب .. وكان هذا – فيما أعتقد – هو ثاني أكبر إنقلاب جنسي في تاريخ مصر بعد الإنقلاب الأول عقب غزو الهكسوس الذى جعل الجنس مساويا أو موازيا أو بديلا للقوة والذات والكبرياء والكرامة .. وجاء الإنقلاب الثاني ليجعل من قدرتنا على الجنس هي أحيانا العزاء الوحيد والسلوى التي تبقى لو أضاع زماننا كل ما بقى أو كان من المفروض أن يبقى بين يدينا .. ومع ذلك بقيت تلك الأفكار التي تتبدل .. والقناعات التي تتشكل .. والمعاني التي تولد .. مجرد خيالات تستكين تحت الجلد وتكتمها الأعماق .. تنتظر لحظة فيها تخرج إلى السطح لتتحول من الخيال إلى الواقع .. وهى لحظة لم تكن مصر لتعرفها مطلقا في تلك السنوات التي إعتنقت فيها الديانة المسيحية .. والتي كانت بدايتها في مدينة الإسكندرية .. أول مدينة مصرية تؤمن بالسيد المسيح بعد ميلاده فقط بخمس وستين عاما [٢] .. ويكفى أن نقرأ شهادة المقريزى لندرك بوضوح أن مصر المسيحية كانت مضطرة لأن تبقى أخلاقها ومشاكلها وخيالاتها على ما هى عليه دون تغيير أو تبديل .. فالمقريزى يقول أن ملوك الروم .. أو القياصرة .. غالوا كثيرا وطويلا في تعذيب المصريين الذين رفعوا الصليب .. أغلقوا كنائسهم .. إستباحوا دماءهم .. أسرفوا في قتلهم .. وعمت أرض مصر بالسبايا والقتلى .. لم تعش يوما واحدا دون موت وعذاب ودموع .. وحتى حين إستقرت المسيحية في مصر ولم يعد الصليب مرادفا للموت أو القهر .. كانت مصر قد إخترعت مسيحيتها الخاصة بها وهي الرهبنة .. وكان من الطبيعي أن يتوارى الجنس بممارساته ورغباته وقضاياه داخل الوجدان وفي السلوك العام والخاص .. فالجنس لا يصبح مطلقا أزمة أو قضية في مثل هذا المناخ الذى يصفه لنا فيليب كامبى مؤكدا [٣] أن الزهد ملأ مصر كالوباء .. من طيبة في الجنوب إلى الإسكندرية في الشمال .. ويشير كامبى إلى أن هؤلاء الرهبان تزايدت أعدادهم إلى الحد الذى معه يمكن الإعتقاد بأنهم كانوا نصف سكان مصر .. وكان هؤلاء الرهبان يطرحون عن أجسادهم كل ثوب زائد .. بل إن بعضهم لم يستر جسده إلا بالشعر الطويل زهدا في الثياب وفي رفاهيتها ولم يؤد كل هذا الزهد والتقشف وسيادة الرهبنة على فكر المصريين وعلى سلوكهم إلى أن يتطهر الجميع ويتعفف كل أحد .. فبقدر ما يؤكد لنا التاريخ أن الإنحلال الكامل ليس من صفات المصريين وليس يستقيم مع عاداتهم وطبائعهم .. فإن هذا التاريخ أيضا يؤكد أن التقشف الكامل أيضا لا يستقيم مع المصريين وحالهم وتكوينهم النفسى والإجتماعى .. وحتى في أوج عصور مصر المسيحية .. كان هناك من يخطئ .. وكانت هناك من تزنى .. وكانت هناك الدعارة

---

(١) د. إبراهيم نصحى – تاريخ مصر في عصر البطالمة – مكتبة الأنجلو – ١٩٨١

(٢) د. وليم سليمان قلادة – المسيحية والإسلام على أرض مصر – كتاب الحرية – ١٩٨٦

(٣) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢

تجارة قائمة ومربحة .. والدليل هو حرص عمرو بن العاص [١] على عدم إتصال جنوده عقب فتح مصر بالعاهرات وتجنب أية علاقات معهن .. ويؤكد ذلك الدكتور محمد نيازى حتاتة حين يقول [٢] أن البغاء توارى قليلاً عقب دخول العرب لمصر .. لكنه بدأ بعد قليل فى العودة مرة أخرى .

وعلى الرغم من عودة البغاء والبغايا .. وخطايا وآثام الزنا والخيانة .. إلا أنه يمكن التأكيد على أن مصر فى سنواتها العربية الأولى عاشت إستقرارا نفسيا وإجتماعيا وأخلاقيا .. إستقرار كان على الأقل قادرا على إبقاء الأوضاع على ما هى عليه دون مزيد من التوتر والحيرة والإضطراب .. وهو بالضبط ما كانت تحتاجه مصر فقط لتلتقط أنفاسها وهى التى منذ آخر الفراعنة.. لم تهدأ ولم تنعم بلحظة أمان واحدة .. وإنما تنقلت من من حال إلى حال .. من جيش إلى جيش .. من دين إلى دين .. من لغة إلى لغة .. تسعمائة وإثنتين وسبعين سنة – من سنة ٣٣٢ قبل الميلاد إلى سنة ٦٤٠ ميلادية – عاشتها مصر كجزء من العالم الغربى يطمع فيها أهل الشرق دون أن يمنحها أحد فرصة أن تكون نفسها .. تكون مصر فقط .. بأهلها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها .. لهذا حين جاء جيش عمرو بن العاص عام ٦٤٠ .. كانت مصر تستقبله برغبة هائلة فى الهدوء والإستقرار والسكون .. بل وأصبح هذا الإستقرار هو قضية المصريين الأولى وشغلهم الشاغل حتى أهم من ذلك الدين الجديد الذى جاء مع العرب يطرق أبواب بلادهم وأبواب بيوتهم .

ومع ذلك .. لم تطل فترة إستقرار مصر .. إذ بعد قرابة المائتى عام فقط .. كانت أول ثورة شعبية فى مصر الإسلامية فى عهد الدولة العباسية وفى زمن ولاية عيسى بن منصور .. ثورة قام بها البسطاء والفقراء إحتجاجا على الظلم والغلاء والفساد وجشع الحكام والولاة والعسكر ورجال الشرطة .. وإضطر الخليفة المأمون لأن يغادر بغداد ويجئ بنفسه إلى مصر ليخمد هذة الثورة .. وقسا المأمون على الثائرين وعاقبهم بشدة .. فقتل الكثير من الرجال وأسر الكثير من النساء والأطفال .. وصب غضبه على الوالى وعزله وعين بدلا منه كيدر نصر بن عبدالله .. وما يعنينا من تلك الحكاية هو أنها كانت النقطة الفاصلة فى تاريخ الإسلام فى مصر .. فمنذ ذلك التاريخ .. شهر مارس عام ٨٣٢ ميلادية .. أصبح الإسلام لأول مرة هو دين الغالبية فى مصر [٣] .. وهذا هو ما أدى إلى المزيد من الإستقرار فى مصر .. إستقرار دينى وسياسى وإجتماعى وأخلاقى أيضا .. فلأول مرة يولى ولاة مصر – فى عهد الدولة العباسية – إهتمامهم للحفاظ على الآداب العامة .. ولأول مرة فى تاريخ مصر يصبح الحفاظ على تلك الآداب من مهام الشرطة [٤] .. ولم يعد إستتباب الأمن وحده هو مهمة صاحب الشرطة .. وإنما أضيفت إلى تلك المهمة .. منع النساء من التبرج أو الذهاب إلى الحمامات أو زيارة المقابر .. وضرب المخنثين .. وإغلاق الملاهى .. ويصدر القرار الأميرى ليلزم صاحب الشرطة بالطواف ليلا فى الطرقات يقضى على الفساد .. ينشر الفضيلة .. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحافظ على الآداب العامة .. حتى ساد مصر مناخ هادئ آمن يشوب أخلاقه الإستقرار .. ليس كامل الشرف والعفاف والإلتزام .. لكنه إعاد مصر بالفعل إلى سيرتها الأولى القديمة .. وكأن مصر وهى تشهر إسلامها .. لا تتعرف ولا

---

(١) سلام خياط – البغاء عبر العصور – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢
(٢) د. محمد نيازى حتاتة – جرائم البغاء – مكتبة وهبة – ١٩٨٣
(٣) أحمد حسين – موسوعة تاريخ مصر – مطبوعات الشعب – ١٩٨٣
(٤) د. ناصر الأنصارى – تاريخ أنظمة الشرطة فى مصر – دار الشروق – ١٩٩٠

تكتشف دينا جديدا بقدر ما تعود إلى إلتزامها القديم .. وقوانينها وتقاليدها وحياتها القديمة .. الله الواحد .. الأسرة التى تعيش فى سلام وأمان .. الزوجة التى ليست ملكا للرجل .. والزوج الذى يقنع بإمرأته وبيته .. وهو المناخ الذى ما كان أحمد بن طولون ليكسره أو يتمرد عليه .. بل إن محمود السعدنى كان على حق تماما (١) حين وصف عهد أحمد بن طولون بأنه بمثابة .. عودة الروح إلى مصر من تانى .

فهذا الشاب الذى جاء إلى مصر فى العشر الأواخر من شهر رمضان عام ٨٦٨ ليحكمها بالنيابة عن زوج والدته الأمير باكباك .. إستطاع ليس فقط الحفاظ على أمان مصر وإستقرارها ولكنه ضاعف من قوتها وخيرها وفضائلها وأعاد تشكيل جيشا لها تهابه كل القوى المجاورة وبنى فيها عاصمة جديدة – بعد الفسطاط والعسكر – هى القطائع .. وأهم من ذلك كله .. كان بدء العلاقة الوثيقة بين المسجد والمجتمع فى مصر .. فبعد مسجد عمرو بن العاص .. كان مسجد ابن طولون هو ثانى مسجد فى تاريخ مصر يقوم بدور الجامع والمدرسة والمستشفى ومنتدى الآراء ومقر المناقشات الدينية والسياسية والإجتماعية .

لكن للأسف .. لم يطل العمر بابن طولون .. ولا حتى جاد الزمن بخليفة يشبهه أو على الأقل يقاربه .. وإنما كان خليفته هو إبنه خمارويه الذى حكم مصر إثنتى عشر سنة .. أصبح خلالهم مثلا للحكام فى مصر ستعانى منهم وبهم مصر طويلا بعد ذلك .. فقد كان خمارويه شغوفا بالنساء وبالحياة الناعمة .. وحين تزوجت إبنته قطر الندى من الخليفة العباسى المعتضد .. بالغ فى تجهيزها إلى حد إفلاس مصر كلها لتذهب إبنته إلى بغداد بالذهب والجواهر التى ليست لها قيمة .. وبثياب داخلية تكونت من الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار وعلق فى كل تكة جوهرة بحجم بيضة الحمامة (٢) .. ولم يكتف خمارويه بجهاز أنفق عليه مليون دينار .. لكنه أعطى قطر الندى على سبيل الإحتياط مائة الف دينار إضافية لتشترى من بغداد ما قد تكتشف العروس أنه ينقص جهازها .. لهذا لم يكن مفاجئا أن تسقط الدولة الطولونية بعد ثمانية وثلاثين عاما فقط .. وتعود مصر من جديدة إمارة عباسية .. وتعود إلى الإضطراب والتوتر من جديد وعلى كل المستويات .. الدينية والسياسية والعسكرية وحتى الأخلاقية أيضا .. وإذا كان حاكما مثل الإخشيد – الذى تولى الحكم عام ٩٣٥ وأسس الدولة الإخشيدية – قد تحول إلى إستثناء وسط هذا الركام من الفوضى .. فإنه إستثناء لم يكن ليلغى أو يقاوم كل ما بدأت تعانى وتخاف منه مصر .. وكان لابد وأن ينتهى ذلك كله بمجئ الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى الذى دخل مصر فى شهر يونيو عام ٩٦٩ وبنى مدينة المنصورية إنتظارا لمجئ الخليفة المعز لدين الله .. والذى جاء بالفعل فى شهر يونيو عام ٩٧٣ ليغير إسم عاصمته الجديدة إلى القاهرة .. وبتأسيس الدولة الفاطمية فى مصر .. نجح وإكتمل ثالث إنقلاب جنسى حقيقى فى تاريخ مصر .. إنقلاب لم يكن كسابقيه فى زمن الفراعنة جاء إلى مصر على أسنة الرماح ومع أقدام الغزاة والعسكر .. وإنما هو إنقلاب جاءت به رفاهية القصور ونعيمها وإنحلالها أيضا .. وزادت من قسوته ليالى فقر وحرمان طويلة ومجاعات توالت وتعاقبت دون رحمة أو شفقة .. ليتشارك الأغنياء والفقراء فى القيام بهذا الإنقلاب وفى سداد فواتير حسابه .. فأما الأغنياء .. فقد باتوا لا يفتشون إلا عن المتعة ولا ينشدون سواها ..

---

(١) محمود السعدنى – مصر من تانى – كتاب اليوم – رقم ٢٠٥ – ١٩٩٠

(٢) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى – بدائع الزهور فى وقائع الدهور – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

إقتدوا فى ذلك بملوكهم وحكامهم .. ولم يعد الزواج يقنع الرجال بالعفاف ولا عادت الزوجات تشبع رغبات أزواجهن .. فالحفلات والأعياد لا تنقطع ولا تتوقف .. والحرية تتضاعف مساحتها .. والرغبات لا تموت إلا لكى تولد من جديد .. فكان من المنطقى أن تزدهر الدعارة [١] بكل أشكالها ومجالاتها فى مصر .. وفى المقابل كانت تزداد بنفس المقدار حرية النساء ورغباتهن وإنحلالهن .. فخرجن [٢] إلى الشوارع سافرات متبرجات دون حجاب .. وأقبلن على شرب الخمر .. وكثر إختلاطهن بالرجال .. وأما الفقراء .. فقد عانوا من مجاعات متوالية .. وإذا كانت أولى المجاعات التى عانت منها مصر الإسلامية هى [٣] تلك المجاعة التى شهدها عصر عبدالله ابن عبد الملك ابن مروان عام ٧٠٦ .. ثم تكررت المجاعات على فترات متقطعة متباعدة حتى جاء زمن الفاطميين .. فإذ بالمجاعات تغدو واقعا مألوفا ومحنة لا تفاجئ أحدا .. حتى جاءت المحنة التى سيتوقف عندها تاريخ مصر طويلا بالحزن حتى وكأن بقاياه وأوراقه لا تزال تبكى على مصر وأهلها .. وهى المجاعة التى ألمت بمصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله .. ودامت سبع سنوات[٤] .. وفيها جاعت مصر كما لم تشعر بالجوع مطلقا من قبل .. غاب النيل ومات الزرع فى الأرض .. ولم يجد الناس ما يأكلوه .. فأكلوا جذوع النخل وجلود البقر فى أول الأمر .. ثم إستداروا يأكلون القطط والكلاب حتى قل عددها وشح وجودها .. فبيع الكلب بخمسة دنانير والقط بثلاثة .. ثم بدأ الناس يأكلون جثث الموتى .. ولم يعد هناك مفر من أن يأكل المصريون بعضهم بعضا .. فكانت الناس تجلس فوق أسطح بيوتها مجهزة بأسلاب وحبال .. فإذا مر إنسان بالقرب منهم .. ألقوا عليه بحبالهم .. فقيدوه وإقتطعوا لحمه وأكلوه .. وكان الرجل يسطو على بيت جاره فيسرق طفله ويأكله .. بل وكان الكلب يدخل الدار فيأكل الرضيع فى المهد ووالداه ينظران إليه لا يستطيعان المقاومة من شدة الجوع .. وحاول المستنصر مقاومة ذلك .. أو إعانة الناس على ذلك .. فباع كل ما يملك من جوهر وياقوت .. باع حتى رخام زينت به قبور أجداده .. وكل ما يملك من دور وضياع .. ولم يبق عنده عيال أو خدم أو شئ سوى سجادة يجلس عليها وقبقاب يرتديه فى قدمه .. ولم يعد يجد ما يقتات به إلا صحنا واحدا كل يوم من طعام البر والصدقات ترسله إليه شقيقته .. وكان إذا أراد الخروج يستعير من وزيره بغلته يقضى عليها أشغاله ثم يردها إليه مرة أخرى فور عودته .. وحتى هذة البغلة سرقها الناس وأكلوها .. فقرر الوزير عقابهم وشنقهم فما طلع الصباح على جثثهم مطلقا .. إذ تخاطفت جثثهم الناس من فوق المشانق وأكلوا لحمها عن آخره وبسبب ذلك .. مات ثلث أهل مصر .. فمن لم يمت جوعا .. فتكت به الأوبئة والأمراض.

ومن السهل حينئذ .. وفى مناخ كهذا .. الحديث عن الأخلاق والسلوك .. فمن يختطف إمرأة ليأكلها لن يمنعه أحد من إغتصابها .. وإن كان جسد المرأة كطعام أصبح أشهى منه وعاء للشهوة والرغبة .. فبقدر ما تم إغتصاب نساء بقدر ما تم أكلهن .. وتحكى لنا

(١) سلام خياط – البغاء عبر العصور – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢
(٢) د. ناريمان عبد الكريم أحمد – المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣
(٣) د. أحمد السيد الصاوى – مجاعات مصر الفاطمية – دار التضامن – بيروت – ١٩٨٨
(٤) تحدثت عن هذة المجاعة كتب كثيرة .. وأوردها بقليل أو كثير من تفاصيلها كل مؤرخى مصر الإسلامية دون إستثناء . وأنا أعتمد هنا فى وصفها على المؤرخين الثلاثة الكبار . الجبرتى وإبن إياس والمقريزى .. ولكن إعتمادى بشكل أساسى على وصف المقريزى فى كتابه الحزين .. إغاثة الأمة بكشف الغمة .. الذى أعادت دار الهلال نشره فى سلسلة كتاب الهلال عام ١٩٩٠

الدكتورة ناريمان عبد الكريم (١) عن كثرة وقسوة ما لاقته نساء مصر من حوادث خطف وإغتصاب .. ومنهن إمرأة نجت فأسرعت تشكو للوالى فأمر بقتل كل من فى الدار التى دلته عليها المرأة .. وفى المقابل يحكى لنا المقريزى عن رجل إختطف إحدى النساء وأوثقها عارية .. وبدلا من إغتصابها .. أخذ يقتطع شرائح اللحم من فخذيها ويشويها ويأكلها .. لكنها إستطاعت الهروب وإستغاثت بالوالى فشنق الرجل .

ومرة أخرى .. لم يقف الزمان على الحياد بين مصر وبين أزماتها ومواجعها .. صحيح أنها تخلصت من تلك المجاعات وآثارها .. ومن الدولة الفاطمية بأسرها .. وعادت تعيش مرة أخرى بعضا من إستقرار وإنتصارات ماضيها مع صلاح الدين الأيوبى الذى أعاد لمصر مذهبها السنى بعد أن تشيعت مع الفاطميين .. وأعطى لرجال الشرطة صلاحياتهم القديمة (٢) التصدى للفساد والإخلال بالآداب واللهو والتنزه بأسلوب يخالف تعاليم الإسلام .. والذى منع إختلاط الرجال والنساء .. إلا أن ذلك كله كان بمثابة راحة مؤقتة وعابرة سرعان ما عادت بعدها لسنوات التوتر والإضطراب والفوضى على أيدى المماليك وفى زمانهم الذى جاء برابع إنقلاب جنسى فى تاريخ مصر .. والذى أصبح أكثر إنقلاب تأثرت به مصر وإضطرت لأن تسدد فواتير حسابه من أعصابها وإلتزامها وأخلاقها .

وفى واقع الأمر .. بدأ المماليك عصرهم بحادثتين جنسيتين كانتا أسوأ وأقصى ختام للدولة الأيوبية .. بقدر ما كانتا إفتتاحا مناسبا ولائقا لزمان المماليك .. الحادثتان يرويهما مؤرخنا الكبير ابن إياس (٣) عن عصمة الدين أم خليل شجرة الدر .. آخر من حكم مصر فى عهد الأيوبيين .. وعن زوجها الثانى السلطان المنصور نور الدين أيبك .. أول سلاطين دولة المماليك البحرية .. وكانت شجرة الدر (٤) جارية أرمنية الأصل .. على قدر كبير من الجمال والذكاء .. أهداها الخليفة العباسى المستعصم بالله إلى نجم الدين أيوب فى القاهرة .. وحين إعتلى نجم الدين عرش السلطنة المصرية أعتق جاريته وتزوجها إلى أن مات فى دمياط .. فأصبحت شجرة الدر هى أول إمرأة تحكم مصر بعد إشهار مصر لإسلامها .. وبقيت تحكمها ثمانين يوما إجتهدت خلالها فى إقناع أهل مصر بفكرة ومبدأ أن تحكمهم إمرأة دون جدوى .. فإضطرت للزواج من عز الدين أيبك وجعلته سلطانا على مصر .. وأرغمته على طلاق زوجته أم ولده الأمير على .. ومع ذلك لم يستقم الأمر لشجرة الدر .. فقد بلغها أن زوجها السلطان يفكر فى الزواج من إبنة حاكم الموصل .. فقررت الإنتقام .. فتجملت .. وتزينت .. وتطيبت .. وأرسلت للسلطان تدعوه للصلح وللوفاق .. فصعد إليها فى القلعة .. وكانت واحدة من أشد ليالى الغرام والمتعة التى تشهدها القلعة فى تاريخها .. وبعد أن إستمتع السلطان بجسد السلطانة طوال الليل .. ذهب إلى الحمام ليغتسل .. وكان هناك فى إنتظاره خمسة من الخدم .. قتلوه .. أمسكوا قضيبه بوتر وشدوه بقسوة وعنف إلى أن مات السلطان من شدة الألم وكثرة الدماء التى تزفها القضيب المخلوع .. وأصبح عز الدين أيبك هو أول حاكم مصرى يروح ضحية مؤامرة جنسية .. ويتم إغتياله جنسيا أيضا .. أما شجرة الدر صاحبة تلك المؤامرة .. فقد تعين عليها تسديد ثمن جريمتها .. والذى

(١) د. ناريمان عبد الكريم أحمد – المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣
(٢) د. ناصر الإنصارى – تاريخ أنظمة الشرطة فى مصر – دار الشروق – ١٩٩٠
(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى – بدائع الزهور فى وقائع الدهور – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤
(٤) د. ناصر الأنصارى – موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم – دار الشروق – ١٩٨٧

طالبتها به زوجة السلطان أيبك الأولى .. فأمرت جواريها بقتل شجرة الدر بالنعال والقباقيب .. ولما ماتت .. ألقيت من سور القلعة عارية ليس يستر جسدها إلا القليل من ثيابها الداخلية .. المزينة باللؤلؤ والمطيبة بالمسك .. فكان لابد وأن يأتي الحرافيش .. منهم من سرق اللؤلؤ .. ومنهم من ضاجع سلطانة مصر الميتة .

وهكذا .. إفتتح المماليك زمانهم .

هكذا .. إختار المماليك الجنس وسيلة للإستمتاع بالحياة .. وأسلوبا لإنهاء نفس هذة الحياة .. وإذا كان عز الدين أيبك قد مات بعد ليلة ساخنة وبقضيب مخلوع .. وماتت شجرة الدر بلا ثياب أو تكة تستر عوراتها .. فقد تكرر هذا الأمر كثيرا بعد ذلك .. ويحكى لنا المقريزى [1] على سبيل المثال كيف خرج السلطان الأشرف صلاح الدين خليل من القاهرة للصيد .. وبينما كان السلطان وحده يطارد الطيور .. قام الأميران بيدرا المنصورى وحسام الدين لاجين بقتل السلطان .. فدخل الرمح الطويل الحاد في دبر السلطان حتى مات السلطان وخرج الرمح من فمه .

وغير تلك الحادثة .. وحوادث أخرى مشابهة .. يؤكد لنا التاريخ أن أى إستثناء يسمح بتجاوز الدين وقواعد وأخلاقيات المجتمع أصبح هو القاعدة فى زمن المماليك .. صحيح أن بعض سلاطين المماليك كانت لهم محاولات – تستحق الذكر والإشادة – للقضاء على أية مظاهر للخلاعة والمجون فقد منع بعضهم والنساء من إرتداء الثياب العارية والخليعة .. وتصدوا للمغنيات وأرباب الملاهى إلا أن تلك المحاولات لم تكن لتعيد تصحيح أى شئ .. لم تكن لتقضى على مناخ عام باتت تعيشه مصر وتستسلم له .. بل إن تلك المحاولات لم يقم بها أصحابها أصلا إلا فى أشد أوقات الأزمات الإقتصادية .. لعل الله يرفع البلاء عن مصر وأهلها إذا عادت وعادوا إلى الإحتشام والإلتزام والإنضباط القديم .. وهى أخيرا محاولات ضاعت آثارها وسط ركام الفوضى الجنسية التى أسسوها وغرسوها طويلا فى لحم مصر .. فالدعارة أصبحت مهنة رسمية تعترف بها الدولة وتحمى عاهراتها وقواديها .. بل إن الدعارة باتت من المهن التى تحظى برعاية الدولة المملوكية وبإهتمامها .. وإخترع المماليك وظيفة جديدة لم تعرفها مصر من قبل .. هى ضامنة المغانى .. أى المرأة التى تعهد إليها الدولة بمهمة جمع الضرائب من العاهرات والمغنيات .. وإلى هذة المرأة كان من الضرورى أن تذهب كل إمرأة أو فتاة ترغب فى إحتراف الدعارة .. فتعطيها الضامنة حق الحماية والأمان مقابل ما سوف تدفعه من ضرائب للدولة .. وكانت هناك ضامنة فى باقى المدن وفى الريف أيضا .. حيث تتجمع العاهرات [2] فى أماكن خاصة بهن يمكن لأى رجل أو شاب أن يدخلها من أجل المتعة .. أما لو دخلتها أية فتاة أو إمرأة راضية فمن المستحيل أن تستعيدها عائلتها أو الشرطة أو أى أحد آخر .. وإلى جانب الدعارة وإنتشارها والإعتراف الرسمى بها .. كانت الخيانة أمر سهل مألوف ممكن ومتوقع فى أى وقت وفى أى بيت .. غير أن أهم مظاهر تلك الفوضى كانت ما يختص بسلاطين المماليك أنفسهم .. والذين إنتشر بينهم [3] الشذوذ الجنسى إلى الحد الذى جعل المؤرخين يستثنون سلطانا واحدا من بين كل عشرة سلاطين لم يكن له ميل للشباب .. بل وهناك أحد سلاطينهم الذى تنازل عن عرش مصر مقابل ألا يضحى بغلام كان

---

(١) المقريزى – السلوك لمعرفة دول الملوك – مطبعة دار الكتب – ١٩٧٣

(٢) د. قاسم عبده قاسم – دراسات فى تاريخ مصر الإجتماعى : عصر سلاطين المماليك – دار المعارف – ١٩٨٤

(٣) صلاح عيسى – حكايات من دفتر الوطن – كتاب الأهالى – رقم ٢٩ – ١٩٩٢

يستعذبه ويهواه .. ومع أن محمد جلال كشك يرفض التسليم بهذا الشذوذ ويرى (١) أنه من قبيل تشنيع العامة على السلاطين .. إلا أن الدليل الذى جاء به كشك على عدم صحة تلك الإتهامات وهو أنه من المستحيل تصور المماليك كغلمان يستخدمهم الرجال فى كل فراش ومع ذلك يكبرون ويتحولون إلى فرسان ومحاربين لهم هيبتهم وثقلهم العسكرى .. لا أراه دليلا قويا ومقنعا وقادرا على الصمود فى وجه عشرات الحكايا والوقائع التى خلفها لنا كثير من المؤرخين والدارسين والباحثين .. وعلى أية حال فالقضية الأساسية لم تكن عدد سلاطين المماليك الذين إستسلموا لشذوذهم ومجونهم .. وإنما كانت هذا الدرس الذى تعلمه المصريون من المماليك .. وهنا لا يقف كشك – ولا أى مفكر آخر – فى خندق المعارضة لباقى المؤرخين والمفكرين .. وإنما يتفق الجميع بلا إستثناء على أن محنة المماليك وفوضويتهم الجنسية علمت المصريين أول دروس التشهير الجنسى .. علمتهم الإنتقام بالجنس .. إنتقام ليس بالضرورة أن يتحقق ويكتمل بالسيف أو الرمح وإنما من الممكن الإكتفاء بإشاعة .. بإختلاق حكاية كاذبة أو تكرار رواية حكاية حقيقية .. وكل ذلك من أجل تصفية أية حسابات من سلطة ظالمة وقاسية تدوس أعراض الناس وتطحن مشاعرهم فى سبيل تحقيق غاياتها ومطامعها ونزواتها .. وإلى الحد الذى معه لم يعد المصريون فى حاجة إلى الإعراب عن ضيق أو غضب أو تذمر .. بل يكفى أن يتناقلوا حكاية سلطان يعتليه الرجال فى فراشه أو يعتلى هو الغلمان .. ومع ذلك فلم تكن هذة القدرة على التشهير والسخرية العارية من السلطة هى الدرس الوحيد الذى تعلمه المصريون من المماليك .. وإنما تعلموا أيضا وظيفة أخرى للنساء .. وظيفة الحريم (٢) اللواتى يحبسهن الرجال فى قماقم مغلقة لا تفتح إلا من أجل الرغبة والشهوة .. وبقدر ما إستبد المماليك بالرجل المصرى .. بقدر ما إستبد هذا الرجل بإمرأته .. وبقدر مساحة الجنس التى تضاعفت وتضخمت فى مثل هذا المجتمع العارى .. بقدر ماكانت مساحتها تزيد بنفس القدر فى وجدان ووعى كل رجل .. وتوالت بعد ذلك الدروس الجنسية التى تعلمها المصريون حتى جاء يوم الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٥١٦ .. اليوم الذى شهد المعركة الفاصلة بين المماليك وبين العثمانيين فى مرج دابق .. واليوم الذى عاشت بعده مصر فى قلق وحيرة وخوف حتى جاء اليوم الثانى والعشرين من يناير عام ١٥١٧ .. حين قتل طومان باى على مشارف القاهرة لتتحول مصر فى ذلك اليوم من دولة مملوكية إلى مجرد إمارة أو ولاية عثمانية .. وقد حاول العثمانيون فى أيامهم الأولى محاربة بقايا فوضى المماليك الجنسية .. وأمر قاضى العسكر بتضييق الخناق على كل النساء ومنعهن من الخروج لأى سبب ولم يستثن منهن إلا العجائز .. لكن لم تطل بهذا القاضى الإقامة فى مصر .. وسرعان ما رحل لتودعه عاهرات القاهرة وساقطاتها بمظاهرة ضخمة غنين فيها .. قوموا بنا نقحب ونسكر قد خرج عنا قاضى العسكر .. ومعهن سارت نساء الأزبكية متبرجات متهتكات فى الشوارع والطرقات يرقصن رقصات الخلاعة والفجور .. وبالطبع كان هناك الشبان الذين لم يترددوا مطلقا فى مسايرة هؤلاء النساء .. وهم الشبان الذين التمس لهم الف عذر المؤرخ الكبير إبن إياس الذى رفض أن يلومهم مادامت النساء خرجت عاريات يسكرن ويقحبن ويشلعن شهواتهن التى حبسها قليلا قاضى العسكر .

(١) محمد جلال كشك – ودخلت الخيل الأزهر – دار المعارف – ١٩٧٨

(٢) عبد الحميد الكاتب – قراءات ودراسات عن مصر والمصريين – كتاب اليوم – ١٩٨١

وبعد رحيل هذا القاضي .. لم يذكر لنا أي مؤرخ عن محاولة واحدة قام بها أي أحد لحبس تلك الشهوات أو حتى محاولة تهذيبها .. بل إن مصر فى واقع الأمر لم تشهد أية محاولة لإصلاح أى خلل آخر سواء كان سياسيا أو إقتصاديا أو إجتماعيا أو أخلاقيا .. وإنما – وعلى حد تعبير الدكتور جمال حمدان [١] – أصيبت مصر بتصلب شرايين حضارى .. إنكفأت على وجهها فى بيات شتوى تاريخى لم يسبق له مثيل .. ودخلت مصر سور الترك العظيم وتحولت تقريبا إلى شئ أشبه بأهل الكهف .. وكما إستيقظ أهل الكهف ليجدوا أنفسهم فى عالم غريب تماما .. إستيقظت مصر من سباتها على طرقات نابليون لتجد نفسها أمام عالم آخر بدت فيه كما لو أنها قادمة من كوكب مختلف .. ويضيف الدكتور جمال حمدان .. وتحول مصنع الحضارة القديم إلى متحف للحضارة على أحسن تقدير .

ومن الكهف .. خرجت مصر – بكل تناقضاتها وتراكماتها الجنسية والأخلاقية – لتواجه غزاة الشمال .. جنود أوروبا القادمين يحملون الرصاصة فى يد .. وفى اليد الأخرى يحملون عقائدهم وأفكارهم وعاداتهم .. وإذا كانت الصفاقة قد بلغت بالبعض منا لأن يصفوا الحملة الفرنسية وعلى أنها نقطة البداية لمصر الجديدة الأكثر وعيا وفكرا وتمدينا وحضارة .. فإن الحقيقة هى أن الحملة الفرنسية لم تكن سوى نقطة النهاية لمشوار طويل شاق قطعته مصر وهى مجبرة على الحياة بفكر ومفاهيم الغرباء والآخرين .. مشوار لم تجد فيه مصر من يرد لها روحها وتاريخها وأمانها وسماحتها وحقها أن تكون نفسها .. وإنما وجدت مصر فى نهاية مشوارها نابليون بونابرت .. يؤسس لها ناديا أسماه التيفولى [٢] .. لتدخله مصر وتتعلم الرقص والغناء وتتعاطى الحياة والحب على الطريقة الأوروبية .. وهو الأمر الذى زعم البعض بأنه كان بداية تحرر المرأة المصرية .. فإذ بالواقع يؤكد أنه كان تحررا من القيود والأخلاق .. وإذ بثياب النساء تتوارى شيئا فشيئا لتفصح عن كثير لم تعتد مصر على أن تراه ولم تكن تحب أن تراه .. وإذ بمعدلات الخيانة تتزايد .. وتتضاعف أعداد البغايا والعاهرات صغيرات السن لا يمضغ الرجال فقط أجسادهن وبكارتهن .. وإنما الرجال والأمراض ومناخ توارى فيه أى دين وأى نظام أو قانون .. لتسود الفوضى من جديد .. لكنها هذه المرة كانت أشد قسوة وعنفا .. وأطول زمنا أيضا .. فبعد الفرنسيين يأتى الإنجليز .. وتأتى الحرب العالمية الأولى التى لم تدخلها مصر .. ولكنها دفعت ثمنها من قيمها وتقاليدها التى تكسرت .. ومن أمانها الضائع .. فزادت حالات الإغتصاب وهتك العرض قام بها جنود من مختلف دول العالم جاءت بهم الحرب إلى ضفاف نيل القاهرة وعلى شواطئ بحر الإسكندرية .. تماما مثلما جاءت الاف النساء [٣] .. يهوديات وأرمنيات .. مارسن الدعارة وسايرتهن مصريات تركن بيوتهن هربا من أوجاع الفقر والحاجة إلى جنود غرباء يملكون الكثير من المال يبتغون به الترفيه عن أنفسهم وإطلاق العنان لشهواتهم التى لم تحبسها نيران الحرب أو قنابلها .

وهكذا .. عاش المصريون سنوات كثيرة وطويلة من عمرهم .. أو معظم سنوات عمرهم .. يضيفون كل يوم ما يزيد من كومة تناقضاتهم الجنسية .. تناقضات لأنهم أبدا لم يستسلموا لأى

---

(١) د. جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب – ١٩٨١
(٢) كريستوفر هيرولد – بونابرت فى مصر – ترجمة فؤاد أندراوس – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦
(٣) د. لطيفة محمد سالم – مصر فى الحرب العالمية الأولى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

غريب من الشرق جاء أو من الغرب .. وإنما إحتفظوا طول الوقت بمصريتهم تحت جلدهم .. بقى الحلال بينا والحرام أيضا حتى وإن إختلط الحلال بالحرام فى كثير من أمور الحياة ونواحيها .. بل ولم تبق تناقضاتنا قاصرة على أخلاقياتنا فقط وما نؤمن بأنه حرام فنمارسه متظاهرين بأنه مما أحله الله .. بل إمتدت دائرة التناقضات لتشمل كثيرا من أفكارنا وقوانيننا وعاداتنا .. حتى أمثالنا الشعبية تحولت بدورها إلى مجموعة هائلة من التناقضات .. فنردد مثلا أن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .. ومع ذلك نؤمن بضرورة أن نصرف ما فى الجيب حتى يأتينا ما فى الغيب .. ونردد مثلا أن القفة اللى ليها ودنين يشيلوها إتنين .. لكننا فى نفس الوقت نؤكد أن القط الملك أفضل كثيرا من الجمل الشرك .. ونقول دائما أن الناس كلهم ولاد تسعة .. ثم نعود فنقتنع بأن .. الناس مقامات .. وأيضا نرى أن اللقمة الهنية تكفى مية .. ثم نعود ونرى فى نفس اللحظة أن .. اللى ليك محرم على غيرك .. وأخيرا نؤمن بأن الرزق يحب الخفية وأن المبدر رزقه أكتر .. ثم نعلن عن قناعتنا بأن .. الأرزاق على الله .

وبمثل هذة الدرجة من التناقض .. سارت بنا حياتنا التى عشناها ومصر فى داخلنا تصارع الهكسوس والإغريق والرومان والعرب والمماليك والأتراك والأوروبيين .. حتى فى ممارساتنا الجنسية .. بقيت مصر داخلنا بإلتزامها وعفتها وآدابها تقاوم كل هؤلاء .. تنتصر أحيانا وتستسلم لهم أحيانا أخرى .. لكنها لم تنتصر فى حرب يونيو .. بل إنهزمت وإنكسرت .. فنسينا جميعا مصريتنا الأولى ولم نتذكر إلا أننا المصريون الذين علمهم الهكسوس .. كيف ترتبط خسارة الحرب بخسارة العرض .. وكيف يغدو الجنس رمزا للقوة والكبرياء والشخصية .. وإضطروا بعد غزو الفرس والإسكندر الأكبر لبلادهم إلى التسامح فى الكثير من قوانينهم الجنسية والأخلاقية .. وإضطروا فى نهايات زمن الفراعنة إلى إقناع أنفسهم بأن القوة الحقيقية هى القوة فى الفراش وأن الإنتصار فى الجنس يمكن أن يصلح بديلا عن الإنتصار فى الحرب .. وتعلموا من الفاطميين كيف يمكن أن يأتى الإنحلال الجنسى والأخلاقى وتكتمل دائرته حين تفقد قصور الكبار والأغنياء ضوابطها وما يكبح جماحها .. ومن المماليك تعلموا السخرية الجنسية من كل حاكم أو قوى أو منتصر .. فكان الجنس فى النهاية هو أسلوبهم فى رفض هذة الهزيمة وفى الإحتجاج عليها .. وإذا كان فرويد قد أعلن (١) أن الجنس هو إستخدام الإنسان للجسد من أجل الحصول على السعادة .. فإن المصريين إكتشفوا للجنس بعد حرب يونيو الف وظيفة أخرى إلا السعادة أو الفرح .. فهو الذى سيأتيهم بالإنتصار فى الفراش بدلا من الهزيمة فى سيناء .. فإنتصر الرجل على زوجته والشاب على عاهرته أو صديقته .. وهو الذى سيرد إليهم إعتبارهم وكبريائهم ونواتهم بعد أن داستها أقدام اليهود .. فسادتهم قناعة أن اليهود أقوى فى ميدان الحرب لكن المصريين أقوى فى أى فراش .. وأخيرا كان للجنس وظيفة الإنتقام من السلطة والنظام وكل الأقوياء والكبار .. فإنتشرت النكات والحكايات والشائعات التى تعرى هؤلاء الكبار وتفضحهم جنسيا .. ولم يسلم أحد من ذلك .. بل إن جمال عبد الناصر نفسه .. وبعد أسبوع واحد فقط على رحيله .. وبعد دموع شكلت أحد أضخم مشاهد الوداع فى التاريخ الإنسانى .. تحول إلى ضحية للمصريين الذين ودعوه (٢) بفكاهات من النوع الحريف ساهم المصريون بدرجات متفاوتة فى تأليفها وترديدها .. فكاهات شرحت الرجل بقسوة وإمتزجت فيها المحرمات

(١) الان فروم – القدرة على الحب – بوكيت – نيويورك – ١٩٧٤

(٢) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

المصرية الثلاث .. الدين والجنس والسياسة .. ثم كان أن تحول الجنس إلى شماعة عليها قام الكثيرون والكثيرات بتعليق كل مشاكلهم أو خطاياهم .. فزاد بعد محاكمة صلاح نصر وموت جمال عبد الناصر عدد الفنانات مثلا اللواتى إدعين الهروب من مصر الستينات حتى لا يتم إستغلالهن جنسيا .. وإذا كانت بعض هذة الشكاوى صحيحة .. فإن كثيرا منها لم يكن له من الصحة والحقيقة أى نصيب .. وكان ناصر حسين (١) – الصحفى السابق بمجلة وز اليوسف والمخرج السينمائي حاليا – هو الذى تولى الرد على هذة المزاعم والإدعاءات .. فمريم فخر الدين مثلا سافرت إلى بيروت بحثا عن فرصة عمل هناك بعد كساد سوق السينما فى مصر وليس لأن جهاز المخابرات المصرى كان يطاردها جنسيا .. وآمال فريد التى أعلنت أنها لم تهرب إلا بعد أن بدأ صلاح نصر يطاردها .. فى حين أنها كانت تعمل بالفعل مع المخابرات وضمن مجموعة المعلومات التى أدارها فتحى الديب .. والتليفزيونية الشهيرة ليلى رستم التى عادت تؤكد أنها إختفت هروبا من صلاح نصر فى حين أنها لم تغادر القاهرة كإمرأة هاربة أو خائفة .. وإنما كإمرأة شهيرة وكان وداعها رسميا ومزودا بباقة ورد مرسلة من وزير الإعلام .. حتى فاتن حمامة يؤكد ناصر حسين أنها لم ترحل فى نهاية الستينات لأن صلاح نصر كان يطاردها .. وإنما سافرت بجرح عميق فى كبريائها نتيجة نجاح عمر الشريف فى السينما العالمية بعد طلاقهما .. فباعت عمارتها وحاولت بدورها الدوران فى آفق سينما الغرب والعالم .. ومثلت دورا صغيرا فى فيلم إيطالى أسبانى ولم تنجح .. فعادت مرة أخرى مع الإجتهاد فى الإبقاء على تلك الحكاية وهذا الفيلم سرا لا يقترب منه أحد .. وغير فاتن حمامة كانت هناك ممثلة أخرى ومشهورة أيضا .. إدعت أن صلاح نصر كان يطاردها ويريد إجبارها على ممارسة الجنس لصالح المخابرات المصرية .. مع أن تلك الممثلة (٢) سبق تصويرها وهى تمارس الشذوذ الجنسى مع إحدى الصحفيات أو وهى تمارس الدعارة مع بعض الضيوف العرب .. ولم تكن هناك أية حاجة لتهديدات أو مطاردات .. ولكنها سنوات ما بعد الحرب التى أصبح كل شئ فيها مباحا .. وسيطر الجنس على أفكارنا وخيالاتنا وأحلامنا وهواجسنا .. وإذا كانت هؤلاء الفنانات قد وجدن فى إدعاء الحفاظ على شرفهن مبررا لأى شئ .. فإن الرجال كلهم فى ذلك الوقت لم يعد يعنيهم شئ قدر الحديث عن إنتصاراتهم الجنسية .. يبالغون فيها .. يتخيلونها .. يستريحون لها وبها .. كان هذا هو البديل الوحيد لتبقى الحياة ممكنة .. كان هذا هو الخيار الوحيد أمامهم الذى لم يترك النظام لهم غيره حين إختار الترفيه الجنسى والتسلية العارية كروشتة علاج لأوجاع الحرب والهزيمة وقسوتها .

كان هذا هو الجنس ولكن .. على الطريقة المصرية .

---

(١) ناصر حسين – وزراء فى جيوب الفنانات – دار الشباب العربى – ١٩٩٣

(٢) حسنين كروم – صلاح نصر .. الأسطورة والمأساة – دار مأمون للطباعة – ١٩٧٦

(٣)

المذنبـــــون

أعبر أسواق اللحم فأبكى
يابلدى
ياسوق اللحم
لكل الدول الكبرى
لكنك يابلدى
بالرغم من الدول الكبرى
.. بلدى

مظفر النواب
قصيدة : وتريات ليلية

مرة أخرى

كان على مصر أن تتناسى همومها .. وتتجاهل أوجاعها وإنفجارها الجنسى المكتوم منذ يونيو عام ١٩٦٧ لتعلن الحرب على إسرائيل .

مرة أخرى

كانت هموم السياسة .. وأقدام العسكر .. هم أصحاب الصوت العالى الوحيد المسموع .. الذى بات يعطيه المصريون كل إصغائهم وإهتمامهم .. ولم يعد حديث هناك فى الشوارع أو البيوت .. إلا حديث الحرب الممكنة أو المحتملة أو المؤجلة أو المستحيلة .

لم يكن هناك من هو على يقين بأن تأجيل مشكلة لا يعنى مطلقا حلها والتخلص منها .

والإنفجار الجنسى طيلة سنوات ما بعد هزيمة يونيو .. كان مشكلة .. مشكلة تزداد مساحة قسوتها وشراستها يوما بعد يوم .. ونحن نؤجل مواجهتها كل يوم .

كنا مضطرون إلى ذلك .. ولا نستطيع إلا ذلك .. وإلا فمن هو الذى كان على إستعداد للحديث عن البنات اللواتى تعرت أجسادهن فى شوارع القاهرة ومصر كلها .. فى الوقت الذى تعطش فيه الناس لإلتماس ولو خبر أو حكاية عن الشباب الذين تعرت قلوبهم مفتوحة الجراح مرتعشة النبضات على ضفة قناة يونيو المؤلم والحزين .

.. وفى مثل هذا المناخ المضطرب

جاء أكتوبر

وقامت الحرب

وفى الأيام الأولى من عام ١٩٧٤

بعد ساعات قليلة من فك حصار السويس

تحول المصريون إلى شعب يعيش أوج إنتصاره وفخاره .. أيام من تلك التى لا تتكرر كثيرا فى حياة الشعوب .. لهذا كانت الصفحات الأولى فى الصحف القومية الثلاث تفيض بأخبار وحكايات الإنتصار .. بينما إمتلأت الصفحات الداخلية من نفس الصحف بأخبار القبض على عشرات من شبكات الدعارة

ملاحظة .. أعتقد أنها لم تستوقف الكثيرين هنا وهناك .

ملاحظة .. أعتقد أنها تدعو لكثير من الدهشة والتساؤل وضرورة التوقف وإطالة التأمل .

فى نفس أيام الإنتصار والمجد العسكرى والقومى .. كانت الدعارة المصرية تعيش واحدة من أزهى عصورها وعهودها .. إزدهار ليس له مبرر أو سبب أو منطق .. وبهذا المنطق .. يصبح ضروريا أن نتوقف لنفتش عن السبب والمبرر لذلك .

يصبح ضروريا أيضا أن نسأل

لماذا زاد عدد شبكات الدعارة فى الأيام الأولى من عام ١٩٧٤ ؟!.

لماذا زاد عدد الرجال الباحثين عن المتعة وجسد أى إمرأة فيه يطفئون فيه شهواتهم وخوفهم وغضبهم ومرارة أيامهم ؟!.

لماذا زاد عدد النساء اللواتى أصبحن على إستعداد للمتاجرة ببكاراتهن وأجسادهن مهما كان الثمن أو المقابل ؟!.

فإذا كان الخامس من يونيو هو يوم هزيمتنا وإنكسارنا .. فإن السادس من أكتوبر كان اليوم

الذى فيه صالحنا أنفسنا وضمائرنا وكل أزماتنا وجراحنا .

هنا .. يصبح السؤال .. لماذا لم يعالج أكتوبر ما أدى إليه يونيو ؟!.

سؤال .. لم يجب عليه أحد منا حتى الآن .. ولا أنا أملك أية إجابة واضحة أو محددة .. ولا أعرف إلا أنه بعد أيام قليلة من إنتهاء حرب أكتوبر .. وبعد أن ذابت نشوة الإنتصار وسط تفاصيل الحياة اليومية التى عادت إلى سيرتها الأولى .. عاد المصريين يقتسمون معا التركة الثقيلة والموجعة التى خلفتها لهم سنوات الحرب الطويلة - منذ هزيمة يونيو - بكل ما فيها من مرارة وجراح والم .

كان عليهم أيضا أن يعيشواحاضرهم ويفتشون عن مستقبلهم بنصف عقل ونصف قلب ونصف حلم .

حتى نصف هذا الحلم .. بدا أقرب مايكون إلى الوهم .. أو السراب .

كل شئ بدا مجهولا .. غامضا .

كل خطوة كانت حائرة .. تائهة .

ولم يكن أحد هناك بقادر على أن يقرأ الطالع أو يتنبأ بالمستقبل وخباياه ليتحسس خطوته .. ومع ذلك .. كان من الممكن للحياة أن تستمر .. وكان من الممكن أن يطول الصبر حتى تتضح الرؤية والمستقبل ومعالم الطريق وكل الخطوات القادمة .

.. لكن

تحول الممكن إلى المستحيل .. وإنعدمت الرؤية تماما .. ولم يعد بوسع أحد أن يرى أية معالم لأى طريق .

فالمصريون .. كانوا .. فقط فى حاجة إلى الوقت .. مزيد من الوقت .

لكن السادات لم يكن عنده القدرة .. ولا الرغبة .. فى الإنتظار أكثر من ثلاثة أشهر فقط بعد إنتهاء حرب أكتوبر ليرى أنه قد حان الوقت ليوقع بإسمه القانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ .

القانون الذى سيتخذ بعد ذلك لقبا شهيرا ومزعجا هو قانون الإنفتاح .

وكان مثل هذا القانون .. ونتائجه .. وتداعياته .. هو آخر ما يمكن أن يتحمله المصريون فى مثل ذلك الوقت وفى مثل تلك الظروف .. فقد كانوا فى حاجة للتوقف ليلتقطوا أنفاسهم .. ومداواة جراحهم الكثيرة والعميقة .. وتزيين صور شهدائهم بإطار من الصبر والدموع .. والفرحة بإنتصارهم والإستمتاع به ولو قليلا من الوقت .. لكن سرق منهم أنور السادات هذا الوقت وكل ما توارثوه من الصبر .. سرق منهم إنتصار أكتوبر أيضا رغم أنه كان شريك فى هذا الإنتصار مع كل شهيد وجريح فى مصر .. وبقدر ما ستبقى حرب أكتوبر أعظم إنتصارات أنور السادات .. بقدر ما سيبقى إستثمار ذلك الإنتصار أحد أهم وأقسى أخطاء أنور السادات الذى لم يجد فى ذلك الوقت مستشارا له يقدم له صورة مصر الحقيقية .. الصورة التى عبر عنها صلاح عيسى بشكل مختصر حين كتب لنا [1] عن حكاية محرر طويل اللسان كتب مقالا لم يقدمه للنشر قال فيه أن الأحزاب الوحيدة المسموح بها فى مصر هى شبكات الدعارة وشبكات التجسس وشبكات كرة القدم .

صورة كاريكاتورية لا تبتعد عن الحقيقة أو الواقع كثيرا .

---

(١) صلاح عيسى - مثقفون وعسكر - مدبولى - ١٩٨٦

صورة قد تختلف حول تفاصيلها كثيرا أو قليلا .. لكن من المؤكد أنها دليل أكيد على أن مصر لم تكن على إستعداد مطلقا لتتحمل أى تغيير مفاجئ فى نسيجها وطبقاتها وتوازنها وتركيبها .

والواقع أن الإنفتاح لم يكن مجرد دعوة لتغيير قوانين التجارة والإقتصاد والإستيراد فقط .. إنما كانت مصر على موعد مع سلسلة طويلة .. حادة وعنيفة .. من التغييرات .. ستستمر وتبقى وتتزايد حتى تتغير خريطة مصر كلها نهائيا .. وربما كان الصحفى الكبير محمود عوض هو أقرب الجميع إلى الواقع وإلى الحقيقة حين وصف الإنفتاح [١] بأنه .. عملية قيصرية أجريت للمجتمع المصرى .. أو كما وصفه الناقد الأدبى والإجتماعى القدير أحمد عباس صالح [٢] بأنه كان بداية التغيير الشامل فى التركيبة الطبقية للمجتمع المصرى .

كانت عملية قيصرية بالفعل .. إضطرت مصر لإجرائها دون أن تجد من يمنحها ولو حبة دواء واحدة لتسكين الام الجراحة .. وكان زلزالا إجتماعيا بدا فى أول الأمر تغييرا إقتصاديا .. سرعان ما أصبح إنقلابا على كل من لا ينتمى لطبقة الأثرياء الجدد.. التى صنعها الإنفتاح وأموال الإنفتاح .. الفقراء إزدادوا فقرا .. وتم إختصار أحلام أبناء معظم الطبقات الوسطى ليبقى حلم واحد فقط هو البقاء على قيد الحياة بما يحفظ الكرامة ويصون العرض .

وفى المسح الإجتماعى الشامل للمجتمع المصرى الذى أعده المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية عام ١٩٨٥ .. سوف نجد عبارة تقول .. سياسة الإنفتاح الإقتصادى ليست مجرد نظام إقتصادى فقط .. بل كانت تحولا شاملا فى بنية المجتمع .. و القيم الإجتماعية المسيطرة .. وطابع الشخصية المصرية .

وقد حاول كثير من علماء وأساتذة علم الإجتماع - كالعادة بعد فوات الوقت وضياع فرصة المواجهة - أن يرصدوا مظاهر هذا التحول الشامل .. فقدم العالم الكبير الراحل الدكتور سيد عويس بحثا عن أثر سياسة الإنفتاح على القيم الإجتماعية للمجتمع المصرى قال فيه [٣] أن الإنفتاح الإقتصادى أدى إلى ظهور القيم السلبية مثل النفاق والتملق والحرص على الثروة وعدم الإنتماء وغلبتها على القيم الإيجابية فى المجتمع المصرى مثل الأمانة والإخلاص والإعتزاز بالنفس والقناعة والصبر .. كما إنتشرت قيم الإستهلاك وأصبح الإنسان مجرد سلعة .

فى الواقع كان نظام القيم فى مصر يهتز عند الأساس .. هذا ما يؤكده نبيل عبد الفتاح[٤] .. وهو يرى أن ذلك الإهتزاز كان النتيجة الطبيعية لما بدأت مصر تشهده فى تلك الأيام من تحولات سريعة .. ومؤشرات لعدم إستقرار سياسى وإقتصادى وإجتماعى .

ولم يعد الأمر قاصرا على مجرد إهتزاز للقيم .. ولكن - وعلى حد تعبير الدكتورة لطيفة الزيات [٥]- لم يعد لدينا فى مصر نظام واحد للقيم .. وإنما أصبح لدينا مئات الأنظمة تتراوح بين الزائف والأصيل .. ولم يعد المواطن المصرى المطحون المعزول يعرف الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام .. وبين الشرف والعار أو الصواب والخطأ .. ليس هذا فقط .. وإنما تضيف الأستاذة الجامعية الدكتورة سامية محمد جابر [٦] .. أن الخطر الحقيقى كان أن الفساد لم يعد

(١) مجلة الأهرام الإقتصادى - ١٩٨٨/٥/٢٣
(٢) مجلة الأهرام الإقتصادى - ١٩٨٩/٧/٣١
(٣) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٤/٧/١٢
(٤) نبيل عبد الفتاح - خطاب الزمن الرمادى - يافا للدراسات والنشر - ١٩٩٠
(٥) مجلة اليسار - عدد ١٩٩٠/٤
(٦) د. سامية محمد جابر - الإنحراف والمجتمع - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٨

مثيرا للدهشة أو الإشمئزاز أو الإستهجان .. بل صار الناس ينظرون إليه وعلى أنه أمر معتاد ومألوف .

وحين جاء هيكل يعيد تقييم سنوات أنور السادات ويحكيها لنا من جديد (١) .. أصبح الإنفتاح هو أحد أهم فصول الحكاية وأكثرها إثارة .. وهو الفصل الذى أختار له الكاتب والمفكر الكبير عنوانا هو " الأغنياء أكثر غنى والفقراء أكثر فقرا ".. وفى ذلك الفصل يقول هيكل : أصبحت مصر مفتوحة أمام المغامرين من رجال الأعمال على إختلاف جنسياتهم وهوياتهم وأطماعهم كما لم تكن مفتوحة قط من أيام إسماعيل .. كان الكل يحاول أن يبيع كل شئ .. ولم يكن هناك من يطلب منه تصريحا .. أو يوجه إليه سؤالا .. ويضيف هيكل .. كتب أحد المراقبين يقول أنه رأى فى سوبر ماركت واحد فى القاهرة .. ثمانية وخمسين نوعا مختلفا من الشامبو .. وفى الحقيقة فإن مصر كلها كان يجرى تحويلها من منطق الإقتصاد المخطط للتنمية .. إلى منطق السوبر ماركت .

فى الواقع .. كانت مصر كلها – كما قال هيكل – قد تحولت إلى سوبر ماركت يباع فيه كل شئ حتى الذى لم يكن قابلا للبيع قبل ذلك .. وحين يتحول أى بلد إلى سوبر ماركت .. يصبح المال هو القيمة الوحيدة الحقيقية فيه التى يمكن أن يتعامل بها أو يثق فيها الناس .

وتعلق على ذلك الدكتورة سهير القلماوى وتقول (٢) تعاظمت قيمة المال فى المجتمع بصرف النظر عن مصدره أو الطريقة التى تم جمعه بها .. وأصبح المال غاية فى حد ذاته .. وأصبحت كل الطرق مستساغة فى جمع المال حتى وإن كانت محرمة أخلاقيا ودينيا .. أو تلوث شرف من يلجأ إليها .

وفجأة .. تحول المال إلى دافع للخروج على كل وأى قانون بشكل لم تعرفه مصر من قبل .. فرأينا العامل الذى يقتل شقيقته الحامل لأنها ماطلت فى سداد مائة وعشرين جنيها إقترضتهم منه .. ورأينا الموظف الذى يشعل النار فى منزل والده لأنه رفض مساعدته لإتمام زواجه .. والرجل الذى ذهب إلى قسم الشرطة يتهم أمه العجوز بسرقة تحويشة العمر فإذا بالشرطة تكتشف أن إبنة الرجل هى التى سرقته .. والفتاة الجامعية التى أعطاها والدها المشلول توكيلا لإدارة أعماله فإذا بها تستولى على نصف مليون جنيها وتهرب بهم مع صديقها إلى الولايات المتحدة .

وتعلق الدكتورة ناهد رمزى الخبيرة فى علم النفس بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية (٣) على ذلك وتقول أنه حين يصبح المال هو القيمة العليا فى المجتمع .. فمن الطبيعى أن تشيع روح الأنانية والفردية فى السلوك اليومى فى مختلف المجالات .. وأن يتعرض الإنتماء الوطنى والقومى للخطر .. فيفقد الناس الثقة فى كل ماهو وطنى .. ويصبح الجرى وراء كل ما هو أجنبى هدفا .. فالدولار أقيم من العملة الوطنية .. والمدارس الأجنبية أرقى من التعليم المحلى .. والإلتحاق بالجامعة الأمريكية يفتح أبواب العمل والثراء أسرع من الإلتحاق بالجامعات المصرية .. ومعرفة اللغات الأجنبية مجال للتفاخر والجهل باللغة العربية ليس عيبا .

---

(١) محمد حسنين هيكل – خريف الغضب – شركة المطبوعات للتوزيع والنشر–١٩٨٥
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٨/٥/٢
(٣) مجلة اليسار – عدد ١٩٩٠/٤

ومن المؤكد أن الدكتورة ناهد رمزى لم تبالغ فى وصف ما حدث .. لكننى أختلف معها فقط فى أن السعى وراء المال كان هو التفسير الوحيد لكل هذا الذى حدث .. وإنما كانت هناك أيضا تلك العلاقة الحميمة .. والساخنة جدا .. التى بدأت تربط بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية .. ولم يكن من الطبيعى أن تبقى تلك العلاقة حبيسة أروقة السياسة فقط .. وإنما كان لابد وأن تخرج وتستوطن الشوارع والبيوت .. ولست أعرف كيف تخيل القائمون على شئون الحكم وقتها أنه من الممكن إستيراد حياة بأكملها من الغرب بدلا من صنعها هنا على ضفاف النيل .. وكل ما أعرفه هو أن الوجدان المصرى جرى تفريغه – بقدم وساق – من محتواه ومن تراثه ليغرس فيه البعض كل ماهو قادم من الغرب أو من الولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص .. وهو ما كان لا طاقة لنا به أو على إحتماله فضلا عن مقاومته .. فقد أدى إستيراد الحياة على الطريقة الأمريكية إلى مزيد من التداعى فى القيم (١) .. حيث أننا فى الوقت الذى لهثنا فيه خلف الأفلام والمسلسلات والأغانى الأمريكية .. كنا لا ندرى أننا نلهث – بنفس الحماس والإصرار – على قيم غرستها تلك الأفلام والمسلسلات والأغانى فى لحم المجتمع المصرى .. قيم زادت من تكالبنا على المال وإصرارنا على إمتلاكه مهما كان الثمن أو المقابل .. وفتحت عيوننا على أشياء لم نكن نعرفها أو نراها أو نشتهيها من قبل .

وقام الكاتب والمفكر الكبير هيكل بتلخيص القضية فى كتاب خريف الغضب حين قال أن تعبيرا شاع إستعماله كثيرا فى ذلك الوقت وهو أن السوق المصرية تعرض ثلاثة أنواع من السلع هم سلع إنتاجية وسلع إستهلاكية وسلع إستفزازية !.. أو كما قال محمود عوض (٢) من أن كلمة الإنفتاح أصبحت توحى بأننا كنا نعيش فى سجن وسنخرج منه إلى الهواء الطلق .. سنخرج إلى عالم الشويبس والسفن أب والتليفزيون الملون والفيديو .

وكان هذا هو ما حدث بالفعل .. ففى لحظات قليلة .. تم إختصار الحديث عن الشهداء لإفساح المجال لخمسة وعشرين نوعا من معجون الأسنان وأربعين نوعا من الجبن .. تم إختصار الحديث عن القيم والمبادئ والتاريخ لإفساح المجال للحديث والجدل الطويل حول أحدث أنواع الشامبو والصابون وشفرات الحلاقة .. وبلغ الأمر كما قالت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (٣) أن الإنفاق الإستهلاكى المصرى عام ١٩٧٥ زاد حتى بلغ تسعة وتسعين بالمائة من إجمالى الناتج القومى .. ولم يقتصر الأمر على ذلك... وإنما أصبح الإستهلاك عنوانا على الأبهة (٤) .. وتحول الناس إلى بضاعة تجرى وراء بضاعة .. وباتت كل شرائح المجتمع – بما فيها المثقفون – تقيم الإنسان تقييما سلعيا .. وتختصره فى شكل خاتم أو ساعة .. والأدهى والأمر – بتعبير أحمد أنور – أن الفقراء تحت تأثير الدعاية والإعلان شاركوا فى ذلك الطوفان .. وأصبحنا نجد كثيرا من الفقراء تنقصهم ضرورات الحياة القصوى .. ومع ذلك لم يتقبل أحدهم فكرة أن يعيش حياته بدون جهاز تليفزيون ملون .

وبإمكاننا أن ندرك ونتخيل .. كم كان هذا الواقع قاسيا وموجعا .. إذا أدركنا أنه منذ عام ١٩٧٤ وحتى آخر السبعينات .. كانت مصر بلدا يجرى تقسيمها بهمة لا تعرف التروى أو الكسل

---

(١) النظام الحاكم والمعارضة فى مصر فى عهد السادات – الهيئة العامة للإستعلامات – كتب مترجمة – رقم ٧٧٠ – ١٩٨٢
(٢) مجلة الأهرام الإقتصادى – ١٩٨٨/٥/٢٣
(٣) د. نعمات أحمد فؤاد – أزمة الشباب وهموم مصرية – كتاب الحرية – ١٩٨٧
(٤) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

إلى بلدين .. واحد للأغنياء وآخر للفقراء .. وهذا ما تؤكده دراسة أعدها معهد التخطيط القومى[1] أشارت إلى أنه فى تلك السنوات .. كانت هناك خمسمائة أسرة مصرية يزيد دخلها عن العشرة ملايين جنيها فى السنة .. مقابل نصف مليون أسرة لم يتجاوز دخلها السنوى ثلاثمائة وعشرين جنيها فقط .. وهذا ما أكدته أيضا دراسة أخرى للبنك الدولى أشارت إلى أن هناك خمسة ملايين أسرة مصرية تعيش بدخل لا يتجاوز الثلاثين دولارا فى الشهر .. مقابل إثنين ونصف بالمائة فقط من الشعب يستولون على ربع الدخل القومى .. بل وكان عشرة بالمائة فقط من السكان يأكلون نصف ما تأكله مصر كلها .

ولم تكن القضية حينئذ أن النصف الثانى كان يريد أن يأكل فقط .. وإنما كانت تحاصره فى كل مكان وفى الليل والنهار بمظاهر وإغراءات يصعب مقاومتها أو تجاهلها .

كانت هناك مسلسلات التليفزيون وإعلاناته فاقعة الألوان .

كانت هناك بورسعيد بثيابها المستوردة .

كان هناك أيضا إختراع جديد فى مصر إسمه السوبر ماركت .. محلات تناثرت فى كل مدن مصر – وفى كثير من القرى أيضا – تبيع كل ما هو جديد وجميل وناعم ومثير .

وبالفعل .. إلتوت أعناق ملايين المصريين.. وهم يلتفتون ويشتهون حياة أخرى لم تعد بعيدة عنهم .. وإنما أصبحت أمامهم وبينهم واقعا لا تفصلهم عنه خطوات كثيرة أو طويلة .. بل وكان بإمكانهم أن يمدوا أصابعهم يتحسسون معالمه وملامحه .. وهكذا .. إزدادت المطامع والمطامع .. من التليفزيون الملون والثلاجة الكبيرة والفيديو .. إلى البنطلون الجينز .. البلوزة أو الفستان المستورد .. علبة السجائر الأمريكية .. علبة الأناناس الشهية .. علبة الماكياج الأجنبية وأحمر الشفاة فاقع الألوان .

ولعله من المناسب هنا أن نتوقف قليلا لنصغى إلى شهادة واحد من الغرباء .. جاء فى آخر السبعينات إلينا بعين فاحصة وعقل يفتش ويستقصى ويتأمل ويراجع .. هو الصحفى الإسرائيلى عاموس إيلون الذى عاد إلى بلاده وكتب مشاهداته كلها فى كتاب [2] قال فيه : على الجانب الآخر من نهر النيل .. وخلف واجهة الفنادق البراقة .. تختفى المدينة تحت طبقة من الغبار وعادم السيارات .. وكأن موسى الجديد أو هارون .. قد أخذ حفنة من رماد الفرعون ونثرها صوب السماء .. فأصبحت غبارا دقيقا تناثر فى كل أنحاء مصر يصيب الإنسان والحيوان بالبثور والدمامل .. ولم تكن المنازل أو أسطحها هى التى أراها خلف الهباب من على بعد تلك المسافة الصغيرة .. وإنما كنت أرى الخطوط المعتمة لكوكب آخر لشدة ما يختلف عما يحيط بالفندق الذى أقيم فيه من نضارة .. وعندما يجازف المرء ويقترب ليشاهد هذا المنظر بالتفصيل .. يشعر بمشاعر مختلفة من البلبلة والذهول والسخط واليأس .

ولم يعد مفاجئا أن يستوقف ما يحدث أديبا كبيرا مثل نجيب محفوظ فيصف كل ذلك بأنه[3] حالة من الإنتحار بالجملة !.

بإختصار .. كانت مصر .. وكان المصريون .. عند مفترق طرق كثيرة ومتشعبة .. وإذا كانت

---

(١) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

(٢) عاموس إيلون – رحلة إلى مصر – الهيئة العامة للإستعلامات – كتب مترجمة – رقم ٧٦٧

(٣) مجلة روز اليوسف – عدده/١٩٨٨

الغالبية قد إختارت الوقوف على ناصية الطريق تترقب ما سيحدث فى خوف وحذر وتوتر .. فإن البعض إختار الهروب من ذلك كله والإعتصام بالدين والإحتماء بعباءة الإسلام بدلا من الثياب المستوردة والأنيقة .. وإطلاق الذقن الطويلة كما لو كانت وسيلة وحيدة وممكنة لإعلان الرفض والغضب والإحتجاج .. وفى المقابل إختار البعض الآخر أن يستكمل الطريق حتى آخره ومهما كان الثمن أو المقابل .

وكما يقول عادل حمودة (١) .. جاء الإنفتاح بمظاهر إستهلاكية تسبب الدوار للفقراء ولم يكن أمامهم مفر .. إما الإنحراف أو التدين .. وبسبب الإنفتاح زادت حدة التناقض الإجتماعى والطبقى بين الطلبة الأغنياء الذين يأتون إلى كلياتهم بسيارات خاصة وثياب مستوردة دون مراجعة أثمانها والطلبة الفقراء الذين حفيت أقدامهم كى يقترضوا من بنك الطلبة ما يسددون به من مصاريف الدراسة وربع ثمن المذكرات .

وبالطبع .. لم يحدث مثل هذا التناقض فقط وراء أسوار الجامعة .. وإنما تواجد بآثاره المتوحشة والدامية وراء جدران كل البيوت .. وعلى أرصفة كل الشوارع .. ولم يتنبه منا أحد أو يكترث سواء بمن إختار الدين أو من إختار الدنيا .. ولم نفق إلا على صوت الرصاص ولون الدم لنعود ونراجع حساباتنا وننشغل بعدها طويلا بمن إختار الدين عاصما .. ثم التطرف حلا .. دون أن تشمل حسابتنا - أيضا هذة المرة - من إختار ومن إختارت .. الطريق الآخر .. وكان الإثنان على إستعداد لدفع الثمن .. مع أنه كان من السهل جدا أن نرى أولئك الذين إختاروا الطريق الآخر .. فقد كانوا هناك أمامنا طول الوقت .. فى الشوارع ...والمدارس والجامعات .. وبهو فنادق النجوم الخمسة .. وصالات الرقص .. والشقق المفروشة الغالية والمتواضعة .

كان من السهل أيضا أن نتوقع إنفجارا جنسيا فى مصر بدأت بوادره ومقدماته تتكوم وتتراكم تحت الجلد تتوثب وتتخفى إنتظارا لفرصة الخروج من الأعماق الغاضبة والتائهة والكسيرة إلى حيث الواقع المؤلم والجارح والمستباح .. وكان لابد وأن تأتى هذة الفرصة يوما ما فى مصر التى .. بعملية قيصرية كما قال محمود عوض .. قد تحولت إلى سوبر ماركت كما أكد هيكل .. أصبح فيه المال هو القيمة الوحيدة الباقية وباتت كل وسيلة للحصول عليه مشروعة حتى وإن كانت على حساب الدين أو الشرف أو الأخلاق كما أشارت الدكتورة سهير القلماوى .. فلم يعد هناك أمام فقراء مصر إلا الإختيار بين التدين أو الإنحراف كما توقع ذلك عادل حمودة .. ولم يعد الأمر يتطلب منا الكثير من الجهد لنتوقع ونستنتج أن من يقتل .. ومن تسرق .. ومن يتهم الأم فى محضر شرطة .. ومن تستغل شلل أبيها لصالح صديقها .. لن يمنعهم الدين أو القانون أو الأخلاق من ممارسة كل ماهو عيب أو حرام أو خطيئة .

ومع ذلك .. فاض واقع مصر طوال سنوات السبعينات بأحداث ودلالات .. كانت قادرة وحدها على أن تعفينا شر التفكير والتوقع والإستدلال .. أحداث ودلالات باتت وحدها دليلا لا يقبل الشك أو الجدل على أن ذلك الإنفجار الجنسى أوشك قريبا منا .. وأن مارد الجنس فى أعماقنا وبلادنا قد بدأ أخيرا يتململ من رقاده الطويل ويتأهب لأن يكسر القمقم المحبوس داخله .. وأخيرا كانت هذة الأحداث والدلالات مؤشرا على أن مثل هذا الإنفجار بات يهدد الجميع فى مصر دون تفرقة بين طبقة وأخرى .. أو بين منطقة وأخرى .. فالإنفتاح لم يكن دعوة للجنس خاصة بالفقراء الذين

(١) عادل حمودة - الهجرة إلى العنف - سينا للنشر - ١٩٨٧

أعياهم الفقر والحرمان والشقاء .. ولا كان دعوة للأغنياء وحدهم ليفتحوا أبوابهم للجنس فيصبح محط أنظارهم ونزواتهم ولياليهم .. وإذا كانت ثورة يوليو قد بدأت تجربة الجنس من أعلى .. فإن الإنفتاح قد أكمل الحكاية بتجربة الجنس من أسفل .. وجاءت اللحظة التى أوشك فيها الكل على الإلتفاف حول مائدة الجنس الشهية المحرمة .. الأغنياء والفقراء .. الأقوياء والضعفاء .. الحكام والمحكومين .

ولم يعد هناك فارق بين تلك المرأة الأنيقة الراقية والغنية جدا وبين نبوية العجوز التى ذاعت حكايتها فى روض الفرج .. الأولى كانت فتاة تنتمى لإحدى العائلات الكبيرة (١) .. تزوجت طيارا وأنجبت منه إبنتين قبل طلاقهما .. وتفرغت هى لتربية البنتين حتى جرت بها السنوات فبلغت الخمسين من عمرها .. وبعد زواج إبنتيها فى منتصف السبعينات .. أحست بالوحدة والملل .. فأعلنت الحرب عليهما بالجنس .. خلعت ثيابها وأسلمت جسدها لكل من يملك المال .. لم تكن فى حاجة إلى هذا المال .. لكنها لم تجد ما يمنعها من أن تضاعف ثرواتها .. وحين وجدت أمامها وحولها سوقا للدعارة تعيش أوج نشاطها وإزدهارها .. لم يعد جسدها وحده يكفى لإشباع رغبات الرجال حولها من الذين يملكون المال .. فإستعانت بمجوعة من سيدات العائلات الراقية اللواتى كانت تعرفهن .. ووجدت بينهن من تقبل ومن تتعرى مقابل المزيد من المال .. وحين ألقى بوليس الآداب القبض عليها عام ١٩٧٩ وقدمها للمحكمة التى قضت بحبسها لمدة عام .. لم ترتدع ولم تستر جسدها .. وإنما أصبحت بعد خروجها إمبراطورة للجنس تحترف تسهيل دعارة الطبقات الراقية .. وحتى بعد أن تعددت قضاياها ودخولها السجن أربعة مرات .. لم تتوقف عن نشاطها الذى وصفته بأنه أصبح هوايتها الوحيدة .. هواية تأجير أجساد حريم الطبقات الراقية فى البيوت الأنيقة على ضفاف النيل .

أما نبوية .. فكانت على العكس تماما .. لا هى إمرأة غنية أو راقية .. ولا هى تعرف فتاة أو إمرأة تنتمى لتلك الطبقات الناعمة والمرفهة .. وإنما كانت عجوزا تسكن حى روض الفرج (٢) .. تصغى لشكاوى وهموم جاراتها من الفقراء .. وكانت من الذكاء بحيث تجيد التفريق بين شكوى وشكوى .. وبين زوجة وزوجة .. فتختار منهن من ترسلها للرجال الغرباء تشبع نزواتهم ورغباتهم مقابل القليل من المال .. ولولا أن ظروف المجتمع فى ذلك الوقت كانت تجبر كل يوم عددا أكبر من هؤلاء الزوجات اللواتى يجئن إلى نبوية يحلمن بتذوق بهجة تلك الدنيا الجديدة .. لكان من الممكن أن تستمر نبوية فترة أطول تدير دعارة الفقراء دون أن يكتشفها أو يوقع بها أحد .

ولم تكن الحكاية قاصرة بالطبع على الإمبراطورة الغنية أو نبوية الفقيرة .. وإنما تحول زمن الإنفتاح (٣) إلى مناخ خصب لإنتشار الدعارة .. وبعد أن كان عدد قضايا الدعارة فى مصر قد بلغ مائة وأربعة وسبعين قضية عام ١٩٧١ .. إرتفع هذا العدد إلى سبعمائة قضية عام ١٩٧٥ .. ثم الف وستة وثلاثين قضية عام ١٩٧٨ .. ومع ذلك .. بقيت تلك الأرقام على الرغم من قسوتها وبشاعتها .. لا تعكس الحقيقة كلها .. حقيقة إزدهار سوق اللحم العارى ورواج تجارته إلى الحد الذى دفع بمحمود مراد الصحفى بجريدة الأهرام لأن يطالب وزير الداخلية (١) بمنع تأجير الشقق

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٢/٢٤

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٨/١١

(٣) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

المفروشة فى مصر منعا باتا .. ويفسر محمود مراد هذا الطلب بأن المنع بات هو الحل الوحيد بعد أصبحت عملية ضبط بيت للدعارة عملية سهلة وعادية .. وبعد أن كادت أى عمارة فى القاهرة لا تخلو من مثل هذة البيوت المشبوهة .

هذا هو ما قاله محمود مراد .. وما نشرته جريدة الأهرام .. الجريدة الرصينة الجادة الوقور .

وهذا هو واقع مصر فى السبعينات .. واقع حزين ومؤلم وعارى تعين على مصر أن تواجهه .. تقاومه أو تستسلم له .. ومن الواضح أن كثيرات لم يمتلكن أية قدرة على المقاومة .. نساء من بيوت غنية ومن بيوت فقيرة أيضا .. زوجات ومطلقات وأرامل وطالبات فى الجامعة وحتى طالبات المدارس الثانوية والبنات المراهقات وصغيرات السن .. فنحن نقرأ فى جريدة الأهرام (٢) ما يشير إلى أن عدد طالبات الثانوى المتهمات فى جرائم الآداب تزداد يوما بعد يوم .. وفى مجلة روز اليوسف .. كتبت مديحة (٣) فى مقالها الأسبوعى بعنوان مع تحياتى إلى زوجك العزيز تقول أنها تكتب بكل أسف .. وفى شدة الخجل .. عن إنحراف البنات الصغيرات .. وعن البيوت السرية التى تضبط بها البنات والتلميذات .. وعن الأم التى تدفع بناتها للدعارة .. والأخت التى تسحب أختها .. والطباخة التى تقوم بتسريح البنات .. وكيف تحولت القاهرة عند بعض الأشقاء العرب إلى مكان للهو والمتعة .. وكيف لم يعد الأمر قاصرا على أماكن اللهو والصالات .. وإنما إمتد إلى العمارات والبيوت .. وإلى بنات الأسر .. سواء كانت هذة الأسر مفككة كما يحتج المسئولون والفلاسفة .. أو بنات أسر مستقرة .. وأضافت مديحة أنه فى مصر قبل الثورة كانت هناك طبقات .. أثرياء وفقراء .. لكن لم تكن الدعارة والإنحراف بهذة الصورة وهذا الشكل البشع .. فهل كانت بنات زمان "مالهاش " نفس وهى ترى الأميرات وبنات فرغلى باشا يلبسن أفخر الثياب والمجوهرات .. إن تطلع البنات موجود فى كل زمان ومكان .. والطلاق موجود فى كل زمن .. والتفكك العائلى .. والخلافات العائلية .

وإختتمت مديحة مقالها بإقتراح غريب ومثير .. كانت تطالب بعودة الدعارة الرسمية !.. كانت تطالب بتخصيص مكان أمين للمحترفات ليمارسن الدعارة برخصة من الحكومة حتى نحمى باقى البنات .. وحمدت مديحة الله على أنه لم يهبها بنتا !.

وبصرف النظر عن إقتراح مديحة .. إلا أنه من المؤكد أنها كانت من القليلين الذين إستوقفهم كل هذا الإنحراف .. ولم يستريحوا تماما لإلقاء التهمة كلها على عاتق الفقر وحده .. فمصر عرفت الفقر قبل ذلك كثيرا وطويلا .. ومن أمثال المصريين الشعبية الشهيرة مثل يؤكد أن الفقر حشمة !.. ولأستاذ علم النفس الدكتور يسرى عبد المحسن رأى يقول فيه (٤) أنه ليس بالضرورة أن يكون المال أو المكسب المادى هو الهدف من ممارسة الأعمال اللا أخلاقية .. لكن المشكلة تتعلق بالدوافع والنزعات الداخلية التى تدفع الإنسان نحو هذا السلوك .. وغالبا ما تكون هناك أمراض نفسية كامنة فى هؤلاء الأفراد تظهر على شكل سهولة الإنقياد والتقليد .. أو تكون هناك دوافع أخرى للإنحراف مثل حالات الإكتئاب النفسى الشديد أو القلق لدرجة الإحساس بالتفريغ عن النفس لتخفيف حدة هذة المشاعر حتى وإن كانت الوسيلة هى السلوك المنحرف .

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٩/٢٠

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٦/٢/١٣

(٣) مجلة روز اليوسف - ١٩٧٦/٦/٢٣

(٤) مجلة صباح الخير - ١٩٨٩/٨/٢٤

وفى دراسة أخرى .. قالت الدكتورة سامية الساعاتى [١] أنه من غير الصحيح القول بأن الأخلاقيات الجنسية فى أغلبها تترتب على الظروف الإقتصادية السائدة .. والسبب الجوهرى للبغاء مثلا ليس سببا إقتصاديا كما قد يظن الكثيرون .. لكنه سبب أخلاقى وإجتماعى وفردى .

صحيح أنه كانت هناك قطط جميلة .. وصاحبة هذا التعبير هى آمال فكار الصحفية بمجلة روز اليوسف .. وأطلقته [٢] على النساء اللواتى إختصرن الطريق إلى الثراء الفاحش ببيع أجسادهن وعرضهن لمن يستطيع أن يدفع الثمن .. وصحيح أيضا أنه كلما زاد عدد القطط السمان .. أى الرجال الذين تضخمت ثرواتهم بالتجارة غير المشروعة والنصب والإحتيال .. كلما زاد عدد هذة القطط الجميلة .. إلا أن هذة القطط مهما زاد عددها لم تكن هى المشكلة .. والحكاية لم تعد حكاية فقر وإحتياج .. ولا كانت الأزمة .. أو الأزمات الإقتصادية القاسية التى توالت وتعاقبت دون شفقة أو رحمة .. هى التفسير الوحيد لكل ما بدأت تشهده مصر من إنحرافات .. وأخلاقيات تنهار وتتداعى .. وقيم وقواعد تتكسر ببطء وعنف .. وإنما هو مناخ عام لم يعد يؤمن بالمنطق .. وواقع فقد القدرة على الإلتزام بأى قانون إجتماعى أو أخلاقى .. واقع لم يطرق أبوابنا فجأة .. أو بطريق الصدفة .. وإنما كان يتشكل أمامنا وحولنا وتحت جلدنا يوما بعد يوم .. وكأننا كنا نخلع ثيابنا قطعة قطعة .. ثم خرجنا بعد ذلك نبكى ونصرخ وندعى أننا فجأة أصبحنا عرايا .

والأمانة تقتضى تأكيد أن هناك من إستوقفه ذلك .. وأن هناك من بقى قادرا على أن يلاحظ ويتأمل ويثور ويغضب وينصح ويحذر .. وعلى سبيل المثال .. وتحت عنوان .. تقرير خطير من الآداب .. كتب فايق محفوظ الصحفى بجريدة الجمهورية فى ذلك الوقت [٣] عن الإنحراف الذى زاد بحيث أصبح ظاهرة تهدد المجتمع .. وعن الدعارة التى تزداد بسبب تزايد السكان وتفكك الأسرة ونظرة الفتيات التطلعية والتى تصاحبها بغير شك إستعدادات وظروف معينة .. وعن الشقق المفروشة وتفكك المناطق الشعبية والمزدحمة .. وعن ظاهرة الشغالات اللواتى إنحرفن .. وأخيرا عن القانون العاجز ومجلس الشعب الذى تجاهل مذكرة تقدم بها مكتب الآداب يطلب فيها إعادة النظر فى قانون حماية الآداب !.

وبعد ثلاثين يوما من نشر هذا التحقيق .. كان العقيد أسامة عبد الجواد مدير قسم مكافحة الآداب [٤] يطلب من كل أب وأم أن يقنعا أولادهما بحالتهم المادية .. وأن يضعا رقابة دقيقة صارمة على أولادهما .. وأن تقوم المدارس بالإشراف الدقيق التام على التلميذات والتلاميذ فى سن المراهقة والقضاء فورا على أى عنصر يؤدى للإنحراف .

لكن .. أحدا لم يصغ .. أو يكترث .. أو يتوقف .

كانت مصر قد بدأت تجرى .. تلهث .. وبدت وكأنها فى لحظة أو لحظات .. فقدت كل ما إمتلكته وتعلمته من صبر فى سنوات عمرها الطويل .

وحين بدأ السباق المحموم والمجنون .. بدأ مسلسل السقوط !.

لم يكن السقوط هذة المرة – كما قد يعتقد أصحاب النوايا الطيبة – هو زيادة عدد شبكات

---

(١) د. سامية الساعاتى – الجريمة والمجتمع – دار النهضة العربية – ١٩٨٣

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٦/٢/٩

(٣) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٧٦/١/١٨

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/٢/٢٠

الدعارة .. فهى وإن تكن قد زادت بالفعل وإستشرت بشكل مزعج ومخيف .. إلا أن التاريخ شاهد على أن الدعارة هى أقدم مهنة فى التاريخ .. وأغلب الظن أنها ستبقى آخر مهنة فى الوجود .. ولا كان السقوط أيضا هو أن نكتشف من هى التى أصبحت على إستعداد لأن تستسلم .. وتتعرى .. وتزنى .. وتقبض الثمن .. أو من هو الذى على إستعداد لأن تكون القوادة مهنته وعماد حياته ومصدر دخله الوحيد أو الأساسى .. أو من سيكون العميل الباحث عن هذة المتعة والقادر على أن يدفع ثمنها وما إذا كان هو الشاب غير المتزوج أم الرجل الذى يفتش عن المتعة واللهو غير البرئ والتسلية الجنسية .. فقط من أجل التسلية .. وليس كمحاولة لإطفاء نيران رغبات مكبوتة ومقهورة.

وإنما .. كان السقوط هو .. أن التفكير فى الجنس أصبح أكثر إلحاحا .. وأشد عنفا .. وبات حصار الرغبة والشهوة والإثارة والألوان الفاقعة أكثر إحكاما .. وأشد قسوة .. كل ذلك فى الوقت الذى لم يجد فيه الكثيرون – فى البيت والشارع والمسجد – ما يحميهم ويساعدهم على المقاومة ويغرس تحت جلدهم القدرة على الصبر وعدم الإستسلام .

ولن يستطيع أحد منا اليوم أن يتخيل لماذا إضطر كثير من المصريين إلى التفكير فى الجنس بهذا الإلحاح وهذا العنف .. ولا كيف حاصرتهم الرغبة والشهوة والإثارة بكل تلك القسوة .. إلا إذا إستعاد بالفعل صورة مصر فى تلك السنوات التى إعقبت قرار الإنفتاح .. وهى الصورة التى حاولت رسمها الدكتورة نوال السعداوى حين قالت [١] .. من يعيش فى المجتمع المصرى فى تلك السنوات ويقرأ الصحف والمجلات .. ويرى الإعلانات ويشاهد الشاشتين الكبيرة والصغيرة .. ويمشى فى الشوارع ويدخل المسارح .. سيلاحظ كيف إنتشرت الأفلام الجنسية الصارخة بالإثارة .. وزادت مساحة العرى فوق الشاشة وفوق خشبة المسرح وعلى صفحات المجلات .. وغزت السوق بضائع روجتها إعلانات جنسية إستعانت بفتيات ونساء مغريات متأججات بأحدث الأزياء والمساحيق والعطور .

ونفس الصورة .. يقدمها لنا أيضا أحمد أنور [٢] حين يؤكد أن الإنفتاح الإقتصادى أفرز مناخا خصبا ساعد على الترويج لقيم الجنس من خلال .. أفلام هابطة المستوى إمتلأت بالسيقان والنهود العارية .. وإعلانات إعتمدت على الغمز واللمز والشفاة لتحريك الغرائز الجنسية .. وأغان إعتمدت على كلمات ذات مضمون جنسى بل وكانت طريقة أدائها تهدف أيضا إلى إثارة المشاعر الجنسية .

وفى مثل هذا المناخ .. ظهر فيلم شديد القسوة إسمه المذنبون .. بالتحديد فى عام ١٩٧٦ .. وإستمد الفيلم وقائعه عن قصة للأديب الكبير نجيب محفوظ وأخرجه سعيد مرزوق ونال عنه الفنان الكبير عماد حمدى جائزة أحسن ممثل فى مهرجان القاهرة السينمائى يوم أن كان مهرجانا ويوم كانت هناك جوائز .. وبمجرد أن عرض الفيلم حتى أثيرت حوله ضجة كبرى .. فى البداية تم السماح بعرضه .. ثم كان قرارا بالمنع .. ثم تقرر عرضه مرة أخرى بعد حذف الكثير من مشاهده .. ثم عادت الرقابة ووافقت على عرض الفيلم كاملا .. وبسبب هذا الفيلم نالت مديرة الرقابة ومساعديها أحكاما تأديبية .

وعن الفيلم .. كتب رءوف توفيق [١] يقول : أثناء عرض الفيلم صاح بجوارى أحد المتفرجين

---

(١) د. نوال السعداوى – قضية المرأة المصرية السياسية والجنسية – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٧
(٢) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

معلقا على بعض حوادث الفساد التى يصورها الفيلم .. البلد مليانة من ده !

ففى ذلك الفيلم .. نرى الجميع متورطا فى الجنس .. وبالجنس .. بشكل ما أو بآخر .. ناظر المدرسة ومدير الجمعية الإستهلاكية والطبيب ورجل الأعمال والموظف الكبير والممثل والتاجر والسياسى صاحب السلطة والنفوذ .. الكل يريد الجنس ويفتش عنه .. الكل تحرقه الرغبة وتجتاحه نيران الشهوة حين تقل المسافة بينه وبين جسد شهى لإمرأة تفيض بالإثارة .

وفى المقابل كانت هناك الفنانة الكبيرة التى تمنح جسدها لأى رجل ومن أجل أى شئ تحتاجه سواء كان شقة فاخرة أو لحظة حنان .. والطالبة الجامعية التى تخلع ملابسها من أجل فستان جديد أو مزيد من المال أو على الأقل لتبقى على قيد الحلم والحياة .

ولا أعتقد أن هناك فيلما آخر من أفلام تلك السنوات نجح فى أن يقترب من الحقيقة حتى وإن كانت مهينة .. وأن يقترب من الواقع حتى وإن كان مؤلما .. مثلما نجح فيلم المذنبون .. وإذا كان هذا الفيلم قد حاول أن يقدم لنا شهادة على ما يحدث .. فإن أفلاما كثيرة أخرى كانت هى بعض أسباب ما حدث .. أفلام لم تبخل على مشاهديها بكل ما كان ممكنا من إثارة .. وبتعرية كل ما كان مسموحا به من جسد المرأة .. أفلام بسبب الرواج المالى وقتها .. زاد عددها لكن تم إخضاعها(٢) لمتطلبات سوق الإنفتاح .. بداية من إسم الفيلم وأسماء أبطاله وحتى ماده الفيلم نفسه وما يمكن أن تتضمنه من حوار وإثارة وإيحاءات .. أفلام مثل سيقان فى الوحل .. ليل ورغبة .. ممنوع فى ليلة الدخلة .. عندما يسقط الجسد .. إمرأة بلا قيد .. وسقطت فى بحر العسل .

وكانت من نجمات تلك الأفلام .. وعلامات تلك المرحلة بحق وعن جدارة .. الممثلة الراحلة ناهد شريف .. التى خلعت ما يمكنها أن تخلعه من ملابسها فى كل فيلم وأمام كل كاميرا .. وكأنها قررت وحدها أن تحمل لواء الترفيه عن ملايين الشباب والرجال فى مصر .. وأن تتقاسم مع كل واحد منهم – عن طريق الخيال – المتعة والرغبة والفراش .

حتى أغانى تلك الأيام .. تخلت عن رومانسيتها وشاعريتها .. وتحول كثير منها إلى التسلية .. وسرعان ما تحول الأمر من تسلية الناس إلى الإنحطاط بهم ومداعبة غرائزهم .. وفتح الباب لخيالاتهم لتجنح وتطمع وتشتهى .. حتى عبد الحليم حافظ .. آخر عمالقة الغناء فى مصر إلى يومنا هذا .. لم يجد ما يغنيه وقتها إلا أغان مثل فاتت جنبنا .. أو نبتدى منين الحكاية .. وكان إبراهيم عيسى وعبدالله كمال(٣) على حق تماما حين قالا أن عبد الحليم حافظ تخلى عن التدفق وساير وهو الفنان الحساس ملل العصر وتفاهته وإعياءه .. وتراجع – وهو المسئول الأوحد عن إختيار أغانيه – عن تجسيد المعانى الجديدة الحية العصرية .. وعاش موات الآخرين !.

الواضح أن كل ماهو جميل ورقيق كان يموت .. أو فى طريقه إلى أن يموت .. مات عبد الحليم أو كان فى طريقه إلى أن يموت .. وإذا كان تاريخ الأغنية المصرية سيتوقف طويلا عند عبد الحليم حافظ بإعتباره صاحب المدرسة الغنائية الرومانسية التى صححت كثيرا من مفاهيم وقواعد العلاقة بين الرجل والمرأة .. إلا أن نفس هذا التاريخ سيتوقف أيضا عند عبد الحليم الذى نفض

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٧٦/١١

(٢) د. درية شرف الدين – السياسة والسينما فى مصر – دار الشروق – ١٩٩٢

(٣) إبراهيم عيسى وعبدالله كمال – الأغنية البديلة – بدون إسم ناشر – ١٩٨٨

يديه تماما – منذ بدايات زمن الإنفتاح – من مواجهة أية أزمة أو مشكلة .. وبدا كما لو أن كل ما يعنيه هو الأسورة التى فى يده وتحمل إسم إمرأة أحبته يوما .. وسلسلة تتدلى من صدره لتذكره بإسم إمرأة أو أميرة إبتسمت له يوما .. وعلبة موصدة راقدة تحت وسادته ترمز إلى إمرأة كانت يوما تتمنى الزواج منه .. حتى تحول الأمر فى النهاية إلى سيرة حياة عاشق ودون جوان أكثر منها حياة مطرب وفنان .. ساعده على ذلك بالطبع جيش إعلامى مفترس ومخيف أرهقنا كثيرا وطويلا وهو يبتز مشاعرنا وتعاطفنا مع العاشق المريض الرقيق المهزوم الوحيد دون أن يسمحوا لنا بفرصة للراحة إلى أن مات .. وحتى بعد أن مات عبد الحليم حافظ .. أيضا ماتت أم كلثوم بعد أن أرادوا تصويرها كأسطورة .. حتى فى لحظات موتها .. أرادوا فى فجاجة ووقاحة أن تبقى أم كلثوم أسطورة حتى النهاية .. وهى اللحظات التى يصفها لنا المهندس محمد الدسوقى[1] بكثير من الميلودرامية التى لا يعوزها الإبتزال .. ويحكى كيف طلبت أم كلثوم فى تلك اللحظات مشاهدة أفلام إنتصار مصر فى حرب أكتوبر .. وبعد المشاهدة دخلت فى غيبوبة الموت لكنها بقيت تردد كلمة مصر .. مصر .. بشكل منتظم إعتمد عليه الأطباء فى القياس الحقيقى لعدد دقات القلب !.

وبعد أن ماتت أم كلثوم .. وإستسلم عبد الحليم حافظ .. لم تعد هناك مطربة ثانية أو مطرب آخر .. أو أى أحد .. بقادر على أن يقف فى وجه الطوفان القادم .

وعادت مصر من جديد تنصت لأغان لا تختلف كثيرا عن تلك التى إضطرت لأن تنصت إليها قديما فى زمن الحربين العالميتين الأولى والثانية .. نفس التفاهة ونفس الإنحطاط .. فقط إختلفت الأسماء والمفردات وأصبح شيالا للآلات الموسيقية فى شارع محمد على إسمه أحمد عدوية هو مطرب مصر الأول الذى لم يقو على منازعته أو يطمع فى منافسته أحد اللهم إلا مطرب آخر من نتاج الصدفة إسمه كتكوت الأمير .

وكان من نتيجة ذلك .. أن بات هناك الكثيرون – من الصغار والمراهقين والشباب – من لم تعد تستهويهم معلقات أم كلثوم الغنائية الطويلة المؤرقة الخارجة على روح وإيقاع العصر والزمن .. ولا هم على إستعداد لمجاملة عبد الحليم حافظ وهو يتوسل إلى من يحبه لنصف ساعة على الأقل وهو يرجو ويصرخ .. حاول تفتكرنى .. أو يستنزف مشاعرهم وآذانهم ليلة بأكملها لأنه بعد لم يعرف ما إذا كانت تلك التى فاتت جنبه تحبه هو أم أنها وقعت فى حب صديق له .. وبالمقابل .. لم يجد هؤلاء الصغار والشباب ما يبحثون عنه فيما يقدمه أحمد عدوية أو كتكوت الأمير ومن هو مثلهما .. فكانت أغانى الغرب وموسيقاه هى الحل الوحيد المتاح والبديل الوحيد الممكن .. وعرفت مصر فى ذلك الوقت .. أغنية إنجليزية إنفجرت كالقنبلة إسمها .. بعيدا جدا .. للمطرب اليونانى ديميس روسوس .. إنبهر الناس بكل ما فيها بداية من موسيقاها وحتى صوت صاحبها وملامحه وهيئته التى كانت أقرب إلى هيئة المصارعين الرومانيين أو أفيال الغابة وليس هيئة المطرب العاطفى كما أجاد رسمها وترسيخها عبد الحليم حافظ .. ولم يكن هناك بالطبع من يحفل بكلمات الأغنية .. أو بكلمات ومعانى كل ما جاء بعدها من أغانى إنجليزية وفرنسية .. فالقضية كانت الشكل لا المضمون .. كانت الإنبهار بكل ما يقدمه الغرب دون أى تفتيش أو مراجعة لما يمكن أن يأتينا من هذا الغرب .. وكم بدا الأمر قاسيا أن تكتب مجلة روز اليوسف [1] ترصد حال أولئك

---

(١) حازم صاغية – الهوى دون أهله – دار الجديد – بيروت – ١٩٩١

الشباب وتؤكد أنهم يريدون ديميس روسوس فى القاهرة .. ولم يكن هؤلاء الشباب - على حد تعبير المجلة - يريدونه لسماع أغانيه .. فهى تعزف فى كل ملاهى القاهرة ومغانيها .. والبرنامج الموسيقى لا يتوقف عن إذاعتها .. وإنما كان هؤلاء الشاب - أيضا على حد تعبير المجلة - يريدون من ديميس روسوس أن يتفهم مشاكلهم وقضاياهم !.

وجاء بالطبع ديميس روسوس إلى القاهرة .. وكان لابد وأن يأتى .. لكن من المؤكد أنه لم يكترث بمشاكل أو قضايا أحد من شباب مصر .. تماما مثلما لم يكترث بها أو يهتم أحد منا هنا فى مصر .

ومثلما كان فيلم المذنبون نتاج واقع عارى ومناخ شديد القسوة .. كانت هناك أيضا أغنية شاعت فى تلك الأيام للثنائى الشهير .. أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام .. بمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون لمصر عام ١٩٧٤ قالا فيها :

شرفت يا نيكسون بابا
يا بتاع الووتر جيت
جواسيسك يوم تشريفك
على كيفك نصبوا الزار
تتقصع فيه المومس والقارح والمندار(٢)
والشيخ شمهورش راكب
ع الكوديا (٣) وهات يامواكب
ما هو مولد ساير داير
شى الله يا صحاب البيت

قد يبدو لنا الآن أن ما غناه نجم والشيخ إمام .. كان عاريا ومبتذلا وقاسيا .. لكن إذا رجعنا إلى وقائع وتفاصيل وجرائم وحكايات تلك الأيام .. سنكتشف ونعرف .. كم كانت الحقيقة أكثر عريا .. أكثر إبتذالا .. أكثر قسوة أيضا .. فمع الإنفتاح الإقتصادى (٤) .. جاءت البضائع الفاسدة .. والسياسيون الفاسدون .. والنساء الفاسدة .. وما يصاحب ذلك كله من فنون مسمومة تطلق للغرائز العنان ..

ولعله من المناسب هنا أن نتوقف عند حكاية إنشغلت بها مصر وهى تعيش الأيام الأولى من عام ١٩٧٥.. الحكاية بطلتها طالبة بأحد المعاهد وتفاصيلها كما روتها جريدة الأهرام (٥) تتلخص فى بلاغ تقدمت به إحدى السيدات تتهم فيه إحدى طالبات ذلك المعهد بالتردد على بيت أحد الشباب .. وأنها على علاقة مريبة مع شبان كثيرين وتتردد على بعض الشقق المفروشة .. وقامت وكيلة المعهد بالتحقيق فى هذا البلاغ .. وإنتهى التحقيق بأن قامت الطالبة بكتابة إقرار تعترف فيه بصحة الإتهامات الموجهة إليها .. ورفعت وكيلة المعهد هذا الإقرار مرفقا بما قامت به من تحقيقات إلى عميد الكلية .. ثم إلى الوزير المختص .. الذى لجأ بدوره إلى مجلس الدولة يستفتيه

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٧٥/٧/٢١
(٢) المندار : تعبير شعبى يطلقه المصريون على الرجل الشاذ جنسيا
(٣) الكوديا : زوجة قائد الزار
(٤) فريدة النقاش - يوميات المدن المفتوحة - دار الثقافة الجديدة - ١٩٨٧
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/١/٢٥

في قرار بفصل الطالبة .. لكن فوجئت الوزارة بتقرير قادم من مجلس الدولة كتبه الدكتور مصطفى كمال وصفي المستشار بالمجلس يؤكد فيه حق الطالبة في البقاء بالمعهد .. لكن لم تقتنع الوزارة أو إدارة المعهد وتم إتخاذ قرار بفصل الطالبة .

كان من الممكن أن تنتهي الحكاية عند هذا الحد لتصبح مثل كثير من الحكايات التى قد تحدث هنا أو هناك وفى كل يوم .. لولا أن قرر والد الطالبة اللجوء إلى محكمة القضاء الإدارى .. وبرئاسة المستشار أحمد كمال أبو الفضل قررت المحكمة إلغاء قرار الفصل .. ومرة أخرى لم تنته الحكاية عند هذا الحد .. المعهد رفض الإلتزام بحكم المحكمة ورفض عودة الطالبة للدراسة .. ولم يستسلم الأب ولجأ إلى النيابة ورفع جنحة مباشرة ضد الوزير المختص .. فما كان من الوزارة إلا أن لجأت إلى المحكمة الإدارية العليا التى أنهت الحكاية بتأييد قرار الفصل .

وقد لا تعنينا الطالبة .. وحكايتها .. بقدر ما يعنينا التوقف عند الدلائل والمشاهدات التى إستند إليها مستشار بمجلس الدولة وهو يقرر حق الطالبة فى العودة.. وإستكمال دراستها بالمعهد فقد قال المستشار أن الفضيلة ليست شيئا محددا لا يتغير أو يتبدل .. وإنما تأخذ الفضيلة فى كل مجتمع وفى كل عصر صورة مختلفة .. فالفضيلة فى القرن العشرين ليست هى الفضيلة فى القرن العاشر .. وإنتقل المستشار بعد ذلك إلى واقع مصر فى تلك الأيام .. ١٩٧٥ .. وأكد أن هناك جهات كثيرة فى المجتمع تتضافر جميعها فى الترويج للرذيلة ولكثرة ما شاعت صور الرذيلة فى الأغانى والتمثيليات والأفلام .. أصبح الناس - أو أكثرهم - ينظرون إلى كثير من صور الإنحراف على أنها هى السلوك العادى والمقبول إجتماعيا .. وإختتم المستشار دفاعه عن الفتاة مؤكدا أنه بدلا من أن نحاكم فتاة صغيرة .. فإنه من الواجب أن نحاكم المخطئ الحقيقى .. فماذا نتوقع من فتاة فى مثل سنها تسمع طول النهار أغانى الحب الذى لم يعد عذريا .. وتشاهد تمثيليات كل يوم وترى فيها مشاهد العناق والفراش .. وصورا لعلاقات متحررة من كل قيد بين البنات والشباب .

إنتهت المرافعة .

وبقى علينا أن نستعيد من جديد الحكاية كلها لنتأمل ما جرى .. ونتخيل ما سوف يجرى .

نحن لا نزال فى مصر سنة ١٩٧٥ .. الزنا لا يزال جريمة تستوجب العقاب والفصل .. لكن من تزنى أصبحت تجد من يتعاطف معها ويترافع بالنيابة عنها ويرى فيها ضحية مناخ عام يتعرى تزداد فيه مساحة النشوة والشهوة يوما بعد يوم .. أغنية بعد أغنية .. فيلما بعد فيلم .. حكاية بعد أخرى .

ومع ذلك .. يصبح من قبيل التجنى أن يكون الدليل على ذلك مجرد فتاة جاءت تتعلم فأحبت فزنت فسقطت .. وإنما كانت هناك الف فتاة أخرى .. والف شاب أيضا .. والف حكاية والف شهادة .. ولعلها واحدة من أهم الشهادات التى قيلت فى ذلك الوقت هى ما قالته إحسان عبد المنعم كراع .. الموظفة المسئولة عن إعداد كل الأدلة ضد أى شاب يتم ضبطه بمعاكسة الفتيات فى الطريق ليقدم فورا إلى المحاكمة .. وفى أوائل عام ١٩٧٤ .. أدلت إحسان عبد المنعم بشهادتها التى قالت فيها [1] أنها تتلقى يوميا ستين محضر معاكسة وتحيل إلى محكمة أمن الدولة الفا وخمسمائة قضية معاكسة كل شهر .. وأن ثمانين بالمائة من المتهمين تقل أعمارهم عن

(١) جريدة الأخبار - عدد ١٩٧٤/٢/٢٦

الثلاثين عاما .. وسبعين بالمائة منهم طلبة فى الجامعات والمدارس بينما لا تزيد نسبة الموظفين المتهمين على الواحد بالمائة فقط .

وقد لا تعنى تلك الشهادة .. أو هذة الأرقام .. شيئا ما أو تثير القلق والفزع .. ففى سنوات المراهقة والصبا والشباب .. ممكن جدا أن تستوقف أية فتاة جميلة أو نصف جميلة شابا متعلما أو نصف متعلم ليهمس فى أذنها ببعض عبارات الغزل أو الإعجاب .

ولكن .. من المؤكد أن تلك الظاهرة - والتى كانت تتزايد يوما بعد يوم - بدأت تتحول إلى ما هو أكبر من مجرد الغزل أو الإعجاب .. لقد تحولت أخبارها إلى مادة أساسية فى صفحات الحوادث بشكل دائم ومنتظم فى الصحف .. حملات .. قضايا .. وبلغ الأمر أحيانا أن أصبح الحل هو تدخل وزير الداخلية أو مدير الأمن على الأقل .. وعلى سبيل المثال نشرت الأهرام(١) مناشدة أولياء أمور طالبات مدرسة باب الشعرية الإعدادية للبنات للواء كمال خيرالله مدير الأمن القاهرة يطالبونه فيها بالتدخل لإنقاذ بناتهم من حملة العبث والفجور .. والإيذاء الذى وصل حد التعدى وخطف الكتب والحقائب والتفوه بالفاظ بذيئة خاصة وأن هذة المهازل الأخلاقية تتكرر يوميا دون تدخل من الشرطة خوفا من تطور الأمر .. وبعد أربعة أشهر تكررت نفس الشكوى مرة أخرى من أولياء أمور طالبات مدرسة مصر الجديدة الثانوية للبنات .. وتدخلت الشرطة هذة المرة لتقبض كما نشرت الأهرام(٢) على عشرين شابا .

كما نشرت الأهرام أيضا(٣) توجيهات ممدوح سالم .. نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية .. لشرطة القاهرة بمقاومة الجرائم والمعاكسات بالشوارع .. وحين أصبح سيد فهمى وزيرا للداخلية فإنه لم يتقاعس وأصدر تعليماته(٤) لأجهزة المباحث الجنائية بضرورة الإكثار من المرور المستمر فى الأماكن التى توجد بها مدارس البنات لمنع الشباب من التعرض للطالبات .

وبالطبع .. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد .

فالحكاية تخطت حكايات الغزل والإعجاب .. وعلى سبيل المثال تلقت نرمين عادل محمد رشوان رصاصة فى قدمها اليسرى (٥) وهى تشارك شقيقها وشقيقتها حفلا بحمام سباحة النادى الأهلى .. بعد أن رفضت الإستجابة لمغازلة شابين جذبها أحدهما من ذراعها وطلبها للرقص .. وتلقت طالبة فى الثانية والعشرين من عمرها (٦) ثلاثة طعنات فى صدرها وذراعها حين نهرت من حاول معاكستها أثناء سيرها مع عمتها فى أحد شوارع حى مصر القديمة .

وإذا كانت هناك فتيات قد رفضن بالرغم من تهديد السلاح .. مجرد الغزل والمعاكسة .. فقد كانت هناك فتيات لم يعد بإستطاعتهن أن يرفضن أى شئ .. وبدون أى سلاح أو تهديد .. وأيضا بدون ثمن أو مقابل .. مثل أولئك الفتيات .. الحالمات بالحرية والحياة على الطريقة الغربية .. واللواتى هربن من صيف القاهرة الحار والمخنوق إلى شاطئ العجمى .. حيث إرتدين أحدث صيحة فى عالم المايوهات .. الشورت الصغير جدا .. والساخن جدا .. ولا شئ بعد ذلك أو غير

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٤/١١/١٧
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٣/٢١
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٤/١٢/٢٢
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٤/٢٦
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٧/٥
(٦) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٧/٣٠

ذلك .. وتمددن على الشاطئ بصدورهن العارية (١) .. ولم يعد الأمر قاصرا على الفتيات فقط .. وإنما كانت هناك الزوجات اللواتي لم يجدن مانعا من التجربة .. وكانت هناك الفنانات .. وقد شوهدت إحدى ممثلات السينما وهي ترتدي هذا المايوه الجديد ومعها مصور صحفي يلتقط لها العديد من الصور في مختلف الأوضاع .. ولأن حدث كهذا لم يكن ليبقى طويلا سرا لا تتداوله الألسنة والعيون والعقول والخيالات .. فقد ذاع خبر هذا المايوه وإنتشر في العديد من شواطئ الإسكندرية .. فباتت الهواية الوحيدة لكثير من شباب تلك الأيام هي التسلل إلى شاطئ العجمي من أجل الإستمتاع ولو قليلا بتلك الصدور العارية .. أما الذين لم تسنح لهم مثل تلك الفرصة .. فلم يجدوا أمامهم إلا الخيال المطلق .. والأقلام الملونة يرسمون بها الف صدر عاري فوق أبواب وجدران كبائن أكثر من شاطئ .. ومع ذلك .. لم تكن ظاهرة الصدور العارية على رمال العجمي .. ولا الصدور العارية على الأبواب والجدران .. هما الظاهرتان الوحيدتان في تلك الأيام .. كانت هناك ظاهرة أخرى .. لم تبق قاصرة على الإسكندرية وحدها .. ولكن في كل مكان .. وهي إزدهار تجارة الصور العارية .. والتي أصبحت تباع علنا فوق أرصفة الطرقات أحيانا .

ولم يبق الوضع على ما هو عليه طويلا .. إذ سرعان ما تلاقت رغبات الشباب الملحة والموجعة بإحتياجات الفتيات العارية والجائعة .. ولم تعد الصداقة الحميمة جدا .. أو الساخنة جدا .. بين الشاب والفتاة .. مرفوضة أو محرمة أو مكروهة شرعا أو عرفا أو أخلاقا .. ولم يعد الحب بابا يفضي إلى الزواج .. وباتت أخبارا قديمة جدا وروتينية جدا – لا يسعى خلفها إلا الصحفيون تحت التمرين – هي تلك الأخبار التي تتناول حملات بوليس الآداب وما تنتهي إليه من القبض على عشرات العشاق أثناء لقاءاتهم الغرامية العارية الفاضحة والجنسية أحيانا .. مثلها مثل أخبار تتعلق بأوامر بوليس الآداب بإغلاق الملاهي الليلية والمقاهي والكازينوهات إما نهائيا أو مؤقتا بسبب الخروج على الآداب العامة .

الجديد فقط كان هو القبض على عصابة من تسعة رجال يمارسون الدعارة (٢) .. يجيد الرجل منهم إرتداء ثياب النساء الداخلية وإستخدام مستحضرات التجميل ورسم " الحسنات " الصناعية على الوجه أو الجسد لمزيد من الجمال والإثارة .. وكانت مهمة هؤلاء الرجال هي الترفيه الجنسي عن الشواذ من السائحين والغرباء في مصر .. فيقضي كل منهم ليلته مع أحد هؤلاء السياح مقابل مائة جنيها غير الهدايا الثمينة .

وإذا كان هؤلاء الرجال قد فقدوا إلى الأبد رجولتهم .. فإن رجالا آخرين – أكثر عددا – كانوا بالمقابل قد فقدوا إنسانيتهم .. وتحولوا تحت ضغط رغباتهم التي توحشت وباتت تحاصرهم في كل مكان .. إلى حيوانات تمشي في شوارع تبحث عن ضحايا للإغتصاب .. وفي عام ١٩٧٥ مثلا كانت مصر على موعد مع أكثر من قضية خطف وإغتصاب .

في القضية الأولى .. كانت الضحية فتاة (٣) إختطفها خمسة شباب أثناء سيرها في أحد الشوارع .. وحين حاول التصدي لهم أحد الطلبة بكلية الشرطة قتله المغتصبون .. أما الضحية الجديدة في القضية الثانية .. فكانت تلميذة في التاسعة من عمرها (١) .. والجاني مكوجي في حي

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٨/١٨
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٩/٦
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٦/٩

الموسكي .. والضحية الثالثة كانت طفلة لم تكمل بعد عامها الخامس (٢) .. إغتصبها فى شبرا أحد بائعي اللبن .. وأخيرا .. كانت ضحية القضية الرابعة خادمة فقيرة فى السابعة عشرة من عمرها (٣) .. إغتصبها داخل أحد المخابز بمدينة طنطا شابان أحدهما معيد بكلية زراعة المنصورة والثانى طالب بالمرحلة الثانوية .

ويأتى العام الجديد .. ١٩٧٦ .. ويتطور الأمر من مجرد خطف وإغتصاب .. إلى إغتصاب غالبا ما ينتهى بالقتل .. فهذا هو ما حدث مثلا فى مدينة المحلة الكبرى بعد ستة أيام فقط من بداية العام الجديد .. حين ذهبت إلى هناك عزيزة محمد حبيب .. الموظفة بإحدى صيدليات القاهرة .. فقام إبراهيم عبد النبى يمانى بإغتصابها ثم قتلها (٤) .. وتكررت الحكاية أو المأساة مرة أخرى ولكن فى إمبابة .. حين تم العثور على جثة سامية حلمى سلامة وعلى جسدها آثار إعتداء وحشى (٥) .

ولم تعد الفتيات وحدهن .. أو النساء كبر بهن العمر أم صغر .. هن الضحايا دائما فى قضايا وجرائم الإغتصاب فى مصر .. وإنما إنضم إليهم الأطفال أيضا .. ففى بورسعيد .. تم القبض على محمود على أدم عامل البناء الذى جاء إلى المدينة مهاجرا من سوهاج .. وكان قد إعتاد (٦) الإنتظار أمام أبواب مدارس التلاميذ الصغار فيخطف أحدهم كلما إستطاع ويعتدى عليه جنسيا ثم يهدده بالقتل إذا حكى التلميذ الصغير لأحد أو لأسرته ما حدث .

وإذا كان من الممكن أن نملك أرقاما – حتى وإن لم تعبر تماما عن الواقع ولم تكن كل الحقيقة – لحوادث وجرائم هتك العرض والخطف والإغتصاب .. فإنه من المستحيل أن نرصد حالات الخيانة .. فليس من الضرورى أن تتحول كل زوجة تسلم جسدها لعشيق إلى إمرأة تملك ملفا فى أرشيف بوليس الآداب .. وليست كل حكاية زنا ستتحول إلى قضية أو حادثة نعرفها ونتابعها ونحصيها .. وليس أمامنا إلا القليل جدا من الشواهد والمؤشرات والحكايات .. ولا أستبعد فى مثل ذلك المناخ أن تعجز علاقة الزواج أحيانا عن تلبية إحتياجات ورغبات متزايدة يعانيها الزوج أو الزوجة .. فتفتش الزوجة عن رجل آخر يطفئ نار رغباتها لحظة إشتعالها فى حين يعجز زوجها عن القيام بمثل هذا الدور إما لأنه كادح مقهور منهك القوى والقدرة .. وإما لأنه لم يعد هناك ما يشغله فى هذا العالم إلا المال وكيف يحصد المزيد منه فى كل يوم أو منصبه وكيف يرتقى به ليضاعف من نفوذه ومن سلطاته .. وفى المقابل أيضا لن يعدم الزوج العثور على إمرأة أو فتاة جميلة أو شهية أو غنية يحتاج إليها هو بقدر ما تحتاج إليه هى .

ولا أخرج من ذلك كله .. إلا بأن الجنس .. بات – فى سنوات السبعينات – يسيطر على هواجسنا وأفكارنا وحكاياتنا وضحكاتنا وأسرارنا .. وقد لا تبدو تلك السيطرة أمرا تختص به فقط سنوات السبعينات .. فالصحفى الكبير محمود عوض يؤكد (٧) أن الجنس موجود دائما فى أفكارنا وتصرفاتنا .. ومعظم القيم الرئيسية فى مجتمعنا .. هى قيم بمقدار بعدها أو قربها من

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/١١/٤
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/١٢/١٧
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/١٢/٢٣
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/١/٦
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/٣/٨
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/٣/٢
(٧) محمود عوض – أفكار ضد الرصاص – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٧٢

الجنس .. ويضيف محمود عوض قائلا أن القاموس الأخلاقى للمجتمع المصرى يشهد بأهمية نظرة المجتمع إلى الجنس .. وبأن كلمات مثل الفضيلة والأدب وقلة الأدب والعفة وحسن الأخلاق وعدم الأخلاق .. كلها فى حقيقتها معان ودلالات جنسية .

ومع أنى أعترف بصحة وواقعية وعمق رؤية محمود عوض .. إلا أن ما أقصده هو أن كل هذا الإرتباط بالجنس وكل هذا الإنشغال به .. وإن كان واقعا وقائما وحقيقيا فى كل عصور مصر .. إلا أنه أصبح فى السبعينات أكثر شدة وتأثيرا .. وأكبر حجما ومساحة .. بل إن الجنس بات يسيطر على عقولنا وعلى كل ما هو ليس مفترض فيه أن تكون له أدنى علاقة بالجنس مطلقا .. وعلى سبيل المثال .. حين عاد الصحفى الكبير الراحل على أمين إلى مصر بعد الإفراج عن شقيقه مصطفى أمين .. وتقلد على أمين منصب رئاسة مجلس إدارة الأهرام .. لم يجد ما يقوله إلا أنه تمكن من شراء ملابس داخلية للأهرام [١] وأنه بصدد إحضار فستان الزفاف !.

ومع أننى أحد أعضاء عائلة الأهرام الصحفية .. إلا أننى عاجز تماما عن فهم كيف إشترى على أمين تلك الملابس .. ولماذا إشتراها .. وما هى تلك الملابس أصلا .. ولا أعتقد أن أحدا غيرى بإمكانه أن يفهم ما عجزت طويلا عن فهمه .. فالحكاية كلها – والف حكاية أخرى غيرها – لا معنى لها إلا تأكيد ما سبق وأن أشرت إليه .. وكيف تزايد إنشغالنا بالجنس فى ضمائرنا وأعماقنا إلى الحد الذى معه مثلا .. تحول الجنس والجاذبية الجنسية والقدرة أيضا .. إلى بعض العلامات التى يقيس بها المجتمع – حتى وإن لم يعلن عن ذلك فى صراحة – نجاح الشاب .. وذكائه .. وحيويته .. وعمق علاقاته الإنسانية والإجتماعية .. وهو الأمر الذى يبدو واضحا جدا إذا ما توقفنا عند ظاهرة المعجبات فى حياة الفنانين ولاعبى كرة القدم .

فقبل طوفان إنفتاح السبعينات .. كانت ظاهرة الإعجاب والمعجبات من معالم الحياة الخاصة للفنانين وحدهم وكانت فى معظم الأحيان لا تتمثل إلا فى خطاب ساذج أو رقيق .. أو فى الإحتفاظ بصورة الفنان وإعادة صياغتها على شكل ملامح فارس أحلام لم يأت بعد وقد لا يأتى مطلقا .. ويوما بعد يوم .. بدأ الإعجاب يساير قوانين العصر ومتطلباته .. ولم يعد هناك ما يمنع أن تندرج ظاهرة المعجبات فى حياة الفنانين تحت بند النشاط أو الترفيه الجنسى لبعضهم .. وليست هذه هى المشكلة .. المشكلة كانت فى ظاهرة أخرى بدأت مصر تعرفها فى النصف الثانى من السبعينات .. وهى الظاهرة التى مزجت بين الجنس وبين كرة القدم .. فقبل ذلك كانت كانت كرة القدم .. لعبة وهواية وعادة وتخصص للشباب والرجال .. لا مكان هناك للمرأة ولا دور لها أيضا .. وكان هناك بالطبع لاعبون ونجوم كبار يستهويهم الجنس ويشتهون النساء بمختلف أنواعهن وطبقاتهن .. وكان هناك من إشتهر بذلك .. بل كان هناك أيضا من راح ضحية ذلك .. ولعل أشهر حكايات هؤلاء الضحايا .. هى حكاية عصام بهيج وعلى محسن لاعبى الزمالك فى الستينات .. فعصام بهيج كان أشهر جناح فى عصره وكان الأخطر أيضا .. إلا أن علاقاته الغرامية والنسائية إختصرت الكثير .. والكثير جدا .. من فترة بقائه فى الملاعب أو من المساحة التى كان يستحقها فى كتاب تاريخ الكرة المصرية .. وكان على محسن لاعبا مميزا تتغنى بإسمه جماهير الزمالك .. موهبة كروية جاءت من اليمن لتستقر كالقذيفة فى قلب الكرة المصرية إلى الحد الذى معه يتدخل الرئيس جمال عبد الناصر ويأمر بعلاج على محسن فى الخارج – بعد

(٢) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

إصابته – على نفقة الدولة .. ومع ذلك دخل على محسن تاريخ الكرة المصرية لا بموهبته ورشاقته ولكن بإعتباره أول لاعب كرة يتم شطبه بسبب إنحرافه (١) وعلاقاته التى لم يكن هناك أول لها أو آخر .

كان هذا فى الستينات .. لكن مع إقتراب السبعينات من نهاياتها .. أصبح الأمر مختلفا .. ومثلما تغير كل شئ .. تغير أيضا السلوك الجنسى للفتيات وللشباب ولنجوم كرة القدم .. وإذا كان لاعب الستينات هو الذى يفتش عن المرأة .. فإن لاعب السبعينات – والذى أصبح نجما تليفزيونيا وصحفيا – أصبح هو الذى تفتش عنه المرأة .. وإذا كان زمالك الستينات قد خسر بعض مباريات الدورى أحيانا بسبب أخلاقيات لاعب واحد كبير .. فإن مصر الكروية كلها قد خسرت فرصة الصعود إلى تصفيات كأس العالم بسبب أخلاقيات أكثر من لاعب وأكثر من نجم كروى .. وليس من قبيل المبالغة التأكيد على أن الجنس كان أحد الأسباب الرئيسية فى هزيمة ثقيلة تلقتها مصر أمام تونس عام ١٩٧٧ .. وكان من الممكن – ولا يزال ممكنا – أن تصغى لحكايات الجنس التى سبقت هذة المباراة وأعقبتها أيضا .. ولا أحد يعرف لماذا إمتنع النقاد الرياضيون عن الإشارة إلى ذلك فى إلتزام دقيق ومريب لم يخرج عليه إلا الناقد الكبير الراحل نجيب المستكاوى الذى كتب(٢) مؤكدا أنها هزيمة يجب ألا تفوت .. وبأسلوبه المميز الساخر .. أحيانا إلى درجة الحزن .. قال نجيب المستكاوى .. إستنطاع وإستقطاع وإستبضاع فضياع .. أما الإستقطاع فهو إستقطاع الفتيات للفريق فى الفندق .. وقد شاهد الكثيرون عددا من اللاعبين يتأبطون ذراع بعضهن .. أو يجالسهن .. أو يمشون معهن فى دهاليز الفندق .. وربما كان هناك ما هو أبعد من ذلك .. وهذا دليل على أن اللاعبين ليس لديهم خلفية تربوية أو تعفف عن الشهوات فى لحظات المهام الجادة .. ولم ينس نجيب المستكاوى الحديث عما كان يحدث فى القاهرة حيث لم يكن اللاعبون ينامون فى المعسكر .. وكيف كانوا يغافلون الإداريين ويركبون السيارات الفارهة الفارغة أو المليئة !.

وفوق هذا كله .. باتت هناك ظاهرة .. أو ظواهر أخرى .. بدأت مصر تتحسسها وتتعرف عليها وتألفها .. وأحيانا .. كانت تتعامل معها كما لو كانت واقعا لا يمكن تجنبه أو حتى الهروب منه .. فمنذ سنوات الإنفتاح الأولى .. إستشرت ظاهرة الزواج العرفى (٣) .. بل وتحولت فى أغلب حالاتها إلى ما يشبه زواج المتعة الذى عرفه وإستعان به العرب قبل الإسلام – وفى سنواته الأولى أيضا – حتى إتفق الفقهاء وأجمعوا على تحريم مثل هذا الزواج ومثل تلك المتعة .. وإستشرت أيضا ظاهرة الرقص الإستعراضى .. وفى مجتمع لم يعد يرى فى الرقص خطيئة أو عارا أو عيبا .. ويسمح لبعض الساقطات فيه أن يمارسن الدعارة العلنية تحت إسم الرقص الشرقى .. فقد أصبح من السهل على أن تمارس نفس هؤلاء الساقطات نفس تلك الدعارة العلنية ولكن تحت لافتة أكثر تحضرا وأناقة .. الرقص الإستعراضى .. وأذا كانت المسارح والملاهى قبل الإنفتاح لم تعرف سوى إثنى عشر راقصا وراقصة معروفين بالإسم (١) .. إلا أن الحاجة إلى مزيد من الترفيه فتحت الباب أمام مئات الفتيات .. وتم التساهل فى منح التصاريح والموافقات بشرط الحصول

---

(١) جريدة أخبار الرياضة – عدد ١٩٩١/١/١٥
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٧/١٢/٢٦
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٧/١٢/٧

على شهادة خبرة من صاحب أية فرقة فنون شعبية .. وسرعان ما أصبح الرقص الإستعراضى – تماما مثل الرقص الشرقى – إسما مستعارا وجديدا وجميلا للدعارة بكل أنواعها ودرجاتها .. وأصبح عدد هؤلاء الداعرات يتزايد فى مصر عاما بعد آخر .. وأصبح من المعتاد أن تغادر مصر قبيل شهر رمضان بصفة خاصة .. فرق تدعى على الورق أنها فى رحلة لتقديم الفن الشعبى المصرى .. وهى فى حقيقتها رحلات منظمة للترفيه الجنسى عن الأثرياء العرب .. فتيات متعلمات وطالبات فى الجامعة أو تخرجن منها يحملن شهادات عليا فى الآداب أو التجارة أو الحقوق .

ولعله من المناسب هنا أن نتوقف عند دور السياح والضيوف العرب الذين جاءوا إلى القاهرة وفى نيتهم عدم البخل لا بالجهد أو بالمال من أجل توسيع دائرة الأزمة الجنسية المصرية فى سنوات السبعينات .. ومن المثير للدهشة والإستياء والحزن .. أن يكون كثيرا من هؤلاء السياح العرب .. هم أحد الأسباب المباشرة فى أزمة الجنس فى مصر .. وفى إزدهار الدعارة على وجه التحديد .. ثم نجد هؤلاء هم أول من يزعم إنحطاط المصريين وأنهم شعب بلا أخلاق .. كاذبون مرتشون متحللون جنسيا .. لا يصدهم عن السرقة الصريحة أو المستترة وازع من ضمير .. ولا يحول بينهم وبين الخنا وازع من كرامة .

وهذا هو ما دفع بكاتب وصحفى كبير وقدير مثل صلاح عيسى.. لأن يطرح تلك القضية(٢) للنقاش مرة أخرى ويؤكد أن مثل هؤلاء السائحين العرب .. إرتبطوا بشرائح طفيلية من المصريين عرفوا إهتمامات العرب الحسية وعرفوا كيف يبرعون فى إرضائها .. والمشكلة أن هؤلاء النفطيين العرب يتحدثون عن الغرائز الدنيا للكادحين المصريين .. غافلين أو متغافلين أنهم بأموالهم يجيئون إلى بلد يعانى أزمات فى كل شئ .. وأنه ليس من الطبيعى حين يجوع الناس أن تصان الأخلاق والقيم .. أو أن يسود السلوك الإنسانى السوى .. وليت الفقر كان رجلا .. إذن لقتله على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – فأراحنا منه .

أما الدكتور لطفى عبد العظيم .. فأكد (٣) أن السياحة العربية عن طريق الشقق المفروشة .. كانت أحد عوامل التخريب الإقتصادى والإجتماعى والأخلاقى فى مصر .. وإذا كان محمود عبد المنعم مراد لم يجد شذوذا(٤) فى موضوع إبتغاء عرب النفط للمتعة الجسدية فى بلادنا لأن الخروج على الآداب والدين والأخلاق .. نقيصة لا يخلو منها مجتمع على سطح الأرض .. فإننى – وإن كنت أتفق معه على أنه ليس هناك بالفعل ذلك المجتمع المثالى – إلا أننى أجد أن الشذوذ الحقيقى هو إتهامات بعض هؤلاء العرب .. مع أن الأموال العربية فى تلك السنوات .. وفى كثير من القضايا .. كانت هى الدافع الوحيد للإنحراف .. والإغراء الذى تصعب مقاومته .. فعلى سبيل المثال .. وفى شهر يونيو عام ١٩٧٥ .. قام بوليس آداب الجيزة بحملة على الشقق المفروشة(٥) فى الدقى والعجوزة .. وأسفرت تلك الحملة عن القبض على إثنتى عشر إمرأة فى عشر شقق تم تخصيصها للدعارة العربية .. ومن بين المقبوض عليهن كانت هناك نساء كثيرات يمارسن الدعارة لأول مرة تحت إغراء المال العربى .. فحاولت إحداهن الإنتحار بإلقاء نفسها من الدور الثانى ..

---

(١) حوار شخصى مع فتاة تحترف الرقص الإستعراضى
(٢) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦
(٣) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٧٧/٢/١
(٤) مجلة أكتوبر – ١٩٩٢/٩/٢٠
(٥) جريدة الأهرام – ١٩٧٥/٦/١٠

بينما أصيبت إمرأة أخرى بالشلل النصفى بمجرد رؤيتها لبوليس الآداب يقتحم الغرفة .. حيث كانت زوجة وأم تمارس الدعارة للمرة الأولى فى حياتها .. ثم كانت هناك أكثر من قضية وضحية لطوفان الثروة العربية .. وباتت هناك شبكات للدعارة لا تولد ولا يزدهر نشاطها إلا بالعرب وللعرب وحدهم[١] .

وليس صحيحا مطلقا أن هؤلاء العرب بقوا طول الوقت مجرد رجال يملكون الكثير من المال ولا يفتشون إلا عن المزيد من المتعة والترفيه .. وإنما كان هناك منهم من قام بالتخريب بالفعل ومع سبق الإصرار والترصد .. فكانت هناك العصابات التى يتم تأسيسها بأموال عربية ينحصر نشاطها فى إختطاف الفتيات والطالبات المصريات والتغرير بهن بعقود زواج وهمية مزورة [٢] وتسفيرهن إلى حيث يريد أثرياء النفط .. ثم كانت هناك شبكات الدعارة العربية .. مثل تلك الشبكة التى قادها ثلاثة عشر رجلا من سوريا وبقى نشاطها قاصرا على السائحين العرب فى مصر [٣] .. أو تلك الشبكة التى كان يقودها نبيل مأمون نصار [٤] .. صاحب ورئيس تحرير مجلة المجتمع الجديد اللبنانية .. وهى الشبكة التى حملت على عاتقها مهمة تسهيل سفر العاهرات المصريات – وإجبارهن أحيانا – إلى كل من بيروت وعمان وأبو ظبى وسوريا ودبى وقطر .

وأخيرا .. لم تكن تلك القضايا والتجاوزات والتداعيات والخطايا هى كل ما حدث .. وإنما كانت – وبإختصار شديد – هى بعض ما حدث فى مصر طيلة سنوات ما بعد الإنفتاح .. كلها كانت بعض فواتير حساب مجتمع .. ودولة أرادت تعديل مسارها الإقتصادى والسياسى لمزيد من الإنفتاح على الغرب والعالم .. فاتورة حساب لم تدفعها مصر وحدها .. وإنما شاركتها كل دولة أرادت .. أو إضطرت .. إلى مثل هذا التغيير وهذا الإنفتاح .

وتماما مثلما حدث فى مصر .. إنتشرت الدعارة وزاد عدد العاهرات فى الصين وروسيا وبولندا وبلغاريا والبانيا .. وإنحطت الأخلاق .. وإنتشرت جرائم الخطف والتعدى والإغتصاب .. وعلى سبيل المثال – وفيما كان يعرف سابقا بإسم الإتحاد السوفييتى – ذهبت اليس تومسون الصحفية بجريدة التايمز البريطانية تحقق فيما طرأ على السلوك الجنسى والأخلاقى السوفييتى من تغيير بعد تفكك الإتحاد والإنفتاح على الغرب .. وعادت وكتبت [٥] ملخصا لحوارات طويلة أجرتها مع العاهرات فى موسكو .. ومع الرجال المتعطشين للجنس .. ومع الشباب الذى إنفتح على الغرب ولم يعد قانعا بتداول النسخ القديمة من المجلات العارية والجنسية التى كان يطالعها سرا .. وأصبح يريد أن يمارس اليوم بنفسه ما كان بالأمس فقط يراه أو يتخيله .. وتحدثت الفتيات عن أحلامهن والتى لم تكن تتجاوز أكثر من إقتناء قمصان نوم حريرية وشفافة .. أو ثياب داخلية من تلك التى إمتلأت بها إعلانات التليفزيون أو أوراق الصحف والمجلات القادمة من لندن وباريس ونيويورك .

أما الصحفيتان كارين بريسلو وناتاشا ليبيديفا .. فقد خرجتا بتحقيق أكثر إثارة [١] عن طالبات المرحلة الثانوية فى مدينة سان بطرسبرج .. وأهم ما جاء فى ذلك التحقيق كان أن

---

(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٩/٩
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٩/٨
(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/١٠/٢٨
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/١٢/١٧
(٣) جريدة التايمز – لندن – عدد ١٩٩٣/٦/١٠

الدعارة أصبحت المهنة الثالثة التى تتمناها الطالبات هناك بعد العمل فى السلك الدبلوماسى ثم العمل بالصحافة .. وفى نفس التحقيق .. قال إيفجيني كوزلوف .. الضابط بإدارة الأمن فى موسكو أنه بات مألوفا أن تمارس الطبيبة والمدرسة والفنانة الدعارة .. وأن نساء كثيرات محترمات لم يجدن وظيفة أخرى يغطى دخلها إحتياجاتهن المالية والمادية المتزايدة .. سوى المتاجرة بأجسادهن .

وفى بولندا .. التى تغيرت كثيرا بعد سجن طويل فى قفص الشيوعية والإقتصاد الإشتراكى قبل أن تعود مرة أخرى للديمقراطية وللإقتصاد الحر .. فوجئ الناس فى نهايات عام ١٩٩٢ بكتاب صغير من مائة وأربعين صفحة كتبته مارزينا دوماروس .. الصحفية والمراسلة الإذاعية التى كتبت هذا الكتاب وهى لا تزال فى الخامسة والعشرين من عمرها .. وإختارت له عنوانا هو مذكرات أناستازيا بوتوكا .. وإنشغل البولنديون بالكتاب طويلا (٢) .. فقد حكت صاحبته عن الفضائح والعلاقات الجنسية التى تورط فيها وبها أعضاء البرلمان البولندى بعد الإنفتاح .

وفى البانيا .. والتى كانت – حتى وقت قريب – من أكثر دول أوروبا حفاظا على التقاليد والعادات الأخلاقية والتى لم يكن مسموحا فى شوارعها بأكثر من أن تتشابك أيدى الشباب والفتيات .. جاء قرار إنهاء العزلة والإنفتاح على أوروبا والعالم بكثير من المكاسب الإقتصادية .. لكن تحول الجنس بالمقابل إلى أزمة وإلى مشكلة .. إنتشرت كتب الجنس الرخيصة وإزدهرت تجارة الأفلام العارية. وأغمض المسئولون فى التليفزيون عيونهم عن كثير من المشاهد المثيرة والفاضحة .. وأخيرا (٣) تزايدت بشكل ملحوظ الجرائم الجنسية والأخلاقية .

ثم جاء الدور على الصين لتدفع هى الأخرى نفس الثمن الذى سبقتها مصر ودفعته .. دعارة وسقوط وجرائم وإغتصاب .. وفتحت الشياطين أبوابا للرغبة كانت مغلقة منذ زمن طويل .. وإختفت الرقابة بدعوى الحرية والتحضر .. وبعد أن كانت القبلة فى الطريق أمام الآخرين عيبا وخطيئة .. كتب لنا (٤) الصحفى جون كووت أن مدينة شنغهاى – ثانى أكبر مدن الصين بعد بكين – قد سمحت بعرض مسرحية العاشق للكاتب الشهير هارولد بنتر .. وفى المسرحية يقوم البطل والبطلة بدور زوج وزوجة يمارسان الجنس على خشبة المسرح أمام الجمهور .

ومن المؤكد أننا فى مصر .. بعد لم نسمح بعرض مثل هذة المسرحية .. وإن كنا قد نسمح بها غدا فى ظل رقابة جديدة أكثر وعيا وأكثر تصميما على مزيد من التحضر والتمدين .. لكن يبقى الفارق بيننا وبين الصين .. وكما يقول محمد عودة (٥) .. هو أن الإنفتاح الصينى ليس سداحا مداحا كإنفتاحنا .. وقد يكون للإنفتاح الصينى أضراره مثل الفساد والرشوة والإنحلال والدعارة .. لكنهم يواجهون هذا بشجاعة ويحاربونه معترفين بأن بعض سموم العالم الرأسمالى قد تسربت إليهم .

هم يعترفون بما يحدث .. ونحن نتجاهل تماما كل ما حدث أو قد يحدث .. وإذا كانت هناك دول أخرى لم يعد يزعجها ما حدث أو سوف يحدث .. وإرتضت هذا السلوك وتلك الحرية ..

---

(١) مجلة نيوزويك – عدد ١٩٩٣/٣/١٥

(٢) جريدة الصانداى تايمز – لندن – عدد ١٩٩٢/١٢/٦

(٣) جريدة العالم اليوم – عدد ١٩٩٣/١/٤

(٤) جريدة الصانداى تايمز – لندن – عدد ١٩٩٢/٩/١٣

(٥) مجلة الأهرام الإقتصادى – ١٩٨٧/٩/١٤

فلست أعتقد أننا نملك ثمن تلك الحرية .. وإذا كانت الصين قد قررت أن تخوض حربها ضد خلل وتداعيات أخلاقياتها .. فإن مشكلتنا فى مصر هى أننا لسنا على إستعداد أصلا للإعتراف بإنهيار أخلاقى يستشرى فى أوصال مصر فضلا عن مواجهته وإعلان الحرب عليه .. فالزمن هو خير الأطباء .. هكذا يؤمن الكثيرون منا .. وقد إخترنا أن نترك للزمن وحده مهمة مداواة كل جراح وأوجاع الإنفتاح الأخلاقية والإجتماعية .. إن كانت هناك جراح وأوجاع أصلا .

وأنا أعترف أن قضيتى أو مشكلتى ليست هى أن يقتنع البعض أو لا يقتنع .. صحيح أننى لست متشائما إلى هذا الحد .. لكننى بالمقابل لست مثلهم متفائلا إلى الحد الذى معه أرى بقع الدم ورودا .. وأشم رائحة الياسمين بدلا من رائحة الضعف والقهر والعهر والخطيئة .. لست مثلهم أيضا أؤمن أن الزمن وحده كفيل بعلاج كل الأوجاع والجراح وتصحيح كل الأخطاء .. وإنما نحن الذين علينا أن نتوقف ونتأمل ونراجع ونحاول أيضا .. علينا ليس فقط أن نعرف ماذا حدث .. ولكن أيضا نحاول أن نعرف لماذا حدث كل هذا .. فليس الضمير ليستريح تماما إذا ألقينا بكل هذا الذى حدث على شماعة الإنفتاح .. أو إكتفينا بظروف وأزمات إقتصادية صعبة وخانقة ومتلاحقة .. وإتخذنا منها تفسيرا وحيدا ومبررا لكل ما إرتكبه البعض منا من ذنوب وخطايا .

أنا لا أدعى أن الإنفتاح ليس مسئولا .. ولا أزعم أن الإقتصاد وأزماته ومشاكله ليس سببا .. فحين نتأمل أحوال وواقع هذا العالم حولنا .. سنكتشف أن الإنفتاح إرتبط دائما بتلك التجاوزات الأخلاقية .. ومن قراءة التاريخ .. سنكتشف[1] أن الإقتصاد غالبا ما يلعب دورا هاما فى إضطراب العلاقات الإنسانية والإجتماعية وفى إنتشار الإنحراف الجنسى والدعارة .. لكن كان هناك بالتأكيد – فى مصر السبعينات – ما سمح لتجاوزات الإنفتاح الأخلاقية وإنحرافات الإقتصاد الجنسية بأن تتضخم إلى هذا الحد فتغدو أكثر قسوة وإيلاما وإنهيارا .. تماما مثلما غاب ما كان بإمكانه أن يعصم الكثيرين منا من أن ينتهى بهم الطريق كضحايا لتلك التجاوزات والإنحرافات .. ولا شك أنه كانت هناك أخطاء فردية وأخطاء أخرى وقع فيها ومارسها المجتمع كله كما كانت هناك أخطاء إرتكبها النظام .

واحد من أهم تلك الأخطاء .. هى تلك الخصوصية الشديدة التى إصطبغت بها حياة الجميع فى مصر .. باتت هناك لكل فرد حياته التى تخصه وحده .. وأحلامه التى ينوى تحقيقها وحده .. وحساباته التى لا تدخل فيها علاقاته بالآخرين أو حتى بأقرب الناس إليه .. لقد كانت ظاهرة تشارك فيها وتقاسمها الأغنياء والفقراء على السواء .. فالأغنياء مهمومون ومشغولون طول الوقت بحصد المزيد من المال سواء لتزداد الثروة أو فقط من أجل ألا تقل .. والفقراء طحنتهم رحلة البحث عن لقمة العيش وأضناهم القتال للبقاء على قيد الحياة .. ونزلت ستر ثقيلة ومعتمة تفصل بين كل الناس حتى داخل البيت الواحد .. وبدا الأمر فى النهاية كما لو أن الجميع قد تحولوا إلى جزر منفصلة تائهة فى بحر غاضب تتلاطم أمواجه فى قسوة وتوحش .. وهكذا .. لم يعد هناك كثير من الآباء والأمهات على إستعداد للتوقف ومراقبة سلوك أبنائهم وبناتهم سواء داخل البيت أو خارجه .. وأصبح من المشاهد المألوفة لرجال بوليس الآداب أن يأتى أب مضطرب ومذهول ليتسلم إبنته التى أخطأت وهو لا يصدق أن إبنته البريئة والرقيقة قد إنتهت إلى مثل هذا المصير

---

(١) د. ناجى الجيوش – الإنحرافات الجنسية – الأهالى للطباعة والنشر – سوريا – ١٩٨٨

مثله مثل الزوج الذى ينكسر وهو يستلم زوجته نصف عارية ونصف أنثى ونصف إنسانة .

إن أهم ما نخرج به من ذلك هو أن الطبقة الوسطى فى مصر كانت قد بدأت تفقد أهم مميزاتها على الإطلاق .. فالدكتور زكى نجيب محمود يؤكد (١) أن أهم ما كان يميز تلك الطبقة هو عنايتها بأبنائها وبناتها إلى حد الإسراف .. وهى العناية التى كان من نتيجتها - فى رأى شيخ فلاسفة مصر الراحل - المحافظة على المعايير التقليدية للأخلاق .. فلم تكن تلك الطبقة الوسطى تعانى من الإنحلال الذى قد تشكو منه الطبقة العليا .. ولم تكن تعرف اللامبالاة التى قد تتميز بها الطبقة الدنيا .

وغير الدكتور زكى نجيب محمود .. قدم لنا الدكتور فاروق لطيف دليلا إضافيا على مدى ما أصاب الطبقة الوسطى فى مصر من تآكل وتفسخ نتيجة العزلة والإغتراب حتى داخل البيت .. فالدكتور فاروق لطيف هو صاحب أول بحث عن حالات الإنتحار فى مصر (٢) .. وهو البحث الذى أشارت نتائجه إلى أن الرجال فى مصر ينتحرون أكثر من النساء .. أى عكس ما يحدث فى العالم الذى تنتحر فيه النساء أكثر .. وأن النسبة الأكبر بين المنتحرين فى مصر هم الذين تتراوح أعمارهم من الخامسة عشر إلى الخامسة والعشرين عاما .. أى عكس مايحدث فى العالم الذى ينتحر فيه الكبار أكثر من الشباب والمراهقون .. وأن أكبر فئة بين المنتحرين فى مصر هم الطلبة بشكل عام وطلبة المرحلة الثانوية على وجه خاص .

ومن حسن الحظ أن بحث الدكتور فاروق لطيف جاء فى وقته تماما .. لكن من سوء الحظ أن أحدا لم يكترث أو يهتم .. صحيح أن البحث لم يتضمن دوافع وأسباب الإنتحار فى مصر .. وإنما إكتفى صاحبه فقط بأن أوصى بضرورة إجراء دراسة أكبر وأوسع بعدما تبين له خطورة وحدة الأزمة .

وصية لم يحترمها أحد منا مطلقا .. تماما مثلما تجاهلنا وصية الدكتور فؤاد زكريا لنا عقب حادث الشواربى .. الحادث الشهير الذى جزت وقائعه فى فى شهر مارس عام ١٩٧٦ .. حيث فوجئ الناس فى ذلك الشارع الشهير الذى تحول إلى رمز لتلك الأيام بتطلعاتها ورفاهيتها وثيابها المستوردة .. بجريمة قتل يرتكبها فى وضح النهار لصوص إحترفوا بيع البضاعة المهربة أو المغشوشة .. وأصبحت جريمة الموسم التى تفرط الصحف فى الحديث عنها .. ولا يمل من متابعتها الناس فى المكاتب والمنازل والمقاهى .. وهذا ما دفع بالدكتور فؤاد زكريا لأن يكتب فى مجلة روز اليوسف (٣) يسخر من لجنة مستقبل العمل السياسى التى كانت فى تلك الأيام - وعلى حد تعبير الدكتور فؤاد - منشغلة بموضوعات ذات خطر عظيم مثل هل تكون المنابر السياسية ثابتة أم متحركة .. مفتوحة أم مغلقة .. مسدودة أم سالكة .. وبعد السخرية .. يكاد الدكتور فؤاد يصرخ كاتبا .. ياسادة إسمعوا نصيحتى لوجه الله .. إبحثوا بصدق وأمانة عن أسباب كل جريمة ترتكب فى مصر .. فتشوا عن جذورها .. لا تعالجوا كل ظاهرة على حدة .. فحادث الشواربى والسلبية إزاء مصالح المجتمع والتسيب فى المال العام وبيوت القمار وشبكات الدعارة والشقق المفروشة .. كلها ظواهر وثيقة الإرتباط ولا يمكن القضاء عليها بإجراءات فردية .. وبهذا

---

(١) د. زكى نجيب محمود - مجتمع جديد أو الكارثة - دار الشروق - ١٩٩٣
(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٧٦/١/١٥
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٧٦/٣/٢٩

المنوال الذى نتعامل به مع أزماتنا .. فسوف نقضى مائة سنة دون أن نمنع أن تلك الإنحرافات .

ولم يعد هناك شك فى أن ما طالبنا به الدكتور فؤاد زكريا .. كان فوق طاقتنا وأكبر من إحتمالنا .. فقد كانت مواجهة أزمات وهموم الواقع بتلك النظرة العميقة والشاملة .. تتطلب إعلاما وفكرا وثقافة من نوع آخر غير إعلام وفكر وثقافة السبعينات .. وهو ما قام الكاتب المسرحى الكبير نعمان عاشور بتلخيصه فى عبارة واحدة تصف المرحلة الساداتية بأنها (١) .. حياة ثقافية متردية وإنحطاط أدبى شامل وإنهيار فنى كاسح وإفلاس فكرى واضح فى كافة المجلات .

وهى تكاد تكون نفس النتيجة التى إنتهى إليها نبيل عبد الفتاح (٢) حين حاول تقييم الثقافة والفكر فى السبعينات .. وهو يؤكد أن الدولة تخلت عن الثقافة مع أنها أكثرت من ترديد مفردات لغوية فجة وسخيفة كالأمن الثقافى والأمن الإعلامى .. وهى مفردات فى حقيقتها لا تشير إلا إلى سيطرة المفاهيم الأمنية على النظام .. ويضيف نبيل عبد الفتاح مشيرا إلى أن المثقفين فى مجموعهم تحولوا إلى جزء من حاشية الأمير أو الفرعون .. وإن بقى قليلون منهم يحاولون إثارة القلق من تلك التحولات التى كان يمر بها المجتمع ومن خطورتها .. غير أن الغالبية قامت فى المقابل بدورها فى تأييد السلطة والتنديد بأية إنتقادات .

وبعد البيت والفكر والثقافة .. جاء الدور على الدين ليخرج من حلبة مواجهة هموم وجراح وأزمات الواقع .. ومثلما تم إستبعاد الدين من روشتة علاج أزمات وإنكسار يونيو عام ١٩٦٧ .. تم أيضا إستبعاد الدين من روشتة علاج آثار كل التقلبات السياسية والإقتصادية والإجتماعية الحادة بعد أكتوبر عام ١٩٧٣ .. وإذا كان جمال عبد الناصر لم يجد فى الدين إلا مجرد دعوة للصبر والإحتمال .. وتبرير شرعى للهزيمة بأنها قضاء الله .. فإن أنور السادات .. الذى إستهواه كثيرا لقب الرئيس المؤمن وإلتقاط الصور التذكارية والتليفزيونية له أثناء تأدية الصلاة .. لم يكن ليتردد فى تطويع الدين كله لما يخدم توجهاته ويتخذ منه غطاء من السماء لأى قرار ولكل خطوة .

وجاءت أوقات كثيرة بدا فيها أن كل ما هو مطلوب من الدين هو إقناع الفقراء بالصبر وعدم الإحتجاج على ظروفهم مع الزهد فى تلك الدنيا الخادعة بكمالياتها ورفاهيتها .. حيث الفقر فضيلة وحيث الرسول عليه الصلاة والسلام هو نبى الفقراء وشفيعهم ونصيرهم .. ثم ألقى السادات على كاهل الدين مهمة مقاومة الشيوعيين واليساريين .. ومن المؤكد أن السادات وجد فى كل مرحلة من يعينه على الإستعانة بالدين لصالح سياساته .. فالشيوخ كانت مهمتهم تسويغ الفقر .. وشباب الجماعات الإسلامية تصدوا للقضاء على أى فكر مخالف أو معارض .. ولم يكن ممكنا بطبيعة الحال أن ينشب أى صدام بين السادات وبين هؤلاء الشيوخ .. لكن الصدام بينه وبين شباب الجماعات الإسلامية كان قابلا للإنفجار فى أية لحظة .. وجاءت بالفعل لحظة الخصام والصدام ووصل الإثنان إلى نقطة مفترق الطرق .. ففتش النظام عن البديل .. والذى سرعان ما أصبح هو الشيخ الشعراوى .. الرجل الذى جاء تماما بالشكل وبالمواصفات التى كان يريدها السادات .. فأعطى النظام للشيخ كل ما كان متاحا من كاميرات ومكبرات للصوت .. وتفرغ الشيخ للحديث عن الإسلام بشكل فاض بالسذاجة والسطحية .. ومع كل تلك المساحات الإعلامية التى أتيحت للشيخ .. والتى أضيف إليها مقعد وزارة الأوقاف بعض الوقت .. إلا أن الشعراوى لم يتصد

---

(١) نعمان عاشور – المسرح والسياسة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

(٢) نبيل عبد الفتاح – خطاب الزمن الرمادى – يافا للدراسات والنشر – ١٩٩٠

مطلقا لأية قضية ساخنة من تلك القضايا التى كان يموج بها كل شارع وكل بيت فى مصر .. حتى بعد قتل الشيخ الذهبى وإكتشاف تنظيم التكفير والهجرة .. لم يستوقف ذلك الحادث لا الشعراوى ولا السادات الذى برر الحادث بأنه كان نتيجة فشل العلماء فى النزول من أبراجهم العاجية لعرض صورة الإسلام ببساطة ووضوح .. ومع ذلك بقيت مهمة رسم تلك الصورة التى يريدها السادات من نصيب الشعراوى وحده .. بالرغم من فشله الواضح فى مواجهة تلك الجماعات التى طالت أنيابها وتوحشت أفكارها وعقائدها .. فشل الشعراوى أيضا فى إستقطاب المثقفين والمفكرين .. حيث لم يكن الرجل يملك أى منهج عقلانى للحوار والجدل بقدر ما كان يملك موهبة التمثيل وسرقة إنتباه البسطاء أمام شاشات التليفزيون .. والذين تجرأوا وناقشوا الشيخ[1] مثل الدكتور يوسف إدريس والدكتور زكى نجيب محمود والدكتور فؤاد زكريا .. نالهم الكثير من الأذى .

ومع الشعراوى .. أصبح الدكتور مصطفى محمود واحدا من نجوم تلك المرحلة .. وبحكم دراسته وثقافته كان الدكتور مرشحا لأن يختص هو بالمثقفين والمفكرين .. لكنه إختار برنامجا أطلق عليه إسم العلم والإيمان .. وكان كل جهده وفكره ودوره قاصرين على عرض تلك الأفلام العلمية عن الحيوانات أو أمراض الجسد أو غرائب الطبيعة .. ليجلس الناس أمام التليفزيون يتابعون تلك الصور الملونة المثيرة للدهشة والإنتباه .. يجيئهم بين الحين والآخر صوت الدكتور مصطفى محمود متمتما بكلمات من نوع .. سبحان الله .. الله أكبر .. ثم ينتهى البرنامج ولا أحد يعرف لماذا أذيع أصلا .. فلم يكن المصريون فى ذلك الوقت – ولا فى أى وقت – فى حاجة إلى أن يعرفوا المزيد عن سلوك القردة أو أسرار البراكين أو غزو الميكروبات لجسد الإنسان .. ليترسخ إيمانهم بالله وليمتلكوا دليلا إضافيا على وجود الله وعلى وحدانيته .. إنما كان المصريون فى حاجة إلى ما يعينهم على واقعهم الجارح والمؤلم .. وهو ما ذهبوا يفتشون عنه فى مساجدهم .. مساجد وزارة الأوقاف التى وصفها أحد مسئوليها فى تلك الأيام بأنها [2] لم تكن أكثر من قاعة إستقبال .. كل ما هو مطلوب منها هو إستقبال الضيوف وتوديعهم .. ولم يجد المصريون أحدا يقدم لهم ما كانوا فى حاجة إليه.. لا من الشيوخ ورجال الدين .. ولا من أصحاب الفكر والثقافة والقلم .. وكان ما حدث هو أننا تركنا الناس يواجهون مصيرهم وأزماتهم النفسية والمادية دون حماية أو سند حقيقى سواء فى البيت أو الشارع أو المسجد .

ثم .. جاءت سنة ١٩٧٧ .. وفيها كانت مصر على موعد مع حادثتين لكل منهما تداعياتها ودلالتها وعواقبها .. الأولى كانت فى يناير.. وفيها ثار الفقراء فيما عرف بعد ذلك بإنتفاضة الخبز.. والثانية فى نوفمبر ..حين سافر أنور السادات إلى إسرائيل ليبدأ عصر السلام .. أو التظاهر بالسلام والتغنى به .

الحادثة الأولى إنتهت بشرخ فى جدار النظام السياسى المصرى .. وهو ما يعنى بالضرورة شروخا فى الجدران الإجتماعية والأخلاقية .. والحادثة الثانية .. فتحت أبواب مصر نهائيا أمام الإسرائيليين الذين لم يأتوا كلهم إلى مصر كسياح يودون أن تلتقط لهم الصور أمام الأهرامات أو فى إحدى مراكب النيل .. وإنما جاء بعضهم .. والصحيح جاءت بعضهن من أجل الجنس ..

---

(١) عادل حمودة – الهجرة إلى العنف – سينا للنشر – ١٩٨٧

(٢) النظام الحاكم والمعارضة فى مصر فى عهد السادات – الهيئة العامة للإستعلامات – كتب مترجمة – رقم ٧٧٠– ١٩٨٢

ليتحول الجنس بعد سنوات قليلة – وعلى الطريقة الإسرائيلية – إلى وسيلة لجمع المعلومات والحقائق التى يحتاجها الموساد أو جهاز المخابرات الإسرائيلية .. أو يصبح الفراش هو الميدان لحرب جديدة بين مصر وإسرائيل بعد سلام السلاح هى حرب الإيدز .

وفوق ذلك كله .. كان الأمر يزداد سوءا يوما بعد يوم .. وبقيت مساحة الإثارة والرغبة تتضخم وتتزايد .. وخفت صوت الضوابط والقيود الدينية والأخلاقية والإجتماعية .. وأصبح عدم الإستقرار إحدى السمات المميزة والمؤكدة للمجتمع المصرى .. ومن الثابت أن عدم الإستقرار الإجتماعى [1] – سواء فى مصر أو فى أى دولة فى العالم – يدفع الناس للبحث عن ملذات جديدة .. هذا بالإضافة إلى أن المجتمع الإستهلاكى يحيل الجنس إلى تسلية أحيانا .. وأهم مجال لرد إعتبار الفرد أحيانا أخرى .. وقد يصبح الجنس أيضا ملاذا أخيرا للإنسان فى هذا العالم اللا إنسانى .

وهكذا .. لم يعد أمرا يثير الدهشة أن تتسع فى كل يوم دائرة الخطيئة .. وتحرق نارها كل يوم مزيدا من بنات مصر يكتسبن لقب ساقطات .. وشبابا مصريا يتحولون إلى متهمين فى قضايا هتك عرض وإغتصاب .. من مائة وثلاثة عشر حادثة [2] عام ١٩٧٧ .. زادت ثلاثة حوادث فى العام التالى .. ثم زادت ستة عشر حادثة عام ١٩٧٩.. وليصبح العدد فى أول أعوام الثمانينات مائة وثمانية وعشرين حادثة .

فى الواقع .. إفتتحت مصر الثمانينات بالكثير من حوادث الإغتصاب لعل واحدة من أوائلهم وأشهرهم كانت تلك الحادثة التى فى أحد ليالى شهر أبريل عام ١٩٨١ والتى جرت وقائعها فى حى النزهة الجديدة عند أطراف شمال القاهرة .. حى جديد هادئ إنضم بسرعة وعلى إستحياء إلى خريطة القاهرة المكتظة والمتفجرة .. وفى أحد شوارع ذلك الحى كان مهندس شاب يتنزه مع خطيبته التى تعمل باحثة بإحدى الهيئات الحكومية فى السيارة الفولكس الصغيرة .. وفجأة .. اعترض طريق السيارة شاب رغم أنه أحد رجال المباحث لكنه بدلا من أن يطلب الرخصة أو أوراق تحقيق الشخصية .. أخرج من جيبه مسدسا وتحت التهديد خرجت الفتاة من السيارة فإصطحبها الشاب إلى منطقة جبلية حيث إعتدى عليها هناك وهرب دون أن ينسى سرقة مصوغات الفتاة الذهبية التى عادت بعد خمس ساعات ممزقة الثياب منهكة القوى والجسد .

وفى اليوم التالى .. إستقل أحد ضباط المباحث سيارة ويصحبته فتاة وسارا فى نفس شوارع النزهة الجديدة التى سارت فيها السيارة الفولكس قبل أربعة وعشرين ساعة .. وإعترضهما شاب يحمل مسدسا فتم القبض عليه .. وتبين أنه ليس نفس الشاب بطل حادث الإغتصاب .. تبين أيضا أن الإثنين تربط بينهما علاقة زمالة وصداقة حيث يعمل الإثنان كمقاولين بإحدى الشركات وقد إعتادا القيام بمثل تلك الحوادث فى هذة المنطقة أى أن حادث السيارة الفولكس لم يكن الأول وكان من الممكن ألا يكون الأخير .

بعد ثلاثة أيام فقط من تلك الحادثة .. وحين إقتربت الساعة من التاسعة مساء .. كان مهندسا شابا يستقل سيارته وبجواره خطيبته يسيران فى أحد شوارع مصر الجديدة قرب نادى الطيران فى طريقهما لزيارة بعض الأقارب فى الماظة .. وفجأة .. تقطع عليهما الطريق سيارة أخرى

---

(١) أ. س . كوين – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢
(٢) تقرير الأمن العام الصادرة عن وزارة الداخلية

يخرج منها رجلان كفتوات السينما يهجمان على الشاب وخطيبته فينزعان ساعة الشاب وحافظة نقوده وأيضا مصوغات الفتاة .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما إنهال الإثنان على الشاب وخطيبته ضربا بقسوة مخيفة .. ثم حاولا أخذ الفتاة معهما ويستميت الشاب فى الدفاع عن خطيبته وهو ينزف الدماء من كل مكان فى جسده تقريبا حتى سقط مغشيا عليه .. ويبدأ الإثنان يحاولان إغتصاب الفتاة لولا أضواء سيارة قادمة من بعيد جعلتهما يلوذان بالفرار .

بعد ستة أشهر فقط .. كان حادث إغتيال أنور السادات !.

مبدئيا .. ليست هناك أية علاقة بين الحادثتين سوى أنهما – مع حوادث أخرى – كانوا إفتتاحية حزينة جدا وغاضبة جدا وقاسية جدا لسنوات الثمانينات .. أما ما عدا ذلك .. فليست هناك علاقة بين الإغتصاب وبين الإغتيال .. ليست هناك صلة قرابة أو نسب بين من يمارس غريزة بدائية ومن يؤدى فريضة غائبة .. بين الثياب القصيرة وبين الذقون الطويلة .. بين فساتين السهرة وبين الجلاليب البيضاء .

وإذا كان حسنى مبارك – وكما قال محمد حسنين هيكل بعد ذلك – قد وضع بعض الثلج على رأس مصر للتخفيف من حرارة فورتها (١) .. إلا أنه من المؤكد أن حبات الثلج لم تكن كافية .. فى الواقع كانت مصر تحتاج إلى عدة جراحات عاجلة .. لكن لم يكن هناك من هو على إستعداد لأن يمسك بالمشرط حتى لا يغدو فى النهاية متهما بالإساءة إلى مصر وصورتها وأهلها .. رغم أن الصورة كانت تزداد قتامة .. رغم أن كل المظاهر والدلالات كانت تشير إلى أن الأغلبية التى إختارت منذ سنوات الوقوف على الحياد تتأمل وتنتظر وتراقب .. بدأت فى التآكل وبدأ عقدها ينفرط فتفقد فى كل يوم جديد عددا من الشباب والفتيات إما يختاروا الإعتصام بعباءة الدين .. وإما يشترون مباهج تلك الحياة الجديدة أيا كان ثمنها الذى سيتعين عليهم أن يدفعوه .

لكننا لم نتزعزع أو نخاف .. وبالرغم من أن أى منطق كان سيؤكد أن الثمانينات ستصبح بالضرورة هى حصاد أخلاق السبعينات .. إلا أننا تخيلنا – ولا أدرى كيف – أن الثمانينات وحدها .. قادرة على شفاء أوجاع الستينات والسبعينات .

.. لكن

لم يقف زماننا فى صفنا .. لم يقف حتى على الحياد بيننا وبين أزماتنا وأوجاعنا وأخلاقنا .. فكان الثمن الذى دفعناه في الثمانينات أفدح وأقسى مما دفعناه فى الستينات والسبعينات معا .. ثمن لم يكن هناك من هو قادر على الإفراط فى الخيال ليتصور مدى فداحته .

لم يزد عدد شبكات الدعارة .. لأن الكثيرين منا لم يعودوا فى حاجة إلى عاهرات يذهبوا بهن إلى الفراش .. فقد أصبح الجنس متاحا فى أى وقت وفى أى مكان وبأى ثمن وغالبا بدون ثمن على الإطلاق .. وإنتقل الحب العذرى الرومانسى الحالم فى أحيان كثيرة إلى خانة التراث والذكرى .. أما حوادث الإغتصاب فقد زادت حتى بلغ عددها (٢) فيما بين عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨٦ ألفا ومائة وأربعة حادث إغتصاب !.. وبدأ معدل حوادث الإغتصاب يتزايد (٣) عاما بعد آخر بعد عام ١٩٨٠ بإستثناء عام ١٩٨١ فقط .. ولم تكن الزيادة فقط فى عدد جرائم وقضايا الإغتصاب

---

(١) مجلة الوطن العربى – باريس – عدد ١٩٨٥/١١/١
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/٢٧
(٣) مجلة الأمن العام – عدد ١٩٨٠/١

وإنما كانت هناك زيادة أخرى فى نسبة جرائم هتك العرض والإغتصاب بالمقارنة مع باقى الجرائم والحوادث في المجتمع المصرى .. وتؤكد دراسة للدكتورة نادرة وهدان [١] أنه فى عام .. كانت نسبة جرائم هتك العرض والإغتصاب إلى باقى الجرائم لا تتجاوز ٦,٢ ٪ .. لترتفع نفس النسبة بعد ذلك فى عام ١٩٨٢ إلى ٩,٨ ٪ .. ثم تزيد فى عام ١٩٨٤ لتصبح ١١ ٪ .. وفى تقرير للأمن العام يصدر سنة ١٩٨٩ .. نكتشف زيادة عدد الجرائم ذات العلاقة بالقيم الخلقية [٢] وهى من الجرائم التى كانت غريبة وقليلة مثل جرائم هتك العرض والإغتصاب .

وبالطبع .. لم تكن كل جرائم الإغتصاب .. إغتصابا بالمعنى الذى نعرفه أو نستطيع أن نتخيله لكنها فقط كانت دليلا على مدى التفسخ والتداعى .. فعلى سبيل المثال .. تابعت الصحف اليومية - بشغف وإهتمام - جريمة روكسى الشهيرة والتى جرت أحداثها فى شهر أغسطس عام ١٩٨١ .. وكانت ضحيتها فتاة إختطفها ثلاثة من الشباب تحت تهديد المطاوى أثناء سيرها مع خطيبها فى ميدان روكسى .. وذهب بها هؤلاء الشباب إلى سطح إحدى العمارات حيث قاموا بإغتصابها هناك .. وأثناء هروبها رأتها مجموعة أخرى من الشباب يزيد عددهم عن العشرين شابا .. فأخذوا الفتاة إلى شقة أحدهم وهناك قاموا جميعا بالإعتداء عليها .

وكان من الممكن أن تنتهى الحكاية عند هذا الحد .. وكان من الممكن أيضا أن أسوقها أنا دليلا على مدى توحش الرغبة تحت جلد شباب مصر إلى حد أن يقوم ثلاثة وعشرون شابا منهم بإغتصاب فتاة واحدة فى فترة لم تتجاوز ساعات قليلة .. لولا صحفية مجتهدة وعنيدة بمجلة صباح الخير إسمها منى سراج لم يسترح ضميرها لمثل تلك الحكاية .. فذهبت بضمير الصحفية ومشاعر الإنسانة تفتش عن الحقيقة .. وكانت الحقيقة كما كتبتها منى فى المجلة [٣] هى أن تلك الفتاة .. وإسمها هنية .. مجرد عاهرة .. وأن كل ما حدث من تهديد وإستخدام المطاوى لم يكن أكثر من خلاف على السعر .. سعر ممارسة الجنس مع عشرين شابا لا مع ثلاثة فقط كما تم الإتفاق .

إن هؤلاء الشباب لم يكونوا فى حاجة إلى الجنس فقط .. لكنهم كانوا أيضا فى حاجة إلى المال وإلى التمرد والغضب والثورة .. من أجل ذلك كله .. لم يكن مفاجئا أو مثيرا للإستغراب والدهشة أن يقوم قسم الإحصاء الجنائى بمصلحة الأمن العام بدراسة [٤] حول ظاهرة إنحراف الطلبة فى مصر فى الفترة من عام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٨١ فتشير النتائج إلى أن هناك الف وسبعمائة وخمسة جريمة إرتكبها الطلبة فى مصر .. تتراوح مابين القتل العمد وبين الضرب وإحداث العاهات مرورا بالخطف والإغتصاب وهتك العرض والتزوير والسرقة .. المفاجأة فقط كانت أننا قرأنا نتائج تلك الدراسة والف دراسة أخرى بلا مبالاة لا حد لها أو نهاية وكأن كل ما يحدث .. طبيعى جدا ومنطقى جدا .. حتى معدلات الإستهلاك التى تضخمت فأوجعتنا فى السبعينات .. لم تجد فى الثمانينات من يكبح جماحها وجماح الناس فى مصر .. ليأتى عام ١٩٨٣ مثلا .. فإذ بنا ننفق كل إيرادنا من قناة السويس ومن السياحة [٥] فقط على شراء السلع

---

(١) مجلة الأمن العام عدد ١/١٩٨٠.
(٢) مجلة اليسار - عدد ٤/١٩٩٠
(٣) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨١/٨/١٣
(٤) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٥/١/٢٤
(٥) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٦/٥/١٢

الإستهلاكية المعمرة .. فدام حصار دائرة التطلعات والتنازلات والسعى المحموم والمجنون لحياة أكثر رفاهية .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. فقد عاد العرب الأثرياء مرة أخرى إلى مصر .. لتزدهر بشكل مخيف الدعارة الصريحة .. أو الدعارة المقنعة تحت إسم الزواج من فتيات مصر لمدة يوم أو شهر على الأكثر .. ومن ناحية أخرى بقيت حكايات الجنس الإسرائيلى فى مصر تتواتر طوال سنوات الثمانينات .. حكايات بقيت حبيسة الآذان والعقول والذاكرة طويلا حتى تفجرت حادثتان أزالتا الكثير من الغموض وفضحتا الكثير من الأسرار التى إمتزجت فيها الشهوة بالسياسة بالرغبة بالمخابرات بشهوة الجسد ورائحة الموت .

وقعت الحادثة الأولى عام ١٩٨٦ .. فى حى الدقى بالقاهرة .. حين تم العثور على جثة سيدة ألمانية عارية تماما وغارقة فى دمائها .. لتبدأ سلسلة طويلة من التحقيقات الشاقة والمزعجة عن سلوك تلك المرأة لمحاولة الوصول إلى قاتلها .. ولم يكن أحد يتخيل أن التحقيق فى سلوك إمرأة أجنبية جاءت إلى القاهرة لأول مرة عام ١٩٨٣ .. وبقيت بها فترات متقطعة حتى موتها فى عام ١٩٨٦ .. يمكن أن يستدعى كتابة ثلاثة آلاف ورقة .. وأن تطال دائرة التحقيقات مائتى وخمسين شابا ورجلا كانوا على علاقة بشكل ما أو بآخر بتلك السيدة التى كانت جميلة وشقراء ومثيرة ومتفجرة بالرغبة والشهوة والتى كانت فى الثامنة والعشرين من عمرها يوم موتها .

وأكدت تحقيقات الشرطة أن تلك المرأة والتى كان إسمها هينى .. لم تكن منحرفة محترفة .. لأنها لم تكن تهتم بالمال .. بإختصار لم تكن عاهرة .. ومن المؤكد[1] أنها لم تأت للقاهرة من أجل الجنس .. وإنما جاءت تستعين بالجنس من أجل أهداف أخرى .. ومن المؤكد أن المجهول الذى قتلها إما جهاز مخابرات أو إحدى عصابات المافيا أو التهريب .

أما الحادثة الثانية .. فكانت حادثة القبض على الجاسوس الإسرائيلى فارس مصراتى وإبنته فايقة التى تم القبض عليها [2] وهى فى الفراش مع شاب مصرى تعرفت عليه فى أحد الملاهى .. ولا يعنينا هنا كم المعلومات التى نقلها الجاسوس وإبنته إلى جهاز الموساد الإسرائيلى .. وإنما يعنينا كيف جاءت هذه المعلومات وبأى طريق .. فقد أظهرت التحقيقات [3] أن الإبنة فايقة .. والتى لم تتجاوز السابعة عشر من العمر وتتمتع بجاذبية وجمال وجسد مشتعل بالرغبة والإثارة .. قد نجحت فى إغراء كثير من الشباب .. وكانت فايقة تصطاد هؤلاء الشباب من النوادى أو الفنادق الكبيرة وصالات الرقص والديسكو حيث تشاركهم بعد ذلك سهرات حمراء سواء فى شققهم الخاصة أو فى الشقة المفروشة التى يستأجرها أبوها وبموافقته .

فى التحقيقات أيضا .. إعترف فارس مصراتى أن جسد إبنته كان أسهل وسيلة ساعدته على جمع ما يكان يريده من معلومات .. ولم يستطع الأب أن يحصى عدد الشبان الذين تعرفت بهم أو عليهم إبنته .

وإذا كان قد أشيع بعد ذلك أن فايقة مصابة بالإيدز .. وأن مهمتها فى القاهرة لم تقتصر على جمع المعلومات فقط .. وإنما كان عليها أن تغرس الفيروس القاتل لأكبر عدد ممكن من شباب مصر .. إلا أن التحاليل أثبتت بعد ذلك أن فايقة ليست مصابة بالإيدز .. وإنما كانت التى تولت هذه المهمة عصابة أخرى ضمت عاهرات قدمن من إسرائيل فى عام ١٩٨٩ .. وبدأت نشاطها فى

(١) مجلة الحوادث - لندن - عدد ٣٠/٥/١٩٨٦
(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/١٢/١٧
(٣) مجلة آخر ساعة - عدد ١٩٩١/١٢/١٩

مدينة الإسماعيلية -وتحولت الحكاية بعد ذلك إلى فضيحة تناولتها السنة الناس فى المدينة الهادئة الصغيرة - وقضت العاهرات أربعة أيام فى الإسماعيلية إلتقين خلالها بعدد من شباب المدينة تقاسمن معهم أقرب وكل فراش ممكن .. وفوجئ الشباب بعد سفر العاهرات بعبارة تكررت على أكثر من حائط تقول .. تعالى إلى نادى الإيدز .. وللأسف لم تغادر هؤلاء العاهرات الإسماعيلية إلى إسرائيل .. وإنما إلى القاهرة .. وهناك تكرر ما حدث من قبل فى الإسماعيلية .. وظهرت نفس العبارة الحزينة القاسية مرة أخرى .

وحين قادتنى الظروف للعمل كطبيب مقيم فى مستشفى شرم الشيخ المركزى عام ١٩٨٨ .. سمعت وعرفت ورأيت كثيرا من الشباب وقعن ضحية شهواتهم التى أطلقتها من قماقمها فتيات إسرائيليات أو أوروبيات بإبتسامة مغرية ومايوه بكيني حارق وإستعداد دائم لممارسة الجنس فى أى وقت وفى أى مكان وبدون أى ثمن أو مقابل .. وكثيرا ما كانت الإصابة بالإيدز هى المقابل وهى الثمن .

ولا يعنينا من ذلك إلا أن الجنس أصبح أكبر من مجرد رغبة أو شهوة .. وتحول إلى نقطة ضعف واضحة وقاسية فى الكثير من شباب مصر .. ومن المؤكد أن هذا ليس إستنتاجا خاصا بى .. أو بنا جميعا .. فقد سبقنا وإستنتج ذلك جهاز الموساد الذى أعلن (١) أن المال قد يكون وسيلة مباشرة للتجنيد لكنها وسيلة لا تصلح غالبا مع المصريين .. لكن الجنس يصلح !.. وهى السياسة التى إتبعها الموساد دائما مع مصر .. منذ الخمسينات حين تم تكوين شبكتين للتجسس فى مصر كل أفرادهما من اليونانيين المقيمين فى مصر (٢) .. وقد إعتمدت الشبكتان على الشذوذ الجنسى فى الإيقاع بالمصريين وبصفة خاصة داخل القوات المسلحة .. وتمكنت المخابرات المصرية من القبض على كل أعضاء الشبكتين اللتين كان يدير إحداهما إسبيريدون قسطنطين .. فى حين كان يدير الأخرى القنصل اليونانى فى بورسعيد .

وبمرور الأيام .. وعاما بعد آخر .. تحول الجنس .. وتحولت الدعارة .. إلى أكثر من جريمة وأكثر من قضية أصبحت تضمها قائمة الجرائم والقضايا التى تورط فيها السياح الإسرائيليون فى مصر .. وتم إكتشاف أكثر من شبكة دعارة إسرائيلية (٣) كانت أخطرها شبكة تم إكتشافها فى حى المهندسين فى شهر يوليو عام ١٩٩٢ وشبكة أخرى فى الإسكندرية .. هذا غير الإصرار الإسرائيلى على ترويج أفلام الجنس سواء المهربة عبر سيناء .. أو ببثها عبر إرسالها التليفزيونى الذى يمكن إلتقاطه بوضوح وسهولة فى مدن القناة أو عبر الهوائيات المتقدمة والأطباق الفضائية فى القاهرة وسائر مدن مصر .

ومع ذلك .. فلا يمكن لأحد منا أن يدين إسرائيل مطلقا .. فهى تعيش معنا حالة حرب دائمة بصرف النظر إذا جنحنا نحن للسلم ولم يجنح إليه أحد غيرنا .. وإنما المذنبون الحقيقيون هم نحن .. هم الذين تعمدوا تخريب المجتمع المصرى .. تخريب الناس والأفكار والأحلام والأخلاق فى مصر .. سواء أولئك الذين لم يكترثوا بمداواة جراح مصر بعد هزيمة يونيو .. أو الذين رشوا مزيدا من الملح فوق نفس الجراح القديمة وجراح زمن الإنفتاح السعيد .

الكل مذنب ومدان .

ومصر وحدها .. هى التى دفعت - ولا تزال - ثمن الآثام والخطايا والذنوب .

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٢/١٧

(٢) د. سامى محمود - السلطة والجنس - الكتاب العالمى - قبرص - ١٩٩٣

(٣) جريدة العالم اليوم - عدد ١٩٩٢/١١/١٧

(٤)

الخروج الكبير

وحين لبى رجالها نداء النفط
كنا نعثر كل يوم
على أطفال سفاح!

هشام قشطة

ديوان : ذاكرة القرى

سافر الزوج إلى شاطئ الخليج يعمل ويتعب ليجنى الكثير من المال .

ولم تتعب الزوجة فى البحث عن رجل آخر تتفق معه .. أو عليه .. هذا المال .

هذا هو ملخص حكاية .. أو حكايات كثيرة .. بطلها رجل من مصر هاجر إلى إحدى بلاد الشرق العربى الغنية ليبقى ويعمل هناك .. وبطلتها إمرأة من مصر لم تصمد طويلا – فى غياب زوجها – أمام حاجاتها الجنسية ورغباتها المكبوتة .

حكاية .. أو حكايات .. إختصرها الدكتور عبد العظيم رمضان [١] فى سطور قليلة قال فيها : إنهارت أسر بكاملها لأن عائلها ظن أن مهمته فى الحياة هى أن يبقى مغتربا فى دول الخليج ليقوم بدور البقرة التى تحلبها أسرته الصغيرة فى مصر .. فإنهارت زوجات كثيرات تحت ضغط الوحدة والثراء معا وأردن الإستعاضة عن البقرة الغائبة بثور فى مصر يدخل البهجة إلى نفوسهن التى تعيش فى رفاهية غير مسبوقة ولكنها مليئة بالحرمان .

كلمات فظة وثقيلة على الأذن والعين والقلب .. حتى وإن لم تكن كل الحقيقة ولا تصلح مطلقا لأن تكون ملخصا لكل حكاية سفر وإغتراب .. فليس من الأمانة أو الموضوعية .. أن نصف كل رجل مصرى هاجر إلى بلاد النفط والثروة بأنه قد تحول إلى البقرة التى تحلبها أسرته الصغيرة أو الكبيرة .. ولا أن نتهم كل زوجة مصرية هاجر زوجها بأنها كانت طول الوقت فى حاجة إلى ثور واحد أو كثير من الثيران ليحلوا محل البقرة الغائبة .

لكن .. لا يعنى ذلك بالمقابل أن عدد الأبقار أو الثيران فى حظيرة الجنس المصرية كان ضئيلا أو تافها أو إستثنائيا يمكن التغاضى عنه وتجاوزه .. إنما كان من الكثرة بما يكفى ليصنع ظاهرة وليصب مزيد من الوقود على النيران التى أشعلتها سنوات ما قبل الثورة وما بعدها .. ثم سنوات الحرب والهزيمة والإنتصار .. ثم فاتورة حساب الإنفتاح وتداعياته وآثاره .

وبشهادة التاريخ .. يصبح ما حدث منذ أواخر الستينات وحتى نهاية السبعينيات أمرا إستثنائيا فى تاريخ مصر .. فهذا التاريخ شاهد على أن المصريين من أكثر شعوب العالم إستقرارا وإرتباطا بأرضهم .. منذ أيامهم الأولى .. علمتهم دروس الجغرافيا الإلتصاق بواديهم الضيق .. فالخروج إلى الصحراء كان غالبا ما يعنى مغامرة ستنتهى إما بالضياع أو الموت .. وكان لهذا السجن الإضطرارى الجماعى والإلتصاق المحتوم بالأرض .. أثره العميق والحاد فى أن يتوارث المصريون جيلا بعد جيل أعماقا ترتعش خوفا من الغياب والغربة .. حيث السفر فى مفهومهم لا يرتبط بأية بهجة أو متعة .. بل إن السفر من جنوب الوادى إلى الشمال أو العكس .. كان يعنى لهم الغربة الصعبة القاسية التى تستدعى الحزن والألم ودموع الفراق .

وعلى مدى مئات السنين .. ومنذ عصور ما قبل أسرات الفراعنة .. لم يعرف المصريون الهجرة بمعناها الحقيقى – وبأعداد كبيرة – إلا عقب الفتح العثمانى لمصر حين أمر السلطان سليم الأول بسفر كثير من رؤساء الطوائف وأرباب الحرف والصناعات اليدوية من مصر إلى الآستانة .

وفى بدايات القرن العشرين حكى لنا الكاتب الإنجليزى إيلجود عن قرار قوات الإحتلال الإنجليزى عام ١٩١٥ بعد بداية الحرب العالمية الأولى بتصدير بعض العمال المصريين إلى الخارج [٢] .. فسافر خمسمائة عامل من صعيد مصر فى أغسطس عام ١٩١٦ إلى جزيرة

(١) مجلة أكتوبر – عدد ٧/٧/ ١٩٩١

(٢) مجلس الشورى – تقرير اللجنة الخاصة عن هجرة العمالة المصرية – ١٩٨٧

موريوس بالبحر الأبيض .. ونتيجة لنجاح أولئك العمال فى مهمتهم .. تلقت القاهرة طلبات أخرى بتصدير عمال جدد .. حتى إقترب العدد فى النهاية من ثلاثة الاف عامل شحنهم الإنجليز إلى تلك الجزيرة وغيرها .. بالإضافة إلى سفر ثمانية الاف وخمسمائة عاملا إلى العراق .. وعشرة الاف وخمسمائة عاملا إلى فرنسا .. حتى بات هناك قرابة مليون ومائة وسبعون الف مصرى هاجروا خارج البلاد بإنتهاء الحرب دون أن نعرف - حتى اليوم - ما إذا كان هؤلاء المهاجرون قد عادوا مرة أخرى إلى مصر أم لا .

كل ما نعرفه .. هو أن المصريين - بعد نهاية الحرب العالمية الأولى - عادوا مرة أخرى إلى طبيعتهم الأولى المستقرة المغروسة فى هذة الأرض على ضفاف النيل .. وفى مدن الوادى وقراه .. لتعود من جديد بعض الإستثناءات فى سنوات الستينات الأولى .. ثم جاءت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ لتجعل من تلك الإستثناءات ظاهرة .. فقد سافر الكثيرون إما هربا أو خوفا أو يأسا إلى كثير من بلاد الغرب .. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هى مقصد غالبيتهم .. لكن تغير ذلك كله بعد حرب أكتوبر التى جاءت بتلك الزيادة الخرافية فى ثروات دول المشرق العربى .. فتحولت أنظار المصريين من الغرب إلى الشرق .. وفى نفس الوقت خلقت سنوات الإنفتاح وأزماتها ومصاعبها أكثر من دافع ومبرر للسفر أو الهروب .. وبدأ التسابق بين المصريين على ترك وظائفهم وأرضهم وشد الرحال إلى الدول البترولية لتحقيق الثروات .. حتى بلغ رقم المصريين المهاجرين فى عام ١٩٧٦ مليونا ونصف المليون مصرى (١) نصفهم على الأقل من العاملين فى الخارج والنصف الآخر ضم عائلاتهم ومرافقيهم .. ولم يعد هناك ما يمكنه أن يوقف نزيف المصريين خارج مصر عاما بعد آخر .. حتى جاءت الثمانينات لتعيش مصر لأول مرة فى تاريخها ظاهرة الهجرة والإغتراب بهذا الحجم .. فالمصريون فى السبعينات والثمانينات باتوا يسافرون إختيارا لا إضطرارا .. بمحض وكامل إرادتهم لا يشحنهم ولا يجبرهم أحد على الغياب .. وهى ظاهرة إرتبطت - بشكل ما أو بآخر - بظاهرة أخرى تتعلق بمدى ولع المصريين بالعبارات الإنشائية والمبالغة .. وحجم الخصام الدائم والهائل بينهم وبين الحقائق والأرقام .. فإذا كانت الهجرة قد تحولت فى الثمانينات إلى واقع عشناه جميعا .. فإنه من المؤسف ألا نعرف - حتى الآن - عدد المصريين العاملين فى الخارج سواء فى سنوات الثمانينات أو نعرف حتى عددهم اليوم .. ومن الواضح أن الدكتور نادر فرجانى - مؤلف كتاب إسمه سعيا وراء الرزق تحول إلى أشهر دراسة علمية عن سفر المصريين إلى الدول العربية - قد عانى كثيرا أثناء إعداد دراسته تلك .. فقد إكتشف الرجل (٢) مدى تفاوت التقديرات الرسمية وشبه الرسمية لعدد المصريين فى الخارج فى أوائل الثمانينات من مليون مصرى إلى خمسة ملايين مصرى !.. ولنا أن نتخيل حيرة الرجل وهو يرصد بعض المبالغات الصحفية التى أوصلت هذا الرقم أحيانا إلى قرابة التسعة ملايين مصرى يعمل خارج مصر فى حين أن عدد المصريين القادرين على العمل لم يزد فى ذلك الوقت عن الإثنى عشر مليونا .

وأنا شخصيا أزعم أننى حاولت الإستقرار على رقم واحد لعدد المصريين العاملين فى الخارج وفشلت .. وكان من الضرورى أو من الطبيعى أن أفشل .. فالرئيس مبارك مثلا .. أعلن فى

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء - تعداد عام ١٩٧٦

(٢) د. نادر فرجانى - سعيا وراء الرزق - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ١٩٨٨

خطاب له القاه في شهر نوفمبر عام ١٩٨٥ .. أن عدد هؤلاء العاملين يزيد عن المليونين ونصف المليون مصرى .. فإذ بوزارة الهجرة والمصريين فى الخارج تخرج علينا بعد أسبوع واحد فقط من خطاب الرئيس برقم جديد يفيد وجود أربعة ملايين ونصف المليون مصرى يعمل خارج مصر فضلا عن أن محمود مراد – الصحفى بجريدة الأهرام – تطوع فضاعف هذا الرقم (١) .

ولهذا .. أجدنى مضطرا إلى إعتماد رقم الدكتور نادر فرجانى الذى توصل إلى أن عدد المصريين العاملين فى الخارج .. من عام ١٩٧٤ وحتى عام ١٩٨٤ .. قد بلغ ثلاثة ملايين ونصف المليون مصرى .. أما آخر إحصائية تقريبية لهؤلاء المهاجرين .. فقد أعدتها وزارة الخارجية (٢) وأشارت فيها إلى أن عدد المصريين العاملين فى الدول العربية قد بلغ الثلاثة مليون مصرى .

وأيا كان الرقم .. فعدد المصريين المغتربين لم يكن هو المشكلة .. وإنما كانت المشكلة الحقيقية هى أسباب الهجرة ودوافعها .. ثم آثارها ونتائجها بعد ذلك .. وتشير كل الدلائل إلى أن المال كان الدافع الحقيقى للسفر والإغتراب .. كان المال هو المقصد والهدف ونهاية السعى والحلم .. فتش عنه على تلك الشواطئ البعيدة من كان يريد إستكمال مقومات الحياة الأساسية .. وبنفس السعى والإصرار واللهفة .. كان تفتيش من كان يريد التنعم بمباهج الحياة والإستمتاع بكمالياتها رفاهيتها .

لكن .. وفى سنوات الطوفان الأولى .. كانت الأغلبية من أولئك الذين سافروا من أجل أساسيات الحياة .. وكانت هجرة المصريين للدول العربية هى هجرة الفقراء والمستضعفين .. فأكثر من ثلثى المهاجرين فى السبعينات وحتى منتصف الثمانينات كانوا من العمال الحرفيين والفلاحين الفقراء (٣) .. ثم مضت سنة بعد أخرى .. ولم يعد الفقراء والمستضعفون فقط هم الحالمون بالسفر .. فالمال تحول إلى القيمة الحقيقة غالبا.والوحيدة أحيانا التى تحكم وتتحكم فى كل نواحى الحياة وخصائصها حتى المشاعر والعلاقات الإنسانية .. ولم يعد هناك من هو قادر على أن يتوقف ليرى ما بين يديه بالفعل ويسعد به ويقنع .. وإنما لم يعد أحد يرى إلا ما هو بين يدى الآخرين .. وما يمكن أن يكون بين يديه هو .. فقط لو جاءت فرصة العمر .. التى هى عقد عمل .. وتأشيرة .. وتذكرة سفر .. وسنة فى الغربة قد تصبح سنتين أو عشرة سنوات .

بإختصار .. لم تعد هناك أية فروق واضحة بين ماهو ضرورى وما هو غير ضرورى .. أصبح الإحتياج للكماليات لا يقل قسوة وإلحاحا عن الإحتياج للأساسيات .. وداست الأقدام فى ذلك السعى المحموم مفردات وصفات باتت خارج إطارة الصورة العامة للمجتمع مثل القناعة والتعفف والإكتفاء والترفع .

وبقدر ما كانت دوافع هذا السفر مادية وإقتصادية خانقة .. بقدر ما أصبحت النتائج مروعة ومخيفة .. نتائج لخصتها دراسة أجتماعية فريدة وقيمة (٤) أشارت إلى أن ما جاءت به تلك الهجرة الخارجية من تغييرات أصابت البناء الإجتماعى المصرى بالخلل وعدم الإتساق وعدم التوازن .. وأصبح السفر حلما يسعى خلفه الجميع الذين نسوا ما يمكن أن يصيب الأسرة حين يسافر عائلها .. نسوا التفكك فى العلاقات .. والخلل فى الأدوار .. والتحلل من القيم .. وهى نفس

(١) جريدة الأهرام – عدد ٢٢/١١/ ١٩٨٥
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ٢/٨/ ١٩٩٣
(٣) نادر فرجانى – سعيا وراء الرزق – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٨
(٤) الآثار الإجتماعية لهجرة رب الأسرة للعمل بالخارج – المعهد العالى للخدمة الإجتماعية بالقاهرة – ١٩٩١

النتيجة التى سبقنا فى التوصل إليها مجلس الشورى [1] حين قرر أن شد الرحال إلى الدول البترولية .. إرتبط بتفكك الكثير من روابط الأسرة المصرية على نحو لم تألفه مصر فى كل تاريخها الطويل .

وكانت المرة الأولى بالفعل فى التاريخ التى تقف فيها الأسرة المصرية عند مفترق الطرق .. المرة الأولى التى كان على الأسرة المصرية أن تختار .. إما المال وإما الأمان .. إما المال وإما الحب .. إما المال وإما الإستقرار .. وكان مما يدعو للحزن أن البعض منا فضلوا المال وإختاروه بديلا عن الأمان والحب والإستقرار .

بل وكان هناك من إختار المال وفضله حتى على ما هو أغلى ما فى هذة الدنيا .. الأبناء والأولاد .. وليس بوسع أحد أن ينسى تلك الحادثة التى شهدها مطار القاهرة الدولى فى أواخر الثمانينات حين إنشغل أب وأم بمراجعة حقائبهما فى صالة الوصول بالمطار عقب عودتهما من إحدى الدول العربية .. وبعد أن غادر الإثنان المطار بثلاثة ساعات كاملة .. إكتشفا أنهما لم يفقدا أية حقيبة من حقائبهما الكثيرة .. لكن نسى الإثنان طفلهما الرضيع وحيداً صارخا وباكيا فى المطار !.

لقد كان هذا الطفل .. والف طفل آخر .. هم بعض الثمن الذى تعين علينا أن ندفعه .. فالحكاية لم تعد قاصرة على السعى إلى المال والحرص عليه فقط .. وإنما تحولت كما رآها الدكتور عادل صادق إلى تغيير فى أسلوب الحياة وطريقة التفكير والطموح والسلوك أيضا .

أما باقى الثمن .. فهو ما تعين على الأسرة كلها أن تدفعه .. الأم والأب والبنت والإبن .. كل منهم دفع ما يخصه .. وسدد ما عليه سواء كان طائعا وراضيا أو مكرها ومضطرا .. ولا أستطيع .. ولا أى أحد آخر يستطيع .. تحديد من منهم كان صاحب فاتورة الحساب الأكبر .. وإن كان من المؤكد أن الزوجة .. هى أول من بدأ سداد حساب الغربة والوحدة وسنوات الخوف والإحتياج والعذاب العظيم .

وفى واحدة من أهم الدراسات التى تناولت بالبحث والتحليل سلوك ومشاعر زوجات المهاجرين والمغتربين .. يؤكد الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم [2] أن تسعة وثمانين بالمائة منهن قد إعتدن الحياة وحدهن دون حاجة للزوج .. ومنح ذلك الإعتياد هؤلاء الزوجات الحرية الكاملة فى التصرف وفى القرار .. وتخلصن نهائيا من سلطة الزوج سواء فى إدارة شئون البيت أو فى تربية الأولاد أو حتى فى أمور حياتها الشخصية .. ويضيف الدكتور سعد الدين إبراهيم [3] أن ظاهرة الهجرة إرتبطت بظاهرة أخرى .. يمكن تلخيصها فى أنها إنفصال الزوجين بلا طلاق .. فالزوج فى مكان والزوجة فى مكان آخر .. وليس هناك بينهما أى تواصل أو تفاعل .

وبالطبع .. لم يبق الأمر طويلا قاصرا على مجرد إعتياد للوحدة وإضطرار لممارسة الحياة فى غياب الزوج وإنما كان لابد وأن تكون هناك مضاعفات وأخطاء أصبحت بعد قليل ذنوب وخطايا .. وقد بدأت الحكاية كما رأتها الدكتورة أنعام عبد الجواد فى بحث تقدمت به لأحد المؤتمرات [4]

---

(١) مجلس الشورى – تقرير اللجنة الخاصة عن هجرة العمالة المصرية إلى الخارج – ١٩٨٧

(٢) د. عبدالله عبد الغنى غانم – المهاجر المصرى – المكتب الجامعى الحديث – ١٩٩٠

(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٩/٥/٢٥

(٤) هجرة النساء إلى الدول النفطية .. الدوافع والآثار – المؤتمر الدولى التاسع للإحصاء والحاسبات العلمية والبحوث الإجتماعية والسكانية – القاهرة – عدد ١٩٨٤/٤/١

بإضطرار الزوجة - بسبب غياب الزوج - للقيام بأدوار قد لا ترضى عنها أو لا تتناسب مع طبيعتها .. والتعامل مع أشخاص أو جهات مختلفة بحكم مصالح زوجها .. وفى دراسة أخرى(١) نجد أن هجرة رب الأسرة للعمل بالخارج قد زادت من مسئوليات الزوجة .. وأدى ذلك إلى العديد من المشكلات .. وأصبحت الزوجة تطلب دائما المساعدة من الآخرين وذلك لعدم قدرتها على القيام بكل ما كان يقوم به الزوج من أدوار .

وكان هذا الخروج والتعامل مع الغرباء والإحتكاك بهم وطلب المساعدة من الرجال الآخرين .. هو البروفة التى إنتهت آخر الأمر بمأساة الخيانة الكاملة .. وهذا ما يؤكده الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم (٢) الذى يقول أن غياب الزوج الطويل .. يدفع الزوجة فى بعض الأحيان لإقامة علاقات عاطفية مع رجال آخرين .. وغالبا ما يحدث ذلك فى تلك الحالات التى يعهد فيها الزوج قبل السفر برعاية زوجته أثناء غيابه إلى أحد أقاربه أو أصدقائه أو جيرانه من الرجال البالغين .

ومع عميق إحترامى وعظيم تقديرى لكل تلك الآراء والدراسات .. والتى إختلفت فى شرح الأسباب والدوافع وإتفقت على أن الخيانة .. كانت أحيانا هى المصير وثمن الغياب الطويل .. إلا أننى لا أفهم كيف يمكن لهذة الآراء والدراسات أن تتناول بالشرح والتفسير ظاهرة الخيانة والإنحلال الجنسى دون أن تتحدث إحداها عن الجنس نفسه كسبب ومبرر ودافع للسقوط والإنحلال وهذة الخيانة .. ربما كانت هى نفس العقدة القديمة التى تمنعنا من الحديث عن الجنس حتى وإن كانت القضية التى نناقشها قضية جنسية فى المقام الأول والأخير.. وأنا أزعم أننى إستطعت جمع أكثر من مائتى حادثة خيانة سقطت فيها الزوجة بعد غياب الزوج وسفره إلى الخارج .. ولم أجد فى معظم هذة الحالات تلك الأسباب والدوافع التى أفاضت الدراسات فى الحديث عنها .. فتشت كثيرا دون جدوى عن تلك المرأة التى قد تخون زوجها الغائب بسبب إعتيادها على الوحدة .. أو إنعدام التواصل بينها وبين زوجها .. أو نتيجة الحرية الكاملة فى التصرف والقرار .. أو حتى الإقتراب الحميم من أحد أقارب الزوج أو أحد أصدقائه .

صحيح كانت هناك نساء سقطن بسبب ذلك .. أو ساعد ذلك كثيرا فى سقوطهن وإنحرافهن .. لكن يؤكد الواقع أن الرغبة المتوحشة والجوع الجنسى القاتل والشهوة التى تستوطن العقل والقلب والعين .. كلهم كانوا السبب الرئيسى فى الخيانة .. السبب الحقيقى فى السقوط والإنهيار .

هذا ما تؤكده حكاية تلك المرأة التى سافر زوجها للعمل بإحدى الدول العربية .. لم تكن الزوجة تريد لزوجها أن يسافر .. حاولت إقناعه بالإعتذار عن السفر من أجلها ومن أجل طفلتهما الصغيرة .. لكنه لم يصغ إليها وإلى توسلاتها بالبقاء إلى جوارها .. ومضى العام الأول الذى إحتملته الزوجة فى أرق وعذاب وحرمان ومعاناة .. وأثناء العام الثانى كان العذاب أقسى والحرمان أشد .. وحين أحست الزوجة فى العام الثالث بوطأة الإحتياج وخافت من إلحاح الرغبة طاردت زوجها فى التليفون من أجل أن يعود ويعتزل السفر والغربة .. ولم يكترث الزوج .. وتخيل أن إلحاح الزوجة على عودته مجرد شوق وغرام .. ولم يعرف أن زوجته سقطت بالفعل .. أسلمت جسدها لرجل غريب لأول وآخر مرة فى حياتها .. وحين عادت الزوجة بعد خطيئتها إلى البيت .. فكرت فى الإنتحار .. حاولت بالفعل ولم يثنها إلا نظرة فى عينى إبنتها الصغيرة .. فكتمت

(١) محمد أبو مندور وآخرون - بعض الآثار الإجتماعية والإقتصادية لهجرة الزوج على وضع الأسرة - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - ١٩٨٩

(٢) د. عبدالله عبد الغنى غانم - المهاجر المصرى - المكتب الجامعى الحديث - ١٩٩٠

خطيئتها وجرحها وعارها ولزمت الصمت حتى عاد زوجها .. إكتشفت عجزها عن نسيان ما حدث وفشلها فى إستئناف الحياة من جديد مع زوجها العائد .. لكنها أبدا لم تقو على الإعتراف له بما حدث .. فإعترفت لصديق مشترك طلبت وساطته للإنفصال .. لم تكن تعلم أن زوجها يسجل إعترافها .. وذهب بشريط كاسيت يحمل صوتها إلى المحكمة يقيم دعوى زنا ضد زوجته .. لكنه سرعان ما تنازل عن دعواه حفاظا على مستقبل إبنته وأسرته الصغيرة .

أعتقد أن هذة القضية .. تختصر الحكاية .. حكاية الرغبة والإحتياج والضعف والجنس بشكل واضح وقاطع وصريح .. ومع ذلك .. فقد كنت فى حاجة إلى حكاية أخرى كانت بطلتها إمرأة صغيرة السن تزوجت من موظف بإحدى الشركات الكبرى فى حلوان .. وحين أنجب الإثنان طفلهما الأول .. لم يعد دخل الزوج يكفى أعباء الأسرة والحياة .. وأصبح الحل هو عقد عمل بإحدى الدول العربية حصل عليه الزوج وسافر بالفعل فى حين بقيت الزوجة وحدها فى القاهرة .. وحين عاد الزوج .. كانت صدمته قاسية حين إكتشف أن الزوجة أطفأت شهواتها وقضت رغباتها مستعينة بإبن الجيران [1] .. كنت فى حاجة إلى مثل هذة الحكاية كما وسبق وأن أشرت فقط للتدليل على أن الزوجة هنا كانت تحتاج إلى الجنس .. لم تكن فى حاجة لرجل عاقل ناضج يحاورها ويفهمها ويوائم روحها ومشاعرها .. كانت لا تحتاج إلا إلى ذكر يشبعها كأنثى .. ثور كل ما هو مطلوب منه أن يحل محل البقرة الغائبة .. تماما مثلما كانت هناك أكثر من إمرأة إخرى تفتش عن هذا الثور .. كتلك المرأة التى تم ضبطها فى منطقة الهرم مع شاب يصغرها فى السن فى وضع مخل بالآداب .. وفى القسم [2] .. وقفت تلك المرأة تحكى كيف سافر زوجها للعمل فى إحدى الدول العربية منذ أكثر من عشرة أعوام .. وكلما طالبته بالعودة قال لها أنه لا يزال فى حاجة إلى مزيد من المال من أجل أولادهما .. ولم تجد الزوجة حلا إلا بالبحث عن أحد الثيران .. وكان هو ذلك الشاب الذى تم ضبطه معها فى منطقة الهرم .. تعرفت عليه فى أحد الكازينوهات وبعدها لم تعد تكترث وتسأل متى يعود الزوج الغائب .

أما الحكاية الأخيرة .. فهى التى أقدمها كدليل إضافى على أنه لا الوحدة .. ولا الإضطرار للخروج نيابة عن الزوج .. ولا الحاجة للإقتراب من شخص آخر من أجل الحماية والمساعدة والزمان .. هم ما يمكن أن يدفع بالزوجة للخيانة .. فالزوجة فى هذة الحكاية فتاة تسكن إحدى قرى أرمنت بالصعيد .. تزوجت من إبن شيخ البلد .. وبعد قليل سافر الإبن تاركا زوجته .. وسط أسرته وأسرتها .. وفى رعاية أبيه الرجل القوى الذى أغناها تماما عن طلب أية مساعدة من أى رجل آخر .. وكان الجنس هو الشئ الوحيد الذى لم يكن بإمكان شيخ البلد أن يقدمه لزوجة إبنه الغائب .. وهى فى واقع الأمر لم تطالبه هى بذلك .. وإنما ذهبت تفتش عنه عند الآخرين .. حتى عثرت عليه عند رجل منهم أسلمته جسدها [1] ليروى ظمأ الغياب والرغبة حتى وإن كان الثمن بعد ذلك هو رصاصات شيخ البلد القاتلة التى إستقرت فى صدر هذا الرجل .

أنا لا أقصد مطلقا .. ولا هو فى نيتى أصلا .. أن أدافع عن أية إمرأة خائنة وأن التمس لها عذرا .. أو الف عذر .. متعللا بالجنس وحقائقه ورغباته وشهواته وإحتياجاته .. إنما أنا فقط أقرر

---

(١) جريدة الوفد – عدد ١٠/٦/ ١٩٨٩

(٢) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٩/٤/٨

(١) د. عبدالله عبد الغنى غانم – المهاجر المصرى – المكتب الجامعى الحديث – ١٩٩٠

واقعا لم يعد يجدي أن نتجاهله ونتناساه .. واقع يؤكد أن المرأة إحتياجات ورغبات جنسية .. وأنها – تماما مثل الرجل – لا تمارس الجنس فقط لتنجب الأطفال أو ليرضى عنها زوجها .. وإنما هي أيضا قد تشعر بالرغبة وتحتاج للجنس وتستمتع به مثلها مثل الرجل .. وهذا هو ما كنا نجهله تماما منذ ستين عاما .. سواء في مصر .. أو في العالم كله .. حيث لم يكن هناك أحد يتخيل أن النساء قادرات على الإستمتاع بالجنس .. وإنما هن فقط يبحثن عن وسيلة لإنجاب الأطفال .. وكان الجنس بالطبع هو تلك الوسيلة .. وكان الجميع على قناعة تامة بأنه إذا كانت المرأة مضطرة لأن تمارس الجنس لتنجب أطفالا لزوجها .. إلا أنه كان من قبيل الخطيئة والعار والفضيحة أن تتحدث المرأة عن الجنس .. أو تستمتع به .. أو حتى تفكر فيه .. وقد يدهش الكثيرون إذا ما علموا أن المرأة المهذبة في أوروبا القرن التاسع عشر .. كانت تذهب إلى الطبيب حيث تشير إلى مكان الألم على جسد دمية من فرط خجلها (١) .. وكان من قبيل الفعل الفاضح أن تجلس المرأة إلى مائدة الطعام وتمسك برجل دجاجة حيث من الممكن أن يثير ذلك تداعيات جنسية وفقا لمعتقداتهم في تلك الأيام .. وكان المشرفون على المكتبات – من فرط إحترامهم للأخلاق – يفصلون الكتب التي الفها الرجال عن تلك التي الفتها النساء .. ويحكى لنا الفيلسوف البريطاني الكبير برتراند راسل كيف شهد بنفسه (٢) إحدى المحاكمات التي أدانت كتيبا شعبيا دافع فيه صاحبه عن حق المرأة في الإستمتاع بالجنس .. وكان الحكم بمصادرة الكتاب وإعتباره كتابا بذيئا لا تصح أو تليق قراءته .. ومثلما حورب هذا الكتاب .. حوربت أية فكرة أو دعوة تنادي بحق المرأة في الإستمتاع بالجنس .. وترسخ في مفهوم الرجل الأوروبي أن المرأة هي مجرد وعاء يصب فيه الرجل سائله المنوي ثم رحم يحتضن الصغار قبل أن يخرجوا للحياة .. وأن أية إمرأة – كما قال العالم الشهير سيجموند فرويد – تحسد كل رجل لأنها لا تملك قضيبا مثله (٣) .. ومن المؤكد أن ذلك لم يستمر طويلا .. من المؤكد أيضا أن الرجل في مصر لم يجد من يحيطه علما بكل الدراسات والأبحاث والنتائج المذهلة التي توصل إليها في الغرب أطباء وعلماء كبار مثل الدكتور هنري هافلوك إيليس في إنجلترا والدكتور الفريد كينزي في الولايات المتحدة الأمريكية .

ولابد وأن تاريخ المرأة سيتوقف طويلا عند الدكتور هنري هافلوك إيليس .. الذي توفي عام ١٩٣٩ بعد أن أصبح أول رجل في أوروبا والعالم كله في العصر الحديث .. يثبت أن للمرأة رغباتها وإحتياجاتها الجنسية .. وأنه من حقها الإستمتاع بالجنس مثلها مثل الرجل .. وإكتشف أيضا (٤) أن المراكز الجنسية في جسد المرأة أكثر تعددا وأوسع إنتشارا .. وإذا كانت أفكار الدكتور هنري ودراساته قد تعرضت للنقد القاسي والهجوم الجارح .. وتمت مصادرة بعض كتبه ولم يسمح بتداول بعضها الآخر إلا بين صفوف الأطباء فقط .. إلا أن هذا الطبيب نجح تماما في أن يزرع الشك في نفوس وعقول الجميع .. وأن يسمح لأول قطرة من الطوفان بأن تمر .. نجح أيضا في أن يقنع المرأة بألا تخجل أو تسكت أو ترضى .. فتأسست في الفترة ما بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٢ .. أول جمعية هدفها إعلان المساواة الجنسية بين الرجل والمرأة .. صحيح أن الجمعية لم تنجح ولم تستمر .. لكنها على الأقل أغرت الآخرين بالتساؤل والبحث وإعادة الحسابات

(١) أ . س . كون – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٢) برتراند راسل – الزواج وأخلاقيات الجنس – ترجمة د. نظمي لوقا – مكتبة غريب

(٣) د. مدحت عزيز شوقي – الطب والجنس – كتاب الحرية – ١٩٨٥

(٤) هنري هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

والتفكير من جديد .. وكان ذلك كله كافيا لأن يبدأ رجل آخر فى الولايات المتحدة الأمريكية أولى خطوات طريق طويل إنتهى به كواحد من أعظم علماء الجنس فى كل العصور .. هو الدكتور الفريد كينزى .. وهو رجل صاحب قصة تستحق أن تروى .. فقد بدأ كينزى حياته العملية كباحث فى علم الحيوان .. ثم شغفته دراسة السلوك الجنسى عند الإنسان .. شغف بقى قاصرا فترة من الوقت على مجرد الإطلاع والتأمل والبحث .. حتى جاءت فرصة العمر .. حين إختارته الجامعة ليرأس مجموعة من الأساتذة ألقيت على عاتقهم مهمة إعداد طالبات الدراسات العليا وتهيئتهن للزواج (١) .. وأثناء ذلك شعر كينزى بمدى جهل الجميع بالجنس سواء كانوا من الرجال أو من النساء .. وكيف تاهت الحقائق وسط ضباب أوهام وخيالات ومعتقدات خاطئة وساذجة .. وأحس أن من واجبه أن يحارب هذا الجهل وهذا الغموض الذى أحاطا بالجنس جيلا بعد جيل .. وفى نهاية الثلاثينات .. بدأ كينزى مشروعه الكبير لإكتشاف عالم الجنس الغامض والمجهول .. فأمسك بورقة وقلم وراح يسأل الناس ويحاورهم .. أجرى تسعة عشر الف مقابلة مع رجل وإمرأة .. ومن كل مقابلة خرج بإجابة واضحة ومحددة لخمسمائة سؤال .. فكانت أضخم دراسة إنسانية تتعلق بمجال واحد يعرفها البشر على مر التاريخ .. والأهم أنها كانت أول دراسة حقيقية شاملة عن الجنس .. دراسة قرر كينزى نشرها فى جزءين .. صدر الجزء الأول منها عام ١٩٤٨ بعنوان السلوك الجنسى للرجل .. وصدر الجزء الثانى عام ١٩٥٣ بعنوان السلوك الجنسى للمرأة .. ومثل أى عالم يفتش عن الحقيقة .. دفع كينزى الثمن غاليا .. لم يسترح الناس لدراسته التى عرت الجميع جنسيا .. إعتبروه رجلا يدعو لإنحطاط الأخلاق .. إمتنع زملاؤه فى الجامعة حتى من إلقاء التحية عليه .. خيره رئيس الجامعة بين التوقف عن تلك الأبحاث وبين الفصل من الجامعة .. وإختار كينزى أن يواصل دراسته وإكتشافاته التى قلبت العالم كله رأسا على عقب حتى مات عام ١٩٥٦ إثر نوبة قلبية .

وكان إلقاء الضوء على كل أسرار المرأة الجنسية من أهم ما توصل إليه الفريد كينزى .. فقد أثبت أن المرأة بالفعل ليست باردة جنسية .. وأنها – مثل الرجل – من الممكن أن تصل إلى درجة النشوى أثناء اللقاء الجنسى أو حتى بممارسة العادة السرية .

وأنا بالطبع أحترم كل هذا الجهد .. وكل هذة الإكتشافات التى ساعدتنا على أن نعيد النظر من جديد إلى حياتنا وأعماقنا ورغباتنا .. وأحترم الدكتور هنرى إيليس والدكتور الفريد كينزى .. لكن ليس كما يحترمهما الكثيرون .. فالآخرون يحترمونهما كأول من إكتشف أسرار الجنس تحت جلد كل إمرأة .. أما أنا فأحترمهما لأنهما قدما الدليل العلمى على كل ما جاءت به الأديان السماوية منذ وقت طويل .. لكننا أصبحنا للأسف نثق فى العلم والتجربة ربما أكثر مما نثق فى الدين .. لهذا لم نلتفت مطلقا للأديان التى أوصت بإشباع – فضلا عن إحترام – حاجات المرأة الجنسية .. أو ربما أكون مخطئا فى رؤيتى للأوروبيين والأمريكيين .. فهم فى النهاية يدينون بالمسيحية .. والديانة المسيحية – بعد إنتقالها إلى أوروبا – باتت ديانة تعادى الجنس وتحاربه .. ولا تعترف بأية رغبات جنسية سواء للرجل أو المرأة .. وعلى سبيل المثال كانت تعليمات الكنيسة فى القرن الثامن الميلادى (٢) .. واضحة ومحددة وصارمة .. فالإبتعاد عن الجنس هو السلوك

(١) أ . س . كون – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٢) د. ناجى الجيوش – الإنحرافات الجنسية – الأهالى للطباعة والنشر – سوريا – ١٩٨٨

المثالى .. وكل فتاة عذراء هى عروس للمسيح .. فإذا إرتكبت أية عذراء خطيئة الزواج .. فعليها أن تختصر مساحة تلك الخطيئة وتتعفف وتقلل من ممارسة الجنس مع زوجها .. بل وكانت الكنيسة أيضا تعتبر أية علاقة جنسية – مهما كان نوعها – خطيئة إلا تلك التى تتم ممارستها لإنجاب الأطفال .. وعلى العكس تماما كانت اليهودية وكان الإسلام .. ونحن نقرأ على سبيل المثال فى التوراة (١) كيف أوصى الله موسى وشعب إسرائيل بإعفاء الرجل من القتال وأية مسئوليات أخرى خلال السنة الأولى بعد زواجه من أجل أن يتفرغ لبيته وإسعاد زوجته .. كذلك حددت تعاليم التلمود الحد الأدنى لعدد المرات التى فيها على الرجل أن يجامع إمرأته .. وبات من الضرورى أن يمارس الزوجان الجنس مرة واحدة كل أسبوع على الأقل .. فى مساء كل يوم جمعة .. وقد كان الإسلام أوضح وأدق وأكثر تفصيلا .. ولعله لا يخفى على أحد تلك الحكاية التى تناقلتها مختلف كتب الدين والتاريخ ونجد فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى إحدى لياليه يطوف المدينة فيسمع إمرأة تشكو طول غياب زوجها .. وتنشد الشعر الذى فيه تصف كيف يطول بها الليل .. ولولا أنها تخشى الله لإستضافت على سريرها من تلاعبه ويلاعبها ويطفئ نار رغباتها .. فإستدعى عمر المرأة فى الصباح .. وسألها عن زوجها .. فقالت أنه فى العراق يجاهد بأمر الله وأمر أمير المؤمنين .. فتركها عمر وذهب يسأل نساء المدينة .. وقيل فى حكاية أخرى أنه ذهب يسأل إبنته حفصة .. عن المدة التى بعدها لا تقوى المرأة على فراق زوجها .. فقالت النساء لا تصبر المرأة إلا شهرين .. ويقل صبرها بعد الشهر الثالث .. وينفد الصبر بعد الشهر الرابع .. فقرر عمر عودة زوج تلك المرأة التى كانت تشكو .. وألا يطول غياب أى مقاتل أو مجاهد عن أربعة أشهر يعود بعدها إلى أهله وبيته ويذهب رجل آخر بدلا منه يستكمل القتال والجهاد .. وكان الصحابة والمفسرون قد إتفقوا على تفسيرللآية الكريمة (٢) التى تقول .. للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوافإن الله غفور رحيم .. ومعناها أن الرجل إذا أقسم ألا يجامع إمرأته فله ذلك إذا لم يزد فراق الزوجين عن أربعة أشهر .. إما إذا زاد الأمر عن ذلك .. فالطلاق من حق الزوجة وعلى الحاكم إجبار الرجل على تطليق إمرأته حتى لا يصيبها ضرر (٣) .

هذا الضرر .. هو ما كان على كثير من الرجال فى مصر أن يخافوا منه .. ويحتاطوا له طويلا قبل قرار الغياب والإغتراب والسفر بحثا عن أساسيات الحياة أو كمالياتها .. وأنا لا أعرف على وجه الدقة ما هو إنطباع كل رجل سافر من مصر عن مثل هذا الضرر .. وما إذا كان كل واحد منهم قد توقف طويلا أو قليلا عند حاجة زوجته ورغباتها الجنسية وقدرتها على الصبر .. ومن المؤكد أن معظمهم لم يكترثوا إطلاقا بتلك النقطة أو هذا الضرر .. ولم يكتب أحد منهم إحتياجات زوجته الجنسية فى رأس أو ذيل قائمة المشاكل والهموم التى عليه أن يواجهها أو يحلها قبل السفر .. وكان دفعهم إلى ذلك إما ثقة مطلقة فى الزوجة .. وإما جهل تام بأن المرأة مثل الرجل .. لها رغباتها وشهواتها .. ومن الثابت أن كل من راهن على أن المرأة لا تعرف الرغبة أو الشهوة قد خسر الرهان .. أما الذى راهن على ثقة الزوجة .. فإن كثيرا منهم لم يكونوا من الخاسرين .. فقد كانت غالبية الزوجات محل تلك الثقة المطلقة .. وإحتملن الغياب وإن طال بكل وحشته وعذاباته وقسوته النفسية والجسدية .. أما تلك الزوجة التى خانت هذة الثقة وخانت نفسها

(١) العهد القديم – سفر تثنية الإشتراع – الفصل الرابع والعشرون – آية رقم ٥
(٢) سورة البقرة – الآية رقم ٢٢٦
(٣) إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى – تفسير القرآن العظيم – مكتبة دار التراث – ١٩٨٠

وزوجها .. فأنا شخصيا لا التمس لها أى عذر .. وإن كنت لا أدينها هى وحدها .. وإنما أرى أن الحق يقتضى أن يتقاسم الزوج والزوجة الثمن والحساب .. إلا فى تلك الحالات التى خانت فيها المرأة وكانت تلك الخيانة من النوع الذى لا يقبله أى منطق وليس له أى تفسير علمى أو إنسانى أو إقتصادى أو حتى تفسير جنسى .. فما الذى يمكن أن نبرر به خيانة زوجة سافر زوجها للعمل فى الخارج .. وإذ بنا لا نجدها تستبدله برجل آخر .. وإنما بأكثر من رجل وفى وقت واحد .. وأن تعتاد تلك الزوجة إستضافة عشاقها الأربعة فى بيتها (١) لتقضى الليل كله تتنقل بينهم .. وحين يكتشف أحد جيرانها ما يحدث ويهددها بإبلاغ زوجها فور عودته .. لا يجد العشاق الأربعة حلا إلا قتل الجار .. وقتلوه بالفعل .. وأعتقد أن سلوك هذه الزوجة ليس سلوك إمرأة قهرتها رغبتها التى توحشت بعد أن غاب رجلها .. وإنما هو سلوك عاهرة إعتادت وإرتضت أن تلتقى فى فراشها بأى رجل وبكل رجل وبأكثر من رجل .. وأيضا لا يمكننى فهم سلوك زوجة أخرى غاب زوجها فى إحدى الدول العربية .. فإذ بها تختار والد زوجها عشيقا لها توكل إليه مهمة إطفاء شهواتها كلما كادت أن تقهرها (٢) .. وحين تكثر تلك اللقاءات المحرمة لا يجد والد الزوجة حلا إلا أن يقتل عشيق إبنته ووالد زوجها وجد أطفالها .

أما تلك الحالات التي ينبغى أن تقتسم فيها الزوجة ثمن السقوط والخيانة مع زوجها .. فهى كثيرة جدا .. تتكرر تفاصيلها وملامحها حتى تكاد تتشابه لتشكل فى النهاية حكاية واحدة مهينة وحزينة .. يسافر الزوج .. ويتناقص صبر الزوجة وقدرتها على الإحتمال يوما بعد آخر .. حتى يأتى اليوم الذى تنهار فيه مقاومتها وتستسلم فتسقط .. وتصبح الرغبة وحدها .. هى السبب الحقيقى والوحيد للخيانة .. صحيح أننا لا نزال حتى اليوم نجهل سر تلك الرغبة وكيف تولد وتنمو ثم تكبر وتتوحش .. لكن ذلك لا يعنى مطلقا أنها ليست موجودة بالفعل أو أن نتجاهلها ونلغيها من أفكارنا وحساباتنا وتصوراتنا .. فالإسلام يشير إليها بوضوح لا ريب فيه .. والتراث الدينى والإجتماعى والإنسانى العربى يعترف بها .. ويؤكد (٣) أن حوائج النساء كحوائج الرجال وأشد عنفا .. ويفيض ذلك التراث بعشرات الحكايا عن النساء اللواتى قهرتهن رغباتهن .. وإستسلمن وإنقدن إلى حيث يمضى بهن من هو قادر على إشباع تلك الرغبة .. ولعلها واحدة من أشهر تلك الحكايات هى حكاية سجاح بنت سويد (٤) .. المرأة التى إدعت النبوة فى اليمامة مثلما إدعى النبوة مسيلمة بن حبيب الحنفى فى بنى تميم .. وزعمت سجاح أن الوحى زارها ونزل عليها بالنبوة فتردد أهلها فى تصديقها .. وإن كان بينهم من إقتنع بها وصدقها وسار خلفها .. وحين سمع مسيلمة بحكاية سجاح .. فأزعجه جدا أن تقاسمه إمرأة النبوة وتشاركه إياها .. فتدبر الأمر مع رفاقه الذين أشاروا عليه بأن يجتمع معها وينظر فى أمرها .. فإجتمع الإثنان فى خيمة بقى خارجها أنصار كل منهما ولم يدخلها إلا مسيلمة وسجاح .. فقال لها مسيلمة .. الم تر أن الله خلقنا أفواجا .. وجعل النساء لنا أزواجا .. نولج فيهن إذا شئنا إيلاجا .. ونخرج منهن إذا شئنا إخراجا .. فضحكت سجاح .. وقبلت دعوة مسيلمة إلى الفراش الذى كان قد أعده داخل الخيمة .. فأشبع رغبتها وأسعدها .. وأرادت البقاء معه كزوجة مقابل أن تتنازل له عن النبوة ..

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٨/٤/٨
(٢) جريدة الوفد - عدد ١٩٨٨/٤/٦
(٣) سليمان اليحفوفى - ضمان الجنس فى الإسلام - الدار العالمية - بيروت - ١٩٨٤
(٤) محمد بن أحمد التيجانى - تحفة العروس ومتعة النفوس - تحقيق جليل العطية - رياض الريس للكتب والنشر - لندن - ١٩٩٢

فخرج الإثنان من الخيمة وخطب مسيلمة سجاح من قومها .. وحين سألوه عن المهر .. قال لهم قد أعفيتكم من صلاة العصر .

وتناقلت العرب تلك الحكاية .. وزادوا من تفاصيلها وغرابتها وإثارتها ولم يبقوا إلا على مغزاها .. وهى أن المرأة على إستعداد لأن تتنازل عن الكثير من أجل رغبتها .. وحتى وإن لم تتنازل عن شئ .. فالرغبة قائمة .. وأحيانا قاسية .. فى كل عصر وفى كل مكان .. وفى مصر بالطبع .. والدكتور حافظ يوسف أستاذ أمراض النساء يؤكد ذلك .. ويقول(١) أن تلك الرغبة قد تصل بالزوجة إلى الطبيب .. فتشكو الزوجة من أوجاع فى المعدة وأسفل الظهر والبطن .. أو صداع دائم .. لكن أكثر أشكال تلك الرغبة المستترة هى إحتقان الحوض .. وقد لا تتخفى الرغبة وراء أقنعة الشكوى الجسدية .. وإنما قد تجئ على شكل نوبات إكتئاب نفسى .. أو مزاج عصبى حاد يؤدى إلى إختلاق المعارك والخلافات مع الآخرين بما فيهم الأبناء أو الأصدقاء .

أنا شخصيا رأيت تلك الرغبة .. ولست مدى قسوتها .. فى وجوه نساء كن يأتين إلى العيادة الخارجية الخاصة بأمراض النساء فى إحدى المستشفيات الكبيرة .. نساء لا يعانين من شئ لكن جئن فقط من أجل أن يخضن تجربة كشف أمراض النساء .. حيث يدخل الطبيب إصبعيه فى مهبل المرأة ليكتشف ما إذا كان هناك ورم أو تضخم أو إلتهاب .. وهو كشف لا ترحب به المرأة ولا تستريح له ولا تقبله إلا مضطرة .. وأكاد أزعم أن المرأة تجد فيه نوعا من المهانة وكثيرا جدا من الحرج والحياء .. ومع ذلك كانت هناك بعض النساء اللواتى يجئن من أجل هذا الكشف فقط .. ولم أكن لأرتاب فى شئ لولا إحدى حكيمات العيادة التى تشاجرت مع إحداهن لسبب لا أدريه .. ففوجئت بالحكيمة تعاير تلك المرأة بهذا الكشف وبشكل مهين وجارح جدا .. وكان لابد وأن أسأل عن السبب .. سبب الإهانة لا سبب الشجار .. فروت لى الحكيمة العجوز حكاية هؤلاء النساء اللواتى سافر أزواجهن إلى الخليج .. فإعتدن المجئ من وقت لآخر لإجراء مثل هذا الكشف كحل مناسب إهتدى إليه تفكيرهن بدلا من الخطيئة والخيانة .

ولا أزعم أننى يومها توقفت كثيرا عند تلك الحكاية .. ولم تبق فى ذاكرتى إلا كحكاية إستثنائية وشاذة رويتها لواحد أو إثنين من أصدقائى ثم نسيتها بعد ذلك .. حتى تذكرتها فجأة وأنا أتأمل حال هؤلاء الزوجات اللواتى دفعهن غياب أزواجهن الطويل إلى الخيانة .. وأحاول أن أتخيل مساحة تلك الرغبة أو قسوتها التى قد تنتهى بصاحبتها إلى السقوط .. فلا أحد حتى الآن يعرف أسرار تلك الرغبة بشكل كامل .. سواء كانت رغبة المرأة أو حتى رغبة الرجل .. وكما تقول الدكتورة هيلين سينجر فى كتابها المثير للتأمل وللدهشة (٢) .. لا تزال قواعد الرغبة الجنسية غير محددة أو واضحة سواء من الناحية التشريحية أو الناحية الفسيولوجية .. ولم يصل الطب فى أمر تلك الرغبة إلى يقين ونظرية كاملة تشرحها .. مثلها مثل الجوع أو العطش أو الحاجة إلى النوم .. وكل ما نعرفه عن تلك الرغبة .. وما خرجنا به من الدراسات والأبحاث المتعددة .. هو أن الرغبة الجنسية مجموعة من الإحساسات الخاصة نتيجة نشاط المراكز الجنسية داخل المخ .. ويترجم المخ هذا النشاط بالرغبة أو الحاجة إلى ممارسة الجنس .. واللغز هو كيف تتم تلك الترجمة داخل المخ .. هل هى مادة الإندوجيناس أفروديسياكس التى يتم إفرازها بمجرد إثارة أو

---

(١) د. حافظ يوسف - كيف تفكر المرأة - بدون إسم ناشر - ١٩٨٣

(٢) هيلين سينجر كابلان - إضطرابات الرغبة الجنسية - سيمون وشوستر - نيويورك - ١٩٧٩

نشاط المراكز الجنسية .. هل هناك مواد كيميائية يتم إفرازها تسبب الرغبة ونحن لا نعرفها .. هل هو النشاط الكهربائي لشبكة الأعصاب التي تحكمنا .. لا أحد يدرى على وجه الدقة ما هى الإجابة الواضحة والصحيحة لمثل هذة الأسئلة .

إذن .. لم يحن بعد الوقت الذى نتفق فيه جميعا على أسرار وتفاصيل تلك الرغبة الجنسية .. لكن - وبعد وصايا الدين وحكايات التاريخ وأبحاث الطب - أجد أننا مضطرون للإتفاق على وجود تلك الرغبة دون أن تبقى هناك مساحة ما للشك أو الجدل .. أو لنقل أننا إتفقنا منذ زمن طويل نسبيا على ذلك .. بحيث لا يمكن أن يأتى أحدنا اليوم ويزعم أنه يجهل وجود تلك الرغبة .. لهذا لا أجدنى مضطرا لتبرئته من أية مسئولية أو لوم .. كل زوج سافر وغاب هناك فخانته زوجته وإستسلمت للخطيئة هنا .. وإذا كان من الصعب إدانة هؤلاء الذين سافروا ولم يكن أمامهم أى خيار آخر بعد أن أصبح السفر لهم طوق نجاة وحيد ينقذهم من واقع جارح ومؤلم ومهين .. فإننى بالمقابل .. لن أتردد فى إدانة من سافر - وخانته زوجته - مع أنه لم يكن هناك دافع واضح أو حقيقى للسفر إلا البحث عن مزيد من الرفاهية ومن الثروة .. أو من سافر وأتيحت له فرصة إصطحاب أسرته - أو على الأقل زوجته - معه لكنه فضل الإغتراب وحيدا .. توفيرا للنفقات هناك حتى تتضخم الثروة هنا .. لأن مثل هذا الرجل لم يترك زوجته وحدها تقاوم رغباتها وإحتياجاتها الجنسية فقط .. وإنما ترك لها ما يزيد تلك الرغبات قوة وقسوة وشراسة .. فإذا كنت قد أطلت الحديث عن رغبات المرأة وإحتياجاتها الجنسية .. فإن ذلك لا يعنى مطلقا أن الرغبة .. هى إحتياج أو إحساس قائم بذاته لا يرتبط بالظروف التى تعيشها المرأة وبمشاعرها وأفكارها ووعيها وتطلعاتها النفسية والمادية والإجتماعية .. وإلا كانت كل النساء متشابهات فى النهاية .. وصاحبات مصير واحد أيضا وبحيث يصبح الأمر كما لو أنها مجرد معادلة حسابية واضحة ومحددة .. يغيب الرجل طويلا .. فتشعر إمرأته بالرغبة .. وتقاوم فى أول الأمر .. ثم سرعان ما تنهار وتستسلم .

وهذا بالطبع هو ما لم يحدث مطلقا .. ولن يحدث أبدا مستقبلا .. وفى بيوت مصر أكثر من دليل على ذلك .. فهناك الاف الزوجات اللواتى سافر أزواجهن وغابوا طويلا .. وهناك ملايين الأرامل والمطلقات .. كلهن نساء أحسسن بتلك الرغبة بين حين وآخر .. لكن ما من واحدة منهن إستسلمت أو سقطت .. لأن الجنس .. وإن كان غريزة مثله مثل تناول الطعام .. إلا أن إستجابة الإنسان لرغبته الجنسية تختلف عن إحساسه بالجوع .. فبدون تناول الطعام ممكن أن يموت الإنسان .. ومجاعات أفريقيا المتعددة تغنينى عن البحث عن دليل وإثبات .. لكننى لم أدر يوما بإنسان مات لأنه لم يمارس الجنس .. وهذا ما يؤكده كولن ويلسون الذى يقول (١) .. حين يجوع الإنسان يفتش عن الطعام .. وحين يشعر بالرغبة يفتش عن الجنس .. الفارق الوحيد هو أن الإنسان مهما كان واسع الأفق خصب الخيال .. فلن يغنيه ذلك عن تناول طعام حقيقى بالفعل .. أما النشوة الجنسية فهى عملية خيالية وتصورية ورمزية أكثر منها واقعا ماديا .

إن ذلك يعنى أن الرغبة الجنسية فى حد ذاتها ليست قاهرة أو قاتلة .. لكن يجعلها كذلك ظروف أخرى قد تتسبب فيها المرأة نفسها .. أو المجتمع الذى تسكنه وتنتمى إليه .. وحين أشرت إلى أولئك الذين سافروا دون إضطرار أو مبرر واضح للسفر .. فإنما كنت أقصد أنهم خلقوا

(١) كولن ويلسون - أصول الدافع الجنسى - ترجمة يوسف شرورو ، سمير كتاب - دار الآداب - بيروت - ١٩٨٦

بغيابهم تلك الظروف التى تجعل إحتمال الخيانة أكبر .. وتغدو رغبة المرأة الجنسية أقوى .. وقدرتها على الصبر والإحتمال أقل .. فالزوجة التى تعرف وتثق وتفهم أن زوجها لم يسافر إلا لتبقى أسرتهما على قيد الحياة .. وأنه ليس أمامهما طريق أو حل آخر .. هذة الزوجة قادرة على أن تتخيل مدى ما يعانيه زوجها الغائب وما يكابده ويتحمله .. وتدرك بدورها أن عليها تسديد ما يخصها من فاتورة الحساب .

أما الزوجة التى سافر زوجها دون حاجة أو إضطرار حقيقى لمجرد البحث عن رفاهية الحياة وكمالياتها .. فهى التى يمكن أن تفقد يوما بعد يوم قدرتها على الصبر .. حين لا تجد مبررا يبقى فى وعيها يقنعها بالإنتظار طويلا لتستمتع بعد أعوام طويلة بما يمكنها أن تستمتع به الآن فى سنوات صباها .. خاصة وأن المال لا يعوزها .. بل يملأ يديها وخيالها ويفتح أبواب عالم ناعم ومثير .. وسرعان ما تجد نفسها ضحية لسباق وسعى دائم إلى الرفاهية والكماليات .. وهو سباق – على عكس ما يتخيل أو يتوهم البعض – أشد قسوة وأكثر شراسة من السباق نحو أساسيات الحياة .. ربما لأن من تفتش عن الضرورات والأساسيات .. تفتش فى حقيقة الأمر عن أشياء واضحة ومحددة .. تبدأ من سقف بيت مناسب ومستقل .. وقد تنتهى بالأحلام الخيالية البعيدة التى لن تتعدى فى آخر الأمر .. إمتلاك جهاز فيديو يجئ بعد الثلاجة الكبيرة والسخان والبوتاجاز .. أما سباق الرفاهية فهو سعى وراء خيالات غامضة مبهمة .. تدخل صاحبته عالم آخر إيقاعه صاخب لاهث لا يكاد يلتقط أنفاسه .. عالم لا يمل من السعى وراء كل جديد .. بداية من أحدث الأجهزة الكهربائية بأشكالها المختلفة الحديثة ونهاية بالجديد والمثير دوما من العطور وحتى الثياب الداخلية الحريرية والملونة .

ولست أقصد مطلقا أن تنزلق كلماتى بى – أو بأحد غيرى – إلى مستنقع تقسيم الجنس وخطاياه ورغباته إلى فقراء لا يستسلمون ولا يخلعون ملابسهم ولا تقهرهم خطيئة .. وأغنياء عراة طول الوقت لا يملكون أية فضيلة ولا هم قادرون على الإستعفاف والصبر والمقاومة.. كما أود التأكيد أيضا على أننى لا أرى الأمر كله ـ ولا أتعامل معه ـ بقوانين وتصورات جامدة سابقة التجهيز .. فالناس .. والجنس .. والمشاعر .. والنوايا .. كلها عوالم لا منطق لها ولا هى تتبع قوانين صارمة لا يخرج عليها أحد .. من أجل هذا لا أقصد أن كل زوجة سافر زوجها بحثا عن الرفاهية .. خانت وإستسلمت .. وكل زوجة شاركت زوجها معاناة الغياب من أجل أساسيات الحياة .. تحملت وصبرت وإستقامت .. وإنما هى الدلالات والمؤشرات .. التى تجعلنى أميل إلى الإقتناع بأن معدل خيانة وسقوط زوجات عالم الرفاهية والكماليات .. كان دائما أكبر منه فى صفوف زوجات مسافرى الحاجة والإضطرار .. وأعترف مبدئيا بأننى لا أملك أرقاما محددة .. وليست هناك دراسة مصرية عن تأثير غياب الزوج على مشاعر الزوجة وتصرفاتها الجنسية لأرجع إليها وأستند إلى نتائجها .. وإنما هى مجرد ملاحظات ومشاهدات ممكن أن يخرج بها ويصل إليها كل من يتابع ويقترب ويصغى لحكايات الناس ويجيد قراءة ما تنشره الصحف والمجلات فى المساحات التى تخصصها للحوادث والجرائم والتى – من واقع خبرات شخصية – أجدها من أصدق وأعمق ما تنشره الصحافة المصرية فى هذا الزمان .

ولست أعيب على تلك الصحافة أنها تقدم حوادث وجرائم مجتمعنا ونزواته بشكل إخبارى مجرد ومختصر .. فليس من هموم تلك الصحافة ولا هو من واجبها أن تتوقف بين الحين والآخر

لتتمهل وترصد وتشرح وتحلل ما حدث لتصبح قادرة على أن تتنبأ بما يمكن أن يحدث .

في الواقع لم يكترث أحد مطلقا بما حدث .. وبالتالى لم يعد أحد يمتلك القدرة على أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث .. وإنما إمتلكنا جميعا ما يكفى من الوقاحة والصفاقة لنعرب عن دهشتنا الهائلة أمام أية نتائج كان لابد وأن يسفر عنها خروج كثير من الرجال من مصر .. وإستسلام كثير من الزوجات لرغباتهن الجنسية المتوحشة .. فالأمر لم يعد قاصرا على مجرد غياب زوج وخيانة زوجة .. وإنما كان من الطبيعى أن تنتهى الخيانة إما بالدعارة .. فلا تعود الزوجة تفتش عمن يطفئ نار رغباتها هى ولكن تبيع جسدها لمن يحتاجون هم إطفاء نار رغباتهم .. أو تنتهى الخيانة بإمرأة باتت زوجة لأكثر من رجل فى نفس الوقت .. رجل هناك يأتيها بالمال .. ورجل هنا يمدها بالنشوة .. أو تنتهى الخيانة بالدم .. دم الرجال الغائبين إذا فجأة قرروا العودة .. أو دم الخائنات إذا ما تم إكتشاف خيانتهن .. أو دم الثيران التى إرتضت أن تكون البديل للأبقار الغائبة .. أو حتى دم أطفال جاءوا بالصدفة فى غير أوانهم كضيوف مزعجين وثقلاء لا يرحب بهم أحد على الإطلاق .

وحين شاهد الناس فى مصر .. على شاشات السينما .. أو عن طريق الفيديو .. فيلما إسمه أيام الغضب .. تخيل كثيرون منهم أنها حكاية خيالية من تلك الحكايات التى تقدمها السينما حين يشاء لها أصحابها أن تفرط فى الخيال والغرابة والوهم .. فقد كان الفيلم يحكى عن زوج عائد من الغربة ليكتشف أن زوجته قد تزوجت من رجل آخر تعيش معه فى البيت الذى بناه الزوج الغائب بكثير من المعاناة والعرق والدموع .

ولم يدر الناس وقتها أن ما شاهدوه على الشاشة .. كان أقل كثيرا – فى غرابته وقسوته – مما يمكنهم مشاهدته بالفعل فى هذا الواقع الذى باتت تعرفه شوارع مصر وبيوتها فى نهايات الثمانينات .. حين زادت وتعددت البلاغات والقضايا والجرائم .. بل إن عدد تلك القضايا .. فى شهرين فقط هما مارس وأبريل عام ١٩٨٩ .. وفى مدينة القاهرة وحدها .. زاد عن الخمسة قضايا (١) .. غير عشرات القضايا الأخرى التى إعتادت عليها بعد ذلك الأوراق الرسمية لسجلات أقسام الشرطة والمحاكم فى مختلف محافظات مصر .. قضايا كثيرة إختلفت تفاصيلها وتباينت أسماء أصحابها وملامحهم ولم تتشابه إلا فى أن صاحب الحكاية فى كل مرة كان هو الزوج الذى يعود فيكتشف زواج إمرأته من رجل آخر .. واحد منهم (٢) إسمه فوزى .. كان موظفا بمصلحة الضرائب قانعا بوظيفته وبمرتبه المتواضع لولا زوجته روحية التى كانت تحقد وتغار من كل إمرأة ثرية فأقنعته بضرورة السفر لتحسين دخلهما وضمان مستقبل أفضل للولدين .. بل إنها باعت مصاغها لتدفع الف جنيها لأحد مكاتب السفريات من أجل الحصول على عقد عمل لزوجها وبعد قليل .. لم تعد روحية تطمع فى مجرد دخل وحياة أفضل وأكثر أمانا .. وإنما إشترت قطعة أرض فى دار السلام بمصر القديمة بمساعدة بدوى صديق زوجها الحميم .. وباتت تحلم ببناء عمارة .. وتوالت خطابات روحية تطالب فوزى بمزيد من الجهد والعرق والمال لإستكمال البناء .. ورفضت روحية تماما فكرة أن يأخذ فوزى أية أجازة يأتى فيها إلى القاهرة ليستريح ولو أيام قليلة .. فكانت هى التى تقوم بتجديد أجازته كل عام من المصلحة وتكتب له دائما عن المستقبل

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ٦/٣/ ١٩٨٩

(٢) مجلة البلاغ – عدد ١٢ /١٩٨٦

الرائع الذى ينتظرهما معا ليتحمل ويصبر .. وبعد أن إكتمل البناء .. أصبح من حق فوزى أن يعود حتى وإن لم تأذن له روجية .. وطوال الطريق من المطار إلى دار السلام أخذ فوزى يتخيل شكل ذلك البيت الذى بناه بجهد وعرق ودموع الغربة الطويلة والقاسية .. لكن ما رآه بالفعل .. فاق كل خيال كان من الممكن أن يراوده .. لقد رأى صديقه بدوى فى بيته يرتدى البيجاما .. ورأى روحية تتمدد فى الفراش بقميص نوم شفاف يكشف عن كل أنوثتها وملامح جسدها .. وإكتشف فوزى أن زوجته قد تزوجت من صديق العمر .

وما حدث لفوزى .. تكرر مع مصطفى [1] .. والذى لم تقنع زوجته ببيتهما رغم الكماليات التى لم تعد تنقصه ورغم الثلاثة عشر الف جنيها التى تبقت وكان مصطفى يود إستثمارها فى أى مشروع فى القاهرة .. فقرر السفر .. وكان الفارق الوحيد بين فوزى ومصطفى أن مصطفى لم ينتظر طويلا ليعرف بزواج زوجته .. وإنما أرسلت له إبنته خطابا يشير إلى هروب الزوجة .. فعاد مصطفى إلى القاهرة ليكتشف هروب زوجته مع سمير إبن الجيران بعد أن زورت بطاقة شخصية وتزوجت كأية فتاة بكر رشيد .

وإذا كانت كل حكاية من تلك الحكايات قد تحولت إلى قضية قاسية ومزعجة وحزينة .. إلا أنه وبالرغم من ذلك .. لا تصح مقارنة تلك القضايا بقضايا الدم التى كانت أكثر قسوة وإزعاجا وحزنا .. حين باتت الخيانة طريقا نهايته الموت .. أو كان الموت فى النهاية هو ثمن الرغبة والمتعة والنشوة .. موت كان مصيرا محتوما ينتظر الجميع .. فقراء وأغنياء .. مخطئون وأبرياء .. فقراء وأبرياء مثل خمسة فلاحين من قرية كفر البرمون بمحافظة الدقهلية .. دفعوا جميعا حياتهم ثمنا لخطيئة زوجة رجل سادس .. زوجة بلغت الخمسين من العمر .. ومع ذلك .. كانت لا تزال تفتش عمن يشبع شهواتها الجائعة بعد سفر زوجها إلى العراق [2] .. فكان المشرف الزراعى هو الرجل الذى وقع عليه إختيارها ليشاركها الفراش البارد وفيه تسلم له جسدها .. ولم تكتف بذلك .. وإنما لم تعد تريد لزوجها أن يرجع فيحرمها متعة لقاء الرجل الذى بات يجيد التعامل مع جسدها ورغباتها .. فقررت التخلص من الزوج قبل أن يعود إلى مصر .. أرسلت إليه علبة حلاوة طحينية خلطتها بالسم .. وتسلم الرجل علبة الحلاوة فدعا خمسة من أصدقائه ليقاسمونه إياها .. فماتوا جميعا .

هذه ليست حكاية خيالية .. لكنها حكاية من واقع مصر وجرت أحداثها على أرض مصر .. غير أنى أريد التوقف عند حكاية أخرى من حكايات السفر والغياب والعشق والرغبة والخيانة والسقوط ثم الدم والخوف والموت فى النهاية .. حكاية [3] أراها تختصر .. كل قضايا الجنس والرغبة والدم والموت .. بجوانبها ورموزها ودلالاتها ومعانيها .

بدأت الحكاية فى إحدى مدارس القاهرة الثانوية .. وفى أحد فصولها ولد إعجاب عميق وحار بأحدى تلميذات الفصل لم يستطع مدرس اللغة الإنجليزية أن يقاومه طويلا .. تقدم المدرس إلى عائلة تلميذته الصغيرة نادية يطلب يدها .. إعترضت العائلة لفارق فى السن بين إبنتهم وبين

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/٢/٢٣

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٢/٢١

(٣) تناولت صحف كثيرة – وفى أكثر من عدد – تلك الحكاية وتفاصيلها التى شغلت الرأى العام فى مصر ستة شهور كاملة عام ١٩٨٧ .. ثم أعيد نشر تلك التفاصيل فى معظم الدراسات التى نشطت وكثرت فجأة وكانت تناقش فيما أطلق عليه وقتها بظاهرة قتل الأزواج .. ثم أعاد الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم نشر تفاصيل تلك الحكاية فى فى كتابه .. المهاجر المصرى – المكتب الجامعى الحديث – ١٩٩٠

مدرسها زاد عن العشرين عاما .. لكنه إعتراض لم يدم طويلا .. فتم الزواج وإعتزلت نادية التعليم وأصبحت أما لطفلة .. وطفل .. ثم زاد العدد إلى خمسة أطفال .. وأصبح حمل هذة الأسرة الكبيرة ثقيلا على الأب .. وبعد مشقة إثنتى عشر سنة .. جاءت فرصة العمر .. عقد عمل وإعارة فى إحدى الدول العربية .. سنة بعد أخرى .. لم يعد الأمر قاصرا على توفير متطلبات تلك الأسرة الكبيرة .. ولا حتى إقتناء بعض الكماليات أو الكثير منها .. وإنما أصبحت هناك أهدافا وآمالا أخرى أكبر وأعظم .. وكل حلم يحيله مال الغربة إلى واقع .. يخلف وراءه الف حلم .. وكأنه الظمأ على ضفاف نهر من الملح .. فإمتلكت العائلة عمارة فى حى الهرم .. وتضخم رصيد البنك فتجاوز الربع مليون جنيها .. ولم يعد البيت يشكو نقصا من أى نوع .. ومع ذلك بقى الرجل هناك يطمع فى المزيد من المال والثروة والرفاهية .. وبدأت الزوجة هنا تشعر بكراهية تولد داخلها حيال رجلها .. إضطربت وتوترت وإحتاجت وأحست بالرغبة والحيرة وفتشت عن حل وعلاج عند أحد الأطباء النفسيين .. لكنها وجدت العلاج الحقيقى عند رجل آخر .. سائق إحدى سيارات الأجرة إسمه أحمد .. شاب يملك القوة والقدرة الجنسية وإن كان لا يملك المال .. وكان اللقاء بالنسبة لكل منهما .. صفقة العمر .. والموت أيضا .. فالشاب بأموال تلك الزوجة .. أصبح يملك سيارة أجرة لأول مرة فى حياته بدلا من العمل أجيرا عند الآخرين .. والزوجة برجولة هذا الشاب .. أصبحت لأول مرة لا تشكو الرغبة أو الإحتياج .. من أجل هذا لم تكن لقاءات الزوجة والشاب من النوع السريع العابر .. وكان من الضرورى أن تنتقل إلى البيت .. وأن يكتشف الأبناء ما بات يحدث داخل غرفة نوم والديهما .. الإبنة الكبرى سماح – الطالبة بكلية الحقوق – أعطت لأمها الحق فى أن تستقبل صديقها أو عشيقها فى البيت كما تشاء .. ولكن فى مقابل أن تسمح الأم للإبنة بأن تمارس أيضا ما تشاء مع أصدقائها وزملائها ولكن خارج البيت .. أما الإبن فقد قرر أن يرسل لأبيه خطابا يفضح فيه كل شئ .. فكان لابد وأن يكون عقابه الموت .. قدمت له شقيقته سماح كوبا من عصير الليمون أذابت فيه الأقراص المنومة .. وحمله العشيق والزوجة فى السيارة إلى صحراء المعادى .. حيث ذبحه العشيق وشوه ملامح وجهه بماء النار حتى لا يتعرف على جثته أحد .. وإدعت الأم أن إبنها سافر للعمل فى إحدى الدول الأوروبية .. وبدأ الشك يراود الجيران فى سلوك هذة العائلة وما يحدث داخل هذا البيت .. فأرسل بعضهم للأب ليعود ويكتشف بنفسه ما يحدث داخل بيته .. فكان كل ما تفتق عنه ذهن الأب هو أن يستدعى أسرته لتقيم معه هناك .. وسافرت الأسرة بالفعل .. لكن الزوجة إختلقت الخلافات مع زوجها فقط لتعود مرة أخرى إلى عشيقها .. وليكتشف الإثنان أنه بات من الضرورى الخلاص من الزوج الذى .. أخيرا .. بدأ يقتنع بالعودة إلى مصر .. وعاد بالفعل .. وكانت عودته فى أحد أيام شهر رمضان .. وإستقبلته زوجته فى المطار .. ولم يجد أولاده فى إنتظاره بعد أن أخفت عنهم شقيقتهم الكبرى موعد وصول أبيهم وأخذتهم عند جدهم .. وبعد آذان المغرب .. قدمت الزوجة كوب قمر الدين للزوج العائد فراح فى غيبوبة طويلة .. ثم جاء العشيق فذبح الزوج .. وفصل الرأس عن الجسد .. وقام بمساعدة الزوجة بدفن الجثة قرب شبين الكوم .. وعاد الإثنان ليستمتعا بممارسة الجنس فوق فراش إستكانت تحته رأس الزوج القتيل .. وفى الصباح .. تم دفن الرأس بالقرب من هرم سقارة .. وكان من الممكن أن تطيب الحياة للزوجة وعشيقها طويلا لولا عائلة الزوج الذى علمت بعودته إلى مصر دون أن يعثروا له على أثر .. وحين زادت شكوكهم .. أبلغوا رجال المباحث .. فبدأ الشك ثم

التحقيق الذى إنتهى بإكتشاف الحقيقة وسجن الإبنة الكبرى سماح .. وإعدام الزوجة نادية وعشيقها أحمد .. وفى اللحظات الأخيرة قبل إعدام الزوجة .. وقفت تقول(١) .. حين كنت أخون زوجى أثناء غيابه .. كنت كأنى أنتقم منه بعد أن باع رجولته .. كنت أجد متعة فى أن أضع رأسه فى الوحل بعد أن باعنى أنا وأولاده .

ولم تكن حكاية نادية .. وأولادها وزوجها الغائب وعشيقها القاتل .. هى بالطبع الحكاية الوحيدة التى إمتزجت فيها أحلام الثروة والرفاهية بالرغبة والسقوط والخيانة .. وإنما هى حكايات كثيرة .. كان الموت فى خاتمتها هو أخر أقساط حساب الزوجة التى – وكما سبق وأن أشرت – لم تكن وحدها من تعين عليه أن يدفع ثمن هذا الخروج الكبير .. وإنما كانت الزوجة هى فقط أول من بدأ تسديد الحساب .. ثم تقاسمت الأسرة كلها فى النهاية فاتورة الحساب .. الزوج أيضا كان عليه أن يدفع ما يخصه .. وإختلف الأمر من زوج إلى آخر .. وتراوح الثمن من فقدان الأسرة والإستقرار والحلم بمستقبل أفضل إلى فقدان الحياة نفسها أحيانا أو قضاء ما تبقى منها وراء القضبان .. وكان فقدان الرجولة هو بعض هذا الثمن .. وهذا ما يؤكده الدكتور محمد شعلان الذى يقول (٢) .. تولد إحساس عام لدى بعض الرجال بأنهم فقدوا رجولتهم .. بعد أن تعرضوا لعملية إخصاء أثناء البحث عن عمل أو عن فرصة رخاء فى بلاد أخرى حيث العمل هناك يشبه السخرة أو هو نوع من العبودية .. ويتعرض نفس هؤلاء الرجال للإخصاء مرة أخرى حين يعود كل منهم فلا يجد أسرة تحتضنه .. وإنما ورثة ينتظرون موته .. ونجد فى حكاية عاطف مع ليلى ما يؤكد أن الدكتور شعلان إقترب بالفعل وبشكل موجع .. من الواقع ومن الحقيقة .. وأن بعض الرجال فقدوا بالفعل رجولتهم .. وقد كان عاطف واحدا منهم .. بدأت حكايته (٣) حين هاجر من المنيا ليستقر فى القاهرة ويتزوج من ليلى إبنة الجيران .. وإستقر الإثنان فى إحدى الشقق المتواضعة فى الطالبية وأنجبا ثلاثة أبناء .. كان عاطف يكتسب رزقه من بيع الفراخ .. تجارة سمحت له بتوفير وقضاء إحتياجات الأسرة وإستكمال مقومات البيت والحياة وأساسياتها مع إشتهاء رفاهيتها .. وهو ما دفع بعاطف لأن يفتش عن عقد عمل ويسافر بالفعل فى حين بقيت زوجته تبيع الفراخ وترعى الصغار .. وبعد سنوات الغربة والغياب .. عاد عاطف ليستقر فى القاهرة مرة أخرى .. لكن بعد أشياء وقيم كثيرة تغيرت نهائيا وإلى الأبد .. ليلى فى سنوات غياب عاطف بدأت علاقة الإثم والخيانة مع صلاح .. وعاطف بدا كما لو كان الكثير من المال الذى عاد به قد إستبدله هناك مقابل الكثير جدا من رجولته وكبريائه وإحساسه بالغيرة والشرف .. لهذا .. وحين يكتشف عاطف أن زوجته باتت عشيقة رجل آخر تسلمه نفسها وجسدها .. لا نجده يغضب أو يثور أو يقرر مثلا قتل زوجته بعارها وخطيئتها .. وكأن الشرف الرفيع لم يعد بالدم يسلم وإنما بالكثير جدا من الدولارات والريالات فكان كل ما فكر فيه عاطف – وقد أصبح رجلا يملك المال – أن إشترى قطعة أرض قريبة من شارع فيصل وبنى فوقها بيتا إنتقل إليه .. فقط ليبتعد عن صلاح .. وتجاسر الزوج فى يوم وطلب من العشيق ألا يزورهم فى البيت الجديد مطلقا وأن يبتعد عن زوجته .. ولم يكن هناك ما يضطر العشيق إلى قبول رجاء الزوج والتنازل عن جسد يملكه

---

(١) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٧/١١/٦
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٤/١٣
(٣) جريدة المساء – عدد ١٩٩٢/٢/١٦

وقتما وأينما يشاء .. وحين أحس عاطف أن زوجته بدأت مع عشيقها التخطيط لقتله .. هنا فقط .. ثار الزوج وقتل زوجته حفاظا على حياته وليس دفاعا عن الشرف .

ومع أن رجلا مثل عاطف .. كان رجلا إستثنائيا بأى مقياس إجتماعى أو إنسانى أو أخلاقى فى مصر .. إلا أنه إستثناء لا يسهل تجاوزه أو تجاهله .. لا أقصد قبول الخيانة والتعامل معها كأمر واقع أو قدر لا هروب منه ولا وسيلة للإحتجاج عليه .. وإنما أقصد كل ما قد يصيب الرجال أثناء سنوات هجرتهم وإغترابهم .. ففى تلك السنوات .. يفقد هؤلاء الرجال أية قدرة على الرفض والإحتجاج .. فهم هناك محكوم عليهم بالطاعة الدائمة .. والحرص على إرضاء أولى الأمر طول الوقت .. وإلا كان المقابل هو تذكرة عودة على أول طائرة عائدة إلى مصر وخسارة كل تلك الأحلام الخرافية والرائعة التى صاحبت قرار السفر .. وغالبا ما يبدأ الأمر بطاعة صاحب أو أصحاب العمل وكل مواطنى البلد الذى يعمل فيه بإعتبار أنها فترة مؤقتة سرعان ما ستنتهى .. ويملك كل رجل منهم القدرة على أن يقنع نفسه بأنه ليس هناك ما يدعوه للمقاومة والإعتراض على أى خطأ أو خلل .. فهو فى بلد ليست بلده .. ولا سكانها هم أهله .. وهو - وإن طالت به مدة الغياب أو قصرت - عائد مرة أخرى إلى بلده وأهله .. وكل ما يعنيه هو المال .. أن يعود فى النهاية بالكثير .. الكثير جدا من هذا المال .. وفى المقابل .. حين يعود هذا الرجل إلى مصر فى إجازاته .. يقنع نفسه مرة أخرى بأنه مجرد ضيف لأيام قليلة جاء يقضيها مع من يحبهم وكأنْ يشتاق إليهم ويحتاج إلى وجودهم بجانبه .. وهو من أجلهم على إستعداد لأن يتحمل أية معاناة أو مشقة أو حتى إهانة .. لهذا فهو لن يفسد صفو تلك الأيام القليلة بالشجار والخلاف والإعتراض .. ولن يترك خلفه قبل عودته إلى غربته إلا كل ذكرى جميلة وسعيدة وطيبة .. وهكذا نرى الرجل مضطر لأن يوافق دائما .. يطيع دائما .. خارج مصر وداخل مصر .. مع من يخاف منهم وأيضا مع من يحبهم دون خوف .. وأيا كانت دوافعه .. فالنتيجة واحدة .. ومؤكدة .. الإستسلام أكثر مما ينبغى .. والبحث عن السلام مهما كان الثمن أو المقابل .. وإعتبار المال هو القيمة الوحيدة الباقية .. القوة الوحيدة الباقية .. السلاح الوحيد والأخير الذى بقى بين يديه ليحارب به آخر معاركه مع نفسه وواقعه والناس من حوله .. لكنه سلاح لم يضمن له السلامة والأمان فى كثير من الأحوال .. بل وكانت هناك حكايات كثيرة تحول فيها هذا المال من سلاح يحمى الرجل إلى حبل المشنقة الذى إلتف حول عنقه .. ليس فقط لأن موته بات يعنى التخلص من ضيف ثقيل مزعج لم يعد لوجوده ضرورة أو مبرر .. وإنما لأن غيابه أيضا يعنى الحرية والثروة .. أو الحرية فى إستغلال تلك الثروة والتمتع بها .. ثم لم تعد هناك ضرورة لأن تكون الزوجة خائنة .. وأن يساعدها عشيق إرتبط بها جنسيا وإقتصاديا .. لكى تقتل زوجها .. بل أصبح هناك رجال قتلى بثمن أقل .. منهم من قتلته زوجته بسبب البخل والحرص الهائل على المال الذى تعلمه فى سنوات الغياب .. مثل منى عبد الفتاح محمد (١) التى قتلت زوجها بأربعة وعشرين طعنة إنتقاما من زوج هادئ رقيق عاد بعد سنوات طويلة فى السعودية يرى ثروته أهم من مشاعر زوجته أو مستقبل أولاده .. ومنهم من دفع حياته لأنه فكر - بعد أن جاء المال - فى التمرد على حياته القديمة وعاد يفتش عن آخرين يعيش معهم حياة أخرى أكثر بهجة وإشراقا ونضارة .. مثل فلاح كفر الجنيدى بمحافظة الشرقية (٢) الذى عاد بعد سنوات طويلة من الغربة بالكثير من المال ..

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٧/١١/١٢

(٢) جريدة الوفد - عدد ١٩٨٨/٣/٢٠

فقرر الزواج من فتاة أصغر وأجمل من أم أولاده التى ترهلت وسرق منها زمن الهموم فتنتها وصباها .. وما إن علمت زوجته الأولى بنواياه .. حتى قررت قتله .. وقتلته بالفعل .

لكن .. لا الشرف المهزوم والعرض المستباح .. ولا الإستسلام للظروف والمقادير ومحاولة إرضاء الجميع على حساب الذات والكبرياء .. ولا السعى وراء المال وتعاظم قيمته ودوره .. ولا الموت فى بعض الأحيان .. كانوا كل فاتورة حساب كثير من الرجال فى غربتهم القاسية .. كانت هناك أقساط أخرى دفعها بعض هؤلاء الرجال فى ليالى الغياب الطويلة الباردة .. كان منهم من صمد طويلا فى وجه رغباته وإحتياجاته الجنسية كرجل .. وكان هناك من إستعان على الصبر بأفلام الفيديو العارية والإستمناء .. لكن الثمن الأقسى والأكثر مرارة الذى إضطر القليلون لأن يدفعوه مرغمين .. كان هو الشك .. الأرق والتساؤل الدائم والمؤلم .. فعلى سبيل المثال .. هناك قرية فى صعيد مصر [١] سافر معظم رجالها .. وتحولت إلى قرية نسائية وأصبح الفساد فيها ظاهرا للعيان .. وغير تلك القرية .. كانت هناك قرى أخرى كثيرة فى الشمال أو الجنوب .. وبعض النواحى فى كثير من المدن .. تشكو من نفس الفساد .. ولا أحسب أننا نعرف ذلك .. ولا يعرف أهل تلك القرى والمدن من الرجال الغائبين ما نعرفه نحن .. ومن المؤكد أن ظلال الشك حاصرتهم وطاردتهم وعلمتهم كيف ينقمون بعد ذلك على تلك الظروف وهذا الواقع المهين الذى أجبرهم على الغياب .. من المؤكد أيضا أن تلك الظاهرة وإن تكن جديدة على المجتمع المصرى الذى طال إستقراره قرونا طويلة عبر التاريخ .. إلا أنها ليست ظاهرة جديدة فى حياة الناس فى كل مكان أو زمان .. فكل الدول المعاصرة اليوم المصدرة للعمالة وللبشر .. تعرف تلك الظاهرة .. وقديما عرفتها أوروبا وعانت منها طويلا .. بالتحديد فى زمن الحروب الصليبية .. حين سافر مئات الألوف من الرجال .. وأصبحت هناك مدنا وقرى شبه خالية من الرجال .. ففتشت الزوجات عمن يشبع رغباتهن .. فتفشى الزنا وساد الإنحلال والتهتك .. فإبتكرت أوروبا واحدا من أشهر إختراعاتها الجنسية على مر التاريخ .. حزام العفة .. وكان هذا الحزام يتكون من حزام يطوق خصر المرأة .. ويتصل به من الأمام والخلف .. شريط معدنى يمر بين ساقى المرأة ليس به سوى فتحة تسمح بمرور البول والبراز ودم الحيض .. ويتصل الشريط بالحزام عن طريق قفل يحكم الزوج إغلاقه ويرحل وفى جيبه مفتاح القفل .. ومع ذلك .. وجدت زوجات كثيرات [٢] من يصنع لهن مفاتيحا بديلة يستخدمنها وقت الحاجة ووقت الرغبة .. وكانت هناك بالطبع من لم تنجح فى العثور على مفتاح بديل .. وكانت هناك أيضا من ماتت دون أن يرجع زوجها فتم دفنها بحزامها كتلك المرأة التى عثروا عليها عام ١٨٨٩ فى إحدى مقابر النمسا وهى مجرد .. هيكل عظمى .. وحزام عفة بعد لم يبلى .

وقد يندهش الكثيرون إذا علموا أن أوروبا لم تتوقف عن إستخدام حزام العفة هذا إلا فى بداية القرن التاسع عشر [٣] .. أى أن الرجل الأوروبى – قبل أقل من مائتى عاما فقط – كان ليس فقط يغار على زوجته ولا يتقبل فكرة أن يشاركها فراشها رجل غيره .. بل وكان أيضا يقفل على جسدها ورغباتها وغرائزها بمفتاح ثقيل من معدن لا يصدأ أو يبلى .. وإذا كان هذا الرجل

---

(١) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٨٣/٤/٢٥

(٢) د. أحمد على المجدوب – العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية – الدار المصرية اللبنانية

(٣) مجلة سكسيولوجى – نيويورك – عدد ١٩٥٦/١١

اليوم قد القى بكل ما كان يحمله من مفاتيح .. وبات على قناعة كاملة بأنه من حق زوجته أن تختار من تشاء من الرجال .. وأن تحب وتعشق وتمارس الجنس وتستمتع به فى فراش أى رجل ولا يرى فى ذلك خيانة أو خطيئة تستدعى الموت أو العقاب أو حتى الإنفصال .. فإن ذلك التحول لم يحدث داخل عقل الرجل إلا بعد أن تغير المجتمع كله أولا .. وبعد أن عادت أوروبا تكتب قوانينها وتصيغ تقاليدها وضميرها من جديد .. أو كما قال بول هازار [1] .. بدأت أوروبا منذ أكثر من مائتى عام تفتش عن أخلاق جديدة .. أخلاق ليس فيها شئ مطلق .. ولا حتى الخير أو الشر .. وإنما هى أخلاق تفرضها الضرورة والواقع والمجتمع الذى يتعامل بها .

أى أنها كانت أخلاق مرنة خلقها الواقع لا الله .. أعطاها شرعيتها ما كان يحدث بالفعل لا ما كان ينبغى أن يحدث .. ولهذا أصبحت أوروبا – وبفضل عوامل أخرى كثيرة ومتعددة – أكثر تسامحا وتساهلا .. وهو الأمر الذى أغرى وإستهوى كثيرا من شعوب وأمم أخرى إنبهرت – ولا تزال – بأوروبا .. لأن تستورد ضمن ما تستورده .. هذا التسامح وهذا التساهل .. لكن لم تكن مصر – وأبدا لن تكون – من تلك الدول المستوردة للتسامح الجنسى على الطريقة الأوروبية .. فقط لأن مصر – وعبر عمرها الطويل – لم تكن تضع قوانينها وتكتب ضميرها وفقا لمقتضيات الواقع وإحتياجات البشر .. وإنما كانت دائما تلتزم بأخلاقياتها منذ أن كانت هى صاحبة أول أخلاق وأول دعوة للضمير فى التاريخ .. وعلمت أهلها الحفاظ على هذا الإلتزام مهما كبدهم ذلك من مشقة ومعاناة وجهد .. وكان هناك بالطبع من يخرج على هذا الإلتزام .. لكن من يخرج كان يعرف أنه إستثناء .. وسيبقى دائما مجرد إستثناء وسط قاعدة صلبة قوية من الإلتزام والترفع عن الخطايا والأخلاق التى لا تنثنى أو تنكسر .

من أجل هذا .. عاشت مصر لا تعرف .. ولا يقبل أهلها .. التسامح فى ذنوب الجنس وخطاياه . .

من أجل هذا .. كانت ظاهرة غياب الرجال عن مصر وما إرتبط بها من شك وحيرة وعذاب وخيانة وجريمة وخطيئة .. أكثر قسوة وعنفا منها فى بلاد أخرى عاشت نفس الظاهرة .. حتى وإن كانت الظاهرة فى مصر أقل حجما وكان ضحاياها أقل عددا .. ساعد على ذلك أن مصر قبل أن يخرج كثير من رجالها إلى شطآن الخليج والبترول والرمال .. كانت قد فقدت الكثير من توازنها الإجتماعى والأخلاقى .. وعاشت تنتقل من زلزال إلى آخر يطرق أبوابها فى شراسة وتوحش .. وأعطت أذنيها وأصغت لمن إدعى أنه قادر على أن يعلمها كيف تنسى وتسامح .. ولمن جاء يطالبها بأن تكسر قيودها وتثور فى وجه تاريخها القديم .. وعاداتها القديمة .. وأخلاقها القديمة .. فالإنفتاح وزمن البترول .. بشرا بتاريخ كل ما فيه جديد .. حتى القوانين والمفاهيم والعادات والقيم والأخلاق .

وكان من نتيجة تلك العادات والمفاهيم الجديدة .. أن سافرت زوجات كثيرات بمفردهن وتركن أزواجهن فى مصر يعنين بالبيت وبالأولاد .. وأكد الدكتور سعد الدين إبراهيم [2] زيادة عدد هؤلاء الزوجات المغتربات بما يكفى لأن يشكل ظاهرة جديدة تماما على المجتمع المصرى .. ظاهرة يمكن النظر إليها وعلى أنها مظهر آخر من مظاهر زعزعة إستقرار العائلة المصرية بسبب مال

---

(١) بول هازار – أزمة الضمير الأوروبى – ترجمة جودت عثمان ، نجيب المستكاوى – دار الشروق – ١٩٨٧

(٢) د. سعد الدين إبراهيم – النظام الإجتماعى العربى الجديد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٢

النفط .. ويشير الدكتور سعد أيضا إلى أن تلك الظاهرة أسفرت عن نتائج مأسوية للغاية .. فلا يزال من الصعب على الزوج المصرى أن يتقبل القيام بدور عكسى فى الأسرة فيبقى هو فى البيت بينما تعمل زوجته .. وقد كان ملل البيت فضلا عن الشعور بالدونية أمرا مدمرا لنفسية كثير من هؤلاء الأزواج .

ولم يقتصر الأمر على خلافات زوجية حادة ومدمرة حدثت فى مصر نتيجة سفر هؤلاء الزوجات .. وإنما كان هناك ثمن آخر دفعته بعض هؤلاء الزوجات فى الغربة بعيدا عن بيوتهن وأزواجهن .. فمعظم هؤلاء الزوجات أكدن [١] أنهن يعانين من نظرة أهل بلاد الغربة إليهن وعلى أنهن من النساء المرتزقة .. وهذه النظرة تفسر الكثير من وقائع وأحداث تعرفها هؤلاء النساء وعانين منها ومن رجال تلك البلاد .. فيحكى حامد سليمان مثلا عن مذيعة مصرية فاضلة [٢] .. إستدرجها وزير إعلام البلد التى تعمل فيه إلى منزله بحجة العمل ووضع لها مخدرا تمهيدا لإغتصابها .. لكنها لم تفقد وعيها وقاومته ونجحت فى الهرب وهى على حالة يرثى لها وبقيت تجرى فى شوارع تلك العاصمة الخليجية حتى إلتقطتها أسرة مصرية تعرفت عليها وأوصلتها إلى بيتها وهى فى حالة أقرب للإغماء .

وهناك إمرأة أخرى .. سافرت فى بداية الثمانينات إلى العراق وإنتهت بها رحلة العمل الطويلة إلى تولى منصب مديرة أحد أشهر فنادق بغداد .. ثم تم القبض عليها بتهمة التجسس وبقيت رهن الإعتقال فى بغداد حتى تدخل الدكتور عصمت عبد المجيد أمين عام جامعة الدول العربية والدكتور عمرو موسى وزير الخارجية للإفراج عنها .. وأفرج العراقيون عنها بالفعل وعادت إلى القاهرة [٣] فى شهر يوليو عام ١٩٩٣ لتذهب إلى مستشفى الدكتور جمال ماضى أبو العزايم للعلاج من إنهيار نفسى كامل .. وبقيت طويلا فى شبه غيبوبة لاتفيق منها إلا لتهذى وتصرخ .. أنا ست كويسة .. أنا مش مومس !.

وقد قصدت الإشارة إلى هاتين السيدتين .. المذيعة الشهيرة والمديرة الكبيرة .. وما تعرضت له كل منهما .. حتى يمكننى تخيل الذى يمكن أن يحدث – أو حدث بالفعل – لعشرات أو مئات الأخريات .. أولئك اللواتى سافرن للعمل كممرضات أو مربيات أو عاملات أو خادمات .. وفى الواقع الأمر لا يستدعى الأمر كثيرا من خيال أو القدرة عليه .. فقد ذهبت إلى شطآن الخليج بنفسى وعرفت وأصغيت ورأيت .. ويمكننى التأكيد على أن بعض هؤلاء المغتربات – أو كثيرات منهن – قد تعرضن لمضايقات جنسية من كل نوع بداية من كلمات ونظرات وأصابع تخدش الحياء وتكسر الكبرياء ونهاية بهتك العرض أو جريمة الإغتصاب الكاملة .. وأيا كانت بشاعة تلك الجرائم وقسوتها .. فإن التعليمات الدائمة والمقدسة كانت إغلاق ملف أية حادثة أو جريمة طالما الضحية من مصر والجانى من أهل البلاد .. حتى هنا فى مصر .. لم يعد هناك أحد يريد أو يجروء أن يكتب أو يغضب أو حتى يصرخ بالنيابة عن هؤلاء النساء من ضحايا العرب والغربة كمحاولة للحفاظ على أواصر الأخوة والترابط أو رغبة فى الإبقاء على التضامن والوحدة العربية .

وفى المقابل .. لم يتحدث أحد عن ظاهرة أخرى – أيضا فى الخليج وعواصمه – تتعلق

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٦/٢/٦

(٢) حامد سليمان – هذا الزمان .. غربة المصرى ومهانته – المكتب المصرى الحديث – ١٩٩٢

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٣/٨/٢

بإغتصاب الشباب والرجال مثلهم مثل النساء .. وحكى حامد سليمان (١) عن فتيات من أسر كبيرة يقدن سياراتهن ويتجولن ليلا فى شوارع عاصمة خليجية كبرى ينتقين بعض الشباب المصريين ويجبروهم على الركوب معهن فى سياراتهن .. يجبروهم أيضا على ممارسة الجنس معهن تحت الضغط والتهديد بالطرد من البلاد أو إتهامهم بالشروع فى إغتصابهن مما قد يعنى الطرد من الدنيا كلها .. ثم كان أن إنتقل بعض المصريين إلى شاطئ الخليج يحملون معهم خطاياهم ونزواتهم .. ومن هؤلاء (٢) كانت حنان التى سافرت مع زوجها إلى العراق وأنجبت منه هناك ولدا وبنتا .. ثم فوجئت يتزوج مرة أخرى .. فوجئت به أيضا يتورط فى أكثر من علاقة نسائية وجنسية .. فقررت حنان التخلص منه بالإتفاق مع صديق عراقى .. وقام الصديق بالفعل بقتل الزوج لتعود حنان وحدها إلى مصر تصطحب صديقا لها من دمياط وترجع به إلى العراق .. وقيل أن هذا الشاب الدمياطى تعرف على حنان من قبل فى العراق وأن زوجها القتيل سبق وأن أجبرها على ممارسة الجنس مع الشاب مقابل المال .. فأحبته ورضيت به وعنه .. ومن أجل أن تبقى معه قتلت زوجها وليس بسبب خيانة الزوج وعلاقاته المتعددة مع العراقيات أو المصريات فى الغربة .

ومع ذلك .. لم يكن ثمن الغربة والغياب قاصرا على من غاب سواء كان رجلا أو إمرأة .. ولكنها فاتورة حساب إقتسمها وتشارك فى سدادها الجميع .. بل ربما كان ما دفعه الصغار من ثمن أكثر خطورة وقسوة .. فقد تعين على هؤلاء الصغار أن يخطوا خطواتهم الأولى فى سنوات غاب فيها الأب .. وكما يؤكد الدكتور نادر فرجانى (٣) .. كان لهذا الغياب آثاره على التنشئة الإجتماعية للأبناء .. فغاب المناخ الملائم أمام الطفل ليكتسب الضمير .. ونحن كما يقول الكاتب المسرحى على سالم (٤) .. نولد بدون ضمائر .. وعلينا اليوم أن نعيد النظر فى العناصر التى باتت تشكل ضمائرنا .. ماذا نقرأ .. ماذا نغنى .. ما هى الأفلام التى نراها .. ما هى المثل العليا التى نعجب بها .

أعتقد أن أية إجابة أمينة وصادقة على ما يطرحه على سالم من أسئلة .. ستجعلنا قادرين على تخيل مستقبل هؤلاء الأولاد والبنات حين يكبرون وتمض بهم وبنا أيامهم وأيامنا .. وستجعلنا ندرك كم أزمة تقبع هناك فى إنتظارنا غدا وبعد غد .. أزمات كثيرة ومختلفة تلخصت فى تأنيث الأسرة المصرية (٥) .. حيث الزوجة فى معظم الأحيان باتت تتولى بنفسها ووحدها إدارة شئون الأسرة بصورة كاملة بما فى ذلك تربية الأطفال .. ولا يعنى ذلك أن المشكلة إقتصرت على كثير من قيم الرجولة التى توارت تحت جلد الأبناء وسيادة قيم الأنوثة .. وإنما كان هناك الجسم والحزم والإنضباط الذين خفت حدتهم وتراخت قبضتهم .. فإنفرط عقد الأخلاق فى أحيان كثيرة لنشهد مشكلات مثل (٦) .. التأخر خارج المنزل وعدم الإنتظام فى المدرسة مع كثرة التغيب والهروب ثم الرسوب الدائم والفشل الدراسى مع إعتياد الأبناء على قضاء الليل خارج البيت

---

(١) حامد سليمان – هذا الزمان .. غربة المصري ومهانته – المكتب المصرى الحديث – ١٩٩٢
(٢) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤
(٣) نادر فرجانى – سعيا وراء الرزق – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٨
(٤) مجلة كل الناس – عدد ١٩٨٩/٩/٤
(٥) د. سعد الدين إبراهيم – النظام الإجتماعى العربى الجديد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٢
(٦) الآثار الإجتماعية لهجرة رب الأسرة للعمل بالخارج – المعهد العالى للخدمة الإجتماعية بالقاهرة – ١٩٩١

وتدخين السجائر والمكيفات وعجزهم عن إحترام أى أحد .. وليس هذا الفشل الدراسى أو الإجتماعي وحدهما هما كل المشكلة .. وإنما هناك الفشل الأخلاقي والنفسى أيضا .. حيث يبدأ – أو يعتاد – بعض هؤلاء الأبناء (١) ممارسة الرذائل وسلوك طريق الإنحراف .

ولم يعد الأمر يحتاج دراسات وأبحاث خاصة لنعرف كيف إستشرت تلك الرذائل وهذا الإنحراف بين صفوف أبناء المهاجرين وبناتهم .. وإن كنت أشك كثيرا فى أن أحدا منا بإمكانه مثلا .. أن يتخيل مستقبل .. أو حتى واقع وحاضر .. الكثير من بنات زمن الهجرة والطوفان .. هذة البنت التى دفعت .. ولا تزال تدفع .. الكثير جدا من إتزانها وإستقرار مشاعرها وأفكارها وأحلامها وأنوثتها .. وهناك أكثر من دراسة نفسية وإجتماعية التوغل فى أعماق بنات الأسر المهاجرة .. فعلى سبيل المثال شهدت جامعة عين شمس واحدة من أخطر وأهم تلك الدراسات .. حيث قام أساتذة علم النفس (٢) بدراسة حالات بعض طالبات الجامعة والعلاقة بينهن وبين آبائهن المهاجرين .. وكان من النتائج القاسية والمفزعة لتلك الدراسة .. أن العلاقة بين البنت وأبيها .. أصبحت أقرب لأن تكون علاقة بين ذكر وأنثى .. إختفت مشاعر الأبوة .. وباتت بعض هؤلاء الطالبات يشعرن ببعض الإثارة الجنسية برؤية آبائهن حين يعودون من غيابهم الطويل .. وهى نتيجة أكدتها دراسة أخرى (٣) أجراها الدكتور عبد الباسط عبد المعطى إكتشف بعدها أن نظرة الإبنة لأبيها لا تختلف عن نظرتها لغيره من الرجال .. إنها لم تعد تراه أبا وهى لا تشعر أنها إبنته .. إنه مجرد رجل .. رجل كل ما عليه أن يرسل لها ما تحتاجه من المال .. ويصف لنا الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم (٤) كيف بات من المألوف أن يشكو الأباء المهاجرون من عدم إنصياع بناتهم لأوامرهم وملاحظاتهم المتعلقة بالسلوك ونوع الثياب التى ترتديها بناتهم .. أو تنصاع البنات بالفعل ولكن لفترة مؤقتة لحين سفر الآباء مرة أخرى لتعود الأمور وجوانب الحياة كلها إلى ما كانت عليه وإلى سيرتها الأولى .

ولم يدرك كثير من هؤلاء الآباء أن الحكاية لم تعد قاصرة على ثياب عرت بناتهم بالتدريج .. ولا إقتصر السلوك المعيب على ساعات إضافية تتأخرها الفتيات خارج البيت أو تدخين السجائر بشراهة توطئة لتعاطى المخدرات ثم إدمانها .. وإنما إنتهت حكايات غياب وإغتراب كثيرة بسقوط كامل للإبنة .. فتعرى جسدها كله وتاله الغرباء صيدا سهلا إما بإدعاء الحب وإما بدعوى التحرر وإما كإنتقام من الإبنة تعرب به عن قمة الثورة والغضب والحقد على نفسها وعلى أسرتها وعلى مجتمعها كله .. فأما اللواتى سقطن بوهم الحب فحكاياتهن كلها تختصرها حكاية فتاة سافر والداها إلى إحدى الدول العربية وتركاها فى رعاية جدتها .. فتاة جامعية وجدت وحدها فجأة بلا قيود أب يخاف على إبنته ولا أحضان أم تسمع وتفهم وتشارك .. ثم كان أن قرر الوالدان تعويض إبنتهما عن غيابهما بكثير من المال .. فباتت تلك الفتاة تذهب إلى كليتها بسيارة خاصة جديدة .. وثياب غالية لم تعد تحفل بحكاية الإحتشام وأسبابه وقوانينه ومعانيه .. ووقعت الفتاة فى الحب .. وأسلمت نفسها لمن تحب .. لم تمارس معه الجنس بدافع من غرام أو هوى .. وإنما من أجل ألا يغضب منها أو عليها فيهجرها .. فقد بدأت تعتاد على أن يقوم ذلك الشاب معها بدور الأب ..

(١) مجلس الشورى – تقرير اللجنة الخاصة من هجرة العمالة المصرية إلى الخارج – ١٩٨٧

(٢) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٨٣/٤/٢٥

(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٩/٥/٢٥

(٤) د. عبدالله عبد الغنى غانم – المهاجر المصرى – المكتب الجامعي الحديث – ١٩٩٠

ويمنحها حنان الأم .. أصبح هذا الشاب وحده فى زمن الإغتراب هو البيت والعائلة .. وأما حكايات اللواتى سقطن بدافع الإنتقام والغضب .. فحكاياتهن أيضا تختصرها حكاية فتاة أخرى(١) .. كانت لا تزال فى السابعة عشر من عمرها حين سافرت أمها إلى الكويت لتأتى بالكثير من المال من أجل إبنتها .. فإنخرطت فى حياة الليل والسهر حتى إلتقت أخيرا بصاحب كافيتيريا بالهرم .. وتعددت اللقاءات بينهما فى الكافيتيريا إلى أن قررت الفتاة أن تهجر الشقة الغالية والأنيقة التى إشترتها الأم للفتاة كتعويض لإبنتها عن غيابها .. رفضت الإبنة أن تقبل الشقة ثمنا لأمها الضائعة.. فضاقت بها وإنتقلت تعيش مع صاحب الكافيتيريا فى بيته دون زواج أو أى إرتباط رسمى أو شرعى .. وحين عادت الأم وفوجئت بما حدث لإبنتها وذهبت لقسم الشرطة تقدم بلاغها وتشكو صاحب الكافيتيريا .. إعترف صاحب الكافيتيريا بعلاقته الآثمة .. أما الفتاة فقد خرجت من شقة صديقها إلى المجهول تفتش عن صديق آخر .. فكل ما أصبح يعنيها هو أن تهين أمها وتتمادى فى جرحها لتنتقم منها ومن ثروتها التى تراكمت عاما بعد آخر ولكن على حساب مشاعر وأعصاب وأحلام إبنتها .. هذا بالطبع غير عشرات الفتيات اللواتى لم يتعرين مرة واحدة فقط .. ولا أسلمن أجسادهن مرة واحدة فقط لحبيب أو صديق أو عابر سبيل .. وإنما إحترفن الدعارة من أجل المال .. نفس المال الذى سافر الأب أو الأب والأم من أجل الحصول عليه .

ثم كان أن سافرت الإبنة بنفسها إلى آبار النفط والثروة .

وكانت سابقة أولى من نوعها فى تاريخ مصر .

أن تسمح الأسرة فى نهاية السبعينات لإبنتها بالسفر وحدها للعمل خارج مصر .. هذه الأسرة التى كانت تخاف على إبنتها من الخروج ليلا – أو حتى نهارا – بمفردها .. لم تعد تمانع من سفر هذه الإبنة وحدها إلى بلاد غريبة وبعيدة .. ولم تعد تلك الظاهرة الجديدة قاصرة على فئة أو طبقة بعينها .. فقد سافرت بنات الطبقات الغنية بقدر ما سافرت بنات الطبقات الفقيرة .. ولا كانت وظائف متشابهة ومتقاربة تلك التى بدأت فتيات مصر يتطلعن إليها .. فقد سافرت الفتيات ليعملن كممرضات أو مدرسات أو مضيفات جويات أو مهندسات أو طبيبات .. وبقدر ما تزايدت أعداد هؤلاء الفتيات المسافرات إلى بلاد الخليج .. بقدر ما بدأت حكايات سقوط بعض هؤلاء الفتيات تتزايد ليتناقلها الناس هنا وهناك .. ومع أن معظم تلك الحكايات كانت بطلاتها من فئة المضيفات العاملات على الخطوط الجوية العربية .. حيث تستمتع الفتاة منهن بكامل حريتها وبها تتنقل بين فنادق النجوم الخمس فى مختلف عواصم العالم .. وحيث تلتقى أولئك الفتيات بكبار شيوخ وأثرياء الخليج الطامعين فى كل هذا الجمال وكل تلك الإثارة .. وبقدر ما تنجح أعداد قليلة من الفتيات فى المقاومة والحفاظ على أنفسهن وبكارتهن .. بقدر ما تنهار مقاومة الكثيرات إما طمعا فى الهدايا وفى كثير من المال .. وإما خوفا من الطرد والعودة إلى مصر مرة أخرى بلا ثروة أو رفاهية أو أحلام لا يحدها شئ أو نهاية .. وهناك حكاية قيلت هنا وهناك عن إحدى شركات الطيران العربية تعاقدت مع ثمانية عشر مضيفة مصرية ورفضت عشرات الفتيات الأخريات إتمام تعاقدهن مع الشركة حين قيل لهن بشكل واضح ومحدد أن التنازل عن الشرف شرط أساسى للتعاقد .. لكن ذلك كله لا يعنى أن السقوط كان من نصيب مضيفات شركات

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/٢٦

الطيران وحدهن .. وإنما سقطت من أرادت أن تسقط .. ومن أرادت إختصار الوقت اللازم لجمع أكبر ثروة ممكنة أيا كانت وظيفتها وظروف إقامتها فى تلك البلدان البعيدة .. من كانت أحلامها وطموحاتها أكبر من واقعها وظروفها وإلتزامها وأخلاقياتها .

وغير كل هؤلاء .. كانت هناك من سافرت لا من أجل البحث عن عمل أو فرصة .. وإنما لتتاجر هناك بشرفها وجسدها .. ومثلما سافرت فتيات كثيرات من مصر بعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ إلى بيروت التى تحولت فى تلك الأيام إلى أكبر بيت للدعارة فى مصر .. عادت الفتيات مرة أخرى للسفر إلى بلاد أخرى بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ .. كأنه لا فرق هناك بين يونيو وأكتوبر .. كأننا إنهزمنا فى يونيو ولم ننتصر فى أكتوبر .. أو إنتصرنا لكن كان هناك من سرق منا هذا الإنتصار وإختطفه لصالحه وبقينا نحن نلعق نفس الجراح ونشكو نفس المواجع غير ما أضافه زمن الإنفتاح إلى كشف الحساب .

وأيا كانت الأسباب والدوافع .. فقد عادت الفتيات يحملن جواز السفر ويتأهبن للرحيل مرة أخرى .. وكانت البداية أيضا فى بيروت .. وحيث بلغ حجم سوق الدعارة المصرية (١) فى بيروت وحدها عام ١٩٧٥ أكثر من مائتى مليون ليرة لبنانية .. فكان من الطبيعى أن يحاول تجار الأعراض هناك إغتيال المقدم أسامة عبد الجواد .. الضابط المصرى الذى أوفدته وزارة الداخلية على رأس حملة تحاول إيقاف الدعارة المصرية فى لبنان وإعادة كل فتيات مصر اللواتى سافرن إلى هناك أو معظمهن على الأقل .. صحيح أن محاولة الإغتيال لم تتم .. لكن سفر الفتيات لم يتوقف ولم ينقطع .. ولم تعد بيروت وحدها هى غاية كل هؤلاء الفتيات .. وإنما بدأ بعضهن فى شد الرحال إلى سوريا أيضا .. كانت البداية عصابة من ثلاثة عشر رجلا سوريا (٢) يجيئون إلى القاهرة بين الحين والآخر إلى مصر من أجل الزواج من المصريات .. ويعود الرجال بزوجاتهم إلى سوريا .. وهناك وبعد الطلاق .. تبدأ الزوجات رحلة الدعارة والسقوط .. ثم لم يعد الأمر فى حاجة إلى عقود زواج ورجال يأتون من هناك لإصطياد الفتيات هنا وكل هذة المسرحية .. فقد بدأت الفتيات يسافرن إلى سوريا لممارسة الخطيئة هناك بكامل الإصرار والترصد .

وجاءت الثمانينات .. لتزداد تلك الظاهرة إتساعا وقسوة .. فلم تعد بيروت أو دمشق أو عواصم الخليج هى وحدها أسواق بيع اللحم المصرى الرخيص .. وإنما كانت هناك العاصمة النيجيرية لاجوس (٣) .. إليها سافرت فتيات راقصات فى الفرق الشعبية والفنية تحت ستار العمل فى الملاهى هناك .. وكانت هناك أثينا وروما ولارناكا .. إلى هذة المدن سافرت فتيات (٤) بعد رحلة طويلة بدأت بالتعاقد مع هؤلاء الفتيات فى القاهرة بأجور خيالية للسفر إلى العراق أو إيران والعمل هناك كمربيات أطفال .. ثم تنتهى الرحلة بسفر هؤلاء الفتيات إلى عواصم أوروبا خوفا عليهن من الحرب العراقية الإيرانية .. وغير هؤلاء كانت هناك أربعون فتاة سافرت بجوازات سفر مزورة (٥) للعمل كراقصات وفتيات ترفيه فى إيطاليا وأسبانيا .. ويستمر نفس هذا المسلسل العارى والفاضح .. وتتوالى أخبار القبض على عصابات تخصصت فى تسهيل سفر الكثير من

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٥/١٠
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/١٠/٢٨
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨١/١٠/١٧
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٢/٥/١
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٢/١/٢

الفتيات المصريات إلى أى مكان سواء بجوازات سفر حقيقية أو مزورة .. وسواء ذهبت الفتاة وخلعت ملابسها من أجل الخطيئة إختيارا أو إضطرارا .. وإن كنت لست مقتنعا تماما بحكاية إرغام الفتيات على ممارسة الدعارة .. فأين هذا الإرغام والفتاة سافرت بمحض إختيارها .. سافرت أيضا وحدها .. سافرت غالبا للعمل فى ملهى ليلى أو فى أحد البارات .. فما الذى كانت تتوقعه مثل تلك الفتاة .. وما الذى كانت تظنه عائلتها حين سمحت للفتاة بالسفر .. وما هى مقاييس هذا الشرف الرفيع الذى يتمسك فقط بألا تذهب الفتاة إلى الفراش مع أحد الغرباء لكنه يتسامح فيسمح لنفس هذة الفتاة بالسفر وحدها إلى المدن البعيدة فى أفريقيا أو أوروبا أو على شطآن خليج العرب حيث تخلع هناك ملابسها لترقص ولا تبخل على عشرات أو مئات الرجال بمتعة العين ونشوة الخيال .

نعم .. كان هناك إرغام وإجبار .. لكن إلى أى حد وإلى أى مدى .. فعلى سبيل المثال هناك حادثة شهيرة جدا أزعجت مصر كلها .. أو أثارت إنتباهها على الأقل فى نهاية الثمانينات [١] .. حادثة أو فضيحة قامت ببطولتها أرملة تعدت الخامسة والأربعين من عمرها .. أرملة ترك لها زوجها ثلاثة أولاد وإبنة واحدة .. سافرت لتعمل فى الإمارات وإستطاعت فى سنوات قليلة إمتلاك ثروة طائلة ونفوذ وعلاقات ليس لها حدود أو تبرير .. وتبين أن تلك المرأة إستطاعت - على مدى عشر سنوات - تسفير عشرات الفتيات والسيدات إلى الإمارات لممارسة الدعارة هناك .. بعض الفتيات والسيدات كن يعرفن ذلك منذ البداية ورضين بالسفر وبالمهنة الجديدة .. والغالبية سافرن للعمل هناك ككوافيرات أو عاملات تطريز .. فكانت كل فتاة منهن تسافر وهى تحلم بالثروة والرفاهية .. ثم تفاجأ بأن المهنة الحقيقية التى فى إنتظارها هى الدعارة .. دعارة تنظمها تلك المرأة فى عدد من الشقق فى ثلاث عمارات بمواقع مختلفة فى الإمارات .. ومن لا تقبل بمهنتها الجديدة يتم تخديرها وتصويرها عارية على شرائط فيديو لإبتزازها وإرغامها على القبول .

وبعد أيام قليلة من نشر تفاصيل تلك الفضيحة .. عادت جريدة الأهرام [٢] ونشرت تفاصيل أخرى جديدة وإضافية .. منها أن هناك بعض الفتيات اللواتى تم إرغامهن على السفر وعلى قبول الدعارة كمهنة المستقبل على ضفاف الخليج قبل مغادرة القاهرة .. حيث كانت الفتاة منهن تذهب لتوقيع عقد العمل فى أحد المكاتب بالقاهرة .. وهناك - وبعد كوب العصير - ترى الفتاة شريط الفيديو الذى تصويره لها وهى عارية فتذهب من فورها إلى المطار مضطرة وقانعة وراضية .

ولا أعرف لماذا لم ترفض فتاة واحدة - طيلة عشر سنوات كاملة - أن تخضع لمثل هذا الإبتزاز وتهرب عائدة إلى مصر .. أو لماذا لم تذهب واحدة من اللواتى تم خداعهن هنا فى القاهرة إلي البوليس تطلب الحماية وترفض السفر مهما كانت الظروف .. لا أعرف لماذا لم تكتف فتاة واحدة - بين العشرات اللواتى سافرن - بتصويرها عارية فرفضت التورط فيما هو أكثر من ذلك وخطت خطواتها الأولى فى طريق لا نهاية له ولا عودة منه .

وما عشناه فى الثمانينات .. عدنا نعيشه فى التسعينات .. لكن بإعتياد أكبر وإنزعاج أقل .. وخفتت حدة الحديث عن إرغام وإجبار الفتيات أو إبتزازهن وتهديدهن .. وإختفت تماما حكاية كوب العصير " إياه " أو شريط الفيديو .. ويبدو أن الحكاية باتت تتم بالمصارحة والإتفاق

---

(١) جريدة الأخبار - عدد ١٩٨٩/١٢/٢

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/١٢/٩

والتراضي بين كل الأطراف .. تماما مثلما بدأت بعض - أو كثير - من الأسر المصرية تبيع بناتها الصغيرات إلى شيوخ النفط والخليج كزوجات على الورق .. كعاهرات في الواقع يستمتع الشيوخ ببكارتهن وأنوثتهن بعض الوقت قبل طردهن وإرسالهن مرة أخرى إلى مصر .

الحكاية بدأت أيضا في زمن الإنفتاح .. فنشرت جريدة الأهرام عام ١٩٧٥ خبر القبض (١) على عصابة في الحوامدية من ثلاثة رجال تخصصوا في البحث عن فتيات قاصرات تقبل عائلاتهم تزويجهن لشيوخ قادمين من الإمارات مقابل الكثير .. الكثير جدا من المال .. وإرتبطت الحكاية أيضا بمواسم الهجرة إلى الخليج ..

هكذا قالت الدكتورة ليلى عبد الوهاب (٢) والتي أضافت أنه .. مع الهجرة إلى الدول النفطية .. برزت ظاهرة البغاء المقنع .. أي زواج بنات الأسر الفقيرة والمتوسطة من أثرياء النفط بصرف النظر عن وجود تكافؤ في العمر أو التعليم أو أي توافق عاطفي .

وإذا كانت البداية قد جرت وقائعها ومقدماتها على إستحياء .. فإننا تجاوزنا ذلك في الثمانينات بعد أن لم تعد مجرد ظاهرة إستثنائية بقدر ما أصبحت تجارة مربحة لها رجالها وأصحابها وضحاياها أيضا .. بداية من سائقي سيارات الأجرة في مطار القاهرة أو سماسرة العقارات والشقق المفروشة وبوابي العمارات .. مرورا بمحامين وموظفين بالشهر العقاري .. وحتى سماسرة الزواج في الحوامدية أو البدرشين أو الشرابية أو شبرا أو حلوان .. وعلى هؤلاء السماسرة تقع مهمة إختيار العروس المناسبة وإقناع أهلها بالموافقة مع تسليمهن ثمن إبنتهم .. وفي أحيان كثيرة لم يكن هؤلاء السماسرة ليجدوا أية مشقة أو معاناة في البحث عن عروس.. إذ كانت العائلات هم الذين يعرضون بناتهم على السماسرة ولا يطلبون إلا ألفي جنيها فقط .. وكانت عائلات كثيرة تتنازل عن هذا الشرط وتكتفي بنصف هذا المبلغ فقط .

ومع أن صحف ومجلات مصر بدأت تتناول هذا الذي يحدث وتكشف عنه الستار في غضب وإستنكار وإحتجاج .. إلا أن أحدا أبدا لم ينزعج .. حتى بعد أن إرتفع عدد (٣) هؤلاء الفتيات الفقيرات - ضحايا الزواج وشيوخ وأثرياء النفط - إلى مائة الف فتاة مصرية .. ولا إنزعج أحد بعد الدراسة التي قامت بها الرعاية العامة للأحداث - ونشرت مجلة روز اليوسف نتائجها - وتبين أن ٩٠٪ من عائلات هؤلاء الفتيات تعيش تحت خط الكفاف والفقر .. و٥٠٪ من هؤلاء الفتيات كن يعشن في بيوت ليست آدمية ولا هي لائقة من الناحية الصحية أو الإجتماعية .. ومع ذلك فقد أشارت الدراسة أيضا إلى أن الفقر وحده أو البيت غير المناسب ليسا وحدهما دافع هذة العائلات لبيع بناتها عند أقرب سمسار .. وإنما كان هناك الأب أو الأخ الطامح في عقد عمل بالخارج غالبا لا يأتي .. ولا إنزعج أحد أيضا - من أولئك الثقلاء والمزعجين الذين يطاردوننا بإعجاب العالم كله بسياسة مصر وثقل مصر ودور مصر وإنبهار وكالات الأنباء والصحافة العالمية بالمعجزات المصرية في كل مجال - بما قالته نفس تلك الصحافة العالمية عن ظاهرة زواج قاصرات مصر من شيوخ الخليج .. فعلى سبيل المثال .. كتبت جريدة ليبراسيون الفرنسية (٤)

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧٥/٩/٨

(٢) د. ليلى عبد الوهاب - المرأة المصرية والمشاركة الإجتماعية - ورقة مقدمة إلى ندوة المرأة العربية في الحقبة النفطية - اللجنة المصرية للتضامن الأسيوي الأفريقي - القاهرة - ١٩٨٨

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/١٠/٣٠

(٤) جريدة ليبراسيون - باريس - عدد ١٩٨٩/٨/١٥

تقول .. أصبحت مصر بالنسبة لشبه الجزيرة العربية حوضا للنساء .. فيأتي العرب الأغنياء لشراء الزوجات الجميلات .. وبعد قليل يتخلى هؤلاء الرجال عن زوجاتهم سواء بالعودة وحدهم إلى بلادهم أو بالطلاق .

وأمام تلك اللامبالاة .. لم يعد هناك ما يمكنه - أو من يمكنه - إيقاف كل هذا الذى يحدث .. وبقيت تلك الدعارة المقننة تجرى على أوسع نطاق ممكن .. ولعله من المناسب هنا أن نتوقف عند قريتين إشتهرتا بتلك التجارة أو تلك الدعارة لنعرف أو نرى عن قرب ما يحدث وما هو الثمن الذى ستدفعه مصر كلها قريبا جدا أو الذى بدأت تدفعه بالفعل ومنذ سنوات الثمانينات .

القرية الأولى هى الحوامدية التى لا تبعد عن ميدان الجيزة بأكثر من عشرة كيلومترات .. مثلها مثل أية قرية أخرى فى مصر .. البيوت قديمة يعلوها الغبار والوجوه واجمة يعلوها الهم والإنفتاح جاءها ببيوت الأسمنت المسلح والبوتيكات والتطلع المرهق والمخيف لمزيد من المال والرفاهية والهاجس المقلق المحرض على السفر إلى الخليج .. ثم جاءها أخيرا بظاهرة زواج بناتها القاصرات من شيوخ العرب وكهولهم .. حتى تحولت هذة القرية الصغيرة إلى سوق ضخم للبنات ولحمهن البكر .. الذى أصبح أرخص ما يمكن أن يباع على الأرصفة أو وراء الأبواب المغلقة .. وإلى الحد الذى بات معه ممكنا تزويج فتيات فى العاشرة أو حتى التاسعة من أعمارهن دون أى تردد أو أية نية للتراجع .. أما القرية الثانية فهى العزيزية .. إحدى قرى مركز البدرشين بمحافظة الجيزة أيضا .. قرية لم تعد تفتح أبواب بيوتها إلا للسماسرة أو الدلالات أو الشيوخ العرب إن قرروا المجئ بأنفسهم وإختبار البضاعة قبل شرائها .. وتوحى ملامح القرية بمدى الثراء الذى تحقق نتيجة بيع البنات الصغيرات .. البيوت معظمها بالخرسانة المسلحة .. وتحول بعضها إلى عمارات عالية .. وتبدو أجهزة تكييف كثيرة ملتصقة بجدرانها .. فسوق البنات لا يعرف البوار والكساد .. والباحثين عن اللحم الرخيص لا يترددون فى المجئ بدولاراتهم وريالاتهم ودراهمهم ودنانيرهم .. ويبلغ حجم تجارة الزواج فى العزيزية مليون جنيه سنويا (١) .. والصفقة للجميع تبدو رابحة إلا للضحية .. الفتاة أو الزوجة الصغيرة .. التى فقدت براءة الطفولة وبكارة الجسد والروح وحقوق الزوجة أيضا .. فعلى سبيل المثال نظرت محكمة الجيزة (٢) عام ١٩٩٢ مائتى وثمانين قضية رفعتها أولئك الفتيات أو الزوجات ضد أزواجهن يطالبن فيها بالطلاق وإثبات نسب الأطفال .. وفى كل عام تقوم النيابة بالتحقيق مع مائة سمسار على الأقل قمن بتزويج فتيات تقل أعمارهن عن الستة عشر عاما لشيوخ لا تقل أعمارهم عن الخامسة والخمسين .. وكلما قل سن الفتاة كلما إرتفع سعرها كثيرا سواء فى سوق الحوامدية أو سوق البدرشين .. وكلما زاد عدد الفتيات كلما تضخمت المشكلة التى ليس هناك - بإستثناء القليلين جدا - من يريد أو يمكنه الحديث عنها .. مشكلة يمكن إختصارها فى أن هؤلاء الزوجات يتم طلاقهن أو هجرهن بعد شهر واحد أو عدة شهور على الأكثر .. فلا يبقى أمام تلك الزوجة إلا أن تختار بين تكرار التجربة مرة أخرى ولو على شكل زواج للمتعة محدد المدة والأتعاب أيضا .. وبين أن تنحرف تماما وتمارس الدعارة والسقوط دون حتى ورقة التوت التى كان يمنحها إياها هؤلاء السماسرة بمعاونة بعض المحامين وموظفى الشهر العقارى .. وعادت مصر بهؤلاء الزوجات مئات السنين إلى الوراء ..

(١) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٩٤/٥/١٧

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٩/٢١

(٣) جريدة الوفد - عدد ١٩٨٨/٦/٩

فأصبح فيها أطفالا (٣) ينتسبون إلى أمهاتهم اللواتى يعجزن عن تحديد إسم أب كل طفل وطفلة من أطفالهن .. فهناك أكثر من حكاية تزوجت فيها المرأة مرة بعد آخرى حيث لا تزيد كل مرة عن أيام قليلة وفى فترات متقاربة جدا لا تسمح بتحديد نسب أو حتى إختيار أب .. وأصبح هناك أيضا الزوج الذى يقدم زوجته لهؤلاء الشيوخ الأغنياء ليتزوجها أحدهم بضعة أيام ثم تعود بعدها إلى زوجها الأصلى ومعها الثمن والكثير من الهدايا .. وبدأت الشائعات تتردد أخيرا (١) عن دخول الإيدز إلى قرية العزيزية نتيجة كل هذا الجنس وكل تلك الفوضى .

ولا أجد نهاية لكل هذا الذى جرى منذ بدأ ذلك الخروج الكبير إلا عبارة لعادل حمودة (٢) قال فيها .. فى منتصف السبعينات بدأت سياسة علاج المشاكل بالتصدير .. لكن الذين صدرناهم عادوا أكثر شراسة وأكثر تطرفا .. وما جمعناه من نقود وأموال أنفقناها على الريان والبيتزا والهوت دوجز ولبان التشيكليتس .. ثم كان إنكسار المصرى فى الخارج الذى إنقلب إلى عدوانية فى الداخل .. إنه رد الفعل الطبيعى .. وإسألوا علماء النفس .. ومستشفيات الأمراض العقلية .. وأقسام البوليس .. والمحاكم .

ولا أعتقد .. أنى أملك ما أضيفه إلى ما سبق وقاله عادل حمودة وأكثر من صحفى ومفكر وأستاذ جامعى .. إلا أننا بتنا مطالبون بإعادة حساباتنا من جديد .. كل حساباتنا .. دون خوف أو تردد أو مجاملة .. فلا تزال مصر – كما أعتقد وأتخيل – فوق الجميع .. وأهم من الجميع ومن كل الآخرين .

---

(١) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٤/٥/١٧

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٣/٨/٢

(٥)

القاهرة .. مدينة مفتوحة

لا ترتجف
ها هى ذى الأرض
التى تمتد فى خارطة الدنيا
وهذا هو نيلك الإلهى اليدين
والأهرام سقف الكون
والأزهر فى جلبابه الصافى
وقبة الحسين
بستان أيامك.. فى أيامك الأولى!

محمد الفيتورى
قصيدة : إنها مصر

لا أعرف لماذا إستوقفتنى تلك الحكاية طويلا .

لا أعرف إلا أننى لا أزال مسكونا حتى بتفاصيلها وأبطالها ووقائعها .

حكاية من حكايات حى السيدة زينب تحولت فى محكمة جنوب القاهرة إلى قضية وملف متخم بالأوراق يحمل رقم ٤٨٦٢ جنايات .. بطل الحكاية أو ضحيتها .. عامل متواضع يقاتل صباح كل يوم فقط من أجل البقاء على قيد الحياة .. تحتفظ ملامح وجهه ببقايا معاناة سنوات العمر التى بلغ عددها ثلاثة وثلاثين عاما .. وكان كأى رجل فقير .. قد أكمل نصف دينه بالزواج من جمالات التى تصغره بعشرة أعوام وأسكنها واحدة من عشش الفقراء فى إحدى الحارات القريبة من مقام السيدة زينب .. وكان من الممكن أن تستمر الحياة بالقليل من حلوها .. والكثير جدا من مراراتها وقسوتها .. لولا دخول أشرف فى حياتهما.

كان أشرف أبو بخيت أحد فتوات السيدة زينب .. فتوات قاهرة التسعينات الذين لم يعرفهم ولم يكتب عنهم نجيب محفوظ .. ومثلهم جميعا .. إعتاد أشرف أن يمارس حياته ونزواته ورغباته على حساب الفقراء والمستضعفين والبسطاء الأبرياء .. قرن الغزال والذراع مفتول العضلات كانا وسيلة أشرف يقهر بها الجميع .. الرجال والنساء .. وفى كل مساء كان لابد وأن يختتم أشرف ليلته بإنتهاك جسد إمرأة .. قد تكون إحدى الداعرات أو فتاة تستسلم خوفا منه أو طمعا فى حمايته أو زوجة كان لديها الإستعداد مقدما للخيانة والسقوط .. أما جمالات .. فلم تكن داعرة ولا زوجة ساقطة ولا حتى كانت تطلب الأمان من أحد .. وإنما شاءت مقاديرها أن تتحول فى حياة أشرف إلى إحتياطى دائم للرغبة والشهوة .. فإذا إنقضت الليلة دون العثور على إمرأة .. يتوجه أشرف إلى عشة جمالات ويوقظ الزوجين .. وبالتهديد يدير الزوج وجهه إلى الحائط وتخلع جمالات ملابسها ليطفئ أشرف رغبته المحمومة فى جسدها النحيل .

كان من الممكن أن تستمر الحكاية يوما بعد يوم .. وعاما بعد آخر .

فى سينما الستينات .. حين إشتهى العمدة صلاح منصور جسد سعاد حسنى .. لم يجد حلا إلا إجبار زوجها شكرى سرحان على طلاقها ليتخذها زوجة ثانية .

لكن فى واقع التسعينات .. كان قرن الغزال وحده كافيا لإطفاء الرغبة وممارسة القهر .. دون طلاق .. دون زواج .. دون أى مانع على الإطلاق .

وإذا كان الزوج فى فيلم صلاح أبو السيف الشهير قد حاول قتل العمدة الطامع فى زوجته .. فإن الزوج فى الواقع لم يكن ليقوى على قتل أشرف .. ولم تكن جمالات لتستطيع أن تمنع جسدها أمام رغبات أشرف وسطوته .. وكانت الحكومة هى التى أنهت الحكاية بالقبض على أشرف متهما فى جرائم أخرى .. فذهب الزوجان إلى المحكمة وروى كل منهما قصته .. وفى نهاية الجلسة كان الحكم بحبس أشرف عشرة سنوات مع الأشغال الشاقة .

وتحولت الحكاية إلى رقم فى أرشيف جنايات المحاكم .

لكننى لا أزال أرفض أن أتعامل معها وعلى أنها إحدى حكايات الأرشيف .. ربما لأننى أحسست أن تلك الحكاية موجعة أكثر مما يجب .. مهينة أكثر مما ينبغى .

أو لأننى رأيت فى تلك الحكاية إختصارا لكل أمراض وأوجاع مدينة إسمها القاهرة .

الفقر .. الخوف .. الكبت .. الرغبة .. العنف .. الشهوة .. القهر .. الإستسلام .

هموم إخترقت قلب القاهرة .. كطلقات رصاص .

أوجاع إستوطنت زوايا القاهرة وشوارعها وبيوتها حتى النخاع .. نتحسسها جميعا فى الوقت الذى نؤكد فيه على أننا لا نراها .. نعانى منها جميعا ثم نخرج نؤكد شفاء القاهرة .. وشفائنا .. من كل مرض أو وجع أو الم .. نكذب من أجل نتجمل .. نتجمل من أجل أن نبقى .. نبقى فى أماكننا حتى يأتى ما يقتلعنا جميعا ويهدم معابدنا فوق رءوسنا ورءوس الجميع .

وكم كانت المفارقة حزينة ومؤلمة .. أن نتغنى بأوبريت فى عيد إنتصارنا فى أكتوبر إسمه مصر البنائين .. ثم يأتى الزلزال - أيضا فى أكتوبر - لنكتشف أننا عاجزون عن بناء أهرامات أو حتى بيوت للبسطاء .. وكانت مفاجأة قاسية حين إكتشفنا أننا نعيش فى مدينة آيلة للسقوط .. قابلة للإنحناء والإنطواء والكسر والإنهيار .. أو كما قالت مجلة روز اليوسف (١) .. بعد الزلزال .. إكتشفنا فجأة أننا نعيش فى مدينة من ورق .. عريقة وقديمة ومزدحمة .. لكنها هشة تخنقها رائحة الفساد .

ومن المؤكد أنه سينبغى علينا إنتظار زلزال آخر - أشد وأقسى وأكثر شراسة - قبل أن تفاجئنا القاهرة بأنها مدينة مخنوقة بالرغبة .. بالشهوة .. الجنس خلف أبوابها المغلقة غول كامن ينتظر من يفتح له الباب ليخرج إلينا من البيت والشارع ومن تحت جلودنا .

أصبح من الواضح أنه ليس أقل من زلزال بإمكانه أن يخرجنا من صمتنا وإستسلامنا وخمولنا وأوهامنا .

فلو كانت الحوادث الصغيرة قادرة على أن توقظ عقولنا أو تثير إنتباهنا .. لكانت حوادث الإغتصاب فى المعادى والعتبة وكل أحياء القاهرة قادرة على ذلك .. أو كانت حكايات الخطيئة والإنحلال والكبت والإنفجار .. عشرات الحوادث والقضايا التى لم تستوقف أحدا .. ولم تزعج أحدا .

كلها كانت حوادث وأزمات لم تجرح كبريائنا
لم تثر فينا شهية التساؤل والفكر والتأمل .

فنحن لا نزال نصر على أن القاهرة مدينة ترتدى حزام العفاف .. على جسدها عباءة سوداء ثقيلة تستر عوراتها .. وعلى وجهها اليشمك والبرقع فلا تبدو من ملامحها إلا عيناها الجميلتان العميقتان فيهما إنسدال النيل وعبق التاريخ .. لا نزال أيضا نصر على أن الجنس فى القاهرة مجرد علاقة حميمة بين زوجين فى غرفة نوم مغلقة الباب والنوافذ .. أو حتى علاقة روتينية يحفظ لها الشرع فقط الحق فى الإستمرار والبقاء .. أو على الأقل علاقة رجل بإمرأة يلتقيان فى صمت ويفترقان فى الخفاء وقد صب الرجل فى جسد إمرأته ما كان يكتمه من كبت ومن شهوات .. أو أشبعت المرأة جوعها ورغباتها .. وكل ما عدا ذلك مجرد إستثناءات .. صحيح هناك بيوت للدعارة وأوقات للزنا وقضايا للإغتصاب لكنها إستثناءات لا يراها أحد حين يقف ويتأمل وجه القاهرة الهادئ الرقيق الجميل .

أنا شخصيا كنت أحد أعضاء حزب الإستثناءات حتى خرجت إلى الشارع .. وإلى الناس .

وفى الشارع .. ووسط الناس .. إكتشفت أن الجنس ليس فقط واحدا من أزمات القاهرة وأوجاعها وهمومها .. إنما هو أكبر وأشرس أزماتها على الإطلاق .

---

(١) ١٩٩٢/١٠/٠

أزمة يعانى منها الفقراء والأغنياء .. أصحاب المظالم وأصحاب السلطة .. من يسكنون المقابر ومن يسكنون على ضفاف النيل .

أزمة جاءت نتيجة حتمية لكل ما تعرضت له القاهرة وما عاشته – ولا تزال – من أحداث وقضايا وهموم .. زحام في الشوارع .. زحام في البيوت .. أوجاع في القلب .. قلق يستنزف العقول .. حصار دائم بالليل والنهار يثير كل ما تحت جلد أهلها من رغبات جنسية محمومة ومكبوتة

ومنذ ستمائة عام .. قال إبن خلدون أن القاهرة .. بمغرياتها الكثيرة ومظاهر البذخ فيها .. سوف تصبح قبلة أنظار سكان القرى .. سوف ينزحون إليها .. ويوما بعد يوم سيزداد عدد سكانها .. معه ستزداد المشاكل وتستفحل .. ويختنق الناس في حياتهم اليومية .

إبن خلدون لم يكن منجما .. ولم يدع يوما أنه كان يقرأ لنا طالع القاهرة .

لكن هذا هو ماحدث بالفعل !.

بدأ طوفان الهجرة إلى القاهرة وأبدا لم يهدأ ولم يتوقف يوما واحدا .. والمدينة التى كان يسكنها [1] ربع المليون عام ١٨٢٦ .. زاد عدد سكانها ليتخطى حاجز المليون لأول مرة عام ١٩٢٧ .. ويصل العدد عام ١٩٤٧ إلى مليونين .. ثم ثلاثة ملايين بعد ثلاثة عشر عاما فقط [2] .. ثم أربعة ملايين بعد ستة أعوام .. ليصبح عدد سكان القاهرة عام ١٩٨٦ قرابة العشرة ملايين نسمة [3] .

وأصبح من المؤكد أنه سوف يأتى .. ذلك اليوم الذى ستضيق فيه القاهرة وتختنق بسكانها سواء كانوا من مواليدها أو من أولئك المهاجرين إليها .. من المؤكد أيضا أننا إكتفينا ببلاغتنا وفصاحتنا فكتبنا وقرأنا وتوقعنا وتخيلنا مصير القاهرة لحظة إختناقها وإنفجارها .. لكن لم تكن هناك أية خطوة عملية أو حقيقية واحدة قام بها أحد منا لإنقاذ القاهرة رغم عشرات التحذيرات والصرخات .. مجلة روز اليوسف مثلا .. كتبت في عام ١٩٧٥ تقول [4] .. ويل للقاهرة .. سيسكنها خمسة وعشرون مليونا عام ٢٠٠٠ .. وليس هناك دواء ينقذها من مصير تنبأ به إبن خلدون .. وفى جريدة الأهرام كتب الدكتور ميلاد حنا [5] يحذر من كارثة كبيرة فى إنتظار القاهرة بعد ثلاثين عاما .. حين يصبح عدد سكان القاهرة ثلاثين مليونا .. وكان هناك من هو أكثر دقة ووضوحا فى رؤياه .. وهؤلاء هم الذين أرادوا لفت أنظارنا إلى تفاقم مشاكل هؤلاء المهاجرين .. وكان الدكتور أحمد المجدوب من أوائل هؤلاء .. فقد قام [6] ببحث حال هؤلاء المهاجرين فى أواخر الستينات وإكتشف أن نصف نزلاء سجون القاهرة من الغرباء .. ولم يكن هناك سبب لخروجهم على القانون إلا عجزهم عن التكيف مع بيئتهم الجديدة فى القاهرة .. وبعد سنوات طويلة .. نشرت جريدة الأهرام [7] تحقيقا أكدت فيه أن مشاكل القاهرة من خارج القاهرة .. من تلك المستودعات البشرية التى تزود القاهرة دون توقف بالمهاجرين .. أما الدكتور

---

(١) د. حامى أحمد شلبى – فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨

(٢) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – رقم ٥١٠ – ١٩٩٣

(٣) الكتاب الإحصائي السنوى – الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – ١٩٩٠

(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٣/٢

(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/١٢/١٨

(٦) د. أحمد على المجدوب – الهجرة الداخلية وعلاقتها بالجريمة – المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية – ١٩٦٨

(٧) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٥/١٧

سيد عويس .. فقد إختصر الطريق الطويل وكتب فى مجلة الهلال [١] مؤكدا أن دوام الهجرة إلى القاهرة .. لم يخلق منها فقط مدينة مزدحمة .. وإنما أصبحت أيضا مدينة مضطربة السلوك .. وزادت فيها كل أنواع الجرائم .. زادت أيضا الجرائم الجنسية .

كان لابد وأن يتمدد الجنس وأن تزداد معاناة القاهرة من حكاياه وفضائحه وجرائمه .. فالقاهرة فى عام ١٩٩٢ مثلا .. باتت تستقبل [٢] ستة مهاجرين قادمين من أقاليم مصر كل عشرة دقائق !.. سبعون بالمائة منهم غير متعلمين .. سبعة وخمسون بالمائة غير متزوجين .. أى أن القاهرة تستقبل كل ساعة ستين وافدا جديدا .. منهم إثنان وأربعون رجلا لا يعرف القراءة والكتابة .. وأربعة وثلاثون شابا لم يسبق لهم الزواج .

القاهرة إذن تزداد فى كل ساعة أربعة وثلاثين شابا يبحث عن عمل .. ويحلم بالطبع بجسد إمرأة يطفئ فيه شهوته كلما إستعرت .. ولسوف تستعر .. فمن المؤكد أن كثيرا من هؤلاء الشباب لن يصمدوا طويلا أمام كل مغريات القاهرة .. النساء الجميلات والصور الملونة وأفيشات السينما فى الشوارع وإعلانات التليفزيون المثيرة والناعمة .. من المؤكد أيضا أن هؤلاء الشباب سيتحولون بعد يوم .. أو الف يوم .. إلى قنابل جنسية تزداد أربعة وثلاثين قنبلة جديدة كل يوم .. قنابل جنسية ستبحث فى شوارع القاهرة وفى حواريها وبيوتها وقلبها عمن ينزع فتيلها .. وسوف يجدون قطعا من ينزع هذا الفتيل ويحرقه ويحرقهم أيضا .

وحتى إن لم ينزع أحد فتيل هذه القنابل .. فسوف تنفجر من تلقاء نفسها .. أو سيتكفل زحام القاهرة بتفجيرها .. فهذا الزحام خلف لأهل القاهرة تركة ثقيلة ومخيفة من إنتهاك دائم للقانون والفضيلة والأخلاق .. وكل الدراسات والأبحاث العلمية أكدت أن الزحام يتسبب فى الأمراض الوبائية والتفكك الأسرى والسرقة بالإكراه والإغتصاب وهتك العرض [٣] .. ومنذ أكثر من تسعين عاما والقاهرة تشكو من الزحام .. وإستوقف ذلك أحد مثقفيها إسمه محمد عمر .. فكتب فى عام ١٩٠٢ كتابا أسماه .. حاضر المصريين وسر تأخرهم .. وفى هذا الكتاب [٤] نقرأ بعضا من نتائج زحام القاهرة .. الكسل .. البطالة .. إدمان الكحول والمخدرات .. المرض .. الجنون .. وأخيرا تفشى الزنا والخيانة .

كانت هذه هى فاتورة الحساب التى تعين على القاهرة أن تدفعها نتيجة إزدحامها رغم أنها فى ذلك الوقت مدينة يسكنها قرابة السبعمائة الف إنسان .. ولنا أن نتخيل نفس فاتورة حساب زحام نفس المدينة ولكن بعد أن أصبح يسكنها أكثر من عشرة ملايين إنسان .. أو نتخيل هذة الفاتورة بعد أن باتت القاهرة لا تعانى من زحام الشوارع فقط .. وإنما هو الزحام فى الشارع والبيت والعمل أيضا .

فى الشارع .. تشكو القاهرة الزحام فوق أرصفتها وفى وسائل مواصلاتها أيضا .

ففى كل يوم يتكدس سبعة ملايين ونصف المليون رجل وإمرأة من أهل القاهرة داخل الأوتوبيسات وعربات المترو [٥] .. وليس صحيحا مطلقا أن حادث إغتصاب فتاة العتبة كانت الحادث الأول من نوعه .. وقطعا لن يكون آخرها .. إنما هى حوادث كل يوم وكل ساعة .. حوادث

لة الهلال - عدد ١٩٨٨/١

. - عدد ١٩٩٢/٦/١٢

اث - عدد ١٩٩٢/٥/٢٨

مصر - ترجمة بشير السباعى وأحمد حسان - سينا للنشر - ١٩٩٠

١٥٠

قد لا تهتم بها الصحافة وقد لا تسترعى إهتمام كبار أساتذة علم النفس والإجتماع الذين لا يعتريهم النشاط إلا أمام الأضواء فقط .. ومع ذلك تعرف تلك الحوادث وتعانى منها أية فتاة تضطرها ظروفها أن تحشر جسدها داخل أحد أوتوبيسات القاهرة التى تكاد تنفجر براكبيها .. والتى بينت إحدى الدراسات أن متوسط ركاب الأوتوبيس الواحد فى القاهرة يصل إلى المائة راكب (١) .. وأية فتاة من هؤلاء لن تتحدث ولن تشكو .. إما لأنها لا تعرف من أو لمن تشكو .. وإما لأنها لا تشتهى مصير شاهيناز بطلة مولد العتبة التى أفردت الصحافة لحكايتها الصفحات لينشط المحررون الصغار فى جمع تفاصيل جديدة عن الحادث وعن ثياب شاهيناز الداخلية .. وليستمتع كتابنا الكبار بالعثور على قضية ساخنة تملأ أعمدتهم وما تخصصه لهم صحافتنا من مساحات للنشر.

وكان اللواء نيازى حتاتة أستاذ القانون الجنائى بكلية الشرطة ومدير مصلحة الأمن العام الأسبق .. قد أعد دراسة عنوانها الجنس فى الأوتوبيس .. وكان من الطبيعي أن تبقى تلك الدراسة حبيسة الأدراج لولا حادث العتبة الذى أخرجها للضوء قليلا ثم عادت إلى مكانها الطبيعى مرة أخرى .. وفى تلك الدراسة نجد نتائج بحث ميدانى أجرى على عينة ضخمة من السيدات اللواتى إعتدن ركوب الأوتوبيس يوميا .. وأشارت نتيجة البحث إلى أن ثمانين بالمائة من هؤلاء السيدات قد تعرضن داخل الأوتوبيس – ووسائل أخرى للنقل العام – إلى أفعال فاضحة وصلت فى بعض الأحيان إلى هتك العرض .. ولم تتمكن واحدة من هؤلاء السيدات من الشكوى لعجزهن عن إثبات أى إتهام ضد أى أحد .. وفى الدراسة نفسها حكايات أخرى كثيرة بطلاتها فتيات صغيرات وطالبات فى الجامعة .

وأعتقد .. أن النتيجة التى يمكن التوصل إليها بعد قراءة مثل تلك الدراسة .. تؤكد أن المارد داخلنا بدأ يرفض الإستكانة والإستسلام للبقاء سجينا فى قمقم الأخلاق .. الكبت الجنسى عند كثير من شباب القاهرة بدأ يفرض نفسه عليهم .. على سلوكهم .. تصرفاتهم .. حتى وإن كان فى شكل إلتصاق مؤقت بجسد إمرأة أو يد تمتد بسرعة خاطفة تتحسس ما يمكنها الوصول إليه من هذا الجسد .

وللأسف .. لا يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما بينت أكثر من دراسة علمية (٢) أن القاهرة وحدها .. دون سائر مدن مصر ونواحيها .. هى التى تتنفس الهواء المشبع بالرصاص نتيجة عادم السيارات .. وأن منطقة وسط القاهرة .. وبالتحديد شارع رمسيس .. هو أكثر منطقة فى العالم كله تلوثا بالرصاص .. وما يعنينا من ذلك هو ما يمكن أن يؤدى إليه إستنشاق هذا الرصاص .. عند الرجال بصفة خاصة .. فكلما زادت نسبة الرصاص فى الدم .. كلما قلت كفاءة الجهاز التناسلى .. فيصاب الرجل ويشكو من الضعف الجنسى وعدم القدرة على ممارسة الجنس.

وكما قلت من قبل .. فالزحام فى القاهرة ليس قاصرا على الشارع فقط .. ولا فى الأوتوبيس فقط .. وإنما هو الزحام فى كل مكان .. بل إن الزحام فى البيت وزحام البيوت نفسها .. تحول إلى قضية أكثر خطورة وتهديدا من الشوارع مهما إزدحمت بوسائل مواصلاتنا .

---

(١) أندريه ريمون – القاهرة – ترجمة لطيف فرج – دار الفكر – ١٩٩٣

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٣/٨/٩

قضية لن نستطيع إستيعابها والإلمام بكل تفاصيلها وآثارها إلا إذا أعدنا ترتيب أوراق القاهرة منذ لحظة ميلادها وحتى اليوم .. وعلى الرغم من التاريخ الطويل الصاخب والمعقد الذى إرتبط بهذة المدينة .. إلا أنه يمكننا التوقف فقط عند ثلاثة رجال كان لكل منهم دوره فى تحديد شكل القاهرة كما نراها ونعيش فيها اليوم .. الأول هو جوهر الصقلى الذى بناها وأرادها عاصمة تليق بخلافة المعز لدين الله وبالدولة الفاطمية وإزدهارها .. والثانى هو السلطان العثمانى سليم الأول الذى قاد العثمانيين إلى فتح مصر بعد أن نحر رأس طومان باى وعلقها على باب زويلة .. ويبدو أنه لم يكن يريد الإكتفاء برأس سلطان المماليك فقط .. وإنما كان يريد رأس القاهرة أيضا .. ولهذا كان حريصا على ألا يطال المدينة أى تطوير أو تغيير .. فلم يعد يكترث أحد من الحكام والولاه العثمانيون بتخطيط المدينة أو توسيع رقعتها .. وهكذا بقيت القاهرة طوال الحكم العثمانى [1] مدينة جامدة هامدة .. وبل ويمكن – دون مبالغة – التأكيد على أنها كانت تتآكل وتتلاشى تدريجيا .. أما الرجل الثالث فهو الخديوى إسماعيل .. أحد أهم وأخطر حكام أسرة محمد على .. والذى كان على النقيض تماما من السلطان سليم الأول .. بل وكان أول حاكم – منذ تأسست القاهرة – يملك مشروعا شاملا [2] لتنمية العاصمة المصرية .. وبصرف النظر عن أن الدافع وراء مشروع إسماعيل كان إختراع عاصمة أوروبية على ضفاف النيل .. فالذى يعنينا أن القاهرة – ولأول مرة – جرى تخطيطها وتنسيقها وبنائها من جديد .. وبالرغم من شغف إسماعيل بأوروبا وبالمدن على الطريقة الأوروبية .. إلا أن الدكتور جمال حمدان يؤكد [3] أن القاهرة – برغم تطويرها وإعادة تخطيطها – لم تتحول مطلقا إلى مدينة أوروبية .. ولم ينجح الأوروبيون والغرباء فى الإنعزال ببيوتهم عن المصريين من سكان القاهرة .. حتى ضاحية المعادى التى إخترعها وإبتعد بها الإنجليز .. سرعان ما زاحمهم فيها المصريون .. ويخرج الدكتور جمال حمدان من دراسته الرائعة والعميقة لتاريخ القاهرة بنتيجتين ينبغى التوقف عندهما طويلا .. النتيجة الأولى هى أنه نتيجة الإختلاط بين بيوت المصريين والغرباء .. فإن التطوير لم يكن ليشمل أحياء دون غيرها .. ولم يقتصر الإهتمام على نواحى بعينها دون سائر نواحى القاهرة .. فجرت دماء الحضارة والنضارة من جديد فى كل شرايين القاهرة وفى كل طرقاتها .. والنتيجة الثانية هى أنه بالرغم من ذلك الإختلاط .. فإن نوعا من الترتيب والإنسجام كان يسود ويحكم العلاقة بين كل أنحاء ونواحى القاهرة .. فكان لكل طبقة منطقة .. ولكل منطقة طبقة .. وكانت الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى فى هدوء وسلام .. ولم يحدث أن تجاورت منطقة فقيرة والتصقت بمنطقة أخرى غنية .. وعلى سبيل المثال كان لابد وأن يفصل حى المنيرة المسكون بالطبقة الوسطى بين أغنياء جاردن سيتى وبين فقراء القلعة .. أيضا كان لابد للنيل وأن يفصل بين أغنياء الزمالك وبين فقراء بولاق .

خريطة إجتماعية وإسكانية هادئة ومستقرة عاشت بها وفوقها القاهرة طويلا قبل أن يأتى الطوفان .. نفس الطوفان الذى تنبأ به إبن خلدون .. ملايين المهاجرين والفقراء والمعذبين فى أرض مصر الذين باتت القاهرة تمثل لهم الخلاص الوحيد والأخير من كل معاناتهم وحرمانهم

---

(١) د. فتحى محمد مصيلحى – تطور العاصمة المصرية – بدون إسم ناشر – ١٩٨٨

(٢) أندريه ريمون – القاهرة – ترجمة لطيف فرج – دار الفكر – ١٩٩٣

(٣) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – العدد ٥١٠ – ١٩٩٣

وعذابات أيامهم .. فلم يكن ليقوى أحد أو حاجز على منعهم من دوام التدفق حتى وإن أصبح الرحيل إلى القاهرة بمثابة مغامرة مخيفة وترحال إلى المجهول .

وإذا كانت هناك دراسة تؤكد (١) أن القاهرة في الف عام .. قد تضاعفت مساحتها مائتين وتسعة وسبعين مرة .. ومن ثلاثمائة وأربعين فدانا في زمن جوهر الصقلي .. إلى خمسة وتسعين الف فدان في زماننا الحالي .. فإننا بعد تلك الدراسة .. وبعد هذة الأرقام .. نستطيع أن نتخيل شكل هذا الطوفان البشري الذى زحف على القاهرة .. ونستطيع أن ندرك مدى طغيانه وقسوته .. وأمامه كان لابد للقاهرة وأن تتغير .. وأن تفقد أهم ميزتين إمتلكتهما هذة المدينة منذ مشروع إسماعيل لتطويرها .. واللتين تحدث عنهما الدكتور جمال حمدان طويلا .. فلم تعد القاهرة تتميز بذلك التناغم والتناسق الطبقي والإسكاني .. وأيضا لم تعد كل نواحيها تنعم بنفس درجة الإهتمام والحفاوة من قبل السلطة .. وخلق ذلك أكثر من أزمة وأكثر من مشكلة وأكثر من ظاهرة لعل أهمهم جميعا هي ظاهرة حزام الفقر الذى أحاط بالقاهرة .. وإخترق قلبها أحيانا .. لتنتثر بيوت الفقراء في كل أرجاء القاهرة .. البيوت والعشش التى لم نلتفت إليها إلا مؤخرا وبعد أن تحولت إلى أوكار ومخابئ وقلاع للمتطرفين .. ففتحنا لها ملفا وأسميناها أحياء القاهرة العشوائية .. مع أنها أحياء عاشت معنا طويلا قبل أن يتطرف البعض منا بالدين .. ويتطرف بعض آخر ضد الدين .. ولم نكن في حاجة إلى القنابل والرصاص والذقون الطويلة لنعرف ما الذى سيأتى إلينا من تلك الأحياء .. وما الذى سيكبر يوما بعد يوم .. حتى يأتى أخيرا اليوم الذى نكتشف فيه أننا نواجه ما لا قبل لنا بمواجهته ولا قدرة لنا على محاصرته فضلا عن القضاء عليه .

في تلك الأحياء .. تستقر ثمانون بالمائة من بيوت القاهرة (٢) .. بيوت صغيرة فقيرة تضمها شوارع طويلة ضيقة .. يسكنها ربع سكان القاهرة (٣) .. تنقسم هذة البيوت بسكانها إلى ستة عشر تجمع عشوائي تحاصر القاهرة (٤) .. من شبرا الخيمة شمالا إلى دار السلام جنوبا .. ومن المطرية شرقا إلى المنيرة غربا .. منها ما أقيم فوق أرض زراعية مثل بولاق وإمبابة والهرم .. ومنها ما أقيم عند أطراف صحراء القاهرة مثل الدويقة ومنشأة ناصر .. ومنها ما تم حشره وسط الأحياء السكنية التقليدية مثل دار السلام وإسطبل عنتر .. وهنا أعتقد أنه من المناسب التوقف قليلا لتصحيح أحد الأخطاء التى شاعت مؤخرا والتى تنسب زرع العشوائيات في قلب القاهرة إلى قرار وزمن الإنفتاح .. فمن الثابت تاريخيا أن الزحف العشوائي بدأ يغزو القاهرة قبل الستينات (٥) .. ففي عام ١٩٦٠ كان عدد بيوت القاهرة العشوائية يصل إلى ٤٣ ٪ من إجمالي بيوت القاهرة .. وفي عام ١٩٧٠ زادت النسبة إلى ٧٢ ٪ .. ووفقا لتقديرات ودراسات البنك الدولي .. بلغت نسبة البيوت العشوائية ٨١ ٪ من إجمالي البيوت التى تم تشييدها في القاهرة في الفترة من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٨٠.

وما يعنينا من هذة البيوت .. هم سكان هذة البيوت وأهلها .. حالهم ومعاناتهم وسطوة

---

(١) مجلة النار – باريس – عدد ١٩٨٨/١١

(٢) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩٢/٩/٣

(٣) مجلة آخر ساعة – عدد ١٩٩٢/١١/٢٥

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٣/٤

(٥) د. فتحي محمد مصيلحي – تطور العاصمة المصرية – بدون إسم ناشر – ١٩٨٨

الجنس فى حياتهم .. وتأثير ذلك فى الحاضر والمستقبل علينا وعلى الجنس فى حياتنا وحياة مدينة إسمها القاهرة .. ففى تلك الأحياء .. وبأسرع مما نتوقع وأفظع مما نتخيل .. سيأتى اليوم الذى تنفجر فيه الف قنبلة جنسية .. ويومها لن تدفع هذة العشش والبيوت وحدها الثمن .. وإنما ستدفعه القاهرة كلها .. وسيشترك فى السداد الجميع مهما إختلفت محال إقامتهم وعناوينهم .

وفى تحقيق لجريدة الأهرام عن سكان هذة الأحياء العشوائية (١) يصف الدكتور على فهمى أستاذ علم الجريمة بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية سكان تلك الأحياء العشوائية بأنهم .. خليط يجمع بين القادمين من قاع المجتمع .. الهاربين من أحكام قضائية .. البلطجية الذين يفرضون الإتاوات إما مقابل تقديم خدمات أو لدفع الأذى .. وهذا ما أكده الدكتور محمد نور فرحات أستاذ القانون بجامعة الزقازيق الذى يصنف سكان العشوائيات القاهرية إلى .. باعة جائلين فى الطرقات أو فى الأوتوبيسات .. جامعى قمامة .. منادين السيارات .. متسولين .. وتضيف الدكتورة ليلى المصرى فى نفس التحقيق .. أن فقراء تلك التجمعات قد يجدون الإثارة فى تجاوز الحدود الأخلاقية أو فى تحد القانون .

وأقرب مثال يشهد على صحة ذلك .. هو ما يحدث فى أحد تلك الأحياء العشوائية .. حى منشأة ناصر .. أحدث أحياء القاهرة .. كان فى أول الأمر مجرد منطقة سكنية تابعة لحى الوايلى ثم إستقلت كحى منفصل قائم بذاته فى أول عام ١٩٩٢ .

نشأ ذلك الحى فى بداية الستينات .. كمجرد عشش من الصفيح تجاورت وتلاصقت بموازاة شريط السكك الحديدية الممتد خلف مقابر الدراسة .. كانت هذة العشش فى أول الأمر لا يسكنها إلا المهاجرون من مدن وقرى الصعيد .. معظمهم يكتسب رزقه كباعة جائلين فى سوق العتبة والأسواق القريبة .. ثم بدأ توافد أبناء الوجه البحرى الذين ضاقت بهم مدنهم وقراهم ولم تفتح لهم القاهرة إلا أبواب تلك العشش .. سنة بعد أخرى .. تضاعف عدد العشش .. وزاد عدد المهاجرين القادمين من بلاد بعيدة .. وإستبدل كثيرون منهم هذة العشش ببيوت يتراوح إرتفاعها من ثلاثة إلى ستة طوابق .. أصبح عددها اليوم – كما جاء فى تحقيق جريدة الأهرام – ثمانية عشر الف بيت .. أما السكان فيمارس سبعون بالمائة منهم عملا أساسيا هو جمع القمامة .. ويمارس الآخرون أعمالا مختلفة مثل الحدادة والنجارة وسمكرة وميكانيكا السيارات وأعمال البياض والنقاشة والتبليط .. وأخيرا قلة من الموظفين .

ولا يعنينا من ذلك كله إلا مجرد مدخل للأخلاقيات المتداعية فى مثل تلك الظروف القاسية والمؤلمة .. فالإنحطاط شائع .. والجهل أدى بهم إلى الإبتعاد عن الإحتكام للعقل فإنحرفوا (٢) إلى الممارسة الجنسية الرخيصة بعيدا عن الزواج .. وممارسة الجنس فى ذلك الحى تتخذ أكثر من شكل وطابع .. فهناك الجنس داخل البيوت .. وهناك زنا المحارم يمارسه الأب مع إبنته والأخ مع شقيقته (٣) .. وهناك مختلف حالات وأنواع الشذوذ .. وحوادث الإغتصاب .. وحكايات الجنس حين يغدو وسيلة للقهر وإذلال الأطفال والشباب والنساء والرجال أيضا .

وإذا كان هذا هو حال أحد أحياء القاهرة العشوائية فإننا نستكمل الصورة الحزينة والمؤلمة ..

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٣/٤

(٢) سراج الدين الروبى – سفاح وقتلة – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٨٩

(١) حوار خاص مع العقيد سراج الدين الروبى حين كان يشغل وقتها منصب مفتش المباحث الجنائية بوزارة الداخلية

بدخول عالم العشش العشوائية أيضا .. فغير تلك الأحياء .. تتمدد فى القاهرة ما لايقل عن عشرة تجمعات للعشش التى بناها سكانها من الصاج أو الكرتون .. وتنتثر هذة التجمعات – كما أشار ممدوح الولى [١] فى دراسته الموجعة عنها – فى معظم أحياء القاهرة .. من الجمالية إلى شبرا إلى حدائق القبة إلى العباسية إلى مصر القديمة إلى دار السلام .. ويضيف ممدوح الولى أن الخصوصية فى هذة العشش أمر مستباح .. وجدران الصاج أو الكرتون لا تمنع الرؤية ولا تحجب الصوت .. والعلاقات الجنسية – سواء كانت شرعية بين الأزواج أو ليست شرعية – باتت أمورا معتادة ومألوفة لا تزعج أحدا .. وفى عشش حى الجمالية على سبيل المثال .. والقابعة فى مكانها منذ ثلاثين عاما .. لم يعد هناك أحد من سكان تلك العشش بقادر على أن يزعم أنه يمتلك ما لم أو لن يراه أحد غيره .. حتى أجساد نسائه وبناته .. فالكل يمارس حياته بتفاصيلها حتى قضاء الحاجة أو الإستحمام داخل العشش حيث الصفيح المثقوب يسمح للآخرين الغرباء برؤية واضحة دون أدنى مشقة أو مجهود .. وفى عشش الشرابية .. حيث أكبر تجمع للعشش فى مدينة القاهرة .. وحيث تتلاصق عشش البوص والطين والخشب الحبيبى وكسر الخشب .. وحيث هناك دورة مياة واحدة لكل سبعة عشر عشة يجب أن تتسع فى نفس الوقت للبشر وللبهائم أيضا .. إعتاد الشباب مهاجمة دورات المياة حيث يعتدون على النساء .. وباتت كل إمرأة أو فتاة تخاف على نفسها وعلى جسدها تضطر لتأجيل قضاء حاجتها حتى يجئ النهار الذى من المحتمل أن يغدو أكثر أمانا وإطمئنانا .

فى مثل هذا المناخ .. من الصعب الحديث عن حكاية خيانة .. أو خطيئة زنا .. أو جريمة هتك عرض .. أو قضية إغتصاب .. ومن قبيل العبث أن يدخل أحد تلك العوالم الغامضة ويدعى أن بإستطاعته ترتيب مشاعر سكانها وحاجاتهم الجنسية .. فليست هناك حرمات أصلا ليعتدى عليها أحد .. وليست هناك حدود واضحة للعرض ليهتكه أحد .. وإنما هى الفوضى .. فوضى تقودها رغبات متوحشة خرجت من عقالها تفتش فى سعى محموم عمن يرويها ويطفئ ظمأ سنين طويلة .. فوضى تسرق من الجنس أية قوانين أو حدود أو خصوصية .. وهى فوضى ليست أبدا قاصرة على عالم الأحياء العشوائية أو عالم العشش فقط .. وإنما يشكو نفس الفوضى .. والتوتر والإثارة والرغبات المكبوتة .. عالم آخر هو عالم المقابر ومدينة موتى القاهرة .

وعلى سبيل المثال .. تعد منطقة المقابر التى تقع بين حى منشية ناصر وبين طريق صلاح سالم .. أحد أشهر وأكبر أوكار القاهرة لممارسة الجنس .. وعقب إحدى حوادث القتل فى تلك المقابر .. قام رجال المباحث بوزارة الداخلية ببحث [٢] عن ممارسى الجنس فى تلك المنطقة وتبين أنه من الممكن تقسيمهم إلى أربعة أقسام .. القسم الأول ويضم العشاق والباحثين أو الباحثات عن المتعة ويمارسن الجنس دون مقابل .. القسم الثانى ويضم رجالا غرباء عن المنطقة يمارسن الجنس مع نساء من المنطقة يتقاضين أجرا مقابل ذلك دون وسيط بين المرأة والرجل .. القسم الثالث ويضم النساء اللواتى يمارسن الدعارة بإشراف المعلمة التى تتقاضى هى الأجر فى مقابل توفير المسكن والغذاء لكل إمرأة تعمل معها .. القسم الرابع يضم نساء وفتيات يمارسن الجنس مع البلطجية والمنحرفين .. خوفا منهم أو إتقاء لشرهم ولا يختلف الحال كثيرا فى بقية مقابر

---

(١) ممدوح الولى – إسكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٢) سراج الدين الروبى – سفاح وقتلة – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٨٩

القاهرة .. ففي القاهرة مدينة للموتى تمتد من الشمال إلى الجنوب بطول إثنى عشر كيلومترا .. وتصل مساحتها إلى ثلاثة عشر مليون متر مربع [١] .. بينما يصل عدد سكانها إلى ربع المليون نسمة [٢] .. أما تاريخها فيرجع إلى تأسيس مدينة الفسطاط .. حين تقرر أن تكون لعاصمة مصر الإسلامية الجديدة مقابرها الخاصة بها .. وتم إختيار سفح جبل المقطم مقرا لتلك المقابر .. التى فيها تم دفن عمرو بن العاص وأربعة من الصحابة [٣] .. وبعد إضمحلال الفسطاط .. تمددت المقابر لتزحف على مساكن بنى قرافة – ولهذا إعتاد القاهريون أولا إطلاق إسم القرافة على المقابر ثم تبعهم سائر المصريين بعد ذلك – وبقيت المقابر قاصرة على تلك المنطقة حتى الدولة الأيوبية التى إختارت مقابرها حول قبة الإمام الشافعى .. ثم توالت وتعددت المقابر وأصبح لها أكثر من موقع وأكثر من إسم .

وليست هناك سوى دراسة وحيدة توغلت داخل هذا العالم الذى يتجاور فيه الموتى والأحياء .. هى الدراسة التى قام بها الدكتور محمود محمد جاد[٤] وتتبع فيها تاريخ إختيار قبور موتى القاهرة سكنا للأحياء من أهلها .. وهو يؤكد أنه أثناء حكم محمد على .. لم يكن يقيم فى تلك المقابر إلا من تقتضى أعمالهم ذلك .. كأن يكونوا عمالا لبناء المقابر ودفن الموتى .. أو شيوخا يخدمون المساجد التى أقيمت هناك .. ولم يكن عددهم يتجاوز العشرات .. ولكن بعد مد خط السكك الحديدية من القاهرة إلى حلوان فى أواخر القرن التاسع عشر .. إمتد النشاط العمرانى إلى الجنوب حيث كانت أعداد كبيرة من المقابر تضطر لإستقبال بعض الضيوف الأحياء .. وبعد زيادة عدد المهاجرين من الريف إلى القاهرة .. لم يجد كثيرون منهم سكنا لهم فى العاصمة إلا داخل تلك المقابر .. وفى عام ١٨٩٧ أصبحت هناك ثلاثة مقابر تحولت إلى مدن يقيم فيها الموتى والأحياء هى مقابر قايتباى والمجاورين والإمامين .. ثم أضيفت خرطة التونسى .. ثم عزبة البرقوقى .. ثم الأباجية .. ثم البساتين .

ويقدم الدكتور محمود محمد جاد صورة واضحة لسكان المقابر فى القاهرة .. فهم مسلمون .. معظمهم متزوجون .. أميون .. ترتفع بينهم نسبة المطلقات والأرامل .. وتنخفض نسبة حاملى الشهادات التعليمية إلى تسعة بالمائة فقط .. ويضيف الدكتور محمود .. غالبا ما تصبح منطقة المقابر مسرحا للجريمة بكل أنواعها وكل أشكالها .. القتل والإتجار فى المخدرات والبغاء والإغتصاب .

وفى واقع الأمر .. ووفقا لشهادات بعض سكان المقابر وحياد محاضر الشرطة .. كان إنتهاك القانون فى تلك المناطق .. وحتى وقت قريب .. لا يتعدى إنتهاك حرمة الموتى وإستخراج الجثث من قبورها وبيعها لطلبة وأساتذة كلية الطب من أجل دروس التشريح .. وأنا نفسى كنت واحدا من هؤلاء الطلبة والذى إختاره أستاذه لينقل جثتين كاملتين ويحتفظ بهما عامين كاملين .. لكن تحت وطأة الإحتياج المادى والنفسى .. وتكاثر المقيمين والوافدين .. تحول الكثيرون من إنتهاك حرمة الموتى إلى إنتهاك حرمة الحياة والأحياء .. إيواء الخارجين على القانون .. تعاطى وبيع المخدرات .. وأخيرا الجنس .. إما لقاء من أجل الرغبة والهوى .. وإما هتك الأعراض وحوادث

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/١٨/٥

(٢) مجلة اليسار – عدد ١٩٩٢/١٢

(٣) د. عبد الرحمن زكى – الفسطاط – الدار المصرية للتأليف والترجمة – ١٩٦٦

(٤) د. محمود محمد جاد – سكنى المقابر فى القاهرة – مطبوعات القاهرة – ١٩٩٢

الإغتصاب .. تقع ضحية لها نساء وفتيات عابرات بمحض الصدفة .. أو من سكان تلك المناطق نفسها .

ومع ندرة الأبحاث والدراسات الإجتماعية والنفسية التى أجريت داخل مدينة الموتى فى القاهرة .. كانت الأعمال الأدبية والفنية أقل ندرة .. غير أن هناك رواية عن عالم المقابر تبقى جديرة بالتوقف والتأمل .. رواية إسمها .. النزول إلى البحر .. كاتبها هو جميل عطية إبراهيم .. روائى مصرى ولد عام ١٩٣٧ وتخرج من كلية التجارة فى الستينات وسافر فى بداية حياته العملية إلى المغرب حيث عمل هناك مدرسا وعاد مرة أخرى إلى القاهرة موظفا فى وزارة الثقافة قبل أن يهاجر نهائيا إلى سويسرا حيث لا يزال يقيم ويعمل هناك مراسلا لبعض الصحف والإذاعات العربية .. وقد صدرت رواية النزول إلى البحر عام ١٩٨٥.. وفى إحدى صفحاتها يقول الدكتور صابر وهو يشير بيده لأحد أصدقائه : أقصد هذا البحر .. البحر الممتد أمامنا .. بحر المقابر .. هذا هو البحر الحقيقى .. الجحيم .. فقراء .. جوعى .. لصوص .. أثرياء .. تجار .. عاهرات .. شواذ .. مخدرات .

ونحن فى الرواية نقترب أكثر من هذا العالم الهائج المضطرب المشتعل دوما .. تماما مثلما هو ممكن أن نقترب منه فى الواقع .. لكن المفاجأة الحقيقية تبقى .. أن الواقع أكثر جموحا وتطرفا وقسوة ووحشية وإبتذالا أيضا .

وعلى بعد عشر دقائق من هذا العالم المجهول .. بالتحديد فى منتصف الطريق بين المقابر وبين عشش الدويقة قرب طريق الأوتوستراد .. يحتضن جبل المقطم إثنى عشر الفا يعملون بجمع القمامة (١) .. يقيم معهم ثمانية الاف خنزير والف كلب ضال .. ومجموعة كبيرة من الخارجين على القانون .. وتشتهر هذة المنطقة بإسم الزرايب .. حيث يعيش الجميع وسط تلال القمامة .. عشرة الاف طن يوميا .. داخل بيوت مبنية بالحجر أو فى عشش وأكواخ من الصفيح .. صحيح أن هناك بعض البيوت الحديثة التى شيدها كبار المعلمين .. أو الزرايبين كما يطلقون على أنفسهم .. غير أن الغالبية لا تزال تنحشر فى تلك العشش والأكواخ حيث كل شئ ممكن .. كل شئ مباح .. لا إعتبار هناك لتعاليم السماء .. ولا إحترام حتى لقوانين الأرض .

وهكذا .. أستطيع أن أشرح لماذا إستوقفتنى طويلا حكاية جمالات التى إعتاد أشرف إغتصابها كل مساء فى إحدى عشش السيدة زينب ويضطر زوجها أن يدير رأسه إلى الحائط أثناء إغتصاب زوجته .. أستطيع أن أدرك معاناة جمالات ومشاعرها وظروفها التى علمتها أن البكارة ليست مما يمكن أن تحتاجه إمرأة أو فتاة لتبقى على قيد الحياة .. وأن الشرف ليس أهم ما يمكن أن يخسره الإنسان حين لا يملك أصلا لقمة العيش أو سقف المأوى .. أستطيع أيضا أن أزعم أن من قال .. تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .. هو إنسان لم يذق طعم الجوع مطلقا .. وإنما هو إنسان مثلى ومثل كثيرين غيرى .. الناس عندهم ليسوا أكثر من أرقام يحشرونها فى كتاباتهم ودراساتهم وأبحاثهم .. يطبقون عليهم قوانين من ورق لا يحترمها ولا يعترف بها الواقع فى أحيان كثيرة .

أنا لا أدافع عن جمالات .. ولا عن زوجها أيضا .. وإنما فقط أردت .. أو حاولت .. توضيح

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٨/١١/٤ .

مفهوم الجنس داخل هذا العالم .. وكيف يمكن أن يراه ويفهمه ويمارسه أولئك الفقراء والبسطاء داخل عشش القاهرة أو فى قبورها وزرائبها وأحيائها العشوائية .. فإذا كانت جمالات قد إستسلمت .. وإستسلم زوجها .. فمن المؤكد أيضا .. أن هناك الف جمالات أخرى والف زوج آخر .. لكن بالمقابل .. ستكون هناك من لن تستسلم .. وسيكون هناك من سيفتش عن وسيلة ينتقم بها من أولئك الذين يسكنون العالم الآخر فى نفس المدينة ولكن بعيدا عن العشش والمقابر والعشوائيات .. ولست أدرى لماذا أصر على الحديث بلغة المستقبل فى حين أن الإنتقام أصبح بالفعل حاضرا وواقعا .. فقد كان من الطبيعى أن تأتى عشوائية السلوك كنتيجة حتمية لعشوائية المكان .. كان من الضرورى لهذا العالم العشوائى الذى إستكان عند أطراف القاهرة .. أن يتحول إلى خنجر مغروس فى قلبها .. خنجر سيبقى على قلبها مفتوحا ينزف طول الوقت .. ينزف عاهرات وعرايا أو من هن على إستعداد لذلك .. ومجرمون صغار سيصبحون كبارا فيما بعد .. ومنحرفون ومغتصبون وشياطين نحن الذين صنعناهم لنخاف منهم فى المستقبل .

وإذا كنت قد إختصرت الطريق فكتبت عما يحدث .. تمهيدا لما سوف يحدث .. فإن ذلك لا يعنى أننى لا أملك تفسيرا لما حدث ولكل ما سوف يحدث .. فى الواقع هناك أكثر من تفسير .. وسبب .. ومبرر .

فالفتاة التى لم تجد أحدا يحترم خصوصية جسدها أو بكارتها .. والتى قتلوا فى أعماقها أى إحساس بالخجل .. لن تتردد طويلا قبل أن تذهب إلى من هو أيضا لا يحترمها أو يحترم جسدها لكنه على الأقل قابل وقادر على أن يدفع الثمن .. ونظرة عابرة للمعدية [1] التى تربط حى الكيت كات بالزمالك .. تصلح دليلا على مدى إسهام عشش شارع ترعة السواحل الموازى لشارع السودان .. فى ترويج الرذيلة .. خاصة وأن الشباب العربى هناك قادر على أن يدفع أكثر .. بل إن فتاة من تلك العشش إعترفت أنها كانت تربح ما يصل إلى الألف جنيها كل ليلة .

وفى مقابل كل فتاة من هؤلاء .. سنجد طفلا لن يجد له مكانا فى عشة والديه .. وسيخرج إلى الشارع ليلتقطه كبار المجرمين والمنحرفين .. وكما تؤكد الدكتورة مديحة الصفتى أستاذة علم الإجتماع فى الجامعة الأمريكية [2].. يبدأ هؤلاء الكبار مع أطفال العشش والعشوائيات أولى دروس العدوانية .. يغرسون فيهم الحقد على كل من ينعم بالحياة داخل هذة المدينة ويستمتع بكل ما فيها مقابل حرمانهم وشقائهم وتعاستهم .. وإذا كان الجوع هو أول دروس الشقاء لهؤلاء الأطفال .. فإن السرقة هى الحل الوحيد الممكن للحصول على الطعام .. أما آخر الدروس .. فهو الدرس الذى يجئ أوانه بعد سنوات قليلة .. بعد البلوغ وفوران الصبا والشباب .. فيصبح الجوع هذة المرة للنساء لا للطعام .. والسرقة ستصبح هتك عرض .. أو محاولة إغتصاب .. أو حتى جريمة إغتصاب كاملة .. فالرغبة المتوحشة التى تدفع بصاحبها لأن يغتصب جارته فى دورة مياة وهى تقضى حاجتها .. لن يتردد فى إغتصاب فتاة أو إمرأة جميلة تسير فى الشارع أمامه أو بجواره يسبقها عطرها أو جمالها أو أنوثتها أو حتى ثيابها المثيرة .. إنه سيناريو بدأ يعتاده حاضر القاهرة وتألفه شوارعها وبيوتها .. ويكفى أن نتأمل ما يحدث فى أحد تلك الأحياء العشوائية .. عزبة أبو قرن مثلا والتى تقع فى قلب الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية .. ففى هذة

---

(١) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٣/٤

العزبة التى تقترب مساحتها من الخمسين فدانا ويقيم فيها خمسة عشر الف إنسان (١) .. تطورت الجريمة بأشكالها ونتائجها .. ولم يعد الإنحراف قاصرا على السرقة فقط .. وإنما إتسعت دائرة التمرد والإنفجار والخروج على القانون لتشمل فى النهاية كل أنواع قضايا الآداب .. والإغتصاب وإختطاف الفتيات والأطفال وإرغامهم على دخول عالم الخطيئة والإنحراف دون عودة .

غير أن أهم ملف فى مثل هذة القضية .. هو ذلك التناقض الصارخ الحاد المؤلم الذى باتت تعيشه القاهرة .. بعد أن تم إختصار أية مسافة قد تفصل بين تلك الأحياء العشوائية وبين باقى أحياء القاهرة .. فعلى سبيل المثال لم تعد هناك أية مسافة تفصل بين شارع جامعة الدول العربية الراقى المتخم بالأثرياء .. وبين عزبة اللواء وعشش بولاق الدكرور .. وهذا ما دفع بالباحث أندريه ريمون لأن يعيد تأمل خريطة القاهرة الجغرافية والإجتماعية من جديد .. ويكتشف (٢) كيف إلتصقت وإمتزجت العشش والبيوت المتواضعة فى قلب القاهرة وأطرافها .. ببيوت مرفهة وحديثة سواء على ضفاف النيل أو فى باقى أحياء القاهرة التقليدية والحديثة .. وكيف أدى ذلك فى آخر الأمر إلى غرس إحساس مزمن بالغضب والحقد داخل نفوس الكثيرين الذين سينتظرون أقرب وأول فرصة للإنتقام من هذا المجتمع المخملى الناعم والظالم أيضا .

ومع ذلك .. فليست تلك الأحياء العشوائية هى القنبلة الجنسية الوحيدة التى ترقد فوقها القاهرة .. وإنما هناك أكثر من قنبلة .. واحدة منها هى التى ستنزع فتيلها أزمة الإسكان الحادة والصارخة التى تشكو منها وتعانى عاصمة مصر .. حيث يتكدس سكان القاهرة فى أربعمائة الف منزل ومبنى (٣) .. أو بالتحديد فى مليون وسبعمائة الف شقة قاهرية (٤) .. والمشكلة أن سعداء الحظ الذين سمحت لهم ظروفهم بسكن إحدى هذة الشقق لا تتجاوز نسبتهم أكثر من خمسة وسبعين بالمائة فقط من سكان القاهرة (٥) .. أى أن ربع أهل القاهرة محرومون من تلك الشقق .. ١,٥٪ منهم يقيمون فى بيوت ريفية .. ٩,٩٪ منهم يقيمون فى غرف مستقلة .. ١١,٩٪ منهم يقيمون فى غرفة أو أكثر داخل شقة تتقاسمها أكثر من أسرة .. ليتحول هذا المناخ بدوره إلى قنبلة جنسية جديدة .. فمشاكل السكن المشترك لا تقف عند حدود معينة .. مشاكل يقع معظمها فى دائرة جرائم الآداب .. نتيجة زحام وإختلاط حاد وعنيف وعارى فى بعض الأحيان .. فنجد مثلا .. فى شارع السوق بمنطقة منشية الصدر حيث يمكن أن تقيم كل عائلة فى حجرة واحدة حتى وإن بلغ عدد بعضها تسعة أفراد ينتمون لعائلة واحدة .. يقيمون جميعا فى غرفة واحدة .. نجد الشكوى الدائمة (٦) من تلصص العيون التى تحاصر الفتيات والسيدات وهن يمارسن طقوس حياتهن اليومية .. وتتكرر نفس الشكوى فى منطقة شبرا الخيمة حيث تقيم أربعمائة أسرة فى مائة وخمسين شقة (٧) .

ولا يعنى ذلك أن الجنس قنبلة لم توضع إلا فى بيوت فقراء وبسطاء القاهرة فقط .. ولكنها موجودة فى بيوت الأغنياء أيضا .. بل إن تاريخ القاهرة يعلمنا أن الخطر الإجتماعى والأخلاقى

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/٩/٦

(٢) أندريه ريمون - القاهرة - ترجمة لطيف فرج - دار الفكر - ١٩٩٣

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/١٠/١٩

(٤) مجلة المنار - باريس - عدد ١٩٨٨/١١

(٥) ممدوح الولى - سكان العشش والعشوائيات - نقابة المهندسين - ١٩٩٣

(٦) جريدة الشعب - عدد ١٩٩٣/١٢/٢٥

(٧) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/٩/٦

دائما ما يأتي من أغنياء المدينة ومن بيوتهم أولا .. ثم تتسع دائرة الخطر بعد ذلك لتشمل الجميع سواء كانوا أغنياء أو فقراء .. وإذا كانت الحملة الفرنسية وزمانها وتأثيرها .. قد أصبحت نقطة فاصلة في أخلاق مصر والتزاماتها وسلوكها .. فإن بداية ذلك كله كان في القاهرة .. في قلب القاهرة .. بالتحديد في غيط النوبي بالأزبكية .. ففي هذا المكان عرفت القاهرة لأول مرة الخلطة العلنية بين الرجل والمرأة(١) .. حيث أقام الفرنسيون - وعلى حد تعبير الجبرتي - أبنية مخصوصة يجتمع بها الرجال والنساء للهو والخلاعة في أوقات مخصوصة .. وكان أغنياء مصر الرجال والنساء .. هم الذين إفتتحوا طريق الإختلاط .. واللهو .. والخلاعة .

في واقع الأمر .. كان هؤلاء الأغنياء هم الذين صاغوا تاريخ الأزبكية .. المنطقة والحي والميدان والإسم الذي إرتبط على مدى مئات السنين من تاريخ مصر بالجنس والرغبة والإنحلال والدعارة .. فما نعرفه اليوم بإسم الأزبكية .. كان مجرد قرية صغيرة إسمها أم دنين(٢) .. وقد إختارها العرب بعد فتح مصر مكانا يقتسمون فيه غنائمهم .. فتغير إسمها إلى المقسم .. وبقيت أرضا مهملة طويلا حتى قرر الخليفة الفاطمي الظاهر في عام ١٠٢٠ .. بناء قصر كبير له فوق هذه الأرض مع حفر بركة واسعة يصلها ماء النيل عبر الخليج الناصري .. ومرة أخرى يلقى المكان نفس الإهمال طويلا حتى قرر الأمير أزبك الخازندار في عام ١٤٩٥ أن يعيد حفر البركة .. وشيد حولها رصيفا للنزهة .. وبنى له هناك قصرا ومسجدا هو المسجد الذي نعرفه الآن في رمسيس بإسم مسجد أولاد عنان .. وهذه المرة .. لم يتسلل الإهمال إلى المكان بعد أن أقبل أعيان القاهرة وكبارها على بناء بيوت لهم في تلك المنطقة الساحرة والجميلة .. ولم يقتصر الأمر بالطبع على مجرد بناء بيوت وحدائق .. وإنما إخترع الأمير أزبك إحتفالا أسماه إحتفال فتح البركة حين كان يأتي الفيضان ويرتفع منسوب الماء في النيل .. وفي هذا العيد كانت تقام الإحتفالات .. فكانت تلك الليالي الصاخبة فرصة لإرتكاب المعاصي على إختلاف أنواعها .. السكر والعربدة ولعب القمار .. والجنس سواء كان خطيئة زنا يتقاسمها رجل وإمرأة .. أو جريمة شذوذ ينفرد بها الرجال .

ومن الواضح أن الأمر في الأزبكية بقي على مثل هذه الحال طويلا حتى جاء الأمير كتخدا رضوان والذي تجاهر بحب المعاصي والراح والوجوه الملاح .. فكان أن جارته حاشيته .. وعلية القوم .. فتبرجت النساء وزادت خلاعة الرجال .. أو مثلما نقرأ في كتب التاريخ .. صارت مصر مراتع غزلان ومواطن حور وولدان فكأنما أهلها خلصوا من الحساب ورفع عنهم التكليف والخطاب .

لقد كان ذلك هو أول فصول تاريخ الجنس في الأزبكية .. فصل سيتكرر بعد ذلك أكثر من مرة وفي أكثر من مكان .. مثلا .. كانت نساء الطبقات الثرية في القاهرة هن اللواتي لم يكتفين بالذهاب إلى الحمامات من أجل غسل أجسادهن وتطييبها فقط .. وإنما أصبحت الحمامات بالنسبة لهن المكان المناسب للثرثرة العارية .. وتبادل المعلومات حول أحدث أساليب ممارسة

---

(١) د. محمد كمال يحي - الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٢

(٢) كنت أعتقد أنني أملك الكثير من المراجع والدراسات عن الأزبكية وعن تاريخها .. حتى إكتشفت أن معظم تلك الدراسات التي نشرتها مختلف الصحف العربية . إنما إعتمدت على دراسة واحدة رائعة إعتاد بعض الزملاء الإقتباس منها دون أدنى إشارة لها أو لصاحبها .. ولهذا قررت الرجوع للأصل فقط محتفظا بكل التقدير والإحترام للمؤلف محمد سيد كيلاني .. ولدراسته أو كتابه الذي أسماه .. في ربوع الأزبكية - دار العرب للبستاني - ١٩٥٩

الجنس مع الأزواج أو العشاق .. وإذا كانت الحمامات إختراعا إنسانيا وإجتماعيا وصحيا عرفته مصر طول عمرها حتى فى أيام الفراعنة .. إلا أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى هو أول من بنى حمامات القاهرة (١) .. وقد أقيم الكثير من تلك الحمامات فى أول الأمر للترفيه عن الخلفاء والأثرياء وعلية القوم .. وإذا كان فيلم حمام الملاطيلى للمخرج الكبير صلاح أبو سيف قد أثار ضجة هائلة إعتراضا على مشاهد الفيلم العارية .. فإنه من المؤكد أن حمامات التاريخ كانت أكثر عريا وإثارة من حمامات السينما .. هذا التاريخ القاهرى الذى علمنا أنه كلما زادت مساحة الثراء والرفاهية .. كلما خفت حدة قيود الدين والشرف والأخلاق .. أو على الأقل تغيرت مفاهيم ومعاني تلك القيود .. كأن الترفيه لا يكتمل إلا بالجنس والليالى المثيرة وأكبر مساحة ممكن أن تتعرى من أجساد النساء .. وهذا هو الخيط الرفيع الذى يربط بين مختلف أزمان القاهرة وبين أهلها .. ففى القاهرة الإسلامية على سبيل المثال .. ومقابل منطقة واحدة للترفيه عن الفقراء والبسطاء على ساحل الخليج .. كانت هناك خمسة مناطق على الأقل وقع على عاتقها الترفيه عن الأثرياء والأغنياء (٢) .. هي مصايد الغزلان بجوار الأهرامات .. والمواخير بجانب جسر الجيزة .. وبستان المقسي .. وملعب دير مرضا .. وأخيرا دير القصير فوق جبل المقطم .. وفى تلك الأماكن إعتاد الذهاب رجال ونساء ينشدون المتعة التى قد لا تصل فى كل مرة إلى حد المعاشرة الجنسية الكاملة .. ولكنها مرات كثيرة هى التى بلغت فيها المتعة أوجها بالجنس .. وإذا كانت كل تلك الأماكن قد تغيرت بمرور السنوات وذهاب ومجئ الدول والسلاطين والملوك .. فإن نفس المعانى .. ونفس الإثارة المرتبطة بالترفية .. ونفس الحرية والفوضى الأخلاقية التى تخلقها الثروة .. كلها بقيت قائمة يتناقلها الناس جيلا بعد جيل .. ومن جوار الأهرامات وقمة جبل المقطم .. إلى قصر العيني والبيوت التى أقيمت حوله فى تلك الأراضى التى إنحسر عنها النيل فى القرن الثالث عشر الميلادى .. إلى نهر النيل نفسه والذى تحول فى زمن المماليك وحتى عصر محمد على إلى ميدان ضخم للهو حيث كان الناس يتجمعون فى السفن الراسية .. ثم تجرى بالقاهرة أيامها وسنواتها وأيضا لا تتغير أو تتبدل نفس تلك المعانى .. لكن تتبدل وتختلف الأماكن والميادين .. فتصبح هناك الحفلات الخاصة .. وليالى السحر والإثارة في فنادق النجوم الخمسة .. وليالى أخرى متناثرة ومتباعدة يلتقطها هؤلاء الإثرياء والمرفهون من هنا أو هناك .. فتخلق منها بعض النساء فرصة يجدن إستغلالها إلى أقصى حد ممكن .. فيكشفن عن سيقاههن وصدورهن بكل ما إستطعن إلى ذلك سبيلا .. قد تكون ليلة الإحتفال برأس السنة أو الإحتفال بأي عيد أو مناسبة أخرى .. وأذكر واحدة من تلك الليالى .. وكانت ليلة إفتتاح مهرجان القاهرة السينمائي الدولي فى إحدى دوراته .. وكنت هناك بحكم عملى ومهنتي كصحفي .. وإذ بي أكتشف أن كثيرا مما أراه ليس له أية علاقة لا بالسينما ولا بالفن ولا بأى شئ آخر غير الإنحطاط وإنهيار الأخلاق وكل قوانين المجتمع وتعاليم السماء .. وفي داخل قاعة الإحتفال رأيت إحدى السيدات .. لم تكن ممثلة أو فنانة وإنما هى زوجة جاءت بصحبة زوجها .. وفوجئت بتلك السيدة ترتدي ثيابا تكشف عن نصف صدرها وكل ساقيها .. ولم أدر يومها ولا أدري حتى الآن ما الذي كان يدفعها إلى ذلك وما الذى تقصده من ذلك .. وأعترف أنني أطلت النظر إليها طويلا .. وأننى تخطيت حاجز النظرة الأولى الحلال ..

(١) جريدة الوفد – عدد ٢١/١/١٩٨٨
(٢) د. فتحى محمد مصيلحي – تطور العاصمة المصرية – بدون إسم ناشر – ١٩٨٨

حتى إنتبهت إلى غضب مكتوم فى عينى زوجها وهو ينظر إلى وكأنه يريد عقابى على أننى تجرأت ونظرت إلى زوجته العارية .. وكم كنت أتمنى أن أسأله عما دار فى خلده وهو يخرج من بيته مع زوجته وهى ترتدى مثل تلك الثياب .. ولماذا يشعر بالغضب والحرج ممن سينظر طويلا إلى ساقى زوجته العاريتين .. ولا يغضب من زوجته التى هى أصلا من عرت ساقيها .. وهل أصبح هو الرجل المتحضر وتحولت أنا إلى الشاب الهمجى البدائى .. وهل كان يعتقد أنه طالما إستطاع هو وزوجته الإنضمام إلى طابور الشياطين أنه سيكون بإستطاعتى أنا وأى شاب فى مصر أن ننضم إلى مصاف الملائكة .. كنت أريد أيضا أن أسأله عن أشياء كثيرة .. عن حدود الحلال والحرام التى يقيس بها حياته وحياة الآخرين .. عن مفهوم الرجولة كما يراها .. عن المسموح والممنوع فى هذا العالم الغريب العارى المثير .. مثير لنا وحدنا لكن أبطاله يكاد يقتلهم الملل .. يخافون منه فيدفعهم هذا الخوف إلى جنون السعى وراء كل ما هو غريب وجديد ومثير .. فى الشارع أو البيت أو حتى فى الفراش .. جنون إنتهى بأستاذة جامعية وإبنة مليونير مشهور أن تقبل ممارسة الجنس مع زوجها المدير العام أمام كاميرا الفيديو على سبيل الذكرى ومزيد من الإثارة ..وإذا كانت الخلافات الدائمة بين الأستاذة والمدير قد أوصلت الإثنين إلى المحكمة .. وإذا كانت جريدة الأهرام قد إستوقفها (١) إبتزاز الزوج لزوجته ووالدها عن طريق تهديده لهما بكل تلك الأفلام العارية التى خلعت فيها الزوجة ثيابها أمام الكاميرا وأمام الزوج .. فإن ما يستوقفنى هنا ليس الخلافات أو الإبتزاز .. وإنما هى تلك الأفلام .. ولسوف أتخيل الزوج إنتهازيا منذ البداية فأتفهم دوافعه لتصوير تلك الأفلام .. لكنه ليس بوسعى أن أتفهم سلوك الزوجة .. المرأة والأم وأستاذة الجامعة التى تصنع لنفسها أرشيفا جنسيا تحتفظ به للذكرى .. صحيح أن تلك المرأة والزوجة لم تخطئ .. لم تزن .. لم تنحرف .. وما أريد إتهامها بذلك .. إنما أقصد فقط التدليل على أن الخوف من الملل عند كثير من أفراد تلك الطبقات يقتل فى المرأة إحساسها الطبيعى والتلقائى بالحياء والخجل .. تماما مثلما قد يقتل فى الرجل إحساسه بالغيرة والحمية والرجولة أحيانا .. ثم تكون المفاجأة .. أن حكاية ممارسة الزوجين للجنس أمام الكاميرا ليس حدثا إستثنائيا أو طارئا وإنما هو إحدى صرعات العصر فى مصر .. فيحكى لى صديق ينتمى إلى هذا العالم – سأحترم رغبته ولن أذكر إسمه – عن السلوك الجنسى لكثير من الأزواج والزوجات فى تلك الطبقات فى هذة الأيام .. ما بين إستمتاع مريض بممارسة الجنس أمام الكاميرا .. وبين بحث دائب لا يهدأ عن إكتشاف أوضاع جديدة للممارسة .. مرورا بأفلام مستوردة تشرح الجنس على الطريقة الهندية أو الفرنسية .. ومجلات أنيقة غالية الثمن – يصل ثمن النسخة منها أحيانا إلى مائة أو مائة وخمسين جنيها – نصف تحقيقاتها عن كيف يمكن للمرأة أن تغدو أكثر إثارة .. والنصف الآخر مجرد دروس تشرح للرجل كيف يسعد شريكته فى الفراش .. هذا بالطبع غير ملابس داخلية من نوع خاص جدا .. تحرص عليها النساء .. وأطباق طعام فاخرة .. يلتهمها الرجال إعتقادا منهم أنها مصدر القوة والقدرة .

وهناك بالطبع حكايات أخرى .. عن الجنس تدور كلها .. جنس يتوحش السعى إليه والإستمتاع به كلما زادت نعومة ورفاهية من يفتشون عنه فى كل أنحاء القاهرة وزواياها الراقية .. إنه عالم القاهرة الأخرى الذى تشكل فى العشرين عاما الأخيرة .. القاهرة التى قال عنها

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/١٢/٢٣

الدكتور جمال حمدان أنها بعد الإنفتاح [١] .. تعملقت كالمارد .. ومع النمو الطفيلي المحموم .. نمت الأبراج كعشش الغراب المشئوم فإنتقلت بذلك من العصر الأوروبي إلى العصر الأمريكي .. وبعد أن كانت الأراض الزراعية هي بالوعة مصر الإقطاعية .. أصبحت القاهرة نفسها هي بالوعة مصر الرأسمالية .

وإذا كانت القاهرة في العصر الأوروبي .. قد وجدت من يكشف الستار عن جروحها في شخص نجيب محفوظ إبنها وأديبها وعاشقها .. فإنها .. وحين جاء العصر الأمريكي .. لم تجد نجيبا آخر .. ليس لأنها أصيبت بالعقم مؤخرا .. ولكن لأن الجروح هذة المرة أشد وأقسى من أن تتسع لها رواية أو الف رواية .. وعدنا لا نعرف أين هي القاهرة الجديدة .. هل هي رواية نجيب محفوظ أم هي القاهرة التي نعيش فيها عام ١٩٩٤ .. إن الدكتور أحمد الهواري في دراسته القيمة عن الرواية المصرية توقف طويلا عند رواية القاهرة الجديدة .. وإنتهى إلى أن نجيب محفوظ [٢] .. بعدما أحس بتهتك نسيج المجتمع من كثرة ما عشش به .. كان يريد أن يهز مشاعر القارئ ووجدانه ويفتح عينيه على واقع هابط باتت تعيشه القاهرة .

ومع ذلك .. فإن كل ما إنزعج منه وبه نجيب محفوظ وجعله يغرس الخوف على القاهرة في سطور ومفردات روايته عنها .. لا يقارن بكل ما ينبغي أن ينزعج ويخاف منه كل من يخاف على القاهرة اليوم .. القاهرة في العصر الأمريكي .. حيث لن نجد مدينة أخرى في مصر تأثرت وتغيرت في هذا العصر مثل القاهرة .. وقد كان هناك عاشق للقاهرة إسمه ديزموند ستيوارت .. زارها مرة فوقع في غرامها وكتب عنها واحدا من أهم كتبه [٣] حكى فيه كيف إستوقفه صراع القاهرة الدائم مع الغرب .. وإنتهى الرجل إلى أن القاهرة هي المدينة الوحيدة في كل أفريقيا .. وكل آسيا .. التي عاشت هذا الصراع دون أن تفقد شرقيتها وجذورها .. حتى مدينة إسطنبول التي حاولت أن تنافس القاهرة في ذلك .. سرعان ما فقدت قدرتها على التحمل فرفعت راياتها البيضاء وأعلنت الإنسحاب من الصراع ومن الشرق كله .

وتبقى المشكلة هي أن ديزموند ستيوارت جاء إلى القاهرة .. وكتب عنها في زمن آخر يبعد عنا الآن بثلاثين عاما على الأقل .. ويبقى السؤال هو هل جاء الدور على القاهرة لترفع بدورها الراية البيضاء وتعلن أخيرا عجزها عن المقاومة فتستسلم .. إنه سؤال لن نجد هذة المرة من يجيب عليه بالنيابة عنا .. علينا أن نفتش بأنفسنا عن الإجابة الحقيقية والمناسبة .. وأنا لا أزعم أني أملك الإجابة وإنما فقط أحاول أن أصل إليها .. وأخشى أن أقرر أن القاهرة .. وإن لم تكن قد إستسلمت بعد .. إلا أنها في طريقها لأن تستسلم .. فهناك من يتمنى لها ذلك .. وهناك من سيدفعها لذلك سواء بقصد أو بدون قصد .. بطريق الصدفة أو مع سبق الإصرار والترصد .. هناك أيضا من لم يعد يرى في القاهرة سوى ماخور كبير يأتيه من يملك المال لينشد المتعة ويطفئ رغباته في جسد أقرب إمرأة أو فتاة قاهرية .. وأصبح مألوفا أن تنشر الصحف أخبارا متعددة عن جرائم الإغتصاب وهتك العرض والدعارة التي يرتكبها الغرباء .. ما بين إستدراج الفتيات الصغيرات إلى الشقق المفروشة [٤] وإجبارهن على ممارسة الجنس بالقوة مع السائحين

(١) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – العدد ٥١٠ – ١٩٩٣

(٢) د. أحمد إبراهيم الهواري – البطل المعاصر في الرواية المصرية – دار المعارف – ١٩٧٩

(٣) ديزموند ستيوارت – القاهرة – ترجمة يحي حقي – كتاب الهلال – عدد ٢١٦ – ١٩٦٩

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/٤/٢٩

العرب .. وتنظيم السهرات الخاصة جدا .. التى تقوم فيها المصريات بالترفيه[1] عن هؤلاء السائحين .. وأخيرا قضايا الإغتصاب .. مثلما حدث لزوجة مصرية فى أحد فنادق القاهرة (٢) .. وغير ليالى السياحة العربية الحمراء .. كانت هناك النزوات الجنسية لسياسيين عرب أيضا فى القاهرة .. ولعل أشهر تلك النزوات هى التى إرتبطت بديبلوماسى عربى أقام فى القاهرة فترة من الوقت بهدف تحسين العلاقات السياسية بين مصر وبين بلاده .. فإذ بجهوده لا تغدو فى النهاية – وعلى حد تعبير مجلة روز اليوسف [3] – أكثر من مجرد التورط مع شبكات دعارة .. سهرات عارية وماجنة .. طابور من العشيقات .. علاقة جنسية مع الجاسوسة الإسرائيلية فائقة مصراتى .. وهناك أيضا إحدى العائلات العربية الشهيرة التى نقلت نشاطها مؤخرا إلى القاهرة .. فإذ بزوجة عميد العائلة تقضى لياليها الحمراء مع صديقها فى فنادق الدرجة الأولى غير عريدة النهار التى بات يعرفها جيدا سكان شارع محمد مظهر بالزمالك .

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يتطور الأمر إلى ما هو أكثر من مجرد البحث عن المتعة فى القاهرة .. وإنما بات هناك من يأتى ويبيع هو– أو هى – المتعة للمصريين فى قلب عاصمتهم .. وبعد أن كان دور العرب فى شبكات الدعارة المصرية قاصرا على تسفير أو تهريب فتيات مصر ونسائها إلى البلاد العربية لممارسة الدعارة هناك .. بدأت القاهرة تشهد تأسيس شبكات عربية للدعارة .. إما شبكات لا تتعامل إلا مع السياح العرب .. حيث العاهرات والقوادون والزبائن كلهم عرب .. وإما شبكات لا تجد فارقا بين العاهرة المصرية والعربية .. أو بين الزبون المصرى والعربى طالما يستطيع كل منهما أن يدفع الثمن .. ولعل واحدة من أشهر هذة الشبكات هى تلك التى تحولت إلى القضية رقم ٧٣٨ جنحة آداب القاهرة [4] .. الشبكة أسستها إمرأة مطلقة جاءت من إحدى الدول الخليجية .. كانت فى الأربعين من عمرها وأكبر أبنائها لم يتم بعد السادسة عشر من عمره .. قررت أخيرا الإستقرار فى القاهرة .. فإشترت شقة فاخرة ببرج الياسمين فى حى المنيل مقابل سبعمائة الف جنيها .. وبدأت بنفسها .. تعرت وأسلمت جسدها لرواد الفنادق والملاهى الليلية ممن يستطيعون دفع ثمن ليلة معها كان غالبا ما يتجاوز الخمسمائة دولار .. ثم أسست الشبكة التى ضمت فتيات من مختلف الأقطار العربية .. وإستعانت بالخادمات والسائقين وعمال الفنادق لإصطياد الزبائن .. وحين تم القبض عليها .. كانت فى الفراش .. تمارس الجنس مع زوج أختها .. شبه عارية وإن تحلى جسدها بمجوهرات بلغت قيمتها نصف المليون جنيها .

وهناك بالطبع حكايات أخرى كثيرة .. وفضائح كثيرة .. وجرائم أكثر كانت القاهرة فيها كلها هى الضحية .. وكان الجناة هم بعض السياح والضيوف العرب .. وكان سلاح الجريمة هو المال والكثير جدا من المال والذى كان يكفى أن تفقد القاهرة أحيانا قدرتها على المقاومة .. ومع ذلك .. فليست هذة الجرائم إدانة لهؤلاء العرب .. ولا هو حبل مشنقة لمدينة يسرقون منها بكارتها .. إنما هو واقع علينا أن نتأمله أولا قبل أن نقرر مواجهته .. واقع يؤكد أن القاهرة باتت مدينة مفتوحة الأبواب .. ليس فقط أمام العرب .. وإنما أمام كل الغرباء .. ومثلما تعددت القضايا العربية ..

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٢/١٤

(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٤/٣/٣١

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٦/٢٩

(٤) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٢/٢/١٥ ، مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٢/١٧

تعددت بالمقابل القضايا الأجنبية .. ما بين مخرجة أجنبية [١] تقيم في القاهرة وتقود شبكة للدعارة .. وشبكة دعارة أفريقية [٢] تتكون من عشرين فتاة يمارسون تجارتهم في ستة شقق في قلب القاهرة .. وشبكة أخرى [٣] تضم ستة عاهرات جئن من الفيليبين يقودها طالبان من السنغال وتردد وقتها أن الفتيات حاملات لفيروس الإيدز .. ثم إلتقى الطرفان أخيرا .. العرب والأجانب .. وفي أحد فنادق القاهرة يتم القبض على رجل أمريكي وسيدة إنجليزية [٤] يعرضان خدماتهما على السائحين العرب بتسهيل ممارسة الجنس مع فتيات قاهريات مقابل خمسمائة دولار عن كل لقاء .

ومرة أخرى .. ومثلما حاولت إكتشاف العلاقة بين أزمة الجنس داخل مجتمعات القاهرة العشوائية وبين مستقبل القاهرة كلها .. أجدني مضطرا للتفتيش عن نفس تلك العلاقة بين مستقبل القاهرة وبين أزمة الجنس لكن في فنادقها الراقية وملاهيها الساحرة .. وهما في واقع الأمر علاقة واحدة .. أو هي في النهاية علاقات معقدة وشائكة ومتباينة وإن كانت في آخر الأمر تؤدي إلى نتيجة واحدة .. هي إختصار الكثير جدا من قدرة القاهرة على المقاومة .. إختصار الكثير جدا من الوقت الذي يجب أن يمضي قبل أن تستسلم القاهرة وترفع الراية البيضاء .

القاهرة التي أقصدها هنا هي تلك المدينة التي يعيش غالبية أهلها بعيدا عن العشش والعشوائيات والمقابر .. بعيدا أيضا عن الفنادق والقصور والبيوت الناعمة .. وأنا أملك الشجاعة الكافية لأعترف أنني لست حريصا جدا على من تخلع ثيابها تحت تهديد السلاح في إحدى العشش ولا من تخلع ثيابها بحثا عن مزيد من المتعة والإثارة أمام الكاميرا .. وإنما أنا حريص جدا .. وخائف جدا .. على كل هؤلاء الشباب الذين ضاقت بهم الأرصفة والمقاهي والميادين .. حريص وخائف أيضا على هؤلاء الفتيات التي تمتلئ بهن شوارع القاهرة .. وسياراتها وأوتوبيساتها ومكاتبها وبيوتها .. إنهم الوردة الباقية في تلك المدينة والتي ينبغي ألا تتساقط أوراقها يوما بعد يوم .. هؤلاء هم المحاصرون في الليل والنهار بإلحاح الرغبة والإثارة .. لم نغرس فيهم أية قدرة على المقاومة ثم ألقينا بهم وسط النار .. وقريبا سيأتي ذلك اليوم الذي سنصرخ فيه ونتساءل – في بلادة شديدة ووقاحة أشد – ماذا جرى لهم وللقاهرة ؟!.

كأننا لا نعرف ما يجري في مقاهي القاهرة وفوق أرصفتها .. أو في قاعات الرقص بالفنادق والملاهي .. أو في ساحة الأهرام وفوق جبل المقطم وطريق مطار القاهرة آخر الليل .. أو في السهرات الخاصة .. أو في عقول ووجدان الشباب والفتيات وكيف سيقع بعضهم ضحايا لدوافع الإغتصاب وتقع بعضهن ضحايا لشبكات الخطيئة والإثم والدعارة .

هم لا يعرفون .. لكنني عرفت ما جرى بالأمس .. وأعرف الآن ما يجري اليوم .. وسأحاول أن أعرف ماسيجري غدا .

أعرف سبعة الاف مقهى تزدحم بهم أرصفة القاهرة [٥] .. معظم روادها اليوم من الشباب .. تخلو أحاديثهم من أية قضايا سياسية .. لم يعد هناك من يطوف بينهم ليبيع لهم الكتب .. ولا هم

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/١٢/١٢

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/١/١٦

(٣) جريدة الشرق الأوسط – لندن – عدد ١٩٩٢/١٢/١٨

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/٥/٢

(٥) مجلة المصور – عدد ١٩٩٢/٢/١١

حتى يريدون قراءة الصحف اليومية بإستثناء الصفحات الرياضية .. بعضهم إقتصر نشاطه العقلي والذهنى على لعب الدومينو والطاولة .. والبعض الآخر يقضى ساعات طويلة دون ملل أمام شاشة التليفزيون .. وأحيانا يستعينون بأفلام الفيديو .. قلة منهم قادتهم المقاهى للمخدرات أو المقامرة .. غالبيتهم لم يعودوا يجدون ما يتحدثون عنه إلا الجنس .. حكايات فاضحة ومثيرة وشائعات خاصة وعامة ومغامرات حقيقية أو زائفة .. ويتفرقون آخر الليل منهم من يجد زوجة أو رفيقة يستعين بها على رغبته .. ومنهم من لا يخجل من ممارسة عادته السرية وراء باب مغلق .. ومنهم من يكتم رغبته ويطول صبره الذى قد يطيقه اليوم وقد لا يطيقه غدا .. وقد لا تختلف هذة الصورة كثيرا عن صورة القاهرة .. كما رسمها لنا أحمد هاشم الشريف منذ أكثر من عشرين عاما (١) حين كتب يقول .. القاهرة .. مدينة الكسالى من الموظفين الصغار .. يتكدسون فى الشوارع .. يلهثون خلف البضائع الإستهلاكية .. لا عمل لهم إلا التوقيع مرتين كل يوم فى كشوف الحضور والإنصراف والشكوى من قلة المرتبات .. وفى المساء يتجمعون كالذباب حول أحد الحواة أو فتاة أبطأت قليلا .. ثم يتجمعون مرة أخرى فى المقاهى حول مباريات الطاولة والشطرنج .. وأغنية رخيصة أو فيلم مصرى هابط .

الفارق الوحيد بين صورة القاهرة منذ عشرين عاما .. وبين صورتها اليوم .. هو أن الأمر لم يعد قاصرا على الموظفين فقط .. وإنما بات يشمل طلبة الجامعة والعاطلين بحكم البطالة أيضا .. الزواج فى حياتهم مشروع مؤجل رغما عنهم ورغم مساحة الإغراء التى باتت أكبر وأشد عنفا وإثارة .. أصبحت واقعا حيا يرونه ويلمسونه بأعينهم وآذانهم .. أوشاشة ملونة وعارية .. أو كتبا تباع على أرصفة أسواق الكتب بالعتبة والسيدة زينب والحسين وعابدين وسور جامعة القاهرة .. كتب تتحدث عن التعذيب الجنسى .. غرائز الأنثى .. الإضطرابات الجنسية .. ليلة الدخلة .. جرائم الجنس .. الخيانة .. وهى الكتب التى كتب معظمها رجل إسمه محمد على أحمد – أو كما أطلقت عليه مجلة روز اليوسف (٢) – الأب الروحى لكتب الجنس فى مصر بعد أن بلغ عدد مؤلفاته المائة كتاب .. وأضافت المجلة فى تحقيقها عن كتب الجنس فى القاهرة .. أن قراء تلك الكتب هم الشباب الذين تتراوح أعمارهم من السادسة عشرة إلى الخامسة والعشرين .. وتقبل الفتيات على بعض تلك الكتب خاصة التى تتحدث عن ليلة الدخلة ومشاكل الزفاف .. أما أهم المطابع التى تتولى طبع هذة الكتب فهى مكتبة الخواجة كوستا ينى فى الأزبكية .. ومطبعة النصر فى شارع الجيش .

بعد ذلك .. لا ينبغى علينا أن نندهش إذا ما علمنا أن القاهرة تشكو كل عام رقما ضخما ومفزعا من معاكسات التليفون الوقحة والعارية والمبتذلة .. مكالمات تتضمن الفاظا شديدة البذاءة قد تؤدى أحيانا إلى تدمير أسر بكاملها .. وقد لا تكون معاكسات على الإطلاق .. وإنما هى وسيلة سهلة ومأمونة العواقب لتفريغ كل ما يختزنه القلب والعقل والعين واللسان من رغبات مكبوتة .. حيث يلتقى صوت الشاب بصوت فتاة لا تقل عنه رغبة وبطريق الصدفة الخالصة .. وقد يبقى كل منهما مجهولا للآخر .. مجرد رقم وصوت .. وقد تتطور العلاقة الشفوية الخيالية إلى علاقة من نوع آخر أكثر واقعية .. أو قد تكون تلك المكالمات مجرد إستكمال للتواصل الحميم بين

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٧١/٤/٨

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٨/٣

إثنين يعرف كل منهما الآخر أو يعشقه أو يريده .. وقد تتحول أحاديث الغرام والهيام أحيانا إلى ممارسة للجنس وسعى إلى النشوة عن طريق التليفون .. العالم كله بات يعرف الجنس عن طريق التليفون .. حيث الصوت وحده هو الذى يقوم بالنيابة عن باقى أعضاء وحواس الجسم بالممارسة الجنسية الكاملة وإصطياد النشوة .. وأصبحت هناك فى أوروبا والولايات المتحدة أرقاما محددة لتليفونات يتصل بها الرجل فيجد على الطرف الآخر فتاة على إستعداد لمعاشرته تليفونيا .. وهناك رواية إسمها فوكز دخلت التاريخ على أنها أول رواية فى العالم تدور كلها عن الجنس والتليفون (١) .. ويبدو أنه لم يعد هناك ما يمنع القاهرة اليوم من أن تلجأ – بشكل ما أو بآخر – إلى إكتشاف العلاقة بين الجنس والتليفون .. وهناك حادثة شهيرة شهدها أحد سنترالات القاهرة عام ١٩٨١ حين تم إكتشاف عصابة من بعض موظفى ذلك السنترال يتصنتون على مكالمات الفتيات ثم بدأ هؤلاء يهددون الفتيات ويبتزونهن تحت التهديد بإفشاء أسرارهن إلى عائلاتهن .. وكالعادة .. كان كل ما أثار إهتمامنا وقتها هو القبض على أفراد تلك العصابة .. وإرتحنا جميعا حين تمت محاكمتهم وإنتهت بحبسهم مددا تراوحت من الثلاثة إلى الخمسة أعوام .. وأغلقنا بذلك ملف القضية دون أن نناقش سلوك هؤلاء الفتيات .. ما الذى قالوه .. وما الذى أصغوا إليه .. ولماذا يحدث كل ذلك .. وهل كان التصنت هو بالفعل الجريمة الوحيدة فى ملف تلك القضية ؟!.

وبنفس هذا المنطق والتجاهل والتسطيح .. أغلقنا كل ملفات مجتمع القاهرة المتخمة بالتوتر والرغبات المكبوتة .. وخرجنا نهائيا من منطقة الدهشة والألم وكأننا عدنا نتوقع كل ما نراه أو ما سوف نراه فى شوارع القاهرة وبيوتها .. واحد من تلك الملفات .. هو ذلك الملف الخاص بالحب فى القاهرة والعلاقة بين الشاب والفتاة أو بين الرجل والمرأة .. العلاقة التى كانت – وبشهادة نجيب محفوظ – علاقة سرية وشاعرية يمارسها العشاق بكثير من الفرح والنقاء والخجل أيضا .. أما اليوم .. فيكفى أن نتابع قصص الحب لنكتشف كم تحررت من كثير من القيود .. كم أصبح فى أحيان كثيرة مجرد علاقة مشبوهة وفاضحة قد تنتهى بأبطالها داخل قسم شرطة بتهمة إرتكاب فعل فاضح فى الطريق العام .. وتتعدد محاضر الشرطة ويتساقط العشاق مع توالى الحملات البوليسية فى الليل أو النهار .. ومثلما حدث فى قضية التصنت على مكالمات البنات الفاضحة وكيف لم يسترع إهتمامنا إلا القبض على من قام بالتصنت .. أصبحنا فى قضايا الفعل الفاضح فى طرقات القاهرة لا نهتم ولا نكترث إلا إذا كان صاحب الفضيحة من شخصيات المدينة المرموقة .. ومن بين مئات الحالات .. لم تجد جريدة الوفد (٢) مثلا ما يستحق التوقف إلا حين تم القبض على شاب وفتاة كانا يعيشان قصة حب ساخنة جدا داخل سيارة الشاب فى بداية طريق القاهرة الإسماعيلية الصحراوى .. والمشكلة لم تكن القبض على كل من الشاب والفتاة وقد خلعا ملابسهما .. وإنما كانت أن الشاب هو نجل وزير سابق أما الفتاة فكانت إحدى مضيفات مطار القاهرة الدولى .. وكأن الأمر الطارئ فقط هو أن يخلع إبن وزير ملابسه فى الطريق العام .. أما أولاد الآخرين وبناتهم .. فأمر معتاد ومألوف .. أن يتعروا فى أى طريق .. وفى كل طريق .. وأنا لا أدعى أن هذا هو مصير كل قصة حب فى القاهرة .. ولا حتى هو مصير الكثير منها .. لكن أدعى أن عدد الضحايا .. والعشاق العرايا .. يتزايد عاما بعد آخر .. وبدرجة

---

(٢) نيكولسون بيكر – فوكز – جرانتا – لندن – ١٩٩٢

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٩/٩/٢٠

إلتحام الحب بالعرى بالجنس .. تزداد عاما بعد آخر .. حتى فى تلك الحالات التى ليس من الضرورى أن تنتهى فى أحد أقسام الشرطة .. فيكفى جدا أن نتأمل القاهرة بعد الغروب أحيانا وبعد منتصف الليل دائما .. وفى كل زوايا القاهرة وثناياها .. من الهرم إلى المطار .. من طريق الإسماعيلية إلى طريق الإسكندرية الصحراوى .. من شوارع مدينة نصر والمعادى الجديدة إلى قمة جبل المقطم .. وكان المقطم مسرحا لواحدة من تلك الحكايات التى تطورت من مجرد قصة حب إلى قضية إغتصاب إلى أزمة دبلوماسية إلى حملة صحفية .. وتتلخص الحكاية (١) فى قيام علاقة صداقة حميمة بين حسام رضا الطالب بالجامعة الأمريكية والبالغ من العمر ثمانية عشر عاما وبين زميلته فى الجامعة والتى كانت فتاة أمريكية فى الخامسة عشر من عمرها تدعى باتريشيا ستوك .. وفى يوم الخميس الموافق ١٩٧٨/٨/٢٧ .. كان الإثنان يشاركان جمعا من أصدقائهما وزملائهما بالجامعة فى سهرة بفندق بلير فوق جبل المقطم .. وفى حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل .. إصطحب حسام صديقته باتريشيا فى سيارته الحمراء طراز فيات ١٢٨ بعد أن قررا إستكمال السهرة وحدهما .. وصعد الإثنان جبل المقطم حيث إستوقفهما كمين شرطة ليلى .. وبعد أن فحص ضابط الكمين أوراق حسام .. سمح لهما بإستئناف سيرهما .. وبعد حوالى الكيلو ونصف الكيلو متر أوقف حسام السيارة وغادرها مع صديقته .. وإبتعدا قليلا عن الطريق الرئيسى وجلسا على إحدى الصخور يتبادلان الحديث .. وكان حسام يقبل صديقته حين فوجئ بضابط الكمين ومعه خمسة من الجنود .. وإبتعد الجنود بحسام فى حين قام الضابط بعد تهديد الفتاة بالسلاح الذى كان يحمله بنزع ملابسها ثم بإغتصابها فى وحشية .. بعد ذلك قام الجنود بإمساك الفتاة وأعادوها إلى سيارة صديقها دون أن يعتدى عليها أحد منهم كما أكدت جريدة الأهرام .. أو أمسك الجنود بالفتاة وقبلوها وتحسسوا جسدها وسرقوا خاتمها وقرطها قبل أن يعيدوها إلى صديقها كما قالت جريدة الوفد .. وعادت الفتاة مصابة بهيستيريا وإنهيار عصبى إلى سيارة صديقها الذى ذهب بها إلى قسم الخليفة ثم إلى قسم المعادى لتحرير محضر بالواقعة .. لكن رفض الضباط العاملون فى القسمين تحرير المحضر .. فإصطحب والد الفتاة إبنته إلى مستشفى السلام الدولى التى أبلغت مكتب اللواء زكى بدر – وزير الداخلية فى ذلك الوقت – بالواقعة .. فتم تحرير محضر وأحيل إلى النيابة التى بدأت التحقيق الذى حضره مراقب مندوبا عن السفارة الأمريكية .. وأسفر التحقيق عن عدم التأكد من إغتصاب الفتاة .. وأنها ليست عذراء .. وقد سبق لها أن أقامت علاقة جنسية مع صديق آخر يدعى كريم .. وأمر مدير نيابة الخليفة بحفظ التحقيق بعدما فشلت وزارة الداخلية فى تحديد الضابط المتهم ومعه أفراد الكمين الليلى .

وقد تعمدت أن أقدم مثل تلك الحكاية بتفاصيلها .. لأننى أرى تلك التفاصيل مفتتحا للحديث عن أهم وأخطر ظاهرتين جنسيتين تواجههما القاهرة .. الظاهرة الأولى هى تكريس النموذج الأمريكى فى وجدان ومفهوم الفتاة القاهرية .. التمرد والحب والسلوك والحرية على الطريقة الأمريكية .. والظاهرة الثانية هى كم من الوقت ممكن أن يمضى وشباب القاهرة محاصر بإثارة حارقة وقاسية لا تتوقف ولا تنتهى .. وقد بدأنا نشهد بالفعل كثيرا من الفتيات اللواتى تم

---

(١) صحف كثيرة تابعت هذه القضية .. وقد إقتصرت فى روايتها على كل من جريدة الأهرام يومى ٢٠، ٢١ /١٩٨٧/٨ .. وجريدة الوفد فى أيام ٢٩، ٣٠، ٢١ /١٩٨٧/٨ .. ثم يومى ١، ١٩٨٧/٩/١٥ .. ثم يوم ١٩٨٨/١/٧ وجريدة الشعب يوم ١٩٨٧/٩/٨

تدشينهن من جديد بفكر وطابع أمريكى لا يحترم ولا يكترث بكثير من قيودنا وعاداتنا وتقاليدنا .. ولعل أقرب مثال على ذلك هو ما يحدث فى قاعات الديسكو سواء فى فنادق القاهرة أو فى ملاهيها .. ويشير الدكتور أحمد المجدوب إلى تلك القاعات مؤكدا (١) أنها المكان المناسب لإرتكاب أبشع الجرائم الجنسية .. ويعلل الدكتور المجدوب ذلك بإنتشار التطلعات الطبقية بين أوساط الفتيات القاهريات .. فتيات يبحثن عن النقود والهدايا ويدفعهن فضولهن إلى البحث عن أية فرصة لرؤية تلك الأماكن السياحية والفاخرة .. وغالبا ما تنتهى مثل تلك الرحلة إما بالإغتصاب وإما بإحتراف الدعارة على كافة أشكالها .. ولعل مجلة حريتى هى الوحيدة التى قامت بتحقيق ضخم (٢) عما يحدث فى تلك القاعات .. حيث تتراوح أعمار الشباب والفتيات من الخامسة عشرة إلى الرابعة والعشرين من العمر .. وحيث المينى جيب والإستريتش هما الزى الرسمى للفتيات هناك .. والشاشات التليفزيونية الضخمة تعرض أفلاما ساخنة ومثيرة .. وفى مثل هذا المناخ .. يمكن للشاب أن يطارح صديقته الغرام دون أن يزعجهما أحد .. أو تمتد الأيدى تحت ثياب الجنسين تفتش عن نشوتها ومتعتها .. وكل ذلك يحدث داخل إطار أنيق إسمه مسابقات للرقص بكل أشكاله وأنواعه .. وباتت هذة المسابقات هى أهم الطرق التى تلجأ إليها الفنادق من أجل مزيد من الربح .. فالجوائز غير مكلفة .. تورتة أو دعوة للعشاء .. فى حين أن الإقبال منقطع النظير رغم سعر تذكرة الدخول إلى القاعة الذى قد يصل إلى خمسة عشر جنيها .. فتزدحم الفنادق بشباب وفتيات ينتمون إلى مختلف الطبقات الإجتماعية والإقتصادية .. يأتون غالبا أيام الأحد والخميس من كل أسبوع .. من الساعة الخامسة إلى الساعة التاسعة .. ومن الضرورى هنا أن نتوقف عند فتاتين من اللواتى يواظبن على حضور تلك المسابقات بإنتظام .. الأولى إسمها أمينة .. لكنها إشتهرت بإسم مونيكا .. تخرجت من الجامعة الأمريكية وتمت خطبتها إلى صاحب معرض للسيارات .. وخطيبها هذا هو من يؤكد أن مونيكا تمتلك موهبة أصيلة فى الرقص الشرقى .. وأنها تحصد جوائز تلك المسابقات .. وقد تمنع مشاغل العمل الخطيب من مرافقة مونيكا إلى الفنادق .. فتذهب حينئذ مع مجموعة من أصدقائها حتى لا تتعرض لمضايقات .. أما الفتاة الثانية فهى مروة .. وشهرتها ميم ميم .. تخرجت من كلية الآداب بجامعة عين شمس .. والدها وكيل وزارة ووالدتها تعرف أن إبنتها تحب الرقص وترقص بالفعل ولكن داخل البيت .. ولا يعلم الإثنان أن إبنتهما تذهب سرا إلى قاعات الديسكو وتشارك فى تلك المسابقات ثم تعود دائما فى الموعد المناسب حتى لا يكتشف أحد أين أمضت ساعات المساء ..

ويعلق الدكتور حامد زهران .. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس .. على تلك المسابقات ويقول .. ما يحدث فى تلك القاعات مهزلة .. فما معنى أن نستغل كلمة مسابقة .. أى تنافس شريف للوصول إلى هدف نبيل .. فى ساحة لهز البطن .. والعرى .. والفضائح .

وتكررت المهازل .. وليس من الضرورى أن تشارك فيها الفتاة بإرادتها ومع سبق الإصرار والترصد .. وإنما قد تكون الفتاة ضحية من ضحايا القاهرة التى باتت من فرط الرغبة وتوحشها ترقص طول الوقت على سطح صفيح ساخن ومحترق .. ومن تلك المهازل .. إعلانات الوظائف الخالية (١) التى تتحول أحيانا إلى مصيدة للبنات يقعن فيها فيتم إغتصابهن .. وحتى وإن لم ينته

(١) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣
(٢) مجلة حريتى – عدد ١٩٩٢/٨/٢٣

الأمر بالإغتصاب .. يكفى جدا أن تسود قناعة إستخدام الفتيات وأجسادهن وأنوثتهن لصالح رجل أو عمل .. ولعقد صفقة أو ترويج سلعة .. وفى السنوات الأخيرة .. إنتشرت تلك الظاهرة وإمتدت لتشمل مختلف مجالات العمل والحياة فى القاهرة .. بل وإنتقلت أيضا – وللأسف الشديد – إلى معرض القاهرة الدولى للكتاب .. وأى زائر للمعرض فى سنواته الأخيرة يلاحظ كل هؤلاء الفتيات اللواتى إنتشرن هنا وهناك بإبتساماتهن الرقيقة وثيابهن القصيرة .. ولا أحد يفهم سر العلاقة الغامضة بين الماكياج فاقع الألوان والسيقان العارية وبين شراء الكتب أو قراءتها .. ليس هذا فقط .. وإنما بدأت القاهرة تعرف مؤخرا مجموعة من الرجال يطلق عليهم إسم الكى مان .. أو الرجل الذى يلجأ إليه رجال الأعمال لإنهاء مشاكلهم والهروب من التعقيدات أوالمشاكل الروتينية .. أو حتى للتحايل على القانون والنظم والقواعد .. وأهم سلاح يستخدمه هذا الرجل .. الكى مان .. هو الفتيات الجميلات (٢) .. يحاصرهن بإغراءات النقود والحياة الناعمة المرفهة .. فيتحولن إلى شبكة جنسية مثيرة يقع فى حبائلها كثير من المسئولين الذين فى يدهم القرار والمنح والمنع .

وأعتقد أنه بعد كل هذا .. لم يعد من الصعب على أى أحد أن يتخيل شكل الدعارة .. أو حجمها .. أو تطورها .. فى مدينة القاهرة .. وكيف تبدلت أسواق بيع اللحم العارى جغرافيا وإجتماعيا وإنسانيا وإقتصاديا أيضا .. ففى هذة المدينة الصاخبة المتوترة المزدحمة .. والتى زاد زمن الإنفتاح من شراستها وشهواتها .. لم تعد الدعارة مجرد وسيلة لكسب القليل من المال .. ولم تبق مهنة من لم تجد سقفا يأويها وعائلة تحتضنها وبيتا تنتمى إليه .. وإنما أصبحت وسيلة وحيدة مناسبة ومثالية أحيانا لتحقيق كل تلك الأحلام التى غرسها العصر فى وجدان كثير من الفتيات .. ولم يعد الزبائن هم شباب ورجال كل ما يعنيهم هو إطفاء شهواتهم فى ظلام لا يدوم إلا دقائق قليلة ينصرفون بعدها لممارسة حياتهم كما إعتادوها وإختاروها .. وإنما أصبح كثيرون منهم لا ينالون المتعة إلا إذا إمتزجت الأناقة بكل التفاصيل .. بداية من أناقة المكان إلى أناقة الثياب الداخلية التى ترتديها العاهرة .. لهذا كان من الطبيعى أن تنتقل بيوت الدعارة (٣) من الحوارى والمناطق الشعبية .. إلى الشوارع والمناطق الراقية .. وأن ينتقل القوادون من الجلوس على الأرصفة أو المقاهى إلى الجلوس فى كافيتيريات فنادق فى مستوى الهيلتون أو الشيراتون .

ولم تعد العاهرة بالتالى هى تلك المرأة الفظة والفجة والمستهترة غليظة اللسان والمشاعر .. وإنما هى واحدة من سيدات الصالونات اللواتى يجدن إستخدام مستحضرات تجميلهن ويجدن إنتقاء ثيابهن ويجدن إختيار ألفاظهن .. وقد يجدن أيضا أكثر من لغة أجنبية والحديث عن الثقافة والقضايا العامة .. والأهم أنهن يجدن تماما إنتقاء وإختيار الأسلوب الذى يناسب كل زبون وفقا لأفكاره ومفاهيمه وإحتياجاته .

ومن المؤكد أن رحلة الدعارة الطويلة من بركة الرطل إلى المهندسين .. لم تكن سهلة .. ولم تكتمل بغير كثيرمن الضحايا .. وكثير من الدموع .. وكثير من الدماء .. من المؤكد أيضا أن تلك الرحلة قد إنتهت بفوضى تعم كل شئ .. وحيرة تعبث بكل أحد .. ومدينة شاعت مقاديرها أن

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/١/٢٣

(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٨٧/٦/١٥

(٣) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣

تمسك فى راحتيها فى نفس اللحظة بالماء والنار .. بالوردة والقنبلة .. وأن تضطر لأن تفسح فى قلبها مكانا للذقون الطويلة والثياب القصيرة .. للمتطرفين والبغايا .. فتمضى تحملنا وتحمل تناقضاتها وأوجاعها فوق رأسها .. لكننى لا أحب أسلوب القفز إلى النهايات .. أفضل دائما أن أبدأ من حيث كانت الخطوة الأولى على أرض الواقع .. وهذا الواقع يؤكد أن بركة الرطل كانت أول سوق للحم العارى .. وأول حى رسمى للبغاء فى مدينة القاهرة .. صحيح أن الدعارة فى القاهرة لها تاريخ قديم يسبق حصرها حول ضفاف بركة الرطل .. إلا أنها كانت دعارة غير منتظمة .. تختفى حينا وتزدهر حينا آخر .. لا يتحكم فى ذلك إلا مزاج الملوك والخلفاء النفسى والجنسى .. لكنها فى بركة الرطل باتت نشاطا أساسيا معتمدا لا تمنعه ولا تحاربه الدولة وحكامها .. حتى جاء اليوم الذى ذهبت فيه بعض نساء السلطان قنصوة الغورى [1] إلى تلك البركة .. ففسقن وعربدن وإرتكبن كثيرا من المعاصى .. فقرر السلطان هدم كل البيوت المحيطة بالبركة وحرم السكن حولها .. فإنتقلت العاهرات بنشاطهن وتجارتهن وزبائنهن إلى المنطقة المحيطة ببحيرة الأزبكية – والتى سبق وأن أشرت إلى ظروف تأسيسها بعد الفتح العربى لمصر – وسرعان ما تحولت الأزبكية إلى منطقة جذب لمعظم عاهرات القاهرة .. ولم يقتصر الأمر عليهن وحدهن .. وإنما – ومنذ عام ١٥٢٠ – بدأ توافد العاهرات الشركسيات والفرنجيات اللواتى هاجرن إلى مصر وأقمن فى القاهرة وإحترفن الدعارة فى حى الأزبكية .. وحين جاء الفرنسيون ودخلوا بقيادة نابليون بونابرت مدينة القاهرة .. وقع إختيارهم على الأزبكية لتكون مقرهم فى قلب العاصمة المصرية .. وبالرغم من شيوع ظاهرة زواج الجنود الفرنسيين من المصريات فى ذلك الوقت .. حيث لم يكن الأمر يستدعى من الجندى الفرنسى أكثر من الذهاب إلى رجل مصرى فينطق أمامه بالشهادتين فيزوجه الرجل بعدها شقيقته أو إبنته .. إلا أن ذلك لم يقض على الدعارة فى الأزبكية .. فكثير من الجنود لم تطب لهم فكرة الزواج على الطريقة المصرية .. وفضلوا قضاء شهواتهم بشكل عاجل مع عاهرات الأزبكية .. فراجت الدعارة حتى إضطر الجنرال ديجا – حاكم القاهرة فى ذلك الوقت – أن يكتب إلى الجنرال بونابرت عام ١٧٩٩ يشكو إحتلال البغايا والعاهرات لبيوت وثكنات الجنود الفرنسيين .. فكتب نابليون [2] فى هامش رسالة الجنرال ديجا .. يتم تكليف أغا الإنكشارية بالقضاء على أولئك العاهرات .. وكانت النتيجة أن تم ذبح أربعمائة عاهرة وقطعت رءوسهن وتم خيطها فى سلسلة القيت فى النيل .

ومع ذلك .. بقيت الدعارة قائمة ومزدهرة .. وإن تم إختصارها فى حى الأزبكية .. لتزدهر فى أحياء أخرى .. مثل حى الوسعة .. وحى وش البركة .. وحى زينهم .. وحى باب الشعرية .. وحين تقرر إلغاء البغاء عام ١٩٤٩ .. كان حى كلوت بك هو أول حى للبغاء فى زمن الدعارة غير الرسمية فى القاهرة .. ثم عادت الأحياء تتكاثر مرة أخرى .. لا يربط بينها إلا خيط رفيع من الفقر والحاجة .. كانت كلها أيضا أحياء شعبية قد يغزوها الأغنياء والمقتدرين بين الحين والآخر .. يشترون متعتهم ونشوتهم بالقليل من المال .. حتى جاءت الستينات بجرح الهزيمة فى سيناء .. فإنتقلت الدعارة إلى مناطق أرقى نسبيا .. وغزت بيوت الدعارة وشبكاتها وسط المدينة وقلبها .. لتأتى السبعينات فتعرف القاهرة ظاهرة دعارة الشقق المفروشة .. وكانت عمارات الترسانة من

---

(١) محمد سيد كيلانى – فى ربوع الأزبكية – دار العرب للبستانى – ١٩٥٩
(٢) كريستوفر هيرولد – بونابرت فى مصر – ترجمة فؤاد أندراوس – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

أوائل بيوت القاهرة التى عاشت تلك الظاهرة وعانت منها وبها .. ثم بيوت حى الزمالك الأنيق .. وإلى الحد الذى يتم فيه عام ١٩٧٥.. ضبط خمسة وعشرين شقة مفروشة تدار للدعارة فى عمارة واحدة بشارع الجزيرة الوسطى .. تملكها إمرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها إشتهرت بإسم مدام ندى .. وحين يولى زمان أغنياء الزمالك .. ويأتى زمن أغنياء الإنفتاح والذين فضلوا السكن فى حى المهندسين وبعض مناطق مصر الجديدة ومدينة نصر .. فكان لابد وأن تتبعهم بيوت الدعارة إلى حيث يقيمون .. كان لابد وأن يتغير أيضا أسلوب العمل .. فكسدت تجارة الشقق المفروشة المخصصة للدعارة .. وأصبح كثيرا من هؤلاء الرجال الباحثين عن المتعة يملكون بيتا أو بيوتا خاصة بهم وبرذائلهم وخطاياهم .. أو يبتكر هؤلاء أماكن أكثر أمانا ورومانسية أيضا .. مثل تلك الشبكة التى أدارت نشاطها فى إحدى عوامات النيل (١) .. ومنها وإليها تنتقل العاهرات مع زبائنهن فى مراكب صغيرة تتهادى فوق مياة النيل الرقراقة والناعمة .. أيضا ولكى تبرهن الدعارة على أنها باتت من المهن القليلة القادرة على ملاحقة كل تطورات القاهرة .. تم إكتشاف شبكة دعارة يقودها أحد أمناء الشرطة وتمارس نشاطها داخل إحدى محطات مترو الأنفاق (٢) .. ومن مترو الأنفاق إلى مدينة ملاهى السندباد حيث تم إكتشاف إحدى العصابات (٣) التى تتاجر بأعراض الفتيات وسط زحام مدينة الملاهى وصخبها وعلى الرغم من براءة الأطفال وإبتساماتهم التى تملأ المكان .. وبالطبع لم تلاحق الدعارة تطورات القاهرة الجغرافية فقط .. وإنما لاحقت التغييرات الإجتماعية أيضا .. ونستطيع أن ندرك هذا التغيير فى أسلوب بيع اللحم والهوى داخل أحياء الرفاهية الجديدة .. سواء من ناحية شكل وأسلوب الإتفاق بين العميل والقواد أو العلاقة بين العميل والمرأة .

ومع هذة الطبقة الجديدة .. والتى كانت لا تحرص على شئ قدر حرصها على رفاهيتها وشهواتها وتلبية كل رغباتها حتى وإن لم تتفق مع حدود دينية أو ضوابط إجتماعية .. وبعد أن أصبحت الدعارة – فى زمن تشتد فيه وطأة أزمات إقتصادية خانقة ومتوالية – من المهن التى تأتى فى زمن قياسى بثروة تلين معها مقاومة الكثيرين والكثيرات .. كان من نتيجة ذلك كله أن عادت الدعارة القاهرية تزدهر من جديد .. وبشكل أكثر تهتكا وإنحلالا .

ولا يعنينى من ذلك إلا حقيقة مؤلمة ومفزعة .. هى أنه لكى تبقى ماكينة الجنس دائرة دون توقف .. وحتى لا يشعر أحد من السادة المرفهين بالملل .. كان البحث لا يهدأ ولا يتوقف عن ضحايا جدد من الفتيات والنساء .. إما تأتى كل منهن من تلقاء نفسها .. واعية لما تريده طائعة دون تهديد أو إبتزاز أو إكراه .. وإما تقع فى براثن إحدى تلك الشبكات فتضطر لأن تخلع ثيابها وراء الأبواب المغلقة حفاظا على سمعتها وأحيانا على حياتها نفسها .. وقد يبدأ طريق السقوط بدعوى من صديقة .. أو داخل محل يبيع الثياب المستوردة والأنيقة .. أو داخل محلات تصفيف الشعر .. وفى أحد تقارير مباحث الآداب (٤) .. تبين أن محلات الكوافيرات تأتى فى مقدمة أماكن إستدراج الفتيات لممارسة الدعارة .. حيث تم ضبط عشرات الضحايا والساقطات داخل تلك

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/٧/٢٦
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/١/٥
(٣) جريدة المساء – عدد ١٩٩٢/٦/١٤
(٤) عماد ناصف – خطايا المشاهير – بدون إسم ناشر – ١٩٩١

المحلات عام ١٩٨٩ .. وزاد العدد خمسين ضحية جديدة عام ١٩٩٠ .. ثمانين بالمائة من تلك الحالات فى محلات تقع فى أحياء راقية .. والباقى فى أحياء شعبية .

وهناك بالطبع حكايات كثيرة عن التى إختارت والتى إضطرت إلى السير فى هذا الطريق .. وقد كانت بيبى مجرد فتاة من اللواتى إخترن لأنفسهن هذا المصير .. ففى عام ١٩٨٥ كانت بيبى لا تزال طالبة فى المرحلة الثانوية لم تتخط الثامنة عشر من العمر .. تنتمى لأسرة صغيرة تتكون من الأب والأم وشقيق واحد يكبرها .. ولأن الأب لم يكن سوى مجرد ناظر مدرسة .. وكذلك كانت الأم أيضا تدير مدرسة أخرى .. فلم يكن راتب الإثنين الشهرى يكفى متطلبات الشاب والفتاة التى باتت تتزايد كل يوم .. وكان لكل من الإبن والإبنة أحلامهما الخاصة .. ومشاكل العجز عن تحقيق تلك الأحلام .. وإستطاع الإبن أن يحل مشاكله بنفسه .. فقد كان يجيد العزف على الجيتار .. وإنضم إلى فرقة موسيقية تمارس نشاطها فى أحد ملاهى حى المهندسين .. وبعد قليل أصبح الإبن قادرا على شراء ما كان يشتهيه من ثياب وعلى تدخين سجائر المارلبورو الأمريكية .. ورأت الأخت ما يحدث لأخيها .. فطلبت منه معاونتها للعمل معه فى الملهى .. وبالفعل ذهبت معه وغنت أمام مدير الملهى أغنية السح الدح إمبو .. فتعاقد معها على الغناء كل ليلة مقابل ثلاثمائة جنيها كل شهر وإختار لها إسم بيبى .. وأخيرا إستطاعت بيبى أن تدخل محلات إمتلأ بها شارع جامعة الدول العربية لتشترى ما تريده من ثياب بعد أن عاشت سنوات طويلة تكتفى بمجرد المشاهدة .. ومع بهجة المال والثياب وقسوة البحث عن مزيد من الرفاهية .. لم تحتج بيبى على طلب مدير الملهى بمجالسة الزبائن مقابل مائة وخمسين جنيها كل ليلة .. وكان من الطبيعى أن تنتهى الرحلة بميلاد عاهرة جديدة من عاهرات حى المهندسين فى زمن الإنفتاح .

وإذا كانت بيبى قد إختارت .. فقد كانت هناك من لم تكن لها أية فرصة للإختيار .. رشا لم تمنحها حياتها حرية الإختيار .. فقد ماتت أمها وهى صغيرة .. وعلى الرغم من أنها كانت إبنة وحيدة .. إلا أن ذلك لم يشفع لها عند والدها صاحب محل بيع مستلزمات أعمال الكهرباء والذى تزوج من إمرأة أخرى .. ولم تجد رشا من أبيها وزوجته إلا الهوان والقسوة وحرمان دائم من كل شئ .. وبعد نجاحها فى الحصول على الشهادة الإعدادية .. إضطرت رشا لأن تعتزل التعليم رغما عنها وبقيت فى المحل تساعد أبيها .. وحين أتمت رشا الثامنة عشرة من عمرها .. لم تعد تقوى على البقاء والإستمرار .. ولم يعد لديها ما تخسره .. فقررت أن تهرب .. وأمام سنترال الماظة .. إلتقت رشا بإمرأة إصطحبتها إلى شقة مفروشة فى أرض الجولف بمدينة نصر .. وكان على رشا أن تسدد حساب الإقامة وثمن الثياب والطعام بأن تخلع ثيابها كل مساء وتسلم جسدها كل ليلة إلى رجل جديد تأتى به السيدة صاحبة الشقة .. وكأن نجيب محفوظ قد سبقنا جميعا حين كتب عن نفيسة بطلة روايته الموجعة والرائعة .. بداية ونهاية .. جملة لا تصلح فقط لشرح ما تحت جلد نفيسة .. وإنما تصلح أيضا تفسيرا لما حدث لرشا .. والف فتاة أخرى .. فقد كتب الأديب الكبير[1] يصف إستسلام نفيسة فى .. تلك الساعات التى تذهل فيها عما يدفعها إلى تسلية نفسها من دواعى اليأس والفقر .. هنالك تنسى كل شئ إلا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها أفظع تمثيل .

وأيا كان الدافع أو التبرير .. فإنه بعد قليل من الوقت .. وكثير من الإبتزال والعهر .. ذابت أية

(١) نجيب محفوظ – بداية ونهاية – الكتاب الذهبى – روز اليوسف – ١٩٦١

فوارق فى الملامح أو المصير بين بيبى وبين رشا .. ذابت الفوارق بين من إختارت وبين من إضطرت .. كلهن صرن بغايا .. كلهن كن كالأشواك التى إنتثرت تحت جلد القاهرة وفى عينيها وفى قلبها .. تماما مثل تلك الأشواك التى زرعتها وغرستها فى لحم القاهرة حوادث الخطف والإغتصاب .. ولتصبح القاهرة أكثر مدينة مصرية تعانى وتخاف من الإغتصاب (١) .. وتصل حصتها إلى إثنين وثمانين بالمائة من كل حوادث الإغتصاب فى مصر عام ١٩٨٩ على سبيل المثال(٢) .. أو الأشواك التى تدمى القلب بالتقليب فى دفتر أحوال فقراء القاهرة حين يغدو الجنس وممارسته ومتعته .. المتعة الوحيدة والرفاهية المتاحة لهؤلاء الفقراء .. أو يصبح الجنس والخوف منه ومن فضائحه وجرائمه .. عذاب هؤلاء الفقراء الدائم .. أو هكذا تشير رسائل بعض هؤلاء الفقراء التى يرسلونها إلى الإمام الشافعى(٣) ويلقونها فى الضريح .. لعل الإمام والفقيه الراحل يعينهم على محنتهم فى دنيا الأحياء .. واحدة منهم إسمها فريدة بنت زينب .. كتبت للإمام الشافعى تشكو من مجدى وأمه وصفاء الذين يسحرون لها وسلطوا عليها جنيا يأتيها فى المنام .. يقبلها فى شفتيها ويفعل بها أشياء لا تعرفها .. وإمرأة أخرى تشكو للإمام من بهجت وأولاده حمادة وميدو ونور وضحى .. لأنها ولية .. ومع ذلك قالوا فى حقها كلام بطال .. وإذا كان الفقراء يكتفون بتلك الرسائل للتعبير عن همومهم ومخاوفهم الجنسية .. فإن المقتدرين لا يكتبون رسائلا لأحد من الموتى أو حتى الأحياء .. وإنما يذهبون بأنفسهم إلى حلقات الزار حيث تفتش المرأة عن وسيلة تتخلص بها من أحد شياطين الجن يغتصبها وهى نائمة .. أو يمنعها من معاشرة وإسعاد زوجها .. أو يذهب الفقراء والأغنياء معا إلى السحرة الذين يتركزون (٤) فى حى الشرابية ثم السيدة زينب ثم حى شبرا .. حيث يفتش الرجال عن علاج حاسم وسريع للربط أو العجز الجنسى .. أو يذهبون إلى نزلة السمان حيث يقيم هناك من يدعون التخصص فى علاج كل أوجاع الإنسان ومن بينها العجز الجنسى أو سرعة القذف (٥) .. فيذهب الرجل ليتم علاجه عن طريق الكى مرتين فى أسفل الظهر .. كل هذا غير عشرات الوصفات الشعبية .. وأدوية طبية يتم تداولها هنا وهناك .. وأوجاع ومخاوف جنسية فقيرة تنتهى بأزمات فوق الفراش وفى البيت والعمل والشارع .. أو أوجاع غنية تؤدى إلى عيادة طبيب تخصص فى أمراض النساء أو تخصص فى علاج أمراض نفسية وأعصاب إستسلمت خوفا وتعبا وإرهاقا .

بإختصار .. وإذا كانت القاهرة بالفعل .. هى هذا العالم الغريب المعقد سواء فى قمته أو عند القاع .. فإن الجنس فى هذا العالم - حتى وإن بقى أسيرا تحت الجلد وماردا محبوسا فى الف قمقم - قد تحول نهائيا إلى مشكلة تزيد من غرابته ومن تعقيده .. تحول الجنس فى القاهرة إلى أزمة .. قضية .. قنبلة بالغة الحساسية قابلة للإنفجار فى أية لحظة .. نعرفها لكن لا نعرف من أو ما الذى سينزع يوما فتيلها ؟!

هل هى مساحة الإثارة التى تتضخم وتزداد كل يوم .. وتطارد أهل القاهرة .. الفقراء والأغنياء .. تحاصرهم فى الليل والنهار .. فى البيت والشارع .. فى اليقظة والحلم ؟.

---

(١) لواء د. محمد فتحى عيد - الأمان فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦
(٢) وزارة الداخلية - تقرير الأمن العام - ١٩٩٠
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٨/٣٠
(٤) مجلة نصف الدنيا - عدد ١٩٩١/٧/٢١
(٥) مجلة كل الناس - عدد ١٩٩٢/١٢/٩

هل هى كل تلك التناقضات الحادة والصارخة بين قاهرة الفقراء وقاهرة الأغنياء .. قاهرة يعيش نصف سكانها تحت مستوى الفقر(١) .. وقاهرة أخرى تشيد خمسة فنادق فاخرة (٢) لخدمة مائة وستين نوعا من الكلاب المرفهة ؟.

هل هو الزحام الخانق الذى معه فقدت القاهرة هدوئها ووقارها وإتزانها .. زحام الأغنياء والصعاليك والعاهرات والقوادين القادمين من بلاد العرب والغرب يفتشون عن حصتهم فى كحكة إسمها القاهرة ؟.. أم زحام الفقراء والمهاجرين القادمين من ريف الدلتا وقرى الصعيد يزحفون إلى العاصمة هربا من واقع جارح مؤلم مهين ؟.

هل هى كل تلك الأسباب معا .. وأننا مضطرون لأن نهرب منها .. أو نتناساها .. وتستريح ضمائرنا حين نقنع أنفسنا بأنها أسباب .. لا قبل لنا بمواجهتها أو القضاء على مشاكلها ومتاعبها .. مع أننا نحن الذين تسببنا فى كل هذة المشاكل والالام حين إخترنا أن تكون القاهرة دائما مدينة مفتوحة الأبواب .. نحن الذين بتناقضاتنا وإرتباكنا وحيرتنا فتحنا أبواب مدينتنا بأنفسنا بابا بعد آخر .. ونحن الذين لم نخلق أمام كل هؤلاء الفقراء والبسطاء أية فرصة للحياة إلا فى القاهرة .. ثم أصبحنا اليوم أول من يلعنهم ويلومهم على أنهم إختاروا المجئ للقاهرة وهم فى واقع الأمر لم يختاروا إلا مجرد البقاء على قيد الحياة .. نحن الذين – وبعد سنوات قليلة عقب ثورة يوليو – قررنا أن تتحول مدن القناة إلى مناطق جذب سكانى .. فأقمنا نصف مصانع مصر فى مدينة القاهرة (٣) .. ونحن الذين قررنا بناء ستة مدن حول القاهرة .. لم نحاول مثلا أن نبنى المنيا الجديدة بدلا من مدينة السلام .. ولم نبنى سوهاج الجديدة بدلا من مدينة العبور .. وسددنا فاتورة حساب تجاوزت الثلاثمائة مليون جنيها من أجل تشييد مدينة ٦ أكتوبر التى لم يتجاوز عدد سكانها عام ١٩٨٦ أكثر من ثلاثين أسرة فقط .. ولم نحاول أن نتوقف مرة ونصغى لصوت العلم والحكمة .. وإنما كنا نحن حكماء أنفسنا ومدينتنا .. فأعددنا تصوراتنا لمستقبل القاهرة بعدما تخيلنا أن يصبح عدد سكانها خمسة ملايين ونصف المليون إنسان (٤) عام ٢٠٠٠ .. فإذ بمدينتنا تتجاوز هذا الرقم منذ عام ١٩٦٥ .. وكان لابد وأن تتجاوز هذا الرقم .. وكان لابد وأن يبقى طوفان الرحيل والهجرة إلى القاهرة مستعرا يصب كل يوم فى قلب المدينة المضطربة بالعشرات .. وأحيانا بالمئات .. من القادمين سواء من الجنوب أو الشمال .. ومن الذى يملك أن يلومهم طالما بقيت القاهرة تستأثر (٥) بأربعين فى المائة من إستثمارات الحكومة المصرية .. وأكثر من أربعين فى المائة من فرص العمل سواء فى القطاع العام أو الخاص .. وستة وأربعين فى المائة من عدد أسرة المستشفيات فى مصر .. وأربعين فى المائة من عدد الصيدليات .. وخمسة وخمسين فى المائة من عدد المقاعد بالجامعات .. وسبعة وعشرين فى المائة من عدد فصول المدارس .. وأخيرا .. كنا نحن أيضا من أنفق المليارات على تحسين الصرف الصحى بالقاهرة وشق طريق لمترو الأنفاق فى قلبها .. ونسينا مدنا وقرى بمختلف المحافظات لا تزال تحتاج إلى مياة نقية صالحة للشرب (١) .

---

(١) أندريه ريمون – القاهرة – ترجمة لطيف فرج – دار الفكر – ١٩٩٣
(٢) جريدة الرياض – المملكة العربية السعودية – عدد ١٩٩١/١٠/٢٤
(٣) مجلة اليسار – عدد ١٩٩٢/١٢
(٤) أندريه ريمون – القاهرة – ترجمة لطيف فرج – دار الفكر – ١٩٩٣
(٥) مجلة المصور – عدد ١٩٩٢/٦/١٢

ثم .. نتسائل لماذا يصر كل هؤلاء الآخرين على المجئ إلى القاهرة ؟!.

ثم .. ندعى أننا حريصون على القاهرة وعلى مستقبلها .. مهتمون بحل كل أزماتها وتناقضاتها .. تماما مثلما قررنا أن نطارد كل القوادين والعاهرات والمغتصبين والساقطات بعصا الأمن الغليظة وحدها .. والقينا مهمة مواجهة كل أوجاع القاهرة الجنسية على عاتق شرطة للآداب .. وكم تصبح المفارقة حزينة وضاحكة فى نفس الوقت حين نكتشف أن قوة شرطة آداب القاهرة لا تتجاوز السبعة ضباط .. فإذا أضفنا قوة شرطة آداب الجيزة .. أصبح العدد ثلاثة عشر ضابطا فقط[٢] .. وهؤلاء هم الذين من المفروض أن يضبطوا سلوك أربعة عشر مليونا يسكنون مدينة مزدحمة مختنقة مستثارة دائما وفى كل وقت .

وبالطبع .. أنا لا أعرف لمن أشكو القاهرة وزحام القاهرة ومستقبل القاهرة .. لا أعرف أيضا ولا أفهم أين كان الناس وقت أن حدث كل هذا .. ولماذا بخل زمان القاهرة عليها ولو بعاشق واحد يصرخ فيها وفى وجه حراسها وأهلها .. يطلب منهم أن يتقاربوا ويمدو أيديهم ينتشلون قلب مدينتهم قبل أن يغرق .. يعلمهم أولى دروس الخوف من مجهول يطاردهم ليقتلوه قبل أن يخرج لهم من تحت جلودهم وفى بيوتهم وشوارعهم .. يطلب منهم أن يغلقوا أبواب مدينتهم فى وجه الطوفان القادم ولا يبقون إلا بابا يدخل منه الحب وكل الأحلام .

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/٥/٢٨

(٢) مجلة آخر ساعة - عدد ١٩٩٠/٣/٢٨

(٦)

حكايات الغياب والغضب

الهم محاوطكى وحزنك تاعبكى
وليه مش قادرة تبكى
الأعيان خانوكى
سارقين طين أبوكى
لعدوك باعوكى ولإيد الزمن
عروكى ف ميدانهم
ولا واحد أدانهم
وعلوا آدانهم
وبقالهم جرس
جلادك محامى
وحاميك حرامى
وبإيه ينفع كلامى
ياساكنة الخرس

عبدالرحمن الأبنودى

من أغنيات مسلسل عبدالله النديم

في مصر
تبدأ الحياة وتنتهي .. على أعتاب القاهرة .
تقوم الدنيا وتقعد .. من أجل القاهرة .. وأهل القاهرة .

كل ما تشكو منه القاهرة .. يتحول إلى وجع لمصر كلها .. وعلى المصريين كلهم البحث عن دواء .. أما أوجاع باقي المدن المصرية .. فكأنها لم توجد أصلا إلا لتملأ الصحف اليومية بعض مساحاتها الفارغة وليجد ما يتحدث عنه كثير من مرشحي مجلس الشعب والمجالس المحلية .. وحين يتم إغتصاب فتاة قاهرية في أطراف المعادي أو في حي العتبة .. يتحول الأمر إلى أزمة وقضية قومية .. أما إغتصاب وهتك عرض الف فتاة في أقاليم مصر .. فهو مجرد خبر صغير في صفحة الحوادث قد تستغله بعض الصحف من أجل مزيد من الإثارة ومزيد من الترفيه عن القراء وقد لا تجد فيه صحف أخرى ما يستحق الإهتمام والنشر أصلا .

لكن .. وبالرغم من ذلك .. بالرغم من تلك المزايا الهائلة والخرافية التي تنعم بها وتختص مدينة القاهرة دون سائر مدن مصر كلها .. لم يحدث مرة واحدة أن كانت القاهرة وحدها هي من تدفع ثمن خطأ أو خطيئة .. لم تدفع القاهرة ثمن أبواب الثورة نصف المغلقة .. أوجرح الهزيمة وقسوتها .. أوذنوب الإنفتاح وخطاياه .. أو أزمات الغربة والحرمان الطويل .. وحين بدأت بوادر وإحتمالات إنفجار الجنس والرغبة والشهوة تتكوم تحت جلد مصر .. وإنفجرت فجأة أوجاع الإغتصاب وممارسة الدعارة وقضايا الزنا والفسق وهتك العرض .. أيضا لم تدفع القاهرة وحدها الثمن .

وإنما تقاسم المصريون كلهم فاتورة الحساب .. كل مدينة .. وكل قرية في مصر .. وجدت نفسها تدفع حصتها إما راضية أو مرغمة .. فمن الإسكندرية إلى أسوان .. ومن جبال سيناء إلى رمال مرسى مطروح .. بدا أن كل النواحي تعاني .. في كل ناحية إختلط الكبت بالقمع بالرغبة بالشهوة .

وقبل الحديث عن فاتورة الحساب التي تقاسمتها مدن مصر كلها .. يقتضي المنطق الحديث عن تلك المدن نفسها .. المدن التي مهما تقاربت بينها المسافات أو تباعدت .. فإنها تلتقي في النهاية كحبات عقد حول النيل لتشكل هوية وطن ودولة وشعب يسكن أرض مصر .

ولست أدعي أنه إكتشاف جديد .

إنما هي مجرد محاولة لقراءة تاريخ مصر من جديد .. حين أؤكد أن هذا التاريخ يشهد أن المدينة كانت إختراعا لم تعرفه مصر إلا مؤخرا .. فمصر كانت دائما مجتمعا لا يعرف تعدد المدن أو تنوعها .. وإنما كانت هناك طول الوقت مدينة واحدة كبرى تلعب دور العاصمة وتحيط بها القرى من كل جانب وفي كل إتجاه .

إنها واحدة من متناقضات وغرائب المجتمع المصري الذي يبدو – بعد كل هذة السنين وكل هذة الكتب – وكأنه صندوق غامض متخم بالغموض والأسرار والألغاز .. فقد كان المنطق يقتضي أن تكون هناك في مصر اليوم أكثر من مدينة كبرى .. خاصة وأن مصر لم تكن مثل كثير من الدول الأخرى التي إختارت منذ البداية إحدى المدن عاصمة لها .. وإنما كانت مصر طول الوقت حائرة لا تستقر على مدينة واحدة تتخذ منها عاصمة لها وتغلق مثل هذا الملف نهائيا وإلى الأبد .. فعلى مدى خمسة الاف عام من عمر مصر .. تغيرت[1] العاصمة المصرية خمسة وعشرين مرة ..

---

(١) د. فتحي محمد مصيلحي – تطور العاصمة المصرية – بدون إسم ناشر – ١٩٨٨

أى أن المصريين كانوا يختارون عاصمة جديدة لبلادهم بمعدل عاصمة كل مائتى وأربعين عاما .. وكان هذا وحده - وفقا لقواعد الجغرافيا وأحكام التاريخ - كفيلا بأن يخلق أكثر من مدينة مصرية كبرى غير القاهرة .. فإذا كانت القاهرة قد عاشت كعاصمة لمصر الفا وأربعمائة عام تحت أكثر من شكل وأكثر من إسم .. الفسطاط والقطائع والعسكر .. قبل أن يصبح القاهرة هو إسمها الرسمى منذ العصر الفاطمى وحتى الآن .. فإن الإسكندرية .. كانت عاصمة لمصر أكثر من تسعمائة عام .. وطيبة - التى هى الأقصر حاليا - كانت عاصمة لمصر ثمانمائة عام .. ومنف - التى هى البدرشين حاليا - كانت عاصمة لمصر أكثر من خمسمائة عام .. وبوبسطة - التى هى الزقازيق حاليا - كانت عاصمة لمصر أكثر من مائتى عام .. وكذلك - كما يؤكد الدكتور جمال حمدان (١) - كانت هناك مدنا أخرى مثل إهناسيا القريبة من بنى سويف .. وصان الحجر فى محافظة الشرقية .. ومدن أخرى كثيرة فى مصر .

ولو خرجنا من كتاب التاريخ إلى أرض الواقع .. فسنكتشف أن معظم عواصم مصر قد طواها النسيان والإهمال .. وتخلت عن مكانتها وقيمتها وإنضمت فى النهاية إلى طابور طويل من أقاليم مصر المنسية والمهملة بدون سبب أو مبرر إلا تلك العقدة المصرية المزمنة التى تجعل العاصمة وحدها محطا لكل الأنظار ومثارا لكل الإهتمام ومركزا لكل الأضواء .

أيضا .. فرضت هذة العقدة التاريخية نفسها على كل حكام مصر جيلا بعد جيل وزمنا بعد آخر .. فأصبحت كل مدينة فى مصر - بإستثناء العاصمة - لم تخلق إلا من أجل دور محدد لها ووظيفة ينبغى عليها أن تؤديها على أكمل وجه .. ثم تموت أو تتكمش إذا ما إنتهى دورها وأدت وظيفتها .. وكأنها ليست مدينة قائمة بذاتها يسكنها بشر لهم حياتهم ومشاعرهم وأحلامهم ومعاناتهم .. مدينة يسكنها مصريون لهم نفس حقوق سكان العاصمة وعليهم ما على أهل العاصمة من واجبات .. نجد ذلك فى العصور الفرعونية وما بعدها .. حيث كانت المدن لا تقام إلا لتقوم بدور الساتر الدفاعى عن العاصمة والبلاد كلها .. فمن أجل ذلك ولدت مدن مثل ميتليس التى تعرف الآن بإسم فوه .. وتامياتيس التى تعرف الآن بإسم دمياط .. وفى العصور الإسلامية تبرز مدن دفاعية أخرى مثل بلبيس والصالحية عند أطراف الصحراء الشرقية وفى المقابل كانت مدينة دمنهور عند أطراف الصحراء الغربية .. أما فى العصور الحديثة .. فقد تغير مفهوم الدفاع وتبدلت علوم العسكر وقوانينهم .. فلم تعد المدن المصرية تقام فقط لتبقى كسواتر دفاع وحواجز أمان تحمى العاصمة .. وإنما أصبح الدافع إقتصاديا بحتا .. لهذا نجد الحياة تدب فجأة فى أوساط مدينة قديمة كانت مهملة إسمها الإسكندرية .. لمجرد أن محمد على بدأ يفتش عن مدينة تقع على البحر الأبيض المتوسط الذى أصبح هو المسرح الرئيسى لإهتمامات الباشا .. فوقع إختياره على الإسكندرية (٢) لتكون مركز تجارته الجديدة وقاعدة تسويق منتجات الإقتصاد المصرى فى ذلك الوقت .. فقرر الباشا حفر ترعة المحمودية عام ١٨٢٠ .. لتصبح الإسكندرية بعد ذلك المشروع هى بوابة تجارة مصر مع العالم (٣) .. وساعد على تضخم دور الإسكندرية عدم إرتياح الباشا للقاهرة لعدم إطمئنانه إليها وإلى مجتمعها المرتبط بالماضى .. حتى أنه فضل بناء

(١) د. جمال حمدان - القاهرة - كتاب الهلال - عدد ٥١٠ - ١٩٩٣

(٢) أندريه ريمون - القاهرة - ترجمة لطيف فرج - دار الفكر - ١٩٩٣

(٣) مجلة المنار - باريس - عدد ١٩٨٧/٩

مقار إقامته خارج حدود العاصمة أو على مشارفها .. وكان من نتيجة ذلك أن إختص الإسكندرية بعديد من المصانع والمنشآت وعلى رأسها الترسانة البحرية الكبرى .

وما حدث مع مدينة الإسكندرية .. تكرر مع مدن أخرى .. فرضت الحاجة والظروف الإقتصادية الإهتمام بها وتنميتها .. مثل مدينتى بورسعيد والإسماعيلية (١) .. فالأولى تأسست عام ١٨٥٩ .. والثانية بنيت فى عام ١٨٦٢ .. وكان الهدف هو إستثمار شق قناة السويس ثم الملاحة العالمية فيها .. وكذلك مدينة الزقازيق التى لم تكن فى بدايات القرن التاسع عشر سوى كومة أكواخ متواضعة لا يسكنها إلا العمال الفقراء الذين تم شحنهم من قراهم لحفر بحر مويس ولم يكن ليكترث بها أو يهم أحد إلا حين فرض موقعها أن تكون أحد قلاع حلاجة القطن .. فقرر محمد على إعادة بنائها عام ١٨٣٧ (٢) .. وجعلها مقرا لعديد من المؤسسات الإدارية وأصبحت المدينة الجديدة عاصمة لكل إقليم الشرقية .. وغير الزقازيق .. تكررت الحكاية مع مدن أخرى مثل المنصورة التى تحولت – بفضل السكك الحديدية – إلى أحد أهم مراكز تجارة القطن والصوف والكتان والفاكهة والأرز .

وكل من يفتح كتاب تاريخ مصر طوال أعوام القرن التاسع عشر .. يشعر أن مشروع محمد على لتحديث مصر .. ومدن مصر .. بقى قاصرا فى معظم تفاصيله على القاهرة والإسكندرية فقط .. وتحولت باقى المدن إلى مجرد كومبارس .. تصارعوا وإقتتلوا على ما تبقى من المدينتين الكبيرتين .. حتى لكأن المدينة منهم لن تحيا أو تبقى أو تزدهر إلا بموت وإندثار مدينة أخرى .. فطنطا تنمو على حساب المحلة الكبرى التى كانت هى عاصمة الغربية فى زمن محمد على .. ولكى تنمو الزقازيق كان لابد وأن تتوارى مدن أخرى كانت هامة مثل بلبيس وزفتى وميت غمر .. ويتم إغتيال مدينة الصالحية من أجل الإسماعيلية الجديدة .. وكان أشهر قتال بين مدن مصر فى تلك الفترة .. هو ذلك القتال الذى أسفر عن هزيمة رشيد أمام الإسكندرية .. وهزيمة دمياط أمام بورسعيد .. حتى قيل أن موانى الطمى إنكسرت أمام الموانى الصلبة .. وذلك لأن مدينتى دمياط ورشيد تقعان جغرافيا داخل دلتا النيل .. وكانت الحالة الإقتصادية المتنامية تستدعى بناء موانى جديدة على أرض صلبة .. فوقع الإختيار على الإسكندرية وبورسعيد .. وهو التحول الذى وصفه الدكتور جمال حمدان قائلا (٣) : إستبدلت مصر البوابات الطينية القديمة ببوابات حجرية جديدة وأضاف الدكتور جمال حمدان .. أصبحت الإسكندرية هى بوابة مصر الذهبية فى حين كانت بورسعيد هى بوابة مصر الحديدية .. ويمكننى أن أضيف إلى ما قاله الدكتور جمال حمدان أن الصراع لم يتوقف عند هذا الحد وإنما إستدارت القوتان الجديدتان .. الإسكندرية وبورسعيد .. لتتنافس وتواجه كل منهما الأخرى .. ولولا محصول القطن وتجارته وإرتباطه بميناء الإسكندرية .. لبقيت الحرب طويلا ولتغير تاريخ المدينتين وشكلهما نهائيا وحتى اليوم .

ولم يبق ذلك كله بالطبع قاصرا على مجرد مساحة تتضاعف .. وبيوت ومبان يبنيها الناس أو الحكام .. وطرقات تمتد وخطوط للسكك الحديدية تتشعب لتتلاقى .. وإنما كانت كل مدن مصر بلا إستثناء تخوض رحلة تحول وتغير تشمل كل معالم الحياة ونواحيها .. وبإيقاع صاخب لاهث لا

---

(١) د. حلمى أحمد شلبى – فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨
(٢) مجلة المنار – باريس – عدد ١٩٨٧/٩
(٣) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – العدد ٥١٠ – ١٩٩٣

يكاد يلتقط أنفاسه .. حتى أنه يمكنني التأكيد على أن حجم التغيير الذى شهدته كل مدينة مصرية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .. يفوق ما شهدته أى مدينة منهم طوال عمرها أو عمر مصر الطويل .. يمكنني التأكيد أيضا على أنه ما من مدينة مصرية كان بإمكانها أن تستثنى نفسها وتغلق الباب على صغارها وكبارها لتتغير وتتبدل بإيقاع يناسبها .. خاصة وأن دائرة التغيير لم تكن جغرافية أو إدارية فقط .. وإنما كان تغييرا إنسانيا وإجتماعيا ونفسيا وأخلاقيا أيضا .. وبدا أن مدن مصر كلها تود وتسعى إلى أن تخلع ثياب الريف التى إرتدتها من قبل كثيرا وطويلا .. كلها باتت تشتهى تلك المدنية الساحرة المثيرة القادمة من الشمال .

وقد إرتبطت بهذا التغيير ظاهرتان أساسيتان لا يمكن تجاهلهما .. الظاهرة الأولى كانت هجرة كثير من الفلاحين إلى المدن .. والظاهرة الثانية كانت إنتقال الأجانب والغرباء للإقامة فى تلك المدن بعد أن كانت إقامتهم من قبل فى مصر قاصرة على القاهرة والإسكندرية .

الظاهرة الأولى هى التى خلقت لنا فى مصر مجتمعا جديدا .. هو مجتمع المدن وسكانها .. وأضافت وجها ثالثا لمصر التى كان من الممكن قبل ذلك التاريخ تقسيمها إلى العاصمة والريف فقط .. صحيح أن باقى مدن مصر كان الكثير منها على قيد الحياة قبل ذلك التغيير وقبل هجرات الفلاحين المتعددة والمتعاقبة .. إلا أنها كانت كلها مدنا هامشية يمكن حذفها أو تجاهلها فوق خريطة مصر .. فعلى سبيل المثال .. فى أيام الحملة الفرنسية .. وفى الوقت الذى زاد فيه عدد سكان القاهرة عن ربع المليون نسمة [1] .. كانت دمياط هى أكبر مدينة مصرية فى ذلك الوقت مع أن عدد سكانها لم يتجاوز العشرين الف نسمة .. وتلتها مدينة المحلة الكبرى وكان عدد سكانها سبعة عشر الف نسمة .. ثم الإسكندرية ورشيد وبلغ عدد سكان كل منهما خمسة عشر الف نسمة .. وسنكتشف بالقراءة فى باقى القائمة أنه بإستثناء أسيوط وطنطا .. فلن نجد مدينة مصرية أخرى يزيد عدد سكانها عن العشرة الاف نسمة .. وسنكتشف أيضا أن ملوى وجرجا ومنوف كانوا من المدن الكبرى التى تجئ فى الترتيب بعد أسيوط وطنطا .. وأن مدينة الجيزة مثلا لم يتجاوز عدد سكانها الثلاثة الاف نسمة .. تماما مثل مدينة بلبيس .

ثم رحل الفرنسيون .

وجاء عصر محمد على الحالم والطامع فى إمبراطورية مصرية .

فكانت النهضة الصناعية والإقتصادية والتجارية .. وإرتبط ذلك بشبكة مواصلات ضخمة إمتدت تربط بين تلك المدن وتختصر بينها المسافات .. وكانت خطوط السكك الحديدية هى العامل الحاسم والنهائى فى كل معالم التغيير وملامحه فى أى مدينة مصرية .. فدخول القطار لأى مدينة منهم .. كان يعنى أولا زيادة نشاط تلك المدينة الإقتصادى والتجارى والمعمارى .. ويعنى ثانيا زيادة معدلات الهجرة إلى تلك المدينة من القرى القريبة منها حيث جاء الفلاحون والفقراء يدقون أبواب المصانع الجديدة ويحلمون بتلك الحياة الجديدة .. وهذا ما حدث مثلا مع مدينة الإسكندرية .. التى إحتفلت فى شهر يناير عام ١٨٥٦ بوصول أول قطار قادم إليها من مدينة القاهرة [2] .

وبعد عامين فقط كان ثانى خط للسكك الحديدية فى مصر يربط بين القاهرة والسويس .. ثم إمتد الخط الثالث فى عام ١٨٥٩ من طنطا إلى المحلة الكبرى وسمنود .. وفى عام ١٨٦٠ إمتد

---

(١) د. جمال حمدان - القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٥١٠ - ١٩٩٢

(٢) د. حلمى أحمد شلبى - فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨

خط جديد من بنها إلى الزقازيق .. وبعد خمسة أعوام .. تم ربط الزقازيق بمدينة قليوب عن طريق بلبيس .. وفى عام ١٨٦٩ .. تكونت شبكة خطوط شرق الدلتا التى بدأت بخط يربط الزقازيق بالمنصورة وأبو كبير والسنبلاوين .. وبإنتهاء عهد سعيد باشا .. كانت كل مدن الوجه البحرى قد ربطت بينها شبكة متعددة من خطوط السكك الحديدية .. أما فى الصعيد .. فقد بدأ العمل فى مد أول خط فيه للسكك الحديدية عام ١٨٦٧ .. وبعد سبعة أعوام .. إمتد ذلك الخط من القاهرة إلى أسيوط .. ثم سوهاج وجرجا وقنا .. ووصل إلى أسوان عام ١٨٩٨ .. وساعد ذلك على رواج حركة التجارة بين تلك المدن بعضها وبعض .. وبينها وبين القاهرة .. ساعد على ذلك أيضا قيام شركة التليفون الشرقية الإنجليزية فى عام ١٨٨٣ بمد خطوط التليفون (١) فى القاهرة وفى الإسكندرية أولا .. ثم على الترتيب فى مدن بورسعيد والسويس والزقازيق والمنصورة وطنطا .. وفى عام ١٩٠٢ .. كان أول إتصال تليفونى بين القاهرة والإسكندرية .

ولم يساعد النشاط التجارى والصناعى .. ووسائل المواصلات التى إختصرت المسافات .. على هجرة الفلاحين فقط .. وإنما جاءت بالأجانب أيضا .. فقد كان من نتائج مشروعات التنمية والعمران التى أقامها الخديوى إسماعيل فى مدن مصر .. وإزدهار تجارة القطن .. أن إستمر تدفق المهاجرون الأجانب إلى سائر المدن المصرية (٢) .. وزاد عددهم حتى باتوا يشكلون ربع سكان المدينة أحيانا (٣) فى مدن مثل الإسكندرية وبورسعيد والسويس وفقا لتعداد عام ١٩٠٧ .. وتواجد هؤلاء الأجانب بنسبة أقل فى مدن أخرى مثل المنصورة ودمنهور وشبين الكوم والزقازيق وطنطا .

وقد إرتبط وجود هؤلاء الأجانب فى مختلف المدن المصرية بغرس أفكارهم وقيمهم وعاداتهم فى ضمير كل مدينة عاشوا فيها وإستوطنوها .. ساعدهم على ذلك أن تلك المدينة لم تكن قديمة جدا .. بل كانت فى ذلك الوقت لا تزال فى مرحلة التكوين .. وكانت كل مدينة منهم لا تزال تسعى جاهدة لتشكيل ملامحها ورؤاها وتصيغ ضميرها وتستكمل كتاب عاداتها وتقاليدها التى كانت تستجمعها من بقايا سكانها الأساسيين القدامى .. ومن هؤلاء الفلاحين القادمين من القرى .. وأخيرا من هؤلاء الغرباء القادمين من أوروبا .

ومن قبيل التجنى والمبالغة الإشارة إلى أن هؤلاء الغرباء كانوا عراة .. أو أن القيم والعادات والتقاليد التى غرسوها فى نسيج وضمير المدينة المصرية .. كانت قيما عارية وعادات وتقاليد جنسية فاضحة .. وإنما إنحصر دور هؤلاء الغرباء والأجانب فى تشكيل هوية ثقافية جديدة يسودها القلق والإضطراب والحيرة .. هوية باتت يوما بعد يوم تفقد أصالتها القديمة وتتشتت ما بين جذور فرعونية قديمة أزاح الستار عنها العالم الفرنسى شامبليون .. وبين جذور إسلامية عاش بها المصريون طويلا .. وبين حضارة جديدة ومختلفة جاءت من أوروبا تغير الكثير .. والكثير جدا من معالم الحياة بداية من أسلوب تناول الطعام وحتى مواد القانون الذى يرجع إليه الناس فى إختلافهم وإختصامهم .

أما الجنس .. فلم يرتبط بشكل مباشر بهؤلاء الغرباء والأجانب .. اللهم إلا إستثناءات قليلة

---

(١) د. حلمى أحمد شلبى – فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨
(٢) مجلة المنار – باريس – عدد ١٩٨٧/٩
(٣) د. جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب – ١٩٨١

جدا .. منها على سبيل المثال .. ما يرويه كريستوفر هيرولد [١] عما حدث فى أيام الحملة الفرنسية حيث كانت بعض المصريات تحت ضغط الحاجة والإشتهاء تلجأ لممارسة الدعارة فى معسكرات الفرنسيين .. ويحكى كريستوفر عن وصف الجاويش فرانسوا لمعسكر الفرنسيين فى بلبيس .. وكيف زودت كانتينات المعسكر بالفطائر الفرنسية والنبيذ وعرق البلح .. وبالعاهرات للترفيه عن الضباط والجنود .

وبعد الفرنسيين .. كان الإنجليز .. وتحكى لنا الراقصة حكمت فهمى [٢] التى إعتقلها الإنجليز بتهمة التجسس لصالح الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية .. كيف تم إعتقالها بمدرسة الطليان فى المنصورة حيث كانت مديرة المعتقل تقيم الحفلات الماجنة لضباط سلاح الطيران الإنجليزى حيث كانت السجينات يضطررن للترفيه الجنسى عن هؤلاء الضباط .

وقبل الفرنسيين والإنجليز .. يقول الدكتور على السيد محمود [٣] أن المدن المصرية إمتلأت بأعداد كبيرة من الجوارى المسيحيات الأوروبيات - والأرمنيات بوجه خاص - وكيف مارست أعداد كبيرة منهن الدعارة .

وهى كلها حوادث وحالات .. لا تكفى للتأكيد على أن الغرباء والأجانب قد تدخلوا بشكل مباشر وحاد لتغيير قيم المصريين وعاداتهم الجنسية .. ففى مقابل هؤلاء الأجانب ونزواتهم .. لم يكن سكان مدن وأقاليم مصر كلهم فى ذلك الوقت شعبا من الملائكة .. بل كانت هناك إستثناءات ضد كل القيم وقوانين الدين وضوابط المجتمع .. وكانت هناك حالات سقوط وتردى وإنهيار مصرية صميمة لا دخل للأجانب بها .. فالدكتور لويس عوض مثلا .. يحكى لنا [٤] كيف كانت كل مدينة من مدن الصعيد تضم شارعا مخصصا للدعارة .. وكان هذا الشارع فى مدينة المنيا يسمى " نمرة ٣ " وفيه إنتشرت المقاهى المضاءة بالكلوبات .. فى حين كانت البيوت مضاءة بالكهرباء .. وأمام أبواب تلك البيوت كانت النساء من مختلف الأعمار يقفن فى ملابسهن الخليعة التى لم تكن أكثر من قمصان نوم مبتذلة وعلى وجوههن المساحيق والألوان الفاقعة .. ويضيف الدكتور لويس عوض متذكرا تجربته الجنسية الأولى فى بنى سويف .. حيث إلتقطته إحدى الفتيات وصعدت به إلى غرفة بالطابق العلوى مضاءة ليس بها إلا سرير وكنبة وكرسى وبعض الأوانى والمناشف .. وما أن أغلقت الفتاة باب الحجرة حتى بادرت فخلعت قميص نومها وتمددت فوق السرير عارية تماما فى إنتظار لويس الشاب الذى جاء من المنيا ليؤدى فى مدرسة بنى سويف الثانوية إمتحانات الثانوية العامة فى أواخر شهر مايو عام ١٩٣١ .

وتتعدد الحكايات عن الدعارة وبيوتها وشوارعها وحواريها فى معظم المدن المصرية .. ولعل أشهرها هى الحكاية .. أو القضية المقيدة بجدول محكمة جنايات الإسكندرية تحت رقم ٩٣ لسنة ١٩٢١ .. وهى التى إشتهرت فيما بعد بقضية ريا وسكينة .. وأصبحت واحدة من أغرب القضايا فى تاريخ مصر الإجتماعى الحديث .. وأشهر حالة تزوير أيضا .. فالحكاية لم تكن مطلقا حكاية قتل نساء لسرقة مصاغهن كما إدعى أو تخيل الكثيرون .. وإنما كانت قضية جنس وإنحطاط

---

(١) كريستوفر هيرولد - بونابرت فى مصر - ترجمة فؤاد اندراوس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦

(٢) حسين عيد - مذكرات حكمت فهمى - كتاب الحرية - رقم ٢٥ - ١٩٩٠

(٣) د. على السيد محمود - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨

(٤) د. لويس عوض - أوراق العمر - مدبولى - ١٩٨٩

وحالة نادرة إرتبطت فيها الدعارة بالدم والموت .. ولو عدنا إلى أوراق القضية الحقيقية [١] بعيدا عن الفيلم أو المسرحية وأكاذيبهما .. فسوف نكتشف أن البيوت الأربع التى تم فيها إرتكاب جرائم القتل .. كانت بيوتا للدعارة غير الرسمية وغير المصرح بها قانونا فى ذلك الوقت .. وأن كل الضحايا كن من العاهرات ولسن مطلقا مجرد نساء كان ذنبهن الوحيد هو كثرة ما تحلين به من مصاغ أغرى ريا وسكينة - ومن معهما - على قتلهن .. وهذا ما أكدته محكمة جنايات الإسكندرية قبل النطق بالحكم حيث قالت .. أن المجنى عليهن كن من طبقات وضيعة .. ضاعف من وضاعتهن وإسفافهن تجردهن من الشرف وإحتراف الدعارة .. وهذا هو ما هيأ الظروف لإرتكاب تلك الجرائم .. حيث كانت البغايا يذهبن إلى بيوت المتهمين فى الخفاء .. متبرجات بكامل زينتهن .. حفيات شبقات بمحض إرادتهن لممارسة الفجور .

ومن أوراق القضية أيضا .. نكتشف أن الحكاية بدأت بهجرة ريا وسكينة من أقصى الصعيد إلى بنى سويف إلى كفر الزيات إلى الإسكندرية .. ريا تزوجت من حسب الله تاجر الحشيش أما سكينة الأصغر سنا فكانت تمتهن الدعارة .. وأخيرا إستقر بهم المقام فى حى اللبان .. حى الدعارة الخاص بمدينة الإسكندرية حيث كانت العاهرات يتجمعن أول الليل فى جنينة قسم اللبان فى إنتظار طالبى المتعة .. وهذا هو السر إعتياد أهل الإسكندرية فى ذلك الوقت تسمية العاهرات بستات الجنينة .. وفى ذلك المكان إلتقت سكينة بعبد العال الذى كان أحد فتوات وبلطجية الحى وعاشرته ثم تزوجته .. وقرر الأربعة ممارسة القوادة .. فأسسوا بيوتا للدعارة فى سوق العصر وقرب جامع الفحام وفى العيونى وفى شارع مكوربيس وخلف قسم اللبان .. وتطور نشاط الأربعة من مجرد القوادة وتقديم العاهرات لمن يدفع الثمن .. إلى ترتيب اللقاءات المحرمة بين الرجال وزوجات الآخرين .. ولعل ذلك هو ما دفعهم للتفكير فى قتل الخائنات والعاهرات للإستيلاء على مصاغهن .. وقتلوا بالفعل سبعة عشر إمرأة آخرهن كانت فردوس حمد الله العاهرة البالغة من العمر ثلاثين عاما .. والتى كانت قبل قتلها عشيقة أحد الرجال الإنجليز .. ووفقا للتحقيقات والأوراق الرسمية .. لم تقتل ريا أو سكينة أية إمرأة .. وإنما كان حسب الله وحده هو من قام بقتل خمسة عشرة إمرأة .. وقبل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقه .. وقف حسب الله مبتسما مؤكدا أنهم لو تركوه سنة أخرى لكان قتل كل عاهرات الإسكندرية .. وأضاف .. العواهر دول كانوا بيخونوا رجالتهم وأزواجهم ويبيعوا أعراضهم علشان ربع ريال أو شلن .

أى أننا نخرج من تلك الحكاية بأن مدينة الإسكندرية .. مثلا .. فى العشرينيات من هذا القرن لم تكن المدينة الفاضلة .. ولم تكن أيضا مدينة الخطايا والذنوب .. وإنما كانت مدينة مصرية تعين عليها أن تعيش القرن الثامن عشر كله وهى تجرى .. لم يمنحها أحد مطلقا فرصة واحدة طيلة هذة الأعوام للتوقف والتأمل وإلتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب الأوراق والقيم والأفكار من جديد .. ولم يكترث أحد بآثار تلك الفوضى التى عاشتها الإسكندرية .. فوضى بدأت بالتحديد الساعة الثانية صباحا فى اليوم الثانى من شهر يوليو عام ١٧٩٨ .. حين وضع جنود نابليون بونابرت أقدامهم على رمال شاطئ العجمى يحاولون تحقيق حلم نابليون بإحتلال مصر وإقامة إمبراطورية

---

(١) دراسة أعدها عن القضية عبد السميع سالم الهوارى نشرتها مجلة الأمن العام فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٦/١٠ .. وهناك دراسة أخرى لصلاح عيسى نشرتها جريدة صوت الكويت التى كانت تصدر من لندن بتاريخ ١٩٩٢/١٠/٢٢ .. وإضافة جديدة لإبراهيم عيسى نشرتها مجلة روز اليوسف الصادرة بتاريخ ١٩٩٣/٨/١٦

فرنسية فى الشرق .. يومها لم تكن الإسكندرية أكثر من مجرد قرية صغيرة [١] .. شوارعها ضيقة متعرجة .. بيوتها متهدمة ومتآكلة .. يسكنها ثمانية الاف نسمة معظمهم من الفقراء .. يعيشون قانعون بحالهم وحال قريتهم أو مدينتهم التى كانت فى عهد البطالمة مدينة كبرى .. زينة مدن الشرق وعروس البحر الأبيض كله سواء على ساحل الجنوب الأفريقى أو الشمال الأوروبى .. وكان من الممكن أن تستمر بهم الحياة وبقناعاتهم لولا نابليون .. الذى بقدر ما إقتنع تلك الأيام بأن مصر هى أهم بلد فى الدنيا .. بقدر ما أثبت الواقع أن الإسكندرية فى طريقها لأن تكون أهم مدينة فى مصر .. غادرها آخر الفرنسيين .. الجنرال مينو فى أول أكتوبر عام ١٨٠١ .. وتصارعت عليها ثلاث قوى .. العثمانيون والمماليك والإنجليز الذين إحتلوا المدينة بالفعل قبل أن يضطروا للجلاء عنها وتسليمها لمحافظها خورشيد باشا .. وسرعان ما تصبح الإسكندرية هى المدينة الوحيدة التى يحكمها ويملكها العثمانيون فى مقابل المماليك الذين يسيطرون على باقى مصر .. ثم ينهى محمد على الصراع والفوضى فى القاهرة ومصر كلها ليجلس على عرش مصر فى الثالث عشر من شهر مايو عام ١٨٠٥ .. التاريخ الذى لا تنساه الإسكندرية مطلقا .. فقد كان موعد هذه المدينة مع قدرها ومصيرها ودنياها الجديدة .. فبعد أن أعاد محمد على ترتيب كل الأوراق .. صدر قراره فى الحادى والعشرين من إبريل عام ١٨٢٠ ببدء حفر ترعة المحمودية تيمنا بإسم السلطان العثمانى محمود الثانى .. وبسريان الماء فى تلك الترعة بعد عامين كانت الإسكندرية القديمة .. بتألقها وتوهجها وأناقتها .. وكأنها تولد من جديد أو تخرج من البحر أو من كتب التاريخ .. كانت الإسكندرية تخرج إلى الحياة مرة أخرى .. وبأوامر من الباشا محمد على .. تم إعلان الحرب على ميناء رشيد .. وأن تبحر المراكب المشحونة بالغلال إلى ميناء الإسكندرية بدلا من رشيد .. وبتعليمات من الباشا محمد على أيضا .. تم إعفاء الأجانب الذين توافدوا على الإسكندرية من أية قيود كان يخضع لها كل الأجانب فى مصر قبل محمد على .. فأصبح من حق الأجانب فى الإسكندرية إرتداء ملابسهم فى حرية .. وركوب الخيل .. وممارسة كل تفاصيل حياتهم وشعائر دينهم .. وأدى ذلك كله إلى أن يتوافد الكثير من هؤلاء الأجانب على الإسكندرية .. ومعهم يجئ الكثير من المصريين أيضا .. ومن ثمانية الاف نسمة كانوا هن كل سكان الإسكندرية فى أول أيام الحملة الفرنسية .. زاد الرقم إلى خمسة عشر الف نسمة .. وفى عام ١٨٤٠ أصبح عدد سكانها ستين الف نسمة .. وفى أقل من أربعين عاما كان هذا الرقم يقترب من الربع مليون .. لتصبح الإسكندرية لأول مرة فى التاريخ الحديث .. ثانية المدن المصرية – بعد القاهرة – من حيث الضخامة والإتساع وعدد السكان والأهمية الإقتصادية والسياسية والعسكرية .. وتصبح الإسكندرية [٢] أيضا هى عاصمة الأجانب فى كل مصر .. إلى حد أن هذة المدينة إفتتحت القرن العشرين وفيها ستة وثمانين الف أجنبى يشكلون قرابة ربع سكانها .. وهو الأمر الذى دفع بالمفكر الكبير جمال حمدان لأن يؤكد أن الإسكندرية فى تلك السنوات بدت كمدينة أوروبية أكثر منها مصرية .. ومع ذلك فلم تكن القضية هى شكل الإسكندرية وما إذا كانت تبدو أوروبية أو مصرية .. القضية والمشكلة الحقيقية كانت أن الأجانب فى الإسكندرية .. لم يمارسوا حياتهم كضيوف أو غرباء .. وإنما إستقروا وأقاموا كما لو كانوا يؤسسون لهم على

---

(١) د. عبد العظيم رمضان – تاريخ الإسكندرية فى العصر الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣
(٢) جمال حمدان – شخصية مصر – عالم الكتب – ١٩٨١

شاطئ بحر الإسكندرية وطنا جديدا ودائما وأبديا .. يونانيون وإيطاليون وفرنسيون وإنجليز .. بنوا المدارس والكنائس .. وإفتتحوا الملاهى ومحلات التجارة بمختلف أشكالها ومجالاتها .. حتى جاء زمان الإحتلال الإنجليزى لمصر .. والذى بدأ أيضا بالإسكندرية .. بالتحديد فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٨٨٢ .. وبعد قصف إستمر من الساعة السابعة صباحا وحتى السادسة مساء .. وما إن إنكسر العرابيون ودخل الإنجليز الإسكندرية .. ثم مصر كلها .. حتى زاد عدد أجانب الإسكندرية .. وزاد وجودهم إستقرار وتأثيرا على حياة وسلوك المدينة .. ولم يلتفت أحد إلى أية نتائج سيسفر عنها هذا الزواج المستحيل بين الشرق والغرب فى العادات والتقاليد والسلوك .. وإذا كان أحدا لم يجد فى قضية ريا وسكينة إلا حكاية مثيرة وشيقة عن الخطف والموت والدم والنساء اللواتى وارين أنوثتهن التراب مع جثث ضحاياهن .. فإن هذة القضية فى حقيقتها .. كانت أول إشارة مؤكدة وحزينة وقاسية على مساحة الإنحلال التى تزايدت .. والقيم التى تخلخلت .. والدعارة التى إستشرت وبات لها أول ملف رسمى تحتفظ به محكمة جنايات الإسكندرية .

ويبدو أن ذلك التجاهل وعدم الإكتراث أصبحا قدر الإسكندرية الحزين معنا ومع مصر فى كل عصر وفى أى وقت .. فمنذ أن تركناها تجرى لمجرد أن تلاحق أحلام محمد على وطموحاته .. لم تسترح الإسكندرية مطلقا أو تتوقف حتى لتلتقط أنفاسها .. بعضنا رآها مجرد طابية عسكرية .. وبعضنا تعامل معها على أنها مجرد ميناء للقطن والغلال .. معظمنا أرادها دمية جميلة ليس لها من فائدة سوى الترفيه عن القاهرة وحكام القاهرة وأهل القاهرة .. حين تزداد قسوة صيف القاهرة فى كل عام .. أو حين يصبح الهروب من زحام العيون والهمسات القاهرية .. وسيلة مؤكدة للإستمتاع بالحياة ومباهجها من جديد .

وهكذا .. ووفقا لهذا المنطق .. جاء عام ١٩٣٤ ليشهد (١) إنشاء طريق الكورنيش على شاطئ بحر الإسكندرية بطول عشرين كيلو مترا من قصر المنتزة شرقا إلى رأس التين غربا .. وتنشط الحكومة فى بناء أكشاك الإستحمام والحمامات والإستراحات .. فتنتشر الكازينوهات والملاهى .. وبنفس هذا المنطق .. جاء من ينزع أشجار التين التى غرسها البدو الفقراء حول ضريح سيدى العجمى .. العاصى الذى أثقلته ذنوب الدنيا وخطاياها .. فتاب إلى الله وإعتزل دنياه ليموت عند شاطئ البحر .. ويدفن فى ضريح لا يزوره إلا من إعترته وإعتصرته الهموم .. أو من لا تنجب فتأتى إلى سيدى العجمى بدون ثياب داخلية تحمل فى يديها التين والخبز والزيتون .. حتى جاء أول الغرباء منذ خمسين عاما .. التاجر والسمسار عبد المنعم هانو (٢) .. لم يكن مهموما أو مجروحا .. ولم يأت يحمل فى يده التين أو الزيتون .. إنما جاء يحمل الكثير من المال .. والرغبة فى الدنيا والإستمتاع بها .. فإشترى من البدو ثلاثة وعشرين فدانا من الرمال .. وبنى قصرا .. وأسس حيا عرفناه فيما بعد بإسم الهانوفيل .. أول أحياء العجمى .. ثم جاء الملك فاروق بنفسه إلى الشاطئ البكر .. ليلعب البوكر على ضوء عشرة الاف شمعة .. فيأمر برصف الطريق من الإسكندرية إلى العجمى فيزيد عدد الغرباء .. وتتضخم مساحة القصور والبيوت والإستراحات .. ويذهب التين والزيتون ويجئ الأغنياء والنجوم والمشاهير يؤكدون نفس الصورة القديمة ..

---

(١) د. عبد العظيم رمضان – تاريخ الإسكندرية فى العصر الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/١٠/٨ ، ١٩٩٢/٨/٢٤

الإسكندرية مدينة للمتعة والبهجة والإسترخاء .. صورة ستبقى معنا وفى داخلنا حتى وإن إختلفت ملامحها وتفاصيلها .. من شواطئ ستانلى ورشدى وجليم وزيزينيا .. إلى العجمى .. إلى حدائق المنتزة وشواطئ المعمورة .. إلى الساحل الشمالى .. وكأننا أمام مدينة أراد لها البعض - بقصد أو بدون قصد - أن تبدو أمامنا وكأنها لا تعانى .. لا تعرف الحزن أو الغضب .. لا تشكو الفقر أو التعب .. وكأن الإسكندرية ليست مدينة تشغل أربعين بالمائة من مساحتها الكلية [١] أكوام من عشش وأكواخ وبيوت عشوائية يقيم فيها مليونان من أهلها بلا بيوت أو مرافق أو خدمات .. واحد وأربعون منطقة عشوائية تبدو بأهلها ومعاناتها وكأنها شريط من ديناميت يحاصر الإسكندرية من المنتزة إلى أحياء شرق ووسط وغرب بالإضافة إلى العامرية وبرج العرب .. مناطق يسكنها فقراء إضطروا للتنازل عن كثير من القيم والقواعد .. ولم يجدوا خلاصا ووسيلة للبقاء إلا بتكسير كل القوانين .. الدينية والإجتماعية والأخلاقية .. ومن المفارقات المثيرة للحزن والرثاء .. أن تحمل واحدة من تلك المناطق إسم جبل المواساة [٢] .. لكنه فى الواقع يصبح جبل المعاناة .. حيث لا أحد هنا أو هناك بإمكانه أن .. يواسى فتيات يتعرضن بشكل دائم للإغتصاب تحت تهديد المطاوى [٣] .. وشباب تتوحش تحت جلودهم الرغبة والشهوة دونما حلم فى زواج وأسرة وبيت ومستقبل .. وعلى الرغم من تحذيرات الدكتورة سناء الخولى أستاذة علم الإجتماع[٤] للجميع بأن عشوائيات الإسكندرية .. ستؤدى يوما ما إلى مشكلة حرجة .. للإسكندرية نفسها وللدولة كلها .. ومن المؤكد أن الدكتورة سناء كانت تقصد - ومعها آخرون من أساتذة الجامعات والباحثين - أن المليونين .. والذين يزيدون كل عام سواء بالتكاثر أو بمهاجرين جدد .. لن يبقوا جميعهم ملتزمين مسالمين قانعين بمعاناتهم وحرمانهم وهم يشاهدون الرفاهية المصرية الجديدة تجيد الإستمتاع بالبحر والهواء الرقيق والطعام الأنيق والجنس الذى لم يعد يمارس فقط من أجل إنجاب أو حتى قضاء لرغبة ونيل نشوتها .. ومع ذلك .. لم يكن هناك من بدا عليه أى إهتمام أو إنزعاج .. تماما مثلما لم يهتم أو يكترث أحد بحقيقة ومشكلة أخرى يمكن تلخيصها [٥] فى أنه مقابل سبعين بالمائة من أهل الإسكندرية يعيشون فى شقق يملكونها أو يستأجرونها .. فإن الثلاثين بالمائة الآخرين لا تعيش كل عائلة منهم إلا داخل غرفة واحدة .. فيها يتكدس أفراد العائلة .. الأب والأم والأبناء شبابا كانوا أم فتيات .. معظمهم فى سن المراهقة والرغبة .. فتنتشر كل الوان الإنحراف من إدمان المخدرات أو تجارتها إلى تعاطى الزنا أو اللجوء إلى الإغتصاب .. يساعد على كل ذلك كل هذة التناقضات الإجتماعية الصارخة التى باتت تعيشها الإسكندرية دون أن يتنبه لها أحد .. تناقضات تبلغ قمتها حين نجد خمسة الاف أسرة تقيم كل منها فى فيلا مقابل قرابة الأحد عشر الف أسرة تقيم فى أماكن ليست معدة للسكن مثل الدكاكين والجراجات وفى أسفل سلالم ومداخل العمارات .. والفى أسرة تقيم فى أماكن أخرى لا ترقى لمستوى العشش أو الخيام .. ومع ذلك لا يصبح الأمر قاصرا على ممارسة المتعة على شواطئ الثروة والرفاهية .. ولا التفتيش عنها فوق قمم جبال الفقر والإحباط .. وإنما يبدو أن الجنس أصبح مشكلة مؤرقة للكثيرين أيا كانت

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/١٢/٩

(٢) مجلة الأهرام الإقتصادى - عدد ١٩٩٣/٨/٢٢

(٣) جريدة العربى - عدد ١٩٩٤/٣/٢١ ، جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٤/٢٠

(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/١٢/٩

(٥) ممدوح الولى - سكان العشش والعشوائيات - نقابة المهندسين - ١٩٩٣

مستوياتهم الإجتماعية أو الإقتصادية أو الأخلاقية .. وهذا هو ما يمكن أن نخرج به من متابعة قضايا الإغتصاب وممارسة الدعارة فى الثمانينات والتسعينات .

فالإغتصاب مثلا .. بدأت الإسكندرية الحديث عنه بصوت عال[1] فى عام ١٩٨٤ عقب قيام ثلاثة رجال فى شهر أغسطس بإغتصاب فتاة فى الثالثة عشر من عمرها فى ميناء البصل .. وقيام ثلاثة رجال أيضا فى شهر نوفمبر بإغتصاب طالبة فى الخامسة عشر من عمرها فى منطقة محرم بك .. ثم أصبح الإغتصاب أخيرا جريمة يرتكبها فقراء وأغنياء وعاطلون وعمال وموظفون وضابط شرطة .. وتروح ضحيتها فتيات ونساء من مختلف الطبقات .. من إمرأة فقيرة[2] تم إختطافها فى سيارة أجرة من محطة الرمل إلى حيث تم إغتصابها فى الطريق الصحراوى .. إلى سيدة تم إختطافها من شارع أبو قير ثم إغتصابها فى أحد بيوت العجمى وإجبارها على ممارسة البغاء مع الأجانب ستة أيام كاملة قبل أن تنجح فى الهرب[3] .. إلى محامية إختطفها أربعة من منطقة رشدى إلى شقة مفروشة فى سيدى جابر حيث إعتدوا عليها هناك ونصل مطواة كل منهم مغروس فى رقبتها[4] .. إلى سيدة إختطفها خمسة رجال من سيارة ميكروباس فى المنتزة[5] وذهبوا بها إلى منطقة المزارع حيث إغتصبوها هناك .

غير أن أهم – أو أشهر – جريمة إغتصاب شهدتها الإسكندرية فى الثمانينات .. كانت هى تلك الجريمة[6] التى على الرغم من أنها لم تكتمل ولم تنته بإغتصاب البطلة بعد أن تم إختطافها إلا أنها بقيت وعاشت طويلا فى ذاكرة الإسكندرية ممتزجة بالأسى والخوف .. بطلة الحكاية أو الجريمة التى أقصدها هى إلهام .. مندوبة المبيعات بإحدى الشركات والبالغة من العمر ستة وعشرين عاما .. والتى كانت فى مساء أحد أيام شهر أغسطس عام ١٩٨٥ عائدة إلى البيت فى سبورتنج حين إستوقفها ضابط شرطة يحمل رتبة ملازم أول يرافقه ثلاثة رجال يرتدون الملابس المدنية .. وطلب الضابط من الفتاة التوجه معه إلى القسم لبحث حالتها بزعم أنها تسير وحدها فى وقت متأخر .. لكنها بعد قليل إكتشفت أنهم ليسوا فى الطريق إلى القسم .. وإنما توجهوا إلى منطقة نائية قرب قرية أبيس التى تبعد عن الإسكندرية بخمسة عشر كيلو مترا .. حيث شرع الضابط ومن معه فى الإعتداء على الفتاة .. ولولا شجارهم وخلافهم على من يغتصبها أولا .. لما إستطاعت الفتاة الهروب منهم ممزقة الثياب متورمة الوجه تشكو جراحا وخدوشا فى الصدر والساقين .. ولما أحال المحامى العام لنيابات شرق الإسكندرية ضابط الشرطة ومن كان معه إلى محكمة الجنايات .

وإذا كانت المحكمة العسكرية العليا بالإسكندرية قد قررت فى عام ١٩٨١ الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة كعقاب لأربعة شباب إختطفوا[7] فتاة كانت تسير مع خطيبها فى فى أحد شوارع منطقة محرم بك وإغتصبوها .. فمن المؤكد أن ذلك لم يكن كافيا أو رادعا .. فقد بقيت الإغراءات أكبر .. والشهوة باتت أقسى من قضبان السجن المؤبد أو حتى من حبل المشنقة .. لهذا زادت

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/٢/٢٣
(٢) جريدة المساء – عدد ١٩٨٥/٢/٥
(٣) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/١٢/٢٥
(٤) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٢/١/٥
(٥) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٦/٢
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/١/٢٦ ، جريدة الأهالى – عدد ١٩٨٥/١٠/٢
(٧) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨١/٩/٩

أوجاع الإسكندرية .. وتكررت حوادث الإغتصاب فى مختلف الأحياء والنواحى .. وإلى الحد الذى تتكرر معه حادثة معادى القاهرة أمام محطة المنتزة فى الإسكندرية .. فيختطف ستة شبان فتاة كانت تنتظر الأوتوبيس (١) ويذهبون بها إلى إحدى الشقق حيث قاموا هناك بإغتصابها .. الفارق الوحيد بين حادثة المعادى وحادثة المنتزة أن ضحية المعادى بقيت عذراء بينما فقدت ضحية المنتزة بكارتها وأنوثتها وأمانها .. بل وكانت هناك جرائم إعتدى فيها الرجل على زوجة صديقه (٢) .. أو زوجة لرجل أعمال لم يختطفها أحد وإنما تعرضت للإغتصاب (٣) تحت تهديد السلاح داخل شقتها فى منطقة الرمل وأمام أطفالها الأربعة .. وأخيرا طفلة فى الثالثة من عمرها (٤) إغتصبها رجل من جيران أسرتها فى حى باب شرق

ومثلما تطورت وإتسعت دائرة جرائم الإغتصاب .. وزاد عدد ضحاياها سواء كانوا من الرجال أو النساء .. كانت دائرة الدعارة تتسع بالمقابل وتتبدل قوانينها وطقوسها وملامح عاهراتها وقواديها وزبائنها أيضا .. هذا ما نخرج به من متابعة قضايا الآداب فى الإسكندرية منذ الثمانينات .. فنكتشف أنها فى إزدياد دائم .. يزداد أيضا عدد شبكات المتعة وبيوت البغاء والقوادين .. بل ويتم القبض على أجانب أيضا يبيعون الرذيلة لأغنياء وفقراء الإسكندرية (٥) .. ومثلما كانت قضية إغتصاب ضابط شرطة لإحدى الفتيات هى أشهر جرائم الإغتصاب فى الإسكندرية .. فقد باتت شبكة زيزى للدعارة هى أشهر جرائم الدعارة والآداب (٦) .. شبكة تضم إثنتين وعشرين فتاة وإمرأة .. تقودهم سيدة مجتمع تدعى زيزى هانم .. كانت زوجة لأحد كبار الموظفين بالإسكندرية .. طلقها لسوء سلوكها .. فلم تعد تكتفى بسوء سلوكها هى وإنما أصبحت تتاجر بسوء سلوك الآخريات .. بالمتعة التى تبيعها ليس لأغنياء الإسكندرية فقط .. وإنما لكبار الشخصيات الهامة من ضيوف الإسكندرية أيضا .. نفس المبدأ القديم .. الإسكندرية كمجرد ملهى كبير لإمتاع والترفيه عن أثرياء القاهرة وكبارها .. وقد تم تسجيل الكثير من المكالمات التليفونية بين هؤلاء الأثرياء والكبار من الإسكندرية أو القاهرة وبين زيزى هانم .. وإذا كان مديرى الفنادق الكبرى بالإسكندرية قد قرروا عقب هذة القضية إقامة دعوى قضائية ضد وزيرى الداخلية والسياحة يطالبون فيها بتعويض مناسب عما لحق فنادقهم من خسائر من جراء إقتحام شرطة الآداب للفنادق وضبط كبار النزلاء مع عاهرات زيزى .. فإن أحدا لم يكترث بخسائر الإسكندرية نفسها .. بدموعها وجراحها وهمومها .. ببناتها اللواتى يعشن كل يوم تلك المواجهة الصعبة والقاسية مع واقعهن الذى فاض بالإثارة والرغبة .. صحيح أن معظمهن قاومن أى إغراء أو إثارة .. وكتمن رغباتهن إنتظار لمشروع زواج مؤجل .. إلا أنه بالمقابل لم يكن عددهن قليلا أولئك اللواتى عجزن عن المقاومة .. فكانت هناك من إستسلمت وتعرت .. إما من أجل المال وإما سعيا وراء الوهم .. مثل تلك الفتاة التى من أجل إحتراف التمثيل .. أسلمت نفسها وجسدها (٧) لممثل شاب كان يشارك فى إحدى مسرحيات الصيف .. وتكتشف الفتاة بعد أسبوع كامل أرهقت

(١) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/١١
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٤/١٢/١٤
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٠/٣/٦
(٤) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/١٢
(٥) د. عبدالله عبد الغنى غانم - البغايا والبغاء - المكتب الجامعى الحديث - ١٩٩٠
(٦) جريدة الوفد - عدد ٢٦ /١٩٨٦/٦، جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٦/٦/٢٣
(٧) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨١/٨/٧

الفتاة خلاله جسدها للترفيه عن الممثل وأصدقائه أنها لم تعد بالنسبة لهم أكثر من مجرد عاهرة وساقطة .. تركوها تلملم ثيابها ودموعها بمجرد أن عادوا إلى القاهرة .. وغير البحث عن المال أو السعى وراء الوهم .. كانت هناك من سقطت نتيجة واقعها وظروفها التى لم تترك لها أية فرصة للإختيار .. مثل تلك الفتاة [1] التى هربت من بيت أسرتها وذهبت لتقيم مع ثلاثة من الشبان حتى إنتهى الأمر بشجار بين الثلاثة على جسد الفتاة المثير إنتهى بقتل أحدهما .. أو تلك الفتاة التى تصلح حكايتها كإختصار لحكايات الدعارة فى مدينة الإسكندرية .. فقد كانت [2] الإبنة الثانية لأب عربجى يعيش فى منطقة الرمل .. الأم توفيت بعد ولادتها بعامين .. لم تسمح لها ظروفها بالإلتحاق بالمدرسة .. بقيت فى البيت حتى بلغت السادسة عشرة .. ثم كانت خطوتها الأولى فى طريق الإنحراف عام ١٩٧٠ حين أصبحت متهمة فى قضية تحريض المارة على الفسق فى شارع بورسعيد .. وصدر ضدها حكم بالحبس لمدة أسبوع .. وتتكرر قضية تحريض المارة على الفسق أربعة مرات أخرى فى أقل من عامين .. وتصبح القضية السادسة فى عام ١٩٧٢ هى ممارسة البغاء فى أحد المنازل بمنطقة سيدى جابر .. والحكم هو الحبس ثلاثة شهور والمراقبة ثلاثة شهور أخرى .. ثم تسعة قضايا أخرى فى الإبراهيمية ما بين دعارة وتحريض على الفسق .. لكنها كانت تنال البراءة عقب كل قضية .. وفى القضية السادسة عشرة .. وكانت ممارسة الدعارة فى منطقة كليوباترا فى عام ١٩٧٦ .. صدر ضدها حكم بالحبس ثلاثة شهور وبالمراقبة ثلاثة شهور أخرى .. ويتكرر نفس هذا الحكم فى القضية الثامنة عشرة بعد ثلاثة أعوام وعقب القبض عليها تمارس الدعارة فى منطقة سيدى جابر .. وفى القضية العشرين عام ١٩٨٠ صدر ضدها حكم بالحبس لمدة سنة وبالمراقبة لمدة سنة أخرى .. وتتكرر قضايا الدعارة ليصل عددها إلى خمسة وعشرين قضية .. أما القضية السادسة والعشرين فى عام ١٩٨٥ فكانت التهمة هى تسهيل دعارة ساقطة أخرى بطريق الجيش فى منطقة باب شرق .. وفى القضية الثامنة والعشرين عام ١٩٨٨ كانت التهمة هى تسهيل الدعارة أمام جامع الشيخ بمنطقة سيدى جابر .. أى أننا بإختصار أمام حالة إنحراف بدأت بواقع مؤلم .. عجز عن مواجهتها المجتمع .. فشل فى ردعها قانون عاجز .. تنقلت فى مختلف أحياء الإسكندرية الغنية أو الفقيرة .. والأخطر من ذلك أن البداية كانت عاهرة واحدة إنتهى بها الأمر إلى قوادة مهمتها تسهيل دعارة فتيات جدد .. وكأننا أمام حلقة شيطانية مفرغة لا خلاص منها ولا نهاية لها .. ولا يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما نكتشف أن تلك العاهرة قد تزوجت بالفعل وأنجبت ولدا وبنتا .. وبإمكاننا أن نتخيل مصير هذا الإبن أو مستقبل تلك الفتاة .

وغير التى إستسلمت وسقطت .. كانت هناك من قررت الإنتحار خلاصا من الحياة كلها .. فكانت الحقيقة المؤلمة والمفزعة التى أعلنها مؤتمر عن العنف والجريمة إستضافته الإسكندرية [3] .. حيث أشارت الأرقام إلى أن عدد بنات الإسكندرية المنتحرات .. زاد بنسبة خمسين بالمائة فى خمسة أعوام فقط .. حتى باتت البنات يشكلن ستة وخمسين بالمائة من المنتحرين بالإسكندرية .. معظمهن تتراوح أعمارهن بين سن الخامسة عشر والخامسة والعشرين عاما .

---

(١) جريدة الوفد ـ عدد ١٩٩٤/٥/٣٠

(٢) د. عبدالله عبد الغنى غانم ـ البغايا والبغاء ـ المكتب الجامعى الحديث ـ ١٩٩٠

(٣) مجلة نصف الدنيا ـ عدد ١٩٩٠/٦/٢٤

ومن قبيل التعسف والتجني أن ننسب ذلك كله إلى ما جرى في مصر منذ ثورة يوليو وهزيمة يونيو وإنفتاح ما بعد أكتوبر .. لأن الإسكندرية لم تكن في حاجة إلى كل هذا الذي جرى لتبدأ رحلة المعاناة والشكوى والألم .. فقد كان واضحا أن مشوار الإسكندرية الطويل عبر مائتي عام .. كان قاسيا جدا ومرهقا جدا ومربكا أيضا .. ومن المؤكد أن الخلل الذي شهدته هذة المدينة الجميلة في الثمانينات والتسعينات .. كان قائما بشكل ما .. قبل تلك السنوات بزمن طويل .. ففي الوقت الذي بدأت فيه الإسكندرية تجري .. كانت النساء والفتيات – كما وصفهن الفرنسيون (١) أثناء حملتهم على مصر – يرتدين جلبابا واحدا .. أزرق في العادة .. يسرن حافيات الأقدام عاريات السيقان .. يلطخن حواجبهن بالكحل .. ويصبغن أظافرهن بالحناء .. يكشفن في مرح عن أي عضو من أعضائهن .. إلا وجوههن لا يكشفن عنها مطلقا .

شهادة .. قالها رجال غزاة في حق نساء أول مدينة مصرية وعربية وإسلامية يدخلها المسيحيون الأوروبيون في العصر الحديث .. شهادة لا يمكن الوثوق فيها والإستناد إليها أو عليها بشكل مطلق .. خاصة وأن الأستاذ والمؤرخ الكبير على باشا مبارك لم يتعرض لتلك الشهادة بالإثبات أو الإنكار .. ولا قدم لنا شهادته هو عن الإسكندرية وأهلها في كتابه القيم عن هذة المدينة وتاريخها (٢) .. ومع ذلك ممكن أن نخرج من تلك الشهادة بأن القناعات الدينية والأخلاقية تحت جلد الكثيرات والكثيرين .. لم تكن مؤهلة مطلقا لتحمل كل الصدمات الحضارية والإجتماعية التي كانت في طريقها إليهم .. لم تكن مؤهلة لإستقبال الفرنسيين .. ولا طموحات محمد علي .. ولا عصر الأجانب والغرباء الذين إنتشروا في كل شوارع المدينة وطرقاتها .. وعلى الرغم من ذلك .. لم يلتفت أي حاكم مصري مطلقا للحالة الإجتماعية في الإسكندرية .. كل الإصلاحات كانت سياسية أو إقتصادية أو إدارية أو معمارية .. وبالتالي كانت الإسكندرية من أقل المدن المصرية إستعداد لثورة يوليو بكل تغييراتها الإجتماعية والأخلاقية .. بل إن الإسكندرية إستقبلت ثورة يوليو بقضية جرت معظم وقائعها من عام ١٩٤٧حتى عام ١٩٥٢ في مشتل محطة القباري بالإسكندرية (٣) .. صحيح أن تلك القضية لم تحظ بشهرة وإهتمام قضية ريا وسكينة .. إلا أنها كانت مثلها تماما .. إرتبط فيها الجنس بالدم بالموت .. ولكن لأن قضية المشتل لم تكن فيها نساء يبحثن عن الذهب بقدر ما ينشدن المتعة والنشوة .. ولأنها لم تضم رجالا مثل حسب الله وإنما رجل واحد قتل عشيقاته ومعهن نصف رجل .. فإن أحدا لم يهتم بمتابعة تفاصيل وأسرار تلك القضية التي على الرغم من أن عدد ضحاياها كان أقل من عددهم في قضية ريا وسكينة .. إلا أن القضية الثانية إستعاضت عن ذلك النقص بأنها إلى جانب الخيانة والدعارة .. أزاحت الستار لأول مرة – وبشكل رسمي أيضا – عن جرائم وممارسة الشذوذ الجنسي في مدينة الإسكندرية .. أزاحت الستار أيضا عن حاجة الإسكندرية الملحة لإعادة الحسابات من جديد .. وهو الأمر الذي بات صعبا في الخمسينات والستينات .. وبدا مستحيلا .. بعد إنفتاح السبعينات وفوضى الثمانينات .. فكان على المدينة أن تجني ثمار ذلك كله في التسعينات وتغدو وحدها مدينة تختصر كل هموم مصر وأوجاع شبابها وفتياتها .. بل وتصبح عاصمة لتناقضات مصر .. تصبح مثلا

---

(١) د. عبدالعظيم رمضان ـ تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٩٣
(٢) على مبارك ـ الخطط التوفيقية لمدينة الاسكندرية ـ مكتبة الاداب ـ ١٩٨٩ ـ عن طبعة بولاق الصادرة عام ١٨٨٩
(٣) مجلة الأمن العام ـ عدد ١٩٨٨/١٠

ملاذا لمتطرفي مصر يجيئون إليها من الصعيد وباقى المحافظات يحتمون بها بعيدا عن عيون الأمن (١) فتراكمت فى شوارع وبيوت الإسكندرية بعض المشاكل الجنسية للجماعات الأصولية .. ومن ناحية أخرى تشهد الإسكندرية فى منتصف الثمانينات .. طبيبا فى الرابعة والستين من العمر (٢) .. يدعى النبوة ويعيد تفسير القرآن وفقا لمفاهيمه وإحتياجاته هو .. فيحل لنفسه ولأتباعه إرتكاب كل المعاصى بما فيها الزنا .. ويجتمع حوله للأسف واحد وثلاثون رجلا وإمرأة معظمهم من حاملى الشهادات الجامعية .

وفى المقابل تصبح الإسكندرية إحدى محطات الشباب والفتيات المصابين بالإيدز .. وإلى الحد الذى معه تعلن محافظة الإسكندرية (٣) إكتشاف تسعة حالات إصابة بهذا المرض بين طلبة جامعة سنجور الأفريقية .. وإكتشاف فتاة مغربية مصابة بالإيدز أقامت كثيرا من العلاقات الساخنة مع شباب المدينة .. وهددت بعد القبض عليها بنشر الإيدز القاتل بين كل شباب الإسكندرية على سبيل الإنتقام .. ثم يتضح أن عددا ليس قليلا من عاهرات الإسكندرية مصابات أو حاملات لفيروس الإيدز .. وتم القبض عليهن بالفعل وإيداعهن مستشفى الحميات .. إلا أن المفاجأة المذهلة كانت قرار المستشفى بالإفراج عن هؤلاء العاهرات .. وإعلان رجال أمن الإسكندرية عدم إختصاصهم حيث لم يتم القبض على هؤلاء العاهرات فى حالة تلبس (٤) .. وكانت الكارثة الأكبر هى مطالبة بعض المسئولين .. بإغلاق مثل هذا الملف الشائك نهائيا حتى لا تتأثر السياحة فى المدينة .. فما كان من رجل – ستتذكره الإسكندرية طويلا بعد ذلك بكثير من التقدير والإحترام – هو الدكتور رمضان أبو العلا .. إلا أن ذهب إلى مجلس الشعب فى القاهرة بإعتبازه عضوا به عن دائرة الجمرك ليطالب بفتح الملف من جديد .. وليقول تحت قبة البرلمان أن من كان يقصد الإسكندرية لممارسة الدعارة أو الإنحلال .. فالإسكندرية ليست فى حاجة إليه ولا هى على إستعداد للترحيب به .

وما بين أولئك وهؤلاء .. بقى غالبية الشباب والفتيات يواجهون بقليل من الأحلام وكثير من اليأس والغضب هذا الواقع الصعب والذى زاد من صعوبته وقسوته أن أصبح الجنس تجارة رائجة إشتهى مغانمها ومكاسبها الكثيرون .. تجارة لم تقتصر على الدعارة فقط .. وإنما كانت هناك الأفلام الجنسية أيضا .. وعلى سبيل المثال .. تم القبض على موظف بالمعاش (٥) يتاجر فى تلك الأفلام وإلى الحد الذى إكتشف رجال الشرطة ساعة القبض عليه فى شقته أكثر من خمسمائة فيلم عارى وفاضح .. ثم يتبين فى التحقيقات أن كل أو معظم زبائن هذة الأفلام من الشباب والمراهقين .. وحتى الذين جرت بهم أعمارهم .. فتجاوزوا عذابات وجراح المراهقة .. وتزوجوا وأسسوا بيوتا وعائلات تسعى إلى المستقبل وتتطلع إليه .. حتى هؤلاء لم يأمنوا ذلك الواقع وكان منهم من لم يستطع مواجهته .. فتعددت حالات وحكايات السقوط والخيانة .. كلها تتشابه .. كلها تتشارك فى بداياتها التى هى الرغبة لا يكبح جماحها شئ .. والشهوة لا يحدها دين أو عرف أو قانون .. لكن ليس من الضرورى أن يصبغ الدم كل تلك الحكايا والخطايا فى

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٤/٥/٣٠
(٢) جريدة السياسة – الكويت – عدد ١٩٨٥/٢/٢٠
(٣) جريدة المسلمون – لندن – عدد ١٩٩٤/٥/٢٧
(٤) جريدة الأهرام المسائى –عدد ١٩٩٤/٥/٨
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/١٢/٢٤

النهاية .. ولا هى كلها ستنتهى مثلما إنتهت واحدة منها بجريمة إهتزت لها الإسكندرية كلها حين قامت نادية (١) بقتل زوجها الذى هو إبن عمها أيضا ووالد طفلها الصغير .. فقط لتنال حرية ممارسة الجنس مع عشيقها كلما أرادت .. وكانت نادية البالغة من العمر ثلاثين عاما قد إدعت قيام ثلاثة من اللصوص بالسطو على المنزل فى سيدى جابر .. وحين حاول زوجها مقاومتهم أطلقوا عليه ثلاثة رصاصات أودت بحياته .. ثم تبين أن للزوجة عشيق .. طالب جاء من المنيا ليدرس فى المعهد العالى للخدمة الإجتماعية ويستأجر حجرة مفروشة أمام شقتها .. تبين أيضا أن الزوجة ضاقت بزوجها الذى كان وجوده يحول بين لقائها بعشيقها كلما إحتاجت ذلك .. لهذا إتفقت مع العشيق على أن تدس المخدر لزوجها فى كوب الشاى .. ثم يأتى العشيق ليطلق عليه النار .. وأسوأ ما فى الأمر أن أول شاهد ضد الزوجة كان طفلها الصغير الذى قال أمام النيابة – فى عفوية وبراءة – أن هذا الشاب كان يأتى كل يوم إلى بيتهم .. بعد أن يغادره الأب متوجها إلى عمله .. وغير نادية التى زنت فسقطت فقتلت .. كانت هناك زوجة أخرى (٢) وأم لطفلين .. غاب عنها زوجها لمدة أربعة شهور قضاها فى بورسعيد فى مهمة عمل .. بعدها عاد الزوج ليجد زوجته قد خلعت ثيابها وإرتدت بدلا منها بدلة للرقص وإحترفت العمل فى الكازينوهات والأفراح .. فذهب الزوج إليها فى محاولة أخيرة لإقناعها بترك الرقص من أجل بيتها وأطفالها .. لكنه وجدها مع أربعة رجال .. فولى زمن الإقناع ولم يبق إلا الدم والسكين المغروسة فى الجسد العارى .. وتلقى نفس هذا المصير زوجة أخرى من الإسكندرية أيضا .. لم يقتلها الزوج وحده .. وإنما قتلها زوجها وشقيقها وإبن عمها بعد أن تعددت حالات سقوطها وخياناتها .. وفى المنتزة .. شاهد سيد أوكة السباك (٣) خطيبته رابحة أبو فدان .. الفتاة الريفية التى عقد قرانه عليها مؤخرا .. فإقتادها إلى بيته وقيدها بالحبال ومارس معها كل ما أمكنه من تعذيب وعنف حتى إعترفت الفتاة بأنها على علاقة بكثير من الشباب فى الإسكندرية وأنها كانت فى طريقها للقاء بعضهم .. وبقى سيد يعذب خطيبته حتى ماتت فإستعار منشارا وساطورا إستخدمهما فى تمزيق جسدها وألقى ببقاياه فى أربعة أماكن متفرقة .. وبجوار محطة سكة حديد الإسكندرية .. شوهد رجل عجوز وإمرأته يلقيان بطفلة رضيعة لا يزيد عمرها عن أيام قليلة بجوار شريط القطار .. ثم تبين إن إبنة الإثنين قد سقطت فزنت فحملت فوضعت .. وقام الجد والجدة بإلقاء نتاج الخطيئة إنقاذا لسمعة إبنتهما .. أما مبروكة أبو بكر .. الأم التى بلغت الثامنة والثلاثين من العمر .. فلم تستطع إنقاذ غفران خطايا عبير التى لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها .. وإنما جاءت بكوب من الآيس كريم وخلطته بالمبيدات الحشرية القاتلة وأعطته لإبنتها (٤) .. وما إن سرى السم فى شرايين الفتاة حتى بدأت تتأوه وتتألم وتبكى وتصرخ .. فأغلقت الأم باب الغرفة بالمفتاح عليها وعلى إبنتها .. وجلست الأم فى هدوء وجمود تراقب إبنتها وهى تموت فى بطء وبالتدريج .

وبالرغم من ذلك .. بالرغم من كل هذه الجراح والمخاوف والدماء وبشاعة الخيانة والإستسلام والسقوط .. لم تكن فاتورة حساب الإسكندرية هى أغلى فواتير المدن المصرية خلال الخمسة وعشرين عاما الأخيرة .. وإنما كانت هناك مدينة خسائرها أكبر .. ومعاناتها أشد .. وواقعها

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – د ١٩٩٤/٤/١٥ ، جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٤/٤/٢٠

(٢) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/١٠/٢٤

(٤) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٢/١٠/٢٤

أكثر قسوة وإيلاما وعذابا .

كانت هناك مدينة بورسعيد .

أول مدينة فى مصر السبعينات رقصت فوق سطح الصفيح الساخن .. أول مدينة تمت دعوتها للإنضمام لنادى الحرمان والمعاناة .. أول مدينة طلبنا منها دفع حصتها فى الثمن وفاتورة الحساب .

بقرار سياسى .. تحولت بورسعيد إلى مدينة حرة .

بسرعة .. تحولت المدينة الهادئة إلى سوق .

بإصرار وترصد .. تحولت مدينة النصر والشهداء والصمود .. إلى دكانة للجينز واللبان والأناناس المعلب .

ومثلما يحدث فى مصر دائما .. نتخذ القرار ثم ننسى عواقبه .. نخطئ ولا نبالى بمن سيدفع الثمن .. وكان الذى دفع الثمن هذه المرة كثيرون جدا .

فى الواقع كان هناك أكثر من ثمن .. وأكثر من فاتورة حساب .

مصر كلها دفعت ثمن قرار المنطقة الحرة .

دفعت مصر الثمن من إقتصادها وعافيتها ورغيف خبزها .

أما بورسعيد .. فقد تحملت وحدها الثمن الأخلاقى للزمن الإنفتاحى الذى بدأت تعيشه منذ الساعة الثانية عشرة من مساء ليلة الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٩٧٥ .

شباب تركوا مقاعدهم فى المدرسة وخرجوا إلى السوق والشارع مبكرا جدا .. وبعد أن كانت بورسعيد من المدن القليلة فى مصر التى تستوعب مدارسها كل الأطفال فى سن التعليم (١) .. بات هؤلاء الأطفال يهجرون مدارسهم بصورة تزايدت عاما بعد آخر .. ولم يعد هناك ما يغريهم على البقاء فى فصولهم وعدم الذهاب إلى السوق .. فذهب الكثيرون منهم بالفعل .. وإنتفخت جيوبهم بالمال .. الكثير جدا من المال .. وبهذا المال حاولوا إستكمال رجولتهم المبكرة .. مخدرات ونساء .. ودخل كثيرون منهم تلك الدائرة المفزعة .. مزيد من الإدمان يخلق مزيدا من الرغبة .. ويشتعل الجسد بالرغبة فيطفئونها بالحشيش والأقراص المخدرة والهيروين .. وبالجنس مهما كان الثمن أو المقابل .. ولم يبق الأمر قاصرا على شباب بورسعيد فقط .. وإنما أصبحت المدينة الحرة مقصدا لكثير من الشباب ومن الأطفال (٢) .. يهربون من عائلاتهم وبيوتهم ومدنهم يحشرون أنفسهم فى أية عربة أو قطار فى الطريق إلى بورسعيد .. يعيشون حياة التشرد والتسول .. يبحثون عن أية فرصة عمل .. عن أى مأوى للإقامة .. عن أى جسد لإطفاء الرغبة .

وفى المقابل .. كانت هناك فتيات تجسد فى عيونهم الحرمان والفقر أكثر من غيرهن .. فخارج بورسعيد كانت الدنيا الأخرى الجميلة الخرافية الساحرة لا تبدو إلا فى صفحات المجلات أو على شاشات التليفزيون .. لكن فى بورسعيد .. لم تكن هناك حاجة لمجلة أو تليفزيون .. فكل شئ كان فى متناول العين لا اليد .. واجهات المحلات الأنيقة كانت دعوة مباشرة للإنحراف .. لم تنحرف بالطبع الغالبية العظمى من بنات بورسعيد .. لكن كان هناك إنحراف .. وكانت هناك بنات فقدن بسرعة قدرتهن على المقاومة .. فقدن إتزانهن وبكارتهن .. تحولت كل واحدة منهن إلى طبق من

---

(١) فريدة النقاش – يوميات المدن المفتوحة – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٧

(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٤/٤/١٣

الرغبة يشتهيه أى رجل .. وما أكثر الرجال فى بورسعيد ذلك الوقت الذين كانت تنفتح شهيتهم أمام تلك الأطباق .. وليس هناك دليل على ذلك أوضح من قلة عدد جرائم الإغتصاب فى المدينة الحرة .. وندرتها أحيانا وإقتصارها على حالات شاذة كأن يقوم ثلاثة شباب [1] فى بورفؤاد بإغتصاب طفلة صغيرة تلميذة فى الصف الأول الإبتدائى .. أو قيام إثنين من الشباب بإغتصاب أكثر من جاموسة فى أحد الزرائب الخاصة [2] فى حى المناخ .. أو قيام ستة أشخاص [3] بإختطاف فتاة داخل عربة حنطور فى طريق بورسعيد دمياط .. وتهديدها بقتل إبن شقيقتها الرضيع الذى كان برفقتها إذا ما رفضت الإستسلام لهم .. فما كان من الفتاة إلا أن تركت لهم إبن شقيقتها وهربت منهم لتبلغ رجال المباحث الذين قبضوا عليهم وأنقذوا الطفل .. وحتى قضية إتهام حارس مرمى بأحد أندية بورسعيد الرياضية بالإعتداء على إحدى القاصرات [4] .. لا تبدو فى النهاية قضية إعتداء وإغتصاب بقدر ما تبدو كأزمة وقضية إنحلال وسقوط .. فالفتاة التى من المفترض أنها الضحية .. ثبت أنها مدمنة للبانجو .. وكانت غائبة عن البيت منذ خمسة أيام .. وبرفقتها مجموعة من الفتيات الصغيرات تملك إحداهن سيارة يطفن بها شوارع المدينة فى أى وقت بحثا عن مزيد من الترفيه .. ولم يثبت أن حارس المرمى قد إعتدى عليها بالفعل .

وفى المقابل .. وبقدر ما كانت قلة جرائم الإعتداء والإغتصاب وندرتها فى بورسعيد .. بقدر ما كانت حكايات الدعارة وجرائم الآداب تزداد .. والشهادة هذة المرة لصحفى من بورسعيد إسمه شيرين دحروج .. نشر شهادتها مجلة بورسعيد الجديدة [5] .. ومن المؤكد أن شيرين بدأ رحلتها بالتقليب فى الملف رقم ١٠٦ آداب بورسعيد .. والذى يتضمن تفاصيل ووقائع القبض على أخطر شبكة للدعارة فى المدينة .. فإنتهت الرحلة به وبنا إلى أن نضع جميعا أيدينا على واحدة من أخطر وأقسى أوجاع بورسعيد وجراحها .. فقد إكتشف شيرين أثناء رحلته فى قاع مدينتها .. وفوق قمتها أيضا .. كثرة عدد الرجال الذين ينشدون المتعة والنشوة على أعتاب العاهرات والساقطات .. على الرغم من قيمة وظائفهم وأهميتها ومساحة ثرواتهم وضخامتها .. رجال مفترض أنهم فوق مستوى الشبهات .. وكانوا ظاهريا فى منتهى التقوى والصلاح .. كأساتذة الجامعات والتجار الكبار .. إكتشفت شيرين أيضا أن الدعارة فى بورسعيد – مثل أية صناعة أو تجارة رائجة – تفتش عن الجديد والمثير دائما للقضاء على الملل .. فكان الجديد هذة المرة هو دعارة التليفون التى راجت فى بورسعيد مؤخرا .. حيث العاهرة تتحدث مع عميلها تليفونيا .. تثيره أولا .. تحكى له عن المتعة والشهوة والرغبة .. عن مغامراتها الساخنة وذكرياتها العارية .. ثم تحكى له كيف بدأت تشرع فى خلع ملابسها قطعة بعد أخرى .. تصف له جسدها وإستمتاعها وكيف ستصل معه وبه إلى النشوى .. وهى قطعا لن تصل إلى شئ وإنما هو الرجل الذى إستمتع بذلك ودفع الكثير ثمنا لذلك .. والجديد أيضا كان الدعارة بعقود طويلة أو قصيرة الأجل .. أى أن تتفق العاهرة مع أحد العملاء على عدد معين من اللقاءات خلال شهر أو أكثر مقابل مبالغ كبيرة قد تصل أحيانا إلى خمسين الف جنيها .. وبالرغم من ذلك .. لم يقتصر الأمر على إستحداث

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/١٠/١٥
(٢) جريدة بورسعيديون – عدد ١٩٩٢/١٢
(٣) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٢/١٢/١
(٤) جريدة مصراوية – بورسعيد – عدد ١٩٩٤/٤
(٥) مجلة بورسعيد الجديدة – عدد ١٩٨٩/١٠

طرق ومفاهيم جديدة للعهر .. وإنما تبين أن هناك عصابات منظمة مهمتها توريد فتيات ونساء بورسعيد لممارسة الدعارة فى القاهرة أو خارج مصر .. منها عصابة قاد نشاطها كل من مدير سابق لكازينو الليل فى شارع الهرم ومعه صاحب أحد أكبر أندية الفيديو فى مصر .. حيث كان الإثنان يديران عملياتهما القذرة فى كل من بورسعيد والقاهرة .. نساء للدعارة فى المدينة الحرة ونساء أخريات للدعارة فى القاهرة .. وفتيات يقمن بتصوير أفلام الفيديو الجنسية لترويجها فى مصر كلها .. هذا غير عقد الصفقات الخارجية التى تسافر بمقتضاها كل من تملك مواهب جسدية متميزة لتمارس دعارتها وإبتذالها فى البلاد العربية .

أما حكاية الملف رقم ١٠٦ آداب بورسعيد .. فهى حكاية شبكة .. أو واحدة من أخطر شبكات الدعارة فى بورسعيد .. شبكة تقودها شقيقتان تنتميان لإحدى العائلات الفقيرة فى مدينة زمن الإنفتاح .. فلم تملك الشقيقتان أية قناعة أو قدرة على الصبر .. ولم يكن لديهما إستعداد لتحمل الفقر والحرمان وسط سوق الرفاهية الذى إنتصب فى كل مكان حولهما وفى مدينتهما فى الليل والنهار .. يغرى الكثيرين والكثيرات بالأضواء اللامعة والألوان الفاقعة .. فمارست الإثنتان الدعارة .. وباعتا جسديهما لتجار بورسعيد الأثرياء وأبنائهم .. وحتى حين تزوجت إحداهما رجل أعمال فى دولة قطر .. لم يقنعها ذلك بالتوبة والتعفف .. وإنما كانت تجئ فى كل صيف إلى بورسعيد لتمارس الدعارة .. وجاءت خطورة هذة الشبكة من أن الشقيقتين أوقعتا بكثير من الرجال وكثير جدا من الشباب .. وكانت لا تمل ولا تكف إحداهما عن الطواف بشارعى البحر والجمهورية فى سيارتها الذهبية اللون تجلس فيها .. بثوب قصير وفاضح يكشف عن ساقيها وصدرها .. يسبقها عطر غال ومتوحش .. فيلهث خلفها الشباب ويتنازعونها إلى حد الإقتتال والعنف وإختلال موازين الحياة الإجتماعية فى بورسعيد دون أدنى قدر من المبالغة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما هناك شهادة أخرى .. أيضا تجئ على لسان أهل بورسعيد أنفسهم وأيضا تتعلق بالدعارة وقضايا الآداب [1] .. تتعلق على وجه التحديد بشبكة جديدة للدعارة فى بورسعيد تضم ثمانية عشر رجلا وسيدة .. تتزعمها سيدة زوجة موظف كبير لا تتعامل إلا مع الشخصيات الهامة .. وتبين أن الجديد الذى تضمنه نشاط الشبكة هذة المرة كان الدعارة وحفلات الجنس الجماعية التى تقام فى فيلا وكيل أول وزارة .. وكان أيضا عدد الفتيات الصغيرات اللواتى أقبلن على بيع أجسادهن وقبلن تعريتها من أجل المال والإستمتاع بكل ما تفيض به المدينة الحرة من متعة ورفاهية .

ولست أقصد بذلك أن الدعارة فى بورسعيد إقتصرت على شبكات وعصابات كبيرة تتاجر ببكارة الفتيات الفقيرات تبيعها للكبار والأثرياء .. إنما قصدت الإشارة إلى مناخ عام .. أصبح يسمح بذلك .. يساعد على ذلك .. وأكثر من ذلك .. فالحكاية ليست شبكة وقوادة وعاهرة ورجل يملك المال بقدر ما يملك الرغبة .. ولكنها حكاية السقوط على القمة وفى القاع أيضا .. حتى الطبقة المتوسطة .. بدأت تتآكل أمام طوفان الإغراءات والإثارة .. ومن المؤكد أن أمانى كانت إحدى نساء تلك الطبقة .. زوجة [2] فى الثانية والثلاثين من العمر لم تعد تطيق قناعة زوجها بحالتهما وحياتهما وهى التى ترى فى كل مكان حولها الثياب الغالية والبيوت الأنيقة والسيارات

---

(١) مجلة بورسعيد الجديدة - عدد ١٩٩٢/١١

(٢) جريدة بورسعيديون - عدد ١٩٩٢/١٢

الفخمة .. فتم الطلاق .. وفى الدائرة الجمركية بميناء بورسعيد .. بدأت أمانى رحلة تحقيق احلام الحياة الحلوة .. وطدت علاقتها برجال الأعمال والتجار المترددين على الميناء .. وبدأت تعرض عليهم جسدها المثير مقابل المال .. بدأت تستقبلهم بالفعل فى شقة جديدة إستأجرتها لذلك بمنطقة الخمسة الاف فى حى الزهور .. ولأنها كانت تسعى وتحتاج إلى الكثير جدا من المال .. فقد باتت على إستعداد لإستقبال أى وكل رجل .. حتى ذاع صيت تجارتها لينتهى الأمر كله لا بتحقيق الأحلام وإنما بالقبض عليها عارية فى الفراش مع أحد تجار قطع غيار السيارات لا يزيد عمره عن الثانية والعشرين عاما .. والأكثر حزنا فى الحكاية كلها أن أمانى لم تذهب خلف القضبان إلا بعد أن خلفت وراءها إبنة فى التاسعة من عمرها كانت تشاهد كل شئ وتعرف كل شئ .. ومن المؤكد أنها هى أول من سيدفع فى المستقبل القريب ثمن كل شئ .

ومن الواضح أن تأثير مثل هذا المناخ قد إمتد ليشمل حتى متطرفى بورسعيد وأعضاء جماعاتها الإسلامية .. فهناك حكاية يرويها (١) صابر شوكت .. الصحفى بجريدة أخبار اليوم وصاحب التجربة المثيرة مع وداخل بعض الجماعات الإسلامية .. بطل الحكاية هو الأخ عبد الناصر الذى كان يعمل مع الشيخ جمعة .. أحد زعماء الجماعة الإسلامية فى بورسعيد .. فى تهريب البضائع من المنافذ الجمركية وبيعها بعد ذلك وإستغلال ثمنها وربح التهريب فى تمويل نشاطات الجماعة .. وبعد قليل أقنع الأخ عبد الناصر زوجته سيدة فى العمل معه بالتهريب .. بحيث يتقاضى الإثنان خمسة وعشرين جنيها يوميا لكل منهما .. لكن فوجئ عبد الناصر بزوجته تختفى .. ويبدأ البحث عنها بالمشاركة مع جميع الأخوة حتى تم العثور عليها - بعد تفاصيل وأحداث طويلة - فى منزل الأخ جمعة .. وجدوها ترتدى قميص النوم وبجوارها الشيخ جمعة وحولهما زجاجات الخمر .. فنشبت المعركة وتحاورت السلاسل والجنازير إلى أن إنتهى ذلك كله فى قسم شرطة المناخ .. وتبين أن الزوجة إستهوتها الالاف التى يربحها الشيخ جمعة يوميا .. ويبدو أن الشيخ أيضا كان يريدها لنفسه .. فتزوج الإثنان بعقد عرفى بينما كانت سيدة لا تزال على ذمة زوجها .

وأنا لا أريد التورط فأتناول مثل هذة الحكاية كقضية مسلم بها .. فقد يكون بها الكثير جدا من التهويل والمبالغة بقصد الإساءة والتشهير .. لكن بها على الأقل قدر من الواقع ومن الحقيقة .. وهو الذى أحتاج إليه للتدليل على قسوة هذا المناخ الذى تصعب مقاومته حتى فى ظروف وأجواء مفترض فيها الحرص على الإلتزام وتجنب الخطايا والفواحش .. مناخ كان لابد وأن تنتهى قسوته بهذا الخبر الحزين العابر الذى نشرته جريدة الأحرار (٢) .. وتضمن القبض فى بورسعيد على ثلاثة فتيات .. طالبات بالمرحلة الإعدادية يمارسن الخطيئة والدعارة فى إحدى الحدائق بحى شرق بورسعيد .. القى البوليس القبض عليهن وهن يجرين عاريات يحاولن إرتداء ثيابهن .

ولا أحد بإمكانه أن يدرك قسوة هذا المناخ .. وسر كل هذا الذى حدث فى بورسعيد خلال العشرين عاما الأخيرة .. ويلمس بعقله وعينيه ووجدانه أوجاع وجراح هذة المدينة .. إلا إذا عاد إلى الوراء قليلا .. بالتحديد إلى منتصف نهار يوم الإثنين .. أحد أيام شهر أبريل عام ١٨٥٩ .. اليوم الذى أمسك فيه ديليسبس بأول فأس ينقل به أول حبة رمل معلنا بدء العمل فى حفر قناة

---

(١) صابر شوكت - إرهابى تحت التمرين - كتاب اليوم - ١٩٩٤

(٢) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٦/١٥

السويس .. يومها لم تكن هناك إلا قرية الفرما ذات الأربعة عشر بيتا ومنار وسد من حجارة يحجز مياة البحر .. القرية التى حذفتها قناة السويس من فوق خريطة مصر .. وغرست بدلا منها مدينة أكبر تليق بإسم الخديوى سعيد .. مدينة تأسست بمهاجرين قادمين من محافظات دمياط والشرقية والدقهلية .. جمع بينهم الدم والعذاب والفقر .. الفت بين قلوبهم الغربة والمعاناة وقسوة الأجانب والغرباء .. صهرتهم مواجهة الموت والرغبة فى الحياة .. بكوا جميعا وهم يوارون التراب مائة وخمسة وعشرين الف شاب ورجل ماتوا على مشارف بورسعيد من أجل أن يجرى الماء فى القناة .. ليصبح هناك فى النهاية لبورسعيد .. المدينة الجديدة .. أهلها الذين تعتز بهم ويفخرون هم بها .. فهى التى أعطتهم الكبرياء وعلمتهم الإنتماء وهم الذين خلقوا مدينتهم من جبال الطمى وحبات الرمل وموج البحر ونهر الدم .. لهذا من النادر أن نجد مدينة أخرى فى مصر ينتمى لها أهلها ويتعصبون لإسمها ولكل مافيها – حتى فريقها لكرة القدم – كل هذا التعصب الذى قد يصل إلى درجة الجنون .. مثلما نجده عند أهل بورسعيد .. وهو أيضا إنتماء تأصل بعد ثلاثة حروب كبرى خاضتها مصر ودفعت بورسعيد الكثير ثمنا للهزيمة فى تلك الحروب أو حتى للإنتصار فيها .. من أجل ذلك .. لم تكن بورسعيد .. من المدن المصرية التى تعرف الفوارق الطبقية الحادة ولا التشققات الإجتماعية المخيفة .. فالحكاية ليست أكثر من حى للأجانب والغرباء هو الحى الإفرنجي .. وحى أخر لأهل بورسعيد هو حى القبوطى .. ثم أصبحت المدينة أربعة أحياء .. حى بورفؤاد لموظفى هيئة قناة السويس .. والحى الإفرنجى للأغنياء سواء من أهل بورسعيد أو من الأجانب .. وحى العرب للطبقة الوسطى .. وحى المناخ لفقراء المدينة .. وأيا كان إسم الحى أو مستواه الإجتماعى والإقتصادى .. فالحياة عند الجميع لا تبدأ ولا تنتهى إلا بالبحر ومراكب البحر القادمة من بعيد أو مراكب أهل بورسعيد تجئ بالخير وبالزاد للصغار والكبار فى كل وقت .. وبإختصار صارت بورسعيد مدينة صغيرة .. تسكنها عائلة وحيدة كبيرة .. فيها أقل معدلات للجريمة .. أقل نسبة أمية فى مصر كلها .. حتى جاء الإنفتاح ومعه جاءت مفردات الزمن الجديد تنطق بها المدينة الجديدة .. التى إستحقت أن يسميها الشاعر الفلسطينى سميح القاسم .. وردة الدم .. حيث المال والطمع والقسوة والأنانية والرغبة والتوحش .. حيث الشوارع والبيوت الهادئة بدت كما لو أنها نتيجة تعويذة شيطان قد تحولت إلى غابة .. والمدينة التى إحتضنت صغارها فى الماضى .. لم يعد عليها فقط مواجهة أطماع ورغبات كثير من هؤلاء الصغار بعد أن توحشوا وتحاربوا .. وإنما كان عليها أيضا أن تواجه الاف الغرباء والمهاجرين الذين قدموا إليها من باقى محافظات مصر القريبة والبعيدة إما طمعا فى إقتسام الغنيمة مع أهل المدينة أنفسهم .. وإما هربا من ظروف قاسية وطاحنة حاصرتهم فى مدنهم ومحافظاتهم فلم يعد لديهم ما يخسرونه بالهجرة إلى بورسعيد أملا فى الحياة من جديد والحلم من جديد .. فأضيفت إلى مشكلات الإنفتاح والثروة المفاجئة والرغبة المتوحشة فى بورسعيد مشكلة أو قنبلة جديدة هى العشوائيات .. أربعة الاف وخمسمائة وثلاثين أسرة (١) تقيم فى عشش تناثرت فى أحياء المناخ والضواحى والعرب وبورفؤاد والشرق .. تجمعات مثيرة للخوف والإنزعاج مثل تجمع العشش فى منطقة القبوطى قريبا من مدخل الرسوة .. وتجمع العشش فى منطقة الجبل قرب الجبانة .

ويعطينا السيد عوض – فى دراسته عن عشوائيات بورسعيد (٢) – صورة أكثر وضوحا لتلك

(١) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٢

(٢) السيد حنفى عوض – الأحياء الحضرية المتخلفة المكان والسكان – دراسة سيكولوجية فى أحياء العشش بمدينة بورسعيد – ١٩٨٩

العشوائيات التى ينتمى نصف من يسكنها إلى مدينة بورسعيد نفسها بينما جاءت غالبية النصف الآخر من محافظات سوهاج وقنا والدقهلية والإسماعيلية .. ويعيش ربع هؤلاء السكان على دخلهم كموظفين بالحكومة أو القطاع العام .. وربع آخر يضم طوائف الحرفيين .. والربع الثالث يتكسب رزقه كباعة جائلين أو على الأرصفة أو كمهربى بضائع من المنافذ الجمركية .. وأبرز مشاكل هذه التجمعات هى .. صراع المراهقين من أجل إقامة علاقات عاطفية وجنسية مع المراهقات .. أو تطفل المراهقين وإقتحامهم للحياة الخاصة للأزواج .. مشاكل بدأ الحديث عنها منذ منتصف الثمانينات .. حين كانت هناك فى بورسعيد أربعة عشر ألف عشة يسكنها سبعون ألفا من أبناء بورسعيد أو غيرها .. كلهم [1] يعيشون حياة خارجة على القانون .. وبينهم تنشأ أجيال جديدة غير صالحة جسديا أو نفسيا أو أخلاقيا .

وبقيت بورسعيد تشكو نفس هذه المشاكل عاماً بعد آخر .. ثم أضيفت إليها مشاكل ومعاناة ستة عشرة بالمائة من عائلات بورسعيد [2] حيث تقيم كل عائلة بأكملها فى غرفة واحدة ضيقة لا تصون حرمة ولا تحتفظ بسر ولا تحترم أى حياء .. وكلها – أو معظمها – مشاكل جنسية بالمقام الأول .. أضيفت بقسوة إلى قائمة المشاكل التى بدأت بورسعيد تعانى منها فى زمن الإنفتاح .. لكنها لم تكن مشكلة واحدة أضيفت إلى القائمة .. كانت هناك مشكلة أخرى عانت منها – ولا تزال تعانى – كل مدينة مصرية .. ولم يكن هناك ما يدعو بورسعيد لأن تكون وحدها إستثناء من مواجهة تلك المشكلة .. مشكلة القيود التى خفت صوتها والضوابط الدينية والأخلاقية التى بات من السهل تجاوزها والتغاضى عنها .. بحيث أصبحت الخيانة إحتمالا قائما وممكنا فى كل وقت وتحت أى إدعاء أو مبرر .. وكثيرة جدا هى الحكايات من هذا النوع التى من الممكن أن يصغى إليها أحد فى شوارع بورسعيد أو مقاهيها .. حكايات ليست فى النهاية تعنى إلا أن هناك الكثير من الخلل .. الإجتماعى والنفسى والأخلاقى .. ولأنه ليس هناك من هو على إستعداد للتوقف والإكتراث بما يجرى .. فإن علينا أن نتوقع الكثير .. الأشد قسوة .. الأكثر إنهيارا سواء دينياً أو إجتماعيا أو أخلاقيا .. خاصة وقد تحولت بورسعيد إلى مخزن للعاطلين حيث ثلاثة وعشرون بالمائة [3] من أهل بورسعيد بلا عمل .. ولا مورد رزق .. نصفهم من الشباب الذى أنهى تعليمه وإضطر للتسكع على أرصفة الأحلام والأوهام يفتش عن ذاته وعن حياته وعن حقوقه .. فإن لم يجدها – ولن يجدها – فما الذى يمنعه حينئذ من التفتيش عن الرغبة .. أو المتعة .. التى قد تتأتى بثمن يقل كثيرا عن الوظيفة والبيت والأسرة .

أما الحديث عن الجنس فى محافظة الإسماعيلية .. فلا أعتقد أنه ممكن أن يبدأ أو ينتهى إلا بتلك الحكاية .. حكاية الأب [4] الذى ألقى ببناته الثلاث فى ترعة الإسماعيلية .. فغرقت إبنتان وإستطاع الأهالى إنقاذ الإبنة الثالثة .. وتبدأ الحكاية بهذا الأب الذى إمتلك مخبزاً فى مدينة فايد وإستقامت به الحياة مع أسرته الصغيرة التى كان عمادها بناته الثلاث .. حتى فوجئ الأب ذات يوم بأحد عمال المخبز وقد إغتصب إبنته الصغرى على الرغم من أنها لا تزال فى السادسة من

---

(١) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٨٥/١١/٤

(٢) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٢

(٣) جريدة الأهالى – عدد ١٩٩٤/٦/٢٢

(٤) اللواء د. محمد فتحى عيد – الأمان فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦ .. وكانت جريدة الأهرام قد سبقت الكتاب فى نشر تفاصيل الحادث فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢٢

عمرها .. فكانت قضية أحيلت أوراقها إلي محكمة الجنايات .. لكن لم تنته الحكاية بذلك .. إذ عاد الأب ليكتشف بعد ذلك أن نفس هذا العامل سبق له إغتصاب إبنته الثانية التى لا تزال فى السابعة من عمرها .. وإبنته الكبرى أيضا البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما .. فلم يتحمل الأب كل ذلك .. لم يعد بوسعه أن ينسى أو يغفر أو يسامح .. فجمع بناته الثلاث ووزع عليهن الطعام والحلوى .. ثم طلب منهن أن ينطقن بالشهادة .. وذهب بهن إلى شاطئ الترعة والقى بهن واحدة بعد أخرى فماتت إثنتان وكتب الله النجاة للإبنة الثالثة لتبقى بيننا شاهدة على مدى ما وصلنا إليه من قسوة وعنف .. وعلى مدى ما أصبحنا عليه من بلادة جعلتنا نتعامل مع مثل هذا الحادث وكأنه لا يعنينا ولا يخيفنا .. وكأننا لسنا أمام مأساة كانت – ولا تزال – تستدعى التوقف والإهتمام والإنزعاج أيضا .

مأساة تكررت مرة أخرى ولكن فى مدينة الإسماعيلية نفسها .. حين قام أب بقتل طفله (١) الذى لم يزد عمره عن عام واحد بعد أن إكتشف خيانة زوجته .. وساوره شك مزعج ومخيف حول نسب إبنه الذى لا يزال فى المهد .. فلم يجد خلاصا ولا هروبا من هذا الشك إلا أن يقتل هذا الطفل .. إنه لم يقتله فقط ولا كان يقصد مجرد إنهاء حياة الصغير وإلغاء وجوده .. وإنما كان رجلا يفتش عن الإنتقام أو يحتاج إليه .. كان يرسل تهديدا وإنذارا لمجتمع بأسره .. فقد تبين أن الطفل الصغير تكسرت عظامه وضلوعه .. تمزقت أحشاؤه وحناياه وتهتك الكبد والطحال .. غير بقع الدم التى صبغت كل شئ .

ثم تعود نفس المأساة وتتكرر من جديد .. فى مدينة القصاصين هذه المرة (٢) .. بعد أن زادت الحكايات التى تتناول سلوك فتاة فى السابعة عشرة من عمرها .. فقيل أنها تنتهز فرصة غياب أمها عن البيت فتذهب للقاء بعض الشباب .. وقيل أنها كانت تسافر أحيانا إلى مدينة الإسماعيلية للإستمتاع هناك أو لإمتاع الآخرين والغرباء .. وكان لابد وأن تنتهى تلك الحكايات عند أذن الأم فلم تصبر ولم تحتمل ولم تعتب ولم تشكو .. إنما إنتهزت فرصة إستغراق إبنتها فى النوم فإنهالت عليها ضربا بقطعة من خشب حتى غابت تماما عن وعيها .. ثم قامت الأم بشد وثاق الإبنة فى وضع القرفصاء وتركتها وذهبت لتشعل النار فى الفرن البلدى .. ولما تأكدت من توهج النار جاءت الأم بالإبنة المقيدة والقتها داخل الفرن حتى تفحمت جثتها تماما .

وبدا الأمر فى النهاية كما لو أننا نشهد فصلا جديدا من مسلسل قديم تدور كل أحداثه عن الجنس .. عن السقوط .. عن الإنهيار .. وقد تعمدت أن أختار ثلاثة حوادث مختلفة .. دارت كل منها فى مكان مختلف .. ووقائع كل منها مختلفة أيضا .. ما بين الإغتصاب والزنا والدعارة .. قد لا أراها تكفى لنقل صورة حقيقية عن واقع أصبحنا نعيش فيه .. لكننى أجزم أنها تكفى لأن نتعلم كيف نخاف ولماذا يتعين علينا أن نخاف .. وإذا كانت كلية الطب بجامعة قناة السويس قد قامت بدراسة علمية لإحدى مناطق مدينة الإسماعيلية لمحاولة قياس مدى إنتشار الأمراض والأزمات النفسية بين سكان المدينة وتبين بعد تلك الدراسة (٣) أن عشرين بالمائة من هؤلاء السكان يعانون من تلك الأمراض والأزمات .. فإننا لا نملك فى المقابل دراسة أخرى عن مدى

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٠/٩/٢
(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٣/١٠/٢٢
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/٤/٥

إنتشار الأمراض والأزمات الأخلاقية والجنسية .. لكنه ليس صعبا أن نتخيل أو نتوقع النتيجة دون دراسة .. ليس فقط إستنادا إلى الحوادث التى سبق وأن أشرت إليها .. وإنما كانت هناك حوادث أخرى .. كانت فيها الإسماعيلية مثلها مثل أية مدينة أخرى .. تشكو من الخيانة .. من شبكات الدعارة التى زاد نشاطها فى كل النواحى لكن بصورة أكبر ومعدل أسرع فى حى الشيخ زايد على سبيل المثال .. من جرائم الإغتصاب سواء تلك التى إعتدناها .. أو من ذلك النوع الذى لا يزال قادرا على أن يثير دهشتنا .. كأن يقوم أحد الرجال بإغتصاب طفلة فى التاسعة من عمره (١) .. أو تأتى من كفر الشيخ طالبة فى السابعة عشرة من عمرها لقضاء أجازتها عند خالتها فى مدينة الإسماعيلية .. فما كان من إبن الخالة – الحاصل على دبلوم زراعة ويشكو البطالة – إلا أن حاول إغتصابها (٢) .. وحين لم تمكنه الفتاة من نفسها .. إنهال عليها طعنا بمطواة كانت معه حتى ماتت .

وغير الإغتصاب وجرائمه سواء أصبحت معتادة أو بقيت إستثنائية .. كانت هناك مظاهر أخرى لما بدأت تعيشه مدينة الإسماعيلية من خلل .. فهذة المدينة التى بدأت تشكو (٣) من المعاكسات التليفونية فى منتصف الثمانينات .. جاءتها سنوات التسعينات لتشكو إنتشار أفلام الجنس بعدد هائل وبشكل مزعج ومخيف إلى حد تداولها فى المدارس الثانوية (٤) .. وإلى حد أن يستبدل الشباب معاكسات التليفون القديمة بهذة الشرائط العارية والفاضحة .. مثل قيام طالب ثانوى بالإنتقام من فتاة رفضت أن تبادله الحب .. فقام بكتابة إسم الفتاة ورقم تليفونها على تيترات الأفلام الجنسية بإعتبار تلك الفتاة هى المنتجة .. وبإعتبارها أيضا ساقطة تدير بيتا للدعارة .. هذا كله غير أزمات ومشاكل الجنس والرغبة التى تشكو منها سبعة عشر الف أسرة فى محافظة الإسماعيلية تقيم كل أسرة منها فى سكن مشترك أو داخل غرفة واحدة .. أزمات ومشاكل صارت مع الوقت بعضا من مواجع مدينة لا زالت – بعد كل تلك السنوات – تفتش عن هويتها .. يخنقها العجز والفساد .. يعتصرها الخوف والألم .

وفى السويس .. لم يكن الواقع أكثر قدرة على المقاومة أو التعفف .. بل على العكس .. بدت السويس وكأنها مدينة فقدت قدرتها على المقاومة منذ منتصف الثمانينات .. أو بدت كما لو أنها بدأت تضيق بنسياننا الدائم لها وتجاهلنا المزمن لأزماتها وأوجاعها .. فإرتفع صوت شكاواها ومعاناتها .. وأصبحت السويس هى أول مدينة تبدأ معها وبها مصر ظاهرة إستخدام الزوجات القاتلات لأكياس النايلون فى تعبئة أشلاء وبقايا جثة الزوج القتيل ونثرها فى مختلف الزوايا والأركان .. جرى ذلك حين سقطت إحداهن وأسلمت جسدها وشرفها لرجل غريب تحول إلى عشيق (٥) ولكى يخلو لها الجو مع عشيقها قامت الزوجة بقتل الزوج وقطعت جثته إلى أجزاء صغيرة وضعتها فى أكياس نايلون القت بها فى ختلف نواحى وأرجاء المدينة .. أصبحت السويس أيضا هى أول مدينة من أقاليم مصر المنسية والمهملة تشهد (٦) ثلاثة حوادث إغتصاب فى أسبوع

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٦/٢٧
(٢) جريدة الأهرام المسائى –عدد ١٩٩١/١٠/١٢
(٣) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٨٥/٥/١٢
(٤) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٤/٤/٢٢
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/١١/١٤
(٦) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٧/٩/٢

واحد .. حين قام سبعة من الشباب بإختطاف إحدى القاصرات فى حى الأربعين وتناوبوا الإعتداء عليها فى شقة أحدهم فى مدينة فيصل لمدة خمسة أيام كاملة .. وتهديدها بالقتل لو أبلغت الشرطة .. وعامل بناء متزوج ولدية ثلاثة أطفال إستدرج فتاة فى العاشرة من عمرها إلى شاطئ ركس وجردها من ملابسها بدعوى تعليمها السباحة ثم قام بإغتصابها فى وحشية .. وفى بورتوفيق قام إثنان من العاطلين بإغتصاب فتاة قاهرية .

ولا أعتقد أن تلك الحوادث وقعت كلها فقط من قبيل المصادفة التى قد تحدث أو لا تحدث .. وإنما هى تعنى بشكل ما أو بآخر أن هناك خللا أخلاقيا بدأ يستشرى فى أوصال تلك المدينة الهادئة .. المدينة التى كانت وحدها هناك يوم شرع المصريون فى حفر قناتهم .. وإذا كانت القناة قد خلقت بورسعيد والإسماعيلية كمدينتين جديدتين فإنها سرقت من السويس - المدينة القديمة - كل ما كانت تستحقه من إهتمام .. صحيح أن القناة إرتبط إسمها بالسويس .. لكن خيرها كله كان للمدينتين الواقعتين فى الشمال .. أما المعاناة كلها فكانت من نصيب السويس التى بدأ الغرباء يشدون إليها الرحال .. حتى بلغ عدد [1] هؤلاء الغرباء سنة ١٨٦٧ ما يقرب من ألفى وأربعمائة أجنبى مقابل أحد عشر الف مواطن مصرى .. وبالطبع لم يكن كل هؤلاء الأجانب من المهندسين والملاحين .. إنما جاء معهم كثير من الأفاقين والصعاليك الذين لم يتوانوا عن إفتراس مدينة صغيرة كانت أقرب كثيرا إلى أن تكون مجرد قرية كبيرة يسكنها الصيادون والبحارة .. فإنتشرت القهاوى والخمارات والفنادق المتواضعة التى لا تتحفظ ولا تتردد كثيرا فى إستقبال القوادين والعاهرات ومن يطلبون خدماتهم .. ومن الواضح أن ذلك كان أول سطور المعاناة فى كتاب تاريخ السويس الحديث .. لكن من المؤكد أن الغرباء لم يتناقص عددهم بمرور السنوات .. إذ جاءت سنة ١٩١٧ ليشكل عددهم نسبة أربعة عشر بالمائة [2] من إجمالى سكان المدينة .. أى أكبر من نسبة تواجدهم فى القاهرة نفسها .. وإذا كان عدد هؤلاء الغرباء فى الإسماعيلية أو بورسعيد فى نفس الفترة كان أكبر .. فإننا لا ينبغى أن ننسى أن هاتين المدينتين - بعكس السويس تماما - تم بناؤهما وتخطيطهما كمستعمرتين للأجانب وللحياة على الطريقة الأجنبية .. وهو ما لم يتوفر للسويس التى بقيت تنمو بلا أى تخطيط أو نظام على الإطلاق .. بقيت مدينة نائية عن القلب والوجدان لا يكترث أو يهتم بها وبمعاناتها أحد .. حتى الحروب الثلاثة التى خاضتها مصر بعد ثورة يوليو .. وكانت السويس فى كل حرب منها هى صاحبة القسط الأكبر من فاتورة الحساب بشهدائها وتضحياتها .. لم يكف ذلك أحدا ليقتنع بالإلتفات إلى تلك المدينة .. وعلى الرغم من قصة صمود السويس فى حرب أكتوبر - والتى سيتوقف عندها تاريخ مصر طويلا بعد ذلك بالخشوع والإمتنان والإنبهار - فقد كانت الجائزة من نصيب بورسعيد والإسماعيلية بداية من قوافل التعمير وإعادة البناء مرورا بالتجميل العمرانى والسياسى والإقتصادى والإجتماعى والثقافى والرياضى وحتى تأسيس الجامعة والقناة التليفزيونية .. وكان ذلك كله كافيا جدا لأن يخلق تحت جلد السويس إحساسا بالمرارة .. إحساس تطرق إلى شتى مجالات الحياة والسلوك .. إحساس لم يكن أهل السويس لينجحوا فى مقاومته مهما إستعانوا فى مواجهته بصلواتهم فى مسجد سيدى الغريب .. ولى الله الذى ليس هناك غيره يصغى

---

(١) د. حلمى أحمد شلبى - فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨

(٢) جمال حمدان - شخصية مصر - عالم الكتب - ١٩٨١

لشكاوى السويس وهموم أهلها .. ثم كان الأشد قسوة وإيلاما هو الإحساس باليأس والإحباط .. وما يعنينا من هذا اليأس وهذا الإحباط هو أن يتطرقا إلى العلاقة الزوجية أو إلى مفاهيم الحب والإرتباط .. وكان هذا هو ما حدث .. فتعددت حالات الخيانة والسقوط .. ووجدنا الزوجات اللواتى تعرين وإستسلمن وإكتفين بذلك أو تعرين وسقطن ثم تحولن إلى قاتلات .. مثل سميرة التى قتلت زوجها بمساعدة عشيقها بائع اللبن .. أو الزوجة الأخرى التى ضبطها زوجها [١] مع عشيقها الكهربائى فى غرفة النوم فقتلته الزوجة وعشيقها فى الحال .. أما الحب وكيف يمكن أن يغدو ثوبه فضفاضا يتسع للجنس وللخطيئة فذلك هو ما يمكن أن نخرج به من حكاية سميرة [٢] الفتاة التى لم تكمل الرابعة عشرة من عمرها .. ومع ذلك كانت تعيش قصة حب عنيفة وساخنة مع عبد اللطيف .. قصة حب بات يعلم بها ويتحدث عنها كل أهل حى الأربعين .. حتى جاء اليوم الذى إكتشف فيه أهل الحى أن مواعيد الغرام إنتهت إلى معاشرة جنسية فى شقة أحد الأصدقاء قبل تأجير شقته للعاشقين مقابل خمسين جنيها .. ولأن شقيق صاحب الشقة لم يكن يعلم بهذا الإتفاق .. فقد توجه إلى شقة شقيقه بالصدفة وفاجأ العاشقين أثناء خلوتهما فأصر على أن يمارس الجنس مع الفتاة .. وإن كان منظر الدماء على جسد سميرة والهيئة التى بدت بها تدل على أن الممارسة الأولى كانت حبا بينما الثانية كانت أقرب إلى محاولة إغتصاب..

أما مدينة الزقازيق .. فمن المؤكد أنها صاحبة حكاية تختلف تماما عن حكايات الإسكندرية أو مدن القناة الثلاثة .. صحيح أن حكايتها هى نفس حكاية كل مدينة غابت عن دائرة إهتمامنا حتى فوجئنا بها ترقد فوق بركان من غضب .. إلا أن للزقازيق حكاية تختلف فى الملامح والتفاصيل .. وإذا كانت الإسكندرية .. قد تعلمت الغضب حين أردنا لها أن تكون مجرد ملهى وشاطئ وإستراحة .. وبورسعيد عرفت الغضب حين أجبرناها على أن تكون مدينة حرة فى كل شئ .. والإسماعيلية إضطرت للغضب حين تجاهلنا مخاوفها وأزماتها .. والسويس أدمنت الغضب بعد أن أصابها اليأس والإحباط .. فإن الزقازيق لم تعرف الغضب إلا حين قررنا فجأة فى السبعينات أن نغرس وسط حقولها ومزارعها جامعة كبيرة كديكور سياسى ودليل على أن مصر السادات تفتح كل أبوابها أمام العلم والتحضر والرقى والتقدم .. غرسنا الجامعة فإستيقظت المدينة الهادئة لتجد نفسها تنام فوق قنبلة بالغة الحساسية شديدة الإنفجار .. لم تكن الجامعة نفسها هى القنبلة وإنما كانت هى مفهومنا نحن لمعنى الجامعة ودورها ورسالتها .. فتخيلنا الجامعة مجرد بناء وقاعات وجدران ومحاضرات .. وأساتذة من القاهرة يأتون على عجل ليصغى إليهم طلبة وطالبات جاءوا من الزقازيق ومن كل المدن والقرى المجاورة حتى شاطئ قناة السويس .. طلبة وطالبات لم يجدوا علما يستهويهم وأحلاما تستوطن وجدانهم وإكتشفوا أن الشهادة الجامعية هى كل المطلوب منهم قبل الإنضمام لطابور العاطلين والعاطلات .. طلبة كانوا شبابا جاءوا إلى الزقازيق بمفردهم دون عائلاتهم يقيمون فى شقق مفروشة .. وفتيات وجدن أنفسهن فجأة دون رقيب أو قيد .

وسرعان ما إنفجرت رغبات كانت مكتومة وشهوات لم تكن تجد لديها جرأة أن تعلن عن نفسها من قبل .. ومع هذا الإنفجار لم يكن شباب وفتيات الزقازيق نفسها ليبقوا على الحياد .. وإنما طابت لكثير منهم ومنهن تلك الحرية الجديدة .. وكان بينهم وبينهن من هم وهن على

---

(٢) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/٢٧

إستعداد لمجاراة رغباتهم وشهواتهم والسير فى الطريق الذى إختاروه حتى النهاية .

لهذا لا أجدنى أميل إلى الإقتناع بكل ما قالته جريدة الأهالى (١) عن صدمة أهالى الزقازيق بعد إكتشاف أكبر شبكة للدعارة تشهدها المدينة تتزعمها إحدى السيدات وتضم ثمانية عاهرات بينهن فتاة إبنة مديرة الشبكة نفسها .. أما الذى من الممكن الإقتناع به فهو الإحساس بالإنزعاج الذى ساد المدينة الصغيرة بعد أن تناقل أهلها أخبار تورط عددا من شخصيات هامة كانت محل ثقة وتقدير وإحترام الجميع .. فهذا بالفعل أمر يدعو للإنزعاج .. لكن القبض على ثمانية نساء أو فتيات تورطن ببيع أجسادهن وبكارتهن لا أعتقد أنه يثير إنزعاج مدينة عرفت منذ عشرين سنة على الأقل ظاهرة الشقق المفروشة وإعتادت أن تصغى لما يمكن أن يدور وراء أبواب تلك الشقق .. مدينة باتت تضم عيادات تناثرت هنا أو هناك مهمتها ترقيع غشاء البكارة لمن زنت أو سقطت وإجهاض من تورطت فى حمل ثقيل غير مرغوب فيه .

وعلى الرغم من ذلك .. لم تكن الجامعة وحدها هى أزمة الزقازيق الجنسية .. لكن كانت هناك العشوائيات أيضا (٢) .. فهناك سبعون منطقة عشوائية فى محافظة الشرقية .. يقيم فيها ثمانية وثلاثون بالمائة من إجمالى عدد سكان مدن المحافظة .. أكثر من مائة الف أسرة تعيش الحياة العشوائية .. بينها قرابة السبعة وعشرين الف أسرة لايجد عائلها أية فرصة عمل أو مورد رزق .. وتختص مدينة الزقازيق ليس فقط بكونها عاصمة المحافظة أو مدينة الجامعة .. وإنما هى أيضا صاحبة أكبر عدد من هذة المناطق العشوائية .. ففيها ثمانية عشر منطقة يقيم فيها ثلث سكان المدينة .. ومقابل إثنتين وإربعين الف أسرة فى الزقازيق تقيم فى شقق .. هناك سبعة عشر الف أسرة تقيم كل منها فى غرفة واحدة أو فى بيوت الإسكان المشترك أو فى العشش والخيام .. وأدى ذلك بالطبع إلى تراكم العديد من الأزمات والمشاكل الإجتماعية والأمنية والجنسية أيضا .. ثم كان إهمال الدولة لمحافظة الشرقية ولهموم أهلها وإحتياجاتها بلا منطق أو سبب أو مبرر .. وإلى الحد الذى معه يعيش اليوم مليون مواطن فى محافظة الشرقية بلا مصدر للمياة النقية (٣) .. هذا غير تدنى مستوى الخدمات وكفاءة البنية الإقتصادية فى كل مدن المحافظة .. وكنتيجة لذلك .. لا يبدو أمرا يبعث على المفاجأة والدهشة أن تنفجر مدينة أبوحماد بالثورة والغضب فى السادس والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٩٢ بعد وفاة عامل بأحد المخابز نتيجة الضرب والتعذيب فى قسم الشرطة .. ولا هو أيضا أمر مثير المفاجأة والدهشة أن تزدهر الدعارة وسط كل هذا الفقر والحرمان .. أو تتعدد جرائم الإغتصاب نتيجة كل هذة المعاناة وإلى حد أن تشهد مقابر الزقازيق (٤) إحدى تلك الجرائم .. أو تعتاد الزقازيق وأخواتها الإصغاء لحكايات وفضائح الزنا والخيانة والسقوط .. أو تشهد مدينة فاقوس (٥) إحدى حكايات الخطيئة التى إنتهت بالموت وكانت بطلتها فتاة طالبة بالمرحلة الثانوية .. تقدم شاب لخطبتها وإستعدت عائلتها – بعد موافقتها – لإتمام زواج إبنتهم .. لكن كان للإبنة عشيق .. وإتفقت مع هذا العشيق على أن يهاجمها أثناء سيرها مع خطيبها .. فيقتل خطيبها ويسرق مصاغها ويبيعه ليعيش بثمنه

(١) جريدة الأهالى – عدد ١٩٩٢/١٢/٢

(٢) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٣/٥/١١

(٤) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/١٢/٢٨

(٥) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٦/١٤

العشيقان .. وفي مركز أولاد صقر [١] تم القبض على شبكة آداب تضم ثمانية نساء وفتيات بينهن الإبنة المتزوجة للرجل الذى يدير بنفسه الشبكة وتجارة متعتها المحرمة .

وكل تلك الأزمات نعود لنواجهها إذا ما إنتقلنا من محافظة الشرقية إلى محافظة القليوبية المجاورة لها .. وأيضا تشكو مدينة بنها حالات الخيانة والسقوط .. وشبكات الدعارة .. وجرائم الإغتصاب .. إما بسبب غياب أى تخطيط إجتماعى يرافق تطور المدينة وإتساعها المتزايد يوما بعد يوم .. وإما نتيجة الجامعة التى تم إفتتاحها فى أوائل الثمانينات .. وإما نتيجة العشوائيات التى غزت المدينة وإستوطنتها .. وإما نتيجة الرغبات التى جمحت وكان من الصعب – إن لم يكن من المستحيل أحيانا – كبح جماحها .. وأيا كانت الأسباب والمقدمات التى إنتهت بمثل هذا الخلل الإجتماعى والأخلاقى .. فمن المؤكد أن أحدا منا لم يمنح هذه المدينة أى إهتمام أو مبالاة على الإطلاق .. وهناك أكثر من دليل على ذلك .. فعلى سبيل المثال أقام الإعلام القاهرى الدنيا ولم يقعدها بعد حادثة إغتصاب فتاة المعادى .. لكن من الذى إهتم بحادثة إغتصاب فتاة بنها ورآها تستحق أكثر من مجرد خبر فى صفحات الحوادث لم تنشره حتى كل الصحف .. بالطبع لم يهتم أحد وبقيت الحادثة خبرا صغيرا نشرته جريدة الأهرام [٢] على الرغم من تشابه الحادثتين فى كثير من الملامح والتفاصيل .. الفارق الوحيد كان أن فتاة المعادى كانت برفقة خطيبها وجدهما فى مكان مظلم ومهجور بعيدا عن العمران .. أما فتاة بنها .. فقد كانت تسير مع خطيبها على الكورنيش حين فوجئ الإثنان بشابين يعترضان طريقهما .. ولم يلبث إلا أن لحق بهما إثنان آخران .. وتحت تهديد السلاح إصطحبوا الفتاة وخطيبها داخل سيارة ملاكى كان ينتظر داخلها شابان آخران .. وقاد أحدهم السيارة إلى طريق مظلم خارج مدينة بنها .. حيث حاول الستة شباب إغتصاب الفتاة .. إلا أن الفتاة على الرغم من محاولاتهم المتكررة بقيت عذراء لم تفقد بكارتها .. ثم ترك المغتصبون الفتاة وخطيبها ولاذوا بالفرار .

ومع ذلك .. ليست حادثة إغتصاب فتاة بنها هى أهم ما يمكن أن نستند إليه كدليل ومؤشر على التوتر الجنسى فى مدينة بنها أو فى محافظة القليوبية كلها .. فعلى سبيل المثال عادت مدينة بنها بعد تلك الحادثة تشكو وتخاف من أكثر من حادثة إغتصاب كانت آخرها [٣] هى تلك الحادثة التى إختطف فيها إثنان من الشبان العاطلين فتاة فى السابعة عشر من عمرها كانت تقف فى محطة قطار بنها .. وإقتاد الإثنان الفتاة تحت تهديد السلاح إلى أحد البيوت تحت الإنشاء حيث قاما هناك بإغتصابها .. ومثل مدينة بنها كانت هناك مدينة أخرى تحول فيها الإغتصاب إلى ظاهرة تستحق التوقف والدراسة .. مدينة الخانكة .. المدينة التى شهدت [٤] مثلا فى شهر يوليو عام ١٩٩١ خمس حوادث إغتصاب إرتكبها مثقفون متعلمون وجاهلون وشباب وعواجيز .. طالب حاصل على دبلوم تجارة قام بإختطاف طفلة فى العاشرة من عمرها من أمام منزلها ومضى بها إلى مكان مهجور حيث نزع عنها ملابسها وقام بإغتصابها أكثر من مرة .. وعامل معمار إستدرج طفلة فى الرابعة من عمرها وإغتصبها فى وحشية أسفرت عن تهتكات وإصابات بالغة .. أما آخر الحوادث الخمسة .. فكانت فى مقابر الخانكة التى شهدت رجلا فى الثانية والستين من العمر

---

(١) جريدة المصرى - عدد ١٩٩٤/٧/٢

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٥/٣/٩

(٣) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٩٤/٧/١٥ ، جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٤/٧/٦

(٤) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/٨/١

يستدرج طفلة في التاسعة من عمرها ونزع ملابسها وإغتصبها أكثر من مرة

ومن مدينة الخانكة إلى مدينة طوخ .. وتتكرر حوادث الإغتصاب .. مجهولون إختطفوا [1] تلميذة في المرحلة الإبتدائية وإغتصبوها ثم قتلوها والقوا بجثتها في حقل ذرة .. وتلميذة أخرى .. أيضا في طوخ .. وأيضا لا تزال في المرحلة الإبتدائية .. إستدرجها مدرسها [2] إلى أحد الفصول بعد إنتهاء اليوم الدراسي وجردها من ملابسها وإغتصبها .. وفي مدينة قليوب [3] .. إغتصب بائع ملابس طفلة في الثالثة عشر من عمرها في أحد المنازل المهجورة .

ولم تقتصر بالطبع معاناة أهل القليوبية على حوادث الإغتصاب هنا أو هناك .. وإنما كانت هناك أوجاع أخرى وهموما باتت أحيانا أشد قسوة .. وهو ما يسهل علينا توقعه إذا علمنا أنه في تلك المحافظة يعيش أكبر عدد من سكان العشوائيات في كل مصر بعد القاهرة .. ويسكن في تلك العشوائيات أربعة وستون بالمائة من سكان المحافظة .. وتتعدد في تلك المناطق كل صور الإنحراف والسقوط الإجتماعي والأخلاقي .. صور يمكن إختصار الحديث عنها كلها بصورة واحدة لما يحدث في منطقة بهتيم التي تحولت [4] إلى بؤرة للتلوث البيئي والإجتماعي والأخلاقي .. حيث بدأت الحكاية عام ١٩٨٢ بستة هناجر معدنية جاءوا بها ليقيم فيها الناس .. وتم تقسيم كل هنجر بصاج رقيق إلى عشرة غرف .. في كل غرفة منها تقيم عائلة بأكملها .. وفي آخر كل هنجر أقيمت دورة للمياة .. وهو إسم فيه الكثير من المبالغة .. فتلك الدورات مكشوفة بلا سقف .. وعلى أرضيتها تتناثر وتتراكم الفضلات يوما بعد يوم .. ثم إنها بلا مياة أصلا .. وغني عن الذكر أنه ليست هناك حرمات أو عورات يمكن الحفاظ عليها في مثل هذا المكان .. فضلا عن سقوط الكثير من الأرامل والفتيات في مستنقع الرذيلة .. وهو الأمر الذي لا يمكن ستره أو مواراته .. إذ سرعان ما يتبدل الحال بتلك السيدة أو الفتاة بعد سقوطها .. فتمتلك الثياب الجديدة ويتبدل نوع طعامها .. وبعد كثير أو قليل من الأيام .. تضيق بالمكان وتختفي إلى حيث الحياة الأخرى التي هي أكثر إنسانية وآدمية .

وبعيدا عن العشوائيات .. تعددت وزادت حالات السقوط والخيانة والدعارة أيضا .. سيدة متزوجة [5] تهجر زوجها وبيتها لتمارس الدعارة مع السياح العرب في شقة إستأجرتها لذلك في مدينة بهتيم .. أو زوجة أخرى في كفر شكر [6] .. لم يكد يمضي على زواجها سوى ستة وثلاثون يوما فقط إلا وكانت قد وضعت مولودها الأول .. فلم يجد زوجها حلا إلا الذهاب ببلاغ للشرطة يتهم زوجته بالزنا ويطالب بعدم ثبوت نسب الرضيع إليه .. فإعترفت له الزوجة بأنها تعرضت لحادثة إغتصاب قبل زواجهما وخافت أن تبوح بسرها لأحد .. أو إمرأة ثالثة كانت زوجة لعامل فقير وأم لطفلتين إحداهما في الثالثة والأخرى في الثانية من عمرهما .. عاشت مع زوجها محاصرة ليلا ونهارا بمرارة الجوع وقسوة الفقر .. ولم تجد ما يجبرها على أن تتحمل كل ذلك .. فإشترت كل ما كانت تشتهيه من ثياب وأثاث للبيت بالتقسيط .. وكلما جاء أوان سداد أي قسط

---

(١) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩١/٧/٢
(٢) جريدة الأهرام المسائي – عدد ١٩٩١/١٢/١٠
(٣) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٧/١١
(٤) ممدوح الولي – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣
(٥) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/١٢
(٦) جريدة الخضر – عدد ١٩٩٤/٦/١٢

كانت تقدم للتاجر – أو لأحد أصدقائه – جسدها بدلا من المال .. حتى إنتهى بها الأمر فى قبضة البوليس فى الفراش عارية ومتهمة وإبنتاها [١] حولها تصرخان تريدان الذهاب مع أمهما .. أو حكاية سائق [٢] فى الخانكة إعتاد تقديم شقيقاته الثلاث للآخرين .. وتم ضبط السائق فى بيته يجلس فى الصالة بينما شقيقاته كل منهن فى غرفة من غرف البيت عارية فى الفراش ويصحبة رجل من طالبى المتعة .

ولا يتبدل الحال كثيرا إذا ما إنتقلنا إلى محافظة الغربية .. نفس الشكاوى والأوجاع والهموم .. فى مدينة المحلة الكبرى مثلا .. تتكرر وتكثر حوادث الإغتصاب .. منها حوادث إعتادت عليها أية مدينة أخرى فى مصر ومنها أيضا حوادث كان ينبغى أن تثير فينا كل ما نملكه من خوف وإنزعاج أو على الأقل ما نملكه من قدرة على التظاهر بهما .. ففى عام ١٩٨٧ .. إختطف سبعة عاطلين [٣] سيدة قروية كانت تنتظر بموقف سيارات المحلة برفقة زوجها وأحد أقاربها وذهبوا بها إلى أحد المزارع حيث إعتدوا عليها جميعهم .. وفى عام ١٩٨٨ إختطف عشرة عاطلين [٤] فتاة فى السادسة عشر من عمرها .. كانت فى السوق مع إبن عمها .. وذهبوا بها إلى المزارع حيث إغتصبوها هناك فى وحشية .. والأمانة تقتضى الإشارة إلى مجلة روز اليوسف التى إستوقفتها نفس هذة الحادثة [٥] .. فأرادت التنبيه والتحذير مؤكدة أن إختطاف هذة الفتاة تم فى وضح النهار .. فى سوق مزدحم وعلى مرأى ومسمع من كل الناس .. وأن الفتاة كانت ريفية ترتدى ملابسها فى إحتشام وليست ترتدى تلك الملابس الفاضحة أو العارية التى قد تشجع على الخطف والإغتصاب .. ولم يصغ أو يكترث أحد .. لا من أهل المحلة ولا من غير أهلها .. فكانت النتيجة ألا يمر سوى شهران فقط لتتم حادثة إغتصاب جديدة .. تلميذ [٦] يستدرج طفلة فى الرابعة من عمرها إلى شقته الخالية ويغتصبها .. وفى عام ١٩٩١ .. قام أربعة أشقياء [٧] بإختطاف سيدة كانت تسير فى الطريق مع أطفالها الثلاثة .. وذهبوا بها إلى منطقة المقابر وأبقوها هناك يومين كاملين .. حتى عادوا بها بين الموت والحياة والقوا بها فى وسط الطريق .. وبعد أسبوع واحد فقط حاولوا تكرار محاولتهم بإختطاف سيدة أخرى كانت تستقل سيارة أجرى .. لولا إستغاثة السائق وصرخاته .. فإكتفى الأربعة بإختطاف حقيبة السيدة بدلا من السيدة نفسها .

ولا أحد على وجه الدقة يدرى لماذا تتفوق المحلة الكبرى على طنطا فى سباق الخطف والإغتصاب .. مع أن طنطا هى المدينة الأكبر .. هى العاصمة أيضا منذ نصرها الخديوى إسماعيل على المحلة .. فأبقى للمحلة إسما ولقبا لم يعد له معنى هو المحلة الكبرى .. وجعل طنطا هى العاصمة والمدينة الكبرى أو أهم مدن الأقليم .. وقد كانت طنطا بالفعل مرشحة لأن تعيش

---

(١) حكاية هذة المرأة وإعترافاتها نشرتها جريدة الأحرار فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٤/٧/٤ .. وإن كنت لا أعرف لماذا كان الإصرار على نشر أكثر من صورة للمرأة لحظة القبض عليها وهى شبه عارية .. وصورة لإبنتها أيضا وهى تبكى . وكتابة إسم المصور هشام صالح وعلى أنه صاحب هذا السبق .. مع أنه ليس سبقا وإنما تشهيرا وتدميرا لمستقبل طفلة صغيرة وبريئة .. ثم أن الله أمرنا بالعقاب لا بالتشهير وأمرنا أن نستر عورات وفضائح الآخرين من المسلمين والمسلمات .

(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٧/٢

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٨/٢١

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٨/٢٢

(٥) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٨/٩/٥

(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/١٠/١٩

(٧) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩١/٢/١٩

زمان الإغتصاب بمعدلات أكبر وأقسى .. فهى المدينة التى تعيش فيها [١] قرابة الخمسة عشر الف أسرة فى غرف عشوائية أو فى بيوت الإسكان المشترك .. وفيها الف ومائة وواحد وسبعون أسرة تعيش فى الخيام والعشش .. لكنها مع ذلك لم تشكو ما سبقتها فى الشكوي منه مدينة المحلة الكبرى .. هل هى الدعارة التى زادت فإختصرت مساحة الرغبة ودوافع الإغتصاب والحاجة إليه .. هل هى الجامعة التى سمحت لبعض طالباتها بالتحرر والتخفف من قيود وضوابط كثيرة .. أم هى بركة شيخ العرب .. السيد أحمد البدوى .

وقد تكون كل هذه الاسباب صحيحة .. وقد لايكون بعضها ..لكن من المؤكد أن مساحة التوتر والإضطراب الجنسى واحدة سواء فى طنطا أو المحلة الكبرى .. ومن المؤكد أيضا أن طنطا لن تبقي على حالها طويلا .. فالدكتور جمال شمعة .. أستاذ الأمراض النفسية والعصبية بجامعة طنطا أشار [٢] إلى أن أطفال المدينة المشردين .. والذين تجاوز عددهم العشرة الاف طفل وطفلة مرشحون كلهم قريبا لأن يكونوا أبطال جرائم الإغتصاب أو حكايات الزنا والدعارة .. وإذا كانت طنطا قد إمتلكت المزيد من الحرية الإجتماعية .. وأتاحت الجامعة للكثيرين والكثيرات فرصة الإستمتاع بتلك الحرية .. فإن المحلة فى المقابل وجدت البديل فى صور ومجلات عارية وجنسية .. ومؤخرا القى البوليس القبض على أحد تجار المحلة [٣] وفى مخزنه أطنان من تلك الصور والمجلات .. كما أنه ليس من المؤكد أن بركة السيد البدوى كانت ساترا عصم فتيات ونساء طنطا من إرتكاب الذنوب والمعاصي .. ولا أقنعت تلك البركة الشباب والرجال بالتعفف عن الشهوات والغرائز .. بل إن الإحتفال بمولد السيد البدوى يتحول كل عام إلى فرصة مناسبة وموائمة لممارسة الكثير من تلك الخطايا .. ولا يمانع أحد أن ترقص فتيات كثيرات بجوار المسجد والضريح [٤] .. وتنشط فى المولد العاهرات والقوادون لتوفير المتعة لمن جاء يطلبها وليس يطلب بركة الصوفى الكبير .

وبصرف النظر عن المقارنة بين طنطا والمحلة الكبرى .. فإن الأرقام سبق لها [٥] وأن أشارت مرة إلى أن محافظة الغربية هى أكثر محافظات مصر تعرضا لحوادث الإغتصاب بعد القاهرة والإسكندرية .. وفى المرتبة الرابعة تأتى محافظة المنوفية .. المحافظة التى تضم أربعة وعشرين منطقة عشوائية [٦] .. بداية من أشمون التى بها ثلاثة عشر منطقة .. مرورا بقويسنا التى بها ثمانى مناطق .. ونهاية بالعاصمة .. شبين الكوم .. التى تشكو من ثلاثة مناطق متدنية الخدمات هى الحى الغربى وكفر المصيلحة وميت خاقان .. وهو الأمر الذى لا يمكن مقارنته بما يحدث فى محافظة الدقهلية .. رائدة العشوائيات على مستوى مصر كلها .. ففى الدقهلية مائة وتسعة منطقة عشوائية .. رقم لم تطمح إليه حتى القاهرة بكل صخبها وضجيجها وزحامها وإختناقاتها .. وفى هذة المناطق يعيش أكثر من نصف سكان مدن الدقهلية .. ومع ذلك لم تلق هذة القضية ما نالته قضية الدش وأطباق إستقبال الإرسال التليفزيونى من إهتمام وجدل ونقاش .. المحافظة كلها .. بأهلها ومواجعها وهمومها .. لا تلقى إهتماما من أحد .. ولن تلقى .. وكان يكفى جدا للشعور

---

(١) ، (٦) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٢) جريدة الاحرار ـ عدد ١٩٩٤/٥/١٠

(٣) جريدة المسلمون ـ لندن ـ ١٩٩٤/٥/٢٧

(٤) مجلة نصف الدنيا ـ عدد ١٩٩٠/٤/٢٢

(٥) اللواء د. محمد فتحى عيد – الأمان فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

بالإنزعاج تلك السطور القليلة التى نشرتها جريدة أخبار اليوم [١] عن واقع محافظة الدقهلية فى أطار الحملة التى قامت بها الجريدة عن محافظات مصر وأقاليمها .. ففى تلك السطور نقرأ أن هناك بالمحافظة – وفى نهاية القرن العشرين – الف قرية لم تصلها الكهرباء بعد .. وأكثر من مدينة إضطرتها الحاجة لأن يشرب أهلها المياة الملوثة .. وقرى لا تصلها المياة – نقية أو حتى ملوثة – إلا ساعتين فقط كل يوم .. هذا غير بحيرة المنزلة حيث التلوث والأهمال اللذان تحولا فى النهاية إلى مأساة تهدد ثلاثمائة الف رجل وإمرأة وطفل من أبناء المطرية بالموت والسرطان والفشل الكلوى والبلهارسيا والإلتهاب الكبدى الوبائى .

هذا ما قالته جريدة أخبار اليوم مدعما بالأرقام والمستندات والشهادات .. ولم يهتز أو يبالى أحد من المسئولين .. تماما مثلما يعرفون كل ما تعيشه هذة المحافظة من أوجاع وإضطرابات جنسية .. وأيضا لا يهتز أو يبالى منهم أحد .. أوجاع وإضطرابات تشمل كل مظاهر الخلل والتوتر الجنسى .. زنا ودعارة وخيانة وإغتصاب .. وتشمل معظم مدن المحافظة أيضا .. لكن تجئ مدينة المنصورة على رأس القائمة .. ليس بإعتبارها مجرد عاصمة للمحافظة .. وإنما لأنها أكثر مدينة تشكو من مثل هذا الخلل والتوتر .. بل هى واحدة من أكثر المدن المصرية التى تعانى وتشكو من الجنس وقضاياه وخطاياه وجرائمه ونزواته .. فالدعارة على سبيل المثال إستشرت إلى الحد الذى معه لم يعد فى وسع أحد الزعم بأنها مجرد حالات إستثنائية وقليلة .. صحيح أنها لم تتحول إلى ظاهرة عامة أو جماعية .. لكن من المؤكد أنها باتت أكثر إقلاقا وإيلاما .. هذا ما لسته بنفسى بعد حوار طويل جدا جرى فى مدينة المنصورة نفسها عام ١٩٩٢ مع محمد عبد الحميد عسكر رئيس مباحث آداب محافظة الدقهلية فى ذلك الوقت [٢] .. وكنت قد ذهبت وليس فى ذاكرتى إلا ما سبق وأن نشرته الصحافة عن الدعارة فى المنصورة .. أو على وجه التحديد شبكات الدعارة مثل تلك الشبكة التى كانت تديرها إحدى السيدات بشقتها [٣] .. أو حالات فردية كتلك الواقعة التى تحدثت عنها المنصورة كلها [٤] بعد القبض على سيدة فى حالة تلبس تمارس الجنس مع ثرى عربى فى شقتها بينما كان زوجها جالسا فى الصالة يشارك القواد الثرثرة حول هموم الحياة .. ثم تبين أن هذة السيدة عاهرة إعتادت ممارسة الفحشاء فى غرفة النوم بينما ينتظرها زوجها دائما فى الصالة مع القواد الذى جاء بالزبون .. ثم تجئ الأوراق الرسمية فى أرشيف مباحث آداب الدقهلية لتؤكد أن عام ١٩٩٠ شهد خمسة عشر قضية تسهيل وممارسة الدعارة .. ويجئ عام ١٩٩١ ليزداد هذا الرقم .. ومع ذلك فلم تكن المشكلة هى زيادة عدد القضايا أو عدد العاهرات وحالات السقوط .. إنما كانت المشكلة الحقيقية هى أسباب ودوافع هذا السقوط .. كانت المشكلة كما رآها رئيس مباحث الآداب هى أن المناخ أصبح يساعد على السقوط بعد أن لم يعد الفقر وحده هو الدافع أو المبرر .. وإنما هى العادات والتقاليد التى لم تعد تكبح جماح أى إحتياج أو رغبة .. هى التفكك الأسرى .. هى إنعدام الرقابة سواء فى البيت أو المدرسة .. فكثير من عاهرات المنصورة اليوم تتراوح أعمارهن بين السابعة عشرة والثانية

---

(١) جريدة أخبار اليوم – عدد ١٩٩٢/٥/٢٩

(٢) جرى اللقاء بمعاونة كل من مأمون محمد وهدى النندور اللذين أمدانى بوقائع وحكايات كثيرة قد لا يكون هناك مجال أو متسع لسردها كاملة غير أنها تعين على الفهم والتأمل وإستخلاص الواقع بما فيه من مخاطر وأزمات

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٤/١٦

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٧/١٢/٧

والعشرين من الطالبات فى مرحلة التعليم الثانوى العام أو الفنى .. معظمهن يسقطن أمام معدلات ربح عالية ومغرية قد تصل فى مدينة المنصورة إلى الف جنيها فى الليلة الواحدة .. معظمهن أيضا لا يعرفن التوبة أو الرجوع عن المعصية .. لا الدين يردعهن ولا المجتمع ولا الناس ولا حتى السجن .. ثم كانت هناك الحالات الشاذة .. كأن يتم القبض على زوج يبيع جسد زوجتيه لمن يدفع الثمن .. وكان فى طريقه للزواج من ثالثة قبل القبض عليه .. ويبرر ذلك بالظروف الإقتصادية الصعبة والدخل القليل الذى لم يعد يكفيه ليحتسى زجاجتى بيرة كل يوم ويتناول طعاما لائقا وشهيا .. أو زوج آخر لا يزال فى الثانية والثلاثين من العمر ومع ذلك سبق له الزواج من سبع نساء حتى يستطيع السفر بهن إلى البلاد العربية لممارسة الدعارة هناك .. أو زوج ثالث جاء إلى مباحث الآداب بعد القبض على زوجته فى قضية دعارة وكل ما يعنيه هو أن يعرف على وجه الدقة ما إذا كانت زوجته تمارس الدعارة مع زبائن مصريين أم مع السياح العرب .. حتى يطمئن إلى أن زوجته لا تخونه من الناحية الإقتصادية .. أو فتاة إعترفت أثناء التحقيق معها بأن أباها هو الذى فض بكارتها ثم إعتاد بعد ذلك تأجيرها إلى راغبى الجنس والمتعة الحرام .. وغير تلك الحالات الشاذة التى بدأت تعرفها الدعارة فى المنصورة .. كانت هناك ظواهر أخرى جديدة تحدث عنها رجال مباحث الآداب هناك عام ١٩٩٢ .. أهمها هو إقبال كثير من الأثرياء وكبار تجار المدينة على بيوت الدعارة لممارسة الجنس مع العاهرات الصغيرات والجميلات مقابل الكثير جدا من المال .. وبعد عامين كاملين من شهادة رجال مباحث الآداب .. كانت تلك القضية التى تحدثت عنها المنصورة كلها بعد القبض على إمرأة متزوجة من محاسب يعمل فى دولة الإمارات بينما تقيم هى فى المنصورة وتسكن فى فيلا تمتلكها فى شارع عبد السلام عارف[1] .. وتبين أن كبار تجار وأثرياء المنصورة يترددون على هذة السيدة فى فيلتها لممارسة الجنس معها مقابل مبالغ مالية أو هدايا غالية .. تبين أيضا أن الرجل الذى يساعد تلك السيدة فى نشاطها ويسهل لها دعارتها سبق إتهامه عام ١٩٨٧ فى قضية أخرى شهيرة .. أيضا تحدثت عنها المنصورة كلها حين إكتشفت أن هذا الرجل كان يقوم بتصوير النساء أثناء تبديل ثيابهن فى غرفة خلع الملابس بأكبر محلات المنصورة .. وفى مقابل تلك الحادثة .. كانت هناك حادثة أخرى تختلف فى تفاصيلها ودوافع سقوط صاحبتها وإن كانت لم تقل عن الحادثة الأولى إثارة وإستئثارا بإهتمام وثرثرة الناس فى المنصورة .. والبطلة فى هذة الحادثة الثانية – التى تحولت إلى قضية تحمل رقم ٢٠٣٣ جنح طلخا لسنة ١٩٩٢ – مجرد فتاة فقيرة .. عاملة فى مطبعة صغيرة بالمنصورة .. كانت عائدة ذات يوم بعد نهار عمل طويل إلى بيتها فى مدينة طلخا التى لا يفصلها عن المنصورة إلا مجرد كوبرى .. وعلى الكوبرى .. إلتقت بإثنين من الشباب .. راوداها عن نفسها .. فقبلت وذهبت معهم .. ومارس الإثنان معها الجنس .. وفى اليوم التالى .. لم تذهب الفتاة إلى المطبعة ولم تعد إلى البيت .. وجاء خمسة شباب آخرين كلهم مارسوا معها الجنس .. حال دام شهرين كاملين .. حتى علم شقيقها بالأمر فتوجه إلى قسم الشرطة يتهم هؤلاء الشباب بإختطاف شقيقته وإغتصابها وإحتجازها شهرين كاملين فى شقة أحدهم .. فتم القبض على الجميع .. وجاءت إعترافات الفتاة فى التحقيقات مفاجأة كاملة للجميع .. لقد توجهت إلى البيت مع هؤلاء الشباب

---

(١) مجلة آخر ساعة – عدد ١٩٩٤/٦/١

بكامل رغبتها وإرادتها .. لم تكن تريد العودة إلى بيتها مرة أخرى .. كانت قد ضاقت بمتاعب الحياة والعمل وهموم البيت والشارع .. فذهبت مع هؤلاء تسلمهم جسدها مقابل أن يتولى أحدهم الإنفاق عليها .. فكان أبو شفة الميكانيكى هو الذى تولى الإنفاق عليها .. وفى المقابل لم يعد من حق الفتاة أن تعترض على ممارسة الجنس مع كل أصدقاء ورفقاء أبو شفة .

ولم يبق الأمر بالطبع قاصرا على الدعارة .. سواء كانت دعارة الفقراء أو الأغنياء .. طالبات الثانوى وعاملات المصانع أو زوجات الأغنياء .. وإنما كان هناك الشذوذ الجنسى أيضا فتم القبض على موظف كبير فى مصلحة الضرائب تبين أن له علاقات شاذة .. وكان هناك الخروج على القانون الدينى والإجتماعى والأخلاقى أيضا .. حيث لا تمارس الخطيئة مقابل المال قليلا كان أم كثيرا .. وإنما هى الشهوة الجامحة أو الحب الذى لا يسعى ولا يطمح إلى شئ أكثر من الجنس والنشوى .. وحيث لا يتطلب الأمر أكثر من سيارة ومكان هادئ ومظلم كأن يكون حول جزيرة الورد أو فى طريق دمياط .. وقد ينتهى الأمر بفضيحة كأن يتم القبض على طبيب وطبيبة فى إحدى السيارات وفى وضع غير لائق مطلقا .. أو ينتهى بالموت مثلما مات شاب وفتاة فى طريق دمياط إنقلبت بهما السيارة بينما كان الإثنان فى حالة حب ساخن وعميق يمارسانه بعيدا عن العيون بعد أن أصبحت الحبيبة زوجة لرجل سعودى لا يأتى إلا بضعة أيام كل عام .. أو تصطدم سيارة أخرى بإحدى أشجار الطريق بالقرب من قرية ميت عساس على طريق سمنود .. فيموت شاب وفتاة كانا يتحابان فى المقعد الأمامى ويصاب شاب آخر وفتاة أخرى كانا فى المقعد الخلفى .. كلهن فتيات وطالبات فى المدارس الثانوية والمعاهد وكليات جامعة المنصورة .. بعضهن فقدن القدرة على المقاومة .. وفقدن أى إحساس بالخجل أو الحياء .. مثل تلك التلميذة فى الصف الثانى الثانوى التى باعت ما تملكه من ذهب لتشترى ثيابا ومستحضرات تجميل .. ثم إتفقت مع أصدقائها على تقييدها وتكميمها وإدعت أنها تعرضت لحادث سرقة بالإكراه .

وبعيدا عن السيارات والشوارع الخلفية والطرقات المظلمة .. كانت هناك مناطق أخرى إعتادت مثل هذا الإنهيار الإجتماعى والأخلاقى .. فهناك إحدى عشر منطقة عشوائية فى مدينة المنصورة وحدها .. سبع منها فى حى غرب المنصورة فى مقابل أربع مناطق عشوائية فى حى شرق يتركز فيهم معظم سكان العشوائيات بالمدينة .. ومن تلك الممارسات ما يحدث فى المدرسة الزراعية الثانوية المشتركة بالمنصورة (١) .. فالمدرسة تقع بين عزبتى الشماتين والترس .. وتفيض العزبتان بالبلطجية ومدمنى المخدرات والعاطلين وتجار الجنس والمتعة والعاهرات .. فإستباحوا المدرسة التى بلا أسوار .. ولن يكون مفاجئا لأحد أن يسفر ذلك – وقريبا جدا – عن إرتكاب جريمة إغتصاب أو أكثر من جريمة .. وقد شهدت المنصورة بالفعل أكثر من حادثة إغتصاب لعل أشهرها هى تلك التى راحت ضحيتها (٢) طالبة بالمرحلة الإعدادية إختطفها أربعة شباب أثناء سيرها بشارع بوتارى فى حى توريل وإقتادوها إلى حظيرة ماشية حيث إغتصبوها هناك .. أو فتاة أخرى (٣) إختطفها ثلاثة عاطلين من بيتها وذهبوا بها إلى أحد البيوت تحت التشطيب حيث قاموا هناك بإغتصابها .

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٤/٤/٩

(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/١/٩

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٧/٢٨

وليس الأمر بالطبع قاصرا على المنصورة وحدها دون سائر مدن محافظة الدقهلية .. ففي مدينة أجا مثلا تم القبض [١] على متعهد البوفيه بمدرسة أجا الثانوية الصناعية يعرض أفلاما جنسية لطلبة المدرسة ويتقاضى جنيها ونصف من كل طالب مقابل مشاهدة كل فيلم .. وتم أيضا[٢] القبض على أحد المجندين من أبناء المدينة قام بإغتصاب تلميذة بالإبتدائى بعد أن إستدرجها إلى منزله .. والقبض على ثلاثة من الشبان إقتحموا أحد بيوت أجا وإغتصبوا ربة البيت [٣] .. وفى مدينة طلخا كان هناك من أحب إبنة عمه حبا زادت حرارته إلى حد فض بكارتها وجنين يتكوم فى أحشاء الفتاة .. فيقتلها إبن عمها خوفا من الفضيحة .. وفى مدينة دكرنس [٤] إستدرج أحد العاطلين إبنة عمه إلى المقابر وقام هناك بإغتصابها .. وإحتجازها يومين كاملين .. وشهدت مدينة دكرنس أيضا مأساة مزعجة ومخيفة [٥] بطلها شاب إسمه محمد محمد سلطان .. سافر إلى العراق ليدخر مالا يكفى للزواج وتأسيس بيت وعائلة .. لكنه وعقب تعرضه لحادث تصادم فى العراق عام ١٩٩٠ .. أصيب بالإيدز نتيجة نقل دم ملوث بفيروس المرض إليه أثناء محاولتهم إنقاذ حياته فى بغداد .. وتم ترحيله إلى مصر التى تسلمته وإستكتبته إقرارا بعدم الزواج أو معاشرة النساء حتى لا ينقل المرض للآخرين .. وتم تعيين شرطى ليرافقه ويراقبه ويمنعه من الإتصال بالنساء .. لكن الشاب العائد لم يتحمل حياة الرهبنة والزهد فى النساء .. ووقع فى حب فتاة حسناء حاصلة على دبلوم التجارة .. أخفى عنها مرضه وتزوجها وعاشرها .. ثم لم يستطع الإحتفاظ بالسر طويلا .. وعرف الجميع أن الزوج مصاب بالإيدز .. وتبين أنه نقل المرض إلى زوجته .. وأيضا إلى إبنه الذى لا يزال جنينا فى بطن الأم .. فقررت الزوجة التخلص من جنينها .. والأهم أنها قررت الإنتقام من المجتمع بنقل المرض إلى أكبر عدد ممكن من الرجال عن طريق معاشرتهم .. بل وأكدت أنها لن تتوانى أو تتردد فى إستخدام جمالها وجسدها فى الإيقاع بهؤلاء الرجال .

وفى مدينة ميت غمر .. كانت هناك الفتاة [٦] التى أحبت فلم تعاندها ظروفها ودنياها .. وسمحت لحبيبها بأن يتقدم إلى خطبتها وتوافق عليه عائلتها .. لكن الفتاة لم تطق الصبر حتى إتمام الزواج فقررت إختصار الوقت وبدأت فى معاشرة خطيبها جنسيا حتى رآهما شقيقها فقتل خطيب شقيقته .. وفى نفس المدينة تعرضت فتاة أخرى للإغتصاب .. إغتصبها أولا شاب بمفرده ثم قدمها هدية لإثنين من أصدقائه .. ثم كان أن شهدت مدينة ميت غمر أيضا أكثر من حادثة إغتصاب .. فهناك فتاة [٧] فى الخامسة عشر من عمرها إختطفها عاطل وسائق ومعهما إثنان آخران وإستبقوها فى بيت أحدهم حيث تناوبوا الإعتداء عليها لثلاثة أيام كاملة .

بعد كل هذا .. لا أجدنى إلا مضطرا لإحترام كل جهود اللواء إبراهيم الشيخ محافظ الدقهلية فى حربه ضد الدش وضد أطباق إستقبال إرسال الأقمار الصناعية .. ضد قناة الشو الفرنسية الجنسية التى إستهوت رجال مدينة المنزلة إلى حد إمتلاك هذه المدينة الصغيرة لمائة دش على

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٥/٤/١٩٩٤
(٢) جريدة الأحرار – عدد ١/٧/١٩٩٤
(٣) جريدة الأحرار – عدد ٢٩/٦/١٩٩٤
(٤) جريدة الأهرام المسائى – عدد ٢٥/١/١٩٩٢
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٣/٢/١٩٩٣
(٦) جريدة الخضر – عدد ١٢/٦/١٩٩٤
(٧) جريدة الحقيقة – عدد ٣/٧/١٩٩٤

الأقل (١) .. وإلى حد غياب أربعين بالمائة من طلبة المدارس الإعدادية .. لكننى أعتقد أن هناك أوجاعا وهموما جنسية فى المحافظة .. فى مدينة المنصورة وسائر مدن المحافظة وليست فى مدينة المنزلة فقط .. أوجاع وهموم أخطر وأقسى من الدش أو قناة الشو الفرنسية .. أوجاع وهموم تستحق ولو نصف إهتمام المحافظة بطبق واحد أو الف طبق .

وفى محافظة كفر الشيخ .. قامت الدنيا وملأها الناس صخبا وضجيجا بعد أن شهدت بلطيم المدينة الهادئة والجميلة .. أول جريمة قتل فى تاريخها (٢) .. فتحدثوا عن المجتمع الذى تغير فإزداد قسوة ووحشية وعنفا .. وتحدثوا عن القيم التى دهستها الأيام والزحام والسباق المجنون لكن لم يتحدث أحد عن الجنس .. عن الرغبة والشهوة والخطيئة .. على الرغم من أن الجريمة التى وقعت بالفعل .. كانت حصاد الجنس والخطيئة .. فالقتيلة كانت زوجة وأم لثلاثة أطفال .. والقاتل كان شابا لم يمانع فى إقامة علاقة جنسية مع هذه الزوجة .. علم الزوج بأمر تلك العلاقة فهرب وتزوج بأخرى وترك أطفاله لترعاهم الزوجة الخائنة .. ويبقى العاشقان أو العشيقان على علاقتهما المحرمة حتى إنتهى الأمر بجنين تكوم فى أحشاء الزوجة .. طلبت الزوجة من عشيقها الزواج .. أصرت على الزواج .. وفى المقابل لم يكن الشاب على إستعداد للذهاب إلى المأذون مع إمرأة إعتاد الذهاب معها إلى الفراش كلما أراد أربعة أعوام كاملة .. وفوجئ الشاب بالزوجة تهدده بالفضيحة إن لم يتزوجها .. فقرر إنهاء تلك الحكاية كلها .. جاء بسيارة النقل الكبيرة .. وجلست الزوجة بجانبه .. وفى طريق مظلم مد الشاب يده وخنق الزوجة .. أنزلها من السيارة ممدة فى عرض الطريق .. وعاد هو إلى السيارة وأخذ يسير بها فوق جسد الزوجة أكثر من مرة حتى تهشمت الرأس تماما وتناثرت بقايا المخ على قارعة الطريق .. ومع ذلك .. تم التعرف على الزوجة القتيلة وتم القبض على عشيقها القاتل .. وبالرغم من ذلك .. بقى الجميع يتحدثون عن أول جريمة فى تاريخ بلطيم دون أية إشارة إلى الجنس .. دون أى حديث عن الجنس والخطيئة والسقوط مطلقا ولا حتى بعد أن شهدت إثنتان من مدن المحافظة حادثتى إغتصاب فى أسبوع واحد (٣) .. وقعت الحادثة الأولى فى مدينة دسوق حيث قام أربعة من الشبان بإختطاف فتاة أنزلوها بالقوة من إحدى سيارات الأجرة وذهبوا بها أسفل كوبرى دسوق العلوى وإغتصبوها هناك .. ووقعت الحادثة الثانية فى مدينة قلين حيث قام أحد الموظفين بإغتصاب فتاة فى العشرين من عمرها ثم عرض عليها الزواج فى قسم الشرطة ولم تجد الفتاة حلا آخرا إلا أن تقبل وتتزوجه

أيضا .. لا أحد فى دمياط يتحدث عن الجنس .. لا أحد مطلقا .. وليس صحيحا ما نشرته جريدة أخبار اليوم فى تحقيقها الطويل عن المحافظة (٤) بعنوان .. الشاطر من دمياط .. فقد قالت الجريدة أن دمياط .. بلد بلا مشاكل .. بلا بطالة .. صناعة الأثاث رائجة .. ورش العمل فى كل مكان .. حتى حلم المدينة القديم بإمتلاك ميناء كبير وجديد .. تحقق أخيرا .

هذا ما قالته أخبار اليوم .

أما الذى لم تقله .. ولن يقوله أى أحد آخر ..فهو أن دمياط تعانى من الجنس .. من أزماته ومشاكله .. الإغتصاب مثلا .. أصبح جريمة مفزعة ومخيفة .. ففى عام ١٩٨٧ إختطف أربع

(١) مجلة المصور- عدد ١٩٩٤/٣/٢٥
(٢) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩٢/٨/٧
(٣) جريدة الأحرار - ١٩٩٤/٦/٢٦ ، عدد ١٩٩٤/٦/٣٠
(٤) جريدة أخبار اليوم - عدد ١٩٩٣/٦/١٢

شبان فتاة تعمل فى أحد المصانع وقاموا بإغتصابها داخل سيارة [١] .. وفى عام ١٩٨٩ تعرضت سهير التلميذة التى لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها لحادثة إغتصاب [٢] .. إغتصبها أبوها فى يوم الأجازة بينما كانت الأم فى السوق تشترى إحتياجات البيت وطعام الغذاء .. وفى عام ١٩٩٢ إختطف أربع شبان فتاة [٣] من منطقة السنانية وإصطحبوها إلى منزل أحدهم حيث قاموا هناك بإغتصابها .. وفى عام ١٩٩٤ تعرضت طالبة بالليسانس بكلية التربية فى دمياط لحادثة إغتصاب[٤] أثناء عودتها من الكلية فى وضح النهار .

ومع ذلك .. تبقى مثل تلك الحوادث مجرد جزء من المشكلة .. وقد قصدت أن أقدم بعض نماذج جرائم الإغتصاب الشاذة التى تكررت فى دمياط .. الإغتصاب الجماعى وإغتصاب الأب لإبنته والإغتصاب فى الطريق العام وفى وضح النهار .. وذلك من أجل إختصار حديث طويل وحزين عن حالات الإغتصاب الأخرى والمعتادة والفردية والتى لم يتقدم ضحاياها بأية شكاوى أو بلاغات .. حالات وحوادث وجرائم سيتضاعف عددها وتزداد قسوتها يوما بعد يوم وعاما بعد أخر .. لأنه ليس صحيحا أن دمياط بلد بلا مشاكل .. الصحيح هو أن دمياط أكثر المحافظات المصرية معاناة من العشوائيات من ناحية نسبة سكان تلك المناطق إلى إجمالى عدد سكان المحافظة .. أربعة وستون بالمائة من سكان دمياط يعيشون فى المناطق العشوائية .. بل إن مدينة دمياط وحدها تختنق بإثنتين وثلاثين منطقة عشوائية [٥] يسكنها نصف سكان المدينة .. مدينة مصرية يعيش نصف سكانها فى بدرومات تقتسمها الواح الخشب الحبيبى إلى غرف ضيقة مظلمة تسكنها عائلات كثيرة فقيرة لا تجد الكساء أو الغذاء .. وكثير من الفتيات لم يجدن إلا الدعارة وسيلة للرزق وللإنتقال إلى الدنيا الأخرى .. وأحيانا لا تعدو الدعارة أكثر من مجرد وسيلة للبقاء على قيد الحياة .. فكان لابد وأن تزدهر الدعارة فى المدينة .. ففى مقابل هؤلاء الفتيات الباحثات عن المال واللواتى على إستعداد للتنازل عن أى شئ مقابل هذا المال .. هناك كثير من الحرفيين الشباب الذين يملكون المال ويه يفتشون عما يطفئ رغباتهم وشهواتهم .

أيضا فى مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة .. تزدهر الدعارة .. وتتوالى أخبار القبض على شبكاتها وعاهراتها .. أخبار بدأت تعرف طريقها إلى صفحات الحوادث بالصحف القومية منذ عام ١٩٨٧ على وجه التحديد .. وفى شهر يونيو لكى أكون أكثر دقة .. فتنشر جريدة الأخبار[٦] خبر القبض على إحدى ممرضات قسم الإستقبال بمستشفى دمنهور التعليمى .. فى السادسة والعشرين من عمرها .. متزوجة من سائق تاكسى .. بتهمة تحويل بيتها فى زاوية غزال إلى وكر للدعارة تستدرج إليه الرجال والنساء من المترددين على المستشفى .. وتنشر جريدة الأهرام [٧] بعد أحد عشر يوما فقط خبر القبض على سيدة فى الخمسين من عمرها .. بتهمة إدارة شبكة للآداب بمساعدة إبنتها التى لا تزال فى الرابعة والعشرين من عمرها .. وتبين أن الشبكة تضم إحدى عشر فتاة كلهن إحترفن الدعارة فى بيت السيدة فى حى شبرا .

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٧/٢/٣٠
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/١٢/١٦
(٣) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩٢/١/١٩
(٤) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٩٤/٤/١٦
(٥) ممدوح الولى - سكان العشش والعشوائيات - نقابة المهندسين - ١٩٩٣
(٦) جريدة الأخبار - عدد ١٩٨٧/٦/١٢
(٧) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٧/٦/٢٣

ثم تعددت الأخبار والقضايا وبيوت الدعارة .. صحيح أنها لم تبد كثيرة بما يكفى لأن تصنع ظاهرة .. ولكنها فى المقابل لم تكن قليلة إلى الحد الذى معه يسهل التأكيد ويكتمل الإطمئنان إلى أن الحياة فى دمنهور تسير على خير ما يرام .. خاصة وأن تلك الأخبار طاردتها ولاحقتها أخبار أخرى عن جرائم الإغتصاب .. أشهرها على الإطلاق كانت جريمة .. أو حكاية نعمة (١) .. الفتاة التى إقتحم أحد الرجال المنزل عليها .. وإغتصبها .. فقررت الفتاة أن تعقد للجانى محاكمة عاجلة فى نفس اللحظة التى إرتكب فيها جريمته .. فأمسكت بقضيب من حديد .. وبه ضربت الجانى فوق رأسه حتى مات .. وإستعانت بسائق تاكسى ليحمل معها جثة الرجل التى القتها فى ترعة الأحفاد بدمنهور .. وبعد تحريات طويلة تبين للنيابة صدق أقوال نعمة فأفرجت عنها .

من جرائم الإغتصاب الشهيرة أيضا .. جريمة راحت ضحيتها فتاتان من الإسكندرية (٢) .. إختطفهما ثلاثة أشقاء من أحد شوارع الإسكندرية إلى بيتهم فى دمنهور حيث حاولوا إغتصابهما لولا هروب فتاة منهما .. وجريمة أخرى راحت ضحيتها زوجة زارها يوما قريب لزوجها (٣) .. إشتهى الرجل زوجة قريبه فتكررت وطالت زياراته .. حتى إنتهز فرصة غياب الزوج عن البيت فذهب إلى الزوجة يراودها عن نفسها .. عاتبته ورفضت محاولاته وشتمته وطردته .. لكنه أمام رغبته لم يملك النية أو القدرة على التراجع .. فأمسك بها ومزق ثيابها وشرع فى إغتصابها .. ولأن الزوجة لم تستسلم ولم تكف عن الصراخ لم يجد الرجل حلا إلا أن يقتلها .. وإذا كانت هذة الزوجة قد فضلت الموت على الخيانة .. فإن زوجة أخرى (٤) .. فى الخامسة والثلاثين من العمر .. وأم لستة أطفال .. إختارت أن تخون زوجها وبيتها ونفسها .. خيانة طال عمرها ثلاثة أعوام كاملة كان العشيق خلالها يأتى إلى الزوجة فى بيتها وعلى فراش زواجها دون أن يدرى الزوج شيئا .. وكان من الممكن أن يبقى الزوج طويلا وهو لا يدرى لولا أن الزوجة ضاقت به فدست له السم فى الطعام وقتلته .. وتتكرر هذة الجريمة مرة أخرى فى كوم حمادة .. الفارق الوحيد أن الزوجة لم تقتل زوجها بمفردها .. وإنما بمعاونة عشيقها .. فارق آخر كان أن الزوجة بعد قتل زوجها لم تكتف بعشيقها فى الفراش فقط وإنما بدأت فى إبتزاز أمواله أيضا .. إما أن ينفق عليها وإما ترشد عنه البوليس .. فما كان من العشيق إلا أن قتلها هى الأخرى .. وفى وادى النطرون (٥) يعود السم من جديد وسيلة للتخلص من الزوج .. والزوجة هذة المرة فى الخمسين من عمرها .. والعشيق أتم الستين عاما .. وبالرغم من ذلك إتفق الإثنان على الخلاص من الزوج للإستمتاع بالجنس ومتعة بقية العمر ثم تشهد البحيرة مسلسلا جديدا من نتاج الرغبة والسقوط .. مسلسل تعدد الأزواج لا قتلهم .. مسلسل بدأته إحدى مدرسات مدرسة أبو حمص الإبتدائية .. كانت زوجة لمدرس زميلها فى نفس المدرسة لكنها لم تعد تكتفى به لإشباع رغباتها وإحتياجاتها .. فتعرفت على سائق تاكسى وإستمتعت معه وبه فتزوجته (٦) .. وكانت تلتقى به ليلة كاملة كل أسبوع وتبرر غيابها لزوجها بأنها تزور أمها فى كفر الدوار .. وفى كوم حمادة تكررت حكاية الزواج من رجلين فى وقت واحد .. ممرضة تزوجت فى جنوب التحرير أولا ثم جاءت إلى

---

(١) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٨٨/٩/٩
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٧/١٠/٣١
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/٢/٢٧
(٤) عبد العزيز محمد الحسينى - هل نحن أمة من المجانين - بدون إسم ناشر - ١٩٩٤
(٥) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٤/٢٠
(٦) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٨/١٢/١٠

كوم حمادة لتتزوج من رجل آخر .. أما حكاية كفر الدوار فتختلف قليلا .. حيث الذى أجبر الزوجة على الزواج من رجلين .. كان والدها نتيجة الطمع فى المهر والشبكة .

هذة هى بعض أوجاع الجنس وأزماته فى مدن شمال مصر .. أوجاع أشبه فى حقيقتها بجبال من جليد غارقة فى الماء لا نرى على السطح إلا قمتها فقط بينما هى فى الأعماق تتمدد وتتشعب وتتضاعف مساحتها .. أوجاع بالفعل تدعو إلى الخوف والقلق .. وتطرح فى إلحاح تساؤلا عما بقى لهذة المدن من قدرة على الصبر وعلى التماسك وعلى المقاومة .. ومع ذلك فهى أوجاع تبدو أقل إيلاما من أوجاع الجنوب ومدن الجنوب بالرغم من أن أوجاع الجنوب قد تبدو أقل عددا .. فإذا كانت أوجاع الشمال قد بدأت نتيجة الإهمال والحيرة والإضطراب .. ثم تراكمت وتضخمت نتيجة أزمات إجتماعية وإقتصادية قاسية ومعقدة .. حينئذ يسهل أن نتوقع أو نتخيل شكل أو مساحة أوجاع الجنوب التى هى بالتأكيد أكثر حدة وأكثر قسوة .

فإذا تعاملنا مع الجنس وعلى أنه أزمة إقتصادية .. فإن الجنوب أكثر فقرا .. حيث إستثمارات الحكومة وإنجازاتها وتوفير فرص العمل كلها من نصيب الشمال وحده .. وحيث يقل متوسط الدخل السنوى للأسرة فى الجنوب بخمسمائة جنيها عن متوسط الدخل فى الشمال (١) .. وفى المقابل يصل متوسط الدخل الفردى فى القاهرة إلى قرابة الألف جنيها سنويا (٢) بينما هو فى بنى سويف مثلا لا يزيد عن خمسمائة وأربعين جنيها .. أو خمسمائة وعشرين جنيها فى أسيوط .

وإذا تعاملنا مع الجنس وعلى أنه أزمة إجتماعية .. فإن الجنوب يبدو كطريق طويل ملتوى يفيض بكل أنواع الأزمات والهموم والخطايا الإجتماعية .. طريق مزدحم يختنق بالبشر وفيه كل شرور وآثام الزحام .. فيه أيضا تقل فرص الحياة اللائقة – أو الممكنة على الأقل – من مدارس ليست تكفى كل الصغار .. إلى كهرباء ومياة نقية ليست تدخل كل البيوت .. إلى بيوت ليست تكفى الجميع فتنتشر العشوائيات وحياة العشش والخيام والإسكان المشترك .. هذا كله بالإضافة إلى أزمات وهموم أخرى مزمنة كالثأر والعنف والإحساس باليأس والإحباط والرغبة الدائمة فى الهجرة والرحيل إلى الشمال .. أو على الأقل غياب كثير من الرجال الذين سرقتهم دوامات الزيت فوق رمال العرب .

فإذا كنا قد نسينا ذلك ثم إمتلكنا صفاقة ووقاحة القدرة على الدهشة حين إكتشفنا (٣) أن إثنين وثمانين بالمائة من شباب المتطرفين والأصوليين ينتمون إلى مدن وقرى الجنوب .. فلا أعتقد أنه يليق بنا أن ننسى مرة أخرى أو نعود إلى صفاقتنا ووقاحتنا مرة أخرى ونندهش إذا ما جاء يوم نكتشف فيه أن الجنس فى الصعيد قد أصبح قنبلة متوترة مشتعلة منزوعة الفتيل تنتظر إنفجارها غدا أو بعد غد .. قنبلة تخاف منها وتخشاها سبعون مدينة هى كل عواصم ومراكز صعيد مصر .. فالفيوم مثلا .. المحافظة الأكثر فقرا وفقا لتقارير البنك الدولى (٤) .. لا تحصد ثمار هذا الفقر الموجع كمجرد جماعات دينية متشددة ومتطرفة فقط .. وإنما قد تحصده أيضا فى صورة جرائم وقضايا إغتصاب أيضا .. جرائم حدثت ولا تزال تحدث فى عشرة مناطق عشوائية

(١) مجلة المصور – عدد ١٦/٤/١٩٩٣ ، جريدة الأهالى – عدد ٢٣/٣/١٩٩٤
(٢) مجلة الوسط – لندن – عدد ٢٦/١٠/١٩٩٢
(٣) مجلة أكتوبر – عدد ٢٣/٥/١٩٩٣
(٤) جريدة أخبار اليوم – عدد ١٥/٥/١٩٩٣

تكتظ بها الفيوم .. كدار الرماد والكيالين وقحافة الجديدة وعزبة جيلي والحاكورة والشيخة شفا .. وجرائم أخرى في شوارع وطرقات المدينة أشهرها على الإطلاق كانت حكاية إيمان [1] .. حكاية كان من المفترض أن تشغل بال مصر طويلا لولا أن وقائعها جرت في الفيوم وليس في القاهرة .. حكاية إختصرت كل أوجاع وخطايا مدينة الفيوم .. نجد فيها الحب وكيف يتحول هذا الحب إلى دعوة لتكسير الكثير من القيود والقواعد الإجتماعية والأخلاقية .. ونجد فيها الرغبة وكيف تسفر عن هتك العرض ثم الإغتصاب .. ونجد فيها سلاح التشهير وكيف يمكن أن يلجأ إليه ضابط بمباحث الآداب فقط ليجامل أصحاب النفوذ أو أصحاب الثروة .

هذة ليست كومة من تناقضات وغرائب .. وإنما هى حكاية إيمان .. الحكاية التى - وفقا لرواية جريدة الأهرام - تدين ثلاثة من الشبان .. قاموا بتخدير إيمان ثم إصطحبوها إلى مخزن للأخشاب يملكه والد أحدهم .. وهناك قاموا بتجريدها من ثيابها وتصويرها عارية وإغتصابها .. وباتوا يبتزونها بصورها العارية لتمارس معهم الجنس .. حتى ذهبت الفتاة للنيابة تفضح الأمر كله .. وتستكمل جريدة الوفد الحكاية لتدين بعض ضباط مباحث آداب الفيوم الذين حرروا الواقعة كلها وعلى أنها مجرد معاكسة أنثى فى الطريق العام مجاملة لوالد أحد المتهمين يملك عدة مصانع للطوب ويتمتع بنفوذ كبير وثروة أكبر .. بل وأضاف أحد الضباط أن إيمان فتاة ساقطة تتعاون كمرشدة لرجال الآداب .. ثم أطالت الجريدة فى الحديث عن إيمان نفسها .. الفتاة المثالية والطالبة بالثانوية العامة التى لها نشاط إجتماعى بارز فى مدرستها وسبق لها مصافحة محافظ الفيوم أثناء زيارته للمدرسة .. وأنا بالطبع مع جريدة الأهرام أدين هؤلاء الشبان الذين أدانتهم محكمة الجنايات بالفعل .. ومع جريدة الوفد أدين المسئولين والرسميين الذين حاولوا محاباة أحد أصحاب النفوذ على حساب الحق وكبرياء البسطاء والفقراء .. لكن لماذا لم يتحدث أحد عن إيمان نفسها .. الفتاة التى وصفتها الوفد بالطالبة المثالية .. وما الذى يدعو طالبة مثالية لا تزال فى المرحلة الثانوية لأن تقبل دعوة شاب فتصحبه فى سيارته ومعه تذهب للنزهة فى القاهرة .. إن الجميع تحدثوا عن رحلة الإياب التى إنتهت بالتخدير والتصوير والإغتصاب .. لكن ماذا عن رحلة الذهاب .. وهل عدم الحديث عنها يعنى أنه من المألوف أن تقع التلميذة فى الحب فتذهب مع من تحب - دون علم أهلها - إلى أى مكان .. وهل هى أول رحلة تقوم بها إيمان .. وأنا أصدق أنها لم تذهب بقصد ممارسة الجنس .. ولكننى أتسائل عن دوائر المسموح والممنوع فى عقل إيمان وهى تجلس إلى جوار الشاب فى السيارة تقلهما إلى القاهرة .. وعن المسموح والممنوع فى عقل أية فتاة إختلطت عليها الأمور ما بين تقاليد قديمة وأفكار وتطلعات جديدة .

أنا لا أقصد إدانة إيمان .. أو أية فتاة أخرى .. بقدر ما أسعى إلى تصوير واقع باتت تعيشه مدينة الفيوم .. فبعد عام واحد فقط من حكاية إيمان وصورها العارية .. تم القبض على دجال فى الفيوم [2] يتخذ من مسكنه وكرا لمزاولة أعمال السحر والشعوذة .. وعرض الأفلام الجنسية والفاضحة .. وليست هذة هى القضية .. القضية الحقيقية كانت أن هذة الأفلام العارية تم تصويرها فى الفيوم نفسها .. فقد بدأ هذا الدجال يستغل شهرته فى إجادة قراءة الطالع وكشف

---

(١) لم تهتم صحيفة بحكاية إيمان قدر إهتمام صحيفة الوفد التى تابعت القضية منذ الإعلان عنها وحتى صدور الحكم فيها بالإدانة .. وتابعت الصحيفة أخبار إيمان بشكل منتظم .. وكان آخر أعداد الجريدة الذى تناول هذة القضية بتاريخ ١٩٨٥/٢/٧ . ونشرت جريدة الأهرام الحكم والحكاية كلها وتجاوزاتها فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٦.

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٦/٤/٩

المستور ليستقبل فى بيته النساء والفتيات ويقوم بتصويرهن فى أوضاع مخلة .. ثم يعرض هذة الأفلام فيما بعد على الرجال والشباب الذين ليسوا كلهم فى حاجة إلى مشاهد العرى ليتكثف الإحساس بالرغبة تحت جلدهم .. رغبة بات من السهل عليها أن تنتهى بالإغتصاب دون حب وأقراص مخدرة وصور عارية هذة المرة .. فيقوم مجموعة من الأصدقاء (١) بإغتصاب زوجة صاحب كافيتيريا .. الزوجة جميلة وسبق لها وأن أثارت إعجاب الأصدقاء .. ولم تمنعهم صداقتهم بزوجها من مراودتها عن نفسها فى محاولات دائمة لإستغلال الخلافات المزمنة بينها وبين زوجها .. ولأنها رفضت مجاراتهم .. قاموا بإغتصابها بعد تهديدها بقتل طفلها إن لم تستسلم لهم .. وهناك جريمة أخرى تستدعى التوقف .. جريمة إغتصاب وجماعية أيضا(٢) .. الجديد فقط كان أحد المغتصبين لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر بينما كان الآخرون فى أوائل العشرينات .. الجديد أيضا فى تلك الجريمة أنها تمت فى وضح النهار .. وفى أحد شوارع مدينة الفيوم العامة والمزدحمة .. وأخيرا كانت هناك الفتاة (٣) التى إرتبطت عاطفيا بأحد الشبان إرتباطا تحول - بعد كثير أو قليل من الغرام والهوى - إلى علاقة جنسية تجمع الفتاة بهذا الشاب .. وحين تقدم الشاب يطلب الفتاة للزواج رفضه الأب .. فما كان من الفتاة إلا أن أقنعت عشيقها بقتل الأب حتى يمكن لها أن تعيش مع الشاب فى حرية بلا أى مانع أو قيد

وبقليل من الإختلافات .. تتكرر الصورة فى مدينة بنى سويف .. وفى مدن الفشن وإهناسيا والواسطى وببا وناصر وسمسطا التى تتكون منهم محافظة بنى سويف .. المحافظة التى لا يتعب أى أحد فى محاولة العثور لها على لقب تتميز بها عن سائر محافظات مصر .. فهى أحيانا محافظة التجارب .. وفى أحيان أخرى هى المحافظة الطيبة التى إكتسبت طيبتها وتسامحها نتيجة ظروفها وموقعها وبيئتها .. وهى أيضا محافظة الفقراء أو محافظة اليأس العظيم .. المحافظة التى يسكنها وينتمى إليها مليون ونصف المليون مصرى تخصص لهم الحكومة أقل نسبة (٤) من موازنة الدولة العامة كل عام .

وإذا كانت بنى سويف .. واحدة من مدن مصر القليلة التى لا تشكو من جرائم الإدمان .. ومن مدن الصعيد القليلة التى لا تعرف تجارة السلاح بشكل مزعج أو مخيف .. ومن المدن الفقيرة التى لم تتورط مع الإرهاب وتستسلم له تماما بإستثناء حادث مسجد الشادر فى حى المرماح عام ١٩٩٢ .. فإنها ليست من المدن التى لا تشكو من التوتر الجنسى .. أو من المدن التى لا تعرف الرغبة دائما .. فتصمد وتقاومها أحيانا .. وتستسلم وتستجيب لها أحيانا أخرى .. فهناك حكايات تقال هنا أو هناك عن خطايا وإنحرافات .. وهناك شبكات لتجارة المتعة .. وهناك أوكار لأفلام الجنس والرذيلة مثل ذلك الوكر (٥) الذى كان يديره تاجر أحذية فى منزله إلى أن القى البوليس القبض عليه .. وإذا إنتقلنا من بنى سويف مثلا إلى مدينة أهناسيا .. فسنكتشف نفس القيود والضوابط التى بدأ صوتها يخفت ويتوارى .. وعلى سبيل المثال تستيقظ المدينة ذات يوم على جريمة قتل مروعة .. قتل فيها أحد مدرسى مدرسة النويرة الإبتدائية زوجته (٦) بعدما

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٠/١١/٨
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩١/٢/١
(٣) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٦/٢٩
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٠/١٢/٢٠
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٠/١/٢٢
(٦) جريدة الحوار - عدد ١٩٩٤/٦/٢٩

إكتشف علاقتها الجنسية الطويلة والعميقة مع فران بأحد المخابز القريبة .. جاء الزوج يوما فإكتشف الفران مختبئا تحت السرير .. فذهب إلى والد زوجته وأخبره بسلوك إبنته .. ولما لم يلق حديثه أى إهتمام .. قرر أن يداوى جراحه بنفسه .. فدس المخدر لزوجته فى كوب الشاى .. وحين غابت عن الوعى سكب الكيروسين فوق جسدها وثيابها وأشعل فيها النار وأغلق عليها باب الشقة وذهب ينتظر موتها على أحد المقاهى القريبة .

وبالرغم من ذلك .. فلا حديث هناك عن الجنس فى محافظة بنى سويف يمكن أن يبدأ أو يستقيم بغير الإشارة إلى العشوائيات .. وبالتحديد فى مدينة بنى سويف .. فى أحياء الغمراوى والأزهرى وعزبة أبو عقل .. وفى شوارع الخضار والحبال وإسلام وبجوار سور المدرسة الثانوية العسكرية .. حيث يعيش سبعة وثلاثون بالمائة من سكان المدينة إما فى بلوكات من دورين مقسمة إلى حجرات منفصلة .. وإما فى عمارة للإيواء أيضا مقسمة إلى حجرات .. أو فى أكشاك خشبية .. هذا غير البيوت الطينية التى تتكاثر فى أرجاء المدينة هنا وهناك بل وتتمدد بأهلها وحيواناتها خلف مبنى المحافظة مباشرة .

وبدون مشقة وجهد .. بإمكان أى أحد إن يكتشف كيف بات الجنس أحد الأزمات الثقيلة والمخيفة فى عشوائيات بنى سويف .. إغتصاب قد يتم داخل الحجرة نفسها التى تقيم فيها العائلة .. فقد إستيقظ مثلا رب أسرة على صرخات إبنته ليكتشف أن أحدهم تسلل إلى الغرفة وحاول إغتصاب الإبنة .. أو إغتصاب يتم فى دورات المياة المشتركة المقامة فى الهواء الطلق .. فعلى سبيل المثال تعرضت زوجة لإعتداء شاب إقتحم عليها دورة المياة وبقى يطاردها حتى غرفتها مستغلا غياب زوجها .. وأخرى كفيفة النظر فوجئت فى دورة المياة بشاب معها ممسكا بصدرها محاولا إنتهاك جسدها .. هذا بالطبع غير الشكاوى التى لا تنقطع من معاكسة الفتيات والتحرش بهن .. وأيضا غير معاناة الأزواج الذين تعين عليهم عدم ممارسة الجنس مع زوجاتهم .. أو معاناة الأولاد والبنات فى سن المراهقة الذين يتعين عليهم النوم متلاصقين كلهم فى فراش واحد .

ومع ذلك .. فليس لمدينة بنى سويف أن تخاف من عششها وعشوائياتها أكثر مما تخاف مدينة المنيا .. عاصمة العشش فى كل الصعيد .. والمدينة التى بدأت تشهد تراكم هذة العشش منذ عشرين عاما على الأقل .. فكانت البداية فى عشش محفوظ والصباحية ثم إنتقل كوبرى المنيا بالعشش إلى أبو هلال بالإضافة إلى مناطق عين شمس وشلبى وخلف مدرسة الساداات الثانوية أو خلف مستشفى الصدر .. وفى هذة العشش لم يعد التحرش بالنساء والفتيات أمرا طارئا أو إستثنائيا مطلقا .. بل ويعترف أحد سكان هذة العشش بأنه لن يصبح طارئا أو إستثنائيا أيضا أن تنزلق فتيات كثيرات إلى مستنقع الرذيلة .. فهؤلاء الفتيات يعانين منذ الصغر من إهدار إنسانيتهن .. وإعتدن الحياة بدون خجل أو حياء أو خصوصية .. لكن ليست قضية العشش وتعدياتها وتنازلاتها هى القضية الوحيدة التى تعين على بنات المنيا مواجهتها .. ففى واقع الأمر هناك مدينتان تحمل كل منهما إسم المنيا .. الفارق بينهما هو الإسم .. فهناك المنيا القديمة والمنيا الجديدة .. فارق آخر بينهما هو أن المنيا القديمة – أو المنيا قبلى – والتى تضم وسط المدينة وأرض المولد وبعض العزب القديمة .. هى المدينة التى لا تزال مسكونة بالتاريخ والتقاليد والأعراف القديمة .. أما المنيا الجديدة – أو المنيا بحرى – والتى تضم أرض سلطان وأراض الجامعة .. فهى المدينة التى خرجت من التاريخ تفتش عن المستقبل .. فلم تعد جريمة فى المنيا

الجديدة اليوم أن تخرج الفتاة إلى الشارع بدون حجاب أو ثياب طويلة تتدلى حتى القدمين .. وإنما هناك أحدث خطوط الموضة والأزياء تجئ بها الفتيات والطالبات من القاهرة والإسكندرية [١] فتراكمت فى المنيا قضايا الحرية حين تسرف بعضهن فى ممارستها .. وفى المقابل كانت هناك قضايا الكبت والأغلال حين تنتهى بالإحساس بالقهر والدونية .. وكأن المنيا كمدينة .. باتت إختصارا لمصر الدولة والوطن .. مصر الحائرة بين القديم والجديد .. بين الحرية إلى حد الفوضى وبين القيد إلى حد الكبت والقهر .. وكأن الحرية بدون فوضى هى المستحيل الذى ننشده .. وكأن قواعد الدين والأخلاق بدون كبت أو قهر هى الوهم الذى نطاردة وأبدا لن نصل إليه .

وأنا بالطبع أتحدث عن مشاكل المنيا – الجديدة والقديمة – وعما يمكن أن تنتهى إليه هذة المشاكل من تجاوزات أو إنهيارات .. ودون أن أقصد مطلقا هذة التجاوزات التى لا علاقة لها بالمجتمع الطبيعى وأزماته الملحة والعاجلة أو حتى المؤجلة .. تجاوزات مثل حكاية مادلين سعيد[٢] الزوجة التى لا تزال فى الرابعة والعشرين من عمرها .. ولم تجد إلا شقيق زوجها الذى يصغرها بعام واحد فقط لتتخذ منه عشيقا لها .. فكانت كلما إجتاحتها الرغبة أرسلت تستدعى شقيق زوجها ليمارس معها الجنس .. وبالرغم من ذلك .. ضاقت مادلين بزوجها فقررت التخلص منه .. ولم تكترث برفض العشيق لأن يقتل شقيقه فقتلته هى ذبحا وهنا لم يمانع العشيق فى أن يساهم فى التخلص من الجثة بإلقائها للكلاب الضالة .. وحكاية أخرى [٣] .. شاذة أيضا .. راحت ضحيتها طفلة فى السادسة من عمرها .. إغتصبها شاب فى التاسعة عشرة من العمر ولم يتركها إلا جثة هامدة .

ويبدو أن المعاناة فى محافظة المنيا ليست قاصرة على العاصمة وحدها .. ففى سمالوط خان أحد الرجال زوجته وإلتقى بإمرأة خانت نفسها فدفع طفل صغير وبرئ ثمن هذة الخيانة [٤] .. طفل فى الثالثة من العمر قتلته إمرأة وأم لتسعة أبناء .. قتلته بعد أن إكتشفت علاقة آثمة بين أم الطفل وبين زوجها .. وفى مدينة ملوى قام رجل بذبح إبنة عمه وأولادها الأربعة [٥] .. وكانت إبنة العم أرملة فى الثامنة والثلاثين من العمر .. مات عنها زوجها فلم تصمد طويلا وسرعان ما إستسلمت وأقامت أكثر من علاقة جنسية مع عدد من الأصدقاء والأقارب .. أقامت أيضا علاقة مع أحد بائعى الكشرى الذى سبق له إغتصاب أبنتها الكبرى التى تخطت الثامنة عشرة من العمر .. أقامت أخيرا علاقة جنسية مع إبن عمها .. نفس السفاح الذى قتلها فيما بعد حين طالبته العائلة بالتخلص من الأرملة بعد أن باتت حكايتها وفضيحتها على كل لسان .. لكن أبن العم لم يتخلص من الأرملة فقط حين طرق باب بيتها فى الصباح .. وإنما قام أولا بذبحها هى وإبنتها الكبرى .. ثم بقى فى البيت ينتظر عودة أولادها من المدرسة .. إبن وإبنة فى المرحلة الإعدادية وإبنة فى السنة الثانية بالمرحلة الإبتدائية .. جميعهم ذبحهم السفاح .. بنفس القسوة والوحشية .. ونفس السكين أيضا .

وبعد المنيا .. أسيوط .. ولابد وأن يطول أى حديث عن أسيوط .. الخنجر المغروس فى قلب

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/٧/١٥
(٢) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩١/١٢/٦
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٨/٩/٥
(٤) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/٧/٢٣
(٥) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

مصر .. وردة الجبل التى روتها - ولا تزال - كثير من الدماء والدموع .. المدينة التى يأتينا منها الخوف والرصاص والتطرف والعنف ووزراء الداخلية .. المدينة التى تقتل أكثر من أية مدينة أخرى فى مصر .. وتخرج على القانون أكثر من أية مدينة أخرى .. ولست أقصد فقط التطرف أو الإرهاب .. وإنما أقصد بالقتل والخروج على القانون المدنى الذى نعرفه جميعا فى مصر .. فأكبر كذبة فى تاريخ أسيوط روجها الإعلام المصرى كانت أن هذة المدينة هى فقط وكر للتطرف .. مجرد عاصمة شهيرة ومزعجة للأصوليين والإرهابيين .. وقد يكون هذا صحيحا .. أو هو صحيح بالفعل .. لكنه صحيح أيضا أن أسيوط عاصمة للعنف فى كل شئ .. والتطرف فى كل شئ .. هذة هى الحقيقة التى يؤكدها تقرير الأمن العام لسنة ١٩٩٢ .. فمن هذا التقرير نخرج بأن أسيوط هى الأولى من ناحية إرتكاب الجنايات .. فيها إرتكبت أربعة عشر بالمائة من كل جنايات مصر .. هى الأولى أيضا فى إرتكاب جنايات القتل العمد وجنايات الضرب المفضى إلى الموت وجنايات القتل دفاعا عن الشرف ودفعا للعار وجنايات القتل نتيجة الخلافات العائلية .

ولا نخرج من ذلك كله إلا بأننا أمام مدينة إستثنائية جدا .. ومختلفة جداً عن أية مدينة أخرى فى مصر .. ولا يبدو أن أحدا منا يود معرفة السبب أو التفسير .. لا أحد يريد أن يجيب على هذا السؤال .. لماذا أسيوط .. ولماذا كل هذا العنف وكل هذا الدم .. هل هى تراكمات التاريخ .. هل هو الفقر القاسى والإحباط الأشد قسوة .. هل هى البطالة الدائمة والهجرة الدائمة والمعاناة والألم فى كل وقت .. أم هى التناقضات الفكرية والإقتصادية والإجتماعية .. التى أحالت حياة المدينة وأهلها إلى مسرحية عبثية وهزلية لن يضع نهايتها الضرورية الا بالموت والدم .

كل هذة الأسباب ممكنة .. كلها صحيحة أيضا .. فالتاريخ والفقر والتناقضات كلها سبب أوجاع مدينة إسمها أسيوط .. تاريخ لم ينته مطلقا بالغاية التى سعى إليها حين بدأ .. ولم يبدأ تاريخ أسيوط فى العصر الحديث إلا عام ١٨٥٨ .. حين وافق (١) سعيد باشا على البناء فوق أراض الأوقاف .. يومها بدأت أسيوط تبنى نفسها من جديد .. تبنى بيوتا وقصورا وأحلاما أيضا .. ولماذا لا تحلم .. فهى المدينة الأكبر فى كل الجنوب .. وهى أهم مركز تجارى فى الصعيد تمتد علاقاتها فى الشمال حتى الإسكندرية .. وفى الجنوب حتى السودان .. وزادت بالطبع أهميتها وتضاعف ثقلها بعد موافقة سعيد باشا على التوسع العمرانى .. وبعد أن جاءها أول قطار قادم من القاهرة عام ١٨٧٤ .. وبعد أن رحل عنها أول قطار فى طريقه إلى أسوان عام ١٨٩٨ .. وبدأت المدينة بالفعل تستعد لأن تكون عاصمة الصعيد .. فقد كان الصعيد يفتقد دائما لقلب طبيعى تلتقى حوله مدن وأقاليم وقرى متناثرة على ضفاف النيل من أسوان إلى الجيزة .. وإعتقدت أسيوط - عن حق - أنها هى ذلك القلب المفتقد .. سواء من ناحية الدور السياسى أو النشاط الإقتصادى أو حتى من ناحية (٢) عدد السكان .. وهو ما إستمر حتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .. ففى تعداد عام ١٩٤٧ مثلا .. كانت أسيوط هى أكبر المدن ويسكنها تسعون الفا .. رقم لم تكن تقترب منه أية مدينة أخرى فى الصعيد كله .. فالمنيا مثلا كان يسكنها سبعون الفا بينما يسكن سوهاج ثلاثة وأربعون الفا ويسكن أسوان ستة وعشرون الفا .. ومنذ ذلك التعداد وأسيوط تتصدر مقدمة أكثر مدن الصعيد سكانا .. وبدلا من أن يساعدها ذلك النمو المستمر .. وهذا

(١) د. حلمى أحمد شلبى - فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨
(٢) د. جمال حمدان - القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٥١٠ - ١٩٩٢

النشاط العمرانى الدائم .. لأن تكون بالفعل قلب الصعيد وعاصمته .. تحولت أسيوط إلى قلب يسكنه الخوف وعاصمة للإرهاب والموت .. وبدلا من أن تلتفت الحكومات المصرية المتوالية منذ ثورة يوليو إلى هذة المدينة وحلمها الكبير .. كان التجاهل والإهمال والنسيان .. كانت مجرد جامعة أقمناها فى المدينة ثم إستراحت ضمائرنا إلى ذلك ورحنا ندعى أننا غرسنا شعاع النور فى قلب الصعيد المظلم .. ونحن فى الواقع وفى الحقيقة لم نغرس إلا بذور المزيد من التخلف والفقر والعنف والغضب .. فكان أن بدأت المدينة الحزينة تتنازل عن أحلامها حلما بعد حلم .. وبدلا من أن تصبح أسيوط قلبا للصعيد .. إخترقت العشوائيات قلبها هى .. حى الوليدية مثلا (١) الذى يتمدد على مساحة ستة كيلومترات فى قلب مدينة أسيوط .. تبدأ بشارع أنيق مرصوف تظلله الأشجار .. وإستراحة مدير الأمن .. ومنطقة الخزان أرقى مناطق أسيوط .. ثم تنتهى بطرقات كانت مرصوفة وحارات ضيقة وبيوت يتكوم فيها البشر بأحلامهم المجهضة ومناعتهم التى علاها الصدأ .. ونجد أنفسنا أخيرا على قمة جبل الفقر والهموم .. ليست القمة الوحيدة .. فهناك أربعة قمم أخرى للعذاب .. غير الوليدية هناك جنينة درويش والسادات والبيرى وجسر السلطان .. يسكن فوقها واحد وخمسين بالمائة من أهل أسيوط .. أكبر مدينة فى مصر كلها (٢) يعيش فيها الناس داخل بيوت الإسكان

المشترك .. إثنا عشر بالمائة من عائلات المدينة فى تلك البيوت مقابل خمسة عشر بالمائة فقط من عائلات المدينة فى الشقق الخاصة .. صورة قاتمة جدا وحزينة جدا .. لست أراها فقط دعوة لتفريغ المزيدمن شباب غاضب ييأس فيتطرف فيحمل السلاح ليموت شهيدا كما علموه وأقنعوه .. إنما هى بالمقابل دعوة لممارسة الغضب واليأس بطريقة أخرى .. قد تكون الجنس وقد تصبح الخطيئة التى ليس الوقوع فيها قاصرا على الغاضبين والغاضبات .. وإنما وقع فيها ومارسها أيضا أولئك الذين لم يغضبوا مرة طوال حياتهم .. والذين نظرن إلى أجسادهن ومفاتنهن فلم يفقدن اليأس مطلقا فى اللحاق بقطار الحياة .. منهن كانت زوجة جميلة وإسمها أيضا جميلة (٣) مات زوجها فلم تقنع بأن تحبس هذا الجمال فى قمقم الحزن والترمل وتعيش بلا رغبة أو نشوة .. وكان أن راحت تفتش عمن يطفئ رغباتها .. فلم تجد إلا عم زوجها الراحل الذى ما إن إستمتع بجسد أرملة إبن شقيقه حتى عاد يفكر فى الزواج من فتاة أخرى غير عشيقته التى حاولت قتله ولم تنجح .

وفى سوهاج .. قد لا يبدو الجنس مشكلة أو أزمة .. وهو بالفعل – وحتى اليوم – لم يتحول بعد إلى مشكلة حادة أو أزمة معلنة .. لكن سوهاج .. مثلها مثل أية مدينة أخرى فى مصر .. تعانى وتشكو وتتوجع .. ومع ذلك تتماسك وتصمد وتقاوم .. ومن المؤكد أنها تود وتحلم بالبقاء هكذا حتى تنتصر فى النهاية على الشيطان الذى تواجهه .. ولكن الواقع لا يعترف أحيانا بالأحلام أو النوايا الطيبة .. ولا الشيطان أيضا .. والمبادئ والقيم ممكن أن يهزمها الفقر .. أو الرغبة .. أو تناقضات إجتماعية وإقتصادية صارخة وقاسية كتلك التى تعيشها مدينة سوهاج .. المدينة التى يقسمها النيل إلى سوهاج الشرق وسوهاج الغرب .. ويقسمها الزمن أيضا إلى شرق

---

(١) جريدة الأهرام – ١٩٩٤/٣/٢٩

(٢) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٣) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٤/5/16

وغرب .. حيث سوهاج الشرق هى سوهاج الجديدة .. مدينة ناصر التى غرسوها فوق الزرع والورد والشجر والأرض الطيبة .. ومبنى المحافظة والجامعة والمدينة الجامعية ونادى القضاة ونادى الشرطة .. وحيث سوهاج الغرب هى سوهاج القديمة .. الكثير من البيوت الريفية المتلاصقة والحوارى الضيقة وميدان سيدى العارف وميدان مجلس المدينة والسينما القديمة وحديقة الحيوان ومحطة القطار وسوق القيسارية التى لابد وأن تذهب إليها كل فتاة فى سوهاج لتختار شبكتها وذهب عرسها قبل زفافها .

وليس الشرق الجديد الذى يسعى إلى مسايرة التطور فى كل شئ وملاحقته فى كل مجال والغرب القديم الذى لا يزال ينظر للوراء بنصف عين ونصف حنين ونصف إشتهاء .. هو التناقض الوحيد الذى تعيشه مدينة سوهاج .. وإنما هناك تناقض أشد قسوة وأكثر خطورة .. هو ذلك التناقض ما بين عشرين الف أسرة فى المدينة تقيم كل منها فى شقة خاصة بها وحدها .. وما بين الثمانية الاف أسرة فى نفس المدينة لكنها تسكن العشش والغرف وبيوت الإسكان المشترك بلا حواجز أو أبواب مغلقة .. غير خمسة وثلاثين الف أسرة - فى مدينة ومركز سوهاج - تعيش فى بيوت ريفية .. أما التناقض الثالث .. فهو الذى يطلع علينا من كتاب التاريخ .. ويخرج إلينا من أرض الواقع أيضا .. ومن المؤكد أن الرحلة ما بين التاريخ والواقع .. تماما تشبه رحلة سوهاج المدينة من عام ١٧٩٩ حتى عام ١٩٩٣.. فى العام الأول .. ١٧٩٩ .. كانت سوهاج مدينة لا تزال قادرة على الإحتفاظ برجالها على أرضها وفى بيوتها وشوارعها .. رجال تجمعوا وتماسكوا ووقفوا يوم الثالث من يناير فى وجه الفرنسيين يرفضون دخولهم المدينة .. يومها كسرت سوهاج أنف نابليون ورفضت الهزيمة أو الإستسلام .. يومها قدمت سوهاج ثمانمائة رجل من خيرة رجالها وشبابها ليموتوا تحت أقدام عسكر الفرنسيين حتى لا تموت سوهاج نفسها بتاريخها وكبريائها وشموخها .. وفى العام الثانى .. ١٩٩٣ .. كان الكثيرون من رجال سوهاج قد باتوا غرباء عن مدينتهم .. طوتهم أرض أخرى وإختطفتهم مدن وبلاد بعيدة .. حتى جاء اليوم الذى أصبح فيه أبناء سوهاج هم الأكثر غربة ورحيلا .. منهم من يرحل وفى نيته ألا يعود مرة أخرى .. وهؤلاء هم الذين يشكلون اليوم [1] تسعين بالمائة من كبار تجار الخضر والفاكهة فى القاهرة .. ومنهم إثنان وعشرون عضوا بمجلس الشعب اليوم يمثلون مدنا ودوائر إنتخابية لا علاقة لها بسوهاج مطلقا .. ومنهم كثيرون جدا من أصحاب المحلات والمقاهى والمطاعم فى القاهرة والإسكندرية .

وكان لابد وأن يأتى ذلك اليوم الذى تتراكم فيه كل هذه التناقضات .. ليزيد من قسوتها أن سوهاج من أكثر مدن مصرى شكوى من الكثافة السكانية والزحام .. ومن أكثر المدن نقصا فى الخدمات الأساسية إلى حد نقص العمر الإفتراضى للإنسان فى سوهاج عنه فى مدن مصر الأخرى[2] .. ومعها تخفت حدة الرقابة فى البيت والمدرسة والجامعة .. ليصبح الإنحراف ممكنا وقائما وسهلا أيضا .. هذا هو ما يمكن أن نخرج به من متابعة إحدى القضايا التى أزعجت سوهاج مؤخرا .. قضية القبض على شبكة للدعارة يقودها ثلاثة مدرسين بالمرحلة الإعدادية فى

(١) جريدة أخبار اليوم -عدد ١٩٩٣/٧/٣
(٢) جريدة العربى - عدد ١٩٩٤/٥/٢٣

إحدى مدارس مدينة سوهاج [1] .. ولم يكن ذلك هو المزعج .. إنما كان المثير للحزن وللدهشة أن عاهرات هذة الشبكة كن من طالبات المدارس .. ثمانية عشر طالبة إحترفن خلع ثيابهن لمن يدفع الثمن .. رغم أعتقد أنه في مدينة صغيرة مثل سوهاج .. يعنى الكثير جدا .. يعنى أن الخلل قد بدأ بالفعل .. وأن السد المنيع بدأت بعض أطرافه تسقط وتتهاوى .. وهذا هو ما تدل عليه قضية أخرى جرت وقائعها أيضا فى مدينة سوهاج [2] .. وتتلخص فى إكتشاف أحد تجار سوهاج أن شقيقته الصغرى .. التى لا تزال فى الثانية والعشرين من عمرها ولم تتزوج بعد .. قد أقامت علاقة غير شرعية أسفرت عن جنين يتكوم فى أحشائها .. صحيح أن الفتاة بعد أن تلقت عشرة طعنات من شقيقها لم تمت .. لكن ماتت فتاة أخرى عاد أبوها بعد غربة عامين فى إحدى البلاد العربية ليكتشف إنحراف إبنته [3] .. فقتلها بعد خمسين طعنة مزقت جسها .. لتموت الفتاة هذة المرة .. ومعها كانت هناك أشياء أخرى تموت أو مرشحة لأن تموت .. أشياء كان بإمكانها أن تمنع تاجر أحذية من إختطاف فتاة فى الحادية والعشرين من عمرها كانت تعمل فى المحل الذى يملكه [4] .. ويسافر بها إلى أسيوط ليغتصبها ستة عشر رجلا على مدى أربعة أيام كاملة .. وأشياء أخرى أعطت بالفعل فتاة أخرى فى السادسة عشرة من عمرها [5] كل ما كانت تحتاجه بالفعل من ثقة وقوة لتقاوم وحدها أربعة شبان حاولوا إغتصابها .. ونجحت فى إصطياد أحدهم والإيقاع به أرضا .

وإنهالت عليه ضربا حتى إضطر الثلاثة الآخرون للفرار منها .

أما قنا .. محافظة المشاوير البعيدة .. والمدينة التى قد لا يرغب الكثيرون بالذهاب إليها .. والتى بناها الرومان بعد ميلاد المسيح بثلاثين عاما فى محاولة منهم لإعلان الحرب على طيبة .. المدينة القديمة .. ولهذا أطلقوا عليها إسم كينا بوليس .. أى المدينة الجديدة .. مدينة لم تتخيل مطلقا أن يأتى يوم تشعر فيه بكل هذة المعاناة وهذا الألم .. ومحافظة لم تتخيل أن تصدر الألومنيوم للعالم وهى تشكو كل هذا الفقر .. وتنتج ستين بالمائة من السكر المصرى وفى أعماقها كل هذة المرارة .. فالمشاكل لا حصر لها ولا تبدو نهاية هناك لطريق الآلام الطويل .. فقر وجهل وبطالة وصراعات قبلية وحكايات للثأر فاضت بالدم والموت ومدارس ليست قادرة على شئ وجامعة جديدة ليست لها بواقع الناس أو المكان أدنى علاقة .. غير أن أهم مشكلتين تعين على قنا وأهلها مواجهتها مؤخرا كانتا .. صراع الماضى والمستقبل .. والعشوائيات .

وكنتيجة لهذا الصراع بين القديم القادر على الحفاظ على تقاليد الماضى .. والجديد الذى بات أكثر تطلعا للمستقبل بما فيه من حرية وتسامح وتساهل .. أصبح لدينا فى الواقع أكثر من قنا .. لدينا بحرى قنا .. أى الجزء الذى يمتد من حدود سوهاج حتى مدينة قنا .. وفى المقابل هناك قبلى قنا .. أى الجزء الذى يمتد من مدينة قنا جنوبا حتى حدود أسوان .. وأحيانا لا تخضع هذة الصراعات الإجتماعية والحضارية لمثل تلك التقسيمات الجغرافية .. بل يمكن أن نشاهدها فى مكان واحد ومدينة واحدة .. وتبدو مدينتنا دشنا ونجع حمادى من تلك المدن التى تختصر أسباب

---

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٣/١٢/٢١

(٢) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

(٣) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/٦

(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٣/٧/٢٨

(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٧/٢

وآثار مثل هذا الصراع .. ففى الوقت الذى لا نجد فيه إمرأة تخرج إلى الشارع .. ولا تتعلم .. ولا تمارس من أمور الحياة إلا الحيض والزواج وإنجاب الصغار وإطعامهم ثم تعليمهم حكايات وقوانين الثأر والدم بعد ذلك .. نجد على مسافة قليلة النساء فى مجمع الألومنيوم يعملن ولهن حقوق النساء فى أى مكان آخر وأية مدينة مصرية .. ويتكرر نفس هذا الصدام أو الصراع فى مدينة قنا نفسها .. والمشكلة ليست بالقطع فى صدام أو صراع أسفر عنه تطور الحياة وتتابع أيامها وسنواتها .. ومواصلات إختصرت المسافات ووسائل إعلام الغت كثيرا من القيود والحواجز .. إنما تبدو المشكلة الحقيقية فى تطوير وتغيير [1] يجريان بهمة ونشاط دون أدنى تخطيط وفكر وإستعداد لمواجهة ما يمكن أن ينجم عن ذلك .

العشوائيات أيضا .. أصبحت فى محافظة قنا مشكلة حادة وقاسية من الضرورى مواجهتها حيث يعيش قرابة الربع مليون نسمة أى أربعين بالمائة من كل سكان المحافظة [2] .. فى ستة وستون منطقة عشوائية فى إثنتى عشر مدينة تتكون منها محافظة قنا .. منها ست مناطق فى مدينة قنا وحدها .. المدينة التى ليست فقط تواجه عشوائياتها ومشاكل أهلها .. إنما تواجه أيضا الجامعة بطلابها وطالباتها سواء من أبنائها أو من الوافدين من المدن والقرى المجاورة .. فتعددت الحكايات تختلط فيها الأكاذيب والإشاعات مع حقائق الإنهيار والإستسلام .. وغير هذا كله كان هناك الخلل الذى إستشرى فى بعض بيوت قنا وأسفر عن خيانة إنتهت بالدم والموت غالبا .. زوجة غاب عنها زوجها فى إحدى البلاد العربية فلم تكتف هى أثناء عن الغياب برعاية طفليها وإنما خرجت [3] تفتش عمن يطفئ لها رغباتها فقتلها شقيقها خلاصا منها .. وإمرأة أخرى هربت من بيتها وزوجها لتتزوج بعقد مزور من زوج إبنتها .. وشاب قتل أبيه [4] بعد أن قام الأب بإغتصاب زوجة الإبن .. وفتاة لم يسبق لها الزواج فوجئ أهلها بحملها وبطنها التى إنتفخت فجأة فقتلوها وأحرقوا جثتها .. وزوج [5] أوشك على إغتصاب إبنة زوجته الصغيرة ومزق ثيابها بالفعل وشرع فى إغتصابها لولا زوجة الرجل وأم الفتاة التى ما إن شاهدت ما يحدث حتى قررت قتل الزوج .. وقتلته بالفعل .

أما مدينة الأقصر .. أو طيبة .. أو مدينة الفراعنة والمصريين القدماء الذين تعين عليهم منذ زمن الهكسوس الحفاظ على الشخصية المصرية بعاداتها وتقاليدها وكل ميراثها من الأجداد القدماء .. والتى ما إن أعاد العالم الحديث إكتشافها مرة أخرى كمتحف لآثار العالم .. حتى توافد عليها غرباء قادمون من مشارق الأرض ومن مغاربها .. لم يأتوا جميعهم وجميعهن بقصد السياحة والطواف بأعمدة الكرنك فقط .. ولكن كان هناك من لا يمانع ولا تمانع من التفتيش عن الجنس لتحقق الرحلة كل أهدافها وتغدو متعتها كاملة .. ولا يقتصر الأمر على الجنس الطبيعى بين الرجل والمرأة فقط .. وإنما تتواتر بين الحين والآخر عن الشذوذ الجنسى أيضا .. وكنتيجة لكل هؤلاء الغرباء الذين أضفوا على طابع المدينة المحافظ قدرا ليس قليلا من الحرية والتسامح .. لم تعد مفاجأة قاسية أو كاملة أن يسقط القليلون والقليلات .. ومن هؤلاء [6] .. كانت أم فى الثالثة

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٥/١٧

(٢) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٩٣/٨/٢٣

(٣) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٤/١٥

(٥) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٤/٤/٣

(٦) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٩/١/٣١

والأربعين من عمرها وإبنتها الكبرى التي لم تتجاوز العشرين من العمر .. زادت وتعددت حكايات إنحرافهما فلم يجد إبن المرأة وشقيق الفتاة حلا إلا الإتفاق مع أخواله على قتلهما .. وهو ما حدث وإن كان الإبن خرج على نص الإتفاق فلم يقتل الخاطئتين فقط ولكنه قتل أيضا شقيقه الرضيع الذي لم يتجاوز عمره الشهر التاسع فقط .

وفي أسوان .. لم تكن مفاجأة كاملة أن يتم القبض مؤخرا (١) على شبكة للدعارة يديرها عامل وتضم عددا من النساء بينهن موظفة بمجلس المدينة .. واحدة من المرات القليلة جدا التي نكتشف فيها وجود شبكة كاملة – وبهذا الحجم – للدعارة في أسوان .. المدينة الهادئة المسالمة الآمنة .. التي تعد من مدن مصر القليلة التي ساعدتها السياحة وكثرة الغرباء ومناخ مفعم بالحرية لأن تصبح مدينة تكاد لا تعرف جريمة الإغتصاب ولا تخاف منها .. لكنها بالتأكيد تعرف الخيانة والخطيئة والسقوط .. هذا ما نخرج به من حصيلة الأخبار القادمة من أقصى الجنوب .. حيث تعددت وكثرت الحوادث التي تفيد ذلك .. وتشير إلى ذلك .. منها مثلا دم العروس الشابة (٢) .. التي لم تكمل الثامنة عشرة من العمر .. والتي تناقلت الألسنة شائعات تتناول سوء سلوكها وإنحرافها .. وبدون أدنى محاولة للتأكد من صحة هذة الشائعات ومن سلوك الزوجة .. ذبحها أبوها وأشقاؤها وأبناء عمومتها على قارعة الطريق .. ثم – وبمنتهى الوحشية – قاموا بفصل الرأس عن الجسد خلاصا من العار .. أما الحادثة الثانية .. فقد خلت من الإشاعات بقدر ما فاضت بالخطيئة .. وبطل الحكاية هذة المرة صائغ وقع في غرام موظفة تعمل لديه (٣) .. غرام إنتهى بسرعة إلى قرار من العاشقين بخلع ثيابهما والذهاب إلى أقرب فراش لممارسة الجنس .. القرار الثاني كان الخلاص من الزوجة .. وهذا هو ما حدث بالفعل .. شل الزوج حركة زوجته بينما أمسكتها الموظفة من شعرها وأخذت تضرب رأسها في الحائط بعنف وقسوة حتى تهشمت جمجمة الزوجة وتطايرت أشلاء المخ وبقاياه في كل مكان .. غير أن حادثة السقوط والخيانة التي تحدثت عنها أسوان طويلا .. كانت هي الحادثة التي إتفقت فيها إيمان مع عشيقها على قتل زوجها (٤) .. فقد بدأت الحكاية بوفاة رائد شرطة متأثرا برصاصة إخترقت رأسه .. وجاءت إيمان زوجة القتيل التي لا تزال في الثالثة والعشرين من العمر لتعترف أنها هي التي تسببت في الحادث حين كانت تداعب زوجها بمسدسه الميري .. ولم تستسغ النيابة حكاية المداعبة بالمسدس الميري فأمرت بحبس الزوجة ووجهت لها تهمة القتل العمد .. وبدا أن هذا هو آخر فصول الحكاية فجاءت أسرة الضابط القتيل وتسلمت إبنته رحاب البالغة من العمر عامين ونصف فقط .. لكن جاء شقيق القتيل بمعلومات إضافية جديدة إضطرت معها النيابة لأن تفتح ملف التحقيق من جديد .. وبعد تحريات وتحقيقات دامت عاما كاملا تبين أن الزوجة كانت على علاقة جنسية بعقيد شرطة يشغل منصب قائد مرور أسوان .. وتبين أيضا أن قائد المرور هو الذي إتفق مع عشيقته على قتل زوجها .. وهو الذي خطط للجريمة مستعينا بخبرته الجنائية في التمويه على أجهزة البحث والقائمين بالتحقيق .. وأخيرا كان هو الذي أطلق الرصاصة القاتلة التي إستقرت في رأس القتيل .

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ٢٦/ ١٩٩٤/٥
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٦/٢٠
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٢/٧
(٤) عبد العزيز محمد الحسيني – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

وإذا خرجنا من الدلتا والوادى الضيق .. وإتجهنا إلى الغرب .. حيث الوادى الجديد .. فسنكتشف أن الجنس بدوره يسبقنا إلى هناك .. خديجة مثلا .. فوجئت بزوجها يتزوج بأخرى ويكتب بإسمها البيت والأرض [1] .. فتذهب إلى عشيقها وتتفق معه على قتل الزوج .. ويقتله الإثنان بالفعل .. ويخفيان جثته فى باطن الجبل .

وفى مرسى مطروح .. كانت طالبة الثانوى تسير فى أحد شوارع المدينة مع زميلتها [2] .. إستوقفهما إثنان من الشبان زعما أنهما من رجال الآداب .. وإصطحبا التلميذة إلى قسم الشرطة .. لكن الطريق لم يكن طريق القسم .. بل كان إلى أحد نواحى المدينة البعيدة المتطرفة .. وتحت تهديد السلاح قام الإثنان بإغتصابها .. وقبل أن يسمحا لها بالإنصراف إستوليا على ثيابها الداخلية من أجل إبتزازها بعد ذلك .

وتتكرر الحكايات إذا ما إتجهنا إلى الشرق بدلا من الغرب .. حيث محافظة البحر الأحمر .. المحافظة التى تنقسم شمال سياحى هادئ ومستقر .. وجنوب فقير مضطرب تنقصه خدمات ومقومات الحياة .. بل يتضمن هذا الجنوب مثلثا يتكون من شلاتين وحلايب وأبو رماد يفتقر تماما إلى أية خدمات أو وسائل الحياة حتى مجرد مياة الشرب .. وبقدر ما أدى مثل هذا المناخ القاسى والحزين إلى أن يفتقد سكان هذا المثلث أى إنتماء لمصر وأهلها [3] .. بقدر ما أصبح هناك للإنحراف والسقوط أكثر من طريق وأكثر من وسيلة .

وحتى شمال المحافظة الهادئ والمستقر .. بدأ يعرف مثل هذا الإنحراف وهذا السقوط .. وتتعدد حالات الخيانة فى مدينة الغردقة مثلا .. والدليل على ذلك [4] هو كثرة العلاقات النسائية والجنسية التى إنخرط فيها رجل واحد إكتشفت زوجته سلوكه المشين بينما هى حامل تنتظر خروج الجنين الذى فى بطنها .. فقررت الزوجة الإنتقام من الزوج الخائن .. لكن الجنين الذى لم يكن سوى طفلة صغيرة هى التى دفعت ثمن هذا الإنتقام .. ألقتها أمها فى الشارع بعد ساعات من ولادتها ليحترق بها وعليها قلب الأب .

وأخيرا .. سيناء .. التى بدأت تعرف نوعين من الإنحراف والسقوط .. نوع يمارسه البدو وأهل سيناء .. والنوع الآخر يغرسه الإسرائيليون فوق رمال ودماء وبقايا شهداء مصر .. ففى شمال سيناء [5] أصبح شاب فى الرابعة عشر من عمره .. ينتمى لإحدى قبائل البدو .. مسئولا عن عائلته بعد القبض على أبيه متهما فى إحدى قضايا المخدرات .. وذات ليلة شاهد شقيقته مع رجل غريب فى منطقة جبلية نائية .. هرب الرجل وأمسك الشاب بشقيقته وتحت التهديد إعترفت الأخت بسقوطها وإنحرافها .. فأصبح الموت هو عقابها الوحيد الممكن .. وفى قبيلة أخرى تقيم قريبا من مدينة العريش .. وقعت الزوجة فى غرام شاب وأقامت معه علاقة حميمة كانت دافعها لمحاولة الخلاص من زوجها .. خلاص من نوع جديد لا تراق فيه نقطة دم واحدة .. فقد إكتشف الزوج أن زوجته بدأت تلجأ إلى السحر .. وتدس له فى طعامه وشرابه موادا غريبة من أجل أن يفقد رجولته حتى يصبح جسدها كله ملكا لهذا الشاب الآخر الذى عشقته .

أما الجنس على الطريقة الإسرائيلية .. فهو ما يمكن أن يطول عنه الحديث .. لكن يمكن أيضا

---

(١) ، (٤) عبد العزيز محمد الحسينى – هل نحن أمة من المجانين – بدون إسم ناشر – ١٩٩٤

(٢) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٥/٢/٩

(٣) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٩٢/٨/٢٣

(٥) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٤/١/٢٩

إختصاره بالتأكيد على أن الإسرائيليين جعلوا ممارسة الجنس على شواطئ جنوب سيناء .. سهلة وممكنة ومتاحة في أى وقت وأى مكان وتحت أية ظروف .. من طابا إلى نويبع إلى دهب إلى شرم الشيخ .. لكنها تزداد في منطقة العسلة .. منطقة تبعد عن مدينة دهب بثلاثة كيلومترات .. كانت في زمن الإحتلال الإسرائيلي عبارة عن شاطئ للعراة .. وتحولت بعد رحيل الإسرائيليين العسكر إلى واحة للإسرائيليين المدنيين يخلعون فيها ثيابهم ويمارسون فيها كل موبقات وخطايا الأرض .. وقد لا يعنيني في كثير أو قليل أن يرتكب أى إسرائيلي أو إسرائيلية الخطايا والذنوب والعهر والإبتذال .. وإن كنت أتمنى ذهابهم جميعا إلى جهنم .. لكن يعنيني أن تأتى الإسرائيليات إلى العسلة ويتعمدن الإيقاع بشباب مصر ليمارسوا معهن الجنس فيستوطن الإيدز في دمائهم .. فضحت ذلك أكثر من مجلة وصحيفة مصرية وعربية دون أن يكترث أو يخاف أحد .. وبدون أية صحف أو مجلات .. أنا شخصيا كنت الطبيب المقيم في مستشفى شرم الشيخ المركزى لمدة ستة أشهر .. وهناك عرفت وسمعت ورأيت ما يحدث في العسلة وفي كل مدن جنوب سيناء .. وكيف يتسلل الإيدز إلينا فوق فراش ضيق من الخشب أو الرمل ينام فوقه شاب مصرى مع فتاة إسرائيلية يتعريان ويمارسان الجنس .

ومن المؤكد أن العسلة وحدها لم تعد قادرة على القيام بمثل هذا الدور .. لهذا بدأت تنافسها مناطق أخرى مثل منطقة سليمة القريبة من طابا .. ومنطقة المعجنة التى تبعد بخمسة وعشرين كيلومترا عن مدينة نويبع .. ومنطقة الترابين التى تبعد عن نويبع بثمانية كيلومترات فقط .

حتى المدن الجديدة لم تسلم ولم تأمن من شرور وخطايا وآثام المدن القديمة .. ففي مدينة ٦ أكتوبر مثلا .. سقطت زوجة [١] ضحية إعجابها بعضلات حداد من العاملين في المدينة .. فتوهمت قدرته على أن يمنحها ما عجز الزوج عنه من إمتاع وإشباع جنسى .. فأسلمت له نفسها وجسدها .. ثم كان أن هجرت زوجها وإنتقلت للإقامة مع أمها وتفرغت تماما للفراش وللحداد حتى إكتشفت جنينايتكوم في بطنها .. حاولت التخلص منه بستمائة جنيها دفعتها لطبيب فشل في إجهاضها .

بل إن نفس المدينة .. مدينة ٦ أكتوبر .. لم تكتف بالخيانة والسقوط .. وإنما كانت هناك الدعارة أيضا .. فيتم القبض [٢] على شبكة للدعارة في المدينة الجديدة تديرها موظفة بسنترال الدقى .. وفي شقة الموظفة تم القبض على عضو سابق بمجلس الشعب ومهندس من زبائن المتعة بالإضافة إلى عدد ضخم من شرائط الفيديو الجنسية والعارية .

وأخيرا .. وقبل أن أغلق مثل هذا الملف .. تبقى كلمة أخيرة .. وهى أن ذلك كله لا يعنى مطلقا أن هناك مدينة مصرية واحدة قد سقطت أو تعرت .. أؤكد ذلك دون أدنى إضطرار إلى الكذب أو المبالغة .. فلا الزنا ولا الدعارة ولا الإغتصاب أصبحوا أمرا مألوفا لسكان كل مدينة .. هذة هى الحقيقة .. أو على وجه الدقة هى نصف الحقيقة .. النصف الآخر هو أنه يتعين علينا أن نخاف .. أن نتأمل من جديد واقعنا ونراجع من جديد حساباتنا .. وأن نلغى تماما من إعتقاداتنا وعقولنا كل ما إستوطنها وعشش فيها من أوهام .. فلا مصر هى بلد الأمان ولا هى بلد العفة .. لكنها بلد مثلها مثل أى بلد فى الدنيا .. لها واقعها وظروفها ومواجعها وأزماتها ونقاط ضعفها .. وعليها وحدها – ونحن معها – مواجهة ذلك كله بالعلاج والدواء لا بالبلاغة والشعارات .. وقد يعترض

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٧/١

(٢) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٥/٢٥

أحدهم ويؤكد أن المدن المصرية منذ أن وجدت .. عاشت وهى تعرف مثل هذة الخطايا والإستثناءات .. وأن أحدا من قبل لم يزعم أن فى مصر مائة وإثنتان وأربعون مدينة فاضلة .

وإلى كل من ينوى الإقتناع بمثل هذا الإدعاء ويصدقه ليريح ويستريح .. أقول لهم أننى أول من يعرف أنه ليست هناك فى مصر مدينة فاضلة .. لكننى أدعوهم لأن يتأملوا واقع كل مدينة ويحاولون قراءة طالعها ومستقبلها .. أدعوهم فقط ليسترجعوا وقائع وخطايا كل مدينة فى العشرين سنة الماضية على الأقل .. ثم أطالبهم بشهادة لوجه الله ومصر .. فيقولوا لنا هل كل هذا الذى حدث ولا يزال يحدث .. طبيعى ومنطقى ومعتاد ومتوقع .. أم أن هناك الكثير جدا من الخلل الذى بدأ يستشرى فى أوصالنا .. وكم من الوقت ستحتاجه كل مدينة فى مصر لتنتهى رحلة غيابها .. وتعود من جديد تسترد مكانتها وحضورها فى ذاكرتنا وإهتمامنا ووجداننا وحياتنا .. أم أنه الغياب الطويل الموجع الذى لن ينهيه إلا الدم والخوف والحزن والغضب .. الكثير جدا من الغضب .

(٧)

المارد يخرج من القمقم

الأولة غربتى
والثانية مكتوب
والتالتة كنت غالب
صبحت أنا مغلوب
وكان.. يادهر
تتقلب عليها قلوب
صبحت أنا عيان
لوني صبح مقلوب
وزعقت من كتر ما بى
قلت يا أيوب
أنا إن شكيت ربع ما بى للحديد
ليدوب!

من مواويل الفلاحين فى مصر

في منتصف الثمانينات .. قامت جريدة الشعب [1] بأول تحقيق من نوعه في تاريخ الصحافة المصرية عن جرائم الإغتصاب في ريف مصر .. وجاءت النتائج مثيرة للخوف والفزع والإرتباك .. فقد تبين - بعد هذا التحقيق - أن جرائم الإغتصاب لم تعد قاصرة على المدن فقط .. وإنما إمتدت إلى قاع الريف المصرى .. إلى الأزقة والحوارى والبيوت والحقول .. لم تعد مجرد جرائم عارضة أو حوادث فردية .. لكن تحولت إلى ظاهرة تهدد كيان المجتمع وإستقراره .. وأصبحت قنبلة موقوتة قد تنفجر في أية لحظة .

ولابد وأن هناك أسباب كثيرة أدت إلى أن تستكين القرية المصرية فوق هذه القنبلة .

لكن الأمانة تقتضى التساؤل أولا عما إذا كانت هناك قنبلة بالفعل في كل قرية ؟!.. أم أن الحكاية كلها مجرد خلاف سياسى مزمن بين صحيفة معارضة وحزب حاكم .. فإلتقط محررو الصحيفة حادثة إغتصاب من هنا وأخرى من هناك .. وكل ما يشغلهم هو تفنيد إدعاءات المسئولين في وزارة الداخلية الذين يؤكدون دائما إستقرار الأمور وأن مثل تلك الحوادث هي مجرد حوادث فردية لا أكثر .

لكن .. وبعيدا عن الصحف المعارضة ومسئولى الحزب الحاكم .. وبقراءة كل الصحف .. ومتابعة محاضر الشرطة .. والإصغاء للحكايات التى تنتشر هنا وهناك في معظم قرى الشمال والجنوب .. وتأمل دفتر أحوال القرية المصرية والتقليب في صفحات التسعينات بل وفي صفحات المائة سنة الماضية التى كانت أعنف وأقسى فترة عاشتها القرية المصرية على مدى عمرها الطويل المديد غير السعيد .. سنكتشف أن الجنس في طريقه إلى أن يصبح بالفعل قنبلة تهدد كل قرية .. الجنس بكل ما قد يعنيه من رغبة وشهوة وخطيئة وليس مجرد جريمة إغتصاب أو حالة زنا .. فالظروف التى عاشتها القرية المصرية في سنواتها الأخيرة .. لم تسمح فقط بوجود أكثر من قنبلة إجتماعية وإقتصادية وسياسية .. وإنما كانت هناك القنبلة الجنسية أيضا .

ومن السهل التشكيك في ذلك .. فها هي قرى مصر أمامنا تتمدد في وداعة وسكون تفرد ضفائرها تحت ضوء قمر الليل وتهرب من شمس النهار إلى ظل نخيلها .. لم تخلع ثيابها ولم تستسلم لنزواتها ورغباتها .. وأنا أعرف أنه ليست هناك قرية واحدة في مصر.. اليوم خلعت ثيابها .. وأعرف أنها لن تخلع ثيابها غدا .. لكننى لن أستطيع أن أتحدث بمثل هذه الثقة عما يمكن أن يحدث بعد غد .. فقد سبق وأن تحدثنا بثقة مطلقة عن الأمان والإستقرار والهدوء في نفس هذه القرى منذ سنوات قليلة .. ثم فوجئنا ببعض تلك القرى الهادئة المستكينة والآمنة تتصدر نشرات الأخبار وتقارير وكالات الأنباء العالمية بعد أن إشتعلت نيرانها وإنتثرت أشلاؤها .. حدث ذلك مثلا في قرية كحك في الفيوم .. أو قرية صنبو في أسيوط وغيرهما من قرى الجنوب أو الشمال .. وإذا كان تاريخنا شاهدا على أكثر من قرية سبق لها وأن تمردت وأعلنت إحتجاجها بصوت عال ولأكثر من سبب أو دافع .. فإن نفس هذا التاريخ يشهد على أن تلك الأحداث بقيت جميعها إستثناءات تمت في لحظة غضب وسرعان ما تم تجاوزها .

أما ما حدث في السبعينات والثمانينات .. وما سوف يحدث في التسعينات .. فلم يعد من قبيل الإستثناءات التى يسهل تجاوزها أو نسيانها .. فهى المرة الأولى في تاريخنا كله التى تخرج فيها القرية على القانون وتتمرد على القمقم الذى أغلقناه عليها طويلا .. ولم يعد بإمكاننا أن نعيد

(١) جريدة الشعب - ١٩٨٥/٣/١٢

إلى القمقم من جديد أربعة الاف وستمائة وثمانية وعشرين قرية مصرية [١] .. بل ولم تعد هناك فى مصر قرية واحدة بات بإمكاننا أن نغلق عليها وعلى أهلها الباب فلا تدرى بما يحدث حولها ولا يشتهى أهلها ما يشتهيه سكان المدينة القريبة أو البعيدة .. فالحياة فى كل قرية من قرى مصر قد تغيرت نهائيا وإلى الأبد .

وأدى ذلك كله .. مع ضغط حاد ومستمر لم يهدأ ولم يتوقف .. إلى أن تتغير كثير من القيم .. وأن تتبدل الأراء والأفكار والقناعات .. وكان هذا هو ما دعا المفكر الكبير .. الدكتور جمال حمدان .. لأن يطلق صرخة تحذير عالية على صفحات جريدة الأهرام فى شهر يونيو عام ١٩٧٦ يؤكد فيها [٢] أن القرية هى التحدى الحقيقى لمصر .. ولن تتغير مصر وتتطور جذريا إلا إذا تم هز الريف المصرى بجسمه الثقيل .. ولن يتغير وجه مصر تحت الجلد ما لم تتغير القرية المصرية حتى النخاع .

صرخة الدكتور جمال حمدان جاءت تقريبا فى أحرج لحظات عاشتها القرية المصرية وأشدها توترا .. ومثل الدكتور جمال حمدان .. صرخ الدكتور عبد الباسط عبد المعطى .. الذى طالب [٣] الجميع بالإلتفات إلى القرية وأوجاعها وهمومها بإعتبارها أساس المجتمع المصرى .. أو بإعتبار مصر فى حقيقتها .. مجرد قرية كبيرة .

ومع ذلك .. لم تكترث وتهتم مصر .. ولم يصغ أحد فى مصر لما يقوله الدكتور جمال حمدان أو غيره .. وبدلا من أن يثير كل هذا التغيير السريع والقاسى المثير للتداعى والإحساس بالدوار .. إنتباهنا ويوقظ مخاوفنا .. أثار بدلا منهم بلادتنا وقدرتنا على النسيان والتجاهل وخلط - إن لم يكن إلغاء - حقائق الواقع وشواهده .. بل وبلغت الصفاقة والوقاحة ببعض مثقفى مصر ومفكريها أن تناولوا قضية الكهرباء التى دخلت القرى ومعها أجهزة التليفزيون .. وكيف سيجعل ذلك الفلاح ينام متأخرا فلا يذهب إلى حقله مبكرا وتنخفض قدرته الإنتاجية .. وبدا ذلك - فضلا عن ركاكة القضية وسذاجة تفاصيلها ومبرراتها - وكأنه فصل جديد من فصول إستغلال الفلاح المصرى .. أو كأن هذا الفلاح مطالبا طول الوقت بتوفير إحتياجاتنا دون أن نكترث ولو مرة بحياته ومشاعره وقضاياه الحقيقية وأزماته الملحة .. ثم نجد نوعا آخر من هؤلاء المثقفون يملأون الدنيا بصرخاتهم وإستنكارهم لقلة عطايا الأرض رغم أننا بعد الثورة أخذنا أراض الباشوات ووزعناها على الفلاحين .. وأعطيناهم معها جرارات بالتقسيط ومبيدات وبذورا وأنشأنا جمعيات تعاونية وبنوكا للقرى .. وكأن هذا هو فقط ما كان ينقص فلاحى مصر الذين إتفقنا على أن نصفهم بالخبث .. وإسترحنا إلى ذلك .. إسترحنا أكثر إلى إعتقادنا أن هؤلاء لا تجدى معهم إلا القسوة .. فهم نتاج أزمان طويلة متعددة من العبودية والقهر .. علمنا ذلك كثير من المؤرخين الغرباء والمصريين الذين تأملوا كتاب تاريخ الفلاحين فى مصر منذ نهاية عصور الفراعنة وحتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ .. ثم خرجوا علينا بأكثر من نظرية تشرح لماذا لم يتمرد هؤلاء التعساء والفقراء فى وجه

---

(١) هذا هو أكثر الأرقام تواترا فى الدراسات والكتب والتحقيقات الصحفية ومنها تحقيق نشرته جريدة أخبار اليوم بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٩٢ أما جريدة الأهرام فأشارت فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٢/٤/٢٢ إلى أن عدد القرى الرئيسية هو فقط أربعة الاف ومائة وتسعة وعشرين قرية دون إشارة إلى إجمالى عدد القرى.. أو الأسس التى يمكن الإستناد إليها فى تقسيم القرى إلى أساسية أو غير أساسية .. أما آخر رقم رسمى لعدد القرى فهو الذى جاء فى تعداد عام ١٩٨٦ وفى الكتاب الإحصائى السنوى للجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء الصادر عام ١٩٩٠ وكان الرقم هو أربعة الاف وستة وثمانين قرية

(٢) د. جمال حمدان - القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٥١٠ - ١٩٩٣

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى - توزيع الفقر فى القرية المصرية - دار الثقافة الجديدة - ١٩٧٩

جلاديهم وحكامهم .. نظريات إختلفت وتباينت ولم تتفق إلا على الجبن والضعف والخنوع كصفات أساسية للفلاحين بشكل خاص .. وللمصريين بشكل عام .. بإعتبار أن هؤلاء الفلاحين فى كل تلك العصور كانوا هم غالبية الشعب المصرى .. وللأسف .. إقتنع كثيرون منا بصحة إرتباط تلك الصفات بالفلاحين حتى وإن لم يعلنوا عن قناعتهم تلك بصوت عال .. ساعدهم على ذلك.. عبارات ومشاهدات تم إلتقاطها من هنا وهناك .. منها مثلا ما نقله المقريزى عن كعب الأحبار الذى قال للخليفة عمر بن الخطاب[١] : إن الله عندما خلق الدنيا جعل لكل شئ شيئا .. قال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك .. وقالت الشجاعة أنا لاحقة بالشام فقالت الفتنة وأنا معك .. وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك .

وأنا لا أريد تكذيب المقريزى وكعب الأحبار وكل من وصف فلاحى مصر بالضعف والجبن .. فقط بدعوى الحب لمصر ولفلاحيها وأهلها .. فالقضية صعبة وشائكة بالفعل .. والمشاعر لا تجدى فى مثل تلك القضايا .. ولا ينبغى أن نلجأ لتلك المشاعر لصياغة الحقائق أو إقرارها أو حتى مناقشتها .. وكل من وسم الفلاحين والمصريين .. بصفات الضعف والجبن والخنوع .. إستند إلى حقائق ووقائع تاريخية ثابتة .. لم يثبت فيها أن الفلاحين المصريين قاوموا ورفضوا وإحتجوا على ما بقى يحيق بهم من ظلم لا حدود له وإمتهان بدا لابداية له أو نهاية .. وأنا لا أختلف معهم فى الوقائع وإنما فقط أختلف فى تأويلها وتفسيرها .. وإن كنت بذلك لا أقصد الإعلان عن موافقتى الكاملة على إستسلام الفلاحين الكامل وعجزهم عن المقاومة .. فمن الثابت أنهم عارضوا السخرة ورفضوا الضرائب الباهظة .. صحيح أنها معارضة لم تكن بنفس مساحة الظلم ورفض لم يليق بمدى معاناتهم .. لكنهم حاولوا .. وكثير من المؤرخين رصدوا الكثير من تلك المحاولات .. الدكتور حلمى أحمد شلبى مثلا .. إنه – بعد دراسة طويلة ومثيرة لتاريخ محافظة المنوفية – يحكى لنا عن عدة ثورات قام بها الفلاحين[٢] .. لعل أشهرها هى الثورة الكبرى فى إيبار عام ١٨٤٤ حين تزعم حسب الله الديهى عمدة قرية الفرستق ثورة مئات الفلاحين ضد الحاكم التركى ورفضوا دفع الضرائب أو الإستسلام لقراراته الظالمة والقاسية .. ومثلما أختلف مع الذين تجاهلوا ثورات الفلاحين وإتهموهم بالجبن .. أسمح لنفسى أيضا بالإختلاف مع بعض الذين تصدوا للدفاع عن الفلاحين مثل الدكتور فتحى عبد الفتاح الذى كتب[٣] يرد على مزاعم المؤرخين ويؤكد أن تلك الصفات المتعلقة بالضعف والجبن ليست طبيعة مصرية والدليل هو تلك الحضارة الزراعية المتقدمة التى أقامها الفلاحون المصريون فى أيام الفراعنة .. وذلك التراث الحضارى والثقافى للفلاح المصرى القديم الذى تم تسجيله فوق جدران المعابد وعلى أوراق البردى .

وهو دفاع ضعيف هش .. أو هكذا أراه .. دفاع يؤكد التهمة ولا ينفيها .. لإن الإتهامات كلها تدور حول عصور القهر المتعاقبة منذ أيام البطالمة وحتى أسرة محمد على .. وحين لا نجد ما ندافع به عن أنفسنا وندفع به تلك التهم إلا بالإستشهاد بما حدث فى زمن الفراعنة .. فكأننا نقر بأننا أصبحنا بالفعل بعد الفراعنة شعبا من الضعفاء والجبناء .. ولهذا تمادى حكامنا فى التنكيل بنا دون أن يخشوا أن نعلن عليهم الغضب أو التمرد أو الثورة .. وبصرف النظر ما إذا كان

---

(١) صلاح عيسى – مثقفون وعسكر – مدبولى – ١٩٨٦

(٢) د. حلمى أحمد شلبى – المجتمع الريفى فى عصر محمد على – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

(٣) د. فتحى عبد الفتاح – القرية المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩١

الجالس على عرش بلادنا ملكا أو أميرا أو مملوكا أو باشا أو حتى أحد الصعاليك والآفاقين .

نحن بالفعل لم نغضب\ولم نحتج ولم نعلن الثورة إلا قليلا وبشكل لا يتناسب مطلقا مع قسوة تاريخنا .. ولا أؤمن أن الضعف أو الخوف أو التخاذل هم تفسير ما حدث .. فهناك تفسير آخر أكثر دقة .. تفسير يرتبط بالجغرافيا أكثر منه إرتباطا بالتاريخ .. فمصر ولدت على ضفاف النيل تحاصرها من كل جانب صحراء موحشة ومخيفة وقاتلة .. وبحار عميقة ومظلمة .. فإرتبطت الحياة بهذا النهر إلى الأبد .. وكان لابد وأن تكون هناك عاصمة واحدة .. وملك واحد يقسم ماء النهر على الجميع .. فكانت مصر هى أول سلطة مركزية فى التاريخ .. ولم يكن بإستطاعة أحد من الحكام أو حتى من المحكومين أن يتمرد على مثل هذا النظام الذى وحده يضمن الحياة ويكفل إستمرارها .. ومنذ جاء اليونانيون وحتى رحيل الأتراك .. بقيت شئون الزراعة والرى وتوزيع مياة النيل ثابتة مستقرة لا تخضع لأهواء السياسة وخلافاتها .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما تعلم المصريون من النيل أيضا الصبر .. والثقة فى المستقبل .. فالنيل بعد الشح والقحط يعود ويفيض ويجئ بالخير مرة أخرى .. لم يحدث مطلقا وفى أى عصر من العصور أن تخلف النيل ولم يأت فى موعده .. وفى كل مرة يأتى فيها .. كانت قناعة المصريين بالغد تزداد أكثر .. فالذى يجوع اليوم سوف يشبع غدا .. والذى لا يملك شيئا اليوم عليه أن ينتظر الخير الذى سوف يأتى مهما طال إنتظاره .. ولو أضفنا تلك القناعة المتزايدة يوما بعد آخر .. إلى التراث الثقافى المصرى الذى يعتمد على زراعة الأرض وحصادها .. حيث إيقاع الزراعة بطئ دائما .. فما عليك إلا أن تضع البذور ثم تنتظر .. ولو أضفنا الدين أيضا إلى كل ذلك سواء كان دين الفراعنة أو المسيحية ومن بعدهما الإسلام .. وهى كلها أديان علمت المصريين – الذين لم يعيشوا بدون دين وإيمان عميق على مدى تاريخهم كله – أن الموت ليس آخر المطاف .. والرحلة لا تنتهى بالرقاد فى القبر .. فهناك حياة أخرى وآخرة .. وهناك حساب وجزاء للظالم والمظلوم .. وشكل ذلك كله فى النهاية إرثا ضخما من الصبر تعلمه المصريون وتناقلوه جيلا بعد جيل .. وعلمهم هذا الصبر إحتمال الأسى والمرارة ربما أكثر من شعوب وأمم أخرى كثيرة غيرهم .. ومن المؤكد أن قدرة الفلاحين على الصبر كانت أكثر وأعمق من قدرة باقى المصريين .. ليس فقط لأنهم كانوا طول الوقت الأكثر قربا من الأرض .. والأكثر إلتصاقا بالنيل .. وإنما لأنهم كانوا أيضا (١) الأكثر تدينا وإعتمادا على الله ليطرح البركة فى الزرع والولد والبيت وكل شئ .. ولهذا كانوا هم دائما الأكثر صبرا وإحتمالا .. صبر وإحتمال قد نراهما نحن بمقاييس أيامنا وواقعنا خنوعا وضعفا وإستسلاما .. لكن علينا أن نتذكر أن الطوفان اليوم لم يعد ميقات حياتنا الوحيد بل ولم يعد يشكل مطلقا أى إيقاع لأيامنا أومجتمعنا وحياتنا .. وعلينا أن نتذكر أيضا أننا لم نعد مجتمعا زراعيا مثلما عشنا وبقينا طويلا .. وهذا هو ما جعل القرية المصرية تختصر اليوم الكثير جدا من قدرتها على الصبر .. وأن لا تنتظر الغد لتطالب بما هو حقها اليوم .. فكل ما عاشته القرية المصرية من إضطرابات

وتوتر فى السنوات الماضية وما ستعيشه فى السنوات القادمة .. هو نتاج طبيعى للتغيير الذى حدث فى المجتمع كله .. ففى مجتمع كانت الزراعة هى صفته الأساسية وعماد حياته ثم يتحول

---

(١) د. كمال المنوفى – الثقافة السياسية للفلاحين المصريين – دار ابن خلدون – بيروت – ١٩٨٠

بشكل حاد وسريع إلى الصناعة ولا يفخر إلا بشعار زاعق دائما هو .. صنع فى مصر .. دون أن يكترث أحد بشعار قديم أحالوه للتقاعد هو .. زرع فى مصر .. وفى مجتمع كان النهر هو الذى يحدد إيقاع حياته على مدى الاف السنين ثم يكون هناك سد عال يلغى النهر نهائيا من خريطة الزمن والأيام .. وفى مجتمع إختصر – طائعا راضيا أو مضطرا كارها – مسافة طويلة بين المدينة والقرية سواء كانت مسافة زمنية أو جغرافية أو إعلامية .. حتى ذابت فوارق كثيرة بين المدينة وبين القرية .

فى مجتمع كهذا .. يصبح من قبيل السذاجة والعبث أن نطالب القرية وحدها بالبقاء كما كانت وكما عاشت من قبل طويلا .. دون أن تتغير أو يتغير أهلها .. وأن يطال الجنس وتفاصيله ومعانيه قليل أو كثير من هذا التغيير والإختلاف .. فيصبح قنبلة .. تخاف وترتجف منها كل قرية فى مصر .

وقبل الحديث عن قنبلة الجنس فى تسعينات القرية المصرية .. أجدنى مضطرا للحديث عن الجنس عبر تاريخ تلك القرية وأهلها .. وهو تاريخ يكاد يتطابق مع التاريخ الجنسى للمصريين الذى سبق وأن أشرت إليه وإلى كل ما فيه من غرائب وتناقضات تراكمت جيلا بعد جيل ومنذ زمن الفراعنة وكل من جاء بعدهم .. وليس هناك تفسيرا لذلك أكثر من أن فلاحى مصر .. كانوا طيلة عمرها هم الأغلبية على أرضها .. كانوا هم أيضا الأكثر حفاظا على مصريتهم وهويتهم وعاداتهم وتقاليدهم سواء كانت تتعلق بالجنس أو بأى من أمور الحياة ومجالاتها الأخرى .. بل وحتى من ناحية الشكل والملامح والتركيب الجثمانى .. ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن غزاة مصر [1] من يونانيين ورومان وعرب وأتراك ومماليك كانت السلطة هى مطمعهم ومقصد غاياتهم فإكتفوا بالقاهرة والمدن الأخرى الهامة والكبيرة دون الخروج إلى القرى المتناثرة على ضفاف النيل من الجنوب إلى الشمال .. أما الأرقام .. فهى دليل أخر على أن الفلاحين كانوا دائما هم الأغلبية فى مصر .. ويكفى أن نعرف أن أهل الريف المصرى وقت مجئ الفرنسيين بقيادة نابليون[2] .. كانوا يشكلون واحدا وثمانين بالمائة من كل سكان مصر .. وبعد قرابة المائة عام أو أكثر .. بالتحديد فى تعداد عام ١٩٠٧ .. كان عدد سكان الريف [3] قد بلغ تسعة ملايين وربع المليون نسمة .. مقابل مليون وتسعمائة الفا يسكنون القاهرة وباقى المدن المصرية .. صحيح أن تلك النسبة بدأت تتناقص تدريجيا نتيجة هجرة الكثيرين من الريف .. وأخذ عدد سكان المدن يقترب من عدد سكان الريف بحيث سيأتى عام ٢٠٠٠ ليتساوى عدد كل من سكان الريف والمدن .. إلا أن ذلك هو ما سيحدث فى المستقبل الذى لا نعرفه بقدر ما نعرف الماضى الذى نتشارك ونتقاسم اليوم سداد فواتير حساب مواجعه وأزماته ومتاعبه .

ومع ذلك .. بقيت الفواتير الجنسية التى تعين على فلاحى مصر سدادها أكبر وأقسى من فواتير غيرهم .. فبالإضافة إلى أنهم توارثوا – جيلا بعد جيل – التركة الجنسية المرهقة والمزعجة التى تراكمت عبر عصور قديمة وطويلة .. كان لهم أيضا أزمات وقضايا جنسية تخصهم وحدهم.. ووحدهم دفعوا ثمنها من كبريائهم وأعصابهم وإتزانهم وإستقرار بيوتهم وعلاقاتهم .. ولعل أشهر

---

(١) د. فتحى عبد الفتاح – القرية المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩١
(٢) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – العدد ٥١٠ – ١٩٩٣
(٣) د. أحمد الحصرى – بشر بلا ثمن – كتاب الأمالى – العدد ٤١ – ١٩٩٢

تلك القضايا على الإطلاق هى قضية الأرض والعرض .. ولن نعدم كاتبا أو مفكرا هنا أو هناك .. يتعجب ويندهش ويستنكر أن يهجر الفلاح أرضه التى هى عرضه .. فيتسائل هل بات الفلاح قادرا على التفريط فى عرضه إلى هذا الحد .. حد أن يهجر الأرض والقرية كلها .

وأنا أزعم أن فكرة الأرض والعرض وإرتباطهما معا .. ليست تعنى لدى الكثيرين أكثر إلا مجرد عبارة بلاغية جميلة .. أو أن المقصود بها هو التعبير عن مدى إرتباط الفلاح بأرضه وخوفه عليها وكأنه يخاف على عرضه وعرض أسرته .. ولا يعلم هؤلاء أن إرتباط الأرض والعرض هو إرتباط حقيقى وليس معنوى .. إرتباط تؤكده كتب التاريخ وليست حصص البلاغة والإنشاء .

فتاريخ مصر .. يتضمن فصولا كثيرة عن السخرة .. أى إستخدام الفلاحين بالقوة فى مشروعات يريدها الملك أو السلطان أو الحاكم .. ومع أنها كانت أكثر فصول التاريخ المصرى بشاعة وقسوة .. إلا أننا نجد من يدافع عن السخرة وينسب إليها الفضل فى أنجازات كثيرة قديمة .. واحد من هؤلاء مثلا كان الخديوى عباس حلمى الثانى الذى كتب فى مذكراته (١) يؤكد أنه لولا السخرة .. لما كان ممكنا أن ينجز الفراعنة منشآتهم المعمارية العريقة .. أو أن يحفروا بعناية دقيقة قنوات المياة اللازمة لزراعة الأرض .. وما كانت مصر لتعرف الأهرامات ولا المدن ولا المعابد أو المسلات .

لكن من الواضح أن الأمر قد إختلط على خديوى مصر الأخير .. فتحدث عن دور السخرة فى بناء الأهرام أو شق قنوات المياة فى زمن الفراعنة .. ونسى أن يتحدث عن السخرة فى زمن مؤسس العائلة وكبيرها .. محمد على .. والذى كان يحلم بحكم إمبراطورية كبرى .. وإستدعى ذلك تجنيد أكبر عدد ممكن من الفلاحين فتم إتباع أساليب وحشية لإرغام هؤلاء الفلاحين على الإلتحاق بالجيش .. حيث كان الفلاح يبقى مجندا مدى الحياة .. وتبقى زوجته وأطفاله بعد تجنيده بلا نقود أو أية موارد على الإطلاق (٢) .. ولهذا كان تجنيد الزوج يعنى بشكل تلقائى هدم الأسرة كلها .. يتشرد الأبناء .. تصبح الزوجة ملكا لرجل آخر يفتش عنها أو تفتش هى عنه .

وكان هذا هو أول إرتباط تاريخى بين الأرض والعرض .. فالفلاح الذى يتم تجنيده .. يبتعد عن أرضه وعن زوجته فى نفس الوقت .. الكل مستباح .. الأرض والعرض .. ثم كان هناك ما يضاعف من عمق وتأثير هذا الإرتباط .. كان هناك مشروع حفر قناة السويس .. وفى اليوم العشرين من شهر يوليو عام ١٨٥٦ .. يصدر مرسوم الخديوى سعيد باشا يمنح ديليسيبس حق إستخدام الفلاحين المصريين فى حفر القناة .. وتحت تهديد السلاح .. تتنازل قرى بأكملها عن رجالها .. ومن كل نواحى مصر تدفق هؤلاء الفقراء تشحنهم القطارات حتى مدينة الزقازيق التى كانت المحطة الأخيرة .. ومنها يمشى هؤلاء التعساء على أقدامهم حتى منطقة القناة فى مشوار لم يكن ليستغرق أقل من أربعة أيام .. ويصف لنا الدكتور عبد العزيز الشناوى (١) الطريق من الزقازيق وحتى منطقة القناة وكيف كان يبدو لمن يراه وكأنه قد تغطى تماما بهؤلاء الفلاحين .. أما مستر بلنت .. فيصف فى كتاب له بعنوان التاريخ السرى للإحتلال الإنجليزى لمصر كيف غصت مدن الأرياف فى أيام الأسواق بالنساء (٢) اللواتى أتين – بعد رحيل رجالهن – لبيع ملابسهن

---

(١) عباس حلمى – عهدى .. مذكرات عباس حلمى الثانى خديوى مصر الأخير – ترجمة د. جلال يحى – دار الشروق – ١٩٩٣

(٢) هيلين آن ريفلين – الإقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر – ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى – دار المعارف – ١٩٦٧

وحليهن للمرابين الأروام لإرضاء جامعي الضرائب وللبقاء على قيد الحياة .. ويضيف مستر بلنت .. كيف إشترى هو وغيره ما كانت تبيعه هؤلاء النساء .. وكيف كان الكل يلعن الحكومة التى جعلتهن عرايا .

وقد كانت الخطيئة هي النهاية المحتومة القابعة فى إنتظار كثير من نساء الفلاحين .. إما بالإقامة مع رجل آخر .. وإما بممارسة الدعارة فى أقرب مدينة .. وإما بحادثة إغتصاب .. وكانت شفيقة هى أشهر من تعرضت للإغتصاب بسبب حفر قناة السويس .. وقد تكون شفيقة شخصية حقيقية أو لا تكون .. لكنها كانت بطلة أشهر موال شعبى مصرى عن مأساة حفر القناة والسخرة وفلاحى مصر الفقراء .. موال شفيقة ومتولى (٣) .. الذى يحكى عن متولى .. الفلاح الذى ساقوه إلى منطقة القناة تاركا خلفه شقيقته شفيقة لا يرعاها إلا أب عجوز ضرير .. ويستغل دياب صديق متولى تلك الظروف فيغتصب شفيقة .. ولا تجد شفيقة بعد إغتصابها حلا وخلاصا إلا بالهروب من القرية حيث ينتهى بها الحال إلى ممارسة الدعارة .. وحيث ينتهى الموال بمتولى يعود ويفتش عن شقيقته ويقتلها .

بإختصار .. تلاشت أية فوارق أو فواصل .. بين الأرض والعرض .. وإمتزج الإثنان فى وجدان فلاح مصر حتى باتت الكلمتان ترمزان معا لشئ واحد يعنى الكرامة والكبرياء والشرف .

وهناك بالطبع من لن يوافق على ذلك .. وسيعترض على تفسير تلك العلاقة التاريخية بين الأرض والعرض مستندا إلى حقيقة لا تقبل الشك أو الجدل يمكن تلخيصها فى أن كل أولئك الفلاحين الذين تم تجنيدهم فى الجيش المصرى أو تم ترحيلهم للعمل فى قناة السويس وغيرها .. لم يكونوا من ملاك الأرض .. فكيف يمكن أن ترتبط الأرض فى مفهومهم بالعرض .. وهو رأى أجدنى مضطرا إلى إحترامه لكن لا أرانى مرغما على قبوله .. لأنه من الثابت – تاريخيا أيضا – أن عقد الملكية لم يكن فى أى وقت إختصارا أو تفسيرا للعلاقة بين الفلاح وبين الأرض .. بل إن الفلاح المصرى بشكل عام لم يكن فى أى عصر من العصور هو صاحب الأرض التى يزرعها ولا كانت تلك الملكية تراود خياله حتى فى أشد أحلامه جموحا .

وأيا كانت مساحة الخلاف على تفسير إرتباط الأرض بالعرض .. فمن المؤكد أن تلك الأحداث المؤلمة .. وإقتلاع الفلاحين الفقراء من حقولهم وبيوتهم .. ومصير الزوجات وهوانهن بعد غياب الرجال .. قد خلق أول قضية جنسية فى التاريخ الحديث للقرية المصرية .. قضية تخص الفلاحين وحدهم لم تعرفها أو تشكو منها عاصمة بلادهم أو أية مدينة أخرى فى مصر .. قضية كان من ثمارها أن تراجع شرط الحسن والجمال فى الزوجة أو الفتاة المرشحة للزواج .. وتم إستبدالهما بشرط جديد هو القدرة على الحفاظ على الشرف والعفة .. ويتضح ذلك فى الأغانى الريفية المصرية (٤) التى لو تأملناها لوجدناها قد تحولت إلى منشورات صريحة ضد الجمال والزينة .. ففى واحدة من تلك الأغانى نجد مثلا : ياللى غويت النسب .. ما دام إنت حبيت .. دور على الأصول من بيت .. إن غبت تسيب راجل .. راجل وراك فى البيت .. ونجد أغنية أخرى تقول : دور على بنت الأصول .. اللى لا ترضى بالعار .. ولو بالنار ضربوها .. وأغنية ثالثة تقول : ما

(١) د. عبد العزيز الشناوى – قناة السويس والقيادات السياسية التى أحاطت بها – معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٧١
(٢) د. محمد كمال يحى – الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣
(٣) د. أحمد مرسى – الأغنية الشعبية – دار المعارف – ١٩٨٣
(٤) د. سامية الساعاتى – الإختيار للزواج والتغير الإجتماعى – مكتبة سعيد رأفت – ١٩٨٨

تبصش لحلاوتها .. وخرطة قصتها .. قدام الفرن ياوكستها .. ما تخدش السهتانة .. ولا ام كحلة ولبانة .. تاكل وتعمل عيانة .. وأغنية رابعة تقول : أوصيك ياخاطب لغير الأصل العريض ما تميل.. خليك ورا الحرة ولو كان الطريق ميت ميل .. وتعيش شريفة ولغير الحلال ما تميل .

ويبدو أن إرتباط الجمال بالشر والخطيئة .. بقي طويلا في وجدان كل قرية مصرية وحتى وقت قريب من هذا الحاضر الذي نعيشه اليوم .. ففي قصة حادثة شرف للأديب الكبير الدكتور يوسف إدريس (١) .. نجد تجسيدا لهذا الإرتباط في حكاية فاطمة .. التي كانت أجمل بنات القرية .. ولأنها الأجمل .. كان لابد وأن تدفع الثمن .. الشك في سلوكها وكلماتها وخطواتها ونظراتها .. وما إن تنطلق إشاعة ضبط فاطمة في أحد حقول الذرة مع غريب .. حتى يلتف حولها الناس مصدقين وموقنين أنها كانت تمارس الجنس مع غريب .. وعبثا تحاول هي إقناعهم أنه حاول فقط الإعتداء عليها لكنه لم ينجح ولم ينل منها شيئا .. وحتى حين أجرت نساء القرية بقيادة أم جورج كشفا مهينا على بكارتها ووجدوا غشاء عفتها في مكانه لم يسرقه أو يفضه أحد .. بقيت الشائعات ونظرات الإتهام تحاصر فاطمة .. فقط لأنها كانت جميلة .

وما قاله الدكتور يوسف إدريس في قصته القصيرة .. قاله بشكل أكثر وضوحا محمود دياب.. أحد عمالقة *المسرح المصري* .. في مسرحيته *ليالي الحصاد التي قدمها عام* ١٩٦٨ .. ففي تلك المسرحية يؤكد محمود دياب لنا (٢) كيف إرتبط الجمال والحسن .. بالسقوط والخطيئة والشر في مفهوم أية قرية مصرية .. وبطلة المسرحية هي الطفلة اللقيطة التي عثر عليها البكري في المقابر فأخذها وأسماها سنيورة .. وتكبر سنيورة بجمالها وأنوثتها .. وحين تغدو أكثر جمالا من كل الأخريات .. ليس فقط يشتهيها الجميع .. وإنما أيضا يعتبرونها مصدر كل فساد أو شر في القرية .. حتى يقرر الجميع قتلها خلاصا من جمالها وليس خلاصا منها .

وبالرغم من كل ذلك .. فلم يكن إرتباط الأرض والعرض .. والجمال والخطيئة .. هما كل ما تعين على أية قرية مصرية أن تحمله فوق رأسها من قضايا وأزمات جنسية وتنتقل بها من جيل إلى جيل يوما بعد يوم .. وإنما كانت هناك قضايا وأزمات أخرى قد تكون أقل مساحة أو قسوة لكنها أبدا لم تكن غائبة عن الوعي أو الوجدان أو حتى في واقع تلك القرية التي من المؤكد أنها عرفت – ومنذ زمن قديم وبعيد – قضايا الزنا والإنحلال والدعارة والإغتصاب .. فعلى سبيل المثال يحكي لنا المؤرخ الشهير ابن حجر (٣) .. كيف – في عصور المماليك – باتت هناك في كل بلاد الريف المصري .. حارات مخصصة للدعارة .. على كل من يجتازها أن يزني بخاطئة .. فإن لم يفعل .. فدى نفسه بالمال .. ويحكي لنا فيفيان دينون .. الفنان والرسام صديق نابليون بونابرت الذي جاء معه إلى مصر أثناء الحملة الفرنسية .. في كتاب له بعنوان رحلة إلى مصر العليا ومصر السفلى (٤) .. كيف قام الجنود الفرنسيون بإغتصاب نساء وفتيات أكثر من قرية مصرية .. وكيف كانت الأمهات في تلك القرى بمجرد أن تصلهن أخبار إقتراب الفرنسيين حتى يقمن بتشويه وجوه بناتهم لإنقاذهن من الإغتصاب .. ويتوقف دينون طويلا عند ما حدث في قرية جمارسييم .. حيث إستغل الجنود الفرنسيون سدول الليل ليقضوا ساعاته الطويلة في إغتصاب

---

(١) د. يوسف إدريس – الأعمال الكاملة – القصص القصيرة – عالم الكتب – ١٩٧١

(٢) فاروق عبد القادر – إزدهار وسقوط المسرح المصري – دار الفكر المعاصر – ١٩٧٩

(٣) د. علي السيد محمود – الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨

(٤) د. ليلى عنان – الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة – كتاب الهلال – ١٩٩٢

النساء والفتيات اللواتى تعالت صرخاتهن دون إنقطاع .. وبعد رحيل الفرنسيين .. يحكى لنا عبد الرحمن الرافعى عن زمن الإنجليز وكيف أهملوا الريف المصرى طيلة سنوات إحتلالهم (١) .. فكان أن إنتقلت عادة شرب الخمور من المدن إلى الريف .. وأصبحت محلات المسكرات تفتح علنا فى القرى بين الفلاحين .. فأفسدت الخمر عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم وزادت حالات الإخلال بالأمن العام والسلوك والآداب .. وما بين الفرنسيين والإنجليز شهدت القرية المصرية بعض – أو كثير – من التجاوزات الجنسية .. وفى وثائق المحاكم الشرعية فى أكثر من محافظة ومديرية .. نلمح بقايا لتلك التجاوزات ما بين ممارسة الزنا أو إحتراف الدعارة أو جرائم الإغتصاب .. وعلى سبيل المثال .. تفيد سجلات محكمة المنوفية (٢) أنه تم زواج عوض البربرى من إحدى الخادمات بعد أن إرتكب الإثنان جريمة الزنا فى قرية ميت خاقان عام ١٨٤٧.. وفى عام ١٨٤٥ قام أحد الرجال فى إبيار بإغتصاب فتاة .. وتم ضبطه أثناء محاولته الهروب .. وفى نفس العام إدعت فتاة أخرى أن أحد الرجال زنى بها على الرغم من أنه رجل متزوج وطالب علم ومن حملة القرآن .. وشكت إمرأة ثانية تعرضها لحادثة إغتصاب بعد أن قام المعتدى بتقييدها من قدميها ... لكن الحادثة التى روعت الفلاحين أكثر من أية حادثة أخرى .. كانت تلك التى جرت وقائعها عام ١٨٤٨ حين قام عمدة قرية سبك بإقليم المنوفية – مع أتباعه – بإستدراج نحو ثمان فتيات إلى دوار العمدة .. وإعتدوا عليهن بعد ضربهن .

هنا .. ينبغى التمهل .. أو التوقف طويلا .. لأن الحديث لن يستقيم بدون إجابة مثل هذا السؤال أو هذه الأسئلة .. إلى أى مدى تأثرت القرية المصرية بهذا الإرث المتراكم من الهموم والقضايا الجنسية المعقدة والقاسية والشائكة ؟!.. وهل إستطاعت كل قرية فى مصر أن تنجو من سيف التاريخ الذى بقى طول معلقا فوق رقبتها فإمتلكت القدرة على أن تنسى وتغفر وتسامح ؟!.. وهل بقيت هناك فوارق جنسية وأخلاقية واضحة ومؤكدة بين القرية والمدينة ؟!.

وأنا لا أدعى أننى أملك لهذه الأسئلة إجابات دقيقة وحاسمة .. إنما فقط أجتهد وأحاول الإجابة مستندا إلى التاريخ والواقع والأدب والسينما .. وأيا كانت نتيجة هذا الجهد وهذا الإجتهاد .. فمن المؤكد أن القرية المصرية لم تشهد كثيرا أو قليلا من فوضى وإضطرابات جنسية أو أخلاقية من أى نوع أو فى أى وقت .. ومن المؤكد أيضا أن إنعزال القرية وإهمالها ونسيانها سواء من قبل باقى المصريين أو الغرباء والأجانب الذين تناوبوا حكم مصر وإمتلاكها .. بقدر ما أساء إلى القرية وأورثها كثيرا من المشاكل والأوجاع والأزمات الحادة والقاسية .. بقدر ما أتاح لها دائما الفرصة على الإسترخاء طويلا عقب كل أزمة أو قضية جنسية .. ومنحها الفرصة لكى تلملم جراحها وتستخرج فى أناة وتمهل ما قد علق بقيمها وعاداتها الدينية والأخلاقية والإجتماعية من قصور أو عجز أو شوائب .. وإذا كانت القرية المصرية لم تنس مطلقا تاريخها الموجع .. وتناقلته جيلا بعد جيل على شكل عادات وطقوس غامضة تتدخل فى إختيار الزوج لزوجته .. أو فى ليلة الزواج الأولى .. أو فى إيقاع المعاشرة ومفردات اللغة الجنسية بين كل زوجين .. فإن ذلك التاريخ .. وهذا الإرث الصعب والمعقد .. لم يمنعا أية قرية مصرية من حياة جنسية وإجتماعية سليمة وسوية .. وعلى الرغم من كل تلك التحذيرات والوصايا .. ومن هوان الأرض والعرض ..

(١) عبد الرحمن الرافعى – مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال – دار المعارف – ١٩٨٣

(٢) د. حلمى أحمد شلبى – المجتمع الريفى فى عصر محمد على – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

فقد بقيت القرية المصرية [١] لا تمنع مثلا إختلاط الرجل والمرأة ولا تخشى منه .. ولا تفرض الحجاب على النساء .. ولا كان الفلاح يحبس زوجته فى قمقم يحكم إغلاقه عليها .. ولا إنتقصت من قيمة المرأة كزوجة وأم وربة للدار وحبل من وداد عميق وحنان أعمق يحمى عقد عائلتها من الإنفراط .. وساعد على ذلك بالطبع أن الزواج – وحتى قريب – لم يكن يمثل فى القرية ولأهل القرية أية مشكلة .. لم يكن مشكلة للرجل الذى كان يكفيه بذل أى مجهود إضافى ليضمن به قوت زوجة وعدد من الصغار .. ولم يكن مشكلة للفتاة التى لم يتعين عليها الإنتظار طويلا لتجد رجلا يتزوجها ويرعاها إجتماعيا وإقتصاديا وجنسيا أيضا .. ساعد على ذلك أيضا أنه بالرغم من السخرة .. وهجرة الكثير من الرجال وإغترابهم كرها أو طوعا أو نفيا .. لم يختل كنتيجة لذلك عدد الرجال مقارنة بعدد النساء .. وطبقا للدراسات التى أجريت فى هذا المجال [٢] .. تبين أنه فى عام ١٨٤٨ مثلا .. كان عدد الرجال مساويا تماما لعدد النساء فى الريف .. وهى النسبة التى بقيت بعد ذلك تكاد تكون ثابتة ومستقرة [٣] لا تميل لصالح الرجال أو النساء .. هكذا نجدها فى تعداد عام ١٩٠٧ و١٩١٧ و١٩٣٧ و١٩٤٧ و١٩٦٠ و١٩٦٠ و١٩٦٦ و١٩٨٦.. الإستثناء الوحيد كان فى تعداد عام ١٩٧٦ .. وحتى هذا الإستثناء لم يزد فيه الفارق بين الرجال والنساء فى الريف عن ثلاثمائة وخمسين الفا لصالح الرجال .. هذا كله بالإضافة إلى دين بقى قابعا مستقرا فى القلب والوجدان .. لا كمجرد عبادات وفروض .. أو محاولة لعبور الطريق الشاق والطويل إلى الله وإلى تلك الحياة الآخرة .. وإنما كمنهاج لهذة الحياة الأولى أيضا وسلوك يتكرر كل يوم وقفل ضخم يوصد الأبواب كلها فى وجه أى جديد أو غريب يخالف حدود الشرع أو عادات وقوانين وقيم الآباء والأجداد .. ولست أجد دليلا على ذلك إلا تلك التلقائية الشديدة التى تغلب علينا أحيانا فنطلق صفة فلاح أو فلاحة – بدون وعى أو تفكير أو قصد – على أى من يرفض أو ترفض قبول الفكرة الجديدة أو الشئ الجديد بسهولة أو بسرعة .

وهكذا .. إمتلكت القرية المصرية دائما صمام أمانها ضد أى توتر أو إنفجار جنسى ممكن أن يحدث .. أو على الأقل يهدد .. مصر والمصريين .. وتؤكد ذلك الإحصائيات الجنائية التى أجريت فى الأربعينات والخمسينات .. حيث تبين [٤] أن جرائم الفسق وهتك العرض والبغاء تخص المناطق الحضرية وتقل كثيرا فى المناطق الريفية إلى درجة ألا يصبح لهم أى وجود غالبا .. وهى فيما يبدو ظاهرة عالمية وليست قاصرة على مصر فقط .. فالبغاء مثلا [٥] جريمة خاصة بالمدينة ولا تعرفها القرية فى كثير من بلدان العالم .

وهو الرأى الذى لابد وأنه سيلقى معارضة شديدة .. ومن كثيرين .. علمهم الأدب وأقنعتهم السينما .. أن الجنس هو الأمر الذى وحده يشغل بال فلاحى مصر غالبا .. لا يتحدثون إلا عنه ولا يفكرون إلا فيه ولا يستمتعون إلا به ولا يجدون غيره عوضا وبديلا عن كل ما يجتاح حياتهم وواقعهم من معاناة وأسى وشقاء .. صحيح أن هناك أقلام غاصت فى أعماق القرية المصرية وأهلها تفتش عن الجنس كأزمة .. أو كخلاص من أزمة .. فجاءت كتاباتها كشهادة لا مع ولا ضد

---

(١) د. محمد عبده محجوب – الأنثربولوجيا ومشكلات التحضر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨١
(٢) د. محمد كمال يحى – الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣
(٣) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – الكتاب الإحصائى السنوى – ١٩٩٠
(٤) د. محمد خيرى محمد على – الريف والحضر وظاهرة الجريمة – دار النهضة العربية – ١٩٦٥
(٥) د. محمد خيرى محمد على – صور من الجريمة – مكتبة القاهرة – ١٩٦٦

القرية .. لا هى دليل على العفة .. ولا هى إتهام بالإنحلال .. وإنما هى كتابات حاولت الإقتراب فقط من هذا العالم المجهول .. أرادت أن تنبهنا إلى أن تاريخ حافل بكل هذة الإضطرابات والقضايا الجنسية يحتاج إلى مراجعة وإهتمام وعلاج .

ومن تلك الكتابات .. كانت كتابات الدكتور يوسف إدريس فى قصصه ورواياته الأولى .. منها أيضا كان الكثير من قصص يحى حقى .. أما أشهرها فكانت كتابات محمود البدوى - أكثر أدباء مصر إلتفاتا لقضية الجنس عند الفلاحين - مثل مجموعته القصصية بعنوان الذئاب الجائعة الصادرة عام ١٩٤٤ .. ومجموعته القصصية بعنوان العربة الأخيرة الصادرة عام ١٩٤٨.

وفى المقابل نجد كتابات أخرى .. بقصد أو بدون قصد .. حاولت إيهامنا بمدى التفسخ الجنسى والأخلاقى الذى ترقد فوقه كل قرية مصرية .. ومن تلك الكتابات قصص الأديب محمود طاهر لاشين .. أو قصص الأديب عيسى عبيد .. بل إننا نقرأ فى إحدى قصص عيسى عبيد بعنوان مأساة قروية [١] كيف غدت دودة القطن مجرد عقاب قاسى من الله أوقعه على الفلاحين بعد أن فسدت أخلاقهم .. حيث لا يجتمعون إلا من أجل الخوض فى سيرة الناس وأسرارهم الجنسية الخاصة وعلاقاتهم المحرمة سواء كانت حقيقة أم إختلقتها الأوهام والإشاعات .

ويقدر ما أسهمت بعض الكتابات فى ترسيخ تلك الفكرة العارية عن القرية وعن الفلاحين .. بقدر ما زادت السينما من هذا الرسوخ وهذا العرى .. بل إن السينما المصرية لم تتخيل - فى معظم أحوالها - فيلما يصور حياة الفلاحين وخفايا مجتمعهم إلا ويغدو الجنس هو قضيته الرئيسية والأساسية .. ومنذ ميلاد السينما فى مصر .. نجد أنها من بين خمسة عشر فيلما صامتا [٢] .. قدمت أربعة أفلام فقط عن الفلاح هى .. فيلم ليلى عام ١٩٢٧ .. وفيلم سعاد الغجرية عام ١٩٢٨ .. وفيلم زينب وفيلم تحت ضوء القمر عام ١٩٣٠ .. وفى فيلم ليلى مثلا .. الذى أخرجه ستيفان روستى .. نجد إيحاءات وإشارات .. ليست قطعا فى صالح الفلاح أو القرية المصرية [٣] .. فالفلاحون يعيشون فى حالة دائمة من السقوط الأخلاقى .. والفلاحة البسيطة ليلى يعاشرها أحمد الفلاح فى الحرام .. ثم يهرب منها مع سائحة أجنبية .. ولا ينقذ ليلى من مصير عارى ومظلم سوى رءوف بك الثرى إبن الذوات .. وبنفس النظرة .. بقيت السينما المصرية تتعامل مع الفلاح وقضاياه .. حتى بعد أن تعلمت الكلام .. وحتى وإن لم يعد الفلاح - بكل قضاياه - يعنى شيئا للسينما .. إلى حد أننا لا نجد سوى سبعة أفلام فقط [٤] تدور وقائع أحداثها عن الفلاح والقرية من بين خمسمائة وثمانية وعشرين فيلما روائيا أنتجتها السينما المصرية فى الفترة من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٦٣.. بعدها قدمت السينما فى عام ١٩٦٨ واحدا من أهم أفلامها على الإطلاق .. فيلم البوسطجى .. والتوقف قليلا عند هذا الفيلم الذى أخرجه حسين كمال ومقارنته بالقصة الأصلية التى كتبها يحى حقى ونشرها ضمن مجموعة قصصية بعنوان دماء وطين [٥] .. تتضح لنا نظرة السينما إلى القرية المصرية .. فعلى الشاشة نرى كبار رجال القرية يتهافتون على إحدى الغوازى أو على مجلة تتضمن صفحاتها صورا فاضحة أو مثيرة .. ونرى الأب الذى يشتهى خادمته الصغيرة ويسعى طول الوقت لأن يمارس معها الجنس .. ونرى قصة حب تنتهى

---

(١) عيسى عبيد - إحسان هانم - المكتبة العربية للتأليف والترجمة والنشر - ١٩٦٤

(٢) ، (٤) أمجد حسن منصور - الفلاحون فى السينما المصرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩١

(٣) منير محمد إبراهيم - دراسات فى السينما المصرية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥

(٥) يحى حقى - دماء وطين - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩

بالزنا والخطيئة ثم الموت .. أما فى قصة يحى حقى .. فلا نجد لا الغازية .. ولا المجلات العارية .. ولا إشتهاء الرجل لخادمته الصغيرة .. ويحكى لنا عبد المنعم سعد [١] كيف قام بمعاتبة حسين كمال عن مغالاته فى مشاهد الغازية .. فقال له حسين كمال أنه لم يبالغ أو يغال فى شئ .. وإنما هو الواقع وما يحدث بالفعل وما رآه حسين كمال بنفسه فى القرى .

وليس من الضرورى أن أتهم حسين كمال بالكذب .. فهو لم يكذب أو ليس فى حاجة لأن يكذب لأن ما قدمه لنا فى فيلمه .. ممكن أن يحدث فى كل القرى .. بل وهو يحدث بالفعل .. فى بعض القرى .. فليس حديثى السابق عن صمام الأمان الذى إمتلكته كل قرية مصرية فى وجه أى إنفجار أو توتر جنسى .. يعنى أن الأمور كانت دائما على ما يرام .. ولا يعنى حديثى أيضا أن كل التجاوزات الجنسية التى عاشتها القرية المصرية بقيت قاصرة فقط على الغرباء والأجانب أو الإنقلابات الإجتماعية الخطيرة والإنحناءات الحادة فى مسار تلك القرية وأهلها .. ولكن كانت هناك تجاوزات قام بها الفلاحون أنفسهم وبدون أى وازع أو دافع خارجى يثير رغباتهم وشهواتهم .. صحيح أن تلك التجاوزات لم تشكل ظاهرة عامة فى أى وقت .. لكنها بقيت قائمة وتتكرر فى كل يوم .. نجدها فى الموالد والإحتفالات التى كانت دينية وصوفية .. وفى صفوف الفلاحين الفقراء والأجراء الذين إضطرتهم الحاجة الملحة للتنقل من أرض إلى أرض ومن قرية إلى قرية دونما إستقرار أو سلام أو هدوء .. نجدها أيضا فى إستثناءات شاذة مارس أصحابها الجنس لا مع الآخرين من البشر وإنما مع حيوانات الآخرين .

ففى هذة الموالد .. والتى تكاد لا تخلو منها القرية المصرية .. أو كل مجموعة متجاورة ومتلاصقة من القرى .. تسقط كثير من القيم والقواعد والأخلاقيات .. وكأنما يخرج من المقام أو الضريح شيطان يفتح أبوابا كثيرة كانت مغلقة فى وجه الرغبات والشهوات والغرائز .. ويصف البرى وزير الأوقاف السابق هذة الموالد ويؤكد أنها [٢] كانت تحيل المساجد إلى إستراحات للكسالى ومطاعم ملوثة وغرز لتعاطى حتى الحشيش .. لكن الوزير لم يقل كل الحقيقة .. الحقيقة التى عرفتها ورأيتها وإكتشفتها مبكرا جدا بحكم إنتمائى لإحدى قرى .. ولهذا لا أجدنى مضطرا للتفتيش عن مصادر وأسانيد لما شاهدته بنفسى فى أكثر من مولد خاصة حين يزدحم المكان حول المقام أو الضريح بالرجال والنساء والشباب والفتيات فى ليلته الكبيرة والأخيرة .. وتسقط الحواجز ما بين رجل وراقصة عارية .. أو بين شاب وفتاة تستسلم له إما حبا أو طمعا فى مال أو هدية أو على سبيل النزوة والمغامرة .. بل وكان الرجال الشواذ يجدون فى تلك الليالى الطويلة ما يشبع رغباتهم وإحتياجاتهم .

هذا هو ما رأيته .. أما الذى لم أره لكن قرأت عنه .. فكان أكثر وأغرب .. وعلى سبيل المثال يحكى محمود أبو رية فى مقالاته التى كتبها عام ١٩٣٢ .. عما شاهده [٣] فى إحدى قرى الدقهلية .. حيث زعم شاب أن رفيقة من الجان تصاحبه وتلازمه إسمها الشيخة حسنة .. وشاع خبر هذا الشاب وقدرته على حل المشاكل وشفاء الأوجاع فى قريته وكل القرى المجاورة .. فجاءت نساء كثيرات .. وكان يشترط أن تدخل عليه المرأة بمفردها .. ويتهكم محمود أبو رية على هذا

---

(١) عبد المنعم سعد - السينما المصرية فى موسم ١٩٦٨/٦٧ - بدون إسم ناشر - ١٩٦٨

(٢) النظام الحاكم والمعارضة فى مصر فى عهد السادات - الهيئة العامة للإستعلامات - كتب مترجمة - رقم ٧٧٠ - ١٩٨٢

(٣) محمود أبو رية - حياة القرى - الدار المصرية للتأليف والترجمة - ١٩٦٦

الشرط قائلا .. أدع لفطنة القارئ أن يتخيل ما يمكن أن يقع فى مثل تلك الخلوة بين الشاب والمرأة وثالثهما الذى هو الشيطان .

أما الفلاحين الفقراء .. أو عمال التراحيل .. فهم الذين لم يجسد معاناتهم أحد قدر ما جسدها الدكتور يوسف إدريس فى روايته الشهيرة جدا والقاسية جدا .. الحرام .. ففى تلك الرواية (١) نجد واحدة من مآسي عمال التراحيل فى كل قرية .. مأساة لم يطلق الدكتور يوسف إدريس العنان لخياله فيجمح ليخلق تلك المأساة .. وإنما إكتفى فقط بتصويرها وإدخالنا إلى هذا العالم المجهول الذى لا نجد فيه أية فوارق واضحة بين الإغتصاب وبين الزنا .. بين إشتهاء رغيف العيش وبين إشتهاء الجسد والبحث عن النشوة .. وهذا ما نجده فى حكاية عزيزة التى رواها بتفاصيلها ومواجعها يوسف إدريس .. ففى تلك الرواية .. تبدأ الأحداث أو رحلة الآلام برجل عاجز ومريض يشتهى البطاطا .. ولأن هذا الرجل فقير أو معدم لا يملك شيئا مطلقا .. يمكننا حينئذ أن ندرك أو نتخيل كيف يمكن للبطاطا أن تغدو وحدها إختصار الأحلام والمتعة وشدة الرفاهية .. ولهذا تقرر زوجته عزيزة أن تأتى له بالبطاطا مهما كان الثمن .. حتى وإن إضطرت لسرقتها .. بل هى تسرقها بالفعل لكن يضبطها إبن صاحب الحقل .. وترتعش عزيزة حين تحس بنفسها بين أحضان رجل غريب .. ولم تعد تدرى على وجه الدقة سر هذا الإنهيار الذى أصابها حين أصبحت فى بين أحضان هذا الرجل .. وعلى حد تعبير يوسف إدريس .. باتت تريد أن تقاوم ولا تستطيع .. تستميت ولكنها يائسة .. حتى ملابسها التى لا تحتكم على غيرها مزقها .. وبقيت هى تئن مذهولة مرعوبة حتى قام .

ولن يستطيع أن يغفر لعزيزة .. أو يتفهم مشاعرها المكتومة تحت جلدها .. إلا الذى يعرف كيف يعيش الفلاحين من عمال التراحيل .. أفقر فقراء القرية المصرية .. أكثرهم جهلا ومعاناة وحرمانا وقلة وعى وإحتمال .. والذين لا نعرف بالتحديد عددهم أو بداية ظهورهم فى قاع الريف المصرى .. وإن كانت هناك أراء أشارت أو توقعت بداية مأساة عمال التراحيل بنظام السخرة الذى أرسى محمد على قواعده فى العصر الحديث .. وهناك أراء أخرى (٢) أشارت إلى أن بداية عمال التراحيل كانت سنة ١٨٨٠ حين بدأ التوسع فى زراعة القطن .. والنشاط التجارى الذى بعثه الوجود الإنجليزى فى مصر .. بالإضافة لبدايات الإنفجار السكانى فى تلك الفترة .. وهذا هو ما خلق الحاجة لعمال إضافيين .. وأوجد فلاحين بلا أرض أو مورد إلا العمل لدى الآخرين وفى أراضيهم .. وقد جرت محاولات كثيرة لإحصاء عدد هؤلاء الفقراء .. ويبدو أن أولى تلك المحاولات كانت فى عام ١٩٣٧ حين قدر عددهم بمليون ونصف رجل وإمرأة (٣) .. وزاد هذا العدد عام ١٩٤٥ إلى مليونين .. ثم عاد هذا العدد ليقل مرة أخرى عقب ثورة يوليو ليصبح فى الستينات مليونا أو يزيد قليلا .. يشكلون – وفقا لتقرير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – خمسة وستين بالمائة من قوة العمل فى مجال الزراعة .. أما توزيعهم على خريطة الريف المصرى .. فإننا نجدهم(٤) ينتثرون فى معظم محافظات مصر وعلى رأسها محافظة المنوفية التى تضم ١٨,٧٪

---

(١) د. يوسف إدريس – الحرام – الكتاب الذهبى – روز اليوسف – ١٩٥٩

(٢) د. محمود متولى – الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤

(٣) عطية الصيرفى – عمال التراحيل – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٥

(٤) د. عبد الباسط عبد المعطى – توزيع الفقر فى القرية المصرية – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٩

منهم .. ثم محافظة قنا وتضم ١٤,٣٪ .. ثم سوهاج وتضم ٨,٧٪ .. وأسيوط وتضم ٨,٢٪ .. ثم الدقهلية وتضم ٧,٨٪ .. وكفر الشيخ وتضم ٦,٥٪ .. والشرقية وتضم ٤,٥٪ .. ثم تكاد نسب تواجدهم تتقارب وتتساوى فى باقى المحافظات .

ومن قبيل السذاجة والعبث أن نتخيل هؤلاء الفقراء والمعدمين .. حافظوا على ما حافظت عليه القرية .. ووجدوا فى كل مرة صمام الأمان الذى إمتلكته كل قرية .. وإنما كانت تجتاحهم الرغبة بنفس قسوة وشدة إجتياح الجوع والتعب .. والعصمة والعفة والبكارة كانوا أحيانا منتهى الترف تماما مثل البيت المريح أو المضئ والثياب الجديدة أو حتى تلك القادرة على أن تستر الجسم كله أمام عيون الغرباء والآخرين .. خاصة وأنهم يضمون فيما بينهم نساء وفتيات .. بل إقتربت نسبة هؤلاء النساء أحيانا أربعين بالمائة أو أكثر من مجموع العاملين .. كلهن تقل أعمارهن عن العشرين عاما [1] .. سن الشباب والمراهقة والرغبة والجموح .

وغير الباحثين عن المتعة أو الذين يبيعونها فى الموالد .. وعورات فقراء فلاحى وعمال التراحيل التى غالبا لم تجد ما يسترها .. كان هناك أولئك الشواذ الذين مارسوا الجنس مع الحيوانات .. ظاهرة وحكايات لا يعرفها وقد لا يصدقها إلا كل من ينتمى إلى الريف .. ومن المؤكد أنها ليست ظاهرة مصرية فقط .. وإنما تعرفها بلاد كثيرة فى العالم حولنا .. وهى ظاهرة قديمة أيضا .. عرفها الطب بإسم زووفيليا .. وعرفتها أوروبا منذ العصور الوسطى سواء فى صفوف جنود الجيوش .. أو مع الرعاة والفلاحين فى المناطق الريفية .. ثم لم تعد قاصرة على فئة محددة أو ناحية بعينها .. وتحولت ممارسة الجنس مع الحيوانات [2] إلى مجال أو ملف ضم الكثير من القضايا والمحاكمات فى أوروبا خلال القرن السابع عشر .. ففى عام ١٦٠١ تم الحكم بحرق إمرأة سمحت لأحد الكلاب بأن يمارس معها الجنس .. وفى عام ١٦٠٧ تم الحكم بشنق شاب إعتدى على فرس .. وفى عام ١٦٤٩ صدر الحكم بحرق رجل إسمه فيجون بعد إتهامه بإغتصاب دجاجة .. وبعد الإنفراج الجنسى الأوروبى سنة بعد أخرى .. لم تعد ممارسة الجنس بين الإنسان والحيوان تستدعى المحاكمة ولا حتى اللوم أو العتاب .. وباتت تلك الممارسة تكاد تتميز بها نساء الطبقات الراقية فى أوروبا والولايات المتحدة .. وقد يكون ذلك من الأسباب الرئيسية لتدليل الكلاب ورعايتها بهذا الشكل المبالغ فيه إلى أقصى حد .. ولعل أشهر تلك النساء هى النجمة السينمائية الفرنسية الشهيرة جدا بريجيت باردو .. فهذة النجمة التى أحرقت أعصاب الرجال فى العالم كله الباحثين عن المتعة والحالمين بها .. لم تعد تجد متعتها هى إلا مع كلابها [3] يدغدغون حواسها ويطفئون لها رغباتها .. ومثل بريجيت باردو نساء كثيرات وجميلات ومثيرات .. ومنذ سنوات قليلة شاهدت القاهرة أحد الأفلام الجنسية وتداولته سرا أياد وعيون كثيرة .. أما أحداثه كلها فتدور عن العلاقة الجنسية بكل أشكالها وممارساتها بين النساء فى الغرب وبين الكلاب .. وهذا بالطبع هو ما لم أقصده مطلقا بالحديث عن العلاقة الجنسية بين الإنسان والحيوان فى ريف مصر .. فهذة العلاقة فى الريف المصرى ليست مطلقا كأوروبا والولايات المتحدة نتاج رفاهية زائدة وحرية تمادى أصحابها فى ممارستها إلى حد الفوضى والمجون .. وإنما هى عندنا نتاج

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – تعداد عام ١٩٦٦

(٢) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢

(٣) د. ناجى الجيوش – الإنحرافات الجنسية – الأهالى للطباعة والنشر – سوريا – ١٩٨٨

رغبات مكبوتة وإحتياج متوحش يسكن تحت الجلد وفى الأعماق .. وهى أيضا قاصرة فى ريف مصر على الشباب والرجال بقدر ما هى قاصرة فى الغرب اليوم على النساء .

وكان الدكتور جمال ماضى أبو العزايم قد أقر [١] بوجود تلك العلاقات الإستثنائية والشاذة في الريف المصرى .. غير أنه أكد أن تلك العلاقات فى مصر مجرد مراهقة جنسية .. بينما هى فى الغرب أحد مظاهر وعلامات المرض النفسى .. وأنا لا أعترض على رأى الدكتور جمال أبو العزايم .. وإن كنت لا أستريح كثيرا لحكاية المراهقة وقصر حالات ممارسة الجنس فى الريف مع الحيوانات عليها .. صحيح أن الدكتور جمال لا يستند إلى خيال أو هوى .. وإنما من المؤكد أنه يتحدث عن واقع إقترب منه أو إصطدم به وحاول أن يفتش له عن علاج .. لكننى مع ذلك أزعم أنى رأيت وعرفت رجالا فى الريف يمارسون الجنس مع إناث الحمير .. وقد تخطوا جميعهم مرحلة المراهقة بشوط طويل .. إلا إذا كان المقصود بالمراهقة هو فوران الرغبة وطول كبتها وقمعها عجزا عن تواصل جنسى طبيعى وحميم بين الإنسان وإنسان آخر .

والآن .. وبعد كل هذا .. أعتقد أننى حاولت قدر ما أستطيع أن أقدم صورة للقرية المصرية .. وللجنس فى هذة القرية عبر سنوات ماضيها القريب أو البعيد .. على الأقل من أجل أن أعرف .. وأن أفهم .. وأن أملك تفسيرا أو أكثر من تفسير لما يحدث اليوم .. وما سوف يحدث غدا فى كل قرية فى مصر .. وما طرأ أو سيطرأ على هذة القرى وأهلها من تغيير فى قواعدها وقوانينها ومفاهيمها الأخلاقية والجنسية .. وهو التغيير الذى إرتبط – ولا يزال – بكل ما جرى من تغيير فى مجالات ونواحى أخرى كثيرة .. إجتماعية وإنسانية وإقتصادية .

فى الواقع .. تغير كل شئ .. الرجل والمرأة والبيت وقوانين الزواج ومعناه .. وتغيرت الحياة نفسها .

تغيير لم يحدث فى عام أو عشرة أعوام .

تغيير لم ينته بقرار الإنفتاح ولم يبدأ بثورة يوليو .

وإنما كان تغييرا أشبه بالحصاد الأخير والمخيف لعصور طويلة من القهر والتخلف والدموع والحرمان .

فلم يكن تاريخ القرية المصرية أكثر من قصيدة معاناة حزينة وطويلة طول ما تعرض له الفلاح المصرى من ظلم وإضطهاد .. فهذا الفلاح الذى عاش كل سنوات مصر إلا قليلا هو مصدر ثروتها وخيرها .. وبالرغم من ذلك .. كان نفس هذا الفلاح هو أول المحرومين من الإنتفاع بتلك الثروة أو الإستمتاع بها .. ولم يحسب أحد منا حساب يوم لابد وأن يأتى سيتمرد فيه مثل هذا الفلاح على واقعه وظروفه المؤلة والمهينة .. لم يتخيل أحد منا أن يكسر المارد القمقم ويخرج إلى هذة الدنيا الواسعة .

ولم يبخل علينا زماننا – وفى كل وقت – بمن يلفت النظر إلى مدى ما تعانيه القرية المصرية وأهلها .. فعلى سبيل المثال .. أرسل الأديب الكبير محمود تيمور خطابا فى الرابع عشر من شهر مارس عام ١٩٢٦ إلى صديقه زكى طليمات الذى كان وقتها يدرس فن التمثيل فى باريس[٢] قال فيه : بعد أن تفقدت الحارات الضيقة المتدرجة .. دخلت بنفسى بيوت هؤلاء الفلاحين .. أستغفر

---

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

(٢) د. عبد الحميد إبراهيم – القصة المصرية وصورة المجتمع الجديد – دار المعارف – ١٩٧٣

الله .. إنها ليست بيوتا .. بل زرائب أستحى أن أربى فيها الكلاب الضالة !.. وحين يعود توفيق الحكيم من باريس .. ويسافر إلى الصعيد ليمارس مهام وظيفته الجديدة .. نائبا فى الأرياف .. يرى بنفسه حياة هؤلاء الفلاحين وقسوة ظروفهم .. فيكتب خطابا لأحد أصدقائه يقول فيه (١) .. إننى أعيش فى جو الجريمة .. وأحيانا فى عالم الغرائز الدنيا .. إننى أعيش مع القبح الآدمى .. المادى والمعنوى .. ليل نهار .. ووجها لوجه .

وتمر أعوام أخرى .. ولا تتبدل الحال أو تتحسن .. فيكتب سيد قطب فى عام ١٩٥١ يسأل (٢) عن ذلك الذى يجروء على القول بأن ملايين الفلاحين الجيا ع العراة الحفاة يتمتعون بكرامة وحقوق الإنسان .

وحين تقوم ثورة يوليو .. وبعد قيامها بسنوات .. لم يبد أن الأمر قد تغير كثيرا .. فقد شاهد جمال عبد الناصر من نافذة القطار أثناء رحلة إلى الصعيد (٣) مجموعات من الفلاحين وعمال التراحيل تكدسوا على أرصفة المحطات يأكلون المش والبصل وينتظرون ركوبة رخيصة .. فقال لمرافقيه : نحن لم نفعل شيئا إذن !.. ولست أريد إتهام جمال عبد الناصر بالمبالغة أو الكذب .. فليس صحيحا أن جمال عبد الناصر لم يفعل شيئا للقرية أو للفلاح فى مصر .. وإنما الصحيح والمؤكد هو أنه فعل الكثير .. والكثير جدا .. لكنه صحيح أيضا أنه أغفل أشياء كثيرة كان من الضرورى الإلتفات إليها والإهتمام بها .. وهو ما كان ينبغى أن يحدث لكنه للأسف لم يحدث .. فقد جاء جمال عبد الناصر بثورته وعسكره وبالحياة المختلفة والأفكار الجديدة فى واحدة من أشد أوقات القرية المصرية يأسا وعذابا .. خمسون عاما مضت من القرن العشرين دون أن تنال هذة القرية ما تستحقه وما تحتاجه من إهتمام .. تجاهلتها بلا إستثناء كل التنظيمات السياسية وأحزاب ما قبل الثورة .. أوضا ع إقتصادية غاية فى السوء (٤) جعلت من مجرد البقاء على قيد الحياة أملا فى حد ذاته .. بل ومنتهى الحلم والمدى والطموح .. غالبية الفلاحين لا يملكون بالفعل شيئا .. وإثنان وسبعون بالمائة من الذين يملكون تقل أرضهم عن فدان واحد (٥) .. ثلاثون الفا يموتون كل عام فقط بسبب سوء التغذية (٦) .. وخمسة وسبعون بالمائة من الرجال مصابون بالبلهارسيا .. وفى معظم القرى من دمياط وحتى أسوان لم يجد الأطباء طفلا واحدا تقريبا يمكن الجزم بأن عينيه سليمتان تماما .. خمسة وتسعون بالمائة من أهل القرى لا والتاريخ شاهد على أن جمال عبد الناصر حاول أن يواجه ذلك كله .. بقانون الإصلاح الزراعى .. بقانون إيجار الأراض الزراعية .. بالوحدات الصحية التى إنتشرت فى كل قرية .. بالمدارس .. بالكهرباء والمياة النقية فى بيوت القرى .. بخمسين فى المائة من مقاعد البرلمان للعمال .. وللفلاحين .. وهى كلها بالتأكيد محاولات رائعة – فضلا عن أنها كانت ضرورية – لصالح كل قرية وكل فلاح .. ولكن هل قطعنا الشوط حتى آخره .. وهل كانت القضية فقط هى اللقمة وأسبرين وميكروكروم الوحدة الصحية ومدارس هزيلة ليس من الضرورى أن يتعلم فيها الطفل شيئا نافعا ولمبة تضاء فى الليل بالكهرباء .. من المؤكد أن الإجابة ليست فى صالح جمال عبد الناصر أو ثورة يوليو .. على الرغم

(١) د. عبد الحميد إبراهيم – القصة المصرية وصورة المجتمع الجديد – دار المعارف – ١٩٧٢
(٢) د. محمد حافظ دياب – سيد قطب .. الخطاب والأيديولوجيا – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٧
(٣) فريدة النقاش – يوميات المدن المفتوحة – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٧
(٤) د. كمال المنوفى – الثقافة السياسية للفلاحين المصريين – دار إبن خلدون – بيروت – ١٩٨٠
(٥) د. عبد الباسط عبد المعطى – توزيع الفقر فى القرية المصرية – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٩
(٦) د. فتحى عبد الفتاح – القرية المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩١

من أن الحياة فى الريف بالأمس أو اليوم أو غدا .. لم تكن لتغدو حياة ممكنة أو محتملة على الإطلاق .. لولا جمال عبد الناصر أو ثورة يوليو .. الثورة التى ليس فقط لم تستكمل إنجازاتها ومحاولاتها للنهوض بالريف المصرى .. وإنما تراجعت حتى عن الحفاظ على ما قامت به من خطوات وإنجازات ومحاولات .. حتى أول وأهم وأعظم أحلام الثورة المتعلقة بالفلاح .. وهو إقامة ريف بلا طبقات .. مات تحت تراب مديرية التحرير (١) .. ومات أيضا حلم القضاء على الأمية .. أو على الأقل المساواه فى فرص التعليم أمام جميع الفلاحين .. فقد أشار الدكتور محمد عودة فى بداية السبعينات (٢) إلى أن نسبة الأمية تقل كلما زادت الملكية .. ولا تزيد إلا بين صفوف فقراء القرية وعمالها الأجراء .. وحتى بعد كل هذا الطنين والضجيج المزعج عن الميام النقية التي دخلت القرية والكهرباء التى أضاءتها .. جاءت سنوات السبعينات لنكتشف (٣) أن خمسة بالمائة فقط من بيوت الفلاحين فى الوجه البحرى هى التى دخلتها المياة النقية بشكل مستقل .. وأن تسعة وعشرين بالمائة من هذة البيوت لا تضم أى مصدر للمياة على الإطلاق .. وتغدو الصورة أسوأ وأقصى فى ريف الوجه القبلى .. إذ أن ثلاثة بالمائة فقط من بيوت الفلاحين هناك هى التى دخلتها المياة بشكل مستقل .. وثلاثة وأربعين بالمائة من البيوت هناك لم تدخلها المياة مطلقا .. وفى المقابل لم تدخل الكهرباء إلا ثلاثة وثلاثين بالمائة من بيوت فلاحى الوجه البحرى .. وثلاثة عشر بالمائة فقط من بيوت فلاحى الوجه القبلى .. وأعتقد أننى أمام تلك الأرقام .. لست فى حاجة للتأكيد على سخافة وركاكة مؤسسة إعلام جمال عبد الناصر التى بلغت الوقاحة ببعض مؤسسيها أن تخيلوا أوبرا وتماثيل رخام على ضفاف ترعة القرية التى لا يسابق فيها الماء فى جريانه إلا الدمع والبؤس والشقاء والإحباط .

ومع ذلك .. فليس هناك دليل على فشل جمال عبد الناصر فى تحقيق أحلامه وتنفيذ نواياه المتعلقة بالقرية والفلاح فى مصر .. إلا دوام معدلات الهجرة العالية من القرى إلى المدن .. أو هذا البنيان الريفى الهش والمهتز الذى ما إن أطل عليه وعلينا زمان الإنفتاح حتى تهاوى وتفسخ بالفعل .

فقد بقى الفلاح المصرى دائم التطلع والسعى للهروب من قريته .. وكأنه ينشد الخلاص من سجن مفزع ومخيف .. وكأنه لا فرق هناك بين زمان محمد على أو الخديوى إسماعيل وبين زمان جمال عبد الناصر .. الكل فشل فى أن يحيل ذلك السجن إلى وطن صغير وهادئ وآمن وسعيد .. الكل فشل فى أن يعيد الفلاح إلى أرضه التى لم يفارقها من قبل أربعة الاف عام .. وحتى عام ١٩٦٠ فقط (٤) .. كان قد سافر كثير من الفلاحين إلى القاهرة وباقى مدن مصر .. وفى العشر سنوات التالية من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٧٠ .. هاجر مليون فلاح (٥) من الريف إلى المدن .

ثم جاء أنور السادات .. ليفشل هو الآخر .. لكنه كان الفشل الأشد قسوة والأكثر عنفا .. فقد حافظ السادات بكل ما أوتى من همة وحماس على معدلات الهجرة العالية من قراهم إلى القاهرة أو إلى أية مدينة داخل وخارج مصر .. بالإضافة إلى سفر آخرين وكثيرين إلى شواطئ البترول

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٧/٢١

(٢) د. محمد عودة – أساليب الإتصال والتغير الإجتماعى – دار المعارف – ١٩٧١

(٣) د. ميلاد حنا – أريد مسكنا – الكتاب الذهبى – روز اليوسف – ١٩٧٨

(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٢/٢

(٥) د. جمال حمدان – القاهرة – كتاب الهلال – عدد ٥١٠ – ١٩٩٣

الغنية .. ثم كان الإنفتاح الإقتصادى .. بكل تداعياته وآثاره .. وأزماته الإقتصادية الخانقة والمتلاحقة .. سببا (١) فى أن تتعاظم معدلات الهجرة .. وتتضاعف أعداد المهاجرين من أبناء القرى .

ولم تعد هناك أية بلاغات أو فصاحات بقادرة على أن تحول دون الفلاح والهجرة .. لأن الدافع كان أقوى من أية خطبة عن الإنتماء ومن أية قصيدة عن الإرتباط بالأرض .. الدافع أصبح هو الزاد .. لقمة العيش التى باتت تفتش عنها أفواه الصغار .. وقد إكتشف الفلاح أنه لا الأرض ولا العرق فوقها .. سيوفر له تلك اللقمة .. وهذا هو ما تؤكده الأرقام (٢) التى تشير إلى أن متوسط الدخل الشهرى للفرد عام ١٩٧٠ .. كان ١٢٨ جنيها فى المدينة مقابل ٤٦,٥ جنيها فى القرية .. ثم جاء عام ١٩٧٥ .. ليصبح هذا المتوسط ١٧٧ جنيها للفرد فى المدينة مقابل ٧٥ جنيها فى القرية .. ثم جاء عام ١٩٧٩ - بعد قرار أو كارثة الإنفتاح - ليصبح متوسط الدخل الشهرى للفرد فى المدينة ٢٠٩ جنيها مقابل ٥٢,٤ جنيها فقط للفلاح فى القرية .. ونحن لم نكتف بذلك فقط .. إنما - وكما يقول الدكتور أحمد عكاشة (٣) - أرهقنا هذا الفلاح لسنوات طويلة بمختلف الطرق والتجارب والنظريات والبدع .. حتى إنتهى إلى إحساس حاد بأن البقاء على هذة الأرض لن يقيم حياته .. فكان أن هجرها إلى حيث يستطيع أن يجد القوت والحياة .. ولو فارق بلدته وعزوته وإمرأته وولده بكل ما ينجم عن ذلك من آثار مدمرة علينا وعليه .

وقد كانت مدمرة بالفعل .. هى آثار وعواقب هذا الطوفان الذى لم يتوقف ولم ينقطع من فلاحين قرروا الهروب من الأرض وزراعتها ومن القرية وسكناها .. فقد عاد كثير من هؤلاء الذين سافروا يختصرون المسافة بين قراهم وبين العالم من حولهم .. عادوا ومعهم مفاتيح حياة جديدة أكثر بهجة وأشد متعة .. ومع عودة هؤلاء وقبلهم .. كانت هناك المدارس التى تم التوسع فى إقامتها وبأعداد كبيرة دون أدنى إكتراث بمستوى التحصيل فى مثل تلك المدارس .. فكأنها كانت مجرد قضية شكل لا جوهر .. وكأن مشكلتنا كانت زيادة عدد حاملى الشهادات المتوسطة والجامعية فى كل قرية .. لا أن نغرس العلم والقيم والأخلاق فى نفوس ووجدان الصغار .. ومع ذلك .. فقد كان الأكثر تدميرا من كل ذلك هو قرار الإنفتاح الإقتصادى بكل آثاره ونتائجه .. القرار الذى لم تتحمله أو تنجو من عواقبه ومضاعفاته أية مدينة فى مصر بالرغم من حقوق ومميزات تمتعن بها ولم تنلها قطعا أية قرية .. لهذا لا يعود من قبيل المبالغة التأكيد على أن هذا القرار تحول بعد سنوات قليلة إلى يد باتت قادرة على أن ترفع غطاء القمقم .. ليخرج مارد طال رقاده وسكونه وقناعته وإستسلامه .

وكان المارد على إستعداد بالفعل لأن يخرج .. كان فقط ينتظر مثل هذا القرار .. ساعده على ذلك الراديو الترانزيستور الذى جاء ومعه - ولو قليل - من الوعى والمعرفة والإدراك .. ثم توارى هذا الراديو الصغير فى منتصف السبعينات حين دخلت الكهرباء مئات من قرى مصر على التوالى .. فسقط الراديو نهائيا أمام سطوة وبريق وتحريض التليفزيون .. وبالطبع كان هناك أيضا الإلحاح الإعلانى التليفزيونى الدائم الذى لا يتوقف ولا ينقطع .. فالأرقام التى أشارت إلى

---

(١) د. جمال حمدان - القاهرة - كتاب الهلال - عدد ٥١٠ - ١٩٩٣

(٢) د. عبد الهادى محمد والى - الإنفتاح الإقتصادى بين النظرية والتطبيق - دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٩

(٣) د. أحمد عكاشة - ثقوب فى الضمير - دار الشروق - ١٩٩٣

أن هناك أربعة ملايين أسرة تسكن الريف المصرى .. هى نفسها الأرقام التى أكدت أن نصف هذة الأسر على الأقل تملك جهاز تليفزيون أبيض وأسود (١) .. بالإضافة إلى إثنتين وأربعين الف أسرة تملك جهاز تليفزيون ملون .. وإحدى عشر الف أسرة تملك جهاز فيديو .. ولأنه ليس لدينا بعد فى مصر دراسة علمية جادة عن تأثير التليفزيون أو الفيديو على القرية المصرية فى السبعينات والثمانينات .. فمن الممكن أن نكتفى بالدراسة العامة التى قام بها بها الدكتور عبد الهادى والى (٢) وأشار فيها إلى أن أهل القرى المصرية لا يستهويهم على شاشة التليفزيون إلا الدراما والمسلسلات والأفلام .. ثم تتفاوت نسبة الإهتمامات بمواد التليفزيون الأخرى وفقا لدرجة التعليم .. فتأتى البرامج الدينية على رأس القائمة وسط صفوف الأميين أو فقط الذين بإمكانهم القراءة والكتابة .. بينما تأتى الرياضة ومباريات كرة القدم على رأس القائمة فى صفوف المتعلمين وحاملى المؤهلات المتوسطة أو العليا .

وهذا ما يجعلنى أؤكد أن التليفزيون لم تستقبله بيوت الفلاحين فقط بقصد التسلية .. وإنما تحول بعد قليل إلى جهاز باعث للصدمات الكهربائية للعقل والعين والقلب والمشاعر .. إلحاح دائم وصارخ حتى لا ينسى أحد ذلك الشاطئ الآخر المشتهى لا يفصل بيننا وبينه سوى ذلك البحر الغاضب والعاصف متلاطم الأمواج والذى لابد من عبوره .. حتى وإن كان عميقا .. ومهما كانت حسابات الخوف وإحتمالات الغرق .

وأصبحت هناك فى النهاية حياة جديدة تمارسها قرية جديدة بدأت تعيش على أرض مصر .. أنماط إستهلاكية جديدة .. ونشاط طفيلى لم تعهده القرية المصرية من قبل .. فتمردت هذة القرية لأول مرة فى تاريخها على بيوتها وإستهواها أكثر منازل الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة .. وزحفت هذة البيوت بعشوائياتها وفوضويتها على الأرض الزراعية (٣) .. وإنتشرت فى الحوارى الضيقة كثير من المحلات التجارية بشكل لا يتناسب مطلقا مع عدد سكان القرية أو إحتياجاتها الأساسية .. وإنتشرت تجارة العملة .. وتضاءلت قيمة فلاحة الأرض مقابل مهن ووظائف جديدة إستحدثها هذا المناخ الجديد مثل التجارة والسمسرة وقيادة السيارات نصف النقل أو سيارات الميكروباس .. وبات الفلاح العائد من الغربة – أو حتى الذى لم يكابد الغربة وقسوتها – يفضل المهنة التى تتطلب مجهودا أقل وإن كانت تأتى بعائد أكبر .. وفى المقابل لم يكن هناك ما يمنع الفلاح الذى لم تسمح له ظروفه بالسفر بالتطلع إلى حياة أفضل ولا أن تشتهى أسرته ما بات يحاصرها من إغراءات .. فالحياة الحلوة الناعمة المثيرة .. باتت قريبة من العين والقلب والحلم .. ثياب جميلة مستوردة وأجهزة كهربائية ومستلزمات حديثة للبيت .. فجرى التسابق المحموم على الثلاجة والبوتاجاز والغسالة الكهربائية .. حتى بات الريف المصرى يملك (٤) مليونا وثلاثمائة الف غسالة .. وأكثر من نصف مليون ثلاجة .. وقرابة النصف مليون بوتاجاز .. وثمانية عشر الف جهاز ديب فريزر .. ومن مفارقات القدر أن ذلك كله كان يجرى فى وقت زادت فيه وطأة الأزمة الإقتصادية وقسوتها بحيث أصبح مجرد البقاء على قيد الحياة .. أو توفير متطلبات الحياة والبيت

---

(١) ، (٤) ممدوح الولى – سكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٢) د. عبد الهادى محمد والى – الإنفتاح الإقتصادى بين النظرية والتطبيق – دار المعرفة الجامعية – ١٩٨٩ .. وهناك دراسة أخرى عن الفيديو للدكتورة نوال عمر سنشير إليها لاحقا .

(٣) مجلة الأهرام الإقتصادى – عدد ١٩٨٧/١٢/٢١

الأساسية .. مغامرة أو بطولة أو حرب – ليس الإنتصار فيها سهلا أو مؤكدا – تخوضها مليون وأربعمائة الف أسرة لا تملك أية أجهزة كهربائية .. ولا أى شئ على الإطلاق .. وإلى الحد الذى معه أصبح لدينا فى مصر (١) – وفقا لحال الريف وأهله – محافظات غنية جدا هى على التوالى .. الغربية والجيزة ودمياط وأسوان والوادى الجديد .. ولدينا محافظات فقيرة جدا هى أسيوط وسوهاج .. ومحافظات فقيرة فقط هى على التوالى .. البحيرة والدقهلية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والفيوم والمنيا وقنا .. وتبقى محافظتان – يختلط فيهما الفقر بالغنى – هما الشرقية والقليوبية .

ولم يكن ممكنا أن يجرى ذلك كله .. وأن تتغير معالم الحياة وملامحها .. دون أن تتغير معها القواعد الأخلاقية والقوانين الصارمة التى كانت مهمتها ضبط إيقاع الحياة الجنسية فى القرية المصرية على مدى تاريخها الطويل .. ولم يعد هناك ما يمنع الجنس من أن يتحول فى أية قرية إلى قنبلة نتركها لحاضرنا أو مستقبلنا ليتولى أحدهما نزع فتيلها وتفجيرها .. بل ولم تطق بعض النساء الصبر – وبعض الرجال أيضا – فتولوا بأنفسهم نزع فتيل تلك القنبلة .. ثم كانوا هم أول ضحايا الإنفجار .

وبإمكانى – لأسباب كثيرة – أن أزعم أن أول توتر جنسى بدأت تشكو منه القرية فى زمننا الحاضر .. هو ذلك التوتر الذى شاب العلاقة بين الزوج والزوجة .. هذة العلاقة التى تغيرت نهائيا بكل أشكالها ومستوياتها ومجالاتها .. فلم يعد الفلاح هو سيد البيت والعائلة كما كان .. ولا باتت المرأة هى شريكة رحلة الحياة المضنية والموجعة .. تغير الإثنان إما بإختيارهما .. وإما رغما عنهما .. الرجل إستنزفت قواه وطاقته الرحلة المضنية والشاقة للبحث عن الرزق والزاد .. والزوجة التى كانت (٢) لا تعرف الخمول بل وكانت تكد ربما أكثر من الرجل .. تطهو الطعام وتجلب المياة إلى البيت وترعى الصغار وتخبز العيش وتغزل القطن والكتان والصوف .. وتوفر الوقود من روث البهائم المخلوط بالتبن .. هى وحدها المسئولة عن حمل أغراض الأسرة أيا كان حجمها أو وزنها وفوق ذلك تساعد زوجها فى عمله .. كانت بإختصار زوجة خاضعة لزوجها (٣) .. لا تتناول معه الطعام .. ولا تسير إلا خلفه .. لا تطيع إلا هو .. حتى جاء اليوم الذى باتت فيه تلك الزوجة تشكو الوحدة والفراغ والخواء والملل أحيانا من حياتها ومن زوجها ومن نفسها أيضا .. ومع ذلك .. مع كل هذا التغيير .. بقى التغيير الذى لحق بالجانب الجنسى من هذة العلاقة الزوجية .. أكثر حدة وقسوة وأضطرابا .. كان أيضا تغييرا مفاجئا جرى بسرعة دون أن يمنح الزوج أو الزوجة فرصة التوقف والمراجعة والإستعداد لتلك الحياة الجديدة .. وأخيرا بدأت هذة الزوجة .. سنة بعد أخرى .. تتعلم وتتأكد أنها ليست أقل من الرجل الذى تشاركه حياته وبيته وفراشه .. فلم تعد تطلب المساواة فقط برجلها وزوجها .. وإنما بدأت تطالب بمساواتها بزوجات الرجال الآخرين أيضا .. وتشتهى ما أصبحت تراه على شاشة التليفزيون أو فى بيوت من أنعم الله عليهم بالسفر إلى بلاد النفط .. وأهم من ذلك كله أنها باتت لا تخجل من الإعلان عن رغباتها الجنسية .. ولا ترفض التنازل عن حقوقها فى الإستمتاع وإشباع جسدها وإطفاء شهواتها .. ولا تقنع بحكاية اللقاء

---

(١) د. عبد الباسط عبد المعطى – توزيع الفقر فى القرية المصرية – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٩

(٢) د. محمد كمال يحى – الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣

(٣) إدوارد وليم لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – ترجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١

الواحد الذى لم يكن ليتم فى الماضى إلا يوم الخميس من كل أسبوع وأحيانا كل أسبوعين أو شهر وكأنه قانون غير مكتوب ليس هناك من هو على إستعداد لأن يغامر ويكسره ويتمرد عليه .. لكن كسرتها الزوجة وتمردت عليه حين إكتشفت أن الجنس مشروع ومسموح فى كل يوم وفى كل وقت .. فى نفس الوقت الذى أصبح فيه الزوج - المعدم والفقير أو الذى يقاتل من أجل البقاء والإستمرار ومن أجل ألا يغدو فقيرا أو معدما - لا يرحب كثيرا بالجنس فى أى يوم أو فى أى وقت .. فهذا الرجل الذى كان الزواج له حتى وقت قريب لا يمثل أية مشكلة .. أصبح الزواج بالنسبة له اليوم .. ليس أكثر من مشكلة .. والأطفال الذين يأتى بهم الزواج مشكلة أكبر .. وللأسف .. لم تكن كل الزوجات على إستعداد للتعايش مع ذلك .. أو التسامح فى ذلك .. أو التغاضى عن ذلك .. وبدأت قلة منهن تفتش عما تحتاجه عند الرجال الآخرين .

وليست هناك حكاية قادرة على تجسيد كل هذة الهموم والمواجع .. قدر حكاية سناء(١) .. الفتاة الريفية التى تزوجت من أحمد وأنجبت منه طفلة أطلقا عليها إسم ريهام .. وكان من المفترض أن تحيا تلك العائلة الصغيرة حياة هادئة ومستقرة فى قرية هوارة بمحافظة الفيوم .. لولا أن مطالب سناء الجنسية باتت تفوق قدرات أحمد .. المدرس المهموم طول الوقت بالبحث عن ضمان وأمان لأسرته الصغيرة .. ولم ترض سناء بالصبر .. فبدأت تعاير زوجها بضعفه وعدم قدرته على إشباع رغباتها وإسعادها جنسيا .. ويبدو أن الزوج كان على إستعداد لأن يتحمل تلك المعايرة والإهانات الدائمة والجارحة والقاسية .. أما الذى لم يكن الزوج على إستعداد لأن يتحمله مطلقا فهو أن تستعين زوجته بالآخرين من أجل تلك السعادة وإشباع رغباتها وجوعها الجنسى .. وهذا بالضبط هو ما قررته وإختارته الزوجة .. فقد عاد زوجها يوما إلى البيت .. ليستقبله إرتباك هائل إرتسم على ملامح زوجته .. وفوجئ بأحد الأشخاص يهرب خارج المنزل .. فلم يجد الزوج حلا إلا إنهاء الحكاية كلها .. فقتل زوجته وإبنته وذهب هو إلى السجن ليعيش هناك بقية العمر مكسورا ومهزوما .

وقد قصدت بتلك الحكاية أن أشير إلى أن القرية بدأت بالفعل تتخلص من تراثها وعاداتها وتقاليدها وترتدى مسوح المدينة .. فلم نشهد من قبل الزوجة الريفية التى تسأل زوجها عن الجنس علنا .. بل وتسخر منه إذا ما رفض أو عجز عن معاشرتها كلما إحتاجت أو أرادت .. ثم ينتهى بها الأمر إلى أن تفتح باب بيتها أمام عشيقها ومعه تمارس الجنس فوق فراش زوجها .. هذا هو ما حدث فى إحدى قرى مركز بلقاس(٢) .. حين إضطر مدرس جغرافيا يبلغ الخامسة والأربعين من العمر لأن يخنق زوجته بسلك كهربائى بعد أن كثرت معايرتها له .. وبعد أن أعلنت أمامه أنها على علاقة برجل آخر .. وأيضا فى إحدى قرى بنى سويف حين كان الزوج عاجزا عن الإنجاب .. ثم إكتشف أن زوجته حاملا .. فخنقها بمساعدة والدته ثم أشعل الإثنان النار فى جثتها لإخفاء معالم جريمتهما .. ولم يعد من الضرورى أن يكون الزوج عاجزا .. أو ضعيفا جنسيا .. لتخلع الزوجة ثيابها أمام الآخرين ومن أجل الآخرين .. فلم يثبت أن الزوج - بطل هذة الحكاية التى

---

(١) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٣/٢١

(٢) عبد العزيز محمد الحسينى - هل نحن أمة من المجانين - بدون إسم ناشر - ١٩٩٤ .. وينبغى الإشارة إلى أن أية حادثة أخرى سيرد ذكرها فى بقية هذا الفصل بدون الإشارة إلى مصدرها أو إسنادها إلى إحدى الصحف .. هى من جملة الحوادث التى رصدها المؤلف فى محاولته الجديرة بالشكر والإحترام .

جرت وقائعها فى قرية ميت تمامة بمحافظة الدقهلية [١] - كان عاجزا أو ضعيفا .. ومع ذلك لم تتردد زوجته فى إقامة علاقة جنسية مع أحد الشباب من أصدقاء إبنها البالغ من العمر عشرين عاما .. ولم تكتف بذلك .. وإنما إتفقت مع ذلك الشاب على الهرب إلى القاهرة للإقامة هناك بعد أن لم تعد تكفيها تلك اللقاءات العابرة .

وإذا كان زوج تلك المرأة قد طالب بإعدامها فى ميدان عام لكى تكون عبرة .

فإن الأجدى والأكثر إلحاحا وضرورة كان الإلتفات إلى ما أصاب كل قرية من خلل وإهتزاز وإضطراب .. بعد أن باتت نتيجة ذلك كله أمامنا واضحة تتابعها صحافتنا اليومية بشكل كما لو كان مألوفا ومتوقعا لا يستدعى أن نشعر معه بالقلق والخوف والإنزعاج .. ففى تلك الصحافة نقرأ الكثير عن حكايات الخيانة .. التى إما تبقى تعيش فى الخفاء وإما تنتهى غالبا بالقتل .. فما الذى يمكن أن يلجأ إليه زوج غير الدم .. حين يجد هذا الزوج زوجته فى أحد حقول الفول عارية تماما تمارس الجنس مع أحد شباب القرية .. وكأنها تناست تماما عشرة تسعة أعوام عاشها الإثنان معا [٢] فى إحدى قرى سيدى سالم بمحافظة كفر الشيخ .. وما الذى يمكن أن يحول بين أحد شباب قرية الجوابر بمحافظة الدقهلية [٣] وبين قتل شقيقته نظلة إذا ما إكتشف أنها - وهى المرأة المتزوجة - قد هجرت بيتها وزوجها بعد أن بدأ زوجها يشك فى سلوكها .. وحين يكتشف الشقيق بنفسه غراميات شقيقته العارية والفاضحة .. يقتلها .

تماما مثلما حدث فى قرية برطباط بمحافظة المنيا .. فى واحدة من أغرب حكايات الخيانة والدم .. فالزوجة التى بلغت الخامسة والعشرين من عمرها .. لم تجد ما يحول بينها وبين التورط فى علاقة جنسية حميمة وعارية مع أحد الرجال الغرباء .. وحين يكتشف الزوج تلك العلاقة .. أيضا لم تجد الزوجة ما يحول بينها وبين الإتفاق مع زوجها على قتل عشيقها .. ويقتله الإثنان بالفعل .. ويذهبان سويا إلى السجن .. الزوج محكوما عليه بخمسة عشر عاما .. والزوجة محكوما عليها بسنة واحدة حيث أن دورها إقتصر فقط على إخفاء جثة العشيق القتيل .. فينتظر شقيق الزوجة تلك السنة .. وما إن تخرج شقيقته من السجن .. حتى يقتلها ويحرق جثتها دفاعا عن شرف العائلة .

وليس من الضرورى أن يقتصر القتل على الزوجة الخائنة .. وإنما قد يصبح الموت من نصيب الزوج المخدوع تقتله زوجته أو عشيقها أو الإثنان معا .

وقد كانت راوية واحدة من هؤلاء الزوجات القاتلات .. بدأت حكايتها كفلاحة تعيش فى إحدى قرى مركز كوم حمادة [٤] .. وتزوجت راوية من محمد وأنجبت منه كثيرا من الأطفال قبل أن تقع فى حب أحد شباب القرية .. حب بدأ بالإعجاب وإنتهى بالفراش .. وعلاقة بدأت بالزنا وإنتهت بالدم .. قتلت راوية وعشيقها الزوج المخدوع .. ولولا أطفالها الصغار لكانت المحكمة قد أرسلتها إلى المشنقة بدلا من الإكتفاء بحبسها فقط عشر سنوات مع الشغل والنفاذ .. وتتشابه حكاية راوية مع حكاية أم حمدية .. الفلاحة الجميلة التى لم تتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر .. والتى لم تكتف بكونها زوجة سيئة السمعة تخوض فى سيرتها السنة أهالى قرية أطسا .. بمحافظة

(١) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩٢/٩/١٩

(٢) جريدة المساء - عدد ١٩٩٢/٢/١٨

(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/٢/٢٥

(٤) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٨٧/١٠/٢٤

الفيوم (١) .. ولكنها وبعد علاقة محرمة طويلة مع شاب إسمه شقلوب يصغرها بعشرة أعوام .. حرضت عشيقها على قتل زوجها .. وفى إحدى قرى مركز زفتى بمحافظة الغربية .. تعاونت زوجة مع عشيقها على حرق زوجها بينما كان أطفالهما يغطون فى النوم بجواره .. وفى قرية السنطة بمحافظة الغربية .. قررت الزوجة التخلص من زوجها لتتزوج من صديقها عامل السنترال .. ووضعت له السم فى كوب الشاى .. لكن طفلها البالغ من العمر خمس سنوات هو الذى راح ضحيتها بعد أن شرب الشاى بدلا من أبيه .. وهو نفس ما حدث ولكن هذة المرة فى إحدى قرى مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية .. وبدلا من طفل واحد .. ماتت طفلتان جميلتان فى الخامسة والسابعة من عمرهما بعد أن تناولا بطريق الخطأ .. المكرونة والبطاطس .. اللتين أعدتهما الزوجة وخلطتهما بالسم ليأكلهما زوجها ويموت فتستطيع الزواج من عشيقها الرجل الثرى .. وفى الحكاية الثالثة .. والتى جرت وقائعها فى كفر سعد بمحافظة دمياط (٢) .. فلم يمت الطفل البالغ من العمر سبع سنوات .. فقط هددته أمه بالموت إذا تكلم وحكى عما رآه .. حين عاد أبوه من الخارج فوجد أمه مع عشيقها فى الفراش يمارسان الجنس .. وبدلا من أن يقتل الزوج زوجته الخائنة .. كانت الزوجة وعشيقها هما اللذان – بمنتهى الجرأة والثبات – قتلا الزوج فإستيقظ الطفل على صرخات أبيه بينما كانت الأم والرجل الغريب يهشمان رأس الأب بمنتهى العنف والقسوة .

وفى أحيان أخرى .. لم يكن هناك داع للدم والقتل .. ففى إحدى قرى محافظة أسيوط .. لم تجد الزوجة الخائنة دافعا لأن تقتل زوجها أو تقنع عشيقها بأن يتولى هو تلك المهمة .. وإنما إكتفت بالهروب مع عشيقها إلى حلوان لتتزوج منه هناك دون طلاق من زوجها الأول .. وفى المنزلة فوجئ الزوج الشاب بأن زوجته التى يحبها ويخلص لها .. تخونه مع أحد أقاربه .. فلم يجد خلاصا من كل هذا الحزن والألم إلا أن يشعل فى جسده النار ويموت .

ومع ذلك .. لم تبق الحكاية مجرد رغبة تفتش عمن يطفئها حتى وإن كان أحد الغرباء الذين تخرم اللقاء بهم أحكام الدين وقواعد القيم والأخلاق .. ولا أصبح الأمر فى النهاية مجرد زوج يخون أو زوجة تسقط .. وإنما باتت هناك حكايات تتحدى حتى الحياة والمنطق وكل قانون سواء جاءنا من السماء أو إستخرجناه نحن من الأرض .. ففى إحدى قرى شبين الكوم بمحافظة المنوفية (٣) .. قامت علاقة محرمة شرعا وأخلاقا بين فلاحة أرملة فى الخامسة والثلاثين من عمرها وأم لأربعة أولاد .. وبين أحد أبناء زوجها المتوفى .. وما كنا ندرى بأمر تلك العلاقة لولا أنها أسفرت عن طفل قتلته أمه فور ولادته فتكشفت الحكاية بكل أسرارها وشذوذها .. وفى إحدى القرى التابعة لمركز طنطا (٤) .. قامت علاقة محرمة بين فلاح وبين أصغر شقيقات زوجته .. وبعد قليل قرر الإثنان التخلص من الزوجة حتى لا تقف عقبة فى طريق علاقتهما .. وفى إحدى قرى ديروط بمحافظة أسيوط (٥) .. قامت علاقة غير شرعية بين زوجة وبين شقيق زوجها الطالب بالمرحلة الثانوية بمجرد غياب الزوج لأداء الخدمة العسكرية مجندا بالقوات المسلحة .. وحين

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/١/١٦
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/١٠/٨
(٣) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٨/١٢/٣
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/١٢/٢٤
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/١/٧

يكتشف الأهل هذة العلاقة .. يهرب الإثنان إلى إحدى قرى محافظة الغربية ويتزوجان هناك وتنجب المرأة طفلة من شقيق زوجها .

ويأتى الطلاق كآخر فصل فى حكاية الزواج والخيانة والدم فى القرية المصرية .. فإذا كانت هناك زوجات فى هذة القرية اليوم .. لم يصمدن أمام رغباتهن التى توحشت بعد كل هذا التغيير النفسى والإجتماعي والأخلاقي والإقتصادى .. وسقطن على الرغم من أنهن فى عصمة أزواج قادرين على ممارسة الجنس معهن وإطفاء نيران الرغبة والشهوة تحت جلدهن .. فمن المؤكد أن هناك – من المطلقات والأرامل – من سقطن ومارسن الخطيئة مهما كان الثمن أو المقابل .. وعلى سبيل المثال .. وفى كفر شكر بمحافظة القليوبية .. قتل أحد المزارعين إبنته المطلقة بعد أن إكتشف حملها بعد عامين كاملين من طلاقها .. وفى إحدى قرى الفيوم .. تم طلاق فتاة شابة وصغيرة بعد شهور قليلة من الزواج .. وبات من الواضح أن هذا الطلاق كان الرخصة التى منحتها الزوجة لنفسها لتمارس الجنس وقتما تريد ومع من تريد .. فإنتشرت عنها الشائعات والأقاويل والحكايات .. فما كان من والدها إلا أن أطلق عليها النار وهى نائمة وسط إخوتها .. وفى إحدى قرى أسيوط .. تتكرر نفس الحكاية لكن الموت هذة المرة كان قرار الأخ لا الأب .. جاء الأخ بشقيقته المطلقة وظل يضربها بقسوة إلى أن فقدت الوعى ثم كان الموت صعقا بالكهرباء .. أما حكاية سميرة (١) .. فلم تنته بالقتل أو بالموت .. وإنما بإحتراف الدعارة .. فهذة الفتاة الريفية الجميلة .. أصر والدها على تزويجها ضد رغبتها ومشاعرها من إبن عمها .. فعادت بعد ثمانية شهور فقط إلى بيت أبيها مرة أخرى ولكن كإمرأة مطلقة .. وبعد أن كانت المطلقة فى ريف مصر تعتزل الحياة أو بهجتها .. أو تبقى وحدها تنتظر الزواج مرة أخرى لتعود إلى الحياة من جديد .. أصبحت اليوم لا تقنع ولا تستكين ولا تنتظر .. ولهذا لم يمض كثير من الوقت حتى وجدت سميرة ما قد ينقصها فى أحضان أحد شباب القرية .. وهربت معه إلى القاهرة حتى لا يضيق عليها الخناق بإعتبارها زوجة مطلقة .. وفى القاهرة .. كان السقوط .. وكانت الدعارة هى المصير المحتوم .

ولم يكن التوتر الجنسى قاصرا بالطبع على علاقة الجنس بين الزوج والزوجة فقط .. وإنما إتسعت دائرة التوتر لتشمل الجميع .. الكبار والصغار .. ففى الماضى .. وفى الزمن الذى لم تمتلئ فيه حياة القرية بكل تلك المغريات والإثارة وتزيدها الحكايات وشاشة التليفزيون إشتعالا .. كان من الممكن للشاب أو الفتاة الزواج فى سن الخامسة عشرة أو قبل سن العشرين على أسوأ تقدير .. أما وقد جاء عصر الإثارة والأبواب المفتوحة للشهوات والرغبات .. فقد تأخر سن الزواج تدريجيا (٢) للفتاة من ثمانية عشر عاما عام ١٩٥٢ .. إلى واحد وعشرين عاما عام ١٩٨٠ .. وللشاب من إثنين وعشرين عاما عام ١٩٥٢ .. إلى سبعة وعشرين عاما عام ١٩٨٠ .. ثم جاءت التسعينات .. فتأخر سن الزواج حتى إقترب من الخامسة والعشرين بالنسبة للفتاة .. ومن الثلاثين وأحيانا يتخطاها بالنسبة للشاب .. وغير الزواج كمشروع مؤجل .. كانت هناك مشاكل أخرى أضيفت إلى قائمة هموم كثير من الشباب .. البطالة مثلا .. والمخدرات أيضا .. بل وأصبحت نسبة شباب القرى الذين أدمنوا تعاطى المخدرات .. ثمانية عشر بالمائة (٣) .

(١) مجلة البلاغ – عدد ١٩٨٦/٨

(٢) المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية – المسح الإجتماعى الشامل للمجتمع المصرى من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٠ – ١٩٨٥

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/٥/١٥

ولم يكن لذلك من نتيجة إلا رغبات تتراكم تحت الجلد يوما بعد يوم .. قد تبقى رغبات مستكينة قانعة بالأحلام والخيال وإختلاس نظرة ما أو إحساس ما هنا أو هناك .. وقد تحتاج مواجهتها إلى السير فى طرق أخرى شائكة تنعزل عن الناس والمجتمع والحياة .. وقد تدفع بصاحبها إلى البحث عن الجنس أيا كان الثمن أو المقابل .. سواء كان هذا الجنس علاقة محرمة وغير شرعية .. أو زواج عرفى .. أو زيارة أوكار الدعارة والتعامل مع عاهراتها .. أو التورط فى إرتكاب جريمة إغتصاب أو الشروع فيها على الأقل .

فأما العلاقات غير الشرعية .. فهى مثلها مثل نفس العلاقات غير الشرعية فى كل مدينة .. لا يمكن حصرها أو قياس مساحتها .. لكن فقط يمكن الحديث عنها .. أو عن بعض تلك العلاقات التى لا تبقى سرية ومجهولة .. وإنما يجبرها الدم على الخروج المؤلم إلى حيث الضوء وعيون والسنة الناس .. مثل تلك العلاقة التى نشأت بين ناظر عزبة بقرية منشية راضى بمحافظة البحيرة (١) وبين فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها وإبنة أحد المزارعين العاملين فى العزبة .. ويبدو أن حرص الإثنين على إخفاء علاقتهما لم يكن متقنا أو كاملا .. إذ بعد قليل تضخمت بطن الفتاة التى إصبحت حاملا .. وبقيت الفتاة تكتم سرها حتى الشهر السابع من الحمل إلى أن أفضت لوالدتها بتفاصيل حكايتها .. فذهبت الأم تطالب ناظر العزبة بالزواج من إبنتها دون جدوى .. فعادت تبكى أمام زوجها ووالد الفتاة .. فطلب الأب من إبنته أن تستدرج عشيقها بدعوى إستمرار العلاقة بينهما .. وإستدرجته بالفعل إلى حيث كان الأب فى إنتظاره وفأسه فى يده شق به رأس ناظر العزبة إلى نصفين وبسكين إضافية مزق الأب الجثة إلى نصفين ووضع كل نصف فى جوال والقاهما فى مصرف كوم حمادة .. وفى قرية طنبشا بمركز بركة السبع بمحافظة المنوفية (٢) .. تورطت فتاة من فتيات القرية حاصلة على دبلوم تجارة فى علاقة محرمة تسفر عن طفل .. خنقته أمه بمجرد ولادته والقت به وسط المزارع .. وفى قرية البدرشين بمحافظة الجيزة .. إرتاب شاب فى سلوك شقيقته الصغرى التى لا يزيد عمرها عن الثلاثة عشر عاما .. فذهب بها إلى الداية .. فإكتشفت الداية أن الفتاة لم تعد عذراء .. فلم يرض شقيقها إلا بموتها خلاصا من عارها وفضائحها .. وفى كفر الوكالة بمحافظة الدقهلية .. تورطت فتاة فى علاقات جنسية إنتهت بجنين تكوم فى أحشائها .. فذهبت إلى طبيب القرية لإجهاضها .. وساومها الطبيب على أجره .. ونال مصوغاتها الذهبية ثم طلب أن يمارس معها الجنس كبقية لأتعابه مقابل إجراء العملية .. وإضطرت الفتاة للموافقة .. وتم إجهاضها بالفعل .. لكنها أصيبت بعد قليل بنزيف فى الرحم فضح كل شئ .. فقتلها شقيقها وعجز أطباء مستشفى شربين العام عن إنقاذها .. وفى قرية أبو الغيط بمحافظة القليوبية .. فقدت الفتاة غشاء بكارتها بعد قصة حب ساخنة جدا وحميمة جدا .. وإكتشف زوجها فى أول أيام الزواج أن عروسه ليست عذراء .. فلم يعتب ولم يسأل .. وإنما إكتفى بكيها بالنار .. ثم ضربها .. وأخيرا قتلها .

أما الزواج العرفى .. فقد إستعذبته قرى بأكملها مثل قرى برطيس وبهرمس والكوم الأحمر فى محافظة الجيزة .. حيث يتفشى الزواج العرفى فى تلك القرى كالطاعون (٣) ويتعاطاه أهلها

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/٩/١٨

(٢) جريدة الأهرام – ١٩٩٢/١٠/٢

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/١٢/١٤

كما لو كان نوعا جديدا ومثيرا من الحشيش أو المخدرات .. وفى المقابل .. كانت هناك قرى فى نواحى أخرى .. لا ترى فى هذا الزواج العرفى إلا نوعا من البغاء أو الزنا .. لا يجلب إلا الفضيحة والعار .. ففى إحدى قرى محافظة بنى سويف .. قتل فلاح شقيقته الموظفة بالسجل المدنى بمجرد أن علم بزواجها عرفيا .

وأما الحديث عن الدعارة .. فهو ما يمكن إختصاره بالحديث عن حادثة كان من الممكن .. بل كان من الضرورى .. أن تستأثر بإهتمامنا ولو قليلا من الوقت .. فإذا كان ضبط بيت للدعارة فى إحدى المدن .. أصبح حدثا مألوفا ومكررا وروتينيا .. فإن بيت للدعارة فى قرية مصرية .. حدث أتخيله جديدا وغريبا ومثيرا ومزعجا أيضا .. حدث أتخيله أكبر كثيرا من مجرد خبر إنفردت بنشره جريدة الأهرام (١) فى ذيل صفحة الحوادث .. ومع أنها قد لا تكون السابقة الأولى من نوعها .. ومع أنه لم يحدث أن خلت القرى المصرية غالبا من فتاة أو إمرأة تبيع جسدها لطالبى المتعة .. تلتقى بهم بسرعة وفى الخفاء مقابل هدايا رخيصة أو قليل من النقود .. إلا أن الجديد كان هو ما حدث فى قرية شبراويس التابعة لمركز أجا بمحافظة الدقهلية .. حين قام رجال الشرطة بضبط بيت دعارة فى القرية تديره إمرأة وتساعدها إبنتاها فى إشباع رغبات الرجال القادرين على دفع ثمن الشهوة والنشوة .. وتم القبض على المرأة وإبنتيها متلبسات ومعهن إثنين من الرجال المترددين على البيت .

حادث آخر .. جرت وقائعه هذة المرة فى قرية صفط اللبن (٢) .. بطلته زوجة فى السابعة والعشرين من عمرها .. بدأت الحكاية بهذة المرأة تقتل زوجها بالسم .. ثم مزقت الجثة إلى أشلاء وشقت البطن وأخرجت الرئتين والقلب والكبد والأمعاء .. ووضعتها كلها مع رأس الزوج فى طشت والقت بباقى الأشلاء فى ترعة البراجيل .. ثم إستاجرت سيارة نصف نقل وضعت فى صندوقها الطشت وركبت هى بجوار السائق الذى لم تمانع فى أن تمارس معه الجنس فى صندوق السيارة بجوار بقايا زوجها .. وكان المقابل أن يساعدها السائق فى التخلص مما بقى من زوجها .. وعادت بعد ذلك تستأجر بيتا فى صفط اللبن .. أحالته إلى بيت للدعارة يرتاده من يريدها ويستطيع أن يدفع الثمن .

حادث إستثنائى بالطبع .. وأنا أعرف ذلك .. لكنه بالقياس إلى تاريخ القرية المصرية وأخلاقياتها وإلتزامها فى الماضى .. يصبح حادثا إستثنائيا جدا .. وبالقياس إلى واقع نفس تلك القرية وحاضرها .. يصبح حادثا واقعيا جدا .. ومنطقيا جدا .. مثله مثل كل حادثة إغتصاب تحدث فى أية قرية مصرية .. ولأننا لم نكترث ولم نعط حادثة الإغتصاب الريفية ما أعطيناه من إهتمام لحادثة الإغتصاب القاهرية .. فقد أصبح علينا أن نقلب فى صفحات ملف الإغتصاب فى القرية المصرية دون أن نعرب عن أية دهشة قد تعترينا أو مفاجأة قد تجعلنا نتساءل ماذا جرى .. ومتى .. ولماذا جرى كل ذلك .. فقد جرى بيننا وأمام أعيننا .. منذ بداية الثمانينات .. وبعد أن نجحت واحدة من تلك الحوادث الريفية فى إختراق حاجز التجاهل الإعلامى واللامبالاة القاهرية لتكتب عنها جريدة الأخبار (٣) .. ونقرأ نحن عن فلاح بإحدى قرى محافظة الغربية .. تسلل داخل

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/١١/٧

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/١٢/١٤

(٣) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٢/١٢/١٨

أحد بيوت القرية .. وحاول إغتصاب إمرأة هناك .. ولم تنجح المحاولة فقط لمرور شيخ الخفراء قريبا من البيت وسماعه لصرخات المرأة والرجل يحاول إغتصابها .

وبعد تلك الحادثة .. تكررت حوادث الإغتصاب .. فلاح فى قرية صفط الحرية بمحافظة البحيرة (١) يستغل إنشغال معظم أهل القرية بسوق السبت .. فإقتحم منزل فتاة فى السابعة عشر من عمرها إسمها نعمة وحاول الإعتداء عليها .. وإستطاعت نعمة الهرب إلى منزل عمها المجاور .. فذهب الفلاح خلفها حتى حظيرة المواشى فى بيت العام .. وعاد يحاول إغتصابها من جديد .. لم ينقذها منه سوى سيخ حديد هشم رأس الفلاح .. جاءت به صباح شقيقة نعمة الكبرى .. وفى إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية .. قام إثنان تحت تهديد المطاوى بمحاولة إغتصاب سيدة بعد أن إقتحما بيتها .. صحيح أن المحاولة فشلت ولم تكتمل ولكنها - بمنتهى الحزن والأسف وبلا أى تعليق أستطيع كتابته - كانت خامس حادثة إغتصاب (٢) يشهدها مركز تلا فى شهر واحد !.

وتزداد جرائم الإغتصاب فى القرية المصرية عنفا وقسوة .. ولم يعد هناك ما يمنع من إغتصاب الصغار والأطفال أو حتى الأقارب والمحارم .. ففى كفر شكر بمحافظة القليوبية (٣) .. إستدرج فلاح طفلة فى السادسة من عمرها أثناء عودتها من المدرسة وإغتصبها .. وفى قرية القصبة بمحافظة بنى سويف (٤) .. قام طالب بالمرحلة الثانوية بإغتصاب طفل لم يتجاوز السادسة من العمر .. وشهدت عزبة ربيع بمحافظة المنوفية (٥) شابا فى الثانية والعشرين من عمره .. حاول إغتصاب زوجة شقيقه .. لم ينقذها منه إلا زوجها الذى قتل شقيقه .. وفى عزبة السعادنة بمحافظة الشرقية (٦) .. إستغل زوج شاب وجوده فى منزل شقيقة زوجته .. فحاول إغتصابها .. وحين قاومته .. أطلق عليها النار .. وفى إحدى قرى محافظة البحيرة (٧) .. إغتصب زوج إبنة زوجته الصغيرة فى وحشية .. ثم إغتصب شقيقتها الكبرى وأقنعها بالهرب معه إلى القاهرة وهناك تزوجها عرفيا .. وطالما تم إغتصاب شقيقة الزوجة .. وزوجة الشقيق .. فلم يعد هناك ما يمنع من إغتصاب زوجة الصديق أيضا .. وهذا هو ما حدث فى قرية أجهور بمحافظة المنوفية (٨) حين ذهب كهربائى لزيارة أحد أصدقائه .. وبالرغم من أن الصديق لم يكن موجودا فى البيت .. فإن الزوجة سمحت له بالدخول بإعتباره صديقا لزوجها .. وخطيبا لشقيقتها أيضا .. وأخذت تناقشه فى تفاصيل إتمام زواجه من شقيقتها .. فطلب منها أن تذهب لإستدعاء شقيقتها على أن ينتظرها هو فى البيت .. وذهبت بالفعل لكنها لم تجدها فعادت إليه فلم تره فإعتقدت أنه إنصرف وذهبت لتنام مع طفلتها .. لتستيقظ على محاولة صديق زوجها إغتصابها .. كان مختبئا تحت السرير ينتظر سكون الليل .. قاومته .. غرس سكينا فى صدرها ورقبتها .. أخذت الزوجة تصرخ فلم يسمعها أحد بأستثناء طفلتها الصغيرة التى إستيقظت من نومها لترى الرجل لا يزال يطعن

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٨/٩/٥
(٢) جريدة الأهالى - عدد ١٩٩٢/١/١
(٣) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/١٢/٢٥
(٤) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/٦/٢
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/٥/٢٩
(٦) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩٢/٣/١٧
(٧) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٢/١٠/٣
(٨) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/٥/٤

أمها .. بكت الطفلة وقالت للرجل .. حرام عليك يا عمو أنا ها أقول لبابا عليك .. فما كان من الرجل إلا ذبح الطفلة لتصمت إلى الأبد .

ثم كانت النهاية .. أو حكاية تصلح كفصل أخير أغلق به ملف الإغتصاب فى القرية المصرية وهى حكاية الفلاح الأجير عبد المعطى صبرى الجراحى .. سفاح فى السادسة والعشرين من عمره من قرية ميت نابت مركز طلخا بمحافظة الدقهلية [1] .. تزوج ثلاثة مرات وطلقهن جميعا لكن بعد أن أنجب من كل زوجة طفلا .. شريهان وشيماء وأحمد .. طلق الفلاحة أيضا وإكتفى بإتاوات فرضها على أصحاب الأراض فى قريته والقرى المجاورة .. ثم إختتم حياته كسفاح إغتصب أربعة عشر فلاحة فى مختلف قرى مركز سمنود بمحافظة الغربية .. أولهن كانت إمرأة جميلة رآها السفاح فوق عربة كارو .. فأغراه جمالها وأشعل داخله الإحساس بالرغبة والشهوة .. فإختطفها وذهب بها إلى حقل بعيد .. وحاولت هى أن تقاومه دون جدوى .. فإستسلمت له ليتركها تعيش وترجع لبيتها .. ويبدو أن الجنس بالإكراه بات يستهوى مثل هذا الرجل أكثر من غيره .. فعاد يكرر حكايته مع النساء اللواتى كان يراهن متناثرات فى الحقول أو الطرق المقفرة .. لا يكترث بجمال أو جاذبية أو سن .. فواحدة من ضحاياه – فى قرية بهبيت الحجارة – كانت فى الخامسة والخمسين من عمرها .. أما ضحيته الرابعة عشرة فقد رفضت الإستسلام له فقتلها وتركها لكن بعد أن نزع عنها ثيابها الداخلية .. وكانت جثتها هى الخيط الذى قاد رجال الشرطة فى النهاية للقبض عليه .. على ذلك المارد الصغير الذى ما إن إنطلق من القمقم .. حتى كانت النتيجة دماء ودموعا وسقوطا وإغتصابا .

وعلى الرغم من ذلك .. وحتى لو إنطلق مثله الف مارد .. فكل جراحهم أو جراحنا منهم .. لا تقاس ولا تقارن بجراح مارد أكبر .. هو الريف كله .. هو كل قرية فى مصرية .. تركناها وحدها تواجه عواصف قاسية ودامية .. تخوض وحدها حرب تغييرها وخلع ثيابها .. تقاتل وحدها مواجع وتناقضات زمانها وزماننا .. لا نزال نطالبها بالعفة والثبات فى وجه الطوفان رغم إننا سرقنا منها صمام أمانها .. ونسينا .. أو تناسينا .. تلك القنبلة التى تحتها تتمدد تكاد تشتعل وتنفجر .. فإن إضطررنا للحديث عن هذة القرية وتذكرناها .. تذكرناها بما يخدم مصالحنا لا مصالحها .. مع أن تلك القرية يوم يتعين عليها أن تدفع الثمن .. لن تدفعه وحدها هذة المرة .. لكننا كلنا سندفع معها الثمن .. ثمن لن يطيقه ولن يتحمله أحد منا على الإطلاق .

---

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٢/٩/٢١ ، عدد ١٩٩٢/٩/٢٥

(٨)

قنبلة .. فى كل بيت

بسم الله الرحمن الرحيم
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم
أزواجا
لتسكنوا إليها
وجعل بينكم مودة ورحمة
إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون
صدق الله العظيم

قرآن كريم
سورة الروم ـ الآية ٢١

مثل كل شئ آخر .

لم تبق مؤسسة الزواج فى مصر .. بعيدة عن كل ما عاشته مصر من أحداث وإنقلابات سياسية وإقتصادية وفكرية وإجتماعية وأخلاقية .. بل إنه ليس من قبيل المبالغة التأكيد على أن العلاقة بين الزوجين كانت أكثر العلاقات الإنسانية والإجتماعية التى تغيرت وتأثرت بكل هذا الذى جرى فى مصر .. فأضيفت إلى قاموس الزواج المصرى كلمات جديدة .. معان جديدة .. قضايا جديدة .. حكايات جديدة .. جرائم جديدة أيضا .. فبدأنا نعتاد الطلاق ونستريح إليه .. وبدأنا نعتاد سماع حكايات الخيانة ونحب الإصغاء إليها .. وبدأنا نعتاد قراءة أخبار جرائم تروح ضحيتها الزوجات .. والأزواج أيضا .

بدأنا نكتشف فتيات تزوجن فى أقسام الشرطة .. تضاعف عددهن ست مرات فى سنوات الثمانينات (١) .. طالبات وطلبة فى الجامعة يتزوجون عرفيا .. ونساء تزوجن أكثر من رجل فى وقت واحد .. زاد عددهن ليشكل ظاهرة (٢) ترصدها معاهد ومراكز البحوث الإجتماعية .. ورجال ونساء يتزوجون سرا .. وزوجات تعرضن للإغتصاب .. كل منهن إغتصبها زوجها أو هتك عرضها .. وأزواج قتلتهم أو قتلوا زوجاتهم .. وأزواج يشكون غياب أو هروب زوجاتهم تعددت بلاغاتهم بشكل بات يدعو للحيرة والقلق .. وزوجات عاهرات يدير الأزواج تجارتهن .. وأزواج يبيعون أجساد زوجاتهم لمن يملك الثمن الذى هو السلطة أو المنصب أو المال .. وعاد بعضنا يفتح من جديد ملفات أغلقها الفقهاء منذ زمن طويل عن زواج المتعة أو زواج الهبة .. وغير هذا كله يفاجئنا الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء (٣) بأن مصر شهدت فى عام ١٩٩٢ فقط .. ثمانية وسبعين الف حالة طلاق .. ليس مجرد طلاق هادئ كحلال يبغضه الله ولا يحبه الناس .. وإنما باتت معظم حالات الطلاق فى تجرى وقائعها وتتم فصولها (٤) أمام المحاكم دلالة على أننا بدأنا نميل إلى العنف وعلى أننا بدأنا ننكسر أمام كل ما فى أعماقنا من توتر .. وأخيرا بدأت مصر تشهد (٥) عشرة الاف حالة طلاق سنويا إتخذ أصحابها قرار الطلاق وهم بعد لم يستكملوا السنة الأولى من عمر زواجهم .

وإذا كان من الممكن التغاضى عن كل ذلك .. وإعتبار كل تلك الحكايات والظواهر والقضايا من قبيل الإستثناءات التى قد يتعايش معها أى مجتمع فى كل زمان ومكان .. فإنه من غير الممكن أن نتجاوز ما أصبح يشوب البيت المصرى من توتر .. وما يسود علاقات الزواج فى مصر من خلل وإضطراب إلى حد أن لم يعد الزواج فى حياة كثير من المصريين بمثابة دعوة للإستقرار والراحة .

وقد يريحنا كثيرا أن نرجع كل ما فى حياتنا الزوجية من توتر وخلل وإضطراب .. إلى أزماتنا الإقتصادية الحادة والمتوالية .. أو إيقاع مجتمعنا الذى بدأ يجرى بنا ونحن خلفه نلهث وراء لقمة عيش ومتطلبات بيت وإحتياجات أطفال وصغار .. وكل هذا صحيح وواقع بالفعل .. لكن من المؤكد أن الجنس – مع قلة المال وأعباء الوظيفة وهموم الحياة المتراكمة – أصبح مشكلة رئيسية تختصر

---

(١) مجلة نصف الدنيا – عدد ١٩٩١/١٠/٤

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٣/٨/٢٨

(٣) مجلة آخر ساعة – عدد ١٩٩٣/٩/٨

(٤) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٣/٧/٢٣

(٥) جريدة الأنباء – الكويت – عدد ١٩٩٢/١/٢١

كثيرا من مساحة الحب والهدوء والإستقرار داخل كل بيت فى مصر .

فالزواج .. كما يعرفه الدكتور إحسان محمد الحسن (١) .. هو رجل وإمرأة تقوم بينهما علاقة جنسية يسمح بوجودها المجتمع لتستمر فترة طويلة من الزمن يمكن للإثنين خلالها إنجاب الأطفال وتربيتهم تربية إجتماعية وأخلاقية ودينية يقرها ويعترف بأهميتها المجتمع .. والزواج كما يصفه هنرى هافلوك إيليس (٢) .. هو علاقة جنسية متبادلة مع نية لجعلها علاقة دائمة .. وكان أستاذ علم النفس أوزوالد شوارتز قد أعلن منذ أكثر من أربعين سنة (٣) أن الحياة الجنسية للزوجين هى .. الجهاز الدقيق الذى يسجل أعمق الإضطرابات التى تطرأ على الزواج حتى حينما تكون كل المظاهر على السطح موحية بالهدوء التام .. وهو ما يؤكده الدكتور فردريك لويس .. الطبيب الأمريكى الذى تخصص فى طب أمراض النساء .. وجمع حصيلة أعوام طويلة .. مع النساء وأوجاع النساء .. فى كتاب (٤) قال فيه أن التفاهم الجنسى هو .. محور العلاقة بين كل زوج وزوجة .. وأرجع الدكتور فردريك معظم إضطراب الحياة الزوجية إلى أسباب جنسية .. بل إن كل حادثة طلاق تقريبا فى رأيه وإعتقاده .. سببها المباشر .. أو غير المباشر .. هو إنعدام التوافق الجنسى !.

حتى العرب القدامى .. لم تكن كل تلك الآراء والنظريات والمعتقدات .. خافية أو غائبة عنهم .. فنجد على سبيل المثال شمس الدين ابن قيم الجوزية قد أكد (٥) أنه .. فى وطء الرجل زوجه .. كمال اللذة وكمال الإحسان .. وحصول الأجر وفرح النفس وذهاب أفكارها الرديئة عنها .. وخفة الروح وذهاب كثافتها وغلظها .. وخفة الجسم وإعتدال المزاج وجلب الصحة ودفع المواد الرديئة .. فإن صادف ذلك وجها حسنا وخلقا دمثا وعشقا وافرا ورغبة تامة وإحتسابا للثواب .. فتلك هى اللذة التى لا تعادلها لذة أخرى .

أما فى مصر .. فالدكتور طه حسين أكد (٦) أن الحياة الجنسية .. أو بعبارة أوضح .. الصلة بين الرجل والمرأة .. هى أهم فروع الحياة وأشدها تأثيرا فى نفوسنا .. وسيطرة على أهوائنا وعواطفنا أردنا ذلك أم لم نرد .. وأعلن المخرج الكبير صلاح أبو سيف مؤخرا (٧) أنه قام بعمل دراسة دينية وطبية عميقة .. وقام بسؤال كثير من المختصين .. حتى توصل إلى أن تسعين بالمائة من أسباب الخلافات الزوجية وإنعدام التفاهم والتوافق بين الزوجين والطلاق .. هو الجنس !.. وأكد ذلك الدكتور زكريا إبراهيم حين قال (٨) أن الزيجات السعيدة وحدها هى التى يتحلل فيها الزوجان من ملابسهما أثناء الجماع .. وهى وحدها التى يستطيع فيها كل من الرجل والمرأة أن يتجول فى المنزل عاريا دون خجل أو حياء !.

إلى هذا الحد .. يلعب الجنس دوره فى التوافق والإنسجام بين الزوجين .. وسيبقى يلعب هذا الدور سواء بقينا فى مصر نرفض ذلك أو نقبله .. نقتنع بذلك أو لا نقتنع .. ويبدو أننا بعد لم نقبل

---

(١) د. إحسان محمد الحسن – العائلة والقرابة والزواج – دار الطليعة – بيروت – ١٩٨٦

(٢) هنرى هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

(٣) أوزوالد شوارتز – علم نفس الجنس – لندن – ١٩٥٢

(٤) د. فردريك لويس – ٢٠ سنة فى حجرة الإعترافات – ترجمة د. أمير بقطر – كتاب الهلال – ١٩٨٢

(٥) شمس الدين ابن قيم الجوزية – روضة المحبين ونزهة المشتاقين – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٧٧

(٦) علاء الدين وحيد – قلوب عاشقة – دار سنابل – ١٩٩٢

(٧) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/١٢/١٧

(٨) د. زكريا إبراهيم – الزواج والإستقرار النفسى – مكتبة مصر – ١٩٧٨

ولم نقتنع .. فقد قصرنا الجنس وحبسناه داخل فراش الزوجية .. تخيلنا أن الحكاية كلها لا تتعدى دقائق قد تقصر أو تطول يجامع فيها الرجل زوجته .. أو تختلى فيها المرأة بزوجها .. ليطفئ كل منهما رغبته ثم ينتهى كل شئ ليتفرغ الإثنان لما هو أكثر إلحاحا وضرورة .. البيت والأولاد وهموم الحياة التى لا تتوقف ولا تتجمد ولا تنتهى .

ولست أقصد من ذلك كله أن أقصر كل حكاية زواج بتفاصيلها وأسرارها على الجنس فقط .. ولا أريد أن أتورط فأختصر مساحة ودور الحب والتفاهم وتقاسم الحلم والمعاناة والمسئولية .. ولكننى بالمقابل لست على إستعداد لأن أساير قناعات كثير من المصريين الذين يريدون - أو يريحهم أكثر - تحويل العلاقة الجنسية بين الزوجين إلى مجرد مشهد جانبى وثانوى يمكن حذفه دون أن يتأثر بذلك مطلقا سيناريو الحياة بين الرجل والمرأة داخل كل بيت فى مصر .

فليس ذلك صحيحا للأسف !.

لأن الجنس فى أعماقنا - وفى حياة كل زوجين - سواء فى مصر أو فى أى بلد أخرى .. أطول عمرا من دقائق الفراش .. ساكن تحت الجلد وفى العقل والقلب والذاكرة .. قد لا يعلن عن نفسه بشكل علنى صريح ومحدد .. لكن سريته لا تعنى غيابه .. وعدم الحديث عنه لا يختصر مساحته .. والتظاهر بتجاهله لن يلغيه بالفعل .. من أعماقنا وضمائرنا وأفكارنا وقرارتنا ومشاعرنا .. وقد كان مصيرها الفشل والإحباط .. كل دراسة أو فكرة حاولت حذف الجنس من قاموس الزواج .. أو لم تحذفه بشكل مطلق وإكتفت فقط بإختصار مساحته وقيمته وأهمية الدور الذى يلعبه .. مثل دراسة الدكتورة آنا دانيال مثلا .. الطبيبة الأمريكية التى توقفت طويلا تتأمل وتدرس مشاعر كل زوجة وماذا يعنى لها الزواج والحب والتفاهم .. وللرجل أيضا .. وبدأت دراستها بقصد حذف الجنس وإلغاء دوره ووظيفته النفسية لتكتفى بالحب وحده .. وإختصرت رؤيتها فى عبارات قليلة قالت فيها (١) .. منذ لحظة مجيئنا إلى هذا العالم . تتحول حياتنا إلى كفاح مستمر من أجل البقاء .. بعضنا ينجح وبعضنا يفشل فشلا ذريعا .. لكن مهما كانت درجة الفشل أو قسوته .. فإن الواحد منا مادام يرجع إلى بيته فيجد إنسانا آخر يحبه ويرعاه ويضمد جراح روحه .. فلن يشعر حينئذ أن حياته كانت ضياعا كاملا .

ومن المؤكد أن عبارة الدكتورة آنا دانيال .. جميلة ورقيقة .. لكنها للأسف .. عبارة بلاغية أكثر منها واقعية وحقيقية .. والدكتورة آنا هى أول من يعرف ذلك ./ والدليل هو أنها فى كل صفحات دراستها لم تجد أكثر من الجنس دافعا للسعادة أو التعاسة بين كل زوجين .. فإختتمت دراستها بأن المشكلة ليست فى العلاقة الجنسية بين الزوجين .. وإنما هى فى جهلنا نحن بمعنى تلك العلاقة وما ترمز إليه .. وأنا أتفق معها تماما فى أن هذا الجهل هو مشكلتنا الأساسية فى مصر .. هو القنبلة التى ألقينا بها فى كل بيت وتحت كل فراش فى مصر .. قنبلة قابلة للإنفجار والإشتعال فى أية لحظة .. قد نحس بها أو نستطيع أن نتخيلها لكن من المؤكد أننا لا نراها .. أو نجحنا فى التظاهر بأننا لا نراها .. وكان من الممكن أن تمضى الحياة بنا وبمؤسسة الزواج فى مصر مثلما إعتادت أن تمضى لولا ما طرأ على مجتمعنا طوال السنوات الماضية من تغييرات حادة نزعت فتيل قنبلة الجنس داخل البيوت بعد أن كانت تتمدد فى وداعة وسكون قد تنفجر هنا

---

(١) د. آنا دانيال - المرأة والحب - ترجمة د. كلير فهيم - دار المعارف - ١٩٨٠

أو هناك بين الحين والآخر فقط بطريق الخطأ أو الصدفة .

وليس من السهل تحديد هذة التغييرات وأسبابها وترتيبها زمنيا أو وفقا لحجم تأثيرها وتداعياتها .. وإن كان من السهل أن نرصد ما إنتهت إليه هذة التغييرات وما سببته في المجتمع بشكل عام .. وفي مؤسسة الزواج بشكل خاص .. فعلى سبيل المثال أعاد زمن الإنفتاح صياغة الأسلوب الذى باتت تفضله وتستريح له الأسرة المصرية لممارسة الحياة .. هذة الأسرة التى باتت تنفق (١) على الطعام والشراب أكثر من أربعة وخمسين بالمائة من دخلها .. وأكثر من أربعة عشر بالمائة على الثياب .. وأصبحت الميزانية المخصصة للزينة والمستلزمات الشخصية تفوق كثيرا ميزانية الثقافة أو التعليم .. ونقرأ في تقرير لمعهد التخطيط القومي (٢) أن هذا الإندفاع الإستهلاكى كان له إنعكاسه الواضح على سلوك الأفراد وشدة تطلعاتهم .. وكان لابد وأن تتأثر وتتغير بذلك كثير من معالم الحياة في مصر .. كان لابد وأن يتغير أيضا كل من الرجل والمرأة .. وهو ما تؤكده الدكتورة عزة كريم .. رئيسة وحدة بحوث الأسرة بالمركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية .. التى أشارت (٣) إلى أن هذا الإنفتاح الكامل على المجتمعات الخارجية .. أدى إلى زيادة تطلعات الزوجات مع طموحهن المستمر في حياة رغدة .. كما أدى أيضا إلى زيادة الضغوط العديدة التى يتعين على الزوج مواجهتها .. فبدأ في التمرد على المجتمع .. وكانت زوجته هى أول من تمرد عليه .. ويشير الدكتور عادل صادق إلى ذلك ليؤكد (٤) أن الأسرة المصرية قد أصابها التصدع .. والكيان الأسرى الطبيعى والسوى الذى تميز به المجتمع المصرى منذ أيام الفراعنة قد تفكك تحت دعايات غربية مشوشة .

ولم يقتصر تأثير الإنفتاح على مجرد طموح جامح أو تمرد غاضب فقط .. وإنما – وكما سبق أن أشرت – أصبح من الطبيعى أن يتطلع الإنسان إلى ذاته هو لا إلى الآخرين .. يعنيه ويؤرقه تحقيق رغباته هو ولو على حساب رغبات الآخرين .. تصبح شهواته النفسية والجسدية أكثر جموحا وطموحا وإلحاحا وإصرارا .. ومهما كانت المفردات والمعانى قاسية ومؤلمة .. يبقى الواقع المصرى أشد قسوة وأكثر إيلاما .. سواء بالنسبة للرجل أو المرأة .

فالرجل الذى بدأت تقهره الظروف الإقتصادية الصعبة .. لم يعد قادرا على إدارة شئون الأسرة والمنزل .. لم يعد أيضا هو القائد .. وإنما أصبح مجرد شريك لا يستطيع فرض سيطرته الكاملة .. وإذا كان هذا الأمر قد تحول إلى ظاهرة عالمية .. إلا أنها في مصر ظاهرة تكتسب مزيدا من الحساسية والتوتر .. لأن التغيير الذى جرى في الغرب مثلا تم على مهل وفي تطور طبيعى يوافق ظروف وقوانين المجتمعات هناك .. ولأن الرجل في مصر لايزال يرفض في أعماقه دور الشريك .. إنه يفضل صيغة أخرى يتعامل بها مع المرأة التى في بيته .. يفضل أن يمتلكها لا أن يشاركها .. ويسيطر على الرجل المصرى هاجس بأنه لو أتيحت لزوجته فرصة الإختيار مرة أخرى .. فسوف تختار رجلا غيره .. وهو كما يقول الدكتور أحمد حافظ أستاذ علم النفس بالجامعة (٥) .. يتعامل مع زوجته بوثيقة رسمية مكتوبة تعطيه الحق في إمتلاك جسد زوجته

(١) الجهاز المركزى للبحث العلمى والإحصاء – بحث عن ميزانية الأسرة من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤

(٢) د. نعمات أحمد فؤاد – أزمة الشباب وهموم مصرية – كتاب الحرية – ١٩٨٦

(٣) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٣/١٠/٧

(٤) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٨٨/٦/٢٦

(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٨/١/٧

يتصرف فيه كيفما يشاء سواء كان ذلك عن رغبة أو عن غير رغبة .

ومن قبيل التجنى والتعسف .. أن نرجع ذلك فقط إلى الإنفتاح وما تعاقبت بعده من أحداث وإنقلابات .. فالرجل المصرى منذ سنوات طويلة قبل الإنفتاح يسيطر عليه مثل هذا الهاجس .. والتاريخ المصرى شاهد على أن الرجل كان دائم الخوف على إمرأته ومن إمرأته .. وعلى سبيل المثال .. أكد قاسم أمين [١] فى الكتاب الذى الفه عام الف وتسعمائة .. أنه ليس بين الرجال المصريين من يأتمن زوجته ويرضى بتعاملها مع رجل غريب .. بل إنه أحيانا كان الرجل لا يأتمن حتى شقيقه ولا يسمح له بالكلام مع إمرأته ولا أن يرى وجهها !.. ومع ذلك نقرأ فى مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس حلمى الثانى [٢] أن منع المرأة من الإختلاط وتقييدها .. لا يحط من كرامتها .. ولا يقضى على حرمتها .. وبررت الأميرة هذا القيد بدعوى حب الرجل لزوجته .. ولأن الحب كلمة فضفاضة .. خاصة فى مفهوم المصريين وفى وجدانهم .. فإننا مضطرون فى هذة الحالة للإحتكام إلى سلوك الرجل لا إلى عواطفه ومشاعره .. وهو السلوك الذى أجاد الدكتور سيد عويس تلخيصه فى عبارة واحدة ساخرة كان يقولها الرجل المصرى فى ذلك الوقت [٣] حين تمرض زوجته مثلا .. فقد كان يصف ذلك قائلا .. الفخدة تعبانة .. أى منتهى السخرية ومنتهى التهكم .

ولم يكن لهذة العبارة .. وعبارات ومواقف أخرى كثيرة ومتباينة .. إلا معنى واحد .. هو أن الرجل كان دائم الإحساس بأنه إمتلك زوجته .. وإستمرار الزواج فى رأيه لا يعنى إلا دوام هذة الملكية والحفاظ عليها .

ولابد وأنه إحساس تراكم عبر مئات السنين .. وبعد أزمان طويلة من الإحتلال والقهر والمعاناة عاشتها مصر بعد الفراعنة .. فما نعرفه من حياة وعادات وسلوك الفراعنة يؤكد أنه على الرغم هيبة الزوج المصرى وسطوته ووقاره ومكانته داخل بيته وعائلته .. إلا أن حرصه على زوجته لم يلزمها البقاء رهينة بيتها [٤] .. ولم يكن الزوج المصرى القديم يمنع زوجته من الخروج مع أطفالها لزيارة أقاربها .. ولم يكن يمنع الطبيب من زيارتها إذا مرضت .. فلم يكن الرجل فى ذلك الزمن البعيد .. البعيد جدا .. لا يتعامل إلا بمنطق ومفهوم الحب والإنتماء بعيدا عن أى إحساس بالإمتلاك .. أو فلنقل أن العلاقة بين الإثنين سادها قانون الإنسانية والمساواة .. دون إحتكام مطلق لقانون السادة والعبيد .. ولابد وأن هذا الحب والود الحميم والتفاهم العميق والثقة المطلقة .. هم ما أثاروا الجيران العرب الذين إجتهدوا طويلا فى تفسير علاقة الرجل بإمرأته فى مصر .. فلم تكن فى مفاهيمهم علاقة سوية أو طبيعية .. ولم يكن منهم أحد بقادر على تطبيقها فى بيته .. فكان خلاصهم من مخاطر المقارنة بما يحدث فى مصر هو السخرية والتهكم من الزواج والرجل والمرأة فى مصر .. ولم يتفتق ذهنهم كما يقول عالمنا الجليل الإمام جلال الدين السيوطى .. إلا أن غرق جيش فرعون فى البحر أثناء مطاردته لموسى عليه السلام .. والذى كان يضم خيرة رجال مصر وزهرة شبابها .. دفع بنساء مصر إلى إعتاق العبيد والزواج بهم [٥] بشرط ألا يفعل هؤلاء

---

(١) قاسم أمين – المرأة الجديدة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

(٢) مذكرات الأميرة جويدان – كتاب الهلال – ١٩٨٠

(٣) عمر بطيشة – شاهد على العصر – كتاب اليوم – ١٩٨٤

(٤) د. عبد العزيز صالح – الأسرة المصرية فى عصورها القديمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨

(٥) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة – دار إحياء الكتب العربية – ١٩٦٧

العبيد شيئا ولا يقرروا أو يختاروا إلا بعد إستئذان زوجاتهم .. فكان من نتيجة ذلك أن إعتادت الزوجة المصرية أن تأمر .. دون أن يملك زوجها إلا الطاعة والإستسلام .. ولم يعد بوسع هذا الزوج إتخاذ أى قرار إلا بعد مشورة زوجته وموافقتها .

وهى بالقطع رواية عربية كانت – ولا تزال – تفتقد إلى كثير من الدلائل والإثباتات التى لم يبادر بتقديمها أحد حتى الآن على الأقل .. حتى يصبح واجبا علينا أن نتعامل معها بثقة وعلى أنها من حقائق التاريخ .. أما الحقائق الكثيرة الأخرى .. فهى التى تؤكد أن علاقة الرجل المصرى بزوجته .. وكنتيجة لكل ما مرت به مصر عبر تاريخها .. قد أصبحت علاقة مركبة معقدة إختلط فيها الحب بالخوف بالرغبة بالإنتماء بالحيرة والشك والفرحة والعذاب .. ومبدئيا لا يختلف الرجل فى مصر عن أى رجل آخر فى العالم من حيث إعتياده أن تكون له إمرأة خاصة به .. وأن يكون جسمها خاصا به أيضا .. ويضيف أنيس منصور [1] .. وأن يكون لهما مكانا خاصا بهما ينامان فيه .. ففى كل اللغات العالمية نجد أن كلمة نام الرجل مع المرأة تعنى أنه عاشرها جنسيا .. وهذا ما يؤكده القس تيم لاهاى حين يشرح [2] لنا أصل كلمة " كويتس " وهى الكلمة التى ترد فى كل كتب الطب والعلم بمعنى الجنس واللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة .. وإكتشف تيم لاهاى أن أصل الكلمة هو " كيماى " والتى تعنى النوم أو الرقاد باللغة اللاتينية .. ثم إن الرجل المصرى لا يختلف أيضا عن الرجل العربى فى أن المرأة تمثل له مصدرا للخوف .. ويشرح شاكر النابلسى سبب ذلك [3] ويقول أن الرجل العربى إعتاد الخوف من المرأة لأنها تمثل المجهول دائما .. وهى تمثل أيضا الجنس والولادة .. ومظاهر الخصوبة .. وكلها مجاهيل بالنسبة للرجل .. وهو يدرك أيضا أنها هى التى قد تفقده الكثير من قوته وصلابته .

إذن .. إعتاد الرجل فى مصر أن يجد إمرأة خاصة به ينام معها ويشعر بالسكينة ويمارس معها رغبته وينال نشوته التى ترضيه وتغنيه .. ولكنه أيضا كان دائم الخوف من هذة المرأة .. خائف أن تنتقص من رجولته فيفقد مكانته عندها .. خائف أن تنتقص من كبريائه حين تروح تفتش عن رجولة الآخرين .. خائف أن يفقدها مثلما فقد أرضه وبيته وحريته وكبرياءه فى أحيان كثيرة .. ودفعه هذا الخوف إلى أن يجبر المرأة على أن تلبس [4] فراجية على جسمها .. عزيزية على رأسها .. يشمك على وجهها .. وترتدى شنتيان وسلطة وسبلة .. ثم تعود وتضع منديلا على رأسها .. ويرقع على وجهها .. وفوق هذا كله ترتدى حبرة تغطى بها جسمها من قمة رأسها وحتى كعب قدميها .. وقد كان قاسم أمين على صواب تماما حين قال [5] أن أول ما يطلبه الرجال عندنا من المرأة هو أن تكون عفيفة .. ولهم الحق فى أن يطلبوا منها التحلى بهذة الفضيلة .. لكنهم بذلوا ما فى وسعهم لمحو هذة الفضيلة وجعلها من المستحيلات .. بعد أن أصبح نظام المعيشة يبعث فى المرأة شدة الميل إلى الشهوات .

قاسم أمين كان يشكو نظام المعيشة الذى يبعث شدة الميل إلى الشهوات وهو يكتب هذا الكتاب عام الف وتسعمائة .. ولسنا اليوم فى حاجة إلى قاسم أمين آخر لنعرف كم شهوة أدخلها

(١) أنيس منصور – الخبز والقبلات – المكتب المصرى الحديث – ١٩٧٢
(٢) تيم وبيفرلى لاهاى – قانون الزواج – زوندرفان للنشر – لندن – ١٩٩١
(٣) شاكر النابلسى – فض ذاكرة إمرأة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٨٧
(٤) محمود عوض – أفكار ضد الرصاص – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٧٢
(٥) قاسم أمين – المرأة الجديدة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

الإنفتاح – وكل ما بعده من تحديات – إلى بلادنا .. إلى مجتمعنا .. إلى أعماقنا وضمائرنا وتحت جلودنا .. وعلى قدر حجم الشهوات .. كان قدر خوف الرجال .. وبقدر الخوف .. كان الجنس الذى يتمدد يوما بعد آخر فى عقل وقلب الرجل لتعيش مصر ورجالها ثلاثة أزمات جنسية كبرى وحادة .. مابين رجل يغتصب زوجته جنسيا .. ورجل ثان رأى ما يحدث فى المجتمع هنا وهناك فأصبح شاغله هو إرضاء زوجته وإعفافها بما يطيق وما لا يطيق أيضا .. ورجل ثالث لم يعد جسد زوجته ميدانا وحيدا للرغبة والشهوة وإشباع جوعه الجنسى فى مجتمع بات يخاطب غرائزه أكثر مما يخاطب عقله أو قلبه أو مشاعره هذا إن كان يخاطبها أصلا .

وأيا كانت دوافع الرجل ونوازعه النفسية والجنسية .

فمن المؤكد أن الزوجة المصرية كانت تفقد جيلا بعد آخر جزءا من حريتها ومن مكانتها .. حتى باتت تحس أن والدها يبيعها لزوجها وليس يزوجها له فقط .. ومن المؤكد أن الإنفتاح ضاعف من هذا الإحساس .. إحساس الرجل لا المرأة .. إحساس الرجل وقناعته بالرغبة فى التملك والسيطرة .. لأن المجتمع المصرى كما يقول الدكتور محمد شعلان أستاذ علم النفس(١) .. تحول بعد الإنفتاح إلى مجتمع للطبقات الغنية جدا بدون جهد .. وطبقات أخرى معدومة تعانى ظروفا حياتية بالغة الصعوبة .. فسادت المجتمع كله علاقات الملكية والإحتكار فى الوقت الذى لم يجد الرجل ميدانا يؤكد فيه ملكيته لزوجته وجسدها أفضل من فراش الزوجية .. لم يجد غير الجنس وسيلة يؤكد بها تفوقه وسيادته وإمتلاكه فى كل ليلة وفى كل لحظة .. ولم يجد غير جسد زوجته يحتفظ به بين يديه على الأقل ليبقى مالكا لشئ فى دنيا بلغ بها من التوحش والقسوة أن باتت قادرة على أن تسرق كل شئ وأن تأخذ كل شئ .

وتعددت مظاهر هذا الإحساس بالإمتلاك .. ولعلها كانت الأكثر قسوة على الإطلاق بين كل تلك الظواهر .. هى ظاهرة إغتصاب الزوجات .. إغتصاب يعنى إما ممارسة الجنس بالقوة مع الزوجة .. وإما إجبار الزوجة على ممارسات شاذة .. وبدأت تتوالى القضايا والبلاغات التى كلها تدور عن سيادة وسطوة الإحساس بالإمتلاك .. ثم تطور الأمر ليتخذ صورة أكثر عنفا وأكثر قسوة .. وبلغ الأمر أن أعلن الدكتور إبراهيم فتحى أخصائى الطب النفسى بمستشفى الأمراض النفسية بالعباسية(٢) أن عشرة بالمائة من حالات النساء المصابات بأمراض نفسية كن ضحية إغتصاب أزواجهن .. وأضاف الدكتور مؤكدا أن تلك النسبة ليست حقيقية .. وإنما عدد الزوجات اللواتى تم إغتصابهن يفوق ذلك بكثير !.

وبمراجعة الكثير من تلك الحالات .. نكتشف أن الأزواج المغتصبين ينتمون إلى طبقات إجتماعية وإقتصادية وثقافية مختلفة ومتناقضة .. لا هم أغنياء فقط ولا هم الفقراء وحدهم .. وسنجد فى صفوف المتهمين أستاذ الجامعة والتاجر والطبيب والحرفى والفلاح والعامل .. وبالمقابل سنجد بين صفوف الضحايا المتعلمة والجاهلة والمثقفة والعاملة وربة البيت .. وهذا يجعل من الصعب العثور على تفسير واضح ومحدد يشرح لماذا يغتصب

الزوج زوجته .. ولا تبقى إلا أسباب غير محددة .. ونظريات قد تصح أو لا تصح .. مثل إحساس الرجل بالمهانة والدونية خارج البيت سواء فى الشارع أو العمل .. ولكى يتوازن نفسيا ..

---

(١) مجلة كل العرب – باريس – عدد ١٩٨٩/٨/٢٨

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/١/١٨

فإنه يلجأ لقهر زوجته جسديا وجنسيا فقط ليؤكد لنفسه هو أولا - وليس للآخرين - أنه ليس الأضعف .

أو يشعر الزوج بأن زوجته أصبحت تطاوله مهنيا أو إقتصاديا .. وأنه لم يعد قادرا على تقمص شخصية السيد المسيطر الآمر والناهي .. فيلجأ للفراش وبأعماقه رغبة مخيفة وهائلة لإذلال زوجته وكأنه يريدها أن تعي جيدا أنها مهما صادفت من نجاح وتفوق فإنه لا يزال يملك الحق في أن يعتليها وقتما يشاء وكيفما يشاء .

وكانت محكمة النقض قد أصدرت منذ فترة حكمها بعقاب الزوج إذا ما أجبر زوجته على معاشرته .. لكن لم يأخذ القضاء بمثل هذا الحكم وإعتبروه حكما مهجورا .. فليس هناك فى القانون المصرى جريمة إسمها إغتصاب زوجة .. وليس هناك عقاب لزوج أجبر زوجته على المعاشرة الجنسية دون رضاها .. العقاب فقط فى حالة هتك عرض الزوجة .. أى أن يقوم الزوج بكشف جسم زوجته أمام أحد الغرباء داخل مكان مستور .. أو حين يأتى الزوج زوجته من الخلف بالقوة .. والعقوبة فى هذة الحالة هى السجن لفترة تتراوح من ثلاثة إلى سبع سنوات .. أما إذا كشف الزوج جسد زوجته فى مكان عام فإن الجريمة هنا يتم إختصارها من هتك العرض إلى مجرد فعل فاضح .. وفى حالة إذا ما تمت الممارسة الجنسية الشاذة بموافقة الزوجة .. أو إذا ثبت تكرارها .. تحكم المحكمة ببراءة الزوج ولا قضية هناك !.

وحتى إذا تم تعديل القانون .. وتم تجريم إغتصاب الزوج لزوجته .. فأغلب الظن أن معظم ضحايا تلك الحالات لن يلجأن للشرطة أو للمحكمة خوفا من الفضيحة ونظرات والسنة الآخرين .. وسيكتفين بالصمت أو على الأكثر يطلبن الطلاق .. وقد ينتهى بهن الأمر إلى الجنون أو إضطرابات نفسية وعصبية حادة كتلك السيدة التى عاشت مع زوجها عشرين سنة أنجبا خلالهما ولدا وبنتا ثم إغتصبها زوجها .. وتكرر الإغتصاب حتى أصيبت بعقدة الإضطهاد .. وتطور الأمر بعد قليل لتصبح مريضة بالبارانويا .. وباتت على يقين من أنها إبنة الله .. ثم تخيلت نفسها زوجة للمسيح !.. أو قد تقرر هؤلاء الزوجات الإنتقام لنفسهن بأنفسهن دونما حاجة إلى قاضى أو رجل شرطة أو أى أحد .. فسماح مثلا قتلت زوجها الذى إعتاد إغتصابها لكنها فقدت قدرتها على الصبر والإحتمال حين أراد يوما معاشرتها - أو إغتصابها - أمام أحد أصدقائه .. أو قد ينتهى الأمر بهؤلاء الزوجات إلى الإقتداء بالزوجة الأمريكية لورينا التى أصبحت أشهر زوجة فى العالم - وفى التاريخ أيضا - إغتصبها زوجها جون بوبيت .. فقد عاد جون يوما إلى البيت مخمورا (١) وأراد ممارسة الجنس مع زوجته فرفضت فقام بإغتصابها .. فما كان من لورينا إلا أن جاءت بسكين من المطبخ وإستغلت نوم الزوج فقامت بقطع قضيبه للإنتقام منه .. وجرى الزوج إلى المستشفى وهو يمسك بفوطة ضخمة تحت بطنه مكسوة بالدم وفى يده كيس من البلاستيك فيه القضيب المقطوع .

وكانت حكاية أو جريمة أو قضية إنشغلت بها الولايات المتحدة الأمريكية طويلا ثم العالم كله بعد ذلك .. ليس لأن المحكمة أطلقت سراح الزوجة المتهمة .. وإنما إنشغل العالم كله بفكرة إنتقام الزوجة بقطع قضيب زوجها إذا قام بإغتصابها .. فكرة قامت البريطانية سوزان موور بمناقشتها

---

(١) التفاصيل نشرتها صحف ومجلات كثيرة إلا أننى هنا أعتمد على رواية صحيفة الصانداى تايمز البريطانية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٤/١/١٦

في واحد من أهم المقالات [1] التى تناولت تلك القضية .. وإنتهت سوزان فى مقالها - الذى كان عنوانه هو قضيبك أم حياتك - إلى أن قضيب الرجل فى هذا الزمن أصبح بالنسبة له أكثر أهمية وضرورة من الحياة نفسها .. إذ أن الحياة بلا قضيب لم تعد تعنى للرجل شيئا .. وهذا هو ما إكتشفته لورينا فإختارت لأول مرة فى تاريخنا ألا تعاقب زوجها بالموت وإنما بما هو أقسى من الموت .

وهذا هو ما تعلمته النساء هنا فى مصر .. وبسرعة هائلة إستوعبت المرأة المصرية هذا الدرس .. فقامت زوزو بقطع قضيب رجلها [2] .. وحاولت زوجة أخرى [3] أن تحرم زوجها من قضيبه لكنها لم تنجح فى مهمتها ووصل الزوج إلى المستشفى مصابا بتهتك شديد فى المثانة .

ولم يكن الإغتصاب وحده هو ما لجأ إليه بعض الرجال للتعبير عن ملكية كل منهم لجسد زوجته .. وإنما كانت هناك مظاهر أخرى كلها تؤكد إحساس الرجل بإمتلاك زوجته .

منها مثلا حكاية قهوجي فى بنها [4] إعتاد المقامرة آخر كل ليلة مع إثنين من العاطلين .. وحين جاءت ليلة خسر فيها كل نقوده .. لم يجد ما يقامر به سوى زوجته .. لكنه خسر مرة أخرى فأصر العاطلان على إصطحاب الزوجة فى سيارتهما وكادا أن ينجحا فى ذلك بالفعل لولا مشاجرة إنتهت بالرجال الثلاثة وبالزوجة فى قسم الشرطة .. وغير هذا القهوجى كان هناك من ذهب إلى المحكمة .. ولعلها واحدة من أغرب القضايا التى شهدتها المحاكم المصرية فى عام ١٩٩٢ .. هى تلك القضية التى نظرتها محكمة القاهرة للأحوال الشخصية وفيها يطلب رجل من المحكمة تطليقه من زوجته مع حرمانها من حقوقها الزوجية والشرعية .. وكانت الحكاية قد بدأت قبل نظر الدعوى فى المحكمة بثلاثة أشهر .. حين أرادت زوجة أن تصطحب أولادها إلى الإسكندرية .. وافق الزوج مع شرط واحد .. هو ألا ترتدى الزوجة المايوة طيلة فترة المصيف .. لم يكن إتفاقا وديا .. وإنما إتفاق مكتوب وقع عليه الزوجان ويتضمن شرطا جزائيا يفيد أنه فى حالة ضبط الزوجة ترتدى المايوة يتم تطليقها مع إسقاط كافة حقوقها .. وكان هذا هو ما حدث .. سافر الزوج فجأة إلى الإسكندرية وشاهد زوجته ترتدى المايوه .. فذهب إلى المحكمة يحمل فى يده الإتفاق المكتوب الذى يحمل توقيع الإثنين .

وما يعنينا فى تلك الحكاية .. ومن خلال مرافعة الزوج وشهادته أمام المحكمة .. أن الرجل لم يرفض أن ترتدى زوجته المايوه لأن الدين يحرم ذلك .. أو لأن المجتمع مفروض أن يرفض ذلك .. وإنما لأن الرجل بإختصار شديد إعتبر جسد زوجته ملكا خالصا له لا يصح أن يراه الآخرون .

حكاية أخرى .. وفى المحكمة أيضا .. لكنها كانت قضية مختلفة هذة المرة .. فالزوجة وقعت فى حب رجل آخر غير زوجها .. ولم تستطع أن تكتم هذا الحب عن زوجها .. فباحت له بسرها مؤكدة له أن هذا الرجل الآخر لم يلمسها ولم يدر بينهما أكثر من نظرات الغرام المتبادلة .. ورفض الزوج .. لم يرفض حب زوجته لرجل آخر .. وإنما رفض الطلاق حتى لا تتزوج زوجته من ذلك الرجل الآخر .. فذهبت الزوجة إلى المحكمة

تطلب منها تطليقها من زوجها .. ورفضت المحكمة الطلاق .. ورفضت هذا الحب الذى باحت

---

(١) جريدة الجارديان - لندن - عدد ١٩٩٤/١/٢١

(٢) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٦/٤

(٣) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٦/٢٠

(٤) جريدة الأخبار - عدد ١٩٨٥/١٢/٢٠

به الزوجة .. وقالت فى أسباب الحكم (١) أن ما قالته الزوجة دليل على ضعف فى خلقها ودينها وعقلها .. وأن الزوجة ملك خالص لزوجها بقلبها وعقلها ومشاعرها وجسدها .

ولا يعنينا هنا لماذا رفضت المحكمة طلب الطلاق .. إنما يعنينا الرجل الذى إعتبر زوجته ملكا له وفقا لوثيقة زواج وإستنادا إلى حكم المحكمة .. ولا تعنى هذة الملكية فى نظر الرجل أكثر من إمتلاك الجسد .. أما القلب والمشاعر فهى لا تدخل فى نطاق العقد بين الإثنين .. وطالما أن الجسد لم يمسسه أو يطاله أحد آخر فليست هناك مشكلة ولا أزمة تستوجب الطلاق .

وبقدر ما تضاعف – فى زمن الإنفتاح وأيام ما بعد الإنفتاح – إحساس الرجل المصرى بإمتلاك زوجته .. بقدر ما أصبحت زوجته غير قانعة .. ولا هى مستعدة .. لقبول هذة العبودية وعلى أنها قدر ليس فى وسعها الفكاك منه والإحتجاج أو التمرد عليه .. هذا ما أكده خبراء المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. حين قاموا بدراسات عن العنف الإجتماعى فى الأسرة المصرية .. وكان الدكتور أحمد المجدوب هو رئيس فريق الباحثين الذين قاموا بتلك الدراسات .. وهو الذى قال (٢) أن الباحثين تملكتهم الدهشة من الاف البلاغات المقدمة فى أقسام الشرطة من الرجال يستغيثون فيها من إعتداء زوجاتهم عليهم بالضرب أو طردهم من البيت .. ويطلب هؤلاء الرجال حماية الشرطة ومساعدتهم على إستمرار الحياة .

وقام الدكتور أحمد المجدوب بتحليل عينة الاف الرجال الذين تقدموا بمثل هذة البلاغات للشرطة .. وإنتهى إلى أن هذة الظاهرة قد بدأت تنمو فى البيت المصرى منذ نهاية السبعينات بسبب إتساع دور المرأة .. وخروجها للعمل .. وإحتكاكها المتزايد بالرجال .. بل وتقليدها لهم فى أحيان كثيرة .

لم يحدث ذلك فى مصر فقط .. وإنما تحول الأمر إلى ظاهرة عالمية .. فعلى سبيل المثال تقول الكاتبة الأمريكية دالما هاين (٣) أنه بعد حركات تحرير المرأة .. بات من المستحيل أن تبقى المرأة كما كانت .. ولا الزواج كما عرفناه .. وإستعرضت الكاتبة فى كتابها نتائج دراسة أجريت فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ على ستين الف زوجة .. وتبين أن نصفهن على الأقل لن يختاروا أزواجهن مرة أخرى .

ويكاد يكون ذلك هو ما حدث أيضا فى مصر بصورة ما أو بأخرى .. فكل ما عانى منه وبه المجتمع فى مصر طوال العشرين عاما الأخيرة .. لم يدفع ثمنه الرجال وحدهم .. وإنما قاسمتهم النساء فاتورة حساب كل خطوة وكل يوم .

فالمرأة بدت فى زمن الإنفتاح وكأنها تنتقم لتاريخ طويل وحزين من القهر .. وبعد أن كانت الزوجة الفرعونية تعيش مع زوجها بكامل كبريائها وحريتها .. حتى أنها فى زمن الأسرة الثلاثين مثلا (٤) .. كانت تملك حق تطليق زوجها إذا ما خانها أو إستحالت عشرتها معه أو ثبتت عدم قدرته على الإنجاب .. أو كانت الزوجة التى تعددت الوصايا الفرعونية (٥) القديمة تطالب الزوج بحبها وإطعامها وإدخال السرور على قلبها طوال حياتها .. باتت تلك الزوجة فى عصور أخرى

(١) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/٤/٣٠
(٢) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٣/٨/٦
(٣) دالما هاين – الصمت الجنسى للزوجة الأمريكية – نيويورك – ١٩٩٢
(٤) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٣/١٢/٢٣
(٥) محمد جبريل – مصر من يريدها بسوء – كتاب الحرية – ١٩٨٦

رهينة بيتها حبيسة إرادة رجلها سواء كان والدها أو زوجها .. بلا حق فى الإختيار أو الإختلاف أو حتى الحوار .. حق كانت المرأة تفقدة خطوة بعد أخرى .. وإذا كانت المرأة المصرية فى بدايات العصر الفاطمى كانت لا تزال تنعم وتملك بعض الحرية .. إلا أن مساحة تلك الحرية أخذت فى التناقص والتآكل حتى بلغ الأمر ذروته فى عصر الحاكم بأمر الله الذى تولى حكم مصر عام ١٠١٣ وبقى على العرش سبع سنوات كاملة كانت أقسى سنوات عاشتها المرأة فى كل تاريخ مصر .. فقد أمر الحاكم (١) بمنع النساء من الخروج بعد العشاء .. ثم قرر منعهن من الخروج إلى الطرقات ليلا أو نهارا .. ومنعهن أيضا من الصعود إلى أسطح البيوت أو النظر من النوافذ .. ومنعهن من الغناء .. ومن الإختلاط بالرجال بأى شكل وفى كل وقت .

وتعرض الحاكم بأمر الله بسبب ذلك إلى إنتقادات حادة من قبل المؤرخين .. ولا زلنا حتى اليوم نفتقد مؤرخا يقف على الحياد بيننا وبين الحاكم بأمر الله يتوقف ويدرس ويتأمل لنعرف منه الحقيقة كاملة .. فقد أسرف البعض فى إتهام الحاكم بمختلف العقد النفسية ومركبات النقص التى جعلته يتشدد مع النساء إلى هذا الحد .. وإدعى بعض آخر أن السبب هو شدة كراهيته للنساء .. وأشاعوا أنه لم يحبس المرأة فى بيتها فقط .. وإنما أباح دمها أيضا .. وتوالت الحكايات التى لم يكن لها إلا معنى واحد .. هو أن الحاكم كان مجرد سفاح مهمته الوحيدة فى الحياة هى قتل النساء والخلاص من كل إمرأة .. فقد قالوا أنه أغلق مرة أحد أبواب الحمامات على من فيه من النساء بالحجارة .. وأنه أمر فى مرة أخرى بإغراق مجموعة من النساء فى نهر النيل .. وأرجع هؤلاء المؤرخون ذلك إلى شدة شغفه بالجنس .. ولا أرى أنه من المنطق أن يشغف رجل وحاكم بالجنس والنساء فيكون المقابل هو قرار منه بقتل وحبس النساء .. ولكننى أميل إلى رأى جمال الغيطانى الذى يعتقد (٢) أن الدافع الحقيقى لكل ما إتخذه الحاكم من إجراءات قاسية ومتشددة .. إنما يرجع إلى رغبته فى الحفاظ على التقاليد الدينية ومحاربة الفساد .. أميل لهذا الرأى إستنادا إلى ما قاله المؤرخون عن الحاكم الذى كان زاهدا متقشفا أعتق كل جواريه وعاش يحلم بأن يرجع بالإسلام إلى سيرته الأولى .

المشكلة فقط أن الحاكم بأمر الله أرجع كل ما أفزعه وأخافه من فساد وإنحلال إلى النساء وحدهن .. فحملهن وزر كل خطيئة .. وطالبهن بسداد فاتورة كل إثم .. والمشكلة الأكبر لم تكن فى الحبس وإغلاق الأبواب والنوافذ على النساء .. ولكن كانت فى المفهوم الذى غرسه فى وجدان وأعماق كل رجل فى مصر .. أن المرأة هى المسئولة دائما .. هى المذنبة دائما .. هى من يتعين عليها أن تدفع الثمن فى كل مرة وفى كل وقت .. وأنها لو أتيح لها أى قدر من الحرية .. فسوف تختار غالبا حرية الخطيئة وحرية السقوط .. لهذا لابد من تكبيلها وتقييدها حماية لها من نفسها وشياطينها .. وحماية لرجلها وعائلتها وللمجتمع كله .

وكان هذا هو المفهوم الذى سعد به – وإستراح إليه – الرجل فى مصر .. وأصبحت قيود المرأة وأغلالها إرثا يتسلمه الرجال من الرجال جيلا بعد جيل .. وفى عصور مضطربة ومتوترة كتلك التى عاشتها مصر وأهلها فى تلك الأيام .. ليس أسهل من أن نغلق كل أبوابنا فى وجه كل من نخاف منهم وعلى كل من نخاف عليهم .. وحين بدأت مصر فى زمن العثمانيين تعيش أشد

---

(١) د. ناريمان عبد الكريم أحمد – المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

(٢) جمال الغيطانى – ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة – كتاب الهلال – عدد ٣٩٢ – ١٩٨٣

عصورها إضطرابا وتوترا .. فقدت المرأة المصرية حتى هذا القليل الذى بقى بين يديها من حقوق وإمتيازات تاريخية [١] .. حيث دخلت المرأة فى ذلك العصر قفص الحريم .. وإكتمل حصار قيودها وأغلالها .. وإذا كان المؤرخ الإنجليزى .. إدوارد وليام لاين .. يؤكد عكس ذلك حين يقارن حال المرأة المصرية ببقية النساء فى سائر ولايات وأقاليم الدولة العثمانية [٢] .. فإن تلك المقارنة كانت تصح وتغدو أكثر واقعية ومصداقية لو كانت بين المرأة المصرية فى زمن الدولة العثمانية .. وبين المرأة المصرية طوال تاريخها الطويل والقديم الذى سبق مجئ العثمانيين .. فمن تلك المقارنة .. سنعرف مدى معاناة كل إمرأة وكل زوجة فى مصر طوال القرن التاسع عشر وسنوات أخرى كثيرة من القرن العشرين .

معاناة لم يعد بإستطاعتنا أن نقيس اليوم حجمها ومساحتها بكل دقة .. فأراء كثيرة تتضارب وتتناقض .. فنحن نقرأ فى مذكرات المستشرق الفرنسى بيريس دافن .. أو الذى أطلق على نفسه إسم إدريس أفندى [٣] .. أن المصريات لا يعشن إلا لرجل واحد .. لا يشغلهن إلا الحب ما دمن فى سن الشباب .. ثم لا يشغلهن بعد ذلك إلا الأولاد وشئون البيت .. ونقرأ أيضا ما قالته الصحفية الأمريكية جيس تومسون التى زارت مصر فى عام ١٩٢٢ وعادت تكتب كتابها [٤] عن النساء فى مصر والذى أكدت فيه أن صورة الشرقيات - كما يصورهن الخيال الغربى المريض - قد إنقرضت .. ولم يعد هناك وجود للجوارى أو الحريم أو النساء المضطجعات فى إسترخاء يعرضن مفاتنهن إلا فى كتب الأساطير فقط .. وهناك من يستشهد على صحة ذلك كله .. وعلى أن المرأة - أو الزوجة - المصرية لم تعد تعرف المعاناة بالسير الشعبية التى إعتاد المصريون الإصغاء إليها وترديدها وتناقلها فى تلك الأيام .. فهى كلها حكايات عن البطل الذى لابد وأن تقف خلفه إمرأة تؤيده وتساعده .. وفى كل تلك السير [٥] كان للمرأة دور أساسى لا يقل فى خطورته وأهميته عن دور الرجل .. أو يستشهدون بكثير من أمثالنا الشعبية عن الزواج والتى لا نجد فيها رائحة لفكرة الحريم أو إمتهان النساء وأجسادهن ومشاعرهن .. أمثال قال فيها المصريون القدامى .. نار جوزى ولا جنة أبويا .. قعدتى بين أعتابى ولا قعدتى بين أحبابى .. ضل راجل ولا ضل حيطة .. وكلها أمثال لا تشير مطلقا إلى زوجة تعانى أو يمتهنها زوجها .. وإنما ترى هذة الزوجة أن حياتها معه أفضل من حياتها مع أبيها .. وترى أن بيتها ليس سجنا وإنما هى تفضل البقاء فيه حتى عن البقاء وسط أحبابها .

لكن .. وبالرغم من كل تلك الآراء أو الشهادات .. كانت هناك أراء وشهادات أخرى أكثر إقناعا وإقترابا من الواقع .. كلها أجمعت على مدى إحساس المرأة بالإمتهان والقهر والعذاب .. فكتب اللورد كرومر [٦] مؤكدا أن وضع النساء فى مصر تحول إلى عقبة قاتلة فى طريق سمو الفكر والأخلاق .. وكان هذا هو ما إكتشفه الآخرون الذين إفتتحوا طريق العناد الطويل من أجل النساء ولصالح النساء .. فكان هناك قاسم أمين ومعه هدى شعراوى ونبوية موسى .. وجمال

---

(١) د. لطيفة محمد سالم - المرأة المصرية والتغير الإجتماعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤

(٢) إدوارد وليام لاين - عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم - مدبولى - ١٩٩١

(٣) إدريس أفندى فى مصر - ترجمة د. أنور لوقا - كتاب اليوم - عدد ٣٢٢ - ١٩٩١

(٤) محمد عودة - سبعة باشوات وصور أخرى - الكتاب الذهبى - روز اليوسف - ١٩٧١

(٥) فاروق خورشيد - عالم الأدب الشعبى العجيب - دار الشروق - ١٩٩١

(٦) تيموثى ميتشيل - إستعمار مصر - ترجمة بشير السباعى وأحمد حسان - سينا للنشر - ١٩٩٠

الدين الأفغانى .. الذى أعطى[١] المرأة المصرية مكانتها مؤكدا أن مصر لا يمكن لها أن تتخلص من الخسف والجهل ومن محبس الذل والفاقة ومن ورطة الضعف والخمول مادامت النساء محرومات من الحقوق .

وإنتهى هذا الطريق وهذا العناد بحقوق كثيرة غائبة عادت وحقوق كثيرة ضائعة إستردتها المرأة المصرية من جديد .. فخرجت المرأة من بيتها .. تتعلم .. وتعمل .. وتشارك وتقبل وترفض .. وكان أن تبدلت المرأة في مصر وتغيرت كثيرا ..إما لأن إيقاع هذا التغيير كان سريعا لم يدع أية فرصة للتروى وإلتقاط الأنفاس .. وإما نتيجة إحساس عميق إستوطن قلب المرأة وعقلها بأن تلك الحرية المتزايدة يوما بعد يوم .. هى مجرد هبة لن تدوم .. وحالة إستثنائية سرعان ما سيعود الرجل لمراجعتها وتصحيحها .. فكان لابد من إستغلالها وإستثمارها والإستمتاع بها أيضا إلى أقصى حد ممكن .. وأيا كان التفسير والتأويل .. فإن النتيجة كما رآها الدكتور مصطفى محمود مثلا كانت [٢] .. أن المرأة أمام وهج الثقافة والحرية الفجائية .. أصبحت مهزوزة موزعة الرغبات لا تعرف ماذا تريد .. ولهذا تندفع فى عدة طرق فى وقت واحد .. إنها تريد الحب وتريد الجنس وتريد المغامرة .. تكفر بالقديم لمجرد أنه قديم .. تهلل للجديد لمجرد أنه جديد .. تطلب الف شئ ولا تقدم فى مقابله شيئا واحدا .

كتب مصطفى محمود شهادته تلك عن إمرأة الستينات .. وعن واقع متوتر ومضطرب لم تأت له سنوات السبعينات بأى حل أو دواء .. بل زادت الأمر سوءا وتوترا وإضطرابا .. وكان الإنفتاح أو زمن ما بعد الإنفتاح .. هو قمة هذا التوتر والخلل والإضطراب .. فعلى حد تعبير الدكتور عادل صادق [٣] .. تغير البناء النفسى للمرأة السوية .. توحشت وتبلد لديها الوجدان والحس .. وأدارت المرأة المصرية ظهرها للأسرة وتطلعت إلى تحقيق طموحات زائفة هى السلطة والإستقلال المادى وما إرتبط بذلك من تحقيق للشهوات .

ولا أجد رجلا ومفكرا إستطاع توقع ما سوف يحدث فى مصر .. وللمرأة فى مصر .. مثلما توقع مفكرنا الكبير والعظيم عباس محمود العقاد الذى كتب فى جريدة البلاغ عام ١٩٢٣ مقالا قال فيه [٤] أن كل إمرأة تعيش حياتها يتنازعها إحساسان قويان هما إحساس العاشقة وإحساس الأم .. فإذا تنبه فى المرأة إحساس الأمومة .. آثرت تلك المرأة الرفق والسلام وتمنت لو كانت الأرض كلها رخاء بلا حرب ولا خصومة ولا غل .. وإنما هى المودة والحسنى والسماحة .. أما إذا تغلب عليها إحساس العاشقة .. أصبحت تطالب رجلها بالكثير .. تدفعه للصراع مع أنداده والإستعلاء على منافسيه والمجازفة فى المطامح والمطامع .. بكل ما يستتبع ذلك من قسوة تغرسها الحياة فى فكر ومشاعر تلك المرأة .

ومن المؤكد أن الجنس لم يكن غائبا عن كل هذا الذى حدث للمرأة والزوجة المصرية .. وإذا كانت هذة المرأة كما يقول الدكتور حافظ يوسف [٥] .. دائمة الإهتمام بالجنس والحديث عنه وإكتشاف جوانبه ربما أكثر من الرجل .. فإن ما شهدته مصر من تغييرات إجتماعية وأخلاقية

---

(١) د. لطيفة محمد سالم – المرأة المصرية والتغير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

(٢) مصطفى محمود – ٥٥ مشكلة حب – سلسلة إقرأ – عدد ٢٦٤ – دار المعارف – ١٩٧١

(٣) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٨٨/٦/٢٦

(٤) عباس محمود العقاد – مطالعات فى الكتب والحياة – المكتبة العصرية – بيروت – بدون تاريخ نشر

(٥) د. حافظ يوسف – كيف تفكر المرأة – بدون إسم ناشر – ١٩٨٣

طيلة العشرين عاما الأخيرة .. إنعكس بدوره على العلاقة بين المرأة والجنس .. ويمكن إختصار هذا التغيير ونتائجه فى أن الزوجة .. التى زادت تطلعاتها للرفاهية والترفيه والسيطرة .. وزاد إحتكاكها بالرجال .. زادت أيضا إحتياجاتها الجنسية .. وباتت المرأة تطالب بها وتفتش عنها بصوت عال وجرأة لم يعهدها الرجل فى زوجته من قبل .. بل ولم تعهدها حتى المرأة فى نفسها من قبل .. وإذا كان الرجل بقى يملك جسد إمرأته .. كما إعتاد أو كما أراد منذ عشرات ومئات السنين .. فإن المشكلة كانت أن الرجل لم يتنبه إلى أن ما كان مسموحا به فى الماضى لم يعد مسموحا به اليوم .. وما كانت المرأة تقبله بالأمس إرغاما وإضطرارا لم يعد هناك اليوم ما يرغمها ويضطرها لأن تقبله .. والمشكلة الأكبر .. والأكثر قسوة وإلحاحا وعنفا .. كانت أن إحساس الرجل بإمتلاك جسد زوجته .. والذى تضاعف بعد الإنفتاح والسنوات والتغييرات التى أعقبته .. فأصبح قليل الإكتراث بهذا الجسد ورغبات وشهوات هذا الجسد .. بالإضافة إلى أن المرأة التى لم يعد بإمكانها نسيان أو تجاهل إحتياجاتها الجنسية .. والتي زادت أيضا بعد الإنفتاح مع مساحة للإثارة والشهوة صارت أكبر وأكثر إتساعا وشراسة .. فأصبح من السهل على الزوجة أن تشعر أن زوجها غير قادر على إشباعها جنسيا .. أو أنه قادر على ممارسة الجنس معها إلا أنها لا تستمتع به أو معه .. وأدى ذلك كله فى النهاية - مع تراكمات إجتماعية وإقتصادية وأخلاقية أخرى - إلى كل ما بدأ يعيشه البيت المصرى من توتر وقلق وإضطراب .. حتى وإن لم تأخذ المشكلة شكلا جنسيا صريحا يلمسه الزوجان ويسهل عليهما التعرف عليه .. وإنما قد تجئ تلك المشكلة على هيئة إكتئاب مزمن أو حالة حادة من عدم الإنسجام أو التفاهم .. أو سلسلة طويلة من أمراض ومتاعب جسدية موجعة يحار فى علاجها الطب والأطباء .

وضاعف من حجم المشكلة ومن قسوة وعنف آثارها .. جهل كل من الزوج والزوجة بأية قواعد تتحكم وتحكم اللقاء الجنسى بين الرجل والمرأة .. وكيف يمكن أن يستمتع بالجنس كل من الرجل والمرأة .. ومتى تتحول العلاقة الجنسية بين الإثنين إلى أزمة ومشكلة .. ولم يجد كل منهما من يشرح لهما كل هذا .. فلم يكن هناك فى المجتمع من هو على إستعداد للقيام بمثل هذا الدور .. لا المدرس ولا أستاذ الجامعة ولا رجل الإعلام ولا الأب أو الأم .. وهى القضية التى أشار إليها أنيس منصور حين قال [1] أن لدينا مدارس ومعاهد وكليات لإعداد أصحاب المهن والوظائف دون أن يكون لدينا معهد واحد أو مدرسة واحدة لإعداد الأزواج وإطلاعهم على الحياة الزوجية وأسرارها .

وهكذا .. تعين على كثير من شباب مصر وفتياتها .. أن يخوض كل منهما - منذ ليلة الزواج الأولى - تجربة الجنس بدون قليل أو كثير من علم وخبرة ودراية .. اللهم إلا بعض أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التى لم تلق - بقصد أو بدون قصد - ما تستحقه من إهتمام على الرغم من أنها تكاد تصيغ منهجا علميا وعمليا لكل لقاء جنسى بين أى زوجين .

وقد كان لمثل هذة الأحاديث الكريمة ضرورتها بعدما غرست الديانة المسيحية فى نفوس الناس عداء وكراهية الجنس .. حيث أصبح الجنس طبقا لتعاليم الكنيسة .. وكما تقول الدكتورة سهير حبيب [2] .. مجرد وسيلة للتناسل وحفظ النوع فقط .. وهو ما يؤكده كون حين يقول [3] أن

(١) أنيس منصور - قلوب صغيرة - دار الشروق - ١٩٧٣
(٢) د. سهير حبيب - الجنس فى الحياة الزوجية - دار الثقافة - ١٩٩١
(٣) أ . س . كون - الجنس من الأسطورة إلى العلم - ترجمة منير شحود - دار الحوار - سوريا - ١٩٩٢

اللاهوتيين المسيحيين إعتبروا أي لقاء جنسي بين الزوجين لا يتم بغرض إنجاب الأطفال هو عمل وسلوك لا أخلاقي .. حتى الأديب الروسي الكبير ليو تولستوي .. لم يكن (١) يعتقد أن هناك علاقة جنسية سليمة وطبيعية إلا تلك التي تقوم بين الزوجين فقط لإنجاب المزيد من الأطفال .. وما عدا ذلك فهي علاقات شاذة وغير طبيعية وغير سوية أيضا .

وإذا كانت هذة الكنيسة .. كما يقول سيد قطب (٢) .. قد أرادت الوقوف في وجه الإنحلال الروماني الذي بلغ أوجه قبل ميلاد المسيح عليه السلام .. فإن سيد قطب يؤكد أن التطرف في مواجهة هذا الإنحلال كان أكثر شؤما على البشرية من بهيمية الرومان ووثنيتهم .. فهذة المغالاة في التقوى والكمال لم تكن بالأمر الذي يأمر به الله أو تستقيم معه حياة .

وما يقصده سيد قطب كان كل تلك القيود الدينية والنفسية والمعنوية التي أحاطت بالجنس بين كل زوجين .. فحتى تلك العلاقة الجنسية التي سمحت بها الكنيسة من أجل إنجاب الأطفال .. لم يكن مسموحا بها بشكل كامل أو مطلق .. وإنما كان الروح القدس (٣) يغادر غرفة النوم بمجرد أن يشرع الزوجان في ممارسة الجنس .. ولهذا كانت الكنيسة تنصح رعاياها بالإمتناع عن ممارسة الجنس نهائيا في يوم الخميس إكراما لذكرى يوم القبض على يسوع .. وفي يوم الجمعة إكراما لذكرى صلب المسيح .. وفي يوم السبت إكراما للعذراء مريم .. وفي يوم الأحد إكراما ليوم قيامة المسيح .. وفي يوم الإثنين إكراما لأرواح المسيحيين الذين رحلوا إلى العالم الآخر .. ويمكن لكل زوجين محاولة إنجاب أطفالهما يومي الثلاثاء والأربعاء .

ثم أضافت الكنيسة قيودا جديدة على الممارسة الجنسية .. فتم تحريمها – حتى وإن كانت بقصد الإنجاب – طيلة أربعين يوما قبل عيد الفصح (٤) .. وأربعين يوما قبل عيد الميلاد .. وفي أيام الحمل .. وأيام الحيض .. وفي أول أربعة أيام بعد الولادة .. ومرة أخرى لم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما كانت تعليمات كنيسة القرون الوسطى (٥) تمنع المغازلة بين الزوجين .. أو أن تدور بينهما أية حوارات عن الجنس أو الرغبة .. أو يصغي أي منهما النكات الجنسية .. وأعطى القديس توما الإكويني (٦) تعليماته المشددة للزوج بأن يلمس زوجته بقسوة وحشمة خشية أن تؤدي مداعبتها إلى الخروج عن طور العقل .. أما القديس فرانسوا دي سال .. فقد طالب كل زوجين بألا تجمع بينهما الملذات .. وعليهما بعد إنقضاء تلك الممارسة أن يغتسلا ويتطهرا بأسرع ما يمكن ليتفرغا إلى ما هو أكثر سموا وإحتراما .

وقد عانت أوروبا .. والغرب .. والعالم كله .. بسبب ذلك كثيرا وطويلا .. ليس فقط لأن تلك الزيجات البيضاء التي دعت إليها الكنيسة – حيث يمتنع الأزواج عن ممارسة الجنس – قد ثبت فشلها وعدم واقعيتها .. فتعددت حالات الخيانة والسقوط .. وإنما لأن ذلك المناخ المتشدد .. المذعور دوما من الجنس ومن ممارسته أو حتى الحديث عنه .. قد جعل جهل الشاب والفتاة بالجنس من الأمور الشائعة .. وإذا كان هنري هافلوك إيليس يؤكد أنه (٧) في ظل غياب المعرفة

---

(١) أ . س . كون – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٢) كولن ويلسون – أصول الدافع الجنسي – ترجمة يوسف شرورو ، سمير كتاب – دار الآداب – بيروت – ١٩٨٦

(٣) سيد قطب – المستقبل لهذا الدين – دار الشروق – ١٩٨٣

(٤) تيم وبفرلي لاهاي – قانون الزواج – زوندرفان للنشر – لندن – ١٩٩١

(٥) د. ناجي الجيوش – الإنحرافات الجنسية – الأهالي للطباعة والنشر – سوريا – ١٩٨٨

(٦) فيليب كامبي – العشق الجنسي والمقدس – ترجمة عبد الهادي عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢

(٧) هنري هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

الجنسية .. لا يعود بوسع الرجال أن يصبحوا عشاقا جيدين .. وليس بوسع النساء إلا أن يكن باردات جنسيا .. فإن القضية ليست هى ممارسة الجنس بشكل جيد أو الشكوى من البرود الجنسي .. ولكنها هى كل ما يترتب على ذلك من أزمات وهموم قد تعصف بالبيت والأسرة .. وهذا ما أشار إليه الفيلسوف الإنجليزى الكبير برتراند راسل حين قال(١) .. أن التعاليم المسيحية كانت تبلغ أوج إنتصارها حين يتزوج رجل وإمرأة دون أن تكون لهما أية خبرة جنسية سابقة .. وفى كثير جدا من تلك الحالات .. كانت النتائج مؤسفة .

وهذا ما أكده أيضا القس تيم لاهاى حين قرر بالمشاركة مع زوجته بيفرلى تقديم كتاب(٢) عن الجنس ومشاكله بعد أن إكتشف الإثنان كم وحجم المشاكل الزوجية التى قد يتسبب فيها .. أو ينتهى إليها .. الجهل بالجنس وحاجاته ورغباته .. لهذا كان الإثنان حريصان فى أكثر من مرة طوال صفحات الكتاب على تصحيح كل الأخطاء الجنسية التاريخية التى وقعت فيها الكنيسة .. وقال الإثنان أن الله لا يدين الجنس .. والكتاب المقدس يبارك العلاقات الجنسية طالما كانت فى إطار الزواج .. والله هو الذى وضع فينا هذة الرغبة الإنسانية لا ليعذب الرجال والنساء بل ليرشدهما إلى حيث السعادة والحب .. وقدم الإثنان نماذجا عديدة لجهل الأزواج ونتائجه .. وطالبا بضرورة أن يتعلم كل زوج وزوجة حقائق الجنس وتفاصيل ممارسته حتى يسترد الجميع حياتهم الطبيعية والهادئة والسوية من جديد .. وهو ما سبق وأن طالب به الطبيب الأمريكي الدكتور فردريك لويس الذى أكد أنه من الأخطاء الشائعة (٣) أن يظن الناس أن التكيف الجنسى بين الزوجين سيأتى بالغريزة أو الفطرة .. ومن يعتقد ذلك فكأنما يعتقد أن سيمفونيات بيتهوفن كانت نتيجة الغريزة أو الفطرة !.

ومن أجل ذلك .. تأسست فى الغرب المدارس والمراكز التى يتعلم فيها الرجال والنساء قواعد اللقاء الجنسى الناجح حيث يكتشف الجميع كيف يكتشف كل منهم أسرار هذا الجسد وكيف يستمتع به .

أما فى مصر .. فلم يكن هناك مكان أو مجال لمثل هذة المدارس أو المراكز .. سواء للمسلمين أو المسيحيين .. رغم أنها كانت من الممكن أن تغدو صمام أمان ضد القنبلة الجنسية التى أوجدها فى البيت المصرى تراث قديم غامض وحائر ومشوش .. ونزع فتيلها إقتصاد منهك يثير القلق والإضطراب والمخاوف .

وكان ما حدث أننا لم نجد صمام الأمان .. ووجدنا القنبلة .

وإنفجرت القنبلة .. فى الشارع .. فى البيت .. وعلى فراش الزوجية بين الرجل والمرأة .

وفى واقع الأمر .. لا تحتاج مثل تلك القنبلة إلى كثير من الوقت قبل أن تنفجر .. إذ ينزع الإثنان فتيلها منذ ليلتهما الأولى معا .. أو الليلة التى يتعين فيها على الرجل أن يفض بكارة إمرأته .. وعلى الرغم أن طقوس تلك الليلة وما تتضمنها من جرائم جنسية ليست جديدة على المجتمع أو البيت المصرى .. وإنما هى تراث قبيح وغامض حافظ عليه المصريون جيلا بعد جيل .. إلا أن الأمر بعد كل تلك التغييرات الإجتماعية والأخلاقية التى شهدها المجتمع المصرى منذ

---

(١) برتراند راسل – الزواج وأخلاقيات الجنس – ترجمة د. نظمى لوقا – مكتبة غريب

(٢) تيم وبيفرلى لاهاى – قانون الزواج – زوندرفان للنشر – لندن – ١٩٩١

(٣) د. فردريك لويس – ٢٠ سنة فى حجرة الإعترافات – ترجمة د. أمير بقطر – كتاب الهلال – ١٩٨٢

السبعينات .. زادت قسوته وبشاعته إلى حد أن إهتزت له وزارة الأوقاف المصرية – يحفظها الله – فكان أن أصدرت [١] رسالة بعنوان منكرات الأفراح .. أشارت فيها إلى عادة مرزولة منتشرة فى الديار المصرية وهى تحويل الفتاة إلى إمرأة بحالة تقشعر من هولها الأبدان وتهتز من فزاعتها المشاعر .

ولعل نعمة .. الفتاة التى لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر .. لم تكن أولى ضحايا تلك العادة المرزولة التى إهتزت لها وزارة الأوقاف .. وقطعا لن تكون آخر الضحايا .. ولكننا سنجد فى حكايتها ما يغنينا عن الف حكاية أخرى .. فقد نشأت نعمة [٢] فى أسرة متوسطة الحال تضم الأب والأم بالإضافة إلى سبعة أشقاء فى قرية منطى بالقرب من مدينة قليوب .. وظلت نعمة حبيسة بيت أبيها دون أن يتيح لها أحد فرصة الذهاب إلى المدرسة مثل الأخريات .. وكانت طول الوقت دائمة الإحساس بأنها حمل ثقيل على كاهل والديها يتمنيان اليوم الذى يأتى لها بزوج يبتعد بها وبهمومها عن البيت .. وجاء الزوج المنتظر .. تاجر حديد واسع الثراء .. غمر الجميع بالمال والهدايا .. ولهذا لم يفكر أحد فى سؤال نعمة عن رأيها ولم يكترث أحد بفارق فى السن بينها وبين زوجها يزيد عن العشرين عاما .. ومع ذلك كان من الممكن للحياة أن تمضى وأن تستمر .. لولا ما حدث فى أول ليلة زواج .. حين إغتصب التاجر الكبير براءة الفتاة الصغيرة وبكارتها وإنسانيتها دون شفقة أو رحمة .. يومها ولد بأعماق العروس المذبوحة كراهية تكفى العالم كله .. ليس لزوجها فقط .. وإنما لكل رجل آخر ولكل إمرأة ولكل طفل .. ولم يهتم زوجها بما ينمو تحت جلدها من مرارة وغضب .. وكان يعود مساء كل يوم ليتناول الطعام ويتلذذ بإحتساء الخمر ثم يستكمل متعته آخر الليل بإغتصاب نعمة .. ولأنه لم يكن فى وسع نعمة أن تتحمل ليال طويلة .. فقد جاءت بسرعة ليلة الإنتقام .. وبعد أن إغتصبها زوجها كالعادة ونام .. قامت هى لتسكب الكيروسين فى أرجاء البيت وعلى جسد زوجها وجسدها هى أيضا لتشعل النار وليحترق كل شئ حتى جسدها هى الذى كان عارها وخطيئتها وذنبها .

ومرة أخرى .. أجدنى مضطرا لتقليب أوراق ماضى مصر القريب والبعيد .. فلم يسبق لأحد منا أن غاص فى قاع المجتمع المصرى ليكتشف سببا أو تفسيرا لكل ما يحدث فى ليلة الزواج الأولى .. ولكل ملابسات فض غشاء بكارة كل عروس .. فلابد وأن هناك سبب .. ومن الضرورى أن يكون هناك تفسير .. وقد أصبحنا نعرف أن فض غشاء بكارة الفتاة فى عصور التاريخ الأولى كان مهمة مقدسة .. وقد قلب فيليب كامبى كثيرا من أوراق حكايات التاريخ القديم قبل أن يكتشف أن الإنسان فى أزمانه الأولى كان يعتقد أنه خطأ فادح ومخيف [٣] أن يسيل الرجل دم زوجته .. ولهذا كان على كل رجل أن يستعين بشخص ثالث يملك قوى سحرية تمكنه من مجابهة أخطار ذلك دون خطأ أو خوف .. وتضيف سلام خياط قائلة [٤] أن هذا الشخص الثالث كان غالبا هو كاهن المعبد أو خادم الإله .. لأنه هو الوحيد القادر على ذلك دون أن تصيب الفتاة لعنة الإله أو تطاردها الأمراض والأوجاع .. وفى أحيان أخرى .. كما يؤكد الدكتور نيازى حتاتة [٥] لم يكن

---

(١) مجلة نصف الدنيا – عدد ١٩٩٢/١٢/٢
(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/١١/١٥
(٣) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢
(٤) سلام خياط – البغاء عبر العصور – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢
(٥) د. محمد نيازى حتاتة – جرائم البغاء – مكتبة وهبة – ١٩٨٣

لهذا الشخص الثالث وجود .. وإنما كان يتم الإستعانة بتماثيل الآلهة ذات الأعضاء الذكورية الكبيرة لفض غشاء بكارة الفتيات قبل زواجهن .

ولا نعرف حتى الآن .. وعلى وجه الدقة .. كيف تطورت وتبدلت عادات وقوانين فض غشاء البكارة بعد تقديس عصور التاريخ الأولى .. ومن المؤكد أن تلك العادات والقوانين ستبقى أحد صناديق التاريخ المتخمة بالغرائب والأسرار والخبايا والمتناقضات .. فبعد الكاهن وخادم الإله .. كانت هناك قبائل أفريقية يقوم فيها الأب بنفسه بفض غشاء بكارة إبنته .. وفى إستراليا كان رجال القبائل يحملون فتياتهم وبناتهم إلى حيث يقوم بعض الشباب بفض غشاء بكارتهن .. وفى الهند كانوا يستخدمون الحجر أو العاج أو قضيب من الخشب لفض البكارة .. وفى جزيرة ساموا فى المحيط الهادى كانوا لا يستخدمون إلا سبابة اليد اليمنى .. وفى شعوب أخرى (١) كان على العريس قبل أن يختلى بزوجته أن يقدمها لكل رجال القرية يمارسون معها الجنس قبله كرمز للتضحية الواجبه يقدمها الفرد من أجل المجموع .

وعلى الرغم من كل تلك الغرائب والمتناقضات التى حفل بها تاريخ الإنسان القديم فى كل ناحية من نواحى الأرض إلا أننا لا نجد لها صدى أو بقايا فى سجل تاريخ المصريين القدماء .. ومن المؤكد أن فض بكارة فتياتهم لم يشكل لهم هاجسا مخيفا ومرعبا مثل غيرهم من شعوب الأرض .. وربما كان السبب فى ذلك هو أن غشاء البكارة أصلا .. لم يكن يعنى الكثير بالنسبة لهم .. وبالتالى لم تكن هناك طقوس تحيط بفضه فى أول ليلة زواج .. فبالرغم من أن الزنا – بعد الزواج – كان خطيئة كبرى يصعب غفرانها أو نسيانها .. إلا أنه لم يكن هناك ما يمنع الفتاة من ممارسة الجنس قبل الزواج (٢) .. ولم تكن الزوجة مطالبة بتقديم كشف حساب لماضيها قبل الزواج .. وبعد الزواج .. كان يكفيها أن تقول لزوجها .. لم أمارس الجنس خارج الحياة الزوجية ولا مع أى أحد سواك .

وليس من المنطقى أن تكون مصر المسيحية هى التى إبتدعت ذلك .. لأن المسيحية – كما سبق وأن أشرت – كانت هى الديانة التى قصرت الجنس على أنه مجرد وسيلة لحفظ النوع وإنجاب الصغار فقط .. وحين جاء الإسلام إلى مصر .. فإنه جاء بسماحته وبقواعده التى تحدد وتنظم كل أمور الحياة بما فيها تلك الليلة الأولى التى يفض فيها الزوج بكارة زوجته .

وقد إقتسم الإسلام تلك الليلة الأولى بين الرجل وبين المرأة .. فأعطى للرجل ما له .. وأجبره أن يعطى إمرأته ما لها .. فأما الذى هو للرجل .. فهو أن تسلم له زوجته نفسها وجسدها .. ومن المستحب – كما قال الثعالبى (٣) – للمرأة ليلة عرسها ألا تفرط فى التمنع على زوجها فيما يريده منها .. ولا بأس بالإمتناع الخفيف الذى يهيجه ويقوى حرصه .. وحكى لنا الآبى (٤) كيف دخل عثمان بن عفان بنائلة بنت الفرافصة فى غرفة تضم سريرين .. فجلس عثمان على أحدهما وجلست نائلة على الآخر .. فقال لها عثمان : إما أن تقومى إلى وإما أن أقوم إليك .. فقامت نائلة إليه .. فقال لها ألق ردائك .. فألقته .. فقال لها إطرحى خمارك .. فطرحته .. فقال لها إنزعى درعك .. فنزعته .. فقال لها حلى إزارك .. وهنا فقط إعترضت نائلة مؤكدة أن حل الإزار إنما فعل

(١) أ . س . كون – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢ .
(٢) وول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧
(٣) الثعالبى – ثمار القلوب – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار نهضة مصر – ١٩٦٥ .
(٤) الآبى – نثر الدر – الجزء الرابع – تحقيق محمد على قرنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٠ .

الرجل لا المرأة .. وحكى لنا أبو الفرج (١) عن معاوية بن أبى سفيان الذى ما إن سمع بأن إبنته هند التى زوجها من عبد الله بن عامر .. بعد لم تسلم نفسها لزوجها .. حتى ذهب إلى بيت زوجها غاضبا زاجرا مهددا حتى إستكانت فإستجابت فنالها زوجها .. ولا شك أننا لم نتوقف كثيرا وطويلا أمام موقف الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ليلة زفاف إبنته فاطمة على إبن عمه على بن أبى طالب .. فقد قال للنساء وهو يسلمهن إبنته لتزيينها : إنى قد زوجت ابن عمى إبنتى فاطمة ، وقد علمتن منزلتها منى ، وأنا أدفعها إليه الآن إن شاء الله تعالى .. ثم عاد الرسول مرة أخرى – بعد أن تطييت فاطمة وتزينت – ليودعها بعبارة أزعم أنى توقفت أمامها طويلا ولا أرى إلا أنها خليقة بأن يقولها كل أب لكل إبنة فى واحدة من أهم وأخطر ليال عمرها .. فقد قال لها الرسول قبل أن يدخل إليها زوجها : حرسك الله بين يديك ، ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ، من الشيطان .

وهذا هو ما للرجل فى ليلة زفافه .. أن تسلم له المرأة نفسها .. أما ما عليه .. فهو الدعاء بأن يرغب الله زوجته إليه فى حسن العشرة والألفة ودوام المحبة .. ويقول كما قال رسول الله : اللهم إنى أسألك من خيرها وخير ما جبلت عليه ، وأعوذ بك من شرها ومن شر ما جبلت عليه .. وقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو الرجل لأن يتلطف مع إمرأته .. إنه مثلا يقول(٢) : لا يقعن أحدكم على إمرأته كما تقع البهيمة .. ليكن بينهما رسول .. قيل : وما الرسول ؟.. قال : القبلة والكلام .

ومن المؤكد .. أنه لا ميراث الفراعنة ولا المسيحية ولا الإسلام .. هم الذين غرسوا فى أرض مصر كل ما إستجد فى القاموس الجنسى والأخلاقى المصرى من سلوك يتعلق بليلة الزفاف .. ولا حتى عصور إحتلال الغرباء والأجانب وإستعمارهم لمصر وأهلها .. فلم تعرف مصر على سبيل المثال حق الليلة الأولى للملوك والأمراء والسادة كما عرفته أوروبا طوال القرون الوسطى .. حين كان من حق البارونات فض بكارة زوجة أى فلاح أو عامل تحت سيطرتهم .. بل إننا نجد فى إحدى المخطوطات القديمة ترجع إلى عام الف ومائة حكاية عن أحد الملوك إسمه كونشوبار قام وحده بفض بكارة كل عذارى مملكته .. وكان دائم الإشارة بأن ذلك (٣) إنما هو واجب مقدس مفروض عليه !.. وعلى الرغم من قرار الملك فرديناند بإلغاء حق الليلة الأولى عام ١٤٨٦ فإن ذلك الحق بقى ساريا فى أماكن كثيرة ومتفرقة مثل إقليم بافاريا الألمانى حتى القرن الثامن عشر .

وقد حاول قليل من الفرنسيين ممارسة هذا الحق فى مصر أثناء الحملة الفرنسية ومنهم فرانسوا برنوابيه مدير مشغل ملابس جيش الشرق الفرنسى .. والذى حل محل خادمه (٤) ليفض بكارة عروس الخادم فى ليلة العرس .. بعد أن إستعصى عليه نيل الفتاة العروس كعشيقة دون زواج .. وقد مارس الملك فاروق ذلك أيضا حين شهد زفاف كريمة أحد العظماء فأصر على أن يسبق العريس فى الخلوة بالعروس الجميلة (٥) .. فما كان من والدة العروس إلا أن فاتحت العريس فى الأمر .. فهاج وماج وهدد بفضيحة تهتز لها قوائم العرش .. وبعد مفاوضات عاجلة ووعد ملكى برتبة البكوية ومنصب كبير فى القصر .. وافق العريس .. وتحققت الرغبة الملكية ونال

---

(١) محمد بن أحمد التيجانى – تحفة العروس ومتعة النفوس – رياض الريس للكتب والنشر – ١٩٩٢

(٢) عبد الرحمن واصل – مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية – مكتبة وهبة – ١٩٨٤

(٣) د. أحمد على المجدوب – العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية – الدار المصرية اللبنانية للنشر

(٤) د. ليلى عنان – الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة – كتاب الهلال – ١٩٩٢

(٥) سيد صديق عبد الفتاح – ليالى ونزوات فاروق – مدبولى الصغير – ١٩٩٠

العريس البكوية !.. وهى كما نرى حوادث إستثنائية قليلة جدا .. ونادرة جدا .. لا تعيد صياغة الوجدان أو الفكر أو السلوك .. ومن الثابت تاريخيا أن مصر طوال عمرها .. أبدا لم تعرف كأوربيا وقبائل أخرى متفرقة فى أرجاء العالم .. حق الليلة الأولى .. لكن من المؤكد واقعيا أنها عرفت – ولا زالت تعرف – قسوة الليلة الأولى .. الليلة التى يفض فيها العروس بكارة الفتاة .. أى لابد وأن يدخل قضيب العريس فى مهبل العروس .. ولهذا يسمونها ليلة الدخلة .. وحتى وقت قريب كان العريس فى الريف وفى بعض الأحياء الشعبية فى القاهرة وسائر مدن مصر .. لا يدخل إلى عروسه وحده .. وإنما كانت تدخل معه الماشطة وأم العروس وبعض قريباتها .. وتشرح الماشطة للعريس كيف يفض بكارة العروس .. ولم تكن أى من الحاضرات لتكترث بصراخ الفتاة أو دموعها أو إحتجاجها .. فالمهم كان أن يصبغ الدم قطعة الشاش أو المنديل الأبيض فى يد الماشطة .. والذى سوف تخرج به أم العروس إلى حيث يرى المدعوون كلهم بكارة إبنتها والدليل الوحيد على شرفها الذى حافظت عليه طيلة سنوات عمرها .. وهنا يبدأ الفرح الحقيقى .. ويبدأ الكل فى الغناء .. بل إن هناك أغان بعينها إرتبطت بتلك الليلة وطقوسها .. فهناك مثلا .. أغنية تقول .. بيضتى الشاش ياعروسة .. وهناك أغنية أخرى تقول .. قولوا لابوها إن كان جعان يتعشى .. وفى أحيان أخرى .. لم يكن فض بكارة العروس من مهام العريس أو حتى الماشطة .. وإنما هى مهمة الداية .. وتحكى لنا الدكتورة نوال السعداوى عن إحدى الدايات [1] التى يعد تجربة طويلة مع ليالى الزفاف الأولى .. لم تعد تكتفى بتمزيق غشاء البكارة فقط .. وإنما كانت تمد أظافرها الطويلة – المعدة لهذا الغرض – لتخدش جدار المهبل أيضا من أجل أن تسيل دماء كثيرة تراها كل النساء العجائز أصحاب الألسنة الطويلة .. ومن أجل هذا أصبحت تلك الداية من أشهر الدايات التى تحرص وتصر عليها عائلات كثيرة لتفض بكارة فتياتهن فى ليالى زفافهن .

ومع أن ذلك لم يعد يحدث إلا نادرا جدا وبشكل إستثنائى وفى مناطق محدودة ونائية .. إلا أن هذا ليس ما قصدته بالحديث عن قسوة ليلة الزواج الأولى فى مصر .. إنما كنت – ولا أزال – أقصد .. جهل كل من الشاب والفتاة بما سوف يحدث .. أو ما ينبغى أن يحدث فى تلك الليلة .. ويؤدى هذا الجهل إلى الخوف .. والخوف يدفع إلى الخجل .. ولو بقى الأمر قاصرا على مجرد الجهل والخوف والخجل .. لكانت مشكلة الليلة الأولى فى مصر مشكلة عادية تشبه مشكلة تلك الليلة فى بلاد كثيرة .. لكن يضاعف من حدة وقسوة تلك المشكلة فى بلدنا .. هذا الإرث الجنسى الغامض والمشوش الذى تراكم فى ذاكرتنا ووجداننا جيلا بعد جيل .. هذا الإرث الذى قد يختصر أحيانا بدون مبرر أو منطق من مساحة الجنس ومن دوره وأهميته بقدر ما يضاعف أحيانا أخرى من نفس تلك المساحة والدور والأهمية أيضا بدون مبرر أو منطق .. وكانت ليلة الزفاف من تلك التى أعطينا فيها للجنس مساحة خرافية إلى الحد الذى يجعل الرجل يواجه عروسه وهو على قناعة كاملة بأن فشله فى إمتاع زوجته وإشباع رغباتها فى تلك الليلة بالتحديد لا يعنى إلا أن يفقد إحترامها له كزوج ورجل .. ولأنه ليس هناك الشاب الذى يود أن يفقد إحترام زوجته له .. فلن يكترث مثل هذا الشاب حينئذ إلا بثياب العروس ومتى ستخلعها .. وكيف سيمارس معها الجنس .. وهل سيرضيها ويسعدها أم سيصيبها بالإحباط وخيبة الأمل .. وحين يبدأ هذا الشاب

(١) د. نوال السعداوى – المرأة والجنس – الناشرون العرب – ١٩٧٢

في ممارسة الجنس بالفعل مع عروسه .. لا يصبح رجلا يمارس الجنس لأول مرة مع إمرأة سيرتبط بها باقي العمر .. ولكنه إنسان علموه وأقنعوه أن هذا الفراش إختصار لحياته القادمة كلها .. إختصار لأحلامه وسعادته وإستقرار البيت الذى يبدأ فيه الحياة فى تلك الليلة .. ومع كل هذا الضغط والتوتر والرغبة فى السيادة والإمتلاك والتظاهر بالقوة منذ الليلة أو حتى اللحظة الأولى .. يمكن أن تحدث أشياء كثيرة .. قد تصل أحيانا إلى حد الإصابة والنزيف وتهتك أغشية الفتاة وجهازها التناسلى .. وهناك حكاية لا يعرفها إلا بعض العاملين بأحد مستشفيات الإسكندرية حين فوجئ طبيب كبير بالمستشفى يستدعيه لرؤية إبنته التى ودعها منذ ساعات قليلة فى أحد الفنادق الفخمة بعد أن أكمل زفافها إلى أحد الأطباء الشبان .. وجرى الطبيب إلى المستشفى ليكتشف أن إبنته العروس جاءت مخضبة بالدماء .. لم تكن دماء غشاء البكارة .. ولكن كانت دماء المهبل الذى تهتك ومعه تعددت جراح كل أعضائها التناسلية الخارجية .. وعلى الرغم من أن الزوج كان طبيبا .. إلا أنه ثبت بتلك الحكاية – وحكايات أخرى متشابهة – أنه لا الطب ولا العلم لهما أى مكان أو دور فى تلك الليلة المقدسة .. وهناك حكاية أخرى أكثر قسوة لم تنته فى المستشفى وإنما فى قسم الشرطة .. فقد فوجئت إبنة مليونير ورئيس سابق لأحد أحياء القاهرة فى ليلة عرسها بزوج المستقبل يدخل غرفة النوم مع والدته .. فقيدتها الأم بينما قام الإبن بنزع ثياب العروس .. المفاجأة الأكبر كانت ما حدث بعد ذلك .. فقد مارس الإبن إغتصاب عروسه أمام والدته .. إغتصاب بكل ما تعنيه الكلمة .. فقد أدخل الإبن قضيبه فى شرج العروس بمعاونة كريم جاءت به الأم .. وإنتهت الحكاية بقرار من النيابة بحبس الزوج ووالدته أربعة أيام على ذمة التحقيق تمهيدا لمحاكمتهما .. ومن المؤكد أن كل ما سوف تلتفت إليه المحكمة هو قضيب الزوج الذى إفتتح الحياة الزوجية بالدخول فى شرج الزوجة .. لكن أحدا لن يلتفت لمشاعر وأحاسيس كانت تفتش عنهما وتحتاج إليهما كل فتاة فى تلك الليلة الفاصلة التى تودع بها وفيها حياة قديمة وتبدأ حياة أخرى جديدة ومختلفة تماما .. ولا أحد سيكترث بما يتعين على كل فتاة أن تدفعه من أعصابها ومخاوفها وعذابها وحيرتها ليكتشف الشاب قوته ورجولته .

وإذا كانت الأديبة الفرنسية الكبيرة سيمون دى بوفوار قد أشارت (١) أن تجربة ليلة الزفاف بالنسبة للفتاة تكاد تتحول فى أحيان كثيرة إلى حادثة إغتصاب .. فإن الواقع يؤكد أن الأقرب للإغتصاب يحدث هنا فى مصر لا فى أوروبا التى لم تعد تطالب منذ وقت طويل بعذرية الفتاة وبكارتها .. والتى لا تشترط أن تكون ليلة الزفاف هى الليلة أو المرة الأولى التى يلتقى فيها الرجل والمرأة جنسيا بعكس ما يحدث هنا فى مصر .. حيث الفتاة مطالبة بتسديد فاتورة حساب الجهل والخوف والخجل والإرث الجنس وكل الأوهام والمعتقدات الخاطئة وحساب التاريخ أيضا .. فهذة الفتاة منذ مائة عام وأكثر .. كانت مطالبة بأن تقدم دليل براءتها وبكارتها فى أول ليلة زواج ليس لزوجها فقط .. ولكن لعائلتها وعائلة زوجها ولكل الناس أيضا .. لأنها فى ذلك الماضى القريب كانت مضطرة للخروج من بيتها وقريتها للعمل فى السخرة حيث كان الإعفاء منها من نصيب الزوجات وحدهن (٢) .. وكانت هؤلاء الفتيات يشاركن الرجال والشباب مشقة الغربة والسفر الطويل والعمل المضنى فى النهار .. وحين يأتى الليل .. لم تكن هناك أية حواجز أو

(١) سيمون دى بوفوار – الجنس الثانى – بانتام بوكس – لندن – ١٩٦٤
(٢) محمود أبو رية – حياة القرى – الدار المصرية للتأليف والترجمة – ١٩٦٦

سواتر تفصل الفتيات عن الشباب والرجال .. ولم يكن هناك ما يمنع كثيرا من الفتيات – تحت وطأة الواقع وقسوة الحاجة والوحدة والغربة – من ممارسة الجنس أو الوقوع ضحية حادثة إغتصاب أو أكثر .. وحين تعود كل فتاة من هؤلاء الفتيات إلى عائلتها وقريتها .. وتأتى ليلة زفافها .. كان من الضرورى جدا أن يعرف الجميع – لا العريس فقط – ما إذا كانت العروس قد حافظت على شرفها وبكارتها أم أسلمت نفسها وجسدها للغرباء .. ولأنه ليست هناك وسيلة لمعرفة ذلك إلا غشاء البكارة .. فقد كان لابد وأن يكون هناك شهود على أن غشاء البكارة لا يزال فى مكانه .. ولأن الفرح الحقيقى لم يكن ليبدأ إلا بعد الإطمئنان على بكارة العروس وعذريتها .. فقد كان من الضرورى أن تسبق تلك الخطوة أى لقاء أو خطوات أخرى بين الرجل والمرأة .. ولأن أهل الريف فى ذلك الوقت كانوا هم الغالبية فى مصر .. فقد تحول الأمر إلى عرف عام إطمئن إليه الناس وإعتادوا عليه .. وأصبح غشاء البكارة بسبب ذلك – مع أسباب أخرى – هو أهم ما تملكه أية فتاة فى مصر .. وأصبحت البكارة فى المفهوم الشعبى المصرى تعنى الوش .. فيصفون قيام العريس بفض بكارة العروس بأنه .. " آخد وشها " .. وذلك لأن الفتاة التى لم تفرط فى نفسها وحافظت على غشاء بكارتها .. لا تواجه الناس بوجه كسير يمزقه الخجل ويلطخ العار ملامحه .. فكأن الفتاة لا تسلم لعريسها غشاء بكارتها فقط .. وإنما زينة وكبرياء وجهها أيضا .. ومن المفارقات الحزينة والمؤلمة أن نتوارث ذلك .. حتى بعد إنقضاء زمن السخرة .. وبعد أن تقطعت أوصال كثيرة بين معظم العائلات والأسر المصرية وبين جذورها الريفية .. وبعد أن أصبح ممكنا أن يقام الإحتفال وأن يتم دون دماء العروس .. وبعد أن أصبح غشاء البكارة ليس دليلا أكيدا وموثوقا فيه حيث بإمكان أية فتاة أن تمتلك غشاء ثانيا أو عاشرا وقتما تريد .. أو وقتما يريد المجتمع والرجل الذى سيقاسمها فراشها .

ولست أقصد من ذلك أن نسقط عن غشاء البكارة أية قيمة أو مكانة أو إعتبار .. ولكن أقصد أننا لو أعدنا التفكير فى عاداتنا وعقائدنا وما توارثناه .. لكان من الممكن أن نعفى كثيرا من الفتيات مشقة الليلة الأولى .. وأن نعفى الرجال أيضا .. فهم أيضا – كما سبق وأن أشرت – يدفعون ثمن الجهل والخوف والحياء .. ولعل أصدق تعبير عن حيرة الرجل فى هذة الليلة هى تلك الكلمات التى جاءت على لسان كامل بطل رواية السراب للأديب الكبير نجيب محفوظ .. ففى أحد مشاهد تلك الرواية [1] يقول كامل فى ليلة زفافه .. بدا لى أن تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة فى الوجود .. فهل نبقى على هذا الوضع الأليم حتى مطلع الصبح ؟.. لماذا لا أمضى نحوها فأضمها إلى صدرى حتى تحسم المسألة نفسها بنفسها ؟.. ولكن كيف أقدم على هذة الخطوة العظيمة ؟.. إننى أستطيع أن أتخيل وأن أحادث نفسى .. أما الإقدام على عمل فهو محال .

ولأننا فى المقابل لا نملك مشهدا ينقل لنا حيرة العروس ومخاوفها وخيالاتها .. فلا يصبح أمامنا إلا الواقع الذى أشار إليه وتحدث عنه الكثيرون .. فالدكتور زكريا إبراهيم مثلا .. يؤكد [2] أن كثيرا من النساء فى مصر لا يحتفظن لليلة زفافهن بأية ذكريات طيبة .. لأن كل واحدة منهن إكتشفت فى ليلة عرسها مدى التناقض الصارخ بين طقوس الدين وبين الفعل الحيوانى .. فتشعر بالسخط على المجتمع بريائه وكذبه .. وعلى زوجها بإندفاعه وحيوانيته .. وفى الواقع لا تبدو

---

(١) نجيب محفوظ – السراب – مكتبة مصر – ١٩٦٤

(٢) د. زكريا إبراهيم – سيكولوجية المرأة – مكتبة مصر – ١٩٨٤

النساء واضحات المشاعر والأفكار فى تلك الليلة على وجه التحديد .. فالدكتور فؤاد زكريا يعود ليؤكد مرة أخرى .. أن المرأة قد تحقد على الرجل الذى يفض بكارتها فى عنف دون مراعاة لآلامها .. كما قد تحتقر الرجل الذى يقضى ليلة الزفاف فى محاولات يائسة دون أن ينجح فى فض بكارتها .. وقد ينجح الرجل بدون أن تحقد عليه إمرأته .. وقد لا ينجح دون أن يكون مسئولا عن ذلك .. فالطب بدوره يؤكد أن غشاء البكارة ليس نوعا واحدا .. فهناك أنواع عديدة .. منها الذى يسمح بمرور قضيب الرجل دون الم ودون دماء .. ولأن الكثيرين يجهلون ذلك .. يصبح بإمكاننا أن نتخيل حجم وقسوة ما قد ينجم عن ذلك من أزمات مهينة وموجعة .

ولم تبق دائرة الجهل قاصرة بالطبع على الليلة الأولى وممارساتها وأخطائها وأوهامها فقط .. وإنما إمتدت وإتسعت لتشمل كل تفاصيل العلاقة الجنسية بين الزوجين فى مصر .. بداية من تجربتهما الجنسية الأولى ونهاية بكل ليلة يمارس فيها الجنس الإثنان معا .. وأحد أهم أسباب ذلك هو إعتقاد الرجل بأنه سيد علاقته الجنسية بزوجته .. هو الذى يختار كل شئ .. هو الذى يقرر كل شئ .. وما على الزوجة إلا أن تكون متأهبة وعلى إستعداد دائم لممارسة الجنس وقتما وكيفما يريد الزوج دون أن يكون لها الحق فى الرفض والإعتراض أو حتى الحوار حول ما حدث وما سيحدث بينهما .. وليس سرا أن الزوج المصرى لا يحترم الزوجة التى تتحدث معه عن الجنس .. أو تفكر فيه بصوت عال .. ويشير الدكتور مدحت عزيز شوقى (١) إلى أن الزوج الذى يسمع زوجته تتحدث عن الجنس يعتبرها فاجرة .. أما إذا طالبت أو حتى ألمحت له برغبتها الجنسية فإنه يشك فى سلوكها ويلعن اليوم الذى تزوجها فيه !.

وما أشار إليه الدكتور مدحت عزيز شوقى هو ما يحدث بالفعل فى الواقع .. حيث الرجل ينكر على أمرأته أى حق فى الوقت الذى يمنح نفسه كل الحقوق .. ينكر عليها شهواتها ورغباتها رغم حرصه على إشباع شهواته ورغباته هو .. لا يريد لها أن تستمتع حتى وإن كانت تستمتع به هو وبين أحضانه هو وإلا كانت إمرأة فاقدة الإحترام والتقدير والمكانة .. وتحكى لنا سلام خياط (٢) عن رجل أصر على الطلاق من إمرأته بعد أن إكتشف أنها تجيد فنون الجنس فتخيل أنها لابد وقد مارسته مع رجال آخرين قبله .. وبعد الطلاق .. تبين أن الزوجة طاهرة وبريئة لكنها قرأت عن الجنس وممارساته كثيرا فى الكتب فأرادت أن تنقل إلى الواقع ما قالته الكتب من أجل إسعاد زوجها ونفسها أيضا .. وكثيرون هم هذا الرجل أو الذين سينتابهم الشك فى زوجاتهم إذا ما أفصحن عن رغباتهن وأجدن الإستمتاع بالجنس .. ولا يدرى الرجل أنه لا يحرم زوجته بذلك واحدا من أهم حقوقها عليه .. وإنما يحرم نفسه هو أيضا من الإستمتاع الطبيعى والكامل بإمرأته .. ولعل حكاية الشاعر العربى الشهير والضرير بشار بن برد مع زوجته هى أصدق مثال على ذلك .. الحكاية رواها التيفاشى فى كتابه (٣) بعد أن صار يضرب بها المثل فى العلاقة الجنسية بين كل زوجين .. وهى حكاية يمكن تلخيصها فى أن الشاعر بشار بن برد كان دائم الخيانة لزوجته .. وأرادت إمرأته أن تضبطه متلبسا بخيانتها .. فذهبت إلى إمرأة إعتادت أن تأتى للشاعر بالنساء .. وأقنعت الزوجة تلك المرأة بأن تساعدها .. فذهبت تلك المرأة إلى بشار

---

(١) د. مدحت عزيز شوقى – الطب والجنس – كتاب الحرية – ١٩٨٥

(٢) سلام خياط – البغاء عبر العصور – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢

(٣) شهاب الدين أحمد التيفاشي – نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب – تحقيق جمال جمعة – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢

تقول له أن هناك إمرأة محتشمة بعلها غائب وأنها لذلك قد تستجيب له لكن بشرط ألا يرى وجهها حتى لا يفضحها .. فذهب معها بشار وإختلى بزوجته دون أن يعرف أنها زوجته بعد أن غطت وجهها .. وبعد أن شرع بشار بالفعل فى ممارسة الجنس معها .. كشفت له عن وجهها وركلته فى صدره فقال لها عبارته الشهيرة .. والله ما رأيت أبرد منك حلالا ولا رأيت أحر منك حراما !.

وتقودنا حكاية بشار إلى حكاية .. أو حكايات أخرى .. بطلتها إمرأة واحدة إسمها عائشة بنت طلحة .. والتى كانت من أشراف قريش وتنتمى إلى قبيلة بنى تيم وأمها هى أم كلثوم بنت أبى بكر .. وأصبحت عائشة أشهر زوجة فى التاريخ العربى تتمرد على مثل تلك القيود .. فعلى سبيل المثال .. حكى لنا الآبى (١) كيف أصغت إحدى النساء لعائشة أثناء ممارستها الجنس مع ثانى أزواجها مصعب بن الزبير .. وإندهشت تلك المرأة من شخير وغطيط عائشة الذى لم تسمع مثله من قبل .. فذهبت إليها تسألها فقالت عائشة .. لا تشرب الخيل إلا بالصفير .. ويؤكد ذلك أبو الفرج الأصبهانى حين يحكى حكاية أخرى (٢) أيضا عن عائشة .. لكنها فى هذة المرة كانت قد أصبحت زوجة لعمر بن عبيد الله .. وأيضا أصغت إليها إحدى النساء بعد أن علا شخيرها ونخرت وأتت بالعجائب أثناء جماعها مع زوجها .. فذهبت إليها تلك المرأة وعاتبتها .. فقالت عائشة إنا نتشهى لهذة الفحول بكل ما نقدر عليه وبكل ما يحركها !.

وتتعدد حكايات عائشة .. أو حكايات عن عائشة مع أزواجها .. وليس لها إلا معنى واحد .. هو أن عائشة لم تكن لتخجل من الإستمتاع بالجنس مع زوجها .. لم تكن لتكتم رغباتها وتقهر شهواتها فى صمت عميق وإستسلام أعمق .. وإذا كان الدكتور محمد حسن عبدالله يرى أن عائشة لم تكن لتكسر ما أحاط بنساء زمنها من قيود على الإستمتاع الجنسى إلا لأنها كانت جميلة .. وكانت تعرف أنها جميلة .. فتقاضت من أزواجها ثمن هذا الجمال فنونا من الدلال والتيه والحرية (٣) .. فإنه ليس من الضرورى أن تغدو كل إمرأة وكل زوجة أخرى .. فى جمال عائشة .. ليصبح من حقها أن تشارك زوجها الإستمتاع بالجنس .. وتفصح عن رغباتها وإحتياجاتها .

ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط .. فالزوج المصرى لا ينكر فقط على زوجته الإفصاح عن رغباتها وإحتياجاتها الجنسية .. وإنما هو أحيانا لا يعترف بوجود تلك الرغبة وهذا الإحتياج أصلا .. فإذا تنازل وإعترف وأقر بوجودهما .. فإنه يتخيلهما بمفاهيمه ومنطقه هو وبكل ما أصغى إليه من حكايات ومعتقدات خاطئة وكاذبة .. مع أن الرغبة الجنسية عند المرأة تختلف تماما عن رغبة الرجل .. فى طبيعتها ودوافعها وولادتها وفى إشباعها أيضا .. هذا ما تقوله سو بالينبرج .. أخصائية العلاج النفسى الجنسى فى معهد لندن للجنس .. وهى تشير (٤) إلى أن أهم مظاهر هذا الإختلاف تكمن فى المناخ الذى تولد فيه الرغبة والحاجة إلى الجنس عند الرجل والمرأة .. فالرجل مثلا يشعر بالرغبة فى ممارسة الجنس حين تثيره الصورة العارية أو الكلمة المثيرة .. أما المرأة .. فتشعر بالرغبة حين يغمرها الحب .. أو حين يفيض المناخ حولها بالرومانسية والخيال والحنان .. ولا يعنى ذلك أن الكلمات أو الصوز أو أفلام الجنس لا تثير المرأة

(١) الآبى – نثر الدر – تحقيق محمد على قرنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٠
(٢) أبو الفرج الأصبهانى – الأغانى – دار الثقافة – بيروت – ١٩٨٣
(٣) د. محمد حسن عبدالله – الحب فى التراث العربى – عالم المعرفة – الكويت – العدد ٣٦ – ١٩٨٠
(٤) مجلة رومانز أون – لندن – عدد ١٩٩٢/١١/٢٢

وإنما تأتى فى المرحلة الثانية بعد الحب .. فالجنس عند المرأة السوية لا يعنى إلا الحب فى المقام الأول .. بل وقد لا يعنى إلا الحب .. فإذا غاب الحب – أو الود والتفاهم والإنسجام النفسى – فلا جنس ولا رغبة ولا نشوة ولا متعة ولا أى شئ على الإطلاق .. وهذا ما أكدته تجربة أجريت فى ألمانيا (١) حيث تم عرض فيلمين جنسيين على إثنين وثلاثين زوجا وزوجة .. وبعد المشاهدة .. تبين مدى إستمتاع الأزواج بالفيلمين ومدى ما إنتابهم من إثارة .. وفى المقابل كانت مشاعر الزوجات تتراوح من الإمتعاض وحتى الإحساس بالغثيان .

ومع ذلك .. أصبح شائعا أن يسعى الزوج – القادر على إمتلاك غرفة نوم تخصه مع زوجته وحدهما ويمتلك أيضا جهاز فيديو – لإقتناء بعض الأفلام العارية ليذهب بها إلى البيت .. غالبا فى مساء كل خميس .. ويجبر زوجته على مشاركته مشاهدة الفيلم لتثيرها مشاهده المتوالية كما تثيره هو ويكون اللقاء الجنسى آخر الليل هو قمة تتويج وختام مثل هذة الإثارة .. ويبدو أن ذلك ظاهرة مصرية قديمة .. حتى قبل أن يأتى زمن الفيديو وأفلام الجنس وحتى قبل زمن الصور العارية الملونة .. فالمستشرق الإنجليزى إدوارد وليام لاين يحكى لنا – ضمن ما شاهده فى مصر فى القرن التاسع عشر – كيف كان عامة الأزواج المصريين (٢) يسعون إلى إثارة المشاعر الشهوانية عند زوجاتهم بكل ما أوتوا به من وسائل تعينهم على ذلك .. ومن الواضح أننا لا نزال نحتفظ ونحافظ على هذة الظاهرة دون أن نعلم أن ما تفتش عنه وما تحتاجه المرأة ليس له أدنى علاقة بذلك .. فالمرأة لا تبحث عن الإثارة بقدر ما تبحث عن الحب .. ولا يعنيها مطلقا طول مدة اللقاء الجنسى .. ولا حجم قضيب الرجل .. بل وليس من الضرورى أن تبلغ المرأة درجة النشوة لتستمتع باللقاء الجنسى .. فالجنس عندها لا يعنى النشوة التى يفتش عنها الرجل .. وإنما يعنى الإلتصاق والإحساس بالأمان .. والذى لا يدركه الرجل المصرى أن سلوكه مع إمرأته قبل وبعد اللقاء الجنسى هو الذى يتوقف عليه إسعاد المرأة وإشباعها أيضا .. والذى لا يدركه سواء الرجل أو إمرأته أن الجنس فى النهار ليس حراما أو مكروها .. وليس من الضرورى مطلقا أن تتم الممارسة آخر الليل بعد إرهاق وإنهاك يوم شاق وطويل .. بل إن كثيرا من الأطباء ينصحون كل زوجين بممارسة الجنس فور الإستيقاظ من النوم (٣) حيث .. الصفاء الذهنى والوجدان الذى لم تفترسه الهموم والطاقة الحيوية بأكملها لم يستنزفها بعد فكر أو جهد .. على الرجل أيضا أن يدرك أنه ليس فى سباق مع الرجال الآخرين ليثبت أنه الأقوى والأكثر فحولة .. وليس فى مواجهة مع إمرأته ليثبت لها أنه رجل وقوى وقادر جنسيا بما يكفى لأن تدين له بالكثير جدا وحتى آخر العمر .. فالجنس ليس عرضا عسكريا وليس جسد المرأة هو ساحة العرض .. وفى المقابل .. فالجنس أيضا ليس مطلقا – كما تعتقد زوجات كثيرات فى مصر – مجرد صفقة يعقدنها مع أزواجهن .. ليس مكافأة تمنحها الزوجة لزوجها إذا ما أحست بالرضا عنه وعن حياتها معه .. وليس أيضا حالة مواساة من زوجة لزوج يمر بمحنة إنسانية أو إقتصادية أو مهنية .. ولا ينبغى أن يصبح جسد الزوجة هدية لن يتسلمها الزوج إلا بعد النجاح فى العمل أو جنى الضرورى والمزيد من المال .. وهناك من يصف مثل تلك الزوجة بالعاهرة التى تبيع جسدها مقابل مال أو

---

(١) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣

(٢) إدوارد وليام لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – ترجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١

(٣) هنرى هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

هدية أو مكافأة حتي وإن كان الذى يدفع فى النهاية هو زوجها .. ونحن للأسف نملك فى مصر كثيرا من أولئك الزوجات اللواتى يحلن الزواج إلى عهر ويحلن فراش الزوجية إلى صورة مصغرة من بيت للدعارة .. وهناك فيلم مصرى شهير إسمه السفيرة عزيزة .. تكاد تكون حكايته تكريسا لمفهوم الزوجة المصرية عن الجنس .. ففى ذلك الفيلم نجد الزوجة ترفض ممارسة الجنس مع زوجها إلا بعد أن يواجه شقيقها ويجبره على أن يتنازل لها عن ميراثها من أبيها .. وبإمكانى أن أؤكد أن مثل هذا الفيلم لم يقدم حكاية زوجة إستثنائية أو شاذة ولم يتجن على الزوجة المصرية .. فهذا هو الواقع وهذا هو ما يحدث بالفعل .. والدكتور زكريا إبراهيم يؤكد [١] أن زوجات كثيرات لا يقبلن الإستسلام لأزواجهن إلا مقابل بعض الإمتيازات المادية .. أو يضنون على أزواجهن بمفاتنهن ومحاسنهن إلا إذا قبلوا بعض الشروط .. ومثلما يجهل كثير من الرجال حقائق الجنس وخباياه تحت جلد زوجاتهم .. فإن كثيرا من الزوجات أيضا يجهلن نفس تلك الحقائق والخبايا تحت جلد الرجال .. فالرجل كما يقول ثيودور رايك [٢] .. نادرا ما يشبعه الجنس الخام .. ويضيف رايك أنه على الرغم من كل تبجح الرجل .. إلا أنه ليس فاقدا للحس كما قد تتخيل النساء .. بل هو رومانسي فى الأساس .. وهو فى يقينه يعلم أن الأجساد تبقى غريبة عن بعضها البعض إن لم تتحد النفوس .. وقد يخدع نفسه بعض الوقت لكنه لابد وأن يعود ليكتشف ويثق من أن الجنس المجرد وحده لن يكفيه ولن يشبعه .

وهذا ما تؤكده جرمين جرير حين تؤكد [٣] أن الرجل - خلافا لما تعتقده المرأة - لا يحب أن يراها عارية تماما .. وهو لا يعيش بالضرورة على هاجس مشاهدتها فى ثيابها الداخلية .. ولن يرحب دائما برؤية نهديها وقد عرتهما بسخاء أو برؤية مؤخرتها حين تهتز بإيقاع مثير .

وهكذا .. فاضت العلاقة الجنسية بين كثير من الأزواج فى مصر .. بالأوهام والمعتقدات الخاطئة .. ولم يعد الجنس يمارسه الزوجان من أجل تكريس الإنتماء والإبقاء على التواصل الحميم .. رغم أن هذا هو الدور الأساسى الذى لابد وأن يلعبه الجنس فى كل حكاية زواج .. وكان الصينيون القدامى هم أول من تنبه إلى ذلك الإرتباط العميق بين الجنس وبين الحب والإنتماء والتواصل .. ففى فلسفة تاو .. أشهر وأقدم فلسفة فى الشرق عن الجنس والحب .. نقرأ [٤] عن العلاقة بين الين الذى هو جوهر الأنثى .. وبين اليانج الذى هو جوهر الذكر .. وكيف يصبح من الصعب أن تدوم وتبقى تلك العلاقة بدون أن يتكامل الجنس والحب .. حيث الجنس بدون الحب والتفاهم لن ينتهى بكل من الرجل والمرأة إلى ما يحتاجان إليه من سكينة وهدوء .. وحيث الحب والتفاهم بين الزوجين بدون الجنس ينتهى بالكبت الذى لابد وأن يؤدى إلى الإنحراف .. وشرح الصينيون - منذ أكثر من أربعة الاف عام - كيف يمكن للحياة الجنسية السليمة [٥] بين الرجل والمرأة أن تمنحهما السعادة والإحساس بالإرتياح والأمان .. ويقول الدوس هكسلي [٦] .. لاشئ أكثر رعبا من جماع بارد غير مثير للعواطف .. لقد كنا بعيدين عن الطبيعة حين جعلنا الجنس مجرد واجب نؤديه بعيدا عن وجداننا .. أما العالم الكبير باستيفير الحائز على جائزة نوبل عام

(١) د. زكريا إبراهيم - الزواج والإستقرار النفسى - مكتبة مصر - ١٩٧٨
(٢) ثيودور رايك - الحب بين الشهوة والأنا - ترجمة ثائر الديب - دار الحوار - سوريا - ١٩٩٢
(٣) جرمين جرير - المرأة المدجنة - ترجمة هنرييت عبود - دار الطليعة - بيروت - ١٩٨١
(٤) جولانج شانج - تاو . فن الحب - ترجمة يوسف ضومط - بيروت - ١٩٩١
(٥) تيم وبب وسارة بريور - الجنس - رافيتى - لندن - ١٩٨٧
(٦) هنرى هافلوك إيليس - الجنس والزواج وفن الحب - ترجمة عبد الإله الكويتى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩١

١٩٧٨ .. فيؤكد [١] أن الطبيعة البشرية لا تتجلى بكامل حقيقتها وعريها وصدقها إلا أثناء ممارسة الجنس عن حب وتفاهم .. فأثناء تلك الممارسة .. لا إدعاء ولا كذب ولا أقنعة .. لأن الأعضاء التناسلية هى أشد أعضاء الجسم حساسية وأكثرها قدرة على التعبير عن المشاعر والأعماق .. لهذا أتيح للإنسان أكثر من مائة وضع لممارسة الجنس [٢] بعكس الحيوان مثلا الذى ليس أمامه أى خيار فى الشكل أو الوضع الذي يمارس به الجنس .. وهو الأمر الذى توقف أمامه طويلا عالم إسمه بول فريشاور والذى إكتشف [٣] أن الإنسان البدائى كان دائم البحث عن مزيد من المتعة الجنسية .. وقد إستفاد كثيرا من قدرة المرأة على التمدد على ظهرها بعد أن إستقامت قامتها ليبتكر أوضاعا جديدة يأتى بها الرجل أنثاه .. فأصبح هو الحيوان الوحيد الذى ليس مضطرا للإستناد إلى أطرافه الأربعة ليمارس الجنس .. وإذا كان الكثيرون منا يعرفون أنه من العادات الصينية القديمة أن تحشر المرأة قدميها فى أحذية حديدية ضيقة .. فإننا عرفنا أن ذلك كان بقصد أن تبقى القدم صغيرة .. هذا ما قالوه الناس دون أن يكون صحيحا .. إنما ترتدى المرأة الصينية مثل هذة الأحذية لكى تطول ساقاها قليلا وترتفع مؤخرتها من أجل أن يستوى جسدها فى وضع جنسى مثير . ولا يعنى ذلك إلا أن الجنس – ومنذ العصور البدائية الأولى – تخطى حدود الواجب الذى يجب على الإنسان أن يؤديه مضطرا ومكرها .. وأنه ليس مجرد وسيلة لإنجاب الصغار .. ولا هو حتى مجرد شهوة ينبغى قضاؤها بأى شكل .. وإنما هو أيضا وسيلة للعثور على السعادة .. فقد إكتشف الطب – ومنذ سنوات طويلة – تلاصق مركز الجنس فى المخ بمراكز السعادة [٤] .. ونشاط مركز الجنس وإثارته يبعث الحياة فى مراكز السعادة الملتصقة به .. وهكذا يرتبط الجنس بالسعادة بلغة الطب والتشريح وحقائق العلم وليس فقط بعبارات البلاغة والإنشاء والتلميح والإشارة .. ويلعب الجنس – أيضا كما إكتشف الطب – دورا فى مواجهة الألم .. وإذا كان الإنسان قد إكتشف منذ زمن طويل جدا أنه ينسى كل أوجاعه الجسدية أثناء ممارسة الجنس .. فقد جاء الطب بتفسير واضح لذلك .. وهو مادة الأندروفينز التى ثبت أن الجسم يفرزها أثناء ممارسة الجنس .. وتشبه مادة الأندورفينز المورفين من ناحية تأثيرها على الجسم .. فيزول التوتر وأى إحساس بالألم .. بل ويمكن لتلك المادة أن تعالج أوجاع المفاصل .. وهناك دراسات جديدة فى نيويورك – لم يثبت بعد كامل صحتها – بأن هذة المادة تساعد على صنع خلايا أساسية تدخل فى تكوين الجهاز المناعى للجسم لتزداد قدرته على مقاومة كثير من الأمراض وعلى رأسها السرطان .. وفوق هذا كله .. ثبت بالواقع الفعلى أن الممارسة الصحيحة للجنس تزيد من التقارب بين الزوجين .. والدكتور حافظ يوسف يحكى لنا عن زوجة وأم لثلاثة أطفال [٥] لم تعرف نشوة الجنس إلا بعد سبع سنوات من الزواج .. وأنها منذ أن عرفت النشوة .. بدأت تعيش حياتها الزوجية الحقيقية وبدأت – على حد تعبيرها – تعز زوجها وتقدره .

ثبت أيضا .. أن الجنس لغة خاصة بين الرجل والمرأة .. هما الذين يختاران وحدهما مفرداتها ومعانيها .. ولعل القرآن الكريم هو الذى أعطانا مثل هذا الدرس البليغ حين كان الله بقادر على

---

(١) د. عبد الرحمن نور الدين – العلم والجنس – دار الهلال – ١٩٩٠
(٢) د. عبد المحسن صالح – مسكين عالم الذكور – دار الشروق – ١٩٧٩.
(٣) بول فريشاور – الجنس فى العالم القديم – دار للكندى – سوريا – ١٩٨٨.
(٤) ديريك جونز – أساسيات الولادة وطب أمراض للنساء – إى إل بى إس – إنجلترا – ١٩٨٠
(٥) د. حافظ يوسف – كيف تفكر المرأة – بدون إسم ناشر – ١٩٨٣

أن يعطى للقاء الجنسي بين الرجل وإمرأته صفة واحدة أو يعبر عنه بكلمة واحدة .. لكننا نقرأ في القرآن أكثر من صفة وأكثر من تعبير .. فالله يقول .. فالآن باشروهن .. ويقول .. أو لامستم النساء .. ويقول .. أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهم .. ويقول .. فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج .. ويقول .. ولا تقربوهن حتى يطهرن . أي أن التلاقي الجنسي - بالتعبير القرآني - يمكن أن يصبح هو المباشرة .. أو الملامسة .. أو القرب .. أو حتى الإلتصاق إلى درجة أن يكون الرجل والمرأة كل منهما لباس للآخر .. وهي ليست محسنات لفظية إو مجرد بدائل وإختيارات لغوية .. ولكنها دلالات وإشارات أزعم أننا لم نتوقف عندها طويلا ولم نعطها ما تستحقه من تأمل وإهتمام .. تماما مثلما لم نتوقف عند أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .. ومواقفه مع زوجاته .. وأرائه التي أدلى بها لصحابته .. والتي - مع النصوص القرآنية - أعطت الحياة الجنسية بين الزوجين ماكانت تحتاجه من مرونة وفاعلية ليؤدي الجنس دوره الذي ينشده ويحتاجه كل زوجان .. ويشير الشيخ رشيد رضا أن المقصود بالآية الكريمة التي تقول .. وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. هو أن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود .. وبين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس كالنصارى والهندوس (١) .. وهذا ما نلمسه بالفعل في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وفي حياته .. فهو الذي قال (٢) .. ليتهيأ الرجل لزوجه كما يحب أن تتهيأ له .. وإذا كان هذا الحديث يضفي على العلاقة الجنسية بين الزوجين قيمة أكبر بحيث يتهيأ ويستعد لها كل من الرجل والمرأة .. فإن الرسول لم يكتف بذلك .. وإنما عاد يؤكد أن إتيان الرجل إمرأته عمل ينال عنه من الله أجرا .. وأكد أيضا أنه ليس من اللهو أن يقوم الرجل بتأديب فرسه أو رمي قوسه أو ملاعبته أهله .. وهناك حكاية لها دلالاتها ومعانيها بطلها عثمان بن مظعون رضي الله عنه الذي (٣) أتى الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : يارسول الله إني لا أحب أن ترى إمرأتي عورتي .. فقال الرسول : ولم ؟.. قال عثمان : أستحي من ذلك وأكرهه .. فقال الرسول : إن الله جعلها لك لباسا وجعلك لها لباسا وأهلي يرون عورتي وأنا أرى ذلك منهم .. فقال عثمان : أنت تفعل ذلك يارسول الله ؟.. فقال الرسول : نعم.

وقد كان الإسلام حريصا على أن تسقط كل القيود والسواتر الوهمية والمزعجة بين كل وأي زوج وزوجة .. لدرجة أنه جعل القبلة لا تفسد صوما ولا تنقض وضوءا (٤) .. فقد قالت عائشة رضي الله عنها.. أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينال منها القبلة بعد الوضوء ثم لا يعيد الوضوء.. وقالت أم سلمة - إحدى زوجات الرسول - أنه كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يجدد وضوءا.. وتضيف فاطمة المرنيسي قيدا جديدا وحاجزا كسره الإسلام حين تشير (٥) إلى قيام الرسول عليه الصلاة والسلام بمقاومة السلوك الرهباني لسكان المدينة من اليهود الذين كانوا يرون المرأة محرما وهي في حالة الطمث .. فأمر الرسول رجال المسلمين بأن يأكلوا ويشربوا مع نسائهم.. ويشاطروهن الفراش .. ويأتون معهن كل شئ إلا الجماع.. وقالت أم ميمونة - إحدى إحدى زوجات الرسول - أنه كان أحيانا يتلو القرآن ورأسه على ركبة إحدى زوجاته وهي في الحيض.

---

(١) فهمي هويدي - القرآن والسلطان - دار الشروق - ١٩٨١

(٢) محمد بن أحمد التيجاني - تحفة العروس ومتعة النفوس - رياض الريس للكتب والنشر - لندن - ١٩٩٢

(٣) محمد يوسف الكاندهلوي - حياة الصحابة - مكتبة الدعوة الإسلامية - بدون تاريخ نشر

(٤) د. محمود بن الشريف - الحب في القرآن - سلسلة إقرأ - عدد ٩٦٤ - دار المعارف - ١٩٨١

(٥) فاطمة المرنيسي - الحريم السياسي - ترجمة عبد الهادي عباس - دار الحصاد - سوريا - ١٩٩٣

وبدلا من أن نتعلم من كل ذلك كيف نحيل الجنس وسيلة لمزيد من التقارب بين كل زوجين .. أحلناه إلى حرب ومواجهة وسباق مشحون بالتوتر والقلق وقنبلة ممكن أن تنفجر فى أية لحظة .. وفى كل بيت .. وبقدر ما تشارك الرجل والمرأة فى نزع فتيل هذة القنبلة الجنسية تحت فراشهما .. بقدر ما تعين عليهما أن يتقاسما الثمن والحساب وحصاد آثار إنفجار هذة القنبلة .

وقد كان عدم إشباع رغباتها الجنسية .. واحدة من أهم فواتير حساب المرأة والزوجة فى مصر .. وكثيرة ومتعددة هى الأسباب التى أدت إلى ذلك .. ويأتى على رأسها جهل الرجل المصرى بمشاعر وحقائق الجنس هند المرأة .. بداية من لحظات اللقاء الأولى التى يغفل فيها الرجل ويتجاهل عادة أية مقدمات غزلية حميمة وضرورية قبل ممارسة الجنس .. وحتى اللحظات الأخيرة التى يتخيل خلالها الرجل أن مهمته قاصرة على صب سائله المنوى فى مهبل المرأة .. مرورا بلحظات الممارسة نفسها والتى قد يتخيلها الرجل عملية ميكانيكية وآلية تتلخص فى دخول القضيب إلى المهبل وخروجه منه بشكل منتظم .. ولا يدرك الرجل أنه بقدر أهمية ذلك للمرأة .. بقدر ما هو مهم أيضا أن يتلامس الجسدان .. وأن تمتد أصابعه تتلمس وتتحسس جسد إمرأته قبل الجماع وبعده وأثناء ممارسته أيضا .. وذلك يرجع إلى أن المراكز الجنسية عند المرأة [1] .. أكثر تعددا وأوسع إنتشارا .. ولهذا يكون إرضاء المرأة جنسيا متشعبا يتم بأكثر من طريق .. وليس عن طريق المهبل فقط .. وفى واقع الأمر تغدو عملية إرضاء المرأة وإشباعها جنسيا عملية ليست سهلة وليست أيضا تتم بمحض الصدفة .. لكن يختصر الطب كثيرا جدا من كل تلك الصعوبات والتعقيدات حين يشرح لنا كل أسرار الجنس وممارسته بالنسبة للمرأة وكيف يمكن لكل رجل أن يسعد إمرأته وأن يرضيها أيضا .. ووفقا لما يقوله الطب [2] تنقسم الممارسة الجنسية عند المرأة إلى خمسة مراحل أساسية .. مرحلة الرغبة وتبدأ حين تتأثر المرأة بالحوار مع الرجل أو رائحته أو حين يغازلها أو يلمسها أو يقبلها .. ثم تبدأ المرحلة الثانية وهى مرحلة الإثارة .. وفيها تنتصب حلمتا الثدى الذى يزداد حجمه .. ويتسع المهبل وتصبح الشفرة الخارجية التى تغطيه أكثر ليونة وأقل سمكا نتيجة زيادة إحتقان الدم فى منطقة الحوض ويحدث تبادل فى سوائل خلايا الطبقة المبطنة للمهبل يؤدى إلى إفراز سائل يسهل دخول قضيب الرجل .. ثم تبدأ المرحلة الثالثة وهى مرحلة الإستقرار وهى المرحلة التى تحب فيها المرأة أن تشعر بقضيب الرجل فى قناة المهبل .. ونتيجة لحركة القضيب داخل المهبل ممكن أن تصل المرأة إلى درجة النشوة .. لكن الثابت أن أقل من نصف النساء يصلن إلى النشوة فى تلك المرحلة .. ولا حتى فى المرحلة الرابعة رغم أن إسمها مرحلة النشوة .. وإنما تصل المرأة لدرجة النشوة والإحساس بالرضاء عن اللقاء الجنسى فى المرحلة الخامسة التى نادرا ما يبلغها الزوجان فى مصر .. فالرجل يقذف سائله المنوى فى المرحلة الرابعة .. وغالبا ما يعتقد الرجل - فى مصر - بأن دوره قد إنتهى بذلك ويبتعد عن المرأة وفى إعتقاده أنه قد أدى ما عليه .. وما إكتشفه الأطباء بعد دراسات وأبحاث طويلة .. أن على الرجل الإبقاء على قضيبه - حتى وإن لم يكن منتصبا - داخل مهبل المرأة حتى يبدأ المهبل نفسه فى الإنقباض ليطرد القضيب خارجه .

وقد أشار رسول الله [3] إلى ذلك .. فقال عليه الصلاة والسلام : إذا جامع أحدكم أهله

---

(١) هنرى هافلوك إيليس - الجنس والزواج وفن الحب - ترجمة عبد الإله الكويتى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩١

(٢) ديريك جونز - أساسيات الولادة وطب أمراض النساء - إى إل بى إس - إنجلترا - ١٩٨٠

(٣) عبد الرحمن واصل - مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية - مكتبة وهبة - ١٩٨٤

فليصدقها ، فإن سبقها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها .. وقال أيضا : إذا جامع أحدكم أهله ، فلا يأتهن كما يأتى الطير فليمكث وليلبث .. وقال عليه الصلاة والسلام أيضا [١] : إذا جامع أحدكم أهله ، فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها كما يحب أن يقضى حاجته .. وفى كتاب إحياء علوم الدين .. نجد الإمام الغزالى يقول [٢] أنه من آداب النكاح التى حض الرسول عليها أنه إذا قضى الرجل وطره من الإنزال ، أن يمهل المرأة حتى تقضى أيضا هى وطرها ، فإن إنزالها قد يتأخر عنه ، فالقعود عنه إذ ذاك إيذاء لها .

وإذا كان محمد جلال كشك قد إكتشف أغنية مصرية [٣] ووجد فيها تلخيصا دقيقا لما تريده بالضبط كل إمرأة من رجلها .. وهى الأغنية التى تقول فيها شادية .. عليه صبر وطولة بال وعليه قوة تهد جبال .. فإن الطب بدوره أكد ذلك وسبقت إكتشافاته فى هذا المجال أغنية شادية بوقت طويل .. وأشارت الدراسات الطبية إلى أن بقاء الرجل - بعد القذف - ضرورى جدا لتبلغ المرأة النشوة .. فالمرأة حينئذ تحتاج لأن تشعر بقرب الرجل والتصاقه بها .. وقد تبلغ بذلك النشوة بعد خمسة أو عشرة دقائق .. وقد يطول بها الأمر لتبلغها أثناء نومها بعد ساعات قليلة عقب اللقاء الجنسى .. وقد لا تبلغها مطلقا إذا ما بقيت مفتقدة وجود الرجل إلى جوارها فى كل مرة تمارس فيها معه الجنس .. وإذا كانت هناك خمس بالمائة من نساء العالم لا يعرفن النشوة مطلقا طوال حياتهم [٤] .. وعشرة بالمائة من النساء لا يبلغن درجة النشوة الكاملة عقب كل لقاء جنسى .. فإن غالبية النساء لن يعرفن النشوة .. ولن يصلن إليها .. إلا بإحساس عميق وإرتباط أعمق بالرجل النائم إلى جوارها .. وهذا بالضبط هو ما لا يعرفه أو يلجأ إليه الزوج المصرى المشغول طول الوقت بنشاط عضوه التناسلى ذهابا وإيابا لأطول فترة ممكنة داخل مهبل إمرأته .. أو المهموم دوما بالوصول إلى أرقام قياسية لعدد مرات الجماع أثناء اللقاء الجنسى الواحد .. ثم يستدير لينام مغمض العينين معتقدا أنه قام بدوره وأدى ما عليه تجاه نفسه وزوجته .. وتبقى الزوجة غالبا وحدها تكتم همومها وحيرتها وشكواها .. وقد تدرك هذة الزوجة أن متاعبها إنما ترجع إلى متعة غائبة ونشوة ضائعة .. لكنها لا تستطيع الحديث عن ذلك بصوت عال إما خجلا أو خوفا أو لأن أحدا لن يسمح لها بذلك مطلقا من قبيل الحشمة والأخلاق والأدب والتهذيب .. وقد لا تدرك الزوجة سر ما تعانيه .. وإنما تذهب إلى أقرب طبيب تشكو أوجاعا والاما لا سبب عضوى أدى إليها ولا دواء حقيقى يشفى منها .. وإذا كانت هناك قلة من الزوجات عانين من ذلك .. فلم يطل صبرهن وذهبن إلى رجال آخرين يطفئون رغبات وشهوات عجز عن إطفائها الأزواج .. فإن غالبية الزوجات لم يبحن بشكاواهن لأحد .. ولم يفتشن عن رجل أخر بديلا عن الزوج .. وإنما إخترن الحل الوحيد الممكن والمتاح الذى هو .. *البرود الجنسى !.*

ولأنه من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - إجراء دراسة واقعية وعملية لقياس نسبة الزوجات المصريات اللواتى يعانين البرود الجنسى .. فلا بديل أمامنا إلا الإستنتاج وتطبيق ما يؤكده الطب وما يقوله العلم عن أسباب البرود الجنسى على واقعنا هنا فى مصر .

- فكما يقول الدكتور عبد الرحمن نور الدين أن أسباب البرود الجنسى تنقسم إلى أسباب

---

(١) محمد بن أحمد التيجانى - تحفة العروس ومتعة النفوس - رياض الريس للكتب والنشر - لندن - ١٩٩٢
(٢) أبو حامد الغزالى - إحياء علوم الدين - شركة ومكتبة الحلبى - ١٩٣٩
(٣) محمد جلال كشك - خواطر مسلم فى المسألة الجنسية - مكتبة التراث الإسلامى - ١٩٩٢
(٤) د. عبد الرحمن نور الدين - العلم والجنس - دار الهلال - ١٩٩٠

عضوية مثل عيوب خلقية فى الجهاز التناسلى للمرأة والإلتهابات الشديدة والشلل وتليف الأعصاب والإصابة بمرض السكر .. وأسباب إقتصادية كالإحساس بالمسئولية والقلق على إستمرار الحياة العائلية وإستقرارها .. وأسباب نفسية مثل التربية المتزمتة والإكتئاب النفسى والإنطواء وفقدان الثقة والشك والغيرة المدمرة والخوف من الحمل .. وأسباب جنسية تتمثل فى سوء الأداء من جانب الزوج أو عدم إختياره الوقت المناسب .

وقد أثبت العالمان ماسترز وجونسون (١) .. أن خمسة وتسعين بالمائة من أسباب البرود الجنسى هى فى حقيقتها أسباب نفسية ترجع إلى تربية خاطئة للفتاة التى تم تأجيل معرفتها بحياتها الجنسية إلى ما بعد الزواج .. ولا يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما يصب الأهل الرعب فى وعى هذة الفتاة من كل ما يتصل بالجنس .. مما يؤدى إلى ضعف إحساسها بالنشوة بعد الزواج

وإذا كان هنرى هافلوك أليس (٢) يؤكد أن البرود الجنسى للمرأة قد تحول إلى ظاهرة عالمية .. إلا أنه يورد أسبابا لذلك لا أراها تنطبق على نساء أوروبا أو الولايات المتحدة قدر إنطباقها على نساء دول الشرق مصر من بينها .. فهو يلخص هذة الأسباب فى أنها جهل عميق بالمسألة الجنسية .. وإحتشام أعمى لمجرد الإحتشام .. والبدء فى العلاقة الجنسية فى سن متأخرة وعلى نحو غير سوى أو سليم .. بل إنها تكاد تكون نفس قائمة الأسباب التى أوردتها الطبيبة الإماراتية الدكتورة فوزية الدريع (٣) فى دراستها لنيل درجة الدكتوراة عن علاج المشاكل الجنسية .

بعد هذا .. لن يعود من قبيل الوهم – أو المبالغة – الإشارة إلى أن نسبة كبيرة من النساء المصريات وقعن ضحية للبرود الجنسى .. بل وفى أحيان كثيرة .. كان الجنس يتحول عند الزوجة المصرية إلى تجربة مؤلمة وقاسية .. وتتعدد أسباب الجنس المؤلم ما بين أسباب جسدية وأسباب نفسية .. وهى تشمل – كما أكد ذلك مجموعة من الأطباء الأمريكيين (٤) – الإلتهاب المزمن أو وجود جرح فى قناة المهبل أو فى الأعضاء التناسلية الخارجية .. نقص هرمون الإستروجين الذى قد يسبب ضمور فى قناة المهبل .. أو ضمور يسببه العلاج بالآشعة .. أو جفاف فى قناة المهبل قد يحدث أحيانا بعد إستخدام أقراص منع الحمل لفترات طويلة .. أو تمزق بعض أربطة الرحم بسبب الحمل المتكرر أو التعرض لإغتصاب جنسى شرس .. جرح غير منتظم حدث أثناء الولادة .. أو معتقدات نفسية ودينية وأخلاقية نشأت عليها المرأة منذ الصغر .. أو غشاء بكارة تم فضه بوحشية أدى إلى تهتكات فى الجهاز التناسلى للمرأة .. والمشكلة أن المرأة قد لا تدرك – وهى غالبا لا تدرك – سبب أو تفسير مثل هذا الألم .. وإنما تتخيل أن زوجها هو مبعث هذا الألم أو أنه عاجز عن إسعادها جنسيا بالشكل الذى كانت تتمناه وهى تصغى إلى زوجات الآخرين يتحدثن عن تجاربهن الجنسية فى نشوة وفخار وإرتواء وكبرياء .

وبالرغم من كل هذا .. لم تقتصر فاتورة حساب الزوجة المصرية على جهل زوجها بطبيعة رغباتها وإحتياجاتها الجنسية وإصابتها بالبرود الجنسى بمشاكله النفسية والجسدية فقط .. أو الجنس الذى أصبح بالنسبة إليها .. تجربة مؤلمة بكل ما قد يصاحب ذلك من أوهام وأخطاء وأزمات وإنما قد تكون أكبر مشكلة جنسية تهدد الزواج فى مصر هى الجهل التام بالسن التى

---

(١) د. مدحت عزيز شوقى – الطب والجنس – كتاب الحرية – ١٩٨٥

(٢) هنرى هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٤/٨/٨

(٤) قواعد وممارسة طب أمراض النساء – مجموعة من الأطباء – ويللى للكتب الطبية – نيويورك – ١٩٨٢

تتضح فيها المرأة وتكتمل عندها إحساساتها ومشاعرها ورغباتها الجنسية .. فالفتاة المصرية تتزوج غالبا فى أواخر العشرينات من عمرها .. وهى لهذا تعيش أوج حياتها الجنسية فى تلك السن .. وبعد سنوات قليلة .. تخفت حدة الرغبة عند الزوج الذى - بحكم الواقع - لم يعد يكبر زوجته فى السن كثيرا .. أى أنه تجاوز الثلاثين ببضعة سنوات قليلة .. وهى السن جعلتها ظروف العمل والمجتمع فى مصر بداية أو قمة الطموح الوظيفى والإجتماعى .. فينتقل الجنس داخله من خانة الإثارة والرغبة إلى خانة العادة والواجب .. وهنا تكون المفاجأة التى يقدمها لنا علم الجنس .. فالمرأة لا تبلغ النضوج الجنسى إلا فى أواخر الثلاثينات أو أوائل الأربعينات .. وبعد أن تخوض المرأة تجربة - أو تجارب - الحمل والولادة .. تصبح الرغبة الجنسية لديها أكثر حضورا وأشد قوة وتأثيرا .. وفى سنة ١٩٨٠ .. قام ويلكوكس بدراسة (١) على تسعة وستين إمرأة متزوجة ينتمين إلى تلك المرحلة من العمر فإكتشف أن ثلثى هؤلاء النساء يرغبن فى ممارسة الجنس أكثر مما يحدث فى الواقع .. وكان الأديب والمفكر العربى الكبير والقديم .. الجاحظ .. قد سبق الطب وتجاربه حين أعلن (٢) أن المرأة .. إذا إكتهلت .. وبلغت حد النصف .. يزداد ميلها .. عكس ما يحدث للرجل .. وعكس ما يتخيله الرجل .

يجهل الرجل أيضا .. متى تزيد رغبات إمرأته الجنسية والوقت الذى تبدأ فيه تفتش عن الجنس .. وبعد عدة دراسات وأبحاث .. تبين أن أشد فترات إحتياج المرأة للجنس هما على الترتيب .. قبل الحيض مباشرة .. ثم فى أول يومين بعد إنتهاء الدورة الشهرية .. وليس من قبيل المفاجأة أن نكتشف أن هاتين الفترتين هما تحديدا الأيام التى يعف فيها الرجل على ممارسة الجنس مع زوجته إما لأنها تستعد لإستقبال دورتها الشهرية .. وإما لأنها - فى رأيه - تحتاج لبعض الوقت قبل أن تزول تماما آثار تلك الدورة .

وفى النهاية .. لا أتخيل أننى أبالغ إذا تخيلت خلاص الرجل من هذة التركة الثقيلة من الجهل وعدم الفهم .. قد أصبح اليوم ضرورة ملحة .. ولست أبالغ أيضا إذا إعتقدت أن معرفة الرجل بكل إحتياجات إمرأته وبالسبل التى تتيح له إسعاد إمرأته .. تدخل ضمن نطاق وصية الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع حين قال لرجال المسلمين : ألا وإستوصوا بالنساء خيرا .. فليس هناك خير يمكن للمرأة أن تناله من زوجها قدر خير إعفافها وإسعادها وإرضائها أيضا .. وإن كان ذلك لا يعنى مطلقا أن قنبلة الجنس فى كل بيت فى مصر .. كان الرجل هو الذى جاء بها إلى البيت .. وهو وحده الذى سوف ينزع فتيلها سواء بقصد أو غالبا بدون قصد .. وإنما أصبح الرجل مثله مثل المرأة .. مجرد ضحية لتلك القنبلة .. وبقدر ما لم يجد هذا الرجل من يشرح له أسرار جسد إمرأته ورغباتها .. بقدر ما عجز أيضا عن أن يفهم أسرار جسده ورغباته هو أو يدرك تفاصيل الجنس تحت جلده وفى عقله ووعيه ومشاعره .. وإذا كانت المرأة تتحول أحيانا إلى ضحية لزوجها .. فإن الرجل بالمقابل يبدو طول الوقت ضحية للتاريخ وتناقضاته وللجسد وغرائبه وللجنس وأسراره .. وأهم من ذلك كله .. يبقى الرجل دائما ضحية رجولته حين يختصرها كلها فى الجنس وفى والقدرة عليه .. وإذا أضفنا حقيقة أن الرجل هو الطرف الإيجابى الذى تقع عليه أعباء الحكاية كلها .. أمكننا حينئذ أن نتخيل مدى مساحة وقسوة هذا الهاجس

---

(١) د. عبد الحميد محمد عبد العزيز - هموم الرجال - كتاب اليوم الطبى - عدد ١٢٧

(٢) د. محمد حسن عبد الله - الحب فى التراث العربى - عالم المعرفة - الكويت - العدد ٣٦ - ١٩٨٠

الجنسى المقلق والمؤرق الساكن وجدان كثير من رجال مصر فى الليل والنهار .. فهم مهمومون دائما بقدراتهم الجنسية .. خائفون دائما ألا يسعدوا النساء والزوجات .. مشغولون طول الوقت بالبحث عن أية وسيلة لزيادة قوة إنتصاب القضيب أو زيادة زمن وجود هذا القضيب داخل مهبل المرأة حتى لا يتحولوا إلى ضحايا لظاهرة أو مأساة القذف المبكر .. وأنا أعرف رجالا كثيرين وأصغيت لهم طويلا يتحدثون عن الجنس وعن علاقاتهم مع زوجاتهم أو مغامراتهم مع زوجات الآخرين .. ولم أضبط أحدا منهم متلبسا ولو مرة واحدة بالحديث عن إستمتاعه بالجنس .. وإنما هى كلها حكايات عن كيف أسعدوا هم الزوجات والنساء .. كيف إستطاعوا ما لم يستطعه الآخرون .. وكيف بإمكان الواحد منهم أن يجامع المرأة مرة وإثنتين وخمسة أثناء اللقاء الجنسى الواحد .. كأن الجنس أصبح فى مفهوم الرجل المصرى ليس أكثر من إمتحان تعطيه المرأة بعده شهادة النجاح أو تبخل بها عليه .. كأنه سباق دائم ومحموم لا وقت فيه للراحة أو الإستمتاع أو البهجة أو الإسترخاء .. أو كأنه حرب مهلكة للفكر وللأعصاب والنفس والجسد يدفع ثمنها فى النهاية كل من الرجال والنساء معا .

ونتيجة لكل ذلك .. أصبح لدينا فى مصر – وبدون أى قدر من الوهم أو المبالغة – ثلاث قضايا أو أزمات قومية .. القضية الأولى. هى التفتيش طول الوقت عن حل أو علاج مناسب لسرعة القذف.. والقضية الثانية. هى الحفاظ على قوة الرجال الجنسية أى قدرة أعضاء ذكورتهم على الإنتصاب أقوى وأطول من أجل ممارسة أفضل وأكثر إمتاعا .. وأخيرا الإبقاء على رغبة الرجال أنفسهم فى ممارسة الجنس مشتعلة ومتأججة دائما .

وإذا كان العالم كله حتى اليوم لم يعرف أسبابا محددة لسرعة القذف .. فإنه على الأقل عرف الوقت المناسب الذى يجب أن يمضى قبل أن يقذف الرجل بسائله المنوى فى مهبل المرأة التى يجامعها .. وقد تكون مفاجأة لكثير من الرجال فى مصر – أولئك الذين ملأوا دنياهم صراخا وشكاوى من سرعة القذف – أن يعرفوا أن هذا الوقت لا يزيد عن دقيقتين أو ثلاث دقائق على الأكثر .. حقيقة علمية لا تقبل كثيرا من شك أو جدل أو مراجعة.. حقيقة ضمن حقائق أخرى كثيرة جاء بها الطب تشير كلها إلى أن الذكر يسبق الأنثى فى الوصول إلى النشوة.. فى الإنسان وفى الحيوان أيضا.. فالقرد على سبيل المثال يقذف سائله المنوى بعد عشرين ثانية فقط من ممارسة الجنس مع أنثاه.. لكن تحول الإنسان إلى إستثناء وحيد بعد أن حباه الله بالقدرة على التحكم فى الكثير من تصرفاته ومشاعره وعضلات جسده أيضا.. لكنها قدرة محدودة فى النهاية لم تستطع أن تزيد من تلك الثوانى القليلة إلى أكثر من دقيقتين أو ثلاث فقط.. ومع ذلك فهناك فى مصر من يطمح أو يطمع فى زيادة تلك الدقائق إلى خمس أو عشر دقائق أو حتى أكثر من ذلك.. لا لشئ إلا لأن هؤلاء يحملون فى رؤسهم وفوقها. أكواما من المعتقدات الخاطئة والكاذبة.. فكل واحد من هؤلاء يتخيل أن مهبل المرأة هو أشد أجزاء جسدها حساسية للجنس.. ولهذا يريد الإبقاء على قضيبه داخل هذا المهبل أطول فترة ممكنة من أجل أن تصل المرأة إلى النشوة.. وليس هذا صحيحا لأن المرأة تعرف النشوة بشكل آخر وتصلها عن طريق مختلف تماما.. ولأن المهبل أصلا لا يشكل إلا تسعة بالمائة فقط من إحساس المرأة بالجنس وبالإستمتاع به.. أو لأن كل واحد منهم يتخيل أنه من الضرورى أن يصل الرجل وأنثاه إلى النشوة فى نفس اللحظة.. وليس هذا صحيحا أيضا.. فالرجل ـ مهما تعددت وكثرت محاولاته ـ سيصل إلى النشوة قبل

الأنثى .. وبغير ذلك كله فالجنس - كما سبق وأوضحت - ليس مطلقاً عملية ميكانيكية تعتمد كلها على حركة قضيب مستمرة دون توقف داخل المهبل .. وإنما هو عملية إنتماء وتواصل حميم بين زوجين أكثر منها بين جسدين .. وكل ذلك بالطبع غائباً عن الرجل المصرى الذى لا يريد إلا القضيب والمهبل .. وليس على إستعداد لأن يتقاسم مع إمرأته هذا الود والقرب والتواصل والإستمتاع .. وإنما هو يريد أن يثبت لها فى كل مرة أنه الوحيد القادر على إمتاعها وإشباعها .. وأنه الأقوى فى الفراش من كل الرجال الآخرين والأكثر فحولة أيضاً .. وكأنه يفترض أن زوجته تمت إحاطتها علماً أو قامت هى نفسها بقياس رجولة وفحولة الآخرين .. وإنما هى حكايات تتناقلها الزوجات فيما بينهن مثلما يتناقلها الرجال .. وليس هناك ميدان أو مجال للحديث يغرى بالكذب والخيال قدر الجنس والفراش .. فالكل يكذب .. والكل يتفاخر بما لا يملكه أو يستطيعه فى الواقع .. وكانت النتيجة أن نصف رجال مصر على الأقل باتوا على يقين وقناعة كاملة بأنهم مصابون بسرعة القذف .. وإن كان ذلك لا يعنى أن هناك رجالا مصابين بالفعل بسرعة القذف .. فهناك رجل ما أن يضع قضيبه فى مهبل إمرأته حتى يقذف بسائله المنوى .. وهناك رجال مهما جاهدوا واجتهدوا يعجزون فى كل مرة عن إكمال ممارسة الجنس لأكثر من دقيقة واحدة .. وهى ظاهرة عالمية وليست قاصرة فقط على بعض الرجال فى مصر .. وقد حاول العلم البحث عن أسباب محددة وواضحة لذلك دون جدوى .. فقد ثبت أن إلتهابات البروستاتا ليست مسئولة عن سرعة القذف .. ولا ثبتت أيضاً صحة مزاعم بعض علماء النفس حين أرجعوا سرعة القذف إلى الإحساس بالذنب تجاه الجنس والشعور العميق غير الواعى بأنه خطيئة حتى وإن سمح بها الزواج .. أما أحدث دراسات الطب فقد أشارت إلى أن سرعة القذف سببها ممارسة الجنس فى بدايات العمر والمراهقة فى مناخ يشوبه القلق والخوف والتوتر .. كأن يمارسه المراهق فى أماكن مهجورة أو مظلمة أو داخل سيارة أو مع عاهرة يريد الخلاص منها بسرعة .. وكلها عوامل تجبر المراهق على سرعة القذف حتى يتخلص من كل ما يشعر به من خوف .. فإذا جاءت اللحظة التى بإمكانه أن يمارس فيها الجنس دون خوف أو توتر .. كانت سرعة القذف قد أصبحت عادة أو طبيعة لا يمكنه الخلاص منها .

ولست أعتقد أن كل ذلك صحيح.. من الناحية العلمية والجسدية والنفسية.. على الأقل فى مصر .. فليس كل من يشكو من الرجال المصريين من سرعة القذف لهم تجارب جنسية سابقة معجونة بالخوف والتوتر .. ولا إعتاد معظمهم فى سنوات المراهقة أن يمارس الجنس فى مناطق مهجورة أو مزدحمة ومظلمة أو مضيئة أو فى سياراتهم ولا هم عرفوا أبواب العاهرات ومعاشرتهن .. وإنما هم فوجئوا بكل ذلك فى أول ممارسة للجنس وبعد إتمام الزواج .. وأيا كانت الإجتهادات أو الإحتمالات.. فنحن لا نعرف سبباً لسرعة القذف ولا نعرف له علاجا أيضا .. اللهم إلا بعض المحاولات التى تنصب أساساً على تقوية العضلات القابضة فى قضيب الرجل لتمنع خروج السائل المنوى دقيقة أو دقائق إضافية .. ومن تلك المحاولات كانت إقتراح العالمان ماستر وجونسون[1] اللذين إبتكرا أسلوبا أطلقا عليه إسم عصر القضيب.. ويتلخص فى أن تستثير الزوجة رجلها بينما تمسك بقضيبه فى يدها .. وحين يوشك الزوج أن يقذف بالسائل المنوى..

---

(١) تيم ويفرلى لاهاى - قانون الزواج - زوندرفان للنشر - لندن - ١٩٩١

تضغط الزوجة بأصابعها على القضيب فى قوة لخمس ثوان.. ثم تنتظر إلى أن يزول إنفعال الزوج لتعود وتكرر الأمر من جديد طيلة خمسة عشر أو عشرين دقيقة .. وهكذا يمارس الزوجان مثل هذا التدريب خمسة عشر يوما حتى يكتسب الزوج بعض القدرة على التحكم فى عضلات القضيب.

ومع ذلك .. فلست أعتقد أن مثل هذا الأسلوب يلائم كثيرا من الأزواج والزوجات فى مصر .. ولن تجد زوجة رجلا يسمح لها بأن تمارس معه هذا الأمر .. ولن يجد الزوج إمرأة تطيعه إذا أراد ذلك .. ويمكن الإستغناء عن هذا الأسلوب بطريقة أخرى يلجأ إليها الأطباء المصريون أحيانا مع مرضاهم .. ويمكن للرجل أن يمارسها منفردا أثناء التبول .. فيمسك قضيبه بيده ويضغط عليه ليمنع خروج البول .. ثم يعود ويسمح بخروج كمية قليلة من البول قبل أن يمسك به ويضغط عليه من جديد .. وهكذا فى كل مرة يمارس الرجل فيها التبول حتى يشعر أنه أصبح قادرا على إطالة فترة ممارسته للجنس .

وإذا كان بحث الرجل عن مزيد من القوة الجنسية ليس بالأمر الجديد علينا هنا فى مصر .. وإنما هو مشكلة عرفناها وعايشناها فى كل وقت وفى كل عصر .. ونصف تاريخنا على الأقل شاهد على الهوس الدائم بكل ما يمكنه أن يعيد الشيخ إلى صباه ويرد للرجل قدرته وقوته حتى وإن لم يفقدهما مطلقا .. إلا أن تلك المشكلة بلغت مداها وبلغ بنا هوس البحث عن القوة والقدرة الجنسية منتهاه فى سنواتنا الأخيرة .. وباتت هناك للمقويات والمنشطات الجنسية سوقا حافظت طول الوقت على رواجها وإزدهارها ولم تشك مطلقا كسادا أو بوارا .. وإنما أصبح عدد زبائنها يتزايد أو يتضاعف يوما بعد يوما .. ومن المؤكد أن ذلك كله لم يكن ليجرى بمحض الصدفة .. وإنما كان هناك أكثر من سبب ومبرر لكل هذا الذى جرى .. فقد كان لابد وأن يسفر سباق الوهم والقدرات الجنسية الخارقة وغير الطبيعية أو الضرورية عن ضحايا فى آخر الطريق .. فسقط رجال كثيرون – طبيعيون وأصحاء وقادرون – ضحية كل هذا الوهم فأضحوا يفتشون عن قوة هم يملكونها بالفعل وعن قدرة هم ليسوا أصلا فى حاجة لها .. والأهم من ذلك كان أولئك الذين عانوا بالفعل من ضعف حقيقى وقدرة على الجنس بدأت فى التآكل بالفعل نتيجة عوامل وأسباب كثيرة قسمها الطب إلى أسباب عضوية وأخرى نفسية .. الأسباب العضوية هى تعاطى بعض الأدوية وإدمان الكحوليات والإسراف فى التدخين والإصابة بمرض السكر وإصابات الجهاز العصبى وكل ما يؤدى إلى قصور فى الدورة الدموية داخل قضيب الرجل مما يؤدى إلى عجز القضيب عن الإنتصاب .. وهى – فى معظمها – مشاكل بدأ الطب يقدم لها اليوم (١) علاجا محددا ومجديا .. سواء كان العلاج بأقراص اليوهيمباين المستخرجة من لحاء بعض الأشجار الأفريقية .. أو الحقن فى القضيب بإحدى مشتقات البروستاجلاندين فينتصب القضيب بعد الحقن بربع ساعة ويدوم الإنتصاب خمسة وأربعين دقيقة .. أو العلاج بالهرمونات .. أو إستخدام جهاز الشفط الذى يوضع فوق القضيب وبه مضخة تملأ القضيب بالدم لينتصب .. وهناك أيضا تلك الجراحات الجديدة لزرع قضيب جديد من أنواع مختلفة تتراوح من القضيب المنتصب إلى القضيب المرن .

وإذا كان من السهل علاج الأسباب العضوية أو التعامل معها على الأقل .. فإن الصعب جدا

---

(١) مجلة ماصل أند فيتنس – نيويورك – ١٩٩٤/٤/٦

هو علاج أو مواجهة الأسباب النفسية التى تؤدى إلى الضعف الجنسى أو عدم القدرة على الإنتصاب .. فهذة الأسباب النفسية هى بإختصار .. القلق والتوتر والإكتئاب .. وهى – بمنتهى الأسف – العوامل والأسباب التى إزدهرت وإنتشرت فى أرجاء مصر كلها طيلة العشرين عاما الأخيرة .. فليس من قبيل المبالغة التأكيد على أن الحياة فى مصر أصبحت فى مجملها مستودعا للقلق .. البحث عن اللقمة والسقف ثم الحفاظ عليهما من أجل الصغار جعل الحياة كلها وبكل تفاصيلها معجونة بالخوف والتوتر والحيرة والعذاب .. فبدأ رجال كثيرون – نتيجة كل هذا – يشعرون أحيانا بعدم قدرتهم على ممارسة الجنس أو يشكو الرجل منهم وجود الرغبة وتأججها لكن يعجز قضيبه عن إتمام الإنتصاب .. ومع أن العلاقة بين القلق والتوتر والإكتئاب كبداية وبين الفشل الجنسى فى النهاية قد أصبحت حقيقة أثبتتها وأكدتها تجارب ونظريات العلم .. إلا أننا فى مصر لا نزال على نفس إصرارنا القديم بقلب الحقائق .. لا نزال على خصامنا المعتاد مع العلم ومع المعرفة .. لا نزال نتخيل أن الرجل .. حين يعجز عن الممارسة الجنسية أو يشكو عدم أو ضعف الإنتصاب .. يصاب بالقلق وينتابه التوتر ويغلبه الإكتئاب .. ولهذا لا نكترث ولا نسعى إلا إلى علاج الضعف الجنسى وليس علاج القلق والتوتر والإكتئاب .. ونغدو كمن قرر فجأة الإبتعاد عن شاطئ آمن ليتوغل فى بحر غاضب تفيض مياهه بالمغامرة والمخاطرة وهو قبل كل هذا لا يعرف السباحة ولا يجيدها .. فكان أن نزل كثيرون منا إلى بحر المنشطات والمقويات الجنسية الذى ليس له نهاية أو اخر .. كثيرون أصبحوا على إستعداد للبحث والتفتيش عن هذة المقويات والمنشطات بأى ثمن أو مقابل .. فى السر أو العلانية .. فى عيادة طبيب أو دكانة للعطارة أو حتى فى بيت صديق أو فى أحد مقاهى الأرصفة والطرقات .. يسعون خلف عشرات الأقراص والسوائل والأعشاب والحبوب والدهانات التى بإمكانها أن تزيد من قدرتنا على الجنس .. أدوية تجئ من أوروبا والولايات المتحدة أو جنوب شرق آسيا .. وأخرى تبيعها مصر على أرصفة الطرقات وفى دكاكين العطارة .. فالكل يريدها .. الأغنياء والفقراء .. الكبار والصعاليك .. من بإمكانه الإستغناء عنها ومن بات فى حاجة إليها بالفعل .. ولأن ذلك كله يجرى بعيدا عن أية رقابة علمية وطبية .. فقد تحول الأمر فى النهاية إلى واحدة من أكبر عمليات النصب التى يتعرض لها الرجل فى مصر .. إلى سوق للوهم أغرى الكثيرين هنا أو هناك بالمغامرة والتجارة سعيا وراء ربح ضخم بلا أى جهد أو مشقة .. حتى الدكتور مصطفى محمود .. لم يتردد فى الذهاب إلى هذا السوق .. وأعلن عن حقنة إعادة الشباب التى يتعاطاها الرجل فيسترد قوته وعافيته ورجولته أو يكتسب المزيد من القوة والقدرة .. فكان أن شد الكثيرون رحالهم إلى مسجد الطبيب الشهير فى حى المهندسين .. وإنزعج أطباء كبار من ذلك الذى يجرى فحاولوا تحذير الناس لكن ضاعت تحذيراتهم ومخاوفهم أمام تيار جارف. لا يفتش إلا عن الرغبة والقوة فى الفراش مهما كان الثمن .. ولم يقتصر الثمن على مجرد جنيهات كثيرة أو قليلة تخرج من جيب الرجال .. وإنما سيعرف الكثير منهم فيما بعد أن رجولتهم نفسها كانت أحيانا هى الثمن .. فكل تلك الأدوية المستوردة والوصفات الشعبية والمحلية تخصم من رصيد الرجل من القدرة والقوة الجنسية بدلا من أن تضيف إليه لكن لا أحد يعرف .. ومن يعرف ليس على إستعداد لأن يهتم .. ووزارة الصحة(١) أعلنت أن كل هذا الذى يجرى هو مسئولية وزارة التموين .. ووزارة التموين القت بالمسئولية كلها

(١) مجلة روز اليوسف – ١٩٩٤/٦/٢٠

على عاتق شرطة المرافق.

جرى ذلك وكله .. ونحن نحافظ على عهدنا ووعدنا القديم بألا نعرف أو نفهم أو نتعلم .. ولا أن نرى الحقائق كما هى بالفعل وليس كما نحب أن نراها .. ولا أن نخاصم كل ما ساعد على تشويه أفكارنا الجنسية والقى بنا فى بحر عميق من الأوهام والخرافات .. ولعل الربط الجنسى هو أشهر تلك الخرافات .. الربط الجنسى بمعنى إعتقاد الرجل وقناعته بأنه عاجز عن ممارسة الجنس وأن قضيبه عاجز عن الإنتصاب بفعل فاعل .. بفعل السحر أو إدعاءات المشعوذين والدجالين الذين يزعمون قدرتهم على إصابة قضيب أى رجل بالشلل .. والذى لا يعلمه الكثيرون أن تلك الخرافة أو الظاهرة .. لم تولد فى مصر إلا لتبرير الفشل أو العجز عن ممارسة الجنس .. فحين إشتدت وطأة الحياة فى مصر - فى الريف بصورة خاصة - بعد تعاقب طغاة وغزاة ومستعمرين ومظالم وأزمات من كل نوع وصوب .. وباتت مساحة الجنس تتزايد تحت جلد الجميع وأصبح للقدرة على ممارسة الجنس معنى يكاد يكون إختصارا للرجولة كلها .. لم يعد ممكنا حينئذ أن يتخيل أى رجل أنه فقد قدرته على الجنس نتيجة مرض أو قلق أو ضعف أو توتر .. وإنما ليس أقل من مؤامرة قام بها من لهم قدرات خاصة سحرية هى التى أفقدت الرجل رجولته وقدرته .

ولأنه كلما إشتد حولنا حصار القلق والتوتر .. كلما زادت مساحة الضعف والفشل الجنسى .. فقد أصبح هناك كثير من الرجال على إستعداد لمسايرة خرافة الربط الجنسى حتى آخر مداها .. كثير من الرجال صدقوا أن فشلهم يرجع إلى مثل تلك المؤامرة الخارجية .. فكان أن راحوا يفتشون عن حلول لدى أصحاب الخرافات والمشعوذين والدجالين .. والذى يدعو للأسف أن ظاهرة الربط الجنسى بدأت مؤخرا تزحف من الريف إلى سائر مدن مصر .. وكأن هذة المدن تعود إلى الوراء وترتد إلى ريفيتها حتي وإن إزدحمت شوارعها وجامعاتها وفاضت بكل مظاهر التقدم والحضارة .. ويحكى الدكتور جمال ماضى أبو العزايم (١) عن زميل له - طبيب نفسى - إستقبل فى أسبوع واحد مائة رجل كلهم ضحايا لظاهرة الربط الجنسى .. ويضيف الدكتور جمال أبو العزايم مشكلة جديدة إلى قائمة مشاكل الرجل الجنسية فى مصر .. ويؤكد أنها مشكلة شهيرة تعرفها معظم العيادات النفسية .. مشكلة الشاب أو الرجل النشيط جنسيا قبل الزواج والمتبلد الحس بعد الزواج .. تبلد بمعنى فقدان الرغبة فى زوجته .. ومن ثم يكون الفشل الذى ينتهى بالطلاق أو بالرجل فى عيادة الطبيب .. وهناك بالقطع تفسير لذلك .. فالجنس قبل الزواج غير الجنس بعد الزواج .. لأن الجنس قبل الزواج ينقصه الكثير من الحياء ومن الخجل .. أما بعد الزواج .. فإنه لقاء بالغ الحساسية والتعقيد بحيث تتعامل معه الزوجات وكأنه الواجب الثقيل الدم الذى ستسعى كل منهن للهرب منه فإن لم تنجح فى الهرب - أو كانت هى نفسها التى تريده - فإنها ستمارسه وهناك الف قيد يمنعها من أن تكون نفسها بتلقائيتها وبحرية التعبير عن كل مشاعرها وإرتجافاتها .. فيتخيل الرجل أن إمرأته باردة جنسيا أو هى على الأقل لا تريده ولا تستمتع بالجنس معه .. وسرعان ما يتخيل الرجل أنه وحده المسئول عن ذلك .. هو الذى فشل وهو الذى فقد قدرته وطاقته القديمة وأصبح عاجزا عن إسعاد زوجته أو أية إمرأة أخرى فى العالم. وفى واقع الأمر .. تنسى المرأة دائما أن الجنس داخل مؤسسة الزواج حلال وليس فيه ما يدعو للخجل أو الإحساس بالعار أو الإمتهان .. تنسى المرأة أيضا أنها ليست جالسة فى أحد

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠

المسارح تستمتع بمشاهدة زوجها على خشبة المسرح يقوم بكل شئ .. وليس عليها إلا أن تصفق إذا أجاد أو تلعنه إذا أخطأ .. فهذة المرأة لا تعرف أن الرجل هو الأضعف .. وهو الذى يبلى أسرع .. وعليها لذلك أن ترعاه وأن تعاونه .. لا تضغط عليه إلى حد الإسراف وإستنزاف رصيده الباقي من الرجولة والقوة .. ولا تتجاهله وتتجاهل رغباته إلى حد أن تتركه وحده يواجه أوهاما وخيالات نفسية قاسية ومضللة يزداد عذابها كلما زاد تجاهل الزوجة حتي ينتهى الأمر بالزوج لأن يرفع الراية البيضاء ويستسلم للضعف والعجز والفشل .

وهكذا .. وكعادتنا مع كل أزمة أو مشكلة .. نتخيل أو نتوهم دائما أن النسيان هو الحل .. هو الدواء .. هو الخلاص .. حتى وإن كانت المشكلة هذة المرة هى الجنس .. الجنس الذى أحلناه فى كل بيت إلى قنبلة .. ثم قررنا أن ننزع فتيل القنبلة .. ثم أردنا بالنسيان أن نهرب من لحظة الإنفجار .. ثم إكتشفنا أن القنبلة إنفجرت بالفعل فى بيوتنا .. فى وجوهنا وتحت أقدامنا وخلف أبوابنا .. وإنتثرت أشلاء وثياب وشرف وكبرياء كثير من النساء وكثير من الرجال أيضا .. وبات الواقع فى مصر يملك أكثر من دليل.. على قسوة هذا الإنفجار .. على معدلات جرائم الخيانة التى – نتيجة كل هذا الجهل والخوف والتوتر فى كل بيت – زادت أو تضاعفت .. ومع ذلك بقينا نرفض أو نخجل أو نخاف من الحديث عن ذلك .. كأننا إتخذنا جميعا قرارا سريا – تعاهدنا سويا على الإلتزام به والحفاظ عليه – بأن نستفيض فى الحديث عن كل الجرائم .. القتل والإغتصاب والسرقة والرشوة والفساد وإستغلال النفوذ .. إلا الخيانة والزنا .. كأن هذة الجرائم الأخرى كلها قابلة للتداول والنقاش والبحث والتأمل والحوار والمراجعة .. لكن الخيانة والزنا لا .. مع أن المجتمع المصرى بكل تراثه الدينى والثقافى والحضارى والإجتماعى قادر على أن يتفهم ويغفر أية جريمة أخرى إلا الزنا .. الجريمة التى بقيت وحدها تهز مصر .. ولا تتحدث عنها مصر !.

بقيت مصر لا تستطيع – أو لا تريد – الحديث عن زوجة .. أو أكثر من الف زوجة .. كلهن تعرين وسقطن وفقدن أية قدرة على الصبر أو المقاومة .. زوجات تجاهل الأزواج مشاعرهن ورغباتهن وإحتياجاتهن .. وإشتد حولهن حصار الجنس والصمت والقهر .. ولا تستطيع أيضا الحديث عن زوج .. أو أكثر من الف زوج .. فقدوا بدورهم أية قدرة على الصبر أو المقاومة .. وراحوا يفتشون عن رجولتهم وقدراتهم الجسدية والجنسية عند نساء أخريات بعيدا عن زوجاتهم وعن بيوتهم .. وجرى ذلك كله بالطبع بمعاونة ومساندة هذا الجهل الذى عشش فى كل البيوت .. وهذا الخوف الذى إستوطن الفكر والعقل والروح .. بالإضافة إلى الهوس الإستهلاكى والمعاناة الإقتصادية والتقلبات الإجتماعية الحادة والقاسية التى بقيت طول الوقت تحكم قبضتها على القلوب والعقول والأحلام والنوايا فى الشارع وفى البيت المصرى .. وغير ذلك كله. كان هناك – وفقا لشهادة الدكتورة محاسن على حسن [1] أستاذة الجامعة – البعد عن الدين وإنهيار القيم والأخلاقيات والمثل والذى أدى إلى غياب الإيمان العميق وخفوت صوت الواعز الدينى .

ومع أن القنبلة .. بالفعل إنفجرت فى بعض البيوت .. إلا أن ذلك ليس مبررا لأن ننسى أو نصمت .. ولا هو مبرر لأن نتحدث عن هذا الذى جرى بصيغة الذى كان والذى مضى .. فهناك بيوت كثيرة بعد لم تنفجر قنابلها .. وهناك أبرياء هنا أو هناك ليس من الضرورى أن ينضموا غدا إلى قائمة الضحايا .. وهناك مخاوف ومواجع ورغبات حبيسة النية والوجدان ليس من الإنصاف

(١) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٨٨/٦/٢٦

ولا هو من العدل تجاهلها وإهمالها .. وهناك من بات علينا جميعا عدم الإصغاء إليهم .. أولئك الذين سينظرون إلى ماضى مصر القريب والبعيد .. وسيلتقطون من هنا وهناك دليلا أو أكثر على أن الزنا فى مصر .. جريمة ممكنة وواقعة فى كل عصر .. فلماذا إذن هذا الحديث وهذا الصخب عن زنا الثمانينات والتسعينات وكأنه قنبلة ستنفجر غدا .. أو كادت تنفجر اليوم .. أو إنفجرت بالفعل يوم أمس .

وهذا بالضبط .. هو الحق الذى يراد به الباطل .. فأما الحق فهو أن الزنا وجرائم الخيانة والسقوط كان لها دائما مكانها على ضفاف النيل .. بل وهناك عصور بعينها كاد فيها الجنس أن يغدو قنبلة تطيح بالبيت وإستقراره وأصحابه .. هكذا تؤكد كتب التاريخ وهكذا تنطق حكاياته .. وأما الذى هو باطل .. فهو أنه لا فرق هناك بين الذى جرى بالأمس وبين الذى يجرى اليوم أو سيجرى غدا .. ولكى نستطيع أن نكتشف زيف ذلك وأن نلمس هذا الفارق بعيوننا وأصابعنا ووعينا .. فإن البداية يجب أن تكون هى الماضى لا الحاضر أو المستقبل .. ويؤكد هذا الماضى أنه منذ أن وجدت مصر .. وتأسست الدولة المصرية قبل ميلاد المسيح بأكثر من ثلاثة الاف عام .. والمصريون يعتبرون أية علاقة جنسية للرجل أو المرأة خارج علاقة الزواج بمثابة خطيئة دينية كبرى .. ومع حرص المصريين الأبدى على دوام علاقة الزواج والإبقاء عليها بكل وسيلة ممكنة .. إلا أن الزنا كان الحالة الوحيدة التى معها لا يدوم أى زواج ولا يبقى .. وقد بلغ من تحضر المصريين القدماء أن لم يجدوا فارقا بين أن تزنى الزوجة أو أن يزنى زوجها .. لا نجد فى قاموسهم فارقا بين خيانة الرجل وبين خيانة المرأة .. فالخيانة هى الخيانة .. والزنا هو الزنا .. ومن حق المرأة التى تكتشف خيانة زوجها لها أن تطلب الطلاق .. ومن حق الرجل أيضا أن يأمر زوجته بالخروج من داره [1] إذا زنت دون أن يكون لها أية حقوق عنده أو عليه .. وكانوا يشترطون ذلك فى عقود الزواج .. ونقرأ فى أحد تلك العقود عبارة يقول فيها الرجل للمرأة التى سيتزوجها : إن وجدتك مع رجل آخر فلن أستطيع أن أقول بعد ذلك أنك زوجتى !.

كان الرجل المصرى .. الجاد جدا .. الغيور جدا .. الوقور جدا .. لا يغضب ولا يثور إلا حين يكتشف خيانة زوجته .. لكنه بالمقابل لا يخون .. وكان يحب أن يقف أمام أرباب الحساب فى الآخرة يقول [2] : لم أرتكب الفاحشة مع إمرأة ولم أقترف ما يدنس عرضى ولم أرتكب خطيئة تدنس نفسى داخل معبد إله المدينة الطاهر .. وكان عقاب الزانى هو الجلد الف جلدة .. وعقاب الزانية هو قطع أنفها لتكون عبرة وللقضاء نهائيا على جمالها وفتنتها التى أثارت بهما الرجال .. وهناك دراسات أخرى تشير إلى أن عقاب الرجل والمرأة كان واحدا .. هو الإلقاء فى الحطب والحرق بالنار .. وعلى الرغم من كل هذا التشدد وهذة الصرامة .. فقد كانت هناك بالقطع حالات زنا وخيانة وسقوط .. فقد عرفنا مثلا [3] أن زوجة تشريفاتى فى البلاط كانت تخونه مع شاب حديث السن .. وزوجة أحد كهنة رع كانت أيضا تخون زوجها وأنجبت ثلاثة أولاد غير شرعيين إدعت فيما بعد أن الإله رع بنفسه هو والدهم لأنه أراد إنجاب ثلاثة ملوك أنقياء يحكمون مصر .

وقد تغيرت مصر بمرور سنة بعد أخرى .. ومجئ فرعون بعد آخر .. ثم مستعمر بعد آخر ..

---

(١) ول ديورانت – قصة الحضارة – الجزء الثانى – جامعة الدول العربية – ١٩٧١

(٢) د. عبد العزيز صالح – الأسرة المصرية فى عصورها القديمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨

(٣) عبدالله إمام – صفحات من تاريخ المرأة المصرية – الكتاب الذهبى – ١٩٨٧

وتغير الكثير من تفاصيل الحياة اليومية والإجتماعية والأخلاقية .. إلا الزنا.. فقد بقى جريمة وخطيئة أيضا .. وحتى نهاية العصر الفرعونى وإلى ما قبل ظهور المسيحية بوقت قليل .. بقى الزنا جريمة عامة يتعامل معها الناس وعلى أنها تشكل تهديدا للمجتمع كله [1] وليس لمن يرتكبها أو لضحيتها فقط .. ولهذا لم تكن هناك حاجة إلى شكوى من المتضرر منها لتنعقد المحاكمة مثلما هو الحال مع الجرائم الأخرى كالغش والسرقة والشهادة الباطلة .. وكان الزنا يخضع لقانون الدولة وليس لقضاء العائلة .. حتى كان الإحتلال الرومانى لمصر .. وكل الغرباء الذين جاءوا بعد الرومان .. حيث إضطرت مصر لأن تتحدث بأكثر من لغة .. وتدين بأكثر من دين .. ولكل لغة كانت هناك دلالات ومعانى تختلف .. ومع كل دين.. كانت تتبدل وتتغير القوانين وكثير من القواعد والأحكام الأخلاقية .. إلا قواعد وأحكام الزنا .. ففى الديانة اليهودية .. كان الزنا [2] يعد جريمة كبرى لأن من يرتكبها يعتدى على حرمة وملكية رجل آخر .. وفى العهد القديم نقرأ أنها ليست من نساء إسرائيل كل من تزنى .. وفى الديانة المسيحية .. كان الزنا إحدى الخطايا الكبرى .. ودعا بولس الرسول كل المسيحيين [3] لأن يهربوا من الزنا مؤكدا لهم أن كل خطيئة يفعلها الإنسان هى خارجة من الجسد أما الذى يزنى فهو يخطئ إلى جسده .. وساعد ذلك كله مصر التى – دون أى تجاوز أو تجنى أو مبالغة – إستماتت فى الدفاع عن أخلاقياتها وعفافها .. وقد إستطاعت ذلك بالفعل معظم أوقاتها وعصورها .. وفى المقابل فشلت فى الحفاظ على تلك الأخلاق والعفة بعض أيامها .. وخاصة كلما دق بابها مستعمرون وغزاة جدد فتفقد بهم مصر القدرة على المقاومة ولا يعود هناك ما يمنع الرجال والنساء من الخروج على كل قوانين السماء والأرض .

وحين أسلمت مصر .. وإستقر إسلامها .. بات واضحا أنها إستراحت أخيرا من كل تناقضاتها التاريخية والإجتماعية والأخلاقية .. بعدما تبين لها أن لا خلاف ولا إختلاف بين ما كانت تعتقده وتراه فى جريمة الزنا وما تمارسه من عقوبات ضد مرتكبيها .. وبين ما جاءت به تعاليم شريعة الإسلام .. فالإسلام الذى كان أكثر دين تفهم الجنس وإعترف به وبالعلاقة بين الرجل والمرأة ورد إليها إنسانيتها .. إلا أنه أبدا لم يتسامح ولم يتساهل مع جريمة الزنا .. ففى القرآن قال الله سبحانه وتعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا [4] .. وقال أيضا : ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون [5] .. وقال أيضا : يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين [6] .. وقال أيضا : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة [7] .. وجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال [8] : يا معشر المسلمين إتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، فأما التى فى الدنيا فذهاب بهاء الوجه ، وقصر العمر ، ودوام الفقر ، وأما التى فى الآخرة فسخط الله تبارك وتعالى ، وسوء

---

(١) د. عبد الرحيم صدقى محمد حسنى – القانون الجنائى عند الفراعنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥
(٢) د. صموئيل حبيب – المرأة فى الكنيسة والمجتمع – دار الثقافة – ١٩٨٨
(٣) د. سهير حبيب – الجنس فى الحياة الزوجية – دار الثقافة – ١٩٩١
(٤) قرآن كريم – سورة الإسراء – الآية رقم ٣٢
(٥) قرآن كريم – سورة الفرقان – الآية رقم ٦٨
(٦) قرآن كريم – سورة الممتحنة – الآية رقم ١٢
(٧) قرآن كريم – سورة النور – الآية رقم ٢
(٨) محمد على قطب – الحب والجنس من منظور إسلامى – مكتبة القرآن – ١٩٨٤

الحساب ، وعذاب النار .. وقال أيضا عليه الصلاة والسلام [1] أن الزنا حرام حرمة الله ورسوله .

وقد بلغ هذا التشدد الإسلامى مع الزنا أوجه فى عصر عمر بن الخطاب .. وإنتقل التشدد إلى سائر أقطار وأمصار الدولة الإسلامية ومصر من بينها .. إنتقل بمعناه النفسى وهو رفض الزنا كجريمة تهدم بيتا وتفسد إستقرار أسرة .. وبمعناه التشريعى كتطبيق العقاب على من يرتكب مثل هذة الجريمة .. بل إننا نجد مصر فى العصور الوسطى تطبق تعاليم الشريعة [2] فيما يتعلق بجريمة الزنا - وغيرها من الجرائم - على أهلها من المسلمين ومن غير المسلمين أيضا .. ويحكى لنا المقريزى [3] عن رجم نصرانى ومسلمة حتى الموت بعد ضبطهما فى واقعة زنا وإن كان المقريزى يشير إلى نجاة يهودى ويهودية من العقاب رغم ضبطهما متلبسين بإرتكاب الزنا .. بعد أن عفا عنهما السلطان .. وهو العفو الذى أثار إستياء المقريزى وإستنكاره .

ثم جاء الفاطميون .. يقلبون الدين فى مصر رأسا على عقب .. لتغدو مصر من أنصار الشيعة لا السنة .. ويزرعون أولى بذور الفساد الإجتماعى والإنحلال الأخلاقى .. ولأول مرة .. تعرف مصر قضايا التشكيك فى النسب .. وأزواج يرفضون الإعتراف بأولادهم [4] .. ومع أن عقاب الزوج الذى يثبت عدم صحة إتهاماته لزوجته كان قاسيا جدا ومهينا أيضا .. حيث كان القاضى يجبره على ركوب جمل يطوف به المدينة تلاحقه السخرية والهكم والإهانات .. إلا أن الشك - نتيجة هذا الإنحلال الذى إستشرى - داخل أعماق كثير من الأزواج كان أقوى من أى عقاب أو إمتهان .

ثم كان على مصر بعد ذلك أن تواجه مصيرها المحتوم مع قدوم المماليك ولتبدأ معهم وبهم .. واحدة من أزهى عصور التردى والإنحطاط الأخلاقى والجنسى على مدى تاريخ مصر الطويل .. فقد ساد الإنحلال الإجتماعى العام وإنتشر الزنا بصورة كبيرة [5] .. كما زادت أعداد الجوارى فى ذلك العصر .. متبرجات سافرات مثيرات وفاتنات .. فالتوت خلفهن أعناق الأزواج .. فما كان من الزوجات [6] إلا أن بحثن عن طريق آخر لإشباع نهمهن الجنسى .. ثم جاءت الحملة الفرنسية .. أو بمعنى أكثر دقة جاء الفرنسيون ومعهم نساؤهم لتعرف معهم وبهم مصر عصرا جديدا لا يقل فسادا وإنحطاطا عن عصر المماليك .. وكما يقول المؤرخ الكبير الجبرتى .. سارت الفرنسيات فى الشوارع [7] حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات ويركبن الخيول والحمير مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية وحرافيش العامة .. ويتوقف مؤرخنا الكبير عند تأثير ذلك على نساء مصر فيقول .. خلع أكثرهن نقاء الحياء بالكلية وطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والإعتبار .. ويضيف جلال كشك [8] أنه بعد سقوط القاهرة نهائيا فى قبضة الفرنسيين عقب ثورة المصريين الثانية .. تحولت بنات العائلات إلى جوارى وسبايا .. وقام أكبر سوق للحريم عرفته مصر فى كل تاريخها !.

---

(١) د. محمد حسن عبد الله - الحب فى التراث العربى - عالم المعرفة - رقم ٣٦ - الكويت - ١٩٨٠

(٢) د. قاسم عبده قاسم - أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى - دار المعارف - ١٩٧٧

(٣) المقريزى - السلوك فى معرفة دول الملوك - دار الكتب المصرية - ١٩٧٢

(٤) د. ناريمان عبد الكريم أحمد - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣

(٥) صلاح عيسى - حكايات من دفتر الوطن - كتاب الأهالى - عدد ٣٩ - ١٩٩٢

(٦) د. على السيد محمود - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨

(٧) عبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار - مطبعة الأنوار المحمدية

(٨) محمد جلال كشك - ودخلت الخيل الأزهر - دار المعارف - ١٩٧٨

لهذا .. لم يعد مثيرا للدهشة والمفاجأة .. أن يكتشف الفرنسيون أثناء إعداد دراستهم العلمية لوصف مصر أن بعض الزوجات المصريات [1] يتظاهرن بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للزيارة .. ويذهبن بدلا من ذلك إلى لقاء غرامي .. وحين زار إدوارد وليام لاين مصر .. إكتشف بدوره [2] أن نساء مصر بشكل عام يتميزن بتحررهن فى التعبير عن مشاعرهن أكثر من نساء أخريات ينتمين إلى أمم متحضرة ومتمدينة .. غير أن إدوارد يعود ويؤكد أن بعض هؤلاء النساء بارعات ماكرات فى علاقاتهن الغرامية السرية فلا يفلح أكثر الأزواج تحفظا وإحتراما فى التنبه إلى تلك العلاقات بل وقد يكون الزوج نفسه أحيانا هو مطية زوجته التى تستخدمها فى نزواتها الإجرامية .. وقدم الفرنسيون .. وبعدهم إدواراد وليام لاين .. تفسيراتهم لدوافع ومبررات خيانة وسقوط الزوجة المصرية .. فقال الفرنسيون أن تلك الخيانة ترجع إلى البطالة التى تعيشها النساء .. مع حرارة الجو الملتهبة والتى تتسبب فى هيجان شهواتهن .. هى التى تدفعهن بلا إنقطاع إلى الإستجابة لملذات الحواس .. حتى يطرقن كل وسيلة لإشباعها .. ويشكل السقاءون نوعا من رسل الغرام ويلعبون الدور الرئيسى فى مكائد الحب .. ثم جاء إدوارد لاين ليؤكد أن السبب هو تأثير المناخ الذى يؤدى إلى هذا الطابع الشهوانى المميز لمعظم نساء مصر .

ومن المؤكد أنه لا تفسير الجبرتى .. ولا التفسير الفرنسى أو الإنجليزى .. لما أصاب الزوجات المصريات وإنفجار شهواتهن ورغباتهن .. تفسيرات صحيحة أو واقعية .. بعكس محمد قطب الذى جاء بعد قرابة المائتى عام ليقدم تفسيرا أقرب للواقع وللحقيقة ولمصر .. فقد أكد [3] أن العقيدة والدين والإلتزام كانوا راسخين فى نفوس مسلمى مصر قبل الحملة الفرنسية .. وبقوا راسخين بعدها .. لكن العقيدة – تحت الحكم التركى – كانت قد جمدت وتحجرت وتحولت إلى مجموعة من التقاليد !.

ما قاله محمد قطب بإختصار .. هو أن الدين تحول إلى مجموعة من العادات والتقاليد .. إلتزمت بها مصر كثيرا .. ولم تلتزم أحيانا .. وهى تتنقل من أعتاب والى إلى خديوى إلى سلطان إلى ملك .. إلى ثورة أغلقت عليها الباب حتى جاء السادات يفتحه على مصراعيه .. وكان ذلك التحول فى مفهوم الدين وفى وظيفته .. هو أول محاولة جرت لنزع فتيل قنبلة الجنس فى بيوت مصر .. ثم لم تكن المحاولة الأخيرة ولا الوحيدة أيضا .. فقد تعددت الأسباب والدوافع .. التى – حين إكتملت – جعلت من إنفجار القنبلة أمرا ممكنا وواقعا .. وجعلت بعض الزوجات يخلعن ثيابهن ويسلمن أجسادهن لرجال غرباء .. فالدكتور زكريا إبراهيم مثلا يرى [4] أن الزوجة أحيانا تخون زوجها بدافع الإحتجاج والتمرد لا سعيا وراء الحب واللذة .. وتصبح الخيانة هنا بمثابة ثورة على حالتها الإجتماعية .. أو هى الخنجر الذى وجدته الزوجة فى يديها لتطعن به زوجها .. وفى المقابل يرى الدكتور يسرى عبد المحسن [5] أن هناك عوامل إجتماعية أخرى فى غاية الخطورة والأهمية كانت هى السبب فى كل هذا الذى جرى .. التمزق الأسرى وما أصاب البيوت من تفكك وإنهيار .. والشعور الدائم بالتوتر والخوف .. والإكتئاب النفسى الشديد أو القلق لدرجة

(١) وصف مصر – ترجمة زهير الشايب – مكتبة الخانجى – ١٩٧٩
(٢) إدوارد وليام لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – ترجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١
(٣) محمد قطب – هل نحن مسلمون – دار الشروق – ١٩٨٧
(٤) د. زكريا إبراهيم – سيكولوجية المرأة – مكتبة مصر – ١٩٨٤
(٥) مجلة صباح الخير – ١٩٨٩/٨/٢٤

اللجوء إلي مثل هذا السلوك المنحرف .. للتفريغ عن النفس .. ثم جاء الدكتور عادل صادق ليقدم لنا رؤيته .. أو نتائج دراسة [1] قام بها عن المرأة الخائنة وتوصل – بعد إجتهاد شخصي علي حد تعبيره – إلي أن هناك تسعة أنواع من السيدات الخائنات هي .. النوع البغائي وفيه تشبه السيدة الخائنة البغي وتجمع بينهما سمات نفسية مشتركة .. والنوع الأوديبي وفيه تعاني السيدة من عقدة أوديب ولم تتخلص بعد من حبها الجنسي لأبيها ومن غيرة وقسوة وإضطهاد أمها .. والنوع الهستيري وفيه تعاني السيدة من شعور بالنقص نتيجة برودها الجنسي فتميل إلي الإستعراض وإجتذاب الرجال .. والنوع السيكوباتي وفيه تكون السيدة ذات شخصية إجرامية منحرفة في كل شئ والخيانة هي إحدى جوانب إنحرافها .. والنوع الوراثي وفيه تنتقل جينات الخيانة من الأم الخائنة إلي الإبنة أيضا .. والنوع البيئي وفيه تعيش السيدة في ظروف بيئية فاسدة تصبح فيها الخيانة من الأمور العادية .. والنوع الهوسي وفيه تكون السيدة الخائنة مصابة بمرض عقلي إسمه الهوس يتميز بفقدان السيطرة علي السلوك وإنطلاق الغرائز والرغبة في إرضائها دون خجل .. والنوع الفصامي وفيه تكون السيدة الخائنة مصابة بمرض الفصام ومن أعراضه التبلد الوجداني والإنفصال عن الواقع وفقدان الإرادة ولسبب غير مفهوم قد تخون هذة المريضة زوجها دون أية دوافع جنسية أو نفسية .. والنوع التاسع والأخير هو النوع الدوري الشهري .. وهي حالة فريدة لسيدة لا تخون زوجها إلا مرة واحدة كل شهر في الأسبوع الذي يسبق الدورة الشهرية.

ومع عميق تقديري وإحترامي لدراسة الدكتور عادل صادق ورؤيته .. إلا أنني أرى هذا التقسيم .. أو هذا التصنيف .. ليس له علاقة بالواقع المصري .. وأغلب الظن أنه إعتمد في دراسته علي مصادر وقياسات خارجية وأجنبية وليست من لحم الشارع أو البيت المصري .. وإن كان هؤلاء الأجانب قد إعترفوا بأن الجنس المجرد والرغبة المطلقة. هي سبب معظم حالات الخيانة.. أو علي حد تعبير الدكتور الأمريكي فردريك لويس الذي أكد [2] أنه لا فرق هناك بين زوجات العظماء وزوجات الفقراء .. فتحت المظهر الخارجي ببضعة ملليمترات تستوي زوجة الأمير بزوجة رجل الشارع .. كلهن يتشاركن في هذا الإفراز الداخلي للغدد الصماء .. وكلهن يتشاركن في الإحساس بالجنس والحاجة إليه والرغبة فيه .. ولست أقصد من ذلك أن تلك الأنواع أو الأنماط التي أشار إليها الدكتور عادل صادق ليست موجودة هنا أو هناك في المجتمع المصري .. لكنها حالات إستثنائية وبالغة الخصوصية بالقياس إلي القاعدة العريضة والتي تؤكد أن الزوجة المصرية لا تخون إلا لأنها تريد الجنس .. وفي المقابل لم تعد تجد في أخلاقيات وقوانين المجتمع الدينية والأخلاقية ما يردعها عن السعي إلي إرضاء شهواتها ورغباتها .. فالحكاية تبدأ وتنتهي ببحث الزوجة عن إشباع إحتياجاتها الجنسية .. حتى وإن بدا ظاهريا أنها تفتش عن الحب .. وتسعى خلف كلام رقيق وجميل كانت تود لو أنصتت إليه علي لسان زوجها الذي أهملها ولم يعد يشعر أو يبالي أو يكترث بوجودها .. فكل تلك دعاوى وأقنعة تخفي نداء الرغبة والجوع الجنسي الذي توحش في الأعماق المظلمة وفي جنبات الجسد المهجور .. فالمرأة لن تخون لأنها تريد سماع كلمة حب .. ولكنها قد تتظاهر بالحب كمفتتح للطريق إلي الجنس وإلي الرغبة وإلي الفراش .. خاصة وأن الزوج في مصر بعد ليس يعرف كيف يرضي زوجته جنسيا .. ولا هو لديه رفاهية

(١) الدراسة نشرها الدكتور عادل صادق في سلسلة كتاب اليوم الطبي – العدد رقم ١٢٤ – تحت عنوان مشكلات عاطفية .. ثم أعاد نشر نفس الدراسة ولكن تحت عنوان جديد هو .. الغيرة والخيانة .. ونشرتها دار الشروق عام ١٩٩٣

(٢) د. فردريك لويس ـ ٢٠ سنة في ضجة الاعترافات ـ ترجمة د. أمير بقطر ـ كتاب الهلال ١٩٨٢

الوقت والقدرة النفسية والجسدية ليتفرغ أو يكترث بذلك .. ولا هو يعلم أن تطورات الحياة الحديثة.. وتحسن أنواع الغذاء .. وإنتشار وسائل الإعلام .. قد زادت بالفعل(١) من إحتياج المرأة للجنس .. إحتياج فاق إحتياجات نساء عصور قديمة وعابرة .. وهذا ما نجده مثلا فى حكاية أحلام .. الزوجة التى توقف تعليمها بعد الحصول على الشهادة الإبتدائية .. وتزوجت وهى فى حوالى العشرين من عمرها بعد قصة حب عنيفة مع عبد التواب عامل الطباعة الذى كان يقترب من سن الثلاثين وقت إتمام الزواج .. وفى عبارة شديدة التلقائية كثيفة المعانى والدلالات .. لخصت حنان أزمتها مع عبد الفتاح حين قالت : كان حنين بس أنا كنت عايزة راجل !.. فحنان كانت سعيدة بحنان زوجها .. لكنها كانت تحتاج إلى رجل يرضيها جسديا وجنسيا أولا قبل أن يغمرها بحنانه بعد ذلك .. وكان من الطبيعى أن تفتش حنان عمن يقوم بالمهمة التى عجز عنها الزوج .. وكان من الطبيعى أيضا أن يكون البديل هو أحد الجيران .. وفى حالة حنان كان البديل هو شحتة طالب معهد الموسيقى العربية والذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر .. ثم أصبح سامح الذى كان يتسلل إلى البيت من شباك غرفة النوم.. ويقضى الليل مع أحلام أثناء غياب الزوج الليلى فى العمل .. ثم أصبح محمود الذى بات يتردد عليها أثناء النهار .

وإذا كانت أحلام تبحث عن رجل .. فإن كريمة أيضا كانت تبحث عن رجل يكفيها جنسيا .. فلم يكن هناك أى دافع آخر إلا الجنس ممكن أن يجمع بينها .. وهى الأم التى إعتادت إصطحاب إبنها كل صباح إلى إحدى مدارس المنيب .. وبين فكرى إبراهيم فراش المدرسة .. لتنشأ بين الإثنين علاقة جنسية طويلة وحميمة .. وإذا كانت رضا الزوجة الفقيرة لم تجد ما تبحث عنه عند زوجها صاحب عربة بيع الساندويتشات بسبب طبيعة عمل الزوج التى كانت تستنزف قواه وطاقته طوال اليوم .. ووجدتها عند أحد أصدقاء الزوج .. فإن زوجة المدير العام بإحدى الوزارات أيضا لم تجد – رغم الراحة والترف والرفاهية – ما تبحث عنه عند زوجها الذى عاد ذات يوم ليجد زوجته قد أغلقت باب الشرفة على بناتهما الثلاثة وتمددت هى على الفراش الوثير تمارس الجنس مع طالب بالجامعة الأمريكية .. وإذا كانت زوجة المليونير الشابة التى وجدت زوجها مهموما طول الوقت بالبحث عن مزيد من الثروة فإنشغلت هى بالبحث عن النشوة حتى وجدتها عند أحد أصدقاء الأسرة .. فإن الشابة التى تزوجت المحاسب الذى فى نفس سنها بعد قصة حب .. لم تحتمل طويلا غياب زوجها الدائم والكثير فى المحافظات والأقاليم وفق ما تقتضى ظروف عمله بإحدى الشركات الكبرى .. وسرعان ما إستسلمت وأسلمت نفسها لواحد من أقرب أصدقاء زوجها .

وسرعان ما نتبين أن هناك الف حكاية أخرى .. الف أحلام أخرى .. الف إمرأة تزوجت رجلا ليس قادرا على أن يسعدها ويرضيها ويكفيها جنسيا .. كأن يكون الزوج مهموما مشغولا بعمله وتحقيق طموحه الشخصى والمهنى .. أو يصبح لا تعنى له الحياة إلا حصاد المزيد من المال .. أو زوج منهك طول النهار أو الليل فى عمل شاق يعود منه ليتكوم فوق الفراش فى سبات عميق وحزين .. أو يكون زوجا عاجزا بالفعل .

وإذا كان ما قاله الدكتور عادل صادق لا ينطبق على الواقع المصرى .. فإن ما قاله آخرون وكثيرون – حين أرادوا قصر الفساد والإنحراف على زوجات وسيدات طبقة الأثرياء المصريين

(١) أ.س. كون ـ الجنس والثقافة ـ ترجمة د. منير شحود ـ دار الحوار ـ سوريا ١٩٩٢

وحدهم – ليس أيضا ينطبق على الواقع المصرى الذى شهد – ولا يزال – على أن الخلل الجنسى ليست تختص به طبقة بعينها ولا فئة واحدة فى المجتمع دون غيرها .. بل ولم يعد فى العالم كله من بات على قناعة كاملة بأراء ونظريات الفيلسوف الماركسى إنجلز الذى كان دائم التأكيد [١] على أن فساد وتحلل العلاقات الزوجية ينحصر بين أبناء الطبقة البرجوازية الغنية فقط .. وإستند إنجلز فى ذلك إلى قناعته بأن الزواج فى العائلات الفقيرة كان يعتمد على الحب والتعاون والتضحية .. وحيث الرجل المحكوم بظروف إقتصادية وإجتماعية متدهورة ومتردية لا يملك القوة أو النفوذ ليقيم علاقة مع إمرأة أخرى وإنما هو يكتفى بإمرأة يحبها ويكافح معها ومن أجلها .. وكان الأديب الروسى الكبير ليو تولستوى .. أيضا من أنصار هذا الرأى .. وسبق وأن قاله وأعلنه قبل إنجلز بسنوات طويلة .. فالأديب الكبير أكد [٢] أن أبناء الطبقات الأرستقراطية .. أصحاب أوقات الفراغ الطويلة .. يقضون تلك الأوقات فى التفكير فى الجنس والذى قد يختفى أحيانا تحت ستار رقيق من إدعاء الحب .. أما الفقراء .. فالزوج والزوجة لا يملكان رفاهية القدرة على ممارسة الجنس بكثرة .. فهو مرهق دائما بعمله وفى عمله .. وهى منهوكة طول الوقت بأطفالها .

وقد إقتنع العالم كله بتلك الأراء وما يشابهها فترة من الوقت تألقت فيها الماركسية والأفكار والمعتقدات اليسارية وزاد توهجها ليعتنقها كثير من مفكرى العالم .. وأصبح هناك تقسيم غير معلن يختص الزوجة أو المرأة الغنية بفساد الأخلاق وإنصياعها لرغباتها الجنسية دون كوابح أو قيود .. ويحصر المرأة الفقيرة فى دائرة التمنع والفضيلة والعفاف .. ولم يخرج على هذا التقسيم وهذا التصنيف إلا قليلون جدا سيزداد عددهم إذا أضفنا مخرجي وكتاب السينما المصرية الذين لم يروا ما يمكنه أن يدفع بالزوجة للخيانة إلا أن تكون فقيرة ولابد وأن تخلع ثيابها وتزنى من أجل أن تنال المال الذى ستشترى به الدواء لأب أو زوج أو إبن مريض فى أغلب الأحوال .

وبعد دراسات وأبحاث عديدة ومتنوعة .. عالمية ومصرية .. ثبت أن الجنس لا يعرف ولا يعترف بفوارق سياسية أو إقتصادية أو ثقافية أو إجتماعية .. وثبت أن المرأة من الممكن أن تخون لأسباب عديدة ليس من بينها حالة زوجها المادية أو مهنته أو مؤهلاته العلمية والإجتماعية .. وفى مصر .. فى أرشيف مصلحة الأمن العام أو فى مكتبات مراكز البحوث الإجتماعية أو صفحات الحوادث وأخبار الجرائم بالصحف والمجلات لن نجد صفة واحدة تجمع بين الزوجات الخائنات .. إلا أن نسبة كبيرة منهن كن فاقدات للإشباع الجنسى وتعرضن للغواية من الآخرين .. سنجد أيضا أكثر من إشارة أو دليل على زيادة معدلات جريمة الخيانة فى الشارع.. وفى البيت المصرى .. ويكفى أن نقرأ مثلا صفحات الحوادث بالصحف اليومية [٣] لنعرف حجم تلك الزيادة .. ونقيس مساحة السقوط التى لا تزال ضئيلة بالفعل ولكنها .. بقيت تزيد يوما بعد يوم .. ليست زيادة قاصرة على عدد الزوجات الخائنات .. وإنما تشمل أيضا نماذج أولئك الخائنات .. من زوجة الملياردير إلى زوجة الرجل المعدم .. ومن زوجة الرجل الناجح فى عمله وفى حياته إلى زوجة الرجل الفاشل الذى فقد ثقته فى نفسه ورجولته وقدرته .. ومن قبيل المبالغة أن نتخيل كل هؤلاء الزوجات مصابات بمرض النيمفومانيا أى جنون الشبق .. وهو الذى تشعر كل إمرأة مصابة به بالجوع الشديد للجنس فتصبح على إستعداد لأن تمارسه مع أى أحد وبأى ثمن أو مقابل .. ثم لا

---

(١) سميث – الموسوعة الدولية للعلوم الإجتماعية -- فرى برس – ١٩٦٨

(٢) كولن ويلسون – أصول الدافع الجنسى -- ترجمة يوسف شرورو ، سمير كتاب – دار الآداب – ١٩٨٦

(٣) هناك ما لا يقل عن ثلاثمائة حادثة خيانة زوجية مختلفة التفاصيل والدوافع تناولتها الصحف اليومية – الأهرام والأخبار والجمهورية والوفد والأحرار – فى سنوات التسعينات فقط من عام ١٩٩١ وحتى نهايات سنة ١٩٩٤.. ومن الصعب – لضيق المساحة المتاحة – مجرد حصر تلك الحوادث فضلا عن ذكر تفاصيلها .

ترتوى ولا تشبع أبدا .. وليس هذا هو حال أو مرض الخائنات فى مصر .. فمن النادر جدا العثور على إمرأة مصرية مصابة بالنيمفومانيا .. أو السودة .. كما إعتاد الناس فى مصر تسمية هذا المرض .. أما الأمراض والأوجاع الحقيقية التى دفعت بهؤلاء الزوجات إلى السقوط وإلى الخيانة .. فهى عدم الإشباع الجنسى سواء كان نتيجة لعدم إكتراث الزوج أو لجهله الشديد بكل دقائق وتفاصيل الحياة الجنسية لزوجته .. ثم عوامل أخرى ساعدت على ذلك السقوط وهذة الخيانة .. منها مثلا خروج المرأة للعمل وهى مشوشة الأفكار والقيم .. وليس الإثم هو خروج المرأة لتعمل .. لكنه فى الظروف التى أحاطت بهذا الخروج .. ظروف يصفها الدكتور أحمد المجدوب بأنها [1] جعلت النساء كما لو كن أطفالا حرموا من بعض اللعب فلما حصلوا عليها تمادوا فى اللعب بها فى إسراف تخيلن أنه بمثابة التعويض عن حرمان طويل .. ويضيف الدكتور أحمد المجدوب أن حماس الرجال – حتى فى أوروبا والولايات المتحدة – لتحرر المرأة وذهابها إلى العمل .. لم يكن الدافع إليه هو إيمان هؤلاء الرجال بحق النساء فى أن يعشن فى ظروف أفضل .. وإنما كان الدافع الحقيقى هو رغبة الرجال فى الإستمتاع بالنساء أكثر .. ويستشهد الدكتور المجدوب بعبارة لفلويد هايد قالت فيها .. إن الرجال الذين قاتلوا من أجل حرية المرأة أصروا على أن يتقاضوا الثمن علاقات جنسية .. وبدون الرجوع إلى مثل تلك الشهادة .. يكفينا تأمل هذا الإنفجار الذى باتت تعيشه أوروبا والولايات المتحدة واليابان حول قضايا وشكاوى التحرش الجنسى بالنساء العاملات .. حين إكتشفنا جميعا أن كثيرا من رجال تلك المجتمعات والذين لا يعانون قيودا جنسية ولا تبخل عليهم حياتهم بكل أشكال الإستمتاع الجنسى ومع ذلك ينظرون لزميلاتهم فى العمل وعلى أنهن مرشحات دائما لخلع ثيابهن ومصاحبة زملائهن إلى الفراش .. ولنا أن نتخيل حال كثير من الرجال فى مصر بالمقارنة مع رجال الغرب لنستطيع أن ندرك نظرة هؤلاء الرجال المصريين لزميلاتهم فى العمل .. ومحاولات الغزل والإيقاع بهن التى لا تتوقف ولا تنتهى والتى يبقى معظمها مجرد محاولات لم تنجح ولم تكتمل .. لكن هناك قدر لا بأس به يكتمل وينجح بالفعل وتسقط المرأة أو تستجيب وتستسلم .. وليست الحكاية بالطبع بمثل هذا التبسيط الساذج والمخل .. وإنما علينا أن ندرك أيضا أن المرأة .. كلما نجحت فى عملها .. كلما أصبحت أكثر وعيا بمطالبها الجنسية .. وكلما غدا إرضاؤها صعبا .. فإن لم تنل كفايتها .. فلن تخجل من أن تطالب بها .. فإن لم يستجب لها الزوج .. نجحت فى إقناع نفسها بأنه من حقها أن تبحث عن تلك الكفاية مع رجل آخر .. علينا أن ندرك أيضا أن مساحة الحياء والخجل باتت تقل فى مصر يوما بعد آخر .. فالخجل ليس غريزة تولد معنا رجالا أو نساء .. ولكنها دروس نتعلمها ونكتسبها طيلة رحلتنا مع الحياة ومع الناس الذين معهم ننمو وبينهم نعيش .. وكلما تآكلت مساحة الحياء والخجل .. كلما باتت المرأة أكثر قدرة على الحديث عن الجنس بصوت عال .. ليس فقط مع الزوج ولا الصديقات وحدهن .. وإنما مع الزميلات والزملاء أيضا .. حتى وإن كان حديثا يفتقد إلى الصراحة المطلقة ويجنح إلى التلميح والإشارة .. وليس هناك باب للشيطان أكثر سعة ولا رحابة من باب تبادل الهموم والشكاوى والإحباطات الجنسية حتى وإن بدأت فى الظاهر كهموم وشكاوى عاطفية وإنسانية من منطلق الصداقة بين الزميل وزميلته ومراعاة حقوق الزمالة .. وقد تنبه أحمد

---

(١) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣

الصاوى محمد منذ سنوات طويلة إلى ذلك فكتب يوصى كل زوج ويقول له (١) .. الأولى بك أن تدلع زوجتك بدلا من أن يدلعها غيرك .. وتنبهت أيضا جرمين جرير ـ أو أرادت تنبيهنا ـ إلى أن المرأة المتزوجة (٢) أحيانا تستعيض عن عدم مغازلة زوجها بمستحضرات تجميل تستعين بها المرأة ليس من أجل وظائف جمالية .. بل نفسية بالمقام الأول .. فتغدو رغوة الصابون الغنية .. أو الكريم الناعم مثلا .. هما البديل عن قبلات الزوج ومداعباته .. وقد لا ينجح هذا البديل .. وقد يبقى الزوج على إهماله .. فتعطى الزوجة كل إصغائها لزميل أو رجل غريب سيقوم بتلك المهمة وسيجيد القيام بها على الوجه الأكمل .. وسيساعد ذلك كله المرأة على الخلاص أكثر من كل قيود الحياء والخجل .. بل وتطرفت بعض النساء فى مصر اليوم فى شدة تخلصهن من الحياء والخجل إلى حد الذهاب مثلا إلى غرفة الولادة مسلحات بكاميرات الفيديو لتسجيل كل ما يحدث أثناء عملية الولادة (٣) .. ويمكنك أن تتسائل كيفما شئت عن منطق أية إمرأة من هؤلاء الذى يجعلها تفتح ساقيها أمام كاميرا تسجل كل شئ .. ويمكنك أن تتسائل كيفما شئت عن حقيقة هذا الرجل الذى سيعير هذا الشريط الخاص بولادة زوجته ليتبادل مشاهدته الأصدقاء والأقارب .. فالرجل إعتدناه يغار على إمرأته .. أو هكذا أمرنا الإسلام .. فعلى سبيل المثال قال سعد بن عبادة (٤) : والله لو رأيت رجلا مع إمرأتى لضربته بالسيف .. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

أى أن غيرة الرجل أمر قائم بالفعل .. بها إعترف وأقرها الإسلام .. ثم أثبتها علم النفس أيضا .. فأكد أحد كبار الأطباء النفسيين العالمين أن الزوج يغار بالفعل نفس غيرة المرأة على زوجها .. لكن لا تظهر عليه أعراض الغيرة فى سنوات الزواج الأولى .. ثم تبدأ فى الظهور بعد سنوات قليلة .. وغالبا ما تتخذ هذة الغيرة شكل إحساس الرجل فى أن زوجته لم تعد تهتم به .. ويمكن أن يتمادى هذا الإحساس فيشعر الرجل أن زوجته غير مخلصة له .. وقد يزيد هذا التمادى إلى الحد الذى معه لا ينشغل الزوج إلا بالبحث عن دليل يؤكد به خيانة زوجته النفسية أو الجسدية .. لكن من الواضح فى سنواتنا الأخيرة أن غيرة الرجل تآكلت وتضاءلت مثلها مثل إحساس المرأة بالحياء والخجل .. ولست أقصد بهذا التآكل حكايات إنتشرت هنا وهناك عن أزواج إحترفوا المتاجرة بأجساد زوجاتهم من أجل المال (٥) .. وإنما أقصد كل هؤلاء الرجال الذين أطلقوا العنان لزوجاتهم يتمادين فى ممارسة الحرية بكل مجالاتها وأشكالها .. ثم لا يفيق هؤلاء إلا وتلك الحرية قد أصبحت إثما وخيانة وسقوطا وخطيئة .

وغير هذا كله .. لم يعد الأمر قاصرا على مجرد زوجة تخلع ملابسها فى الحرام وتسقط وتزنى .. ولكننا بدأنا نشاهد من تدفعها رغباتها لأن تجمع بين أكثر من زوج فى وقت واحد (٦).. وإذا كان ذلك لم يسترع إهتمامنا ويثير قلقنا وإرتباكنا .. فإن المؤسف حقا هو ظاهرة أخرى –

(١) علاء الدين وحيد – قلوب عاشقة – دار سنابل – ١٩٩٢

(٢) جرمين جرير – المرأة المدجنة – ترجمة هنرييت عبودى – دار الطليعة – بيروت – ١٩٨١

(٣) مجلة صباح الخير – ١٩٩٣/١٢/٢

(٤) محمد يوسف الكاندهلوى – حياة الصحابة – مكتبة الدعوة الإسلامية

(٥) تعددت أخبار وقضايا وجرائم هؤلاء الأزواج وبدأت الصحافة تتابعها من حين لآخر وعلى سبيل المثال حكاية نشرتها جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٧/٣/١٧ .. وحكاية نشرتها مجلة صباح الخير بتاريخ ١٩٨٩/٨/٢٤.. وحكاية نشرتها جريدة المساء بتاريخ ١٩٩٤/١/١١ ثم حكاية أخرى بتاريخ ١٩٩٤/٨/٧ .. وحكاية نشرتها جريدة الأحرار بتاريخ ١٩٩٤/٤/٢٥ وأخرى بتاريخ ١٩٩٤/٦/٢٢

(٦) تعددت مؤخرا حكايات تعدد أزواج المرأة الواحدة بشكل لافت للنظر وباعث على الدهشة ويمكن لأى أحد مراجعة تفاصيل بعض تلك الحكايات أو دراسات وتعليقات عنها فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٣/٨/٢٨ . وأيضا فى جريدة الأهرام المسائى بتواريخ ٩٢/٩/٢٠، ٩٤/١/١٢، ٩٤/١/١٥، ٩٤/٥/١، ٩٤/٧/٣٠، وفى جريدة المساء بتواريخ ٩٤/١/١١، ٩٤/٤/٢٨، ٩٤/٥/٢٦، وفى جريدة الأحرار بتاريخى ٩٤/٤/٢٦، ١٩٩٤/٥/١.

أكثر خطورة وأشد قسوة – هى ظاهرة قتل الزوجات لأزواجهن .. وبقدر إنشغالنا وحماسنا للكتابة وللحديث عن تلك الظاهرة .. بقدر ما أهملنا وتجاهلنا تماما أية علاقة لها بالجنس من قريب أو بعيد .. ونجحنا فى الحديث عن العنف .. وعن المرأة التى تبلد لديها الحس وتحجرت مشاعرها ونسينا أن أية متابعة – ولو عابرة – لجرائم قتل الأزواج كانت تكفى لأن نكتشف أن الخيانة .. والعلاقة مع عشيق أو رجل آخر غير الزوج .. والرغبة الجنسية التى توحشت وإنفجرت .. كانوا هم الدافع الأول لقتل الزوج فى أكثر من تسعين بالمائة من تلك الجرائم .. وكعادتنا دائما أمام كل ظاهرة من هذا النوع .. لا نحفل ولا نكترث.. بمن يحاول أن يشير إلى الواقع وإلى الحقيقة .. ولم يبخل علينا زماننا بمن يؤكد لنا أن الجنس.. كان غالبا هو الدافع والمحرض على قتل الزوج .. قالها لنا الدكتور محمود علام أستاذ الطب النفسى (٢) .. وقالتها لنا نادية يوسف الشرنوبى حين أشارت (٣) إلى أن قاتلات أزواجهن إختلفت ظروفهن لكن تشابهن فى إنخفاض درجة التمسك بالقيم والحرص عليها .. وفى شدة حاجتهن للجنس والإنتماء الأسرى والزوجى .. وقالتها لنا الدكتورة هناء يحى أبو شهبة فى دراسة لها بعنوان (٤) .. الدلالات الإكلينيكية لإستجابات قاتلة الزوج .. ومن تلك الدراسة يمكن أن نستخلص إلى أى مدى يمكن للجنس وللإحتياج إليه .. أن يدفع المرأة للقتل والدم .. ولكننا – كما سبق وأن أشرت – لا نحب الحديث عن الجنس .. أو الزنا .. أو عن الخيانة .. حتى وإن زادت أخبار الزنا .. حتى وإن تعددت حكايات الخيانة .

ومثلما تعددت حكايات خيانة الزوجات .. تعددت أيضا – وزادت – حكايات خيانة الأزواج .. ولأننى لست من هؤلاء الذين يميلون دائما إلى التفريق بين خيانة الزوجة وبين خيانة الزوج .. ويتكالبون فى كل مرة على رجم أية زوجة خائنة فى حين يلتمسون بالمقابل الف عذر للزوج الخائن .. فإننى أجدنى مضطرا للسخرية من كل هؤلاء ومن آرائهم ومن منطقهم الذى أعجز عن فهمه فضلا عن الإقتناع به .. فالخيانة هى الخيانة .. إثم وخطيئة وجريمة سواء إرتكبتها المرأة أم الرجل .. وأن تخون المرأة أو يخون الرجل فالخيانة دليل على أن هناك خللا ما .. وأن البيت فقد دعائمه وأركانه .. وربما كان الفارق الوحيد بين خيانة المرأة أو خيانة الرجل هو الفارق بين دوافع المرأة للخيانة وبين دوافع الرجل .. فالجنس .. والبحث عنه .. والحاجة إليه .. والإستسلام لرغباته وشهواته .. كلهم قد يدفعوا بالمرأة لأن تسقط وأن تخون .. لكن ليس من أجلهم يخون الرجل .. صحيح هناك رجال مصابون بمرض الساتيرياسيس .. أى الشره فى ممارسة الجنس والتفتيش عنه دون ملل أو تعب أو إرتواء .. وصحيح أيضا أن هناك رجال – ليسوا مصابين بأى مرض – ولكنهم يفتشون عن الجنس طول الوقت ومن الصعب أن يكتفى الواحد منهم بزوجة واحدة أو حتى أربعة زوجات .. إلا أن غالبية الرجال – على الأقل فى مصر – ليسوا من هؤلاء .. وإنما يخون الواحد منهم لأسباب ودوافع نفسية فى المقام الأول .. سواء كان من تلك الأسباب والدوافع إحساس الرجل بأن زوجته لم تعد تكترث به كعهده بها فى سنوات الزواج الأولى وقبل أن يأتى الصغار وتأتى معهم الهموم والمخاوف .. فيبدأ هذا الزوج فى البحث عمن تحيطه بالحنان والرعاية

(٢) مجلة كل العرب – باريس – عدد ٢٨/٨/٩٤

(٣) نادية يوسف الشرنوبى – جامعة الأزهر – كلية الدراسات الإنسانية فرع البنات – رسالة ماجستير بعنوان دراسة لبعض متغيرات وأبعاد الشخصية المرتبطة بالجريمة لدى المرأة فى مصر – ١٩٨٢

(٤) مجلة علم النفس – عدد ١/١٩٩٢

والإهتمام .. وحين يجدها .. سرعان ما يتحول هذا الحنان والود إلى علاقة حميمة وحارة ليست تمانع كثيرا من الذهاب إلى الفراش .. أو يشعر الرجل – نتيجة عوامل وأسباب عديدة يغرسها المجتمع في وجدانه – بأن ممارسة الجنس مع زوجات الآخرين تمنحه إحساسا بالزهو والتفوق والقوة .. وأيا كانت هذة الأسباب والدوافع .. ومهما تباينت وإختلفت من رجل إلى آخر .. فإنه يمكننا الوثوق فى أن الرجل فى معظم الأحيان لا يذهب إلى جسد إمرأة عارية غير زوجته نتيجة رغبة جنسية عجزت زوجته عن إشباعها .. ولكنه المجتمع الذى علم الرجل كيف يقيس بالجنس قوته وقدرته وجاذبيته .. ثم علمه أيضا كيف يغدو شهوانيا يفكر فى الجنس وعنه يتحدث طول الوقت .. ونسى بعد كل ذلك أن يعلمه كيف بالجنس يسعد مع زوجته .. كيف يرضيها فترضيه .. وليس يعنى ذلك أن المجتمع اليوم هو المسئول وحده عن كل ذلك .. ولكن هناك التاريخ أيضا .. فلا تزال هناك أكثر من عقدة تاريخية تحكم وتتحكم فى السلوك الجنسى للرجل المصرى حتى اليوم من بينها عقدة المرأة الواحدة .. أو الزوجة الواحدة .. بمعنى أن الرجل فى الأصل ليست تكفيه إمرأة أو زوجة واحدة طوال عمره .. وهى عقدة لم تعرفها مصر فى أزمانها الأولى سواء الفرعونية أو الإغريقية أو الرومانية أو المسيحية .. حيث كان الرجل المصرى يقنع ويسعد ويكتفى بزوجة واحدة .. ومع أن الإسلام جاء إلى مصر يسمح بأربع زوجات .. إلا أن الرجل المصرى بقى مخلصا ووفيا وراضيا بزوجة واحدة .. حتى جاء الفاطميون وأسسوا فى مصر دولتهم .. وجاءت معهم هواجس وقناعات جنسية سرعان ما غرستها الأيام فى وجدان مصر .. ومن بين تلك القناعات الجديدة كانت حاجة الرجل إلى التغيير من حين لآخر ليبقى محتفظا بقدرته وطاقته الجنسية .. وساعد على رواج ذلك كثرة ما إبتكره الفاطميون من أعياد ومناسبات لهو وترفيه .. ومناخ سمح بإعطاء الجنس مساحة أكبر فى الفكر والسلوك .. ومع ذلك بقى الرجل المصرى لا يتزوج إلا بإمرأة واحدة .. وكان البديل المتاح هو التسرى وإتخاذ الجوارى .. فبدأت ظاهرة الجوارى تنتشر فى مصر منذ العصر الفاطمى [1] .. ثم إنتشر أيضا تعدد زوجات الرجل .. وكانت هناك مثلا أكثر من زوجة لمعظم الخلفاء الفاطميين بعدما إكتفى المعز لدين الله مؤسس الدولة بزوجة واحدة .. وكانت لهم جواريهم أيضا .. وعلى سبيل المثال حين أجبر صلاح الدين الأيوبى الخليفة العاضد على الخروج من قصره .. خرج الخليفة ومعه إثنتا عشر الف إمرأة يتبعن الخليفة وحده .

ويبقى إقتناء الجوارى قائما فى مصر حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية .. حتى يجرى بنا الزمان لنكتشف مثلا أن إسماعيل صديق .. مفتش عموم الأقليم والرجل الثانى والقوى فى عهد الخديوى إسماعيل .. كان يملك سبعمائة جارية يؤكد أمين باشا سامى [2] أن بينهن كانت .. الجارية الشركسية البيضاء .. والجارية الخمرية المسكرة .. والسمراء الفاتنة .. والحبشية ذات العيون البقرية .. والبرونزية الموشومة ذات النهود السفرجلية .. والسودانية الفحماء متقدة الدم الهائجة .

ولم يكن إقتناء الجوارى فى حد ذاته – ومهما بلغ عددهن فى بيت أو قصر الرجل الواحد – هو المشكلة .. فقد الغى الخديوى سعيد تجارة الرقيق والجوارى [3] فى شهر ديسمبر عام ١٨٥٤

(١) د. ناريمان عبد الكريم أحمد – المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

(٢) صلاح عبد الصبور – قصة الضمير المصرى الحديث – كتاب الإذاعة والتليفزيون – ١٩٧٢

(٣) د. محمد كمال يحى – الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٣

وإنما كانت المشكلة هى تلك القناعة التى تأصلت وزادت رسوخا جيلا بعد جيل بأن الرجل يحتاج إلى أكثر من إمرأة .. ولم يعد هناك ما يمنع الرجل - بعد إنتهاء عصر الجوارى - من الإستعانة بأية إمرأة أخرى لتنشيط قواه الجنسية .. ولست أجد أحدا أجاد التعبير عن هذا المنطق قدر نجيب محفوظ .. أو قدر السيد أحمد عبد الجواد بطل ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة والخالدة حين قال (١) .. أنا أب لثلاثة ذكور وأنثيين وما يجوز لى أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنسى يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم .

وتقتضى الأمانة التأكيد على أنها مشكلة ليست مصرية فقط .. إنما هى مشكلة عالمية أيضا إنقسم بسببها العلماء والمفكرون فى العالم ما بين من يرى الرجل فى حاجة لأكثر من إمرأة أو أكثر من زوجة .. وبين من يرى أن الرجل السوى والطبيعى ستكفيه الزوجة الواحدة .. وكان أشهر من إنتصر لتعدد زوجات الرجل هو المؤرخ الكبير وول ديورانت الذى قال (٢) أن الرجل بفطرته ينزع إلى تعدد الزوجات .. وأنه لاشئ يستطيع أن يقنعه بزوجة واحدة إلا عقوبات قاسية أو درجة كافية من الفقر أو عمل شاق أو زوجة دائمة المراقبة له تمنعه من الإرتباط بإمرأة أو زوجة أخرى .. وفى المقابل كان عالم الأحياء الكبير والشهير تشارلز داروين (٣) هو أشهر من إنتصر للرأى المضاد الداعى لإكتفاء الرجل بزوجة واحدة .. وقد أعلن داروين أنه مثلما تطور الإنسان .. تطورت المجتمعات والقوانين والعادات .. وتطور الجنس أيضا .. من فوضى التوحش إلى الأخلاق العليا المتمثلة فى أحادية الزواج .

وما بين وول ديورانت وبين تشارلز داروين .. خرج علينا آخرون يزعمون أن الحرية الجنسية هى الأصل .. وما قوانين الزواج وقيوده إلا أمور مستحدثة فرضتها الأديان والحضارات المتعاقبة ولذلك لا يتوانى الإنسان عن ممارسة تلك الحرية كلما أتيحت له الفرصة .. كان أبرز من دعا إلى تلك الحرية هو الفيلسوف الشهير إنجلز ومعه بعض المفكرين الماركسيين (٤) الذين نادوا بالشيوعية الجنسية دون أن يختص رجل ما بإمرأة واحدة أو حتى تختص إمرأة ما برجل واحد .. وهى دعوة لاقت بالطبع أكثر من إعتراض ونقد وهجوم .. وقام إدوارد وسترماك بتفنيدها تماما فى دراسته الرائعة والمدهشة عن الزواج .. وأكد وسترماك (٥) أننا لا نملك دليلا واحدا على أن الفوضى الجنسية كانت فى يوم ما هى الشكل السائد على الأرض للعلاقات الجنسية .. بل أن نظرية الفوضى تتعارض وتتناقض مع كل إكتشافاتنا ودراساتنا عن الإنسان فى أزمانه الأولى .

وأعتقد أننا - هنا فى مصر - لم نقتنع يوما بحكاية فوضى الجنس وأصحابها .. لكننا إعتقدنا وإقتنعنا بمزاعم حاجة الرجل لأكثر من زوجة .. وإتخذ كثيرون منا سماح الإسلام للرجل بالزواج من أربع نساء دليلا لا يقبل الشك أو المراجعة على أن الرجل بالفعل يحتاج لأكثر من إمرأة .. وتناسى هؤلاء أن الله لم يحل للرجل الزواج أكثر من مرة إلا لأسباب عديدة ليس من بينها الإستمتاع بالجنس مع أكثر من إمرأة .. تناسى هؤلاء أيضا أن الرسول الكريم عليه صلاة

---

(١) نجيب محفوظ - بين القصرين - مكتبة مصر - القاهرة - ١٩٦٠

(٢) وول ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران - لجنة التأليف والترجمة والنشر - جامعة الدول العربية - ١٩٦٧

(٣) أ . س . كون - الجنس من الأسطورة إلى العلم - ترجمة منير شحود - دار الحوار - سوريا - ١٩٩٢

(٤) د. أحمد على المجدوب - العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية - الدار المصرية اللبنانية - بدون تاريخ نشر

(٥) إدوارد وسترماك - قصة الزواج - ترجمة عبد المنعم الزيادى - مكتبة نهضة مصر

الله وسلامه تعددت زيجاته لدوافع إنسانية وإجتماعية ملحة وليست نتيجة أهواء ورغبات مادية أو جسدية .. بل إن الرسول نفسه رفض زواج على بن أبى طالب بإمرأة أخرى بعد زواج على من إبنة الرسول .. وروى لنا (١) البخارى ومسلم فى صحيحيهما والترمذى وإبن ماجة فى سننهما.. عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن بنى هشام بن المغيرة إستأذنونى أن ينكحوا إبنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق إبنتى وينكح إبنتهم ، فإن إبنتى بضعة منى يريبنى ما رابها ، ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها ..

كان هذا هو موقف الرسول الصارم من تعدد زوجات الرجل لمجرد التعدد دونما سبب أو مبرر حقيقى يضطر معه الرجل للزواج مرة أخرى .. وإن كان الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام لم ينف إحتمال أن يضعف الرجل أمام إمرأة غريبة عنه تثيره وتثير إهتمامه وعقله وخياله .. وحكى لنا مسلم عن جابر بن عبدالله (٢) أن رسول الله رأى إمرأة فأتى زوجته زينب فقضى حاجته منها ثم خرج إلى أصحابه فقال : إن المرأة تقبل فى صورة شيطان ، فإذا أبصر أحدكم إمرأة فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه .

وفى تعقيبه على تلك الحكاية .. قال عياض فى الإكمال .. أن القصد منها ليس أن النبى بمواقعة زينب حين رأى تلك المرأة وقع فى نفسه شئ منها .. بل هو النبى المنزه عن الميل .. لكنه فعل ذلك لتقتدى به أمته فى الفعل .. فالرسول عليه الصلاة والسلام كان على ثقة من أن أزمانا كثيرة ستأتى سيجد فيها الرجل نفسه ضحية لإمرأة تسرق مشاعره وتفتح له باب الرغبة والشهوة .. لذلك قال الرسول الكريم أن هناك .. سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .. وذكر الرسول منهم رجلا .. دعته إمرأة ذات حسن وجمال .. فقال إنى أخاف الله .

وبالإضافة إلى ذلك .. جعل الرسول (٣) الزنا بحليلة الجار ثالث أعظم الذنوب بعد الشرك بالله وقتل الولد .. وقال صلى الله عليه وسلم .. لأن يزنى الرجل بعشرة نساء ، أيسر عليه من أن يزنى بإمرأة جاره .. ومع ذلك .. أصبحنا لا نعدم اليوم من يزنى بزوجة الجار .. أو زوجة الصديق .. أو زوجة الزميل .. أو يشتهى زوجة الأخ (٤) .. أو أم زوجته (٥) .. هذا بالطبع غير مرض الزنا بالسكرتيرات أو الموظفات الأقل شأنا ومكانة فى العمل الذى أصاب كثيرا من مؤسساتنا العامة والخاصة .. وسوف نجد كثيرا من هؤلاء الزناة يبررون جرائمهم وخطاياهم بأنهم لم يعودوا يستمتعوا بالجنس مع زوجاتهم .. أولئك الباردات جنسيا .. اللواتى لا يشاركن أزواجهن حرارة اللقاء وبهجة الإستمتاع بالجنس .. وكل ذلك ليس واقعا وليس صحيحا .. صحيح أنه ليس من المنطقى أن تتألق زوجة فى الفراش وهى التى إقتسمت وقتها ونهارها ما بين مسئوليات عمل وواجبات أسرة وإرهاق جسدى ونفسى .. لكن هذا لا يعنى أن تلك الزوجة مصابة بالبرود الجنسى .. وإذا أصيبت فعلينا أن نراجع حالتها وظروفها لنعرف من الذى جعلها تخاف من الجنس .. ومن الذى جعلها ترفضه في أعماقها .. ثم من الذى أجبرها على أن تمارسه فى أوقات

(١) د. زينب رضوان – الإسلام وقضايا المرأة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨
(٢) محمد بن أحمد التيجانى – تحفة العروس ومتعة النفوس – رياض الريس للكتب والنشر – ١٩٩٢
(٣) د. محمد حسن عبد الله – الحب فى التراث العربى – عالم المعرفة – رقم ٣٦ – الكويت – ١٩٨٠
(٤) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩١/١١/١٠
(٥) جريدة الخضر – ١٩٩٤/٥/١٥

محددة وظروف متشابهة كأنه الواجب ثقيل الدم الذى ينبغى عليها أن تؤديه إن أرادت الحفاظ على بيتها وأسرتها وإستقرارها وزوجها .. علينا أيضا أن نتخيل تلك المقارنة الظالمة التى يجبر الرجل المصرى زوجته على أن تخوضها وهى أول من تعلم أنها ستخسرها .. فهذا الرجل يرى إمرأته فى ثياب البيت .. بدون أية إضافات أو رتوش أو أقنعة نفسية وجمالية وجسدية .. بينما هو يرى الأخريات فى كامل زينتهن .. وفى آتم إستعدادهن لمثل هذة المواجهة وتلك المقارنة .. تماما كما تخطئ نفس الزوجة حين تستجيب وتعقد نفس المواجهة والمقارنة بين زوجها المكدود والمتعب ومنهك القوى والأعصاب والنفس والروح وبين رجال آخرين يملكون على الدوام خفة الدم وجاذبية الحديث والقدرة على إدعاء الرومانسية والقدرة على المشاركة فى حمل الأوجاع والهموم .

وأيا كان السبب أو الدافع للسقوط أو للخيانة .. فقد سقط بالفعل رجال ونساء هنا أو هناك .. ويبقى آخرون مرشحون ومرشحات للسقوط غدا أو بعد غد .. سيساعدهم على ذلك قانون لا يتعرض ولا يعترض على الزنا طالما أن الرجل يختص إمرأة واحدة بجسده والمرأة تختص رجلا واحدا بجسدها .. وليس من المهم أن يكون هذا الرجل زوجا لتلك المرأة .. فالقانون المصرى لا يعترض ولا يمانع ولا يكترث بذلك .. قانون يؤكد أن معاشرة رجل لإمرأة فى منزله معاشرة الأزواج لا يعتبر من أعمال الفسق والدعارة [1] التى يؤثمها القانون .. إذ أن المقصود بالتجريم هو مباشرة الفحشاء مع الناس بغير تمييز .. ليس هذا فقط .. وإنما هو قانون ملئ بالمفارقات والطرائف والغرائب أيضا .. فهو مثلا يمنع محاكمة المرأة الزانية إلا إذا طلب زوجها ذلك .. الزوج وحده – لا المجتمع ولا أى أحد آخر – هو صاحب حق تحريك عقاب زوجته .. فإن عفا عنها – ولو بعد صدور الحكم – سقطت العقوبة على خلاف المقرر فى شرع الله [2] .. وهو أيضا قانون ضد العدل وضد الدين وضد الدستور .. فالعدل أن يكون عقاب الزانى هو نفس عقاب الزانية .. والدين لم يفرق بين من يزنى وبين من تزنى .. والدستور المصرى فى المادة رقم ٤٠ منه ينص على مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون ولا يجوز التفريق أو التمييز بينهم بسبب الجنس .. ومع ذلك فالقانون يعاقب الزوجة إذا زنت، ولا يعاقب الزوج إلا إذا زنى فى بيت الزوجية .. وحين تثبت تهمة الزنا على الزوجة فإن العقاب هو الحبس سنتين .. فى مقابل شهرين فقط حبس للزوج إذا ثبت إتهامه بالزنا فى منزل الزوجية .. وهو وضع يدعو للدهشة والتساؤل .. أو للعجب على حد تعبير أربع سيدات تقدمن [3] بمشروع يطالب بالمساواة بين الجنسين أمام قانون العقوبات هن.. أميرة بهى الدين المحامية وإيمان بيبرس مديرة برامج التنمية والدكتورة فاطمة خفاجى مديرة برامج المرأة باليونيسيف والدكتورة هدى الصدة الأستاذة المساعدة بآداب القاهرة .. ومن ناحية أخرى لست أعتقد أن الدكتور أحمد على المجدوب قد خالف الصواب فى كثير أو قليل حين أكد [1] أن هذا القانون أحدث فجوة واسعة فى الجدار الصلد الذى كان قائما فى وجه كل طوائف الزناة .. وأتاح الفرصة لكل من تجاوز أو تجاوزت الثامنة عشرة أن يزنيا دون عقاب وأتاح أيضا للزوج أن يزنى خارج منزل الزوجية وأتاح للزوجة أن تزنى بموافقة الزوج .

كان هذا هو رأى الدكتور المجدوب فى قانوننا الذى تراخى فى مواجهة قضايا الزنا وخطايا الزناة فإنتهى بنا الأمر إلى تلك الفجوة الواسعة فى جدار أخلاقياتنا .. لكن الدكتور المجدوب قدم

---

(١) حكم لمحكمة النقض بتاريخ ١٨/١٠/١٩٥٤ – من مجموعة القواعد القانونية فى ٢٥ عاما – الدائرة الجنائية – ١٩٥٥

(٢) عبد الجواد يس – مقدمة فى فقه الجاهلية المعاصرة – الزهراء للإعلام العربى – ١٩٨٦

(٣) جريدة الجمهورية – ١٢/٥/١٩٩٤

لنا نصف الرأى ومضى أو صمت أو إكتفى بذلك ولم يشر إلى ذلك النصف الآخر .. لا هو ولا أى أحد آخر إستكمل رأيه أو شهادته وحدثنا عن الحل أو البديل .. وقد يسارع البعض ويختار تطبيق الشريعة الإسلامية حلا وبديلا .. ولكن الأمر ليس بهذة البساطة ولا بهذة السهولة .. فجريمة الزنا فى شرع الإسلام تكاد تكون هي الجريمة الوحيدة .. أو الخطيئة الوحيدة .. التى عقابها ليس واضحا ويمكن التأكيد على أنه ليس ممكنا أيضا .. فتطبيق حد الله على الزانى والزانية يستلزم توافر أربعة شهود من الرجال .. كلهم رأوا ما جرى .. وكلهم تيقنوا من إتمام المضاجعة وإكتمال الممارسة حتى آخر الشوط .. وغنى عن الذكر أن هذا النصاب من الشهود أبدا لم يكتمل طوال تاريخ الإسلام .. وأبدا لن يكتمل .. لأنه ليس من المنطقى أن يزنى الرجل والمرأة فى حضور أربعة رجال غرباء سيحاطون علما بكل ما يجرى بين الرجل والمرأة .. ولأنه بفرض أن هناك بالفعل من شاهد وبات على إستعداد لأن يشهد .. فإن الإسلام – والذى يأمرنا بعدم كتمان شهادة الحق فى سائر مجالات الدين والدنيا – يعود حين يتعلق الأمر بالزنا ويأمرنا بكتمان الشهادة والتستر على الخطاة .. وتتعدد أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التى تحضنا جميعا على التستر على المسلمين والمسلمات .. التستر على عوراتهم وخطاياهم .. أى أننا نخرج من ذلك بأن عقوبة الزنا لم يكن القصد منها العقاب بقدر ما هو الترهيب .. أو كما يقول محمد جلال كشك [٢] بأن المشرع الإسلامى إعتبر إشاعة الفاحشة أخطر من الفاحشة ذاتها .. وهو يود لو لم تقع الجريمة ويود أيضا ألا تكون هناك عقوبة .. ولذلك كان التحذير من رمى المحصنات ومن إشاعة الفاحشة أقوى من الفاحشة نفسها .. وهذا ما نجده فى القرآن الكريم حيث يمكننا المقارنة بين وعيد الله لمن يرتكب الفاحشة وبين وعيده فى المقابل لمن يشيع الفاحشة .. فالله سبحانه وتعالى يقول : واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، والذان يأتيانها فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما [٣] .. أو يقول الله : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة [٤] .. وفى المقابل يتوعد الله الذين يشيعون أو يحبون أن تشيع الفاحشة ويقول : والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فإجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون [٥] .. ويقول الله أيضا : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب عليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون[٦] .. ويقول أيضا سبحانه وتعالى : إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب اليم [٧] .

من الواضح إذن أن الله شديد العقاب لمن يرتكب الفاحشة .. لكن عقابه أشد لمن يشيع الفاحشة .. وهو موقف سماوى رحيم بالناس فى كل عصر وفى كل مكان .. فليس خافيا علينا حكاية المرأة التى زنت فإجتمع حولها رجال اليهود يريدون رجمها فصاح فيهم المسيح : من كان

(١) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣
(٢) محمد جلال كشك – خواطر مسلم فى المسألة الجنسية – مكتبة التراث الإسلامى – ١٩٩٢
(٣) قرآن كريم – سورة النساء – آية رقم ١٥ ، ١٦
(٤) قرآن كريم – سورة النور – آية رقم ٢
(٥) قرآن كريم – سورة النور – آية رقم ٤
(٦) قرآن كريم – سورة النور – آية رقم ١٩

منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر .. ثم قال لها : أما أدانك أحد ؟.. فقالت له : لا أحد ياسيدى.. فقال لها المسيح : ولا أنا أدينك .. إمضى بسلام .. أما فى الإسلام .. فقد حاول الرسول بكافة الطرق منع تنفيذ الحد بالبحث عن شبهات لكن المذنب فى كل حالة أصر على الإستشهاد أو التطهير .. وثابت أن الرسول لم يرجم بنفسه ولا شاهد الرجم .. ثابت أيضا أن عقوبة الرجم – فى حالة الزنا – لم تطبق طوال التاريخ الإسلامى إلا على من إعترف أو من إعترفت .. وحتى هذا الذى إعترف .. لو أنكر إعترافه بعد أن أصابته الأحجار أو فر هاربا منها.. لوجب وقف تنفيذ الحد والرجم .. ومن الحكايات الجديرة بالتوقف والتأمل .. حكاية الخوارج حين دخلوا شاهرين سيوفهم على الإمام أبو حنيفة [١] يسألوه عن إمرأة حملت من الزنى فماتت وهى تلد قبل التوبة .. أهى مؤمنة أم كافرة .. فقال الإمام : أقول ما قاله الخليل عليه السلام فيمن هو شر منها .. فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم .. أو أقول ما قاله عيسى عليه السلام .. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

بل إن سماحة الإسلام لا تقتصر على هذا الحد .. فهناك حكاية الغامدية التى إعترفت بإرتكاب الزنا [٢] فأقام عليها الرسول الحد وأمر الناس أن يرجموها .. فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجهها .. فسبها .. وسمع النبى صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال له : مهلا ياخالد فوالذى نفسى بيده ، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس [٣] لغفر له .. وفى رواية أخرى .. وبعد رجم إمرأة أخرى حتى الموت .. قام النبى عليه الصلاة والسلام فصلى عليها .. فقال له عمر .. أتصلى عليها وقد زنت ؟.. فقال النبى : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم .. ثم هناك ما هو أعظم من ذلك كله وأجدر من ذلك كله بالمراجعة والتوقف والتأمل .. ألا وهو حديث الإفك .. أو القصة التى أشاعها بعض المنافقين [٤] بزعامة عبدالله بن أبى سلول وزعموا فيها أن صفوان بن المعطل السلمى – وهو أحد صحابة الرسول – زنى بالسيدة عائشة أم المؤمنين .. حتى بلغ الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فذهب إلى عائشة فى بيت أبى بكر .. فسلم ثم جلس وتشهد وقال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت قد ألمت بذنب فإستغفرى الله وتوبى ، فإن العبد إذا إعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه .. وقضى الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك فترة من الوقت فى قلق شديد ولا يدرى ماذا يفعل وإستشار الصحابة.. حتى جاءت براءة عائشة من السماء قرآنا كريما منزلا .

ومع أن تلك الحكاية .. يمكننا أن نخرج منها بعشرات الدروس والعبر .. كموقف الرسول وسلوكه وخلقه العظيم .. وكصورة للمجتمع الإنسانى حين يترك العنان لألسنة الناس تخوض فى أعراض وعورات الناس .. فلا يسلم من السنة الحاقدين والمنافقين حتى رسول الله وزوجة رسول الله.. إلا أن الدرس الذى يعنينا الآن هو أن الإسلام – بقوانينه وشريعته وقواعده – ليس ذلك الدين الذى يصوره أعداؤه دينا يتشهى قطع رقاب الناس ورجمهم حتى الموت .. وهو ليس بالمقابل

---

(١) فهمى هويدى – القرآن والسلطان – دار الشروق – ١٩٨١

(٢) فتحى رضوان – آراء حرة فى الدين والحياة – كتاب الهلال – رقم ٢٢٦ – ١٩٦٩

(٣) فى لسان العرب لابن منظور – طبعة دار المعارف – كلمة مكس تعنى فى اللغة الجباية أو النقص أو إستحطاط الثمن وإنتقاصه فى البيع .. وفى الدين تعنى – بشكل مجمل – الغش فى البيع .. وهناك حديث شريف يقول : لا يدخل صاحب مكس الجنة .

(٤) عباس محمود العقاد – الصديقة بنت الصديق – دار المعارف – ١٩٨٢

الدين الذى يصوره بعض من يدعون أنهم حماته وعلى أنه الدين العابس والمتجهم الذى لا يغفر ولا يتفهم ولا يسامح .. أولئك الذين ما إن يروا حادثة خطيئة أو زنا حتى تتعالى صرخاتهم تطالب بالرجم والحد.. وكأن الحجارة وحدها هى ما ينقصنا.. كأنها وحدها هى الحل الذى إليه نستند حتى لا تفتننا حياتنا وظروفنا فى ديننا وأعراضنا وأخلاقنا .. مع أن الإسلام - بالتحديد فى قضايا الزنا وفى حدودها وعقابها الدنيوى - أثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك على أنه ليس دين الرجم والحجارة والتشهير والموت الجسدى والنفسى .. بل هو دين الرحمة والتراحم والستر والغفران .. ولعل الله أمرنا بعدم الخوض فى أعراض الآخرين .. ثم أعجزنا الدين عن عقاب الزانى والزانية ليبقى العقاب لله وحده وليس للبشر .. فالله قد يقبل التوبة لكن لن يقبلها البشر.. والله هو أعدل العادلين .. والبشر قد تحركهم أهواؤهم وتشدهم بعيدا عن العدل والحقيقة والصواب .

ومما يدعو للحزن والأسى .. أننا لا نواجه مثل هذا المأزق فى حكايات الزنا وخيانة الأزواج والزوجات فقط .. وإنما نواجه نفس هذا المأزق - وبنفس هذا القانون العاجز - حين نتعرض لحكايات الشذوذ الجنسى أيضا .. وهى الحكايات التى كان من المفترض ألا يكون لها ذكر أو مساحة لولا أنها زادت وتعددت بحيث باتت وحدها تشكل أحد أوجاع مصر الجنسية التى تفاقمت مؤخرا .. فقط تفاقمت وزادت لكنها لم تولد مؤخرا .. وإنما عرفت مصر الشذوذ الجنسى منذ زمن الفراعنة .. ولا نجد فى قوانينهم عقابا واضحا أو محددا لمن يمارسه .. التحريم الوحيد كان أن يمارسه كهنة المعابد (١) .. ثم لا نعود نقرأ شيئا عن الشذوذ فى كتاب التاريخ المصرى أزمانا طويلة لأن أحدا لم يكترث ويدقق ويراجع ذلك .. حتى يأتينا المؤرخ الكبير ابن تغرى (٢) يخبر قصير عن أمر الخليفة العباسى لقائده الأمير عيسى النوشرى بنفى المخنثين من مصر .. ثم يأتى زمان المماليك .. فتمتلئ حدائق وجه البركة فى القرن السادس عشر (٣) بالمخنثين الذين كانوا يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء ويلبسون الثياب الزاهية الألوان ويكحلون عيونهم بالكحل الأسود ويتعرضون للرجال ويمسكون الرجل منهم من قضيبه ويختلون بهم فى الأماكن المظلمة وفى الأزقة والخرائب والحدائق .. ثم تمضى فترة طويلة حتى يغدو (٤) الشذوذ منتشرا ومقبولا فى المجتمع المملوكى قبيل إنهياره أمام جيوش بونابرت .. وفى زمن أسرة محمد على يحدثنا المستشرق الفرنسى بيريس دافن (٥) عن اللواط كرذيلة شاعت فى مصر ولا سيما بين الأتراك الذين لا يتحرجون من مزاولتها جهرا .. ثم يحكى بيريس دافن عن إبراهيم باشا حين كان حاكما للصعيد وكتب إلى القاهرة يطلب إرسال حريمه له .. فأرسل الباشا الكبير - محمد على - إليه شبانا صغار السن من المماليك قائلا له أن هؤلاء الشبان هم حريم رجل الحرب .. وعلى الرغم من تلك الحكاية .. فإن بيريس دافن عاد وأكد لنا أن محمد على كان أول من بدأ فى تاريخ مصر الحديث الحرب على الشذوذ وقرر سنة ١٨٣٠ الأشغال الشاقة كعقاب لكل جندى يمارس اللواط .. ثم ينتقل بنا بيريس دافن إلى عصر الخديوى عباس ليؤكد شذوذه الذى كان الخديوى يستسلم

(١) د. عبد الرحيم صدقى محمد حسنى - القانون الجنائى عند الفراعنة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥
(٢) جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة - ١٩٦٣
(٣) محمد سيد كيلانى - فى ربوع الأزبكية - دار العرب للبستانى - ١٩٥٩
(٤) محمد جلال كشك - خواطر مسلم فى المسألة الجنسية - مكتبة التراث الإسلامى - ١٩٩٢
(٥) بيريس دافن - إدريس أفندى فى مصر - ترجمة د. أنور لوقا - كتاب اليوم - ١٩٩١

له فى الخفاء مع مماليكه الشبان .. ثم يؤكد بيريس دافن أن عباس لم يمت كما يقال بالسكتة القلبية .. وإنما مات قتيلا بأيدى أخوين أراد الخديوى إجبارهما على إرتكاب الفاحشة فرفضا فهددهما عباس بشر العقاب فلم يجد الشقيقان خلاصا إلا بقتل الخديوى فى بنها يوم الرابع عشر من يوليو عام ١٨٥٤ .. وفى واقع الأمر .. ليس هناك فى كتب التاريخ والتأريخ ما يؤكد أو ينفى سلوك الخديوى الشاذ بدرجة قاطعة وواضحة .. ففى كتاب مذكرات الوزير نوبار (١) نقرأ أن عباس كان محاطا بعدد من المماليك الشبان الذين تولى تنشئتهم وتربيتهم فى أجنحة منفصلة وفرض عليهم الجهل الكامل بحيث لا يدرى أحد منهم بما يجرى فى الخارج .. وحين قدم لنا المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى شهادته عن الخديوى عباس .. فإنه لم يقطع أى شك بأى يقين .. وإنما قال(٢) أن عباس الذى جلس على كرسى الحكم خمس سنوات كان .. غريب الأطوار .. شاذ فى حياته .. يميل إلى القسوة .. وكانت له حاشية من المماليك يصطفيهم ويقربهم إليه ويغدق عليهم بالرتب العسكرية العالية .. لكن الأمانة تقتضى الإشارة إلى أن الرافعى أراد أيضا تنبيهنا إلى أن عباس رفض فتح أبواب مصر عن آخرها أمام الأوروبيين .. لم يستدن منهم .. لم يمنحهم الكثير أو القليل من الإمتيازات .. ولم يستكمل الرافعى حديثه ولكن يمكننا أن نتخيل أو نتوقع أن تكون إتهامات عباس بالشذوذ مجرد تصفية حسابات .. وقد تكون إتهامات حقيقية .. خاصة وأن بيريس دافن عاد وأكد أن سعيد باشا كان شاذا أيضا .. وكان فى ليالى مجونه يخلع ثيابه ويظل عاريا هو وكل غلمانه .. وأنه كان ديمقراطيا مع هؤلاء الغلمان فكان أحيانا يقوم بالدور الإيجابى ولا يمانع أحيانا أخرى بأن يلعب الدور السلبى .. وحين يأتى الصباح .. كان من الممكن مشاهدة فتيان الباشا خارجين من جناحه وقد أنهكتهم الليلة أكثر من إنهاك نهار كامل من التدريب العسكرى الشاق .

وبعيدا عن قصور العائلة المالكة .. تبقى هناك أكثر من إشارة إلى أن الشذوذ كان قائما بالفعل هنا أو هناك فى نواحى مصر كلها .. وقال نجيب محفوظ أنه إستغل(٣) الشذوذ الجنسى فى كتابته أثناء تلك الفترة كإحدى علامات الفساد السياسى قبل الثورة .. وكدليل على أن الشذوذ صاحب الإنحلال خطوة خطوة .. وفى جريدة الأخبار – وقبل الثورة بأيام قليلة (٤) – نقرأ عن حادثة وقعت عند جسر الملاحة فى غرب الإسكندرية وراح ضحيتها رجل تبين أنه تعرض لإعتداء جنسى قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .. ثم تبين من التحقيقات أنها ليست الحادثة أو السابقة الأولى .. بل كانت الحادثة الثالثة فى أربعة أشهر فقط .. ثم تبين أخيرا أن الإسكندرية تحولت إلى مدينة يروعها هذا النوع من الجرائم منذ الحرب العالمية الثانية .

وهكذا .. يمكن التأكيد على أن الشذوذ الجنسى .. كان – حتى سنوات قليلة بعد ثورة يوليو – جريمة وخطيئة عرفتها مصر طوال عمرها .. عرفتها كجريمة خاصة جدا .. كخطيئة إستثنائية جدا .. لا يقبلها ولا يغفرها الوجدان العام وحس الناس مهما إختلفت طبقاتهم وبيئاتهم .. لكنها صورة بدأت تتغير بالتدريج وعاما بعد آخر حتى إنتهى بنا الأمر لنتعامل مع حكايات الشذوذ وعلى أنها أمر كنا نتوقعه أو نترقب حدوثه .. وأصبح من الممكن أن يرد على لسان أحدنا إتهام

(١) نوبار فى مصر – عرض وتقديم نبيل زكى – كتاب اليوم – ١٩٩١
(٢) عبد الرحمن الرافعى – عصر إسماعيل – دار المعارف – ١٩٨٢
(٣) د. أحمد إبراهيم الهوارى – البطل المعاصر فى الرواية المصرية – دار المعارف – ١٩٧٩
(٤) جريدة الأخبار – عدد ١٩٥٢/٧/١٠

أى رجل آخر بالشذوذ دون أن يثير مثل هذا الإتهام فينا أى إحساس بالدهشة أو المفاجأة أو الإنزعاج .. فقد زادت بالفعل حكايات وجرائم وخطايا الشذوذ الجنسى فى مصر .. ولعله من المناسب هنا - قبل الحديث عن تلك الزيادة وملامحها ونتائجها - أن نتوقف قليلا عند أسباب ودوافع الشذوذ كما حددها العلم والطب .. وهى الأسباب التى لخصها لنا الدكتور ناجى الجيوش فى دراسته الهامة والرصينة [1] فقال أنها .. الكبت الجنسى الإجبارى والمزمن مثل كبت الجنود أو المساجين .. أو العزلة والشعور بالوحدة .. أو إحساس الفرد بأنه منبوذ لفظه مجتمعه أو وضعه على الهامش .. أو البطالة وفقدان أى أمل أو إطمئنان للمستقبل .. أو يمكن أن يلجأ الإنسان للشذوذ نتيجة إحساسه بالملل .. الملل من حياته ومن نفسه ومن الآخرين .. ويستشهد الدكتور ناجى الجيوش على كل ذلك بنتيجة عشرات البحوث والتقارير التى أجمعت على أن أعلى نسبة للإصابة بالشذوذ نجدها فى .. جنود البحرية الأمريكية .. وأصحاب البارات .. والنجوم والممثلين والمطربين .. وأيضا المدمنين على الكحوليات والمخدرات .

وغير كل هذة الأسباب التى أشار إليها الدكتور الجيوش .. تضيف إحدى الدراسات سببا جديدا هو [2] البيوت المحطمة والعائلات التى إنهارت وتفككت .. ففى تلك الدراسة ثبت أن خمسة وستين بالمائة من الشواذ الذين أجريت عليهم الدراسة ينتمون إلى بيوت محطمة أو فقدت الترابط الأسرى أو كان فيها الآباء قساة لا يعرفون الحب أو التفاهم أو الرحمة .. بينما يضيف الدكتور جمال ماضى أبو العزايم سببا إضافيا هو [3] الحرية الجنسية حين ينالها الإنسان فى وقت مبكر فزهد فيما بعد فى الجنس السوى والطبيعى ويبدأ يفتش عن وسائل جديدة للحصول على اللذة .

وأعتقد أن كل هذة الأسباب لم تعد غريبة أو بعيدة عن المجتمع المصرى .. فقد أصبح لدينا فى سنواتنا الماضية البيوت المحطمة .. والعائلات المفككة .. والذين يشكون العزلة أو الوضاعة أو البطالة أو الخوف من الناس والمجتمع والمستقبل .. والذين أصابتهم ثرواتهم المفاجئة - التى جاءت دون جهد أو عناء - بالملل .. وهناك أخيرا أولئك الذين يعانون من الكبت الجنسى المزمن .. بل وربما كانت السجون المصرية هى أكبر وأهم سبب على الإطلاق لإنتشار الشذوذ الجنسى فى مصر .. وكان العقيد سراج الدين الروبى هو أول من أشار إلى ذلك بصورة حادة وقاطعة وجريئة وجارحة .. فقد قدم لنا كتابا [4] يحمل خلاصة تجربته كمفتش للمباحث الجنائية بوزارة الداخلية ومن بين الحوادث القليلة التى تعمد العقيد الروبى إختيارها حتى تشير كل حادثة منها إلى خلل مختلف أصاب مجتمعنا .. هناك حادثة منها تعنينا هنا كثيرا هى حادثة أو سلسلة حوادث سفاح القاهرة والتى بدأت فى يوم التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٩٨٥ بقتل رجل عند ترعة التوفيقية بالمطرية .. وبعد أربعة وعشرين يوما كان هناك قتيلا آخر فى عزبة عامر بالمرج .. وبعد عشرة أيام كان هناك قتيلا ثالثا بمنطقة الأباصيرى بمدينة السلام .. وبعد سبعين يوما كان هناك قتيلا رابعا فى منطقة البركة بمدينة السلام .. وبعد ثلاثة وثلاثين يوما كان هناك قتيلا خامسا بعزبة زينب فى المطرية .. وبعد ثمانية وعشرين يوما كان هناك قتيلا سادسا فى كفر الباشا بالمطرية .. وبعد ستة أيام كان هناك قتيلا سابعا فى حوض المنجدة بالمطرية .. ثم قتيل ثامن بعد

(١) د. ناجى الجيوش - الإنحرافات الجنسية - الأهالى للطباعة والنشر - سوريا - ١٩٨٨
(٢) د. فخرى الدباغ - الموت إختيارا - دار الطليعة - بيروت - ١٩٨٦
(٣) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠
(٤) سراج الدين الروبى - سفاح وقتلة - الدار المصرية اللبنانية - ١٩٨٩

سبعة عشر يوما فى المطرية أيضا .. وقتيل تاسع بعد تسعة أيام فى دائرة مدينة السلام .. وأخيرا تبين أن هناك عدة سمات مشتركة تجمع بين تلك الحوادث .. أهمها أن الجانى واحد .. رجل من ديروط .. مسجل خطر سرقات عامة .. دخل السجن وأفرج عنه قبل أن يرتكب أولى جرائمه بسبعة وثمانين يوما فقط .. أما السمة الثانية المشتركة بين تلك الجرائم فكانت أن القاتل فى كل مرة تعمد إنزال البنطلون أو السروال أو رفع الجلباب وتعرية مؤخرة كل قتيل .. وكان أحيانا يترك الجثة فى وضع ممارسة اللواط .. وكان هذا التعمد والإصرار هو مفتاح شخصية القاتل السفاح .. فقد تبين أنه تعرض فى السجن للإغتصاب .. وكان ينفعل بشدة كلما أصر رجال الشرطة على سؤاله عما حدث له أو معه فى السجن .. لكن كان من الواضح أن ما حدث جعله يخرج مقررا الإنتقام من أى رجل .. من كل الناس .. من هذا المجتمع الذى إغتصبه وإنتهك رجولته .. وهنا يشير العقيد الرويى إلى إنتشار الشذوذ الجنسى داخل السجون المصرية .. وإلى إغتصاب المساجين القدامى للسجين الجديد خاصة إذا كان جميل الوجه والملامح .. ووضع علامات بالموس على مؤخرة هذا السجين الجديد لإذلاله بعد ذلك .. وقام العقيد الرويى نفسه ببحث عن تلك الظاهرة إكتشف فيه أن خمسة وسبعين بالمائة من المساجين الذين شملهم البحث أكدوا وجود الشذوذ فى العنابر والزنازين .. ووافقهم على ذلك إثنان وتسعون بالمائة من ضباط السجون الذين تم سؤالهم .. وتحول ما قاله العقيد الرويى – كما سبق وأن أشرت – إلى إشارة أو شهادة أولى .. ثم توالت وتعاقبت الإشارات والشهادات .. فقامت جريدة الأهرام المسائى [١] بتحقيق داخل السجن بعنوان .. النوم على بلاطة واحدة .. تحدث فيه أحد المساجين بسجن ليمان طره وأقر بوجود تلك الإنحرافات وهذا الشذوذ نتيجة زحام الزنازين الذين يتكدس فى كل زنزانة منها خمسة وثلاثين مسجونا مع أن إتساع الزنزانة لا يزيد عن أربعة أمتار .. وأكد سجين آخر فى سجن القناطر أيضا وجود الشذوذ غير أنه أضاف أن الرجل الحر يستطيع الدفاع عن نفسه.. ثم كان هناك تحقيقا جديدا قامت به جريدة الأحرار [٢] بين لنا أسبابا أخرى للشذوذ داخل السجون غير الزحام .. كأن يتحول السجين إلى عاهرة يؤجر مؤخرته مقابل الأمان أو المخدرات أو حتى الطعام .. ثم جاءتنا نتائج دراسة أخرى قام بها الدكتور أحمد المجدوب [٣] عن نفس تلك الظاهرة .. نتائج أكدت إنتشار الشذوذ الجنسى فى سجوننا .. وأكدت أيضا أن الخطر الحقيقى يبدأ بخروج الضحية من السجن .. حيث يتحول هذا السجين إما إلى رجل شاذ يفتش عن آخرين على إستعداد للتورط معه فى شذوذه .. وإما يصبح لا هم له إلا الإنتقام والموت والدم من أى أحد ومن كل أحد .

وبالرغم من كل هذا .. فهى كارثة أن نتخيل الشذوذ الجنسى فى مصر قاصرا على السجون وزنازينها ونزلائها فقط .. لأنه بقدر تلك الحكايات التى تجئ من داخل السجن .. بقدر ما تصدمنا حكايات أخرى من خارجه .. فى البيت والشارع وفى أية مدينة مصرية .. ومع أن العميد عبد الواحد إمام .. رئيس مباحث شمال القاهرة .. قد إكتشف [٤] أثناء قيامه ببحث عن الشذوذ والإنحراف الجنسى أن وزارة الداخلية لا تملك أية إحصائيات عن جرائم الشواذ أو تلك التى

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/٩/١
(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٨/٢٩
(٣) مجلة روز اليوسف – ١٩٩٤/٨/٢٩
(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٤/٨/٢٩

إرتبطت بالشذوذ الجنسي .. إلا أن ذلك لم يمنعه من التأكيد على أن الشذوذ قد أصبح سببا للكثير من جرائم القتل التي تتم اليوم في مصر .. وسبقه في ذلك العقيد سراج الروبي حين تحدث عن نوعين من تلك الجرائم هما ممارسة الشذوذ مع الأجانب المقيمين في مصر والتي قد تنتهي أحيانا بالموت .. أو الرجال الشواذ الذين يغتصبون الأطفال والصغار وهي جرائم تنتهي دائما بالموت .. وغير ذلك كله .. باتت هناك حكايات عن شواذ تكيفوا مع المجتمع أو سمح بوجودهم المجتمع دون ضجة أو عنف أو موت .. شواذ فقراء وأغنياء .. نجوم وصعاليك .. نتعامل مع أخبارهم ونوادرهم وفضائحهم وعلى أنها نوادر نمضغ بها الوقت والملل والكآبة مع أنها في حقيقة الأمر وجع حقيقي ومؤلم من أوجاع مصر الجنسية التي ليست مصر مضطرة أو مجبرة على إحتمالها أو التعايش معها .. فتعاليم الدين واضحة ومحددة في مواجهة مثل هذا الوجع .. فعن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة ابن عباس [٢] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فإقتلوا الفاعل والمفعول به .. وعن ابن عباس رضي الله عنه [٣] أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : لعن الله من وقع على بهيمة ولعن الله من عمل قوم لوط .. بل وكان الرسول دائم التحذير من اللواط وكان يقول : إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط .

ومع ذلك .. لا نزال نصر على مواجهة اللواطيين والشواذ بكل ما هو متاح لنا من سلبية ولا مبالاة وعدم إهتمام أو إكتراث .. حتى قانون عقوباتنا الذي به نختصم وإليه نحتكم .. تحول إلى مثار سخرية أحد المتهمين [٤] في واحدة من أغرب حكايات أو قضايا الآداب .. حكاية بدأت بهذا المتهم وهو يعمل على إصطياد الرجال من شارعي شريف وسليمان باشا والذين زهدوا في تجارة العاهرات ويريدون مضاجعة الرجال .. وما إن يتم هذا القواد إتفاقه مع واحد من هؤلاء الرجال حتى يصطحبه إلى الرجل الشاذ الواقف في ممر ضيق بين الشارعين .. وذات يوم ألقى البوليس القبض على الثلاثة .. الرجل الشاذ والقواد وأحد الزبائن .. فتم الإفراج عن الزبون بإعتباره مجرد شاهد .. وأحيل الرجل الشاذ والقواد إلى المحكمة .. وهناك فوجئ القواد بأن الرجل الشاذ متهم بممارسة الدعارة .. بينما هو متهم بتسهيل الدعارة .. وعقوبة التهمة الثانية أكبر وأشد من عقوبة التهمة الأولى .. فأخذ القواد يصرخ في قاعة المحكمة مؤكدا إستعداده لأن يكون أشد إحترافا للدعارة من زميله حتى ينال عطف القانون وعقوباته المخففة !.

وإذا كان هذا الرجل لم يعرف إلا متأخرا جدا كيف يتساهل قانوننا مع الشواذ وأصحابهم إلى هذا الحد .. فإننا جميعا يقينا لا نعرف سببا أو تفسيرا لذلك .. يقينا لا نعرف أيضا ما هو القيد الذي يمنعنا من النص على جريمة الشذوذ الجنسي - الفاعل والمفعول به - في قانون العقوبات كجريمة قائمة بذاتها وتشديد عقوبتها حماية للمجتمع .. ولأخلاق وفضائل هذا المجتمع .. من شرورها وآثامها .. ويقينا لا نعرف أيضا وأيضا متى يمكن أن نتخلى عن سماحتنا وتعاطف قوانيننا وقواعدنا مع كل هؤلاء المجرمين والزناة سواء كانوا من الرجال أو النساء .. ومتى يمكن أن نغضب وأن نعترض وأن نثور وأن نواجه أوجاعنا وخطايانا بكل ما يقتضيه الأمر

---

(١) د. جمال مصطفى عبد الحميد - الصاعقة الأزهرية - مكتبة الإمام البخاري - ١٩٩٢

(٢) عبد الرحمن واصل - مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية - مكتبة وهبة - ١٩٨٤

(٣) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٧٥/٨/٢٨

من قوة وحزم والتزام بالتاريخ والدين والفضيلة والأخلاق ومصر .. ومتى ننجح فى أن نسرق قنبلة الجنس من كل بيت فى مصر لا أن ننزع فتيلها ونتركها تحت كل فراش .. وكم هو مثير للرثاء أن نترك كثيرا من بيوتنا وحدها تواجه الريح والعواصف والإنفجارات فى حين أننا لا نزال نصر على إستخدام المنديل كلما عقدنا قرانا جديدا بين رجل وإمرأة يبدآن فى تأسيس مستقبل وبيت وأسرة.. وكأننا لا نستعين بهذا المنديل إلا كعادة ساذجة أو تقليد سخيف ليس له معنى .. وليس هذا صحيحا .. الصحيح هو أننا نرمز بهذا المنديل إلى الستر .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول من علمنا ذلك .. فقد كان النبى لا يعقد قرانا إلا وستر الزوجين بثوبه .. ليكون ذلك هو أول درس يتعلمه الرجل والمرأة فى أولى لحظاتهما معا كزوج وزوجة .. أن يستر كل منهما الآخر .. يستر عوراته وجروحه وإحتياجاته ومخاوفه ورغباته .. وليس أن يضع أحدهما تحت وسادة أو تحت جلد الآخر قنبلة قابلة للإشتعال فى أى وقت .. قادرة على الإنفجار فى أية لحظة.. وحين تشتعل تحرق كل شئ .. وحين تنفجر تهدم كل شئ .. الحب والأمان والفرح والحلم والحاضر والمستقبل والبيت .

(٩)

سنة أولى ... جنس

لقد أسسو المدارس
ليعلموننا
كيف
نقول نعم!

الطيب صالح
رواية : موسم الهجرة الى الشمال

كم عدد الأطفال فى مصر ؟!.

من الأوراق الرسمية نعرف أن فى مصر اليوم .. إثنان وعشرون مليون طفلا وطفلة تقل أعمارهم عن الأربعة عشر عاما (١) .. لكن إلى أى مدى يعبر هذا الرقم – وتلك الأوراق الرسمية – عن الواقع وعن الحقيقة .. وكم سيصبح هذا الرقم إذا قررنا أن نخصم عدد الأطفال الذين إغتال الواقع والمجتمع فى مصر براءتهم وطفولتهم .. وعدد الأطفال الذين أغلقت بيوتهم أبوابها فى وجوههم لتصبح الشوارع هى البيت والأهل والمصير .. وعدد الأطفال الذين أرسلهم آباؤهم إلى دور الحضانة فتم إغتصابهم .. أو إغتصبهم مدرسوهم فى المدارس الإبتدائية والإعدادية .. أو إغتصبهم أقاربهم وجيرانهم فى البيت أو المزارع أو الشوارع أو مقالب القمامة أو فى فنادق الخمسة نجوم .. كم سيصبح الرقم بعد أن نخصم أيضا .. عدد الأطفال والصبية الذين إنتهك الرجال الشواذ طفولتهم وأجسادهم ومستقبلهم .. وعدد الأطفال الذين إغتصبت أمهاتهم أمام أعينهم .. وعدد أولئك الصغار من ضحايا المخدرات والإدمان .. وعدد الأطفال الذين أصابهم اليأس وحاصرهم اليأس مبكرا جدا فإختاروا الموت خلاصا من حياتهم وإلى حد أن يشكو مركز السموم بكلية طب عين شمس من تزايد عدد أطفال مصر الذين إنتحروا بالفعل (٢) – أو شرعوا فى الإنتحار – مع أن أعمارهم تراوحت من سن السابعة وحتى سن الخامسة عشرة فقط .. هذا بالطبع غير ثلاثمائة الف طفل وطفلة معوقين عقليا (٣) لا تقتصر مشكلتهم على عدم الرعاية الكاملة .. وإنما المشكلة الحقيقية هى أن عددهم يتزايد كل يوم .

أنا لا أتخيل .. لا أتوهم .. لا أبالغ .. لكن هذا هو الواقع .. هذه هي الحقيقة .

واقع وحقيقة .. يؤكدان أن أطفال مصر .. باتوا يتقاسمون مع كبارها .. فاتورة حساب كل ما حدث أو سوف يحدث فى مصر .. أطفال وصغار إضطروا لأن يدفعوا ثمن أخطاء وخطايا الكبار .

فى البيت والشارع والمدرسة .. كان على هؤلاء الأطفال والصغار يدفعون الثمن .. بل وحتى فى دور الحضانة أيضا .. ففى الطالبية بالهرم (٤) .. تم القبض على مدير حضانة بعد إكتشاف قيامه بإغتصاب طفلة إعتادت والدتها أن تستبقيها فى تلك الحضانة قبل أن تذهب الأم إلى عملها .. ولم تكن المفاجأة هى فقط إغتصاب تلك الطفلة – رغم قسوة هذه الجريمة الموجعة – وإنما كانت جرأة الأب الذى لم يكتم جراحه ويكتفى بيده تمسح دموع طفلته الصغيرة .. وذهب إلى قسم الشرطة .. وطالب بحق طفلته – وحق المجتمع كله – من هذا الحيوان .. فإذ بالتحقيق يسفر عن المفاجأة الحقيقية الأكثر قسوة .. فقد كانت تلك الطفلة هى سادس طفلة يتم إغتصابها فى هذه الحضانة .. لكن خمس عائلات إمتنعت عن الشكوى إما خجلا .. أو خوفا على إحساس بناتهن الصغيرات حتى لا يخضن محنة التحقيقات الرسمية وإجراءات الكشف الطبى ..

وإذا كان هذا هو ما حدث في دار للحضانة .. فإن ما حدث وتكرر مع أطفال آخرين فى الشوارع والبيوت ..

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – تقدير عدد سكان مصر – ١٩٩٤
(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/١٢/١٠
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٣/٢٦
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/٤/٢٩ وعدد ١٩٩٠/٥/٣

كان أسوأ وأقسى .. فقد إكتشف سكان شارع الجرن بمنية السيرج بحى الساحل .. طفلة صغيرة تبلغ من العمر خمس سنوات .. عثروا عليها تبكي داخل مقلب للقمامة ومعها رجل عارى يحاول تهدئتها وإسكاتها .. وفى قسم الساحل تتضح حقيقة ما حدث (١) .. حقيقة أن هذا الرجل العارى .. البالغ من العمر ستة وعشرين عاما ويعمل بسباكة المعادن .. إصطحب تلك الطفلة ليشترى لها شيكولاتة .. وفى مقلب القمامة قام بإغتصابها .. ولولا الناس الذين إستوقفهم – رغم صخب وضجيج النهار – صراخ تلك الطفلة .. لكان من الممكن أن يرتدى الرجل ملابسه ويمضى يفتش عن ضحية جديدة دون أن يدرى به أحد .. فمن التحقيقات إتضح أنها ليست المرة الأولى .. وأن تلك الطفلة لم تكن أولى ضحاياه .. تماما مثلما لم تكن الطفلة التى لم تتجاوز السادسة من العمر .. هى أولى ضحايا مهندس صاحب مكتبة فى بولاق الدكرور (٢) .. إستدرجها داخل المكتبة وقدم لها الحلوى ووعدها بأن يحكى لها حدوتة .. لكنه بدلا من الحدوتة قام بإغتصابها .. وحين شكته أم الطفلة فى قسم الشرطة ثم فى النيابة .. إتضح أن هذا المهندس سبق له إغتصاب ثلاثة فتيات أخريات فى نفس عمر وبراءة ضحيته الرابعة .

أيضا .. لم تكن الطفلة التى لم تتجاوز الثانية من العمر .. هى أولى ضحايا شاب بلطجى (٣) لم تستوقفه براءة وطهارة طفلة فى الثانية من عمرها فقام بالإعتداء عليها من الخلف .. وتسبب فى تهتك جسدها الصغير والبرئ بقسوة فتعددت التمزقات وكثرت الجراح تنزف منها الدماء والدموع .. ثم تبين أن هذا البلطجى الشاذ إعتاد معاشرة الرجال .. وإغتصاب الأطفال أيضا .

فى واقع الأمر .. لم يكن ضحايا تلك الجرائم من الصغيرات فقط .. إنما كان هناك أيضا ضحايا من الأولاد الصغار .. وإستطاعت مباحث قسم الموسكى (٤) القبض على بائع متجول – سودانى الجنسية – إعتاد إستدراج الأطفال الصغار إلى أماكن نائية والإعتداء عليهم .. وفى حارة البنات بالسيدة زينب (٥) .. إضطر طفل للقفز من الطابق السابع هربا من بلطجى كان يريد إغتصابه .. وأنقذت حبال الغسيل الطفل من الموت وإن كان قد أصيب بكسور مضاعفة فى الذراعين والقدمين .

ويتطور الأمر من مجرد إنتهاك براءة وجسد الأطفال والصغار فقط .. ليصبح إغتصابا نهايته الموت .. وفى منطقة سموحة بمحافظة الإسكندرية (٦) .. قام بواب إحدى العمارات هناك بإغتصاب طفلة لم تتجاوز الثالثة من العمر .. كانت تلعب فى الشارع مع باقى الأطفال .. إختطفها البواب إلى منزله .. إعتدى عليها .. فشل فى إسكاتها .. خنقها .. هشم رأسها بحجر .. ألقى بجثتها فى الشارع .

ويتكرر الأمر فى منطقة الجمالية (٧) .. وفى أحد أيام شهر رمضان .. وحين إقترب وقت آذان المغرب .. كانت هناك طفلة .. صغيرة بريئة .. تشارك رفيقاتها متعة وفرحة ركوب المراجيح ..

---

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٥/٢/٢١
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/٨/١٤
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩١/٢/٣
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٧/١٠
(٥) جريدة الأهرام المسائى – ١٩٩١/٧/٢٥
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/١/١٢
(٧) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/٣/٢٢

فإستدرجها عجوز فى الستين من العمر بحجة تقديم الحلوى لها .. وذهب بها إلى طريق صلاح سالم .. وتحت أسفل كوبرى الفردوس .. قام بإغتصابها ولم تمنعه أو تردعه دموعها وتوسلاتها وصرخاتها .. ولأنها لم تتوقف عن الصراخ .. قرر العجوز قتلها فى وحشية .. ووضع جثتها فى كرتونة والقى بها فى مكان مهجور .

وبعد سبعين يوما فقط .. تكرررت المأساة فى الجيزة (١) .. بالتحديد فى قرية المناشى بمركز إمبابة .. حيث كان الأب يصطحب إبنته الصغيرة التى لم تتجاوز الثامنة من العمر إلى الحقل .. وإنشغل عنها قليلا .. ثم عاد يفتش عنها دون جدوى .. حتى تبين أن مزارعا فى حقل مجاور رأى الطفلة فإستدرجها بعيدا عن حقل والدها ثم قام بإغتصابها .. وخاف من إفتضاح أمره فقتلها والقى بجثتها فى أحد الحدائق .. وقبل ذلك الحادث بيوم واحد .. كان شاب من منطقة عرب غنيم فى حلوان (٢) .. قد إعتدى على طفل فى الثانية عشرة من العمر .. وبعد أن إعتدى عليه .. أشعل فيه النار .. وفى قرية كوم النور بمحافظة الدقهلية (٣) .. قام عامل بأحد المقاهى بإغتصاب طفلة فى التاسعة من عمرها فى منزل مهجور .. وبعد أن إعتدى عليها قام بذبحها وهرب عامين كاملين قبل أن يعود مرة أخرى ويغتصب من جديد طفلة فى الخامسة من عمرها .. إستدرجها أيضا داخل منزل مهجور .. وقام بتجريدها من ملابسها وإعتدى عليها .. ثم كتم أنفاسها حتى ماتت .. وفى شبرا الخيمة (٤) .. قام أحد بائعى الخضار بإغتصاب طفل فى السادسة من العمر داخل أوتوبيس متهالك أسفل كوبرى أحمد عرابى .. ثم قتله خنقا بعد أن إغتصبه مباشرة .

وبعد أن زاد عدد ضحايا الغرباء والبلطجية .. جاء الدور على أطفال آخرين ليتحولوا إلى ضحايا للأقارب والأصدقاء والمعارف والجيران .. فنقرأ فى مجلة صباح الخير (٥) عن طفلة فى الخامسة من عمرها إعتدى عليها جدها .. وأخرى فى السادسة من عمرها إعتدى عليها أحد جيران أسرتها .. ونقرأ أيضا عن طفلة فى السادسة من عمرها (٦) .. إستدرجها نقاش من الجيران إلى أحد المنازل فى حدائق القبة .. وفى بئر السلم قام النقاش بإغتصاب الطفلة الصغيرة .. وهو ما تكرر فى منشية البكارى بالهرم .. وكانت الطفلة هذة المرة فى السابعة من عمرها (٧) .. إختلى بها زوج شقيقتها فى البيت فأدخلها غرفة النوم حيث قام بالإعتداء عليها وإستطاع الفرار قبل أن تمسك به – أو تفتك به – عائلة زوجته وشقيقتها الطفلة البريئة ضحيته .. وتقع طفلة أخرى فى التاسعة من عمرها .. ضحية لرجل آخر كانت تعرفه وتحبه .. فهو والد صديقتها .. وقد دعا الرجل إبنته وصديقتها للنزهة وقضاء يوم حول حمام السباحة بأحد فنادق القاهرة الأنيقة (٨) .. وإستغل الأب إنشغال إبنته باللعب والسباحة فذهب بصديقتها إلى إحدى غرف الفندق حيث قام هناك بالإعتداء عليها وإغتصابها .

وأخيرا .. إنضم إلى طابور الضحايا أطفال النوادى الرياضية أيضا .. وفى نادى الجزيرة ..

---

(١) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٦/٢
(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٦/١
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٤/٢٣
(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٥/٢٢
(٥) مجلة صباح الخير – ١٩٩٠/٧/٥
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٩/٩
(٧) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٥/٢
(٨) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/٩/١٨

فوجئ رواد النادي بطفلة في السابعة من عمرها .. تخرج مسرعة من دورة المياة وهي في نصف ملابسها وتصرخ وتبكي في هيستيريا .. وسرعان ما أدرك الجميع أن الطفلة تعرضت لحادث إغتصاب داخل دورة المياة [١] .. فأغلق رجال أمن النادي كل الأبواب ومنعوا الدخول أو الخروج حتي إستطاعوا القبض علي الرجل الذي قام بإغتصابها .. وتتعدد الحكايات .. ويزداد عدد الضحايا الأطفال الصغار الأبرياء .. والأمر كله يمكن الحديث عنه كظاهرة .. حتي وإن كانت ظاهرة إستثنائية جدا .. إلا أنها تشير بوضوح إلي أن هناك خللا ما إستشري - ولا يزال - داخل مجتمعنا وتحت جلد الناس .. خلل يمكن التغاضي عنه ونسيانه مؤقتا بالقياس إلي ما يحدث .. أو ما بدأ يحدث بالفعل في مدارسنا التي إليها نرسل أطفالنا وصغارنا ليخطوا أولي خطواتهم نحو الحياة والواقع والمستقبل .

وأزعم أن أحدا لم يلتفت إلي تلك المدارس .. وإلي ما يتعلمه فيها أكثر من سبعة ملايين طفل وطفلة [٢] من الصف الأول وحتي الصف السادس الإبتدائي .. أو أن هناك من إستوقفه بالفعل حال مدارسنا وإلي أين تقود أطفالنا .. لكن تحذيراته وصرخاته كلها لم تجد آذانا تصغي وعقولا تهتم وتنزعج .. ومن هؤلاء الذين أغلقنا في وجوههم باب الحوار والمراجعة .. الدكتورة نعمات أحمد فؤاد التي أكدت [٣] أن المدرسة المصرية تحولت إلي آفة من آفات الشخصية المصرية .. والدكتورة شهيدة الباز .. الخبيرة بالمركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية .. والتي أشارت [٤] إلي غياب سياسة تعليمية هامة ألا وهي أن يقود التعليم في النهاية إلي الإحترام والإستقرار الإجتماعي .. وعبد الخالق فاروق .. صاحب الدراسة الهامة عن التعليم والأمن الوطني المصرى التي نشرتها جريدة الوفد علي حلقات طوال .. وقال في إحداها [٥] أن نظام التعليم في مصر .. هو نقطة الضعف في بنائنا الوطني ومن زوايا عديدة .. إقتصاديا وإجتماعيا ونفسيا وسلوكيا وأخلاقيا .

ومن المثير للأسي .. أن تلك التحذيرات والتنبيهات .. لا تتعلق فقط بواقع التعليم وحال المدارس في مصر اليوم أو الأمس علي أحسن تقدير .. وإنما هو حال قديم قدم التعليم نفسه في مصر .. ففي واقع الأمر .. ومنذ عرفت مصر لأول مرة في تاريخها إختراعا إسمه المدرسة في عهد محمد علي .. لم يكترث أحد مطلقا - وفي أي عصر من العصور - بتلك المدرسة وبما يمكن أن يتعلمه فيها المصريون الصغار .. ومنذ عهد محمد علي وحتي اليوم .. وعلي الرغم من تفاوت العصور وتقلب الإدارات والحكومات والسياسات والأهواء .. بقيت المدرسة المصرية حبيسة السياسة والسياسيين .. لا دور لها أو رسالة إلا أن تغرس من أساسيات العلم بما يكفي لأن يصبح الطفل الصغير موظفا صالحا وقانعا حين تجري به وتسبقه سنوات العمر .. هكذا بدأ محمد علي تاريخ المدرسة في مصر .. فقد كان - وهو الرجل البالغ الذكاء والدهاء - يخاف من المدرسة ومن التعليم .. وكان لا يريده إلا مجرد وسيلة لتخريج الموظفين فقط .. كان أيضا علي قناعة كاملة بأن أوروبا قد أخطأت حين تورطت في تعليم كل الناس .. وهو يختصر سياسته

---

(١) جريدة أخبار الرياضة - عدد ١٩٩١/٧/١٨

(٢) الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء - تقدير عدد السكان في سن التعليم - ١٩٩٤

(٣) د. نعمات أحمد فؤاد - أزمة الشباب وهموم مصرية - كتاب الحرية - ١٩٨٦

(٤) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٠/٢/١٩

(٥) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٢/٩/٦

التعليمية كلها فى خطاب يرسله عام ١٨٣٦ إلى إبنه إبراهيم يقول فيه [١] .. من الواجب أن تتفضلوا فتكتفوا بتعليم القراءة والكتابة لعدد منهم واف بأعمال الرياسة .. ونحن غير مولعين بتعميم ذلك التعليم .

لهذا .. كانت أول فكرة للتعليم فى مصر .. هى ذلك المشروع الذى أعده رفاعة الطهطاوى [٢] وفيه يحدد القصد من التعليم على أنه .. تربية الأهلية .. وإدخال المعارف فى مراتب الرعية على إختلاف درجاتهم .. والتسوية بين الأعيان والرعاع فى مادة التعليم الأهلى .

رفاعة الطهطاوى كان واضحا جدا .. محددا جدا .. صحيح أنه تجرأ وطالب بالمساواة فى التعليم بين الأعيان وبين الرعاع .. إلا أنه قرر منذ البداية أن الحكاية كلها لا تغدو أكثر من تربية الأهلية .. فلم يكن مسموحا بأكثر من ذلك .. وهكذا إلتحق بمدارس مصر فى عهد محمد على ستة الاف تلميذ [٣] لا يدرسون فى مدارسهم إلا اللغة العربية والحساب ولا يتعلمون إلا قواعد الأخلاق والتهذيب والسلوك .. وهو الأمر الذى حافظ عليه خلفاء محمد على .. فالخديوى سعيد مثلا .. لخص فى إحدى المناسبات فلسفته فى التعليم حين قال [٤] .. ولماذا أعلمهم .. لماذا أفتح أعين الناس ؟!.. إن حكمهم بذلك يصبح أصعب .

إذن .. بقيت الحكاية .. حكاية تربية وأخلاق .. وحتى حين تولى الخديوى إسماعيل مقاليد الحكم .. وإختار صاحب العزة المهندس على مبارك وكيلا لديوان المدارس فى مصر والبنادر والأقاليم .. كان مرسوم التعيين واضحا فى أن الغرض الحقيقى من التعليم هو [٥] .. إكتساب الأدب وحسن السلوك .. فقد كان هذا هو غاية ما أراده الخديوى إسماعيل من التعليم حتى وإن بدا الخديوى أكثر إهتماما من سابقيه بالتعليم .. فقد زادت فى عهده ميزانية التعليم فى مصر من ستة الاف جنيها إلى ثمانين الفا .. وزاد عدد المدارس الإبتدائية من مائة وخمسة وثمانين إلى أربعة الاف مدرسة .. وأصبح هناك مائة الف تلميذ يتعلمون فى مدارسهم الأدب وحسن السلوك .. ومع تلك الثورة التعليمية الهائلة التى شهدتها مصر فى عهد إسماعيل .. ومع أن التعليم فى زمنه أصبح أكثر إنسانية من التعليم فى عهد محمد على الذى إتخذ التعليم فى زمنه الطابع العسكرى .. إلا أن الدكتور سليمان نسيم يؤكد [٦] أنه بالرغم من كل ذلك .. تحول التعليم إلى وسيلة لطمس معالم الشخصية المصرية .. وبقى المجتمع فى عمومه يكتفى بالقليل الضحل من المعرفة .. وهو بالطبع الأمر الذى لم يكن الإحتلال الإنجليزى ليكترث أو يهتم أو يسعى إلى تغييره .. ويكفى للتدليل على حرص الإنجليز على هذا القليل الضحل من المعرفة .. أن نتأمل سياسة دوجلاس دانلوب .. مفتش التعليم فى مصر والرجل الذى عهد إليه المندوب السامى اللورد كرومر بمهمة قطع أواصر أية صلة بين التعليم وبين الفكر والثقافة والوعى .. وأيضا بمهمة الإبقاء على هذا القدر الضحل من المعرفة دون أية زيادة .. ومن المؤكد أن دانلوب نجح فى ذلك تماما .. فقد كانت نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة فى بداية الإحتلال الإنجليزى تبلغ ٥ , ٨ ٪ من كل

---

(١) صلاح عبد الصبور – قصة الضمير المصرى الحديث – كتاب الإذاعة والتليفزيون – ١٩٧٢

(٢) ، (٥) د. حسين فوزى النجار – على مبارك أبو التعليم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧

(٣) د. غالى شكرى – النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

(٤) جاك جونيور – كتابة التاريخ فى مصر – ترجمة د. عبد الوهاب بكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

(٦) د. سليمان نسيم – صياغة التعليم المصرى الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

سكان مصر .. وفي عام ١٩٢٧ .. زادت نفس هذه النسبة[١] لتصبح ٨,٧ ٪ .. بالرغم من مجانية التعليم الإبتدائي التي أقرتها وزارة المعارف في الرابع عشر من مارس عام ١٩٢١ .

وكان من الممكن أن يبقى الحال على ما هو عليه .. لولا مجئ رجل قاد ثورة التعليم الثانية بعد تلك الثورة الأولى التي قادها على مبارك في زمن الخديوي إسماعيل .. قائد الثورة الثانية كان أديب مصر العظيم الدكتور طه حسين .. الذي جاءت به وزارة الوفد عام ١٩٥٠ وزيرا للمعارف .. فقرر تعميم التعليم الإبتدائي وذهب بالمدارس إلى كثير من قرى مصر .. وقرر مجانية التعليم الثانوي .. وحين إنتقده معاصروه وأعلنوا أن هذا التوسع غير المدروس سيكون بالتأكيد على حساب المستوى .. رد عليهم بواحدة من عباراته الشهيرة قال فيها .. الجهل نار مشتعلة .. وعندما تواجه حريقا لإطفائه .. فإنك لا تفكر في نوع الماء الذي تستخدمه .. نقيا صافيا أو راكدا آسنا .

ولم يجد الدكتور الطاهر أحمد مكي ما يصف به عبارة طه حسين إلا بأنها سفسطة من الأديب الكبير دون أدنى شك .. قالها الدكتور الطاهر في مقال له بعنوان رحلة المدرسة المصرية نحو الهاوية [٢] .. تتبع فيه تاريخ تلك المدرسة وجذور وبدايات وأسباب أزماتها ومشاكلها .. سواء في زمن الإحتلال الإنجليزي.. أو بعد قيام ثورة يوليو .. والتي قال عنها الدكتور الطاهر أنها – بإستثناء كمال الدين حسين والدكتور عبد السلام عبد الغفار والدكتور أحمد فتحي سرور – لم تسند منصب وزارة التعليم إلا إلى الموظفين.. الذين ينطبق عليهم قول الجاحظ .. لباسهم الذلة وشعارهم الملق .. وهم مع ذلك في تكدير وتنغيص .. خوفا من سطوة الرئيس .. وتنكيل الصاحب .. وتغيير الدول .

وأكد الدكتور الطاهر أن هؤلاء المسئولين والوزراء .. هم المسئولون عن كل الكوارث التعليمية وإنهيار البناء التربوي .. حتى إنشاء مدارس جديدة لم يعد أمرا يهتم به أحد .. فتكدس التلاميذ في الفصول .. وتم إختصار زمن العملية التربوية إلى النصف لتعمل المدارس فترتين .. وأحيانا ثلاث مرات في اليوم الواحد .. وأصبحت المدارس أشبه بأغوار الجحيم للتلميذ والمدرس معا .. بل وضاع الود القديم بين التلميذ والمدرس فلم يعد المدرس يحسن تعليم تلاميذه ولا عاد التلاميذ يحترمون أستاذهم .

وأضاف عبد الباسط عبد المعطي رؤية أخرى في دراسة له بعنوان التعليم وتزييف الوعي الإجتماعي [٣] .. مؤكدا أن إصلاحات التعليم بعد ثورة يوليو .. مالت إلى الكم وليس إلى الكيف .. فزاد عدد المدارس بالفعل ولكن دون أية تغييرات جوهرية في نظام التعليم .. سواء من حيث شكل المؤسسة التعليمية .. أو نوعية العلاقات الإجتماعية داخلها .

ولم يعد هناك شك في أننا بدأنا نفقد حتى تلك الأهداف الأساسية التي من أجلها تأسست المدارس في مصر .. ولا أقصد هذا القدر الضحل من المعرفة .. ولكن أقصد الأدب وحسن السلوك والأخلاق .. ومن المؤكد أن مصير شيماء .. الطالبة بالصف الرابع الإبتدائي بمدرسة عمار بن ياسر في حي المطرية .. دليل حاسم وقاطع على أننا – وبعد أكثر من مائة عام – فشلنا

(١) د. لطيفة محمد سالم – مصر في الحرب العالمية الأولى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

(٢) مجلة الهلال – عدد ١٩٨٧/٧

(٣) مجلة العلوم الإجتماعية – الكويت – المجلد الثاني عشر – العدد الرابع – شتاء ١٩٨٤

تماما فى أن نجعل مدارسنا تؤدى الدور المرسوم لها ألا وهو .. تربية الأهلية وتهذيب أخلاق الرعية .. فالطفلة الصغيرة شيماء والتى لم تكن بعد قد أكملت العاشرة من عمرها (١) .. تم إغتصابها فى مدرستها .. وعثر الناس على جثتها ملقاة بجوار سور المدرسة .. وتبين من التحقيقات أن الطفلة الصغيرة ذهبت إلى مدرستها لتسأل عن نتيجة إمتحان آخر العام .. فدعاها سيد – فراش المدرسة – للدخول .. وأدخلها أحد الفصول حيث طرحها أرضا وإعتدى عليها .. وراحت شيماء بفعل الإعتداء الوحشى فى غيبوبة طويلة .. فتركها الفراش وذهب يتناول طعامه .. وحين عاد .. وجدها أفاقت من غيبوبتها وإنزوت فى أحد أركان الفصل تبكى فى رعب وذهول .. حتى رأت الفراش يدخل الفصل عليها مرة أخرى فتوسلت إليه أن يتركها تعود إلى أمها .. لكنه عاود إغتصابها مرة أخرى .. لكن أشد عنفا وتوحشا .. فتمزقت أحشاء الجسد الصغير ونزفت الطفلة دماءها بغزارة .. فخاف سيد أن تعود إلى عائلتها وتروى لهم ما حدث .. فأمسك بحبل وأخذ يخنقها به حتى إنفجرت الدماء من فمها .. وأسلمت روحها بين يديه .. فحملها والقاها قرب سور المدرسة .

وفى تجاهل غريب ومريب .. تناولت الصحافة المصرية هذا الحادث ولم تجد فيه ما يستحق إطالة الحديث والحوار والتأمل بحثا عن معانيه ودلالاته .. فنشرته – بإستثناء عدد قليل للغاية من الصحف والمجلات – كأحد أخبار الجرائم المعتادة التى تقبع غالبا فى ذيل صفحات الحوادث .. ولم تفرد له تلك المساحات التى سبق وأن خصصتها لحادث إغتصاب فتاة المعادى مثلا أو إغتصاب فتاة العتبة .. أو حتى حادث إغتيال طفلة أخرى – إسمها شيماء أيضا – برصاص الإرهاب والتطرف .. وكأن هؤلاء الأخريات كن كلهن ضحايا ولم تكن شيماء ضحية لأحد .. أو كأن إغتصاب طفلة فى مدرستها أمر معتاد ومألوف .. أما الإستثناء وغير الطبيعى فهو إغتصاب فتاة تجلس مع خطيبها فى السيارة بأحد النواحى المظلمة البعيدة عن العمران أو هتك عرض فتاة محشورة داخل أوتوبيس مزدحم بشباب معجون بالرغبة والتوتر .. أو كأن شيماء التى إغتالها رصاص الإرهاب كانت أملا تعيش عليه وبه عائلتها .. أما شيماء التى إغتالها فراش مدرستها فلم يكن لها أهل .. ولم يكن هناك من تعنى له هذة الطفلة الصغيرة أملا أو حلما أو أى شئ على الإطلاق .

وهكذا .. أغلقنا ملف شيماء قبل أن نفتحه .. مع أنه كان من الضرورى جدا أن نقرأ كل أوراق وشهادات مثل هذا الملف .. لنقترب أكثر من حال مدارسنا وواقعها الذى تعيشه اليوم وسوف تعيشه غدا وبعد الغد بكل تأكيد .. فالمحامى الكبير محمد زين بركة لم يجد ما يقوله(٢) تعقيبا على حادث إغتصاب شيماء إلا أنه خلال الخمس سنوات الماضية .. جاءه أكثر من أب يشكو وقوع إعتداء جنسى على إبنته أو إبنه الصغير .

وإذا كان حادث شيماء قد جرت وقائعه عام ١٩٩٢ .. فإنه لم يكن بداية الطوفان أو الإنهيار .. ولا سيكون آخرهما .. إنما هو حادث تكررت قبله وتعددت بعده حوادث الإغتصاب داخل مدارسنا .. ففى عام ١٩٨٨ .. قام مدرس إبتدائى فى مدينة المحلة الكبرى بإغتصاب خمس من

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/٧/١١
(٢) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/٧/٣٠

تلميذاته (١) .. وفى عام ١٩٩٠ .. قام مدرس إبتدائى فى حلوان بإغتصاب - أيضا - خمس من تلميذاته داخل المدرسة(٢) .. وفى عام ١٩٩٢ .. تعددت حوادث وحالات الإغتصاب فى المدارس المصرية .. فى مدرسة فرسيس بمحافظة القليوبية (٣) .. طلب المدرس من التلاميذ الصغار إغماض عيونهم بينما كان يقوم بإغتصاب إحدى التلميذات .. وفى إحدى المدارس الإبتدائية بالسيدة زينب (٤) .. إحتجز المدرس إحدى التلميذات بعد إنتهاء اليوم الدراسى حيث قام بإغتصابها .. وفى مدرسة عمر بن الخطاب الإبتدائية بالدرب الأحمر (٥) .. قام أحد مدرسى المدرسة بهتك عرض وإغتصاب تسع تلميذات .

ولم يقتصر الأمر بالطبع على المدارس الإبتدائية ومدرسيها فقط .. وإنما تكررت الحكايات فى المدارس الإعدادية والثانوية أيضا .. ومنها حكاية تلميذة فى الصف الثالث الإعدادى (٦) .. أقنعها مدرس اللغة الإنجليزية بالإنضمام إلى إحدى مجموعات التقوية التى تذهب للمدرس فى بيته .. وفى إحدى المرات ذهبت التلميذة لكنها لم تجد أحدا غير الأستاذ الذى قام بإغتصابها .. وخافت التلميذة المذعورة والخائفة أن تحكى ما حدث لوالديها .. فإختصت به إحدى زميلاتها .. وأبدت تلك الزميلة دهشتها وإنزعاجها .. ليس من أجل ما حدث وإنما بسبب ذعر صديقتها المبالغ فيه.. فهى ليست التلميذة الوحيدة .. ولا الأولى .. التى يغتصبها المدرس .. وفى طنطا (٧) .. إعتاد تلميذ بالمرحلة الإعدادية.. الذهاب إلى بيت مدرسه من أجل مزيد من العلم ومن الفهم .. لكن فوجئ التلميذ فى أحد الأيام بالمدرس يجرده من ثيابه بالقوة.. ويقوم بالإعتداء عليه جنسيا .. ولأن التلميذ لم يستسلم .. فلم يجد المدرس حلا إلا أن يقتله ويحمل جثته فى جوال يلقى به فى أحد المصارف القريبة .

أيضا .. لم يبق الأمر قاصرا على الإغتصاب وهتك العرض فقط .. وإتسعت دائرة الخطيئة .. والحكايات التى يسقط فيها التلاميذ ضحايا لمدرسيهم .. مثلما حدث فى بورسعيد (٨) حين جمع الحب بين المدرس وبين تلميذات المرحلة الثانوية .. وإنتهى الحب فى بيت المدرس وفوق فراشه .. وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يزهد المدرس فى التلميذة ويتهرب منها ويرفض توسلاتها بالزواج منها مداراة لفضيحتها .. حتى إضطرت التلميذة الذهاب بشكواها وعارها إلى قسم شرطة المناخ ليتم القبض على المدرس ويعترف بما حدث منه وبصحة بلاغ التلميذة .. فتم إستدعاء المأذون ليعقد قران الأستاذ والتلميذة فى القسم .. وفى إحدى مدارس حى

الزيتون بالقاهرة .. تبين أن سبعة مدرسين إعتادوا الإتيان بأفعال مخلة بالحياء مع بعض طالبات المدرسة .. وأن هؤلاء المدرسين هددوا الطالبات بالرسوب فى الإمتحانات والفصل من المدرسة إذا لم يستجبن لرغباتهم .

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٥/٨

(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/١٢/٢

(٣) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/٧/٣٠

(٤) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٢/٢/١٣

(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/٧/١١

(٦) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٠/٦/١٤

(٧) مجلة روز اليوسف – ١٩٨٩/٢/٢٧

(٨) جريدة الأهرام المسائى – ١٩٩٢/٧/٢٩

ثم يجئ الدور على التحريض على الجنس والرغبة والإنحلال .. وتتعدد حكايات مدرسين يتكسبون رزقهم لا من وزارة التربية والتعليم .. وإنما من عرض الأفلام الجنسية على تلاميذهم مقابل مصروفهم .. وعلى سبيل المثال .. تم القبض على مدرس بمدينة أخميم بمحافظة سوهاج أحال إحدى الشقق لنادى فيديو لا يعرض إلا الأفلام الجنسية والعارية لتلاميذ المدرسة (١) .. ويتقاضى جنيهين من كل تلميذ قبل أن يسمح له بدخول الشقة .. وفى حى الأربعين بمدينة السويس (٢) .. تم القبض على مدرس إعدادى إعتاد عرض تلك الأفلام على التلاميذ .. وكان يوكل إلى أحد تلاميذ المدرسة أثناء اليوم الدراسى مهمة تحصيل جنيهين من كل تلميذ يرغب فى المشاهدة .. وبعد نهاية اليوم الدراسى .. يصطحب المدرس أولئك التلاميذ الذين دفعوا بالفعل إلى البيت ليشاهدوا تلك الأفلام العارية .

وبالإضافة إلى هؤلاء التلاميذ الذين وقعوا ضحايا لمدرسيهم بشكل مباشر .. كان هناك تلاميذ آخرين تخلخلت داخلهم قيم ومعانى كثيرة حين شاهدوا مدرسيهم فى مواقف مشبوهة وفاضحة.. مثل تلاميذ إحدى المدارس الإعدادية بشمال القاهرة الذين إكتشفوا أن ناظر المدرسة فى النهار.. يتحول طول الليل إلى زعيم لشبكة آداب (٣) .. أو بنات مدرسة فى طوخ رأين بوليس الآداب يقتاد ناظرهن فى نصف ثيابه خارج أحد بيوت الدعارة (٤) .. أو تلاميذ مدرسة صنافير الإبتدائية فى قليوب حين عرفوا بقرار النيابة التى أوقفت عن العمل مدرسا إعتاد كتابة عبارات الولع والغرام لسكرتيرة المدرسة على صفحات الجرائد اليومية التى كان يرسل تلاميذه لإستعارتها من السكرتيرة (٥) .. أو تلاميذ إحدى مدارس بنى سويف إكتشفوا أن مدرس اللغة الإنجليزية متهم بالشروع فى خطف موظفة شابة بعد أن دأب على مغازلتها فى مقر عملها فقضت المحكمة بحبس المدرس ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ .

أنا لا أقصد بذلك إدانة كل مدرسى مصر .. أو التشهير بهم والإساءة إليهم .. وإن كنت لست من أولئك المغرمين والمنبهرين بأحمد شوقى.. أمير الشعراء الذى زعم أن المعلم كاد أن يكون رسولا .. فأنا على يقين أن عهد الرسل والرسالات قد إنتهى .. وأنا أيضا على ثقة من أن أحدا من مدرسى مصر ليس مرشحا للقيام بدور الرسول ولا هو مؤهل لذلك .. ولكننى فقط أردت أن أشير إلى الخلل الذى بدأ يستشرى بين صفوف قلة من مدرسينا قبل الحديث عن هذا الواقع العارى الذى ألقينا إليه بتلاميذنا وصغارنا ثم عهدنا فقط إلى مدرسينا بمهمة أن يكونوا أطواق النجاة مع أننا لم نساعدهم على ذلك .. لم نشجعهم على ذلك .. لم نمنحهم فرصة القيام بمثل هذا الدور الذى هو بالتأكيد فوق طاقتهم وإستطاعتهم .

بل إننا – وعبر تاريخ التعليم فى مصر – لم نهتم مطلقا بحال المعلمين والمدرسين الذين نعهد

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/٢/١٧
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/١٠/٢٩
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/٢/٢
(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٩١/١١/٣٠
(٥) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٥/٣/٢٠

إليهم بتعليم الأطفال والصغار .. وطه حسين نفسه .. كتب عام ١٩٤٤ يقول [١] .. أن الحق الذى يجب أن يقال فى هذا الموضوع هو أن إضطراب وزارة المعارف فى سياسة إعداد المعلمين .. قد بلغ أقصاه .. وإنتهى إلى غايته .. وأصبح المضى فيه والإستمرار عليه إثما فى ذات التعليم لا ينبغى أن نقر وزارة المعارف عليه .

طه حسين أعلن ذلك وإنتقد وزارة المعارف قبل أن يصبح هو نفسه وزيرا للمعارف بعد ست سنوات .. أى أتيحت له الفرصة كاملة لأن يثور على كل سياسات الوزارة الخاطئة ومنها سياسة إعداد المعلمين .. لكن من الواضح أن الوزير طه حسين لم يشأ أن يدخل التاريخ على جوادين بدلا من جواد واحد .. وبدا أنه إكتفى بقرار مجانية التعليم الثانوى .. فلم يسع إلى إصلاح حال المعلمين والمدرسين بقدر ما سعى إلى زيادة عدد المدارس وعدد المدرسين فيها .

وبقيت فئة المعلمين .. هى الفئة الوحيدة تقريبا من بين كل فئات المهنيين والمثقفين [٢] التى تم القضاء على تشكيلها النقابى منذ ثورة ١٩١٩ .. وبقيت محرومة من هذا الحق حتى مقدمات ثورة يوليو عام ١٩٥١ .. وحتى بعد ثورة يوليو .. وكل تلك التغيرات التى طرأت – ولا تزال – على المجتمع كله .. بقى حال المعلمين والمدرسين على ما هو عليه .. إلى الحد الذى يدفع بالبنك الدولى لأن يعلن [٣] أن نسبة لا تقل عن العشرين بالمائة .. وتصل إلى سبعة وثلاثين بالمائة من المدرسين المصريين .. غير مؤهلين لأداء وظيفتهم التعليمية أو التربوية .. وفى دراسة أخرى .. أجراها المركز القومى للبحوث التربوية عن المدارس [٤] .. تبين أن سبعين بالمائة من نظار المدارس وثمانين بالمائة من مدرسيها – من أولئك الذين شملتهم الدراسة – لا يعتقدون أن الحفاظ على القيم والسلوكيات من وظائف التعليم .. وأضاف الدكتور الطاهر أحمد مكى [٥] .. أن مأساة المعلمين فى مصر تضاعفت مؤخرا نتيجة عاملين .. العامل الأول هو قصر الدرجات الوظيفية العليا على العاملين فى ديوان وزارة التربية والتعليم فقط .. والعامل الثانى هو إستعانة الوزارة بكل من هب ودب للتدريس فى المدارس وليس الإكتفاء بخريجى دار العلوم والمعلمين العليا .

وما يقصده الدكتور الطاهر مكى هو أن معظم نظار المدارس الثانوية بات الواحد منهم يكتفى بلقب مدير ولا يحلم إلا بالدرجة الوظيفية الأولى والتى لن تأتيه إلا بمحض الصدفة أو عن طريق الحظ والوساطة .. وهو ما دفع بالمدرسين الكبار ومديرى المدارس للهروب من مدارسهم والسعى وراء عمل كتابى فى ديوان الوزارة بحثا عن الدرجة الأعلى المناسبة .. أى أن المدرس .. فى الوقت الذى يكتسب فيه الخبرة اللازمة والكافية .. نجبره على الخروج من مدرسته وترك تلاميذه الصغار .. وأدى ذلك إلى التآكل من أعلى .. أما التآكل من أسفل .. فقد إخترعته الحاجة الدائمة إلى مدرسين جدد بشكل ملح ويزداد إلحاحا مع بداية كل عام دراسى جديد .. وأدى ذلك آخر الأمر إلى الإستعانة بكل من يقبل التدريس .. ولم يكن ليقبل إلا قليل الخبرة والمؤهلات ممن أعياهم العثور على وظيفة أفضل .. ثم كان أن إعتادت القوى العاملة أن ترسل كل خريج لا تجد له مكانا أو وظيفة إلى أقرب مدرسة .

---

(١) طه حسين – مستقبل الثقافة فى مصر – دار المعارف – ١٩٤٤

(٢) د. سليمان نسيم – صياغة التعليم المصرى الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

(٣) تقرير للبنك الدولى صادر بتاريخ ١٩٧٧/١/٢٨

(٤) د. سعيد إسماعيل على – محنة التعليم فى مصر – كتاب الأهالى – رقم ٤ – ١٩٨٤

(٥) مجلة الهلال – عدد ١٩٨٧/٧

وهؤلاء هم الذين عهدنا إليهم بأولادنا وأطفالنا يفتحون لهم وأمامهم أبواب الحياة والأحلام والطموح والمستقبل .. هؤلاء هم الذين تتشكل منهم القاعدة الأساسية للمدرسين فى مختلف المدارس الإبتدائية على وجه خاص .. رغم أن تلك المدرسة تلعب دورا بالغ الأثر والخصوصية فى حياة ووجدان وصياغة التلميذ أو التلميذة .. فهذة المدرسة كما رآها إثنان من كبار أساتذة علم الإجتماع (١) هى المكان الذى يحتك فيه الطفل لأول مرة ببيئته الإجتماعية الكبيرة والحقيقية .. حيث ينتقل الطفل إلى إطار أكثر إتساعا وأكثر جدية مما إعتاد عليه من قبل فى البيت .. وفى مثل هذا المناخ .. يحل المدرس محل الأب .. ويكاد دوره فى تنشئة الصغير.. يوازى ويقارب دور الأب .

فإذا كان هذا هو الواقع بشهادة العلم .. فإن المشكلة هى أنه ليس بين مدرسى المدارس الإبتدائية من هو مؤهل للقيام بهذا الدور .. والمشكلة الأكبر هى أن الأب الحقيقى لم يعد أصلا يمارس الدور الذى كان من الطبيعى .. بل من الضرورى .. أن يمارسه كل أب .

أى أن المدرسة لم تعد فقط أهم ساتر كان من المفترض فيه أن يحتمى به الصغار حتى نغرس فيهم الفضيلة والأخلاق والعلم والإستقامة .. وإنما أصبحت الساتر الأخير أيضا .. بعد أن تهاوى دور البيت والأسرة فى مشاركة المدرسة حمل مسئولية أخلاق الصغار وضبط أو تقويم سلوكهم .. وقد إستوقفتنى عبارة قالها أحد المدرسين من أصحاب الحكايات .. أو الجرائم .. التى سبق وأن أشرت إليها .. قال هذا المدرس .. أنا لست ملاكا ولا شيطانا .. لكننى إنسان بكل عقده وأزماته ومشاكله وإحتياجاته .. وأعترف أننى أخطأت .. وأننى لست أول أو آخر مدرس يخالف رسالته التربوية .. ولكن قبل أن تحاسبونا كمدرسين .. حاسبوا أنفسكم كآباء وأمهات .. أين أنتم من أولادكم ؟!.

إن إجابة هذا السؤال تقودنا إضطرارا لتأمل حال الأسرة المصرية .. والتى وصفها الدكتور جمال ماضى أبو العزايم (٢) بأنها ليست سوية فى معظمها .. فالأب شديد والأم ضعيفة .. أو العكس .. أو أن الإثنين يتصارعان فى شراسة طول الوقت .. وكلها أسر لا ترى لها دورا أكثر من توفير النوم والطعام والثياب .. لكن لا مشاركة ولا حوار ولا سلوكيات يجب أن يتعلمها الأطفال من آبائهم .. مع أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. ولهذا تحولت الأسرة المصرية إلى أفضل معمل لتفريخ الفرد - الديكتاتور .. أو بالمقابل تفريخ الفرد - الضعيف .

ومع هذا الرأى .. إتفق رأى الدكتورة شهيدة الباز بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. والذي قالته فى تحقيق قامت به مجلة روز اليوسف (٣) .. وفيه أكدت الدكتورة شهيدة أن الأسرة المصرية تتأرجح بين التدليل الزائد والقسوة المفرطة دون أى معيار .. وفى نفس التحقيق .. إختصرت الدكتورة إلهام عفيفى خطوات كثيرة لتقترب بنا من قضيتنا .. فقد أكدت أننا نفتقد التخطيط فى تربية أولادنا .. فالأب الناجح إجتماعيا هو الذى يرفع يديه إلى السماء قائلا الحمد لله .. لقد ربيتهم وعلمتهم وزوجتهم ولم أعد أريد منهم شيئا .. رباهم وعلمهم وزوجهم .. هذا هو التخطيط وهذا هو الهدف .. وليس من المهم كيف رباهم .. بأى منهج .. وعلى أية قيم

---

(١) لابلان ولافاج - البلوغ - ترجمة محمود نور الدين - منشورات عويدات - بيروت - ١٩٨٩

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٠/٢/١٩

خرجوا من البيت يواجهون الزحام والناس والحياة .

إن هذه هي مشكلتنا .. لا أحد يكترث بما يغرسه الواقع الذى نحياه من أفكار وقيم فى نفوس الصغار وعقولهم .. لا أحد فى البيت أو المدرسة .. وكأننا إكتفينا - على حد تعبير الدكتورة شهيرة الباز - بالشارع يكتسب فيه صغارنا حصيلتهم من القيم .. الشارع الذى يفيض بأخبار الإنحرافات وبالذنوب والخطايا .. ومع الشارع كان هناك التليفزيون الذى غالبا ما أصبح هو الأب الحقيقى والمدرس الحقيقى أيضا .. حتى بات المجتمع عاجزا بالفعل عن السيطرة على الصغار .. فإذا أضفنا إلى ذلك كله دراسة علمية [1] أشار إليها الدكتور سليمان نسيم أستاذ أصول التربية بجامعة حلوان .. تشير نتائجها إلى أن الطفل المصرى.. من أشقى أطفال العالم .. أمكننا حينئذ أن نتوقع الحال الذى إنتهى إليه أطفالنا وصغارنا .. سواء فى مدارسهم أو بيوتهم أو شوارعهم .

ولا يمكن الحديث عن أطفالنا فى مدارسهم إلا بعد التوقف طويلا عند حكاية جرت وقائعها عام ١٩٨٨ فى إحدى المدارس الإبتدائية .. بطل الحكاية تلميذ صغير لم يتجاوز بعد الثامنة من العمر .. ضبطته ناظرة المدرسة يختلى بزميلة له فى نفس عمره فى أحد الفصول الخالية أثناء الفسحة .. كان الإثنان يؤديان معا مشهدا فاضحا ومثيرا .. ولأن الناظرة كانت فى نفس الوقت هى أم التلميذة الصغيرة .. فقد تخلت نهائيا فى تلك اللحظات عن دور الناظرة وإكتفت بدور الأم التى إنهالت بالضرب على الطفل لولا إبنتها التى أوقفتها مؤكدة لها أنه ليس هناك ما تخشاه وأن زميلها على إستعداد للزواج منها .. ولم تقتنع الأم بحكاية الزواج تلك .. فتقدمت إلى الشرطة تتهم التلميذ بإرتكاب فعل فاضح فى المدرسة .. وكان لابد من التحقيق مع الطفل .. وأمام نيابة الأحداث وقف المتهم الصغير يعلن أنه من أسرة فقيرة جدا .. ويقيم هو ووالديه وثمانية أشقاء فى غرفة واحدة .. فهداه تفكيره للإرتباط بزميلته إبنة الناظرة للخلاص من الفقر !.

إن القضية هنا .. وكما قد يراها البعض .. هى من الذى علم هذا الطفل كيف يكون الزواج خلاصا من الفقر .. أو ما الذى دفعه للتفكير فى الزواج أصلا على الرغم من أنه لا يزال فى الثامنة من العمر .. لكننى أعتقد أن القضية والأزمة الحقيقية ليست فى التفكير فى الزواج .. سواء للزواج فى حد ذاته أو كخلاص من الفقر .. وإنما هى إرتكاب الفعل الفاضح كمفتتح للطريق إلى الزواج .. فأنا على إستعداد لمسايرة الطفل والطفلة وسأقتنع بما قاله الإثنان عن قصة الحب التى تربط بينهما .. لكن ما علاقة الحب بالفصل الخالى والأحضان الحميمة والقبلات الساخنة تعتصر شفتى طفلة وطفل فى الثامنة من العمر .. ما علاقة الحب بيد بريئة - أو كانت كذلك - تتسلل إلى جسد برئ - أو كان كذلك - تتحسس تفاصيله وزواياه .

إن محاولة إجابة مثل هذه الأسئلة .. تقودنا بالضرورة إلى التفتيش عن اللحظة التى يولد فيها الجنس .. وتولد فيها الرغبة .. فى أعماق وفكر ووعى الإنسان أو الطفل .. وقد كان سيجموند فرويد هو أول من إهتم بذلك وإنشغل به طويلا .. قبل أن يخرج علينا بنظريته التى يمكن تلخيصها [1] فى أن الطفل يخرج إلى الحياة وفى داخله بذور النشاط الجنسى .. وهو يحس

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٥/٢٠

بإشباع جنسي أثناء تناول الطعام أو حين يضع إصبعه في فمه .. وأكد فرويد أن الجنس عند الأطفال من الأهمية بحيث أنه هو الذي يحكم السلوك وهو الذي يتوقف عليه تحديد ورسم شخصية الإنسان حين ينمو ويكبر .. وعلى هذا الأساس قام فرويد بتقسيم تطور الجنس والإحساس به عند الأطفال إلى خمسة مراحل أساسية .. الأولى هي المرحلة الفمية والتي تستمر حتى السنة الأولى ونصف السنة الثانية من عمر الطفل .. وخلالها يميل الطفل إلى وضع أي شئ أو أصابعه في فمه .. والثانية هي مرحلة الشرج والتي تبقى حتى نهاية السنوات الثلاث الأولى .. وخلالها يستمتع الطفل – وينتبه – جنسيا في اللحظات التي تنقبض فيها عضلات الشرج أثناء إخراج الفضلات .. والثالثة هي مرحلة القضيب والتي تستمر من العام الثالث وحتى نهاية العام الخامس .. وفيها يتركز إهتمام الطفل بالقضيب الذي يكتشفه بين ساقيه .. وتشعر الطفلة بالغيرة والحسد لأنها لا تملك مثل هذا القضيب .. والرابعة هي مرحلة الكمون والتي تبقى حتى سن البلوغ .. وخلالها ينزوي أي إحساس بالجنس ويتركز الإهتمام حول اللعب وإكتشاف العالم الخارجي .. وأخيرا تأتي المرحلة الخامسة التي هي المرحلة الجنسية وفيها تولد الغرائز والحاجات الجنسية .

هذا هو ما توصل إليه وأعلنه سيجموند فرويد .. وهذه هي النظرية التي ما إن أعلنت .. حتى إعتبرها كثير من العلماء والأطباء .. فضيحة وإفتراء على البشرية وعلى الأطفال .. وفي مؤتمر هامبورج الدولي للطب النفسي عام ١٩١٠ .. إقترح أحد الأطباء تخصيص إحدى جلسات المؤتمر لمناقشة نظرية فرويد .. فرد عليه رئيس المؤتمر مؤكدا أن ما قاله فرويد لا تصح مناقشته في مؤتمر علمي وإنما في أقرب قسم للشرطة .

ومع ذلك .. ومع كل الإكتشافات والنظريات التالية التي أعقبت نظرية فرويد وناقضتها وحطمتها وأحالتها إلى خانة الذكريات ومتحف التاريخ .. إلا أن ما تبقى من فرويد .. وسيبقى .. كان أهمية الجنس ودوره في حياتنا وفي مشاعرنا وسلوكنا .. وإذا كان العالم قبل فرويد كان يعتبر الجنس نوعا من اللهو والتسلية .. فإن فرويد أجبرنا [٢] على الإعتراف به كضرورة .. ليس فقط لإستمرار وجود الإنسان على الأرض ولكن أيضا لقيام الإنسان بواجباته ووظائفه بشكل طبيعي ومستقر .. أيضا لفت فرويد إنتباه الكثيرين إلى الجنس عند الأطفال وفي فكر الأطفال .. واحد من هؤلاء كان الكاتب الإنجليزي الشهير لورانس والذي كتب يقول [٣] أن الجنس – بالمعنى الحقيقي للعلاقة الجنسية – ليس له مكان في حياة أو فكر الطفل .. ولا يبدأ في التواجد إلا مع البلوغ .. ويضيف لورانس .. صحيح أن الأولاد والبنات قد يمارسون معا أعمالا غير لائقة .. إلا أنها ليست خطيرة .. ومع ذلك يجب إبعاد الأولاد عن البنات قدر المستطاع .

لكن لورانس لم يكن طبيبا .. وهو يقدم أراءه بحكم الإجتهاد كمثقف وكاتب وأديب .. أي بلا سند أو تجربة أو دليل .. أما التجربة فيقدمها الطب .. وهي في الواقع ثلاثة تجارب .. تجربة العالم هافيامولك عام ١٨٩٥ .. وتجربة العالم تونسند عام ١٨٩٦ .. وأخيرا تجربة العالم بكوين

(١) سيجموند فرويد – ثلاث مقالات في نظرية الجنسية – ترجمة سامي محمود علي – دار المعارف – ١٩٨٠ .. مع ضرورة الإشارة إلى أن نظريات وأراء فرويد تناولتها كتب ودراسات كثيرة .. وقد إطلعت عليها لكنني كنت دائم الرجوع للكتاب الذي جاء إلينا يحمل توقيع فرويد نفسه ويتضمن نظرياته وأراءه بدون تعليقات أو ملاحظات خارجية وإضافية .

(٢) أ . س . كون – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٣) د . هـ. لورانس – فانتازيا الغريزة – ترجمة عبد المقصود عبد الكريم – كتاب الهلال – رقم ٥٠٢ – ١٩٩٢

عام ١٩٧٤ .. وأثبتت هذة التجارب [١] أن الأطفال يمارسون – عن طريق إحتكاك الفخذين – العادة السرية ويستمتعون بها لا إراديا مما يدل على أنها غريزة موروثة مختزنة فى العقل الباطن .. وإستطاع بكوين أن يثبت أن الأطفال يصلون بهذا الإحتكاك إلى النشوة الفعلية بكل مظاهرها الفسيولوجية .. تسارع دقات القلب وزيادة إفراز العرق وتقلص العضلات ثم إسترخاؤها التام .. تماما كما يحدث مع البالغين الكبار أثناء ممارسة العادة السرية أو ممارسة الجنس .. هذا غير ما يلاحظه الأطباء والممرضات فى غرفة الولادة من إنتصاب مفاجئ لقضيب الطفل الوليد وإفرازات من مهبل الطفلة فى لحظاتها الأولى .

كما يؤكد العلماء أن معظم الأطفال .. منذ السنة الثالثة .. يبدأون فى إدراك المعالم والمعانى الجنسية .. ويضيف العالمان ماكوبى وجاكلين .. أن ذلك الإدراك الجنسى المبكر لدى الأطفال .. هو أول ما يحدد سلوكهم فى المستقبل .. يحدد أيضا أفكارهم ونواياهم وطبيعة رغباتهم الجنسية التى لن تسفر عن نفسها إلا بعد البلوغ .

أى أننا نستطيع أن نخرج من ذلك كله.. بأن الأطفال قادرون على إدراك الجنس بمعالمه ومعانيه .. وأن غريزته قابعة فى أعماقهم مستسلمة ومستكينة إلا إذا أيقظها أحد من الكبار .. أو أثارها مناخ يعيش وينمو ويتعلم فيه هؤلاء الأطفال .. وإذا كانت هناك حالات إستثنائية كتلك الحالة التى شهدتها إحدى المدارس الإبتدائية الخاصة ذات المستوى الرفيع جدا بالجيزة [٢] .. حين ضبطت مديرة المدرسة ولى أمر إحدى التلميذات مع تلميذة أخرى إختلى بها فى أحد الأركان وأخذ يحتضنها ويقبلها فى شهوة عارية وفاضحة .. فإن القاعدة ليست هكذا .. ونحن لا نفتح الباب لأفكار الصغار الجنسية بالعناق وتبادل القبلات مع الكبار .. إنما نشحن بطاريات الجنس والرغبة فى أعماقهم بطرق ووسائل أخرى ومختلفة وإن كانت تنتهى بنا وبهم غالبا إلى نفس النتيجة .. صحيح أن مثل تلك الطرق والوسائل لا تبدو ظاهرة وواضحة ومؤثرة إلا بعد الإنتقال إلى مرحلة أخرى تالية تبدأ بختام الدراسة الإبتدائية .. إلا أننا وقبل الإنتقال إلى تلك المرحلة الأخرى .. نكون قد غرسنا فى نفوس الصغار ما يضعف مقاومتهم ومناعتهم ضد كل ما سيتعين عليهم مواجهته بعد سنوات قليلة .. فنحن نترك هؤلاء الصغار – كما أشرت من قبل – إلى الشارع يكتسبون منه القيم والأفكار .. وإلى التليفزيون يستمدون منه خيالاتهم ورؤاهم .. مع إختصار الدين بكل قيمه وضوابطه إلى أقصى حد ممكن .. وإذا كان الأب والأم فى البيت غير حريصين على أن يحفظ أطفالهما ما هو فى إستطاعتهم من القرآن والأحاديث والحكايات الدينية قدر حرصهما على أن يجيد هؤلاء الأطفال مبادئ لغة أجنبية جديدة أو حفظ أغانى الحب والغرام تأتيهم عبر شاشة التليفزيون أو مع شريط كاسيت .. فإن مدارسنا فى المقابل ليست حريصة هى الأخرى على ما لم يحرص عليه الأب أو الأم .. وفى واقع الأمر .. نحن لا نزال ندفع الثمن الباهظ لصدام العلم والدين .. ذلك الصدام الذى بدأ بقرار إنشاء وتأسيس أول مدرسة فى مصر .. وكان ذلك بعد أن أثبت الأزهر [٣] فى أغلب الأحوال أنه غير راغب .. أو غير قادر .. على أن يقدم للمصريين شيئا من التدريب والتعليم فى أى من هذة العلوم الجديدة .. وهذا ما دفع بحكام مصر

---

(١) د. مدحت عزيز شوقى – الطب والجنس – كتاب الحرية – ١٩٨٥

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٤/٣

(٣) جاك جونيور – كتابة التاريخ فى مصر – ترجمة د. عبد الوهاب بكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣

إلى إنشاء جهاز تعليمي جديد خارج هذا البناء القديم .

وفى واحدة من غرائب التاريخ والمجتمع فى مصر .. لم يتقبل الأزهر – أو رجاله وحراسه – فكرة أن يكون هناك جهاز جديد للتعليم ونشر الثقافة والوعى .. مثلما إفترض القائمون على ذلك الجهاز الجديد أن رسالتهم لن تتحقق ودورهم لن يكتمل .. إلا بإختزال دور الأزهر ومساحته وإعلان الحرب ضده مع عدم الإبقاء عليه إلا كجامع للصلاة .. ودار لشرح علوم التفسير والفقه .. لا شأن لها بسائر العلوم وإحتياجات وأحوال وتطلعات مجتمع جديد وحديث فى مصر .. وبدلا من أن يتكامل الأزهر والمدرسة .. تصارعا وإقتتلا حتى إضطر الأزهر فى النهاية لأن يقنع ويقبل بالدور الذى أعد له سلفا .. ولم تكن القضية هى الأزهر نفسه كجامع أو دار للعلم بقدر ما كانت إختصار مساحة الدين فى حياتنا ومجتمعنا ومدارسنا .. حتى جاء اليوم الذى بات فيه ممكنا لتلميذ أو تلميذة قضاء سنوات تعليم طويلة .. يجيدان خلالها علوم الحساب والنحو والجغرافيا والتاريخ الطبيعى .. لكن لا شئ عن الدين .. لا شئ على الإطلاق .

وعلى مدى أعوام طويلة .. جرى إخماد وإسكات أى صوت يرتفع مطالبا بعودة الدين إلى المدارس وإلى الصغار .. وتفرغ كثيرون لملاحقة ومطاردة أصحاب تلك الأصوات التى تطالب بعودة الدين حتى لا تلقى صداها عند الناس .. وكان من الممكن أن يدوم مثل هذا المناخ طويلا لولا قرار الدكتور محمد حلمى مراد وزير التعليم فى الستينات .. بإدخال الدين إلى المدارس وإعتباره مادة أساسية لابد من النجاح فيها .. وبالرغم من أن هذا القرار كان سياسيا أكثر منه تعليميا وأخلاقيا وإجتماعيا .. وبالرغم من أن الدين عاد إلى المدارس بشكل لا يؤثر ولا يجدى فى كثير أو قليل .. إلا أن هذا الوزير وهذا القرار .. لم يسلما من الحرب والعداء والكراهية التى إستعرت فى نفوس البعض .. بل ويبقى إثنان من هؤلاء يتحدثان عن مثل هذا القرار بكثير من الحقد والمرارة .. فعلى سبيل المثال وصف الدكتور لويس عوض [1] قرار إدخال الدين إلى المدارس بأنه لم يكن أكثر من محاولة قامت بها الدولة لتتملق السوقة والغوغاء .. أو لتنفيذ مخطط الطابور الدينى فى البلاد .. أما الدكتور غالى شكرى .. فقد كان على العهد به دائما .. أكثر تهذيبا وأشد رشاقة فى إختيار الألفاظ والمعانى لكى يصف بها قرار الوزير الدكتور محمد حلمى مراد .. فكتب الدكتور غالى يؤكد [2] أن هذا القرار لا يعنى إلا أن ما زرعته الثورة بإحدى يديها .. راحت تخلعه باليد الأخرى .. وكأننا نضع الزيت على النار بأنفسنا .. ثم يصل الدكتور غالى إلى قمة التهذيب حين يؤكد أن مثل هذا القرار قد يحى المشاعر الدينية .. وهى التى يصفها الدكتور بأنها النتوءات الرجعية المتعفنة التى أعاقت مسيرة الثورة .

كل هذا الهجوم والإنتقاد والتحريض .. بسبب قرار .. بعد كل هذة السنوات الطويلة .. لم يغير شيئا من الواقع الذى كانت – ولا تزال – تعيشه المدرسة المصرية .. وزاد الأمر سوءا بعد طوفان الإنفتاح ومواسم الهجرة الدائمة والسعى المحموم إلى الغرب .. فالإنفتاح – كما سبق وأن أشرت – لم يكن فقط تلك الثياب المستوردة أو التليفزيون الملون فقط .. وإنما كان قرارا بإستيراد حياة بأكملها من ذلك الشاطئ الآخر الذى بيننا وبينه البحر والمحيط وسنوات التاريخ .. وكان التعليم بعضا مما إستوردناه من هناك .. مع الثقافة الأجنبية .. والأغنية الأجنبية .. واللغة

---

(١) د. لويس عوض – أوراق العمر – مدبولى – ١٩٨٩

(٢) د. غالى شكرى – النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢

الأجنبية .. فكان لابد وأن نفتح الباب أمام نوع جديد من المدارس يتعلم فيها الصغار تلك الثقافة وهذة اللغة .. فأضفنا إلى أزمات وهموم التعليم فى مصر أزمة جديدة إسمها المدرسة الخاصة .. وبعد ٦٧٨ مدرسة خاصة فى مصر عام ١٩٧٦ .. تضاعف هذا الرقم بعد عشر سنوات فقط[(١)] ليصبح ١٢٤٧ مدرسة يدرس فيها ما يزيد عن النصف مليون تلميذ وتلميذة .

ولم تكن تلك المدارس فى حد ذاتها هى المشكلة .. ولا سعى الآباء والأمهات غير المسبوق لإلحاق صغارهم بتلك المدارس حتى وإن كان ذلك فوق إستطاعتهم وطاقتهم الإقتصادية .. وإنما كانت المشكلة الحقيقية هى التغريب الذى قامت به تلك المدارس - ولا تزال - فى وعى ووجدان الصغار .. ليس فقط على حساب قيم المجتمع الأصيلة وإنما على حساب اللغة العربية أيضا .. وبعد أن كان تخريب تلك اللغة على السنة المصريين هدفا غاليا يسعى إليه البعض دون جدوى .. مثل سلامة موسى ومن هم على شاكلته ووقاحته وإفتراءاته .. بات هذا التخريب يجرى على قدم وساق فى مدارسنا .. وبيدينا نحن .. بكامل وعينا وقرارنا وإختيارنا وإرادتنا .

وإذا كان سلامة موسى قد عاش طويلا [(٢)] لا يكل ولا ييأس ولا يتعب من الدعوة بإصرار إلى إلغاء اللغة العربية الفصحى .. وإلغاء قواعد النحو والإعراب .. والإستعانة بالحروف اللاتينية لكتابة المفردات العربية .. لأن المفكر الكبير - الذى لا يزال البعض بيننا يصرون على تكريمه بشكل لافت ومستفز - إكتشف أن لغتنا العربية متخلفة وشاذة وخرساء وجامدة .. فإن الحياة لم تطل بسلامة موسى ليشهد بنفسه أمانيه وقد تحققت وأصبحت واقعا وحقيقة .. ليس فى تلك المدارس الخاصة فقط .. بل وفى حضانات ورياض الأطفال أيضا .. وهذا ما أكده الدكتور عبد الفتاح غزال وكيل كلية رياض الأطفال بجامعة الإسكندرية [(٣)] .. والذى قال أن اللغة الأجنبية أصبحت أولى الأخطار التى تهدد الطفل المصرى .. وأضافت الدكتورة سهام محمد بدر عميدة كلية رياض الأطفال قائلة أن تدريس اللغات الأجنبية بالشكل الذى يجرى حاليا فى رياض وحضانات الأطفال فى مصر خطأ فادح .. فهذة السن هى التى ينبغى تخصيصها لتعلم اللغة الأساسية .. وضرب الإثنان لنا أكثر من مثل على مدى ما أصاب اللغة العربية من تدهور على السنة المصريين الصغار فى أكثر من مكان .

ولم يقتصر الأمر على مجرد خلل لغوى فقط .. ولكن أكدت الدكتورة سهام أيضا أن تأثير هذا السعى وراء اللغة الأجنبية .. إمتد لتشمل آثاره ونتائجه البذور الأولى للإنتماء إلى الوطن من حيث النشأة الإجتماعية وإكتساب العادات والتقاليد الإجتماعية .. وهو ما أكده أيضا الدكتور كمال نجيب بكلية التربية فى جامعة الإسكندرية الذى أشار إلى أن تدريس تلك اللغات الأجنبية فى مثل هذة السن الصغيرة .. لن يؤثر فقط على اللغة العربية .. وإنما ستمتد آثاره أيضا إلى الفكر والثقافة والعادات والتقاليد .

ومن المفارقات التى تثير الإستياء والحزن .. أنه فى الوقت الذى تنهال فيه معاول التغريب تهدم ما تبقى من لغتنا العربية .. نجد إسرائيل تستخرج اللغة العبرية من كتب التاريخ وتفرضها على مهاجرين من مختلف بلاد العالم كلغة قومية وساتر يذوب خلفه الجميع أيا كانت خلافاتهم

---

(١) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٢/٩/١٢

(٢) محمد جلال كشك - قراءة فى فكر التبعية - مكتبة التراث الإسلامى - ١٩٩٤

(٣) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٤/٢٧

وتناقضاتهم .. ويحرص العلماء والمفكرون والحكام هناك على تلك اللغة العبرية بمنطق أن اللغة هى وعاء الشخصية والفكر والروح والعادات والتقاليد والإنتماء أيضا .

ومع ذلك .. لا يستقيم الأمر بمجرد إدانة هذا التسابق نحو المدارس الخاصة والأجنبية .. وليس من السهل إغلاق مثل هذا الملف بإتهامات ننثرها تطال هؤلاء الأباء والأمهات .. صحيح أن بعض هؤلاء الآباء والأمهات تدافعوا نحو بعض المدارس.. بقصد الوجاهة الإجتماعية لا أكثر.. مثل أولئك الذين أرادوا إستغلال إنتقال المدرسة الأمريكية من الكويت إلى القاهرة عقب الغزو العراقى .. وهى المدرسة التى إنتقلت للقاهرة لخدمة أطفال الكويتيين الذين إستقر بهم المقام مؤقتا فى القاهرة .. وكان من المقرر أن تعود للكويت مرة أخرى عقب تحريرها لولا أن إكتشفت إدارة تلك المدرسة أعدادا كافية من المصريين القادرين على تسديد رسوم بلغت الخمسة الاف دولار عن كل عام فى المرحلة الإبتدائية وسبعة الاف دولار لكل عام فى المرحلتين الإعدادية والثانوية .. كلهم تسابقوا نحو هذة المدرسة بدافع سحر ورونق إسمها فقط ودون تمهل أو تروى ولو لفترة قليلة تكفى لتقييم نتائج تلك المدرسة وسلوكيات صغارها .. ونتيجة لذلك لم يعد هناك ما يستدعى إنتقال تلك المدرسة من القاهرة وعودتها إلى الكويت مرة أخرى .. لكن هؤلاء كانوا بالفعل قلة ضئيلة بالقياس إلى غالبية الآباء والأمهات الذين لم يسارعوا بإدخال أطفالهم مدارس اللغات الخاصة والأجنبية إلا لأنه لم يكن أمامهم بديل أو خيار آخر .. فمن واقع الأرقام والنتائج .. كانت تلك المدارس الخاصة والأجنبية هى الأفضل تعليميا والأكثر إنضباطا من ناحية الدرس والتحصيل والمستوى العلمى .. ولأن القيم والأخلاق – كما سبق وأن أشرت – باتت قضايا غائبة خارجة عن دائرة الضوء والإهتمام .. فقد أصبح المستوى العلمى والنجاح الدراسى هو محك الإختيار الوحيد غالبا .. وأصبحت نتائج إختبارات الشهادات العامة فى التعليم المدرسى لا تدع مجالا للشك فى أن المدرسة الخاصة والأجنبية هى الأفضل .. ففى نهاية الثمانينات مثلا(١) .. كانت نسبة النجاح فى الشهادة الإبتدائية فى مدارس الحكومة تبلغ ٧٦,٤٪ مقابل ٩٨,١٪ فى مدارس اللغات .. وبلغت نسبة النجاح فى الشهادة الإعدادية فى مدارس الحكومة ٧٥,٦٪ مقابل ٩٧,٧٪ فى مدارس اللغات .. وبلغت نسبة النجاح فى الشهادة الثانوية للقسم العلمى فى مدارس الحكومة ٧٠,٥٪ مقابل ٩٠,٥٪ فى مدارس اللغات .. وفى القسم الأدبى كانت نسبة النجاح فى مدارس الحكومة ٦٣,٢٪ مقابل ٩٥,٧٪ فى مدارس اللغات .. وإذا كانت تلك النسب تتعلق بنتائج البنين فى إمتحانات كل شهادة .. فإن الفروق لا تتغير كثيرا فى نتائج البنات إن لم تمل أكثر إلى صالح مدارس اللغات .

وهكذا .. تزايد الإقبال على تلك المدارس عاما بعد آخر .. مع الدين الذى يزداد غيابا .. واللغة العربية بثقافتها التى تزداد إغترابا .. وهموم الواقع وأزماته التى تجعل أولياء الأمور أكثر إنشغالا .. والتليفزيون بإعلاناته وإغراءاته وإثارته التى تزداد إلحاحا .. والشارع الذى يغدو فيه الصغار أكثر تمردا .. فأصبح هذا هو المناخ الذى يبدأ فيه الأطفال والصغار – سواء كانوا فى مدارس حكومية أو خاصة – واحدة من أخطر وأقسى فترات حياتهم .. والتى يمكننا أن نقصرها هنا فى مصر على مرحلة الدراسة الإعدادية .. المرحلة التى يصل إليها ويعيش فيها صغار مصر

---

(١) دراسة لشعبة التعليم العام والتدريب بالمجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا – القاهرة – ١٩٨٤

مرحلة البلوغ .. وتبدأ مراهقتهم الجسدية والجنسية والنفسية أيضا .. ويصبح لدينا فى مصر فى تلك المرحلة قرابة الأربعة ملايين مراهق ومراهقة [١] سيتعين عليهم جميعا خوض تلك الأزمة الحادة والقاسية .. ليس فقط لأننا نجهل عنها كل شئ بتقلباتها الجسدية والنفسية وتأثيرها الضخم والمروع على تكوين شخصية ومفاهيم صغارنا .. ولكن لأنها لا تبدأ غالبا إلا فى أوج الإهتمام الأسرى بالمستوى الدراسي وحده .. بعد أن تتقلص مساحة التدليل التى كانت متاحة للصغير فى الماضى وأصبح التركيز كله قاصرا على المدرسة وواجباتها ودروسها وإمتحاناتها .. فتنزل الستر المعتمة على كل جوانب الحياة الأخرى .. وتغطى الظلال القاتمة سائر الإحتياجات والهوايات والأحلام .. حتى حب الأسرة وإهتمامها وسعيها لتلبية إحتياجات الصغير يصبح مشروطا فى أغلب الأحوال بنتائج إمتحاناته المدرسية ورضاء أساتذته ومعلموه عنه .. ولا أحد من الآباء يبدو على إستعداد وسط هذا السباق الدراسى المحموم ليتوقف ويهتم بما يدور فى أعماق طفله أو طفلته فى لحظات الإنتقال الصعبة من براءة الصغار إلى واقعية الكبار .

ونحن لا نملك فى مصر دراسة علمية تشير بوضوح إلى متوسط السن التى تبدأ فيها المراهقة فى مصر بشكل حاسم ودقيق .. ولا نعرف متى يبدأ المراهق المصرى ممارسة العادة السرية لأول مرة وإن كنا نعرف أن كثيرا منهم يمارسونها كما أشار القس يوأنس كمال [٢] .. وفى المقابل يشير الدكتور محمد أبو الغار [٣] إلى أن الدورة الشهرية تظهر عند الفتاة المصرية ما بين سن التاسعة وسن السادسة عشرة .. ولكن يمكن الإستناد إلى الإحصائيات الطبية والعالمية التى تحدد فترة البلوغ للصبى بين سن العاشرة والرابعة عشرة .. وللفتاة بين سن التاسعة والرابعة عشرة .. وإن كان يجب علينا ألا ننسى أن الجدول الزمنى للبلوغ شديد الإنفتاح .. ومن الممكن أن يحدث البلوغ ويتم قبل هذة السن أو يتأخر عنها قليلا دون أن تكون هناك أية أعراض لقصور جسدى أو خلل فى وظائفه .. كما يجب علينا ألا ننسى أيضا أن إكتمال البلوغ قد يتأثر إلى حد كبير وهام بالحالة الإجتماعية والإقتصادية للمراهق أو للمراهقة .. وأهم من ذلك كله هو ألا نخلط بين البلوغ وبين المراهقة .. فالبلوغ هو كل تلك التطورات التى تطرأ على الجسد ليصير الطفل رجلا والطفلة أنثى .. أما المراهقة فهى كل التطورات والتغيرات النفسية التى تصاحب ذلك .. وهى تسبق البلوغ وتبقى حتى بعد أن يكتمل .. وبقدر ما تغدو آثار البلوغ على الجسد واضحة على صاحبه أو صاحبتها .. بقدر ما تغدو آثار المراهقة أيضا واضحة وظاهرة .. صحيح أن لكل حالة مراهقة خصوصيتها وسماتها المميزة .. إلا أنه هناك ما يمكنه الجمع بين كل المراهقين والمراهقات .. فالمراهقة مثلا ترتبط بولع صاحبها أو صاحبتها بالأكاذيب والقدرة عليها .. وترتبط بالفضول سواء كان محدودا أو لا نهاية له .. وبالرفض والتمرد وسرعة الغضب .. وإضطرابات فى السلوك قد تتخذ شكل العدوان على الأخرين أو الإنطواء على الذات .. غير أن أهم ما تتميز به مرحلة المراهقة هو بداية الحياة الجنسية [٤] للصبى أو الفتاة .. حياة تبدأ بصورة مضطربة لأن كل أسرارها تبقى خاصة جدا لا يبوح بها صاحبها فى أول الأمر لأى أحد مطلقا .. لأنه فى أول

---

(١) القس يوأنس كمال – كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل بالجيزة – ١٩٨٨

(٢) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء – تقدير عدد السكان فى سن التعليم – ١٩٩٤

(٣) د. محمد أبو الغار – علامة الأنوثة – كتاب اليوم الطبى – رقم ١٢٢ – ١٩٩٢

(٤) لابلان ولافاج – البلوغ – ترجمة محمود نور الدين – منشورات عويدات – بيروت – ١٩٨٩

الأمر يبدو عاجزا عن فهم ما يجرى له .. وحين يبدأ الفهم يمنعه الخجل من أن يطلع أحدا على ذلك الذى جرى .. وتختلف تفاصيل كل ذلك بالطبع بين الصبى وبين الفتاة .. فالعلاقة بين البلوغ وبين المراهقة فى حالة الصبى مثلا تصبح أكثر إستقرارا ووضوحا وتزامنا أيضا .. فبلوغ الصبى يبدأ بتضخم الخصيتين .. ثم يستطيل القضيب ويتضخم .. وجلد كيس الخصيتين تزيد درجة تماسكه ويتغضن ويتلون بلون قاتم .. ثم تكبر البروستاتا والحويصلات المنوية .. وتبدأ بعد ذلك أولى عمليات القذف .. وهى تحدث غالبا فى سن الثالثة عشرة .. لكنه قذف لا يتضمن فى تلك الأيام أية حيوانات منوية ويستمر ذلك حتى سن السادسة أو السابعة عشرة .. وبعد عام واحد من بداية القذف .. أى فى سن الرابعة عشرة .. يظهر شعر العانة عند قاعدة القضيب ثم ينتشر ويرتفع تدريجيا فى خط منتصف البطن حتى يصل الصرة .. وبعد عام آخر يظهر شعر الإبط ثم فى نواحى أخرى حيث يتميز الذكر بنمو الشعر فى كل أنحاء الجسم .

ولا يقتصر الأمر بالطبع على تطورات البلوغ الجسدية وحدها .. وإنما تصاحبها تغييرات المراهقة النفسية أيضا .. بل إن الفتى يصل إلى ذروة النشاط الجنسى أثناء تلك المراهقة (١) .. وإذا كان الطب قد إكتشف ذلك مؤخرا فقد سبقه الجاحظ وأكد أن الغلام يكون .. أحد وأحرص وأشبق عند أول بلوغه .. وغالبا ما تكون ذروة هذا النشاط الجنسى الجديد هو ممارسة العادة السرية .. فهو ليس يجد غيرها (٢) وسيلة لتخفيف حدة ما يشعر به من توتر .. وليس أيضا يجد غيرها وسيلة لتحدى الكبار والتدليل على أنه أصبح رجلا .. وتبقى المشكلة أن العادة السرية يصاحبها فى معظم الأحوال والمجتمعات إحساس بالذنب نتيجة كل ما تراكم فى وجدان الشعوب والمجتمعات من إعتقادات خاطئة تربط بين ممارسة العادة السرية وبين عشرات الأمراض والأوجاع بل والفشل الجنسى أيضا فى المستقبل .. وكانت أوروبا هى أول من غرس مثل تلك المعتقدات فى نفوس ووعى الجميع .. فمنذ القرن السابع عشر وأوروبا تعلم صغارها أن ممارسة العادة السرية تسبب الإصابة بالجنون والضعف .. بل وتطور الأمر (٣) ليصبح عقاب ممارسى تلك العادة فى بعض الأحيان هو خصى أو بتر العضو التناسلى نفسه .. ولم تكن أوروبا وحدها .. فالتلمود أيضا يعاقب بالموت كل من يتورط بممارسة العادة السرية .. وإذا كنا هنا فى مصر لم نصل مطلقا وفى أى وقت إلى درجة إعدام الصغار الذين يمارسون مثل تلك العادة أو خصيهم .. إلا أن ذلك لم يمنعنا من أن نغرس فى وجدان صغارنا نفس تلك المعتقدات التى تمزج بين هذة العادة وبين المرض والعجز والجنون .

وإذا كان هذا هو الحال مع الأولاد .. وهذة هى العلاقة المحددة والسهلة بين البلوغ وبين المراهقة .. فإن الأمر مع البنات يختلف تماما .. فالحكاية صعبة وشائكة .. والعلاقة بين بلوغ الفتاة وبين خوضها تجربة المراهقة مركبة ومعقدة تماما .. فالفتاة المصرية – كما لاحظ إدوارد وليام لاين (٤) – ترتسم ملامحها الأنثوية وهى بعد لا تزال فى السنة التاسعة .. أو العاشرة .. من عمرها .. ومع ذلك فالبلوغ لا يبدأ بتلك الملامح الأنثوية .. ولكن يبدأ بظهور الثدى الصغير الذى ليس أكثر من نمو بسيط تحت حلمة الثدى يكون عادة مؤلما عند لمسه .. ثم يعقب ذلك ظهور

(١) لابلان ولاقاج – البلوغ – ترجمة محمود نور الدين – منشورات عويدات – بيروت – ١٩٨٩

(٢) د. عبد الرحمن نور الدين – العلم والجنس – دار الهلال – ١٩٩٠

(٣) أ . س . كون – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٤) إدوارد وليام لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – ترجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١

الشعر فوق الشفرتين الخارجيتين عند مهبل الفتاة .. ويزداد حجم حلمتى الثديين .. ويستدير كل ثدى مع إستمرار نمو شعر العانة وإنتشاره حول الشفرتين اللتين يتغير لونهما .. وحين يصل حجم الثدى إلى درجة النضوج ما بين السنة الثالثة عشرة والخامسة عشرة من عمر الفتاة .. يكون شعر العانة قد إتخذ شكل المثلث المقلوب ويبدأ الشعر يظهر تحت الإبطين .. ثم يتغير شكل الجسم كله دليلا على إكتمال النضج والنمو ولتجئ أول دورة شهرية فى حياة الفتاة .. وهى الدورة التى يمكن إعتبارها أول حدث هام فى حياة كل فتاة .. أو هى النقطة الفاصلة بين مرحلة الطفولة ببراءتها وتلقائيتها وبين مرحلة المراهقة بكل أشواكها وحيرتها وتناقضاتها وغموضها .. نقطة فاصلة على المستوى الجسدى والنفسى أيضا .. فأما الجسد .. فقد تغير تماما .. والطفلة أصبحت أنثى .. صحيح أنها غالبا لن تغدو قادرة على الحمل إلا بعد ثلاث سنوات من مجئ أول دورة .. إلا أن ذلك لا يمنع من الإعتراف الكامل بأنوثتها .. وأما النفس .. فهى بالفعل هذا الصندوق المغلق والمتخم بالأسرار والذى لا نزال على إستحياء نحاول فتحه وإكتشافه .. ومع ذلك فقد بدأنا نعرف - ولو قليلا - عن بعض هذا الذى يجرى تحت جلد الفتاة وفى أعماقها ووجدانها وهى تمر بمثل هذا التحول وهذا الإنتقال الصعب والشاق والمفاجئ .. فقد عرفنا مثلا [١] أن هناك هرمونات معينة يفرزها الجسم قبل أول دورة .. وتتسبب هذة الهرمونات فى إحساس الفتاة بقلق ومشاعر غامضة .. ويشرح لنا الدكتور فؤاد زكريا [٢] لماذا هى غامضة .. ويعلل ذلك بأن الفتاة فى ذلك الوقت لا تربط بين أعضائها التناسلية وبين مشاعرها وإضطراباتها النفسية التى تشعر بها .. فالأعضاء التناسلية لا تزال قاصرة فى مفهوم هذة الفتاة على إخراج البول فقط .. بعكس الولد الذى يكتشف مثل تلك العلاقة بسهولة وسرعة إذ أنه ليس فى حاجة لأن يتعلم من أحد العلاقة بين مشاعره وبين إنتصاب القضيب الذى يحس به على الفور .. ويضيف الدكتور فؤاد زكريا سببا ثانيا لكل هذا القلق الذى تبدأ تشكو منه الفتاة .. وهو أن هذة الدورة الأولى ترتبط بإنفجار كل العوامل النفسية التى كانت كامنة ومختفية ثم خرجت إلى السطح فجأة .. الغضب والخجل والشعور بالنقص والإحساس بالذنب .. ولعل الدكتورة نوال السعداوى هى أقدر من عبر عن كل ذلك حين كتبت فى مذكراتها [٣] تصف دورتها الأولى حيث قالت .. لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز .. أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى .. ودوار فى رأسى .. ورأيت شيئا أحمر اللون .. إنخلع قلبى من الهلع .. وإنسحبت من اللعب .. وصعدت إلى البيت .. وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير .. ولم أفهم شيئا .. وظننت أن مرضا مفاجئا الم بى .. وذهبت إلى أمى أسألها فى ذعر .. ورأيت أمى تضحك فى سعادة .. وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الإبتسامة العريضة .. ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى حيث قصت على قصة النساء الدامية .. فلزمت غرفتى أربعة أيام لا أملك شجاعة مواجهة أبى أو أخى .. فلابد وأنهم إطلعوا جميعا على عورتى .. ولا شك أن أمى فضحت سرى الجديد .. الم تكن هناك طريقة أخرى تنضج بها البنات غير هذة الطريقة الملوثة .. لابد أن الله يكره البنات فوصمهن جميعا بهذا العار .

ولست أظن أنى أبالغ إذا ما قررت أن الدكتور نوال السعداوى لم تكن تقدم شهادتها عما

(١) د. محمد أبو الغار - علامة الأنوثة - كتاب اليوم الطبى - رقم ١٢٢ - ١٩٩٢

(٢) د. زكريا إبراهيم - سيكولوجية المرأة - مكتبة مصر - ١٩٨٤

(٣) نوال السعداوى - مذكرات طبية - سلسلة إقرأ - رقم ٢٧٣ - دار المعارف - ١٩٦٥

جرى لها وحدها .. وإنما كانت شهادة عن هذا الذى يجرى والذى تشعر به كل فتاة تمر بهذة التجربة .. نفس الخوف .. نفس الحيرة .. نفس القلق والخجل والإرتباك والإحساس بالمهانة .. وإذا كان الدكتور فؤاد زكريا [١] قد أضاف أمرا جديدا وهو أنه لم تعد هناك فتيات كثيرات يجهلن هذة التجربة قبل أن يخضنها بالفعل .. وأنه لم تعد هناك تلك الفتاة التى لا تعرف أن الدورة ستأتى يوم .. والدم سيأتى يوما .. إلا أن الصورة لا تتغير كثيرا على الرغم من ذلك .. صحيح أنه لم يعد هناك جهل بما سيجرى .. لكن المعرفة غير التجربة .. وأن تصغى الفتاة لحكايات صديقاتها وقريباتها الأكبر سنا والأكثر خبرة شئ .. وأن تعيش التجربة بنفسها شئ آخر .. وهى فى واقع الأمر ليست تجربة ستدوم يوما أو عاما .. ولكنها حياة جديدة ومختلفة تماما بدأت الفتاة تعيشها بالفعل .. حياة ستجبر الفتاة على أن تلتفت إلى جسدها .. وإلى ثيابها .. ولن تعود تلك الفتاة تستخدم مستحضرات التجميل مثلا فقط لتقتدى بالكبار .. ولكن لأنها هى نفسها باتت تريد ذلك .. وتحتاج إلى ذلك .. تريد أن تكون جميلة وتحتاج لأن تشعر أنها جميلة .. هذا إلى جانب ميل الفتاة أكثر إلى الفضول وحب الإستطلاع وإكتشاف أسرار الآخرين .. والسعى إلى القيام بأى دور إيجابى حتى ولو أدى ذلك إلى التدخل فى حياة الآخرين .. مع ميل الفتاة إلى أن تحيط نفسها بهالة من الغموض والسرية .. وقد تحب الفتاة نتيجة ذلك أن تختار فتاة أخرى تتخذها صديقة مقربة أكثر من الأخريات .. وكأن الفتاة بهذة الصديقة الحميمة تؤلف جبهة ضد الآخرين وضد الكبار .. وأخيرا يبقى ولع الفتاة حينئذ بالقصص والحكايات وإلى درجة المزج بين الواقع وبين الخيال .

.. ثم يبقى الجنس .

وعلى عكس الصبى الذى يعيش قمة وذروة نشاطه الجنسى مع البلوغ .. فإن الفتاة بالبلوغ لا تصل إلى مرحلة النضج الكامل للإستجابات الجنسية .. وهى لن تصل إليها إلا بعد سن العشرين غالبا .. وتكون الرومانسية هى بديل الرغبة .. فالفتاة المراهقة تشعر بالحب .. تفتش عنه فى خيالاتها وأحلامها وحكاياتها .. وتبدأ تلتفت تحصد كل ما حولها من نظرات إعجاب وعبارات الغزل وتسعد بها .. وإذا كان الحب يلعب دورا ثانويا فى حياة المراهق فإنه يصبح إختيارا أساسيا للمراهقة .. لأنه بإختصار طوق النجاة الذى ستعبر به هذا البحر العميق المضطرب والصاخب من الحيرة والخجل والإحساس بالنقص .. فالحب يرد للفتاة إعتبارها.. وثقتها فى نفسها.. يعلمها ألا تخجل من أنوثتها .. بل ويساعدها على تقبل فكرة أنها أنثى .. ولهذا تبقى مشاعر الحب والرومانسية تعيش دوما بأعماق الفتاة وفى وجدانها .. حتى حين يجئ الجنس برغباته وشهواته وحوائجه .. فإنه سيبقى دائما فى مفهوم الفتاة أو المرأة ملازما لهذا الحب وتلك الرومانسية ومن المستحيل الفصل بينهما .

وتعيش الفتاة كل ذلك .. وتمر بمثل هذة التجربة .. ونحن لا ندرى عن ذلك شيئا .. ولا نمد لها يد المساعدة أو الفهم أو الحوار .. ولا حتى نقف على الحياد بين الفتاة وبين تجربتها ومشاعرها .. بل نحاول ومبكرا جدا أن نستأصل أية مشاعر تتراكم تحت جلد هذة الفتاة .. نستأصل الحب والأمان والجنس أيضا .. ولأننا عجزنا دائما عن إستئصال المشاعر أو الحب .. فإننا إكتفينا –

---

(١) د. زكريا إبراهيم – سيكولوجية المرأة – مكتبة مصر – ١٩٨٤

ومنذ سنوات طويلة جدا - بإستئصال الجنس عن طريق ختان هذة الفتاة للقضاء على كل شهواتها ورغباتها وإحساسها بالجنس .. وتحول الختان إلى واحدة من أشد التجارب قسوة وإيلاما يمكن لأية فتاة أن تخوضها .. وعبثا حاولت جريدة المقطم فى سنة ١٩٣٦ مثلا أن تقاوم الختان مع تأكيداتها بأنه ليس فى الختان خير يرجع إليه ولا سنة تتبع .. عبثا حاول أطباء مصر فى تلك السنوات البعيدة إستئصال تلك العادة وهذة التجربة الموجعة والمهينة .. فإقترح الدكتور إبراهيم مجدى أستاذ الولادة والأمراض النسوية إستصدار تشريع خاص لمنع ختان البنات لكنه فشل .. وفى المقابل نجح الأطباء مع بعض الطبقات المستنيرة كما أكد الدكتور أحمد عمار أستاذ الولادة والأمراض النسوية بكلية الطب بالعباسية .. لكن بقيت الغالبية تجبر البنات على الختان مما دفع بفان دفلد (١) إلى التأكيد على أن الختان هو السبب فى شيوع طابع الحزن والأسى بين السيدات المصريات فى حركاتهن وحديثهن وأغانيهن ونظرتهن للحياة لأنهن حرمن حرمانا أبديا من الإستمتاع باللذة القصوى .

فالختان هو بتر البظر وجزء من الشفرتين الصغيرتين لمهبل الفتاة .. والبظر هو عضو صغير جدا فى مقدمة المهبل .. عضو يمتلك حساسية هائلة لحركة القضيب داخل المهبل لتستطيع المرأة الإستمتاع بالجنس .. ولهذا إعتدنا أن نقطعه ونستأصله حتى لا تعرف الفتاة الجنس ولا تفكر فيه ولا تبحث عنه ولا تستمتع به .. ونسينا كل ما يسببه الختان من أوجاع وأزمات للفتاة وهى بعد فى طفولتها أو حتى حينما تكبر وتتزوج .. فقد يتسبب الختان أحيانا فى إلتهابات مزمنة بالجهاز التناسلى للفتاة نتيجة إجراء مثل هذة الجراحة دون تعقيم أو طهارة .. وقد يؤدى إلى إصابة تلك الفتاة فى المستقبل بالبرود الجنسى .. فلا تغدو إمرأة قادرة على إسعاد زوجها .. ولا هى تسعد بزوجها ولا تستمتع معه .

وبالرغم من كل تلك الجهود والمحاولات التى بذلها الأطباء والمثقفون .. فإن الختان بقى كابوسا مخيفا يطارد الفتيات الصغيرات فى مصر .. وفى عام ١٩٧٢ كتب الدكتور أحمد التاجى (٢) مؤكدا أن الختان خطر وخدعة وحرمان .. وكتب بعده وغيره الكثيرون .. حتى بدأت تلك الصورة القاتمة والمفزعة تتغيرر تدريجيا .. وحتى بدأت أسر كثيرة تتنازل عن ختان بناتها .. لكن ليس كل الأسر .. فقد بقى الختان قائما فى الأحياء الشعبية بالمدن .. وفى الريف .. وفى الصعيد .. بل إن هناك فى التسعينات دراسة أعدها مشروع صحة المرأة والطفل(٣) شملت أكثر من ستة الاف فتاة وسيدة وتبين أن ٩١,٨٪ منهن قد أجريت لهن عملية الختان .

وعلى الرغم من ذلك .. فليس قطع البظر أو إستئصاله هو الختان الوحيد الذى تعرفه بناتنا أو بعضهن .. وإنما هناك ختان آخر تعرفه البنت والولد فى سنوات المراهقة .. هو ختان العقل والوعى والمعرفة .. فلأننا لا نعرف عن الجنس شيئا .. نجبر صغارنا بدورهم على ألا يعرفوا شيئا .. ولأننا لا نفهم .. لا نحب أن يفهم الصغار .. وإنما نريد لهم أن يكبروا مثلما كبرنا .. ليس يمثل الجنس لنا ولهم سوى تلك الكومة المزعجة من الغرائب والخطايا والمتناقضات .. ليس يشكل الجسد لنا ولهم أكثر من مجرد عورة قبيحة نخجل منها جميعا أو صندوق مغلق نود لو أبقينا عليه طول العمر مغلقا نخاف إن فتحناه لقاء الف مارد وشيطان .. ومن أجل هذا يصبح الحديث عن

(١) فان دفلد - الزواج المثالى - ترجمة د. محمد فتحى - مكتبة الخانجى - ١٩٨٠

(٢) مجلة طبيبك الخاص - عدد ١٠٧٢/٨

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٤

الجنس والجسد عيبا وحراما .. والجهاز التناسلى للرجل أو المرأة يصبح درسا يمكن تجاوزه فى حصص العلوم لأنه ليس هناك المدرس القادر على أن يشرحه ولأنه أصلا لن يذكره أحد فى إمتحانات آخر العام .

إنه نفس إصرارنا القديم على أن يتعلم الصغار كل شئ من الشارع .. أو فى الشارع .. وليس فى البيت أو المدرسة .. إنها نفس رغبتنا الخالدة فى أن نتوارث كل هذا الجهل جيلا بعد جيل .. الفارق الوحيد بين صغار اليوم وبين صغار الأمس وأول أمس هو أنه من السهل اليوم أن تعرف وأن تحاول وأن تخوض الف تجربة من أجل أن تعرف .. وفى الوقت الذى ينشط فيه الأب والأم .. والأستاذ والأستاذة .. للإبقاء على حصار الجهل قائما .. يكون الصغار قد عرفوا كل شئ .. وخاض بعضهم التجربة بنفسه .. فنحن - بدون وعى أو قصد - زرعنا داخلهم الرغبة مبكرا جدا .. ثم أسلمناهم - فى أحرج سنواتهم - للتليفزيون .. للأصحاب .. للكتب والأوراق السرية .. حتى بدأنا نكتشف فتيات لازلن فى المرحلة الإعدادية ولكن عرفن الجنس وفتشن عنه وإستمتعن به .. وأولاد فى نفس المرحلة لم تعد القراءة أو كرة القدم أو أيه لعبة أخرى هى هواياتهم المفضلة وإنما لا يستهويهم إلا الجنس والبحث عن المتعة ومغامرة إكتشافها وممارستها

وإذا كان هذا هو ما بدأ يحدث لبنات وأولاد فى المرحلة الإعدادية .. فإن ما حدث لمن هم أكبر سنا كان أشد قسوة وأكثر خطورة .. فتيات كثيرات من طالبات المرحلة الثانوية يهربن من المدرسة فى الصباح لقضاء ساعات النهار فى الإستمتاع بالجنس والرغبة فى قاعات السينما المظلمة أو فى الحدائق والطرقات النائية أو فى السيارات أو داخل الشقق المفروشة .. أو فتيات يهربن من البيت نهائيا بعد خطأ لم يعد من الممكن إصلاحه .. أو نتيجة رغبة فى ممارسة الحرية حتى آخرها والفوضى حتى منتهاها .. وأولاد فى المقابل لم يعد فى مفهومهم ما يدعو للزهو والتباهى إلا عدد تجاربهم الجنسية أو عدد المرات التى إصطحبوا فيها فتيات ونساء .. حبيبات وصديقات وعاهرات .. إلى أقرب فراش .. بل ويبلغ بنا الأمر أن بدأنا نشهد فتاة فى المرحلة الثانوية [1] تتهم مدرسها بإغتصابها بعد إكتشافها أنها حامل فى ثلاثة شهور .. أو طالبة فى الصف الأول الثانوى [2] تتهم أبيها بإغتصابها لأنه رفض زواجها من حبيبها التلميذ معها فى نفس المدرسة .. ثم تبين أن علاقة الحب بين التلميذ والتلميذة قد تجاوزت كل الحدود فلم تجد الفتاة إلا تلفيق هذا الإتهام للأب الذى رفض مثل هذا الزواج .

وتغدو الصورة بالقطع .. أكثر إيلاما وإمتهانا .. خلف أسوار الجامعة .. وهناك حكاية لم تنشرها أية صحيفة أو مجلة فى مصر .. لكنها حقيقة تشهد عليها إحدى المدن الجامعية التى تقيم فيها بعض طالبات جامعة القاهرة .

بدأت الحكاية فى آخر شهر فبراير عام ١٩٩٢ .. طالبتان غادرتا المدينة وذهبتا للقاء إثنين من الشباب .. إنتهى اللقاء بفراشين فى شقة وفوق كل فراش طالب وطالبة .. وبعد دقائق المتعة والنشوى .. ترك الشابان الفتاتين داخل الشقة وذهبا وأبلغا إدارة المدينة بالتليفون عن الفتاتين .

---

(١) جريدة الأهرام - عدد 6/14/١٩٩٤
(٢) جريدة الأحرار - عدد 6/13/١٩٩٤

تم إحضار الفتاتين إلى المدينة الجامعية .

أسئلة .. تفتيش .. تحقيق .

تم إكتشاف أن إحداهما فقدت بكارتها وحامل فى شهورها الأولى .

كان القرار هو فحص غشاء بكارة كل الطالبات .. قرار لم يتم .. الغالبية رفضته بإعتباره إهانة للكبرياء والشرف .. لكن نسبة ليست ضئيلة من الطالبات رفضت القرار أيضا دون إعتبار للكبرياء أو للشرف .. إنما لأنهن كن لا يملكن أصلا أى غشاء أو أية بكارة .

.. وإنتهت الحكاية .

كان لابد وأن تنتهى على الورق فقط .. أما فى الواقع هى حكايات لا تنتهى .. نحن الذين نفضل إنهائها .. نحن لا نحب أن تبقى مثل هذة الحكايات طويلا .. إنها حكايات موجعة ومؤلمة .. ونحن عادة لا نحب الوجع ولا نرحب بالألم .. وإن كنا نرفض إستئصال أى وجع أو الم .. إنما نفضل أن ننسى .. نتناسى كل ما قد يوجعنا أو يؤلمنا .

سنوات طويلة ونحن نجاهد لننسى أو نتناسى الإنفجار الجنسى المكبوت داخل الحرم المصرى الجامعى .. حيث يطارد الجنس الطلبة والطالبات .. الأغنياء والفقراء .. الملتزمين والمتحررين .. بنفس الإثارة .. نفس الإصرار .. نفس الإلحاح .

ومن المؤكد أن حكاية المدينة الجامعية أبدا ليست حكاية وحيدة أو إستثنائية فى جامعات مصر اليوم .. هناك حكايات أخرى كثيرة لا آخر لها .. تختلف أحداثها وتفاصيلها وبطلاتها وأبطالها .. تختلف أسماء أبطالها .. ومستوياتهم أيضا .. الثقافة والعائلة والثروة والمكانة ونوع الدراسة وطبيعة العائلة .

لكن تبقى النتيجة واحدة .. أن الجامعة المصرية لم تعد اليوم دارا لتلقى العلم فقط .. ولا هى صندوق يتم فيه تفريغ مزيد من العاطلين والمتطرفين .. إنما صارت أيضا دعوة مفتوحة لإثارة كل الرغبات والشهوات .. ثم وسيلة لممارستها أيضا .

فالجامعة .. أو الجامعات المصرية .. لم تكن بعيدة عن كل ما عاشته مصر منذ أكثر من ثلاثين عاما – بعد قيام ثورة يوليو – من أحداث وأزمات وعواصف وصراعات .. وإنما كانت الجامعة خلال كل تلك السنوات مرآة لمصر التى ثارت وحاربت فإنكسرت ثم إنتصرت فإنفتحت وتغربت .

وكان من الممكن – بل وكان من الضرورى أيضا – أن تقف الجامعة فى وجه كل ما بدأ المجتمع المصرى يواجهه من إنقلابات مادية ونفسية حادة منذ منتصف السبعينات .. وأن تحمى طلابها وطالباتها – فضلا عن أساتذتها – على الأقل .. لكن سرعان ما تبين أن المقاومة فوق طاقة الجامعة التى لم يسمح لها أحد طوال سنوات عمرها – قبل الثورة وبعدها – بأن تتهيأ للقيام بمثل هذا الدور .

فكان أن عجزت الجامعة عن المقاومة .

كلنا عشنا ذلك .. كلنا رأينا ذلك .

وكان الذى تكلم .. أو أول من تكلم .. هى مجلة روز اليوسف حين قررت – بعد عام واحد فقط عقب قرار الإنفتاح – أن تفتح ملفات الإنحراف الجامعى فى حملة صحفية لم يتردد الأستاذ الجامعى الدكتور فؤاد زكريا فى أن يشارك فيها فكتب [١] معلقا على الفضائح الجامعية التى

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٥/٢٥

أصبحت بابا ثابتا فى الصحافة المصرية .. وأشار إلى نماذج عديدة للفساد الذى إستشرى داخل أروقة جامعات مصر .. مثل حكاية أستاذ جامعى إشترط على إحدى تلميذاته أن تقضى معه ليلة غرام - رغم أنها حامل - إذا كانت تريد النجاح .. وقامت النيابة بتسجيل حوارات الأستاذ مع التلميذة بالصوت والصورة .

الأستاذ رجل .. والتلميذة إمرأة .. وأى رجل من الممكن أن يخطئ .. وأن تنال منه لحظة ضعف أو تقهره رغبة مكبوتة .. وأية إمرأة ممكن أن تصمد وممكن أن تستجيب .. والمنطق يقتضى تقييم خطيئة أى رجل وعار أى إمرأة وفقا لحجمهما الحقيقى دون تهويل أو إفتعال أو إدعاء .. وليس هناك من بإستطاعته أن يطالب أية جامعة فى مصر - ولا فى العالم كله - أن تشترط على كل أستاذ فيها أو أستاذة أو طالب وطالبة بتقديم شهادة رسمية تفيد أنه أو أنها من جنس الملائكة الذين لا يخطئون ولا يضعفون ولا يزنون .

لكن .

كان ذلك فى عام ١٩٧٦ .. حيث تباشير زمن الإنفتاح لا تزال تطل علينا فى إستحياء .. وحيث المجتمع لا يزال متماسكا .. أو يحاول ذلك .. أو كنا نحن لا نزال نملك القدرة على التظاهر بذلك .. وحيث الجامعة لا تزال تحكمها قوانين صارمة وأخلاقيات تراكمت عاما بعد آخر .. حتى وإن كانت أخلاقيات قد بدأت فى التداعى والإنهيار البطئ قبل الإنفتاح وزمن الإنفتاح .. إنهيار أرجع الدكتور فؤاد زكريا بدايته إلى أزمة مارس عام ١٩٥٤ .. حين بدأ الصدام بين ثورة يوليو والجامعة .. فالجامعة التى كانت من أوائل وأشد المؤسسات المصرية ترحيبا بالثورة .. عادت بعد عامين فقط وإنضمت إلى قائمة المطالبين بالليبرالية والديمقراطية الكاملة .. فكان رد فعل الثورة هو إقالة عمداء الكليات الذين سبق إنتخابهم وتعيين آخرين بدلا منهم .. ثم بدأت عمليات تطهير الجامعة التى كانت فى حقيقتها تلويث الجامعة .. وإنتهى الأمر بتدخل السلطة فى كل شئون الجامعة بطريقة أفقدت الجامعيين توازنهم وأصبح بعدها تدهورهم الأخلاقى أمداً لا مفر منه .. ثم جاءت سنوات السبعينات ليستمر مسلسل التردى والتدهور والإنهيار .. وأصدر أنور السادات لظروف وإعتبارات سياسية واحدا من قراراته الشهيرة يتيح الفرصة لكل ناجح فى الثانوية العامة[1] ليصبح طالبا جامعيا .. وهو القرار الذى كان من نتيجته أن تضاعف عدد طلاب الجامعة فى مصر فى أربعة أعوام فقط من عام ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٧٤ .. دون أن يصاحب ذلك تطوير [2] سواء فى الإمكانات أو الدور أو حتى فى إستعداد جامعات مصر لتستقبل مزيدا من الطلبة والطالبات .. ليس ذلك فقط وإنما أوصى المجلس القومى للتعليم فى عام ١٩٧٧ . وفقا لتعليمات الرئاسة .. بزيادة فورية لعدد جامعات مصر [3] ليصبح ثمانية عشر جامعة .. مع التنبيه على أن يزداد هذا العدد سبعة جامعات أخرى خلال سنوات قليلة بعد أن إنصب إهتمام النظام الحاكم على نقل مركز الثقل الكمى فى التعليم العالى من القاهرة .. إلى الأقاليم .

وبالفعل .. كان هناك فى مصر مائة وخمسة وستين كلية ومعهد عال عام ١٩٧٢ .. وإرتفع العدد عام ١٩٧٦ ليصبح مائة وخمسة وثمانين .. ثم مائتى وعشرة عام ١٩٧٨ .. فى الوقت الذى

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٧١/٩/٢٦

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٧٧/٨/٢٢

(٣) النظام الحاكم والمعارضة فى عهد السادات - الهيئة العامة للإستعلامات - كتب مترجمة - رقم ٧٧٠

كانت فيه جامعة الإسكندرية على سبيل المثال .. والتى تأسست عام ١٩٤٢ .. كانت فى عام ١٩٧٧ لم تستكمل بعد إلا ٧٩ ٪ فقط من منشآتها التى تم تخطيطها ساعة صدور القرار بإنشاء تلك الجامعة .

ومع الزيادة فى عدد الجامعات والمعاهد العليا .. كان من الطبيعى أن يصحب ذلك زيادة مماثلة - أو أكبر - فى عدد الطلبة والطالبات .. وبلغت نسبة الزيادة السنوية فى عدد هؤلاء الطلبة أربعة عشر بالمائة خلال سنوات السبعينات .. ولم يكن .. أو لم يعد .. بوسع أحد أن يتدخل ليوقف هذا الإنفجار الجامعى المتزايد عاما بعد آخر .. بل إننا حين نقارن [١] بين خريجى الجامعات المصرية فى عامى ١٩٦٨ و١٩٨٦ .. سنجد أن خريجى الجامعة عام ١٩٦٨ كانوا عشرين الفا وسبعمائة طالبا وطالبة .. أما فى عام ١٩٨٦ .. فقد بلغ عدد الخريجين مائة وتسعة عشر الفا ومائتى طالبا وطالبة !.. وأصبحت الجامعة المصرية - كما وصفها عادل حمودة [٢] - هى جامعة الأعداد الكبيرة .. وتحولت مدرجاتها إلى علب سردين .. أو كما أشار جيلز كيبل بأنه[٣] من قبيل التضليل أن نسمى معاهد التعليم العالى فى مصر بجامعات .. وإنما يناسبها أكثر أن نسميها مؤسسات التدريس طويلة الأمد .. حيث هناك مقررات دراسية مقسمة بشكل متعسف إلى فروع ضيقة .. ودرجات يتم تقديرها من خلال نظام للإمتحانات يعود نسبيا إلى المدارس القرآنية بإعتمادها الأساسى على حفظ روتينى للملخصات .. وكان من نتيجة تلك الزيادة أيضا أن تحولت مصر كلها إلى واحدة من أعلى دول العالم فى إرتفاع نسبة الطلبة المقيدين فى التعليم العالى .. وكادت أن تصبح أيضا الدولة الأولى بين بلدان العالم الثالث [٤] التى تعيش هذا التناقض الحاد بين نسبة الحاصلين على مؤهلات عليا.. ونسبة الأميين.

ومع ذلك .. لم تكن زيادة عدد الجامعات أو طلابها هى كل الأزمة والمشكلة .. كانت فقط مجرد بداية لأكثر من مشكلة وأكثر من أزمة .. كانت الأرض الخصبة العفية التى غرس فيها زمن الإنفتاح القادم بذوره .. كانت المناخ الذى سيلائم ويناسب أن ينمو فيه الإرهاب والتطرف .. والإنحراف والضياع .. والإحساس بالقهر والعجز والخوف والهوان .

فهذة الزيادة التى كانت بلا ضابط أو رابط أو إستعداد .. قامت بتخريب كل شئ .. الأستاذ والطالب والعملية التعليمية والجامعة نفسها .. بل إن الدكتور عبد العظيم أنيس يؤكد أيضا[٥] أن كثيرا من رؤساء الجامعات الذين تقلدوا هذة المناصب فى ظل مناخ الإنفتاح الإقتصادى لم يكونوا جديرين أصلا بأن يكونوا أساتذة فى الجامعة .. وأساتذة الجامعات بدورهم .. تدهور مستواهم العلمى [٦] وإنخفضت قدرتهم على البحث .. ووجد الأستاذ الجامعى نفسه فجأة وسط أزمة - أو أزمات - مادية حادة وخانقة .. وإكتشف أن مكانته فى السلم الإجتماعى المصرى قد بدأت تتراجع ويسبقه آخرون لم يبذلوا من جهد ما بذله ولا بلغوا من العلم ما بلغه هو بعد طول

---

(١) مجلة الأهرام الإقتصادى - عدد ١٩٨٩/١١/٢٠
(٢) عادل حمودة - الهجرة إلى العنف - سينا للنشر - ١٩٨٧
(٣) جيلز كيبل - النبى والفرعون - ترجمة أحمد خضر - مدبولى - ١٩٨٨
(٤) د. أحمد الحصرى - بشر بلا ثمن - كتاب الأهالى - رقم ٤١ - ١٩٩٢
(٥) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٣/٥/٢٠
(٦) مجلة الأهرام الإقتصادي - عدد ١٩٨٢/٩/٥

عرق وإجتهاد .. وأصبح الأستاذ – كما يقول جلال أمين [١] – أهم ما يشغله هو حجم كتابه وسعره .. ولم يعد الكتاب الجامعي نافذة للخلق والإبداع والحوار العلمي .. وتلاشى دوره القديم وتحول فقط [٢] إلى وسيلة معترف بها للإثراء .. مثله مثل الدروس الخصوصية .. تلك القضية الشائكة التي فشلنا تماما في مواجهتها وعلاجها .. مما دفع بجريدة الأهرام للتعليق عليها وتقول[٣] .. ثبت – في تقرير للرقابة الإدارية – أن هناك إثنين وسبعين أستاذا بجامعة القاهرة يمارسون الدروس الخصوصية .. وجرى تحقيق بشأن هذا التقرير .. لكن تبين أن قانون الجامعات يحظر الدروس الخصوصية ويعتبرها كقضايا الزنا ويشترط لإثباتها ضبطها في حالة تلبس .. وهو شرط يكاد يكون مستحيلا في الواقع .

ولم تعد الدروس الخصوصية وإنتشارها والإعتراف غير المعلن بها هي التجاوز الوحيد المسموح به لأساتذة الجامعة .. لكن في واقع الأمر أصبح مسموحا بكل شئ .. وإنتهى بنا الحال – كما قال الدكتور أحمد الصفتي الأستاذ بكلية الإقتصاد والعلوم السياسية [٤] – إلى أن مصر أصبحت الدولة الوحيدة في العالم التي بها أساتذة في كليات الطب يفتحون عيادات .. وأساتذة في القانون يفتحون مكاتب محاماة .. وأساتذة في كليات الهندسة يفتحون مكاتب هندسية .. هذا بالطبع غير كل ما بدأ يتكشف للجميع من إنحرافات جامعية كالرشوة والتزوير والسرقة .. إنحرافات حاول القليلون كشفها ومواجهتها مثل كمال خالد الذي تقدم في مجلس الشعب بإستجواب ضخم ومخيف عن التسيب والإنحراف في إدارة شئون الجامعات .. ومثل نبيل عمر الصحفي بالأهرام الذي قام بتحقيق مثير للحزن والأسى [٥] بعنوان .. نزيف في الجامعة ولا عزاء للأساتذة .. وتحقيق آخر قام به حلمي النمنم الصحفي بمجلة المصور [٦] عن السرقات العلمية في الجامعة والتي تنتهي بهؤلاء اللصوص وهم يجلسون على مقاعد الأساتذة ويحملون الألقاب العلمية والجامعية عظيمة الشأن رفيعة المستوى

وأهم من ذلك كله .. أخلاقيات بعض أساتذة جامعاتنا التي باتت تحتاج كثيرا من التأمل والمراجعة .. فلم يكن مألوفا في مجتمعنا – منذ أن عرفنا إختراعا إسمه الجامعة في اليوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٠٨ – أن نشهد زوجة أستاذ جامعي [٧] تدير شبكة للدعارة تعمل بها بعض طالبات الجامعة .. أو نشهد أستاذة جامعية بكلية الزراعة [٨] كونت شبكة للدعارة بواسطة بعض الطالبات .. أو نشهد أكثر من أستاذ جامعي يقيمون علاقات جنسية فاضحة مع تلميذاتهم ما بدعوى الحب والشروع في الزواج .. وإما يصبح جسد التلميذة العاري هو الرشوة التي تقدمها هذه التلميذة لأستاذها لتضمن نجاحها آخر العام أو عدم رسوبها على الأقل .. أو نظير تلقي دروس خصوصية دون مقابل مثل طالبة بآداب عين شمس [٩] إعتادت

---

(١) جريدة الأهالي – عدد ١٩٨٩/١٠/٤
(٢) مجلة الأهرام الإقتصادي – ١٩٨٣/١٠/١٧
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٩/١
(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/٦/١٥
(٥) جريدة الأهرام – عع ١٩٩٤/٥/١٥
(٦) مجلة المصور – عدد ١٩٩٤/١/١٤
(٧) مجلة أكتوبر – ١٩٨٩/٤/١
(٨) مجلة روز اليوسف – ١٩٩١/١١/٤
(٩) جريدة الوفد ـ عدد ١٩٩٤/٥/١٧

التردد علي بيت مدرس مساعد بآداب القاهرة من أجل درس خصوصي .. فإنتهى الإتفاق بين الإثنين في الفراش .. ثم تطور الأمر وأصبحت الطالبة هي التي تتقاضى من أستاذها سبعين جنيها عقب كل لقاء .

ولعل كثيرين بيننا لم ينسوا بعد إثنتين من أكبر فضائح الجامعة في سنواتها الأخيرة .. كانت الفضيحة الأولي تخص أستاذا جامعيا بكلية الطب إستغل علمه ومركزه (١) في الإيقاع بالطالبات والطبيبات وحتى المريضات .. وإنتشرت المنشورات في بيوت الأطباء وأساتذة الجامعات ومدرجات الكلية تتهم هذا الطبيب بإغتصاب ست وعشرين إمرأة .. أما الفضيحة الثانية .. فكانت تخص أستاذا جامعيا بكلية الخدمة الإجتماعية تورط في علاقة خاصة جدا وغير شرعية (٢) مع إحدى طالباته وقبول هدايا من الطالبة مقابل تعديل درجات إمتحانها .. ولعل ذلك كله هو ما دفع بمجلة روز اليوسف للقيام بتحقيق (٣) عن فضائح وجرائم أساتذة الجامعة .. وجاءت النتائج والسطور والحكايات مشبعة بالدهشة والمفاجأة علي ما إنتهى إليه الحال في جامعاتنا .

وإذا كان ذلك كله هو بعض الذي جري للأستاذ .. فلنا أن نتخيل الذي جري للطالب والطالبة لكثير من طلبة الجامعة وطالباتها .. هؤلاء الذين أحلناهم - منذ السبعينات - إلي مجرد أرقام .. ولم تعد الحكومات المتعاقبة - حتي اليوم - ترى فيهم كائنات إنسانية .. بشر لهم مشاعرهم وأحلامهم وإحتياجاتهم وجراحهم وإنكساراتهم .. وبإمكاننا أن نقترب أكثر من واقع وقاع هؤلاء الذين فاض بهم المجتمع الجامعي في تلك الأيام - أواخر السبعينات - إذا تأملنا نتائج أكثر من إستفتاء (٤) ودراسة على طلبة وطالبات الجامعة .. وهي النتائج التي أكدت أن نصفهم تقريبا كان لا يهدف من دراسته إلا الشهادة وأكل العيش .. وأن ثمانية وثلاثين بالمائة منهم فقط يقرأ الصحف اليومية .. وأن ستة وتسعين بالمائة من الموضوعات التي يفضلون قراءتها هي الرياضة .. ونسبة مروعة تقترب من الصفر لا تقرأ الكتب السياسية أو الجادة .. وبالنسبة للإذاعة والتليفزيون كان هناك إستفتاء جرى في أوائل الثمانينات (٥) بين أن ستة وخمسين بالمائة من طلبة الجامعة يتابعون الإذاعة والتليفزيون بإنتظام وستة وثلاثين بالمائة أحيانا .. منهم ستة وأربعين بالمائة منهم يتابعون البرامج الدينية وخمسة وثلاثين بالمائة يتابعون البرامج الترفيهية .

ولم يتوقف أحد ليراجع ذلك .. ولم يكترث أحد بأن القراءة لم تعد تعني أحدا من هؤلاء المفترض فيهم أن يكونوا صفوة شباب المجتمع وكل رهاناته علي المستقبل .. والذي يقرأ منهم .. إنما يقرأ فقط ليتابع أخبار كرة القدم .

لم يتوقف أو يراجع أو يكترث أحد بكل ذلك .. لأن العلم والتعليم نفسه تراجع ولم تعد قضاياه تشغل إهتمام أي أحد وعلى أي مستوى .. وتوارى - كما لاحظ عبد الخالق فاروق (٦) - عيد العلم خجلا في السبعينات والثمانينات بينما تصدر إهتمام الدولة الإحتفال بعيدي الفنانين والإعلاميين.

ليس عيد العلم وحده هو الذي توارى خجلا .. الجامعة كلها - وفي أحيان كثيرة - توارت

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٣/٧/١٢
(٢) جريدة أخبار الحوادث - عدد ١٩٩٤/٧/٢٨
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٤/٨/٨
(٤) د. أحمد عبد الله - الطلبة والسياسة في مصر - ترجمة إكرام يوسف - سينا للنشر - ١٩٩١
(٥) مجلة الشباب وعلوم المستقبل -٦/١٩٨٣
(٦) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٢/٩/١٢

بدورها ورسالتها ووظيفتها .. ولم تعد مكانا ولا دارا للخلق والإبداع أو أي حوار .. فقط أصبحت مجرد محطة علي كل شاب أو فتاة التسكع عندها قليلا قبل أن ينال - بقليل من الجهد والوعي والثقافة - شهادته الجامعية .. وحين فتحنا أبواب هذه الجامعة أمام الجميع.. دون إستعداد أو فهم .. دخل الجميع الحرم الجامعي سواء في جامعات القاهرة العريقة والشهيرة أو جامعات الأقاليم الجديدة .. ومن هؤلاء كان الفقراء الذين جلسوا إلي جوار الأغنياء يتملكهم الأمل في الشهادة الجامعية التي كانت حتي وقت قريب هي الجسر الوحيد المتاح أمامهم للعبور إلي الوظيفة والمال والحياة الإجتماعية الكريمة واللائقة .. لكن سرعان ما تبين هؤلاء الفقراء أن رهاناتهم كلها خاسرة .. إذ بعد الإنفتاح بسنوات قليلة لم تعد الشهادة الجامعية نفس بريقها القديم .. كما أن فكرة أو مبدأ العمل النافع كطريق للثروة قد تلاشت كما قالت الدكتورة شهيدة الباز [1] بالمركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية والتي أضافت مؤكدة أن هؤلاء قد إكتشفوا أن الثراء ممكن بغير عمل .. وأن كل شيء متاح بغير كثير أو قليل من الجهد والمعاناة .

فكان أن إكتسب المال قيمة باتت تتزايد يوما بعد يوم في الوقت التي تتناقص الشهادة الجامعية نفس القيمة وبنفس المعدل إن لم يكن أسرع .. وبدأت الأجيال الجديدة تشهد بعينها [2] أن هناك طرقا للكسب السريع لا تحتاج إلي سهر الليالي وإرهاق العيون والجيوب في سبيل التعليم .. خاصة وقد إكتشفوا أن العلم ليس السبيل إلي الترقي وأن المال - وبأي وسيلة - هو المفتاح السحري إلي كل شيء وأي شيء .. ثم إزداد الأمر سوءا بإختراع الدروس الخصوصية التي بقيت حتي النصف الأول من السبعينات [3] محصورة داخل دائرة المباهاة أو بسبب ضعف حقيقي في المستوي .. أما بعد تلك الزيادة الخرافية في أعداد الطلبة والطالبات رغم قلة الإمكانيات .. فقد أصبحت تلك الدروس ركنا أساسيا من أركان العملية التعليمية داخل كل جامعة .. وتحولت بعد قليل إلي مزاد [4] لم يكن يكسب فيه إلا الأغنياء وحدهم .. وبقي الفقراء تضيق صدورهم أو تكاد تنفجر من الغيظ .. وفقدت مجانية التعليم معناها .. كما أن تكافؤ الفرص لم يعد له وجود .

ولم يقتصر الأمر علي ظاهرة الدروس الخصوصية فقط .. وإنما كان هناك كرنفال الأزياء الذي أدار عقول عدد كبير من الطالبات غير القادرات علي النزول إلي هذا البحر الصاخب الملون المثير .. وكان هناك الفقراء الذين إنحصرت أحلامهم - رغما عنهم - في الإرتباط بفتاة غنية قادرة علي إنتشاله من دائرة الواقع المؤلم الحزين المثير للأسي والإحباط .

أي أننا أصبحنا أمام أعداد كبيرة من الطلبة والطالبات لا تحلم إلا بالمال .. فقدت الشهادة في مفهومهم كثيرا من سابق وقارها وإحترامها .. ولم تعد العملية التعليمية قادرة علي شغل الكثير من أوقات فراغهم الطويلة التي تمنحهم فرصة التمهل والإستجابة لدعوات كثيرة حولهم تطالبهم بإرضاء شهواتهم والإستمتاع بمباهج وملذات الحياة .. ولا تلقي في هذا المناخ أستاذا يمد لها يده - دون مقابل - خارج إطار المقررات الدراسية لينتشلها من محنتها وأزماتها النفسية

---

(١) مجلة روز اليوسف - ١٩٩٠/٢/١٨.
(٢) أحمد أنور - الإنفتاح وتغير القيم في مصر - مصر العربية للنشر والتوزيع - ١٩٩٣.
(٣) جريدة الوفد - ١٩٩٢/٩/١٢.
(٤) عادل حمودة - الهجرة الي العنف - سينا للنشر - ١٩٨٧.

والفكرية والثقافية والإجتماعية .. ومع ذلك فإن أحدا لم يتنبه لما يجرى .. ولا توقف أحد عند حقيقة هامة تؤكد أن الإلتحاق بالجامعة هو أصلا [1] مرحلة تحول هامة فى حياة كثير من المراهقين حيث تمثل لهم سنوات الدراسة الجامعية فترة نمو نفسى وإجتماعى هامة .

من أجل ذلك كله .. أصبح من الممكن أن يكون اللجوء إلى الدين هو الحل .. من الممكن أن يكون إعتزال الدين حلا بديلا .. من المستحيل أن تبقى الأغلبية الصامتة المتوترة صامدة طويلا فى وجه هذا الطوفان القادم يكتسح ويقتلع كل شئ وكل أمل .

وكان علينا أن نحصد فى التسعينات ما زرعناه فى جامعة السبعينات والثمانينات .

ومثلما كان التطرف .. كان الجنس بعضا من هذا الحصاد .

وإذا كان حصاد الجنس فى الشارع هو مزيد من العنف وفائض من الغضب وقضايا إغتصاب .. فإن حصاد الجنس داخل وخلف أسوار الجامعة تجسد فى مزيد من الضياع والإنحلال وإعتزال الأخلاق والقيم فتاة بعد أخرى وشاب بعد آخر .

واحدة من هؤلاء الفتيات .. طالبة جامعية .. تم ضبطها فى واقعة زنا مع تاجر لبنانى .. وتبين بعد التحقيق معها أن عمر العلاقة تجاوز الأربعة سنوات .. ومع ذلك كانت الفتاة تصر على أنها عذراء لكن تبين بتوقيع الكشف الطبى عليها أنها إمرأة .. بدون بكارة ولا شرف .

ولا يعنينا من حكاية تلك الفتاة قضية الزنا أو كيف ومتى وأين فقدت بكارتها .. وإنما يعنينا لماذا فقدت غشاء بكارتها وفقدت معه أشياء أخرى كثيرة .. ومن المهم - بل من الضرورى - أن نستعيد ما قالته الفتاة فى قسم الشرطة [2] عقب القبض عليها .. فقد قالت : الحب وحده لم يعد كافيا لكى أعيش .. أنا فتاة جامعية .. أرى زميلاتى فى عرض أزياء مستمر .. وأنا أرتدى ثوبى وكأنه شعار أحمله فى الصيف أو الشتاء .. لا أستبدله إلا بعد سنوات .. خطيبى فقير وأنا أكره الجوع .. هدايا رفيقى وأمواله تشبعنى .. وكل شئ بثمنه .. وأخيرا نحن فى القرن العشرين .. وكل شئ مباح .. كنت أتقابل معه فى سيارته ليمارس معى الجنس .. ولا يهم إن كنت أحتفظ بصور مخلة بالآداب - كما تسمونها - أم لا .. حتى فى السجن .. لم يتغير شئ .. الفقر هو السبب .. وكل ما أملكه هو جسدى .. وعلى رأى المثل .. هايسخطوك ياقرد .. يعملوك غزال !.

إنتهت شهادة الفتاة فى قسم الشرطة .

وإنتهت الحكاية فى السجن .

وكان من الممكن أن تكون حكاية مثل عشرات الحكايات التى تحولت إلى محاضر فى كل قسم شرطة فى مصر .. أو فضيحة يتناقل تفاصيلها الناس سواء فى الشوارع أو البيوت أو المدرجات .. لكن كلمات الفتاة إختصرت كل شئ .. إمتزجت فيها مرارة الفقر ببشاعة السقوط بضياع الحب بقسوة الحرية حين يدفع ثمنها الجسد بقوانين القرن العشرين التى تمنع القرود من الحلم بأن تصبح غزلانا !.

حكاية هذه الفتاة .. التى تم القبض عليها فى التسعينات .. تحولت فى واقع الأمر إلى واحدة من فواتير حساب ما جرى فى كل جامعة فى مصر .. فواتير حساب لم تخص الفقراء وحدهم ولا الأغنياء فقط .. فقد دفع الجميع الثمن فى النهاية .. وكانت البداية هى حكاية طالبة السبعينات

---

(١) مجلة علم النفس - عدد ١٩٩٣/١

(٢) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٩٠/٩/٦

الفقيرة التى لم تجد نفسها مالكة لشئ إلا لجسد جميل ومثير ممكن أن يشتهيه الآخرون .. لم تكن طالبة واحدة .. لكن كثير جدا من الطالبات .. حتى أننا نكتشف أن مصر عاشت فى السبعينات ما يمكن أن نطلق عليها ظاهرة الدعارة الجامعية .. وفى دراسة جامعية (١) عن شبكات الدعارة فى مصر بين عامى ١٩٧٠و ١٩٨٥ .. ثبت أن أكثر من أربعة وستين بالمائة من العاهرات اللواتى تم ضبطهن .. كن طالبات .. ولكى ندرك حجم – وقسوة – هذا الرقم وتلك النسبة .. فلابد وأن نعود إلى بحث عن البغاء أجراه المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية خلال عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ .. فتبين من نتيجة ذلك البحث (٢) أن تسعة وثلاثين فى المائة من العاهرات كن يعملن خادمات بالبيوت .. وستين بالمائة منهن كن من أصحاب الحرف المتواضعة تراوحت بين العمل كبائعات متجولات أو عاملات أو خياطات أو مضيفات وساقيات فى النوادى الليلية .

ومن المؤكد أن الفقر وحده لم يكن السبب فى ذلك التغيير الذى تم فى أقل من عشرين عاما .. فلم يكن الفقر ولا الإحساس الطاغى بالمرارة والحرمان قاصرا على طالبات الجامعة وحدهن .. فالفقر كان كامنا فى كل مكان قائما فى كل النواحى .. لكنه خلف أسوار الجامعة كان دافعا للرزيلة أكثر من أى مكان آخر .. وحتى الأسباب الأخرى التى أوردها عادل محمد الكردوسى فى رسالته الجامعية كعوامل أدت إلى إحتراف الدعارة كالتفكك الأسرى كانت أيضا قائمة ومتوافرة فى باقى فئات المجتمع بعيدا عن أسوار الجامعة ولم تكن قاصرة على طالبات الجامعات وحدهن .

ومع ذلك .. كانت طالبات الجامعة هن الأكثر إحترافا للدعارة فى السبعينات .. ولابد وأن هناك تفسير أو سبب لذلك .. أو أكثر من تفسير وأكثر من سبب .. قد يكون إحداها وأهمها على الإطلاق .. هو هذا العدد الكبير من الفتيات اللواتى القت بهن المقادير – والسياسة – فى داخل الحرم الجامعى ومعظمهن من طبقات فقيرة أو من أصول ريفية محافظة إلى حد ما .. وكان على هؤلاء الفتيات الإختلاط والإقتراب إما من فتيات أخريات قادرات على التمتع بالفعل بكل مظاهر الثروة والرفاهية وما تراه الفتيات كل مساء على شاشة التليفزيون من إعلانات متعاقبة عن ثياب ومستحضرات تجميل وعطور .. وإما الإختلاط والإقتراب من شباب يملك من المال ما يسمح له بالتطلع إلى حياة أفضل .. ولم يؤد ذلك إلى إنتشار البغاء فقط بين طالبات الجامعة .. وإنما إنتشرت أيضا ظاهرة التسامح الجنسى .. أى تضخم قائمة ما هو مسموح مع إختصار قائمة الممنوعات إلى أقصى حد ممكن فى العلاقات بين الولد والبنت .. الطالب والطالبة .. وهى الظاهرة التى لم تكن قاصرة منذ بدايتها على الفقراء فقط .. وإنما تشارك فيها الفقراء والأغنياء أيضا .. وإن إختلفت أسباب ودوافع الفقراء عن أسباب ودوافع الأغنياء .. وإختلفت أسباب ودوافع الطلبة الفقراء عنها فى حالة الأغنياء .. وفى حالة الطالبة الفقيرة .. يبرر الدكتور محسن العرقان بمركز البحوث الإجتماعية والجنائية (٣) سلوكها الجنسى مع رفيقها بالرغبة فى إشباع حنان تفتقده .. أو الجرى وراء خيالات تخرجها من عالم محاط باليأس .. أو الحلم بالمال والأسرة .. أما فى حالة الطالبة الغنية .. فمن المؤكد أن مثل هذا التسامح الجنسى كان ضروريا لإستكمال صورة ومظاهر الرقى والتحضر .. الصورة التى شاعت بين فتيات بعض الطبقات الجديدة الثرية فى تلك

---

(١) رسالة ماجستير تقدم بها عادل محمد الكردوسى إلى جامعة المنيا

(٢) د. سامية الساعاتى – الجريمة والمجتمع – دار النهضة العربية – ١٩٨٣

(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٠/٩/٦.

الأيام .. ومثل الطالبة الغنية كان الطالب الغني .. يبحث هو الآخر ما يستكمل به الصورة الناقصة .. وما ينقصها كان الإحساس بالتفوق والتميز .. وفى مثل ذلك المناخ الجديد والبليد .. لم يكن هناك ما يدعو للشعور بالتميز إلا الإحساس بالتملك .. ثياب أغلى .. سيارة أكبر .. ولم يكن هناك ما يمنع من إضافة فتاة أجمل أيضا .. وكان الطالب الفقير .. تماما مثل زميلته الفقيرة أيضا .. قادم من عالم بعيد لم يكن يعرف كل تلك الحرية .. وكل هذا الجمال .. وكل تلك الأناقة والجاذبية والإثارة .. وكان فوق إستطاعة كثير من أولئك الفقراء أن يتماسكوا وقد وجد كل منهم نفسه قريبا من الأنثى إلى هذا الحد .

ثم لم تعد الحكاية حكاية صدام مؤلم بين الفقر والغنى .. ولا بين الريف والمدينة .. ولكنها حكاية القيم والأخلاق التى بدأت تتهاوى .. والقيود والضوابط التى بدأ يخفت صوتها .. وبدأ المجتمع الجامعى ينعم بتلك الحرية الجديد ويعتاد عليها ويطالب بالمزيد منها .. وأصبحت كافيتيريات الجامعة [1] مسرحا تجرى فوقه وقائع حكايات الحرية والحب والغرام والهوى .. وأصبحت هناك الطالبة.. التى - كما أكد الدكتور عادل صادق [2] - يحض سلوكها على الإغتصاب .. وإن لم يكن هناك إغتصاب فهناك المعاكسات [3] التى تعالت الشكاوى منها داخل الحرم الجامعى .. وهناك الحكايات التى تعددت وزادت عن سقوط الطلبة والطالبات .. حكايات عن الزنا والعلاقات الجنسية المحرمة .. وحكايات الشذوذ الجنسى بين الطالبات التى بدأت تشهدها وتشهد عليها المدن الجامعية .. ومغامرات الطلبة التى لا تنتهى ولا تتوقف مع زميلاتهم .. والرحلات الجامعية الطويلة وما يجرى فى بعضها من تجاوزات .. وقصص الحب التى لم تعد تبقى كلها بريئة أو غارقة فى الرومانسية الخالصة .. وأخيرا كانت هناك ظاهرة الزواج العرفى بين الطلبة والطالبات والتى قامت الزميلة سهام ذهنى بجهد جرافى من أجل أن تفتح ملفاتنا وتصفع بحكاياتها برودنا وبلادتنا.. وقلة وعينا وحيلتنا .. وفى حلقات طويلة نشرتها مجلة صباح الخير [4] .. بدأت سهام ذهنى تنشر أسرار وحقائق وتفاصيل هذا الزواج السرى الذى إنتشر ليس فقط بين طلبة الجامعة وطالباتها .. ولكنه إنتشر بين طلبة وطالبات المدارس أيضا .. ولم يكن قاصرا على أبناء طبقة أو منطقة بعينها .. ولكنه إنتشر بين أبناء كل الطبقات وكل نواحى المجتمع.. وكان أن فتحت سهام ذهنى الباب أمام الآخرين لتتوالى التحقيقات والإكتشافات .. فقامت على سبيل المثال مجلة كلام الناس [5] بتحقيق أشار أو أكد إنتشار الزواج العرفى داخل أسوار الجامعة .

ومن المؤسف أن بعضنا لا يزال يصر على إنكار ذلك كله .. ويرفض المساس بسمعة الجامعة وطلابها .. مؤكدا أن كل ذلك من قبيل الإستثناءات التافهة التى يمكن تجاوزها والتغاضى عنها .. من المؤسف أيضا أن بعضا آخرا لا يزال يصر على تسطيح مثل هذة القضية ليؤكد أن الإختلاط هو المسئول وحده عن كل هذا الذى جرى .. مع أن جامعاتنا لم تعرف الإختلاط منذ سنوات

(١) جريدة صوت الجامعة - جامعة القاهرة - عدد ١٩٩٣/٢

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٨/٩/٥

(٣) مجلة الشباب - عدد ١٩٩٠/١

(٤) نشرت مجلة صباح الخير أولى حلقات تحقيق سهام ذهنى فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٢/١٢/١٧ وبعنوان طالبات وطلبة فى فراش زواج سرى .

(٥) مجلة كلام الناس - عدد ١٩٩٣/٩/١٢

السبعينات فقط .. وإنما عرفته منذ عام ١٩٢٩ حين إلتحقت الفتاة المصرية بالجامعة (١) فى كليات العلوم والآداب والطب والحقوق .. بعد أن رفضت الجامعة وقاومت طويلا فكرة إلتحاق الفتيات بكلياتها .. وبعد أن كان أقصى تنازل ممكن ومتاح فى هذا الشأن هو ما سمحت به كلية الآداب عام ١٩١٠ هو السماح لخمس وثلاثين سيدة بحضور المحاضرات كمستمعات وليس كطالبات .

ومنذ أن إلتحقت الفتاة المصرية بالجامعة والجدل حول إختلاط الطلبة بالطالبات لا يتوقف ولا ينتهى .. فعلى سبيل المثال .. وبعد أقل من ثلاث سنوات على إلتحاق الفتاة بالجامعة .. نشرت الصحف (١) صورة للدكتور طه حسين عميد كلية الآداب فى حفلة جامعية ومعه الطلبة والطالبات جالسين بجوار بعضهم البعض فقامت قيامة الغاضبين والمعترضين وطالبوا بإبعاد طه حسين ومساءلته .. ثم زادت مساحة الغضب والإعتراض بعد قليل .. وزادت حدة الجدل حول إلتحاق الفتاة بالجامعة وإرتفعت درجة حرارته .. فقد تبين أن هناك طالبة بكلية الآداب جاءت الجامعة وهى ترتدى فستانا بدون أكمام .. وتبين أن طالبا سولت له نفسه كتابة خطاب عاطفى إلى إحدى الطالبات .. فإستدعى الأمر (٢) أن يتدخل الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب بنفسه ليأمر تلك الطالبة بإرتداء الروب الجامعى طيلة النهار على ألا تجئ إلى الجامعة بمثل هذا الفستان مرة أخرى .. أما الطالب الذى كتب الخطاب الغرامى .. فقد تم التحقيق معه وإنتهى الأمر بقرار نهائى بفصله من الكلية .. ثم صدرت اللائحة التأديبية للطلبة فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ والتى نصت على أنه من الجرائم التى تستوجب العقاب (٣) .. أن يتحدث طالب مع طالبة بدون تصريح من عميد الكلية .. أو يجلس طالب فى الأماكن المخصصة لجلوس الطالبات .. أو تأتى طالبة إلى الجامعة بفستان سواريه أو تأتى تصطحب معها كلبها .

وكان من الواضح أن تلك اللائحة وقوانينها ومحاذيرها لم ترض المتشددون الذين أصروا على نفس موقفهم القديم الداعى إلى إغلاق أبواب الجامعة فى وجوه الفتيات .. مما دعا الدكتور طه حسين لأن يؤكد (٤) أنه .. لا يعرف فى كتاب الله وسنة رسوله نصا يحرم إجتماع الفتيان والفتيات فى قاعة الدرس وأن طبيعة الحياة المصرية تقتضى أن يشتد الإتصال بين الرجال والنساء .. وكتبت جريدة المصور (٥) تقول .. على الذين يريدون فصل الفتيات عن الفتيان فى الجامعة أن يفصلوهن أولا عن زملائهن فى دور السينما وفى التياترات وفى المراقص وفى ملاعب الكرة والتنس وفى الشوارع والحفلات والبيوت .. ثم عاد طه حسين وشجع مشاركة الطالبات فى مختلف الأنشطة الإجتماعية .. وسمح لإبنته بعد إلتحاقها بالجامعة أن تشارك فى فرقة التمثيل كدليل على إقتناعه الشخصى وإيمانه العميق بكل ما ينادى به ويدعو إليه .

لكن المشكلة بقيت قائمة ومتأججة .. بقيت أكبر من مجرد دعوة طه حسين أو حماسته وإقتناعه الشخصى .. بقيت أكبر حتى من مساحة الجامعة كلها .. فكما أشار الدكتور زكريا إبراهيم (٦) .. ظل الإختلاط مشكلة عجز المجتمع دائما عن التعامل معها والعثور على حل صحيح لها فى كل المجالات والنواحى .

(١) د. لطيفة محمد سالم – المرأة المصرية والتغيير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤
(٢) د. أحمد شوقى الفنجرى – الإختلاط – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧
(٣) مجلة المصور – عدد ١٩٣٦/١٠/٣٠
(٤) مجلة المصور – عدد ١٩٣٦/١١/٢٠
(٥) د. لطيفة محمد سالم – المرأة المصرية والتغيير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤
(٦) مجلة المصور – عدد ١٩٣٧/٣/١٩

الثورة أيضا لم تحاول الإقتراب من تلك المشكلة فضلا عن مواجهتها .. وحدها الدكتورة أسما فهمى .. عميدة معهد البنات بجامعة عين شمس .. هى التى حاولت العثور على حل[1] .. فتقدمت فى الخمسينات بإقتراح إلى مجلس الجامعة بإنشاء جامعة خاصة بالبنات تكون بدايتها كلية للآداب تتبع جامعة عين شمس تقام فى مصر الجديدة ولا تقبل إلا الطالبات فقط .. وكان حلا لم يجد من يناصره حتى النهاية .. فإنتهى الأمر بحلم الدكتورة أسما فهمى إلى مجرد كلية للبنات ومحطة للمترو تحمل إسم الكلية .

ثم جاءت السبعينات لتشهد محاولة جديدة لكن مضادة لمحاولة الدكتورة أسما فهمى .. وكانت الدكتورة سعاد ماهر .. أستاذة الدراسات الإسلامية بالجامعة .. هى صاحبة هذة المحاولة الجديدة .. فقد عارضت الدكتورة سعاد الفصل بين البنين والبنات فى جامعة الأزهر .. وكان لرأيها تقديره وإحترامه ومكانته فى سواء فى الجامعة أو المجتمع .. داخل مصر أو خارجها .. فقد سبق لمجلة التايم الأمريكية مثلا أن تحدثت عن الدكتورة سعاد بإعتبارها نموذجا للسيدة المصرية المسلمة المثقفة .. أستاذة الجامعة التى إختارت إرتداء جلباب أبيض وعلى رأسها إستكانت عباءة سوداء .. وفى حوار طويل لمجلة صباح الخير .. قالت الدكتورة سعاد [2] .. أنا أميل للإحتشام .. ولا أذهب للكوافير .. فأنا لا أطيق أن يضع رجل ما – لم يأذن به الشرع – يده فى رأسى .. وقد قررت أن أنتمى لذاتى وليس إلى ذات الآخرين .. ولا أجد مبررا للفصل بين الطلبة والطالبات .. فما معنى أن تكون هناك كلية طب للبنين وأخرى للبنات .. وكلية تجارة للبنين وأخرى للبنات .. لقد إنقضى عصر الجوارى فلماذا الفصل .. الشريعة الإسلامية لا توجب الفصل .. الفصل بين الجنسين دعوة قامت عندما إنحرف المجتمع الإسلامى ولم يبدأ ذلك إلا فى العصر العباسى .

وهذا هو الرأى الذى إنتهى إليه أيضا الصحفى الكبير محمود عوض .. وإن كان قد تناول المشكلة فى المجتمع كله وليس وراء أسوار الجامعة وحدها .. فكتب محمود عوض – فى السبعينات – يواجه أولئك الذين يبدون الفصل بين الرجل والمرأة فى كل مكان وفى كل وقت ويؤكد[3] أن المجتمع المصرى فى الماضى كان يضع الرجل والمرأة على أبعد مسافة ممكنة بعضهما عن بعض .. ولكن .. هل أدى ذلك إلى إختفاء الرذيلة وإنتشار الفضيلة ؟!.. وهل كانت القاهرة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أكثر فضيلة من القاهرة الآن ؟!.. هكذا تساءل محمود عوض وهكذا أجاب أيضا .. وفى كلمة واحدة هى .. لا .. أبدا .. مطلقا !.. فالمجتمع الذى وضع أكواما من الملابس على جسم المرأة .. وحجابا على وجهها .. ورقيبا فى ذيلها .. وحائطا أمامها .. لم ينجح فى القضاء على الرذيلة .. وإنما ماحدث كان أن إنتقلت الرذيلة لتعمل تحت الأرض بعيدا عن الضوء .. فعلى السطح يحتفظ المجتمع بستار كاذب .. وتحت السطح تنتشر بؤر فساد أخلاقية تتسع وتتسع لا لشئ إلا لأنها بعيدة عن الضوء .. وإستشهد محمود عوض بصحيفة المؤيد للتدليل على حجم الفساد فى المجتمع الذى شجع خصام الرجل والمرأة وأقام بينهما الف سور متظاهرا بالفضيلة .. ففى تلك الصحيفة نقرأ عن الفساد

---

(١) مجلة الجيل – عدد ١٩٥٥/٧/١٨

(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٧٢/١٠/١٢

(٣) محمود عوض – أفكار ضد الرصاص – سلسلة إقرأ – دار المعارف – ١٩٧٢

الذى .. بلغ مبلغا لم تشهده البلاد الأجنبية .. فقد عثروا فى يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطا فى جوانب القاهرة .

وفى مثل هذا المناخ الجامعى دائم التوتر .. جاءت نهايات السبعينات .. بالإنفتاح وآثاره .. بقرار زيادة عدد الطلبة والطالبات وتداعياته .. فعادت المشكلة من جديد يعلو صوتها وتزيد حدتها .. الفارق الوحيد كان أن مثل هذة المشكلة فى الماضى بقيت مجرد مشكلة نظرية وأخلاقية تناقش الفكرة والمبدأ .. أما المشكلة فى نهاية السبعينات .. فأصبحت مشكلة واقع وحياة وإزدحام بعيدا عن صدام الأفكار والمبادئ .. وإستوقف ذلك جيلز كيبل فكتب [1] عن إزدحام قاعات المحاضرات الذى أدى إلى إختلاط يخدش حياء الطالبات .. وإزدحام الأوتوبيس الذى جعل هؤلاء الطالبات يقاسين المتاعب طوال الرحلة اليومية إلى الحرم الجامعى .. وشعرت طالبات كثيرات بأنهن قد تحولن وحدهن إلى ضحايا لمثل هذا الزحام فى كل مكان .

ثم أضاف جيلز كيبل رؤية أخرى لما يجرى فى الجامعة .. رؤية كتبها طالب جامعى ونشرها فى عدد شهر فبراير من مجلة الدعوة ويقول فيها .. لقد أصبح الإختلاط بين الجنسين فى المدرجات المزدحمة إغراء لضعاف الروح .. ونحن لسنا ضد وجود الطالبات .. ولكن ينبغى أن نعرف ما إذا كانت الفتاة التى تضع ماكياجا .. طالبة أم مانيكان .

ولست أغالى إذا تخيلت تلك الرؤية لا ينقصها كثيرا من الصدق والواقعية .. بعكس رؤية أخرى لعبد الرحمن واصل مثلا قال فيها [2] أن الإختلاط بمثابة أعواد ثقاب مشتعلة تركناها بجوار براميل البارود .. ثم يؤكد عبد الرحمن واصل أن جامعة اليوم تحولت إلى جهنم .. جهنم الأزياء والأصباغ والمساحيق والألوان الفاقعة والبشرة اللامعة والجمال الفاضح والفتنة التى يحركها الشيطان .

ويمنتهى الأسف .. تبنى الكثيرون نفس رأى عبد الرحمن واصل .. نفس القناعات القديمة بأن الإختلاط وحده هو منبع كل الشرور والآثام والخطايا داخل الحرم الجامعى .. وكأننا أصبحنا نعيش فى مجتمع للملائكة بعد أن أخرجنا الشياطين وحبسناهم فى كل حرم وفى كل جامعة .. كأن الجنس ليس يحاصر هؤلاء الطلبة والطالبات فى الشارع والبيت وعلى شاشاتهم وفوق أوراقهم .. كأن الواقع الذى يحياه هؤلاء الطلبة ليس يحترف الإبقاء على رغباتهم وشهواتهم طوال الوقت مفتوحة العينين .. وأن تعيش أعصابهم دائما على حافة الإحتراق .. أو الجنون .

وفى واقع الأمر .. لم يكن الإختلاط وحده هو الذى يمكنه نزع فتيل قنبلة الجنس داخل الحرم الجامعى ولا فى أية مدرسة أيضا .. وإنما كانت هناك شرائط الفيديو العارية .. وإبتذال الرقص الشرقى ودعارته الرسمية .. ومشاهد عديدة ومتباينة من أفلام حاولت أو تمنت دائما أن تتعرى .. وإعلانات قامت فتياتها بمهمتهن خير قيام قبل أن يتوارين خجلا أمام فتيات أكثر جرأة وأكثر حرية ستأتى بهن أطباق فضاء المستقبل المغروسة فوق أسطح البيوت والعقول .. وأخيرا .. كتب وأوراق لم تكترث مطلقا بعقولنا قدر إنشغالها وحرصها على حوار دائم تقيمه مع غرائزنا وأعضائنا الجنسية .

وعلى الرغم من كل هذا التعقيد والتداخل والتشابك .. إلا أنه يبقى إحتمالا ممكنا – وجديرا

---

(١) جيلز كيبل – النبى والفرعون – ترجمة أحمد خضر – مدبولى – ١٩٨٨

(٢) عبد الرحمن واصل – مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية – مكتبة وهبة – ١٩٨٤

بالمحاولة – أن نتناول كل قضية منهم بمفردها .. فالفيديو مثلاً .. والذي عرفه العالم لأول مرة كتجربة علمية في عام ١٩٥٦ ثم كجهاز أمريكي قاصر علي قاعات البحث والعلم في أوائل الستينات قبل أن يحيله اليابانيون إلى جهاز تجاري وترفيهي عام ١٩٧٣ .. ولم تتأخر مصر كثيراً عن مسايرة الحديث وإستيراد هذا الجهاز أو الإختراع الجديد .. فدخلها الفيديو بعد أربعة أعوام فقط (١). أي في عام ١٩٧٧ .. في وقت لم يجد المصريون وسيلة للتفاخر والتباهي الإجتماعي والإنساني قدر إمتلاك الأجهزة الكهربائية الحديثة والسعى المحموم لإقتنائها .. وسرعان ما تربع جهاز الفيديو علي قمة الأجهزة الكهربائية التي تمنح صاحبها أو مالكها الإحساس المفرط بالإعتزاز والفخار والوجاهة الإجتماعية .. حتى إنتصفت الثمانينات وإقتربت من نهاياتها فإذا مصر تملك (٢) ثلاثة عشر مليون جهاز فيديو .. ولم نملك هذه المرة أية قدرة علي تجاهل هذا الرقم المزعج .. وهذه الظاهرة المربكة .. فعقدنا الندوات والمؤتمرات لنناقش الفيديو وآثاره وظاهرته .. لكنه نقاش بقي – للأسف – قاصراً علي ضياع الوقت والمال فيلماً وراء آخر .. على القراءة والثقافة والوعي الذين إغتالهم الفيديو وزمن الفيديو .. علي العنف الذي يتعلمه الصغار والأبرياء من طوفان أفلام الغرب.. الملونة والمصبوغة بالموت والدم .. لكن لا أحد تحدث عن الجنس .. عن الفيديو والجنس .. عن الأفلام العارية التي بدأت تشاهدها مصر .. أفلام أشارت إليها وإلى إنتشارها جريدة الأهرام (٣) مبكرا جدا .. إشارة لم يحفل أو يكترث بها إلا قليلون جدا كانت الدكتورة نادرة وهدان منهم أو من أوائلهم حين أعدت دراستها القيمة عن الفيديو وإنحرافات الشباب (٤) .. وإكتشفت الدكتورة نادرة أن ٥٤٪ من أفلام الفيديو المتداولة في مصر أفلام جنسية .. ١٦,٥٪ منها أفلام للجنس الخالص .. و٣٧,٥٪ أفلام يرتبط فيها الجنس بالقسوة والعنف .. إكتشفت الدكتورة نادرة أيضا أن غالبية جمهور تلك الأفلام من الشباب والمراهقين .. وأن تجارة تلك الأفلام تزداد رواجا في الأحياء المتوسطة والشعبية والفقيرة وتقل في الأحياء الراقية كالزمالك .. وثبت أن أفلام الجنس ليس لها دور يذكر في أحياء بعينها مثل المهندسين والدقي إذ تتكفل العاهرات بإمتاع الرجال سواء المصريين أو العرب فلا يحتاج الواحد منهم لشريط فيديو وشاشة تليفزيون من أجل قضاء حاجاته الجنسية والإستمتاع بذلك .

الدكتورة نادرة وهدان حكت لنا عن ذلك كله عام ١٩٨٧.. وفي نفس العام قامت مجلة روز اليوسف (٥) بتحقيق عن أفلام الجنس أهم ما جاء فيه كان تأكيد اللواء سمير عبد الكريم مدير إدارة الآداب بوزارة الداخلية علي إنتشار ورواج أفلام الجنس في مصر .. أفلام بدأت تغزو القاهرة والإسكندرية أولا .. ثم إنتشرت بعد قليل في كل مدينة في مصر .. وأخيرا إقتحمت هذه الأفلام بعريها وإثارتها (٦) سائر أنحاء الريف وكل قرية أو نجع في مصر .. ثم كان أن قامت الدكتورة نوال عمر بدراسة أخرى (٧) جديدة تطرقت فيها إلي جمهور مشاهدي تلك الأفلام وأعمارهم سواء في المدينة أو القرية .. وإتخذت الدكتورة نوال من حي مصر الجديدة مثلا للمدينة

(١) مجلة أكتوبر – ١٩٨٢/١٠/٢٦
(٢) مجلة الأهرام الرياضي – ١٩٩٠/٩/٥
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨١/٦/٢٧
(٤) مجلة الأمن العام – عدد ١٩٨٧/١
(٥) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٧/١٢/١٤
(٦) مجلة الكواكب – ١٩٩٣/٢/٢٣.
(٧) د. نوال عمر – الفيديو والناس – كتاب الهلال – عدد ٤٧١ – ١٩٩٠.

ومن قرية أكوه بمحافظة الشرقية مثلا للقرية المصرية .. وتبين لها معظم مشاهدى تلك الأفلام فى المدينة أو القرية .. تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة وبين الثلاثين عاما .. لكن هناك بالطبع أصحاب المعاشات الذين لم يتخلفوا بدورهم عن اللحاق بقطار المتعة العارى .. ومع ذلك بقى الفارق بين المدينة والقرية فى وظائف ومهن جمهور المشاهدين .. ففى المدينة .. يأتى التجار على رأس القائمة ثم الحرفيين ثم الموظفين .. أما فى القرية .. فالحرفيون هم الذين يأتون على رأس القائمة ثم التجار ثم الموظفين .. أما أعلى نسبة مشاهدة على الإطلاق .. فكانت من نصيب الجامعيين سواء فى المدينة أو القرية .. فهم ٧٢,٢٪ من جمهور أفلام الجنس فى المدينة .. وهم ٦٤,٣٪ من جمهور نفس تلك الأفلام فى القرية .. ثم كان أن إنضمت الفتيات بدورهن إلى قائمة مشاهدى وجمهور أفلام الجنس .. ونشرت جريدة الأهرام [١] نبأ القبض على محاسب شاب أحال شقته إلى سينما للجنس .. وساعة القبض عليه كانت هناك فتاتان تشاهدان فيلما جنسيا بصحبة شاب كان معهما .. ثم تتعدد الحكايات التى تشير كلها إلى ظاهرة إقبال الفتيات على مشاهدة تلك الأفلام بكل ما يعنى هذا الإقبال من معان ودلائل .

وقبل الحديث عن حصادنا من إنتشار كل تلك الأفلام العارية .. تأتى مشكلتان إضافيتان تعين علينا مواجهتهما .. فرواج تلك الأفلام وإزدهار تجارتها والإقبال منقطع النظير عليها والأرباح الضخمة التى تأتى بها مثل تلك التجارة المحرمة .. دفع بكثير من الرجال إلى إحتراف وإمتهان تلك التجارة وممارستها عوضا عن وظائف سابقة لم تعد تحظى بكثير من التقدير أو الإحترام ولا عادت تأتى بالكثير من المال أو حتى تأتى بالقدر المناسب منه .. وفى مقابل هؤلاء الرجال كانت هناك النساء والفتيات اللواتى تعرين أمام الكاميرا لصناعة أفلام جنسية وعارية مصرية صميمة من أجل المال .. الكثير جدا من المال .

وقد يصعب على الكثيرين منا أن يتخيلوا قائمة هؤلاء الرجال الذين يتاجرون فى الأفلام الجنسية وقد تضخمت وتعقدت بحيث باتت تضم .. طبيب [٢] يعرض تلك الأفلام فى بيته فى شبرا ويتقاضى عشرة جنيهات من كل مشاهد وطبيب آخر [٣] يعرض تلك الأفلام على المرضى بعيادته فى شارع الملك فيصل ويستعين فى ذلك بالتومرجى الذى يتقاضى من خمسة إلى عشرة جنيهات من كل مريض .. ومحام [٤] يقوم بترويج تلك الأفلام بعد أن أحال مسكنه إلى مخزن لكمية ضخمة من تلك الأفلام .. وصاحب مصنع الملابس بمصر الجديدة [٥] يعرض هذة الأفلام على عمال المصنع بزعم زيادة الإنتاج وصاحب مصنع آخر للأحذية [٦] أحال منزله – بمعاونة زوجته – إلى وكر لترويج أفلام الجنس ... ولاعب كرة معتزل [٧] – يدير شركة هامر فيديو فيلم – يتاجر هو الآخر فى تلك الأفلام مثله مثل لاعب آخر [٨] من الإسماعيلية يتاجر فى تلك الأفلام ولكن فى مدينة بورسعيد .. بالإضافة إلى ممثل [٩] تم ضبطه يتاجر فى تلك الأفلام غير الممثل فاروق نجيب الذى

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/٦/٢٢
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/٦/٩
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/١٢/١٧
(٤) مجلة أكتوبر – ١٩٨٨/١١/٢٧
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/١٠/١١
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٨/١/٤
(٧) جريدة الأهرام – ١٩٨٦/١/١٦
(٨) جريدة الأخبار – ١٩٨٩/١/١٩
(٩) جريدة الأهرام – ١٩٨٤/١١/١٩

قضت محكمة الجنح المستأنفة (١) بحبسه ستة أشهر نتيجة ضبطه بالإتجار وترويج أفلام مخلة بالآداب العامة .. هذا بالطبع غير العشرات من أصحاب نوادى الفيديو وستوديوهات التصوير الفوتوغرافى وأصحاب المقاهى الذين تضمهم قائمة الرجال ممن إحترفوا بيع وتداول والربح من تجارة تلك الأفلام العارية .

وفى المقابل .. كانت هناك قائمة أخرى من النساء والفتيات اللواتى أغراهن الكسب والرغبة فى الثراء إلى القيام ببطولة كثير من تلك الأفلام العارية والجنسية دونما حاجة لإستيرادها من خارج مصر .. قائمة يعنى وجودها وعدد ما تضمه من أسماء أن الأمر لم يعد قاصرا على أفلام جنسية أجنبية تأتينا من الخارج .. وأن مصر بدأت تعرف نوعا جديدا من السقوط .. فقد باتت هناك عاهرات لا يكتفين بخلع ثيابهن وممارسة الجنس وراء الأبواب المغلقة .. وإنما خرجهن بعريهن وإبتذالهن إلى الهواء الطلق .. ومارسن الفحشاء أمام عدسات الكاميرات وأضوائها الساطعة واللامعة .

وإذا كانت الدكتورة نادرة وهدان قد أشارت (٢) فى عام ١٩٨٧ إلى هذا الأمر وأكدت أنه مقابل كل تلك الأفلام الجنسية التى تأتى من الخارج .. فهناك أفلام مماثلة تم إنتاجها فى مصر .. وبمعاونة ممثلين وممثلات من مصر .. وتم تصدير تلك الأفلام إلى الخارج .. أفلام تنطق باللغة العربية لتضيف إثارة الكلمة إلى حرارة الصورة .. بالإضافة إلى أنها من تمثيل بعض مشاهير الفنانين فيزداد الإقبال عليها لرؤية هؤلاء الفنانين والمشاهير وهم يخلعون ثيابهم قطعة قطعة وفيلما بعد آخر .

وبالطبع .. أشارت الدكتورة نادرة إلى ذلك ولم يصدقها أو يقتنع بما تقوله أحد .. ولا كان هناك من هو حتى على إستعداد لأن يحاول أن يصدق أو يقتنع .. وبقى الجميع على قناعتهم بأن أفلام الجنس فى مصر أفلام تأتى من خارج مصر .. أو أن هناك أفلاما عربية الجنسية لكن تم تصويرها فى لبنان .. بالإضافة إلى أفلام فرنسية مرت ببيروت أولا فتعلمت أن تنطق باللغة العربية وأن تستعين بأغنيات أم كلثوم وموسيقى عبد الوهاب كخلفية للمشاهد العارية والمثيرة .. وعلى الرغم من تأكيد اللواء سمير عبد الكريم مدير إدارة الآداب بوزارة الداخلية (٣) على أن تصوير تلك الأفلام فى مصر محدود للغاية أو شبه معدوم .. إلا أنه تحدث فى نفس التحقيق عن أفلام قام محاسب بتصويرها لزوجاته الثلاث .. أو رجل آخر إستغل زواجه من خياطة فإستدرج الفتيات المترددات عليها وقام بتصويرهن فى أوضاع شاذة .

وبمنتهى الأسف .. ما تحدث عنه اللواء سمير عبد الكريم فى نهايات الثمانينات وعلى أنه من الظواهر الإستثنائية والمحدودة جدا .. تحول فى بدايات التسعينات إلى واقع تحدث عنه العميد أحمد الفولى رئيس شرطة الرقابة على المصنفات الفنية وأكد (٤) وجود صناعة أفلام جنسية محلية .. أكد وجود رجال يأتون بالساقطات لتصوير مثل هذة الأفلام .. وأشار إلى أن سنوات ثلاث فى السجن باتت هى عقاب كل من تخلع ثيابها أمام الكاميرا لتصوير مثل هذة الأفلام ..

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٥/٤/٩

(٢) مجلة الأمن العام - عدد ١٩٨٧/١

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٧/١٢/١٤

(٤) مجلة الكواكب - عدد ١٩٩٣/١٢/١٦

وتحدث أيضا (١) عن منتجين لا يروجون تلك الأفلام لكنهم يصنعونها .. وضرب مثلا بمنتج سينمائى معروف كان يستعين بممثلى الدرجة الثالثة وبعض الساقطات لتصوير الكثير من تلك الأفلام .

ومثل حكاية هذا المنتج السينمائى .. تعددت عشرات الحكايا عن رجال آخرين وأفلام أخرى تعرت فيها ساقطات وعاهرات فتشن عن المال ووجدن فى هذة الأفلام أسهل وأسرع طريق إليه .. ولا أعتقد أن هناك حكاية من بين تلك الحكايات قادرة على إختصار كل هذا الذى جرى إلا تلك الحادثة (٢) التى شهدتها مدينة القاهرة عام ١٩٩٤ .. حين إجتمعت شلة الأنس فى منزل أحد أفرادها ليشاهدوا أحدث أفلام الجنس .. وما إن بدأ عرض الفيلم حتى قفز أحد الحاضرين إلى جهاز الفيديو فأخرج الشريط بعصبية وخرج به من البيت حافى القدمين وظل يجرى ولم يتوقف أو يهدأ إلا فى قسم الشرطة .. فقد كانت شقيقته هى بطلة الشريط الفاضح الذى إجتمعت الشلة لكى تراه وتستمتع به .. وتم القبض على الأخت التى تبين أنها عضوة بشبكة تخصصت فى إنتاج مثل هذة الأفلام تضم ثلاث نساء وثلاثة عاطلين ومصور سينمائى .

ولا يعنى ذلك كله أن كل أفلام الجنس المصرية قامت ببطولتها الساقطات والعاهرات .. ولكن هناك نسبة هائلة من تلك الأفلام تضم مشاهد عارية لفتيات لا يدرين أن الكاميرا تختفى هناك ترصد حركاتهن وأجسادهن بكل تفاصيلها وزواياها .. وهناك فتيات وقعن ضحية الغيبوبة المتعمدة وتم تصويرهن .. وهناك فتيات مارسن الجنس تحت زعم الحب ودعاواه ولم يدر بخلدهن أن عشاقهن من تجار أفلام الجنس .. فكانت الفتاة تخلع ثيابها من فرط العشق وتسلم جسدها من فرط الشوق والرومانسية الجارفة بينما حبيبها يدير جسدها بين يديه فى أوضاع مناسبة لعدسة الكاميرا حتى تكتمل للشريط فى النهاية كل مقومات الفيلم الناجح والمثير الذى تتخاطفه أيادى الشباب وعيونهم .. ويحكى لنا أحمد الحصين (٣) حكاية فتاة من هؤلاء أسلمت جسدها لشاب أوقعها فى حبه .. فإنتهى حبها له إلى أن طارحته الهوى .. ويدأ العاشق يبتزها بالشريط الذى تم تسجيله لها وهى تمارس الجنس .. إما أن تطيعه وتبيع جسدها لغرباء الرجال وإما يعرض هذا الشريط على الناس .. وغنى عن الذكر أنه ما من مرة رفضت فيها الفتاة طاعة هذا القواد والإمتثال لأوامره .. غنى عن الذكر أيضا أن تلك الطاعة العمياء والمطلقة لم تمنع هذا الشريط من الوصول إلى الناس.. وأن يتداوله الكثيرون حتى تشاهده فى النهاية عائلة الفتاة نفسها.

ولم تكن المشكلة بالطبع قاصرة على أولئك الرجال الذين إحترفوا تجارة مثل تلك الأفلام الجنسية والعارية .. ولا بقيت قاصرة على الساقطات أو الضحايا اللواتى قمن – بقصد أو دون قصد – ببطولة هذة الأفلام .. إنما أصبحت المشكلة الحقيقية هى تأثير تلك الأفلام الذى بدأ يتخطى حدود المشاهدة والإستمتاع الشخصى وقضاء شهوات عابرة فى الصمت والخفاء .. المشكلة الحقيقية كانت فى أن الأفلام تحولت من وسيلة لتفريغ الشهوة إلى نار توقظها .. من دعوة للشاب لأن يراها فيمارس فى هدوء وصمت عادته السرية إلى دعوة لهذا الشاب لأن يفتش

(١) مجلة الكواكب – عدد ١٩٩٣/٢/٢٣
(٢) جريدة الأحرار – ١٩٩٤/٤/٢٦
(٣) أحمد بن عبد العزيز الحصين – شريط الفيديو الذى حطم حياتى – مكتبة الإيمان – ١٩٩٣

عن فتاة أو إمرأة أو جسد حقيقي يمارس به ومعه الجنس .. وفى كثير من التحقيقات التى أعقبت حوادث وجرائم الإغتصاب وهتك العرض .. كانت تلك الأفلام هى الدعوة غير الرسمية – وغير المعلنة – لهؤلاء الشباب لأن يقوموا بجرائمهم .. وغير الإغتصاب وهتك العرض كانت تلك الأفلام إحدى أهم وسائل البعض منا فى مصر التى إستعانوا بها من أجل رواج الدعارة المصرية وإزدهارها .. إحدى أهم وأخطر وسائل الإنتقام أيضا .. فقد لجأ بعض الشباب إلى تسجيل أسماء فتيات وسيدات – وأحيانا صورهن وعناوينهن وأرقام تليفوناتهن – فى مقدمة كثير من تلك الأفلام من أجل التشهير بهؤلاء الفتيات والسيدات .. ومن هؤلاء الشباب – وليس آخرهم – طالب بالثانوى [١] قام بترويج الأفلام الجنسية وفى مقدمة كل فيلم إسم حبيبته السابقة التى إرتبطت بشاب آخر .. كل هذا بالطبع غير قائمة المشاكل التى جاءت بها مثل تلك الأفلام ووضعتها تحت فراش كثير من الأزواج فى مصر .. فليس سرا أن كثيرا من الرجال قرروا الإستعانة بتلك الأفلام فى حياتهم الجنسية مع زوجاتهم .. فذهبوا بها إلى بيوتهم وجلسوا يشاهدونها مع زوجاتهم حتى تكون الإثارة واحدة .. ولتتأجج الرغبة تحت جلد كل منهما بنفس القدر ونفس الحدة .. ولم يدر أحد من هؤلاء الرجال أنه يفتش بذلك عن الخرافة أو الوهم .. فليست تلك الأفلام هى الحل أو الدواء المناسب لكل أوجاعه الجنسية ومشاكله مع زوجته أو مشاكل زوجته معه .. وإنما تغدو تلك الأفلام هى المشكلة .. فهى أولا تقنع كلا من الزوج أو الزوجة بأن الطرف الآخر لا يكترث به جنسيا ولا يمارس معه الجنس بنفس الشكل ونفس الإثارة التى تنطق بها شاشة التليفزيون .. وهذا يؤدى غالبا إلى إحساس داخلى بالإحباط وعدم الإشباع الجنسى .. ثم أن درجة الإثارة التى تمنحها مشاهدة تلك الأفلام تختلف من الرجل إلى المرأة .. بل وتختلف أيضا من رجل إلى آخر .. ومن إمرأة إلى أخرى .. أى أنه ليس من الضرورى أن تستثار الزوجة بنفس درجة إثارة الزوج .. فلا ترغب ولا تود ممارسة الجنس مع الزوج بنفس حماسه وإصراره .. فيعتقد الزوج أن زوجته غير راغبة فيه ولا هى تستمتع بالجنس معه .. أى أنه غير قادر على إسعادها أو إشباعها .. ويسود بين الإثنين إحساس صامت من التوتر الحاد والمزعج .. وفى أحيان أخرى إنتهى الأمر فى المحكمة حين تقدمت زوجة تطلب الطلاق من زوجها الموظف الكبير الذى أدمن مشاهدة تلك الأفلام الجنسية والعارية كل ليلة .. وثبت [٢] أن للزوجة فى هذة الحالة الحق فى الحصول على الطلاق .

لكن .. لم تمنع كل تلك الآثار المدمرة أن يزداد يوما بعد آخر إقبال الناس بمختلف أعمارهم وطبقاتهم وثقافاتهم على تلك الأفلام العارية والجنسية .. وبقدر ما زاد إقبال الناس على هذة الأفلام .. بقدر ما تم إختصار المسافة الفاصلة بين أفلام الجنس وبين كثير من أفلام السينما المصرية .. بل وكثيرا ما كانت تلك المسافة تتلاشى تماما فلا يعود فارق هناك بين سينما الفن والحياة والناس وبين سينما الجنس والسقوط والإبتذال .

أعرف أنها قضية صعبة وشائكة بالفعل .. وملف ضخم يمكن لمن يفتحه أن يجنى من الورد بقدر ما تحصده يداه من شوك .. وأنا لست بطامع فى الورد ولا خائف من الشوك .. فقط أريد الحقائق أضعها أمامى وأمام الآخرين بلا تحامل أو تجنى أو مبالغة .. لست أريد التورط فأؤيد

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/٢١

(٢) جريدة الحوار – عدد ١٩٩٤/٧/٢٠

مصطفى محمود مثلا الذى أكد (١) أن السينما فى مصر لم تعد فنا .. بل فضيحة ووصمة عار على كل من يعمل بها ممثلا أو مخرجا أو منتجا .. وتحولت إلى شاشة كبيرة تروج الغواية والعهر والفحش .. وفى المقابل .. لست أريد التورط وأساير كل من يرى أن السينما المصرية بخير وأنها لم تخلع كل ملابسها ولم تتنازل عن عفتها بالمقارنة بما يحدث فى السينما العالمية التى باتت مشاهد العرى والجنس من أركانها الأساسية والثابتة أيا كان موضوع الفيلم وأيا كانت قضيته .. فأنا أرى أن الإثنين على خطأ .. فلا السينما فى مصر باتت فضيحة لمصر .. ولا هى بالمقابل إحدى فضائل مصر ومكارمها .. وإنما هى مجال إتسع – ولا يزال – لكل الخطايا والحسنات .. كل ما فى أهل مصر من نواقص وآثام وعيوب .. وكل ما فيهم من صبر وشفافية وقدرة على الحب والحلم .. وما يعنينا هنا بالمقام الأول هو الدور الذى لعبته السينما فى الترويج لقيم الجنس وأصوله ومدارسه سواء بمشاهد كثير من أفلامها العارية .. أو بأخبار وحياة نجومها الكبار والصغار التى تحولت إلى دعوة فجة أحيانا .. وناعمة براقة أحيانا أخرى للخطيئة والفجور .

والحديث عن مشاهد العرى والجنس فى السينما المصرية سيجبرنا بالضرورة على الحديث عن المشاهد المماثلة فى السينما العالمية .. ولابد من الإعتراف أولا بأن السينما العالمية لم تعد تقيم للأخلاق أو الآداب العامة أى وزن أو إعتبار .. لكننا نحكم هنا بقوانيننا نحن وعاداتنا وقيمنا وأخلاقياتنا .. وليس من المفترض أن تلتزم بكل ذلك سينما الولايات المتحدة أو أية دولة أوروبية .. فالسينما هناك تعبر عن المجتمع والناس هناك .. وما يراه الناس فى شوارع وطرقات الولايات المتحدة وأوروبا .. يرونه فى الأفلام الأمريكية والأوروبية .. لا تناقض ولا إختلاف ولا إدعاء .. فالمرأة العارية فى الشارع هى نفسها المرأة العارية على الشاشة الكبيرة .. ومشاهد الجنس المألوفة فى الميادين والحدائق والملاهى والبارات هى نفسها مشاهد أفلام تحكى عن حياة أصحابها وهمومهم وقضاياهم .. ثم أن تلك الأفلام تأتينا من مجتمعات لم تعد تكترث بأخلاقيات الدين ولا تتعامل بقوانين الحلال والحرام .. ليس فى السينما فقط وإنما فى كل مجالات الحياة .. أى أننا أمام صورة أخرى مختلفة تماما ومناقضة للصورة المقابلة فى مصر .. وبهذا المنطق لا تصبح مشاهد الجنس فى السينما المصرية تعبيرا عن واقع وتجسيدا لحياة بقدر ما تغدو مجرد دعوة للإثارة ولحصد أموال شباب يشكو الكبت والجوع المخيف للجنس .. وحتى إذا قبلنا بمنطق التعبير عن واقع الجنس فى بلادنا وتصوير مشاكله وهمومه وقضاياه .. فهل من الضرورى لأن يكتمل هذا التعبير أن تخلع بطلاتنا معظم ثيابهن على مرأى من الكاميرات وعيون الجميع .. أم أن الواقعية لن تصنع والمصداقية لن تكتمل إلا برؤية الثياب الداخلية والسيقان والصدور التى تملكها ممثلاتنا الجميلات .. وماهى المزايا التى جنتها السينما المضرية أو إنتفع بها الناس فى مصر منذ أن تعرت كاميليا وتحية كاريوكا وكيتى وغيرهن منذ سنوات وأفلام الأربعينات وحتى فيفى عبده ونادية الجندى ونبيلة عبيد ويسرا وليلى علوى فى سنوات وأفلام التسعينات مرورا بالطبع برائدات فى هذا المجال مثل شمس البارودى التى تعرت فى أفلام مثل رحلة العمر وحمام الملاطيلى كما لم تتعر ممثلة أخرى بإستثناء ناهد شريف التى تحكى لنا الرقيبة السابقة إعتدال ممتاز (٢) كيف حذفت أحد مشاهد فيلم إمرأة ورجل تقف فيه ناهد شريف بقميص النوم وهى

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٤/٣/٢٦

(٢) إعتدال ممتاز – مذكرات رقيبة سينما – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥

منفرجة الساقين وترقص بينما يستلقى رشدى أباظة ينظر إلى ما بين ساقيها .. أو مشهد آخر تبدو فيه الصورة غائمة لكننا نرى رشدى أباظة ينزع عن ناهد شريف ثيابها الداخلية لتبدو عارية تماما كما ولدتها أمها .

أنا بالقطع لا أتصيد مشهدا من هنا .. وآخرا من هناك .. وإنما هى كثيرة جدا هذة المشاهد العارية التى أدتها بإتقان وإحتراف معظم ممثلات السينما المصرية فى الأربعين عاما الأخيرة .. هذا بالطبع غير أفيشات وإعلانات الأفلام التى تحولت مؤخرا إلى دعوة صريحة وقحة للجنس لا علاقة لها بالسينما أو الفن أو المجتمع الذى تسكنه وننتمى إليه فى النهاية .. هذا أيضا غير أفلام أخرى لا يراها الناس فى دور العرض وإنما يعدها أصحابها لمن يملك جهاز فيديو ويود إطفاء شهواته وتلبيه دعوات غرائزه بأجساد محلية مشتهاه بعيدا عن الملامح والتفاصيل الأجنبية المستوردة .. أفلام لا بطل حقيقى لها إلا الجنس .. منها على سبيل المثال فيلم إسمه فتاة المعادى(١) لمخرج مغمور إسمه إسماعيل كامل وبطولة مجموعة مغمورة أيضا من الممثلين والممثلات .. أما قصته فتدور حول مجموعة من الشباب يتذكرون مغامرتهم مع فتاة أطلقوا عليها لقب فتاة المعادى .. وبقدر ما تعتمد تلك الأفلام على إثارة غرائز الشباب بقدر ما ينشط أصحابها وصانعوها فى البحث عن فتيات جدد سرعان ما تنهار مقاومتهن - هذا إذا كانت هناك مقاومة أصلا - ويدخلن دائرة السقوط والشيطان .. دائرة إتضح أنها لن تكتمل إلا بالحفلات الخاصة للنجمات سواء كن شهيرات أو لا ويصورهن شبه العارية التى تنتشر فوق صفحات الصحف والمجلات المصرية والعربية .. دائرة لا يروح ضحيتها فى النهاية إلا كثير من الشباب وكثير من الفتيات أيضا .. شباب تتأجج فى أعماقهم رغبات الجنس ودوافعه تفتح مشاهد العرى والجنس الأبواب أمامها وتنزع عنها قيودها .. وفتيات تمنحهم السينما أول دروس السقوط والخطيئة .. ومن هؤلاء كانت منى .. الفتاة التى إختارها عبد المنعم سعد ليروى لنا حكايتها فى بحثه الهام عن العلاقة بين السينما وإنحرافات الشباب (٢) .. فتاة كانت تنتمى لأسرة تتكون من أب موظف وأم ناظرة لمدرسة وإبن وثلاث بنات .. أسرة تعيش فى بنها على قدر من الرفاهية تجاوز دخلها الشهرى فى بدايات السبعينات مائتى وخمسين جنيها .. وإنتقلت الأسرة للإقامة فى مدينة طنطا نتيجة نقل الأب حين كانت منى - وهو إسم مستعار - لا تزال فى السنة الثانية بالمرحلة الثانوية.. مراهقة شابة وقعت منذ صباها فى حب السينما .. فيلم المراهقات كان الفيلم الأول فى حياتها .. ومنه تعلمت كيف تستخدم قلم الروج لأول مرة فى حياتها وضرورة الكعب العالى وعرفت أسرار حياة البنات الكبار .. وبدأت منى تنتظر كل فيلم جديد فتذهب لتراه فى حفلة العاشرة صباحا بعد أن تهرب من المدرسة حتى باتت تشاهد ستة أفلام على الأقل فى كل شهر .. لكنها بدأت تميل مؤخرا إلى أفلام الحب والجنس .. فقد أحست أنها تتعلم من تلك الأفلام كيف ترتدى ثيابها فى إثارة .. وكيف تستغل جمالها وجسدها فى إغواء كل من حولها .. وكان فيلم أختى هو النقطة الفاصلة فى حياة منى .. فمنه تعلمت كل شئ عن الجنس والرغبة والمتعة .. وبدأت رحلتها إلى الهاوية .. ومعها زوج وعشيق وقواد وأيام طويلة وكثيرة عارية التفاصيل والملامح .. وفى السجن تذكرت منى فيلم ثرثرة فوق النيل وكيف تعلمت منه كيف يمكن أن تسقط طالبات الجامعة وكيف

---

(١) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/٤

(٢) عبد المنعم سعد - السينما والشباب - كتاب الإذاعة والتليفزيون - ١٩٧٤

تسير الفتيات فى طريق الرذيلة والإنحراف .

وبقدر إسهام السينما فى كل ذلك الذى جرى .. بقدر ما كان إسهام التليفزيون أيضا .. أو إعلانات التليفزيون التى كانت أحيانا قطرات من بنزين على كومة من قش بدأ يحترق .. لكن الوجع الحقيقى كان مصير كثير من أولئك الفتيات وطالبات الجامعة اللواتى أغراهن بريق تلك الإعلانات .. فسرن فى الطريق حتى نهايته .. ولم تكن تلك النهاية فى كثير من الأحيان إلا السقوط والخطيئة وإحتراف الدعارة .. حتى تحولت وظيفة ممثلة إعلانات إلى إحدى الوظائف الثابتة والدائمة للمتهمات فى قضايا الدعارة التى تشير إليها الصحف .

وإذا كان من الممكن أن نتجادل طويلا أو كثيرا حول تأثير الفيلم السينمائى أو الإعلان التليفزيونى .. فلست أدرى من هو الذى على إستعداد للدفاع عن الرقص الشرقى مثلا .. ويشرح لماذا تعترف به دولة إسلامية مثل مصر وترعاه إلى هذا الحد .. حد أن تسافر الراقصات فى الوفود الفنية الرسمية لتمثيل مصر .. كأن هؤلاء الراقصات هن رمز مصر وشعبها وتاريخها .. أو كأنهن بأجسادهن العارية السافلة والمبتذلة هن أجمل وأرقى وأعظم ما فى مصر .. وتبلغ الوقاحة بالبعض منتهاها فيزعمون هذا الرقص فنا شعبيا وتراثا مصريا تنبغى حمايته والحفاظ عليه .. مع أن مصر لم تعرف هذا الرقص إلا فى القرن الخامس عشر فقط .. وأثناء الإحتلال العثمانى لمصر .. وكانت البداية هى المقاهى .. فقد بدأ المصريون فى ذلك الوقت يكتشفون فنجان القهوة .. وصاروا يبحثون عنه .. فإنتشرت المقاهى أولا فى منطقة وجه البركة .. وسرعان ما تحولت تلك المقاهى إلى أماكن لقاء القوادين وتجار الأعراض والحشيش وبائعات الهوى وطلاب اللهو غير البرئ .. ولم يكن هذا هو المشكلة .. المشكلة الحقيقية كانت زيادة عدد المقاهى بشكل فاق التصور وكل التوقعات .. فبدأ أصحاب المقاهى يفتشون عن وسيلة لإجتذاب الزبائن إلى مقاهيهم .. فبدأت الإستعانة بفتيات جميلات يملكن أجسادا أجمل .. وتأتى الفتاة من هؤلاء إلى المقهى لترقص رقصة البطن المثيرة .. ولأنه لم تكن هناك أية رقابة من أى نوع .. ولأن المنافسة لم تكن تحتمل فكرة التمهل أو التردد .. فقد بدأت هؤلاء الفتيات يمارسن الرقص بعد أن تخلين عن ثيابهن .. وإكتفين بثوب رقيق شفاف فوق لحمهن الرخيص ولا شئ سواه .. وكانت هذة هى البداية [1] .. وأعتقد أن الأمر لم يتغير منذ ذلك التاريخ البعيد وحتى اليوم .. فلا يزال مفهوم الرقص هو إثارة كل الغرائز والشهوات .. ولا تزال درجة نجاح الراقصة تقاس بعدد الرجال الذين التفوا حولها كل منهم يعريها فى خياله ويتخيلها فى فراشه .. لا فرق بين أن يكون هؤلاء الرجال هم زبائن مقهى صغير فى وجه البركة بقاهرة العثمانيين.. وبين زبائن ملهى ليلى فى قاهرة اليوم .

وحين جاء الفرنسيون إلى مصر بقيادة نابليون .. إستوقفهم هذا الرقص .. وكتب أحدهم [2] يصف كيف يبدأ هذا الرقص شهوانيا ثم سرعان ما يصبح داعرا لا يحمل لمن يراه إلا التعابير والمعانى المبتذلة .. أما علماء الحملة الفرنسية [3] فوصفوا راقصات مصر بأنهن .. الغوازى اللواتى يركلن بالأقدام كل لياقة ولا يوحين إلا بالإزدراء ولا يتسم سلوكهن بأى نوع من

---

(١) محمد سيد كيلانى – فى ربوع الأزبكية – دار العرب للبستانى – ١٩٥٩

(٢) كريستوفر هيرولد – بونابرت فى مصر – ترجمة فؤاد أندراوس – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

(٣) عبد المنعم شميس – قهاوى الأدب والفن فى القاهرة – سلسلة إقرأ – عدد ٥٦٣ – دار المعارف – ١٩٩١

الإحتشام.. هن راقصات عموميات .. لا تقاليد ولا عفة لهن .. ويصاحب كل منهن شخص يسمى الخلبوص .. وهو مهرج دوره أن يقوم بأوضاع بالغة الفحش وبحركات وقحة يصاحب بها الغازية.. ثم تطور دور الخلبوص بعد إبتكار رقصة النحلة .. الرقصة الجديدة التى إبتكرتها راقصات مصر فى زمن محمد على .. وفيها كانت الراقصة تمثل أن النحل يلسعها .. فتغنى وهى ترقص .. النحل يا هوه ياناس حوشوه .. ثم تبدأ الراقصة تخلع ثيابها قطعة قطعة لأنها تتألم من لسعات ذلك النحل المزعوم .. وحين توشك على أن تصبح عارية .. يلقى عليها الخلبوص بملاءة كبيرة تغطى جسدها .. وحين إنتشرت تلك الرقصة وإشتد فجورها .. تدخلت الدولة أخيرا وأمر محمد على بمنع تقديم هذة الرقصة فى مقاهى القاهرة .. وأصبح هذا القرار هو أول تاريخ للرقابة فى تاريخ مصر الحديث .. لكن كانت الغوازى – وأخشى أن أقول ولا زلن – أقوى من أية حكومة أو رقابة أو قانون .. فقد إستبدلن رقصة النحلة برقصة جديدة هى رقصة القلة .. وكانت أكثر فجرا وخلاعة ودعارة .. ويكفى للتدليل على مدى فحشها أن باريس .. عاصمة الحرية .. إعتذرت لغوازى سافرن من مصر لتقديم هذة الرقصة فى المعرض الدولى هناك فى زمن الخديوى عباس حلمى الثانى .. وأكدت باريس أنه لا يمكنها قبول عرض مثل هذة الأمور على مواطنيها بهذا الأسلوب الذى يجافى الفن واللياقة والأخلاق .. ولكن القاهرة بقيت تسمح بما رأت باريس أنه فوق طاقتها وفوق إحتمالها .. بقيت القاهرة تسمح بوجود الغوازى وتعترف بهن وبرقصهن حتى وإن لم تجروء فى تلك الأيام على الإدعاء بأنه فن مثله مثل سائر فنون الناس .. وإنما كانت تستعين به للترفيه الجنسى عن الرجال .. أو للإحتفال ببعض المناسبات مثل الزواج أو ولادات الأطفال .. ومع أن هؤلاء الغوازى لم يكن يسمح لهن بالإختلاط بالحريم خوفا على الأخلاق .. إلا أن ذلك لم يمنع بعض الزوجات أحيانا من الإستعانة بهؤلاء الغوازى من أجل تعلم بعض الدروس الجنسية والطرق المبتكرة لإثارة شهوات الزوج .. فلم يكن هناك فارق بين الغازية وبين العاهرة .. تعامل معهما المجتمع دائما بنفس النظرة .. وكانت الغوازى فى واقع الأمر عاهرات .. وحين تضطر إحداهن للزواج فإنها تتزوج قوادها الذى هو خادمها أيضا وعازفها الخاص فى نفس الوقت .. وهى صورة دامت طويلا.. حتى كان القرار الرسمى الأول والأخير بمنع الرقص فى مصر .. قرار صدر [1] فى أوائل شهر يونيو عام ١٨٣٤ .. وإتخذه محمد على بعد تسعة وعشرين سنة مضت وهو جالس على عرش مصر .. وكانت أول عقوبة لمن ترقص هى الجلد خمسين جلدة .. فإذا تكرر ضبطها ترقص مرة أخرى تصبح العقوبة هى الأشغال الشاقة لمدة سنة أو أكثر .

ومرة أخرى وليست أخيرة .. أثبتت الغوازى أنهن أقوى من أى سلطان أو قانون .. فذهب محمد على وإنتقل القانون بعقوباته إلى أرفف الأرشيف .. وبقيت الغوازى .. وبقى الرقص .. الرقص الذى وصفته صحيفة الإخلاص مثلا فى عددها الصادر فى السابع عشر من يوليو عام ١٨٩٧ بأنه .. مبتذل وشنيع لا يستحسنه إلا من ضرب الجهل أطنابه على قمة رأسه سيما وأن الراقصات المصريات هن من المومسات اللواتى لم يتخذن هذا الفن إلا قضاء لشهواتهن ولإيقاع الشبان الجهلاء فى شباكهن ليسلبن أموالهم .

وكتب كثيرون نفس تلك المعانى .. وتبنوا نفس تلك الآراء المطالبة بإلغاء هذة الدعارة والقضاء عليها من قبيل الإحترام لدين الدولة وتاريخها وتقاليدها وأخلاقياتها .. لكن شيئا لم يتغير أو

(١) إدوارد وليام لاين – عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم – تجمة سهير دسوم – مدبولى – ١٩٩١

يتبدل .. حتى جاء ديزموند ستيوارت إلى القاهرة في الستينات من القرن الحالى ليكتشف[١] أن رقص البطن الذى إنتشر في النوادى الليلية الحديثة .. هو آخر مرحلة من مراحل تطو رقص الغوازى .. مرحلة تميزت ببدلة الرقص التي لا علاقة لها بتقاليد مصر حتى وإن إجتهدت ثورة يوليو وأمرت بتغطية البطن العارية بالشاش أو التل ..وتحدث ستيوارث أيضا عن فشل أولئك الذين حاولوا إدعاء أن هذا الرقص هو نوع من الفن .. فقد بقى رقصا مثيرا للغرائز .. وياليت ديزموند ستيوارت قد عاد إلى القاهرة مرة أخرى ليشهد بنفسه نجاح أولئك الذين سبق وتحدث عن فشلهم في إقناعنا بالرقص الشرقى كأحد فنون مصر .. فقد نجحوا بالفعل .. وفرضوا علينا هذا الرقص وتلك الدعارة وهؤلاء المومسات .. وأصبح لزاما على الصغار والشباب أن يدفعوا ثمن كل ذلك .. والفتيات أيضا .. ساهمن في سداد بعض هذا الثمن .. حين جرين وراء تلك أحلام الثروة الخرافية والشهرة التي لا حدود لها حتى وإن كان ثمن ذلك في النهاية هو الدين والأخلاق والضمير وكل شئ جميل ورقيق وأصيل في هذة الحياة .

ثم دارت بنا أيامنا .. ولم نعد نكتفى براقصاتنا أو عاهراتنا .. ففتحنا الباب أمام عاهرات الدنيا تأتى من تشاء منهن إلى القاهرة لتمارس فحشها وخلاعتها .. عاهرات من بلاد غربية جئن تحت دعاوى ممارسة الرقص البدوى .. وعاهرات من أوروبا الغربية جئن بدعاوى تعلم الرقص الشرقى وإجادة فنونه .. وعاهرات هربن من الفقر في روسيا وجئن إلى القاهرة بدعاوى ممارسة الرقص الإستعراضى .. وكأن هناك بيننا ومنا من لا يريد لمصر إلا أن تصبح ماخورا لعاهرات العالم .. كأنها ليست مصر التى عرفت الله قبل كل الآخرين .. وأخلصت له عبادتها وصلاتها .. كأنها ليست مصر ملاذ المسيح من طغيان الكفر والجهل .. كأنها ليست مصر التى أسلمت فإجتهدت وجاهدت لتحمي دين الله وكلمة الله مهما كلفها ذلك من تضحيات وأوجاع .. كأنها ليست مصر التى تحتاج من يتحسس.. جراحها التى زادت .. ودموعها التى فاضت .. فيأخذ بيدها .. يداويها .. يواسيها .. يحبها ويحب أهلها .. كبارها وشبابها وبناتها وصغارها وأحلامها.

---

(١) ديزموند ستيوارت – القاهرة – ترجمة يحى حقى – كتاب الهلال – عدد ٢١٦ – ١٩٦٩

(١٠)

كتابة .. على جدران الشوارع

شباب
ناقص التربية
.. وناقس التشغيل
.. وناقص الترفيه
ويشكل مشكلة اجتماعية قابلة للتفجر

محمد عمر
من كتاب: حاضر المصريين وسر تأخرهم
سنة ١٩٠٢

فى عشرة أعوام فقط .

تغيرت مصر كثيرا وجدا .. أو تغير كل شئ فيها بشكل لم نعد معه فى إضطرار لأن نقوم بأى جهد إضافى لنعرف أن مصر التى كانت فى سنة ١٩٧٥.. تختلف تماما عن مصر التى أصبحت فى سنة ١٩٨٥ .. إلا فى أمور إستثنائية جدا وخاصة جدا .. كان منها الجنس بكل ما يعنيه فى أعماق أى شاب فى مصر .. فهذا هو الذى تخيلناه لا يتغير ولا يتبدل مهما تغيرت وتبدلت أيامنا وأفكارنا ومشاعرنا .. وهذا هو الملف الذى أبقيناه مغلقا طيلة هذة العشرة أعوام .. حتى جاء اليوم الذى كان علينا فيه أن ندفع الثمن .. ونفتح الملف .. ونضطر للحديث عن الشباب والجنس .. أو نضطر – بعبارة أكثر دقة – للحديث عن الإغتصاب .. وجرائم الإغتصاب .. وضحايا الإغتصاب .. ولكن بعد أن لم نعد نملك كلمات تليق ودموع تكفى لمواساة فتيات ونساء كثيرات مررن بهذة التجربة المؤلمة والموجعة .. ولا عاد بوسعنا أن نجد إهانات ولعنات تكفى لنصيبها على كل من تجاهل أو تناسى هموم وأوجاع الواقع العارى والمخيف الذى بدأ يعيشه شباب مصر منذ منتصف السبعينات حتى جرى كل ما جرى فى منتصف الثمانينات .. فمن المؤكد أننا لم ننتقل فجأة.. من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٥ .. وإنما إنتقلنا خطوة بعد خطوة .. يوما بعد يوم.. حادثة بعد أخرى .

طريق طويل إفتتحناه بالتحريض على الإثارة .. أفلام وأغان وحكايات تغازل مارد الجنس وتقنعه بالخروج من القمقم .. صور عارية ملونة مثيرة .. سيقان أكثر إثارة عراها المينى جيب فى كل الشوارع .. خجل وحياء تناقصت مساحتهما فى وجدان كثير من الشباب .. دين محبوس فى زنزانة السياسة والسلطة أو التطرف .. عادات وتقاليد أصاب الجميع هوس تكسيرها والسخرية منها والتمرد عليها بلا حدود .. فزادت الجرأة والرغبة .. وبدأت كل ضوابط الدين والأخلاق والمجتمع يخفت صوتها ويضعف تأثيرها .. فإنتشرت فى شوارع القاهرة ثم فى كل مدن مصر معاكسات هادئة أو شرسة إلتزمت ببقايا حياء وخجل أحيانا .. أو تجردت منهما تماما فى أحيان أخرى .. حتى بدأت مصر تعرف – أو تخاف – من حوادث الإختطاف والشروع فى الإغتصاب .. وإلى الحد الذى أصبحنا فى حاجة إلى معجزة لتوقف كل هذا الذى بدأ يجرى .

ولست أنا صاحب هذا التعبير .. وإنما هو محمود مراد – الصحفى بجريدة الأهرام – الذى كتب(١) حكاية أربعة شبان فى سيارة قاموا فى الساعة التاسعة مساء بمطاردة طبيبة شابة فى سيارة تاكسى فى شوارع العجوزة بقصد إختطافها .. وأوشك الشبان الأربعة بالفعل على إختطاف الطبيبة لولا سائق التاكسى الذى قاومهم وإستطاع الهرب منهم براكبته متوجها إلى نقطة شرطة العجوزة حيث تدخل مسدس أحد أمناء الشرطة ليحسم الأمر كله وينهى رحلة الهروب والخوف وإن لم يقبض على الجناة .. الحكاية رواها محمود مراد ضمن تحقيق عن الأخلاق التى بدأت فى التداعى وإختار للتحقيق عنوانا طويلا هو .. ضبط شقة سيئة السمعة لم يعد معجزة .. المعجزة فى وقف مثل هذا الذى حدث بالعجوزة منذ أيام !.

وكان الواقع الذى عشناه بعد تلك الحادثة يوما بعد يوم وعاما بعد آخر .. دليل يؤكد أن محمود مراد كان على حق تماما .. فقد كنا فى حاجة بالفعل إلى معجزة لم ينجح أحد ويأتى

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٩/٢٠

بها.. وبدلا من المعجزة .. جاءت توجيهات سيد فهمى وزير الداخلية إلى حسنى نجيب مدير أمن الجيزة بضرورة الإهتمام بتلك الحادثة وسرعة القبض على الجناة الأربعة .. وتم القبض عليهم بالفعل[1] .. ثم كان أن تكررت المحاولة الفاشلة .. ونجح شباب آخرون فيما فشل فيه هؤلاء الشباب الأربعة الذين فشلوا فى إختطاف الطبيبة وإغتصابها .. نجح الآخرون فى مخططاتهم ومحاولاتهم وبشكل لم يعد من الممكن تجاهله .. فقام ثلاثة عشر ضابطا [2] فى أوائل عام ١٩٧٦ يحملون فوق أكتافهم رتبا مختلفة بإعداد أول دراسة عن أبعاد ظاهرة إختطاف الإناث فى مصر .

وإنتهى هؤلاء الضباط إلى أن إختطاف الإناث تحول بالفعل فى مصر إلى ظاهرة يمكن تلخيص أسباب حدوثها والعوامل التى تساعد على إنتشارها فى .. الوضع الإقتصادى المتدهور وإرتفاع الأسعار .. أزمة الإسكان .. تفكك وإنهيار الروابط الأسرية والعائلية .. أفلام الجنس والإثارة التى يشاهدها الشباب فى دور السينما .. إنتشار الملاهى الليلية بشكل زائد عن الحد .. زيادة عدد الشقق المفروشة وشبكات الدعارة . .

ومن قبيل المفارقات المحزنة – أو المخجلة – أن يتزامن وقت قيام هؤلاء الضباط بتلك الدراسة.. مع بدء إجتماعات اللجنة العليا لتطوير القوانين وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية برئاسة المستشار جمال المرصفاوى.. والتى أعلنت عن الإتجاه إلى تطبيق حد الحرابة [3] على كل من يعتدى على الأشخاص أو الأعراض .. فكان أن مضت وتوالت الأيام دون أن ينزعج أحد لدراسة رجال الأمن ونتائجها وتحذيراتها المقلقة .. أو يفتش أحد عن حد الحرابة أو أى عقاب يردع أولئك الذين إعتدوا علينا وعلى أعراضنا وحرماتنا .. وإنما – وكما أشرت من قبل – لم نجتهد ولم نحرص إلا على أن يبقى هذا الملف الشائك مهملا ومغلقا ومنسيا أيضا .. وكان هذا بالضبط هو ما لم يحدث .. أو أن المستحيل كان أن يستسلم الشباب ويرضى بكل هذا التجاهل ويعيش أزمات واقعه دون إحتجاج أو غضب أو إنهيار .. كان ذلك مستحيلا ليس لأن الجنس تحول فى تلك الأيام إلى هاجس أوحد أو أول لشباب مصر .. أو لأن الرغبة إستشرت فى أوصال هؤلاء الشباب بشكل لم تعد تجدى معه أية ضوابط أو مقاومة .. وإنما لأن الذى لم نكن نعرفه – وأعتقد أننا لا نزال نجهله حتى اليوم – هو أن الجنس عند الشباب يغدو غالبا أكبر من مجرد لقاء وقبلات وأحضان ولحظات قصيرة من المتعة والنشوى فى الفراش .. وإنما هو – كما أشار عالم الإجتماع الأمريكى الشهير ديفيد ريمسن [4] – الملاذ الأخير الذى يحاول فيه كثير من الشباب تأكيد فرديتهم .. وأحد أشكال التمرد على الإستسلام والخضوع للمجتمع .. أو أن الإغتصاب وسائر جرائم الجنس بكل درجاتها وأشكالها التى يقدم الشباب على إرتكابها ماهى – كما قال عالم آخر هو جرنهوت[5] – إلا شك يساورهم فى معنى الحياة وجدواها .. أو إفتقارهم إلى الإحساس بالأمان .. أو إهتزاز القيم لديهم مع ضعف إهتمامهم بالدين والأخلاق .

فإذا عدنا إلى الوراء .. إلى منتصف السبعينات .. إكتشفنا أن كل تفاصيل الواقع الذى عاشه كثير من الشباب فى مصر .. لم تكن أكثر من مجرد دعوة للجنس .. وللخروج على القانون

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٥/٩/٢٢

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٧٦/٢/٢

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/٢/٢٧

(٤) أ . س . كون – الجنس والثقافة – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٥) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣

الأخلاقى .. ولكل هذا الذى جرى بعد ذلك فى الثمانينات .. فإذا كان الشباب فى كل مكان أو زمان .. تسكنه الرغبة الجنسية والغريزة التى لابد من إشباعها بقدر ما تسكنه رغبة لا تقل مساحة أو تأثيرا لإثبات الذات والتمرد على المجتمع والواقع .. فإن شباب مصر فى نهاية السبعينات كان لديه أكثر من دافع وأكثر من سبب لتتضخم مساحة الجنس والرغبة لديه .. وتقل مساحة ما يعصمه من التورط فى جرائم الجنس وشروره وآثامه .. أو بعبارة أخرى .. تعين على الشاب المصرى – بعد إنفتاح السبعينات – أن يشارك شباب العالم همومه العارية بقدر ما كان عليه أن يسدد كل فواتير الجنس الخاصه به وحده وببلده دون سواها .. ففى العالم كله .. وكما قال كولن ويلسون [1] .. بات كل شئ حولنا يذكرنا بالجنس .. النساء يرتدين ثيابا مغرية ومكشوفة بشكل يوحى للشباب بما يمكن أن تفعله هؤلاء النساء فى الفراش .. وصور الإعلانات ملأى بنساء فى ثيابهن الداخلية .. وهو الرأى الذى إنتهى إليه مفكر آخر قال [2] .. فى كل مكان تفشى إغراؤنا وقلقنا .. وعبادة الإعلانات على كل جدراننا لا تبرز إلا أثداء الفتيات .. ويختصر أنيس منصور نتيجة ذلك كله حين يؤكد [3] أن الشباب اليوم فى العالم كله .. لا يشكو من إنحراف أو شذوذ جنسى .. وإنما هو يعيش طول الوقت حالة دائمة من الإثارة الجنسية .. إثارة ضاعف من مساحتها ومن تأثيرها إكتشافات طبية عديدة وتقدم مذهل فى علوم التغذية واللقاحات والعلاج .. فشهد العالم – منذ الستينات – شبابا أصحاء قادرون على الإستمتاع بالجنس راغبون فيه أيضا .

وكان على الشباب فى مصر ألا يكتفى بتلك الإثارة فقط .. ولا بات الأمر فى النهاية مجرد رغبة وغريزة غائبة أو حتى ممارسة الجنس كمحاولة لإثبات الذات .. وإنما كانت هناك بالفعل حياة فقدت جدواها ومنطقها .. ومجتمع فقد عقله وإتزانه .. ومستقبل لم يبد إلا كمستودع ضخم سيحتفظ فيه الجميع بأحلامهم التى ستتكسر ونواياهم التى أبدا لن تتحقق .. وكان الزواج هو أحد أو أهم وأكبر تلك الأحلام المستحيلة .. فلا قدرة للشاب على إمتلاك بيت ولا هو أصلا يجد عملا يعيش به وله .. وتأتينا أرقام [4] تشير إلى مائتى وثلاثة وثلاثين الف عاطل فى عام ١٩٧٥ .. زادوا ستين الفا بعد عامين ثم خمسين الفا بعد عام واحد .. لتفتتح مصر الثمانينات وبها أكثر من نصف مليون شاب لا يعمل ولا يحلم ولا يجد ما يمنعه من أن يغدو قنبلة إحتجاج وغضب تسير على قدمين فى شوارعنا وبيوتنا تنتظر ما ينزع فتيلها فى أى وقت .

وفوق ذلك كله كانت رؤية النظام للشباب .. تلك الرؤية التى لم تتبدل أو تختلف كثيرا أو قليلا منذ قيام ثورة يوليو .. وكأن الشباب فى مصر لم يشكل لكل الحكومات المتعاقبة منذ عام ١٩٥٢ إلا عجلة لا يكفى كل ما فى العالم من زيت لدورانها .. أو كان هو الحمل الثقيل الذى لا يرحب به أو يسعد أحد .. هذا هو ما نخرج به من تتبع العلاقة بين الدولة وشبابها بعد الثورة .. وبالتحديد حين شهد عام ١٩٥٤ أولى إلتفاتات الثورة للشباب فكانت منظمة الشباب التى رأسها وحيد رمضان .. ثم كانت تجربة شباب الإتحاد القومى فى عام ١٩٥٨ .. ثم منظمة الشباب الإشتراكى التى ولدت فى الستينات لتعكس رغبة جمال عبد الناصر فى غرس الثورة ومفاهيمها فى وجدان

(١) كولن ويلسون – أصول الدافع الجنسى – ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب – دار الآداب – بيروت – ١٩٨٦
(٢) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢
(٣) أنيس منصور – من أول نظرة – دار الشروق – ١٩٨٩
(٤) من تقارير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء

الشباب والصغار عبر تنظيم سياسي كفء .. والتى بدأت بالفعل تمارس دورها عام ١٩٦٣ وتحت إدارة زكريا محى الدين المشرف على الإدارة المركزية للشباب فى الإتحاد الإشتراكى العربى .. ثم كان أن إنهار كل ذلك بعد يونيو .. وما كان السادات ليعيد بناء ما تركته هزيمة يونيو أطلالا وبقايا .. وإنما بدأت فى عهده تجربة مؤلمة ومحزنة لإدعاء الإهتمام بالشباب فى مصر .. تجربة يمكن إختصارها – مع تجربة عبد الناصر – فى كونها رحلة عبثية ساذجة من مجلس أعلى للشباب إلى وزارة للشباب .. ثم مجلس أعلى مرة أخرى ثم منظمة للشباب .. ثم تجميد هذة المنظمة وتعيين وزير دولة للشباب فنائب وزير للشباب .. ثم إلغاء الوزارة والإكتفاء بكيان هلامى وإعلامى ليس له دور محدد أو وظيفة حقيقية إسمه المجلس الأعلى للشباب والرياضة .. ولم يكن ذلك كله إلا نتاجا لمحاولات جمال عبد الناصر لتسييس الشباب وتطويعه دون سعى أو إهتمام حقيقى بفهم مقاصد هذا الشباب وأحلامه وظروف واقعه ومجتمعه .. ثم محاولات أنور السادات لتغييب هذا الشباب تماما عن هذا الواقع وهذا المجتمع وإستخدامه – كلما أستدعت الحاجة لذلك – كسلاح يشهره النظام فى وجه المعارضين والخصوم .. هذا فى نفس الوقت الذى كان فيه هؤلاء الشباب قد خرجوا من حرب شاركوا فيها – أو عايشوا على الأقل تجربتها – وتملكهم إحساس بأنهم أدوا ما عليهم من واجبات وباتوا يطالبون بما لهم من حقوق .

وفى مثل هذا المناخ .. لم يكن هناك من هو على إستعداد للتوقف ومراجعة أحوال الشباب النفسية والإجتماعية والجنسية أيضا .. لا النظام ولا أحد من المثقفين والمفكرين وأساتذة علم الإجتماع .. وهى الصورة التى لم تتغير كثيرا أو قليلا بعد رحيل السادات .. وإنما بدأ الحال يزداد ترديا وقسوة وإحباطا .. فالزواج بقى أملا بعيد المنال .. أو أصبح أملا مستحيل المنال .. فتكلفة الإسكان[١] زادت مع بداية الثمانينات بنسبة أربعمائة بالمائة عما كانت عليه فى بداية السبعينات .. وبنفس النسبة زادت أسعار الشقق .. وبقيت معدلات البطالة بين صفوف الشباب لا تعرف الهدوء أو الإستقرار .. وأصبح من المألوف أن نقرأ فى الصحف اليومية إعلانات تبشر خريجى الجامعات والمعاهد العليا بتوفير فرص للتدريب على أعمال السباكة أو الدهانات أو لصق البلاط وحيث سيصرف للمقبولين للتدريب أفرول وحذاء بالإضافة إلى حوافز مالية أخرى .. ثم جاء عام ١٩٨٢ – والذى رآه الخبير الإقتصادى الكبير الدكتور رمزى زكى[٢] – بداية إختلال توازن الدولة نهائيا سواء على المستوى الخارجى متمثلا فى زيادة الديون أو على المستوى الداخلى متمثلا فى إرتفاع معدل التضخم وزياة الأسعار .. ولم يكن ذلك ليعنى إلا أن البطالة كمشكلة .. قد تم تأجيل مواجهتها إلى أجل غير مسمى .. لم يكن ذلك كله أيضا ليعنى إلا أن كل شاب عليه أن يبدأ فى مواجهة الواقع بنفسه دون أن يتوقع يد المساعدة من الدولة أو من أى أحد آخر .. وفى مثل تلك الظروف .. غالبا ما يقفز الجنس والرغبة على السطح مرة أخرى .. وكان هذا ما حدث بالفعل فى النصف الأول من الثمانينات .. حيث إضطر الجميع لتغيير الصورة القديمة فى أذهانهم عن الإغتصاب .. الصورة التى ساهمت فى ترسيخها حكايات المقاهى والصالونات أو أفلام السينما .. حيث الإغتصاب جريمة لا تقع إلا فى آخر الليل حين يقوم السيد بمواقعة الخادمة الفقيرة رغما عنها .. صورة ترددت كثيرا على السنة الناس وشاهدناها فى

---

(١) المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية – المسح الإجتماعى الشامل للمجتمع المصرى من عام ٥٢/ إلى ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥
(٢) مجلة اليسار – عدد ١٩٩٤/٢

أفلام كثيرة مثل فيلم إحنا التلامذة أو فيلم الحرام أو فيلم دعاء الكروان .. فقد كان هذا هو أقصى ما يمكن أن يجنح إليه خيالنا حين يتعلق الأمر بالإغتصاب .. فالإغتصاب جريمة لم يألفها المجتمع المصرى عبر تاريخه الطويل ولم يخف منها إلا فى فترات إستثنائية جدا وقليلة جدا هى تلك الفترات التى تميزت بالإنهيار السياسى والإقتصادى والإجتماعى .. وكانت الأربعينيات من القرن الحالى هى آخر تلك الفترات الإستثنائية التى زاد فيها معدل جرائم الإغتصاب فى مصر .. ويرجع ذلك إلى سنوات الإحتلال وأزمة الحرب العالمية الثانية .. ومقابل ذلك هناك أكثر من دليل واضح ومؤكد على عدم ميل المصريين بشكل عام لإرتكاب جريمة الإغتصاب منها على سبيل المثال ماحدث أيام الحملة الفرنسية على مصر (١) .. فلم يسجل التاريخ حادثة إغتصاب واحدة إرتكبها شاب أو رجل مصرى .. وراحت ضحيتها واحدة من شقراوات وعاهرات كثيرات صاحبن الحملة الفرنسية وعبرن معها البحر فى الطريق إلى مصر .. صحيح أن هناك حكايات قيلت هنا وهناك حول تعدد وقائع إغتصاب كثيرة إنتهك فيها المصريون عرض جنود ورجال فرنسيين .. منها مثلا ما قيل عن جندى فرنسى شاهده نابليون بونابرت يبكى بشدة بعدما إغتصبه بعض البدو أثناء زحف الجيش الفرنسى من الإسكندرية إلى القاهرة .. فصرخ نابليون فى الجندى الباكى متسائلا عن سر هذا الإمعان فى الفضيلة وفى التباكى عليها وقال له .. لا تبكى أيها الغبى فقد دفعت ثمن إهمالك . (٢)

وأنا لا أريد تكذيب كل من أشار إلى مثل تلك الحكايات التى بالغ البعض أحيانا فى عددها وعدد ضحاياها من الرجال الفرنسيين .. ولكننى فى نفس الوقت لا أميل إلى التعامل مع تلك الحكايات وعلى أنها تاريخ لا يقبل التشكيك ووقائع لا تحتمل التكذيب .. وحتى هذا التاريخ وتلك الوقائع يشيرون إلى أن تلك الجرائم كلها جرت على أطراف الوادى .. الجناة فيها كانوا من البدو والذين يشكلون فيما بينهم نسيجا خاصا .. ونحن لا نعرف كل ما أحاط بتلك الجرائم من ملابسات وظروف .. وهناك إحتمال لا يفتقد إلى الوجاهة وكثير من المصداقية وهو أن الإنتقام من الغزاة كان محرضا لهؤلاء البدو على التنكيل بالفرنسيين الذين إغتصبوا الأرض والبلد وكثيرا من النساء والفتيات .. وهناك دليل آخر يتلخص فى أنه ليست هناك إمرأة فرنسية واحدة تم إغتصابها فى القاهرة أو الإسكندرية أو أية مدينة مصرية .. فالإغتصاب ليس من سلوك المصريين الشائع .. لا هو من عاداتهم ولا هو إحدى وسائلهم لتصفية الحسابات مع الآخرين مهما كان الإحساس بالثورة والغضب .. وحين كتب المفكر والباحث المصرى محمد عمر عام ١٩٠٢ كتابه عن المجتمع والناس وإختار له عنوانا هو .. حاضر المصريين وسر تأخرهم .. تحدث طويلا (٣) عن الشباب .. ناقص التربية وناقص التشغيل وناقص الترفيه والذى بات يشكل مشكلة إجتماعية متميزة وقابلة للتفجر .. لكن لا حديث عن الإغتصاب ولا أية إشارة إليه من قريب أو بعيد .. وقبل هذا الكتاب بأربع سنوات فقط .. تحدثت جريدة المقطم عن سوء حال شباب القاهرة فى عددها الصادر بتاريخ ١٨٩٨/٨/١٩ .. وكانت تصرفاتهم تمثل للجريدة ولكاتب المقال منتهى الإنحلال والفساد والإنحراف .. ثم نكتشف أن سلوك هؤلاء الشباب لم يتجاوز إعتراض طريق النساء فى

---

(١) عبدالله إمام - صفحات من تاريخ المرأة المصرية - الكتاب الذهبى - روز اليوسف - ١٩٨٧
(٢) كريستوفر هيرولد - بونابرت فى مصر - ترجمة فؤاد أندراوس - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦
(٣) تيموثى ميتشيل - إستعمار مصر - ترجمة بشير السباعى وأحمد حسان - سينا للنشر - ١٩٩٠

الشوارع .. والحديث إليهن بما يحمر له وجه المرأة .. أما السلوك الذى فاق كل التوقعات فكان أن بعضهم إقتنى صورا قبيحة وأخذوا يعرضونها على النساء فى الطرقات لترتعد النساء من جراء تلك السفالة .. وفى الثلاثينات من هذا القرن .. تحكى لنا الدكتورة لطيفة محمد سالم(١) عن مفهوم الإعتداء على الشرف والعرض .. الذى لم يكن أكثر من مجرد تغرير الشباب بالفتيات بعد أن هيأ العصر – بكل ما فيه من حرية وتسامح – أن يختلط الشاب بالفتاة .

هذة هى الصورة التى تعين على مصر أن تستبدلها فى نهايات السبعينات بصورة أخرى جديدة .. صورة أكثر واقعية وأكثر حزنا وإيلاما أيضا .. حيث العنف والإختطاف وإغتصاب الشرف والعرض والكبرياء بمنتهى الوحشية والقسوة .. فتساءلت جريدة الأهرام (٢) عمن يحمى الناس من مطاردات الشوارع .. ولم تجد الجريدة – ونحن معها – أية إجابة على مثل هذا السؤال .. فعادت بعد عام واحد تكتب (٣) عن قيام سائق تاكسى بمحاولة إختطاف وإغتصاب راكبة فى واحدة من أولى المحاولات التى يتورط فيها سائق مع راكبة فى الطرقات التى .. كانت آمنة .. وبعد تلك الحادثة بأربعين يوما .. قام تاجر (٤) بخطف فتاة من أحد شوارع مدينة نصر وكاد يغتصبها فى سيارته لولا أن القت الفتاة بنفسها أثناء سير السيارة فأصيبت بكدمات فى الرأس وكسر فى الحوض .. وبعيدا عن محاولات هؤلاء كانت هناك الجرائم الكاملة التى تمت بالفعل .. خمسة من الشباب إدعوا أنهم من رجال الشرطة وقاموا بإغتصاب فتاة فى المعادى .. وفى المعادى أيضا قام شابان بإختطاف فتاة من خطيبها وإنتهى الإختطاف بالإغتصاب .. وبعيدا عن القاهرة تعالت نفس الشكاوى فى الإسكندرية .. ومدن أخرى وكثيرة فى مصر .. وبلغ الأمر فى النهاية أن أصبح لدينا فى مصر سبعمائة وست وأربعين جريمة هتك عرض وإغتصاب جرت وقائعها فقط فى الفترة ما بين عام ١٩٨٠ وحتى نهاية عام ١٩٨٤.

جرائم كنا بالفعل .. فى حاجة إليها .. لترد إلينا عقولنا وإنتباهنا وإنزعاجنا .. وتصفع كل ما عشش تحت جلودنا من بلادة وبرودة ولامبالاة .. وهو ما دعا مصلحة الأمن العام لأن تقوم بأول دراسة عن الإغتصاب فى مصر .. دراسة كشفت نتائجها (٥) عن حقائق ووقائع مفزعة ومخيفة .. فكل المتهمين بإرتكاب تلك الجرائم – ستمائة وخمسة وثلاثين متهما – تراوحت أعمارهم من العشرين إلى الثلاثين عاما .. وثلاثة وخمسين بالمائة من تلك الجرائم وقعت فى مناطق مزدحمة وفى وضح النهار .. بينما وقعت ثلاثة وثلاثون بالمائة منها فى مناطق مزدحمة أيضا ولكن فى الليل .. وتسعة بالمائة فقط منها وقعت فى مناطق نائية أثناء النهار .. وأربعة بالمائة فى مناطق نائية ولكن أثناء الليل .

ولم يكن ذلك يعنى أكثر من وجود خلل بدأ يستشرى بقسوة وعنف فى أوصال مصر .. شباب لم يجدوا فى الجنس أكثر من عريضة غضب وإحتجاج فضلا عن رغبتهم المحمومة فى قضاء شهواتهم المؤجلة فسقط ستمائة وخمسة وثلاثين متهما فى خمس سنوات فقط .. وأمان غائب وضائع على الرغم من صفاقة ووقاحة البعض.. الذين – مع نتائج تلك الدراسة ومائة دراسة

(١) د. لطيفة محمد سالم – المرأة المصرية والتغيير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٣/٧/٢
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٤/٩/٧
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٤/١٠/٢
(٥) جريدة الأهرام – ١٩٨٥/٢/٢٣

أخرى – لم يدركهم أى ملل من الحديث عن بلد الأمن والأمان .. فالحكاية لم تعد منطقة نائية مهجورة ومظلمة وفتاة وحدها ينفرد بها شباب يخلعون عنها ثيابها ويمارسون معها نزواتهم وجنونهم ورغباتهم .. وإنما هى حكاية الناس وزحامهم وضجيجهم وشهواتهم وإحباطاتهم .. وفى وضح النهار وأمام الجميع .

ولأن تلك الحقائق والوقائع على الرغم من قسوتها وبشاعتها لم تكن كافية لتثير إنتباهنا وإنزعاجنا .. فقد جاءتنا الحادثة التى كنا نحتاج إليها .. والجريمة القادرة على إزعاجنا وإرباكنا وإجبارنا على فتح ملفات مخاوفنا ومواجعنا .. كانت حادثة إغتصاب فتاة المعادى الشهيرة .. الحادثة التى جرت وقائعها فى تمام الساعة الثالثة والنصف عصرا يوم الخميس السابع عشر من يناير عام ١٩٨٥ .. ففى تلك الساعة إلتقى ثلاثة من الشباب بشاب رابع معه سيارة إستقلها الجميع ثم إنضم إليهم شاب خامس وأخذوا يجوبون شوارع المعادى بحثا عن إمرأة .. وبعد ساعة كاملة – أى فى الساعة الرابعة والنصف – وقع بصرهم على سيارة تقف فى هدوء أمام إحدى الفيلات وبداخلها شاب وفتاة [1] .. كانت فتاة جميلة لم تتجاوز السابعة عشر من العمر طالبة بكلية التربية الموسيقية بالزمالك وتجلس فى السيارة مع خطيبها يتناقشان فى ترتيبات حفل خطبتهما الذى كان سيعقد فى اليوم التالى .. وإتفق الشبان الخمسة على إختطاف الفتاة بقصد إغتصابها .. فذهب أحدهم مشهرا مطواة إلى سيارة الشاب والفتاة .. وطلب الشاب من الفتاة مغادرة السيارة فرفضت هى وخطيبها .. فما كان من الشاب إلا أن مزق بمطوته إطار السيارة الأمامى الأيسر .. والإطار الخلفى أيضا .. لكن الخطيب مع ذلك نجح فى السير بالسيارة ثم توقف بعد قليل .. فعاد إليه الشبان الخمسة وفوجئ الخطيبان بشاب منهم يفتح باب السيارة الخلفى وأمر الخطيب بالإنتقال بالسيارة إلى الجانب الآخر من الطريق بجوار الرصيف .. ثم جذب الشاب الخطيب خارج السيارة فى اللحظة التى أجبر شاب آخر الفتاة على مغادرة سيارة خطيبها وإصطحب الجميع الشاب وخطيبته إلى سيارتهم وإنطلقوا بها إلى مكان سبق لهم تحديده والإتفاق عليه .. وفى ذلك المكان .. بدأ شاب منهم – أو المتهم الأول – جريمة الإغتصاب.. وحده مع الفتاة فى مقعد السيارة الخلفى حيث أمرها بأن تخلع ثيابها .. وخلعت الفتاة بالفعل ثيابها الخارجية إلا إن الشاب – تحت تهديد السلاح – أصر على أن تخلع الفتاة كل ثيابها .. وحين أصبحت عارية تماما قام الشاب الذى خلع هو الآخر ملابسه بطرحها على مقعد السيارة الخلفى وبدأ يمارس معها الجنس فى الوقت الذى لم تكف فيه الفتاة عن البكاء وإسترحام الشاب والتوسل إليه ليتركها لحال سبيلها .. وفى ذلك الوقت كان بقية الشبان ينتظرون خارج السيارة ومعهم خطيب الفتاة الذى إضطر للصمت والإستسلام بعد أن هدده المتهمون إن أصر على الإستغاثة بإغتصابه هو ثم قتله بعد ذلك .. وبعد الشاب الأول جاء الشاب الثانى الذي تجرد أيضا من ثيابه وطرح الفتاة مرة أخرى على مقعد السيارة وشرع فى إغتصابها لولا أن فوجئ بزملائه يجرون إلى السيارة فزعا بعد سماعهم لصوت طلق نارى .. فإستقلوا سيارتهم ومعهم الفتاة وإنطلقوا بسرعة تاركين خلفهم خطيب الفتاة إلا أنه تشبث بالسيارة وقفز فوقها .. وإنتهت الرحلة القصيرة أمام إحدى العمارات تحت التشطيب حيث قادهم شاب سادس إلى غرفة ملحقة

---

(١) الحادثة نشرت تفاصيلها كثير من الصحف والمجلات المصرية وحتى العربية .. وأنا هنا أعتمد بشكل أساسى على الرواية الرسمية التى جاءت فى حيثيات الحكم كما نشرتها جريدة الجمهورية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٥/٤/١٦

بجراج أسفل العمارة .. وأخلى الجميع الغرفة للمتهم الثانى ومعه الفتاة التى كانت قد إرتدت بعض ثيابها .. ومن جديد أرغمها الشاب على أن تخلع كل ثيابها وشرع فى ممارسة الجنس معها .. مشهد تكرر مرة بعد أخرى .. وفى كل مرة كان كل شاب يدخل الغرفة يرغم الفتاة على خلع ملابسها وكانت الفتاة لا تكف عن إسترحامه والتوسل إليه دون جدوى .. حتى أشارت الساعة إلى قرابة التاسعة والنصف مساء حين قاد المذنبون الشاب وخطيبته إلى حيث كانت تقف سيارتهما .

وبعد أربعة وعشرين ساعة فقط .. تم القبض على كل المتهمين .. وبدأ إنفجار الصحافة والإعلام .. ومع أنها لم تكن الحادثة الأولى من نوعها ولن تكون الأخيرة .. إلا أن حادثة المعادى تحولت إلى نقطة فاصلة فى تاريخ مصر مع الإغتصاب .. الكل بدأ يكتب عن الإغتصاب أو يتحدث عنه .. الكل بدأ يعرف الخوف والقلق .. لكنهم قليلون جدا هم أولئك الذين حاولوا معرفة تفسير لما حدث ولكل الذى سوف يحدث .. قليلون هم الذين حاولوا معرفة أين يكمن وجع شباب مصر الحقيقى وما هى الدوافع وراء كل جريمة الإغتصاب سواء كانت فى المعادى أو فى أى حى من أحياء أية مدينة فى مصر .. ولم يجد هؤلاء من يصغى إليهم للأسف .. وإنما إنشغل الجميع بالف قضية جانبية أخرى دون أدنى إهتمام بالقضية الأساسية .. فكان هناك من أراد التخفيف من وقع قيام ست شبان بإغتصاب فتاة .. فكثرت التلميحات هنا وهناك والتى تشكك فى سلوك الفتاة .. وهل كانت فى سيارة خطيبها بالفعل .. وإذا كان خطيبها حقا فلماذا إختارا الحديث حول ترتيبات حفل خطوبتهما فى ذلك المكان النائى .. وما الذى كان الخطيبان يفعلانه داخل السيارة بحيث أثارت رؤيتهما رغبة وشهوة الشباب الآخرين .. وكانت كلها تساؤلات لا قصد منها إلا التأكيد على أن كل الأمور بخير والحكاية لا تغدو أكثر من مجرد فتاة عابثة مستهترة فدفعت وحدها ثمن إستهتارها ومجونها وحريتها التى زادت عن الحد .. ومن ناحية أخرى كان هناك من أراد إستغلال حادثة المعادى سياسيا .. فحاولت جريدة الوفد الإيحاء بأن تلك الحادثة وكل حوادث الإختطاف والإغتصاب الأخرى تتحمل مسئوليتها وزارة الداخلية .. وكتبت الجريدة تتساءل فى أحد أعدادها عن دور وزارة الداخلية (١) لمواجهة جرائم الخطف والإغتصاب ؟!.. وكتبت جريدة الشعب تعارض (٢) ما ذكره اللواء أحمد رشدى وزير الداخلية فى مجلس الشعب عن عدد جرائم الإغتصاب .. وبدورها لم تتوان جريدة مايو – الناطقة بلسان الحزب الوطنى الحاكم – عن الدخول فى معركة تسييس حوادث الإغتصاب .. فنشرت تحقيقا مطولا (٣) إختارت له عنوانا موحيا ومؤثرا هو .. أكذوبة إسمها خطف البنات .. وإختارت الجريدة أكثر من حادثة إختلطت فيها الدعارة والفسوق بالخطف والإغتصاب لمجرد أن تؤكد لكل من تحدث عن ظاهرة خطف البنات أنه لا توجد .. ظاهرة ولا يحزنون .. على حد تعبير الجريدة .. وشارك الجريدة رأيها المحامى الكبير والشهير كمال خالد والذى كتب فى جريدة الأحرار فى نفس يوم صدور

---

(١) جريدةالوفد – عدد ١٩٨٥/٢/٧

(٢) جريدة الشعب – عدد ١٩٨٥/٢/١٩

(٣) جريدة مايو – ١٩٨٥/٢/١٨

جريدة مايو (١) مقالا بعنوان موجة إختطاف أم هوجة إنحراف .. وقال كمال خالد .. أنا لست ممن إنفعلوا بحادث إختطاف شاب وخطيبته في المعادى .. ولا ممن إنزعجوا من حوادث الإختطاف الأربعة التى نشرتها جريدة الجمهورية منذ أيام تحت عنوان جرائم الخطف مستمرة .. ففي حادث المعادى .. لماذا إختار الشاب والفتاة هذا الوضع المريب داخل سيارة على جانب طريق هادئ .. وما هى الظروف التى أدت بهؤلاء المتهمين إلى الإعتراف الخطير الذى ليس بعده إلا الهلاك .. والأصل أن الإنسان بطبيعته يدافع عن نفسه .. والوقائع كلها تحتمل الشك ويمكن ألا يرتاح إليها وجدان أو ضمير على الرغم من الإعتراف ووجود أكثر من برهان أو دليل .. ويتناول كمال خالد بقية الحوادث بالتحليل مؤكدا أنه لم يعد مستبعدا أن تكون هوجة تستغل فى تقديم بلاغات كيدية مغرضة أو تشفيا من خصم أو إنتقاما لخلاف أو تلويثا لسمعة .. وإذا كان المحامى الكبير قد كتب معبرا عن رأيه وعن قناعاته الشخصية .. فإنه من قبيل المفارقات أن تخرج جريدة تنطق بلسان الحكومة تؤكد أنه ليست هناك جريمة ولا ظاهرة فى مصر إسمها إختطاف وإغتصاب الفتيات فى الوقت الذى وقف فيه وزير داخلية نفس الحكومة قبل أيام قليلة أمام نواب البرلمان يؤكد أن تلك الظاهرة لن تختفى حتى ولو إنتشر البوليس فى كل حى وفى كل شارع .

ومن القضايا التى إنشغل بها الناس أيضا بعيدا عن القضية الأساسية والحقيقية .. كان تساؤل الكثيرين حول عقاب مناسب للشبان الست المتهمين بإغتصاب فتاة المعادى .. فلم يكن غائبا عن أذهان الكثيرين وعن ذاكرتهم وقائع جريمة أخرى سبقت جريمة المعادى بوقت قصير .. وقام فيها رجل بإستدراج زوجة صديقه خارج بيتها ثم قام بإغتصابها فى قسم اللبان بالإسكندرية .. وتم القبض عليه وتقديمه لمحكمة جنايات الإسكندرية التى قضت بإعدامه وإحالة أوراقه إلى المفتى .. فكانت المفاجأة (٢) أن رفض الشيخ عبد اللطيف حمزة مفتى الجمهورية التصديق على هذا الحكم .. ويرر المفتى رفضه لحكم الإعدام بأن القانون رقم ٢١٤ لسنة ١٩٨٠ الذى يقضى بإعدام من يرتكب جريمة خطف إذا إقترن الإختطاف بالإغتصاب .. هو قانون غير مستمد من الشريعة الإسلامية .. وأيضا لأن المتهم لم يعترف إعترافا كاملا بجريمته. ولهذا – ووفقا للشريعة الإسلامية – لا توجد جريمة أصلا تستدعي العقاب .. لكن لم تستجب المحكمة لرأى المفتى حيث ليست هناك مادة فى القانون تلزم المحكمة برأى المفتى فى أية أحكام تصدرها بالإعدام وإنما يبقى رأى المفتى إستشاريا فقط .

من أجل ذلك كله .. كان الجميع فى إنتظار محاكمة المتهمين الست فى حادثة إغتصاب المعادى .. وكان يسكنهم الفضول لمعرفة الحكم الذى ستقضى به المحكمة .. وموقف فضيلة المفتى من هذا الحكم .. وبالطبع صدر الحكم بإعدام كل المتهمين .. ولم يعترض المفتى هذة المرة وإنما صدق على الحكم .. وتم بالفعل إعدام المغتصبين لتكون المرة الثانية فى كل تاريخ مصر – بعد قضية الإسكندرية – التى يصبح فيها الموت هو عقاب الإغتصاب .. فالمصريون القدماء لم يختاروا الموت من قبل عقابا لمن يرتكب جريمة الإغتصاب .. وإنما كانوا يعاقبون من يغتصب فتاة أو إمرأة بإخصاء الجانى (٣) عقابا له على الإغتصاب الذى كان فى مفهومهم ثلاث جرائم لا جريمة

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٨٥/٢/١٨

(٢) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٥/٢/٢

(٣) د. أحمد علي المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣

واحدة .. فالإغتصاب هو إنتهاك الحرمة .. وممارسة الزنا .. وخلط الأنساب .. لذلك كان العقاب المناسب هو حرمان من قام بذلك كله من رجولته .. أى بتر قضيب من يغتصب فتاة أو إمرأة .. وكانوا فى ذلك أكثر واقعية وأكثر عقلانية من غيرهم .. من اليهود مثلا الذين تحول عقاب الإغتصاب لديهم إلى عملية إنتقام كاملة ومرعبة .. فالتوراة تحكى لنا (١) عن إغتصاب دينا إبنة يعقوب عليه السلام .. إغتصبها شكيم إبن حمور الحوى رئيس إحدى المدن المجاورة .. وحين تم إكتشاف الأمر .. حاول والد الشاب مراضاة يعقوب وأولاده بعرضه زواج إبنه من إبنة يعقوب لكن دون جدوى .. ولم يقبل يعقوب إلا بما يرضيه ويمحى عار إبنته وكل أولاده .. أن يشن أولاده الهجوم على مدينة شكيم وأبيه .. وهاجموها بالفعل وقتلوا شكيم وأبيه وكل ذكر فى المدينة كلها وأسروا كل نسائها .. أما العرب قبل الإسلام .. فقد إنفردوا بقتل الذى إغتصب وقتل الفتاة أو المرأة التى تم إغتصابها أيضا .. لأنه فى قناعتهم ليست هناك الفتاة أو المرأة التى يمكن إغتصابها وتبقى على قيد الحياة .. فهى إما تقاوم المغتصب وتمنعه من إغتصابها .. وإما تقاوم حتى الموت بين يدى من يغتصبها .. وإما تقتلها عائلتها بعد إغتصابها لأن الباقى من عمرها لن يمحو عارها .. وهو الأمر الذى تغير بعد الإسلام الذى أنقذ الضحية من الموت ومن العار .. وعاقب الجانى بعقاب المفسدين فى الأرض .. أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .. لكن من الثابت تاريخيا أن مصر لم تطبق تلك العقوبة غالبا وإنما كانت أقصى عقوبة هى السجن لمدد إختلفت وتباينت من عصر إلى عصر .. أو الجلد (٢) مائة جلدة فى الفترة التى سبقت مجئ الفرنسيين .

لهذا .. وبعد إعدام الجناة فى حادثة الإسكندرية أولا .. ثم فى حادثة المعادى الأكثر شهرة والأشد إيلاما وإقلاقا .. ساد الناس إحساس بالإرتياح نتيجة هذا العقاب القاسى الذى حاق بالمتهمين جزاء جريمتهم .. إرتياح جعلنا ننسى ونستريح ونغلق الملف مرة أخرى .. ساعدنا على ذلك – وضاعف من إحساسنا بالإرتياح والإطمئنان – مبادرة وزارة الداخلية لمواجهة تلك الظاهرة .. فإستضافت كثيرا من الباحثين تدارسوا – مع رجال الأمن – ظاهرة الإغتصاب خلال الخمس سنوات الأخيرة فى مصر .. وإنتهت الدراسة (٣) بعدة توصيات من أجل المستقبل منها تطبيق الشريعة الإسلامية بإعتبارها الدرع الواقية للمجتمع .. ورعاية الجيل الجديد والحفاظ على القدوة الصالحة بداية من الأسرة وحتى المدرسة والشارع والمسجد .. وأن تراعى أجهزة الإعلام عدم إستثارة الشباب بأفلام الجنس والإثارة .. وأهم من ذلك .. توفير مساكن للشباب حيث أن أزمة الإسكان هى أساس المشكلة التى تواجههم وتؤرقهم وتعطل زواجهم وتمنعهم من ممارسة حياتهم الطبيعية .

توصيات كانت رائعة وجديرة بالإحترام والتقدير لولا أنها فقط كانت ممنوعة من التنفيذ !.. فلا شريعة جرى بحث تطبيقها .. ولا قدوة صالحة تم غرسها فى البيت أو المدرسة أو الجامع .. ولا توقف طوفان الإثارة فى مختلف وسائل الإعلام التى يراها أو يسمعها أو يقرؤها الناس .. وفوق ذلك كله لم يكترث أحد بتلك التوصية الهامة التى تتعلق بتوفير مساكن للشباب .. ولا إهتم

---

(١) التوراة – سفر التكوين – الفصل الرابع والثلاثون
(٢) وصف مصر – ترجمة زهير الشايب – مكتبة الخانجى – ١٩٧٩
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/٢/٢٤

أحد بمواجهة أزمة البطالة المتزايدة والتى لم تكن هناك توصية أصلا تتعلق بمواجهتها .. فكانت النتيجة أن أصبح الزواج فى مصر مشكلة حقيقية .. وتناقصت نسبة المتزوجين [١] من شباب مصر من ٦٠٪ عام ١٩٧٦ إلى ٥٨٪ عام ١٩٨٦ .. وهو فارق قد يبدو قليلا يمكن نسيانه أو تجاوزه .. لكن إذا أضفنا إليه خمسة وثلاثون بالمائة [٢] من الذين تزوجوا بالفعل فى النصف الأول من الثمانينات لم يكونوا ليستطيعوا الزواج لولا مساعدة مادية من الأهل .. وسبعة عشر بالمائة من الذين تزوجوا – أيضا فى منتصف الثمانينات – تزوجوا فقط لأنهم وجدوا مكانا للإقامة فى بيوت عائلاتهم .. حينئذ نجد أنفسنا أمام مؤشرات وأرقام بالغة الدلالة على حجم وعمق أزمة الزواج فى مصر .. وإذا أضفنا إلى تلك الأزمة معدل بطالة دائم التصاعد حتى تجاوز[٣] فى عام ١٩٨٦ – وللمرة الأولى – حاجز المليونى شاب عاطل .. وأن البطالة كانت أحد الأسباب الرئيسية لتأجيل الزواج أو إلغائه .. زاد إحساسنا بمدى الأزمة وقسوتها .. إحساس أكده جيلز كيبل حين جاء إلى مصر ليعد كتابه عن أزمة التطرف والشباب فعاد وكتب [٤] .. فى مجتمع أصبح الزواج المتأخر فيه هو القاعدة .. أصبح الكبت الجنسى ونتائجه مع العادة السرية مشكلتين قوميتين .. أما الذى لم يكتبه جيلز كيبل فهو أن الإسلام .. الدين الأكثر واقعية وإلماما بحاجات العباد وإحتياجاتهم .. ودين معظم الشباب فى مصر .. كان الدين الأكثر إلحاحا على الزواج والأكثر إحتراما لكل حاجات الإنسان الجنسية وإعترافا بها أيضا .. فالزواج – بعد الإسلام – لم يعد تلك العملية المعقدة باهظة التكاليف .. بل على العكس تمام لا يتطلب الأمر سوى إتفاق وإشهار .. وحفظ بعض آيات كتاب الله يكفى أحيانا كمقدم للصداق بين العروسين .. وتعددت الأحاديث الشريفة التى يحث فيها الرسول عليه الصلاة والسلام على الزواج .. فهو القائل [٥] .. يا معشر الشباب من إستطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .. وهو الذى قال عليه الصلاة والسلام .. أنا والله لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى .. ويحكى أيضا [٦] أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال لعكاف بن وداعة الهلالى الذى لم يتزوج . إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح.

وكان الإسلام – دينا وقرآنا ورسولا ووقائعا – حريصا على الزواج وإتمامه .. إحتراما لرغبة كامنة داخل كل أحد .. وغريزة من العبث تجاهلها وإنكارها .. فأولى الشهوات عند الناس هى النساء .. هذا هو النص القرآنى الصريح كما ورد فى هذة الآية الكريمة .. زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث [٧] .. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام شديد التحذير من فتنة النساء .. فهو القائل .. ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء .. وهو الذى كان يدعو الله قائلا .. اللهم إنى

---

(١) جريدة مصر الفتاة – عدد ١٩٩٢/١٢/٢٨

(٢) مجلة الحوادث – لندن – عدد ١٩٨٦/٧/٤

(٣) مجلة اليسار – عدد ١٩٩٤/٢

(٤) جيلز كيبل – النبي والفرعون – ترجمة أحمد خضر – مدبولى – ١٩٨٨

(٥) محمد على قطب – الحب والجنس من منظور إسلامى – مكتبة القرآن – ١٩٨٤

(٦) د محمود بن الشريف – الحب فى القرآن – إقرأ – عدد ٤٦٩ – دار المعارف – ١٩٨١

(٧) سورة آل عمران – الآية رقم ١٤

أعوذ بك من فتنة النساء وعذاب القبر .. وقيل أيضا [1] أن الآية الكريمة التى تقول : ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به .. مقصود بها الصبر عن النساء .. وتحول هذا المفهوم إلى أحد الفوارق الرئيسية بين الإسلام والمسيحية فى تناول كل منهما لواقع الحياة اليومية والإجتماعية .. فارق إستردت به مصر كثيرا من طبيعتها المتسامحة المتفهمة لأعماق ورغبات شبابها وصغارها .. فمصر المسيحية تجاهلت تلك الرغبات وأية إحتياجات جنسية ممكن أن تجتاح كل شاب .. صحيح أن الإنجيل لم يدع بشكل صريح إلى الزهد .. لكن القديس بولس كان دائم التأكيد [2] على المزايا الروحية للعفة حتى تحولت العذرية إلى فضيلة وأصبح هناك من يلتزم بالنص الحرفى لتوصية يسوع التى قال فيها .. يوجد من أخصوا أنفسهم لأجل مملكة السماوات .. أيضا قال الرسول بولس [3] في تعاليمه ووصاياه .. أقول لغير المتزوجين أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا .. وهو الذي أيضا كان لا يكف عن مطالبة الشباب بعدم الزواج وعدم الإرتباط بأية إمرأة .. أما مصر المسلمة .. فلم تعد تنكر الزواج ولا تعارضه ولا ترى فيه تناقضا مع الدين وعبادة الله .. ولا عادت مصر فى كل عصورها التالية ترى في ممارسة الجنس – عن طريق الزواج – هبة قد تمنحها للشاب أو عنه تمنعها .. وإنما هو إحد أهم حقوق كل وأى شاب .. أن يتزوج وأن يمارس الجنس مع عروسه وقتما وكيفما يشاء حتى تستقيم حياته ويقر سكينته .. وبات من المألوف تماما حين يقول شاب أنه نوى إكمال دينه أن يدرك من يسمعه أنه يقصد الزواج .

نخرج من ذلك كله أن الزواج .. فى مفهوم غالبية شباب مصر .. ليس مجرد عادة إجتماعية .. ولا هو فقط وسيلة لإنجاب الصغار .. إنما هو بالإضافة إلى كل ذلك وصية دينية جاءهم بها دينهم الذى لم ينكر عليهم رغباتهم وإحتياجاتهم الجسدية التى لا يمكنهم الصبر عنها وعن تلبيتها .. ولم يذكر لنا التاريخ أن الزواج تحول إلى مشكلة أو أزمة فى أي وقت على الرغم من طول ما مرت به مصر من محن ومواجع .. إلا فى تلك السنوات التى عاشتها مصر فى الثمانينات من القرن الحالي .. صحيح أن سيد قطب كتب في الأربعينات [4] عن أزمة زواج وحاول مناقشة أسبابها من تعليم وبغاء ومغالاة في المهر فضلا عن متاعب إقتصادية كثيرة ومتعددة .. إلا أن المشكلة التى تحدث عنها سيد قطب فى الأربعينات لا يمكن مقارنتها مطلقا بمشكلة الزواج فى مصر الثمانينات .. حيث تجاوز الكثيرون سن الثلاثين من العمر ولا هم يستطيعون الباءة ولا عاد الصوم – بمقاييس ومفاهيم عصرهم ومجتمعهم – يمثل أي وجاء .. ولا هم يملكون بيتا أو وظيفة أو حتى أملا فى مشروع زواج قابل للتحقيق .. شباب لم ينجح فى التعبير عنهم قدر نجاح أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى قصته بعنوان الحب فوق هضبة الهرم .. القصة التى كتبها صاحبها فى نهاية السبعينات وكأنه يسبقنا ويسبق الثمانينات كلها ليحكي لنا الذي جرى والذي سوف يجرى .. بل إن مقدمة تلك القصة والتى كتبها نجيب محفوظ [5] على لسان علي عبد الستار بطل القصة تصلح لأن تكون صرخة معظم شباب مصر اليوم .. فعلى عبد الستار يقول .. أريد إمرأة .. أية إمرأة .. إنها صرخة مدوية إنبعثت أول ما إنبعثت من جوانحى على هيئة همسات من الذهول .. همسات من الأنين .. همسات من الغضب .. ثم إنفجرت صرخة مدوية .. ما هى بالأنانية .. ما

(١) محمد بن أحمد التيجاني – تحفة العروس ومتعة النفوس – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢.
(٢) فيليب كامبي – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادي عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢
(٣) د. صموئيل حبيب – المرأة فى الكنيسة والمجتمع – دار الثقافة – ١٩٨٨.
(٤) سيد قطب – المجتمع المصرى .. جذوره وآفاقه – إعداد وتقديم الان روسيون – سينا للنشر – ١٩٩٤.
(٥) نجيب محفوظ – الحب فوق هضبة الهرم – مكتبة مصر – ١٩٧٩

هى بالبهيمية .. ماهى باللامبالاة .. ويواصل على حديثه الإفتتاحى قائلا .. الجنس أصبح محور حياتى وهدفها .. إنقلب وحشا ذا مخالب وأنياب .. قوة مطاردة مهددة .. خلق منى كائنا جنسيا خالصا ذا حواس جنسية وأخيلة جنسية وأحلام جنسية .. على ذلك فإننى أروم الحياة الشرعية المستقرة .. التمس إليها الوسيلة .. بلا شروط متهورة أو طموح كاذب أو طمع قبيح .

وعن نفس المشكلة .. وآثارها .. تحدث جيلن كيبل فأشار إلى أنه بات علينا أن نتوقع نتائج هذا الكبت الجنسي القاسي والحاد .. وأن نعرف أن العادة السرية أصبحت بالفعل مشكلة قومية لا يجرؤ أحد على الحديث عنها أو الإشارة إليها مطلقا .. رغم أنها باتت اليوم هى البديل الوحيد المتاح لكل من الزواج أو الزنا أو الشروع فى الإغتصاب أو حتي التفكير فيه .. وأصبح لدينا اليوم فى مصر الاف الشباب كلهم يشبهون الكاتب الروسى الشهير نيكولاى جوجول مؤلف المسرحية الشهيرة بإسم المفتش العام .. والذى لم يعد العالم يعرفه بمسرحيته تلك فقط .. وإنما بات يعرفه أيضا بإعتباره أشهر رجل لم يضاجع أية إمرأة طوال حياته (١) .. فقد إستغنى عن ممارسة الجنس مع النساء بممارسة العادة السرية .. الفارق الوحيد هو أن الشاب المصرى ليس يمارس العادة السرية هروبا من النساء مثل جوجول الذى أتيحت له كل فرص الإستمتاع بالجنس وبالنساء لكن نفوره من النساء جعله يكتفى بالعادة السرية .. ولا كان الشاب المصرى يمارس العادة السرية مستمتعا بها مثل الفيلسوف الفرنسي الشهير جان جاك روسو الذى عرف كثيرا من النساء وعاشر كثيرا من النساء ومع ذلك بقى أحد كبار المشاهير الذين إحترفوا ممارسة العادة السرية وإستمتعوا بها أيضا (٢) .. ولا كان الشاب المصرى يمارس العادة السرية خوفا من الأمراض الجنسية التى قد تنقلها العاهرات مثل الأديب المغربى محمد شكرى الذى كان يضطر للإستمناء أحيانا (٣) خوفا من تلك الأمراض وهروبا من أوجاع العلاقات الدائمة .. ولا كان الشاب المصرى يمارس العادة السرية وهو يشعر بالضيق كشباب اليهود – المولعون بالبخل الشديد – الذين يعتبرون الإسراف فى المنى تماما كالإسراف فى المال .. لكن لم يمارس الشباب المصرى عادته السرية – ولا يزال – إلا مضطرا .. تقهره رغباته وشهواته وظروفه وواقعه لأن ينسحب فى صمت وضيق وعذاب وخجل وعلى مدى لحظات قصيرة عجلى يستعين بالعادة السرية ليواصل مواجهة المجتمع والحياة من جديد .. يمارسها بإحساس شاب مسلم يقترف إثما لا يستطيع الفكاك منه .. لأنه من المفترض أن هذا الشاب الذى يلجأ لتلك العادة هو إما أحد الذين يملكون إستعدادا لإرتكاب الزنا وممارسة الجنس الحرام لكنهم لا يجدون فرصة مناسبة أو إمرأة مناسبة لذلك .. وإما أحد الرافضين للزنا ولممارسة متعة الجنس الحرام وهم الغالبية فى مصر .. لكنهم أمام حصار الشهوات القاسى لا يجدون غير العادة السرية خلاصا من حيرتهم وعذابهم .. فيمارسونها وهم يدركون أنهم يمارسون ما لن يرضى عنه الله ودين الله .. تلك هى قناعتهم وقناعة المصريين بشكل عام .. وذلك هو الأمر الذى لم يتفق عليه الفقهاء .. فأتباع وأنصار المالكية والشافعية يحرمونها تحريما مطلقا وحجتهم على ذلك هو الأمر الإلهى بحفظ الفروج إلا فيما أحل الله .. أما الحنابلة فقالوا أن الإستمناء حرام إلا إذا خاف الرجل أو الشاب الزنا ولم تكن له

(١) كولن ويلسون – أصول الدافع الجنسي – ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب – دار الآداب – بيروت – ١٩٨٦
(٢) جان جاك روسو – الإعترافات – ترجمة مجيد بدر الدين خليل – دار طلاس – سوريا – ١٩٨٥
(٣) محمد شكرى – الشطار – دار الساقى – لندن – ١٩٩٢.

زوجة ولا يستطيع الزواج .. ووافقهم الحنفية على ذلك فقالوا أن الإستمناء حرام إذا كان لإثارة الشهوة دون مبرر .. أما إذا غلبت الشهوة الرجل أو الشاب فلجأ إلى الإستمناء بقصد تسكين الشهوة فلا جناح عليه .. بل إنهم ذهبوا إلى أن الإستمناء واجب (١) إذا خيف الوقوع فى الزنا جريا على قاعدة أخف الضررين .. وحتى إذا إستطاع الكثيرون من هؤلاء الهروب من الإحساس بالإثم أو الخطيئة .. يبقى تحت جلدهم إحساس آخر لا يقل إيلاما يوحى لهم بأنهم إنما بممارسة العادة السرية كأنهم يستنزفون رجولتهم ويختصرون الكثير جدا من قدراتهم الجنسية .. وأنهم سيدفعون ثمن ذلك مستقبلا ويندمون على هذا الذى يمارسونه الآن كثيرا وطويلا .. مع أنه ليس هناك دليل طبى أو علمى واحد يشير إلى أن العادة السرية تسبب العجز أو الضعف الجنسى بعد كثير أو قليل من الوقت .. العلاقة الوحيدة بين العادة السرية وبين الطب .. هى تلك الحالات الإستثنائية والشاذة التى يتزوج فيها الشاب فيكتشف أنه على الرغم من الزواج والفرصة الكاملة لممارسة الجنس بشكل طبيعى إلا أنه لا يزال يحتاج إلى ممارسة العادة السرية ويفضلها ويستمتع بها أكثر من إستمتاعه بالعلاقة مع زوجته .

وغير العادة السرية .. كان هناك الإحتلام أيضا والذى تحول بدوره إلى مشكلة .. وقام نجيب يوسف بدوى برصد تلك الظاهرة (٢) وقدم لنا أكثر من حالة وأكثر من شاب إعتادوا الإستيقاظ من النوم فيجد كل منهم قضيبه منتصبا وسائله المنوى إنفرط فوق ثيابه .. ومن المؤكد أن تلك الظاهرة تعود إلى حالة الإثارة الدائمة التى بات يشكو منها الشباب اليوم .. إثارة صبغت كثير من الأحلام بمعان وأشكال وتفاصيل جنسية .. ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين أجدادنا الفراعنة القدماء .. فنحن نحيل أحلامنا إلى أحلام جنسية .. ونفسرها تفسيرا جنسيا .. أما الفراعنة فكانت أحلامهم جنسية لكنهم يفسرونها تفسيرا ماديا ودنيويا .. فحين يرى الرجل فى المنام (٣) أن قضيبه منتصب .. يعنى ذلك أن أملاكه ستزيد .. وحين يرى الرجل أنه يمارس الجنس مع شقيقته يعنى ذلك أن ثروة ضخمة فى الطريق إليه .. وحين يرى أنه يتصل جنسيا بحدأة يعنى ذلك أنه سيفقد أملاكه .. وحين يحلم بأنه يرى مهبل إمرأة يعنى ذلك أنه سيعانى أشد المعاناة .. وحين يحلم بأنه يضاجع زوجته فى الشمس يعنى أن الإله يرى سيئاته .

وبالرغم من ذلك كله .. فلم تكن العادة السرية وهمومها ومخاوفها .. ولا الإحتلام وأحلامه ومشاكله .. ولا البطالة أو الشقة الغائبة أو الزواج المؤجل .. مشاكل وقضايا قادرة على أن تثير إنتباهنا ومخاوفنا وإنزعاجنا .. أو كان هناك الكثيرون الذين رأوا تلك المشاكل بحجمها ومرارتها لكن قليلين جدا هم الذين لم يطيقوا الصمت أو التجاهل أو اللامبالاة .. أولئك الذين لم يدركهم الملل ولا أصابهم اليأس وأصروا على التفتيش عن دوافع الإغتصاب سواء كانت دوافعا وأسبابا شخصية .. أو كانت مناخا عاما إعتادته مصر وإعتادت التعايش به ومعه .. ومن هؤلاء القلة كانت الدكتورة عزة كريم رئيسة وحدة الأسرة بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. وكان لها

(١) عبد الرحمن واصل – مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية – مكتبة وهبة – ١٩٨٤
(٢) نجيب يوسف بدوى – الإحتلام – مكتبة مصر – ١٩٨٨
(٣) محمود أبو رحمة – الحب والجنس فى مصر – الأمل للطباعة والنشر – ١٩٩٢

رأى لم يلق ما يستحقه من تقدير وإهتمام .. فقد رأت[1] أن الإعدام هو أسهل وسيلة أو عقوبة يمكن لأية دولة أن تلجأ إليها .. وإنما ينبغى أن ندرس ظروف المتهمين ثم نقرر العقوبة .. وشاركها ذلك الرأى عالم الإجتماع الكبير الدكتور سيد عويس الذى أكد أنه لا يدافع عن المتهمين ولكننا لابد وأن نحدد أولا من المخطئ.. هل هو من قام بجريمة الإغتصاب. أم هو المجتمع نفسه .. فكل مجتمع فى الدنيا هو الذى يخلق مجرميه وأشراره ولا يأتى بهم من خارجه .. وإنتهى إلى نفس الرأى أيضا الدكتور عصام المليجى بمركز البحوث الإجتماعية والجنائية .. والذى أكد[2] أن الإكتفاء بتعليق المتهمين فوق المشانق لن يكون أكثر من محاولة لإخفاء حقيقة ما وراء هذة الجرائم .. كما لو أنها مقطوعة الصلة بما يحيط بالمجتمع من ظروف إقتصادية وإجتماعية وأخلاقية .. وأضاف الدكتور المليجى أيضا أن المجتمع المصرى – ومنذ زمن الإنفتاح – سادته فكرة خطف وإغتصاب حقوق الآخرين بداية من إغتصاب الإقتصاد القومى ونهاية بإغتصاب الإناث .. وهى الفكرة التى أيدها الدكتور صلاح قنصوة .. أستاذ الفلسفة بجامعة الزقازيق .. والذى أكد أنه لو لم يصل الإغتصاب إلى داخلنا .. ما أصابنا كل هذا الهلع .. لإننا بالفعل نمارس الإغتصاب كل يوم ومنذ سنوات طويلة .. وإستمرأناه دون وعى وإعتبرناه أيسر السبل للوصول إلى مراتب النجاح .. صحيح أن جرائم الإغتصاب التى عايشناها ليست ظاهرة .. وإنما هى نهاية موجة عاتية علت إلى أقصى ذروتها وضربت بعنف عقل مجتمع غائب أو مغيب لتجبره على الإختيار .. إما التنبه والإستيقاظ وإما الإغراق فى السبات والإنيثار .

بإختصار .. أصبح هناك من يريد أن يدخل المجتمع القفص ويقف إلى جوار كل متهم بإرتكاب جريمة إغتصاب .. ولم يكن القصد مطلقا أن يلتف حبل مشنقة حول رقبة هذا المجتمع .. فلا أحد يريد له الموت .. لكن كان هناك قليلون بالمقابل لا يريدون له الإنتحار .. فأرادوا لهذا المجتمع أن يتوقف ويراجع حساباته وقيمه وأفكاره ومشاعره ونواياه قبل لوائحه وقوانينه وعقوباته .. وكان هناك أيضا من أصابه الإنزعاج والخوف على حال الشباب فى مصر وعلى مستقبلهم وحياتهم .. وإستندوا إلى دراستين[3] أجرى الأولى منهما المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية فى حين قامت بالدراسة الثانية جامعة الإسكندرية .. الدراسة الأولى بينت أن ٨٣٪ من شباب مصر لديهم مشاكل إقتصادية .. و٥٠٪ منهم لديهم مشاكل نفسية .. و٤١٪ لديهم مشاكل عائلية .. و٢٧٪ لديهم مشاكل دينية أو وظيفية .. بينما أشارت الدراسة الثانية أن ٩٤٪ من شباب مصر لا يمارسون أى نشاط سياسى و٧٢٪ منهم لا يمارسون أى نشاط إجتماعى .. و٣٨٪ منهم لا يمارسون أى نشاط رياضى .. فإذا تأملنا نتيجتى الدراستين فى وقت واحد .. إكتشفنا أن غالبية شباب مصر – فى منتصف الثمانينات – يرقدون فوق كومة ضخمة من المشاكل .. فى نفس الوقت لا يمارسون فيه أى نشاط سياسى أو إجتماعى أو حتى رياضى يمتص بعض توترهم وحيرتهم وقابليتهم للثورة والغضب .. وحينئذ سندرك لماذا أصاب حال الشباب بعضنا بالإنزعاج والخوف .. ولماذا تعالت أصواتهم وكتاباتهم محذرة من إنفجار أو إنفجارات قادمة على الطريق .

ولكن .. كان مصير تلك الهموم والتحذيرات والمخاوف .. تماما كمصير توصيات دراسة وزارة

---

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٥/٢/٢٤

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٥/٢/٢٥

(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٥/١/٢٤

الداخلية .. إهمال عظيم وتجاهل أعظم .. فكان علينا جميعا أن ندفع الثمن .. فزادت جرائم الإختطاف والإغتصاب .. وإذا كنا قد إفتتحنا سنة ١٩٨٥ بحادثة إغتصاب فى المعادى .. وملأنا دنيانا ضجة وضجيجا .. وإختلفنا وتجادلنا ولم نتفق على شئ .. فقد أنهينا نفس السنة [١] بمائة وثلاثة وتسعين حادثة إغتصاب وهتك عرض .. بمائتى وأحد عشر شابا فقدوا إتزانهم وإنسانيتهم .. وفى المقابل كانت هناك مائة وست وأربعون فتاة وإمرأة وجدن من يخدش أنوثتهن .. بالإضافة إلى ثمانية وستين طفلا أو شابا أيضا تم هتك عرضهم أو إغتصابهم وذبح رجولتهم وكبريائهم .. ولم يقتصر الأمر على ذلك .. وإنما كان هناك من إمتلك – إزاء كل هذا الذى حدث – جرأة أن يكتب ويبوح بما كان يمكن أن يتهامس به الناس ويتناقلونه سرا .. وكانت أولى الكتابات التى تميزت بتلك الجرأة هو مقال شهير كتبه جمال بخيت فى مجلة صباح الخير [٢] بعنوان .. حاكموا الكبت أولا .. فقرأ الناس للمرة الأولى عن الشاب الذى إعتاد ممارسة الجنس مع صديقة والدته ومع خالته .. والشقيق الذى يستمتع بممارسة الجنس مع شقيقته .. ثم كان هناك تقرير الأمن العام لسنة ١٩٨٥ .. لتكتشف أن الحكاية ليست مجرد شباب قهرتهم رغبة جنسية فتورطوا فى جنايات هتك عرض أو إغتصاب .. ولكنه مناخ عام بالفعل سمح للمصريين بالخروج على القانون أكثر مما خرجوا طيلة الخمس سنوات الأولى من الثمانينات .. ومثلما زادت جرائم هتك العرض والإغتصاب .. زادت أيضا جرائم القتل والخطف والسرقة والإختلاس والرشوة .. لم تقل وتتناقص فقط إلا جرائم تسميم الماشية وإتلاف المزروعات وتزوير العملات .

وعلى الرغم من أن عدد جرائم هتك العرض والإغتصاب والمتهمين والضحايا قد بدأ فى التناقص قليلا عام ١٩٨٦ فبلغ مائة وأربعة وستين جريمة .. وأن سبعة وثلاثين بالمائة من تلك الجرائم [٣] تتحمل مسئوليتها الفتيات الضحايا اللواتى ذهبن للهوى وممارسة الجنس مع أصدقائهن وعشاقهن فى أماكن نائية ومظلمة فتعرضن للإغتصاب من شباب آخرين .. إلا أننا عدنا إلى نفس المعدلات العالية وأنهينا عام ١٩٨٧ بمائتى جريمة هتك عرض وإغتصاب [٤] .. صحيح أن تلك الأرقام – وبشهادة رجال الأمن وأساتذة علم الإجتماع – ليست تعطى مطلقا صورة واضحة أو حقيقية لما يشكو منه المجتمع ويعانيه بالفعل .. إلا أنها كانت تكفى لأن نكتشف – دون شك أو جدل – أننا أصبحنا بالفعل أمام قضية شائكة .. صعبة ومعقدة وموجعة أيضا .. ولعل ذلك هو ما دفع بالدكتورة نادرة وهدان – من المعهد القومى للتخطيط – لأن تعد واحدة من أهم وأشهر الدراسات عن جريمة الإغتصاب فى المجتمع المصرى فى الثمانينات .. حيث جمعت الدكتورة نادرة نماذجا عديدة وأمثلة كثيرة لجريمة الإغتصاب وأطالت تأملها وتحليلها والتفكير فى شتى جوانبها ودوافعها وتفاصيلها [٥] .. حتى خرجت علينا بأكثر من تفسير وأكثر من نتيجة .. فمن ناحية مكان إرتكاب الجريمة .. إكتشفت الدكتورة نادرة أن ٢٣,٣ من الجرائم وقعت فى شوارع عمومية .. و١١,٦٪ فى شوارع جانبية .. و١٤٪ فى أرض فضاء .. و٤,٦٪ فى محال

---

(١) لواء د. محمد فتحى عيد – الأمان فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٥/٢/٧

(٣) خطف وإغتصاب الإناث – مركز بحوث الشرطة – ١٩٨٦

(٤) من تقارير مصلحة الأمن العام – وزارة الداخلية

(٥) صحف ومجلات عديدة تناولت دراسة الدكتورة نادرة وهدان ونشرت مقاطعا منها وبعض نتائجها.. إلا أنني بعد أن قرأت كل تلك الصحف والمجلات فضلت الاعتماد بشكل أساسي ومباشر علي نص الدراسة كما نشرته مجلة الأمن العام في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨/١

عامة .. و٢٣,٣٪ فى بيوت الضحايا .. و١٨,٦٪ فى سيارات أجرة .. و٢٪ فى سيارات خاصة .. أما فيما يتعلق بالجناة والمغتصبين .. فقد قامت الدكتورة نادرة بتقسيمهم ست مرات .. مرة وفقا لعائلاتهم وللظروف الأسرية التى عاشوا فيها .. ثم وفقا للدين فى بيئتهم ومحيطهم العائلى .. ومرة وفقا لدرجة تعليمهم .. ومرة ثالثة وفقا لأعمارهم .. ثم وظائفهم .. ثم متوسط دخلهم الشهرى .. وإكتشفت الدكتورة فى دراستها أن ٦١,٣٪ من الجناة يعيشون فى أسر مات عائلها أو رب الأسرة .. وأن ٦٩,٤٪ منهم ينتمون لعائلات متدينة .. وبالنسبة للتعليم كانت أكبر طائفتين من الجناة هم الأميون بنسبة ٣٢,٥٪ يليهم من أنهوا الدراسة الثانوية بنسبة ٢٥,٦٪ وأقلهم كانوا حاملى الشهادات الجامعية بنسبة ٢,٣٪ .. وبالنسبة للسن كانت النسبة الأكبر بين الجناة هم الذين تراوحت أعمارهم من خمسة عشر إلى عشرين عاما وبنسبة ٣٤,٩٪ .. يليهم من تراوحت أعمارهم من العشرين إلى الخامسة والعشرين بنسبة ٢٣,٣٪ .. يليهم من تراوحت أعمارهم من الخامسة والعشرين إلى الثلاثين بنسبة ١٤٪ .. وبالنسبة للمهنة كان ٧٥٪ من الجناة حرفيون .. و٥,٥٪ عاطلون .. و٥,٥ يعملون فى وظائف مهنية .. وبالنسبة للدخل كان ٤١,٩٪ من الجناة يتقاضون أقل من مائة جنيها شهريا .. و١٩,٥٪ يتقاضون أقل من خمسين جنيها شهريا .. وأخيرا توجهت الدكتورة نادرة بدراستها ناحية الضحايا فإكتشفت أن ٢٢,٢٪ من الضحايا كن فتيات مع شاب أو أكثر فى أوضاع مخلة بالآداب أو فى وضع مشين .. و٢٢,٢٪ فتيات يسرن مع شباب دون خروج على الآداب .. و١٩,٥٪ فتيات كن يرتدين ملابس فاضحة .. و١٩٪ كن فتيات سيئات السمعة ويسلكن سلوكا منحرفا وبشكل خاص مع سائقى السيارات بمنطقة سكناهم .. أما من ناحية العمر فقد كانت غالبية الضحايا تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشر والعشرين عاما بنسبة ٣٤,٩٪ .. ثم من تتراوح أعمارهن بين العشرين والخامسة والعشرين بنسبة ٢٣,٣٪ .. وأقل مجموعة هى تلك التى تراوحت أعمار الضحايا بين الأربعين والخامسة والأربعين بنسبة ٢,٣٪ .. ومن ناحية التعليم كانت غالبية الضحايا بدون عمل بنسبة ٤٤,٢٪ .. ثم الطالبات بنسبة ٣٢,٥٪ .. ثم الموظفات بنسبة ١٦,٣٪ .

كانت هذة هى الأرقام .

ويقى أن نعرف لها تفسيرا أو معنى أو نحاول قراءتها من جديد .

نتائجها .. إلا أننى بعد أن قرأت كل تلك الصحف والمجلات فضلت الإعتماد بشكل أساسى ومباشر على نص الدراسة كما نشرته مجلة الأمن العام فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٨ / 1

فمن الواضح أن الدكتورة نادرة لم تنشغل كثيرا بالبحث عن تفسير أو معنى لتجتهد وتقنعنا بهما .. إنما هى على قناعة كاملة بأن مهمتها هى تقديم تلك الأرقام – بكل حيادها ووضوحها – لكل من يفتش عنها ولكل من يحتاج إليها .. لأن المشكلة تخصنا جميعا .. وتهددنا جميعا .. وكان من الضرورى أن تقلقنا جميعا .. ومع ذلك .. فقد كانت للدكتورة نادرة أراؤها وملاحظاتها الخاصة (١) .. فهى على سبيل المثال ترى زيف الإدعاء بأن كل مغتصبة كانت ثيابها أو سلوكها هو الدافع الأول لإغتصابها .. فإذا كان هذا صحيحا إلى حد وفى كثير من الحالات .. فإن الدكتورة نادرة تؤكد أن هناك حالات – كثيرة أيضا – كانت الضحية فيها ترتدى الجلباب الريفى

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٨/٩/٥

الأسود .. ولا تستعين ببهرجة أو أية مستحضرات تجميل .. بل إن الضحية فى إحدى الجرائم كانت ممرضة فى الخامسة والخمسين من عمرها وقبيحة الملامح للغاية وبشكل لا يمكن مطلقا أن يحض على الإغتصاب .. ترى الدكتورة نادرة أيضا أن هناك خللا أمنيا رافق تلك الجرائم .. فالجناة بدوا كما لو على ثقة كاملة بغياب الشرطة ورجالها .. وكان هناك خللا إجتماعيا أيضا يتلخص فى إحساس الجناة بأن أحدا من الآخرين لن يتدخل من أجل إنقاذ المرأة أو الفتاة .. وأخيرا تؤكد الدكتورة نادرة أنه ليس صحيحا ما يشاع عن أن الجناة ما هم إلا شباب شاذ .. وإنما هى تفاعلات إجتماعية القليل منها يخص الجانى وحده أما معظمها فيتحمل مسئوليتها المجتمع بأسره .

الدكتورة نادرة وهدان .. قدمت لنا دراستها ونتائج بحثها وملاحظاتها الخاصة .. فى عام ١٩٨٨ .. العام الذى شهد الكثير من الصخب والجدل حول الإغتصاب وجرائمه ومجرموه وضحاياه .. العام الذى شهد أيضا إنقساما حادا بين أصحاب نظرية أن المجتمع بات يشكو خللا من الضرورى علاجه .. وبين أصحاب نظرية أخرى خرجت علينا تحمل رؤية الحكومة للأزمة بأنه لا أزمة هناك وأن كل من تعرضت للإغتصاب إلا وكان فى سلوكها وثيابها وتوقيت خروجها ما يحض على إغتصابها .. وكان هناك بالطبع لأصحاب كل نظرية، أسانيدهم ودلائلهم – الحقيقية أو الكاذبة – ومصالحهم الشخصية أو إرتباطاتهم السياسية أو الإقتصادية التى جعلتهم على إستعداد لأن يخوضوا المواجهة حتى النهاية .. فقامت جريدة الوفد [١] مثلا بتحقيق ضخم عن تلك الظاهرة إختارت له عنوانا فاقع الألوان والمعانى هو .. الذئاب البشرية تعوى من جديد فى شوارع مصر .. فما كان من جريدة الأخبار [٢] إلا أن توجهت إلى اللواء ممدوح البرعى والذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب مدير الأمن العام .. وقال اللواء البرعى أن إغتصاب الفتيات ليس ظاهرة فى مصر .. وأن الفتيات هن اللواتى يتحملن مسئولية تلك الحوادث القليلة .. نتيجة إرتدائهن ملابس خارجة عن العادات المصرية .. وتواجدهن فى مناطق نائية فى وقت متأخر من الليل .. أو التواجد مع أصدقاء فى مواقف مخلة بالآداب العامة .

وغنى عن الذكر .. أنه لا المغالاة والتهويل فى حجم الظاهرة إلى الحد بأن الذئاب بدأت تعوى فى شوارع مصر .. ولا التقليل من حجم تلك الظاهرة إلى حد الزعم بأنه ليست هناك أصلا ظاهرة .. كانا فى صالح مصر أو فى صالح شبابها وفتياتها .. فالناس الذين لم يشاهدوا ذئبا واحداً فى شوارعهم فقدوا القدرة على التصديق أو الإقتناع أو ضرورة الإحساس بالخوف .. والناس الذين قرأوا تأكيدات مدير الأمن العام فى جريدة الأخبار بعدم وجود ظاهرة إغتصاب وأن الجرائم التى وقعت بالفعل نتيجة إستهتار الفتيات .. كان عليهم أن يقرأوا .. وفى نفس الجريدة [٣] .. وبعد خمسة أيام فقط .. حكاية إغتصاب جديدة قام فيها بلطجيان بأغتصاب زوجة بائع متجول فى روض الفرج .. ولم يشفع للزوجة إفتقادها للوسامة وللجاذبية ولا كونها حاملا فى الشهر الخامس .. وحين حاولت الزوجة مقاومتهما تمزق جسدها بنصل المطواة .

وأنا أزعم أن تلك الحادثة قد عرت كثيرا من أوراق التوت التى كانت بها تتغطى مزاعم رجال

---

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٨/٩/٨
(٢) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٨/١٠/١
(٣) جريدة الأخبار – عدد ١٩٨٨/١٠/٦

الحكومة والأمن حول سلوك الفتيات والسيدات اللواتي وقعن ضحايا لجرائم وحوادث الإغتصاب .. ليست تلك الحادثة فقط وإنما عشرات من الحوادث الأخرى والمماثلة التي عايشتها وعانت منها مصر في رحلة وداعها لسنوات الثمانينات .. فلم تودع مصر الثمانينات إلا وقد شهدت حوادث إغتصاب في مصاعد العمارات .. وفي الشوارع العامة [١] على مرأى ومسمع من الناس وزحامهم في وضح النهار .. وفي سيارة إسعاف [٢] حيث حاول سائقها إغتصاب طالبة بالمرحلة الثانوية .. وفي عربات القطار [٣] حين تعرضت سيدة قادمة من الإسكندرية لحادثة إغتصاب في إحدى عربات قطار يقف بمحطة كوبرى الليمون .. وفي البيوت أيضا [٤] .. حيث تعرضت إحداهن لحادثة إغتصاب على يد أحد أقاربها كان يزوها في بيتها .. وتعرضت فتاة لحادثة مماثلة على يد إبن خالتها الذى إستدعته لمعاونتها في تغيير أنبوبة البوتاجاز .. وفتاة ثالثة إغتصبها حبيبها بعد أن إتهمته بعدم الرجوله نتيجة تقاعسه عن الذهاب إلى أبيها ليطلب منه يدها فأراد أن يؤكد لها أنه رجل بما يكفي .. هذا كله غير حادثة أخرى [٥] جرت وقائعها في دار السلام وقام فيها عشرة شباب بإختطاف فتاة فقيرة ومتخلفة عقليا وإغتصبها الجميع أكثر من مرة في شقة أحدهم .

بهذا كله تأهبت مصر لإستقبال سنوات التسعينات .. وأيضا بعودة ظاهرة قيام الشباب بإعتراض طريق الفتيات والسيدات في الشوارع إلى الحد الذى دفع بالنيابة [٦] لأن تحيل ثمانمائة شاب إلى محاكمات عاجلة بتهمة التعرض للسيدات في الطريق العام .. ثم كان هناك تقرير الأمن العام لسنة ١٩٨٩ والذى أشار إلى ستة عشر جريمة إغتصاب وسط عشرات من جرائم هتك العرض .. أشار التقرير أيضا إلى أن ٧٠٪ من هذة الجرائم وقعت نهارا .. وأن ٨٠٪ منها تمت في شوارع وطرقات عامة .. وقد إرتكب إثنان وعشرون شابا ورجلا تلك الحوادث في عام ١٩٨٩ .. ٨٥٪ منهم غير متزوجين .. كلهم تقل أعمارهم عن الأربعين عاما لكن ٨١,٤٪ منهم كانت أعمارهم تقل عن الثلاثين عاما .

وتحول هذا التقرير إلى آخر فواتير مصر الثمانينات .. وأولى الإشارات لكل ما يمكن أن يحدث في التسعينات .. لكنه لم يكن الإشارة أو البشارة الوحيدة .. ففي واقع الأمر .. إستقبلت مصر سنوات التسعينات وهناك أكثر من ملف يخص شبابها بقي مفتوحا تتناثر أوراقه ودموعه وجراحه يوما بعد يوما وحادثة بعد أخرى .

الملف الأول كان البطالة .. أكبر مشكلة تواجه شباب مصر في التسعينات .. مشكلة يكفي لأن نعرف حجمها أن نعرف أننا لا نعرف بالفعل حجمها .. وإذا إحتكمنا إلى قول مأثور يؤكد أن معرفة حجم أية مشكلة هو.. نصف الطريق إلى حلها .. فسنكتشف أننا - أمام مشكلة مثل البطالة - لم نقطع نصف الطريق .. ولا حتى قطعنا خطوة واحدة لحلها .. فإذا كنا قد عرفنا أن عدد العاطلين في مصر عام ١٩٨٩ قد بلغ [٧] مليوني وتسعمائة عشر الف عاطل .. فإننا لم نعد نعرف كم أصبح هذا العدد على وجه التحديد.. في أية سنة من سنوات التسعينات .. بل أصبح

(١) جريدة الوفد - عدد ١٩٨٨/٩/٢٤
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٨/١٠/١٠
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٥/٢/٥
(٤) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/٢/٢٧
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/٦/٨
(٦) جريدة الأهرام - ١٩٨٩/٧/٢٨
(٧) مجلة اليسار - عدد ١٩٩٠/٦

لدينا - دون أدنى قدر من المبالغة - ستة أرقام للبطالة في مصر .. وهو ما رآه الخبير الإقتصادي الكبير الدكتور رمزي زكي [١] تضاربا غير مبرر وغير مفهوم أيضا .. تضارب يرى الدكتور رمزي أنه قابل الحدوث في دول تشكو من تخلف أجهزة الإحصاء لديها .. وليست مصر قطعا من بينها .. فهى تملك قدرة عريقة على الإحصاء ومنذ أيام الفراعنة .. ولهذا يختتم الدكتور رمزي ملاحظته بالتأكيد على أن مثل هذا التضارب يثير الكثير من علامات الإستفهام .

وليست المشكلة قاصرة فقط على أننا لا نعرف .. إنما المشكلة الأكبر هي عجزنا - لأننا لا نعرف - عن مواجهة تلك الزيادة الدائمة في عدد العاطلين .. فالدكتورة حمدية زهران - عضو مجلس الشورى ورئيسة اللجنة الخاصة ببحث مشاكل الفقد والهدر في مواردنا - فاجأتنا وأوجعتنا جميعا [٢] حين أعلنت عن توقعات وزارة القوى العاملة بأن يصل عدد العاطلين في مصر عام ١٩٩٥ إلى ثلاثة ملايين وستمائة الف عاطل .. وفي نهاية القرن الحالي يصبح العدد هو أربعة ملايين وثمانمائة الف عاطل .. أي ربع شباب مصر سيجدون أنفسهم فجأة بلا عمل .. بلا أمل .. بلا أية ضمانات لمستقبل قد يأتي بلا سقف أو أمان أو حماية .. هذا بالطبع غير كل ما سيجد على سوق العمل في مصر من متغيرات وتفاعلات جديدة قد تنتهي - خلال سنوات قليلة - بطرد سبعة ملايين عامل وموظف من وظائفهم [٣] .. أربعة ملايين موظف بالحكومة وثلاثة ملايين في القطاع العام وقطاع الأعمال .. بالإضافة أيضا إلى الصغار والخريجين الجدد الذي سيتطلب العمل في عصر الخصخصة شروطا ومواصفات ومؤهلات خاصة ليسوا يملكونها ولا إكترثت بها جامعاتهم ومعاهدهم أو سمحت ظروفهم بأن يتعلموها .

وما يعنينا من ذلك كله .. هو كيف سيواجه المجتمع هؤلاء العاطلين الذين يزيدون اليوم عن الثلاثة ملايين والذين قد يصل عددهم غدا أو بعد غد إلي سبعة ملايين .. أو كيف سيواجهون هم المجتمع والحياة والمستقبل .. فهناك دراسة ميدانية قام بها الدكتور عبد الرؤوف الضبع من آداب سوهاج إنتهت إلى أن العاطل هو [٤] .. إنسان عصبي قلق متوتر مكتئب مغترب محبط ناقم نادم إنعزالي شارد متشائم متشكك أحيانا حتي في معتقداته الدينية .. وأن البطالة تؤدى بطبعها إلى تأخر سن الزواج وهو ما يقودنا إلى المزيد من جرائم الإختطاف والإغتصاب والدعارة وإهتزاز القيم الأخلاقية والأمراض والإنحرافات الجنسية .. وقد يدخل العاطل في علاقات جنسية محرمة وقد يمارس الشذوذ الجنسي .. وإذا أضفنا نتائج تلك الدراسة إلى نتائج دراسة أخرى سابقة[٥] قام بها خالد محمد القاضي من حقوق أسيوط .. والتي أكدت دراسته العلاقة الوثيقة بين البطالة وبين تزايد معدلات جرائم الإغتصاب .. وإذا أضفنا أيضا نتائج دراسات أخرى كثيرة ومختلفة ومتباينة إنتهت كلها إلى نفس ما إنتهت إليه هاتان الدراستان .. فلن تتبقي هناك مساحة لشك قد يراودنا حول مستقبل قريب جدا وعاري جدا ومخيف جدا قابع هناك في إنتظارنا .

مستقبل لن تصنع بطالة التسعينات وحدها ملامحه ومعالمه .. فهناك أزمة الزواج أيضا .. والتي زادت حدتها وتضاعفت قسوتها .. بعد أن بات العثور على عمل حلما صعبا .. والعثور علي مسكن حلما مستحيلا .. وبعد أن فاقت تكاليف الزواج نفسها خيال الكثيرين سواء كانوا أهل

---

(١) ، (٢) مجلة المصور - عدد ١٩٩٤/٣/١١
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٤/٧/٢٥
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٤/٨/٢٥
(٥) جريدة الأهرام المسائي - عدد ١٩٩١/٩/٢٢

الشاب أو حتى أهل الفتاة .. فلم يعد مفاجئا لأحد أن تكشف دراسة (١) أن ربع حالات الخطوبة مثلا يتم فسخها بعد فترة من الوقت تتراوح من الثلاثة أشهر إلى الثلاثة أعوام نتيجة ضيق ذات اليد .. وأن أفراحا كثيرة باتت تقام في الهواء الطلق .. على كوبرى ٦ أكتوبر أو فى منطقة الأهرامات .. بحثا عن أية لحظة من البهجة والسعادة يمكن شراؤها أو سرقتها بالقليل جدا من المال .. هذا فى الوقت الذى لا يعجز فيه بعض أعضاء نفس هذا المجتمع عن إبتكار وسائل جديدة - ومستفزة - للفرحة والإحتفال بليالي الزفاف السعيد .. وتنتثر الألوف فوق رؤوس المطربين والمطربات لإحياء تلك الحفلات .. وبعد أن كانت الفا وخمسمائة جنيها تكفى لأن تغنى أم كلثوم لمدة ثلاث ساعات فى حفل زفاف إبن أحد أعيان المنوفية بقاعة إيزيس بفندق سميراميس .. أصبحت تكلفة الحفل الواحد اليوم تزيد عن الخمسين أو المائة الف جنيها .. منتهى التناقض الحاد والصارخ والمحرض على الثورة والغضب والإنتقام .

ثم كانت هناك أزمة المجلس الأعلى للشباب والرياضة الذى غفل مسئولوه عن كل ذلك وتركوا شباب مصر وحده مع مقاديره وأزماته وإحباطاته ومعاناته وراحوا ينشغلون بكرة القدم ولاعبيها ونجومها ونتائجها .. وبدأنا نقرأ فى الصحف مسلسل إنهيارات مراكز الشباب فى مختلف مدن مصر وقراها دون أن يكترث أو يبالى أحد من المسئولين .. ومن قبيل المفارقات أن يعترف الدكتور عبد المنعم عمارة بأن شباب مصر (٢) لا يجد من يهتم به فى الوقت الذى يجلس هو فيه على مقعد رئاسة المجلس الأعلى للشباب والرياضة .. ويبدو أنها ظاهرة قديمة بعض الشئ .. أن يسود الإرتباك صفوف العاملين والمسئولين بهذا الجهاز الهلامى الذى إسمه المجلس الأعلى كلما إضطروا للحديث عن الشباب .. فقبل الدكتور عبد المنعم عمارة بوقت طويل تحدث حسين الألفى الرئيس السابق لجهاز الشباب وأكد (٣) أن حل مشاكل الشباب فى يد التليفزيون والجريدة .. ولم يتفضل علينا وقتها ليشرح إذا كان الأمر كذلك .. فما هو دور جهاز الشباب إذن .. ولماذا الإصرار عليه طيلة هذا الوقت .. بل ولماذا وجد مثل هذا الجهاز أصلا من البداية ؟!.

لا تحاول البحث عن إجابة .. فليست هناك أية إجابة لأى سؤال .. لا فى ملف المجلس الأعلى وجهاز الشباب ولا فى أى ملف آخر يخص الشباب فى مصر .. وإنما لن نعثر إلا على مزيد من الأسئلة .. ومهما طال بحثنا وتأملنا وتعددت محاولاتنا فلن نجنى فى النهاية إلا فائضا من الغموض والحيرة والإرتباك والخوف أيضا على هؤلاء الشباب بقدر الخوف من نفس هؤلاء الشباب .

ولماذا لا نخاف .. وقد بدأ مجتمعنا يشهد الكثير من الظواهر المقلقة والمزعجة والمخيفة .. بداية من السلوك الفاضح لشبابنا عبر أسلاك التليفون .. والمعاكسات التى زادت مؤخرا .. حتى إنتهى الأمر بمحكمة جنح الإسكندرية (٤) وهى تصدر حكمها بحبس شاب لمدة عام كامل مع سداد غرامة مقدارها مائتا جنيها بعد ضبطه متورطا بمعاكسة الفتيات والسيدات عن طريق التليفون .. وهناك أيضا الجرائم الأخلاقية والتحرشات الجنسية التى ترتكب داخل مواصلاتنا

---

(١) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٢/١١/٢٩
(٢) مجلة الأهرام الرياضى - عدد ١٩٩٤/١/١٩
(٣) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٥/١/٢٤
(٤) جريدة أخبار الحوادث - عدد ١٩٩٤/٨/٤

العامة والتى زادت حتى باتت تشكل ظاهرة فى حد ذاتها [1] .. وفى أوتوبيسات تحمل أرقام مثل ٧٠٠ أو ٩٢٤ أو ١١٦ أو ٧١٠ أو ١٧٢ أو ١٠٤ وفى خطوط مثل إمبابة وبولاق الدكرور والسيدة زينب والزاوية الحمراء وشبرا الخيمة .. أصبح معتادا ومألوفا أن تجد كثيرا من الشباب يفتشون عن لحظات عابرة من اللذة يسرقونها من الواقع والزحام وأجساد بعض النساء .. غير أن الظاهرة الأكثر خطورة وإقلاقا كانت ظاهرة إغتصاب الجارات .. فلم يكن هناك لمثل تلك الظاهرة من معنى إلا إتساع دائرة الخلل الإجتماعى والأخلاقى .. وشرخ رهيب ومؤلم فى جدار القيم والعادات الإجتماعية والأخلاقية .. فعلى مدى سنوات وأزمان متعاقبة وطويلة جدا .. كان الجار فى مصر هو السند والمدد .. هو الأمان والحماية .. ولم يكن مطلقا هو الذى منه نخاف ونخشى أن يسرق منا إبتساماتنا وعوراتنا .. ولم تكن إحدى سيدات مصر الجديدة [2] تتوقع مطلقا أن تغدو ضحية حادثة إغتصاب .. وأن يكون جارها المهندس هو الذى يحاول إغتصابها بعد أن طرق باب شقتها مستغلا غياب زوجها .. أو سيدة أخرى [3] فوجئت بجارها الشاب البالغ سبعة وعشرين عاما من العمر يطرق الباب طالبا منها كوبا من الماء المثلج لكنه فى واقع الأمر كان يعلم بغياب الزوج ولم يأت إلا بقصد إغتصاب جارته .. أو فتاة ثالثة فى الرابعة عشرة من عمرها [4] تشاجرت مع والدتها فإصطحبها جارها إلى شقته لتهدئتها فإنتهى الأمر بإغتصاب الجار لجارته الصغيرة التى إستجارت به لحل مشكلتها مع والدتها .

وفى المقابل .. تصدمنا ظاهرة أخرى لا تقل خطورة أو أثرا وتشير هى الأخرى إلى إتساع دائرة الخلل الإجتماعى والأخلاقى .. هى ظاهرة جنوح بعض رجال الشرطة وتعدد تجاوزاتهم الجنسية التى بدأت منذ منتصف الثمانينات حتى زادت بشكل مزعج فى سنوات التسعينات .. ظاهرة بدأت بحادث قيام ضابط شرطة عام ١٩٨٥ بإختطاف فتاة من الطريق العام ثم إغتصابها بمعاونة آخرين فى منطقة نائية .. حادث أثار الكثير من الدهشة والإرتباك فكتب صلاح عيسى مثلا فى جريدة الأهالى [5] يحاول من جديد قراءة المحضر رقم ١٤/١٩٨٥ .. قراءة لم تثر إهتمام أحد ولا نجحت فى أن تجعلنا نتوقف ونراجع ونتأمل الذى جرى .. فتكرر الحادث مرة أخرى فى العام التالى فنشرت جريدة الأهرام [6] خبر محاكمة ضابط شرطة وثلاثة آخرين بتهمة إختطاف فتاة والشروع فى إغتصابها .. ثم تكررت الحوادث .. أربعة من أمناء الشرطة [7] إختطفوا زوجة شابة من أحد شوارع إمبابة وشحنوها فى سيارة الشرطة وأخذوا يطوفون بها شوارع المنطقة حتى إنتهت دوريتهم فإصطحبوا المرأة إلى شقة أحدهم وإحتجزوها هناك ستة أيام كاملة تناوبوا خلالها الإعتداء على المرأة .

وفى الزاوية الحمراء .. نجح إثنان من أمناء الشرطة [8] بمعاونة إثنين آخرين فى إختطاف زوجة شابة من بيتها بطريق التحايل وذهبوا بها إلى بيت أحدهم حيث قاموا بإغتصابها فى

---

(١) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٨/٨
(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩١/٨/٥
(٣) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩١/٨/١٦
(٤) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/١٤
(٥) جريدة الأهالى - عدد ١٩٨٥/١٠/٢
(٦) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٦/١/٢٦
(٧) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/٧/١٠
(٨) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٩/١٠/٢٨

وحشية ولم يرحموا توسلاتها ودموعها أو مرضها بالسرطان .. وأمين شرطة آخر إختطف بمعاونة أحد المحامين [١] سيدة وفتاة وتتم حادثة الإغتصاب فى سيارة بطريق القناطر .

وفى مصر الجديدة .. كان هناك أمين للشرطة [٢] يعيش قصة حب مع عاملة بأحد مصانع الملابس .. حب إتضح فيما بعد أنه كان من طرف واحد فقط هو طرف الفتاة بالطبع .. إذ أن أمين الشرطة لم يكن أسيرا للغرام والهوى .. وإنما كان الحب بالنسبة له وسيلة وحيدة تمكن بها من إستدراج الفتاة إلى أحد المدارس التى كان مكلفا بحراستها .. وهناك .. وبالتحديد فى حجرة المعمل بالمدرسة .. نجح الأمين بمعاونة شقيق خطيبته فى إغتصاب الفتاة .

وفى الجيزة .. إختطف أربعة من أمناء الشرطة [٣] إحدى السيدات أثناء سيرها فى أحد الشوارع وقام الجميع بإغتصابها .. وأمين شرطة آخر [٤] فى حلوان .. إستغل إتهام إمرأة فى قضية آداب وحبسها تسعين يوما فى سجن النساء بالقناطر .. وبدأ يراودها عن نفسها ويطالبها بثمن وقوفه جانب عائلتها أثناء حبسها وثمن سكوته وعدم إفشاء سرها لأهل زوجها .. ولم ترضخ المرأة لإبتزاز أمين الشرطة .. حتى إصطحبها يوما إلى بيت بأحد شوارع حلوان .. وتحت تهديد السلاح قام أمين الشرطة بإغتصاب المرأة .. تحت تهديد السلاح أيضا أمرها بأن تخلع كل ثيابها وأخذ يلتقط لها الصور وهى عارية تماما وفى أوضاع مختلفة قبل أن يسمح لها بمغادرة الشقة .

وتعددت بعد ذلك حكايات عن تورط كثير من أمناء الشرطة فى حوادث وجرائم هتك العرض والإختطاف والإغتصاب .. حتى جرت حكاية جديدة لا تصلح فقط لأن تكون ختام تلك الظاهرة .. وإنما قد تكون بالمقابل بداية لظاهرة جديدة تتعلق بما يجرى داخل السجون وأقسام الشرطة .. فالحكاية جرت وقائعها فى سجن النساء بالقناطر [٥] .. وبدأت بإحدى المتهمات فى قضية آداب تدخل السجن .. إمرأة جميلة رآها ضابط بمباحث السجن فقرر أن يتذوق – ولو بالقوة – مثل هذا الجمال .. وهو ما حدث بالفعل وخالف ضابط المباحث القانون ونقل السجينة من زنزانتها للعمل بالخدمة فى مكتبه .. وفى مكتب ضابط المباحث تمت جريمة الإغتصاب بالفعل .. وتقدمت السجينة إلى مأمور السجن تشكو الضابط .. وطالبت بتوقيع الكشف الطبى عليها .. فجاءت نتيجة الكشف تؤكد وقوع الإغتصاب .. وحاول ضابط المباحث إقناع الطبيب بتغيير شهادته بعد أن أمر بحبس السجينة حبسا إنفراديا فى سجن الرجال .. وأسرعت السجينات الأخريات اللواتى لم يصدمهن هذا الحادث وإعتدن على ذلك بغسيل الثياب الداخلية للسجينة الضحية بالكلور لإزالة أى أثر للجريمة .. ثم تعرضت السجينة نفسها لعمليات تعذيب متتالية كادت السجينة مع بشاعة التعذيب وقسوته أن تفقد عقلها .. فعادت إلى المأمور تطلب سحب شكواها وتتنازل عن بلاغها .. لكن بعد أن تسللت ضجة الحادث إلى مكتب اللواء حسن الألفى وزير الداخلية الذى أمر بالتحقيق [٦] فيما حدث .. النيابة أيضا بدأت التحقيق الذى تبين منه [٧] أن

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/١١/١٥
(٢) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٢/٢٣
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩١/٣/١٠
(٤) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٦/٤
(٥) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/٢٧
(٦) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٧/٢
(٧) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٧/٦

حادث إغتصاب السجينة قد أسفر عن حملها .. كما كشفت تحقيقات النيابة أيضا (١) عن وجود إنحرافات بالسجن وتقدم عدد من السجينات السابقات إلى النيابة يؤكدن أنها ليست الواقعة الأولى وإنما سبق لضابط المباحث بالإعتداء عليهن أثناء وجودهن بالسجن .. وقررت مصلحة السجون (٢) نقل ضابط مباحث السجن كما تم إستبعاد مأمور السجن ونقل السجينة الضحية إلى سجن أسيوط .. ثم تعددت حكايات وتحقيقات صحفية تفيد وقوع جرائم الإغتصاب وهتك العرض داخل أقسام الشرطة .. حكايات وروايات قد تكون كلها صحيحة .. وقد تكون حفلت وفاضت بالمبالغة وتضخيم الوقائع والتفاصيل .. لكننا لم نقرأ تكذيبا من وزارة الداخلية لكثير من تلك الحكايات .. كما أنه يصعب علينا تماما أن نصدق أن كل تلك الحكايات مجرد إدعاء كاذب تم تشييده بمحض الخيال والإفتراء دون أن يكون له سند من الواقع ومن الحقيقة .. ولست أقصد من ذلك إدانة أجهزة الأمن ورجالها .. فما أنا من أولئك الذين يستهويهم تصنيف الناس وفقا لمراكزهم ومناصبهم .. ولكنى أتعامل مع الحقائق وليس فى إعتبارى أننا نستعين بالملائكة وحدهم ليتقمصوا أدوار وملامح رجال الأمن .. وكل ما قصدته من الحديث عن كل تلك الظواهر الجديدة على مجتمعنا – بما فيها الحكايات المتعلقة برجال الأمن – إنما كان التأكيد على أن الخلل بدأ يتسلل إلى شقوق فى المجتمع والأخلاق قد لا تطالها غدا عقولنا أو عيوننا وأصابعنا .. وأن الجنس بدأ يسيطر ويعشش فى عقول ووجدان كثير من شبابنا مهما تباينت أوضاعهم المهنية أو الإجتماعية أو الإقتصادية .. وكم هو حزين وشاق على النفس أن أتحدث عن تلك الظواهر الجديدة على المجتمع ولا أضطر للحديث عن جرائم الإغتصاب نفسها .. فلم يعد الإغتصاب فى حد ذاته ظاهرة جديدة أو مربكة فى مصر التسعينات .. بل إن مجرد سرد حوادث الإغتصاب التى جرت وقائعها فى التسعينات يحتاج كثيرا من الأوراق وكثيرا من الصبر وكثيرا من القدرة على الكتابة وعلى القراءة وعلى الإحتمال أيضا .. يكفى فقط التوقف عند حوادث بعينها لم تكن جريمة الإغتصاب نفسها هى أسوأ وأقسى ما فيها .. وإنما هى الظروف والملابسات التى أحاطت بالجريمة لحظة وقوعها وإكتمالها .. فعلى سبيل المثال .. تم إختطاف فتاة (٣) بقصد إغتصابها .. فى وضح النهار .. فى وقت الذروة .. وعلى كوبرى قصر النيل .. وتطوف سيارة تحمل الفتاة والمغتصبون الخمسة شوارع القاهرة حتى شارع الغمراوى فى المنيل .. أيضا يشهد سوق مسجد الفتح بمنطقة الألف مسكن (٤) قيام ثلاثة شبان بمحاولة إغتصاب فتاة كانت تشترى الخضار لوالدتها .. وصرخت الفتاة تستغيث بالناس الذين إمتلأ بهم السوق فى وضح النهار .. والتزم كل الناس بالصمت .. كأنه أمر لا يعنيهم .. كأنه أمر لا يعنى أحدا على الإطلاق .. ولولا مرور سيارة شرطة بمحض الصدفة .. لكانت جريمة إغتصاب قد تمت وإكتملت على مرأى ومسمع الجميع .. وفتاة ثالثة (٥) .. ممرضة بالقصر العينى كانت عائدة إلى البيت تحمل الطعام والدواء لوالدها المريض .. وفوجئت الممرضة بشابين يتعرضان لها ويحاولان الإعتداء عليها .. فأخذت الفتاة تصرخ وتستغيث بينما الإثنان يغتصبانها بالفعل .. وسمع شابان آخران بالفعل صرخات الفتاة

(١) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٧/٩
(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٧/٨
(٣) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٧/٦
(٤) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٢/٢/٢٩
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٢/١١

وإستغاثاتها فجريا إلى الفتاة .. وبدلا من إنقاذها .. تعرضت الفتاة للإغتصاب من جديد .

ماذا يعنى هذا .. ماذا يعنى كل هذا .. وأين ذهب الناس .. المصريون .. وأين كانوا حين وقعت هذة الجرائم الثلاثة وجرائم أخرى مماثلة وكثيرة .. ولماذا - إلى هذا الحد - تبلدت وتحجرت مشاعرهم وهم يشاهدون بناتهم تنزع عنهن ثيابهن ويهتك عرضهن .. وكيف رضينا جميعا لأنفسنا وبلدنا كل هذا الإمتهان والهوان .. كيف تنازلنا وأضعنا إحساسنا بالطمأنينة والأمان .. فأى أمان بقى لدينا وقد شاهدنا بالفعل الرجل الفقير .. خفير حديقة الخالدين بالحسين الذى إعتاد أن يسكن مع زوجته عشة صغيرة .. ولم يكن الإثنان لينتابهما أى إحساس بالخوف أو القلق .. فهما يسكنان قلب القاهرة وفى ضيافة أو حماية سيدنا الحسين .. لكنهما لم يعرفا أن قاهرة التسعينات غدت بلا قلب .. وأن مسجد الحسين تحول إلى مقهى ومزار سياحى لا أكثر .. فكان لابد وأن يدفع الخفير الفقير وزوجته الثمن .. كان لابد وأن تتعرض زوجته بدورها لحادثة إغتصاب (١) .. جرجرها ثلاثة شبان خارج العشة وحتى منطقة المقابر القريبة حيث تبادلوا هناك إغتصابها .

وما هو الفارق بين تلك الزوجة التى كانت تنام فى عشة فى العراء .. وبين زوجة أخرى (٢) كانت فى شقتها فى منطقة منشية الصدر حين فوجئت بثلاثة أشقياء يطرقون باب الشقة ويدخلون عليها وهم يشهرون المطاوى فى وجهها .. وبعد تهديد الزوجة بقتل طفلها الصغير الذى لا يزال فى الخامسة من العمر .. وتحت تهديد المطاوى .. قام الأشقياء بنزع ملابس الزوجة ثم تبادلوا ثلاثتهم إغتصابها .. ولم ينسوا قبل مغادرة الشقة أن يسرقوا مصاغ الزوجة أيضا .

الإغتصاب إذن .. بدأ يتسلل حتى إلى بيوتنا .. ولم تعد أبوابنا المغلقة قادرة على حمايتنا من هذا المارد الذى أطلقناه من القمقم .. وإذا كان هذا هو حالنا فى بيوتنا وأبوابها المغلقة .. فليس من قبيل المفاجآت أن يجلس رجل مع زوجته ينعمان بالهدوء فى حديقة مدينة ٦ أكتوبر الجديدة .. فيقوم ثلاثة شبان بمهاجمة الزوجين وإغتصاب الزوجة (٣) تحت تهديد المطاوى فى جريمة إستغرقت ساعتين كاملتين .. ولا هى أيضا مفاجأة أن يشهد معهد شلل الأطفال بإمبابة جريمة إغتصاب كاملة (٤) قام بها ثلاثة شبان وراحت ضحيتها فتاة فى الثانية والعشرين من عمرها وتعمل بائعة بأحد المحلات بمنطقة العتبة .. المفاجأة أو الجديد فقط فيما يتعلق بجرائم الإغتصاب هو ما جرى فى مدينة السلام .. حين قام إثنان من الشباب (٥) بإختطاف إحدى مضيفات كافيتيريا بوسط القاهرة .. وبعد إغتصاب الفتاة .. أجبر الإثنان الفتاة على كتابة وتوقيع إقرار بأنها لم تتعرض لأية حادثة إغتصاب من أى نوع .. وحمل الإثنان الإقرار معهما وتركا الفتاة تلملم ثيابها ودموعها ومشاعرها .

وبالإضافة إلى كل ذلك .. بدأنا نشهد مؤخرا ظاهرة أخرى جديدة أيضا .. ظاهرة الهوس الجنسى أو سيطرة الجنس على فكر وقرارات بعضنا وإتخاذه كوسيلة للإنتقام أو الإبتزاز أو تصفية الحسابات .. ففى مقابر الجمالية .. قام ثلاثة بلطجية (٦) بإحتجاز زوجة وجردوها من

---

(١) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩٢/٤/١٠
(٢) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/٨/١
(٣) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩١/٦/١٧
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩١/٧/٤
(٥) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٣/٢/١٤
(٦) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٧/٧

ملابسها تماما هى وطفلها الرضيع لإجبار زوج المرأة على دفع الإتاوة .. وفى منطقة الحسينية[1].. وقع خلاف بين أحد كبار الجزارين وبين تاجرة أغنام .. فذهب الجزار وإبنه وشقيقه الأصغر إلى بيت التاجرة .. قيدوها ثم إقتادوها خارج البيت إلى الشارع .. وفى الشارع مزقوا ثيابها الخارجية ونزعوا عنها ثيابها الداخلية .. وتركوها فى وسط الشارع ملقاة على الأرض عارية تماما لمدة ساعة كاملة .. ووقفوا هم حولها مهددين بالسلاح كل من يحاول الإقتراب أو حتى يحاول ستر هذا الجسد العارى .. وغير هذا كله كان من الجديد أيضا أن تدخل الكاميرا كسلاح إضافى فى حروب الجنس وجرائم الإغتصاب .. فشهدت منطقة إمبابة [2] صاحب مقهى قام – بمعاونة ثلاثة شباب – بإغتصاب إمرأة فى منزله .. وبعد أن تبادل الأربعة إغتصاب المرأة.. قاموا تحت تهديد المطاوى بتصويرها عارية فى أوضاع مختلفة لإبتزازها بتلك الصور بعد ذلك .. وغير تلك المرأة كانت هناك [3] إمرأة أخرى على قدر كبير جدا من الثراء كانت تستعين بخادمة فى إدارة شئون البيت .. لكن الخادمة فيما يبدو بدأت تطمع فى المزيد من المال والذهب الذى تختزنه تلك المرأة المليونيرة .. فإستعانت الخادمة بأشقائها لسرقة مصوغات المليونيرة لكن تحول الأمر فى النهاية من مجرد شروع فى سرقة إلى جريمة إغتصاب كاملة الأركان ومع سبق الإصرار والترصد .. حيث قام أشقاء الخادمة بتقييد المليونيرة بالحبال وتبادلوا إغتصابها ثم قاموا بنزع كل ثيابها وأخذوا يلتقطون لها الصور فى مختلف الأوضاع الفاضحة لإبتزازها بعد ذلك .. أما الذى كان أكثر رعبا وأشد إزعاجا من كل ذلك .. فهو أن تتسع دائرة الإغتصاب وتزداد حمى الفوران الجنسى بأعماق بعض الشباب إلى حد أن تسقط حرمات كثيرة وتدوسها الأقدام .. إلى حد أن يقوم أحدهم [4] بإغتصاب إبنة عمه فى شقته وتحت تهديد السلاح .. أو أن يقوم أحدهم [5] بإغتصاب زوجة شقيقه مستغلا سفر هذا الشقيق إلى إحدى الدول العربية للعمل هناك .

وأعتقد أنه بعد هذا كله .. بات علينا أن نعرف وأن نملك تفسيرا لكل هذا الذى جرى إذا كنا جادين بالفعل فى مواجهة هذا الذى سوف يجرى .. أعتقد أيضا أنه قد آن أوان أن نعيد تأمل أحوال شبابنا .. نفهمهم قبل أن نحاكمهم .. نذهب بهم إلى الأطباء وعلماء النفس والإجتماع قبل أن نلف حول أعناقهم حبال المشانق .. فالدكتور جمال ماضى أبو العزايم مثلا .. يحدد [6] لنا ثلاثة مراحل من النضج يعرفها الإنسان .. النضج الجنسى والذى يتحقق بالبلوغ ويعنى القدرة على ممارسة الجنس وعلى الإنجاب .. ثم النضج النفسى والذى لا يتحقق إلا فى حوالى العشرين من العمر وبعد أن تهدأ فورات البلوغ وتهدأ التغييرات الجسدية والبدنية .. وأخيرا النضج الإجتماعى والذى لا يكتمل إلا بالإستقلال المادى والتعايش مع هذا المجتمع .

ولست أراه جموح فكر أو مبالغة قلم أن أؤكد أن معظم الشباب فى مصر الآن تجبرهم حياتهم وظروف واقعهم ومجتمعهم على التوقف عند النضوج الجنسى وحده فقط .. لكن دون أن

---

(١) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٤/٧/٩
(٢) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٥/١٧
(٣) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٦/١١
(٤) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/٦/٢٧
(٥) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٦/١٢
(٦) د. جمال ماضى ابو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

يعقبه نضوج نفسى أو إجتماعى .. فهم شباب تخطوا سن البلوغ .. وإمتلكوا القدرة على ممارسة الجنس فضلا عن الرغبة أيضا فى ممارسته والتفتيش عنه بإصرار وإلحاح .. ومن المؤكد أن بعضهم نجح بالفعل ووجد الفرصة لممارسة الجنس وحصد متعته ونشوته لكن الغالبية فى المقابل لم تجد ولم تحصد شيئا .. وكانوا كثيرون جدا أولئك الذين لم يجدوا أية فرصة لممارسة الجنس ولا صادفهم الحب ولا إنتابهم الإحساس بالأمان .. من المؤكد أيضا أنه بعد قليل من الوقت .. لم يعد فارقا هناك يفصل بين من وجد الجنس وإستمتع به وبين من لم يعثر عليه وعاش الزهد إختيارا أو إجبارا .. فالكل سيبحثون معا عن نضوج وإستقرار نفسى لن يعثر عليه أحد .. ولن يتصالح أحد منهم مع نفسه أو مع مجتمعه .. بل سيبقى الإغتراب قائما .. والغضب قائما .. والعنف سيبقى قانونا وحيدا يحترمه ويحتكم إليه الجميع .

العنف وليس اللذة .. ولعل هذا هو الفارق بين الشباب فى مصر اليوم .. وبين محجوب عبد الدايم .. بطل رواية نجيب محفوظ الشهيرة بإسم القاهرة الجديدة .. ففى تلك الرواية يحدث محجوب عبد الدايم نفسه ويقول(١) .. قرنان فى الرأس يراهما الجاهل عارا ، وأراهما حلية نفيسة ، قرنان فى الرأس لا يؤذيان ، أما الجوع ، سأكون أى شئ ، ولكن لن أكون أحمق أبدا ، أحمق من يضيع على نفسه لذة لأى وهم من الأوهام التى إبتدعتها الإنسانية .

كانت تلك هى قاهرة نجيب محفوظ الجديدة .. قاهرة إختبأت – ومعها مصر كلها – خلف غبار التغيير والنسيان والتحول العظيم .. وبقيت قاهرة أخرى ليس فيها كثير من الشباب ينشدون اللذة من أجل اللذة .. لكن ينشدون حقا غائبا وضائعا .. قد يتأتى عبر صرخة غضب أو يأس .. أو تأتى به رصاصة أو قنبلة تعلمت التطرف .. ومن الممكن أن يأتى عبر جسد أنثوى يرى فيه الشاب إختصارا لكل جراحاته وعداواته وإحباطاته فيعلن عليه الكراهية أو الحقد أو الإنتقام أو الإغتصاب .. ولعل أحدا لم يلحظ أن قائمة المتهمين فى جرائم الإغتصاب مثلا طيلة السنوات الأخيرة باتت تضم شبابا من كل طائفة ونوع .. منهم من يملك المال ومن لا يملكه .. من يعمل ومن يشكو البطالة .. من ينتمى لعائلة تعشق الهدوء والإستقرار .ومن سبق وعرف الخراب فى البيت قبل أن يفتش عنه فى الشارع .. من سبق له ممارسة الجنس حتى الإرتواء ومن لا يزال يعانى رغبات مؤجلة التنفيذ منذ سنوات .. ولا يعنى ذلك إلا أن الإغتصاب لم يعد جريمة إحتياج جنسى فقط .. ولا هو صرخة غضب فقط .. ولا هو أيضا وسيلة أخيرة للإنتقام .. إنما هو خليط من كل ذلك . أو أصبح هو كل ذلك .. فالإغتصاب أحيانا (٢) هو الرغبة فى الثأر والإنتقام .. وهو أحيانا أخرى مجرد تعبير عن إحساس بالسيادة والقوة والتسلط ورغبة فى تأكيد الذات .. وأعتقد أن كل تلك المعانى إستقرت مؤخرا تحت جلد كثير من الشباب فى مصر .. إنهم يريدون الثأر والإنتقام من هذا المجتمع .. إنهم يبحثون عن فرصة للتعبير عن أنفسهم وليؤكد كل منهم ذاته .

ومن المؤكد أننى لا أنشد دفاعا حارا عن أولئك المغتصبين أو كل شاب مرشح لذلك المصير مستقبلا .. ولا أنا ألح على تبرير جرائم من الصعب غفرانها والتسامح معها .. ولكن فقط أنشد الحقيقة .. وأبحث عن تفسير لهذا الذى بدأنا نشكو منه ونخاف فى مصر .. فلسنا فى محكمة وليس شباب مصر يقفون خلف قضبان الشك والإتهام .. وليس فى صالح مصر وشبابها وفتياتها

---

(١) نجيب محفوظ – القاهرة الجديدة – مكتبة مصر – ١٩٦٢

(٢) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٢

ونسائها أن ينشغل الجميع بإحصاء عدد الحيوانات المنوية العالقة بالثياب الداخلية التى كانت ترتديها الضحية .. أو بالتساؤل عن سلوك الجانى وضحيته فى تلك اللحظات التى سبقت الفعل والإثم .. أو بإختلاق دوافع معينة ونبقى ننفخ فيها قدر إستطاعتنا لنقدمها للقاضى الذى سيأمر بالقتل والقصاص .. إنما فى صالحنا وصالح مصر. أن نعرف الدوافع الحقيقية لكل جرائم الإغتصاب .. أن نعرف بدون مواراة أو إدعاء أو رياء.. التفسير الإجتماعي والنفسى والجنسى لكل جريمة إغتصاب ولسلوك كل شاب يقدم على إرتكابها .. فحينئذ يغدو هذا هو التفسير الأقرب إلى العقل وإلى المنطق وإلى الحقيقة .. وهذا هو التفسير الذى يصر دائما – وبشكل مستفز – على تجاهله تماما أولئك الذين لا يؤمنون إلا بأنه كلما تعرت النساء أكثر وزادت مساحة الإثارة كلما تزايدت معدلات الإغتصاب .. أو أولئك الذين على قناعة كاملة بأنه لن تزيد معدلات الإغتصاب في مجتمع ما إلا كلما تشدد هذا المجتمع فى مواجهة الجنس ونجح فى محاصرة الرغبات وقمعها وأعلن رفضه المطلق لأية حرية أو تسامح جنسي .

ومن المؤكد أنه لا هؤلاء .. ولا هؤلاء .. يعرفون المعنى الحقيقى .. أو الوظيفة الحقيقية والتاريخية والنفسية لجريمة الإغتصاب .. فأصحاب نظرية الإثارة الجنسية والتعرى الزائد عن الحد والسلوك المعيب والفاضح كدوافع محرضة على الإغتصاب .. لا يعرفون أن الإغتصاب جريمة قائمة قبل أن يعرف العالم أو يعيش كل هذة الإثارة والحرية الجنسية .. بل إن الإغتصاب كفكر وسلوك ومنذ بدايات التاريخ الإنسانى إرتبط بالحروب وليس بالجنس وغرائزه .. فالإغتصاب كان دائما بمثابة الجائزة الأولى التى يتسابق عليها أو إليها جنود الجيش المنتصر .. وليس هناك كتاب واحد فى التاريخ إلا وتحدث عن حروب الرجال وما أدت إليه من إغتصاب النساء .. وهذا هو قانون الحرب الأبدى الذى لم يتغير مهما تغيرت الحرب نفسها .. ويقى الإغتصاب هو مكافأة الجندى المنتصر سواء إنتصر هذا الجندى وهو لا يحمل فى يده سوى السيف والرمح أو إنتصر وهو يمتطى صهوة جواده أو عربته الحديدية أو حتى دباته .. فكل الحضارات التى ولدت ونمت وتعاقبت .. غيرت الدنيا لكن عجزت عن تغيير هذا القانون .. والدكتور أحمد المجدوب مثلا يستشهد على ذلك (١) بما جرى أثناء الحرب العالمية الثانية .. وكيف ساد الإغتصاب مدن أوروبا وقراها عقب كل معركة .. بل وتحولت هزيمة بولندا أمام المانيا فى تلك الحرب إلى واحدة من أكبر وأقسى وأعنف جرائم الإغتصاب فى التاريخ .. فالجنود الألمان بعد ساعات قليلة من إنتصارهم إغتصبوا مئات النساء .. وتم إغتصاب البولنديات اللواتى تجاوزن سن الثمانين وأولئك الذين لم تزد أعمارهن عن الحادية عشرة عاما .. جرائم جرت كلها فى العلن وأمام رجال بولندا الذين خسروا الحرب فخسروا حق الإعتراض على ما يجرى لنسائهم وبناتهم .. وتكرر نفس الأمر فى حروب كثيرة .. فى حرب الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام .. فى حرب كشمير التى شهدت (٢) فرقة مدرعة هندية تقتحم منطقة بانكوب هندوارا وتغتصب فى أربعة وعشرين ساعة فقط ثمانين إمرأة مسلمة من كشمير تتراوح أعمارهن من السبعين إلى التسعة سنوات .. وفى الحرب الأهلية بالصومال التى أسفرت عن نزوح ثلاثمائة الف رجل وإمرأة إلى كينيا فإذا بمنظمة أفريكا ووتش – أى منظمة حقوق الإنسان الأفريقى – تقدم تقريرا (٣) يفيد قيام الجنود الكينيين بإغتصاب

(١) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣
(٢) جريدة العالم اليوم – عدد ١٩٩٣/٢/٢٩
(٣) مجلة الوسط – لندن – عدد ١٩٩٣/١٢/١٣

للنساء والفتيات الصوماليات داخل وخارج معسكرات الإيواء .. وغير هذا كله كانت هناك بالطبع مأساة أو جريمة إغتصاب جنود الصرب للنساء والفتيات المسلمات بالبوسنة .. وهى الجريمة التى فاقت - فى قسوتها ووحشيتها - عشرات أو مئات من الجرائم التى يحتفظ بها العالم فى أرشيف الحروب وجرائمها وشرورها .. وأخيرا كشف معهد بانوس الإنجليزى (١) النقاب عن رسالة كانت حكومة الخرطوم قد أرسلتها إلى العشرة الاف جندى الذين يحاربون فى الجنوب والتى تفيد قيام الحكومة بتقديم جائزة مالية لكل جندى يقدم ما يثبت قيامه فى عام ١٩٩٢ بإغتصاب أربعة فتيات أو نساء من أهل الجنوب .

وأنا أزعم أن أية إمرأة تم غتصابها فى أية حرب من حروب الماضى أو الحاضر .. لم تكن بالمرأة التى تثير الرغبة وتطلقها من عقالها تحت جلد أى رجل .. فهى إمرأة غالبا جائعة ومتعبة ومنهكة القوى والأعصاب مكسورة القلب والنفس .. وإغتصابها ليس له أية دوافع شهوانية ولا هو مجرد إحتياج جنسى لأية إمرأة .. إنما هو القانون الذى جعل من الجنس قمة الإنتصار وقمة الهزيمة أيضا .. وهو قانون لا نلجأ أو نحتكم إليه فى الحروب فقط .. وإنما فى الثورات أيضا .. وكلما إستدعى الأمر التفكير فى الإنتقام الغاضب الفردى أو الجماعى من سلطة غاشمة أو طبقة أعلى لم تكترث بمن هم أقل منها .. أو حتى من أجل تسوية حسابات.. سياسية وإجتماعية ونفسية .. فعلى سبيل المثال جاءت لنا الأخبار مؤخرا (٢) تكشف المزيد من أسرار ثورة البلاشفة فى روسيا وإذ بنا نكتشف أن الأميرة أناستازيا إبنة نيقولاى رومانوف آخر القياصرة الروس .. والوحيدة التى بقيت على قيد الحياة بعد المذبحة الجماعية التى تعرض لها القياصرة .. لم تكن وحدها التى بقيت على قيد الحياة بمحض الصدفة .. وإنما لأن جنديا من الثوار أصر على إكمال حساب الثورة مع القياصرة .. فإغتصب إبنة القيصر نفسه .. ولم يعد مفاجئا لأحد بعد هذا أن يتخلص الجندى من إحساسه بالغضب أو الإنتقام فيقرر الزواج من إبنة القيصر التى سبق له إغتصابها .

وبعيدا عما جرى فى روسيا وثورتها وكل ثورات العالم الأخرى .. نجد الصراعات القبلية والسياسية فى أفريقيا تسفر عن عشرات من حوادث الإغتصاب التى تجرى كل يوم فى أكثر من دولة وعلى أطراف أكثر من غابة .. ففى أفريقيا الوسطى (٣) مثلا .. ٢٢٪ من النساء والفتيات هناك تعرضن لحوادث إغتصاب .. وهى نسبة لا تختلف كثيرا .. أو تقل أو تزيد قليلا .. إذا ما إنتقلنا إلى دول ونواحى مجاورة وملاصقة .

ولا نخرج من هذا كله إلا بالتأكيد على أنهم ليسوا على صواب أولئك الذين قصروا الإغتصاب الجنسى على رغبات الجنس وشهواته فقط .. ولا هم على صواب أيضا أولئك الذين طالبوا - ولا يزالون - بمزيد من الحرية أو التسامح أو حتى التخفف من بعض قيود الجنس وكوابحه حيث يؤدى ذلك - فى زعمهم - إلى إختصار مساحة جرائم الإغتصاب .. وهؤلاء قطعا على دراية كاملة بما يجرى فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. أكثر بلدان العالم المعاصر إقتناعا بفكرة الحرية والتسامح الجنسى .. فهى نفس البلدان التى تشكو وتعانى أكثر من غيرها من

---

(١) معهد بانوس - لندن - نشرة وورلد إيدز - عدد ١٩٩٢/٩

(٢) الحكاية روتها جريدة الإتحاد الظبيانية نقلا عن الصحف العالمية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٣/٨/٢٦

(٣) معهد بانوس - لندن - نشرات وورلد إيدز - أعداد متفرقة صادرة فى عامى ١٩٩٣ ، ١٩٩٤

جرائم وحوادث الإغتصاب الجنسي .. ويشكل تخاف معه أية فتاة أو إمرأة في لندن أو باريس أو نيويورك بأكثر مما تخاف أية إمرأة أو فتاة في مدن الشرق المحافظ أو المتزمت على حد تعبير البعض .. وعلى سبيل المثال .. جاء عام ١٩٨٨ ليشهد [1] .. ٢٨٥٥ جريمة إغتصاب في إنجلترا .. ٣٧٧٦ جريمة في فرنسا .. ٥٢٥١ جريمة في المانيا الغربية .. بل وتشهد السويد التي هي أكثر بلدان أوروبا والعالم تخففا ورفضا لقيود الجنس في نفس ذلك العام ١٣٣٢ جريمة إغتصاب .. وكذلك تشهد الدانمارك التي لا تقل عن السويد حرية وتسامحا ٥٧٦ جريمة .. أما الولايات المتحدة الأمريكية .. فقد شهدت عام ١٩٨٨ عددا مخيفا ومروعا من جرائم الإغتصاب بلغ ٩٢٤٩٠ جريمة .. وكذلك اليابان التي شهدت ١٧٤١ جريمة .. وفي إسرائيل أيضا .. حيث تسود هناك الحياة الغربية بملامحها ومعالمها .. تتعالى الشكاوى والمخاوف من زيادة معدلات جرائم الإغتصاب والتي تسللت حتى إلى داخل صفوف جيش الدفاع الإسرائيلي بحيث لم يعد المجندة في صفوف الجيش تأمن على نفسها ولا تطمئن إلى زميلها أو قائدها وتثق به .. بل وحتى المستوطنات اليهودية باتت بدورها تشكو جرائم الإغتصاب .. وشهدت مستوطنة موشاف نيئوت هكيكار جنوب البحر الميت [2] جريمة إغتصاب إرتكبها ماركو وراحت ضحيتها تريزا أجمل فتيات المستوطنة وإهتزت لها إسرائيل كلها .

ولا يعنى ذلك في النهاية إلا أن جرائم الإغتصاب أكبر من أن تكون مجرد جرائم جنسية .. وهي ليست مجرد رغبات هائجة محمومة تجوب الشوارع المظلمة تبحث عن ضحية .. ولا هي شهوات تخرجها من قماقمها ساق عارية أو صدر تزحزحت عنه الثياب قليلا .. ولكنها جرائم معقدة فيها ميراث التاريخ وفيها نتاج المعاناة وفيها شبح الضياع وفيها ثورة الغضب وفيها بشائر الإنتقام .. لا يعنى ذلك في النهاية أيضا إلا أن جرائم الإغتصاب في أي مجتمع .. هي أولا وأخيرا من صنع هذا المجتمع .. دلالة أو شهادة على خلل ما يشكو منه هذا المجتمع حتى وإن لم يجروء أحد على الإعلان عن هذا الخلل أو الحديث عنه .. وحين تبدأ مصر في الشكوى من جريمة.. لم تعهدها ولم تعرفها ولم تكن تخاف منها من قبل .. يصبح من اللائق .. بل من الضروري .. أن نعود مرة أخرى إلى شوارع مصر .. نعيد من جديد تأملها وقراءتها .. لعلنا نعرف السبب ونملك التفسير أولا قبل أن نجتمع لنتشاور معا حول الدواء والعلاج .. فالحقائق دائما تسكن الشوارع وتنحاز لجدرانها .. أكثر مما تسكن وتعشش فوق أوراق الأبحاث والدراسات والتقارير .

---

(١) د. أحمد على المجدوب - إغتصاب الإناث - الدار المصرية اللبنانية - ١٩٩٣

(٢) مجلة المجلة - لندن - عدد ١٩٩٣/١/١٩

(١١)

حتى أطراف أصابعها

الفتاة المصرية
غير ناضجة عاطفيا
سريعة التغير والتأثر بالأحداث
تميل إلى المبالغة والمواقف الدرامية الحادة
تهتم بالمظهر الخارجى بدلا من الجوهر
تعتمد على الآخرين
تؤمن بالخرافات
تجسد معاناتها النفسية فى صورة أوجاع جسدية
تميل بشدة إلى تجنيس ما هو غير جنسى
تسقط الجنس على أى شىء
حتى ولو لم تحتمل الأشياء هذا الإسقاط الجنسى

د. أحمد عكاشة
من كتاب : ثقوب فى الضمير

كعادتها كل صباح .. جاءت الشمس تزور قرية الشراقوة مركز الرحمانية بمحافظة البحيرة وتحمل معها يوما جديدا لم يبد عليه أنه سيختلف عن أيام كثيرة سبقته .. فإستيقظت فرحانة السيد محمود مبكرا وذهبت إلى مدرستها .. مدرسة بويط الإعدادية المشتركة .

لكن .. لم يكن اليوم الجديد يوما عاديا .. ففرحانة لم تستكمل باقى الحصص كما إعتادت كل يوم .. وإنما سقطت فجأة مغشيا عليها أثناء حصة الجبر دون أن يدرى أحد سببا لما حدث لها .. بل ودون أن يكون هناك أى سبب على الإطلاق .. وبحكاية سناء بدأ مسلسل إغماء البنات (١) .. فسقطت تلميذة بعد أخرى فى نفس الحصة وفى نفس الفصل .. ثم مدرسة بعد أخرى .. مدينة بعد أخرى .. محافظة بعد أخرى .. من البحيرة إلى الشرقية إلى الإسكندرية إلى الإسماعيلية إلى القاهرة ثم المنيا وأسيوط فى قلب صعيد مصر .

مسلسل .. تحول فى بدايات فصل الربيع من عام ١٩٩٣ إلى ظاهرة قومية مزعجة .. وراحت الصحافة وكل وسائل الإعلام تطارد الأطباء وعلماء النفس والإجتماع تطالبهم بالبحث عن سبب وعن تفسير .. وبدا الأمر فى النهاية كما لو كنا قد إكتشفنا إكتشافا مذهلا .. هو أن فى مصر بنات .. وأنهن يعشن بيننا .. وأنه من الممكن أن تواجههن مشاكل وأزمات .. والأهم هو أننا لا نعرف شيئا مطلقا عن هؤلاء البنات .. لا عن مشاعرهن أو أحلامهن أو أسرارهن .. فكانت هناك محاولات – قام بها بعضنا على إستحياء – لأن نعرف وأن نفهم .. لكنها للأسف محاولات أبدا لم تكتمل بعد أن إنتهت الظاهرة كلها مبكرا جدا .. فنسيناها أو تناسيناها .. وعدنا نغلق على بناتنا صندوق الأسرار.. وكأنه لم يحدث شئ .. وكأننا لم نحاول ولم نعرف شيئا .. أو أننا حاولنا لكن تراجعنا بعد أن فشلنا فى أن نعرف عن بناتنا أى شئ .

وإسترحنا جميعا لذلك التراجع والفشل .. أو إتفقنا جميعا على أن البنت المصرية بخير .. تماما مثلها مثل الشاب المصرى .. تغيرت مصر كلها لكن لم يتغير الشاب أو البنت المصرية .. تبدلت مفاهيم الحب وقوانين الزواج وقيم الأخلاق وعلاقات البشر ولكن بقيت البنت المصرية على حالها .. أو فى حالها .. كائن رقيق وجميل .. ينعم بالأمان ويفيض بالحنان .. تتعلم أو لا تتعلم ثم تعمل أو لا تعمل .. فليس يمثل ذلك لنا أية مشكلة .. فالبنت فى النهاية ومهما طال المشوار .. سوف تتزوج لتؤسس أسرة جديدة صغيرة أو كبيرة .

إتفقنا على ذلك أو إسترحنا إلى ذلك .. ربما لأن التفتيش فى صندوق البنات أمر صعب جدا .. شائك جدا .. مزعج جدا .. أو لأن التفتيش فى صندوق البنات أمر يستدعى التقليب فى أوراق ملفات كثيرة نود لو أنها بقيت طول الوقت نائمة فوق أرفف أرشيف حياتنا وذاكرتنا ومشاعرنا .. ملفات مثل الجنس وغشاء البكارة .. الحب وفارس الأحلام .. الحجاب والمايوه البرازيلى .. درس العصر فى المسجد وآخر شريط كاسيت لعمرو دياب أو راغب علامة .

لكن إذا إستعان أحدكم بالله .. وفتح كل هذة الملفات .. وقرأ كل هذة الأوراق .. فسوف يكتشف أن البنت .. أى بنت .. وكل بنت .. هى مرآة المجتمع الذى تعيش فيه .. هى الترمومتر الذى نقيس به درجة حرارة المجتمع .. هى الدليل الذى يقودنا إلى مفاتيح هذا المجتمع بتناقضاته وأسراره من القمة إلى القاع .

ومن المؤكد .. أنه بقدر الإنقلابات الكثيرة الصعبة والقاسية التى خاضتها مصر طيلة الأربعين

---

(١) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩٣/٤/١١

عاما الماضية .. بقدر ما تغيرت حياة البنت المصرية وأفكارها ومشاعرها وأحلامها وأسرارها .. ومن المؤكد أيضا أن ما يثير شهية البنات وإهتمامهن قد تغير كثيرا خلال تلك الأعوام .. فالبنت التى كانت فى الستينات تختلس أبياتا من إحدى قصائد نزار قبانى لتحفظها وتنام وإحدى روايات إحسان عبد القدوس تتمدد تحت وسادتها ولا تمل من سماع عبد الحليم حافظ بأغانيه الغارقة فى الرومانسية طوال النهار ولا تحلم إلا بهذا الحب المستحيل ولا تنتظر إلا هذا الزوج الذى سوف يأتى يفتح لها بيتا ويؤسس بها ومعها أسرة .. هى ليست البنت فى سبعينات الفقر والغنى والإنفتاح على الغرب بكل ما فيه والتى سافرت إلى بورسعيد أو سافر والديها إلى الخليج أو إغتربا وإبتعدا عنها حتى وهما يسكنان معها تحت سقف واحد دونما سفر أو رحيل .. ولا هى أيضا البنت فى الثمانينات التى تحجبت وتعرت وتنازلت عن شهادتها وتأخر سن زواجها وتعرضت للإغتصاب وهتك عرضها وتنقبت وإنبهرت بالجرئ ومسلسله مع الجميلات وتطرفت وأدمنت وكسرت الكثير جدا من قيود معصمها وقلبها وعقلها وخيالها .. وهى أخيرا ليست بنت التسعينات التى تعين عليها أن ترث كل ذلك .. أو تدفع ثمن كل ذلك .. وتسدد – أحيانا أو غالبا بمفردها – فاتورة حساب كل ما شهدته مصر فى هذة السنوات الطويلة من تناقضات صاخبة وسخيفة ومزعجة .

أنا هنا بالطبع لا أتحدث عن كل بنت فى مصر .. ولا أزعم مطلقا أننى أستطيع أو أطيق ذلك .. ولا هو أمر فى إستطاعة وطاقة أى أحد آخر .. وإنما كل ما أحاوله هو الوصول إلى غالبية بنات مصر .. أولئك اللواتى لم يتطرفن بالدين ولا ضد الدين والأخلاق والمجتمع .. بنات لازلن يعشن بيننا وفى بيوتنا .. ونراهن فى شوارعنا ومكاتبنا .. يحملن فى وجدانهن كثيرا من الورد والشوك .. الف حلم والف شكوى .. الف سبب يثير رغباتهن وشهواتهن والف قيد يمنعهن من الخروج على أى قانون .. تختزن قلوبهن وعقولهن الف قضية حائرة ومقلقة كالخروج إلى العمل والإنفتاح الأخلاقى والإجتماعى على الغرب والعالم كله وتأخر سن الزواج وشبكات الإنحلال والدعارة والعذاب والمتعة .. لكن تأتى على رأس هذة القضايا كلها قضية أكثر جدلا وصخبا وإقلاقا هى الحرية كما تحتاجها وتتخيلها وتفتش عنها وتطالب بها كل بنت فى مصر .. القضية التى باتت – منذ الحرب العالمية الأولى وبعد خمسة عشر عاما على كتاب قاسم أمين ودعوته لتحرير المرأة – تشكل الهاجس الأول لدى البنت فى مصر .. الحرية بكل أشكالها ومجالاتها .. حرية كل فتاة فى أن تتعلم وأن تعرف وأن تعمل وأن تحب وتتزوج .

ومع ذلك بقيت هذة الحرية قضية لا تشغلنا إطلاقا .. أو قضية لم تمثل لنا وفى أى وقت أكثر من مجرد ملاحظات عابرة أو إعتراضات جانبية .. فلا نحن علمنا الفتاة معنى الحرية وقيمتها حين رضينا لها بأن تنال حريتها .. ولا نحن وضعنا ضوابط محددة وواضحة لتلك الحرية حتى لا تنقلب إلى فوضى .. بل إننى لا أكاد أبالغ إذا تخيلت أننا – فى تلك الأيام البعيدة – تعاملنا مع الأمر كله بمنطق العلماء وحيوانات التجارب .. فأطلقنا البنات من القفص ومنحناهن الحرية فى حين جلسنا جميعا حول المائدة نحشد عيوننا وعقولنا وأقلامنا لنسجل ما الذى ستفعله البنات بتلك الحرية الجديدة .. ثم كان أن فرحنا بمتابعة كل هذة الأخطاء والخطايا الجديدة .. حتى صحافتنا التى لم تكترث مثلا بإعطاء كل فتاة دروسا كانت ضرورية وواجبة فى الحرية .. بدأت على الفور فى إصطياد تلك الأخطاء والتجاوزات .. بداية من إنتقادات جريدتى الأفكار ووادى

النيل للفتاة المصرية ومفهوم الحرية لديها عقب الحرب العالمية الأولى حيث لم تر الفتاة لتلك الحرية من معنى أو قيمة إلا أن [١] .. تتزين بأفخر الأزياء وتخرج من بيتها فى أى وقت وتغازل من يعجبها فإذا ما كانت الإشارة أو الإبتسامة كان السلام فالكلام فالموعد فاللقاء .. وبعد سنوات قليلة تنتقد مجلة روز اليوسف [٢] هذه الحرية التى إنتهت إلى أن يصبح من سمات الفتاة المصرية الجديدة .. الرقص الأجنبى وشرب الخمر وتعاطى المكيفات ولعب القمار على البيوت والشواطئ بالإضافة - كما كتبت نفس المجلة - إلى قيادة السيارات وإعلانات تملأ الصحف عن دروس لتعليم النساء والفتيات هذا الفن الجديد .. ثم عادت مجلة روز اليوسف بعد عام واحد فقط تكتب عن تمادى الفتيات فى ممارسة حريتهن [٣] وإنتشار عادات غير مستحبة حتى أصبح تدخين السجائر من المظاهر الجديدة وإلى الحد الذى نشرت معه المجلة صورة لفتاة تدخن سيجارة وكتبت تحتها تعليقا قصيرا يقول .. بكرة ياما نشوف .. ثم جاءت مجلة المرأة المصرية [٤] بعد قليل لتضيف صورا أخرى لهذة الحرية الجديدة وتكتب عن .. المناكب العارية والنحور المقورة والمزدانة بالجواهر والعقود الثمينة .. والشعر المقصوص على آخر موضة .. والسيقان فى جوارب حريرية شفافة نشاهدها فى الشوارع والمركبات ودور التمثيل .

ومضت عشر سنوات طويلة.. دون أن يقدم أى أحد على أية خطوة جادة وحقيقية لتغيير كل هذا .. فبقيت تلك الفوضى والتجاوزات هى حصاد مصر المعلن من تلك الحرية .. وبقى المجتمع يكتفى بالنقد واللوم والعتاب والشكوى من إساءة الفتاة فهم وممارسة تلك الحرية .. حتى تنبهت الصحافة أخيرا لدور غائب ورسالة لم يبادر بحملها أحد .. فكتبت مجلة المصور [٥] عن حملات عديدة قامت ونشطت لتوعية المرأة والفتاة بمعنى الحرية وكيفية المحافظة عليها وعدم الإنحراف بها .. لكنها فيما يبدو كانت حملات شديدة العجز والقصور وقصيرة النفس للغاية .. إذ أن المجلة - وفى نفس العدد الذى أشارت فيه لتلك الحملات - عادت لتعترف أو لتؤكد أن تيار التغيير بات أقوى وأشد من أية حملات أو توعية لدرجة أن تمردت الفتيات فى الإسكندرية على الشاطئ الخاص بهن فى سان إستيفانو فأصبح من المناظر شبه العادية إزدحام باقى الشواطئ بالمرتديات للمايوهات فى كل مكان .

وهكذا .. قرر الجميع ترك الأمر كله تتكفل به الأيام والظروف والمقادير أو إلى أن يحدث إنقلاب فى المجتمع كله كذلك الذى جاءت به ثورة الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ .. لكن الأمانة تقتضى - قبل الإنتقال إلى مصر التى أصبحت بعد الثورة - أن نعيد النظر من جديد إلى مصر التى كانت قبل الثورة .. الأمانة أيضا تقتضى التأكيد على أن كل ذلك الذى تحدثت عنه وإنتقدته الصحافة لم يكن الصورة الحقيقية والكاملة لكل ما جرى .. بل إن كل تلك التجاوزات أو معظمها .. بقيت حبيسة طبقات محددة داخل نسيج المجتمع المصرى قبل الثورة .. طبقات تستطيع فتياتها الخروج إلى الملاهى والرقص وشرب الخمر وتدخين السجائر وتعلم قيادة السيارات .. وإرتداء الثياب الغالية والجوارب الحريرية الشفافة والسفر إلى الإسكندرية حيث

(١) ، (٤) د. لطيفة محمد سالم - مصر فى الحرب العالمية الأولى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٢٦/٣/٣١

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٢٧/١١/٣

(٥) مجلة المصور - عدد ١٩٣٧/٦/١١

يمكن إرتداء المايوهات فى كل مكان وأمام الجميع .. ولم تكن هؤلاء الفتيات بالطبع هن الغالبية فى مصر تلك السنوات والأيام .. وحتى مع الإعتراف بكل هذة الفوضى والتجاوزات .. فليس هناك ما يمنع من أن نعيد تأمل تلك الفترة لنخرج بعدة ملاحظات أهمها أن الفتاة المصرية بدأت تطالب بحريتها منذ وقت طويل قبل أن تقوم الثورة .. وأن هناك عدد غير قليل من الفتيات نلن حريتهن بالفعل سواء كانت حرية الذهاب إلى المدرسة أو الإلتحاق بالجامعة .. أو حرية العمل منذ أن إلتحقت أول فتاة مصرية بالحكومة فى عام ١٩٢٤ كموظفة بمصلحة التليفونات فى الإسكندرية (١) .. أو حتى حرية اللعب والذهاب للأندية الرياضية وبدلا من ناد واحد للنساء والفتيات طالبت به صفية زغلول تم السماح لهن بالذهاب إلى كل أندية مصر .. يمكننا أيضا ملاحظة أن هذة الحرية كانت غالبا – نتيجة سوء أو عدم الفهم والوعى – أقرب الطرق إلى الفوضى والخروج على قوانين المجتمع الأخلاقية والدينية .. وأن أحدا من هؤلاء الكثيرين الذين إنتقدوا ذلك لم يتوقف مرة واحدة ليفتش عن سبب أو تفسير .. لم يعرف أحد لماذا تطالب الفتاة المصرية بالحرية دائما ولماذا تسئ إستخدامها غالبا .. ولم ينجح أحد مطلقا – على الرغم من كثرة الكتابات عن الفتيات ومجتمعهن وحريتهن – فى أن يصل إلى أعماق وأسرار الفتاة المصرية قبل أن يدعونا لنحبسها فى زنزانة الشك وسوء الظن والخوف والخجل والعار .

وقامت ثورة يوليو .. ولم تكن الثورة لتقمع أية فتاة أو إمرأة وتسلبها حرية سبق وأن نالتها بالفعل ومارستها سواء أجادت أو أساءت إستخدام هذة الحرية .. بل إن الثورة ضاعفت من مساحة تلك الحرية حين ضاعفت من عدد الفتيات اللواتى على إستعداد أو باتت لديهن القدرة على حرية التعليم أو العمل فلم تعد الحرية هى المشكلة وإنما بقيت المشكلة الحقيقية هى الفتاة نفسها.. وما الذى تفعله بتلك الحرية .. ومن هو الذى على إستعداد لأن يمد لها يديه ينتشلها من حيرتها وترددها وخوفها .. وهى قضية تحولت – رغم حساسيتها وأهميتها – إلى قضية هامشية مهملة داستها بقسوة أقدام السياسة وكل التغييرات الثورية الإقتصادية والإجتماعية الكبرى .. فلم تجد الفتاة حينئذ إلا إحسان عبد القدوس .. ولم تكن الحرية عند إحسان – أو كما دعا لها إحسان فى كتاباته – إلا حرية الحب ثم حرية الجنس .. فعلى سبيل المثال أراد إحسان إختصار قضية الحرية كلها فكتب روايته الشهيرة .. أنا حرة .. فإذ بالحرية هى مجرد حق الفتاة فى أن تتمرد على حياتها فى بيت عمتها .. وحريتها فى أن تلتحق بالجامعة لتسمح لأحد الشبان بتقبيلها فى سيارته الخاصة .. ثم أخيرا حريتها فى أن تحب شابا آخر وترتمى فى أحضانه وتقيم معه فى بيته دون زواج .. هذة هى الحرية كما أراد إحسان عبد القدوس الترويج لها أو على الأقل كما تخيلتها واحدة من أشهر بطلات إحسان .. وكان أن إفتتح إحسان الطريق.. ليسير خلفه الكثيرون .. طريق بدأ بالدفاع عن حق كل فتاة فى التعبير عن نفسها وعن مشاعرها .. حقها فى أن تحلم وأن تفرح وأن تشعر بإنسانيتها وكبريائها ثم إنتهى إلى الدعوى أو المطالبة بالحق فى أن تصبغ وجهها بكل ما تشاء من الوان وترش جسمها بكل ما تصل إليه يداها من عطر حارق أو مثير .. وأن ترتفع الثياب قليلا فوق ساقيها وتنخفض قليلا حول رقبتها وفوق صدرها .. وتحول كل من حاول الوقوف أمام ذلك بالإعتراض أو النقد أو حتى المراجعة إلى متهم عليه التقدم بكثير من

(١) د. لطيفة محمد سالم – المرأة المصرية والتغير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤

مستندات وأدلة تثبت أنه ليس عدوا للمرأة أو التطور أو الحضارة .. وتحول مثل هذا الصراع فى النهاية كما لو أن الحرية عصفور بعضنا يعشقه ويريده مطلق السراح طليقا فى آفاق الحياة والحب وبعضنا يريده محبوسا ومخنوقا ومطاردا ومضطهدا .. ومع أن أنصار العصفور الحر الطليق باتوا على يقين من أن العصفور فى النهاية – حين يطير بلا حدود متوهما قدرته على إمتلاك كل هذا الفضاء البعيد – يسقط مذبوحا ينزف الدم والكبرياء .. إلا أنهم على الرغم من ذلك ألقوا بالمسئولية كلها على السماء لا على العصفور .. وقرروا أن سقوط الفتاة إذا نالت حريتها الكاملة هو خطيئة المجتمع لا الفتاة .. وشاركت السينما فى ترسيخ هذا المعنى .. فعلى سبيل المثال كانت هناك أفلام شهيرة حاولت تناول هذة القضية مثل فيلم شهير إسمه الثلاثة يحبونها تم إنتاجه عام ١٩٦٥ وجسدت فيه سعاد حسنى دور الفتاة التى تطالب بحريتها وتمارسها بالفعل فتسقط .. لا لأنها أساءت فهم هذة الحرية وحدود ممارستها ولكن لأن المجتمع هو الذى لا يعرف وهو الذى لا يستطيع أن يفهم .. وهناك فيلم آخر تم إنتاجه عام ١٩٧٠ بإسم شباب فى عاصفة .. والذى تناول قضية الفتيات الحائرات واللواتى يسرن وراء دعاوى الحرية حتى يفقدن كل شئ .. وأيضا يدين الفيلم المجتمع لا هؤلاء الفتيات .

وجاءت سنوات السبعينات لتحمل معها شهادات الغفران والبراءة لهذا المجتمع .. فلن يعود مجتمعا يرفض الحرية أو يقاومها أو يعترض عليها .. وإنتصر أصحاب العصفور طليق الجناحين .. وباتت الكلمة الأخيرة يملكها أنصار تلك الحرية التى لا يحدها سور أو قيد .. ولم يعد الأمر قاصرا على من يطالب بحرية الحب وحرية الثياب وحرية السلوك .. بل كان هناك أيضا من طالب أيضا بالحرية الجنسية للفتاة لتنال بذلك حريتها كاملة .. هكذا طالبت أو تمنت عقول وأقلام كثيرة لعل أشهرهم على الإطلاق هى الدكتورة نوال السعداوى التى أكدت أن إخصاء المرأة فكريا وإجتماعيا [1] لم يكن القصد منه إلا إخصائها جنسيا .. وأن الحرية لا تتجزأ .. وحين تنال الفتاة حريتها فلابد وأن تنالها كاملة .. حرية الفكر وحرية الفعل .

دعوة الدكتورة نوال السعداوى ومثيلاتها ومن شاركها الرأى والقناعة .. جاءت تماما فى وقتها المناسب .. ومصر تتأهب لتستقبل زمن الإنفتاح .. حيث تم تغييب الوعى تماما وتقاعدت قيم وضوابط أخلاقية وإجتماعية كثيرة وأعلنت إنسحابها من حياتنا .. وحيث الفتاة المصرية على أبواب حياة صاخبة مثيرة وملونة .. فتخيلت تلك الفتاة أن الحرية لا تعنى إلا التمرد على أى قانون .. وإرتداء أى ثياب مهما كانت قصيرة أو فاضحة .. والتورط فى أية علاقة غرامية كانت أو جنسية .. والذهاب إلى أى مكان بموافقة الأهل أو عدم موافقتهم .. بإختصار كانت حرية لا تعنى إلا الفوضى .. ومع ذلك بقى الإلحاح على تلك الحرية أو تلك الفوضى مستمرا وعاصفا .. وعلى منوال الدكتورة نوال السعداوى سار كثيرون وكثيرات بكل تفانى وإخلاص وبكل حماس أيضا .. كلهم تبنوا نفس تلك الدعاوى وطالبوا – على مدى سنوات طويلة – بحق الجنس للفتاة وحرية ممارسته .. واحدة من هؤلاء الأتباع المخلصين كانت الدكتورة سمر العطار .. التى شاركت فى مؤتمر المرأة العربية إستضافته القاهرة عام ١٩٨٨ .. وإلى المؤتمر تقدمت الدكتورة سمر [2] ببحث تطالب فيه بالحرية الجنسية للفتاة وإعتبارها حقا مشروعا لها مثلها مثل الشاب .. ولم يكن

---

(١) د. نوال السعداوى – الأنثى هى الأصل – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٧٤

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٨/١١/٧

البحث نفسه هو مفاجأة المؤتمر .. إنما كانت المفاجأة الحقيقية أن البحث لاقى إستحسان كثيرين وكثيرات قدموا للدكتورة سمر تحيتهم وتهنئتهم .. ولم تعترض على البحث ودعواه إلا صافيناز كاظم .. أما منى حلمى – إبنة الدكتورة نوال السعداوى – فقد إعتلت المنصة .. وأعلنت عن دهشتها من دهشة الحاضرين .. وأكدت أن الإنسان الذى يجيد التعامل مع جسده هو الذى يجيد إختيار الحاكم والدولة .

وكان لابد وأن يسفر هذا النشاط المحموم عن أنصار فى النهاية .. وكان لابد وأن تكون هناك فى مصر الثمانينات والتسعينات تلميذات مخلصات وفيات للدكتورة نوال السعداوى أو الدكتورة سمر العطار وكل من شاركهما دعوتهما وأفكارهما .. فتيات مارسن حريتهن حتى مداها دون أن يكون هناك أى فارق بين حرية الفكر والقرار والعمل وإختيار الزوج وبين حرية أن تخلع كل أو معظم ثيابها وتقفز إلى فراش أى رجل يعجبها أو يقنعها أو يسعدها .. فالحرية – التى لم يهتم أحد طيلة هذة السنوات بشرح معناها وجدواها ومفهومها – أصبحت مبررا لكل شئ .. وكل الذنوب والآثام والخطايا باتت ترتكب فى مصر اليوم بدعوى الحرية .. فإستوقف ذلك كله صحفية مهمومة بأوجا ع مصر مثل سهام ذهنى فتساءلت [1] على صفحات مجلة صباح الخير .. هل تدفع بنات هذا الجيل ثمن الحرية ؟!.. ولم تجب سهام ذهنى على السؤال وإنما تنقلت بنا هنا وهناك تنقل لنا ملاحظاتها حول البنات وكيف يمارسن تلك الحرية .. الثياب بالغة القصر أو بالغة الشفافية .. السجائر والخمور وعدم الإعتراف بأى مانع أو قيد .. صداقة الأولاد والشبان والخروج إلى أى مكان بشرط العودة إلى البيت قبل الساعة الحادية عشرة مساء .. وأهم من ذلك كله – كما أشارت سهام ذهنى – هو إعتياد الأهل على سماع تعبير .. أنا حرة .. فلم تعد هذة العبارة تثير فى نفوس الأهل الرعب أو الخوف .. وهكذا صدر الحكم فى قضية الحرية لصالح البنات .. ولكن هل هو حكم لصالحهن أو لمصلحتهن ؟!.. ومرة أخرى لا تجيب سهام ذهنى على السؤال .. وأنا أعرف أن الزميلة العزيزة لم ولن تستطيع الإجابة .. لا هى ولا أى أحد آخر مادام أنصار الحرية الجنسية لا يزالون على نفس همتهم ونشاطهم .. خاصة وقد أصبحت المنظمات الدولية الكبرى كالأمم المتحدة تساندهم وتدعمهم بتأييد فكرة هذة الحرية فى كل بلدان العالم وإباحة الإجهاض وتوفير كل سبل الآمان والحماية من الأمراض الجنسية حتى ينعم صغار العالم بحياة جنسية سليمة ومثالية وفى وقت مبكر دون زواج أو إرتباط ثقيل الدم كثير المسئوليات والواجبات .. وهو الأمر الذى تناوله مفكر عربى مثل جميل مطر بالتحليل [2] الذى إنتهى فيه إلى أن النظام العالمى الجديد ليس مجرد ترتيبات عسكرية أو إقتصادية فقط .. وإنما هو إحلال لقيم جديدة قادمة من الغرب وإعادة غرسها فى وجدان وتربة بلدان العالم الثالث ومن بينها مصر بالطبع .

وقد يتخيل كثيرون وكثيرات هنا وهناك .. أن ما جرى فى مصر بعد الثورة هو نفس الذى جرى قبل الثورة .. وأن كل تلك التجاوزات والخطايا كانت من نصيب فتيات طبقات محددة لم تمس فتيات من سائر طبقات الناس وفئاتهم الإجتماعية والثقافية والإقتصادية .. وليس ذلك صحيحا بكل أسف .. فالفوضى هذة المرة طرقت باب الجميع بلا تمييز ولا إستئذان .. والحرية

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٣/١٢/٢

(٢) جريدة الحياة – لندن – عدد ١٩٩٤/٧/١٩

مارستها حتى النهاية فتيات كثيرات من مختلف طبقات المجتمع .. لا فرق هناك بين القمة والقاع .. وإذا كان من الممكن دائما وفى كل وقت ملاحظة ما إنتهت إليه تلك الحرية بفتيات القمة .. فإن ذلك لا يعنى مطلقا أن الحرية فى القاع لم تنته بنفس المصير وفى نفس الطريق .. وإنما كان الفارق الوحيد أن الفوضى التى هناك على القمة شاهدها الجميع فاقعة الألوان تخطف العين والإهتمام والإنتباه .. وأصبح من السهل الذهاب إلى أحياء مثل المهندسين أو مصر الجديدة فى القاهرة لنشاهد أحدث أزياء العالم وأكثرها خلاعة أيضا .. حتى المايوه البرازيلى الذى لا يستر شيئا .. جاءت به بعضهن إلى شاطئ عايدة (١) ثم إلى كثير من شواطئ الإسكندرية الخاصة والراقية .. أصبح من السهل أيضا أن نشاهد أو نقرأ عن حفلات إختيار ملكات الجمال مثلا .. حفلات باتت تقام هنا فى مصر ويتم فيها فرز أجساد فتيات مصر وسيقانهن وصدورهن لإختيار الفتاة التى تجلس على عرش مصر .. وإذا كانت نيرين سالم .. ملكة جمال مصر فى عام ١٩٨٩ قد حاولت إقناعنا بأنها لا تشارك فى مثل تلك المسابقات إلا من أجل الدعوة للرفق بالحيوان !.. فإنه من المحزن والمخجل أن تجد من يصدقها ومن يناقشها فى ذلك (٢) بكل وقار وجدية .. وفى المقابل يشرح لنا الدكتور رفعت الضبع(٣) مقاييس وظروف إختيار ملكات الجمال بعيدا عن تلك الحفلات الساذجة التى إعتاد التليفزيون المصرى أن ينقلها كل عام وبالتحديد فى ليلة رأس السنة .. ففى تلك المسابقات لابد وأن ترتدى كل فتاة البيبى دول .. أى قميص النوم الشفاف جدا والقصير جدا الذى يكاد يصل إلى الأرداف .. وتظل تتمايل به أمام أعضاء لجنة التحكيم لدقيقتين كاملتين .. فإذا حدث الخلاف تمتد الأيدى تقيس وتقارن الصدور والأرداف .. وكل هذا أصبحنا على إستعداد لأن نقبله فى مصر بدعوى التحضر والتمدين والتحرر . تحرر فى كل شئ أو من أى قيد إلى الحد الذى معه وقفت فنانة شابة – تم إتهامها فى قضية دعارة – فى المحكمة تدافع عن نفسها وتنفى تهمة ممارسة الدعارة .. والأمر كله لم يتجاوز ثلاث مرات مارست فيها الجنس مع ثلاثة رجال على فترات متباعدة دون أى مقابل .. بل هى حريتها وإعجابها بشاب أو رجل فتغدو على إستعداد لأن تعاشره جنسيا .. ثم كانت هناك فتيات أخريات .. أيضا مارسن الحرية ولكن بشكل مختلف .. مثل ناهد ومنى ونهال .. ثلاث طبيبات إعتزلن الطب وإحترفن الرقص الشرقى (٤) .. ولم يسمحن لأحد بمجادلتهن أو مناقشتهن .. فهى حرية كل منهن وسوف تمارسها كيفما تشاء .. أما الفتاة الرابعة .. فكانت أصغر راقصة فى مصر .. لم تكن بعد قد أكملت السادسة عشر من العمر حين إحترفت الرقص (٥) وصار لها مدير أعمال ينظم حياتها ودخلها الشهرى الذى تجاوز المائتى الف جنيها .. وحين أمرت نيابة الأحداث بإلقاء القبض عليها صرخت الفتاة فى غضب وإحتجاج بدعوى أن هذا القرار يشكل إعتداء على حريتها الشخصية فى أن تعيش حياتها بالشكل الذى تختاره وتفضله .

وأصبح من مظاهر تلك الحرية الجديدة أيضا .. الذهاب مثلا إلى صالات الرقص الملونة الصاخبة المتفجرة .. والتى كانت بداياتها بصالة الجاكس فى فندق الهيلتون والذى تم إفتتاحه فى

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/٩/٢٤
(٢) مجلة كلام الناس – عدد ١٩٩٣/٨/٢٢
(٣) جريدة العربى – عدد ١٩٩٤/٦/٦
(٤) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٠/١١/٢٢
(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٩/٩/٢١

أواخر السبعينات لتتوالى السلسلة وتستمر فى التزايد كلما زاد عدد الفنادق والمنشآت السياحية.. فليست كل تلك الصالات تنتمى لعائلات فنادق النجوم الخمسة .. وليس صحيحا أن كل روادها من الأثرياء فقط .. قد يكون صحيحا أن الثراء شرط ضرورى للشباب .. لكنه شرط ممكن التغاضى عنه فى حالة البنت التى إما تملك ثمن الذهاب إلى هناك وإما لن تعدم العثور على شاب يصطحبها وقتما وأينما تشاء وبالثمن الذى بإمكانها أن تدفعه هى ليقتنع هو .. وفى تلك الصالات .. ستجد فتيات من كل فئة أو طبقة فى مصر .. هؤلاء الفتيات مع الشباب وعلى حد تعبير مدير إحدى تلك الصالات [1] .. يقضون وقتا ممتعا .. يخلعون عن أنفسهم كل الهموم .. ليس شرطا أن يجيدوا الرقص .. ولكنهم يدعون أجسادهم تهتز بأى شكل مع الموسيقى .. المهم أن تكون هناك مساحة للدلع !.

وترسم لنا آمال فكار .. الصحفية بمجلة روز اليوسف [2] .. صورة لواحدة من تلك الفتيات .. فتاة الديسكو .. فتاة فى الثامنة عشرة من العمر إسمها فادية وتنتمى لعائلة متوسطة من شبرا .. تركت فادية بيت أبيها لتعيش مع سبع بنات فى شقة مفروشة بمدينة نصر .. وبسرعة تختصر حياتها لتصبح مجرد لحظات من الرقص المحموم فى أية صالة ومع أى رجل. لكن ليس بأى ثمن .. فقد إنتهى مشوار فادية فى قسم شرطة الهرم وهى تشكو رجلا حاول إغتصابها بعد أن خرجت معه ورقصت وتناولت طعام العشاء المغسول بالويسكى وبفاتورة بلغت السبعمائة جنيها .. وتم توقيع الكشف الطبى عليها وتأكد أن محاولة الإغتصاب لم تنجح ولم تتم .. ومن الواضح أن فادية لم تكن عاهرة تبيع نفسها لأى رجل مع كل مساء جديد .. إنما هى فتاة حاولت أن تمارس حريتها حتى نهايتها .. فتاة تعرضت لكل ما تتعرض له الفتاة المصرية من إغراءات وقيود وإحباطات وأحلام .. فإختارت أن تقترب أكثر من كل تلك الأضواء اللامعة دون أن تدرى أن ثمن ذلك كان فوق إستطاعتها .

ومن المؤكد أننى لست أقصد من هذا مطلقا أن كل فتاة طالبت بحريتها وقاتلت من أجل أن تنالها كانت فقط لا تريدها إلا من أجل الجنس أو من أجل أن تتعرى .. فالطالبة الجامعية [3] التى ذهبت إلى المحكمة تطالب بحريتها وترفض أن تعيش مع أبيها أو أمها بعد طلاقهما .. لم تكن تريد الجنس أو تفتش عنه .. كانت فقط تريد أن تمارس حريتها وأن تعيش وحدها بعيدا عن أب لم تعد تحتاج إليه إلا ماديا فقط وبعيدا عن أم لم يعد يشغلها فى دنياها إلا عملها كطبيبة .. وإذا كانت المحكمة قد رفضت دعوى الطالبة وحكمت بضمها إلى أبيها .. فإننى لست أشك فى أن هذة الفتاة ستبقى على تصميمها وعنادها لتنال الحرية كما تريدها وكما تراها .. من المؤكد أيضا أن هناك فتيات كثيرات بيننا يردن تلك الحرية ويحلمن بها .. حرية الحياة والدراسة والعمل والقرار والحلم والحب .. يردن الحرية لوجه الحرية لا من أجل جنس أو خطيئة .. لكن هل ستعصمهن النوايا الطيبة من الخطأ والسقوط .. أم أن ستغدو تلك النوايا فى النهاية – كعادتها – هى الطريق الأقرب إلى جهنم .. وما جهنم تلك إلا أن تسلم الفتاة نفسها وجسدها وتفقد كبرياءها وإبتسامتها وكل أحلامها .. وليس من دليل هناك على أن واقعنا لم يعد يعرف مسافة أو مساحة

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٧/٢٤

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/٦

(٣) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٤/١/٢٧

تفصل بين الحرية وبين الفوضى والسقوط إلا كل تلك الحكايات التى بات يحفل بها هذا الواقع .. واقع شائك وصعب لم تجد فتيات كثيرات من وسيلة لمقاومته قدر الحجاب فتغطين به ووجدن فيه الحماية والأمان والوقاية من تلك الحرية وما خلفها .. ومنذ النصف الأخير من السبعينات وعدد البنات المحجبات يتزايد .. ويكفى لأى أحد اليوم أن يتأمل راكبات أى أوتوبيس أو مترو أو قطار .. أو طالبات أية مدرسة أو جامعة .. ليعرف أو يقيس حجم هذة الظاهرة .. فقد أصبحنا أمام مئات الألوف من فتيات فى مقتبل العمر .. ينعمن بالشباب والجمال .. لا يفتقرن إلى التعليم أو الثقافة أو الشهادات الدراسية .. كلهن قد قررن إرتداء الحجاب وتمسكن به على الرغم من أن ذلك كان أحيانا ضد رغبة الأسرة أو ميولها .. وقد سارع كثيرون منا – وإضح جدا أن مثل هذة الظاهرة أثارت قلقهم وحيرتهم إن لم يكن غضبهم وحزنهم أيضا – إلى تبرير ماحدث ولا يزال يحدث .. بأسباب إقتصادية وبدعوى الفقر والحرمان .

واحد من هؤلاء .. هو الدكتور سيد عويس أكبر وأشهر أساتذة مصر فى علم الإجتماع .. والذى قال مؤكدا أن السبب الرئيسى والأساسى لإنتشار الحجاب بهذة الصورة المذهلة (١) هو سبب إقتصادى .. ثم إقتصادى .. ثم إقتصادى .. فالفتاة عندما تدخل الجامعة وتجد أنه من الصعب عليها الدخول فى سباق الموضة .. تقرر أن ترتدى الحجاب فهو أوفر لها ولأسرتها .

وكان أن إفتتح الدكتور سيد عويس الطريق .. ليسير خلفه الكثيرون .. ويبدو أن هؤلاء الكثيرين – من هواة الحلول والتفاسير سابقة التجهيز – قد إستندوا فى دعواهم إلى بحث ميدانى أجراه المركز القومى للبحوث على طالبات الجامعة المحجبات فى عام ١٩٨٦ جاءت نتيجته تؤكد إنتشار الحجاب عبر مختلف الشرائح والطبقات الإجتماعية .. لكنه تركز فى الأسر المتوسطة .. وأيضا أكدت نتائج نفس البحث أن نسبة كبيرة من أسر المحجبات توقف فيها مستوى تعليم الأب والأم عند مستوى القراءة والكتابة أو حتى درجة الأمية .. أى أن المحجبات ينتمين على الأكثر إلى أسر متوسطة محدودة التعليم .. وهكذا .. أصبح لدينا – بشهادة مركز البحوث وأستاذ الجامعة ومن سار خلفه – سببان لإرتداء البنت المصرية للحجاب .. الفقر .. أو الجهل .

ولم يكن ذلك صحيحا للأسف .. فالفقر ليس دائما هو أقرب الطرق إلى الله .. ومن الممكن أن تكون الفتاة أو المرأة غنية وقادرة .. وتختار الحجاب بمحض إرادتها وكامل وعيها وقناعتها .. ولعله من المناسب هنا أن نتوقف قليلا عند ما قاله أستاذ أخر فى علم الإجتماع وإن بدا أكثر عمقا وأكثر إهتماما وموضوعية هو الدكتور سعد الدين إبراهيم .. فهو قد إختار (٢) الخروج إلى الشارع على أمل الإقتراب أكثر من الواقع ومن الحقيقة .. وفى الشارع وجد الدكتور سعد الدين إبراهيم إحدى طالبات الطب من المنصورة التى إختارت الحجاب بعد أربعة شهور فقط من دراسة الطب فى كلية طب القاهرة .. وحين رفض أهلها قرارها بالتحجب أجهشت بالبكاء وقالت أنها لا تريد أن يظن بها الناس أنها عاهرة تقدم خدماتها للسياح النفطيين الأثرياء فى القاهرة .. وبعد الحكاية .. قدم لنا الدكتور سعد الدين إبراهيم شهادته التى قال فيها .. إن طالبة الطب المحجبة تمثل إستجابة معقدة لعالم معقد من حولها .. عالم لا تستطيع السيطرة عليه من قريب أو بعيد .. هذا العالم يشمل سيلا متدفقا من الأجانب والثروة النفطية والسلع الإستهلاكية الغالية والتضخم

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٦/٢/٦
(٢) د. سعد الدين إبراهيم – النظام الإجتماعى العربى الجديد – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٢

المرتفع .. فضلا عن أساليب الحياة الغربية .. وعلى الرغم من النجاحات الباهرة التى أحرزتها هذة الفتاة فى الإمتحانات .. إلا أنها تجد نفسها مهزوزة وغريبة بل تكاد تكون تافهة وسط عالم حضرى لا مجال فيه للفرد وللذات .. لهذا فهى تتعلق بـ .. تراث يبدو وكأنه يحميها من المجهول ويعيد تأكيد وجودها وشخصيتها .

.. إنتهت الشهادة .

وهناك شهادات أخرى كثيرة ومماثلة يمكن إختصارها فى أن الحجاب بشكل عام لم يوضع على الرأس بسبب الفقر .. نعم كان الواقع الإقتصادى المؤلم أحد العوامل .. لكن كان هناك الخوف أيضا .. الخوف من الحرية .. من تلك الحياة الأخرى والبدائل التى طرحت نفسها أمام البنت المصرية منذ أواخر السبعينات وحتى اليوم .. ولست أقصد مطلقا أن الخيار الوحيد الذى تبقى أمام أية فتاة مصرية كان .. إما الحجاب وإما الرقص .. فهذا من قبيل العبث واللغو الساذج .. ولست أقصد أيضا أن كل من تغطت بحجاب قد إختارت الله وحده .. ولا كل من دخلت صالة رقص قد رفضت الله نهائيا وإختارت الشيطان صديقا وحليفا .. وإنما تحول الحجاب أو الذهاب إلى صالة للرقص إلى أقصى حدود ممكنة لإختيارات أية فتاة داخل المؤسسة الإجتماعية المصرية .. بمعنى أن الفتاة – حين تتعرض لضغوط وتجربة الحياة التى تبدلت وتغيرت كثيرا فى مصر منذ السبعينات – لا يعود أمامها إلا أن تحتمى بالحجاب من دنياها ومن عالم صاخب معجون بالتوتر والفوضى والإثارة .. أو تشتهى الإقتراب من ذلك البحر الصاخب دون أن تلمس قدماها الماء .. أما ما هو أبعد من ذلك فهو ما يندرج تحت خانة التطرف .. التطرف بالحجاب كالإنضمام إلى إحدى الجماعات المتشددة وتأييدها .. أو التطرف ضد الحجاب والدين والإلتزام وممارسة ما هو أكثر من مجرد الذهاب والرؤية وإختيار النزول إلى البحر إضطرارا أو مع سبق الإصرار والترصد .

وما بين أولئك وهؤلاء .. تاهت كل الحقائق .. أو غابت وتوارت خلف ضباب كثيف ومعتم .. أو لم تغب ولكننا نحن الذين تعمدنا ألا نراها وألا نعرف أى شئ عن أية فتاة فى مصر .. لا نعرف الذى تفكر فيه هذة الفتاة أو تحلم به أو تخاف منه .. وأهم من ذلك كله أن لم يعد بوسعنا أن نقيس مساحة الجنس – بهمومه ومخاوفه وقضاياه – تحت جلد أية الفتاة لنعرف كيف يمكن للجنس أن يؤثر عليها وفى حياتها وإلى أين يمكن أن يقودها حين تعيش أيام صباها وشبابها وسنوات عمرها فى بلد تحاصرها إثارة دائمة ويصب فيها بلا توقف طوفان التغيير المجنون والمحموم مع زواج تحول غالبا إلى مشروع مؤجل .

من أجل ذلك كله أصبح علينا اليوم أن نعرف .. أو على الأقل نحاول أن نعرف الكثير عن العلاقة بين الفتاة وبين جسدها ورغباتها وشهواتها .. بينها وبين الجنس .. أصبح علينا أن نتغير مثلما تغيرت بنا بلدنا وحياتنا كلها .. فلم يعد يليق بنا أن نجنح للكتمان والجهل لنحمى فتياتنا .. فقد حاولنا ذلك فى الماضى كثيرا .. وأجبرنا كل فتاة أن تمشى فى طريقها معصوبة العينين من مهدها وحتى باب زوجها .. لم نغط عينيها فقط وإنما جئنا بحجاب للرأس وحجاب آخر للروح .. وأتينا بالحبرة لتغطى الجسم وحبرة أخرى لتغطى النفس والروح والوجدان .. خفنا عليها وكأننا نخاف منها .. وإمتلكتنا طول الوقت قناعة أن البنت التى لا تعرف عن الجنس شيئا فلن تمارسه مطلقا ولن تخطئ أبدا .. كأننا نتعلم الرغبة والشهوة ولسنا نولد بها .. كأننا نتلقى دروس

الفضيلة والخطيئة ولسنا نجئ إلى الدنيا نحملهما معنا تحت جلدنا وفي أعماقنا .. فتركنا كل فتاة وحدها خلف الف سور عال ومنعناها أن تسأل أو تقرأ أو تعرف أو تفهم .. وتركناها ليست تملك إلا أن تنتظر .. إنها تنتظر جسدها حتى يكبر .. وصدرها حتى يستدير .. ودورتها الشهرية حتى تأتى .. ورغباتها حتى تشتعل .. وحتى حين حاول البعض منا أن يهدم ولو القليل من هذة الأسوار .. رفضناه وحاربناه .. وإلى حد أن ذهب سليمان متولى وزير النقل والمواصلات (١) إلى مجلس الوزراء يشكو من رواية القلوب البيضاء التى تنشرها مجلة روز اليوسف لأن بها بعض المشاهد الجنسية .. وقد إكتشف الوزير أن إبنته تقرأ فى تلك المجلة هذة المشاهد التى إعتبرها الوزير إباحية صارخة تخدش حياء البنات بل والحياء العام أيضا .. فإهتم كمال حسن على رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الوقت بالشكوى وطالب فتحى غانم رئيس التحرير بوقف نشر الرواية .. لكن فتحي غانم رفض طلب رئيس الوزراء بوقف النشر وتوصل الإثنان إلى حل وسط هو أن تنشر المجلة باقى فصول الرواية ولكن بعد حذف أية مشاهد جنسية .

هذة مجرد حكاية من الف .. أو عشرة الاف حكاية.. تختلف وقائعها وتفاصيلها ولا تتشابه إلا فى معناها .. ألا تعرف بناتنا أى شئ عن أنفسهن وأجسادهن ورغباتهن .. ومع أن ذلك الجهل – فى عصر كهذا الذى نعيشه ونعرفه – بات مستحيلا .. إلا أن كثيرين منا لا يزالون على نفس قناعاتهم القديمة .. أما القليلون .. فهم الذين حاولوا أن يعرفوا إلى أين يمكن أن يقودنا كل ذلك .. ومن هؤلاء القليلين كان الدكتور جمال شفيق .. مدرس علم النفس بمعهد الدراسات العليا للطفولة .. والذى أعد أول دراسة من نوعها فى مصر – وفى كل الوطن العربى على الإطلاق – عن العلاقة بين الفتاة والجنس (٢) .. وفى تلك الدراسة إكتشف الدكتور جمال شفيق أن ٤٧,٩٪ من فتيات المدن و٢٩٪ من فتيات الريف يعتبرن الجنس – حتى بين الزوجين – عملا لا أخلاقيا أو أن الجنس والأخلاق متناقضان تماما .. وأن ٣٠٪ من فتيات المدن و١٦,٢٪ من فتيات الريف يفضلن أن تمضى بهن الحياة حتى النهاية دون أى إضطرار لممارسة الجنس على الإطلاق لأن الحياة من وجهة نظرهن بدون الجنس تبدو أكثر إحتراما .. حياة جميلة وهادئة وخالية من المشاكل .. وأن ٢٤,٨٪ من فتيات المدن و١٤,٨٪ من فتيات الريف كلما فكرن فى الجنس أصابهن الخوف والخجل والإكتئاب والتعب والقلق والإحساس بعدم الإحترام .. وأن ٣٠٪ من فتيات المدينة و٢٠٪ من فتيات الريف يشوب معلوماتهن عن الجنس الخطأ والجهل والتشويش ومفاهيم مرضية خاطئة .. وأن ٢٣,٦٪ من فتيات المدن و١٥٪ من فتيات الريف يعتبرن ليلة الزفاف وكأنها ليلة للعذاب .. حفلة للموت .. والرعب .. والرهبة .. والألم العنيف .. ومعظمهن يردن أن يقتصر الأمر على إرتداء ثوب الزفاف فقط .. وإختتم الدكتور جمال شفيق دراسته بأكثر من توصية تدور كلها حول ضرورة محاربة كل هذا الجهل .. كل هذا الخوف .. كل هذا الإحساس الحاد بالرعب والتوتر والقلق والحيرة والعذاب .. ليس فقط من أجل ألا يكون الفشل نهاية لكثير من حكايات الزواج .. وإنما لكى تتوازن الفتاة وتستقر نفسيا وجسديا.

وهى كلها وصايا جديرة بالإحترام والإهتمام وإن لم تكن جديدة علينا .. فقد تركها لنا من

---

(١) الحكاية رواها الأديب يوسف القعيد فى جريدة العرب فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩١/١/٩

(٢) نشرت جريدة الجمهورية تفاصيل الدراسة فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٢/٥/٤ .. ثم أعادت مجلة نصف الدنيا نشر نفس التفاصيل مرة أخرى فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٢

قبل أكثر من طبيب وعالم وأستاذ جامعي .. لكن لا أحد يكترث أو يهتم أو حتى يخاف .. بل وأكاد أزعم أيضا أن كثيرين منا سيسعدون بقراءة نتائج تلك الدراسة وسينتابهم إحساس عميق بالأمان والإرتياح .. فها هي سياسة التعتيم والجهل قد أثمرت .. وها هن فتياتنا – اللواتى لم ندع لهن أية فرصة للفهم والمعرفة – أصبحن يكرهن الجنس ويخفن منه ومن ممارسته إلى حد رفض بعضهن للزواج أصلا حتى لا يضطررن إلى تلك الممارسة التى هى ضد الأخلاق والنقاء والفضيلة .. وليس كل ذلك صحيحا بكل أسف .. وليس هناك فى نتائج تلك الدراسة أو هذا الواقع الذى نعيشه ما يبعث على الإحساس بالأمان والإرتياح .. فأما أننا علمنا فتياتنا أن يخفن من الجنس .. نعم نجحنا فى ذلك .. لكن هل نجحنا فى أن نعلمهم كراهيته .. لا لم ننجح .. وأبدا لن ننجح .. وهناك أكثر من دليل على ذلك .. فالجنس ليس مادة للحب أو الكراهية .. إنما هو غريزة بأعماقنا قد ننجح في السيطرة عليها أحيانا ولا ننجح فى أحيان أخرى ولكننا نبقى طول الوقت عاجزين عن إستئصالها نهائيا فلا نشعر بها ولا نفكر فيها .. وكان نجيب يوسف بدوى فى دراسته المثيرة والهامة عن الإحتلام قد إكتشف إلى أى مدى يسكن الجنس ويستوطن أعماق فتياتنا (١) .. إكتشف أيضا كيف يمكن للفتاة أن تصل للنشوة الجنسية أثناء نومها وفى فراشها عن طريق أحلام تفيض بالشهوة .. وحيث أن تلك الأحلام لا يصاحبها خروج أى سائل – مثل الإحتلام عند الشباب – فإن كثيرا من الفتيات لا يعرفن بما جرى أثناء النوم .. ولكن كثيرا منهن يشاهدن فى أحلامهن ثعبانا أو عصا أو سكينا أو سيفا أو رمحا أو مفتاحا أو قلما أو مسدسا أو موزة أو رباطا للعنق .. وكلها رموز لقضيب الرجل مثلها مثل الديك أو القرد أو الفأر حين تحلم الفتاة بأحد هذه الحيوانات وهو يهاجمها فى شراسة وقسوة .. وفى المقابل هناك فتيات لا يأتيهن الجنس فى أحلامهن بالرموز والأقنعة والأسماء المستعارة .. إنما يأتى بشكل محدد وصريح ويزور الفتاة التى قد تستيقظ من نومها من فرط النشوة التى صاحبتها أثناء الحلم .. فيحكى لنا نجيب يوسف بدوى مثلا عن فتاة فى العشرين من عمرها .. لم تتعلم ولم تتزوج .. كانت تحلم بأنها إستكملت زينتها إستعدادا للذهاب لحضور فرح مقام على سطح البيت .. وهناك تعرفت على شاب وسيم أعجبت به وتحدثت معه طويلا إلى أن إختلى بها بعيدا عن الأنظار .. وهنا ينتهى الحلم وتفيق الفتاة على إحساس غامض بالنشوة .. ويتكرر هذا الحلم كثيرا ولكن بتفاصيل مختلفة تتفق مع طبيعة حياة الفتاة صاحبة الحلم وشخصيتها .. ولا ترتبط هذه الأحلام بسلوك منحرف أو حياة غير سوية على الإطلاق .. وإنما هى أحلام فتيات ملتزمات متمسكات بتعاليم الدين وتقاليد المجتمع .. وحتى إذا وقعت فتاة منهن فى الحب وإرتبطت بعلاقة عاطفية بريئة مع شاب .. فإنه من المستحيل أن ترى هذا الشاب فى هذا النوع من الأحلام .. وقد تبقى الفتاة تفكر فيمن تحبه ساعات طويلة قبل نومها .. فإذا ما إستسلمت للنوم وجاءتها مثل تلك الأحلام .. فإن الفتاة لا ترى فيها ولا تلتقى إلا بشاب آخر غير واضح أو محدد الملامح .

وإذا كانت كل هذه الأحلام دليلا على أننا أبدا لم نستأصل الجنس من أعماق فتياتنا .. فإن العادة السرية وممارستها .. دليل آخر على ذلك .. فليس من الضرورى أن تستجيب الفتاة لإلحاح الرغبة وهاجس الجنس حين يسيطر عليها بالخروج على القانون والسقوط الجنسى والأخلاقى ..

(١) نجيب يوسف بدوى – الإحتلام – مكتبة مصر – ١٩٨٨

بل يكفي أحيانا أن تغلق علي نفسها أي باب لتمارس عادتها السرية .. وإذا كانت ممارسة تلك العادة تبدأ في سن صغيرة بين الفتيات .. فإنه من الملاحظ أن ممارستها زادت مؤخرا بين صفوف كبار الفتيات أيضا .. أولئك اللواتي أنهين دراستهن بالفعل والتحقن بوظائف مختلفة أو بقين في بيوتهن .. ولست أملك دليلا علي ذلك إلا ما إستطعت أن أصل إليه بنفسي وبعد الإصغاء الطويل – غير المباشر أحيانا – لأكثر من فتاة ينتمين إلى مختلف الطبقات والمستويات الإجتماعية أو الثقافية أو الإقتصادية .. كلهن لم يشأن الإستسلام للرغبة أو تسليم أجسادهن للآخرين .. فلم يجدن حلا – مع حصار الشهوات والإثارة في الليل والنهار – إلا هذة العادة السرية .. وكلهن يصلن عن طريقها إلى قمة النشوة .. بعضهن فقط تمادين في ممارستها إلى حد إنتهاك غشاء بكارتهن وهن لا يدرين .. وهناك مآسي كثيرة عرفتها عيادات الأطباء والمستشفيات الخاصة وأزواج وآباء وكانت بطلاتها فتيات مستقيمات لكن فقدن عذريتهن نتيجة الممارسة العنيفة للعادة السرية .. ومع أن هذة الممارسة – سواء كانت معتدلة لا تخلف خسارة أو ضررا أو كانت متوحشة تمزق غشاء البكارة – تحولت كما أشرت إلى ظاهرة تتسع يوما بعد يوم .. إلا أن أحدا منا لم يمتلك جرأة مناقشتها بصوت عال اللهم إلا ضياء الدين بيبرس الذي تطرق إليها مرة أو مرتين في بابه الشهير جدا بإسم لو كنت مكاني .. وهو أيضا الذي نشر يوما رسالة [1] من فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها .. فتاة إعتادت ممارسة العادة السرية كثيرا وطويلا قبل أن يتناهى إلى أسماعها ما يقال عن غشاء البكارة وإحتمال فقدانه .. ولم تجد من تسأله لتعرف وتطمئن وتستريح .. فكتبت إلى ضياء الدين بيبرس عن مواجعها وهمومها ومخاوفها .

وإذا كانت هذه الفتاة قد إضطرت للكتابة نتيجة خوفها من النهاية .. فإنها لم تكن مضطرة للحديث عن البداية ولم تشر إليها مطلقا .. لكنهن كثيرات أولئك الفتيات اللواتى إعترفن بأن البداية كانت دوما بمساعدة الصديقات .. صحيح أن هناك من إكتشفن هذا الطريق السرى إلى النشوة بمفردهن وبمحض الصدفة .. إلا أن الغالبية هن فتيات قادتهن نصائح وإرشادات الأخريات .. فاللقاءات والجلسات الخاصة التي تجمع بين الصديقات .. يندر ألا يدور فيها حديث قصير أو طويل عن الجنس .. بل ويشير الدكتور فؤاد زكريا [2] إلى أن الأمر لا يقتصر على مجرد حكايات أو نكات جنسية وعارية تتبادلها الفتيات .. وإنما هناك إتصالات جنسية بينهن تكاد تكون ظاهرة عامة أكثر إنتشارا مما قد نتوهم .. وما لم يقله الدكتور فؤاد زكريا هو أن مثل هذه العلاقات الجنسية السرية ليست قاصرة فقط على فتيات مصر .. وإنما هي ظاهرة عالمية تعرفها كل بلاد الدنيا وفتياتها .. الفارق الوحيد هو أن فتيات أوروبا على سبيل المثال يبحن بتلك العلاقات .. وينتقلن بها من خانة الصداقة إلى خندق الشذوذ النفسي والجنسي .. فتعيش الفتيات معا .. تعرف كل منهن كيف تلبي شهوات زميلتها وصديقتها دونما حاجة لرجل أو شاب يقوم بتلك المهمة .. أما العلاقة الجنسية بين فتيات مصر فلا تزيد في معظم الأحيان عن تبادل الخبرات والحكايات والأحلام والتجارب والمغامرات .. مثل قيام الفتاة بخلع ثيابها أمام صديقتها لتكشف عن جسدها .. أو تمد يديها لتتحسس ثدى صديقتها وتجرى بينهما مقارنات لا تنتهي ولا تتوقف

(١) مجلة أكتوبر – عدد ١٨/٤/١٩٩٣

(٢) د. فؤاد زكريا – سيكولوجية المرأة – مكتبة مصر – ١٩٨٤

حول الثدى والخصر والأرداف .. لكن يبقى الثدى هو محور إهتمام الفتيات أكثر من أى عضو أخر تمتلكه أجسادهن .. وليس هناك تفسير لذلك إلا هذا الإتفاق التاريخى والعالمى على إعتبار الثدى هو رمز للجنس والإثارة .. إتفاق تناولته بالدراسة والتحليل كتب كثيرة جدا وبأكثر من لغة منها – أو من أحدثها – كتاب للإنجليزية بريجيد ماكونفيل [١] تشرح فيه العلاقة بين المرأة أو الفتاة وبين ثديها .. وكيف يغدو الثدى هو أول ما تلتفت إليه الفتاة بمجرد أن ينضج وعيها الجنسى .. ولا تنساه بعد ذلك مطلقا .. وقد تسعد هذة الفتاة أو تستريح أو تستمتع حين تمد أصابعها تلمس ثديها وتتحسسه .. وهناك بالطبع أشكال أخرى تعبر بها أى فتاة عن مساحة الجنس داخلها .. فقد تكثر الفتاة من التقبيل والعناق [٢] كإشارة إلى نشاط جنسى بدأ يتململ من تجاهله وتناسيه .. أو قد تبدأ الفتاة تنشغل بمرآتها أكثر .. بشكل شعرها وطول رموشها وكسرات ثوبها وطلاء شفاهها وأظافرها .. وهى كلها أشكال مختلفة للتعبير عن إهتمام الفتاة بالجنس .. أشكال وأشياء قد نراها من الخارج وعلى أنها من توافه الأمور التى يسهل التغاضى عنها وعدم الإكتراث بها بينما قد تكون هذة التوافه هى البدائل الوحيدة المتاحة أمام الفتاة للتعبير عن رغبات تسكنها وشهوات بدأت تطاردها .. بدائل بدأت بعض الفتيات مؤخرا فى التمرد عليها .. إما لأن الشهوات التى أفرزها المجتمع المصرى فى سنواته الأخيرة باتت أكبر وأشرس وأقسى من أن تستعين الفتيات على مقاومتها بطلاء شفاة أو كسرات ثوب أو تبادل عناق وقبلات مع صديقات وشقيقات .. وإما نتيجة مساحة الحرية التى زادت وتضاعفت فكان لابد وأن تزيد وتتضاعف بدورها مساحة الحرية الجنسية أيضا .. وهو ما حدث بالفعل .. وزاد إلى حد مزعج أولئك الفتيات اللواتى مارسن حرية الجنس حتى آخر مدى .. صحيح أن تلك الحرية العارية جدا بدأ الغرب يعرفها ويمارسها قبلنا بوقت طويل وإلى الحد الذى دفع بمفكر أوروبى للتأكيد [٣] على أن عاهرات أوروبا لم يعد لهن أى دور أو فرصة فى تزويد الشباب هناك بحقائق وأسرار الجنس وخباياه .. إلا أننا لحقنا بالغرب فى النهاية .. ولنفس الأسباب لا فرق هناك بين غرب أو شرق .. فمنذ أن عرف العالم حبوب منع الحمل بعد أن إخترعها الأمريكيان جريجورى بنكوس وجون روك [٤] فى عام ١٩٥٤ .. وهناك الف مارد خرجوا نهائيا من قماقمهم .. فهذة الحبوب غيرت الخريطة الجنسية للعالم وأعادت رسمها من جديد .. لكنها لم تكن وحدها .. كانت هناك عوامل وأسباب أخرى .. منها ما تشاركنا فيه وتقاسمناه مع الغرب والعالم من حولنا .. ومنها ما كان خاصا بنا وحدنا وبفتياتنا هنا فى مصر .. فأما الذى تشاركنا فيه وتقاسمناه مع العالم فهو الذى يمكن إختصاره بذلك الإنقلاب الضخم [٥] الذى غير من الدور التقليدى الذى لم تكن الفتيات يعرفن غيره .. فأصبحن أكثر نشاطا .. أكثر تمردا .. أكثر جرأة أيضا وقدرة على الإغراء .. ثم أن هؤلاء الفتيات خرجن بعد ذلك إلى تلك الآفاق الرحبة وإلى هذا العالم الواسع وإكتشفن أنه عالم يسكنه

---

(١) بريجيد ماكونفيل – رسائل مختلطة .. الثدى فى حياتنا – بنجوين – لندن – ١٩٩٤

(٢) د. محمود هاشم الوردنى – مدخل إلى الطب النفسى وعلم النفس المرضى – دار الحوار – سوريا – ١٩٨٦

(٣) أ . س . كون – الجنس والثقافة – ترجمة منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٤) موسوعة المخترعات – المكتب المصرى الحديث – ١٩٨١

(٥) روبرت لابلان وجيرود لاقاج – البلوغ – ترجمة محمود نور الدين – منشورات عويدات – بيروت – ١٩٨٩

ويديره ويحكمه الرجال .. فكانت الإستعانة بالجنس (١) سلاحا أخيرا فى يد بعضهن للمقاومة والسيطرة والتأثير على الشباب والرجال .. وكان الجنس فى يد بعض آخر بمثابة معاهدة سلام تنهى حالة الصراع والمنافسة والحرب .. فإستسلمت فتيات إعتقادا (٢) بأن المتعة التى يقدمنها لرفاقهن ستحث هؤلاء الرفاق وتدفعهم لحماية الفتيات والتعامل معهن بشئ من العطف وكثير من الحنان .. هذا بالطبع غير كل تلك الدعاوى والآراء التى إنفجرت فى أوروبا كلها والولايات المتحدة أيضا بعد الحرب العالمية الثانية تطالب بإسقاط كل قيود الجنس وضوابطه بزعم أن الكبت الجنسي – سواء كان من نصيب الشباب أو الفتيات – يؤدى إلى قائمة طويلة من أمراض نفسية وعصبية .. وإما نتيجة فلسفة جديدة كان الفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل أحد أشهر دعاتها وهى الفلسفة التى تدعو للقضاء على عيوب ومشاكل الزواج عن طريق إتاحة الفرصة للصغار بممارسة الجنس والمعاشرة الزوجية دون زواج أو إرتباط حقيقى .. ثم كانت نظرية فيلسوف كبير وشهير هو وليم رايخ الذى صاغها فى كتاب بعنوان هجوم الأخلاق الجنسية إنتهى فيه إلى أن (٣) التحرر الجنسى هو الدواء الذى يحتاجه العالم ليشفى من كل شروره ومخاوفه وأوجاعه الجنسية .. وغنى عن الذكر أن كل تلك الحرية لم تقض على أية مشكلة أو أزمة جنسية ونفسية وعصبية .. ولا أصبح الزواج على الطريقة الغربية رحلة هادئة سعيدة وممتعة .. النتيجة الوحيدة والمؤكدة كانت عدم إحتفاظ معظم فتيات الغرب ببكارتهن .. وإذا كانت أوروبا قد شهدت فى عصر نهضتها (٤) أحد كبار الأساقفة يدعو لإقامة تمثال لفتاة إنتحرت غرقا بعد أن فقدت غشاء بكارتها .. فإن التى تستحق اليوم فى أوروبا تمثالا يخلد ذكراها هى الديانة المسيحية نفسها التى كانت تطالب كل فتاة بالإحتفاظ ببكارتها لزوجها أو للمسيح إذا أمكنها العيش حتى النهاية دون زواج أو أية ممارسة للجنس على الإطلاق .. مثلها مثل الديانة اليهودية التى طالبت كل فتاة بالإحتفاظ بعذريتها حتى الزواج .. بل – ووفقا للتوراة – كان غشاء البكارة(٥) هو الدليل على طهارة الفتاة جنسيا وأخلاقيا .

اليوم .. ونتيجة كل تلك الدعاوى والآراء والعوامل .. لم تعد هناك فتاة غربية على إستعداد لأن تحتفظ بغشاء بكارتها من أجل المسيح ولا حتى من أجل زوجها .. ولا عاد غشاء البكارة نفسه دليلا أو مقياسا على طهارة جسد وأخلاق أية فتاة .. بل إنه لم تعد له أية قيمة أو ضرورة أصلا .. وهذا هو ما دفع بأحد إستوديوهات هوليوود لتقديم فيلم شاهدته مصر سرا منذ سنوات وكان بعنوان .. آخر فتاة أمريكية عذراء .. وبالطبع إنتهى الفيلم بهذة الفتاة الأخيرة وقد فقدت هى الأخرى بدورها بكارتها وعذريتها .. وأنا لست أريد إتهام أحد برغبته فى أن تجرى مصر فى طريق سبقتها إليه دول الغرب وتعيد تجربة أوروبا والولايات المتحدة التى ثبت فشلها ولم تكن حريتها الجنسية دواء أو نهاية لأى وجع أو أزمة .. ولكننى مع ذلك لا أخشى ولا أتردد فى أن أشير إلى أننا مرشحون لمصير ومستقبل محفوف بالمخاوف والمواجع .. فبالإضافة إلى كل ما

(١) د. سامية الساعاتي – الجريمة والمجتمع – دار النهضة العربية – ١٩٨٣
(٢) جرمين جرير – المرأة المدجنة – ترجمة هنرييت عبودى – دار الطليعة – بيروت – ١٩٨١
(٣) هربرت ماركيوز – الحب والحضارة – ترجمة مطاع الصفدى – دار الآداب – بيروت – ١٩٧٠
(٤) وول ديورانت – قصة الحضارة – ترجمة محمد بدران – لجنة التأليف والترجمة والنشر – جامعة الدول العربية – ١٩٦٧
(٥) د. صموئيل حبيب – المرأة فى الكنيسة والمجتمع – دار الثقافة – ١٩٨٨

تشاركنا فيه وتقاسمناه مع الغرب والعالم من أسباب وعوامل غيرت من شكل الحياة والمجتمع والجنس .. وبالإضافة إلى تلك الدعاوى التى إنطلقت هنا فى مصر تطالب بالحرية الجنسية وتخفيف كثير أو قليل من قيود فتياتنا .. كانت هناك عوامل وأسباب خاصة بنا هى التى تجعل الخوف فى مصر وعلى مصر وعلى بكارة مصر إحتمالا مشروعا وممكنا وقائما .

وتقتضى الضرورة قبل مناقشة تلك العوامل والأسباب .. أن نلتفت للفتاة المصرية نفسها .. فهذة الفتاة التى سبق وأن أشرت إلى أننا لا نعرفها ولا نعرف أسرارها وخباياها وأحلامها وما يسكن قلبها وعقلها ووجدانها ومشاعرها .. وهذة الفتاة التى تعلمت الخوف من الجنس ولكنها فشلت فى إستئصال رغباته وغرائزه .. هذة الفتاة نفسها أصبحت هى الضحية الأولى لكل ما شهدته مصر من تحولات وإنقلابات إجتماعية وأخلاقية ونفسية .. وكم كان أمر يدعو للحزن وللخوف أن يقوم طبيب نفسي كبير مثل الدكتور أحمد عكاشة بدراسة طويلة أضاف إليها سابق خبراته العملية والعلمية فإنتهى [1] إلى أن سمات الفتاة المصرية اليوم هى .. عدم النضج العاطفى .. سرعة التغير والتأثر بالأحداث .. الميل إلى المبالغة والمواقف الدرامية الحادة .. الإهتمام بالمظهر الخارجى بدلا من الجوهر .. الإعتماد على الآخرين .. الإيمان بالخرافات كرفة العين والسحر .. عدم القدرة على التعبير اللغوى عن شكاواها وعذاباتها فتستعيض عن ذلك بقدرة هائلة على تجسيد تلك المعاناة النفسية فى صورة أوجاع والام وأمراض جسدية لا وجود حقيقى لها .. أما أهم سمة ذكرها الدكتور أحمد عكاشة فكانت هى ميل الفتاة المصرية الشديد إلى تجنيس ما هو غير جنسى .. وإسقاط الجنس على أى شئ حتى لو لم تحتمل الأشياء هذا الإسقاط الجنسى .

وقد يتخيل البعض أن تعارضا وتضاربا هناك بين ما توصل إليه الدكتور أحمد عكاشة حول ميل الفتاة لتجنيس ما هو غير جنسى .. وبين دراسة الدكتور جمال شفيق التى أكد بعدها أن الفتاة المصرية تخاف من الجنس .. وليس ذلك صحيحا .. فلا تعارض أو تضارب هناك بين الخوف من الجنس وبين تجنيس ما هو غير جنسى .. ففى واقع الأمر نحن ننشغل أكثر بما نخاف منه أكثر .. وكلما زادت مساحة الخوف داخلنا من شئ ما كلما زاد إرتباطنا بهذا الشئ أكثر .. وهذة الفتاة التى تخاف من الجنس .. يتحول الجنس داخلها ورغما عنها إلى هاجس دائم ومقلق .. إنها تخاف لأنها لا تعرف .. إذن سوف تعطى أذنيها لكل من يحدثها عنه ويبوح لها بالمزيد من أسراره .. إنها تخاف لأنهم صوروا لها الجنس وعلى أنه الغول الذى سوف يلتهمها .. إذن سوف تعيش تنتظر اللحظة التى تلتقى فيها بهذا الغول وستحاول طول الوقت أن تتخيله .. وهى أخيرا تخاف الجنس لأنهم أجبروها على أن تخاف .. إذن سوف تخفى دائما تحت جلدها عدم قناعتها المطلقة بهذا الخوف وستبقى فى إنتظار تجربتها الذاتية لتتشكل قناعتها عن كامل وعى وتجربة .

ومن قبيل الإدعاء بأن تلك الصورة عن العلاقة بين الفتاة المصرية وبين الجنس هى علاقة وليدة اليوم أو الأمس فقط .. وإنما هى علاقة قديمة وطويلة عاشت كثيرا قبل أن تتغير ملامح المجتمع والناس والدنيا فى مصر .. وحين جرى هذا التغيير وإكتمل .. بقيت نفس الصورة القديمة على حالها ولكن مع ثلاث إضافات أساسية ورئيسية .. الأولى كانت زيادة الوعى الجنسى وفك كثير من الطلاسم التى إعتدنا أن نحبس مارد الجنس داخلها وباتت الفتاة على إستعداد لأن تعرف

(١) د. أحمد عكاشة – ثقوب فى الضمير – دار الشروق – ١٩٩٣

الجنس وتفاصيله بصورة أكبر وأوضح .. والثانية كانت حالة أخلاقية وإعلامية عامة لم يعد معها الجنس هو ذلك الغول القابع هناك فى إنتظار كل فتاة .. أما الثالثة فكانت قيودا وموانعا كثيرة سقطت ولم يعد هناك ما يحول بين هذة الفتاة وبين أن تخرج لتلاقى هذا الغول فى منتصف الطريق ولو على سبيل المغامرة أو التجربة .

وأعتقد أن الدكتور صموئيل حبيب لم يخالفه الصواب حين أشار (١) إلى فتيات مارسن الجنس ليس رغبة فى الجنس ذاته وإنما بدافع المغامرة .. ولا إبتعد الدكتور محسن العرقان عن الحقيقة كثيرا حين أشار (٢) إلى عوامل جديدة منها العلاقة بين الحب والجنس .. وكيف يمكن التحايل بإسم الحب من أجل إقامة علاقة جنسية محرمة .. ومنها تأجيل سن الزواج حتى بلغ الثلاثين عاما بالنسبة لبعض الفتيات فكان لابد من الإستجابة لغرائز ملحة والرضاء بالقليل حتى إشعار آخر .

وفى مثل هذا المناخ .. لم تعد للبكارة سابق قيمتها أو معناها .. وباتت هناك فتيات كثيرات فى مصر على إستعداد للتنازل عنها دون زواج ودون مقابل إما بدافع المغامرة والتجربة .. وإما إعجابا بالحياة على الطريقة الغربية أو الرغبة فى ممارسة الحرية والإستمتاع بالحياة بلا حدود أو قيود .. خاصة وقد أصبح إسترداد غشاء البكارة من جديد بعد التنازل عنه أول مرة أمرا سهلا وممكنا فى مصر .. فالفتاة التى مارست الجنس متى شاءت وكيفما شاءت ولمختلف الأسباب والدوافع .. لم تعد تشعر بأية حيرة أو قلق أو خوف .. فبإمكانها الذهاب إلى عيادة طبيب وتسترد على يديه غشاء بكارتها مرة أخرى .. وقد مررت أنا شخصيا بمثل هذة التجربة كثيرا جدا حين كنت لا أزال أمارس الطب فى مستشفى كبير بأحد الأحياء الشعبية والشهيرة فى القاهرة .. وإعتدت أن تجئ فتاة من هؤلاء بين الحين والآخر تسألنى عما إذا كان ممكنا أن تسترد بكارتها وكم يتكلف ذلك .. وإذا كنت – مع زملاء كثيرين – قد رفضت هذا .. إلا أن كثيرين أيضا – زاد عددهم عاما بعد آخر – لم يكن لديهم القدرة على الرفض أو الإعتذار .. فعملية ترقيع الغشاء القديم ليست صعبة مطلقا .. ولا هى فى خطورة عمليات الإجهاض القاتلة أحيانا .. ومن الممكن إجراؤها فى أى مكان وتحت أية ظروف .. مجرد خيط يلملم بقايا الغشاء الذى مزقته ممارسة الجنس والحرية لتعود الفتاة بكرا من جديد .. كل هذا مقابل مائة وخمسين جنيها فى الأحياء الشعبية أو أربعمائة جنيها فى الأحياء الراقية .. هذا إذا كانت الفتاة تريد غشاء لا يصاحبها إلا يوما واحدا أو يومين فى خلالهما سيقوم زوج المستقبل بفض غشاء زوجته – البكر الرشيد – بمنتهى السعادة والثقة .. أما إذا كانت الفتاة تريد غشاء دائما – لأنها لا تعرف بالتحديد متى ستتزوج – يرتفع ثمن العملية مائة أو مائتى جنيها .. وبعيدا عن تجربتى الشخصية المتواضعة كطبيب سابق مارس مهنته فى أفقر وأغنى أحياء القاهرة .. ينقل لنا الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم (٣) بعضا من عبارات وحكايات عالم الدعارة والسقوط .. فعلى سبيل المثال أكدت له إحدى العاهرات أن .. العمليات اللى بتتعمل للنسوان علشان ترجع ليهم شرفهم على قفا مين يشيل .. قالت العاهرة أيضا .. آل بيقولوا الشرف لو راح ما يرجعش ..

---

(١) د. صموئيل حبيب – المرأة فى الكنيسة والمجتمع – دار الثقافة – ١٩٨٨
(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٠/٩/٦
(٣) د. عبدالله عبد الغنى غانم – البغايا والبغاء – المكتب الجامعى الحديث – ١٩٩٠

وحكت عاهرة أخرى عن ثرى عربى جاء إلى قوادة إسمها أم شطة وطلب منها ممارسة الجنس مع فتاة بكر .. فلم تنشغل أم شطة بالبحث عن واحدة من الأبكار والعذارى .. وإنما جاءت بعاهرة محترفة وذهبت بها إلى الطبيب الذى أعادها بنت بنوت وذهبت وأمتعت الثرى العربى وتقاسمت نقوده مع الطبيب وأم شطة .. ولابد وأن الطبيب سعد بحصته أيا كانت قيمتها .. فهى أولا وأخيرا نقود جاءت بدون جهد أو مشقة أو أدنى مخاطرة .. وهى نقود بات يحتاج إليها أو يفتش عنها كثير من أطباء شبان أصابهم اليأس والإحباط من مهنة لم تحتفظ إلا ببريقها الإجتماعى فقط وفقدت فى المقابل أية مزايا مادية أو إقتصادية كانت تتمتع بها فى الماضى .. ووجد الطبيب من هؤلاء نفسه وحيدا عاجزا عن مواجهة أعباء الحياة أو حتى أعباء المهنة نفسها والبالطو الأبيض .. فهو لا يزال يحتاج وسيبقى دائما يحتاج إلى مزيد من الدراسة والكتب .. وهو يحتاج إلى ثمن شقة كأى شاب وإلى عيادة كأى طبيب .. يحتاج إلى تكاليف زواج ويحتاج إلى ممارسة الحياة نفسها .. كل هذا وهو لا يجد فى يديه إلا مائة أو مائتى جنيها فى المتوسط كراتب شهرى .. فإذا إستجار بأحد مستوصفات المساجد والزوايا فلن يتقاضى إلا ستين قرشا أو جنيها على الأكثر مقابل كل مريض .. وإذا قرر العمل بإحدى المستشفيات الخاصة أقعده غياب الوساطة .. هذا مع التأكيد على أن خريجى كليات الطب فى مصر ليسوا جنسا آخرا من البشر .. ولا هم أصحاب رسالات مقدسة يضحون من أجلها بحياتهم وأعمارهم .. لكنهم بشر .. وشباب .. وجد بعضهم فى عمليات ترقيع غشاء البكارة خلاصا من كل هذة الأوجاع والأزمات والهموم .. ومع ذلك فأنا لا أقصد مطلقا أن التمس لهم مبررات وأعذار .. لكن أدينهم وأدين سلوكهم .بقدر ما أرفض أن يكونوا القرابين التى سيذبحها المجتمع من أجل أن يهدأ وأن يستريح .. هذا المجتمع الذى أعرف أنه سيسارع بتعليق هؤلاء على أقرب وأعلى مشنقة ثم يغلق عينيه حتى لا يرى النصف الآخر - الأكثر قسوة والأكثر خطورة - من تلك الصورة .. صورة هؤلاء الفتيات من كل الطبقات والفئات والنواحى واللواتى تسببن أولا فى رواج تجارة غشاء البكارة .. فكلما زاد عدد هؤلاء الفتيات كلما زاد عدد الأطباء وعدد العيادات .. وكلما زاد الضغط كلما زادت الأتعاب فتصبح مساحة الإغراء المادى أكبر وأصبحت مقاومتها أشد قسوة ومعاناة .

وحتى بدون هؤلاء الأطباء وعياداتهم وخطاياهم .. فالإنحلال يعشش أكثر ويتمدد يوما بعد آخر فى زوايانا .. وهناك فتيات بيننا اليوم لم يعدن فى إضطرار حتى لإجراء مثل تلك العملية وترقيع غشاء أو بكارة قديمة .. وإنما تذهب الفتاة منهن إلى ليلة عرسها وتحمل معها الموس تجرح به جسدها فى غفلة من العريس المنتشى بذكورته وفحولته والذى لا يعنيه إلا أن يرى بعض قطرات من دم تسيل فوق الفراش .. وأنا شخصيا أعرف أكثر من فتاة مارست حريتها بالشكل الذى كانت تتمناه وتفضله ثم تزوجت دون غشاء بكارة جديد .. ولكنها إستعانت بدم الفراخ مثلا خبأته فى كيس وضعته بين ساقيها ولم تفتحه إلا وزوج المستقبل يدخل قضيبه فى مهبلها وهو يعانى التوتر والتردد والخجل .. ونحن قطعا نحفظ كلنا بيت الشعر الذى يقول .. لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم .. لكن عذرنا أن بيت الشعر لم يحدد أى نوع من الدم وما إذا كان دم البكارة أم هو دم الإنسان أم من الممكن أن يكون دم الفراخ .. وعلى أية حال فلم نعد فى حاجة إلى كل هذة الدماء .. فقد تطور الأمر - مع بقاء الإلحاح على الحرية الجنسية والمناداة بها كحق للفتاة - لتكون هناك فتيات لا يكترثن أصلا بغشاء البكارة حتى

يحرصن على إسترداده فى حالة ضياعه .. وإنما يسايرن التطور والمدنية ويذهبن لأزواجهن فى ليلة العرس بدون أية بكارة .. وهن يفترضن أن أزواجهن على نفس الدرجة من الوعى والرقى والتقدم فلا يلقون بالا لكل مخلفات الزمن القديم ومن بينها بكارة العروس .. وحتى أولئك اللواتى لم يبلغن بعد مثل هذة الدرجة من التطور .. لا تحتاج كثيرات منهن إلى هذة الدماء ولا هن فى حاجة أصلا لغشاء بكارة جديد .. وإنما يمارسن الجنس بأسلوبه الشائع جدا فى مصر سواء بين صفوف الفقراء أو الأغنياء .. حيث كل شئ مباح ومسموح به إلا أن يدخل قضيب الشاب فى مهبل الفتاة .. ويستعيض الإثنان عن ذلك بإحتكاك عنيف بين القضيب وبين الشفرتين الخارجيتين فوق مهبل الفتاة .. وعلى الرغم من عدم دخول القضيب فى المهبل إلا أنه من الممكن أن يحدث الحمل .. فالحيوانات المنوية قادرة على الحركة .. قادرة أيضا على الحياة لثلاثة أيام .. ومن الممكن أن تتسلل تلك الحيوانات فى الدخول إلى مهبل الفتاة عن طريق الثقب الذى يخرج منه البول ودم الحيض .. وقد ينجح إحدى تلك الحيوانات فى تلقيح البويضة فيسفر ذلك عن جنين يبدأ يتكوم فى رحم الفتاة التى لا تزال عذراء .. إحتمال بعيد وصعب لكنه قابل للحدوث .. وقد حدث بالفعل .. ومنذ زمن طويل أيضا .. فالدكتورة نوال السعداوى مثلا تحدثت عن هذا النوع من الحمل فى بداية السبعينات .. وحكت لنا (١) حكاية فتاة عذراء ذهبت إليها فى عيادتها فإذ بالفتاة حامل منذ خمسة أشهر .. طالبة جامعية إعتادت ممارسة الجنس مع صديقها دون إدخال القضيب فى المهبل .. ورفضت الفتاة أن تجرى عملية إجهاض من المهبل .. ورفضت الدكتورة نوال السعداوى أن تجرى لها عملية الإجهاض عن طريق فتح بطنها ..فذهبت الفتاة إلى طبيب آخر أخرج لها جنينها من بطنها وبقيت عذراء حتى تزوجت كبكر رشيد من مهندس ناجح وأنجبت منه طفلين .

وتكررت مثل هذة الحكاية كثيرا بعد ذلك .. وعانت منها فتيات من مختلف الطبقات الإجتماعية والإقتصادية .. ففى مستشفى المطرية مثلا .. وضعت إحدى الفتيات العذراوات (٢) طفلا جاء نتيجة علاقة جنسية نصف كاملة مع عامل بأحد محلات درب البرابرة بالموسكى .. وفى مستشفى الزهراء بالعباسية وضعت فتاة فى الثالثة عشر من عمرها (٣) جنينها الذى جاء عبر علاقة نصف كاملة أيضا على السلم مع أحدهم .

صورة حزينة وقاتمة .

وأنا أعرف ذلك .. وأعترف بذلك .

لكننى أعرف أيضا أنها ليست صورة خيالية أو وهمية .. إنما هى بكل أسف صورة حقيقية شارك فى صناعتها ووضع لها رتوشها الأخيرة هذا المجتمع الذى ظل يطارد فتياته سنينا طويلة ويحاصرهن بالسلاسل والجهل والخوف .. ثم نزع السلاسل وأبقى على الجهل والخوف .. ثم لم يجد من يقنعه بأن الجهل ليس ساترا أو واقيا وأن الخوف لن يمنع من السقوط .

مجتمع تأخر فيه سن زواج الفتاة إلى حد لم تعرفه مصر من قبل .. حد أن يأتى عام ١٩٩٢

---

(١) د. نوال السعداوى – المرأة والجنس – الناشرون العرب – ١٩٧٢

(٢) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٤/٦/٤

(٣) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/١٢/٣

(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٣/١١/٢٩

فنجد خمسة وثلاثين بالمائة من فتيات مصر (٤) تخطين سن الثلاثين من العمر دون زواج .. بالإضافة إلى عشرين بالمائة من الفتيات لم يتزوجن إلا بعد أن تخطين سن الخامسة والثلاثين .. ومعظم هؤلاء اللواتى تأجلن زواجهن من المتعلمات والمثقفات .. خمسة وخمسون بالمائة منهن نلن درجتي الماجستير أو الدكتوراة .. وربعهن من خريجات الجامعة .. والباقيات إما يحملن شهادات دراسية متوسطة أو لم يكملن تعليمهن .. أى أننا أمام عدد هائل من الفتيات منعتهن ظروف حياتهن ومجتمعهن من الزواج وممارسة الجنس بشكل طبيعى .. وفي نفس الوقت متعلمات ومثقفات لهن وظائفهن وتطال أعينهن شاشات التليفزيون والسينما وصفحات المجلات والكتب ويعرفن كل هذا الذى يجرى فى العالم من حولهن .. يعرفن رغباتهن وحاجاتهن وحقوقهن فى ممارسة شرعية للجنس .. ومن المستحيل أن تذهب هؤلاء الفتيات إلى الحمامات الشعبية والتركية – كما كان يحدث في الماضى فى مصر – حيث البلانات فى هذة الحمامات يقمن بمعاينة أجساد الفتيات ويساعدهن فى العثور على زوج مناسب أو حتى غير مناسب .. من المستحيل أيضا أن تقتدى كل فتاة منهن بفتاة أخرى مختلفة ومصرية أيضا .. إسمها هويدا وحصلت على دبلوم التجاة وتعمل فى أحد محلات بيع الملابس الجاهزة وبلغت السابعة والعشرين من العمر دون أن يتقدم شاب واحد يطلب يدها للزواج .. فقررت هويدا أن تملك المال لعله يصبح دافعا لأن يأتى أحدهم ويقبل الزواج منها .. فبدأت (١) ترسل خطابات إلى الرئيس الأمريكى ورئيس الوزراء الإنجليزى وسكرتير عام الأمم المتحدة تطلب منهم جميعا مساعدتها ماليا ببضعة الاف من الدولارات .. وبالطبع لم يكترث أحد من هؤلاء بالرد عليها بإستثناء البنك الدولى الذى أرسل خطابا إلى وزارة التعاون الدولى يرجوها إبلاغ الفتاة بأنه ليس من مهام البنك تقديم قروض للفتيات من أجل إتمام زواجهن .. وأخيرا .. كان من المستحيل أيضا وأيضا على كل فتاة لم تتزوج أن تقنع بأحلام مليئة بالرغبة ومفعمة بالنشوى أو بعادة سرية أو لمسات أصابع فوق الثدى أو أى عضو آخر من أعضاء جسدها .. وإنما قد تسقط مثلما سقطت فتاة (٢) .. نشأت وحيدة والديها .. أبوها يعاملها بإنضباط ويحارب فيها أية ميوعة وتعنفها أمها لو تعرى جسدها لأى سبب حتى وإن كانت نائمة .. وواصلت الفتاة تعليمها وحياتها الهادئة والمنضبطة .. نالت شهادة البكالوريوس دون أن تتورط طيلة سنوات الجامعة فى أية علاقة حب مع أى شاب أو زميل .. مات أبوها ثم ماتت أمها وبقيت هى تواصل تعليمها حتى نالت الماجستير دون أن تسنح لها فرصة زواج أو يطلب الإرتباط بها أحد .. حتى تصادقت أخيرا مع زميل لها يشاركها مرحلة الدراسات العليا .. وإنتهت تلك الصداقة بأن جاء الزميل يزورها فى بيتها .. وجلست أمامه تنتابها الف فكرة والف سؤال .. على وجهها حمرة الخجل وفى أعماقها قسوة الوحشة والوحدة والعنوسة والرغبة .. وما إن مد الصديق يده يعبث بشعرها .. حتى كانت قد فقدت تماما أية قدرة على المقاومة .. فخلعت ملابسها وتعرت وأسلمت له جسدها يفعل به ما يشاء وكأنها تروى ظمأ عمر طويل .

أما هناء .. فهى فتاة أخرى .. أيضا مضى بها العمر حتى تخرجت من الجامعة وإلتحقت

---

(١) جريدة العربى – عدد ١٩٩٣/٨/٩

(٢) جريدة الخضر – عدد ١٩٩٤/٧/٣

(٣) جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٣/٦/٢٠

بإحدى الوظائف دون أن تتزوج .. ودلتها صديقاتها وقريباتها على الشيخ حسن [٢] الذى إشتهر بقدرته على مساعدة الصبايا على العثور على زوج مناسب قبل أن يتسرب العمر بين أصابعهن .. وجاء الشيخ حسن بالفعل إلى بيت هناء .. إلى غرفة النوم بالتحديد ليطرد منها الشياطين .. وطالت زيارة الشيخ حسن لغرفة هناء .. أما هناء نفسها فقد راحت فى غيبوبة طويلة علمت حين أفاقت منها أنها كانت ضحية حادثة إغتصاب .. ثم تبين للجميع فى قسم باب شرق بالإسكندرية أن الشيخ حسن ما هو إلا حسن السيد مدير مجمع إستهلاكى بالحضرة .. وأن إستغلال الفتيات الباحثات عن الزواج هو هوايته المفضلة .. وأن هناء ليست أولى ضحاياه وكان من الممكن أيضا ألا تكون آخرهن .. ولم يكن الشيخ حسن هو أول أو آخر هؤلاء المشعوذين والدجالين الذين لعبوا على حبال الأمل فى الزواج للعبث بأجساد الفتيات .. وإنما هى حكايات كثيرة عارية ومخجلة ومثيرة للدهشة وللإشمئزاز أيضا بقدر ما هى مثيرة للحزن والشفقة لهؤلاء اللواتى تمضى بهن أيامهن سراعا دون أن يطرق بابهن أى رجل .. ويكفى لأن نتفهم أحاسيس ومشاعر هؤلاء الفتيات أن نقرأ مثلا بحثا رصينا وجديرا بالإهتمام قام به الدكتور على السلام على بجامعة الزقازيق والدكتور محمد عاطف زعتر بجامعة بنها عن تأخر سن الزواج [١] وكيف ينتهى بالفتاة التى تأخر زواجها إلى أن تشعر بالإغتراب الذاتى الذى هو عجز الإنسان عن التوفيق بين رغباته ومطالبه وبين الواقع والمجتمع الذى يعيش فيه .. ومن الممكن أن تصاب الفتاة أيضا بالقلق العصابى نتيجة عدم إشباع رغباتها الجنسية .. والقلق العصابى كما يعرفه علم النفس هو .. حالة إنفعالية مركبة .. وتوتر شامل ودائم .. وخيالات بدائية تغزو العقل وتؤثر على التفكير .

وأعتقد أنه .. بعد تلك الشهادة العلمية المحايدة .. وبعد أن باتت هناك بيننا فتيات كثيرات ينتظرن سنوات طويلة قبل إتمام زواجهن .. لم يعد يليق بنا أن نتمادى فى إختراع الدهشة وإدعاء المفاجأة الكاملة كلما أحاطنا الواقع علما بزيادة عدد الفتيات اللواتى يمارسن الجنس خارج مؤسسة الزواج .. وليس الأمر قاصرا على هؤلاء الفتيات فقط .. وإنما – وعلى الناحية الأخرى من بحر هموم الواقع والحياة – تصدمنا فتيات من نوع آخر .. لم يتأخر زواجهن هذه المرة .. وإنما تزوجن مبكرا جدا .. تزوجن حتى قبل أن تكتمل أنوثتهن وتنطلق الرغبات من عقالها .. فماجدة تزوجت وأقامت فى مقابر اليهود وهى لا تزال فى الحادية عشرة من العمر .. ونعمة تزوجت فى الزيتون [٢] وهى لا تزال فى الثالثة عشرة من العمر .. أما حياة .. فلم تكن سوى طفلة فى الثامنة من عمرها حين تم زفافها [٣] إلى رجب الذى تجاوز الواحدة والثلاثين من العمر وأقام الإثنان فى عش الزوجية فى إسطبل عنتر على مشارف صحراء حلوان .. طفلة فى الثامنة إشترى لها زوجها ملابس داخلية جديدة وقمصان نوم حمراء عارية وأجبرها على المعاشرة الجنسية الكاملة كأى زوج وزوجة .. وأثبت الطب الشرعى فيما بعد أن الطفلة فقدت عذريتها تماما .. وتبين من خلال تحقيقات النيابة أن الزوج أجبر زوجته – أو طفلته – على معاشرته بالقوة وتحت ضغط شديد .. وحتى لا يتخيل أحد أننا أمام ظاهرة إستثنائية شاذة .. وأن هؤلاء الفتيات اللواتى إغتال الزواج المبكر براءتهن وطفولتهن .. تصدمنا جريدة الأهرام [٤] بالحقيقة .. حقيقة أن

(١) مجلة علم النفس – عدد ١٩٩٢/٧

(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٨/١٥

(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٦/١٠

(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٩/٩/٣

أربعة وثلاثين بالمائة من فتيات مصر يتزوجن قبل السن القانونية للزواج فى مصر .. أو بعبارة أخرى .. حقيقة أن أربعة وثلاثين بالمائة من فتيات مصر يتزوجن قبل إتمام السادسة عشرة من أعمارهن .. وهذة هى النسبة العامة والتى ترتفع إذا إقتصر الحديث عن الريف والصعيد فقط فتزيد إلى إثنتين وأربعين بالمائة .. وإذا كانت جريدة الأهرام قد أشارت فى نفس التحقيق إلى مستقبل هؤلاء الزوجات بأنه الطلاق غالبا أو الموت أحيانا نتيجة الحمل والولادة فى مثل هذة السن .. أو الإنتحار كخلاص من تلك الحياة ومن هذا العذاب مثلما إنتحرت رسمية [1] التى كانت فى الخامسة عشر من عمرها .. ولم تحتمل كل هذا الذى جرى لها بعد زواجها فى عزبة الهجانة على مشارف القاهرة .. فأشعلت فى نفسها النار وبقيت تصرخ حتى ماتت .. إلا أن أحدا لم يتحدث عن ثمن كل ذلك بعيدا عن الطلاق أو الموت أو الإنتحار .. لم يتحدث أحد عن الجنس .. عن الإنحلال الذى توافرت أسبابه وتضخمت دوافعه تحت جلد كثير من هؤلاء الفتيات .. اللواتى إلتقين بالجنس مبكرا .. وتعرضن للإغتصاب غالبا .. وأحسسن بالظلم والإضطهاد والمرارة .. ووجدن المجتمع لا يحترم دينا أو قانونا ولا يلتزم بشئ .. فكانت رحلة الإنتقام أو الضياع أو البحث عن حياة أخرى أقل عذابا وإيلاما وفقرا أو رحلة للبحث عن الحياة نفسها مرة أخرى .. ومرة أخرى أؤكد أن المشكلة – على الرغم من ذلك كله – ليست قاصرة على من تتزوج مبكرا جدا أو متأخرا جدا أو لا تتزوج على الإطلاق .. وإنما تفاجئنا مشاكل أخرى تخص هؤلاء الفتيات اللواتى لم تتطرف بهن حياتهن وظروفهن فلا هن عرفن الإغتصاب وقسوة الجنس وممارسته فى أجمل سنوات العمر وأكثرها براءة .. ولا هن عرفن قسوة الحياة بلا جنس ولا زواج ولا أمل أو وعد بتأسيس بيت وأسرة وحياة جديدة .. ولكنهن فتيات يفقدن بكارتهن أيام الخطوبة قبل الزواج حين تنجح كل فتاة منهن فى إقناع نفسها بأنها إنما تسلم نفسها وجسدها إلى خطيبها الذى هو زوج المستقبل .. ثم تكتشف – ومتأخرا جدا كالعادة – بأن الشاب الذى أعطته كل ما أراد لم يعد راغبا فيها أو فى إتمام زواجه منها .. ومن هؤلاء كانت إحدى الموظفات بأحد الفنادق [2] والتى نال منها خطيبها وزميلها كل شئ ثم فوجئت به الفتاة فى الكوشة يبدأ رحلة زواجه من فتاة أخرى .. أو فتيات ترفض عائلاتهن تزويجهن بمن أردن أو أحببن سواء بدعوى فقر الشاب أو بزعم البحث عن عريس أفضل من الناحية الإجتماعية والإقتصادية .. ومع أن المثل الشعبى المصرى القديم يقول .. إن كان بدك تصون العرض وتلمه جوز البنت اللى عينها منه .. ومع أن رفاعة الطهطاوى سبق وحسم هذة القضية منذ زمن طويل فقال[3] فى عام ١٨٧٣ أنه من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه .. ومع أن عمر بن الخطاب مثلا قال لنا [4] .. لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ما تحبون .. إلا أن عائلات كثيرة ترفض الإصغاء لذلك .. وترفض أى حوار هادئ مع الفتاة .. وقد تنجح العائلة فى إجبار الفتاة على الزواج من هذا الرجل الثرى .. زواج ينتهى أحيانا – أو غالبا – بالفشل الذى له أكثر من صورة مثل السقوط والخيانة أو قتل الزوج أو ذهاب الفتاة لتقضى بقية عمرها فى إحدى المصحات

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٣/١٢
(٢) جريدة الأخبار – عدد ١٩٩٢/١٠/٢٤
(٣) د. سيد عويس – نظرات باحث علمى إجتماعى مصرى – الكتاب الذهبى – روز اليوسف – ١٩٨٨
(٤) محمد بن أحمد التيجانى – تحفة العروس ومتعة النفوس – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢

العقلية .. وفى المقابل قد تنجح الفتاة فى مقاومة عائلتها ويشتد إصرارها على رفض الزواج والإرتباط بأى رجل غير الشاب الذى تحبه .. إصرار إلى حد الزواج العرفى ممن تحب .. وكان أن إختارت فتيات كثيرات هذا الزواج أو إضطررن إليه .. فكان أن إنتشرت فى مصر [١] ظاهرة - أو كارثة - الزواج العرفى .

وهكذا .. وبفتيات مارسن الحرية حتى النهاية .. وفتيات أصبحن لا يكترثن بشئ ولا يخفن من شئ ولا حتى ضياع غشاء البكارة .. وفتيات تأخر سن زواجهن أو تزوجن مبكرا جدا .. وفتيات رضين بزواج عرفى فى العتمة ووقفن وحدهن فى وجه الناس والمجتمع .. بكل هؤلاء وغيرهن كان من الضرورى أن تبقى الدعارة فى مصر على سابق رواجها وإزدهارها .. رواج وإزدهار لا تعترف بهما وزارة الداخلية [٢] مع أن أحدا لا يوجه لها أو لرجالها أية إتهامات .. وأيضا رواج وإزدهار لم تبشرنا بهما الدكتورة نوال السعداوى حين أكدت لنا أنه [٣] كلما تحررت النساء وتمت مساواتهن بالرجال كلما قل عدد الممارسات منهن للدعارة .. ومن الواضح أن الوزارة لا ترى حياتنا وواقعنا إلا من خلال أوراق رسمية ومحاضر الشرطة وأن الدكتورة نوال السعداوى لا يشغلها شئ قدر المساواة بين المرأة والرجل مهما كان الثمن والمقابل أو كانت النتائج .. إذ أن الحقيقة التى نخرج بها من تأمل هذا الواقع الذى نسكنه معا - بعيدا عن الوزارة وتقاريرها وكتابات الدكتورة نوال السعداوى وشركائها - هى أن الدعارة المصرية تعيش اليوم بالفعل واحدا من أزهى عصورها رواجا وإزدهارا .. ولم يكن هذا الرواج والإزدهار هما المشكلة .. المشكلة الحقيقية كانت طبيعة ونوع العاهرات فى مصر اليوم والأسباب التى دفعتهن - ولا تزال - لأن تخلعن ملابسهن وتمارسن الخطيئة مقابل كثير أو قليل من المال .. فلم تعد عاهرات اليوم هن الخادمات والعاملات وفتيات أضناهن الفقر والحرمان .. وإنما فتيات لم يعرفن الفقر ولا الحرمان .. طالبات فى الجامعة والمعاهد العليا وموظفات لا يعوزهن الأمان ولا الإستقرار وفتيات ينتمين إلى بيوت وعائلات تستعين بالله على قضاء حوائجها وترى الإلتزام الأخلاقى والإجتماعى طوق نجاتها من عثرات الأيام وهمومها وتحترم النظام والقانون ولا تنوى الخروج عليهما مطلقا .. وعلى سبيل المثال تصف لنا فريدة النقاش هذا التحول المؤلم الذى طرأ على سوق اللحم الرخيص فى مصر وتحكى لنا ما رأته فى سجن النساء أثناء إعتقالها وكيف لم تعد نزيلات السجن المتهمات فى قضايا الآداب والدعارة هن الفقيرات فقط .. وإنما [٤] كانت هناك فى السجن طالبات الجامعة .. وبنات الأسر المستورة أو الميسورة .. ومهندسة ديكور .. هذا غير سيدات وزوجات إحداهن خبيرة جيولوجية وأخرى زوجة لسفير مرموق وثالثة مديرة للعلاقات العامة بإحدى الشركات ورابعة تشغل درجة مدير عام فى وزارة هامة .. كلهن عاهرات .. وكلهن إنتهى بهن الطريق فى سجن النساء بالقناطر .. غير أن فريدة النقاش تواصل شهادتها وتضيف أن هؤلاء الفتيات والنساء العاهرات كن يتطلعن للحظة الخروج من السجن لا للتوبة أو للتراجع .. وإنما لمواصلة حياة الماضى الشهية والناعمة .. لا يعرفن أى معنى للخراب الروحى وإنتهاك القيم والأخلاق ..

---

(١) مجلة الشباب -عدد ١٩٩٣/٨

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٧/٢٠

(٣) د. نوال السعداوى - المرأة والجنس - الناشرون العرب - ١٩٧٢

(٤) فريدة النقاش - يوميات المدن المفتوحة - دار الثقافة الجديدة - ١٩٨٧

وإنما تقتصر جروحهن فقط على ما أصاب سمعتهن من أذى .

كانت هذة هى شهادة فريدة النقاش .. شهادة جاءت من واقع تجربة شخصية داخل جدران السجن .. شهادة جارحة ومؤلمة لكنها حقيقية وصادقة .. وأكدت حقيقتها ومصداقيتها رسالة ماجستير فى جامعة المنيا أثبت بها عبد الجواد محمد الكردوسى أن الحكاية لم تعد حكاية فقر وإحتياج .. ورسالة ماجستير أخرى فى جامعة الزقازيق أيضا نجحت صاحبتها سامية محمد صابر محمد فى أن تثبت (١) زيف أسطورة الحرمان وتواضع البيئة والنشأة كدوافع للدعارة وممارستها .. ثم توالت الدراسات والأبحاث التى كلها تشير إلى خلل إستشرى فى المجتمع .. خلل أخلاقى سمح لفتيات كثيرات بمثل هذا السقوط وهذا المصير .. ولست أقصد مطلقا بهذا الخلل أن تكون هناك عاهرات وبائعات للخطيئة والهوى فى مصر .. ففى كل عصور مصر منذ زمن الفراعنة كانت هناك دعارة وكانت هناك عاهرات يزيد عددهن أو ينقص من عصر لآخر وفقا لحالة المجتمع فى هذا العصر وصرامة إلتزاماته الدينية وقوانينه وعاداته الأخلاقية .. لكن لم تعش مصر هذا العصر الذى بلا دعارة ولا عاهرات مطلقا .. فهذا ضد العقل والمنطق وطبائع الناس والمجتمعات الإنسانية .. وكان هذا هو ما يعرفه عمرو بن العاص مثلا حين قام بفتح مصر وبدأ وجنوده يغرسون الإسلام على ضفاف نيلها .. فلم يقرر إستئصال الدعارة من أو فى مصر وإنما إكتفى (٢) بأوامر صريحة منه لجنوده بعدم الإتصال بالعاهرات .. وبقيت الدعارة قائمة فى مصر .. وبقى ملوك مصر يسمحون بها أو يحاربونها كلما تعرضت البلاد لأزمات ومواجع سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية .. وبإستثناء القرن السابع عشر الذى كان فيه الصوباشى رئيس الشرطة يقوم بمعاونة شيوخ العرصات بإحصاء عدد البغايا وتسجيل أسمائهن ليجمع منهن الضرائب .. فإن مصر لم تعرف البغاء الرسمى (٣) إلا فى زمن الحملة الفرنسية حين بنى الفرنسيون دورا خاصة للعاهرات فى غيط النوبى المجاور لحديقة الأزبكية .. ثم جاء الإنجليز ليصدر فى الحادى عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٨٢ أول منشور من نظارة الداخلية يجبر عاهرات مصر على الكشف الطبى أولا قبل السماح لهن بمزاولة مهنتهن .. ثم صدرت أول لائحة رسمية تنظم البغاء فى مصر عام ١٨٨٥ .. وجرى إستبدالها بلائحة جديدة بعد عام واحدة .. ثم لائحة ثالثة فى عام ١٩٠٥ وهى التى دام تطبيقها حتى كان قرار إلغاء البغاء الرسمى فى مصر عام ١٩٤٩ .

وهكذا .. كانت وبقيت الدعارة قائمة فى كل عصر .. قوانينها وعاداتها وأسرارها وأسماء عاهراتها وملامحهن تختلف من عصر إلى عصر إلا معنى واحد لم يتغير أو يتبدل مطلقا .. فالدعارة كانت مهنة إرتبطت بالفقر والحاجة وتواضع المستوى الإقتصادى والإجتماعى .. عرفنا ذلك من كتاب وصف مصر (٤) وكيف كانت العاهرات هن التعيسات والفقيرات اللواتى إضطررن لبيع أجسادهن .. وقرأنا بعض ذلك فى كثير من الكتب والروايات أيضا .. قرأنا مثلا كيف تحدث نجيب محفوظ عن عاهرات القاهرة فى زمن الحرب العالمية الثانية ووصفهن بأنهن .. الخادمات اللواتى هجرن المطابخ بعد أن تحولت هذة الحرب إلى فرصة طيبة لإكتشاف مواهبهن .. وقرأنا

(١) مجلة علم النفس – عدد ١٩٩٢/١٠
(٢) سلام خياط – البغاء عبر العصور – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢
(٣) د. محمد نيازى حتاتة – جرائم البغاء – مكتبة وهبة – ١٩٨٣
(٤) وصف مصر – علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – مكتبة الخانجى – ١٩٧٩
(٥) سيد قطب – المجتمع المصرى .. جذوره وآفاقه – إعداد وتقديم الآن روسيون – سينا للنشر – ١٩٩٤

أيضا ما كتبه سيد قطب (٥) فى الأربعينات عن البغاء وعن مدارس تخريج العاهرات التى هى الطفولة المشردة .. ومكاتب الخدمة فى البيوت .. والخدمة فى البنسيونات والفنادق .. ثم توقف سيد قطب طويلا عند الفقر الذى إعتبره أكبر مدرسة مصرية لتخريج العاهرات .. ولم يستثن سيد قطب من ذلك كله إلا هؤلاء العاهرات اللواتى إضطررن إلى الدعارة بعد أن سقطن ومارسن الخطيئة ثم خفن من مواجهة الأهل الذين لن يغفرون للفتاة مثل هذا السقوط مطلقا فتهرب الفتاة إلى أقرب ماخور .. لكن سيد قطب وضع هؤلاء كإستثناء من الصورة العامة للعاهرات فى مصر .. الصورة العامة التى تحدث عنها سيد قطب وعشرات الكتاب والمفكرين حيث أصبح إرتباط الدعارة بالفقر حقيقة لم يسئ أحد فهمها ولا إختلطت أمورها على أحد ولا عرفت مصر من قبل هذا الخلل الذى أصبحنا به نعانى ومنه نشكو اليوم .

وأعتقد أنه ليس فى صالحنا جميعا أن ننشغل بالإختلاف حول هذا الخلل ومساحته .. بعضنا يجتهد فى إثبات وجوده وبعضنا يجتهد أكثر لينكره وينفيه .. وننسى الخلل نفسه وضحاياه وأسبابه التى لا تزال قائمة تصطاد كثيرا من فتياتنا فتاة بعد أخرى ويوما بعد يوم .. أسباب كثيرة ومتعددة ومتباينة سواء كانت طبيعة حياتنا ومجتمعنا اليوم التى تدفع بفتياتنا إلى مثل هذا الطريق .. أو هذا الزمن الذى بات فيه الأب والأم يتاجران بعرضهما وبناتهما .. أو أصحاب تلك التجارة العارية وإختلاف طبيعة وملامح القوادين فى مصر اليوم .. أو القانون المصرى نفسه والذى أوكلنا إليه مهمة محاربة البغاء فإذ به أحد عوامل إنتشار البغاء والدعارة فى مصر .

فالحياة والمجتمع اليوم .. بكل تناقضاته وتجاوزاته وتفاوت طبقاته وسطوة المادة فيه وطغيانها على كثير من القيم .. أدت إلى أن يتراجع كثيرا ثمن الشرف والبكارة والجسد أمام مغريات حياة حلوة وناعمة تفيض بالثياب الجميلة ومستحضرات التجميل الغالية ورفاهية تسرق العقل والوجدان .. وكم كانت موجعة تلك الحملة التى قامت بها جريدة الأهرام (١) حول الحفلات الخاصة التى تستضيفها بيوت الأثرياء وتذهب إليها الفتيات يستسلمن طمعا فى تلك الثروة وتلك الرفاهية .. وغير الحفلات الخاصة كانت أضواء الفرق الفنية والإستعراضية تجذب كل يوم فتيات جدد سرعان ما يستسلم معظمهن لمطالب سوق اللحم الرخيص فى مصر وخارج مصر .. هذا غير البلطجية وسماسرة الجنس الذين زاد عددهم مؤخرا ولم ينقصهم الذكاء ليعرفوا كيف غدت فتيات كثيرات تهفو نفوسهن لحياة أخرى فأجادوا إستغلال كل هذا ونجحوا فى ذلك تماما وأسلموا لماكينة الجنس التى لم تعد تهدأ أو تتوقف فتيات جدد كل يوم .. منهم كانت بطة (٢) .. إبنة الموظف البسيط والتى قالت أمام النيابة أنها كانت .. بتموت فى نيللى وشيريهان .. ونفسها تلبس زيهم .. نفسها تنبسط .. فكانت الدعارة وكان السقوط .. وكان أن تكررت حكاية بطة بشكل مزعج ومخيف أيضا .

ثم جاء دور الآباء والأمهات أنفسهم .. آباء وأمهات يجبرن بناتهم على خلع ثيابهن وممارسة الجنس مع الغرباء من أجل مزيد من المال وطمعا فى حياة أشد رفاهية وأكثر ترفا .. وأصبحت حكايات هؤلاء وحكايات بناتهم درسا لنا جميعا منه نعرف أن مقاومتنا ممكن أن تنهار إلى هذا

(١) كانت الحملة بعنوان .. حتى لا تستغل الحفلات الخاصة فى الأعمال المنافية للآداب .. ونشرتها جريدة الأهرام فى ثلاثة أعداد بتاريخ الثانى والثانى عشر والتاسع عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٨٥ .

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٠/٦/٩

الحد وعلى أنه هناك بيننا من قد يسعى إلى المزيد من المال وإلى هذة الدرجة .. فمن الواضح أننا لم نكن نعرف ذلك ولا توقعنا ذلك .. الله وحده كان يعرف فقال سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين فى قرآنه العظيم : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرهن ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم (١) .

أما نحن .. فكنا نعرف فقط حكاية فلاح مصرى فقير (٢) عاش فى زمن الحرب العالمية الأولى إضطر – حين زاد حصار الفقر والجوع والحاجة – أن يأخذ إحدى بناته إلى بلدة أخرى بعيدة عن بلدته حيث باع إبنته هناك لأحدهم مقابل القليل من المال الذى عاد به إلى باقى بناته وأولاده .. حكاية حزينة ومهينة وموجعة .. ومع ذلك كنا ولا نزال قادرين على أن نتقبلها وأن نتفهمها .. لكن كيف يمكننا أن نفهم وأن نقبل هذا الذى بدأ يجرى فى مصر منذ السنوات الأولى فى زمن الإنفتاح الحزين .. فالرجل فى زمن الحرب العالمية دفعه الفقر الشديد لأن يبيع إحدى بناته .. أما الموظفة الكبيرة فى زمن الإنفتاح (٣) فلم تكن تشكو الفقر مطلقا .. ومع ذلك أجبرت إبنتها الكبرى على أن تبيع جسدها لمن يستطيع أن يدفع الثمن .. كانت الإبنة تتعرى وتستضيف فى فراشها الرجال ثم تجئ الأم وتقبض الثمن .. ولم تحتمل الإبنة هذة الحياة طويلا .. فإختارت الموت وأشعلت النار فى جسدها لعله يتطهر ويغتسل من خطاياه .. ومع ذلك لم تعد الأم إلى وعيها ورشدها بعد إنتحار إبنتها .. ولم يبد أن هناك فى الدنيا ما يستطيع أن يثنيها عن تحقيق أحلامها .. فأجبرت إبنتها الصغرى على أن تقتسم فراشها مع غرباء الرجال والسير فى نفس طريق شقيقتها الراحلة .. ثم تبين أن أحلام الأم كانت إمتلاك شقة فاخرة تناسب الحياة الجديدة فى مصر وشراء سيارة نصر طراز ١٢٥ .

حكاية إستثنائية بالتأكيد .. لكنه إستثناء السبعينات الذى فتح له وأمامه مجتمع مصر فى الثمانينات والتسعينات الف باب .. ليغدو الإستثناء الواحد إثنين أو عشرة أو مائة .. ولنجد فى الثمانينات أكثر من أم كتلك الأم (٤) التى ضبطتها مباحث آداب الجيزة تسهل دعارة إبنتها الموظفة بإحدى الشركات السياحية .. أو تلك الأم (٥) التى كانت من عائلة ثرية بالإسكندرية وتزوجت .. وكانت كثيرة الخروج من البيت وكثيرة المشاحنات أيضا مع زوجها حتى إنتهى الأمر بالزوج وقد طردها من البيت .. فإصطحبت إبنتيها ورحلت إلى القاهرة وأقامت فى شقة مفروشة بدأت فيها مشوار الأحلام .. فأجبرت إبنتيها على ممارسة الدعارة .. الإبنة الكبرى طالبة بمعهد التمثيل والإبنة الصغرى لا تزال فى الثانوية العامة .. وذهبت الأم وعقدت إتفاقا مع أحد جرسونات فندق خمسة نجوم ليأتى لها بالأثرياء العرب يمارسون الجنس مع إبنتيها داخل الشقة .. ومع الأم نفسها كلما نشطت حركة السياحة العربية فى القاهرة .. وتحولت الشقة المفروشة بالطبع إلى شقة تمليك فاخرة لا تنقصها أية كماليات ومظاهر الرفاهية .. وتحقق حلم الأم أخيرا بتلك الحياة الناعمة الجميلة خاصة وأن الإبنتين كانتا فى غاية النشاط والحماس حتى بلغ أجر الواحدة منهما الف جنيها فى اليوم الواحد .. وفى لحظة القبض على الجميع كانت الأم تجلس فى

(١) قرآن كريم – سورة النور – الآية رقم ٣٣
(٢) د. لطيفة محمد سالم – مصر فى الحرب العالمية الأولى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٧٦/٢/١٥
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/١/١
(٥) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٩/٢٥

هدوء وبرود بينما تعرت إبنتاها كل منهما فى غرفة مغلقة الباب مع أحد السائحين العرب .. وهو مشهد تكرر فى حى المنيرة حين تم القبض على أم أخرى (١) وهى تنتظر إبنتها التى كانت فى حدى الغرف المغلقة تقوم بالترفيه عن أحدهم وتمارس معه الجنس ليخرج يدفع الثمن للأم .. وأنت لن تعرف .. ولا أنا نجحت فى أن أعرف ما هو الثمن الذى كانت تتقاضاه إمرأة عربية وزوجة ملياردير عربى نصف مشهور تم ضبطها تقوم بتسهيل دعارة بناتها الثلاث اللواتى يدرسن فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة .. ولولا أن فنانة شابة بدأت تشتهر مؤخرا وتتمتع بعلاقات متشعبة ومعقدة كانت تشارك بنات الملياردير الثلاث تجارة المتعة المحرمة لكانت حكاية الملياردير وزوجته وبناته قد تحولت إلى فضيحة فوق أوراق الصحف .

وفى المقابل .. كان هناك مكان أو دور للآباء أيضا .. كان هناك (٢) أب ورجل أعمال ولم يمنعه ذلك من تسهيل ومساعدة إبنته على ممارسة الدعارة .. وإستغلال إبنته لإصطياد بنات الآخرين أيضا .. ولم يجد ما يقوله فى تحقيقات النيابة إلا أن .. البنات النهاردة عايزة تخرج وتسهر وتتسلى وتتبسط !.. كان هناك أيضا أب يشغل وظيفة خفير نظامى (٣) بإحدى قرى محافظة الشرقية وأسس شبكة للدعارة والمتعة تتاجر بأجساد الفتيات وعلى رأسهن إبنة الخفير نفسه .

الأشقاء والشقيقات أيضا كان لهم دور فى كل هذا الذى يجرى .. ومن الحكايات المثيرة للألم حكاية أربعة فتيات فى إمبابة (٤) مات أبوهن وأمهن وبقين وحدهن فى البيت بلا مورد أو مصدر للرزق .. وتخلى عنهن الأشقاء بعد أن إستقل كل منهم بنفسه وحياته ولم يعد بينهم من هو على إستعداد للتضحية بأى شئ ولو من أجل شقيقاته .. وكانت الشقيقات أنفسهن يردن الإستمتاع بالحياة وليس مجرد البقاء على قيد الحياة .. فإتفقت الشقيقات الأربعة على ممارسة الدعارة معا دون أن تفكر واحدة منهن فى الإعتراض أو تتردد ولو قليلا قبل أن تخلع ملابسها .. وفى مكتب مدير نيابة الأحداث تتكشف وقائع حكاية أخرى بطلتها فتاة جميلة فى الخامسة عشر من عمرها(٥) مات أبوها وتركها فى رعاية شقيقتيها الأكبر منها سنا .. لكنها فوجئت بشقيقتيها تنتقلان بها من شقة الأسرة المتواضعة فى السيدة زينب وتستأجران شقة مفروشة جميلة فى مصر الجديدة .. فوجئت الفتاة الصغيرة أيضا بشقيقتيها يجبرانها على مجالسة الضيوف الأغراب من الشباب والرجال .. وحين إعترضت الفتاة ورفضت أن تتعرى أو تتاجر بجسدها .. طردتها شقيقتاها من البيت فلم تجد الفتاة من تستجير به بعد رحلة هروب طويلة فى الشوارع إلا مدير نيابة الأحداث .

وإذا كان هؤلاء قد أكرهوا بناتهم على الدعارة بشكل مباشر وصريح .. فإن واقع الثمانينات لم يبخل علينا بمن ساقوا بناتهم إلى طريق السقوط خطوة خطوة وليلة بعد أخرى دون أن يدرى الأب أو الأم بأن الدعارة ستصبح هى الخطوة الأخيرة بعد كل هذا العذاب وكل هذا الإمتهان .. ستكون هى نهاية الرحلة والمشوار .. و وإذا كانوا قليلين هم أولئك الذين إمتدت أياديهم تنزع ثياب بناتهم مع سبق الإصرار والترصد .. فإنهم فى المقابل كثيرون جدا هم الذين ساموا بناتهم

---

(١) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٥/١
(٢) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٩/٨/٢٤
(٣) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٦/٢٢
(٤) جريدة المساء - عدد ١٩٩٤/٢/١٩
(٥) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩٤/٥/١٧

العذاب حتى سقطت بناتهم بالفعل .. وكانت حكاياتهم وحكايات بناتهم – ولا زالت – كثيرة جدا .. حكايات ليس فى وسع أحد منا أن يزعم بأنه لا يعرفها ولم يسمع بها من قبل .. على الأقل منذ نهايات الثمانينات حين تحول هروب البنات من بيوتهن وإحترافهن الدعارة بعد ذلك إلى خبر شبه دائم فى صفحات الحوادث بالصحف المصرية .. وحين فاجأتنا جريدة الأهرام [١] فى صباح أحد أيام عام ١٩٨٧ بحكاية أنعام .. المرأة التى تخصصت فى إصطياد هؤلاء الفتيات الهاربات من جحيم بيوتهن لتذهب بهن إلى بيت معد لذلك فى الحوامدية .. تقدم لهن الرعاية والأمان والثياب والطعام .. حتى يأتى أحد أثرياء العرب ليتفحص هؤلاء الفتيات ثم يختار إحداهن لتذهب تقيم معه بضعة أيام مقابل مبالغ مالية بلغت أحيانا عشرة الاف جنيها .

حكاية تكررت وكثرت بعدها الحكايات .. فقدمت جريدة المساء [٢] حكاية كل من آمال التى هربت من بيت أبيها فى طنطا لتصبح إحدى عاهرات القاهرة وهى لا تزال فى السابعة عشرة من عمرها .. ومنى التى هربت من زوج أمها لتبدأ فى ممارسة الدعارة وهى فى السادسة عشرة من عمرها .. وقدمت مجلة روز اليوسف [٣] حكاية حنان .. التى هربت من أبيها ومن بيتها فى المنصورة وذهبت إلى القاهرة لا تحمل فى يدها إلا طفل سرقته من الجمعية الشرعية بإمبابة حتى لا تثير شبهات رجال الشرطة وقميص نوم ترتديه بسرعة كلما إتفقت مع أحدهم على ممارسة الجنس .

وأخيرا .. جاءتنا جريدة الوفد [٤] بأول تحقيق جاد ورصين عن هروب الفتيات فى مصر .. تحقيق بدأ بإعتراف يؤكد أننا لا نملك فى مصر أية إحصائيات عن جرائم البنات أو إنحرافهن .. لكن التحقيق أكد أيضا أنه على الرغم من ذلك فليس من المستحيل أن نعرف أن تلك الجرائم والإنحرافات تزيد .. وأن مسلسل هروب هؤلاء البنات من بيوتهن وعائلاتهن قد تحول بالفعل إلى ظاهرة لم يعرفها ولم يشكو منها من قبل المجتمع فى مصر .. وبدلا من الأرقام والإحصائيات التى سيعجز عن الإتيان بها أحد .. يغوص بنا التحقيق أكثر فى أعماق ثلاث بنات هاربات تم ضبطهن فى يوم واحد .. الأولى فى السادسة عشرة من عمرها .. هربت من زوجة أبيها وزوج أمها فى بورسعيد وذهبت إلى الإسكندرية حيث فقدت فى أول الأمر بكارتها ثم فقدت إنسانيتها أيضا حتى تم القبض عليها هائمة فى الشوارع وجنين بدأ يتكوم فى أحشائها .. والثانية كانت لا تزال فى الثالثة عشرة من عمرها هربت من أبيها الذى أعجبه جسدها المثير وبدأ يفكر فى تقديم إبنته للسائحين العرب .. والثالثة كانت من المنوفية أرسلها أبوها للعمل كخادمة فى أحد بيوت القاهرة .. لكنها إكتشفت أن البعض هناك يريد منها ما هو أكثر من الخدمة .. فقد كان جسدها يرشحها للفراش وليس للمطبخ .. فإنتهى بها الأمر إلى قرار بالهروب ثم البقاء خلف أبواب مؤسسة رعاية الأحداث .. وإستضاف التحقيق بعد ذلك عددا من علماء الإجتماع والأطباء النفسيين ورجال القانون .. وحدد كل منهم أسبابا ودوافعا لهروب البنات لا تجعل من هذا الهروب ظاهرة مؤقته سرعان ما سيشفى منها وينساها المجتمع .. وإنما كانت أسبابا ودوافعا إستشرت وتمددت فى أوصال المجتمع وتأصلت فى زواياه حتى لم يعد من الصعب التأكيد على مثل تلك

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٧/١٠/١٧
(٢) جريدة المساء – عدد ١٩٨٧/١٠/٢٤
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٥/١٥
(٤) جريدة الوفد – عدد ١٩٨٩/٨/١٩

الظاهرة – وظواهر أخرى كثيرة – باتت مرشحة للإنضمام إلى قائمة أوجاعنا المخيفة والدائمة .

وبعد أقل من عام على نشر هذا التحقيق فى جريدة الوفد .. والذى لم يكترث به أو ينزعج منه أحد .. قدمت لنا جريدة الأهرام (١) تحقيقا مماثلا إختار أن تكون الأرقام هى مقدمته وبدايته .. فقرأنا أن عدد الفتيات الهاربات فى شهرين فقط – يناير وفبراير عام ١٩٩٠ – اللواتى تقدمت عائلاتهن ببلاغات لشرطة نجدة القاهرة بلغ مائة وست وعشرين فتاة .. وثلاثين فتاة أخرى تلقت شرطة نجدة الجيزة بلاغات بهروبهن .. ويمكننا أن نتخيل كم يبلغ الرقم الحقيقى إذا أضفنا عدد الفتيات الهاربات اللواتى لم تتلق شرطة النجدة بلاغات بهروبهن .. وإذا أضفنا عدد الفتيات الهاربات من باقى مدن مصر وقراها واللواتى يزيد عددهن كثيرا جدا عن عدد الهاربات فى القاهرة والجيزة .. حينئذ لن يراودنا الشك فى أننا كنا بالفعل أمام ظاهرة قاسية ومزعجة كان من الضرورى أن نبدأ فى مواجهتها .. لكننا ترددنا .. خفنا .. تراجعنا .. نسينا .. وإنتظرنا أربعة سنوات كاملة حتى عادت مجلة روز اليوسف (٢) تذكرنا بكل هذا الذى جرى ولا يزال يجرى .. فنشرت المجلة تحقيقا عن نفس تلك الظاهرة مرة أخرى .. هروب البنات أو الفتيات أو هروب المراهقات كما قالت المجلة .. وجاءت الحقائق هذة المرة أكثر وضوحا وأكثر رعبا إيلاما أيضا .. ستمائة فتاة تهرب من البيت كل شهر .. ٦٠٪ منهن فقيرات .. ٣٠٪ من الطبقات المتوسطة .. ١٠٪ من الأغنياء .. وغير الحقائق كانت هناك حكايات كثيرة بنفس درجة الوضوح والإيلام .. حتى وإن تشابهت الحكايات مهما إختلفت ظروف الفتيات وتباينت من فتاة لأخرى .. فهناك من تهرب بسبب الفشل فى الدراسة .. وهناك من تهرب بسبب سوء معاملة الأهل لها .. وهناك من تهرب بسبب الفقر .. أو الحب .. أو لأنها سقطت مرة وأسلمت نفسها وجسدها فإختارت الهروب والسقوط الدائم خوفا من مواجهة العائلة .. الجديد فقط كان أن هناك عشرين فتاة هربن فى أسبوع واحد بسبب فيفى عبده .. أو لأن فيفى عبده قالت فى أحد برامج التليفزيون أن سر نجاحها كان هروبها من البيت وهى لا تزال فى الثانية عشر من العمر .. فقررت عشرون فتاة تكرار التجربة على أمل إمتلاك ما تملكه فيفى عبده اليوم .. الثروة والجاة والقوة والنفوذ .. وليس من المهم ثمن كل ذلك .. فكل فتاة منهن لن تتردد فى أن تدفع نفس الثمن .. لن تتردد فى التنازل عن كل شئ .. الله والدين والقيم والأخلاق وكل الثياب أو بعضها على الأقل .. ولست أعتقد أننا بعد هذة الحكاية .. وعشرات الحكايات الأخرى .. فى حاجة إلى جهد لنعرف كيف بقيت ماكينة الدعارة فى مصر تعمل بكفاءة كاملة .. حكايات كثيرة إنتثرت فى شوارع مصر وبيوتها .. ومن يقبل الإصغاء إلى كل الحكايات سيعرف أننى لم أجنح إلى المبالغة مطلقا حين أشرت إلى أن الدعارة فى مصر تعيش واحدا من أزهى عصورها .. أما الدليل الإضافى الذى أقدمه على أن الخلل ليس فى أن تكون هناك فى مصر دعارة وإنما هو الفتاة التى تختار ممارسة تلك المهنة دونما فقر أو حاجة .. والرجل الذى يختار اليوم القوادة مهنة له ويبذل ما يستطيع من جهد لتحتفظ سوق اللحم الرخيص فى مصر بسابق رواجها وإزدهارها .. فحتى وقت قريب .. كنا نعرف أو نتخيل أن القوادين هم بعض البلطجية والمجرمين .. بعض بوابى العمارات والبيوت .. بعض الحرفيين ومزاولى المهن اليدوية المتواضعة .. ثم دارت بنا وبمجتمعنا الأيام .. فإنضم إلى

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٠/٢/١٧
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٤/٩/٥
(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٨٦/١٢/٧

قائمة القوادين في مصر اليوم .. ناظر مدرسة إعدادية (١) .. وطبيب تخصص في أمراض النساء والتوليد (١) .. وطبيب آخر أكبر سنا وأكثر خبرة وشهرة تعاونه سيدة أعمال (٢) .. ومحامية (٣) تدير بمفردها إحدى شبكات الدعارة .. ولواء شرطة سابق (٤) يدير بمنتهى القدرة والمهارة دعارة واحد وستين وفتاة .

ولو أعدنا تأمل مثل تلك الصور الجديدة للقوادة في مصر لأدركنا كيف غدا من الممكن أن تتورط فتيات كثيرات في ممارسة الدعارة بعيدا عن الصورة القديمة للعاهرة الفقيرة .. فالطبيب أو المحامي أو ضابط الشرطة أو رجل الأعمال لن يستعينوا بالفقيرات أو الخادمات لتقديمهن إلى رجال باحثين عن المتعة ويملكون الكثير من المال الذي سيتنازلون عنه مقابل إشباع رغباتهم وإرضاء نزواتهم .. وإنما بفتيات جميلات وأنيقات ومتعلمات أيضا .. ومن المؤكد أن هؤلاء الرجال ينجحون دائما في الإيقاع بمثل هؤلاء الفتيات .. من المؤكد أيضا أن كثيرا من هؤلاء الفتيات تم الإيقاع بهن دون ضغط أو تهديد وإنما بكامل وعيهن وإرادتهن .. ومن المؤكد أيضا أن دائرة الشيطان تلك لم تكن لتكتمل لا بمعاونة قانون عاجز إستعنا به لنحارب الدعارة فإذ بنا نجده يساعد دون قصد على رواجها وإنتشارها .

وكانت البداية عام ١٩٠٥ .. حين صدرت أول لائحة قانونية لتنظيم الدعارة في مصر .. ولعله من المناسب أن نتوقف ولو قليلا عند تلك اللائحة لنعرف كيف تعاملت الدولة مع الدعارة ومع العاهرات .. وتنقسم اللائحة إلى قسمين رئيسيين .. الأول يحدد شروط بيوت البغاء والتي هي .. لا يجوز فتح بيت للبغاء إلا بترخيص وفي مناطق محددة .. لا يجوز إستخدام إلا المومسات المسجلات .. لا يجوز إستخدام نساء قصر ولا يجوز للقصر الإقامة أو العمل في البيت .. لا يجوز تقديم الخمر أو المخدرات .. لا يجوز لصاحب البيت إستبقاء المومسات وفاء لدين أو إكراههن أو الإحتيال على إستبقائهن .. أما القسم الثاني من اللائحة فهو الخاص بالمومسات أنفسهن ونقرأ فيه .. لا يجوز للمرأة إحتراف البغاء إلا بعد تسجيلها .. ويمكن للمسجلات إختيار إما البغاء داخل البيوت أو خارجها .. ولا يجوز للمومسات المسجلات داخل البيوت مغادرتها إلا في مواعيد معينة ولا يجوز لهن إصطياد عملائهن في الطرقات .. ولا يجوز للمومسات المسجلات خارج البيوت إحتراف البغاء بالقرب من المدارس أو المعاهد أو دور العبادة أو المستشفيات أو المصانع أو المعسكرات أو المنشآت الحكومية ولا يجوز لهن إرتياد الحدائق أو دور اللهو أو المتاحف أو المعارض أو الأسواق .. وعلى كل مومس أن تتقدم للكشف الطبي مرة أو مرتين أسبوعيا وكل من يثبت مرضها يتم حجزها حتى شفائها .. وأخيرا لا يجوز أن يقيم مع المومس طفل أو طفلة في سن التمييز .

كانت هذة هي تفاصيل أول قانون يتعامل مع الدعارة في مصر .. أول رؤية تحمل وجهة نظر الدولة .. رؤية من السهل أن نلحظ أنها لا تحفل بالدين ولا بالحلال والحرام وإنما تعاملت مع الدعارة وتجارة الجسد مثلها مثل أية تجارة أخرى .. والعقاب الوحيد الذي يستدعي تدخل عصا

---

(١) جريدة الأهرام - عدد ١٩٨٨/٤/٢٩
(٢) جريدة الأخبار - عدد ١٩٩١/١٢/٦
(٣) جريدة الجمهورية - عدد ١٩٩١/١٢/٣١
(٤) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/٦

الحكومة الغليظة لا يجرى إلا إذا مارست إمرأة البغاء بدون ترخيص .. أو كان مسموحا لها بممارسة البغاء فى البيت فخرجت تمارسه فى الخارج .. لكن لا عقاب على الممارسة نفسها .. لا عقاب للمرأة العاهرة ولا للقواد الذى يبيع جسدها ولا للرجل الذى يزنى بهذا الجسد .. رؤية أو قانون ولد عاجزا عن مقاومة أو تنظيم أى شئ .. وبقى هذا هو الحال حتى كانت الخطوة الثانية، حين صدر الأمر العسكرى رقم ٧٦ لسنة ١٩٤٩ بإلغاء البغاء وإقفال بيوت البغاء وإلغاء العمل بلائحة مكتب التفتيش على النسوة العاهرات .. وغنى عن الذكر أن قرار إقفال بيوت الدعارة قد ساهم إلى حد كبير فى زيادة عدد بيوت الدعارة وإنتشارها .. أما الخطوة الثالثة فكانت القانون رقم ٦٨ لسنة ١٩٥١ والذى جاء فى ديباجته [1] أن الغرض من القانون هو غلق بيوت العاهرات بصفة نهائية .. وتتبع محترفات الدعارة بما يمنع ضررهن عن المجتمع ومنع الإلتجاء إلى الدعارة السرية مما له أسوأ الأمر فى إفساد الأخلاق والقضاء على كل وسيلة للإتجار فى الأعراض مما يتنافى مع الدين وقواعد الأخلاق .. ثم صدر قانون جديد هو القانون رقم ١٠ لسنة ١٩٦١ متضمنا نفس أحكام القانون القديم مع إضافة جديدة هى تأثيم البغاء فى سوريا التى شكلت مع مصر الجمهورية العربية المتحدة حيث كانت سوريا حتى ذلك الوقت تسمح بالبغاء .. وإلتزم القانون الجديد بكل رؤية القدماء ووجهات نظرهم .. فخرج علينا لا يحمى مجتمعا ولا يصون عرضا ولا يمنع خطيئة .. قانون عطوف ورحيم للغاية بكل رجل .. فالرجل مثلا فى فراش الخطيئة أصبح مجرد شاهد على وقوع الفاحشة .. ولست أدرى أى منطق فى الدنيا ذلك الذى يجعلنا على قناعة كاملة بأن الفاحشة يمكن أن تأتيها العاهرة وحدها دون شريك أو رجل معها مارس الجنس وإقترف الإثم مثلها تماما .. وبالرغم من ذلك كان القانون عطوفا ورحيما أيضا بالمرأة أو الفتاة .. وشواهد ذلك كثيرة ومتعددة للغاية .. فالقانون مثلا يشترط لتوقيع العقاب على العاهرة أن تكون قد إعتادت ممارسة الدعارة مع الرجال بدون تمييز .. والإعتياد هنا يعنى براءة من تمارس الدعارة لأول مرة .. وبدون تمييز تعنى براءة من مارست الدعارة أكثر من مرة مع نفس الرجل .. وحتى لو لم تكن هناك براءة .. فالعقوبة هى الحبس لفترة تتراوح من الثلاثة أشهر إلى الثلاث سنوات .. وغرامة مالية لا تقل عن خمسة وعشرين جنيها ولا تزيد عن ثلاثمائة جنيها .. وهى عقوبة ليست تردع أو تمنع أحدا ولم تكبح جماح أحد .. ولا عقوبة القوادة والتحريض على الفسق والفجور أيضا تردع أو تخيف أحدا .. فالقانون يعاقبهم بالحبس من ثلاث إلى سبع سنوات .. وهذة السنوات السبع لا يحكم بها القانون إلا إذا كان القواد يتاجر بعرض وجسد أكثر من إمرأة .. وهناك إحدى القضايا الشهيرة التى كان المتهم فيها قوادا تزوج من أربع نساء أقنعهن جميعا بممارسة الدعارة ثم لم يكتف بذلك .. ولكنه كان أيضا يخلع عنهن ثيابهن ويقوم بتصويرهن فى أوضاع جنسية مثيرة.. ويسجل ذلك كله على شرائط فيديو يقوم بنفسه بترويجها والإتجار فيها .. ومع ذلك لم تزد عقوبته على ما إقترفه من جرائم عن السجن لسبع سنوات فقط .

من أجل كل ذلك .. بات قانون مكافحة الدعارة فى مصر .. يشجع على إزدهار ورواج الدعارة فى مصر .. وهذا ليس مجرد رأى أو إجتهاد شخصى .. وإنما هو رأى سبقنى وتوصل إليه كثير من المفكرين والدارسين .. منهم مثلا الدكتور عبدالله عبد الغنى غانم الذى .. بعد طول دراسة ودراية وتجربة .. عاد يؤكد [2] لنا أن القبض على البغايا لا يشكل لهن أية مشكلة .. ويرجع ذلك

(١) محمد أحمد عابدين ومحمد حامد قمحاوى - جرائم الآداب العامة - دار المطبوعات الجامعية - ١٩٨٥

(٢) د. عبدالله عبد الغنى غانم - البغايا والبغاء - المكتب الجامعى الحديث - ١٩٩٠

إلى ضعف الأحكام والتى تعكس ضعف القانون الذى لا يسمح بجزاء رادع مما جعل القانون نفسه أحد عوامل إستمرار جريمة البغاء .. ويضيف الدكتور عبدالله شهادة إحدى العاهرات التى قالت له : مدة السجن دى راحة .. أجازة .. أشوف فيها زميلاتى وأتعرف على الحاجات الجديدة اللى جدت فى الكار وأعرف المعلمين الجداد .

وقبل شهادة الدكتور عبدالله وكل من شاركه القناعة بمسئولية القانون عن إزدهار الدعارة .. كان هناك تحقيق طويل وهام قامت به جريدة الوفد (١) عن قانون البغاء .. وقد إنتهى التحقيق - الذى تحدث فيه كثير من رجال القضاء والمجتمع - بعدة توصيات محددة وضرورية منها تشديد العقوبات إلى حد الإعدام .. وإعداد ضباط الشرطة ورجال النيابة للتعامل مع مثل هذة الجرائم لتلافى أخطاء الضبط التى غالبا ما تسفر عن الحكم بالبراءة رغم التلبس والإعتراف .. توصيات لحقت بسابقاتها مثلما ستلحق بها لاحقاتها ولا أحد يريد أن يصغى أو يستجيب أو حتى يعد بالإصغاء أو الإستجابة .. الإستجابة الوحيدة كانت من العاهرات .. فقد وجدت العاهرات قانونا متهالكا ومهترئا ينحاز إليهن أكثر مما ينحاز لنا وللمجتمع ولمصر والله .. فتمادت العاهرات فى السخرية منه يوما بعد آخر حتى جاء اليوم الذى إخترعن فيه حكاية الزواج العرفى ليصبح أحدث ظاهرة فى دنيا الدعارة (٢) .. فالعاهرات اليوم يحملن عقودا وهمية للزواج العرفى (٣) لإستخدامها فورا فى حالة وصول الشرطة .. وتعفى تلك العقود صاحباتها من تهمة ممارسة الدعارة .. ومن مظاهر سخرية العاهرات أيضا بالقانون أن تتزوج العاهرة من قوادها .. فإذا تم ضبطها مع أحد زبائنها أكدت أنها لا تمارس الجنس إلا مع هذا الرجل فقط .. وأكد هو بدوره أنه لا يمارس الجنس إلا مع تلك المرأة فقط .. فيتحول الأمر من جريمة دعارة إلى حالة زنا .. وهنا لا يعطى القانون حق إقامة دعوى الزنا ضد المرأة إلا زوجها فقط .. وفى نفس الوقت لا يعطى القانون نفس هذا الحق لوالد المرأة أو لشقيقها .. مع أن المنطق يقتضى أن الأب مثلا هو المتضرر الأصيل من جراء هذا السقوط والإثم .. إذ أن الزوج يكفيه الطلاق ليبتعد وينسى .. عكس العلاقة بين المرأة وبين أبيها أو شقيقها التى لا يمكن فصمها أو بترها أو الإستقالة منها .

وهكذا .. تكتمل الدائرة وتضيق يوما بعد يوم تعتصر المزيد من فتياتنا مع كل مساء جديد .. ويصبح المجتمع متهما مفترض أنه سيقف خلف القضبان ومعه الناس وكثير من الآباء والأمهات ومعهم القانون نفسه متهما .. ومع أنه أمر طبيعى ومنطقى أن يدين بعضنا المجتمع فيقوم بعض آخر بالدفاع .. إلا أنه لم يكن من الطبيعى ولا هو من المنطق أصلا أن يكون الدفاع هو تبرئة المجتمع تماما .. والناس .. والظروف .. والقانون .. لكى تصبح المشكلة هى أن هناك فتيات خلقن ليكن بغايا .. مهما إختلفت ظروفهن وملامح حياتهن .. وجرى الإستعانة حينئذ بشهادات ونظريات تم تصميمها فى الخارج كلها تتحدث عن نساء ولدن وهن مرشحات بشكل طبيعى لأن يصبحن عاهرات .. وما الظروف الإقتصادية أو الإجتماعية إلا مجرد مثيرات أو منبهات لما هو أصلا تحت الجلد .. بل وخرج علينا بعض العلماء الأوروبيون - فى جرأة بالغة - يؤكدون أن للعاهرة صفات جسدية محددة هى .. رأس صغيرة نسبيا .. وجه مستطيل مع تضخم فى

---

(١) جريدة الوفد - ١٩٨٩/٨/٢٠

(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٧/١٢/٧

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٧/٢٠

الفكين.. جبهة بارزة .. أذنان صغيرتان .. طول زائد في اليدين والقدمين .

كل تلك الخرافات - التى ثبت زيفها فيما بعد - تم التلويح بها كدلالة على براءة المجتمع من كونه تحول مؤخرا إلى ماكينة لتفريخ مزيد من العاهرات .. ثم كان الدفاع الثانى الذى تطوع به البعض .. وهو أن البغاء صمام أمان فى المجتمع .. إنه على الأقل يحمى المجتمع من شر الإغتصاب مثلا .. بل وبدأ البعض على إستحياء يطالبون بإباحته وتنظيمه لضمان الحماية وعموم الفائدة .. وأنا لا أجد ما أقوله تعليقا على ذلك إلا ما قاله محمد جلال كشك حين وصف [1] من يطالب بإباحة البغاء لحماية المجتمع ومنع الكبت والأمراض السرية بأنهم .. رقعاء يفكرون ويكتبون منطلقين من نظرية المجارى !.

وبالرغم من كل ذلك .. فلم يبق الأمر قاصرا على الدعارة وحدها بكل ما تعنيه وتتضمنه من سقوط وإنهيار وإمتهان .. كان هناك الإيدز أيضا .. وكان هذا هو ما يجب أن نتوقعه منذ زمن طويل .. دون أن ننتظر إنفجار فضيحة شبكة الدعارة فى حى الجمرك بالإسكندرية والتى تبين أن فتيات الشبكة مصابات بالإيدز .. أو فضيحة حى عابدين بالقاهرة حيث تبين أيضا إصابة إحدى عاهرات الشبكة بالإيدز هى وعاهرة أخرى فى شبكة أخرى بشارع رئيسى فى وسط القاهرة .. ودون أن ننتظر أن يخرج علينا من يشير [2] إلى إصابة عدد لا بأس به من العاهرات والفتيات بهذا المرض القاتل .. وإذا كان البعض سيعترض بشدة على مثل هذا الرأى مستندا إلى دراسة علمية قامت بها الدكتورة دليلة عثمان [3] والتى قامت بدراسة حالة خمسمائة وخمسة وثلاثين مصابا ومصابة بالإيدز فى مصر قبل أن تؤكد الدكتورة دليلة أنها لم تجد عاهرة مصابة بالإيدز.. فإنه ينبغى على هؤلاء المعترضين - أو ينوون ذلك مستقبلا - أن يتذكروا أن الدكتورة دليلة أكدت أيضا أن دراستها لم تشمل إلا العاهرات اللواتى داخل السجون ولم تتطرق إلى العاهرات المتناثرات فى ذلك البحر الواسع الذى هو بعض شوارع مصر وبعض بيوتها .

ويضيف ضياء الدين بيبرس بعدا جديدا للأزمة والمشكلة .. فالحكاية لم تعد فتاة أو أكثر يقعن جميعهن ضحايا لمثل هذا المرض .. وإنما يشير ضياء الدين بيبرس [4] من خلال حكاية فتاة من هؤلاء الضحايا .. إلى كم الغضب التى تصبه الفتاة فى مثل هذة الحالة على مجتمعها وعلى الناس .. غضب بسرعة يتحول إلى كراهية .. وكراهية تنمو بسرعة لتصبح طوفانا من غضب يدفع الفتاة للإنتقام .. فتبدأ رحلة الموت ورحلة الشيطان .. وينتقل الفيروس القاتل من جسد ودم الفتاة إلى شاب .. وشاب آخر .. وأكثر من شاب .. أى تتحول كل فتاة مصابة بهذا المرض أو على الأقل حاملة للفيروس إلى قنبلة حارقة وقاتلة يتبادل نزع فتيلها كثيرون بمنتهى الحماقة والجهل واللامبالاة .

بعد هذا كله .. بقى على الفتاة المصرية سداد آخر فواتير حساب مواجعها وزمانها .. أن تفقد بكارتها وشرفها وإنسانيتها - وأحيانا حياتها - على يد أقرب الناس إليها .. والدها أو شقيقها أو عمها .. لتدخل مصر بذلك نادى زنا - أو إغتصاب - المحارم .. وهو الأمر الذى إجتهدنا طويلا لنحتفظ به فى طى الكتمان كأحد أوجاعنا غير القابلة للعلاج أو أحد أسرارنا غير

---

(١) محمد جلال كشك - خواطر مسلم فى المسألة الجنسية - مكتبة التراث الإسلامى - ١٩٩٢
(٢) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٦/٢٠
(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٤/١/١٧
(٤) مجلة أكتوبر - عدد ١٩٩٣/٣/٧

القابلة للإعلان .. ولا أزال أذكر – وأنا أعيش أيامى الأولى كصحفى بجريدة الأهرام – أن علمت بتفاصيل حادثة من ذلك النوع جرت وقائعها فى مدينة الزقازيق فكتبت ما عرفته وذهبت به إلى حسن الشرقاوى وكان فى ذلك الوقت رئيسا لقسم الحوادث بجريدة الأهرام الذى ما إن قرأ تفاصيل الحادثة حتى إعتذر ورفض تماما نشرها .. وكان للرجل أسبابه ومبرراته التى أخذ يعددها لى .. فالأهرام أولا لا ينشر مثل تلك الحوادث المثيرة .. وثانيا حكايات زنا المحارم هى مجرد إستثناءات نادرة جدا وإلى الحد الذى يمكن تجاهلها تماما إذ ليس من الأمانة ولا من المنطق أن نتصيد حادثة هنا أو هناك فننشرها ونزعج الناس دون مبرر أو ضرورة .. وإقتنعت يومها ومزقت ما كتبته .. إقتنعت بأننا فى مصر لا نعرف ولا نشكو من تلك العلاقات الجنسية المحرمة التى كثر الحديث عنها مؤخرا فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية .. حتى إلتقيت بإثنين أعادا تصحيح ما أعرفه وأتخيله عن هذه القضية .. كان الأول هو العقيد سراج الدين الروبى الذى ذهبت إليه فى مكتبه حين كان لا يزال يشغل منصب مفتش المباحث بوزارة الداخلية.. وسألته عن زنا المحارم .. فقال أنه إنتشر فى كل الأحياء العشوائية حول القاهرة .. وأنه عايش بنفسه أكثر من حالة وواقعة وحادثة من هذا النوع تحديدا فى حى منشأة ناصر .. وكان الرجل الثانى هو الدكتور أحمد المجدوب عالم الإجتماع الكبير والشهير بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. والذى إلتقيت به فى ندوة أقامتها مجلة كل الناس – وكنت أعمل محررا بها فى ذلك الوقت – عن العنف والمجتمع المصرى .. وإستطعت الإنفراد بالدكتور أحمد المجدوب بعض الوقت لأسأله عن زنا المحارم .. فإعترف بأنه منتشر بيننا بشكل أكثر مما نتوقع أو نتخيل .. وأبدى الدكتور المجدوب دهشته من أن نهتم ونثير كل هذه الضجة حول الزوجات القاتلات مع أن عددهن قليلا جدا حين نقارنه بعدد البنات اللواتى راحت بكارتهن ضحية زنا المحارم .

يومها .. تذكرت حادثة الزقازيق .. أو حكاية الفتاة التى إعتدى عليها شقيقها جنسيا .. ثم كان أن إستمرأ الإثنان – الأخ والأخت – ممارسة الجنس معا .. فلم يعد الأخ مضطرا للخروج إلى الشارع يفتش عمن تعينه على قضاء رغباته وشهواته .. ولا عادت الأخت مرشحة للتورط فى علاقة جنسية آثمة مع شاب آخر .. وكان من الممكن أن يدوم الحال بالشاب وشقيقته طويلا لا يدرى بهما أو بسرهما أحد لولا أن تلك العلاقة أسفرت عن جنين تكوم فى أحشاء الفتاة التى عجزت عن التخلص منه وذهبت أخيرا إلى المستشفى لتضع حملها .. وهناك إعترفت بأن شقيقها هو والد الطفل .. وفى قسم الشرطة وقفت الفتاة تحكى حكايتها .. فهى مع أسرتها الكبيرة تقيم فى شقة ضيقة ليست أكثر من غرفتين .. ويوما بعد يوم .. إعتادت الفتاة أن تقوم بتغيير ملابسها أمام أخواتها .. إعتادت أيضا أن تنام فى فراش واحد بجوار شقيقها .. وأن تتعرى ساقاها أو يكشف ثوبها عن كل أو بعض صدرها .. وكان أن بدأ شقيقها يتنبه إلى كل هذا الذى يراه أمامه .. جسد شقيقته العارى والمثير .. شاب وفتاة وسط مناخ متخم بالرغبة وفرصة مستحيلة لأية ممارسة خارج تلك الجدران .. فبدأت الحكاية بالشقيق يمد أصابعه فى تردد يتحسس هذا الجسد .. وحين لم تمانع أخته أو تعترض أو تحتج .. بات هناك ما هو أكثر من مجرد الملامسة .. باتت هناك المعاشرة الجنسية بالتقسيط أول الأمر ثم كان أن بدأت علاقة جنسية كاملة يستمتع بها ويقبلها الإثنان .

ولابد وأنها حكاية .. أو حادثة .. تكررت كثيرا بعد ذلك وفى أكثر من مدينة .. فباتت هناك صحف ومجلات عاجزة عن أن تتجاهلها نهائيا .. وبدأ بعض أطبائنا وعلمائنا يفتتحون الحديث عن هذا الملف الشائك والغامض والمهين .. وكان منهم الدكتور محسن العرقان بمركز البحوث الإجتماعية والجنائية والذى أشار (١) إلى أن إشتهاء المحارم أصلا من غرائزنا التى يتولى المجتمع تهذيبها .. وحين يقل هذا التهذيب فى المجتمعات والأوساط الفقيرة .. تصبح أية إنحرافات جنسية ممكنة .. فهؤلاء الفقراء – كما نقل لنا ممدوح الولى واقعهم وحياتهم (٢) – تعيش كل عائلة منهم فى غرفة أو فى عشة واحدة .. فيها يعاشر الرجل زوجته أمام الصغار .. ومعدل الإنجاب فى أوساط هؤلاء الفقراء دليل لا يقبل الشك على أن الأب والأم لا يحفلان تماما بيقظة الأبناء وغمزاتهم وتعليقاتهم وتلميحاتهم أو حتى إثارتهم من رؤية هذا الذى يجرى أمامهم .. وغير الرجل وزوجته .. فهناك أكثر من شاب يرقد بجوار أكثر من شقيقة .. يمارسون نصف أعمارهم على الأقل فى الفراش .. فهو مائدة الطعام وهو مكتب المذاكرة وهو دولاب الملابس هذا غير النوم فيه بالطبع .. والفتاة تستبدل كل ثيابها أمام شقيقها إضطرارا .. فليس هناك بديل أو مكان آخر .. ولم يعد هناك ما يمنع من أن يخرج الجميع على أية شريعة أو قاعدة أو قانون .

ثم جاء الدكتور أحمد المجدوب ليشير – فى مجال حديثه عن الجنس وهمومه وقضاياه فى الغرب (٣) – إلى زنا المحارم الذى إفتتحوا له ملفا هناك منذ وقت طويل .. وأورد الدكتور المحجوب تفسيرا للدكتور بلوتش قال فيه أن ممارسة الجنس مع المحارم – الآباء وبناتهم أو الشباب وأخواتهم – ترجع إما إلى تعاطى الخمور وإما نتيجة التكدس العائلى فى بيوت ضيقة مع إنعدام أية فرصة أخرى لممارسة الجنس .. وأشار الدكتور المجدوب أيضا فى دراسة ثانية (٤) إلى أسباب إضافية لإنتشار زنا المحارم هى .. الإنفصال الجنسى بين الزوجين .. العزلة الإجتماعية للأسرة .. التوتر الذى أصبح يسود تفاصيل حياة الأسرة .

كلها أسباب – لم يختلف عليها أحد ولم يضف إليها أحد أى جديد – نملكها هنا فى مصر .. نعرفها كلها ونشكو منها ولا نمل من الحديث عنها .. الفقر .. الزحام فى كل بيت .. التوتر والقلق والإكتئاب وهموم للحياة لاتذوب ولا تنتهى .. ومع ذلك لا نزال نملك كل هذة القدرة على التظاهر بالدهشة إذا واجهتنا تلك الحقيقة المؤلمة بأننا بدأنا للمرة الأولى فى مصر نشهد الرجل يزنى بإبنته والشاب يغتصب شقيقته أو يشتهيها .. وقد يعترض أحد بزعم أنها ليست المرة الأولى فى مصر التى نرى فيها علاقة جنسية تنشأ وتقوم بين الأخ وشقيقته .. فقد كان مسموحا للفرعون بالزواج من شقيقته .. وكانت كلمتا أخى أو أختى فى الزمن الفرعونى القديم مثل كلمتى حبيبى أو حبيبتى فى أيامنا المعاصرة .. ولكننى بدورى أؤكد أن ما يحدث فى مصر اليوم من زنا بالمحارم إنما يحدث لأول مرة فى تاريخنا .. فزواج الأخ بشقيقته فى زمن الفراعنة كان يتم لأسباب إقتصادية تتعلق بالحفاظ على ثروة الأسرة (٥) .. لأن القانون فى تلك الأيام البعيدة كان ينقل ثروة الزوج كلها فى حالة وفاته إلى الزوجة .. ولهذا كان الفرعون يتزوج من شقيقته حفاظا على هذة

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٠/٩/٦

(٢) ممدوح الولى – إسكان العشش والعشوائيات – نقابة المهندسين – ١٩٩٣

(٣) د. أحمد على المجدوب – العادات الجنسية لدى المجتمعات الغربية – الدار المصرية اللبنانية

(٤) د. أحمد على المجدوب – إغتصاب الإناث – الدار المصرية اللبنانية – ١٩٩٣

(٥) أحمد الشنتناوى – تطور العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة – مكتبة الأنجلو – ١٩٦٩

الثروة التى كانت غالبا هى أراضى البلاد كلها .. فلم يكن مثل هذا الزواج ليحدث أو يتم بين عامة الناس وإنما فى أوساط الملوك فقط .. ولم يكن مسموحا أيضا بين أوساط العامة أو حتى الملوك أن تربط علاقة الزواج لأى سبب أو دافع (١) بين الأب وإبنته أو الأم وأحد أبنائها .. وكان القانون الفرعونى يعد ذلك جرما لا ينبغى التساهل أو التسامح معه .

أما اليوم .. فالأمر يختلف تماما .. ولم تعد الحكاية قاصرة على ملك يريد الحفاظ على ثروة العائلة .. ولكنه خلل إستشرى فى أوصال بعضنا حتى بلغ نهايته ومداه .. خلل بدأت تجسده أمامنا وأمام عيوننا وفى آذاننا حكايات كثيرة منها حكاية شاب (٢) يعمل كبائع متجول فى إمبابة مات أبواه وعهدا إليه برعاية شقيقته .. وحين بدأت تتناهى إلى أسماعه حكايات عن سوء سلوك شقيقته بدأ يضربها .. فما كان من الأخت إلا أن بدأت تسترضيه .. بدأت تتعمد إثارة غرائزه .. وقاومها أخوها كثيرا حتى إستسلم لها أخيرا وبدأ الإثنان .. أو إعتادا .. ممارسة الجنس معا .. وحين رفضت الشقيقة مرة أن تخلع ثيابها لتطارح شقيقها الغرام .. جاء الشقيق بسكين وإنهال بها طعنا على جسد شقيقته ثم فصل رأسها عن باقى جسدها .

ثم بدأت تزيد الحكايات وتنتشر قليلا هنا وهناك أو في مدينة الخانكة مثلا .. والتى أصيب أهلها بالذهول حين علموا (٣) بتفاصيل حكاية بطلها أب يعمل نجارا بالهيئة العامة للصرف الصحى إغتصب أبنته الكبرى البالغة من العمر ستة عشر عاما .. جذبها ذات يوم وأخذ يقبلها قبلات فاضت بالشهوة والرغبة ثم نزع عنها ثيابها ومارس معها الجنس بالقوة .. ثم تكرر الأمر كثيرا بعد أن بدأ الأب يهدد إبنته بطردها من البيت وطلاق أمها إن لم تستجب له .. وحاولت الإبنة الإنتحار لولا تدخل شقيقتها الصغرى التى تبين أنها خاضت نفس التجربة الموجعة والعارية مع الأب .. ثم كانت المشكلة .. الإبنة الكبرى إنتفخ بطنها بجنين أبوه هو أبوها فى نفس الوقت .. وللأسف .. كان كل ما إنشغلنا به بعد ذلك هو مصير هذا الطفل ولمن سينتسب وأى إسم سنكتبه فى خانة الأب بشهادة الميلاد .. كأن تلك هى كل المشكلة .. كأن هذا هو كل الوجع والجرح والألم.

وفى الصعيد .. قام أخ (٤) بإغتصاب شقيقته فإنتهت الحكاية بزوج الشقيقة يطردها من البيت ويحرمها من رؤية طفلها .. أما الشقيقة نفسها فلم تملك إلا أن تقتل شقيقها .. وفى حى البساتين بالقاهرة .. تعرضت فتاة (٥) فى السادسة عشرة من عمرها إلى حادثة إغتصاب على يد شقيقها المتزوج والذى يعول إبنتين فى مثل سنها .. وأمام النيابة وقف الشقيق يعترف ويقول .. الشيطان وزنى وما عرفتش عملت كده إزاى .. وفى إحدى القرى .. قتل أحد الرجال (٦) والد زوجته .. وتبين من التحقيقات دوافع القتل .. فقد علم الزوج أن زوجته عاشت زمنا طويلا ضحية لوالدها .. فقد كان الأب يشتهى إبنته بعد أن أغراه جمالها وجسدها .. فتحول إلى ذئب يتحين دائما غياب الزوج عن البيت لينفرد بفريسته .. وفى السويس .. قام أب يعمل بالسكة الحديد (٧) بإجبار إبنته

(١) د. عبد الرحيم صدقى محمد حسنى – القانون الجنائي عند الفراعنة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٥
(٢) مجلة البلاغ –عدد ١٩٨٦/٦٥
(٤) جريدة الوفد عدد ١٩ ١٩٩١/٥/٢٢
(٥) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٢/٦/٢٣
(٦) جريدة الأهرام – عدد ١٩٦٢/٩/٥
(٧) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩١/١٠/٥

التى لم تتجاوز الحادية عشرة من العمر على معاشرتة جنسيا .. أجبر الأب إبنته الصغيرة على مشاركته الفراش خمس سنوات كاملة إنتهت بجنين تكوم فى أحشاء الفتاة .. وقام الأب بإجهاض إبنته قبل أن تتكشف حكايته معها لتنتهى الحكاية كلها بقرار محكمة الجنايات عقاب الأب بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وفى بولاق .. إستغل أحد الآباء(١) غياب الأم عن البيت .. فإنفرد بإبنته الطالبة بالمرحلة الثانوية وقام بإغتصابها بالقوة .. وفى دمياط .. عاد أحد الآباء(٢) مخمورا ذات مساء إلى البيت.. وشاهد إبنته التى لم تكمل العشرين من العمر نائمة فى فراشها .. أثاره جسدها .. إقترب منها .. عراها .. إغتصبها .. وتخيلت الإبنة أنها كانت إحدى نزوات الخمر .. لكن الأيام التى توالت وتعاقبت بعد تلك الحادثة أكدت للإبنة أن ما جرى لم يكن بمحض الصدفة ولا تحت تأثير الخمر فقط .. فالأب بالفعل كان ولا يزال يريد إبنته ويشتهيها فى الفراش .. فتكررت حادثة الإغتصاب كثيرا .. فذهبت الإبنة تستجير بأعمامها تطلب منهم حمايتها وحماية عرضها وجسدها وشرفها .. من أبيها !.

وفى الزيتون .. هربت فتاة (٣) من البيت خوفا ورعبا بعد محاولة أبيها إغتصابها .. هربت لا تدرى ماذا تفعل ولا إلى أين تذهب .. حتى إنتهى مشوار الهروب فى شبرا الخيمة حيث تصيد الفتاة إثنان من العاطلين نجحا فيما لم ينجح فيه والد الفتاة .. فإحتجز العاطلان الفتاة فى بيت صديق لهما وتناوب الجميع الإعتداء عليها وإغتصابها .

وفى مدينة السلام .. فقدت فتاة (٤) أمها وهى لا تزال طفلة لا تعى شيئا .. ثم مات أبوها وهى فى الخامسة عشرة من العمر .. فقرر جدها أن يتولى هو الإنفاق عليها على أن تقيم حفيدته مع إثنين من أعمامها لتكون تحت رعايتهما وإشرافهما .. وذات ليلة إستيقظت الفتاة من نومها حين شعرت بمن يعبث بثيابها وجسدها .. وإذ بها تكتشف أن عمها هو الذى إمتدت يده تحت ثيابها .. لكنه أقنعها بأنه كان يعيد الغطاء فوق جسدها بعد أن تعرت وقال ضاحكا أنه خاف عليها من برد الصيف الذى هو أحد من حد السيف .. لكن لم يمض أسبوع واحد فقط على تلك الليلة إلا وكان العم قد نجح بالفعل فى معاشرة إبنة أخيه معاشرة كاملة .. وتكرر الأمر حتى شاهد العم الآخر ما يحدث بين شقيقه وإبنة شقيقه .. فإنهال عليهما ضربا وقام بطرد شقيقه من البيت .. لا ليحمى منه الفتاة .. وإنما لينفرد بها هو .. وإنفرد بها العم بالفعل ومارس معها الجنس وكان من الممكن أن يدوم هذا الحال طويلا لولا الفتاة التى إستغاثت بالنيابة .. وأمامها جاء الإثنان يعترفان وسقط الجد ميتا من إثر الصدمة .. وبقيت الفتاة تواجه جراحها ومجتمعها وحياتها وحدها بعد أن ذهب أعمامها إلى السجن .

وفى قرية آبار الملك بمحافظة سوهاج .. قام صبى(٥) فى الثالثة عشرة من العمر بقتل أبيه بعد أن إعتاد هذا الأب الإعتداء على بناته .. فقد كان هذا الأب دائم التسلل إلى غرفة بناته وبالقوة ينزع عنهن ثيابهن محاولا إغتصابهن .. فيجرى أشقاء البنات إلى غرفتهن ويظلون

---

(١) جريدة الأهرام المسائى - عدد ١٩٩١/١١/٢٠
(٢) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٥/٧
(٣) جريدة الوفد - عدد ١٩٩٤/٥/٣
(٤) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٤/٨/١٣
(٥) جريدة أخبار الحوادث - عدد ١٩٩٤/٨/١٨

يضربون الأب حتى يهرب من البيت .. ولم يجد أحد الأبناء حلا لتلك الأزمة الدائمة ونهاية لتلك الفضيحة التى باتت حديث القرية كلها إلا أن يقتل الأب ليختفى ويبتعد نهائيا .. وقتله بالفعل ورفضت القرية دفن هذا الأب فى مقابرها .

أما ضياء الدين بيبرس .. المذيع اللامع وصاحب البرنامج الشهير لو كنت مكانى .. فقد كتب[٦] فى مجلة أكتوبر ليصدمنا جميعا ويؤلمنا جميعا حين تحدث عن حكاية فتاة تعمل بإحدى المؤسسات الصحفية كتبت له تشكو قيام أشقائها بإغتصابها .. وعلى الرغم من ذلك فلم يكن الذى جرى لهذة الفتاة هو الصدمة وسر الألم والوجع .. وإنما هو رد ضياء الدين بيبرس نفسه على رسالة الفتاة .. فقد إعترف لها أنه لن يستطيع إذاعة أو نشر قصتها .. لأنه يخشى هجوم حزب النعام فى مصر أو أولئك الذين يفضلون دفن الرؤوس فى الرمال والتأكيد على أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .. وأضاف ضياء الدين مؤكدا أنه سيصمت ويسكت عن هذا الأذى لأنه ليس فارس الفرسان ولا هو طامح فى أن يأتى بما لم يأت به الأوائل .. كل هذا على الرغم من إعترافه بأنه يتلقى حكاية من هذا النوع بمعدل حكاية كل يومين .. وأن قائمة المتهمين باتت تضم الأشقاء وأزواج الخالات وأزواج العمات والأقارب أيضا .. وأنه فكر فى إذاعة ونشر حادثة واحدة كل عام لتنبيه الجميع لولا أن كثيرين إتصلوا به وأثنوه عن ذلك .. حتى لا يفتح عيون بناتهم على ما لا يليق أن يعرفن أو يدرين به .

مرة أخرى .. نعود ونتظاهر بأننا نحمى بناتنا بسلاح الصمت والجهل والخوف واللامبالاة .

مرة أخرى .. نعلن جميعا حماسنا وإنحيازنا وتأييدنا لحزب النعام .. فننكر كل هذا الذى جرى .. ونتجاهل كل هذا الذى يجرى .. ونفتح كتاب قواعد اللغة العربية من جديد لنخترع وظيفة جديدة لكلمة إستثناء .. حتى باتت تلك الكلمة. هى الدواء السحرى الذى يشفى كل أوجاعنا .. والحل الممكن والسهل لكل مشاكلنا .. وحتى أصبحنا بفضل ذلك لا نسمع إلا الذى يريحنا .. ولا نرى إلا الذى يطمئننا .. ولا نقرأ إلا من يؤكد لنا أن كل شئ بخير .. والأمور كلها على ما يرام .. حتى ولو كانت فتياتنا هن اللواتى سيدفعن ثمن ذلك كله فى النهاية .. فتياتنا اللواتى لازلن لا نعرف عنهن شيئا .. ولم نغامر مرة بإقتحام عالمهن الغامض المجهول المعجون بالخوف والقلق والتوتر .. مع أنه أصبح ضروريا أن نعرف وأن نغامر من أجل أن نعرف .. نعرف كل فتاة فى مصر من رأسها وحتى أطراف أصابعها .. ما الذى تفكر فيه .. وتحلم به وتحتاج إليه وتخاف منه وتبحث عنه .. فهذة المعرفة هى مجرد البداية .. بداية الطريق والشقاء والحلم والأمان .

(٦) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩٢/١٢/١٣

(١٢)

الرومانسية .. تخلع ملابسها

خوفونا
من عذاب الله إن نحن عشقنا
هددونا بالسكاكين إذا نحن حلمنا
فنشأنا كنباتات الصحارى
نلعق الملح.. نستاف الغبارا
شوهوا الإحساس فينا.. والشعورا
صوروا الحب لنا بابا خطيرا
لو فتحناه.. سقطنا ميتين
فنشأنا ساذجين
وبقينا ساذجين
نحسب المرأة .. شاة أو بعيرا
ونرى العالم.. جنسا وسريرا

نزار قباني
قصيدة: الخرافة

مصر فى التسعينات

القاهرة .. الهرم .. قسم شرطة الهرم .. وفى القسم وقفت فتاة سمراء متعبة وحزينة تروى حكايتها .. إنها إبنة مقاول ناجح على قدر كبير من الثراء .. تخرجت من كلية التجارة .. إستغرق منها الأمر بعد التخرج عامين كاملين لتنال موافقة عائلتها على أن تعمل .. وأصبحت محاسبة فى أحد المحلات التجارية .. وهناك إلتقت به .. شاب فى الثلاثين من العمر .. عامل معمارى وبائع متجول إعتاد شراء ما يحتاجه من ذلك المحل بسعر الجملة ويذهب يبيعه للناس قبل أن يأتى لشراء بضائع جديدة .. كان يجيد الحديث بخمسة لغات .. لا يقل دخله اليومى عن خمسة وستين جنيها .

وقع الإثنان فى الحب .. وباح كل منهما بمشاعره للآخر .. وسرعان ما أدركا أن حبهما لن يباركه أحد فى مثل هذا المجتمع الذى تجمدت وتبلدت مشاعره .. رفضت الفتاة أن يذهب حبيبها إلى أبيها يطلب يدها .. كانت تعرف الرد مقدما .. فكر الإثنان فى حل .. كان الهروب هو الحل .. هروب بدأ فى الساعة الحادية عشرة صباحا لكن لم يدم أكثر من ساعة واحدة .. عثرت عليهما عائلة الفتاة وحاولت قتلهما .. إستغاث العاشقان بالشرطة .. تحولت قصة الحب فى ساعة واحدة من حكاية غرام .. إلى فضيحة عائلية .. إلى محضر تحقيق رسمى فى قسم الشرطة .

وفى القسم .. جاء المأذون .. وتزوج العاشقان رغم أنف العائلة والمجتمع .

وإنتهت الحكاية .

حكاية .. كانت تصلح لأن تكون إحدى روايات إحسان عبد القدوس .. فهو الذى كتب عن تلك الفتاة كثيرا فى سنوات الستينات .. لكننا إنتقلنا – رغما عنا – إلى سنوات التسعينات .. مات إحسان والزمن الذى عاش فيه وكتب عنه وله إحسان .. وأصبحنا لا نعرف إلى أى عصر تنتمى هذه الفتاة .. هل هى إحدى عاشقات الستينات عاشت بيننا فى الزمن الخطأ .. أم هى فتاة فى التسعينات بمنتهى الواقعية أحبت الخمسة وستين جنيها كل يوم .. وهل نحن مثل عائلة الفتاة لا نزال نفتش عن الشهادة الجامعية وننحاز لها ضد خمسة لغات أجنبية ومهنة وكثير من المال .

كل هذه الأسئلة .. يثيرها الحب والحديث عن الحب .. والحب فى مصر كلمة صعبة معقدة .. لها الف معنى والف تفسير .. إنه مثلا هجر وعذاب فى أغانينا .. طاهر وبرئ فى أفلامنا .. وهو أخيرا أعمى فى أمثالنا !.

الحب فى حياتنا عنوان لحياتنا .. إنه الثقب الذى تتسلل منه حسناتنا وذنوبنا .. نحن نبكى لأننا نحب ونفرح لأننا أيضا نحب .. نحن نداوى بالحب ما سبق لنا أن جرحناه بنفس الحب .. نحن نأمر بإسم الحب .. نطيع بإسم الحب .. نرفض بإسم الحب .. نرضى أن يحكمنا الطغاة بقانون الحب .. ونتحكم نحن فى الآخرين بدعوى الحب .

الحب فى حياتنا عنوان لحياتنا .. فنحن أكثر شعوب العالم حديثا عن الحب .. وعلى مدى التاريخ القريب والبعيد .. كنا نحن الفراعنة الذين أول من كتب أغانى الحب فوق جدران المعابد .. وكنا العرب الذين إخترعوا للحب ستين إسما .. وكنا جزءا من هذا الشرق الذى أحال الحب إلى دنيا من الخيال والغموض والإثارة .

ومع ذلك .. فمن الصعب .. إن لم يكن مستحيلا .. أن نجد المصريين يتفقون على تعريف محدد أو حدود واضحة لهذا الحب .. وإذا كان هذا التعريف وهذا التحديد لا يزال قضية عالمية

وعلمية وفلسفية ونفسية شائكة .. فإنها فى مصر أكثر تعقيدا .. لأن الحب فى مصر محكوم بتاريخ مصر .. ميراثها وعقائدها وعاداتها وأديانها وقوانينها وأزمان قوتها وإنتصارها وعصور ضعفها وإنحطاطها .. وإذا كنا لا نعرف حكاية أول حب فى تاريخ مصر .. فإننا نعرف أن أهل مصر القديمة إختصروا كثيرا من المسافة ما بين الحب وبين الجنس .. حتى لكأن الحب هو الجنس .. أو أن الجنس هو الحب .. وإذا قرأنا قصائد الشعراء أو إستمعنا إلى أغانى العشاق فى زمن الفراعنة .. فسنكتشف أنه لم يكن عيبا أن تعشق الفتاة فتطلب من حبيبها أن يرشف السعادة من ثدييها أو يمد يده ليداعب ساقيها أو يذهب خلفها ليراها وهى تستحم فى البحيرة حيث الماء يبلل ثوبها الشفاف المصنوع من الكتان .. ولا كان عيبا أن يعشق الشاب فيناجى حبيبته ويتغزل فى شعرها وعينيها وشفتيها ونهديها وساقيها .. ومن المؤكد أنهم إتفقوا على ذلك أو إستراحوا إلى ذلك .. فلم يعد فى زمانهم يمثل الحب أية قضية أو مشكلة .. ولا كانت العلاقة بين الحب والجنس بالنسبة لهم بمثابة الطلسم الذى يحار الجميع فى معرفة أسراره .. أو لعلها علاقة لم يكن لها وجود أصلا .. ولا كان للحب نفسه وجود .. وإنما إقتصر الأمر على الجنس .. العلاقة الطبيعية التى تربط الرجل بالمرأة .. التى لم يخترعها الرجل أو المرأة ولم ينفرد بإبتكارها مجتمع وحده دون سائر مجتمعات الأرض .. وفى واقع الأمر ليس هناك من يعرف على وجه التحديد متى وأين وكيف .. إخترع الإنسان الحب وتعلمه ومارسه ؟!.

وبالتأكيد .. جرت محاولات كثيرة للإجابة على هذا السؤال .. أشهرها كانت محاولة ثيودور رايك .. الذى إنشغل طويلا بالبحث عن تاريخ الحب وكيف إخترعه الناس وكتب لنا إكتشافاته وأرائه فى كتاب [١] لم يعد ممكنا الحديث عن الحب دون الرجوع إليه .. ويبدأ رايك كتابه بالتأكيد على أننا لم نعرف الحب منذ أن مارسنا الجنس .. وإنما عاش الناس عصورا طويلة يمارسون حياتهم بكل تفاصيلها دون أن يعرفوا الحب أو حتى يحتاجوا إليه .. فقضاياهم الأساسية كانت البحث عن الغذاء .. والبحث عن المأوى .. وممارسة الجنس كلما إستعرت تحت جلودهم الرغبة .. لم تكن تلك الممارسة الناعمة التى نعرفها اليوم .. ولكنها كانت أشبه بحادثة إغتصاب وفقا لمفاهيمنا اليوم .. فالقبلات لم تكن أكثر من مجرد العض بأسنان بدائية .. وقضيب الرجل فى مهبل المرأة لم يكن أكثر من حركة آلية عنيفة وقوية بقصد التخلص من توتر فسيولوجى دون أن يكون لها أية معان نفسية أو شخصية .. ولم تكن النساء ليستسلمن تماما لكل هذا العنف وهذة الوحشية .. وإنما حاولن تهذيب الرجل وإختصار وحشية ممارسته للجنس .. ومن الواضح أن نساء كثيرات نجحن فى ذلك .. وباتت موافقة المرأة على ممارسة الجنس هى المكافأة التى تمنحها هذة المرأة لرجلها كلما كان أكثر لطفا وتهذيبا وأقل عنفا ووحشية .. وبدأ الرجل يتعلم كيف يلاطف المرأة ويجيد مغازلتها من أجل الوصول إلى جسدها .. وبدأت المرأة تتوقع من الرجل أن يتودد إليها قبل أن تسلمه جسدها .. وكان هذا التلاطف والتودد والغزل مجرد بروفة أولى للحب .. بروفة تكررت كثيرا قبل أن يخرج الحب إلى النور وإلى الجمهور وإلى الناس .. وهذا بالضبط هو ما لا نعرف متى أو أين حدث .. كل ما عرفناه أن الإنسان تعلم أخيرا كيف يحب ولماذا يتعين عليه أن يحب .. من أجل الجنس .. ومن أجل أن ينال الحق فى ممارسته مع المرأة التى إختارها

---

(١) ثيودور رايك – الحب بين الشهوة والأنا – ترجمة ثائر ديب – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

وعبر لها عن الحب وأجاد التعبير إما صدقا أو كذبا .. عرفنا أيضا أن المرأة هى صاحبة حق إختراع الحب .. هى التى كانت تحتاج إليه وهى التى إكتشفته وهى التى أجبرت الرجل على أن يمارسه وعلى أن يقاسمها إياه .

وقد يصطدم ذلك مشاعر الوف العشاق حين يكتشفون أن الحب لم يكن فى أزمانه الأولى أكثر من مناورة جنسية .. مجرد صفقة يعقدها الرجل والمرأة برضاء وإقتناع الإثنين قبل أن يذهبا معا إلى الفراش .. لكنها الحقيقة التى إعترف بها البعض وأجادوا التعامل معها كأمر واقع ليس هناك داع أو مبرر لتزييفه أو للتحايل عليه .. وكان أهل مصر القديمة من هؤلاء الذين إعترفوا بالحب فقط كشكل أنيق ورقيق للجنس .. وفى المقابل كان هناك من لم يعترف بذلك ومن لم يرضه ذلك .. فبدأت مسافة زائفة تتسع يوما بعد يوم بين الحب وبين الجنس .. وبدأ العالم يشهد من ينادى بالحب العفيف .. الحب الذى يمارسه العاشقان ومنتهى غاياتهما أن تتلامس يداهما أو تتلاقى عيونهما فتفور مشاعر حارة وحميمة تفيض بمعانى الود والبهجة والإمتنان .. لكن لا جنس ولا رغبة ولا هتك لأسرار الجسد وتفاصيله ومعالمه وملامحه .. ومن الطريف أن بعضنا اليوم لم يجد من كل فلاسفة الإغريق والرومان إلا أفلاطون ليختاروه أستاذا ورائدا لمثل هذا الحب العفيف .. بل وأعطوا هذا النوع من الحب إسم الفيلسوف نفسه .. فأصبح هناك الحب الأفلاطونى .. أى منتهى الحب والعفة والحياء والود والإمتنان والوقار والإحترام .. مع أن أفلاطون هو آخر فيلسوف فى العالم وآخر رجل أيضا يصلح لمثل تلك المهمة .. فهو الرجل الذى مات فى سن الثمانين دون أن يحتاج للزواج من أية إمرأة .. وكل آرائه فى الحب إنما كانت من نصيب الشذوذ الجنسى وحب الغلمان وليس الحب العفيف بين الرجل والمرأة .. بل إن أفلاطون لم يرحل عن عالمنا إلا بعد أن ترك لنا وصيته الفكرية .. والتى لم تكن إلا أن اللذة هى الخير كله .. وليست هناك لذة فى الدنيا أعظم من لذة الحب .. وتبلغ تلك اللذة ذروتها ساعة اللقاء الجنسى بين الحبيبين .. بين الرجل والرجل كما تخيل أفلاطون .. أو بين الرجل والمرأة كما نتخيل نحن علاقة الحب أو ممارسة الجنس .. هذا فضلا عن أن أفلاطون لم يعرف ولم يعترف بالحب الذى يجبر صاحبه على التضحية والفداء .. وإنما قرر [1] أن الحب يجب أن ينتهى بالعاشقين كل منهما فى أحضان الآخر .. ولهذا التلاقى وحده الفضل فى شعور العاشقين بالقرب والمودة والسعادة .

وأيا كانت حقيقة الحب على طريقة أفلاطون .. فمن المؤكد أن نظرية الحب العفيف والبرئ كانت تجد أنصارا جدد يؤمنون بها ويرفعون لواءها فى كل يوم وفى كل مكان .. فى الشرق والغرب على حد سواء .. فأهل الشرق البعيد فى الهند والصين .. والأغريق والرومان فى أوروبا .. فتحوا الباب أمام الحب ليدخل عالم الأساطير ويعيش فى حضرة الآلهة .. فأضفى ذلك كله على الحب غموضا وخيالا إستعذبه وإستهواه العشاق .. وكان من الضرورى أن تتراجع أمام هذا الطوفان تلك الفكرة البدائية البالغة البساطة والحدة معا عن الحب كشكل أو تمهيد للجنس .. بل وقاربت تلك الفكرة على الزوال نهائيا بميلاد السيد المسيح عليه السلام .. فالمسيحية جاءت للعالم بكل عفتها وصرامتها الأخلاقية لترفع شعار الروح على حساب الجسد .. وتؤكد للإنسان فى كل وقت أن إستمتاعه بأية شهوة أو بهجة أو متعة فى الدنيا يخصم من رصيده فى حساب الرب ..

---

(١) شوارتز – علم نفس الجنس – بليكان – لندن – ١٩٥٦

وإذا كانت المسيحية .. بكل هذة التحفظات والضوابط الدينية والأخلاقية الصارمة .. قد فشلت فى منع الناس من البحث عن الجنس فضلا عن الإستمتاع به ولو على حساب العلاقة مع الرب ومع الكنيسة .. إلا أنها نجحت فى تمهيد الطريق تماما أمام الحب البرئ .. وبدأ كل من شعوب الغرب أو الشرق إدخال هذا الحب فى ماكينة الحضارة الخاصة به ليبتكر شكل الحب الخاص به ويرسم ملامحه ويصيغ قوانينه .. أو فلنقل أنها كانت لحظة ودع فيها العالم مشاعره المشتركة ورفض إعتبار الحب كلغة عالمية .. ولهذا سنجد فيما بعد شعوبا لا تعترف بالحب مطلقا (١) .. بل ولا تضم اللغة عندها كلمة واحدة تعنى الحب .. ومنها قبائل الناهواس الأمريكية .. وسنجد شعوبا أخرى .. مثل سكان بيرو القدامى .. تضم لغتهم ستين إشتقاقا من فعل موناى .. أى أحب .. أيضا سنكتشف كثيرين من أهل الصين – قبل حكم المانشو – يعتبرون الحب مأساة وكارثة (٢) .. وسنجدهم فى الهند لا يعترفون إلا بالحب الذى يولد بين الرجل والمرأة ولكن بعد زواجهما وإرتباطهما .. أما أوروبا .. والتى كانت القبلة فيها (٣) يمكن أن تؤدى إلى السجن أو النفى أو حتى الموت .. فقد كانت لا تزال تعيش الام وأوجاع المخاض وتتأهب لولادة الرومانسية .

ولم تكن مصر بالطبع بعيدة .. أو غائبة .. عن كل هذا الذى يجرى فى العالم من حولها .. وإنما كانت هناك فى قلب العالم القديم الذى بدأ يعيد رسم مشاعره وأفكاره ونواياه عن الحب .. الفارق الوحيد أن مصر بدأت تعيش ذلك كله وهى تودع حضارتها العظيمة وسنوات الإنفراد والإستقرار والتميز لتستقبل الإغريق والرومان وتعتنق المسيحية .. فيجرى على أهلها كل ما جرى على سواهم من تغيير فى الفكر والسلوك والعادات والنظرة إلى الحب والقدرة على التعامل معه .. ولهذا لا يعود مفاجئا لنا أن نكتشف كيف سادت مشاعر مصر فى تلك الأيام الفوضى والإضطراب .. فلم تعد العلاقة بين الحب وبين الجنس بنفس وضوح الماضى وبساطته أيضا .. وباتت تلك العلاقة هى مسئوليه كل عاشق .. عليه أن يعيد صياغتها بالشكل الذى يتراءى له ويناسبه ويوائم ظروفه وأفكاره وتفاصيل علاقته بمن يحب .. فالعرف العام جرى تفتيته وحصاره فى دائرة ضبابية ليست واضحة المعالم .. والقانون الأخلاقى والعاطفى جرى تكسيره ولم يعد هناك أسهل من عصيانه والخروج عليه .. وفى مناخ كهذا .. فقدت مصر فرصة أن تملك عشاقا عظاما أو كبارا يحفظ أهلها تاريخهم وحياتهم .. ولعله أمر جدير بالتوقف والملاحظة أن تغدو مصر فى تلك الأيام قادرة على أن تنجب الشهداء والرهبان والفلاسفة لكنها عقمت وعجزت عن إنجاب عاشق واحد .. الأمر الآخر الجدير أيضا بالتوقف والملاحظة هو أن مصر بتلك المشاعر والعاطفة الحائرة والممزقة إستقبلت العرب القادمين إليها من الشرق يحملون معهم دين الإسلام .. وبعضا من عاداتهم وقوانينهم وتراثهم ومشاعرهم أيضا .. وقد كان العرب – أيام الجاهلية وقبل الإسلام – من الشعوب القليلة التى عرفت الحب بكل أشكاله .. الحسية والروحية والجنسية والرومانسية .. ويؤكد الدكتور محمد حسن عبدالله (٤) أن العرب فى زمن الجاهلية كانوا لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا .. ومع ذلك كانوا يصونون العشق عن الجماع .. أو لم يخلطوا بين الحب

---

(١) هنرى هافلوك إيليس – الجنس والزواج وفن الحب – ترجمة عبد الإله الكويتى – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩١

(٢) مجلة آفاق عربية – بغداد – عدد ١٩٨٧/٢

(٣) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢

(٤) د. محمد حسن عبدالله – الحب فى التراث العربى – عالم المعرفة – رقم ٣٦ – الكويت – ١٩٨٠

وبين الجنس .. ولا كانوا يعتقدون أن الجنس يبقى على الحب أو يزيد من إشتعاله .. بل على العكس كانوا يتخيلون النكاح يفسد الحب ويقضى عليه .. ومثلما تعددت أسماء الحب فى لغة العرب ما بين الهوى والصبوة والشغف والوجد والكلف والعشق والجوى والشجن واللوعة والود والغرام والهيام والوله حتى بلغ عددها ستون إسما .. تعددت بالمقابل قصص الحب فى الجاهلية .. فالإختلاط بين الفتيان والفتيات لم يكن محرما أو مرفوضا (١) .. وكثيرا ما شب الفتى والفتاة معا حتى يتقدم بهما العمر قليلا فيقع الإثنان في الحب .. عروة بن الورد وعفراء .. المرقش الأكبر وأسماء .. الصمة بن عبدالله بن مسعود وريا بنت مسعود بن رقاش .. كلها أسماء خلفت لنا قصص حب كبيرة وشهيرة .. ومن المؤكد أنها كانت قصصا عفيفة أيضا .. فقد كان ذلك هو العرف العام السائد فى ذلك الوقت .. وعلى سبيل المثال (٢) قيل لإعرابى ماذا تصنع إن ظفرت بمن تحب .. فقال أحلل ما يشتمل عليه الخمار .. وأحرم ما يكتمه الإزار .. وأزجر الحب عما يغضب الرب .

وبنفس هذا المعنى .. دار حوار بين الأصمعى وإمرأة من بنى عذرة (٣) .. فقال لها الأصمعى أنتم أهل العشق .. فما العشق عندكم .. فقالت له المرأة هو الغمزة والقبلة والضمة .. ثم سألت المرأة بدورها الأصمعى عن العشق فقال .. هو أن يلتقى الرجل بالمرأة فيرفع رجليها ويدفع بجهده بين شفريها .. فقالت المرأة .. ما هذا بعاشق وإنما هو طالب ولد .

وقد إشتهر بنو عذرة بأنهم رواد الحب العفيف فى شبه جزيرة العرب .. وهم ينتمون فى الأصل إلى قبائل قحطان من اليمن .. وكان الحب عندهم (٤) هو الحب حتى الموت .. إذا بدأ أو ولد فلا نهاية له ولا يموت .. وكان أيضا هو العفة المطلقة فلا يبغى العاشق من حبيبته شيئا إلا قربها والحديث إليها والغرق فى عينيها .. وسرعان ما أصبح الحب على طريقة بنى عذرة هو القدوة والمثل الأعلى .. بل وأصبح يقال بأن المحب لو إجتمعت فيه العفة وإحتمال الأسقام والالام .. كان هواه عذريا حتى ولو لم يكن من قبيلة بنى عذرة أو حتى من سائر قبائل العرب .. ومن هنا نشأ تعبير الحب العذرى ليصبح المقصود به هو كل علاقة حب وعشق لا علاقة لها بالجنس من قريب أو بعيد .. وإنما هى علاقة تفيض بالشقاء والمعاناة والحرمان وأحيانا بالدموع والبكاء .. وبات الكثيرون فى شبه جزيرة العرب ينشدون هذا الحب العذرى فى أحلامهم وحياتهم وفى أشعارهم أيضا .. حتى أننا نكتشف أن شعر الحب فى ديوان العرب ولد حزينا وباكيا (٥) .. وإلى درجة ألا يقال أن إمرؤ القيس هو أول شاعر أحب .. لكنه أول من وقف وإستوقف .. وأول من بكى فإستبكى .

ثم جاء الإسلام .. جاء وكلمات الحب والعشق ليست غريبة على اللسان أو الأذن .. بل وكانت تتداولها السنة الصحابة باللفظ والمعنى دون أن تنال من مهابتهم أو تنقص من وقارهم .. وجاء القرآن يحفل بكلمة الحب تقال فى إثنتين وثمانين موضعا منه .. صحيح أنها لم ترد بقصد التعبير عن العلاقة بين الرجل والمرأة سوى مرة واحدة وفى سياق الرواية القرآنية لقصة سيدنا يوسف

---

(١) د. أحمد محمد الحوفي – الغزل فى العصر الجاهلى – دار نهضة مصر – ١٩٧٣
(٢) شمس الدين ابن قيم الجوزية – أخبار النساء – مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٧٣
(٣) ابن قيم الجوزية – روضة المحبين ونزهة المشتاقين – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٧٧
(٤) د. كامل مصطفى الشيبى – الحب العذري – وزارة الثقافة والإعلام – العراق – ١٩٨٥
(٥) د. محمد سامى الدهان – الغزل – دار المعارف – ١٩٨١

عليه السلام حين وصف الله سبحانه وتعالى العلاقة بين سيدنا يوسف وإمرأة العزيز بأنه قد شغفها حبا .. إلا أن تلك المرة الواحدة كانت كافية جدا للكثيرين ليتخذوا من القرآن دليلا لا يقبل الشك أو المراجعة على وجود الحب .. هذا غير ما إستخلصه الناس من سيرة الرسول ومن أحاديثه كدلائل إضافية تعترف بالحب وتقر له بالوجود وبالحضور .. فغير أن الرسول كان دائم الحديث عن الحب فى مناجاته إلى الله ويقول .. اللهم إنى أسألك حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك .. إلا أن أهم دليلين إستند إليهما الناس فى إعتراف الرسول عليه الصلاة والسلام بالحب بين الرجل والمرأة .. هما حكاية الرسول[1] مع مغيث .. زوج بريرة مولاة عائشة رضى الله عنها .. وكان مغيث قد إفترق عن بريرة .. وإن كان لا يزال يحبها .. فكان يمشى دائما خلفها وعلى خديه تسيل دموعه .. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب بريرة قائلا .. لو راجعتيه ؟.. فقالت له بريرة .. أتأمرنى ؟.. فقال الرسول .. إنما أنا شافع .. فقالت بريرة .. لا حاجة لى فيه .. فلم يجبرها الرسول على أن تعود إلى رجل لا تحبه .. أيضا لم يستطع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقاوم مشاعره تجاه عائشه دون سائر زوجاته فكان يقول .. اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك .. أى أن غاية ما كان فى وسع الرسول هو أن يعامل زوجاته بمنتهى العدل كما أمر الله العباد .. لكنه لم يكن عادلا فى حبه أو مشاعره .. كان لا يملك ولا يطيق هذا العدل .. وهكذا تيقن المسلمون من وجود الحب وإعترفوا به .. لكن أى حب .. إن القصص والروايات تناولت الحب داخل مؤسسة الزواج .. ولم يفصل الإسلام بين الحب وبين الزواج .. أو أنه لم يعترف بعلاقة حب تولد وتنمو بعيدا عن الحلال الذى إختاره الله كشكل للعلاقة بين الرجل والمرأة .. بل وهناك حديث شريف رواه ابن عباس يقول فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام .. لم أر للمتحابين مثل النكاح .

ولا يعنى ذلك إلا أن الإسلام عاد بالحب إلى جذوره الأولى .. إلى واقعيته .. فلم يفسح مجالا لمثل ذاك الحب المجرد الذى ينشأ بين أى رجل وأية إمرأة .. ولم يسمح بمثل ذاك الحب الذى يقوم وينشأ بلا غاية أو هدف حقيقى ملموس .. أو بمعنى آخر أكثر دقة .. لم يعرف الإسلام ولم يعترف بمنطق أو مبدأ الحب للحب .. فلا الحب غاية فى حد ذاته .. ولا هو نهاية الرحلة أو الطريق .. وهى رؤية لاقت الكثير من التعنت والرفض غير المعلن .. أو أنها إصطدمت بالإنطباع العربى القديم عن الحب العذرى والهوى الخالص الذى إنتشرت قصصه فوق الرمال والجبال العربية .. ولهذا بدأت – ثم تعددت – محاولات المفكرين والفلاسفة للتقريب بين وجهتى النظر الدينية والتاريخية عن الحب .. فكتب الجاحظ عن النساء .. عن القيان .. عن الجوارى والغلمان .. وكتب أحمد بن الطيب السرخسى ثم ابن داود ثم محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ثم محمد بن جعفر الخرائطى ثم محمد بن عمر المرزبانى والحصرى القيروانى وجعفر السراج وابن الجوزى .. وبدا واضحا أن معظم تلك المحاولات كان القصد منها تنزيه الحب عن الجنس أو الإشتهاء أو الرغبة .. وقد حاول مثلا الفيلسوف الكبير ابن سينا الدفاع عن الحب العذرى بعد أن إكتشف أنه بالرغم من عذريته لا يخلو من العناق والقبلات .. فقرر فلسفة تلك النزعة الجسدية[2] فقال أنه إذا كان القصد من التقبيل والعناق هو التقارب والإتحاد فليسا بمنكرين فى ذاتهما .. لكن من الخطأ أن

(١) محمد على قطب – الحب والجنس من منظور إسلامى – مكتبة القرآن – ١٩٨٤

(٢) د. أحمد محمد الحوفى – الغزل فى العصر الجاهلى – دار نهضة مصر – ١٩٧٢

يتبعهما أمور شهوانية يجب التوقى عنهما .. ومن المؤكد أن تلك المحاولات خلفت وراءها كثيرا من البلبلة حتى أن التيفاشى يروى[(١)] لنا حكاية إثنين من المسلمين إلتقيا فدار بينهما حوار حول تعريف الزنا .. فقال أحدهما يعرف الزنا بأنه .. مص الريقة .. ولثم العشيقة .. والأخذ من الحديث بنصيب .. بينما عرف الآخر الزنا بأنه .. النق الشديد .. والجمع بين الركبة والوريد .. وصوت يوقظ النوام .. وفعل يوجب الكثير من الآثام .

وبكل هذة الرؤى والتناقضات وتباين المحاولات والقناعات .. ذهب المسلمون والعرب إلى مصر التى تعين عليها أخيرا أن تصيغ رؤية خاصة بها بعد طول تشتت وإضطراب .. ومن السهل أن نتخيل معالم وتفاصيل تلك الرؤية المصرية للحب والتى إمتزج فيها كل شئ .. بقايا التاريخ والكثير من البساطة والواقعية وقواعد وأحكام الدين الجديد مع عادات العرب الذين فتحت لهم مصر أبوابها .. من السهل أيضا أن نتخيل الحب فى مصر وقد أصبحت لتلك الكلمة عشرات من المعانى الفضفاضة .. أصبحت تعنى الغرام الخالص والعفيف أحيانا .. وتعنى الجنس والرغبة والإشتهاء أحيانا أخرى .. وسيبقى هذا هو حال الحب فى مصر أزمانا طويلة متعاقبة .. سيبقى مشهد جانبى كان من السهل العبور به أو تجاوزه فى أحيان كثيرة .. وستبقى العلاقة بين الرجل والمرأة فى مصر قائمة إما على إرتباط الزواج وقدسيته وإما على شكل علاقات العشق الآثمة .

وكان على مصر .. مثلها مثل كثير من الشعوب والدول والمجتمعات حولها .. أن تنتظر إختراعا أو إكتشافا سيقلب الدنيا رأسا على عقب .. إختراع إسمه الحب .. وإكتشاف إسمه الرومانسية .. وإذا كان الشاعر العربى نزار قبانى قد قال مرة فى إحدى قصائده .. الحب على الأرض بعض من تخيلنا .. لو لم نجده على الأرض لإخترعناه .. فإن نزار فى واقع الأمر لم يكتب شعرا أو أدبا .. إنما كتب ما حدث بالفعل .. فما قاله نزار فى قصيدته كان هو ما قامت به أوروبا فى القرن الثانى عشر .. حين باتت هناك حاجة لإختراع الحب كشكل ثالث للعلاقة بين الرجل والمرأة غير علاقة الزواج أو علاقة الفراش .. وهكذا يؤكد لنا دينيس دى روجيمون[(٢)] أن الحب – فى شكله الحالى – تم إختراعه بالفعل فى القرن الثانى عشر .. وكانت البداية هى العودة لحب السيدة العذراء .. ويشرح دينيس لنا العلاقة بين السيدة العذراء وبين الحب قائلا أن الناس فى ذلك الوقت .. فى أوج الحروب الصليبية وإتجاه العيون والقلوب إلى الشرق وبالتحديد إلى القدس .. كانوا فى حاجة إلى ما يعيد إليهم السلام الروحى الذى إغتالته حروب ونزاعات طويلة ومؤلة بين الحياة التى تفتش عنها الكنيسة والحياة التى يفرضها الأمر الواقع .. كان الناس يفتشون عن مشاعر تفيض بالبراءة لا تصطدم بدينهم ولا تجلب عليهم العار والفضيحة .. هذا كله بالإضافة إلى ما صاحب الحملات الصليبية من تألق وتوهج المد الدينى فى صفوف البسطاء والأبرياء الذين تخيلوها حروبا من أجل المسيح ومن أجل الصليب فأقبل الجميع على إسترجاع ذكريات الشهادة والطهارة المكللة بأغصان الزيتون .. ويضيف أندريه موروا أن الحروب الصليبية لم تقتصر آثارها على ذلك فقط .. وإنما أدت تلك الحروب إلى غياب كثير من الرجال عن بيوتهم وزوجاتهم .. فبدأت الزوجات ينشغلن بقراءة القصص الطويلة عن الحب والعلاقات الغرامية ..

---

(١) شهاب الدين أحمد التيفاشى – نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب – تحقيق جمال جمعة – رياض الريس للكتب والنشر – لندن – ١٩٩٢

(٢) دينيس دى روجيمون – الحب فى الغرب – نيويورك – ١٩٤١

وإلى جانب القصص إكتشفت الزوجات مدى رقة وروعة مشاعر الود التى يمكن أن يقدمها الأتباع والخدم الذين لم يذهبوا إلى الحرب .. ولم يملكوا من القدرة أو الجرأة ما يجعلهم قادرين على إصطحاب زوجات أسيادهم إلى الفراش .. فإكتفى الجميع بالكلام الناعم الرقيق .. والنظرات التى تذوب فيها المشاعر من الود المصحوب بالخجل .. بالإضافة إلى أن هؤلاء المحاربين العائدين من الشرق عادوا بزهد عظيم فى القوة والمغامرة والعنف .. كانوا يحتاجون فقط إلى إنسانيتهم وإلى حياة يشوبها رقة الهدوء وليست رائحة البارود .. وساعد ذلك كله على تهيئة الأجواء أمام الإختراع الجديد الذى إسمه الحب .. لينمو ويكبر وينال شهادات إعتماده فى قلوب الكثيرين والكثيرات .. وليصبح هذا الإختراع أيضا بمثابة بروفة للحب بشكله النهائى والذى سيعرفه العالم بعد قليل .. بالتحديد بعد نهضة أوروبا حين جرى تأصيل الرومانسية وترسيخها فى عقول ووجدان الجميع .. فتنقلت أوروبا من الحب فى عصر الفرسان فى القرن السابع عشر .. إلى الحب الباعث على الفضيلة فى القرن الثامن عشر .. إلى حب القرن التاسع عشر الذى بدأ يجمع ما بين الرومانسية والواقعية فى إناء واحد أو فى قلب واحد وتحت لواء كلمة واحدة إسمها الحب .. كلمة بدأت تتردد فى مصر على السنة الناس إما نتيجة الاف الأوروبيين القادمين من الشمال وإما نتيجة سفر الكثيرين إلى أوروبا وعودتهم حاملين أفكار الغرب وتقاليده ومشاعره ودساتيره الإجتماعية والأخلاقية والعاطفية .. وما إن بدأ القرن العشرين حتى كانت الروح المصرية مهيأة تماما للإعتراف بهذا الحب القادم من الشمال على الرغم من كل ما فيه من غموض ونقاط تماس بالغة الحساسية بين الحب والجنس وبين الحلال والحرام وبين ما يوافق عادات وتقاليد مجتمع شرقى وما يرفضه ويثور عليه مثل هذا المجتمع .

وإذا كان ثيودور رايك قد أكد (١) أن الحب ليس غريزة تولد مع الإنسان ... وأن الإنسان لا يشعر بالحاجة إلى الحب من تلقاء نفسه أو بمحض الصدفة .. بل إن الحب فى حقيقته كان نتاج حضارات كثيرة توالت وتعاقبت حتى إكتسب شكله الحالى وقيمته ومعناه بل وضرورته أيضا .. فإن مصر إستقبلت هذا الحب القادم من الشمال وهى – فيما أزعم – ليست متأهبة تماما للتعامل مع مثل هذا الحب .. أزعم أيضا أن الحب لم يتحول – رغم كل تلك الظروف والملابسات – إلى قضية إستدعت التوقف أمامها هنا فى مصر بالتأمل والتحليل والمراجعة .. ولم يكترث أحد بتلك الرومانسية الجديدة التى بات من السهل عليها أن تقنع الناس بخلع ملابسهم .. لم يهتم أحد بأن يشرح للناس المسموح والممنوع فى الحب .. بل ولم يشرح أحد ما هو الحب أصلا .. ولكن تعاملت معه مصر وكأنه أمر واقع .. أو كأنه إختراع جديد من العيب ألا تستعين به مثله مثل الكهرباء والسيارة أو أى إختراع آخر جاءت به الثورة الصناعية .

ووقعت مصر فى الحب .

وقعت وهى لا تزال بعد عاجزة عن صياغة رؤية خاصة بها يراها أهلها واضحة ومحددة المعالم .. عجز قد لا نجد تعبير عنه أو دليلا عليه أفضل من تأمل الشعر المصرى الذى بدأ يحاول التوغل فى بحر الحب (٢) فى

منتصف القرن التاسع عشر .. حين بدأ الهوى والنظم والإنشاد الشيخ رفاعة الطهطاوى ثم

---

(١) ثيودور رايك – الحب بين الشهوة والأنا – ترجمة ثائر ديب – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٢) د. محمد سامى الدهان – الغزل – دار المعارف – ١٩٨١

السيد على درويش والشيخ على الليثى ومحمود صفوت الساعاتى .. ولست أعتقد أن أحدا من هؤلاء الشيوخ والشعراء قد نجح كثيرا أو قليلا فى أن يغرس إسمه فى ذاكرة الناس والأمة بإستثناء الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى إشتهر بالتأكيد نتيجة أسباب أخرى وعبر منابر ومجالات بعيدة عن شعر الغرام والهيام .. وجاء بعد هؤلاء البارودى وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى ولحقوا بدورهم بسابقيهم فلم يخلف لنا أحدا شعرا عن الحب تتبادله وتتناوله وتحفظه ألسنة الناس .. ولست أعرف على وجه الدقة ما إذا كان هذا الفشل قد إكتمل نتيجه عدم إقتناعهم الشخصى بالحب كموضوع للقصيدة والإبداع والحوار .. أم نتيجة غياب الرؤية المصرية الواضحة والمحددة للحب .. وأيا كان السبب .. فقد كانت النتيجة أن تنازل شعر مصر عن دوره الحقيقى والطبيعى فى التنوير وإستباق الأيام وأحداثها والمشاعر وأغوارها .. وخرج الشعر مبكرا من ساحة الإقتتال الفكرى والإجتماعى والأخلاقى لصياغة رؤية أو معادلة مصرية للحب .. وبدورها أيضا خرجت القصة من الساحة .. فحتى قيام الحرب العالمية الثانية .. لم تنجح القصة [1] فى تصوير الحب من خلال الواقع الذى فاض بالصراع بين القديم والجديد .. ولم تنجح القصة فى كشف دوافع جنسية تتخفى خلف كثير من عاداتنا وسلوكنا .

الأغانى أيضا .. فشلت تماما فى أن تصيغ أية رؤية للحب تقدمها للناس .. فشلت على الرغم من أنها رفعت دائما لواء الحب والغناء للحب ومن أجل الحب .. فما إن نجحت الأغنية المصرية فى نزع ثياب الترك عنها وعن شكلها وطبيعتها .. حتى إستسلمت لمدرسة الصهبجية .. المدرسة التى كان روادها هم صبيان المقاهى والعوالم .. ثم إنتقلت فى القرن التاسع عشر ليحترفها ناس مثل سعد الدبل ومحمد الدبع ومطرية وحيدة إسمها ساكنة .. وغنت ساكنة للحب .. وترنمت فى حب فارس غرامها وأحلامها فقالت [2] .. أبوك وأمك جابوك عشان عذاب قلبى .. ليه ياترى أبوك زار أمك .. ليه أبوك وأمك خلفوك .

ولم ينجح مطرب إستقبلت مصر أوائل القرن العشرين على إيقاع أغانيه هو عبده الحامولى فى أن يغنى للحب بصوة أكثر إقناعا وأكثر إختلافا .. لا هو ولا مطربون كبار مثل محمد عثمان نجحوا فى ذلك .. فكان أن غابوا وتركوا الساحة لأغان مسخت الحب تماما وأحالت أغانيه إلى مجرد شهوات وتعابير جنسية سوقية وفجة .

حتى السير الشعبية التى تطوف الموالد وقرى الوادى فى الشمال والجنوب .. لم تتردد فى أن تستعين بقصص الحب والغرام حتى وإن جنحت فى ذلك على حساب الحقيقة والواقع .. وأنا هنا أسمح لنفسى بالإعتراض على فاروق خورشيد أحد أساتذتنا فى الأدب الشعبى والذى أكد فى دراسة هامة له [3] أن السير الشعبية إختلفت فى النهاية عن الشعر العربى .. فالشعر العربى إنقسم إما إلى حب عذرى بالغ التطهر.. أو حب بالغ الإرتباط بالجنس .. بينما السير الشعبية - والحديث لا يزال لفاروق خورشيد - رسمت الوانا من الحب أقرب إلى معايشة الناس فى حياتهم اليومية .

أعترض لأننى لست على قناعة بأن السير الشعبية نجحت فى معايشة الناس فى حياتهم

---

(١) د. عبد الحميد إبراهيم - القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث - دار المعارف - ١٩٧٣

(٢) إبراهيم عيسى وعبدالله كمال - الأغنية البديلة - بدون إسم ناشر - ١٩٨٨

(٣) فاروق خورشيد - عالم الأدب الشعبى العجيب - دار الشروق - ١٩٩١

اليومية .. على الأقل حين يتعلق الحديث بالحب .. فالحقيقة أن تلك السير لم تمد السنتها وروحها لتقتبس قصص الحب من حياة الناس وتقدمها لهم على هيئة حكايات وحواديت جميلة وخلابة وساحرة .. وإنما يمكن التأكيد على أن الكثير من تلك السير حاولت تزييف كل شئ له بالحب علاقة من قريب أو بعيد .. حاولت أن تخترع ما ليس له وجود أصلا على أرض مصر أو في تاريخها وفي وجدانها .. ولست أجد دليلا على ذلك أشد إقناعا من سيرة أو حكاية ياسين وبهية .. أكبر وأشهر حكاية شعبية مصرية عن الحب .. حكاية أصبحت كنزا خرافيا لا ينضب يمد مصر بالسير والأغاني والمواويل وعنها كتب نجيب سرور ثلاثيته المسرحية.ومنها مسرحية منين أجيب ناس .. فإذ بتلك الحكاية الخرافية عن الحب لا تغدو أكثر من حادثة إغتصاب .. نعم .. ياسين إختطف بهية من أهلها وذهب بها إلى الجبل حيث قام هناك بإغتصابها وإجبارها على معاشرته جنسيا حتى أنجبت له ولدا أسماه عربي .

الحكاية روتها جريدة الأهرام (١) .. وأعاد روايتها أكثر من مفكر ومؤرخ وأديب .. وتتلخص في أن ياسين الذي ينتمي إلى قبيلة العبابدة التي تعيش على حدود مصر والسودان .. كان أحد أكبر وأشهر قطاع الطرق في جنوب الصعيد .. بل وقيل أنه أقسى وأجرأ مجرم عرفته مصر في تاريخها .. يحب الدم والموت ويحب أن يقتل الناس ويحب أن يخافه الناس .. وكان من الممكن أن يعيش هكذا طويلا – بعد أن فشلت جميع الحملات التي أرسلتها الحكومة للقبض عليه حيا أو ميتا – لولا أنه إصطدم ببعثة عسكرية ترأسها ضابط شاب إسمه محمد صالح حرب كانت مهمتها الذهاب إلى وادي حلفا لشراء سرب من الجمال للخدمة في سلاح الهجانة .. وفي طريق العودة أطلق ياسين النار على قائد البعثة .. لكن القائد الذي كان يتمتع بقدرات خاصة في الرماية .. نجح في غرس إحدى رصاصاته في قلب ياسين .. وبعد موت ياسين دخل الرجال مغارته المظلمة وإذ بهم يكتشفون داخلها إمرأة تصرخ وبجوارها طفل يبكي .. فلما عرفت المرأة بموت ياسين حتى إنطلقت تزغرد تعبيرا عن حبها وسعادتها بخلاصها من الرجل الذي قالت لرجال الجيش أن إسمها بهية وأن ياسين إختطفها من أهلها وأجبرها على البقاء معه دون زواج .. وحاول اللواء إبراهيم الفحام فيما بعد (٢) الدفاع عن ياسين وأشار إلى أن بهية كانت زوجته بالفعل وبكامل إختيارها وإرادتها وإنما إدعت حادثة إختطافها وإغتصابها حتى لا تحاكم أولا بإعتبارها زوجة وشريكة السفاح وحتى لا يقتلها أهلها ثانيا خلاصا من عارها بإعتبارها تزوجت من رجل غريب وأنجبت منه دون رضاهم .. ولا يعني ذلك لا الموت .. لكن رائد التراث الشعبي زكريا الحجاوي أعاد التدقيق والتحقيق في كل تفاصيل الحكاية إنتهى إلى أنه لم يكن هناك زواج ولا قبول أو قناعة .. لكن خطف وإغتصاب وفعل فاضح في التاريخ سرعان ما أحاله البعض منا إلى قصة حب مدهشة وخرافية تستحق أن تحفظها مصر ويتناقلها أهلها جيلا بعد جيل يبكون على ياسين العاشق المقهور وعلى بهية التي بلغت الوقاحة والصفاقة ببعضنا أن إختارها رمزا وشعارا لمصر .. فكأن بهية هي مصر أو مصر هي بهية .. كأن مصر هي تلك الفتاة المغتصبة أو المرأة التي رضيت أو إضطرت لمعاشرة رجل في الحرام ليلة بعد ليلة وعاما بعد آخر .. وتصبح الرغبة في معرفة قاتل ياسين سؤال مقدس نتغنى به جميعا فتنفرط لحظات الشجن والأسى حين

(١) جريدة الأهرام – عدد ١٩٠٥/١٢/٩

(٢) مجلة البلاغ – عدد ١٩٨٥/١١

يطل علينا أحدهم بصوت زاعق .. يا بهية وخبريني ع اللى قتل ياسين ؟! .. وأنا أستئذن الجميع فى أن أريح مصر كلها من مثل هذا التساؤل المستفز والبليد وأقول لهم أن قاتل ياسين هو (١) اللواء محمد صالح حرب .. وزير سابق للحربية .. وأحد مجاهدى الإسلام .. وأحد رؤساء جمعية الشبان المسلمين .

ولست أعتقد أن حكاية ياسين وبهية باتت وحدها هى أول وآخر جريمة تزوير إرتكبناها فى مصر بإسم الحب ومن أجل الحب .. قد تكون فقط أشهرها .. لكن تعددت بعدها جرائم التزوير .. وباتت كلمة الحب فوق شفاهنا قابلة لأن تكون تبريرا لا نملك غيره لكل خطأ أو خطيئة .. ولكل تجاوز أو خروج على الدين أو القانون .. وإنتقلنا لنعيش زمانا أصبح فيه – من يرفض هذا الحب المطلق العقال من أى ضابط أو قيد – بمثابة إنسان رجعى ومتخلف لا يساير الزمن أو الحضارة أو التقدم .. إنتقلنا لنسكن مجتمع آخر .. فيه الحب قيمة مطلقة .. وغاية وهدف .. ولم يعد هناك من هو بقادر على أن يقف فى وجه طوفان الحب الذى حاصرنا من كل جهاتنا .. فى كل أيامنا .. فى شرود اليقظة وفى أحلام المنام .. فى دقائق الجد وساعات الهزل .. لم يعد هناك من بإمكانه أن يدقق ويفتش ويراجع ويسأل عن جدوى كل هذا الحب وآثاره وقيمته وجدواه وضرورته ومعناه ونهايته .. لم يعد هناك أيضا من يقلقه مصير الحب فى مصر .. ولا كم الخطايا والجرائم التى باتت ترتكب فى مصر بإسم الحب .. ولا المسافة التى تضاءلت إلى حد مزعج ومؤلم بين الحب وبين الجنس وكيف إختلطت وتشابهت وتشابكت قواعد المسموح والممنوع فى غابة العشاق على ضفاف النيل من أسوان وحتى الإسكندرية .

بإختصار تحول الحب فى مصر إلى كارثة .. وإلى تجارة أيضا .. تجارة رابحة جدا .. يربح صاحبها ماديا ومعنويا .. فلأن الناس باتت تفتش عن الحب طول الوقت .. أصبح من الممكن أن ينجح كل من يستطيع ترقيع ثوب أية أغنية بمفردات ساخنة عن الحب ولياليه وعذاباته .. أصبح من الضرورى أن ينجح كل من يغطى كلماته وأوراقه برومانسية من النوع الردئ والسخيف والتى بلا أى مضمون أو قيمة أو معنى .. لكن الناس تريد ذلك .. تنتظر ذلك .. ستدفع الكثير من مالها ثمنا لأن تسمع أو تشاهد أو تقرأ ذلك .. بل وحتى بدون رتوش تلك الرومانسية المزورة والأناقة الكاذبة .. سيدفع الناس الكثير من أموالهم القليلة ثمنا لكتب من نوع لوعة الحبيب .. هوس المحرومين .. جنة العشاق .. غرامى الوحيد .. حبيبى كل الأمل .. فهذة هى عناوين كتب تباع على أرصفة القاهرة وكثير من المدن المصرية وتلقى رواجا ليس يحلم به المفكرون والأدباء والشعراء الكبار .. كتب يقبل عليها الشباب أو الفتيات (٢) إما لأنهم يريدون معرفة المزيد من أسرار الحب ومعانيه .. وإما لأنهم غارقون بالفعل فى بحار الحب الناعمة ولا يريدون إلا الإستمتاع بالمزيد من الحب بالقراءة عن الحب .

وربما كان الدكتور أحمد عكاشة هو أحد القليلين الذين إمتلكوا ما ينقص الكثيرين من جرأة وقدرة ليقترب أكثر من تلك القنبلة المشتعلة التى هى الحب على الطريقة المصرية .. إقترب الدكتور عكاشة وتوقف وتأمل وعاد يقول لنا (٣) أن قدرات الأجيال الجديدة فى مصر على الحب محدودة ..

---

(١) جمال بدوى – نظرات فى تاريخ مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨
(٢) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٤/٧/٧
(٣) د. أحمد عكاشة – ثقوب فى الضمير – دار الشروق – ١٩٩٣

فالحب بالنسبة لهذه الأجيال تحول إلى معادلة حياتية الغرض منها إشباع الحاجات الأساسية .. لهذا يغلب الطابع الإنتهازى على العلاقات العاطفية المعاصرة .. سواء كانت تلك الإنتهازية عاطفية أو مادية أو جنسية .

هذا هو ما خرج به الدكتور أحمد عكاشة لمجرد أنه قرر الوقوف عند شاطئ البحر .. أما البحر نفسه فقد فاض بما لم يتوقعه أو يتخيله أحد .. مئات من الغرقى والاف أوشكوا على الغرق ولا يصلنا صوت إستغاثاتهم المذبوحة لأنها لا تستهوينا مثل أغانى الحب والعشق ومواويل الغرام والشوق .. وكم من فتاة غرقت فقط لأنها لم تتعلم للحب معنى إلا أن تسلم نفسها وجسدها لمن تحب .. وإذا كان هناك كثيرون بيننا لا يزالون يتذكرون تلك الليلة من عام ١٩٩٠ التى أظلمت فيها القاهرة كلها بعد إنقطاع الكهرباء عنها .. فمن المؤكد أنهم لا يعرفون أن ظلام تلك الليلة كان بمثابة نهاية فتاة إختارت أن تبدأ رحلتها إلى القاع وإلى المجهول .. وكانت تلك الفتاة (١) التى لم تكمل بعد العشرين من عمرها .. قد وقعت فى حب شاب فأسلمته نفسها .. ومرة بعد أخرى .. تكوم جنين فى بطن الفتاة .. فذهب العاشقان الصغيران إلى أحد الأطباء للتخلص من الجنين .. أخطأ الطبيب فتم إستئصال الرحم كله حفاظا على حياة الفتاة .. وإنتهى الأمر كالعادة فى قسم الشرطة .. وكانت المفاجأة أن رفض الأب طلب الشاب العاشق الزواج من إبنته .. وبدأ الأب يطوف بإبنته على عيادات الأطباء .. حتى كانت تلك الليلة التى أظلمت فيها القاهرة فى نفس اللحظة التى كانت الفتاة تغادر فيها عيادة أحد الأطباء بصحبة أبيها .. فإستغلت الفتاة الظلام وهربت من الأب ومن نفسها ومن قيودها .. كانت تريد الحب وستسعى خلفه مهما كان الثمن .

حكاية .. ستتكرر كثيرا .. وستنشر مثلها صحافة مصر إلى درجة الرتابة والملل .. وستتشابه النهايات مهما إختلفت البدايات .. وسواء كانت جنة الحب هى القاهرة أو الفيوم أو الزقازيق أو الإسكندرية أو طنطا .. فكل الجنات فى النهاية جحيم وعذاب ودماء وخراب .. لكن .. وعلى الرغم من هذا التشابه والتكرار .. تبقى هناك حكايات تحتفظ بخصوصيتها وقدرتها على إزعاجنا وإقلاقنا .. فالفتاة هذه المرة لا تزال طالبة فى المرحلة الإعدادية .. ومع ذلك تعلمت كيف تحب .. وكيف تمارس الجنس مع من تحب .. وكان الحبيب حداد مسلح نجح فى إيهام الطالبة الصغيرة بالحب .. فذهبت معه إلى شقته وخلعت ثياب المدرسة ونامت بجواره على الفراش .. هكذا مرة واحدة .. لا هى تساءلت عن نهاية أو مصير لهذا الحب .. ولا هى ترددت أو خافت أو فكرت فى التراجع .. فلم تكن تعرف إلا الحب .. ولم تكن تريد إلا أن تحب .. وعلى العكس تماما كانت فتاة أخرى .. كانت تريد الحب وتريد أن تحب .. وأيضا تريد وتحلم بالزواج ممن تحب .. لكن لم يكن هناك ما يضطرها للإنتظار طويلا حتى يتحقق مثل هذا الحلم البعيد .. فقامت الفتاة (٢) بسرقة أربعة الاف جنيها من أبيها وأعطتهم لحبيبها ليسافر الإثنان معا إلى الإسكندرية للإستمتاع بهذا الحب .. وبعد أسبوع طويل فاض بالحب .. وبالجنس أيضا .. عاد الحبيبان مرة أخرى إلى الخانكة .. لكن فوجئت الفتاة بحبيبها يلغى تماما فكرة الزواج .. فذهبت الفتاة إلى قسم الشرطة فقط لتستطيع تحقيق حلمها القديم وتتزوج ممن تحب .

حكاية أخرى .. أشد غرابة وإثارة .. بطلتها فتاة فى السادسة عشر من عمرها .. وقعت فى

---

(١) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٩٠/٩/٦

(٢) جريدة الأحرار - عدد ١٩٩٤/٧/١٥

حب إبن الجيران الذى لم يتجاوز التاس ة عشر من العمر .. وأدى هذا الحب لأن يلتقى الإثنان فى إحدى الشقق الخالية بعمارة يملك والد الشاب .. وإستعذب الإثنان هذا الحب المغموس بالجنس .. فقررت الفتاة ألا تعود لبيت بيها مرة أخرى .. وبقيت الفتاة مع حبيبها فى الشقة ثلاثة أيام كاملة يتبادلان خلالها الحب و لجنس .. حتى فوجئ العاشقان الصغيران بوالدة الفتاة تصطحب رجال الشرطة إلى باب الـ ـة .. وفى قسم الشرطة إتفقت العائلتان على زواج العاشقين الصغيرين .. وعادا بالفعل ى نفس الشقة مرة أخرى ولكن كزوج وزوجة .. لا يملكان إلا هذة الشقة ومرتبة متواضعة يمار أن فوقها الحب والجنس والحياة كلها .. وبعد شهر واحد من الزواج .. قطع والد الزوج المصرو ن إبنه .. فبدأ الإثنان فى أول الأمر يستجديان الطعام من عائلتيهما .. حتى قررا فى النهاي الإنفص بعود كل منهما إلى بيته وعائلته وليذهب الحب والجنس إلى الجحيم .. مات الحب أيضا ... خرى بطلتها فتاة (١) وقعت فى الحب مع إبن عمها .. وتقدم إبن عمها يطلب يدها ... بهما بالفعل .. فلم يعد هناك ما يمنع العاشقين من ممارسة الجنس .. وبالفعل بدأ جنين فى احشاء الفتاة .. فأسرع العاشقان بالزواج سترا لكل شئ .. ووضعت الزوجة مولودها بعد خمسة أشهر فقط من الزواج .. فما كان من الحبيب والزوج إلا أن رفض الإعتراف بهذا المو إبنا له مؤكدا أنه لم يعد يثق فى زوجته وحبيبته .. وأنها إذا كانت قد إستسلمت له .. ف ذى يمنعها من الإستسلام لغيره .. وهى حكاية باتت للأسف تتكرر كثيرا .. مثلها حكايات ن لها أو آخر .. أبطالها عشاق إتفقوا على الزواج بالفعل لكن كان الصبر فوق إستطاعتهم فإختصروا الكثير من التفاصيل ومارسوا الجنس دون إنتظار ودون زواج .. أما الحكايات الأشد عنفا وقسوة .. فهى الحكايات التى بدأت تتكاثر مؤخرا ولم يعد فيها الزواج – أو حتى الوعد به والتفكير فيه – شرطا لدوام الحب أو الإستسلام له وللجنس .. صحيح أن كثيرين منا وبيننا بدأوا يتعاملون بهذا المنطق منذ سنوات .. لكن حتى بالنسبة لهؤلاء كان إحتمال الزواج أو الإرتباط قائما ولو كطيف بعيد وغامض يكسوه الضباب .. اليوم لم يعد الزواج يعنى شيئا من قريب أو بعيد .. لم يعد هدفا أو شرطا أو غاية أو حتى طيفا غامضا أو وهما من حرير نخدع به أنفسنا قبل أن نخدع الآخرين .

وتحولت فتيات عندنا – بكامل إرادتهن وقناعتهن وإختيارهن – إلى تلميذات مخلصات لغادة السمان .. الكاتبة والروائية التى كتبت تؤكد (٢) أن .. الحب الحقيقى لا يكتمل إلا بممارسة الجنس .. الحب النظرى والشفهى جميل كبداية .. كمقبلات فاتحة للشهية .. ولكن اللقاء الجسدى هو التتويج الحقيقى لكل علاقة ناضجة بين رجل وإمرأة .. بل هى أيضا المحك لصدق حبهما .

هذة هى شهادة غادة السمان .. أو هى وصيتها لنا التى من المؤكد لاقت قبول وترحيب وإستحسان الكثيرات وإقتناعهن أيضا .. فإندفعت كل منهن تفتش عن نصيبها من المائدة الرئيسية بعد أن إكتفت لفترة طويلة بالمقبلات وفواتح الشهية .. أو قررت كل منهن البحث عن تتويج حقيقى لحبها .. فذهبت مع من تحب إلى أقرب باب يمكن إغلاقه .. وخلعت ثيابها .. وإستعدت مع حبيبها لخوض هذا الإمتحان العارى والمبتذل والذى ستكشف نتيجته إلى أى مدى كان حبهما ناضجا وحميما وصادقا .

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٨/١٥

(٢) غادة السمان – القبيلة تستجوب القتيلة – منشورات غادة السمان – ١٩٨٢

وفى واقع الأمر .. لم تأت غادة السمان بأى جديد .. لا هى ولا كل من كتب مثلها يدعو للإلتحام العميق بين الحب والجنس .. فقبلهم جميعا كتب المفكرون فى الغرب ونادوا بإلغاء المسافة بين الحب والجنس .. إستنادا إلى أنها مسافة ليس لها مبرر أو ضرورة .. ولم يكن لها وجود أصلا .. وكانت دعوتهم بالقطع لا تخلو من الوجاهة أو المنطق أو القدرة على الإقناع .. فنحن نجد فيها بقايا التاريخ القديم وأساسيات العلاقة بين الرجل والمرأة فى أزمانهما الأولى على سطح الأرض .. ونجد فيها نظريات قدمها علم النفس بداية من سيجموند فرويد الذى أكد [١] بأن الجنس هو نواة كل حب فى الدنيا سواء كان حب الرجل للمرأة أو المرأة للرجل أو حب الإنسان حتى لشخصه وذاته .. وغير فرويد كان هناك أكثر من طبيب وعالم نفسى لم يجدوا خطوات كثيرة هناك تفصل ما بين إحساس إنسان بحب إنسان آخر وبين رغبته العميقة فى التكامل مع هذا الإنسان جسديا وجنسيا أيضا .

وعلى الرغم من الإنتقادات الكثيرة – العلمية والأخلاقية والإجتماعية – التى واجهتها مثل تلك الدعوة الغربية لإلتحام الحب والجنس .. على الرغم أيضا من الإعتراضات والتحفظات وعشرات من الدعاوى ووجهات النظر الأخرى .. إلا أن أحدا لم يملك رفاهية الإنتظار أو القدرة على التروى والصبر .. فإندفع الجميع إلى بحر الجنس المحموم خاصة وأنه لم يعد ذلك الخليج الضيق المقفل على الشهوات والرغبات .. وإنما إمتزج ببحر الحب العميق والفضفاض الذى إتسع لكل المعانى والمشاعر والعواطف .. وأيضا لأن المناخ العام فى الغرب أصبح مناخا جنسيا كل ما فيه يبعث على الرغبة ويدفع إلى التفتيش عن الجنس .. وإلى الحد الذى دفع بأحد مفكرى أوروبا لأن يؤكد[٢] أن الشيطان هناك يشكو البطالة .. فهناك كثيرون أصبحوا على إستعداد للقيام بالعمل بدلا منه أو خيرا منه أحيانا .. موسيقى الروك أند رول مثلا .. فقد إكتشف المفكر الكبير أن تلك الموسيقى أصبحت دافعا قويا وملحا لممارسة الجنس .. وأشار إلى دراسة بينت أنه من بين الف فتاة حامل دون زواج .. إعترفت تسعمائة وثمانون فتاة منهن بأنهن مارسن الجنس أثناء الإستماع لإحدى الإسطوانات الموسيقية .

وبمنتهى الأسف .. قررنا نحن إستيراد كل ذلك إلى مصر .. قررنا المجئ بمثل تلك الصيغة سابقة التجهيز للحب وفتحنا أمامها أبواب مجتمعنا وعقولنا وقلوبنا ومشاعرنا .. ونسينا أمورا كثيرة وإمتلكنا القدرة على تجاهل حقائق أكثر .. نسينا ما سبق وإتفق عليه الجميع بأن الحب ليس غريزة .. وإنما هو نتاج حضارى سيتغير شكله ومعناه وجدواه من حضارة لأخرى ومن أمة لأخرى .. نسينا أن الحب ليس عصفورا مطلق الجناح دائم الطيران بلا عش أو قفص .. إنما هو محكوم دائما وجناحاه أسيران طول الوقت لديننا وعاداتنا وقوانيننا .. ونسيت فتياتنا – أولئك اللواتى إستسلمن لمثل تلك الدعوة وفرحن بها – أنهن وحدهن اللواتى إقتنعن بذلك .. وأن الفتاة منهن حين تسلم نفسها وجسدها لمن تحب .. فإنها فى حقيقة الأمر تسلم كل شئ إلى شاب ليس على إستعداد غالبا لأن يسايرها ويقتنع معها بنفس تلك الدعاوى .. وسيكون أول من يشهر رفضه أو غضبه أو ثورته إذا كانت تلك الفتاة هى شقيقته أو حتى حبيبة ستصبح قريبا زوجته .

كان هذا بعض ما نسيناه .. أما الذى إمتلكنا القدرة على تجاهله .. فهو كثير أيضا .. وأهم

---

(١) أ .س . كون – الجنس من الأسطورة إلى العلم – ترجمة د. منير شحود – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

(٢) فيليب كامبى – العشق الجنسى والمقدس – ترجمة عبد الهادى عباس – دار الحصاد – سوريا – ١٩٩٢

ما تجاهلناه كان كل تلك الآراء والدعاوى المعارضة لمبدأ إلتحام الحب والجنس .. وهى أراء ودعاوى إستندت إلى أن الحب الذى نعرفه اليوم .. ولد ونشأ فى ظروف وحضارة أخرى تختلف تماما عن الحب الذى عرفه ومارسه الناس فى زمن البدائية القديمة .. بل إن ثيودور رايك - والذى كان أول وأهم من أشار إلى ظروف ميلاد الحب البدائى على فراش الجنس بين الرجل والمرأة - عاد وأشار فى نفس دراسته (١) إلى أن الحب كما عرفناه - منذ القرن الثانى عشر وفى عصور ما بعد النهضة الأوروبية - برز إلى ساحاتنا كمنافس حقيقي للجنس وليس مجرد شكل أو غطاء له .. وهو تنافس دام طويلا قبل أن يتحد الإثنان معا .. ليس بقصد أنهما تشابها وتشاركا فى معنى ومفهوم واحد .. وإنما يقصد رايك أن الحب أصبح مكملا للجنس .. أو أن الجنس صار مكملا للحب .. أما الخلط بين الإثنين .. فهو ما رآه رايك أحد الأخطاء القاتلة فى التحليل النفسى .. لأن حضاراتنا المعاصرة قد جعلت للحب أدوارا ووظائفا مغايرة تماما لكل الأدوار والوظائف التى يلعبها الجنس فى حياتنا .. ولن تتشابه تلك الأدوار والوظائف - فى رأى رايك - إلا بعد قرون طويلة من الآن .. أو غالبا فى سنة ٣٩٠٠ حين يصبح الجنس الحب .. والحب هو الجنس .. وبلا أية مسافة أو فوارق تفصل بينهما .. وسيصبح الحب شرطا أساسيا لممارسة الجنس .. ولن يعود هناك رجل أو إمرأة على إستعداد لممارسة الجنس دون علاقة حب حميمة وصادقة وحافلة بكل معاني الود والإنتماء .

ويبدو أن التفتيش عن مستقبل للحب .. أو تصور مستقبل الحب .. قد تحول إلى هاجس للكثيرين وليس لثيودور رايك وحده .. ففى عام ١٩٩٣ إستضافت مدينة أوبورتو البرتغالية (٢) أكبر مؤتمر علمى فى التاريخ لدراسة مستقبل العلاقة بين الجنسين .. وإنتهى المؤتمر بنتيجة يمكن تلخيصها فى أن الحب سيتقاعد قريبا أو سنحيله نحن ونجبره على التقاعد ولن يكون له مكان أو دور فى مستقبل ستطغى عليه المادة وسيغدو فيه كل إنسان جزيرة منفصلة مكتفية بذاتها لا تمد جسور التدفق والتواصل الحميم مع ما حولها من جزر .. وهو الأمر الذى سبق ورفض الإعتراف به تماما مفكر بوزن وحجم هنرى هافلوك إيليس .. والذى بقى دائما يرفض الحديث عن الحب والمستقبل .. مؤكدا أن الشاطئ الآخر لا يزال بعيدا ومجهولا وغامضا تشق على الجميع رؤيته بوضوح .. وأشار هنرى إيليس (٣) إلى أننا لا نزال نعجز عن الوصول إلى تعريف محدد يميز الحب عن الرغبة وعن الجنس .. وإذا كان هنرى قد أكد أن فحص خلايا المخ والتفتيش فيها وفى تأثرها بإنفعالاتنا سينتهى بنا إلى أن الحب ما هو إلا غريزة جنسية .. إلا أنه يعود ويحذرنا من العجلة والتسطيح .. فالأمر ليس بهذة البساطة ولا هذا الوضوح الذى يدعو إلى الشك والريبة أكثر مما يدعو للثقة واليقين .

ونفس النصيحة ومناشدتنا التمهل والتروى .. يقدمها لنا مفكر آخر هو إريك فروم .. والذى تحول بدوره إلى أحد أساتذة العالم فى الحب .. ويؤكد فروم (٤) أنه من المستحيل التعامل مع الحب بشكل عام أو مطلق .. وإنما تغدو كل حكاية حب وعلى أنها حالة خاصة ترتبط ملامحها ومعانيها بشخصية صاحبها .. ترتبط كل حكاية حب أيضا بالأحوال الإقتصادية والإجتماعية فى

(١) ثيودور رايك - الحب بين الشهوة والأنا - ترجمة ثائر ديب - دار الحوار - سوريا - ١٩٩٢
(٢) جريدة الشرق الأوسط - لندن - عدد ١٩٩٣/٥/٤
(٣) هنرى هافلوك إيليس - الجنس والزواج وفن الحب - ترجمة عبد الإله الكويتى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - ١٩٩١
(٤) إريك فروم - فن الحب - بانتام بوكس - نيويورك - ١٩٥٦

الدولة التى تجرى وقائع تلك الحكاية .. أما الذى يمكن أن تتشابه فيه كل قصص الحب على إختلاف جنسياتها ومواقعها وأصحابها وظروفها الإجتماعية والإقتصادية .. فهى – على حد تعبير فروم – أربعة أساسيات .. هى العناية والإهتمام بإنسان آخر .. الإحساس بالمسئولية عن هذا الإنسان .. إحترام مشاعر ورغبات هذا الإنسان .. وأخيرا أن تعرف تماما هذا الإنسان وتعرف تفاصيله وأبعاده وأسراره ودوافعه ونواياه وأحلامه .

هذة هى الأساسيات التى أكد فروم على ضرورة وجودها لتكتمل وتعيش أية قصة حب .. أما معانى ومفاهيم تلك الأساسيات .. فهى التى تختلف من شخص لآخر .. ومن مجتمع لآخر .. وهى الحقيقة التى لا يريدنا البعض هنا فى مصر أن نعترف بها .. ولا يريدون لنا أن نعيد رسم وتشكيل تلك الأساسيات وفقا لظروفنا وأحوالنا والتزاماتنا الدينية والإجتماعية والأخلاقية والإقتصادية أيضا .. فقط يريدون الحب على الطريقة الغربية .. الطريقة التى تستهويهم أكثر من أية طريقة أخرى .. الطريقة التى ليس هناك أسهل منها لإقناع الفتاة أو المرأة بخلع ملابسها والإنقياد إلى أقرب فراش .. وكل من يرفض ذلك .. يصبح من وجهة نظرهم إنسان غبى جاهل متخلف متزمت متطرف لا يحمل فى صدره قلبا ينبض ولا يحتفظ تحت جلده بمشاعر وأعصاب تحترق وتتوهج وتأتلق بالحب والغرام .

ولا يصر هؤلاء على هذا الحب العارى والمتسامح فقط .. بل يريدون أيضا الحب السهل .. فهم يرفعون لواء المطربة اللبنانية صباح حين غنت منذ سنوات طويلة .. يا ناس يا هوه .. الحب ليه بتعقدوه .. الحب ليه بتفلسفوه .. وكان من الممكن أن نقتنع كلنا بوجهة نظر صباح .. فليس أحلى من أن نترك الحب هكذا كما هو وكما إعتدنا عليه .. عبارات رقيقة ونظرات ناعمة ودنيا أخرى أحلى من الدنيا .. لولا أن ذلك كله ليس صحيحا ولا هو فى صالح أحد ولا فى صالح مصر نفسها فى النهاية .. فالحب فى رأى هنرى هافلوك إيليس أهم وأخطر من أن يترك للشعراء وحدهم .. والحب فى رأى عباس محمود العقاد [1] أحد مقاييس تحضر الأمة بمعنى أن لكل إنسان شروط ومواصفات محددة يجب توافرها فى إنسان حتى يحبه .. وكلما تعددت وتباينت تلك الشروط كلما كان ذلك دليلا على تحضر الناس ومدى وعيهم وعمقهم .. ويضيف العقاد أنه ليس أدل على إضمحلال أمة من سهولة وسذاجة الشروط التى ينبغى توافرها لتنشأ قصة حب.

وقد يعترض أحدهم على رأى العقاد ويستسخفه مستندا إلى أنه ما من شك فى تحضر أوروبا مثلا .. ومع ذلك نجد الشاب هناك يلتقى مع الفتاة ويذهبان معا دون شروط مسبقة أو مواصفات جرى بحثها وتقييمها .. وغنى عن الذكر أن مثل هذا الإعتراض لا منطق له ولا مصداقية .. فهذا المثال لا تنطبق عليه مواصفات قصة الحب كما قصد العقاد .. وإنما هى لقاء عابر من أجل الجنس أو خوفا من الوحشة والوحدة .. وقد تتعدد تلك اللقاءات العابرة والقصيرة قبل أن يقع الشاب أو الفتاة هناك فى الحب .. فالحب قطعا أكبر من تلك اللقاءات العابرة .. وهو أيضا أعمق من قصائد كل شعرائنا ومن أغانى كل مطربينا ومطرباتنا .. ولو إستطعنا إدراك ذلك.. أو نجحنا فى الإقتناع بذلك .. لأصبح ممكنا أن نتجنب كثيرا من الهموم والخطايا والدموع هنا فى مصر .

---

(١) عباس محمود العقاد – الفصول – المكتبة العصرية – بيروت – ١٩٢٢

فمن المؤسف .. أن أحدنا لم يحاول مؤخرا أن يلقى نظرة على خريطة الحب المصرية .. ومن يقوم بذلك لن يكتشف فقط إلى أى مدى إرتبط الحب بالجنس وبالتنازلات الدينية والأخلاقية .. لكنه سيكتشف أيضا أن الحب في مجتمعنا تحول إلى وجع مؤرق أحيانا .. وجع قاتل أحيانا أخرى .. سيكتشف أيضا عدة ظواهر باتت جديرة بالتوقف والدراسة .

الظاهرة الأولى .. هى هروب الفتيات ليلة زفافهن إذا لم يكن الزوج هو الحبيب .. ولست أقصد الفتاة التى ترغمها عائلتها على الزواج من أحد نماذج السينما .. الرجل القبيح والتافه غالباً ودائما والذى يملك الكثير من المال والكثير من المبررات التى تجعل أية فتاة تفضل الموت على الإرتباط به .. وإنما أقصد الفتاة التى يتقدم لها الشاب المناسب وتوافق عليه العائلة .. وتوافق عليه الفتاة نفسها .. لكنها – وحين يقترب الموعد وغالبا صباح يوم الزفاف أو بعده بأيام قليلة – تعتقد الفتاة أنه ليس بإمكانها الإستغناء عن حبها وعن حبيبها .. فتهرب من حلم الزواج الجميل إلى وهم الحب الأكثر جمالا وشاعرية .. وفى خمسة أشهر فقط من عام ١٩٩٤ .. تكررت تلك الحكاية – مع إختلاف التفاصيل – أربع مرات .. الأولى [١] هربت ليلة زفافها وسافرت مع حبيبها إلى العريش .. وأسلمته هناك نفسها وجسدها .. ثم إنتهى بها الأمر كعاهرة يدير حبيبها تجارة جسدها .. والثانية [٢] ذهبت لوداع حبيبها قبل أن يتم زفافها إلى رجل الأعمال بأيام قليلة .. وكانت ليلة وداع بحق .. فنسيت العروس نفسها وبقيت عارية بين أحضان الحبيب طول الليل حتى إضطرت لتلفيق حادثة إغتصاب بعد ذلك لتبرير ما جرى ولكن إكتشف الجميع زيف مبرراتها .. والثالثة [٣] وافقت على الإرتباط بميكانيكى لا يعوزه المال على الرغم من أنها كانت على علاقة حب بشخص آخر .. تخيلت أنها ستنسى وستتفرغ لبيتها وزوجها وأولاد المستقبل .. وتم زفافها بالفعل .. لكنها هربت بعد خمسة أيام فقط لأنها إكتشفت أنه لا شئ فى الدنيا يفوق الحب أو حتى يعادله .. والرابعة [٤] كانت طالبة بكلية بنات عين شمس تعيش قصة حب طويلة مع كابتن فريق كرة الماء وأحد لاعبى المنتخب القومى المصرى .. وفى نهار يوم الزواج .. غافلت الطالبة الجامعية زوج المستقبل حين إصطحبها إلى الكوافير وهربت إلى حبيبها .

أما الظاهرة الثانية الجديدة على خريطة الحب فى مصر .. فهى العلاقة الوثيقة التى بدأت تولد بين الحب وبين الموت .. أن يحب الشاب فتاة ترفض أن تبادله الحب فيقتلها .. أو يقرر الشاب إنهاء حكاية الحب فتقتله حبيبته .. وبالنسبة لتلك الظاهرة .. يتزايد يوما بعد آخر عدد الحكايات .. ويتزايد عدد العشاق أو المعشوقين الموتى سواء فى القاهرة وسائر المدن المصرية أو حتى فى القرية المصرية .. ويتزايد عدد الجرائم التى باتت ترتكب كل يوم فى مصر بإسم الحب .

والظاهرة الثالثة هى تلك التى تخص أولئك الذين توهموا فجأة أنهم عادوا عشاقا .. أولئك الرجال الذين تجاوز عمر الواحد منهم الخمسين عاما ويبدأ يحب فتاة تصغره بأعوام كثيرة وطويلة .. ظاهرة أشارت إليها مجلة صباح الخير [٥] تحت عنوان .. مراهقة آخر زمن .. وقد إستعانت المجلة بالدكتور محسن العرقان .. الخبير النفسى بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية ..

---

(١) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٤/٢٦
(٢) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٤/٢٦
(٣) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٤/٦/١٩
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٩/٤
(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٩/٩/٢٨

فقال أن أسباب تلك الظاهرة ترجع فى المقام الأول إلى أسباب أو تغييرات فسيولوجية تصاحب كبر السن .. كلها تؤدى إلى تغييرات نفسية أهمها الإحساس بالإكتئاب والإنعزال .. وهنا تختلف مواجهة هذا الإحساس من رجل إلى آخر .. فهناك من يحافظ على سنه وكرامته وتصرفاته .. ويعتبر نفسه قيمه فى حد ذاته بإعتباره أصبح خبيرا فى مجاله ولا يزال قادرا على العطاء .. وهناك بالمقابل الرجل – القادر ماديا غالبا – الذى يواجه مثل هذا الإحساس بعقدة الدونجوانية.. أى التركيز على مظهره مع الرغبة فى الإستعراض لتعويض ما فات من عمره .. ويستكمل الصورة الدكتور عادل عازر .. المستشار بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. ويشير إلى أن عدم إهتمام الزوجة برجلها ومعاملتها له التى تغيرت .. قد يكون الدافع لمثل هذا الرجل لأن يقع فى الحب .. ثم يشير أكثر من طبيب وعالم إجتماع إلى أن ذلك ليس حبا على الإطلاق .. ولكنه أحد خيارين أساسيين أمام هؤلاء الرجال .. إما إنهم يريدون الجنس ويصبح الحب غلافا رقيقا ومهذبا لرغبتهم .. وإما أنهم بهذا الوهم يصالحون أنفسهم ويحاولون التوازن النفسى والإجتماعى .. فالرجل منهم .. بعد رحلة طويلة وشاقة من العمل والمعاناة الدائمة .. يحقق الكثير من أحلامه ويمنح أسرته الكثير من الرفاهية التى قد لم ينعم بها نفسه فى سنوات طفولته وصباه وشبابه .. وهو فى قرارة نفسه سعيد بذلك النجاح وتلك الرفاهية .. لكنه يريد دائما من زوجته ومن صغاره التعبير فى كل وقت عن إمتنانهم العميق لكل ما قام به من جهد وكل ما قدمه من تضحيات .. وهو ما لن تفكر فيه أو تقوم به الزوجة مثلا ولا حتى الصغار .. فالزوجة تعتبر نفسها دائما شريكة زوجها .. قاسمته المعاناة والأحلام .. ولم يعد عيبا أن تقاسمه النجاح والرفاهية .. والصغار سيتعاملون معه وعلى أنه الأب المسئول عنهم دوما .. والذى من أقدس واجباته توفير كل إحتياجاتهم دون شكر أو إمتنان خاص من جانبهم .. فسرعان ما يشعر مثل هذا الرجل بالإحباط وبالمرارة والحسرة أيضا .. ويتسرب إليه بالتدريج إحساس من ضحى بالكثير جدا من أجل من لا يستحق .. وفجأة يجد أمامه تلك التى كانت تستحق كل هذة التضحيات وكل هذة المكاسب .. فتاة صغيرة غالبا .. تجيد الإصغاء .. تجيد النفاق .. تعرف على وجه الدقة ما الذى يريده منها هذا الرجل فتمنحه إياه .. أيضا بإسم الحب .

كل شئ فى مصر ممكن .. بدعوى الحب .. وبإسم الحب .

كل ذلك .. لأننا لا نزال لا نعرف .. ما هو الحب .

وهناك كثيرون حولنا أيضا لا يعرفون ما هو الحب .. الفارق بيننا وبينهم .. هو أننا نريد أن نعرف ولكننا لسنا على إستعداد لأن نتعب ونفكر ونحاول أن نعرف .. وهم يحاولون طول الوقت أن يعرفوا دون تعب أو يأس .. فارق آخر بيننا هو أننا عهدنا بتلك المهمة إلى المطربين والشعراء .. فى حين عهدوا هم بها إلى الأطباء وعلماء النفس والإجتماع .. فبقينا نحن نتلقى دروس الحب والهجر من أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وعمرو دياب وراغب علامة.. بينما هم ساروا خلف أبحاثهم ودراساتهم .. ولم يعد هناك ما يمنع الآن من أن نتعلم منهم ولو قليلا .. وأن نعرف بعض الذى عرفوه عن الحب .

ومن هؤلاء الذى ينبغى علينا التوقف عندهم .. هيلين فيشر .. الباحثة بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى .. والتى قدمت مؤخرا (١) كتابا بعنوان تشريح الحب أثار ضجة هائلة فى أوساط

---

(١) مجلة تايم – عدد ١٩٩٣/٢/١٥

العلماء بقدر ما أثاره من ضجة لدى الناس .. فهيلين أكدت أن الحب غريزة أساسية .. مثله مثل الخوف أو الغضب أو السعادة .. والمشكلة فقط أن علماء الإجتماع كانوا فقط يذهبون للمكان الخطأ ويبحثون عنه .. وأضافت هيلين فيشر مشكلة أخرى كانت تواجه كل من يبحث فى تاريخ الحب .. وهى أننا إعتدنا البحث عن الحب كإسم وليس كمعنى .. ولهذا كنا لا نجده عند كثير من الشعوب والمجتمعات .. فى حين أننا لو القينا بالأسماء والألفاظ جانبا وبحثنا فقط عن المعنى .. نعثر عليه غالبا ودائما كمادة خام لكل شعب مطلق الحرية فى تطويعها وفقا لمفاهيمه وحياته وقوانينه وعاداته .. ولم تكتف هيلين فيشر فقط بإثبات أن الحب كان دائما هناك حتى وإن لم يره الكثيرون .. وإنما قدمت لنا أيضا نظرية جديدة فى مفهوم الحب .. نظرية إعتمدت على الطب وليس المشاعر .. التحاليل وليس الكلمات .. وهى النظرية التى يمكن تلخيصها فى أن الحب يولد عبر ثلاثة مراحل أساسية ورئيسية .. فى المرحلة الأولى تتشارك خبرات الإنسان وتجاربه فى الحياة وجيناته الوراثية .. ليولد داخل هذا الإنسان إحساس بالميل لإنسان أخر .. ثم تأتى المرحلة الثانية .. وهى التى تتميز بزيادة معدل إفراز مواد كيميائية وهرمونات مثل الفينيلثيلامين ثم الدوبامين والنورإيفيدرين .. وتتسبب تلك المواد فى إحساس الإنسان بالبهجة والسعادة .. ولكنه إحساس مؤقت وغير دائم ينتهى فى خلال عامين أو ثلاثة أعوام على الأكثر يبدأ بعدها فى التلاشى .. وفى المرحلة الثالثة يبدأ إفراز مادة إندورفينز – مادة شبيهة بالمورفين – تتسبب حين تصل إلى المخ فى الإحساس بالأمان والسلام والهدوء لتستمر العلاقة بين العاشقين طويلا .

وإذا كانت نظرية هيلين تشرح لنا كيف يقع الإنسان فى الحب .. فإنها بالمقابل لا تشرح لنا كيف نختار من نحب .. وعلى أى أساس يجرى هذا الإختيار .. أم أنه ليس هناك فى الحب إختيار .. وما هو تفسير أن يلتقى رجل بإمرأة فيبدأ جسد كل منهما إفراز كل هذة الهرمونات والمواد الكيميائية فى نفس اللحظة .. ليتبادل الإثنان نفس الإحساس والمشاعر والبهجة والسعادة.

وقد حاول ثيودور رايك إجابة بعض هذة الأسئلة .. فقال(١) أن الحب فى حقيقته بحث عن الأفضل . فالحاجة إلى الحب تزداد كلما شعر الإنسان بعدم رضاه عن نفسه وعن حياته .. وقد يجئ الحب فى حياة الإنسان بعد أن يكون قد مر أولا بالحزن .. واليأس .. والإحباط .. وعانى طويلا من الإحساس بالنقص .. قبل أن يقع فى الحب الذى يأتى بمثابة طوق النجاة .. بمثابة الخلاص من ذلك كله وبدء الحياة من جديد .. ولهذا يؤكد ثيودور رايك أن هناك علاقة وثيقة بين الغرام وبين الطموح .. فأنت بالحب تود مكانة أعلى ونجاحا أكبر وتحقيق أحلام أكثر .

أى أن ثيودور رايك أكد أنه لا وجود لهذا الحب المطلق الذى لا غاية منه ولا هدف له .. وإنما هناك طموح فى حياة أفضل وأكثر جمالا وإستقرارا .. وقد كنا فى حاجة لمثل تلك الشهادة .. وشهادات أخرى كثيرة ومماثلة نواجه به كل هؤلاء الذين أزعجونا طويلا بالحب المجرد .. بالحب من أجل الحب .. بالحب من أجل الجنس .. بالحب من أجل الحرية والفوضى والسقوط .. وأنا لست أريد من ذلك الإقتداء بكاتب أمريكى إقترح بكل جدية إلغاء كلمة حب من معجم اللغة الإنجليزية لأنه لم ير كلمة أخرى مثل تلك الكلمة تنطوى على خداع للذات .. ولست أريد أيضا الإقتداء بالكاتب النرويجى الشهير إيبسن الذى أكد أنه ليس هناك فى كل لغات العالم كلمة مثل

---

(١) ثيودور رايك – الحب بين الشهوة والأنا – ترجمة ثائر ديب – دار الحوار – سوريا – ١٩٩٢

كلمة الحب تتسع معانيها لكل الخدع والأوهام والأكاذيب .. وإنما فقط أتمنى أن نتفق على معنى ودور للحب .. نتفق على أن الحب ليس دعوة لأن نخلع ملابسنا ووقارنا وضمائرنا وأخلاقنا .. ليس أبدا دعوة للجنس .. للخطيئة .. للسقوط .

(١٣)

عرايا.. فى زمن الإدمان

يخرج زوجى لتدخين الحشيش
ويعود آخر الليل
عيناه مثل فناجين الدم.. حمراء متسعة مستديرة
فيدخل المطبخ ويمد يده إلى الحلل ويأكل
ثم لا يغسل يده وإنما يذهب إلى الفراش لينام كالقتيل
وفى الصباح يقوم ليستحم
ثم يخرج يقول لى أما كانت ليلة.. ولا إيه رأيك ياولية؟!
ووأجدنى مضطرة لأن أوافقه على أوهامه
التى صورت له أنه بالأمس
فعل معى فى الفراش ما لا يستطيعه رجل غيره
مع أنه نام مباشرة بعد أن إلتهم كل الطبيخ!

من إعترافات زوجة أحد مدمنى الحشيش

ليست مسألة صعبة أو معقدة

وإنما تستطيع أنت - وأنا أيضا - أن نجد الف فارق وإختلاف بين عام ١٩٨٠ وعام ١٩٩٠ . فوارق وإختلافات كثيرة .. سياسية وإقتصادية وإجتماعية ودينية وأخلاقية ونفسية .. وأيضا فارق آخر ليس من السهل نسيانه أو تجاوزه .. وهو أننا أنفقنا فى العام الأول مائة وأربعين مليون جنيها لنتعاطى المخدرات بكافة صورها وأشكالها (١) .. بينما إرتفع هذا الرقم فى العام الثانى ليصبح خمسة الاف مليون جنيها (٢) .

ولست أقصد من ذلك مطلقا أن أواسى بلدى التى زادت وتضخمت فاتورة إدمانها. بحيث تعين عليها أن تدفع خمسة مليارات من جنيهاتها القليلة - وربما أكثر من ذلك - كل عام كثمن للمخدرات .. ولا أقصد أيضا أن أبدى أية دهشة أو إنزعاج من شدة تكالبنا على كل أنواع المخدرات - بإستثناء الأفيون - بحيث يجئ عام ١٩٩٠ لنكتشف (٣) أننا أحرقنا قرابة الخمسين طنا من الحشيش .. وغرسنا فى دمائنا أو أنوفنا ثلاثمائة وخمسة وثلاثين كيلوجراما من الهيروين.. بالإضافة إلى مائتى كيلوجراما من الأفيون .

كل ما أقصده هو كم دفعنا من كبريائنا وأعراضنا وقيمنا ثمنا لكل هذا .. وما هى المساحة التى إقتطعها كل هذا الإدمان من إستقرارنا الجنسى .. من عاداتنا وتقاليدنا الدينية والإجتماعية والأخلاقية .

أعرف - وأعترف - أن تلك الإسئلة ليست أبدا من النوع الذى نفضله أو نستريح له .. وليس هناك من دليل على ذلك إلا أننا طيلة كل هذة السنوات التى فاضت بالثرثرة عن المخدرات وإدمانها وضحاياها .. لم نحاول مرة أن نطرح مثل هذة الأسئلة .. لم نقبل مطلقا أن نفتح هذا الباب .. لأننا نثق أن ما سيصادفنا لن يكون سهلا أو محتملا أو قابلا للتجاهل والنسيان .. ولكنها المواجع والدموع والأحزان والآلام التى لا نهاية لها ولا شفاء منها .

ولست أعنى بذلك أننى أول من يسأل .. وأول من يطرق هذا الباب .. وإنما كان هناك من حاول وأعرب عن كل ما إعتراه من خوف وقلق وإنزعاج .. لكن لم يلتفت إليه أحد .. لم يهتم بمخاوفه أحد .. لم يشاركه همومه أحد .. ولا أزال أذكر تحقيقا قام به الزميل نبيل عمر ونشرته مجلة روز اليوسف (٤) عن المخدرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وضحاياها من الفتيات والطالبات الصغيرات .. كان تحقيقا قرأه الناس هنا فى مصر بكثير من الدهشة وكثير من الإرتياح أيضا .. الدهشة كانت نتيجة كل هؤلاء اللواتى سقطن وإستسلمن للجنس نتيجة الإدمان والحاجة للمخدرات .. أما الإرتياح فكان الباعث عليه هو اليقين العميق والثقة المطلقة فى أن ذلك أبدا لن يحدث فى مصر .. فليس هناك ما يمكن أن يدفع ببنات مصر وصغيراتها للسقوط فى مثل هذا المستنقع العارى والمخيف والحزين .

---

(١) مجلة الأمن العام - عدد ١٩٨٥/١٠

(٢) جريدة الأهرام - عدد ١٩٩٤/٤/٣٠

(٣) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان - لجنة المستشارين العلميين - التقرير النهائى - ١٩٩٢ .. وكل وهذه الأرقام .. وكل ما سيجئ من لاحقاً أرقام تقيس كمية المواد المخدرة وتعاطيها فى مصر .. هى فى حقيقتها ناتج خمسة أضعاف المخدرات التى تم ضبطها قبل تداولها فى مصر . وأستند فى ذلك إلى العرف الدولى الذى يشير إلى أن خمسة أضعاف المخدرات التى يتم ضبطها هى الحد الأدنى لما تم تعاطيه بالفعل من مخدرات .. فى حين أن الحد الأقصى يصل إلى عشرة أضعاف .. ولكننى أثرت الإستناد إلى الحد الأدنى لا الأقصى .

(٤) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٧/١٢/٧

ولا أحد – حتى الآن – يدرى على وجه الدقة من أين جاء الناس فى ذلك الوقت بكل هذا اليقين وكل هذه الثقة .. فقد كانت هناك دلائل وحقائق تشير إلى أننا بدأنا السير فى نفس هذا الطريق الذى سبقتنا إليه الولايات المتحدة وفتياتها .. طريق الإدمان والجنس والألم .. وعلى سبيل المثال .. وقبل أن تنشر مجلة روز اليوسف تحقيقها بست سنوات كاملة .. قامت مجلة صباح الخير (١) بتحقيق عن المخدرات فى مصر .. سطوره كلها جاءت تحمل الكثير جدا من المخاوف والمواجع .. تحمل أيضا واحدة من أولى الإشارات إلى أن المخدرات لم تعد فى مصر قضية قاصرة على الشباب والرجال وحدهم .. وإنما – وكما قالت المجلة فى تحقيقها – بدأت البنات أيضا يعرفن المخدرات ويحتجن إليها ويفتشن عنها .. وإذا كانت المجلة قد تحدثت فى تحقيقها عن طالبات إحدى المدارس الثانوية الأمريكية بالإسكندرية .. فقد كان علينا نحن أن نتوقع أو نثق فى أن الإسكندرية ليست تختلف كثيرا عن القاهرة .. ولا هى بعيدة عنها وعن أية مدينة أخرى فى مصر .. كان علينا أيضا أن نتخيل حال طالبات الجامعة ومصيرهن بعدما أدركنا وعرفنا كل هذا الذى حدث لطالبات لازلن فى مدارسهن الثانوية ومع ذلك عرفن وأدمن الحشيش والهيروين .

لكن أحدا لم يتوقف .. لم يتوقع أو يتخيل أو يدرك أن ملف المخدرات إذا لم نسارع ونغلقه فسوف يتضخم يوما بعد يوم .. ولن يبقى قاصرا على حكايا أو خطايا الإدمان والتعاطى فقط.. وإنما سيكون هناك الجنس .. وستكون هناك الخطيئة أيضا .

وكان هذا بالضبط .. هو ما حدث .

أو أن هذا بالضبط .. هو الذى لا نعرف .. على وجه اليقين والدقة .. لماذا حدث .

فالعلاقة بين المخدرات والجنس ليست جديدة علينا .. وإنما هى علاقة قديمة جدا وقاسية جدا وحزينة جدا .. عرفناها فى كل وقت .. وفى كل عصر .. وارتباط المخدرات وإدمانها بالسقوط الأخلاقى والإنحلال الجنسى والإغتصاب والدعارة .. كلها أمور مررنا بها من قبل فى مصر .. منذ أن بدأنا نتعاطى الأفيون فى زمن الفراعنة .. والحشيش فى عهد الدولة الأيوبية .. والكوكايين والهيروين فى زمن الإحتلال الإنجليزى بعد الحرب العالمية الأولى ..

لماذا إذن نسينا كل ما عرفناه وتعلمناه .. وتعلمنا الخوف منه .. حين بدأنا نعيش زمن الإنفتاح وما بعد الإنفتاح طوال سنوات الثمانينات .. لماذا نسينا أن الرجل المصرى غالبا لا يستعين بالمخدرات إلا من أجل الجنس .. ستة وستون بالمائة من المدمنين ساقهم الجنس إلى حظيرة الإدمان (٢) .. لا فارق هناك بين الأغنياء أو الفقراء .. بين المثقفين أو الجهلاء .. بين الناجحين أو العاطلين .. بين نجوم الفن والرياضة أو الصعاليك .. الكل يفتش عن الجنس وعن مزيد من القوة والقدرة عليه .. ولماذا نسينا بالمقابل أن المرأة .. فى نفس اللحظة التى تعلن فيها إدمانها .. تفقد بكارتها وحياءها وشرفها وجسدها أيضا .. وهذا كله ليس يعنى إلا أنه كلما زاد عدد المدمنين .. كلما زادت مساحة الرغبة فى الجنس والإحتياج إليه وكثر عدد الحيوانات الضالة فى حظيرتنا الجنسية .. وكلما زاد عدد المدمنات .. كلما زاد عدد النساء الساقطات والعاريات والبغايا والعاهرات .

وقبل أن أقرر أن عدد المدمنين والمدمنات قد زاد بالفعل .. ينبغى التوقف أولا عند ثلاث نقاط

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨١/١٠/١

(٢) من نتائج دراسة علمية أجريت فى مدينة القاهرة نشرتها مجلة الهلال فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٢/٢

فاصلة فى تاريخ مصر مع المخدرات خلال الخمسين عاما الأخيرة .. النقطة الأولى تتعلق بثورة يوليو عام ١٩٥٢ .. الثورة التى جاء معها القانون رقم ٣٥١ لسنة ١٩٥٢ الخاص بمكافحة المخدرات حيث نصت المادة الثالثة والثلاثين على عقوبة الأشغال الشاقة المؤيدة مع غرامة تتراوح من الثلاثة إلى العشرة الاف جنيها لمن يزرع أو يجلب أو يتعامل مع المخدرات .. قانون وإجراءات وسياسات – من واقع التقارير والأرقام – إختصروا الكثير من مساحة الإدمان فى مصر .. ومن كمية المخدرات التى إعتاد المصريون تعاطيها كل عام [1] .. فتناقصت كمية الحشيش من قرابة الستين طنا فى عام ١٩٥٢ إلى خمسة عشر طنا فى عام ١٩٥٣ .. ومن ثلاثة عشر طنا من الأفيون إلى ثمانية أطنان .. ومن الف وخمسمائة جرام من الهيروين إلى ستين جراما فقط .. وبقى معدل الإدمان والإقبال على المخدرات يتناقص عاما بعد آخر حتى عام ١٩٦٣ حين زاد مرة أخرى الإقبال على الحشيش وحده .. فى حين بقى معدل إستهلاك الأفيون ثابتا .. وتلاشى تقريبا أى وجود للهيروين أو الكوكايين فى حين بدأ الناس فى الصعيد يتعاطون الماكستون فورت .

ثم كانت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ هي النقطة الفاصلة الثانية في علاقتنا مع المخدرات .. حيث أضيفت إلى قائمة المخدرات فى مصر أنواع جديدة .. منشطات ومهبطات تعاطاها الناس فى صورة أقراص مخدرة .. أقبل عليها بعضهم لإقتناعهم بها.. أو يأسا ومللا من الحشيش والأفيون .. وجاء بها معجبا أو أسيرا بعض الشباب المصرى ممن سافروا إلى أوروبا فى شهور الصيف وأرادوا تقليد ما رأوه هناك [2] .. أما غالبية المدمنين فى مصر .. فلم يتعاطوا تلك الأقراص إلا إضطرارا بعد أن لم يجدوا الحشيش ولا الأفيون .. أو وجدوهما بأسعار تفوق قدراتهم .. حيث زاد الإقبال على المخدرات أو الإحتياج إليها كنتيجة لخسارة الحرب والإنكسار الجماعى القومى والإجتماعى والنفسى فى نفس الوقت الذى تعذر فيه الحصول على الحشيش بعد أن أغلق الإحتلال الإسرائيلى لسيناء كل الطرق التقليدية والشهيرة لتهريب المخدرات إلى مصر .. فأصبح الشائع هو تعاطى تلك الأقراص والسعى خلفها بينما بقي الحشيش مخدرا مفضلا فى الجلسات الجماعية والسهرات الخاصة وأثناء الإستماع لأم كلثوم وهى تغنى فى أول كل شهر .

ثم كان قرار الإنفتاح هو النقطة الفاصلة الثالثة والأخيرة .. فتخطى المدمنون فى مصر نهائيا حاجز الخمسين طنا من الحشيش كل عام .. وإرتفع الرقم مثلا فى ١٩٧٦ إلى مائة وخمسة وعشرين طنا .. وبنفس النسبة زاد عدد المدمنون .. وكأننا بدأنا سباقنا المحموم والمجنون إلى الدنيا فى نفس اللحظة التى بدأنا فيها سباقا آخرا – محموما ومجنونا أيضا – للهروب منها ونسيانها .

ومن المؤكد أن هناك من إستوقفه ذلك .. وأن هناك من حاول أن يجد سببا أو يملك تفسيرا .. لكل هذا الذى جرى ويجرى فى مصر .. لكن أحدا لم يبادر وقتها بتقديم ولو سبب واحد أو تفسير واحد .. فكان علينا وعلى مصر .. أن ننتظر حتى يأتينا من يملك شجاعة أن يخاف والأهم أن يعلن عن مخاوفه بصوت عال .

---

(١) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان – لجنة المستشارين العلميين – التقرير النهائى – ١٩٩٢

(٢) مجلة صباح الخير – ١٩٨٥/٨/٨

واحد من هؤلاء .. كان الدكتور محمد فتحى عيد (١) الذى كتب فى مجلة الهلال (٢) تفسيرا لما حدث ويشير إلى خطورة ما سوف يحدث فقال .. إن الإنفتاح .. الذى أدى إلى توزيع غير عادل للثروات .. وبحيث أصبح هناك من لا يكاد يجد ما يكفيه ومن لا يعمل لكنه ينال الكثير الذى هو أصلا ليس فى حاجة إليه ولا هو مؤهل لإنفاقه .. كل ذلك الإحباط وكل هذة الرفاهية غير المبررة.. أديا إلى زيادة حجم ظاهرة تعاطى المخدرات فى مصر .

ومع ذلك .. لم يكن ما حدث فى السبعينات إلا مجرد بروفة للثمانينات .. إفتتاحية قصيرة وحزينة لما سوف يحدث وما سوف نشهده ونشهد عليه جميعا .. فزيادة عدد المدمنين وضحايا المخدرات بلغت أوجها مع بداية الثمانينات .. ولم يعد الأمر قاصرا على تعاطى الحشيش فقط بالرغم من الرقم المفزع والمخيف الذى إنتهى إليه الحال فى مصر حيث أحرق المصريون فى عام ١٩٨١ فقط أكثر من ثلاثمائة وأربعين طنا من الحشيش .. وإنما جاءنا الهيروين أيضا بعد غياب طال ثمانية عشر عاما (٣) بصفته وريثا شرعيا لكل خطايا الإنفتاح وتجاوزات السبعينات .. جاء إلينا أولا عام ١٩٨٠ بكمية لم تزد عن الألف ومائتى جرام .. لتشهد مدينة الإسكندرية بعد ذلك فى عام ١٩٨٢ أول قضية جلب هيروين إلى مصر (٤) والتى كان فيها المتهم طباخا مصريا يعمل على إحدى السفن الإيطالية كان يروج ما معه من هيروين فى حى الجمرك .. وينتهى العام كله بضبط أربعمائة وتسعة وستين جراما .. أى أن مصر – وفقا للمقاييس الدولية – تعاطت فى نفس ذلك العام كحد أدنى ما يقرب من الفى وأربعمائة وثمانين جراما .. ثم تجئ الكارثة الكبرى بعد قليل .. ففى عام ١٩٨٣ ينجح رجال مكافحة المخدرات فى ضبط أكثر من مائتى وأربعين كيلوجرام .. أى أن مصر تعاطت أكثر من الف ومائتى كيلوجرام هيروين .. ولم يكن كل هذا السم الذى سرى فى أوردة مصر وشرايينها هو كل الحكاية والمشكلة .. وإنما كانت هناك حكايات أخرى ومشكلات إضافية لا تقل قسوة أو إيلاما .. فلم يعد تعاطى المخدرات قاصرا على مثل هذا الوكر المريب الذى إعتدنا أن نراه فى أفلام السينما .. ولا فى حارات ضيقة يضمها حى الباطنية الشهير .. وإنما أصبح من السهل ومن الممكن .. الحصول على المخدرات (٥) من معاهد التجميل والبوتيكات ومحلات الكوافير والفنادق الكبرى وحتى أكشاك بيع السجائر والمرطبات .. ولم يعد تعاطى المخدرات ظاهرة خاصة بأغنياء الزمن الإنفتاحى فقط .. ولكن ظاهرة تقاسم نتائجها وسمومها الجميع فى مصر .. أغنياء أو فقراء على حد سواء .. الفارق الوحيد بينهما (٦) كان أن

(١) الدكتور اللواء محمد فتحى عيد . واحد من الرجال القليلين الذين لا يستقيم ولا يصح أو يكتمل أى حديث عن المخدرات فى مصر دون الرجوع إليه أو إلى كتاباته وكتبه ودراساته ومقالاته .. فهو الرجل الذى طالت به الرحلة فى مجال مكافحة المخدرات لأكثر من خمسة وعشرين عاما كضابط شرطة ووكيل للإدارة العامة لمكافحة المخدرات .. كما أنه صاحب أهم رسالة دكتوراة عن المخدرات فى مصر وكان موضوعها هو هل الإدمان جريمة أم مرض .. وغنى عن الذكر أننى سأكثر من الرجوع إلى أرائه وخبرته وتجربته وسأشير إلى ذلك فى كل مرة بكثير من الإحترام والإمتنان والتقدير

(٢) مجلة الهلال – عدد ١٩٨٢/٢

(٣) هناك قول شائع إعتاد الناس سماعه وقراءته وكتابته فى مصر حتى أصبح وكأنه حقيقة لا تقبل الشك أو حتى المراجعة .. وهو القول الذى يشير إلى إختفاء الهيروين لمدة طالت أربعين عاما قبل أن يعود للظهور مرة أخرى فى بداية الثمانينات .. وليس ذلك صحيحا للأسف .. فالهيروين لم يختف من مصر إلا ثمانية عشر عاما فقط من ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٨٠ . وهذا ثابت فى سجلات إدارة مكافحة المخدرات ووزارة الداخلية .. وأنا شخصيا – حين يتعلق الأمر بمصر – أميل إلى الأرقام والأوراق الرسمية وليس إلى الأهواء والعبارات البلاغية والأقوال الشائعة .

(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٥/٨

(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٥/٨/٨

(٦) مجلة الأمن العام – عدد ١٩٨٦/١٠

الأغنياء يتعاطون أفخر أنواع الحشيش وأنقى أنواع الهيروين بينما لا يجد الفقراء إلا الردئ من كل أنواع المخدرات وأشكالها .. ولم يعد الحشيش هو المخدر الشعبى .. ولا بقى الهيروين هو سيد الموقف .. وإنما إتسعت دائرة الإدمان لتشمل[1] إستنشاق البنزين والتينر والصمغ وأخيرا رماد النمل[2] .

ثم كانت واحدة من أكبر مشكلات مصر والمصريين مع المخدرات .. حين بدأت تحتاج إليها وتفتش عنها وتدمنها الفتاة والمرأة .. بنات صغيرات وفتيات مراهقات وسيدات وزوجات .. كلهن أردن المخدرات مهما كان الثمن أو المقابل .. كلهن كن على إستعداد لأن يكون العرض والشرف والجسد المستباح هو الثمن والمقابل .

وتعددت الحكايات التى إمتزج فيها الإدمان بالسقوط .. حكايات كثيرة تختلف بداياتها وتفاصيلها .. لكن تبقى النهاية واحدة .. تدمن الفتاة فتستسلم وتخلع ملابسها وتبيع جسدها فى أقرب فراش .. هذا هو ما حدث لفتيات كثيرات .. منهن كانت إحدى الطالبات فى كلية التجارة .. فى الثالثة والعشرين من عمرها .. عائلتها على قدر من الثراء سمح لها بإمتلاك سيارة فيات ١٢٨ .. ثراء سمح لها أيضا أن تكون إحدى رواد ناد قاهرى كبير وشهير .. وفى هذا النادى تعرفت الفتاة على شاب أثار إعجابها .. ولأن الشاب كان مدمنا .. فقد إتبعته فتاته بكثير من الإعجاب وقليل من المقاومة إلى عالم الإدمان .. ويدأ الشاب يغرس فى ذراع فتاته الهيروين حقنة بعد أخرى .. وفى نفس اللحظة التى فقدت فيها الفتاة أية قدرة على مقاومة إحتياجها وإدمانها للهيروين .. بدا الشاب وكأنه أحس بالضيق والملل من الفتاة .. فما كان من الفتاة إلا أن جاءت للشاب وهى على إستعداد للتنازل عن أى شئ فى مقابل الهيروين الذى باتت تتنفسه وتعشقه وتعيش به وله .. وكانت صفقة الشيطان .. تنازلت بمقتضاها الفتاة عن بكارتها للشاب مقابل شمة هيروين .. وإتفق الإثنان على الثمن .. فى كل ليلة تحتاج الفتاة للهيروين .. تأتى إلى الشاب وتخلع ثيابها وتمارس معه الجنس مقابل ما تحتاجه من الهيروين .

فتاة أخرى .. أيضا طالبة فى كلية التجارة .. أبوها صائغ وعلى درجة كبيرة من الثراء .. كانت لا تزال فى التاسعة عشرة حين وقعت فى غرام أحد زملائها .. وذات يوم شاهدت الفتاة حبيبها يشم الهيروين .. ودعاها لمشاركته .. رفضت فى البداية .. هجرها وإبتعد عنها .. فعادت إليه تطيعه ومعه تشم وتدمن الهيروين .. وحين تحولت إلى مدمنة .. وبعد أن زاد الإدمان حرارة العلاقة بينها وبين حبيبها .. تنازلت الفتاة عن أية قيمة دينية وأخلاقية وإجتماعية .. بل وتنازلت عن أى حياء أو خجل من الممكن أن تملكهما أية فتاة أيضا .. وإلى الحد الذى دفع بها لأن تذهب إلى والدها تطالبه بالإنفاق عليها وعلى صاحبها .. وفتاة ثالثة .. كانت إبنة ممثل كبير .. تم القبض عليها وهى تتعاطى الهيروين .. تم أيضا إكتشاف أن هذة الفتاة تنتمى إلى مجموعة من الأصدقاء تضم فتاة أخرى غيرها .. وكثير من الشباب إعتادوا إقتسام الإستمتاع بالفتاتين كل ليلة .. وفتاة رابعة كانت إبنة مدللة لسفير سابق .. قادها خطيبها للإدمان فأدمنت وباتت تحس كلما تعاطت الكوكايين أنها – على حد تعبيرها – تملك العالم .. ولهذا لم يعد بوسعها الإستغناء

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٧/٣١

(٢) إعتاد بعض فقراء المدمنين – والصغار والأطفال – جمع النمل فى زجاجات صغيرة ثم يشعلون فيها النار ويستنشقون ناتج هذا الحريق.. والذى يصبح مخدرا ذا أثر مهدئ قوى المفعول .

عنه.. ولا عاد بوسعها أيضا الإلتزام بأى قيد يحد من حريتها الكاملة والإستمتاع بالحياة .. ففسخت خطوبتها وتفرغت لتلك الحياة وهذا الإستمتاع .. وفتاة خامسة .. فى الثالثة والعشرين من عمرها .. أيضا طالبة جامعية ولكن فى كلية الحقوق .. يتيمة الأبوين وتقيم مع خالتها الثرية جدا .. ولم تبخل الخالة الثرية على إبنة شقيقتها بشئ .. إشترت لها كل ما كانت تحتاجه أو تحلم به من ثياب أو مستحضرات تجميل .. إشترت لها أيضا سيارة تذهب بها إلى الكلية .. ولم يبق إلا أن تنال الفتاة شهادتها وتبحث عن وظيفة لائقة وتستعد للزواج .. لكن الفتاة كان لها رأى آخر.. أو أن ذلك كله لم يمنعها من الوقوع فى مستنقع الإدمان .. فأدمنت الهيروين بمعاونة زملائها وزميلاتها وبدأت تنفق كل ما تحصل عليه من مال لتشتريه .. وعرفت خالتها بإدمانها فرفضت تزويدها بأية نقود .. فكرت الفتاة فى السرقة كوسيلة للحصول على المال .. لكنها ترددت وتراجعت وتساءلت .. لماذا تسرق ما يملكه الآخرون بينما تملك هى جسدا جميلا ومثيرا تستطيع إستغلاله فى الحصول على الكثير من المال لتشترى به كل ما تريد .. وهكذا هجرت الفتاة دراستها وتفرغت تماما لإدمان الهيروين الذى تحصل عليه بعد أن تبيع جسدها كل ليلة لمن يريد ولمن يملك الثمن .

ولأنهم كثيرون جدا أولئك الذين يريدون .. وكثيرون أيضا أولئك القادرون على دفع مثل هذا الثمن .. لم يعد هناك من بإمكانه كسر هذه الدائرة المخيفة والمفزعة .. دائرة الإدمان والتعرى والإحتياج والخطيئة .. دائرة إتسعت وبدأت تضم كل يوم عددا متزايدا من الفتيات .. خمسة وتسعون بالمائة منهن أدمن الماكستون فورت والهيروين السائل لسهولة التخلص منهما فى حالة ضبطهن [١] .. وإعتاد رجال الشرطة إكتشاف بعض هؤلاء الفتيات بالقرب من نادى الجزيرة وأسفل كوبرى ١٥ مايو ومسرح الجيب .. فبجوار هذا المسرح تم ضبط كثير من هؤلاء الفتيات .. منهن على سبيل المثال طالبة جامعية بأحد المعاهد العليا .. إصطحبها صديقها فى سيارته ليتبادل الإثنان الحقن بالماكستون فورت إستعدادا لمغامرة ليلية رائعة .. وأمام فندق الماريوت .. تم ضبط طالبة بكلية الألسن مع صديقها الطالب بالجامعة الأمريكية يتبادلان الحقن بالهيروين لينالا قوة إضافية تساعدهما على بلوغ النشوة الكاملة .. وفى موقف إنتظار السيارات أمام فندق النيل هيلتون .. تم ضبط خريجة جامعية وتعمل محاسبة بإحدى الهيئات الهامة إصطحبت فى سيارتها طالبا بكلية الحقوق وآخر بالمرحلة الثانوية ليتبادلوا الشم تمهيدا لتعاطى الجنس فى حرية وإسترخاء .. وبجوار موقف سيارات الترجمان فى نهاية شارع الصحافة .. أصبح من المعتاد رؤية ممثلة شابة إبنة لمطربة لبنانية كبيرة تأتى بسيارتها فيلتف حولها صبية تسلم لهم ذراعيها ليحقنوها بالماكستون فورت وهى على حالة من الضعف والإنهيار والإستسلام تدعو للإشمئزاز أكثر مما تدعو للرثاء .

ولم يبق الأمر قاصرا على فتيات الذوات ورواد النوادى الكبرى وطالبات الجامعة فقط .. إنما كانت دائرة الشيطان تتسع يوما بعد يوم لتطال الكثيرات الساكنات القمة أو القاع .. وبدأت دائرة الإدمان تحاصر فتيات المناطق الشعبية من خلال علاقاتهن بشباب مدمن أو منحرف .. فلم يكن هناك ما يمنع الفتاة الفقيرة أو يعصمها من شرور وخطايا الإدمان .. صحيح أن الدوافع

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/١٣

والمقدمات والأسباب .. إختلفت وتباينت بين القمة والقاع .. إلا أن النتيجة كانت واحدة .. ومثلما تعددت حكايات الإدمان والسقوط في شقق المتعة الفاخرة والفاجرة فى أحياء مثل المهندسين والعجوزة ومصر الجديدة .. تعددت أيضا وزادت نفس الحكايات فى أحياء أخرى أقل رفاهية أو أكثر فقرا .

أيضا .. لم يعد الأمر قاصرا على طالبات الجامعة أو الفتيات الكبار .. وإنما إمتدت دائرة الخطر لتحاصر طالبات المدارس أيضا (١) .. وسجلت محاضر الشرطة ضبط تلميذتين بالمرحلة الإعدادية أدمنتا تعاطى الهيروين نتيجة علاقتهما بإثنين من الشباب معتادى الإجرام .. وتعددت حالات ضبط تلميذات بالثانوى والإعدادى (٢) سقطن وتعرين وتورطن فى علاقات جنسية نتيجة الإدمان .

جرى ذلك كله ومصر بعد لم تكمل عقد الثمانينات .. جرى ذلك كله ونحن لا نزال نحتفظ بقدرتنا اللانهائية على الثقة والإطمئنان والإسترخاء .. ومع ذلك .. فليس بإستطاعة أحد منا أن يزعم أننا لم نعرف بكل هذا الذى جرى .. فلم تبخل علينا تلك السنوات بمن يلوى أعناقنا وإنتباهنا وعقولنا لينبئنا بما حدث ولا يزال يحدث .. العميد مصطفى الكاشف مثلا .. أحد نجوم إدارة مكافحة المخدرات فى ذلك الوقت .. والذى سألته الزميلة نجلاء بدير ضمن تحقيق قامت به عن البنات والمخدرات فى نهاية الثمانينات .. فقال الكاشف (٣) .. زاد فى السنوات الأخيرة عدد المدمنات .. بنات سقطن ضحايا للإدمان .. وفى نفس التوقيت .. تناولت مجلة روز اليوسف نفس هذة القضية .. وأكدت (٤) أن الأبحاث والدراسات التى لم ترصد شيئا عن إدمان المرأة حتى عام ١٩٧٩ .. عادت وأشارت إلى سقوط الفتاة والمرأة المصرية فى بئر الإدمان .. حتى بلغ عددهن فى الثمانينات تسعة بالمائة من إجمالى عدد المدمنين فى مصر .

ولم تكن المشكلة فى أننا تجاهلنا هذا الذى جرى فقط .. وإنما كانت المشكلة الأكبر هو كيف تعاملنا مع الأمر كله بعد أن أجبرنا الواقع المؤلم والحزين على أن نفتح ملف الإدمان فى مصر .. بعد أن إنفجر طوفان المخدرات فى كل وسائل الإعلام المصرية .. وبعد أن أطالت الصحافة المصرية الحديث عن الإدمان وضحاياه .. ولحق بها التليفزيون .. ومع ذلك بقينا لا نرى هذا الجانب المعتم من الحكاية .. فقط رأينا - أو وجدنا من يساعدنا على أن نرى - أولئك الذين ضاعت ممتلكاتهم وتفككت عائلاتهم وإنهارت بيوتهم .. لكننا أبدا لم نر تلك الفتاة التى تعرت وخلعت ملابسها بحثا عن مزيد من هيروين تسكبه فى شرايين دمها .. كأن هذا الإدمان العارى لم يحدث ولم يتم .. أو كأنه حدث بالفعل ونحن الذين به لم نعد نبالى أو نهتم .. وعلى سبيل المثال كانت هناك حكاية تناقلتها السنة الناس فى ذلك الوقت .. فقررت مجلة صباح الخير (٥) الغوص فيها وفى تفاصيلها .. وعادت درية الملطاوى تحكى لنا الحكاية كلها .. حكاية حنان .. الفتاة التى نالت شهادة الثانوية العامة من مدرسة شوتس أمريكان سكول بالإسكندرية .. ثم سافرت إلى القاهرة لتلتحق بالجامعة الأمريكية .. وينادى فتيات الضياع والإدمان أيضا .. وحين ضاقت

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/١/٩
(٢) ، (٤) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/٢/١٣
(٣) مجلة كل الناس - عدد ١٩٨٩/٧/٣١
(٥) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٩/٥/٦

بحنان السبل وعجزت عن إمداد دمها بكل ما يحتاجه من هيروين .. إحترفت سرقة السيارات .. كانت تسرق سيارات أصدقائها بعد أن تشاركهم ليل التعاطى والإدمان .. ويبدو أن حكاية السرقة هى الأمر الوحيد الذى رأته الزميلة صاحبة التحقيق أمرا مزعجا ومخيفا إلى حد إطالة الحديث عنه وتناول كل تفاصيله بداية من سرقة السيارة بالفعل وحتى يتسلمها تاجر فى الإسكندرية تخصص فى تفكيك السيارات وبيعها كقطع غيار .. لكن .. لا الزميلة ولا أى أحد آخر تحدث عن سهرات حنان نفسها داخل أكثر من شقة فى مختلف أحياء القاهرة .. لم يتحدث أحد عن الليل الطويل وأية رغبات فيه يمكن أن يلدها مناخ مخنوق بالضباب والضياع وعدم الوعى وغياب الحلم وإنكسار الإحساس وإستسلام الفضيلة .

وفى المقابل .. كان هناك – على الرغم من قلتهم – من كانوا أكثر من غيرهم جرأة فى مواجهتنا بواقعنا .. مجلة روز اليوسف مثلا .. التى إقتحمت إحدى شقق القاهرة التى يلتقى فيها شباب وفتيات الإدمان [١] .. وإختارت لها المجلة – ولكل شقة مماثلة – لقب الشقة الملعونة .. شقة المتعة المحرمة .. شقة الشم والجنس والمجون والضياع .. الهيروين والرقص والجنس والدموع .

كان هناك أيضا من تحدث عن دوافع إدمان كل هؤلاء الفتيات .. ثم تحدث عن السقوط والخطيئة كنتيجة طبيعية أو حتمية لمثل هذا الإدمان .. فقال العميد مصطفى الكاشف [٢] .. أن الفتاة المصرية تدمن إما هروبا من مشاكل إقتصادية .. أو نظرة وغيرة البنت من زميلاتها ومحاولتها تقليدهن .. وأضاف مصطفى الكاشف أسبابا أخرى .. الطبقات الجديدة التى بدأت فى الظهور وتملك أموالا طائلة ولا تملك فى المقابل أية قيم .. الأسر التى لا تراقب البنت بشكل كاف .. وتحت شعارات الحرية والتمدين .. تترك البنت تفعل ما تشاء .. وفى نفس التحقيق قالت الدكتورة نادرة وهدان .. مثل هذة الفتاة دائما ضحية .. يجرها زميلها أو صديقها للإدمان .. فتفعل أى شئ مقابل الحصول على المخدرات .. وأول ما تقدم عليه هو الإنحراف .. هو الجنس مقابل الهيروين .

وقد لا تكون الفتاة المدمنة ضحية لشاب يطمع فيها جنسيا فيسوقها إلى دائرة الإدمان ضمانا لتعريتها وإستسلامها .. وإنما كانت هناك حالات لم يلعب الجنس أى دور فيها .. ولعل أشهر تلك الحكايات فى الثمانينات هى حكاية [٣] مدرسة شابة بإحدى المدارس الخاصة بمصر الجديدة .. وبينما كانت المدرسة فى فصلها تشرح الدرس .. أصيبت بحالة تشنج مخيفة .. فتخيلت مديرة المدرسة أنها نتيجة إرهاق .. ومع ذلك نقلتها إلى مستشفى هليوبوليس للإطمئنان عليها .. لكنهم فى المستشفى تبينوا أنها حالة إدمان وليس إرهاق .. وإتضح من التحقيقات أن الكوافير الخاص بالفتاة هو الذى ساقها للإدمان حين شكت يوما من نوبة صداع .. فأعطاها قرصا مخدرا أراحها وواظب على ذلك حتى باتت أسيرة إدمانها للأقراص المخدرة .

أما الدكتور عادل صادق .. فقد تحدث عن ظاهرة الإدمان خلف أسوار الجامعة فقال [٤] .. أن إدمان طالباتها يرجع إلى محاولات البعض لإقامة علاقات مع هؤلاء الطالبات .. حيث المخدر يقضى على أى وازع من ضمير قد يمنع الفتاة من السقوط .. هذا غير أن الهيروين والكوكايين

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/٢٠
(٢) مجلة كل الناس – عدد ١٩٨٩/٧/٣١
(٣) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٥/٨/٨
(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/١٣

إنتشر إدمانهما بين أوساط طالبات الجامعة نتيجة إرتباط هذين المخدرين بالطبقة الأرستقراطية .. وكان هذا دافعا مغريا لكثير من الفتيات .. أو أن الفتيات طاب لهن مثل تلك المخدرات التى تيسر اللقاء الجنسي وتزيد من سهولته ومتعته .

هكذا .. ودعنا سنوات الثمانينات .

هكذا .. جاءت سنوات التسعينات .. بكل مرارتها وقسوتها وضياعها وإحباطاتها .. وبدلا من أن تندمل الجراح وتقل مساحة مواجعها .. إذ بنا نجد الجرح لا يشفى إلا بعد أن يخلف وراءه الف جرح .. وإذ بالصورة القديمة عن البكارة الضائعة والممزقة بين الإدمان والرغبة لا تزال بيننا تستشرى وتزداد قسوة .. ولا نزال نحن نرفض الإلتفات أو الإكتراث بكل هذا الذى جرى أو كل هذا الذى سوف يجرى .. فلا تصبح تلك الفتاة التى أدمنت فتعرت فزنت فسقطت .. مجرد حادثة فى صحيفة أو مجلة بقدر ما تغدو مجرد حكاية ليس فيها الكثير من الإثارة من فرط ما تكررت وطال إصغاء الناس لحكايات مشابهة قد تزيد أو تقل قليلا فى غرابتها وجموحها وسقوط صاحبتها .. ولا تجد مجلة مثل روز اليوسف ما تقوله [1] عن هذا الإرتباط بين الإدمان والجنس إلا عبارة صغيرة وقاسية .. فحين تدمن الفتاة .. نجد أقلام الروج فى جيب البنطلون .. وأقلام الكحل فى شنطة المدرسة .. والتويس – أى الواقى الذكرى – فى الدولاب !.

وللأسف الشديد والعميق .. لم تبق المشكلة قاصرة على شنطة المدرسة والذى تخبئه شنطة المدرسة .. وإنما كان الأمر فى الجامعة أشد قسوة وخطورة أيضا .. وإذا كانت هناك دراسة إجتماعية علمية [2] قد بينت أنه بين كل الف طالبة جامعية فى مصر .. هناك سبعون طالبة على الأقل يتناولن الكحوليات غير سبعة طالبات يقمن بتدخين أكثر من خمسة عشر سيجارة يوميا .. فإننا لا نحتاج فى المقابل إلى دراسة مماثلة عن الهيروين فى الجامعة ووراء أسوار الجامعة .. عن السقوط الجنسي والأخلاقى حين يكونا نهاية نفق الإدمان المظلم والطويل .. لسنا أيضا فى حاجة إلى أية دراسات أخرى إضافية عما يحدث – أو حدث بالفعل – فى الشارع والبيت وفى كل مكان .. حيث مشت فتيات – وسيدات – كثيرات فى نفس هذا النفق المظلم .. ولعله من المناسب هنا أن نتوقف عند عبارة قصيرة قالها ياسر محمد .. أصغر تاجر للمخدرات فى مصر .. والذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشر من العمر حين قبض عليه البوليس .. وقال ياسر فى إعترافاته وبتلقائية شديدة [3] .. كل يوم كانت ستات وبنات .. حاجة هاى لايف .. تيجى على ملا وشها .. علشان البضاعة .

ثم لم يعد الأمر قاصرا على مجرد سقوط فتاة أو إستسلامها الجنسي المدمر والمهين . ولا أصبحت كل الحكايات هى حكاية فتاة تورطت فى كثير أو قليل من علاقات جنسية محرمة .. وإنما قد تصبح هذة الفتاة عاهرة وتاجرة فى نفس الوقت .. أى بدلا من أن تغدو مدمنة تضطر للعهر لتنال ما تحتاجه من مخدرات .. تصبح تاجرة لا تمانع من إستخدام الدعارة لترويج بضاعتها .. وقد لا تلجأ للدعارة بشكل صريح وإنما فقط تمارس الحياة والحرية بشكل لم نعرفه فى مصر من قبل .. وهذا هو ما حدث سواء على القمة أو حتى فى القاع .

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٤/٥/٣٠

(٢) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان - لجنة المستشارين العلميين – التقرير النهائى – ١٩٩٢

(٣) مجلة كل الناس – عدد ١٩٩٠/١/١

فعلى القمة .. وبالتحديد فى الجامعة الأمريكية .. كانت هناك شيرين على الحسينى .. الطالبة العراقية التى تحمل الجنسية الأمريكية لكنها تعيش هنا فى مصر .. بالبنطلون الجينز والتى شيرت .. تتنقل [١] من قاعات وردهات الجامعة الأمريكية وحفلاتها الأسبوعية كل يوم سبت .. إلى ديسكو فندق هيلتون النيل أو شيراتون الجزيرة إلى نادى الجزيرة إلى شقتها فى المهندسين .. تبيع مخدر إل سى دى على شكل طوابع صغيرة الحجم تضع على كل طابع كمية مركزة من هذا المخدر على هيئة شفتى فتاة .. وحين يقبل الشاب أو الفتاة هاتين الشفتين .. يصل المخدر إلى المخ بعد نصف ساعة فقط وتبدأ الهلوسة ورحلة غياب الوعى والإرادة .. وقالت شيرين أنها إضطرت لمثل هذة التجارة لمواجهة نفقات حياتها فى الجامعة والنادى وقاعات الديسكو والتى بلغت خمسمائة جنيها كل يوم .

على القمة أيضا .. كانت أميرة .. الممثلة المغمورة والزوجة المطلقة التى لم تتجاوز الرابعة والعشرين من العمر .. وتقيم بمفردها فى شقة فاخرة بأعلى إحدى عمارات ميدان سفنكس [٢] .. وإعتادت أميرة أن تفتح باب شقتها آخر كل ليلة أمام المدمنين من الشباب والرجال تقدم لهم الهيروين والحشيش والأفيون والأقراص المخدرة .. وتستعين لرواج تجارتها بكل ما إمتلكته من جمال وفتنة وأنوثة

وفى القاع .. تتكررت نفس الحكاية .. حكاية طالبة كلية الحقوق [٣] تقيم بمفردها فى شقة بحى عين شمس أحالتها إلى وكر يتردد عليه الشباب والرجال فى آخر الليل لتعاطى المخدرات .. أو حكاية عزة .. الزوجة الجميلة التى إشتهرت فى حى بولاق بلقب فاتنة بولاق [٤] .. والتى كانت تستغل جمالها – بعلم وموافقة زوجها رمضان كشرى – لتجذب أكبر عدد ممكن من المدمنين إلى شقة الزوجية ليتعاطوا كل أنواع وأشكال المخدرات .. بل وكانت تدعو الفتيات المدمنات أيضا [٥] للتعاطى مع شباب فاقد لأية قيم أخلاقية لتذوب كل الفوارق بين وكر للإدمان وبيت للدعارة .. أو حكاية فتاة أخرى أدمنت الهيروين فلم تتاجر فى المخدرات ولا إمتلكت وكرا لتعاطيها .. وإنما تحولت إلى عاهرة تذهب مع أى رجل إلى بيته وتستغل رغبته وشهوته ثم نشوته لتسرق ما تصل إليه يداها من أجل شراء المزيد من الهيروين .. مثلها مثل ماجدة .. الطالبة الجامعية التى دفعها الإدمان [٦] لأن تتفق مع زميلاتها على إستقبال راغبى المتعة من الأثرياء والسياح العرب .. وبعد ممارسة الخطيئة تقوم الفتيات بسرقة الزبائن الغائبين عن الوعى .. وفى الإسكندرية تخصصت زوجة أحد تجار المخدرات [٧] فى إصطياد الفتيات الهاربات من بيوتهن وفقرهن وقسوة عائلاتهن لتستغل الزوجة هؤلاء الفتيات فى ترويج المخدرات وتوزيعها مع تدمير أية قيمة أو فضيلة تحت جلد وفى وعى كل فتاة منهن .. وتبين أن هذة الزوجة نجحت فى إصطياد ست وعشرين فتاة من تسع محافظات سواء من محافظات الشمال أو الجنوب .. وإذا كنا قد علمنا بأمر تلك الزوجة

---

(١) مجلة آخر ساعة – عدد ١٩٩٢/٦/١٢
(٢) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٥/١١ ، جريدة الجمهورية – عدد ١٩٩٤/٥/١١
(٣) جريدة الأحرار – عدد ١٩٩٤/٥/١١ ، جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٧/٣
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٦/٢٥
(٥) جريدة الوفد – عدد ١٩٩٤/٧/٩
(٦) جريدة الخضر – عدد ١٩٩٤/٥/١٥
(٧) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٢/٧/٢

وبحكايات ضحاياها .. فإن أحد منا مطلقا لا يعرف كم عدد الفتيات اللواتي إختلط الأمر عليهن بحيث لم يعدن يعرفن هل عوراتهن مخصصة فقط لممارسة البغاء والرذيلة .. أم هي في أحيان أخرى ليست أكثر من مخابئ لتخزين الهيروين .. الذي بتنا نعرفه فقط هو أن جرائم جلب المخدرات أو الإتجار بها .. أصبحت تمثل ثلاثين بالمائة من إجمالي جرائم المرأة المصرية (١) .. أي أنها تأتي في المرتبة التالية بعد جرائم الآداب .. وفي واقع الأمر هي ظاهرة لم تلق ما تستحقه من دراسة وإهتمام وإنزعاج .. ظاهرة إتجار المرأة المصرية في المخدرات .. ظاهرة بدأت بزوجة تاجر مخدرات يموت زوجها أو يذهب وراء القضبان .. فتضطر أو تفضل إكمال مسيرة الزوج الغائب إما من أجل تربية الصغار أو طمعا في الثروة الخرافية التي تأتي بها مثل هذة التجارة المحرمة .. وإنتهت بكثيرات أقبلن على بيع المخدرات دون حاجة أو إضطرار حقيقي .. مثل طفلة في الحادية عشرة من عمرها إختارت أن تبيع الحشيش - في منطقة المرج - لأن ذلك يأتيها بكثير من المال مقابل مجهود قليل ومعاناة أقل .. ومثل قيام ربة منزل في مدينة القنطرة بمحافظة الإسماعيلية (٢) ببيع البانجو في بيتها بمجرد خروج زوجها إلى العمل كل صباح .. وتوالت وتعددت الحكايات وإلى الحد الذي معه باتت هناك أحياء كاملة في مدينة القاهرة تتسيد المرأة فيها تجارة المخدرات (٣) .. مثل أحياء الموسكي والأزبكية والدرب الأحمر والسيدة زينب والوايلي والجمالية .. ويأتي بولاق على رأس القائمة .. بل إن بولاق أصبح بالفعل هو حي المخدرات الحريمي (٤) .. حيث تبيع النساء والفتيات هناك نصف ما يشتريه المدمنون من المخدرات .. ولكن ليس بينهن من تطاول حورية .. ملكة تجارة الهيروين في مصر .. المرأة الحديدية التي تحكم هذة التجارة وتديرها .. ومعها تسيطر وتدير إمبراطورية الجيارة بأكملها .. وكانت حورية مجرد إبنة ثالثة لتاجر هيروين إسمه عبده طه .. سبقها إلى الأسرة ولدان هما عبد العال وحنفي .. وبعد موت الأب .. ورث الإبن الأكبر تجارة الأفيون وأصبح أكبر تاجر له في مصر .. لكن حورية - وبعد أن مات زوجها - لم تقنع بالأفيون وبالربح القليل الذي يأتي من تجارته .. فقررت المغامرة بتجارة الهيروين .. وإقتحمت غابته كأنثى تملك قلبا مصبوبا من أسمنت وأعصابا من شمع .. ونجحت وتفوقت على الجميع وأصبحت ملكة على عرش الهيروين المصري وهي لا تزال في السابعة والثلاثين من العمر .. ولم تكتف بذلك .. وإنما فتحت باب الشيطان لإثنتين من بناتها الأربعة هما نهلة وليلى لتمارس كل منهما نفس هذة التجارة المحرمة من خارج الجيارة وبمساعدة محمد عباس لاعب الأهلي القديم والنجم الذي أطاح به الإدمان من فوق عرش الكرة المصرية .

وفي أحيان كثيرة .. لم يكن هناك أي فارق بين جرائم المخدرات وجرائم الآداب .. وهي حقيقة لا تنتظر أن نعترف بها أو لا نعترف .. وواقع لا يكترث مطلقا بقرارنا وما إذا كنا سنقف عنده أو سنتجاهله .. حقيقة وواقع شهد ميلادهما القبض على إمبراطورية الماكستون فورت في نهاية الثمانينات .. إمبراطورية كانت تديرها خمس نساء .. رضا إبراهيم وشقيقتها سعدة .. وزوزو السيد .. وشادية إسماعيل محمد .. وقطايف أحمد عضماوي .

---

(١) جريدة أخبار الحوادث - عدد ١٩٩٢/٩/٢

(٢) جريدة الأهرام المسائي - عدد ١٩٩٤/٥/١٤

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/٢/١٣

(٤) أشرف توفيق - بنات الأصول والمخدرات - الشرق الأوسط للإعلام العربي - ١٩٩٣

يومها إكتشف الجميع تلاشي أية فوارق بين الدعارة وبين الإدمان ..بين العهر وبين تجارة المخدرات .. فالمرأة التى تحارب الله وتبيع الرذيلة.. لن تتردد فى محاربة الحكومة لتبيع المخدرات .. والمرأة التى تبيع للآخرين الموت .. لا تتردد فى أن تبيعهم جسدها وعفتها .. وهذا ليس مجرد رأى شخصى أنفرد بالإقتناع به وحدى .. وإنما هو رأى يؤمن ويقتنع به الكثيرون .. ومنهم تجار المخدرات أيضا .. أولئك الذين إستعانوا على سبيل المثال[١] بعدد من العاهرات – فى منطقة بولاق أبو العلا – لإستدراج الزبائن .. ومنهم أيضا من إستعان بكثير من هؤلاء العاهرات والساقطات لحقن المدمنين بالماكستون فورت فى أوردة القضيب بعد إنسداد وتهالك أوردة الذراعين تماما .. وهكذا لم يبق هناك أى فارق بين الدعارة وبين تعاطى المخدرات أو الإتجار بها إلا هذا الفارق الذى نلمحه أو نكتشفه بين النساء والفتيات اللواتى جئن من خارج مصر إما لممارسة الدعارة وإما لجلب المخدرات .. فقد إنفردت الفيليبينيات غالبا بالدعارة .. بينما تقاسمت فتيات ونساء نيجيريا ولبنان فى معظم الأحيان مهمة جلب المخدرات .. حتى هذا الفارق يسقط أحيانا .. ففى واحدة من قضايا المخدرات الشهيرة والكبيرة .. والتى حكمت المحكمة فيها بإعدام ست نساء بتهمة جلب المخدرات إلى مصر .. إعترفن جميعهن قبل إعدامهن[٢] بأن الطريق بدأ بالتعاطى فالإدمان .. ثم جرائم الآداب بأشكالها المختلفة .. ثم إنتهى بالإتجار والسقوط والموت .. وبعيدا عن هذه الإعترافات .. يؤكد الدكتور عادل صادق[٣] أن المرأة المدمنة أساسا لديها إستعداد فطرى وغريزى للإنحراف .. وهى بلا شك منحرفة فى جوانب أخرى من حياتها .. أو هى إمرأة بلا قواعد إجتماعية ثابتة .

ومرة أخرى .. لم تقتصر فواتيرنا الجنسية على ذلك فقط .. وإنما بدأنا نعيش أوجاعا أخرى وإضافية .. هى تلك الأوجاع التى لم تعرفها إلا كل فتاة تكتشف قيام أبيها أو زوجها ببيع جسدها وشرفها مقابل شمة أو حقنة هيروين .. وكان الصحفى الكبير وجيه أبو ذكرى هو أول من أشار إلى هذا الواقع المخيف والمؤلم .. وحكى لنا[٤] حكاية الفتاة التى شجعها أبوها على إقامة علاقة جنسية مع مديرها فى العمل من أجل أن تأتى له بالمزيد من المال ينفقه على إدمان الهيروين .. وهى حكاية تكررت كثيرا بعد ذلك .. وأصبح من السهل الإصغاء لمثلها بين أوساط المدمنين والمدمنات .. ثم كان أن بدأت الصحف تتناولها على إستحياء .. فعلى سبيل المثال نشرت جريدة الأهرام المسائى[٥] حكاية أميرة .. الفتاة الجميلة التى ذهبت بها أمها إلى قسم الشرطة لتطالب البوليس بحماية إبنتها من أبيها .. فالأب مدمن للهيروين باع كل ما يملك ثم تخلص من كل أثاث المنزل .. وأخيرا بدأ يعرض جسد إبنته على من يأتى له بشمة إضافية .. ثم نشر عزت السعدنى – فى صفحة كاملة فى جريدة الأهرام[٦] – حكاية فتاة أخرى .. كانت واحدة من ثلاث شقيقات تضمهن أسرة صغيرة مستقرة وهادئة تقيم فى بيت صغير وأنيق على شاطئ بحر الإسكندرية .. وتستمتع الأسرة كلها بمستوى رفيع من الرفاهية سمح بالسيارات الفخمة والمدارس الأجنبية

---

(١) جريدة الصباحية – جدة – عدد ١٩٩١/٨/٣٠
(٢) أشرف توفيق – بنات الأصول والمخدرات – الشرق الأوسط للإعلام العربى – ١٩٩٣
(٣) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/١٣
(٤) وجيه أبو ذكرى – شباب فى دائرة الموت – المكتب العربى للمعارف – ١٩٨٩
(٥) جريدة الأهرام المسائى – عدد ١٩٩٣/١/١٦
(٢) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٤/١٦

الغالية وطاقم السائقين والخادمات .. حتى أدمن الأب الهيروين .. فبدأ يبيع كل شئ .. وبعد ثلاث سنوات فقط .. كان قد باع كل ما تملكه الأسرة .. حتى البيت الجميل الأنيق تخلص منه لتنتقل الأسرة إلى شقة صغيرة ضيقة وتحول الأب إلى موزع يعمل لحساب أحد كبار تجار الهيروين .. يفتح أبواب شقته الصغيرة مام أى مدمن .. حتى جاء اليوم الذى لم يجد فيه الأب غير بناته الثلاث .. وإتفق بالفعل مع ثلاثة رجال غرباء يملكون المال .. إستغل غياب الأم ودعا هؤلاء الرجال الثلاثة إلى الشقة وتركهم مع بناته النائمات فى حجرتهن وغادر الأب الشقة ليبدأ الرجال فى إغتصاب بناته .. بعدها لم تجد واحدة من هؤلاء الشقيقات إلا أن تقتل أبيها .. وقتلته بالفعل وكأنها تقتل العار والعذاب والذل والخطيئة .

وإذا كان هذا الأب قد أدمن فقرر بيع شرف بناته الثلاث من أجل الحصول على الهيروين .. فهناك أب آخر أدمن أيضا فقرر أن تدمن إبنته معه .. وأن تتحول إلى تاجرة مخدرات أيضا .. وكان هذا الأب مهندسا ناجحا قبل أن يدمن الهيروين (١) ..وبعد أن أدمن .. فقد وظيفته وبدأ يبيع ما يملكه إلى أن إلتقطه أحد التجار فى حى الحسين وطلب منه توزيع الهيروين على الزبائن مقابل شمة كل يوم .. وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند ذلك .. لولا إصابة الرجل بالشلل .. فبدأ يستعين بإبنته فى توزيع الهيروين .. علمها كيف تبيعه وأين تذهب به سواء فى محلات الملابس الجاهزة أو محلات الخردوات الأنيقة والجميلة المنتثرة فى كل نواحى القاهرة .. وكان من الطبيعى أن تدمن الفتاة .. وأن تشم مع أبيها كل ليلة حتى آذان الفجر .. وليس لأحد منا أن يسأل بعد ذلك عن سلوك مثل هذة الفتاة وعن ضوابطها الإجتماعية والدينية والأخلاقية .. فهو لن يختلف فى كثير أو قليل عن فتاة أخرى بحى المنيرة أدمن والدها المخدرات ففقد عمله .. وإضطرت زوجته للعمل بالدلالة لتنفق على الأسرة .. أما الفتاة فقد إحترفت الدعارة والإتجار بالمخدرات ثم كان أن راحت تغرى كثيرا من فتيات ونساء الحى بالسير فى نفس طريقها المؤلم والموجع .

وهكذا .. كان على فتيات كثيرات أن يسددن فاتورة الحساب الجنسى للمخدرات وللإدمان .. وفى المقابل كانت هناك فواتير أخرى – جنسية أيضا – سددتها الزوجات أيضا .. فواتير بدأت بالعذاب والدموع لكنها إنتهت غالبا بالسقوط والخيانة .. ومثلما تتعدد وتختلف حكايات سقوط الفتيات وإنهيارهن جنسيا وأخلاقيا .. أيضا تتعدد حكايات الزوجات وسقوطهن وإستسلامهن .. فهناك الزوجة التى تزوجت من رجل سورى جاء إلى مصر ليتاجر فى المخدرات .. وكان من الطبيعى جدا أن تدمن الزوجة .. ساعدها على ذلك مدى إستمتاعها باللقاء الجنسى مع زوجها إذا تم عقب تعاطى الإثنين للهيروين .. وعلى حد تعبيرها .. كان الهيروين يسرق وعيها ووعى زوجها فيلتقيان فى الفراش ويبتكران طرقا وأوضاعا للمعاشرة الجنسية يعجز عن إبتكارها الشيطان نفسه .. لكن من الواضح أن ما كانت تشعر به الزوجة من متعة ونشوة لم يكن بالضرورة هو ما شعر به الزوج الذى هرب بعد قليل وعاد إلى بلاده مرة أخرى .. ولم تجد الزوجة وسيلة تنال بها الهيروين الذى تحتاجه.. إلا ممارسة الدعارة وبيع جسدها كل ليلة لمن يدفع الثمن.. ولست أظن أنها فى تلك اللقاءات كانت تبتكر شيئا لا يعرفه أى شيطان من شياطين الأرض أو السماء .

---

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٢/٢٠

وتتشابه تلك الحكاية فى كثير من تفاصيلها مع حكاية زوجة أخرى إسمها سحر تحدث عنها الكثيرون بعد أن نشرت الصحف خبر العثور على جثتها داخل سيارة فوق قمة جبل المقطم .. فهذة المرأة التى قتلها الإدمان كانت زوجة لرجل سعودى الجنسية مدمن هو الآخر ومسجون فى بلده بتهمتى تعاطى المخدات والقتل الخطأ .. وإعتادت الزوجة الإقامة مع عائلتها فى شقة مفروشة بالقاهرة .. ولم يكن هناك ما يشغل هذة الزوجة الشابة والجميلة إلا ملاحقة شلة المخدرات كل ليلة وإلى أى مكان .. شلة كانت تضم (١) شريفة .. إمرأة أخرى أيضا متزوجة من رجل سعودى الجنسية لكنها تقيم فى القاهرة بلا رقيب أو أية مسئوليات .. وأمانى .. مطلقة من رجل سعودى أيضا وكانت على علاقة ساخنة بمحامى شاب قبل أن تتدخل عائلة هذا الشاب وتبعده عن صديقته المطلقة .. وأخيرا كانت الشلة تضم عددا من الرجال وطلبة الجامعات .. يتجمعون كل مساء فى محل يملكه أحدهم فى شارع شهاب بالمهندسين ليبدأ بهم ليل القاهرة رحلته اليومية نحو الضياع والسقوط والإدمان .. رحلة مخيفة ودائرة مغلقة لم يكسرها إلا جرعة زائدة تناولتها سحر فأودت بحياتها فتركها أعضاء الشلة داخل السيارة فوق جبل المقطم .

وفى الإسكندرية .. تتكسر حلقة أخرى إختلط فيها السقوط بالجنس بالهيروين بظاهرة زواج المصريات من المدمنين وتجار المخدرات القادمين من البلاد العربية .. ويكتشف رجال مكافحة المخدرات بالإسكندرية ستة من هؤلاء الرجال فى أسبوع واحد (٢) .. يأتى الواحد منهم إلى مصر .. يحمل الكثير من المال .. يتردد على الفنادق والملاهى والمطاعم .. يتعرف ويتقرب إلى فتيات كثيرات يختار إحداهن لتكون زوجة له يقيم معها فى شقة مفروشة .. ويتخذ الرجل من الزواج ستارا للإتجار فى المخدرات .. وهو حال لا يدوم كثيرا .. إما أن يقرر الرجل الرحيل عائدا إلى بلاده مرة أخرى وإما يتم القبض عليه .. وفى كلتا الحالتين تبقى زوجة صغيرة وجميلة .. هى فى أحيان كثيرة إمرأة دخلت قفص الإدمان وبات عليها بعد غياب زوجها أن تستعين بنفسها لتحصل على ما تحتاجه من مخدر .. أو هى فى أحيان أخرى زوجة إستمتعت بعض الوقت بكل هذا الثراء وكل هذة الرفاهية وأصبح من الصعب عليها العودة إلى حياتها الأولى قبل زواجها .

ولا تقتصر حكايات الزوجات والمخدرات والإنحراف على مثل هؤلاء فقط .. وإنما هناك نوع آخر من الزوجات اللواتى أدمن أزواجهن .. فعرفن الإدمان هن أيضا .. سواء بقصد من الزوج أو بدون قصد .. فأما الحالات التى تعمد فيها الزوج سقوط زوجته فى بئر الإدمان العميق .. فهى التى يمكن إختصارها كلها بحكاية فتاة جاءت من إحدى محافظات الوجه البحرى لإستكمال دراستها الجامعية (٣) .. وبعد تخرجها بقيت فى القاهرة تنعم بحياة تفيض بالرفاهية .. ووقعت فى حب شاب مدمن هيروين وتزوجته .. ولأن الزوج كان يعلم أن لا سبيل لإقتناص ثروة الزوجة دون أن تدمن هى الأخرى .. فقد ساقها إلى إدمان الهيروين .. حتى أنفقت على إدمانها وإدمان زوجها كل ميراثها عن عائلتها .. فخرج الزوج من البيت ولم يعد تاركا ضحيته وحدها زوجة صغيرة مدمنة تحمل فى أحشائها جنينا لم يكمل بعد الثلاثة شهور .

---

(١) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٨٩/٤/٢٠

(٢) جريدة أخبار الحوادث - عدد ١٩٩٢/١١/٥

(٣) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/٥/٨

وإذا كان الزوج فى هذه الحكاية قد تعمد أن يسوق زوجته إلى حظيرة الإدمان ليسلبها ثروتها وكل ما تملكه مثله مثل كثير من الأزواج حتى وإن إختلفت دوافعهم وأسبابهم .. فإن هناك بالمقابل أزواج – كثيرون أيضا – لم يتعمدوا إدمان زوجاتهم وإن لم يمانعوا أو يعترضوا على هذا الإدمان .. أحدهم كان تاجراً للمخدرات فى مدينة الإسكندرية .. له بعيدا عن تجارته المحرمة أسرة سعيدة وزوجة وقور وصفها أحد ضباط مكافحة المخدرات [1] بأنها المرأة الفاضلة التى لا تقر سلوك زوجها بل وتحتفظ بكرامتها وشرفها وتعيش لترعى وتحمى بناتها الخمس .. ثم يحكى نفس هذا الضابط ما جرى لنفس هذه الزوجة بعد عام واحد فقط .. حين أصبحت إمرأة متهالكة مدمنة تعاطت الهيروين دون أن يمنعها أو يقاومها زوجها حتى إستسلمت تماما للإدمان .

وما يعنينا من ذلك كله هو مدى قدرة هؤلاء الزوجات على المقاومة وعلى التعفف .. فأيا كان الدافع والسبب وراء إدمانهن .. فمن المؤكد أنه ما من زوجة أدمنت بالفعل إلا وكان زوجها قد سبقها إلى الإدمان .. ومن المؤكد أيضا أن الزوج المدمن يفقد الكثير جدا من معانى الرجولة وملامحها .. هكذا تحدث قبل عصرنا بوقت طويل جدا الإمام ابن تيمية فى كتابه الذى أسماه السياسة الشرعية .. حيث قال الإمام [2] أن الحشيش حرام .. وهو أخبث من الخمر .. لأنها تفسد العقل والمزاج .. حتى يصير الرجل فيه تخنث ودياثة .

ولأن الدياثة هى عدم غيرة الرجل على عرضه وشرفه .. فإن لنا أن نتوقع أو نتخيل ذلك الذى جرى ولا يزال يجرى .. أو أننا لسنا فى حاجة لأن نتوقع أو نتخيل وإنما يكفى فقط أن نرصد واقعنا ونتأمله من جديد .. فعلى سبيل المثال هناك مليونير شاب .. رجل مجتمع تربطه صداقات عديدة وعميقة بكثير من الفنانين والمشاهير ونجوم المجتمع .. له أيضا علاقات وصداقات نسائية عديدة .. لكنه سقط فجأة فى بئر الإدمان حتى إضطر لبيع كل ما يملك .. وإنتهى به الحال للعمل كأحد صبيان كبار تجار الهيروين .. يسافر فى رحلات قصيرة سريعة إلى الخارج ليأتى بالهيروين فى حقائبه مقابل أن ينال ما يحتاجه من المخدرات دون مقابل .. ولأن رحلاته تلك لم تعد تكفى ثمنا للهيروين الذى يحتاجه .. فإن المليونير السابق والدون جوان الفارس المغوار فى عالم النساء .. لم يعد يجد أى مانع أو حرج فى تأجير مؤخرة زوجته لأى تاجر يضع فيها ما يشاء من الهيروين لتعبر به مطار القاهرة فيقبض زوجها الثمن .

وإذا كانت هذه الزوجة – وكثيرات مثلها – قد إضطرت لأن تعرى مؤخرتها لكل تجار المخدرات وصبيانهم فى مصر وأوروبا لينال زوجها المدمن ما يحتاجه من مخدرات .. فهناك زوجات أخريات – أكثر عددا – لم يكتفين فقط بمؤخرات عارية .. وإنما تعرت أجسادهن كلها .. وإستسلمن للرغبة والشهوة والخطيئة .. بل وكانت هناك الزوجات اللواتى إنتهى بهن الأمر إلى ممارسة الدعارة أيضا .. منهن تلك الزوجة التى عاشت مع زوجها عشر سنوات كاملة فى هدوء وإستقرار [3] .. إلى أن أدمن الزوج تعاطى الهيروين .. ومنه تعلمت الزوجة وأدمنت الهيروين هى الأخرى .. فلم يعد دخل الزوج – الذى لم يكن أكثر من عامل حرفى – يكفى للإنفاق على إدمانه هو وزوجته .. وبدأ يطالب زوجته بمعاونته فى الحصول على الهيروين .. ولم تفهم الزوجة فى أول

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٦/٩

(٢) د. عبد العزيز شرف – المكيفات – سلسلة إقرأ – رقم ٤٢٣ – دار المعارف – ١٩٧٨

(٣) مجلة كل الناس – عدد ١٩٨٩/٧/٢٢

الأمر ما يقصده الزوج .. لكنها لم تبق على غبائها طويلا .. فسرعان ما خلعت ملابسها ودعت غرباء الرجال إلى فراش الزوجية ليمارسوا معها الجنس بعلم الزوج وموافقته وسعادته بضمان الحصول على الهيروين بشكل منتظم .

وتقتضى الأمانة التأكيد على أن الحاجة للمخدرات وحدها هى التى ربطت ما بين إدمان هؤلاء الزوجات وبين السقوط بمختلف أشكاله وملامحه وأنواعه .. ومع ذلك كانت هناك أدوار أخرى للمخدرات تلعبها مع كل زوجة أو إمرأة تدمنها .. فالمخدرات تقضى على أمل ضحيتها فى الإستقرار النفسى أو العائلى أو الإجتماعى أو حتى الجنسى .. فحين تدمن المرأة الهيروين أو الكوكايين .. تقل فرصتها فى إكمال الحمل حتى الولادة .. وإنما هي أكثر من غيرها عرضة للإجهاض أو أن تفقد جنينها تلقائيا .. هذا غير تأثير المخدرات على إنتظام دورة المرأة الشهرية بشكل يربك حسابات أية إمرأة ترغب أو تود فى أن تكون أما أو على الأقل تغدو زوجة قادرة على أن تسعد زوجها أو يسعد بها زوجها .

ثم جاء الدور على زوجات المدمنين .. أولئك اللواتى لم يسقطن كضحايا للإدمان .. ولا إضطررن يوما لخلع ملابسهن أمام الآخرين أو فى حضور الغرباء .. لكن بقين زوجات مع إيقاف التنفيذ .. يعجز أزواجهن عن إشباع رغباتهن وإحتياجاتهن الجنسية الطبيعية والمشروعة .. وعن هؤلاء الزوجات قام الدكتور جمال ماضى أبو العزايم بدراسة علمية (١) شملت زوجات من يتعاطون الحشيش .. وإستوقفت الدكتور جمال عبارة قالتها إحدى هؤلاء الزوجات فى عفوية وتلقائية .. قالت الزوجة .. يخرج زوجي لتدخين الحشيش .. ويعود آخر الليل .. عيناه مثل فناجين الدم .. حمراء متسعة مستديرة .. فيدخل المطبخ ويمد يده إلى الحلل ويأكل .. ثم لا يغسل يده وإنما يذهب إلى الفراش لينام كالقتيل .. وفى الصباح يقوم ليستحم .. ثم يخرج يقول لى .. أما كانت ليلة .. ولا إيه رأيك ياولية ؟!.. ووأجدنى مضطرة لأن أوافقه على أوهامه التى صورت له أنه بالأمس فعل معى فى الفراش ما لا يستطيعه رجل غيره مع أنه نام مباشرة بعد أن إلتهم كل الطبيخ !.

ومثل هذة الزوجة .. كثير من زوجات أدمن أزواجهن تعاطى المخدرات بكافة أشكالها بداية من الحشيش وحتى الهيروين .. وأرهق هذا التعاطى رجولة وصحة وقدرة الأزواج الجسدية والجنسية .. فكان على زوجاتهم أن يدفعن الثمن .. ومن قبيل المفارقات المحزنة .. أن نسبة كبيرة من هؤلاء الأزواج لم يبحثوا عن تلك المخدرات إلا لزيادة قدراتهم وطاقاتهم الجنسية .. فالدكتور جمال ماضى أبو العزايم مثلا .. إكتشف أن نسبة كبيرة من المدمنين لم يدخلوا هذا العالم إلا نتيجة أفكار ومعتقدات خاطئة تربط ما بين المخدرات وبين القدرة والقوة الجنسية .. وتوصل الدكتور أحمد عكاشة أن البحث الدائم عن اللذة الجنسية يأتى على رأس أسباب ودوافع الإدمان(٢) إذا إستثنينا تفكك الأسرة أو حالات القلق والإكتئاب النفسى الحاد .

ومن العادات المصرية الشهيرة جدا .. والتى لا تزال شائعة فى كثير من نواحى مصر .. هى ضرورة أن يتعاطى الشاب الحشيش ليلة زفافه حتى ينجح فى أن يثبت للعروس أنه رجل بما يكفى .. وهى عادة لم ينشغل أحدنا من قبل فى البحث لها عن أصل وعن تفسير .. رغم أن

---

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠

(٢) د. أحمد عكاشة – ثقوب فى الضمير – دار الشروق – ١٩٩٣

بعضنا كان دائم التساؤل عن سبب إدمان المخدرات فى مصر .. وهناك مقال شهير للأديب الكبير صالح مرسى نشرته مجلة صباح الخير فى بداية الستينات (١) يتساءل فيه عن الحشيش ولماذا يتعاطاه الناس .. هل هى الفرفشة ؟.. أم هى محاولة للنسيان ؟.. أم أنهم يتعاطون الحشيش حين يريدون الإستماع والإستمتاع بأم كلثوم ؟.. وهل صحيح أن للمخدرات علاقة واضحة ومؤكدة بالقدرة الجنسية؟.. وإختتم صالح مرسى أسئلته بالتأكيد على حاجتنا لدراسة علمية جادة تجيب على مثل هذة الإسئلة .

ولم نتأخر كثيرا لنقوم بمثل هذة الدراسة .. كنا فقط فى حاجة إلى عشرين عاما لنعرف الإجابة أو حتى نحاول الوصول إليها .. فجاءت نهايات الثمانينات لتتعدد الدراسات التى أشارت - أو أكدت - أن البحث عن مزيد من القوة والكفاءة والقدرة الجنسية هو دافع الكثيرين هنا وهناك للإقبال على تعاطى المخدرات ثم إدمانها بعد ذلك .. ففى دراسة لقسم الأمراض النفسية بكلية الطب بجامعة القاهرة (٢) .. تبين أن الإقتناع بدور المخدرات فى زيادة القدرة على ممارسة الجنس والإستمتاع به هو أحد الأسباب الرئيسية للإدمان .. وإن كان حجم هذا الإقتناع يختلف من طبقة إلى أخرى .. فالجنس يأتى كسبب أول لإدمان السائقين .. وسبب ثالث وراء إدمان الطلبة .. والمفاجأة كانت أن القناعة بدور المخدرات فى العلاقة الجنسية كانت السبب الثانى لإدمان مجموعة الأطباء التى شملتها الدراسة .. وفى دراسة أخرى - أكبر وأشمل - أجريت بعد ثلاث سنوات حول أسباب ودوافع الإدمان بين طلبة الجامعة أو المدارس الثانوية فى مصر (٣) .. تبين أن الجنس والإستمتاع به والقدرة عليه - والذى يأتى فى خانة المناسبات الإجتماعية الهامة والسعيدة - كان الدافع الأول وراء إدمان هؤلاء الشباب للمخدرات بكل أنواعها .. وهى قناعة أو مفاهيم تسيدت الجميع بما فيهم الفنانين أيضا .. فأقبل كثيرون منهم على تعاطى المخدرات بحثا عن المزيد من القدرة الجنسية .. منهم ذلك الفنان الذى تعدى الخمسين من العمر والذى أجاد وإشتهر بأدوار كثيرة جسد فيها شخصيات العمدة وزعيم العصابة وتاجر المخدرات والزوج الطيب أو الرجل الشرير .. ومات فجأة فى شقة مفروشة عاريا ملقى على الأرض وقد تعفنت جثته .. لتكشف التحقيقات بعد ذلك أن الرجل كان دائم البحث عن المخدرات بكل أشكالها لإعتقاده بأن ما يتعاطاه سيساعده فى إظهار رجولته وفحولته مع الفتيات الصغيرات والمعجبات اللواتى كان يلتقى بهن هنا أو هناك .. وكان يصطحبهن إلى تلك الشقة التى إستأجرها خصيصا للمخدرات وللجنس .. وكان يحتفظ فيها بكل ما هو متاح من ثياب داخلية ومن أقراص مخدرة .. وكشفت التحقيقات أيضا أن سبب الوفاة كان تعاطى كمية كبيرة من تلك الأقراص فى غمرة الإحتفاء والإحتفال بإحدى الموظفات التى جاءت معه لممارسة الجنس .. وفوجئت تلك الموظفة بهذا الفنان وقد لفظ أنفاسه الأخيرة وهما عاريان تماما إستعدادا لممارسة الجنس .. فإنتاب الذعر والخوف تلك الموظفة فإرتدت ملابسها فى سرعة وإرتباك ونسيت إرتداء ثيابها الداخلية التى كانت طرف الخيط الذى قاد البوليس للقبض عليها وإكتشاف باقى تفاصيل الحكاية .

ومثل هذا الفنان كان فنان آخر .. على قناعة كاملة بضرورة المخدرات للحفاظ على قدرته

---

(١) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٩١/٦/١٥
(٢) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٨٩/١/٣٠
(٣) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان - لجنة المستشارين العلميين - التقرير النهائى - ١٩٩٢

وقوته الجنسية .. والحفاظ أيضا على علاقاته الجنسية المتعددة .. حتى إنتهى به الأمر ميتا على إحدى شواطئ مصر السياحية الشهيرة .

ومن المؤكد أنها ظاهرة قديمة جدا هى قناعة المصريين بدور المخدرات وتأثيرها على الكفاءة الجنسية والإستمتاع بالجنس والقدرة عليه .. لكننا لا نعرف على وجه التحديد .. متى أو كيف ولدت العلاقة ونمت بين المخدرات وبين المتعة الجنسية .. فهناك أراء كثيرة تشير إلى أن مصر لم تعرف مثل تلك العلاقة إلا منذ أن عرفت الحشيش لأول مرة .. وكان ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى فى زمن الدولة الأيوبية [١] .. إلا أن هناك أراء أخرى فى المقابل تؤكد قيام هذة العلاقة منذ زمن الفراعنة الأوائل .. بالتحديد منذ أن إكتشف هؤلاء الفراعنة نبات الخشخاش .. وتعلموا كيف يستخلصون منه الأفيون .. وعن ذلك يشير أشرف توفيق يشير فى كتابه [٢] إلى أن هيرودوت قال فى مذكراته أن الفراعنة عرفوا الخشخاش وإرتبط ظهوره وتعاطيه بالبغاء والدعارة عند غانية فرعونية تدعى رادوبيس .. ولست أحسب إلا أن الكاتب إستهوته فجأة محاولة إيجاد أية علاقة بين المخدرات وبين البغاء .. فزج بإسم هيرودوت ورادوبيس لمجرد أن يقنعنا أو يقنع نفسه على الأقل .. فقد عدت مرة أخرى إلى مذكرات هيرودوت [٣] .. لم أجد ذكرا للخشخاش أو لتعاطى أية مخدرات من أى نوع وذلك بالتحديد فى الفصلين رقم ١٢٤ و١٢٥ اللذين تحدث فيهما هيرودوت عن رادوبيس .. ولم يذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت كلمة الخشخاش إلا فى الفصل الثانى والتسعين .. حين تحدث عن سكان الدلتا فى كل فيضان .. يجمعون نبات البشنين – أو اللوتس – ويجففونه فى الشمس .. ثم يلتقطون الحب – الذى يشبه الخشخاش – ويطحنونه ويصنعون منه أرغفة يخبزونها على النار .

لكن – وبدون أن نتوقف كثيرا أو قليلا عند الذى قاله هيرودوت أو لم يقله – تبقى الدراسات العلمية الجادة التى أكدت إستخلاص الفراعنة للأفيون من نبات الخشخاش .. ويقول الدكتور محمد محمود الهوارى [٤] أن المصريين القدماء أحالوا هذا الأفيون إلى شراب يستعينون به إما على الأرق ليأتى النوم .. أو على القلق لتستكين النفس .. أو على الألم ليهدأ الجسد .. وإما ليشعل هذا الشراب نار الحب .

ويضيف الصحفى الكبير عزت السعدنى فى دراسة له بجريدة الأهرام [٥] . أن المصريين أجادوا الإستمتاع بالأفيون .. وأن الإله المصرى موت هو الذى علم الجنس البشرى كيف يستمتع بالأفيون .. يضيف عزت السعدنى أيضا أن الشاعر الإغريقى هوميروس كتب عن الأميرة اليونانية الجميلة هيلينا .. والتى كانت على علاقة بأميرة مصرية إسمها تون .. فأهدتها الأميرة المصرية شراب السلوان .. وهو الشراب الذى كان أهل مصر يستخلصونه من الأفيون .. والذى قال عنه المؤرخ اليونانى تيودور الصقلى أنه يذهب بالأحزان والهموم والغضب .

ومن الممكن أن أكتفى بذلك كدليل على العلاقة بين الأفيون وبين المتعة .. لكن الأمانة تقتضى التوقف أولا عند محمد فتحى عيد .. صاحب واحدة من أعظم وأقيم الدراسات عن المخدرات وتاريخها فى مصر .. وهو يشير فى كتابه [٦] إلى المصريين القدماء قد عرفوا الأفيون بالفعل ..

---

(١) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان – لجنة المستشارين العلميين – التقرير النهائى – ١٩٩٢
(٢) أشرف توفيق – بنات الأصول والمخدرات – وكالة الشرق الأوسط للإعلام العربى – ١٩٩٣
(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر – ترجمة د. محمد صقر خفاجة – شرح د. أحمد بدوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧
(٤) د. محمد محمود الهوارى – المخدرات من القلق إلى الإستعباد – كتاب الأمة – قطر – ١٩٨٧
(٥) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٤/٣٠
(٦) محمد فتحى عيد – جريمة تعاطى المخدرات فى القانون المصرى والقانون المقارن – دار لوتس للطباعة والنشر – ١٩٨١

ومنذ البدايات الأولى للدولى المصرية .. فقد عثر فى إحدى مقابر الأسرة الثامنة عشرة على مرهم زيتى يحتوى على الأفيون .. وفى وادى الملوك تم العثور على قرصين ذهبيين على شكل زهرة الخشخاش .. بل وورد الأفيون فى أوراق البردى إثنتين وعشرين مرة .. ثم يشير محمد فتحى عيد فى سياق حديثه عن وظائف الأفيون وإستخداماته إلى أن الفراعنة إستخدموا الأفيون كعلاج لأمراض العيون أو دهان لأمراض الجلد وأوجاع الجسد .. أو لتهدئة صراخ الأطفال .

وأيا كانت الآراء والخلافات والإختلافات .. فمن الواضح أن هناك ما يمكن أن نتفق عليه .. وهو أن الفراعنة منذ أزمانهم الأولى عرفوا نبات الخشخاش .. وإستخلصوا منه الأفيون .. ومن الأفيون أعدوا شراب السلوان الذى يبعث على الراحة والإسترخاء .. وغير الشراب كانت هناك الزيوت والمراهم والدهانات .. إستخدمها بعضهم كعلاجات طبية .. وإستخدمها بعض آخر كمهدئات أو منشطات جنسية يحتفظون بها طيلة حياتهم وفى القبر أيضا حتى يجدها كل من سافر إلى العالم الآخر .

أما الحشيش .. فلم تعرفه مصر – كما سبق وأن أشرت – إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى .. وأقصد بذلك الحشيش كمخدر .. لأن المصريين القدماء عرفوا منذ وقت طويل جدا نبات القنب الذى يستخرج منه الحشيش .. غير أنهم قصروا إستخدامه على صناعة الحبال .. هذة هى الحقيقة التى يتفق أو يجمع عليها الكثيرون .. بإستثناء د. كلوت بك .. الذى أشار فى دراسته عن مصر [١] إلى أن الفراعنة لم يكتفوا بصناعة بالحبال كفائدة وحيدة لنبات القنب .. وإنما تعلموا من الحيثيين أحيانا كيف يستخرجون منه الحشيش ويدخنونه .. وأنا شخصيا أميل إلى رأى المقريزى أكثر مما أميل إلى رأى كلوت بك رغم إحترامى العميق له ولمحاولته ودراسته .. فالمقريزى – ومعه كل مؤرخى مصر العظام والكبار – بدأوا الحديث عن الحشيش فى مصر فقط فى القرن الحادى عشر .. هكذا تحدث المقريزى فى كتابه المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار .. وهكذا تحدث إبن إياس فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور .. التاريخ نفسه يحدثنا عن واحدة من أقسى المواجهات التى خاضها السلطان صلاح الدين الأيوبى ضد جماعة الحشاشين .. الجماعة التى أسسها حسن الصباح فى قلعة الموت فى منطقة جبلية منعزلة على الحدود بين إيران وأفغانستان .. وكان هدفها الوحيد المعلن هو الإطاحة بكل سلاطين وملوك وحكام المسلمين الذين إنكسر على يديهم الإسلام وفقد المسلمون هيبتهم ومكانتهم .. وحتى اليوم تعد وتبقى جماعة الحشاشين هى أخطر وأعنف وأقسى الجماعات الدينية المتطرفة فى تاريخ الإسلام .. وكان حسن الصباح – الذى حرم الخمر – يمنح الحشيش لإتباعه وهم يتكئون على ضفاف أنهار اللبن والعسل ثم يأمرهم بالقتل والإغتيال .. وكانت القاهرة هى الهدف الحقيقى لحركة الحشاشين[٢] .. القاهرة كعاصمة للدولة الفاطمية ومن بعدها قاهرة صلاح الدين الأيوبى وقاعدته .. وحاول الحشاشون بالفعل إغتيال صلاح الدين [٣] فى شهر يونيو عام ١١٧٦ .. وكان ذلك كله بمثابة إفتتاحية .. أو صفحة أولى من كتاب تاريخ الحشيش فى مصر .. تاريخ أجمع كل مؤرخى مصر بلا إستثناء على أنه قد بلغ قمته وإزدهاره فى عصر المماليك .. ويجمع المؤرخون أيضا على

---

(١) كلوت بك – لمحة عامة إلى مصر – ترجمة محمد مسعود – دار الموقف العربى – ١٩٨١

(٢) محمود السعدنى – مصر من تانى – كتاب اليوم – العدد ٣٠٥ – ١٩٩٠

(٣) د. نعمان الطيب سليمان – منهج صلاح الدين الأيوبى فى الحكم والقيادة – مطبعة الحسين الإسلامية – ١٩٩١

تفسير ذلك .. حيث سمح المماليك - نتيجة حاجتهم الهائلة والدائمة للمال - بزراعة وجلب وتعاطى الحشيش وفرض ضرائب باهظة على كل من يقوم بذلك .. صحيح أن الظاهر بيبرس حين تولى مقاليد حكم مصر الغى هذة الضريبة على زراعة وجلب الحشيش وإكتفى بمصادرته من الذى يبيعه أو يتعاطاه .. إلا أن الظاهر بيبرس وزمنه لم يكن أكثر من مجرد جملة إعتراضية قصيرة سرعان ما تم نسيانها وإهمالها وتجاوزها .. وأعتقد.. أن سماح المماليك بتجارة وبيع الحشيش - وهذا مجرد رأى شخصى - كان النقطة الفاصلة فى كل تاريخ مصر مع المخدرات .. أما الذى هو ليس برأى ولكنه واقع إحتفظت به كتب التاريخ .. فهو أن الحشيش دخل مصر وإستوطنها .. حيث راجت زراعته فى مدينة القاهرة أكثر من غيرها .. وعلى وجه التحديد فى أحياء الظاهر والفجالة وباب اللوق .. ومنذ ذلك التاريخ بقى الحشيش فى مصر يلعب وظيفتين محددتين .. إما الهروب من واقع حزين وقاسي ومؤلم .. وإما البحث عن مزيد من المتعة والبهجة والفحولة الجنسية.. أو البحث عن السعادة والسرور على حد تعبير المقريزى .

الوظيفة الأولى .. الخاصة بالهروب من أوجاع الواقع وإحباطاته .. لم يتحدث عنها أحد قدر ما تحدث وأجاد إبراهيم كامل أحمد فى كتابه الصغير بعنوان الحشيش والسلطة .. ففى هذا الكتاب (١) تسجيل لمحنة مصر مع الحشيش وزمن المماليك .. محنة إختصرها صاحب الكتاب بعبارة جميلة وقاسية على لسان أحد المصريين يخاطب السلطان فى ذلك الوقت ويقول فيها .. مولاى .. إنك تحكم رعية من الجياع علمهم الجوع التغزل فى الرغيف .. مولاى .. كذاب من قال لك أننا نأكل بذهبنا حشيشا وبفضتنا حلاوة .. مولاى .. إنك تحكم رعية من المفلسين ذهب ذهبهم وفضت فضتهم .. مولاى .. إنك تغيبنا بالحشيش حتى لا نحس بما تنزله بنا من ظلم وما نعانيه من قهر ولا نشعر بما تسومه لنا أنت وأمراؤك من سوء العذاب .

أما وظيفة الحشيش الثانية .. المتعة والبهجة والسعادة والسرور .. فهى الوظيفة التى لا نجد عنها كثير الحديث والحكايات والأخبار .. وإن كنا نجد على الأقل ما يشير إلى إرتباط الحشيش فى مفهوم المصريين بالسعادة .. سواء كانت سعادة بصحبة الآخرين .. أو سعادة فى الفراش .. ففى حديثه عن دور الحشيش فى الهروب من قسوة سلاطين المماليك .. لم يبخل إبراهيم كامل أحمد بالإشارة بين الحين والآخر إلى إرتباط الحشيش بالجنس والرغبة أحيانا .. وبالبغاء والدعارة أحيانا أخرى .. وهو الأمر الذى بقى مزدهرا حتى بعد رحيل المماليك وقدوم العثمانيين وإحتلالهم لمصر عام .. ومن المؤكد أن الفترة التى عاشتها مصر كولاية عثمانية .. مائتان وثمانية وثمانين عاما من عام ١٥١٧ إلى عام ١٨٠٥ .. شهدت لجوء كثير من المصريين الأغنياء والفقراء والسادة والصعاليك إلى الحشيش .. وإلى الحد الذى أزعج نابليون بونابرت حين قاد حملته على مصر .. وإكتشف كيف أصبح الحشيش وسيلة أهل مصر لنيل السعادة أو الراحة وللهروب من الألم أو القلق أو الضعف والعجز الجنسى .. فأصدر أوامره (٢) فى الثامن من أكتوبر عام ١٨٠٠ بتحريم الإتجار فى الحشيش أو تعاطيه .. وكان هذا الأمر الإمبراطورى هو أول قانون تعرفه مصر - على مدى سنوات عمرها الطويل - يقف ضد الحشيش وأهله وأنصاره أو ضحاياه .. أول قانون مكتوب وموثق يشتمل على مواد وتفصيلات وليس مجرد توصية حاكم أو رغبة سلطان..

---

(١) إبراهيم كامل أحمد - الحشيش والسلطة - شركة الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت - ١٩٩٢ .
(٢) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان - لجنة المستشارين العلميين - التقرير النهائى - ١٩٩٢

ومع ذلك لم يقدر لهذا القانون البقاء طويلا .. إذ سرعان ما تم نسيانه والتغاضي عنه بمجرد خروج الفرنسيين من مصر .. حتى صدر الأمر العالى فى إسطنبول (١) بمنع تجارة الحشيش فى مصر فى اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٨٨٤ .. لكن لم تعرف مصر قانونا مشابها لقانون نابليون إلا عام ١٩٢٢ الذى نص على (٢) معاقبة الإتجار فى الحشيش بغرامة يتراوح مقدارها من خمسة قروش إلى جنيه واحد أو السجن لمدة تتراوح من يوم إلى سبعة أيام .. ثم توالت وتطورت القوانين حتى صدر أهم قانون فى تاريخ مصر مع المخدرات وهو القانون رقم ٢١ لسنة ١٩٢٨ الذى تبنى أول نظرة شاملة فى مصر لمشكلة المخدرات وتعاطيها وتجارتها مع تبنى إتجاه واضح لتشديد العقوبات وترسيخها .. وعرفت مصر بعد ذلك (٣) أول إدارة رسمية لمكافحة المخدرات فى عام ١٩٢٩ حين تأسس مكتب المخابرات العام للمواد المخدرة .. ثم إنشاء فرع لهذا المكتب فى أسيوط بعد عشر سنوات يشمل نشاطه كل مدن وقرى صعيد مصر .

أما فيما يتعلق بالأفيون .. فقد بقى أحد أهم صادرات مصر طوال القرن التاسع عشر .. وراجت زراعته وتجارته فى زمن محمد على الذى ما إن إكتشف مدى ما يلقاه الأفيون المصرى من شهرة ومكانة فى أوروبا حتى توسع فى زراعته وتصديره للأغراض العلمية والطبية .. حتى صدر أول قانون يمنع زراعة الخشخاش في مصر عام ١٩١٨ .. ثم عادت الحكومة المصرية وسمحت بزراعته عام ١٩٢٠ .. ثم عادت مرة أخرى وحرمتها عام ١٩٢٦ وتوالت بعد ذلك العقوبات وزادت مساحتها وقسوتها .

ومع ذلك .. وعلى الرغم من القانون والغرامات التى زادت قيمتها تدريجيا والعقوبات التى باتت أكثر ردعا وشدة .. بقى المصريون يزدادون إقبالا على الحشيش .. ولا يجد اللورد كرومر تعبيرا عن إرتباط المصريين المؤلم بالحشيش إلا ذلك التقرير الذى أشار (٤) إلى أن ثمانية عشر بالمائة من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية سنة ١٩٠٣ لم تصل بهم أيامهم إلى مشارف الجنون إلا بفضل الحشيش وبواسطته .. وقدر الباحث ناهاس حجم إستهلاك مصر من الحشيش فى نهايات القرن التاسع عشر (٥) بخمسة وستين طنا كل عام .. وبقى الحشيش هو مخدر المصريين المفضل وليس الأفيون .. الإستثناء الوحيد كان عصر الخديوى عباس الذى أقبل فيه المصريون علي تعاطى الأفيون أكثر من إقبالهم على الحشيش .. لكن سرعان ما عادوا جميعا إلى الحشيش نتيجة قناعتهم بقدرة الحشيش على إثارة البهجة وعلى زيادة الفاعلية الجنسية أيضا .. وأهم من ذلك كله قناعة الرجال بقدرة الحشيش على علاج سرعة القذف أثناء الجماع لمن يشكو منها أو تأجيل القذف لمن لا يشكو سرعته ولكن يرغب فى إستمتاع أطول .. قناعة توارثوها جيلا بعد جيل .. ولابد وأن هناك للحشيش تأثير جنسى أحس به الناس بالفعل .. إذ من المستحيل أن تكون هناك فكرة قائمة على الباطل والأوهام ومع ذلك تدوم وتبقى كل تلك السنوات الطويلة وإلى حد أن

(١) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٨٨/٤/١٠
(٢) د. عبد العزيز شرف – المكيفات – سلسلة إقرأ – رقم ٤٣٣ – دار المعارف – ١٩٧٨
(٣) محمد فتحى عيد – جريمة تعاطى المخدرات فى القانون المصرى والقانون المقارن – دار لوتس للطباعة والنشر – ١٩٨١
(٤) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٤/٤/٣٠
(٥) جى . ناهاس – الحشيش وإدمان المخدرات فى مصر – الأكاديمية الطبية – نيويورك – ١٩٨٥

تنتقل بها الأيام من عصر إلي عصر .. وهذا ما بدأ يفسره لنا الطب في سنوات لاحقة .. فبعد دراسات كثيرة عرفنا أن مادة الراتنج (١) التى تفرزها زهور نبات القنب .. والتي تضم مركبا إسمه رابع هيدرو كانا بينول .. هى المسئولة عن كل ما يشعر به من يتعاطى الحشيش .. لكنها تحتاج إلى بعض الوقت – وإلى نوع من التراكم أيضا – قبل أن يتضح تأثيرها .. ولهذا قد لا يشعر بأى إختلاف أو تأثير هو كل من يتعاطى الحشيش للمرة الأولى أو بقدر ضئيل للغاية وعلى فترات متقطعة ومتباعدة جدا .. أما تأثيرها على الذى أدمن أو إعتاد تعاطى الحشيش .. فهو ينقسم فى كل مرة إلى أربعة مراحل .. فى الأولى يولد بعد ساعتين من التعاطى إحساس بالسرور والإرتياح الداخلى لا يمكن وصفه أو تحديده .. ثم تبدأ المرحلة الثانية ويفقد فيها المتعاطي الإحساس بالزمان والمكان .. ويتخيل أنه يعيش فى عالم يفيض بالخيالات والأوهام .. ويشعر أن جاره الذى يجلس بجواره بعيد عنه جدا .. وقد يرى أشياء وشخوصا لا وجود لها فى الواقع .. ثم تجئ المرحلة الثالثة والتى هى قمة النشوة .. أو كما يطلق عليها العامة قمة الإحساس بالكيف .. وفيها يسود الهدوء والسكون والإستسلام للأحلام الهادئة .. وقد تنتهى بإنفصام الشخصية .. أى يجنح المتعاطى لتقمص شخصية أخرى تختلف فى أفكارها وطباعها ومشاعرها عن شخصيته الحقيقية .. ثم تبدأ المرحلة الرابعة التي هى النوم غالبا والذى يكون عميقا جدا وقد يدوم ساعات طويلة أكثر من المعتاد ليعقبه يقظة مرتبكة قليلة وممتزجة بإحساس غامض بالدهشة أو صداع محتمل يتلاشى بسرعة .

وهذا التفسير بالطبع .. لا يشير من قريب أو بعيد إلى أية علاقة عضوية أو مباشرة بين الحشيش والجنس .. وهذا ليس صحيحا بالطبع .. فهناك علاقة بالتأكيد .. الإختلاف فقط فى تحديد نوع هذة العلاقة .. فهناك من يراها علاقة نفسية يصيغها وهم الكيف والإستمتاع به فضلا عن مناخ تعاطى الحشيش الذى يفرض الصحبة غالبا مع ما يدور من أحاديث تتعلق بالجنس وبالنساء بشكل ما أو بآخر .. يرى هذا الفريق أيضا أن الحشيش يسبب الخمول فى بعض المراكز العصبية العليا مع عدم الشعور وفقدان الحساسية .. فينتج عن ذلك زيادة القدرة على إحتمال الألم وضعف التحكم فى الرغبات والشهوات .. ويستند أصحاب هذا الرأى فى ذلك إلى أن الرغبات الجنسية كامنة داخل كل الناس .. لكن يحكمها العقل والوعى والتقاليد الدينية والإجتماعية والإقتصادية والأخلاقية والجسدية أيضا .. ويأتى الحشيش فى مرحلة نشوته الكبرى ليلغى كل هذة القيود ويحرر الرغبات من عقالها .. ليس هذا فقط .. وإنما حين تستوطن الرغبة من بلغ نشوة الحشيش .. ثم يبدأ يمارس الجنس بالفعل مع الزوجة أو الصديقة أو العاهرة .. هو فى واقع الأمر لا يدرى أنه سعيد ومستمتع مقدما .. وإنما يربط كل هذا الذى يحسه بأداءه الجنسى المميز وقدرته المبهرة بسبب الحشيش .

---

(١) على الرغم من أن الحشيش له أكثر من ثلاثمائة وخمسين إسما فى العالم كله .. إلا أن هناك نوعان فقط من الحشيش هما الراتنج أي خلاصة إفرازات زهور نبات القنب .. والتى تحمل إسم الحشيش فى مصر والشيرا فى أفريقيا والشاراس فى آسيا .. والنوع الثاني هو أوراق وزهور النبات نفسه .. والذى يحمل إسم البانج فى الهند أو الكيف فى المغرب والجزائر والتكروري فى تونس والجومبا فى أفريقيا الوسطى والبرازيل والحشيش في سوريا ولبنان والهبك فى تركيا .. ولما كان المصريون – على مدى تاريخهم الطويل – يتعاطون النوع الأول الأكثر تخديرا وتأثيرا .. فإن أى حديث عن وظيفة الحشيش وعلاقته بالجسد أو النفس مقصود به هذا النوع الذي تصل نسبة المخدر فيه إلى ٤٠ ٪ .. بينما هى فى النوع الثاني – الأوراق والنبات نفسه – لا تزيد عن ١٢ ٪ وقد لا تزيد أحيانا عن ٨ ٪ فقط .

أما الفريق الآخر .. فهو الذى يرى العلاقة بين الحشيش والجنس علاقة عضوية وعصبية وليست مجرد علاقة نفسية .. الدكتورجمال ماضى أبو العزايم مثلا .. يرى [١] أن الحشيش يؤدى إلى تمدد الأوعية الدموية .. ليس فى كل الجسم وإنما في مناطق محددة .. منها منطقة الخصيتين وباقى الخلايا والمراكز الجنسية فيزداد نشاطها .. فيشعر الرجل بالرغبة .. ولأن أعصابه تشكو خدر الحشيش .. يطول الوقت الذى يحتاجه الرجل قبل القذف .. فيتخيل الرجل أن الحشيش منحه مزيدا من القوة والقدرة .. صحيح أن نفس هذة الخلايا الجنسية يصيبها التلف بعد طول التعاطى لسنوات طويلة .. وتبدأ فى الظهور أعراض الضعف الجنسى والذى قد يصل إلى مرحلة العجز الكامل عن ممارسة الجنس في بعض الأحيان .. هذا غير أن المادة الفعالة فى مادة الحشيش تؤدى إلى نقص حاد فى عدد الحيوانات المنوية فى السائل المنوى للرجل .. إلا أن كثيرين لا يودون إقلاق أنفسهم بما قد يحدث غدا فى مقابل متعة ونشوة وبهجة يطالونها اليوم .

وتشكل تلك المتعة .. أو النشوة المشتهاة .. بالإضافة إلى البحث عن السعادة .. الدافع الأول لتعاطى الحشيش في مصر خلال سنوات التسعينات .. هذا ما تؤكده ثلاث دراسات أجريت الذين يتعاطون الحشيش وينتمون إلى ثلاث فئات مختلفة فى المجتمع المصرى [٢] فى عام ١٩٩٢ .. الفئة الأولى هى العمال - تحديدا فى مجال الصناعة - وتبين أن ٥٧ ٪ منهم بدأت رحلتهم مع الحشيش بحثا عن هذة السعادة وهذة المتعة .. فى مقابل ٣٢ ٪ منهم بدأت بهم الرحلة بسبب أصدقاء إعتادوا التعاطى .. و٣٪ نتيجة حب الإستطلاع .. والباقى بدأ نتيجة أسباب أو دوافع أخرى ليس من بينها المشاكل النفسية أو الإجتماعية .. وكانت الفئة الثانية هى طلبة الجامعات .. وتبين أن السعادة والمتعة كانتا دافع ٤٥ ٪ من الطلبة لتعاطى الحشيش .. مقابل ٢٧ ٪ نتيجة أصدقاء السوء .. و٧,٩ ٪ نتيجة الرغبة فى التجربة .. و٢,٦ ٪ نتيجة مشكلات نفسية وإجتماعية حادة .. و١,٤ ٪ نتيجة المرور بتجربة السفر إلى الخارج .. أما الفئة الثالثة فكانت طلبة المرحلة الثانوية .. وفيها كانت السعادة والمتعة هما دافع ٤٥ ٪ لتعاطى الحشيش .. و٣٢ ٪ بسبب أصدقاء السوء .. و٣ ٪ بسبب المشكلات الإجتماعية .. و٢ ٪ بسبب الخلافات العائلية .. و٢ ٪ بسبب المذاكرة والإمتحانات .. و١ ٪ نتيجة حب الإستطلاع .

ولا نخرج من تلك الدراسات ونتائجها إلا بإنطباع أن دور الحشيش فى إحتمال ظروف الحياة الصعبة والقاسية بدأ فى التراجع .. وفى المقابل تتزايد مساحة الوظيفة الجنسية للحشيش .. أو للمخدرات بشكل عام بعد أن لم يعد الأمر قاصرا على مجرد الحشيش والأفيون .. وإنما دخلت أنواع أخرى أشد خطورة وقسوة كالهيروين والمورفين إلى حظيرة الإدمان .. وبعدهما جاء إلينا عقار الهلوسة .. وبالتحديد فى سنة ١٩٨٥ حين تم ضبط تشكيل عصابى مكون من إيطاليين وإنجليز وتنزانيين [٣] يتاجرون فى الماريجوانا وعقار إل سى دى .. ثم كان البانجو .. المخدر الذى بدأنا نعرفه على إستحياء فى منتصف الثمانينات إلى أن أصبح أحد إحتياجات المصريين الأساسية من المخدرات في التسعينات .. ساعد على ذلك سعره الإقتصادى وإستحالة الغش فى

---

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم - نفوس وراء الأسوار - الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع - ١٩٩٠

(٢) المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان - لجنة المستشارين العلميين - التقرير النهائى - ١٩٩٢

(٣) لواء د. محمد فتحى عيد - الأمان فى مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦

(٤) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٤/٥/٣٠

بيعه وربحه الوفير .. حيث يربح من يزرعه الف جنيها من كل خمس شجرات فقط (٤) .. وهذا ما ساعد على رواج زراعته في سيناء .. في قرى رمانة وبالوظة .. أو ساعد على رواج بيعه في القاهرة وفي كثير من القرى حول القاهرة لعل قرية غيتة على طريق القاهرة بلبيس الصحراوى هى أشهرها على الإطلاق .

وإذا كان الكيميائى سيجان الذى رافق نابليون فى حملته إلى مصر هو الذى إستخرج المورفين من الأفيون .. ثم قام كيميائى آخر بعد ذلك بإستخلاص الهيروين من المورفين .. فإنه من الثابت أن مصر لم تعرف غير الحشيش والأفيون ختى عام ١٩١٤ .. العام الذى نشبت فيه الحرب العالمية الأولى .. والتى قبل أن تضع أوزارها .. كان رجل يونانى الجنسية قد نجح فى إدخال الكوكايين إلى مصر .. وفى عام ١٩١٦ بدأ تعاطى الكوكايين فى مصر .. أقبل عليه فى أول الأمر شباب العائلات الغنية بحثا عن مزيد من المتعة والسرور .. ثم كان أن توغل الكوكايين فى سائر مدن وقرى مصر .. وبعد أربعة أعوام دخل الهيروين إلى مصر .. كانت البداية عام ١٩١٩ حين بدأ التجار يبيعونه بثمن بخس فما إن زاد الإقبال عليه وكثر مدمنوه .. حتى بدأ بيعه بقصد الربح وتكوين الثروات الخرافية منذ عام ١٩٢٠ .. ثم كان أن تراجع الكوكايين وإنتشر إدمان الهيروين حتى قدر عدد ضحاياه عام ١٩٢٨ بنصف مليون مدمن فى مصر التى لم يزد عدد أهلها فى ذلك الوقت عن أربعة عشر مليونا .. وقيل أن هذا الإنتشار المخيف يرجع إلى الثروات المفاجئة التى هبطت على من أجادوا إستغلال ظروف الحرب وما صاحبها من أحوال إقتصادية متدهورة وإحتياجات للناس زادت قسوة يوما بعد يوم .. ولم يكن لهؤلاء من متعة سوى الجنس والتفتيش عن النساء تمهيدا للإستمتاع بأجسادهن .. فكانت هذة المخدرات فى أحيان كثيرة هى السلاح الذى إختاروه طائعين وقانعين لدخول أية حرب قادمة فوق أى فراش ممكن .. ويبدو أننا توارثنا تلك القناعة أو أبقيناها فى ذاكرتنا طوال السنوات التى غاب خلالها الهيروين والمورفين عن مصر .. فما إن عادت كل تلك المخدات الجديدة إلى أى مصر .. حتى أخرجنا تلك القناعة القديمة مرة أخرى .. ومرة أخرى .. يشرح لنا الطب لماذا إرتبطت تلك الأنواع الأخرى والجديدة من المخدرات بالجنس وبالقدرة الجنسية تماما مثلما حدث مع الحشيش من قبل .. المورفين مثلا .. والذى إكتشفه صيدلى المانى وشاع تعاطيه فى القرن الثامن عشر .. ولأن الصيدلى الألمانى حين إكتشف أن ما توصلت إليه تجاربه ويداه يبعث فى النفس نشوة وإحساسا بالإثارة والبهجة .. فلم يجد له إسما يصلح أكثر من إسم إله الأحلام عند الإغريق .. أورفيوس .. فأطلق إسم الإله على هذا المخدر الجديد والذى عرفناه فيما بعد بإسم المورفين .. أما العالم فقد أطلق فيما بعد على النشوة التى يثيرها المورفين فى النفس والجسد إسم .. شهر العسل .. ولم يكن ذلك إلا لأن المورفين (١) ما إن يسرى فى الدم .. حتى يشعر من تعاطاه بأنه أكثر حيوية وتنتابه الرغبة الجنسية أو تسكنه خيالات الجنس والقدرة عليه وعلى الإستمتاع به .. ونفس التأثير يحدثه تعاطى الكوكايين .. المخدر الطبيعى المستخرج من أوراق شجرة الكوكا فى أمريكا اللاتينية .. والذى بدأ العالم يتعاطاه منذ القرن السادس عشر .. حتى إكتشف العالم باربيه فى عام ١٨٣٤ أن الكوكايين يساعد من يتعاطاه على الإحساس بالشبق والنشوة الجنسية .. وذلك لأنه بقدر ما يعمل

(١) د. محمد محمود الهوارى – المخدرات من القلق إلى الإستعباد – كتاب الأمة – قطر – ١٩٨٧

كمخدر موضعي ويوقف الإشارات الكهربائية في الألياف العصبية فيذوب أي إحساس بالألم لفتراوة قد تستمر لأربعين دقيقة .. بقدر ما ينبه ويثير الجهاز العصبي المركزي مما يؤدي إلى الإنتعاش المؤقت والإثارة الجنسية .. أما الهيروين .. والذي هو أحد مشتقات الأفيون بدأ يعتمد عليه الطب في عام ١٨٩٨ .. فهو أخطر وأقسى كل أنواع المخدرات .. وأخطاره مثلا ضعف أخطار الموفين بخمس مرات .. حتي من الناحية الجنسية يعد الهيروين هو المخدر الأشد خطورة على الإطلاق .. فهو المخدر الذي إكتشف الطبيب لوو .. أنه يثير حالة من النشوة المطلقة يطلقون عليها صفة البريق أو الفلاش .. حيث السعادة اللانهائية .. والإحساس بالقدرة على كل شئ وكل فعل .. والرغبة الجنسية التي لا كابح لها .. بل إن بعض المتعاطين (١) يفاجئهم السائل المنوي بالتدفق دون حتى إكتمال إنتصاب عضو التذكير .. ويشير الدكتور يسري عبد المحسن أستاذ الطب النفسي إلى أن الرغبة في زيادة الفعالية الجنسية (٢) كانت وراء إدمان الكثيرين للهيروين .. وذلك نتيجة عاملين أساسيين .. العامل الأول هو قدرة الهيروين على إيقاظ الرغبة الجنسية وإشعالها .. فالهيروين يمد من يتعاطاه براحة نفسية هائلة .. ويختفي تماما أي الم نفسي أو جسدي .. ويصبح المجال مفتوحا أما الرغبات الجنسية لتولد وتتأجج .. أما العامل الثاني فهو تأثير الهيروين على الأعصاب .. ففي بداية تعاطيه .. يشعر المدمن بسرعة إنتصاب القضيب وقوته .. ويستمتع بالممارسة الجنسية .. صحيح أنه إستمتاع قاصر فقط على بدايات التعاطي وفي فترته الأولى فقط .. إلا أن أحدا لا يدري ولا يحب أن يدري كيف ستكون النهاية .. حيث تبدأ القدرة الجنسية بعد ذلك تقل تدريجيا .. إلى أن يصاب المدمن بالعجز الجنسي دون أن يدري .. فهو يعيش وهم قدرته اللانهائية في خياله .. وهو في الواقع غير قادر على شئ .. لا الإستمتاع بالجنس ولا حتى ممارسته .. وهذا هو ما يؤكده الدكتور صالح ثابت .. أستاذ الأمراض النفسية .. حين يشير (٣) إلى أن مدمن الهيروين عاجز جنسيا لكنه لا يدري .. فقط يتخيل أنه قادر وأن لديه الرغبة .. لكنها رغبة كاذبة تنتابه حالة من النشوة الكذبة .. وفي واقع الأمر .. لا يفقد مدمن الهيروين بعد طول تعاطي قدرته على الجنس فقط وإنما يفقد أيضا قدرته على التركيز وعلى الحركة أحيانا فيصاب بالشلل .. إما الشلل وإما الجنون .. لكن يبقى الموت غالبا هي نهاية الطريق القصير والحزين أيضا .

وهكذا .. بعد أن ربطنا في أعماقنا بين الجنس وبين الحشيش أو الأفيون .. عدنا وتعلمنا أن نربط بين الجنس وبين كل ما بدأنا نتعاطاه في مصر من أنواع المخدرات التي لم نعهدها من قبل .. إرتباط أكده وأقره الواقع الذي نحياه ونمارسه .. إرتباط رآه البعض بدأ يتخذ هذا الشكل الواضح والصريح بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .. والبعض الآخر كان أكثر تحديدا فأكد أن إنتشار المخدرات إرتبط بإنتشار الأفكار والخيالات الجنسية عقب الإنفتاح أو في زمن الإنفتاح(٤)

وأيا كانت البداية .. فقد إنتهى بنا الأمر إلى أن يصبح الجنس هو الدافع الأهم والأكبر لإدمان المخدرات في مصر .. بل وأكد العميد مصطفى الكاشف في نهاية الثمانينات .. إستنادا

---

(١) د. محمد محمود الهواري ـ المخدرات من القلق إلي الاستعباد ـ كتاب الامة ـ قطر ١٩٨٧
(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٨/٥
(٣) وجيه أبو ذكرى – شباب في دائرة الموت – المكتب العربي للمعارف – ١٩٨٩
(٤) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم في مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣
(٥) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٨٨/١/١٤

إلى إحصائيات ودراسات الأمن والخبراء .. أن الجنس (٥) يقف وراء إدمان تسعين بالمائة من ضحايا المخدرات فى مصر .

هذة هى الحقيقة التى يؤكدها حال ما يحدث فى الجامعة مثلا .. بل وما يحدث فى المدرسة أيضا .. فهناك أكثر من بحث ومن دراسة للدكتور مصطفى سويف – رئيس برنامج الأمم المتحدة الدائم للمخدرات بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية – تدور كلها عن المخدرات فى المدرسة المصرية .. ففى إحداها (١) أجرى الدكتور مصطفى دراسته على عشرين الف تلميذ بمدارس القاهرة الثانوية وأشارت نتائجها إلى أن ٩٠ ٪ من هؤلاء التلاميذ جربوا تعاطى الحشيش .. ٧,٤٪ منهم جربوا الأفيون .. ١٠,٥٪ منهم جربوا أنواع المخدرات الأخرى .. هذا بالإضافة إلى أن ٤٣,٣٪ منهم جربوا إحتساء البيرة و٢٧٪ جربوا إحتساء الخمور .. وفى دراسة أخرى (٢) للدكتور مصطفى أيضا لكنها كانت هذة المرة على ثلاثة الاف وستمائة تلميذ بمداس القاهرة الثانوية الصناعية .. تبين أن ٩٢٪ منهم جربوا تعاطى الحشيش .. و٧,٩٪ جربوا الأفيون .. و٧,٩٪ منهم جربوا أنواع المخدرات الأخرى .. إلى جانب ٣٣٪ جربوا إحتساء البيرة و١٣,٦٪ جربوا إحتساء الخمور والنبيذ .

ومن الممكن أن تبقى كل هذة الأرقام مجرد أرقام لا تعنى شيئا إلا إذا أدركنا أن نسبة تتراوح من الربع إلى الثلث من الذين يخوضون مغامرة التجربة .. يواصلون التعاطى بالفعل .. وهو الأمر الذى أجاد الدكتور مصطفى سويف التعبير عنه بمفردات واضحة ومحدة جدا وقاسية جدا .. وبالأرقام أيضا .. فهو يقول (٣) أنه بين طلبة المرحلة الثانوية .. يقوم طالب من بين كل ثلاثة طلاب بتجربة المخدات .. وفى المقابل يدمن طالب من بين كل تسعة طلاب تعاطى المخدات .. وبقدر ما تبدو هذة الصورة قاتمة ومقلقة .. بقدر ما يتضائل الإحساس بخطورتها وقسوتها إذا ما إنتقلنا لنتأمل حال وواقع جامعات مصر .. حيث تصدمنا الأرقام والدراسات بقسوة أكبر وأشد .. فيقول إبراهيم نافع (٤) أن ١٧٪ من طلبة الجامعات المصرية مدمنون بالفعل .. ونقرأ فى مجلة روز اليوسف (٥) أن ثلث طلاب الجامعات المصرية أدمنوا كل أنواع المخدرات .

ولا يعنى هذا كله – إذا لم نكن قد نسينا دراسات سابقة أشارت إلى أن الجنس هو الدافع الأول للإدمان – إلا أن زماننا وواقعنا لم يعد يبخل علينا بمئات من قنابل جنسية تسير على قدمين .. نجدها بيننا فى شوارعنا وبيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا .. كلهم فى واقع الأمر – أو معظمهم – يدخلون دائرة الشيطان المغلقة .. دائرة تبدأ بهم يفكرون فى الجنس ويبحثون عنه .. فيستعينون بالمخدرات على ممارسة الجنس أو حتى التفكير فيه .. فيستمتعون بالجنس أكثر .. فيزداد ولعهم بالمخدرات وتمسكهم بها فينتهى بهم الأمر كضحايا للإدمان .. فيدفعهم الإدمان للإنشغال بالجنس أكثر .. حتى تأتى اللحظة التى لا نعود نعرف فيها من الذى يقود إلى الآخر .. الجنس أم الإدمان .. وحتى إذا عرفنا .. فالقضية لم ولن تبقى قاصرة على الجنس والإدمان ودائرة الشيطان المغلقة .. وإنما تنكسر الدائرة ويخرج البعض منها ليرتكب جرائمه الموجعة فى

---

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/١/٢

(٢) د. محمد فتحى عيد – الأمان فى مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦

(٣) ، (٥) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/١/٩

(٤) إبراهيم نافع – فى بيتنا مدمن – مركز الأهرام للترجمة والتأليف والنشر – ١٩٩١

حق القانون والناس والمجتمع .. جرائم جنسية أو جرائم دافعها هو الجنس أو جرائم لا علاقة لها بالجنس من قريب أو بعيد .

فأما الجرائم الجنسية فهى تلك التى تندرج كلها تحت لافتة الإغتصاب .. سواء كان إغتصاب إمرأة وفتاة لا علاقة لها بالأمر .. وإنما قادها حظها العاثر والحزين لتلقى هذا المصير المخيف .. وعلى سبيل المثال إعترف كل أبطال حادثة إغتصاب المعادى بتعاطى المخدرات قبل الشروع فى جريمتهم .. أو إغتصاب حبيبة أو صديقة ليس لها ذنب أو جرم إلا الإرتباط بأحد المدمنين .. أما الأكثر إيلاما فهى تلك الحوادث التى قام فيها المدمنون - أو حاولوا - إغتصاب المحارم .. أمهاتهم أو شقيقاتهم أو بناتهم .. ويعرف الواقع المصرى كثيرا من تلك الحالات التى تم فيها إغتصاب المحارم .. فى بولاق قام أب مدمن بإغتصاب إثنتين من بناته .. ووجيه أبو ذكرى حكى لنا (١) عن إبن مدمن .. إقتحم فى الساعة الثالثة صباحا غرفة أمه .. إقترب منها .. مزق ثيابها .. ثم حاول إغتصابها .. ولم ينجح .. وعاد بعد شهر واحد وحاول إغتصاب إبنة شقيقته الطفلة .. فما كان من الأم إلا أن جاءت بسكين أخذت تغرسها فى جسد إبنها حتى مات .. وما كان من المحكمة إلا أن حكمت ببراءة الأم إحتراما لشجاعتها فى مواجهة هذا الشيطان .

ومن المؤكد أن إرتكاب المدمنين لجرائم الإغتصاب وسائر الجرائم الجنسية .. ليس ظاهرة جديدة ولا هى قاصرة على مصر وضحاياها فقط .. إنما هى وجع يشكو منه العالم كله .. وهناك الاف من جرائم الإغتصاب فى العالم كله .. كانت المخدرات - من الحشيش إلى الأفيون - هى الدافع الوحيد أحيانا .. الحقيقى غالبا .. وراء إرتكابها .

أما النوع الثانى من الجرائم .. والتى كان الجنس هو الدافع والمحرض على إرتكابها .. فهى أيضا جرائم يعرفها الواقع المصرى وإعتاد سماع تفاصيلها أو قراءتها فى مختلف الصحف اليومية .. جرائم يرتكبها شباب مدمنون من أجل المال الذى ينفقونه على فتياتهم وعلى متعتهم الجنسية .. كثير من الشباب لم تكفهم دائرة الشيطان بما فيها من جنس وإدمان .. ولكن أضافوا إليها السرقة أيضا من أجل المزيد من المال الذى ينفقونه على الجنس وعلى الإدمان .. ولعل أشهر مثال لهؤلاء هو - للأسف العميق - حفيد أحد كبار زعماء مصر .. والذى هاجرت أسرته من إحدى قرى محافظة الشرقية لتقيم فى القاهرة .. ونال هذا الحفيد شهادته الجامعية .. لكنه لم يعد يكترث بتلك الشهادة ولا بالبحث عن مستقبل .. كانت القاهرة قد بهرته تماما بحسناوات فاتنات إلتقى بهن فى النوادى الرياضية وفى فنادق النجوم الخمسة .. عاش مع كثير منهن كهارون الرشيد على حد تعبيره (٢) .. وأصبح فى حاجة للمال .. للكثير جدا من المال ينفقه هو وزملائه على سهرات الجنس والإدمان .. فإحترف السرقة .. وإنتهى به الأمر زعيما لعصابة تخصصت فى سرقة المساكن .

وكثيرة جدا هى الحكايات التى راح ضحيتها شباب مثلهم مثل حفيد الزعيم السياسى الكبير .. وأكثر منها بالطبع هى حكايات السرقة - والقتل أحيانا - للحصول على مال يكفى للإنفاق على الإدمان .. حكايات من الكثرة بحيث يصعب الحديث عنها فى سطور أو حتى صفحات قليلة .. وإن كنت أصلا لست فى حاجة إلى الحديث عنها مطلقا بإعتبارها الجانب الذى

---

(١) وجيه أبو ذكرى - شباب فى دائرة الموت - المكتب العربى للمعارف - ١٩٨٩
(٢) جريدة المساء - عدد ١٩٩٤/٦/١٤

تناولته كل وسائل الإعلام فى مصر .. ولا تزال تتناوله كلما أرادت الحديث عن المخدرات وعن ضحاياها .. وكأنها وحدها هى الأزمة التى تعين وسيتعين علينا مواجهتها كتركة ثقيلة ومخيفة للمخدرات والإدمان .. أما الذى يستحق أن أتوقف عنده بالفعل وأتحدث سواء طال الحديث أم قصر .. فهو المستقبل .. مستقبل مصر والمصريين مع المخدرات .. وإن كانت هناك قضيتان من الضرورى جدا مناقشتهما قبل الحديث عن المستقبل .. القضية الأولى هى العلاقة الشائكة بين المخدرات والدين .. فبعد دراسات وأبحاث علمية وإجتماعية عديدة .. تبين أن هناك كثيرين فى مصر .. وفى الثمانينات .. ولا يزالون على قناعة بأن الدين لا يحرم المخدرات .. أو أن تعاطيها لا يتعارض ولا يصطدم مع أحكام الدين (١) .. فالدين فقط يحرم الخمور وحدها ويجرم تعاطيها أو بيعها أو حملها .. ومع ذلك فكل ما قمنا به لمقاومة تلك القناعات الخاطئة والمضللة لم يزد عن مجرد فتوى أصدرتها دار الإفتاء فى الخامس من فبراير عام ١٩٧٩ قالت فيها .. المخدرات بجميع أنواعها وأسمائها .. طبيعية أو مخلقة .. حرام .. وحرام تعاطيها بأى وجه من وجوه التعاطى لأنها مفسدة يحرمها الدين .. وحتى هذة الفتوى لم تأت بمبادرة منا أو من شيوخنا .. وإنما كانت ردا على إستفسار من الإدارة العامة لمكافحة المخدرات .. فأجبنا على الإستفسار ثم بسرعة أغلقنا الملف - الذى لم نفتحه أصلا - وإعتبرنا الأمر منتهيا عند هذا الحد .. مجرد فتوى قد يقتنع بها أو لا يقتنع كثيرون من المدمنين أو من هو مرشح للإنضمام لهم .. ثم كانت هناك دراسات أخرى (٢) بينت أنه إلى جانب التسامح الدينى .. فهناك تسامح إجتماعى أيضا مع من يتعاطى المخدرات .. من يتعاطى الحشيش والأفيون على الأقل .. فلا أحد ينظر لمن يتعاطاهما بعدم إحترام أو حتى بإحترام أقل .

القضية الثانية التى تنبغى مناقشتها قبل الحديث عن مستقبل مصر مع المخدرات ومع المدمنين .. هى تلك الدعوة الغريبة التى تبناها البعض لإباحة الحشيش وعدم تجريم تعاطيه .. والتى كان أول من تبناها الدكتور حسن الساعاتى من خلال بحث بعنوان تعاطى الحشيش كمشكلة إجتماعية .. تقدم به إلى الحلقة الثانية لمكافحة الجريمة بالمركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية فى الستينات .. وإستند الدكتور حسن الساعاتى فى دعواه إلى أن المنع والتحريم يولدان الرغبة الشديدة فى الممنوع والمحرم .. وفى نفس البحث .. تقدم الدكتور الساعاتى بالبديل .. وهو حصر مدمنى الحشيش وتسهيل حصولهم عليه ببطاقات خاصة .

وغنى عن الذكر أنها كانت دعوة مجافية لكل قواعد المنطق والمجتمع والأخلاق .. فسرعان ما تم تجاوزها ونسيانها .. غير أن الدكتور محمد شعلان عاد مرة أخرى - فى بداية الثمانينات - يدعو لإباحة تعاطى الحشيش .. وقدم بحثا بعنوان إعادة النظر فى قانون مكافحة المخدرات قال فيه أن القانون المصرى يتسم بالشدة إزاء جريمة مصطنعة عديمة الأذى وهى جريمة تعاطى الحشيش .. وطالب الدكتور شعلان بإباحة تعاطيه .. وإستند فى ذلك إلى ستة أسباب تجعل من الضرورى إباحة تعاطى الحشيش وهى .. أن الحشيش لا يؤدى إلى الإدمان وإنما يعتاد عليه فقط من يتعاطاه .. وأن الحشيش ليس كالخمر فلا تنجم عنه أضرار بدنية ولا هو مثل التبغ يلحق الضرر بالجهاز التنفسى .. وأن الحشيش لا يؤدى بمن يتعاطاه إلى تعاطى أنواع المخدرات

---

(١) مجلة الأمن العام - عدد ١٩٨٦/١٠
(٢) مجلة الأمن العام - عدد ١٩٨٥/١٠

الأخرى .. وأن الحشيش لا يدفع بمن يتعاطاه إلى إرتكاب الجرائم .. وأن تجريم تعاطى الحشيش أضاع على الدولة أموالا طائلة كان من الممكن تحقيقها فى حالة فرض ضرائب ورسوم باهظة على تجارة الحشيش .. والسبب السادس والأخير هو أن تعاطى الحشيش بات جريمة تستخدم لتجريم الخصوم السياسيين والإجتماعيين .

وكان هناك بالطبع كثيرون تصدوا للدكتور شعلان بتفنيد دعاواه الباطلة والمضللة .. على رأسهم كان اللواء محمد فتحي عيد الذي رد على كل سبب من أسباب الدكتور شعلان الستة .. فقال محمد فتحي عيد [1] .. أن الحشيش يسبب الإدمان – وليس التعود عليه فقط – وفقا لتقرير لجنة خبراء منظمة الصحة العالمية .. والذين أكدوا أيضا أن الحشيش من المخدرات التى تثير كثيرا من المشاكل الصحية والإجتماعية ولهذا ينبغي أن يبقى خاضعا للرقابة .. أما عن إدعاء الدكتور شعلان بأن الحشيش لا ينجم عن تعاطيه أية أضرار بدنية .. فيقول محمد فتحي عيد أن دراسات كثيرة أثبتت أن تعاطى الحشيش لمدد طويلة يمكن أن ينتهى بإضطرابات خطيرة ودائمة فى وظائف المخ .. كما أنه يصيب الرئة بضرر أشد وأكبر من أضرار التبغ .. وتزيد نسبة الإصابة بسرطان الرئة بين مدخنى الحشيش أكثر منها بين مدخنى التبغ .. أيضا ليس صحيحا أن تعاطى الحشيش لا يؤدى إلى تعاطى أنواع أخرى من المخدرات .. فقد لوحظ أن نسبة كبيرة من مدخنى الحشيش ينتهى بهم الأمر إلى تعاطى الأفيون ومشتقاته أو مخدرات أخرى .. وردا على الزعم بأن الحشيش لا يؤدى إلى إرتكاب جرائم .. يقول محمد فتحي عيد أن النفقات الباهظة التى يتطلبها تعاطى الحشيش .. تفوق فى كثير من الأحيان دخل المتعاطى .. فيبحث عن أية وسيلة لتغطية نفقات التعاطى كالسرقة أو الإختلاس .. فضلا عن عدم إنفاقه على أسرته مما قد يؤدى إلى إرتكاب جرائم أخرى كالتسول أو التشرد أو الدعارة .. وردا على حكاية إستغلال تعاطى الحشيش لتجريم الخصوم السياسيين .. فالسلطة فى حالة فسادها ليست فى حاجة إلى الحشيش ولا إلى أى مخدر آخر للإنتقام من خصومها ومعارضيها .. أما حكاية الضرائب الباهظة .. والأرباح التى ممكن أن تجنيها الدولة من إباحة تجارة وتعاطى الحشيش .. فهى الدعوة التى سبق وأن تبناها المماليك قبل الدكتور محمد شعلان بزمن طويل جدا .. البحث عن المال والكثير منه .. بأى شكل .. بأى ثمن .. حتى وإن كان هذا الثمن هو الناس .. إدمانهم وإنسحاقهم وإستسلامهم وموتهم أحيانا .. ولابد وأن الدكتور شعلان يعرف – أو كان من الضرورى أن يعرف – كل هذا الذى جرى بعد قرار المماليك بإباحة تعاطى وتجارة الحشيش مقابل الضرائب الباهظة .. فقد إعتلى الظاهر بيبرس عرش الحكم فإكتشف أنه جاء ليحكم شعبا باتت الغالبية فيه كسالى مدمنين بلا قوة ولا إرادة ولا مستقبل أيضا .. فأمر بجمع كل ما فى القاهرة من حشيش وأحرقه على الفور .

وغير اللواء . محمد فتحي عيد .. كان هناك عادل حمودة الذى كتب فى مجلة روز اليوسف [2] يصف دعوة الدكتور شعلان وكل من إتفق معه وشاركه بأنها .. أجرأ دعوة فى صفحات صحفنا

---

(١) أثار اللواء د. محمد فتحي عيد هذه القضية أكثر من مرة وفى أكثر من مجال ردا على دعوة الدكتور شعلان .. وقد قرأت كل ردوده وتعليقاته وإن كنت هنا أعتمد بشكل أساسي على ما كتبه فى مجلة الهلال الصادرة بتاريخ ١٩٨٢/٢ .. ومجلة الأمن العام الصادرة بتاريخ ١٩٨٥/١٠.

(٢) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٥/١

وصحف غيرنا .. دعوة أكد عادل أنه لا ينبغى علينا فقط أن نعارضها .. بل ونحاربها أيضا .. ونحارب قناعة الكثيرين بأن الحشيش مخدر طيب وديع لا يؤذى أكثر مما تؤذى السيجارة .. أو أنه مخدر ليس هناك نص قرآنى صريح أو حديث شريف يحرمه .. أو أنه يضاعف من قدرة الرجال الجنسية .. وكل ذلك ليس صحيحا .. فالحشيش أخطر من الهيروين .. لأن الهيروين عدو ظاهر أما الحشيش فهو عدو خفى .. منافق .. جبان .. يتسلل إلى المجتمع يهدف إلى القضاء على الأمة كلها .. أو على الأقل يدمر أخلاقياتها .. ويختتم عادل حمودة كلمته مؤكدا أن من يفكر فى مواجهة الحشيش بإباحته .. هو تماما كمن تزعجه زيادة حوادث الإغتصاب فيقرر الدعوة إلى إباحة الدعارة .. أو من يحاول إقناعنا ببيع أثار مصر لسداد ديون مصر .

وكان هناك أيضا الدكتور جمال ماضى أبو العزايم .. الذى أزعجه جدا تبنى الكثيرين لدعوة الدكتور محمد شعلان بإباحة الحشيش كحل وحيد لأزمة تعاطى وإدمان الهيروين .. فقال الدكتور أبو العزايم (١) .. أنه حين إشتعلت فى مصر الحملات ضد الهيروين .. وجدنا من يعزف نغمة أن الحشيش لا ضرر له أو منه .. وهذا كلام مصاطب لا يحترمه العلماء .. فالحشيش مثل العدو الخفى المستتر المنافق .. يمتد تأثيره إلى الصفات الوراثية .. كما يقضى على الملكات العليا للجهاز العصبى .. ويصيب بالشلل خلايا التفكير والإبداع والخلق والإبتكار والوعى والذكاء .

وكم هو مثير للأسى والمرارة أن يجبرنا بعض منا على الإنشغال طويلا بمثل هذا الجدل العقيم حول الحشيش وهل نمنعه أو نسمح به .. فى الوقت الذى يزداد ويشتد حصار الإدمان لنا فى كل مكان .. ليس الحشيش فقط .. وإنما الحشيش والأفيون والهيروين والكوكايين وعشرات الأنواع من الأقراص المخدرة .. ومخدر جديد فى مصر هو البانجو .. وبعد أن كانت القاهرة فى الأمس تشكو من الباطنية وتخاف منها .. أصبحت القاهرة اليوم تعرف الباطنية .. والجعافرة .. وكوم السمن .. والقشيش .. وأبو الغيط .. وبياطة .. وشلشمون .. ومثل القاهرة كانت أية مدينة أخرى فى مصر .. تأتيها السموم من كل نواحيها ويتسلل أصحابها من كل أبوابها ويتساقط ضحاياها فى كل الزوايا والأركان .

وكان الأكثر خطورة من ذلك كله .. هو نفوذ أباطرة المخدرات الذى إمتد إلى أجهزة الدولة ذاتها .. ونشاطهم الذى إتصل فى الخارج بعصابات المافيا العالمية .. ونجح فى الداخل فى التستر خلف أقنعة عديدة سواء كانت تجارة السيارات أو تربية المواشى أو تملك العقارات والبوتيكات والمقاهى .. ويكفى – لأن نقيس مدى وطأة الأزمة وشدة نفوذ هؤلاء التجار – أن نعرف أن شقيق أنور السادات رئيس الجمهورية السابق كان متورطا فى تجارة المخدرات ومثله (٢) كان شقيق عثمان إسماعيل محافظ أسيوط الأسبق .. والذى كان يزرع الأفيون فى المحافظة تحت حماية شقيقه المحافظ .. يكفى أن نعرف أيضا أن هناك (٣) أعضاء بمجلس الشعب يتاجرون فى المخدرات تحت حماية وحصانة قبة البرلمان .. وأن أحد وكلاء النائب العام حاول تهريب إثنين من تجار المخدرات غير المصريين مقابل الكثير من المال وتم القبض عليه فى مشهد درامى مفزع وحزين .. وأن أحد ضباط الشرطة أقام حفل زفافه بنفقات تجاوزت الخمسين الف جنيها دفعها

(١) د. جمال ماضى أبو العزايم – نفوس وراء الأسوار – الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٠
(٢) أحمد أنور – الإنفتاح وتغير القيم فى مصر – مصر العربية للنشر والتوزيع – ١٩٩٣
(٣) وجيه أبو ذكرى – شباب فى دائرة الموت – المكتب العربي للمعارف – ١٩٨٩
الف النمر – فنانون ومخدرات – المكتب العربى للمعارف – ١٩٩٢

أحد كبار تجار المخدرات .. هذا غير مسارحنا التى تحولت كواليسها الخلفية [٤] إلى أوكار رسمية لتعاطى المخدرات سواء كان الذى يتعاطى هم النجوم الكبار أم الكومبارس والعمال والفنيين .

ولست أعتقد أن غاية جهدنا وإستطاعتنا لمحاربة كل هذا هى الإكتفاء بقرار جمهورى يحمل رقم ٤٥٠ لسنة ١٩٨٦ والذى صدر فى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٨٦ بتشكيل مجلس قومى لمكافحة الإدمان .. فالحكاية أكبر من ذلك .. وأخطر من ذلك .. وليس بالتقارير المكتبية وأوراق المجالس الحكومية وحدها نواجه كل هؤلاء الذين يجبرون شبابنا وفتياتنا ورجالنا ونسائنا على خلع ثيابهم ليصبحوا بيننا ضحايا .. وعرايا .. فى زمن الهوان والعذاب والإدمان .

(١٤)

القبلة.. والقنبلة

البعض منا
يتصور المجتمع الاسلامى معصوما من الزلل
والمؤسسة الإسلامية محروسة بالملائكة
والحل الإسلامى نوعا من السحر ذى المفعول الأكيد
يحقق المراد بالمجان
وربما في غمضة عين

فهمى هويدى
من كتاب : التدين المنقوص

في يوم الإثنين الثالث عشر من شهر يونيو عام ١٩٩٤ .

كعادتها .. قرأت مصر صحف صباحها الجديد بنصف إهتمام ونصف إقتناع .. وطالع أهلها الصفحات الأولى التى تحدثت عن القمة الأفريقية فى تونس .. أخبار الحرب والموت والدم فى اليمن .. العلاوة الإجتماعية ونسبتها ومناقشات مجلس الشعب .. جائزة الأمم المتحدة للسكان التى سيتسلمها الرئيس حسنى مبارك فى جنيف .. كلها كانت أخبارا من ذلك النوع الذى لا يبقى فى ذاكرة الناس طويلا .. ينتابهم إحساس غامض بأنها فى معظمها أخبار سبق لهم قراءتها من قبل .

إلا خبر صغير نشرته جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى .. تحول بسرعة إلى حديث كل الناس .. فجرت أصابعهم وعيونهم إلى الصفحة الثالثة عشرة من الجريدة ليتابعوا التفاصيل .. ثم كان أن راحوا يفتشون بقية صحف الصباح لعلهم يجدون مزيدا من أسرار وخبايا لم تأت بها جريدة الأهرام .. فلم يجدوا شيئا فى الصفحات الأولى ببقية الصحف .. ولا فى الصفحات الداخلية بجريدة الوفد .. ووجدوا خبرا صغيرا نشرته جريدة الأخبار فى صفحة الحوادث .. وخبرا ثانيا فى صفحة الحوادث بجريدة الجمهورية .

كان الخبر الصغير الذى نشرته جريدة الأهرام فى صفحتها الأولى يقول .. متطرفان يستغلان منقبتين فى ممارسة الرذيلة بالمنوفية .. يقيم الأربعة فى شقة يتردد عليها أعضاء الجماعات الإرهابية لممارسة الرذيلة .. وفى الصفحة الداخلية إستكمل أحمد موسى – الصحفى بجريدة الأهرام – الحكاية فقال .. أن كل عضو من أعضاء الجماعات كان يمارس الدعارة مع أى من المنقبتين مقابل خمسين جنيها .. وأن الإثنين المتطرفين كانا ينفقان حصيلة الدعارة والترفيه عن أعضاء الجماعات على ملذاتهما .. ولم ينس الزميل الإشارة إلى ما تم العثور عليه فى شقة الدعارة من ملابس للمنقبات وشرائط كاسيت تضم الأناشيد الدينية والخطب الحماسية وحكايات عن قضية الدكتور عمر عبد الرحمن أو إعدام خالد الإسلامبولى قاتل الرئيس السابق أنور السادات .. لم ينس أيضا التأكيد على أن تلك الجريمة تعد وصمة عار فى جبين الجماعات الإرهابية .. جريمة تؤكد مدى زيفهم وتكشف الوجه القبيح لهم وبطلان إدعاءاتهم من جهاد لتطبيق شرع الله .. وأخيرا تساءل الزميل عن كم الجرائم التى ترتكب بإسم الإسلام ؟!.. وهل تبيح تعاليم الإسلام مثل هذة العلاقات المحرمة ؟!.

أما جريدة الأخبار فى خبرها الصغير الذى نشرته – بدون إسم كاتبه – فى أسفل صفحة الحوادث تحت عنوان .. إرهابى يدير شبكة دعارة فى شبين الكوم .. فقد أضافت أن عددا من أعضاء الجماعة الإرهابية كانوا يعاونون زعيم الشبكة على تسهيل الدعارة..

وفى جريدة الجمهورية .. كان الخبر الطويل الذى كتبه حسن الشايب والذى إختارت له الجريدة ثلاثة عناوين دفعة واحدة .. العنوان الأول يقول .. هؤلاء هم الإرهابيون .. العنوان الثانى يقول .. ضبط عضوين بجماعة متطرفة فى قضية آداب .. العنوان الثالث يقول .. مجدى إستغل شقيقتين منقبتين لمزاج أصدقائه الملتحين .. ثم لم يجد كاتب الخبر ما يضيفه إلى ما سبق ونشرته جريدتا الأهرام والأخبار إلا التأكيد بعد كل بضعة سطور على أن المتهم من المتطرفين .. على أن الأمر كله لا يعدو أكثر من فضيحة أخلاقية للجماعات الإرهابية .. على أن زبائن وكر الدعارة كانوا من الملتحين .

قرأ الناس كل ذلك .. فتناقلوه وحاولوا تفسيره وتأويله .. حاروا في تصديقه أو تكذيبه .. تعين عليهم إنتظار اليوم التالى لعله يأتى بتفاصيل وأخبار جديدة .. وقد كان هناك جديدا بالفعل .. كانت هناك جريدة أخبار الحوادث (١) التى جاء خمسة من محرريها بكل تفاصيل الحكاية منذ إختفاء فادية وجيهان من بيت الأب وحتى القبض عليهما فى بيت الدعارة .. ولم تنس الجريدة أن تختار المانشيت الرئيسي لها بخط أحمر كبير قالت فيه .. أسرار شبكة الآداب التى يديرها متطرفان بالمنوفية .. فادية وجيهان ضحيتان للإرهاب .. لم تنس أيضا أن تكتب فى إفتتاحيتها عن الإرهاب الذى كشف عن وجه جديد من وجوهه القبيحة .. وعن قمصان النوم وملاءات السرير وأدوات التجميل والخطابات الغرامية والكتب الخليعة وكيف إختلطوا بشرائط الشيخ عمر عبد الرحمن وملابس المنقبات .. وفى النهاية تساءلت الجريدة عن الدوافع والأسرار التى جعلت التطرف يجتمع مع الدعارة فى مكان واحد وفى قضية واحدة ؟!.

الجديد أيضا .. وفى نفس اليوم .. كانت جريدة الوفد (٢) التى خرجت على الناس يتصدر صفحتها الأولى مقالا لجمال بدوى رئيس تحريرها بعنوان .. إرهاب أم دعارة ؟!.. قال فيه .. ما كان ينبغى لوزارة الداخلية أن تتورط فى الحملة الخبيثة التى تعمل على تشويه الإسلام وتخلط الأوراق بين المتدين وبين تاجر الأعراض .. ومن العيب أن تتورط وزارة الداخلية وتنجرف فى التيار الذى يتصيد حادثا إجراميا ويلبسه لبوسا إسلاميا .. وكان ينبغى على الصحف الحكومية أن تفطن إلى هذا الشرك حتى لا تساهم في حملة تلويث الإسلام .. وإختتم جمال بدوى مقاله مؤكدا .. إن موقفنا الواضح ضد الإرهاب لا يعنى إطلاقا خلط الأوراق .. وإدانة الحابل والنابل .. وإطلاق الأحكام الجزافية ضد كل من يطلق لحية أو ترتدى نقابا .. إن الإنسياق وراء هذة النغمة الضارة يشكك فى مصداقية المواجهة ضد الإرهاب .. ويضع الدولة فى الخندق المعادى للدين .

وأنا شخصيا على يقين من أن الدولة – بمؤسساتها وأجهزتها وصحافتها – لم تدخل من قبل هذا الخندق المعادى للدين .. ولست أظن أنها تنوى أن تدخله مستقبلا .. إنما هى النوايا الطيبة للبعض منا .. ونوايا بعض آخر ليست طيبة دائما .. أولئك الذين يبادرون فى أى وقت – حتى دون أن يطالبهم أحد – بتقديم خدماتهم لأى نظام .. والذين تخيلوا أو توهموا أن الجنس هو السلاح المناسب الذى لا ينبغى للحكومة أن تتردد فى الإستعانة به فى مواجهتها الدامية ضد التطرف والإرهاب .. ولهذا لا أعتقد أن قضية الدعارة فى مدينة شبين الكوم ستكون آخر محاولات هؤلاء إعلان الحرب ضد الإرهاب عن طريق الجنس .. ولم تكن المحاولة الأولى أيضا .. فقبل تلك القضية بشهور قليلة .. كانت الضجة التى صاحبت إعترافات الإرهابى التائب عادل عبد الباقى .. الإعترافات الصحفية ثم التليفزيونية التى أطلق عليها فهمى هويدى – عن حق – لقب شهادة الموسم .. شهادة رآنا فهمى هويدى (٣) نهرب من جدية مواجهتها إلى هزل تسطيح المسألة كلها إلى حد الزعم أو الإيحاء بأن شباب هذة الجماعات ليسوا سوى مجرد شباب معقد نفسيا وجنسيا .

وقد تضمنت إعترافات عادل عبد الباقى (٤) بالفعل ما شجع على مثل هذا الهزل .. وجاء فيها

(١) يحمل عدد أخبار الحوادث تاريخ ١٩٩٤/٦/١٦ لكنه كان بين يدى الناس يوم الثلاثاء ١٩٩٤/٦/١٤
(٢) جريدة الوفد – ١٩٩٤/٦/١٤
(٣) جريدة الأهرام – ١٩٩٤/٤/٥
(٤) أعتمد هنا على نص الحوار التليفزيونى مع عادل عبد الباقى والذى نشرته مجلة روز اليوسف فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٤/٣/٢٨

ما كان يحتاج إليه أصحاب تلك النوايا العارية كوثيقة رسمية لا تقبل الشك أو الطعن يرفقونها بالملف الجنسى الشائك الذى أعدوه لكل جماعات الإرهاب والتطرف بل وحتى للمتشددين من الإسلاميين دون إرهاب أو تطرف .. فهكذا تحدث الإرهابى التائب وقال .. وجدت دعارة مقنعة باسم الإسلام .. بصراحة شوقى الشيخ حرامي وإنتوا بتوع دعارة تبيحون الزنا .. رأيت الكثير تحت النقاب .. هناك دعارة تحت النقاب .

أيضا .. لم تكن إعترافات عادل عبد الباقى - مثلها مثل قضية شبين الكوم - هى المرة الأولى التى يحاول البعض فيها إيجاد أية علاقة مستحيلة أو ممكنة بين الجنس والتطرف .. بين الثياب الداخلية الملونة وبين الجلباب القصير الأبيض .. بين الدعارة والنقاب .. بين الزنا والذقن الطويلة .. فقد سبق وأن قرأنا فى مجلة روز اليوسف مثلا (١) .. تحقيقا بعنوان غراميات أمراء الجهاد للزميل وائل قنديل .. الذى إمتلك جرأة هائلة - ومخيفة أيضا - على أن يكتب فى مقدمة التحقيق مؤكدا أن كل أمراء الجماعات لهم مغامرات جنسية بعدد شعر رأسهم أو ذقنهم .. أحمد يوسف أمير بنى سويف كان دونجوان بنى سويف .. أقام أكثر من علاقة نسائية وحتى بعد أن بدأ مشوار التطرف .. كان على علاقة بزميلة له فى الجامعة أثارت إعجاب الجميع بشعرها الطويل جدا وثيابها القصيرة جدا .. وعاصم عبد الماجد أحد زعماء التطرف فى أسيوط وأحد الذين قادوا المذبحة الشهيرة فى قسم شرطة أسيوط بعد أيام قليلة من إغتيال السادات .. لم يترك إمرأة فى حى الوليدية فى قلب أسيوط إشتهرت بالإنحراف أو سافر زوجها للعمل بالخارج .. إلا وكانت له معها حكاية .. بل وسبق له العمل كمرشد للبوليس ضد بلطجية الشقق المفروشة .. وناجح إبراهيم أحد أمراء أسيوط أيضا والذى إشتهر بالعنف وبمنتهى الشدة والتطرف .. كان على علاقة جنسية بأستاذة العلوم المسيحية فى إحدى مدارس مدينة ملوى حتى باتت تلك العلاقة حديث المدينة بأسرها .. وأخيرا أحد زعماء التطرف - لم يذكر الزميل إسمه كاملا - والذى كان يصلى بالنساء فقط دون الرجال ويخطب فيهم فى حوش منزله وسبق إتهامه بالشذوذ وبالجنون .

وبعد عشرة أيام فقط من نشر هذا التحقيق جاء الدور هذة المرة على مجلة صباح الخير(٢) .. أو بالتحديد على ضابط سابق بأمن الدولة يمارس الصحافة بين الحين والآخر ليكتب عن سحر .. زوجة أحد أمراء الإرهاب .. والتى قالت .. كان زوجى يغيب طول النهار لا يأتى إلا فى الليل حاملا معه الطعام .. يأكل طعامه فى صمت .. ثم فجأة يتحول إلى كائن مختلف .. يتودد إلى بأسلوب شاذ .. يتمسح فى جسدى بطريقة مخيفة وينقلب تجهمه السابق إلى إنبساط محموم .. ويتبدل صمته إلى حديث متصل مفرداته فى غاية البذاءة حتى ينال منى ما يشتهيه فيعود إلى سيرته الأولى .. وحين ذهبت - لا يزال الكلام يأتينا على لسان زوجة الأمير الإرهابى - إلى صديقتى أشكو لها زوجى .. فضحكت ضحكة طويلة ماجنة ونظرت إلى فى خبث ثم قالت .. أنا سمعت فتوى لأخ متبحر فى العلم ينصح الزوجات بأن يكن عاهرات لأزواجهن .. ثم مضت تشرح ذلك بألفاظ خليعة .. وتواصل الزوجة إعترافاتها .. لكن بعد القبض على زوجها والزواج من أحد الأخوة .. وعن الزوج الجديد قالت سحر .. كان يستهل اليوم بالألفاظ السوقية التى تتنافى مع مظهره تماما .. وكان أصدقاؤه يأتون بعضهم يحاولون مغازلتى بوقاحة .. وكنت أشكوهم لزوجى

---

(١) مجلة روز اليوسف - عدد ١٩٩٢/٨/١٠

(٢) مجلة صباح الخير - عدد ١٩٩٢/٨/٢٠

فينهرنى ويتهمنى بأننى .. عايزة كده .. فهربت منه لكن إكتشفت الجماعة مكانى فأعادونى إليه .. فعاملنى بشراسة وكان يعاشرنى وأنا مكبلة اليدين .

وتنتهى شهادة سحر .. ويتطوع كاتبها بالتعليق عليها فى النهاية مؤكدا أن حكايتها دليل على مدى إرتباط الهوس الدينى بالهوس الجنسى .. يتطوع مرة أخرى ويضيف أن أحد الأخوة العائدين من أفغانستان لم يجد ما يحكيه إلا حكايات نساء الروس اللواتى شاركن فى الحرب .. وكيف كان المجاهدين يتربصون بهن وينصبون لهن الفخاخ والأكمنة حتى يقعن فى الأسر .. فيتم تقسيم الفتيات البارعات الحسن كجوارى للمجاهدين وفقا لمكاناتهم ومراتبهم .

ثم جاءت الزميلة حنان المصرى – أيضا فى مجلة صباح الخير [1] – بإعترافات سعاد .. الزوجة الثانية للإرهابى حسن شحاتة .. أحد المتهمين بالإعتداء على الأوتوبيس السياحى الألمانى فى قنا .. وتقول سعاد عن زوجها .. وصل به الأمر إلى أنه كان يجردنى من ملابسى .. وبعد أن أصبح عارية تماما يبدأ يضربنى بشدة حتى أفقد الوعى .. ثم فوجئت به ذات يوم يأتى بإحدى السيدات الساقطات ويعاشرها أمامى دون حياء أو خجل .. ولم تنس الزوجة أن تؤكد فى نفس الإعترافات أن زوجها كان يجلس دائما فى البيت مع أصدقائه .. يقرأ أحدهم القرآن بصوت عال والباقى يردد خلفه .. كان الزوج أيضا دائم الحديث عن الأمور الدينية وعما أحله أو حرمه الله .. وكان أخيرا دائم التردد على المسجد لأداء الصلاة .

وفى جريدة أخبار الحوادث [2] .. يحكى لنا صابر شوكت عن جماعة متطرفة أسسها أحد قيادات جماعة الجهاد وجعل دستورها هو البراءة من كل معاصى الأرض .. فأطلق على جماعته الجديدة لقب جماعة البراءة .. ودعا أمير الجماعة فتاة بارعة الجمال لتنضم إلى الجماعة .. أقنعها وساعدها على الهرب من أسرتها وتزوجها دون عقد .. وذات يوم ذهبت النساء الأخريات إلى الأمير بشكاواهن من تلك الفتاة ومن إيمانها الضعيف بالجماعة .. فأمر الأمير بعقد محاكمة عاجلة لفتاته .. لكنها هاجمت الجماعة وإعترضت على أوضاع كثيرة ورفضت الإعتذار أو التوبة .. فكان لابد من عقابها .. وكان العقاب هو أن تصبح إمرأة مستباحة لكل الرجال فى الجماعة .

ثم تحكى لنا زميلة أخرى .. سناء عبد العاطى فى جريدة الأهرام [3] .. عن أعضاء الجماعات الذين يعيشون فى شقق مشتركة وكيف لا يتورعون عن ممارسة الجنس وليس لهم من ساتر سوى ملاءة سرير .. وكيف يمكن للواحد منهم أن يفتى بكفر صديقه ليتزوج زوجة هذا الصديق .. ويوحى لنا إبراهيم فرغلى فى مجلة روز اليوسف [4] أن فتاة .. وثلاثة الاف جنيها لإتمام الزواج بها كانوا هم دافع عبد الشافى أحمد رمضان ليقتل الدكتور فرج فودة .. ثم كانت هناك حكاية.. أو حكايات .. الجماعة الإسلامية فى إمبابة .. وهى الحكايات التى لا نكاد نجد فى تفاصيلها – وفقا لرواية وشهادة الزملاء [5] الذين تابعوا ما حدث هناك - أى فارق بين التطرف والإغتصاب.. أو بين النقاب والدعارة .. أو بين الجهاد نتيجة ضلالات وعقائد خاطئة ومزيفة وبين الجهاد فوق

---

(١) مجلة صباح الخير – عدد ١٩٩٢/١٢/١٠

(٢) جريدة أخبار الحوادث – عدد ١٩٩٣/١٢/٣٠

(٣) جريدة الأهرام – عدد ١٩٩٢/٣/١٥

(٤) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٩٢/١٢/٢٨

(٥) الحكايات رواها محمود صلاح فى جريدة أخبار الحوادث الصادرة بتاريخ١٩٩٢/١٢/١٧ ، ورأفت بطرس فى مجلة آخر ساعة الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/١٢/١٦، وحسن زعفان فى مجلة أكتوبر الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٢٠ ، وكريم صبحى فى مجلة روز اليوسف الصادرة بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٢٨

كل فراش وخلف كل جسد شهى جميل ومثير .. حتى ولو كان من بينها جسد عاهرة يمكن الإحتكام إلى مفاتنه فى أى وقت .. أو يمكن تفجيره فى وجه أخ أو زعيم من زعماء الجماعة .

ثم تختصر سناء المصرى حكايات أخرى كثيرة فى كتاب لها [1] قالت فيه .. ينصح أعضاء الجماعات الإسلامية المرأة بأن تسحق مشاعرها .. وتمثل دور السعادة الدائمة .. وتقبل شروط التنافس بإبراز المفاتن الحسية .. وبقدر ما تبذل المرأة جسدها للرجل بقدر ما يرضى هو عنها .. ومن نصائحهم .. كونى عاهرة لزوجك .. وهى العبارة أو الوصية التى تؤكد سناء أنها تتردد كثيرا فى خطب الجماعات الإسلامية .

وهكذا .. بقيت حرب الجنس دائرة .. حرب لم تعلنها الحكومة وحدها على الجماعات الإرهابية والمتطرفة .. إنما شاركها بعض الزملاء والزميلات من الصحفيين أيضا .. إما نتيجة إقتناع شخصى وإما كمحاولة إضافية لكسب ود السلطة .. وفى المقابل .. لم تكن هذة الجماعات أقل ترددا أو حماساً من الحكومة فى الإستعانة بالجنس كواحد من الأسلحة الهامة والثقيلة التى يواجهون بها الحكومة والعسكر والناس سواء كانوا من البسطاء والفقراء أو كانوا من الكبار والأغنياء .

وبدا الكل كما لو أنهم قد إستراحوا للجنس سلاحا يخوضون به معاركهم على إختلاف دوافعهم ونواياهم وتصوراتهم .. بل وبدا الأمر كله أحيانا كما لو كان مجرد قضية جنسية أولا وأخيرا .. وكأن مصر لا تعانى ولا تشكو من إرهاب أو تطرف قائم على فكر يحتاج الكثير جدا من التصحيح والمراجعة .. إنما هم بعض شبابها المتطرف جنسيا الذى يبحث عن المتعة والشهوة حتى وإن تطلب ذلك حمل السلاح وتفجير القنابل .. أو كأن مصر ليست إلا ماخورا كبيرا فاض بالعرى والإنحلال فأصبح غاية ما تسعى إليه مثل هذة الجماعات المتطرفة أن تتغطى أجساد النساء ويحتشم الرجال فى كلماتهم ونظراتهم .

ولم يكن ذلك كله صحيحا على الإطلاق .

وفى المقابل .. لم يكن ذلك كله من قبيل الخطأ والتجنى والتجاوزات .

فالجنس كان دائما هناك .. يشغل مكانه ومكانته كأحد الملامح الأساسية للصراع بين الدولة والمجتمع وبين الأصوليين والمتطرفين .. يخطئ من يتخيله الصراع الوحيد بقدر ما يخطئ من يتوهمه صراعا جانبيا وهامشيا لا قيمة له أو إعتبار .. المشكلة فقط كانت غياب من بإمكانه التعامل مع الأمر كله بشئ من الهدوء والمنطق والعقلانية بدون إنحياز أو تحامل أو تعصب .. المشكلة كانت غياب من يملك ما يكفى من روية وصبر لمراجعة كل ذلك الذى جرى فى مصر منذ شرارة الصدام الأولى التى تفجرت فى اليوم الثامن عشر من شهر أبريل عام ١٩٧٤ .

فى ذلك اليوم .. جرت محاولة إقتحام الكلية الفنية العسكرية بقيادة صالح سرية .

فى ذلك اليوم .. بدأ الصراع الدموى الطويل والعنيف على الإسلام وبإسم الإسلام .

فى ذلك اليوم أيضا .. بدأ الجنس يلعب دوره فى ساحة الصراع .. صحيح أنه دور لم تتضح كل معالمه وأبعاده إلا بعد ثلاث سنوات .. حين بدأت محاكمة شكرى مصطفى وجماعته التى أطلقت على نفسها لقب جماعة المسلمين وإن كانت قد إكتسبت لقبا آخر صار أكثر شهرة هو جماعة التكفير والهجرة .. إلا أن أحدا بالرغم من ذلك لم يتنبه إلى الجنس ودوره فى حكاية

---

(١) سناء المصرى – خلف الحجاب – سينا للنشر – ١٩٨٩

الجماعة وتاريخها .. وإنما أعطى الكثيرون خلاصة جهدهم وإجتهادهم فقط لتصوير شكرى مصطفى زعيم الجماعة وعلى أنه دونجوان الذى هبط إلى مصر مزودا بلحية وقنبلة .. رجل لا يعنيه من دنياه إلا النساء .. فقد تزوج بخمس منهن وقيل أنه كان حقا له تطليق أية إمرأة تستهويه ليتزوجها هو .. وساعد على ترسيخ هذا المفهوم أو هذا الإنطباع عن شكرى مصطفى أولا ثم عن بقية رجال الجماعة لاحقا تلك الظاهرة التى إرتبطت بجماعة التكفير والهجرة .. ظاهرة إختفاء الفتيات والسيدات التى بدأت تعرفها مصر (١) منذ عام ١٩٧٥ .. تخرج البنت من البيت أو من المدرسة ولا تعود .. تخرج الزوجة من البيت إلى السوق ولا تعود .. تخرج الموظفة من البيت إلى العمل ولا تعود .. وتعددت البلاغات وإنتقلت الظاهرة من القاهرة إلى الإسكندرية إلى الصعيد .. ولم يتكشف الأمر إلا بمحض الصدفة حين إلتقت أم فى المنيا بإبنتها الغائبة وتبين أن شكرى مصطفى وجماعته كانوا وراء الظاهرة وسبب غياب النساء عن بيوتهن ومدارسهن ووظائفهن .. وهو أمر لم ينشغل كثيرون أو قليلون بالبحث عن تفسير حقيقى له وإنما أضافوا الظاهرة كلها إلى سابق الحديث عن غراميات زعيم الجماعة وهوسه بالنساء فى دعوة لنا جميعا لأن نقتنع بأن الأمر لا يعدو فى النهاية أكثر من مجموعة من شباب طائش وفتيات تم إغواؤهن أو إختطافهن ليعيش الجميع فى حياة تسودها الفوضى وينقصها القانون والإلتزام والإنضباط .. الإستثناء الوحيد كانت محاولة جيلز كيبل للبحث عن سبب أو تفسير من خلاله دراسته (٢) الجديرة بالإهتمام والإحترام عن الجماعات الإسلامية فى مصر .. ومع أن جيلز كيبل أورد فى دراسته التبرير الرسمى الذى قدمته جماعة التكفير والهجرة عن إرتباط عدد كبير من الفتيات والنساء بها أو إرتباطها بهن والذى يمكن تلخيصه فى قناعة شكرى مصطفى بضرورة إنجاب مزيد من الأطفال الذين يتم تربيتهم ونشأتهم وفقا لمفاهيم الدين الصحيحة وهو الأمر الذى يضمن ويكفل بقاء المسلمين الحقيقيين .. إلا أن جيلز كيبل فى نفس الوقت لم يغب عنه أن جماعة التكفير والهجرة كانت أولى الجماعات الأصولية والمتطرفة التى سمحت للنساء بالإنضمام إليها .. وهو يفسر ذلك بأن السماح للنساء بالإنضمام للجماعة قد جعل الزواج بالنسبة للشباب أمرا ممكنا .. ليس فقط لأن الجماعة قدمت للشاب الفتاة أو المرأة التى سيتزوجها .. وإنما قدمت له أيضا المسكن والمأوى .. وترك لنا جيلز كيبل حرية أن نخلص من ذلك كله إلى أن شكرى مصطفى كان أول من تنبه إلى واحدة من أهم مشاكل ومواجع الشباب والفتيات فى مصر السبعينات .. مشكلة الزواج ومواجع الحاجة الجنسية ورغباتها وإلحاحها .. ومن المؤكد أن إمكانية الزواج والإعتراف بحاجات الشاب الجنسية – والفتاة أيضا – فضلا عن قضاء تلك الحاجات وإشباعها .. قد ساعدوا شكرى مصطفى على أن يحصد المزيد من الأتباع والمريدين .. لكن من المؤكد أيضا أن الزواج والجنس لم يكونا بطاقة الإغراء الأولى – أو حتى الأساسية – فى يد شكرى كما حاول البعض إيهامنا بذلك .. وإنما كان هناك مجتمع بأكمله يتداعى ويتخبط ويشكو الكثير من الإحساس بالمرارة والإحباط .. كان هناك الفقر وكان هناك القهر .. وهى كلها عوامل رآها مايكل هيل عالم الإجتماع (١) تدعو للإعتصام بالدين والإحتماء به ولو فى شكل تطرف لا يعرف ولا

---

(١) عادل حمودة – الهجرة إلى العنف – سينا للنشر – ١٩٨٧

(٢) جيلز كيبل – النبى والفرعون – ترجمة أحمد خضر – مدبولى – ١٩٨٨

يعترف بأنصاف الحلول ولا بالعقل أو المنطق .. وشاركه فى ذلك الدكتور عاطف العقلة عضيبات الذى أكد [٢] أن الكثير من علماء الإجتماع يؤكدون أن الحرمان الإجتماعى والإقتصادى يؤديان إلى مزيد من الإلتزام الديني .. وهو نفس رأى الدكتور سيد عويس الذى قال [٣] أن القهر يؤدى إلى التدين .. أو التدين الزائد عن الحد .. أو التطرف .

لكن .. لم يشغلنا ذلك كله قدر ما شغلنا وإستهوانا الحديث عن التكفير والهجرة والجنس .. والتفتيش عن مزيد من الأسرار والخبايا عن قدرات ومغامرات شكرى مصطفى الجنسية .. ثم نسينا الجماعة كلها وأعدمنا زعيمها .. وبقيت قناعتنا بالصلة الحميمة بين التطرف وبين الجنس .. قناعة لم ينقص من مساحتها توالى أيام وأعوام كثيرة وتعاقب أحداث وقضايا صعبة وشائكة ومعقدة .. بل زاد الزمن من مساحة تلك القناعة حتى جاء وقت لم نعد نعدم فيه كتابا ومفكرين إختصروا تماما قضية التطرف وعلى أنها مشكلة هوس جنسي مقلق ومخيف .. وقد كان الدكتور فرج فودة واحدا من هؤلاء .. صحيح أنه فى مقاله الأخير [٤] قبل غتياله عاد وأكد فى بداية المقال أن التطرف الديني بمثابة ظاهرة إحتجاج سياسى لها أسبابها الإقتصادية والإجتماعية .. إلا أنه تحدث فى باقى المقال عن الجنس كمرادف للتطرف .. من تحريم الكوسة والباذنجان إلى أفخاذ لاعبى كرة القدم إلى تحريم أن تخلع فتاة ملابسها أمام كلب ذكر إلى الحديث عن الزواج فى الجماعات وكيف يمكن للأمير أن يتجاهل شروط العدة ليبيح لنائب الأمير الزواج من مطلقة الأمير بعد طلاقها بأربعة وعشرين ساعة فقط .. وإختتم الدكتور فرج فودة مقاله الأخير والشهير بدعوة وزير الصحة لأن يتدخل لتدعم الدولة المهدئات الجنسية وقال له أن عدم إستجابة الوزير تهدد الأمن القومى .. قال له أيضا أن الإرهاب يزيد والتطرف يشتد والحل فى يده .. دعم المهدئات الجنسية !.

دعم المهدئات الجنسية .. وتوفيرها فى الأسواق بكميات ضخمة وأسعار مناسبة .. تحول وفقا لفكر الدكتور فرج فودة ومنطقه إلى وسيلة لمحاربة التطرف والإرهاب .. وأنا للأسف لا أعرف وصفا مناسبا أصف به مثل هذا الفكر ومثل هذا المنطق .. لا أعرف إلا أنه فكر إستوطن عقول الكثير من مفكرينا وكتابنا .. ومنطق بدأ التعامل معه وعلى أنه لا يقبل التصحيح أو المراجعة .. بل إن الدولة نفسها بعد عامين من دعوة فرج فودة لم تجد جائزة للتائبين أفضل من أن توفر لهم فرصة الزواج مع تقديم المسكن المناسب .. وكأنها تضمن بذلك عدم رجوع هؤلاء فى توبتهم مرة أخرى ورفع راية العصيان والتطرف من جديد .

ولم تكن قناعة الدولة والكثيرين من مفكريها بأن الجنس هو بذور التطرف وهو أيضا الخلاص من التطرف ومن شروره هى كل المشكلة .. كانت تلك القناعة هى فقط نصف المشكلة .. النصف الآخر قدمه المتطرفون أنفسهم .. حين إختصر الكثيرون منهم كل قضايا الدين لتغدو فى النهاية مجرد قضايا جنسية أولا وأخيرا .. وكأن غاية دعوتهم وقضيتهم هو أن تتحجب المرأة وأن تغطى شعرها وساقيها .. وأن لا يلتقى الرجل والمرأة ولا يجمعهما حوار أو مكان أو عمل .. فضلا عن إعتقادهم المطلق والمسبق بأن مصر دولة تجردت تماما ونهائيا من عفتها فقاموا هم من سباتهم

(١) مايكل هيل – علم إجتماع الدين – دار هينمان – لندن – ١٩٨٠
(٢) د. عاطف العقلة عضيبات – الدين والتغير الإجتماعى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠
(٣) د. سيد عويس – قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى – بدون إسم ناشر – ١٩٨٧
(٤) مجلة أكتوبر – عدد ١٩٩٢/١/٧

يردون عليها عفتها وإليها ثيابها .. وهم – تماما كما يقول الدكتور فؤاد زكريا [(١)] – أجادوا إستخدام الجنس فى دعاواهم .. ساعدهم على ذلك ميل الرجل الشرقى لكل ما يطالبون به .. فباتت تلك الدعاوى تلمس لدى الرجل وترا فى غاية الحساسية هو الإستحواذ على الأنثى وحجبها عن العيون .. وأيضا حين باتت تلك الدعاوى تفيض بالتحذيرات والمخاوف من الإقتداء بأوروبا وإباحيتها وفوضويتها .

وبهذا المنطق .. وبرؤية تشوبها العجلة وعدم التدقيق أو الإتقان .. وبإحتكام خاطئ إلى الجنس سواء من قبل الدولة أو متطرفيها .. جرى التعامل – ولا يزال – مع واحدة من أخطر وأقسى قضايا المجتمع المصرى فى عصره الحديث .. فلا الدولة كانت على صواب حين إختصر مفكروها قضية التطرف بين أوساط الشباب وقصروها على دائرة الجنس وقضاياه وملامحه .. ولا الجماعات الأصولية والمتطرفة كانت على حق حين أحالت الجنس بكل مظاهره وتداعياته إلى قضية رئيسية وفى أحيان أخرى قضية وحيدة تحارب من أجلها .

لم تكن الدولة على صواب حين إفترضت جدلا أن الجنس هو الغاية من التطرف والتشدد .. وبالمقابل يصبح الجنس أيضا هو العلاج .. بينما يؤكد الواقع الإجتماعى المصرى أن الجنس يمكنه فقط أن يتحول إلى مجرد دعوة للتطرف وتمهيد للتشدد الدينى والأخلاقى والفكرى والإجتماعى .. ولست أقصد بالتطرف هنا حمل السلاح والقنابل والجنازير .. ولكن أقصد التطرف كأسلوب للفكر وللحياة .. أسلوب لا يقبل الحوار ولا المراجعة ولا أى رأى مخالف .. أسلوب يصف الدكتور مصطفى سويف صاحبه بأنه [(٢)] شخص غير ناضج تصدر عنه إستجاباته بدون تدريج .. إما الكل وإما لاشئ .. لا يعرف أية حلول وسط فى الحزن أو الفرح أو الرفض أو القبول أو الغضب .. كما أننى فى المقابل لا أقصر الجنس على مجرد رغبة الشاب أو الفتاة فى ممارسة الجنس ونجاحهما أو فشلهما فى ذلك .. صحيح أن تلك الرغبة وحوائجها وإلحاحها ومظاهرها إحدى الدعامات الأساسية فى بناء إنسان أو كيان متطرف .. ولكننى مع ذلك أضيف إليها المناخ الأخلاقى العام الذى يعيش فيه الشاب والفتاة وفيه يمارس كل منهما حياته وأحلامه ويفتش له عن مستقبل ومكان ومكانة .

فالشاب مثلا .. يمكن له أن يعتصم بالتطرف وأن يلجأ إليه نتيجة أسباب كثيرة ومتعددة .. قد تكون أسبابا إقتصادية أو نفسية أو إجتماعية .. لكن هناك سببان من تلك الأسباب على الأقل يتصلان بالجنس بشكل مباشر أو غير مباشر .. السبب الأول هو الرغبة الجنسية التى يعدم صاحبها أية فرصة لتحقيقها وتلبيتها .. حين يعيش مثل هذا الشاب سنوات المراهقة ثم الشباب محاصر بإغراءات جنسية فى الليل والنهار تزوره فى اليقظة والمنام .. فى الخلوة أو مع الصحاب ووسط الزحام .. ومع ذلك هو عاجز عن الممارسة إما لأنه لا يقبل مبدأ الزنا والتورط فى علاقات محرمة يرفضها الله والمجتمع .. وإما لأنه لا يجد من يمارس معها الجنس سواء نتيجة الفقر أو الخوف أو الخجل أو الجهل أو عدم الثقة أو فقدان الجاذبية للجنس الآخر .. هذا فضلا عن زواج يتحول رغما عن الشاب إلى مشروع مستحيل تحقيقه أو إلى قرار يضطر إلى تأجيله عاما بعد

(١) مجلة روز اليوسف – عدد ١٩٨٩/٧/٣١

(٢) د. مصطفى سويف – التطرف كأسلوب للإستجابة – الأنجلو – ١٩٦٨

آخر .. وإذا كان يوسف ميخائيل أسعد يرى [١] أن مثل هذا العجز عن الممارسة الجنسية يؤدى في النهاية إلى أن تتحول الطاقة الجنسية المعطلة إلى طاقة غضبية متفجرة .. فإنه ليس هناك ما يمنع من توظيف هذا الغضب الموشك على الإنفجار فى مؤسسة التطرف .. فالشاب هنا لا يعلن غضبه على ظروفه هو وحده .. إنما هو غاضب من المجتمع .. من الحكومة .. من كل الناس .. غاضب من كل هذا الظلم .. وعليه أن يفتش عن العدل .. فلا يجد من يستجير به إلا أعدل العادلين .. وبكتاب الله .. وفى بيوت الله .. ينشد هذا الشاب العدل والمساواة .. ويحلم بالصبر .. صبر عن كل شرور هذا المجتمع المتخم بالخطايا والآثام .. ويستمسك ببشرى الله للصابرين .

أما السبب الثانى .. فهو مناخ أخلاقى يتحلل من بعض أو كل قيوده ويعيش فيه الشاب عاجزاً عن أن يفهم أو يعرف أو حتى يقاوم هذا التحلل وهذا التداعى .. ولعله لا يخفى على أحد عدد أولئك الذين أغلقوا على أنفسهم فجأة أبوابهم وإستجاروا بالصمت والحزن والقرآن إحتجاجا على سلوك أم أو تجاوزات أخت أو مفاسد أب .. فالشاب الذى يروعه بعض جسد أمه العارى تملكه عيون الغرباء والآخرين .. أو يحزنه ويصدمه شك مخيف ومقلق فى أخلاقيات شقيقته ولا تسمع كلمته ولا يؤخذ برأيه .. مثل هذا الشاب لا يملك إلا الإنسحاب من عائلته ومن بيته ومن حياة بات يرفضها ويخجل منها .. إنه هنا لا يعود مجرد شاب يفتش عن غطاء لجسد عارى لأم أو أخت .. إنما يريد غطاء لكل جسد عار .. يريد محاربة أية خطيئة فى أى وكل بيت .. يريد أن يقتل الشيطان بعد أن لم تعد الخصومة بينهما مجرد ثأر شخصى .. ولكنه ثأر عام .. منكر إن لم يستطع تغييره بيده أو بلسانه .. فليكن التغيير بالقلب والغياب والتطرف .

أما حكاية الذى يتطرف .. أو ينضم إلى إحدى الجماعات الأصولية أو الإرهابية .. بحثا عن الجنس وسعيا إليه .. فهذا هو الوهم الذى نساق إليه بعمد أو من قبيل الخطأ والصدفة .. نعم هناك أعضاء فى تلك الجماعات .. وهناك شباب يملكون الذقون الطويلة .. إستعانوا على قضاء حوائج رغباتهم بالجنس وبعلاقات محرمة .. ولكن لا عدد هؤلاء .. ولا أفكارهم ونواياهم .. يصلحون كشهادة دامغة على وصم التطرف بالهوس الجنسى .. وأيضا هناك متطرفون .. عادوا من غياهب تطرفهم وتشددهم وإعتصامهم بالدين .. ليمارسوا كل ما تطاله يداهم من موبقات وخطايا وذنوب .. ولكنها ظاهرة ليست تخصنا وحدنا فى مصر .. ولا هى قاصرة على جماعات مصر الإسلامية والإرهابية منذ السبعينات .. إنما هى ظاهرة عالمية وتاريخية يعرفها العالم كله من حولنا .. وللعالم النفسى الكندى .. نويل ميو .. دراسة [٢] تتعلق بمثل هذة الظاهرة .. وكان الدكتور نويل قد إكتشف أن المراهق .. أو الإنسان فى أطوار شبابه الأولى .. يعانى من إحساس حاد بالتهديد والقلق .. رغبته فى تأكيد ذاته – فضلا عن إكتشافها – تتحول إلى مصدر هم دائم لا خلاص منه فى أحيان كثيرة إلا بإيمان دينى عميق ومبكر أيضا .. ثم بعد أن يكتشف المراهق ذاته ويتعرف عليها .. يبدأ يفتش لها وله عن دور .. وقد تدفعه رغبته الملحة فى الإستقلال إلى رفض كل قيد حول روحه أو ذاته أو معصمه .. بما فيها قيود الدين .. لهذا يمكن أن تعقب سنوات الإيمان المبكر فترة أخرى من الشك القاتل .. شك قد يتخذ إحدى صور اللامبالاة بالقيود والإلتزامات الدينية .. وقد يتجلى ذلك كله فى الإنغماس فى علاقات ونزوات جنسية كدلالة على

---

(١) يوسف ميخائيل أسعد – سيكولوجية الغضب – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧

(٢) د. محمد خيرى محمد على – صور من الجريمة – مكتبة القاهرة – ١٩٦٦

النضوج والحرية الكاملة والقدرة على رفض كل مانع أو قيد .

ومثل الشاب .. نجد الجنس يصلح أيضا كدعوة للتطرف والتشدد فى وجدان كثير من الفتيات أيضا .. وإن كان الجنس هنا يتخذ شكلا آخرا بعيدا عن الرغبة الجنسية المكبوتة أو أية ممارسة جنسية من أى نوع .. صحيح أن الرغبة قائمة .. والإثارة قائمة .. ولكننى مع ذلك أقصد بالجنس فى حالة الفتاة .. الخوف من الجنس .. خوف الفتاة من مناخ قد يدفعها أو يساعدها على الخطيئة .. خوفها من كل هذا الإنحلال وكل هذة الفوضى ورفضها مسايرة كل هذا الذى يجرى من حولها .. فلا تجد هذة الفتاة إلا الحجاب مثلا .. تختاره بكامل إرادتها ووعيها رمزا وتأكيدا على رفضها لما حولها وتعبيرا عن إحساسها بالإحباط واليأس .. وأنا بذلك أعنى وأقصد تماما رفض كل محاولات البعض لخلق علاقة وثيقة بين الحجاب والتطرف .. صحيح فقط أن كل متطرفة محجبة بالضرورة بل وأحيانا محجبة إلى درجة النقاب .. لكنه غير صحيح على الإطلاق أن كل محجبة متطرفة .. بل وأنا أرفض أيضا قصر الحجاب وعلى أنه فقط إختيار دينى .. لأنه قد يكون إختيارا إجتماعيا ونفسيا بالمقام الأول قبل أن يكون إختيارا وقرارا دينيا مباشرا .. وأميل فى ذلك إلى رأى الدكتور أحمد عكاشة الذى تناول ظاهرة الحجاب فى مصر وإنتشارها مؤكدا [١] أن هذا الإنتشار لا يعنى أن مصر بدأت مؤخرا فقط تعرف الإلتزام الدينى .. وإنما عرفت مصر ومنذ أزمان طويلة مبدأ الإلتزام الدينى .. وإشتهر المصريون دائما بأصالتهم الدينية .. ولكن إنتشر الحجاب مؤخرا نتيجة حالة إحباط شديد .. وغياب القدوة الصالحة .. وظهور العنف وعدم الجدية فى حياة كثير من الأسر المصرية .. ويضيف الدكتور عكاشة أن نتاج كل هذا كان فتيات كثيرات وجدن حياتهن لا تبشر بأى أمل أو سعادة .. ومن هنا ظهر الميل إلى التصوف والتحجب .

أما المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية .. فقد إكتشف فى دراسة له [٢] أن ظاهرة الحجاب إنتشرت فى المدن الرئيسية أكثر من قرى الريف .. وأن أكبر نسبة بين المحجبات كانت فى الجامعات .. وأن الظاهرة كلها بدأت فى أول الأمر بين أوساط المستويات الثقافية العليا ثم المتوسطة بعد ذلك ثم إنتشرت أخيرا بين صفوف الأوساط الأدنى .

وأعتقد أن فى نتائج دراسة المركز القومى أكثر من إشارة أو دلالة على أن الحجاب قد وضع على الرأس بمثابة رسالة إحتجاج دنيوى وليس من قبيل المراسم الدينية .. فالإنحراف فى المدينة أكثر منه فى القرية .. والفوارق الإجتماعية وتناقضات الروح والوجدان وجراحهما تبدو قاسية ومدمرة فى المجتمع الجامعى أكثر منه فى أى مجتمع آخر .. والوعى بما أصاب المجتمع من خلل تفسخ وتحلل يزداد كلما زادت مساحة الوعى والثقافة .. وهنا لا يمكن الزعم مطلقا بأن نساء وفتيات المدينة أكثر تدينا وإلتزاما من مثيلاتهن فى أية قرية مصرية .. ولا طالبات الجامعة هن وحدهن الأكثر حرصا على ممارسة شعائر دنياهن من وراء حجاب .. لكن يمكن الزعم بأن الحكاية كلها ليست قائمة على أساس دينى فقط .. لكنه الخوف من المجتمع .. ورفضه أيضا وعدم القدرة على مسايرته .. ومع ذلك فلا أحد يريد التوقف عند هذة النقطة كثيرا أو قليلا .. لكنهم إنقسموا ما بين مقاتل غايته أن تخلع كل فتاة أو إمرأة فى مصر حجابها لأنه - على حد زعمهم - لا الله ولا القرآن ولا الرسول ولا السنة إختاروا الحجاب للمرأة .. وبين مقاتل على

(١) د. أحمد عكاشة - ثقوب فى الضمير - دار الشروق - ١٩٩٣

(٢) المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية - ظاهرة الحجاب بين الجامعيات - ١٩٨٢

الناحية الأخرى من البحر باتت حربه الوحيدة هى الدفاع عن الحجاب كما لو كان الحجاب هذا هو إختصار الدين كله .. والإسلام كله .. ولا شئ من قبل أو من بعد .

وما بين من يقسم بالله على أن شعر المرأة ليس عورة .. ومن يرى المرأة كلها عورة تغطيتها هى أوج وذروة الجهاد فى سبيل الله .. ضاعت منا حقائق كثيرة وإختلطت علينا أمور أكثر .. ووحدها بقيت الفتاة تدفع ثمن كل ذلك من أعصابها وتماسكها وإتزانها وصبرها ومشاعرها ومخاوفها ومواجعها أيضا .

ومثلما لم تكن الدولة على صواب فى إعتقاداتها وقناعاتها عن العلاقة بين التطرف والجنس .. كان المتطرفون والأصوليون والمتشددون بدورهم على خطأ يمارسونه كل يوم بإصرارهم على قصر القضية كلها وإختصارها فى معان ورموز جنسية من البداية إلى النهاية .. ويا ليتهم تناولوا حتى تلك المعانى والرموز بما تستحقه من جدية وعمق وإهتمام .. يا ليتهم حتى قصروا جهادهم على مثل هذه القضية ولكن بعد فهم عميق وتناول أعمق للإسلام وللجنس وللمجتمع المصرى بكل ما يتمتع به من خصوصية .. وإنما بدا الأمر كله كما لو كان الرغبة الجامحة فى تسطيح كل شئ .. والعبث بكل شئ .. ولم يدر هؤلاء أن الإسلام دين أبدا لا يسمح بذلك .. وأن مصر مجتمع أبدا لا يعترف بذلك .. وأن الحكاية كلها بدت فى نهايتها كومة من العجائب والتناقضات والأفكار والقناعات الخاطئة .

أولى تلك الأفكار الخاطئة كان فهمى هويدى هو أول من هاجمها وإنتقدها بضراوة حين شبه[1] العلاقة بين بعض أو كثير من هؤلاء المتطرفين وبين الإسلام بأنها تماما .. تشبه العلاقة بين الدب الذى أراد حمايه صاحبه فقتله فى النهاية .. فالإسلام وكما يقول فهمى هويدى .. ليس أبدا مجرد قائمة من المحرمات والممنوعات فى جانب .. ثم لائحة عقوبات وزواجر فى جانب آخر .. والحكاية ليست فقط أغطية للرؤوس وثياب قصيرة وضيقة .. وما هو مستور أو مكشوف .. ويختتم فهمى هويدى إعتراضه قائلا أن أمر فقهاء الماضى العظام لا يقارن بسيل الفتاوى الذى بات ينهمر علينا كل يوم .. وبحيث لم يعد هناك أسهل من كلمة حرام .. ولا أسهل من الإتهام بالكفر والشرك .. بل إن أحدهم ليفتى فى مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها كل أهل بدر .

ويقودنا مثل هذا الطرح الأصولى المتشدد .. وإعتراض فهمى هويدى عليه .. إلى قضية أخرى أكثر تعقيدا .. هى قضية الإسلام الذى جاءنا جميعا كدين يعيد ترتيب حياتنا كلها بنواحيها الروحية والمادية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية .. وليست نواحيها الجنسية فقط .. ومع ذلك.. لم يغفل الإسلام تلك النواحى الجنسية .. ولكن أعاد ترتيبها وتصحيح مفاهيمها وقوانينها .. أو كما يقول الدكتور عبد الوهاب بوحديبة [2] .. فالإسلام .. يضفى على الجنس المعنى الرفيع .. ويجلله بالإيجابية الكاملة .. الأمر الذى يزيل أى أثر للشعور بالإثم أو الخطيئة .. بل ويسمح الإسلام للغريزة أن تتجلى ببهجة وصفاء بحيث تبدو الحياة كصيغة متكاملة لا ينقصها شئ .. وتحكى لنا الدكتورة فاطمة المرنيسى [3] .. كيف كان عمر بن الخطاب - وكثير من الصحابة أيضا - يريدون قصر التغييرات التى جاء بها الإسلام على الحياة الروحية والعامة فقط .. أما

---

(١) فهمى هويدى - القرآن والسلطان - دار الشروق - ١٩٨١

(٢) د. عبد الوهاب بوحديبة - الإسلام والجنس - ترجمة هالة العورى - مدبولى - ١٩٨٧

(٣) فاطمة المرنيسى - الحريم السياسى - ترجمة عبد الهادى عباس - دار الحصاد - سوريا - ١٩٩٣

الحياة الخاصة فيجب أن تبقى محكومة بعادات الجاهلية .. أى أنهم كانوا يريدون الإسلام ثورة على الحياة العامة وقلب للأوضاع السياسية والإقتصادية مع الإبقاء على شكل مفهوم العلاقات بين الجنسين وبين الرجل والمرأة .. وهذا بالطبع هو ما لم يحدث .. وإنما تغيرت الحياة كلها بالإسلام وتبدلت معالمها وملامحها وشتى نواحيها وسائر مجالاتها على أى مستوى سياسى أو إجتماعى أو إنسانى أو ذاتى .

ولا نخرج من ذلك كله إلا بأن الإسلام تناول الحياة بإجمالها .. فلم يطغ مجال فيها على مجال آخر .. ولم تكن هناك ناحية لها الأولوية على باقى نواحى الحياة ونشاطاتها .. وقد توقف الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين طويلا (١) أمام دروس الرسول عليه الصلاة والسلام للعرب .. وكيف كان يعلمهم الجهاد فى سبيل الله والصلاة والصوم وجمع وإدارة أموال المسلمين .. فى نفس الوقت الذى كان فيه حريصا بنفس القدر على أن يعلمهم إستعمال السواك ونظافة الثوب وإماطة الأذى عن الطريق .. ويرى أحمد بهاء الدين أن تلك الدروس مجتمعة هى التى أحالت العرب من بدو غارقين فى الجهالة إلى تلك الأمة العظيمة التى قرأنا تاريخها وتوقفنا أمام فتوحاتها وإنتصاراتها .. ويقترب الإمام الكبير الشيخ محمد الغزالى من نفس هذا المعنى حين يؤكد (٢) أنه إذا تم تكليف إنسان منا بعمل .. فإن إنجاز هذا العمل على أفضل وجه يعد فرض عين وجب أداؤه كالصوم والصلاة .. والتراخى فى أداء هذا العمل أو الإستهانة به بمثابة عصيان لله وإعتداء على الدين .

وهذا بالضبط .. هو الذى لم تناد به ولم تسع إليه أية جماعة أصولية أو متشددة فى مصر .. فلم تقدم إحدى تلك الجماعات - على كثرتها وإختلافها وتباين مناهجها ورؤاها - أى صورة متكاملة للحياة .. ولكنها إما قدمت الإسلام فى صورة منشور سياسى يحض على الإنقلاب والإستيلاء على السلطة .. وإما قدمته فى صورة جلباب وحجاب وذقن طويلة وإمرأة حبيسة بيتها وعاهرة لزوجها .. وحتى تلك الجماعات التى إقتصرت دعوتها ونشاطاتها على الأخلاق والعلاقات الإنسانية بما فيها الجنس .. لم تقدم لنا منهاجا واضحا ومحددا للعمل .. وهل هم تلاميذ أبو الأعلى المودودى أم أتباع لسيد قطب .. فهناك تناقض وخلاف حاد - أزعم أن كثيرين لم يتنبهوا أو يلتفتوا إليه - بين الرجلين .. فأبو الأعلى المودودى يرى (٣) أن تغيير المجتمع .. أو الإنقلاب الإسلامى على حد تعبيره .. لا ينبغى له أن يبدأ إلا بعد تغيير الحياة الإجتماعية بكل مظاهرها ومجالاتها .. فهذا التغيير وحده هو الذى يجعل الأرض ممهدة أمام الإسلاميين للسيطرة على كل شئ .. ويضرب أبو الأعلى المودودى مثلا بعمر بن عبد العزيز الذى فشل إنقلابه الإسلامى لأنه لم يبدأ بتغيير الحياة الإجتماعية أولا .. وبالتالى لم يكن المجتمع حينئذ مهيئا لكل ما نادى به وتمناه عمر بن عبد العزيز .

وفى كتاب آخر (٤) .. يواصل أبو الأعلى المودودى شرح وجهة نظره ويضيف أن المشكلة ليست فى الإسلام نفسه .. فعلى مدى التاريخ الإسلامى الطويل لم ينجح أحد فى إزاحة المسلمين من

---

(١) عمر بطيشة - شاهد على العصر - كتاب اليوم - ١٩٨٤

(٢) فهمى هويدى - التدين المنقوص - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٨٧

(٣) أبو الأعلى المودودى - منهاج الإنقلاب الإسلامى - دار الأنصار - ١٩٧٧

(٤) أبو الأعلى المودودى - واجب الشباب المسلم اليوم - المكتب الإسلامى - ١٩٨٢

طريق الإسلام .. ولا يزال المسلمون على قناعتهم وحرصهم وتمسكهم بدينهم .. المشكلة الوحيدة هى الأخلاق التى إنهارت والعادات التى ساءت .. ولهذا لابد من علاج كل ذلك أولا وقبل كل شئ .

أما سيد قطب .. فهو على النقيض تماما .. فهو يرى [1] أن أخلاقيات الإسلام تغدو عبئا ثقيلا وفادحا يقصم ظهور الأفراد حين يجرى تطبيقها فى مجتمع لا يهيمن عليه الإسلام .. ويضيف سيد قطب مؤكدا أن الإسلام نظام واقعى .. ومن ثم فهو يفترض أن الناس الذين يعيشون بمنهجه يعيشون فى مجتمع يهيمن عليه الإسلام .. ففى مثل هذا المجتمع يصبح الخير والفضيلة والنظافة هم المعروف الذى يعرفه ويصونه كل القائمين على هذا المجتمع .. ويصبح الشر والرذيلة والقذارة هم المنكر الذى تطارده كل القوى المهيمنة على هذا المجتمع أيضا .. ويستشهد سيد قطب [2] على ذلك بأيام الإسلام الأولى .. ويشير إلى أن الله بعث برسوله عليه الصلاة والسلام فى زمن كان المستوى الأخلاقى فى الجزيرة العربية فى الدرك الأسفل وكانت الدعارة من معالم هذا المجتمع .. وقد كان فى إستطاعة محمد أن يعلنها دعوة إصلاحية تتناول تقويم الأخلاق وتطهير المجتمع وتزكية النفوس .. وكان فى هذة الحالة سيجد نفوسا طيبة يؤذيها هذا الدنس وتأخذها النخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهر .. وكان من الممكن أن تستجيب فى أول الأمر جمهرة صالحة تتطهر أخلاقها فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها بدلا من أن تثير دعوة لا إله إلا الله المعارضة القوية فى أول الطريق .. لكن – يضيف سيد قطب – كان الله سبحانه وتعالى يعلم أن هذا ليس هو الطريق .. وأن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة تضع الموازين وتقرر القيم .. وقبل تقرير هذة العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة وتظل الأخلاق التى تقوم عليها متأرجحة كذلك بلا ضابط وبلا سلطان وبلا جزاء .

أى أننا نخلص من ذلك كله بأن أبو الأعلى المودودى رأى بداية الإنقلاب أو الإصلاح هى ترميم الأخلاق ومحاربة الرذيلة .. بينما رأى سيد قطب أن أية محاولة لإصلاح الإخلاق وضبطها دون عقيدة راسخة ومستقرة هى محاولة محكوم عليها بالفشل مقدما .. أو أنها ليست الطريق الصحيح إلى الله .. وقد يعترض هنا أحد بزعم أن قادة الجماعات الأصولية والمتشددة – والذين يدعون فى كل وقت بأنهم التلاميذ المخلصون لسيد قطب – بأنهم ينشرون دعاواهم فى مجتمع إستقرت فيه ورسخت عقيدة الإسلام .. وهم لذلك إنتقلوا للخطوة التالية وهى تصحيح الأخلاق وضبطها .. لكنه إعتراض غير ذى جدوى .. فسيد قطب نفسه لم يعترف بمصر كمجتمع مسلم .. فالمجتمع المسلم كما يراه سيد قطب [3] هو كل مجتمع يخلص عبوديته لله وحده .. عبودية تتمثل فى التصور الإعتقادى والشعائر التعبدية والشرائع القانونية .. وبهذا التعريف يقول سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة اليوم هى مجتمعات جاهلية .. ويشير الدكتور محمد حافظ دياب أن سيد قطب كان يعنى بذلك [4] أن المجتمع المسلم ليس هو المجتمع الذى يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم مسلمين .. لكنه المجتمع الذى يتم فيه تطبيق الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظاما وخلقا وسلوكا .. ويضيف محمد قطب [5] أن معرفة الله والإيمان به ليس وحده هو المعيار والقياس .. فالعرب قبل الإسلام كانوا يعرفون الله .. كانوا يعرفون أنه خالقهم هم والسماوات والأرض ..

---

(١) سيد قطب – هذا الدين – دار الشروق – ١٩٨٧.

(٢) ، (٣) سيد قطب – معالم فى الطريق – دار الشروق – ١٩٨٠.

(٤) د. محمد حافظ دياب – سيد قطب .. الخطاب والأيديولوجيا – دار الثقافة الجديدة – ١٩٨٧

(٥) محمد قطب – جاهلية القرن العشرين – دار الشروق – ١٩٨٠

وخالق رزقهم وسمعهم وأبصارهم .. كانوا أيضا يؤمنون بأنه الخالق المدبر الذى بيده ملكوت كل شئ .

بعد هذا .. لن يعود مفاجئنا لنا أو لأى أحد أن نصغى لسيد قطب وهو يطلب ويطالب (١) بتحطيم مملكة البشر من أجل إقامة مملكة الله فى الأرض .. وهى الدعوة التى إستندت إليها ولا تزال .. جماعات مصر الأصولية والمتشددة والمتطرفة .. كلهم أرادوا إما عن إقتناع وإما عن إدعاء تحطيم مملكة البشر وإقامة مملكة الله .. لكن المشكلة كانت أن سيد قطب ترك لنا هذة الدعوة دون أن يشرح كيف السبيل إلى تحقيقها .. أو كما يقول صلاح عيسى (٢) .. طالبنا سيد قطب بالإنقلاب وتحطيم جاهلية القرن العشرين دون برنامج أو نظرية أو إجتهاد أو حتى نقاش .. ويضيف صلاح عيسى أنه حتى لو سلمنا بأن كل ما أنجزته البشرية فى عمرها بمثابة جاهلية ينبغى الثورة عليها .. فإن سيد قطب يرفض أن نجتهد فيما نريده بعد أن نثور وبعد أن ننقلب على الحكومات .. لكن علينا أن نثور أولا ثم نفكر بعد ذلك فى حصاد ثورتنا وإنقلابنا .

ومن المؤكد أن ذلك كله تحول إلى مأزق حقيقى كان على الجماعات المتطرفة أن تواجهه وتفتش لنفسها عن مخرج أو مهرب .. فهى تريد الثورة وتريد الإنقلاب وتريد السلطة .. تريدهم بمنطق سيد قطب وفكر سيد قطب وأسلوب سيد قطب .. لكنها عاجزة عن إشهار مصر كمجتمع جاهلى لكى تملك الحق فى أن تطلب من الناس معاونتها على تغيير هذا المجتمع .. لأن أحدا لن يصدقها أو لأن مصر بالفعل ليست دولة جاهلية .. فكان من الضرورى الإبتعاد عن أى حوار عقائدى أو تاريخى أو فقهى أو فكرى .. والإقتصار على القضايا الشكلية وحدها .. فجرى تكريس مفهوم جاهلية مصر بالتأكيد على أن نسائها غير محجبات بل سافرات ومستهترات .. والتأكيد على أن الرجال تعوزهم الفضيلة والأخلاق والجلابيب البيضاء والذقون المدلاة فوق الصدور .. هذا فضلا عن أكبر كم ممكن من الجهامة يسود كل مجالات الحياة ونواحيها .. لتصبح الدنيا (٣) إما أبيض أو أسود .. أطهار أو أشرار .. دار إسلام أو دار كفر .. ثم يصبح أعضاء هذة الجماعات هم حزب الله وكل من هم سواهم حزب الشيطان .

وكأن الخطايا والأخطاء فى أى مجتمع تلغى شهادته بالإسلام .. أو كأن المجتمع الإسلامى يريد له البعض أن يبقى (٤) معصوما من الزلل .. وأن تبقى المؤسسة الإسلامية محروسة بالملائكة .. وأن الحل الإسلامى نوعا من السحر ذى مفعول أكيد يحقق المراد بالمجان وربما فى غمضة عين صورة لا علاقة لها بالواقع أو الحقيقة .. فالأخطاء والخطايا ستبقى بيننا ومعنا تلازمنا من جيل إلى جيل ومن زمن إلى آخر .. وغاية ما ينبغى أن نسعى إليه كما أكد المفكر الكبير عباس محمود العقاد (٥) هو التوفيق بين غرائزنا وبين أخلاقنا .. إذ أن السعى لإستئصال هذة الغرائز جريمة كبرى فضلا عن أنه سعى عقيم لأننا لن ننجح فى إستئصال هذة الغرائز إلا بإستئصال الحياة نفسها .. العقاد أكد أيضا أنه من قبيل الوهم أن نتخيل صداما موحشا وموجعا بين دنيانا الأولى والآخرة .. وقد كان العقاد (١) دائم التأكيد على أن السعى فى سبيل الدنيا ليس ضلالا عن

---

(١) سيد قطب – العدالة الإجتماعية فى الإسلام – دار الشروق – ١٩٨٣
(٢) صلاح عيسى – الكارثة التى تهددنا – مدبولى – ١٩٨٧
(٣) فهمى هويدى – القرآن والسلطان – دار الشروق – ١٩٨١
(٤) فهمى هويدى – التدين المنقوص – مركز الأهرام للترجمة والنشر – ١٩٨٧
(٥) عباس محمود العقاد – مطالعات فى الكتب والحياة – المكتبة العصرية – بيروت – بدون تاريخ نشر

سبيل الآخرة .. وأن القرآن لا يعرف الفصام بين الروح والجسد أو الإنشقاق بين العقل والمادة .

ولم يحدث أن دعانا الإسلام مطلقا لأن نستأصل غرائزنا .. ولا هو يجبرنا على حياة يريدها لنا أولئك المتشددون والمتطرفون .. بل ولا يجبرنا على إختيار لا معنى له أو ضرورة أو مبرر بين الدين والدنيا .. فنحن بالمقام الأول والأخير مجرد بشر .. ولهذا لا يخاطب فينا الإسلام قدر إنسانيتنا .. والإنسان فى المفهوم الإسلامى [٢] هو صانع قدره .. ويتميز الإسلام بالنسبة لعديد من الديانات [٣] بإعتقاد عميق فى مقدرة الفرد على ضبط نفسه وإستخدام منطقه الذاتى وإخضاع أحاسيسه ورغباته لعقله إذا كان مسلحا بضوابط وقواعد يجب الإرتكاز عليها .. سيد قطب نفسه علمنا [٤] أن ضبط النفس عن الإندفاع مع الشهوات الجنسية المحرمة .. قد يبدو فى ظاهره نوعا من الكبت والكبح .. لكنه - إذا ما مارسناه بفهم وإقتناع - يمثل تحررا من عبوديتنا لهذة الشهوات .. حينئذ نستعلى إرادتنا الإنسانية بحيث نختار شهواتنا فى الحدود التى يسمح بها الإسلام وفى دائرة الطيبات التى أحلها الله .

ويعلق عادل حمودة على ذلك مؤكدا [٥] أنه من المثير للإستغراب والدهشة أن يعترف سيد قطب بأنه إنسان له قلب ومشاعر مثله مثل باقى البشر .. يحب ويهزم .. يتأمل ويتوب .. ينفعل ويهتز .. ثم يسحب تلاميذه ومن ساروا على نهجه هذا الإعتراف ويأبون عليه أن يكون مثلنا .. أن يكون بشرا .. ويكتفون فقط بما يفيد صلابته وصرامته وجهامته .. وكأنه من العيب أن يحس وينفعل ويضعف .. أو كأن تلك الإنفعالات كلها ضد الفكر .. أو ضد الإسلام .

وقد حاول فيما بعد كثيرون محاربة تلك الجهامة التى أراد المتطرفون إلصاقها بالإسلام على حساب سماحته وإنسانيته النبيلة .. وكان منهم الداعية الشهير الدكتور يوسف القرضاوى الذى أراد أن ينفى صفة الجهامة عن الإسلام .. فتحدث فى حوار طويل نشرته مجلة سيدتى [٦] عن حياته وأسرته .. وكيف سمح لبناته بالإلتحاق بالجامعة .. وسمح لأبنائه بسماع الموسيقى والأغانى .. وكيف يجلس الجميع يتبادلون الضحكات والنكات ويلتقون جميعا بعد عام كامل من العمل فى أجازة ترفيهية على شاطئ الإسكندرية .. وإن لم يمنع ذلك الدكتور يوسف القرضاوى نفسه فى وقت سابق من إختيار الجماعات الإسلامية كممثل حقيقى لمصر .. فقد القى خطبة حماسية فى نهاية شهر رمضان عام ١٩٧٩ قال فيها [٧] أن مصر مسلمة وليست فرعونية .. وأنها أرض عمرو بن العاص وليست أرض رمسيس .. وأن أعضاء الجماعات الإسلامية هم المثلون الحقيقيون لمصر وليس شارع الهرم .. وأنها ليست النساء العاريات ولكنها النساء المحجبات .

مرة أخرى نعود إلى الشكليات لنعيد بها تقييم مصر وأهلها ونقيس مساحة الدين عندها وعندهم .. مرة أخرى نجد من يضع فراعنة مصر مع ملاهى الهرم فى سلة واحدة علينا أن نلقى بكل ما فيها فى أقرب صندوق للقمامة .. مرة أخرى نجد من يقسم مصر إلى محجبات وغير محجبات .. ويقسم رجالها إلى أعضاء بالجماعات الإسلامية أو غير أعضاء .. وإذا كان يوسف

---

(١) عباس محمود العقاد - الإنسان فى القرآن الكريم - المكتبة العصرية - بيروت - بدون تاريخ نشر
(٢) فهمى هويدى - التدين المنقوص - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٨٧
(٣) د. فاطمة المرنيسى - الحب فى حضارتنا الإسلامية - الدار العالمية - بيروت - ١٩٨٤
(٤) سيد قطب - هذا الدين - دار الشروق - ١٩٨٧
(٥) عادل حمودة - سيد قطب من القرية إلى المشنقة - سينا النشر - ١٩٨٧
(٦) مجلة سيدتى - لندن - عدد ١٩٩٤/٣/١١
(٧) جيلز كيبل - النبى والفرعون - ترجمة أحمد خضر - مدبولى - ١٩٨٨

القرضاوى قد تحدث عن مصر بشكل أقل قسوة من سيد قطب الذى حبس مصر وأهلها في زنزانة الجاهلية .. فإن ذلك لا ينفى أن الإثنين – ومن ساروا خلفهما وسيسيرون غدا – على خ بين وواضح وفادح أيضا .. لأنه من بين الدروس الكثيرة التى نخرج بها من قراءة التايخ المصر الطويل درس هام جدا وبالغ الدلالة .. وهو أن مصر – على عكس بلدان العالم كله – لم تولد أو لتفتش لها بعد ذلك عن إله وعن دين تعرف به طريق هذا الإله .. وإنما ولدت مصر وهى على يق منذ لحظاتها الأولى بأن للكون إله .. لهذا الخلق إله .. للشمس إله .. للنيل إله .. للحياة كلها إ على المصريين عبادته وطاعته خوفا من النهر الذى قد يغضب عليهم ومن الصحراء التى يش حصارها لهم ويقسو فى الليل وفى النهار .. وليس من قبيل المبالغة التأكيد على أن الدين مصر غريزة لا يحتاج المصريون لدروس من أحد لتعلمها وإكتسابها قبل أن يمارسوها بالفعل وأى دين جديد لم يجد فيه المصريون تناقضا أو تعارضا مع تلك الغريزة التى تسكنهم .. لك أضفوا على الدين الجديد قناعاتهم وتصوراتهم .. جرى ذلك مع المسيحية مثلا .. ثم مع الإس أيضا .. بل ويمكن التأكيد على أن مصر هى وحدها التى تولت الحفاظ على سماحة الإسلام و صورته المشرقة .. وهى التى صاغت معادلته بشقيها الدينى والدنيوى .. أو هى التى صا الدين مع الدنيا ليعيش الإثنان فى قلوب الناس ووجدانهم فى سلام وتكامل ووئام .. وإذا المؤرخ جاك جونيور قد إجتهد لتفسير ذلك وخلص إلى أن التفسير الأقرب إلى الواقع و الحقيقة [1] هو أن مصر فى عصورها الإسلامية الأولى إنعزلت بعض الشئ عن مجاورا الإسلامية .. وساعدتها تلك العزلة على صياغة نسيج مختلف وخاص بها وحدها .. فإ ننشغل الآن بتفسير ما جرى وإنما علينا فقط أن نكترث بنتيجة هذا الذى جرى .. وق هذا الذى جرى أن مصر أ كبر من أن يشكك فى إسلامها أحد .. دون أن يعنى ذلك أن مصر لا تسكنه إلا الملائكة .. أو أنها بلد لا تعرف من دنياها إلا العفة أو الفضيلة .. بل هناك أ وخطايا .. وهناك مذنبون وعاهرات أكثر مما يتخيل كثيرون .. لكن ما علاقة ذلك كله بإس وعفتها .. ففى مقابل هؤلاء هناك خمسة وستون الف مسجد فى مصر [2] غير الزوايا القائم ضفاف النيل وروافده من أسوان إلى الإسكندرية .. وفى مقابل هؤلاء هناك إثنتان وسبعون ـ صوفية تضم تحت لوائها [3] قرابة العشرة ملايين صوفى .. أى أكثر من عدد أعضاء كل أ مصر السياسية المعلنة وغير المعلنة التى هى أكثر من كل رواد شارع الهرم وعلب الليل و أنديته ومراقصه .. أكثر حتى من جمهور كرة القدم .. أكبر نشاط سياسى وإجتماعى مس بممارسته المصريين جميعا من كل طبقة أو فئة أو نوع .

وبالرغم من ذلك .. لم ينشغل أحد من قادة تلك الجماعات المتطرفة ومن مثقفيها وم بمثل هذه المقارنات ودلالاتها .. قدر إنشغالهم بتصيد خطايا وأخطاء جنسية ترتكب – ولاتز فى مصر .. لم ينشغلوا بتلك الخطايا والأخطاء فى محاولة للعلاج أو للبحث عن حلول . كانت محاولتهم تلك ستغدو عظيمة ورائعة يستفيد بها الناس ومصر والإسلام فى مصر .. إكتفوا برفض كل شئ وتحريم كل شئ .. وكأنهم التلاميذ والأتباع المخلصون للأص

---

(١) جاك جونيور – كتابة التاريخ فى مصر – ترجمة د. عبد الوهاب بكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣
(٢) عمر بطيشة – شاهد على العصر – كتاب اليوم – ١٩٨٤
(٣) مجلة المصور – عدد ١٩٩٤/٨/٥

المسيحيين فى أوروبا القرن السابع عشر .. أولئك الذين إنهالوا بمعاول الحرام على كل ما فى الحياة من بهجة .. فكان حصادهم هو ما نراه فى أوروبا اليوم من تمرد ومن فوضى .. فهذا التمرد والفوضى كانا النتاج الطبيعى والمحتوم لهذا الكبت والقمع حين يسودان الحياة دون فهم أو تواصل أو إحترام للآدمية والإنسانية .. وقبل أن ينتهى الحال بأوروبا إلى هذا التمرد وتلك الفوضى .. كانت هناك نتيجة لهذا الكبت أشد عنفا وقسوة .. هى الدعوة (١) إلى فصل الدين عن الأخلاق .. دعوة أكدت على أنه بإمكان المسيحيين أن يكونوا متدينيين دون أن يكونوا بالضرورة أخلاقيين .. أو أن يصبح ممكنا أن نجد مسيحيين على خلق دون أن يكونوا متدينيين .. وكان من الطبيعى أن تجد مثل تلك الدعوة آذانا صاغية وعقولا تلتزم بها وتساندها .. وتحولت عبارة ما لله لله وما لقيصر لقيصر إلى واقع عاشته أوروبا ولا تزال تعيشه .. وبنفس هذا المنطق أتهم قادة الجماعات الإسلامية بأنهم يقدمون السند الحقيقى لكل من يدعوننا إلى حبس الإسلام فى زنزانة الفرائض وأركان عبادة الله .. أما الحياة الواسعة خارج المساجد فهى ليست للدين أو الله .. إنما تصبح ملكا للقيصر أو للحاكم .. وهذا بالقطع هو .. ما يرفضه الإسلام بكل قيمه وتعاليمه ومعانيه .. وهو أيضا ما ينبغى علينا جميعا أن نرفضه .. وهو أخيرا ما يريده لنا ويسوقنا له البعض منا إما بسلاسل الحرية الناعمة .. وإما بقيود الجهامة الصارمة .. ومن المؤكد أننا عانينا فى الماضى والحاضر طويلا من أولئك وهؤلاء .. من كل الذين يريدون إجبارنا على أختيار وحيد بين الحرية وبين الزنزانة .. بين القبلة وبين والقنبلة .. مع أن الإسلام دين لم يصادر مشاعرنا وإنسانيتنا وقبلاتنا .. ولم يمنعنا من الدفاع عنه وعنا بقوتنا وإرادتنا وفهمنا وقنابلنا إن إستدعى الأمر الحرب أو الدم أو الشهادة .

(١) أزمة الضمير الأوروبى – ترجمة جودت عثمان ونجيب المستكاوى – دار الشروق – ١٩٨٧



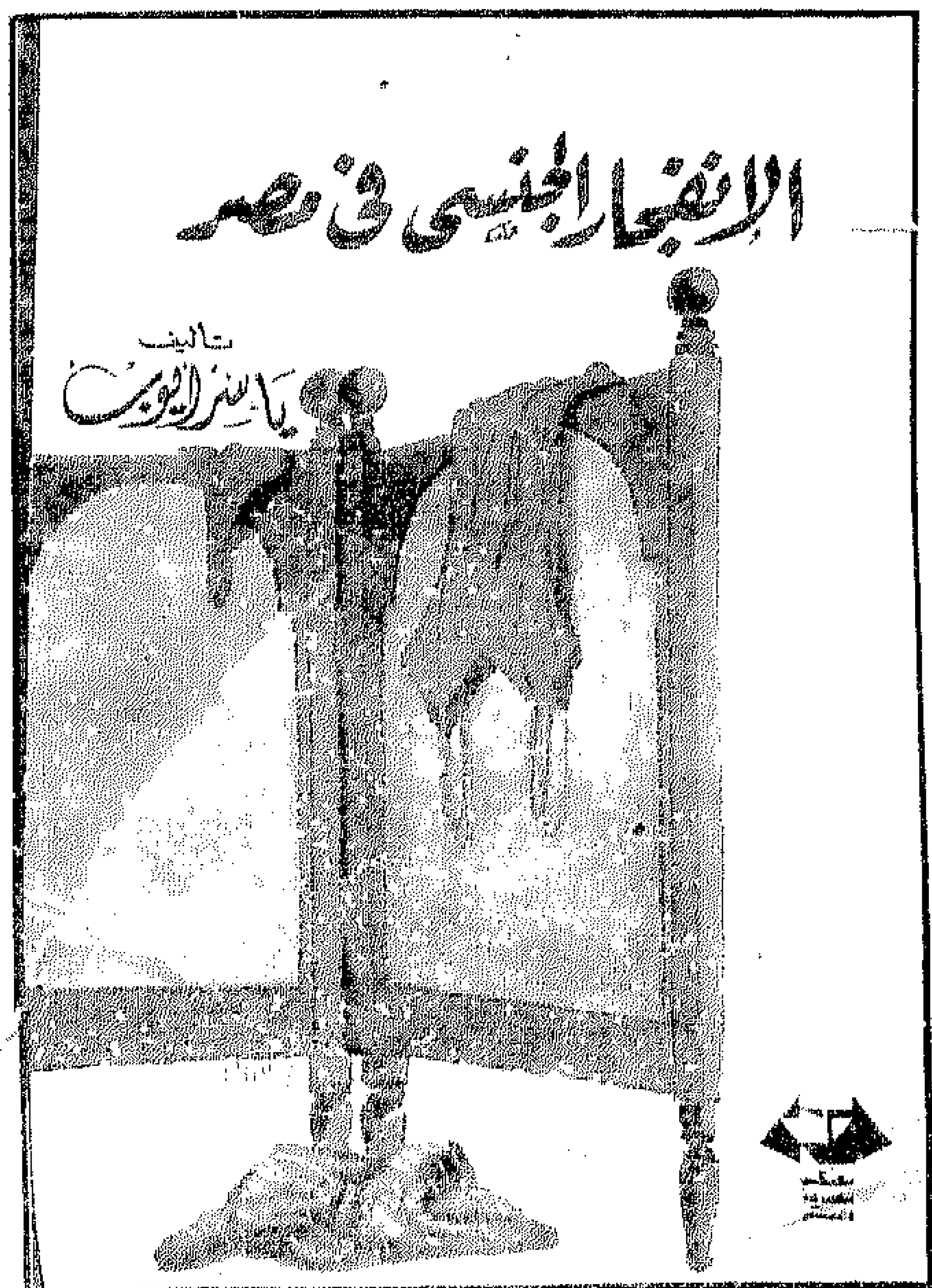
ديانا : الأميرة العاشقة

ترجمة صبحى مشرفى



صلاة الجواسيس

للكاتب الصحفى عادل حمودة



الانفجار الجنسى فى مصر

للكاتب الصحفى ياسر أيوب



التجسس على عصر مبارك

للكاتب الصحفى عبد الله كمال



ملف عبد الحليم موسى

للكاتب الصحفى عمرو خفاجى



عمائم وخناجر

للكاتب الصحفى إبراهيم عيسى



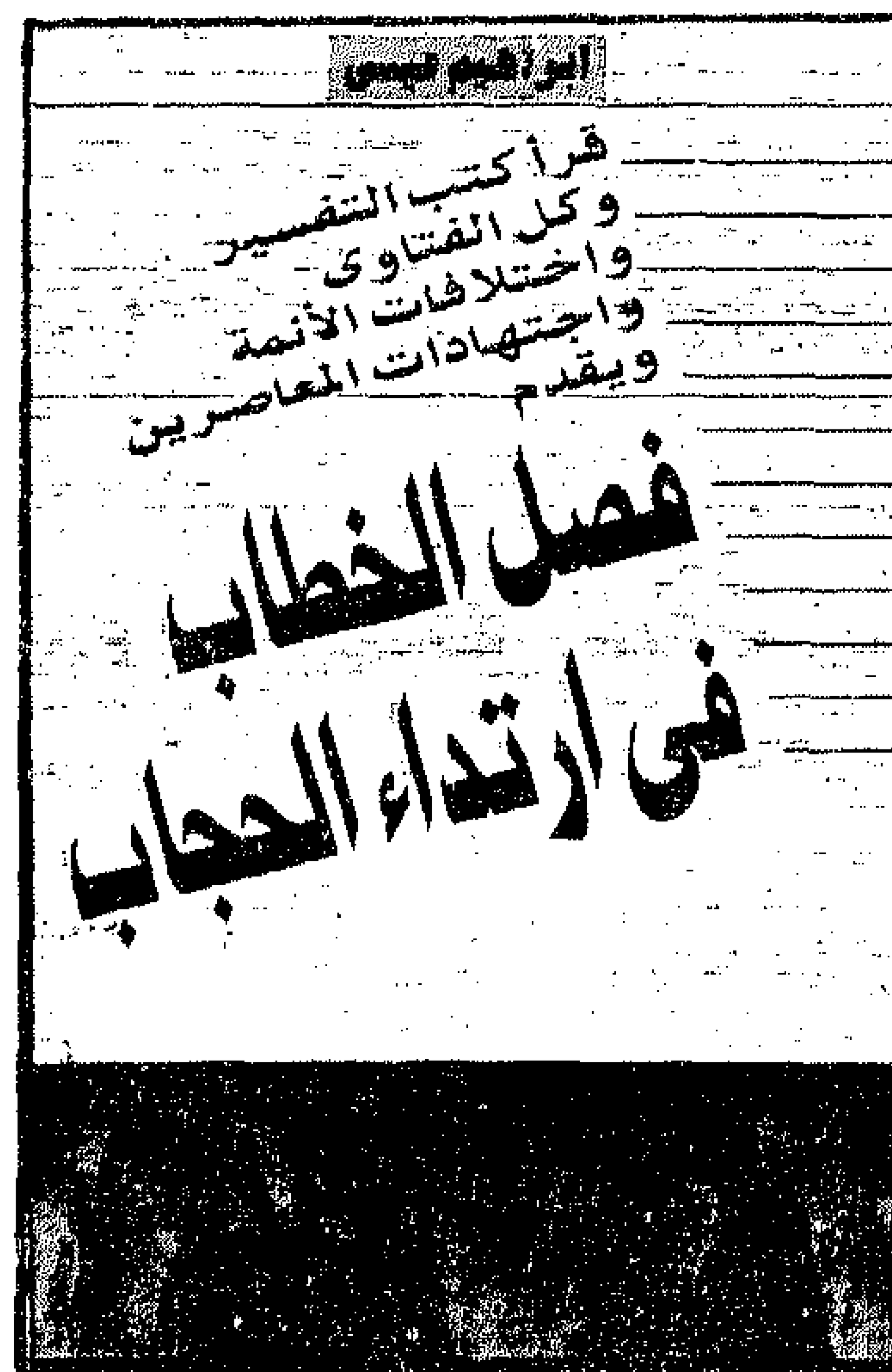
أسيوط مدينة النار

أحمد عمر



صفوت عبد الغنى

للكاتب الصحفى عبد السلام الواحاتى



فصل الخطاب فى ارتداء الحجاب
للكاتب الصحفى ابراهيم عيسى



الإباحية والإجهاض
عبدالله كمال



كنت قاضيا لحادث المنصة
للدكتور / سمير فاضل



اغتيال رئيس
للكاتب الصحفى عادل حمودة



الملك احمد فؤاد الثانى

للكاتب الصحفى عادل حمودة



ناريمان

للكاتب الصحفى سمير فراج



اعترافات مصطفى امين

للكاتب الصحفى محمود فوزى



الفاجومى

للشاعر احمد فؤاد نجم

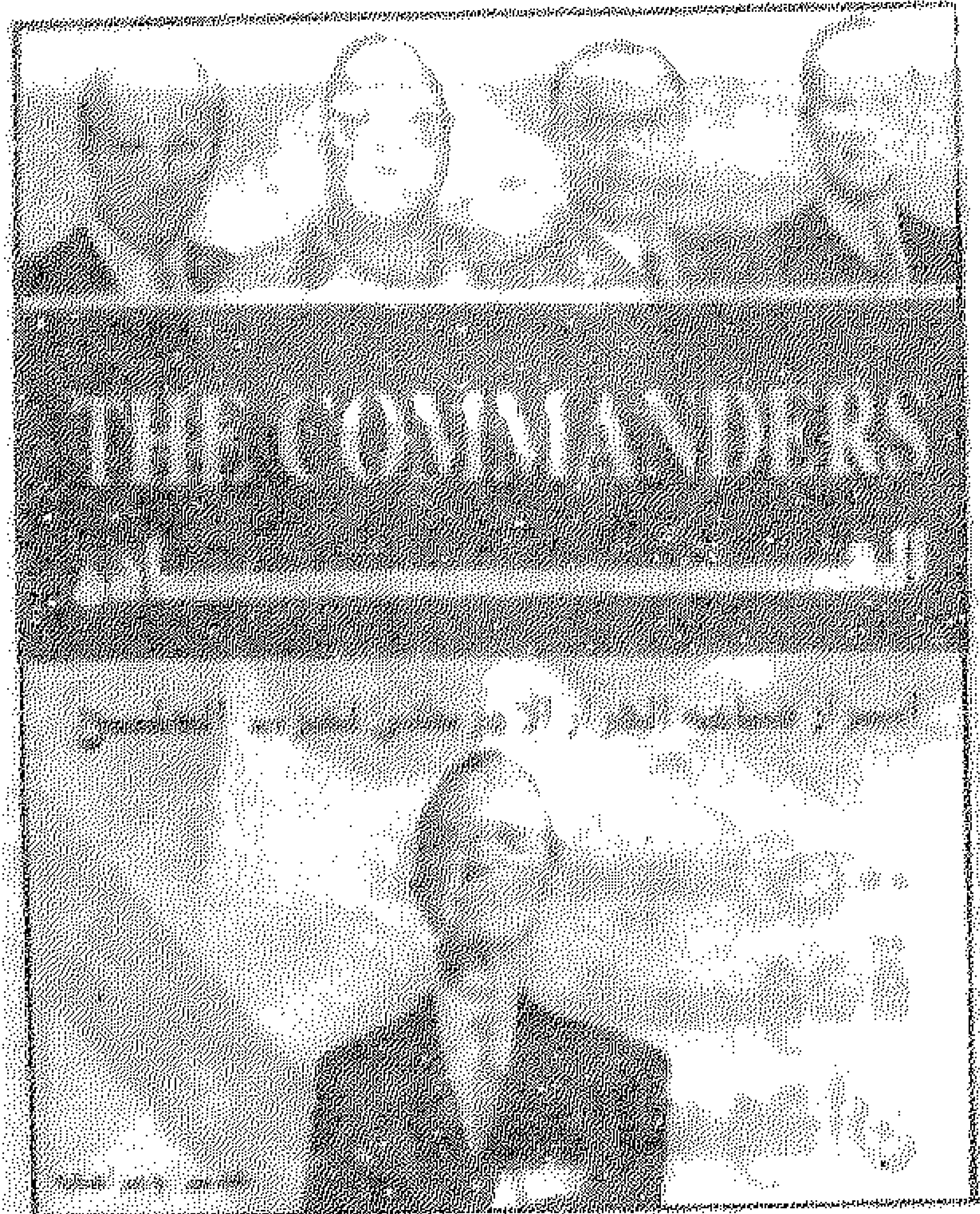


حرب الخليج .. الملفات السرية

تاليف : بيير سالنجر - إريك لوران

ترجمة : د . عربى مخلوف

تحقيق : عادل حمودة



القادة

تاليف بوب وودوارد

ترجمة صبحي مشرق

تحقيق : عادل حمودة



نواب الكيف

للكاتب الصحفى محمود الشربينى



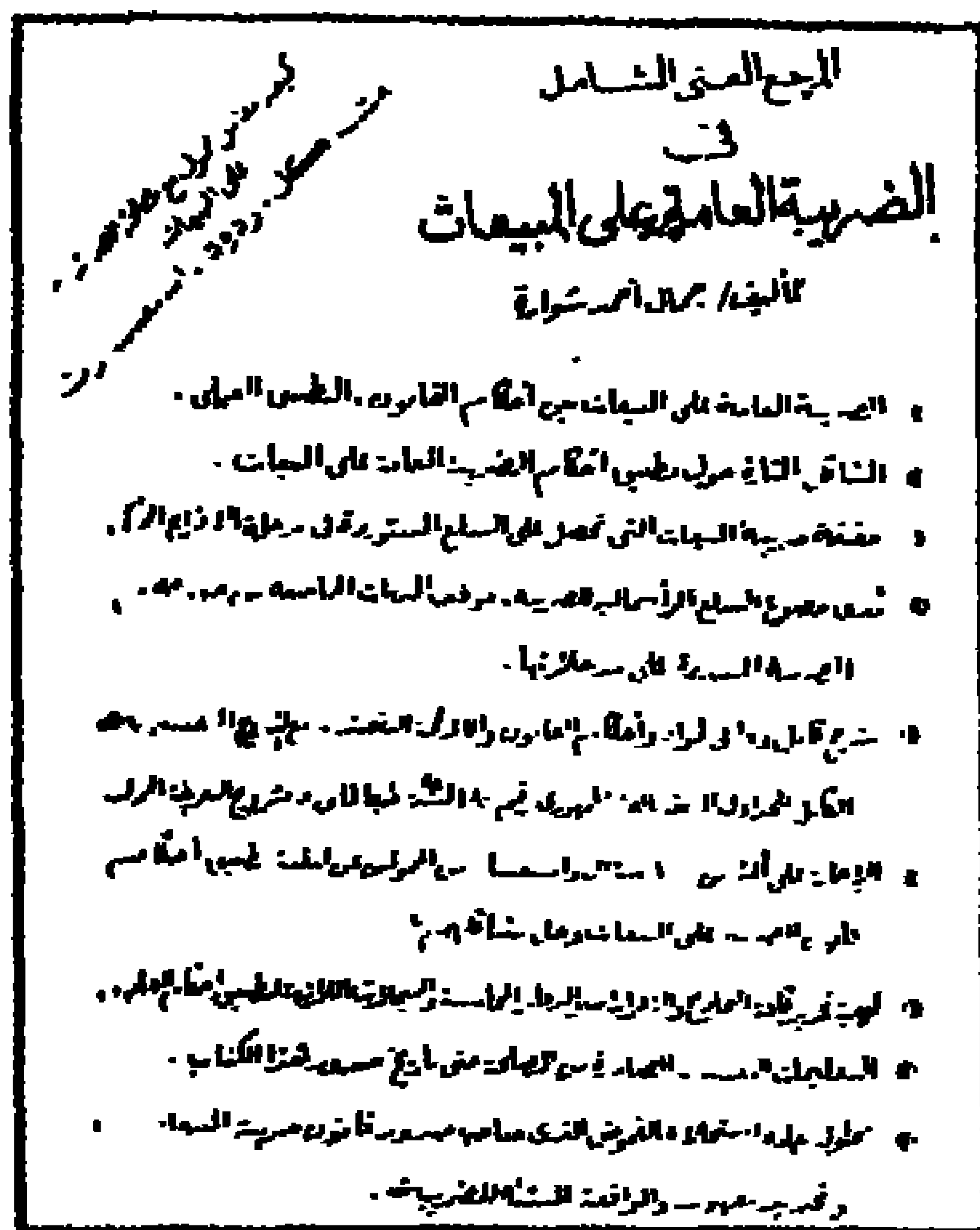
بطريق الخداع

تاليف بيتر استروشكى - كليرهدى



نميرى والعودة لحكم السودان

للكاتب الصحفى محمود فوزى



المرجع الفنى الشامل

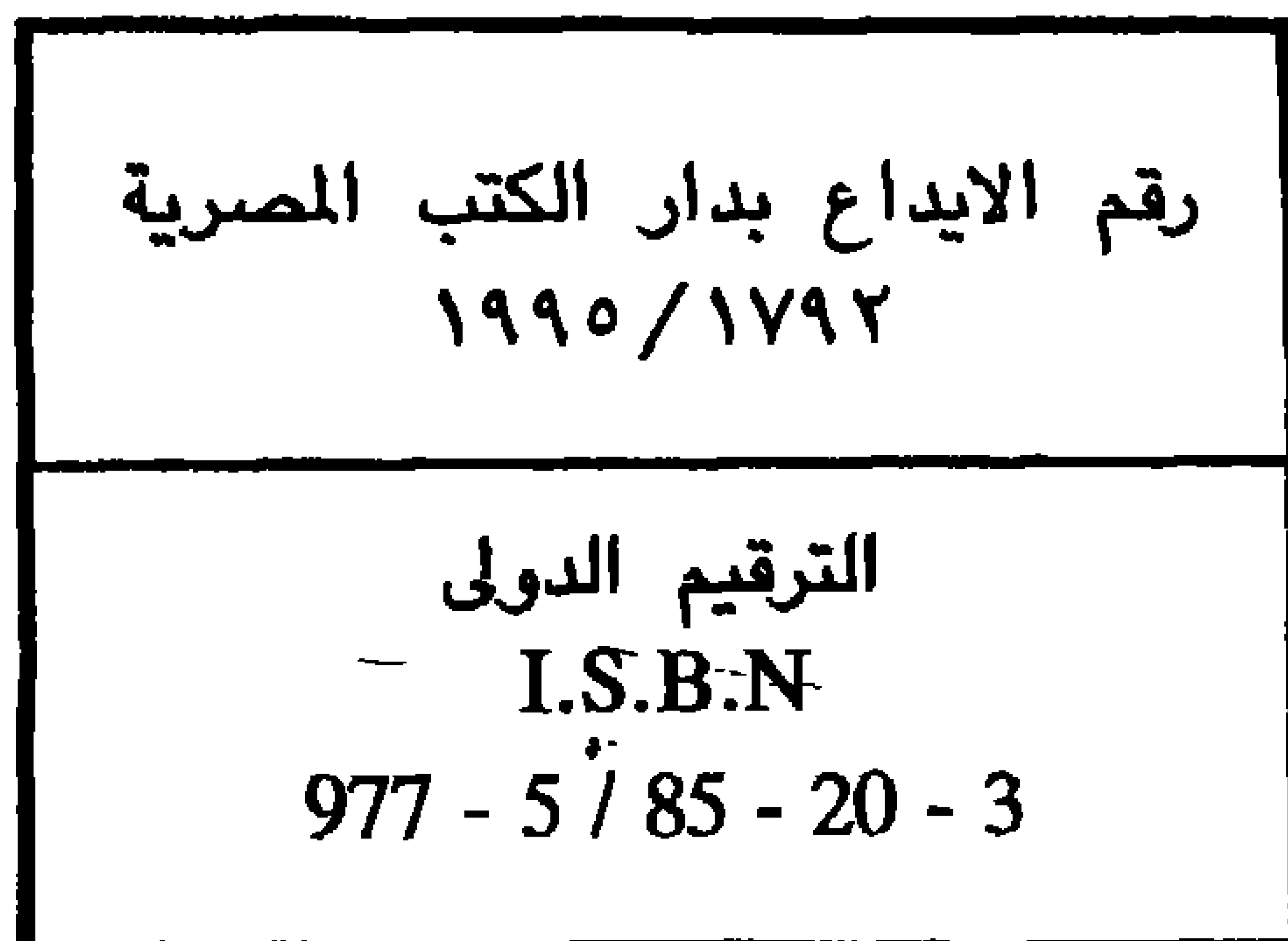
فى الضريبة العامة على المبيعات

للاستاذ / جمال شوارة



نظام شطارة

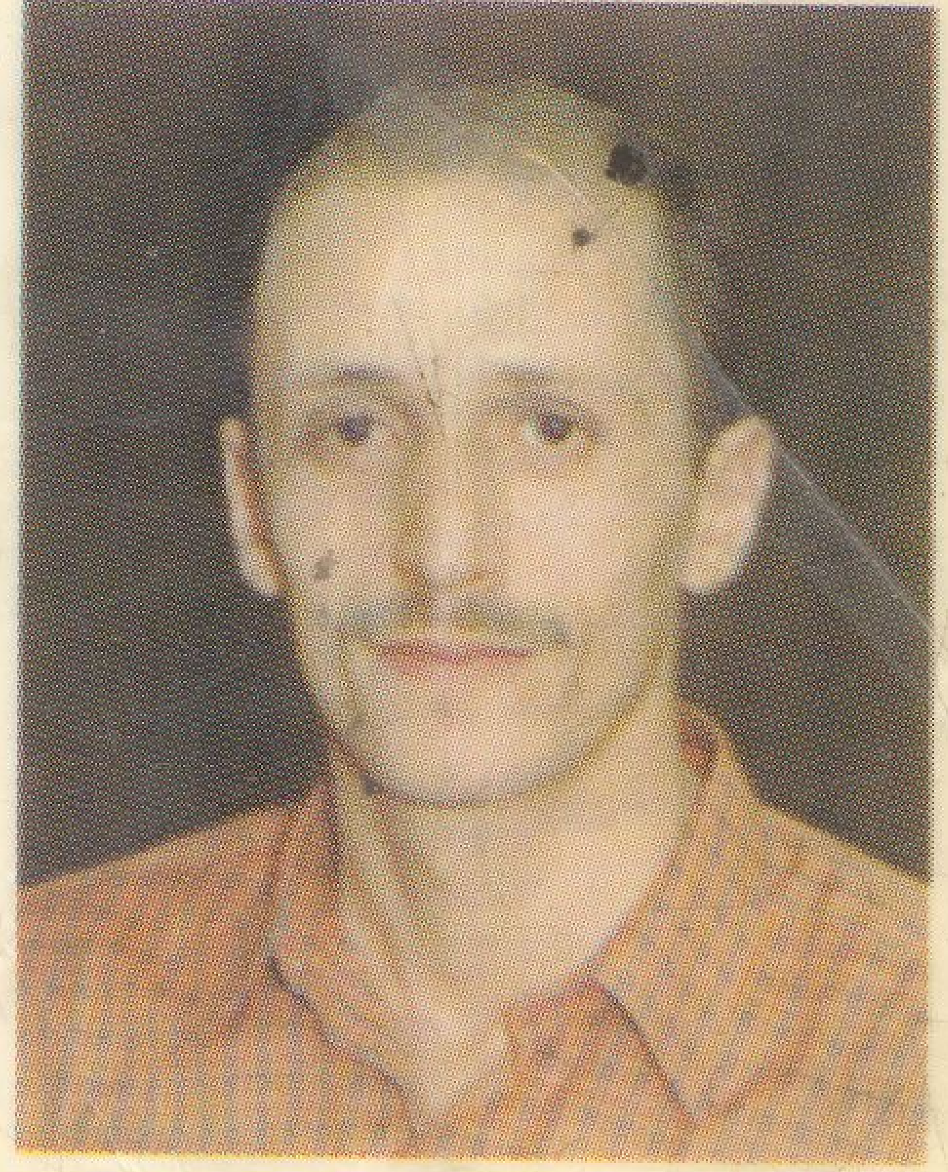
للاستاذ / فاروق سالم



رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٥/١٧٩٢

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 - 5 / 85 - 20 - 3

مطابع الأهرام بكورنيش النيل



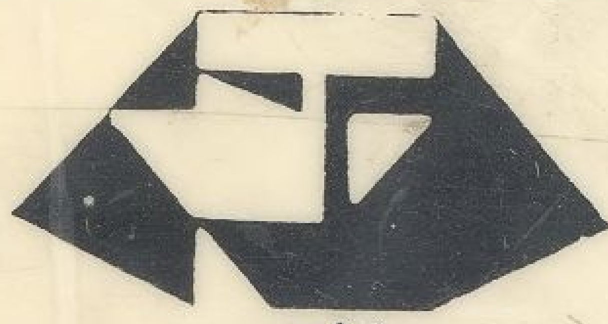
قراءة متأنية
داخل صفحات الكتاب

أنا لا أتهم مصر بالإنحلال .. فقط أخاف ان تتعرى وتسقط .. أخاف من انفجار جنسى مفزع ومخيف قد يأتى غداً أو بعد غد .. قد تكون هذه المخاوف موجعة وقاسية .. لكنها واقع علينا أن نحياه ونتأمله ونراجعه ونخاف منه .. واقع لن تعترف به نشرات الأعلام الرسمية المتفائلة دائماً ، ولن تنحاز إليه ملفات الأمن ومحاضر الشرطة ، ولن نجد صداه وصرخاته داخل أروقة الحكومة والبرلمان ... إنما لن يراه ويلمسه إلا كل من خرج إلى الشارع ويجيد قراءة دفاتر يوميات بيوت الغلابة والأغنياء ..

إن هذا الكتاب يدعونا لأن نخاف على أنفسنا من إنفجار جنسى ينتظرنا وراء كل باب بعد أن تحول الجنس فى حياتنا إلى أزمة ومشكلة وقنبلة منزوعة الفتيل .. وإذا كنا لا نعرف من الذى نزع الفتيل .. هل هى ثورة يوليو أم قسوة الهزيمة فى يونيو أم خطايا زمن الانفتاح أم سعى الرجال وراء الرزق على شواطىء الخليج .. فإننا لابد وأن نعرف أننا بدأنا ندفع ثمن كل ذلك .. فى القاهرة التى باتت مدينة مفتوحة يستبيحها الجميع سواء كان من أهلها أو من غرباء العرب والأجانب .. فى كل مدينة وقرية نسيناها حتى فوجئنا بها تصرخ من حوادث الاغتصاب وجرائم الزنا والدعارة .. فى أى حضانة أو مدرسة أو جامعة سقطت خلف جدرانها الأخلاق وغاب الأمان ...

وأخيراً فالكتاب لا يدين مصر .. ولكنه يدين بعض من أهلها الذين أحالوا الجنس إلى فوضى وسباق محموم يخوضه كل رجل ليثبت أنه أقوى من الآخرين .. وجائزة لا تمنحها المرأة إلا بعد أن تنال ثمنها حناناً أو حرية أو مالاً ...

من مقدمة الكتاب



أهرام بكورنيش النيل